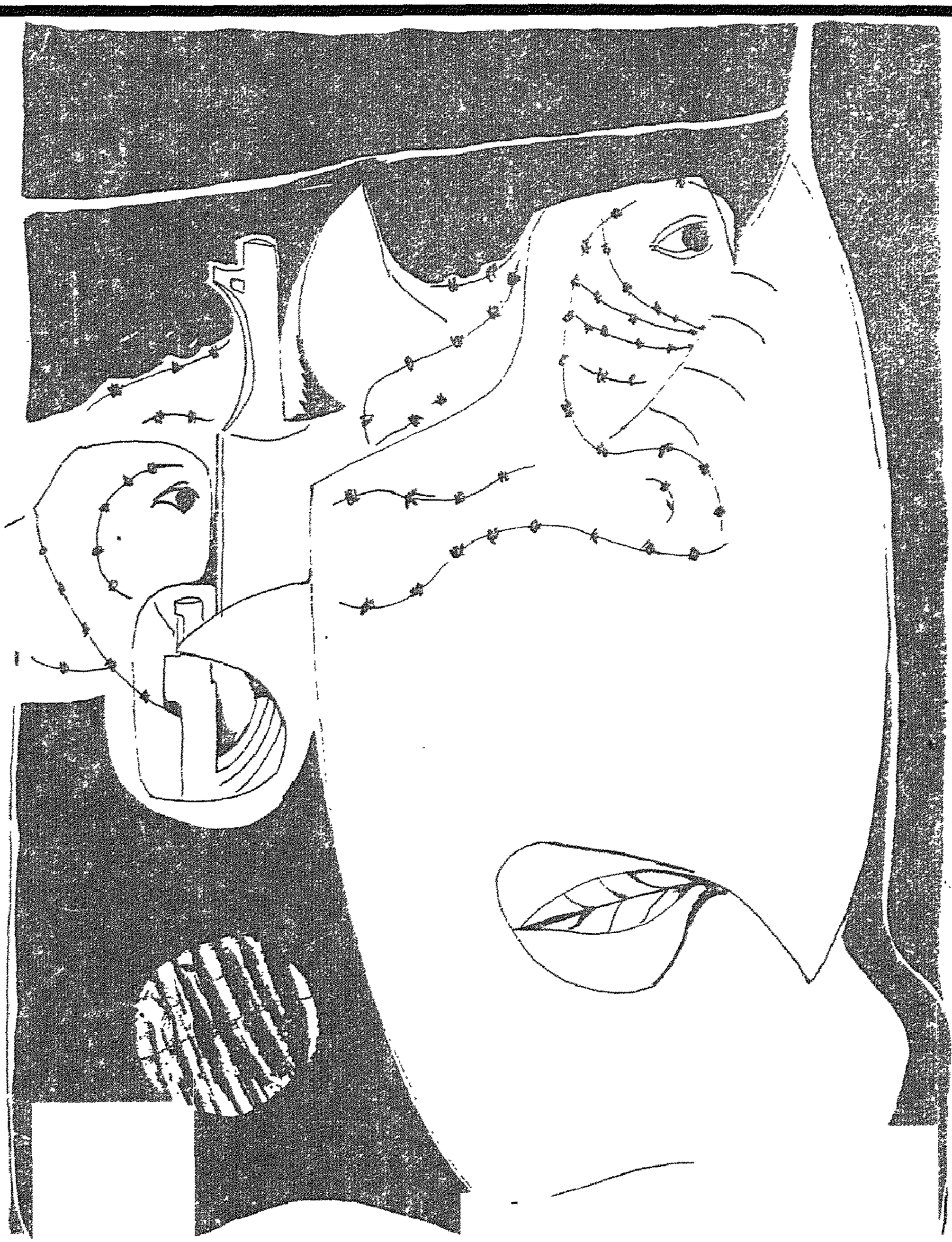
شؤون فلسطينية

٥٩

تموز ـ آب ـ ايلول
(يوليو ـ اغسطس ـ سبتمبر)
١٩٧٦



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٩ — تموز ـ آب ـ ايلول (يوليو ـ اغسطس ـ سبتمبر) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : عاشكر جورشيد .

Bibliotheca Alexandrina
General Organization (GUAL)

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص.ب ١٦٩١ . تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحات ، بيروت .

ثمن العدد : ٢/١ ٣ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٢/١ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة الفنانة
منى السعودي

صفحـــة ٣ ذاهبون الى الخامسة ، محمود درويش ·

٦ الطريق الى تل الزعتر ، هاني مندس ·

٣١ مدرسة الصمود والاقدام في تل الزعتر ، الدكتور نجيب ابو حيدر ·

٣٦ الازمة اللبنانية : افكار واقتراحات ، الدكتور كلوفيس مقصود ·

٤٤ التوازنات المسلحة : الحرب الاهلية والحرب الوطنية ، خالـد جابـر ·

٦٠ سياسة « الخطوة خطوة » في الشرق الاوسط (دراسة اميركيـــة لادوار شيهان) ميشيـل كامـل ·

٧٤ اميركا تجير حرب تشرين لخدمة مصالحها الاستراتيجية ، المقدم الهيثم الايوبي ·

٨٣ وانا الحب ··· وقلبي ميسلون ، سليم بركات ·

٨٦ ويندلع الزعتر ··· مي صايـغ ·

٨٩ أيام الارض ، الدكتور الياس شوفاني ·

٩٩ عودة العرب اليهود : المسألة والحل ، الدكتور اسعد عبد الرحمن ·

١١٠ دور الدستور اللبناني في تفجير الحرب الاهلية اللبنانية ، الدكتور خيرات البيضاوي ·

١٢٣ فلسفة الميثاق الوطني اللبناني : تأجيل للدخول في مرحلة الوطن ، مروان ناصر ·

١٣٣ هذا هو الدور الاميركي في لبنان ·

١٤٧ العلاقات بين اسرئيل ويهود اميركا ، يوسف حمدان ·

شؤون فلسطينيـــة

ذاهبون الى الخامسـة

في مستوى هذه اللحظة الفلسطينية ، لا يتقدم أحد الا بكامل عدة الرهان · كل شيء تهيأ للنهاية وللبداية معا · والحصـــار المضروب على هذه اللحظة الحاسمة هو الحصار الذي تضربه اللحظة الغامية ذاتها حول اعدائها الذين تدفقوا من ثقب التسوية ·

من سيارة الباص الشهيرة في عين الرمانة ··· الى سجـن الكلمات في الكويت ، تمتد سكة حديد واحدة المعلاقة ، في انتظار القطار الوهمي الذي أذن صفيره بميلاد الاعتذار العربي الرسمي عن ايام ، كان فيها الحلم الشعبي يخرج الى الشارع في صورة فلسطين وسنبلة قمح ·

وعلى مفترق الطرق الطويل ، تصل الحرب الاهلية العربيـة على ارض لبنان الى مستوى من الرهان يبدو فيه التراجع ، تراجع القتلة والشهداء على حد سواء ، اشد خطرا من الذهاب الكلي الى تحديد ملامح المستقبل القريب ·

ومهما قيل ، مهما قيل من التفاصيل ، فان هذا الصراع الطويل يدور حول هذه اللحظة الفلسطينية في علاقاتها وأبعادها · فالثورة الفلسطينية وحلفاؤها يريدون ان تتوهج اللحظة ، بداية لزمن عربي جديد تتغير فيه العلاقات الاجتماعية ، وتكون فيه الحياة العربيـة أكثر استعدادا لخوض الحرب الخامسة · فبدون هذا الصراع، بدون الاقتناع بحتمية خوض هذا الصراع،لن يكون بوسع العربي الانصراف الى البناء والتنمية وممارسة الحرية ·

من اجل وأد هذه اللحظة ، تخوض الاقليمية والانعزاليـــة

حربها التي بدت لها قابلة لتحقيق النصر ، باغراء ارتباط الامـــن الوطني لكل نظام عربي على حدة ، بامن العدو الاسرائيلي ، وهو الانجـــاز الاكثر اهمية الذي حققته ، حتـى الآن ، سياســـة « تحييد » اميركا ، والاعتراف غير المشروط بامتلاكها كل مفاتيح الحلـــول ·

وبدون مساومة ذكية ، وفي مناخ عودة الانظمة الى اصدافها ، وفي شهية بحث كل طرف عن النجاة بجلده ، تعمق الميل الى تلافـي الصراع مع العدو الرئيسي ، ونـــامت على خطوط وقف النـــار محاذير ارتباط الامن القومي العربي المفكك الى حلقات بامن العدو الاسرائيلي الذي احتفل ، ولا يزال يحتفل ، بحرب الجبهات العربية مع بعضها البعض ، ويتحول شعار التضامن العربي الرسمي الـى مفردات خطابية لا تنطوي الا على فاعلية واحـدة : واد اللحظـــة الفلسطينية ، بعلاقاتها الجماهيرية ، تمهيدا لوصول القطار الوهمي الذي يبشر بتسوية غامضة ·

قال الكثيرون : ان الحرب في لبنان هي حـــرب التسويـــة الاميركية التي ياخذ اسم « المملكة العربية المتحدة » احد اشكالها ، وحين طالت الحرب ، بفضل صمود الثورة والحركة الوطنية ، لم يقل غير الاميركيين والاسرائيليين ان هذه الحرب الطويلـــة قد عرقلت عملية التسوية ·

ان ما يعنينا في هذه الملاحظة الايحائية هو القول ان بوســـع اللحظة الفلسطينية المعبرة عما تحمله الجماهير الشعبية العربية من اجنة ثورية ان تصمد فتشع فتحدد ملامح المستقبل القريب والبعيـــد لهذا الوطن الكبير ·

كانت اللحظة زينة ، ومتطلبات خطاب ، حين كانت انظمـــة عربية ، بعد هزيمة حزيران ، في حاجة الى استرداد كرامة جرحت · وكانت اللحظة ذاتها اغنية قومية تبدو ، للوهلة الاولى ، انها لا تشكل ازعاجا لعلاقة اجتماعية · وكـان يبـدو للمصفقين العـرب الرسميين ان هنالك فارقا كبيرا بين فلسطين ـ القضية التي تزين كل خطاب ، وبين فلسطين ـ الثورة التي تخترق البناء الداخلي· وحين اعترفوا بوحدة القضية والشعـب والثورة باعلانهم ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني ، كانت عيونهم معلقة على الفصل بين القضية والثورة·

واكتشفوا ، الان ، في محاولات واد اللحظة الفلسطينيـــة الحاسمة في ارض لبنان ، وفي دفاع الثورة عن شرعيتها واستقلالها ،

ان فلسطين لم تعد للزينة · وكشفوا لنا طريقة لتذكيرهـم بان الاغلبية الساحقة من الانظمة العربية ، ومنذ ربع قرن ، لم تكسب شرعيتها الا من فلسطين · باسمها جاءوا الى الحكم ، وباسمها ابتزوا «نعم» من الاستفتاءات الشعبية · ولكن ، لن يكون بوسعهم ان يقتلوا ، باسمها ، جسمها · ولن يكون بوسعهم ان يقودوا الناس الىالسلام مع اعداء الوطن وسنبلة القمح ·

الى أين ··· الى أين ؟ ان بذور الحرب الاهليـة العربيـة في لبنان تقول لنا ان العرب عربان · وان اللحظة الفلسطينية الحاسمة لا يتقدم منها أحد الا بكامل الرهان · فاما انه يقترب منها لاطفائها ، ليعرقل فاعلية علاقاتهـا بارادة الجماهـير الطامحـة الى التغيير، واما لاشعالها لتكون بداية زمن عربي جديد ·

وفلسطين أيضا تعرف ، وكم هي تعرف ان انصخرة في القدس لم تعد توحد دموع العرب ، وخاصة بعد حرب تشرين · لان الحكام العرب الكثيرين ، الخارجين من اول مشروع انتصار قـد كرسـوا كل اهتمامهم والكثير من سلاحهم ليبرهنوا لاميركا على انهم اكثـر جدوى وأوفر ثروة من حبيبتها التقليدية ـ اسرائيـل · وبرهنـوا لنا على ان العباءة الغنية التي احتاجت ، من حزيران حتى تشريـن الى كوفية فلسطينية لتغطي جرح الكرامة ، وتأخذ فائض الكاز والدم قد اصبحت في غنى عن هذا الزي الفلسطيني الفولكلوري ، لانـه يحتوي على اللحظة الفلسطينية الحاسمة ·

وفي مستوى هذه اللحظة لا يتقدم احد ، الان ، الا بكامـل عدة الرهان · وحين تأتي الحرب الخامسة ، وهي آتية في مواجهـة شروط جديدة مضافة الى اصول الصراع القديمة ، سيكتشف الذين يتصدون لهذه اللحظة الفلسطينية لاطفائها ، امليـن بذلك تلافي حتمية الحرب الوطنية ، انهم قد تنازلوا عن الكثير من مصادر قوتهـم ، وعن مظاهر هذه القوة واختاروا الجلوس في عراء التسوية التي لم تقدم لهم لا ارضا محتلة ولا طاقة عنى الضغط ، ولا تعمير وطن او صدفـة !

وفي صلب هذه اللحظـة المتوهجـة بعرق الكادحيـن العرب وصبرهم الطويل واحلامهم الواسعة ، تتهيأ عملية الذهاب الى اكثر الاحلام واقعية ورشاقة في هذا الزمان : فلسطين · في تحويـل هـذه اللحظة الى زمن عربي جديد يتم بناء شروط النصر الشعبي فـي الحرب الخامسة ·

محمود درويش

الطريق الى تل الزعتر !

هاني مندس

الدمار والموت والدماء ، الجـــوع والعطش والخوف ، الصمود والبطولة والشجاعة ، المأساة والعظمة ، الرهبة والحزن والفرح ، القلق المضني وصبر الفلاحين في قرى الجليل وسهل الحولة، الاسئلة المتزاحمة والشكوك والترقـب والاصرار .. كل المزيج المعقد مـن الخواطر والمشاعر الانسانية المتضاربة في لحظة باتت فيها الحيـاة او الموت محض صدفة .. العنفوان والوطـن والروح الكفاحية العالية لشعب عظيم .. الانتصار والهزيمة .. مشاهد حية من فلسطين ١٩٤٨ ، من عمان ١٩٧٠ .. لكن يقظة النار والجرح والتحدي الفولاذي ! .. كلها تجمعت ، ودفعـة واحدة ، في بقعة صغيرة جدا :

تل الزعـتر !

اية كلمات معبرة حين اختزلتيـامخيم تل الزعتر كل مشاعر وقيـم الانسانية والحياة .. والتراث النضالي الطويل لشعب مكافح صغير ؟ الكلمات تلهث وراء تفاصيلك .. واخبارك . .وانت واقف بمهابة وشمـوخ فوق انقاضك . .منهمك في اعمالـك ..نطاردك لكي نلحق بك ، لنكون بعض مستواك . لكنك تهملنا بقسوة، فنشعر بالانهاك والحرج والذنب .. كاننا لـم نتعودك .. وكأنك تسخر منا ! فمهمـانفعل هنا ، لسنا في مستواك.. ما دمنا لم نستطع الوصول اليك .. !

ما يقارب ستين الف قذيفة ، خـلال ثلاثة وخمسين يوما ، وفي اليوم الاول للهجـوم الفاشـي تساقـط ما يزيـد عن ثمانية الاف قذيفة دفعة واحدة .. آلاف الجرحى وحوالي ٣ آلاف شهيد ،والجوع والعطش يحصد اطفالـك ، والماء الممزوج بالدماء ما طعمه يا تل الزعتر ؟

ما رقم الهجوم الاخير ؟ ١٦ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٧٠ ؟ ما علاقة علم الحساب المدرسي بعلم الحسـاب السياسي يا تل الزعتر ؟ ! انك تجيـد الاجابة تماما .. لقد علمتنا ان علـم السياسة ، علم الثورة ، يبدأ من تعلـم الحساب السياسـي ! .. التلاميذ يجمعون اعداد البرتقال والتفاح ، اما

ثوارك وسكانك واطفالك فهم يجمعون القذائف والشهداء والجرحى ، يجمعون دماءهم مع المياه ويشربونها !

فاجأ صمودك الاصدقاء قبل الاعداء،كما يفاجيء ، دائمـــا ، الشعـــب الفلسطيني ، بروحه الكفاحية العالية،جميع الاعداء وضيقي الافق .

لقد تجاوزتنا وتفوقت علينا ، اقتحمت ترددنا واربكتنا .. ارتحل اسمك ، ضاق ذرعا بنا وبحساباتنا الدكاكينية ، وانتقل في ارجاء العواصم والمدن ، يهز الضمائر ويلهـم الثوار والمناضليـن ، يصـدر البيانات ويعقد المؤتمرات ويقـــود مظاهرات التاييد . اسمك ضاق بتلته الصغيرة المهدمة المحترقة ، انه يرتفع الان ، فوق ساحة نابلس الرئيسية وفي شوارع القدس ورام الله ، يراه العدو الصهيوني في عيون المتظاهرين شـــرراورصاصا وعزيمة .. فيرتعب الحكـام العرب ، يقفلون الحدود ، يضعـــون الحواجز يفتشون عـــنه في العيون والقلوب ، يسيرون دوريـــات الامن والمخبرين في شوارع دمشق وعـــمان والقاهرة و .. وتل الزعتر نار وحقدوشعب وثورة ..

احترقـــت ... ودمرت كل منازلـــك الهشـــة ولكن على اخشاب ابوابـــك وشبابيكك المنخورة واثاث مساكنـــك التنكية المحترقة اوقدت النسوة النـــار ليسلقن العدس ويسقين ماءه للاطفال بدل الحليب .. ومع هذا يصرخ اطفالك من الجوع والعطش والالم ، وكأنـــهم يستنكرون تأجيل موتهم !..

لقد سمعت صراخ اطفالك ، ولـــن انساها ، (بعد ان استطاع عـــدد منهم الوصول ، في البداية ، عن طريق بعثة الصليب الاحمر) ، صرخات الـــم بكاء لم اسمع مثلها ، قط ، قبل اليوم .صرخات بشر تحملوا ما يـــفوق طاقة البشر من قدرة على احتـــمال الجوع والعطش والعذاب والمـــوت البطيء ، فتحولت الى صرخات غير بشرية .. بل الى صرخات احتجاج للانتماء الى مثل هذه الانسانية ؟ ام هي ، ترى ،صرخات ما قبل العودة الى حيفا وقرى الجليل، صرخات ذلك الفرح المكتوم ، وقـــد انطلقت مبكرة ، قبل الاوان ، من تـــل الزعتر ؟ !

(لقد ذكر اطباء واهالي تل الزعتر انه،خلال خمسة ايام فقط مـــن الاسبوع الاخير ، مات ٦٠ طفلاً من الجـــوع والعطش وحالات الجفاف في المخيم ،كما مات عدد من الاطفال الذين وصلوا مع بعثة الصليب الاحمر ، اذ لم يجد العلاج المتأخر معهم نفعا !)

« كل اطفال تل الزعتر مصابـــون بالجفاف » :

علميا ، «بالنسبة للجفاف ، هـــذه الحالة ناتجة عن نقصان في الماء والغذاء وهي لا تقتصر على الاطفال ، بـــل ويصاب بها الكبار ايضا ، الا ان قـــدرة الاطفال على تحمل الجوع والعطش اقل بكثير من قدرة الكبار . لذا فانها تظهر بين الاطفال بصورة اسرع ، وحـــالات الجفاف المصاب به الاطفال من جرحى

تل الزعتر كبيرة جدا **ومخيفة** ، اذ تدل التقارير الرسمية على ان اكثر مـــن **٨٠ بالمئة من الاطفال مصابون بالجفاف وان ٢٠ بالمئة الباقين مصابون بجفاف الى حد بسيط** ، اضافة الى اصابات اخرى ، وهؤلاء حالتهم اسوأ من حالة اخوانهم الاطفال السابقين » !

« .. اذا استمر نقصان الغـــذاء فالنتيجة تكون الموت فورا ، ذلـــك ان حالة من عدم الاتزان تقع في خلايـــا الجسم بما فيها العصبية وغير العصبية واول تأثيرهما يكـــون في الكلـــى التي تتوقف عن الافراز ، وبالتالي تـــزداد البولينا بالدم التي تؤدي الى فقـــدان المريض لحياته بالتأكيد ، واعتـــقد ان غالبية الاطفال الموجودين ، حاليا ، في مخيم تل الزعتر مصابون بالجـــفاف . وذلك ليس لنقصان الماء والغذاء ، بـــل لفقدانه في كثير من الحالات ، ولدينـــا التقارير التي تفيد ان الكثير جدا منهم يموت يوميا وحتى الاطفال الذين نعالجهم هنا ، ايضـا ، فان هناك حالات كثيـــرة ميؤوس منها . ومع ذلك فان المحاولات تجري لانقاذهم رغم نقصان العـــلاج اللازم لهم . كما ان هناك حالات مـــن الجفاف من غير المستطاع علاجها ، علما ان عددا من الاطفال قضى نحبه بيـــن ايدينا نتيجة خطورة اصابتـــه وتأخـــره في الوصول الينا » .

(د. عبد الله ابو حسان مدير مستشفـــى الطوارىء في جامعة بيروت العربية ، مقابلة مع وكالة « وفا » ٩ــ٨ــ٧٦ ، انظر ايضا ، الصحف ١٠ــ٨ــ٧٦) .

« الشيء **المخيف** فعلا هـــو وضع الاطفال الاثنين والعشرين الذين وصلوا الى المستشفيات والذين لم تتجـــاوز اعمارهم الثلاث سنوات لان نصفهـــم على الاقل سيموت ، فهم مصابـــون بجروح بليغة من جـــراء القصـــف «وبالنشفان» بسبب الجوع والعطش . »

(نفس المرجع السابق)

علميا عرفت السبب .. ولكنني لا استطيع ان انسى صراخ اطفالك يـــا تل الزعتر وهم بين الموت والحياة ، وفي حالة من النشفان ! علميا عرفت ، ايضا ، ما يفعله الفاشيون .. وما نتائج التردد .

« غذاء الاطفال هو ماء العـــدس المجروش او ماء الرز في حال توفره » .

(فاطمة نايطة ، حديث خاص مع جرحى تل الزعتر اجرته مجلة « شؤون فلسطينية » .

« كانوا يجرشون العدس ويغلونـــه ويسقون ماءه للاطفال .. مات ما لا يقل عن ١٠٠ طفل وانسان بسبـــب الجوع والعطش وسوء التغذية » .

(موفق عبد الحليم ، حديث خاص مع جرحى .. الخ ..)

شهادات حية عن صمود تل الزعتر من الداخل :

الوضع التمويني :

« كله عدس بعدس ، ما في شيء ، خبز ما في ، مي ما في ، في هالشهريـــن تضايقنا كتير كتير .. لا غاز ولا كاز ولا فحم .. كله على الحطب ، حطـــب البيوت المهدمة » .

(حمدة محسن ، حديث خاص ..)

« كان في المخيم مستودع للعدس (مستودع غزة) ، الشعب خلمهوتمون منه ولولا العدس لمتنا جوع ، الصبح عدس والظهر عدس والمساء عدس ».
(بشرى عادل ، حديث خاص ..)

« بالنسبة للتموين ، انا منذ شهر ،على سبيل المثال ، لا يوجد في بيتي ذرة طحين واحدة ، يوجد عندي بعض العدس وحوالي اثنين كيلو من الرز . اعتقد ان الناس لا يستطيعون ان يصمدوا اكثر من عشرة ايام بدون مدهم بالتموين والماء . لم يعد هناك دكاكين ولا حوانيت للبيع والشراء . **والفلوس انعدمت قيمتها الشرائية نهائيا**" . (عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

ماساة المياه :

« انصبت اليوم بكتفي واحنا رايحين على المية ، كثير نسوان وناس بينصابوا وبينجرحوا وبيموتوا على المي كل يوم» (حمدة محسن ، حديث خاص ..)

« كانت الام تودع اولادها قبل الذهاب الى مكان وجود الماعلتاتي ببعض القطرات منه ، لانها كانت تعتقد بانها قد تموت قبل ان تجلب منه ما يروي ظمأهم ، وذلك بسبب كثافة القذائف التي تتساقط على مكان وجود بئر الماء » . (احمد خضر ، المحرر ، ١٣-٨-٧٦)

« كانوا يخلوا الاهالي يقربوا تيعبوا المي ويبلشوا يرشوا او يرموا القذائف عليهم .. ليس اقل من ٢٠٠ شخص معظمهم نساء واولاد استشهدوا وهم عم بيعبوا مي » . (فاطمة فرج سعيد حديث خاص ..)

« كان هناك مصدر وحيد للمياه قرب مواقع الفاشيين وكان عدد شهداء وجرحى تعباية المي لا يقل عن ١٠ او ١٥ شخصا يوميا .. الماء للشرب فقط، وليس لغسل حتى الوجه ، فقط للشرب .. كانت تنكة المي بتنكة دم » .
(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

« القضية الاساسية هي قضية الماء، **وقضية الحصول على الماء اصبحت رمزا لصمود سكان تل الزعتر** ، مركز الميام الوحيد كان يقع تحت مرمى نيران الفاشيين . رايت بعيني الناس تتجه طوابير نحو مركز المياه والرشاشات مسلطة عليهم وتحصد وتجرح عددا منهم .. ومع ذلك كانوا يستمرون ولا يتراجعون للحصول على المياه . كانت الاصابات في سبيل الحصول على المياه بمعدل ١٠ و١٢ اصابة واحيانا تصل الى ٣٠ اصابة في اليوم .. **الماء بات يعني الاستمرار والحياة والصمود** . مسألة فقدان المياه اثرت على الاطفال من جميع النواحي ، من حيث النظافة والامراض والتغذية .

رايت امراة اصيبت اصابة بالغة في يدها بينما هي تملأ تنكتها ولكنها لم تتراجع ، انتظرت حتى امتلأت التنكة فاحضرتها معها وهي ترفع يدها عاليا، وقد عالجتها وكانت اصابتها غير بسيطة » .

(د. يوسف العراقي ، طبيب الهلال الاحمر الفلسطيني في تل الزعتر من وقائع المؤتمر الصحفي يوم الجمعة ١٢-٨-١٩٧٦ ، حضور شخصي).

« اكثر الجرحى المدنيين سقطوا شهداء من اجل تامين المياه لاطفالهم ، اذكر ، مثلا ، ان عائلة فنيت بكاملها ، وعائلة اخرى ارسلت احدى بناتها لتعبئة المياه فقتلت ، فعادت وارسلت البنت الثانية فقتلت ، ايضا ، وفي اليوم الثاني ارسلت البنت الثالثة فقتلت كذلك » .

(د. عبد العزيز اللبدي ، طبيب الهلال الاحمر الفلسطيني في تل الزعتر ، نفس المصدر السابق).

« ربات البيوت كن يقضين ٢٤ ساعة في انتظار دورهن في الحصول على كميات قليلة من الماء ، وقد يترتب عليهن حتى النوم في صفوف الانتظار خلال الليل ، وكان يصاب او يقتل مايتراوح بين ٢٠ و٢٥ شخصا وهم يبحثون عن الماء » .

(هيلينا توبان مراسلة وكالة رويتر ، الصحف ١٢-٨-٧٦)

كان هناك ملجأ غير صالح للاستعمال داخل المخيم تسربت اليه مياه الشتاء واختلطت بالاوساخ . الاهالي شربوا واستخدموا كل بقايا مياه الشتاء الملوثة والموحلة التي وجدوها في هذا الملجأ .

المخيم تهدم تماما :

« المخيم تهدم بنسبة مئة بالمئة . في اليوم الاول من الهجوم الوحشي الفاشي البربري على المخيم ، بلغ عدد القذائف التي تساقطت بمعدل ١٦ قذيفة في الدقيقة الواحدة ، بدأ القصف في الساعة الخامسة صباحا في ٢٢ حزيران وانتهى في الساعة العاشرة ليلا دون انقطاع . وانت تعرف ان معظم بيوت المخيم مؤلفة من التنك والزينكو وحجارة الباطون التي لا ترتكز على عواميد . وهكذا تهدمت او تصدعت غالبية المساكن منذ اليوم الاول . وقد استخدم الفاشيون المدفعية المباشرة من مدفعية الهاوزر ومدفعية الملالات ١٠٥ لتهديم البيوت والبنايات المحيطة بالمخيم حتى يتاح لهم السيطرة بالنيران على كل زقاق وشارع وموقع في المخيم وممارسة قنص المواطنين . وقد اصيب واستشهد الكثير من الناس عن طريق القنص الجبان » .

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

كيف انهار الملجا ؟ :

بعد ان اشتعلت المواد البلاستيكية في معمل بوتاجي واحترق تماما ، على اثر قصفه بالقذائف الفوسفورية الحارقة ، تصدعت جدران المبنى المجاور له والمؤلف من خمس طوابق . الا ان الفاشيين « قصفوا هذا المبنى بالمدفعية المباشرة ، وبشكل مركز ، فتصدع وانهار وتهدم سقف الملجأ الذي

كان فيه واغلق بابه . وبعد انهـــياره نصبت القوى الفاشية رشاشات ٥٠٠ من عدة محاور ، بالاضافة الى قصف المساحة المحيطة بالملجأ بقذائف الهاون، وذلك بهدف منع اية محاولة لانقـــاذ الناس . وقد مات في هذا الملجأ ما لا يقل عن ٣٥٠ شخصا .. كلهم مـــن الاطفال والنساء والشيوخ » .

(المصدر السابق)

فاطمة تروي مجزرة الملجأين :

كان وجه فاطمة فرج سعيد ، وهي تـروي ما حـدث ، يفيض بالطيبـــة والعذوبة والحزن ، كانت تستلقي على سريرها في مستشفى الجامعة العربية وهي تغالب الالم المنبعث من اصابـة ساقها .. كانت فلسطينية الملامـــح والتعبير ، تتحدث ببساطة وطلاقـــة مذهلة . كان وعيها اكبر من سنهـا بكثير .

انطلقت الكلمات من عينيها ووجهها وقلبهـــا وفمهـــا دفعـة واحـدة وبهدوء وطيبة : « احنا تعجبنا وانقهرنا كثير كيف ما ذاعـــوا بالثورة عـــن هالحادثة مثل ما صارت . بدي اسألك اذا الواحد حكي بصراحة ممـكن يضر الثورة ؟ في هناك غير حادث الملجأ اللي انهار على الناس اللي فيه . في ملجا محمد عباس كان فيـــه حوالـي ٧٥ شخص . وفي جنبه ملجأ ثاني فيـــه نفس العدد تقريبا بمنطقة جاليري متى محل ما احنا ساكنين هناك ، صار في معركة قوية وتسللوا الكتائب من الدير (دير الراعي الصالح) الى الملجأين . دخلوا وقتلوا كل النسوان والاطفـــال والرجال الكبار في السـن . قتلوا عمي ومرته وبنات عمي الثلاثة .. وقتلوا كمان بنت عمي وهي بتـــكون بنفس الوقت زوجة خالي واولادها الاربعـــة اللي كانوا معها (ثلاث بنات وصبي). وفي عيلة ابو شاكيم راحوا اولادهـــم كلهم .. بقولوا كانوا عشرة انفـــس . وقتلوا ابن خالتها لامي وكانوا ثمانيـــة انفس .. كمان قتلوهم كلهـــم : وفي واحد غزاوي وزوجته مصرية ، وعيلة مصرية ست وزوجها وكان معهم طفل صغير عمره ٨ اشهر وبنـــت عمرهـــا سنتين ، كلهم قتلوهم . كل اللـــي قتلوهم اطفال صغار ونسوان ورجال كبار وبعد ما قتلوهم ضربوهم بالبلطات وشلحوهم ، وهم ميتين ، الذهـــب والعقـــود والمصـــاري والساعـــات والخواتم .

نصور انو احنا ، قبل بيوم واحـــد بس كنا في نفس الملجأ اللي دخلوا عليه. نقلنا انا وامي واخواتي مع عائلة ثانية كمان ، لفوق على راس الدكوانة ، قبل بيوم واحد بس !

لما كنا في هالملجأ كانت الصواريـــخ والقنابل تتساقط عليه وعلـــى البنايات اللي جنبه . بشرفي انا وهاي المرا ، اللي قتلوها مع الناس الثانية ، فـــي الملجأ . اسمها انعام .. كنت اقلها : يا انعام عيري الساعة تنشوف . تعير ساعتها ونعد انا واياهـــا ٨ او ١٠ صواريخ او قذائف في الدقيقة الواحدة .. هدول اللي نعرف نعدهم . هيـــك الحالة كانت من الصبح لليل وخاصة في الاول .. في الايام اللي كانوا يهجمـــوا فيها .

بعدما انسحبوا الكتائب وعملوا عملتهم السوداء المجرمة هادي في الملجأين ، دخل ناس كثير وشافوا اللي حصل للاهالي . انا بايدي عديت سبعين جثة مقتولة ومضروبة بالبلطات شو بدي اقول لك ؟ في من قرايبنا لحالهم بس . من عيلة قدورة ، حوالي ٤٠ شخص قتلوهم .

الحقيقة هادي الحادثة البشعة خلتنا نتشجع كثير ونعرف انو ما في النا امل غير بالصمود ومهما كان الامر. احسن نموت بشرف ومعنوياتنا عالية . اخوي بعد هالحادثة ، وهو عمره ما حمل بارودة .. تمرن على السلاح في الملجأ وصار يقاتل مع اخوانه . امي تخانقت معه شوي في الاول . قالها : يما اذا ما قاتلتش انا لادافع عنكو وعن اهلي واهل المخيم أيمتى راح اقاتل) ؟

(فاطمة فرج سعيد ، حديث خاص ..)

لماذا قتلوا الياس الداموري ؟

التمعت عينا فاطمة ببريق من الحزن والالم والحقد ، وتابعت انسيابها :

« احنا زي ما خبرتك كنا ساكنين جنب جاليري متى . وكان في ناس جيراننا مسيحية يجيبوا لنا كل شيء.. طحين وحليب وتموين ، قبل ما يهجموا الكتائب ويحاصروا المخيم . ياحرام هدول الناس لما اجوا الكتائب قوصوا كثير منهم واخذوا الباقين معهم .

وكمان قتلوا ناس لبنانية من اهل شحيم كانوا ساكنين جنبنا . وفي قصة واحد جارنا مسكين اسمه الياس الداموري ، لبناني من الدامور ، كان يجيب وينقل الجرحى لمستشفى الهلال الاحمر الفلسطيني ، كان بيتشغل على سيارة خالي . مسكين كان خدوم كثير يقدم حاله للخدمة دايما وينقل الجرحى. كانوا الكتائب يبعتولوا كلام ويقولوا له : لازم توقف وتحارب معنا وتقوص على الفلسطينية . ما رضي. ولما اجو لهناك على جاليري متى قوصوه وقتلوه .. لاقينا جثته قدام الجاليري ، بعدما قدروا يتسللوا ويهجموا على الملجأين اللي خبرتك عنهن . حرام مات الياس الداموري ، زعلنا عليه كثير .. لاقوه جنب بيتنا وراء الملجأ مقتول ومتكمش بمخدة من الخوف . منيح اللي احنا هربنا قبل بيوم من المنطقة (منطقة جاليري متى) وطلعنا من الملجأ اللي قتلوا الناس فيه » .

(نفس المصدر السابق)

صمود الاهالي :

« عايشين في الملاجيء ، ما منقدر نطلع لبرة من القذائف الا للضروري الضروري .. لا اكل ، ولامي كافي ، لاضو ولا كهرباء .. على العتمة ».

(صفية مليطة ، حديث خاص ..)

« والله بدك للحقيقة **يعني اكثر من هيك مافش صمود** . شو في اكثر من هيك ؟ بالدقيقة الواحدة ٨ او ١٠ قذائف هدول اللي نعرف نعدهم واحنا في الملجأ .

مهما انكسرنا منبقى منتصرين ...كنا نقضي طول النهار في الملاجيء مـــا نقدرش نتحرك من القذائف .. وناس كتير يموتوا على المي كل يوم ..

ولما كانوا يقولوا لنا راح ييجـــوا الفدائية تيفتحوا الطريق للزعتر ، نمزك ونكيف .. كتير نكيف . .ونتشـجـــــع بزيادة.. بس نرجع نلاقي انو ما صار شـي من هالحكي .. نتضـايق كتير ..ونقول ليش بعدهم ما فتحوا الطريق ؟ مش عارفين شو عم بصير فينا هون ؟» ..

« بس ما يفوتـــوا ويكســـروا معنوياتنا » :

« الحقيقة الانسان على كل شـــيء بيقدر يصمد .. يعني فواكه مـــــا نشوف .. خضرا ما نشوف ، خبز مانشوف . ونقول : يا رب ما ننكسر ، يا رب ما يفوتوا علينا الكتائب والاحرار.ما بدناش نأكل ولا بدنا اشـــي .. الا الشـــيء الضروري الضروري .. بس ما يفوتوا ويكسروا معنوياتنا .. ولا نشوف وجوههم الكالحة .. بدنا تضل معنوياتنا مرتفعة . الحمد لله في بعـد شباب مسلحين كتيـــر ، وفي ميليشيا كتير ، واللي عمروا ما حمـــل سلاح تدرب وحمل سلاح وعم يقاتل . وبرجع بقول : يا رب ، يا رب بس الله ينصرنا **.. وما يفوتوا على الزعتر حتى ولـــومتنا كلنا** . ما بدنا لا اكل ولا شرب ولا اي شيء .. كانـــوا النسوان والبنات في اللجأ يحكوا عن الطبيخ والاكل .. كنت اقولهن : والله العظيم انا مـــــا بنفسي شيء .. لا اكل ولا شرب ولا خضرة ولا طبيخ ولا اي شيء .. بس ما نشوف وجوههم (اي الفاشيين) . والحقيقة كل الناس بترجع وبتقول : احنا مستعدين نتحمل كل شيء ..بس ما نشوف وجوههم ، يعني كل شـــيء بنصبر عليه .. بس ما يفوتوا علينـــا ويكسروا معنوياتنا . لحد اسا هـــــم مقهورين منا كتير .. وبعدنا منتصرين عليهم . امبارح في المستوصف قبـــل ما نيجي لهون مع بعثة الصليب الاحمر سمعنا جماعتنا عم بقولوا بدنا نقصفهم في المدرسة (الكتائب والاحرار الذين في مدرسة الراعي الصالح) في الساعة كذا وكذا .. شو انبسطنا ! منبسط احنا كتير لما نسمع انو جماعتنا بدهم يقصفوهم .. هم جبنا ، جبنا كتير ، بس **لولا سوريا** .. بالاول كانـــوا يعووا زي الكلاب .. كلهم هربوا من كل المنطقة .. كنت تلاقي التلال .. القلعة ، المكلس لحد المنصورية .. كلها مع الفدائية .

وفي فدائية كانوا يقولوا لنا في جنود سورين عم يقاتلوا مع الكتائب . كنا في الاول صامدين كثير كثير وبعدين ،بعدما دخلت سوريا ، بلشوا يحتلوا شوى شوى .. احتلوا جسر الباشا والقلعة والمكلس ووصلوا للمدرسة (مدرسة الراعي الصالح) » (فاطمة فرج سعيد ، حديث خاص ..)

مشاركة البنات والنساء :

« كانت البنات والنسوان تشارك في كل شيء .. ينقلوا جرحى ، يطبخوا عدس ، يعبوا مي ، ويقاتلوا . في كتير بنات ونسوان كانوا يقاتلوا ، في واحدة فدائية من عنا بقولوا لها « ابو علي »جابت اسرى من معمل الجرفي (للبوظة) في المكلس » . (المصدر السابق)

« عدد كبير من البنات والنســـوان كانوا يشاركوا في المخيم . وفي منهـــن بالمئات .. كانوا على المحاور يشاركوا في القتال . وفي بنات على الحراسات .. زيهم زي الشباب .. وفي عـــــدد استشـهد منهن في القتال ».

(بشرى عادل ، حديث خاص)

« جميلة خلف تحولت من ممرضة الى مقاتلة واستشهدت في دير الراعي الصالح وهي تقاتل .. وكذلك بـــدر قدورة تحولت من ممرضة الى مقاتـــلة وكانت تستبسل في كل المعارك » . (عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

دور الاطباء والممرضين بدون دواء ولا تجهيزات :

« كل جريح شهيد حتما نتيجة فقدان الدواء وضعف وسائل المعالجة » .

(سليم مصطفى ، حديث خاص ..)

الاطباء لم يتجاوز عددهم الاربعـــة الدكتور عبد العزيز اللبدي ، والدكتور يوسف العراقي وطبيبان سويديان . « بلغ عدد الجرحى الذين استقبلناهم خلال ٥٣ يوما حوالي ثلاثة الاف جريح اضطررنا الى نقل المستشفى بعد ان اصبح غير صالح ومسيطر على كافـــة مداخله بالنيران ، وتوزيعه الـــى ١٤ نقطة اسعاف في مختلف الاماكن السكنية كنا ننتقل من نقطة الى اخرى تحـــت وطأة القصف والنيران لانقاذ الجرحى. دمروا مستودع الادوية بقذائفـــهم . استخدمـــنا الشراشف والقمصـــــان وقماش الديولين بدل الشاش . كنـــا نستعمل ، فقط ، الماء مع الملح لمعالجة الجروح . واتبعنا الطريقة الامريكيـــة لمعالجة الجروح بابقائها مفتوحة .جرح معظم المرضين والممرضات اثناء تادية عملهم واستشهدت ممرضة ، وكانوا جميعـــا يتبرعون بالدم . كنـــا نعالـــج مختلف الجروح بالمـــــــاء والملح ،والاصابات التي في المعدة والراس كان يموت اصحابها بسبب عدم وجـــــود ادوية ولا غرفة عمليات صالحـــة ولا ادوات تعقيم » .

(د. عبد العزيز اللبدي ، د. يوسف العراقي، طبيبا الهلال الاحمر الفلسطيني ، مـــن وقائـــع المؤتمر الصحفي .. ١٢ــ٨ــ١٩٧٦)

« مهما عملنا لا نستطيع ان نكافيء ونقدر الدور العظيم الذي لعبه الاطباء والممرضون في الهلال الاحمر الفلسطيني ومستوصف الجبهة الشعبية ، فقـــــد تفانوا في عملهم .. بالرغم من عددهم القليل جدا».

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

ايفا تفقد الشهيد يوســـف حمـــــد مرتين !

اما الممرضة ايفا ستروم(سميرة)فقد لعبت ، قبل اصابتها في ساقهـــا وبتر يدها ، دورا انسانيا عظيم جدا . الجميع كان يحترمها ويحبها . وقـــد كانت اشد ما تخشى عليه تعـــــرض جنينها (الذي اسمته حتى قبل ان يولد يوسف حمد تيمنا باسم زوجها الشهيد البطل) لاي مكروه ولكنها للاســـــف الشديد اجهضت وهي في شهرهـــــا السابع ، متأثرة باصابتها البالغة ، فحزنت حزنا شديدا على فقدان الشهيد القائد يوسف حمد مرتين !» .

(المصدر السابق)

كيف عاملوا الجرحى على الطريق ؟

عامل الفاشيون جرحى تل الزعتـــر الذين نقلهم الصليب الاحمر الدولـــي (قبل سقوط المخيم) معاملة وحشيةلا مثيل لها . وهي تعكس مـــــدى استهتارهم بمراعاة حـــــتى ابسطالقوانين والاعراف الانسانية الدوليـــة المتعارف عليها . فهم رفضـــوا ، في البداية ، اي اجلاء لجرحى تل الزعتر وتسببوا في موت الكثير من الجرحـــى الذين كانت جراحهم خطرة . وفي اليوم الاول الذي وافقوا فيه على عمليـــةاجـــلاء ٩١ جريحـــا واصلـــوا تصفيهم للمخيم حتى خلال عملية الاجلاءنفسها « واستشهد وقتها حسين مطر وشهيد اخر اسمه الاول سلامة » ..

وفي الطريق (اوقفونا لمدة ساعـــةونصف الساعة في حرش تابت واطلقوا النار على بعض الجرحى وحاولـــوا انزالي وانزال عدد من الجرحـــى الاخرين .. وضربوني على راسي ..كما **ضربوا طفلا حتى الموت في احـــدى الشاحنات** ، لان الطـــفـــل اعتقـــد انالفاشيين بملابسهم العسكرية والبنادق التي يحملونها هم فدائيون فرفع يـــدهباشارة النصر .. فما كان منهم الا ان ضربوه وخنقوه » . (المصدر السابق)

« اوقفونا عند محطة شل في القلعةقبل مستشفى الحايك . واخذوايطلقون النار علينا ارهابا ويشتموننا ويصعدونالى الشاحنات ويضربوننا على جراحنا وفي كل مكان.بالنسبة لي اخذوا ساعتيوشتموني وضربونـــي على جرحـــي ويصقوا علي ورغم ذلك لم اقل كلمـــةاخ ..

مسؤول درك لبنان العربي وهـــوجريح انزلوه واخذوه معهم .. لو كانوا شجعان وعندهم شهامة ما كانـــوا اعتدوا لا على الجرحى ولا على حرمة الصليب الاحمر الدولي . لان حرمـــةالصليب الاحمر الدولي مـــن حرمة الانسانية والعالم كلـــه .. وهـــم ــ بالفعل ــ معركتهم ضد الانسانية».

(عباس علي ، حديث خاص ..)

« شلحوني ساعة وخاتم وحـــرفعلى الطريق ، واطلقوا النار ارهابـــا وضربوا الجرحى وشتمونـــا . وصاروايقولوا : بس هالنقلة راح نسمح فيها من الجرحى وبعدين كل السكان اللي في الزعتر راح نسلخهم ونذبحهم » .

(موفق عبد الحليم ، حديث خاص ..)

« بهدلونا واحنا جايين على الطريقمع الصليب الاحمر ، سرقوا الساعات والخواتم وصاروا يسبوا علينـــا ،وضربوا الجرحى على جروحهم . »

(بشرى عادل ، حديث خاص ..)

« كانوا يضربوني علـــى رجلـــي المنصابة ، كان معي جزدان صغـــير في شوية مصاريخبيته تحتي ..وكانوايدوروا بصدري ويسالونـــي : وين مخبي المصاري والذهب . وكل ساعةيطلع واحد شكل ويتهددنا .. واحـــد يطلع وواحد ينزل ويسبوا علينـــا .وقفونا كتير في الشمس واحنا جرحى.

واللي في الصليب الاحمر كانوا يشفقوا علينا ويصرخوا عليهم ويقولوا لنا لا تفزعوا » !

(فاطمة فرج سعيد ، حديث خاص ..)

التصدي والبطولات :

« جميع الاهالي شاركوا في صنع الصمود » .

(سليم مصطفى ، حديث خاص ..)

« البطل **الحقيقي** كان هو القوات المشتركة من كل التنظيمات ، والتي لعبت دورا كبيرا في دحر كل الهجمات وابادة عناصر الكتائب والاحرار » .

(موفق عبد الحليم ، حديث خاص ..)

ماذا لو كانت كل قرية ومدينة ومخيم في بلادنا تل الزعتر ؟ اين كانت اليوم اسرائيل والرجعية والامبريالية امام تحدي الشعب المقاتل ؟ الجولان سقط في ستة ايام وكذلك سيناء .. وتل الزعتر يصمد ٥٣ يوما تحت أشرس الهجمات واشدها ويتلقى حوالي ٦٠ الف قذيفة وصاروخ !.

« المقاتلون كانوا يصمدون في مواقعهم ، بالرغم من شدة وشراسة القصف ، بالرغم من عدم التكافوء في الاسلحة والحشود ، استطاع المقاتلون ان يصمدوا ويصدوا كافة الهجمات .ماذا تستطيع ان ترد مثلا على قصف الملالات والهاوزر من كل مكان ؟بقذائف الار بي جي » ؟

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

خسائر العدو :

« كانت خسائر العدو الفاشي في كل هجوم يقوم به على المخيم لا تقل عن ٦٠ الى ٧٠ عنصرا بين قتيل وجريح .كنا نراهم وهم يتقدمون باعداد كبيرة فنضربهم بالرشاشات وقذائف الار بي جي ونبيدهم » .

(عباس علي ، حديث خاص ..)

« اول يوم هجموا فيه الكتائب كنا قاعدين في المحور نحضر انفسنا لشرب الشاي . جاءت زوجة ابو احمد جمعة وهو قائد مجموعة وقالت : دخلوا الكتائب . فتحركنا فورا وبسرعة.كنا اربعة مقاتلين نحمل ب ٧ وديكتريوف و ٢ كلاشن ، ومع ذلك صدينا ٧٠مهاجما قتلنا منهم ستة عناصر واصيب

واحد منا اصابة خفيفة . ثم عاودوا الهجوم وكانوا في حدود ٦٠ عنصرا ومكشوفين علينا وقد مسحناهم مسحا واخذنا اسلحتهم . كان صمود الشباب رائع جدا وكنا مصرين على ان نموت ونحن نقاتل ، مثلا الاخ المقاتل ابو عماد اصيب اربع مرات ولم يقبل ان يرتاح حسب طلب الدكتور » .

(محمد حلمد ، حديث خاص ..)

« كان لي سبعة اولاد مقاتلين ، استشهد منهم ثلاثة . وعندي اليوم اربعة جرحى من تل الزعتر ، الاستشهاد اصبح شيئا طبيعيا عندنا. لولا السوريين لما حصل ما حصل . السوريون هم المسؤولون . ونحن قادرين نسحق كل عصابات شمعون والجميل لولا تدخل الجيش السوري)).

(امينة فضل ، حديث خاص ..)

« معظم خسائرنا كانت في صفوف المدنيين نتيجة القصف الوحشي . اثناء هجوم القوى الفاشية كانت دائما خسائرهم اربعة اضعاف خسائرنا من الناحية العسكرية . »

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

بطولات التصدي :

« حين اخذوا تلة المير اول مرة ، طلعت انا ومعي اربعة شباب مقاتلين لهناك . ومش مبالغة اذا قلت لك اننا استطعنا استرجاع التلة بعد ان ابدنا منهم خمسة عناصر وهرب الباقين .. استوليا على سلاحهم واسقطنا علمهم ودعسنا عليه ورفعنا محله علم فلسطين .. وبلشت النسوان تزغرد والناس غنت وانبسطت .. وارتفعت معنوياتها . » .

(عباس علي ، حديث خاص ..)

« اذكر من المقاتلين الذين قاموا بعدد من الاعمال البطولية وقتلوا العشرات من الفاشيين ودمروا العديد من آلياتهم، اذكر ابو نوال الذي استشهد في المكلس ، ادريس ، صالح ابو النعاج ، الشهيد النقيب بدر زوين، فؤاد فيصل، جمال ابو النصر ، سامي حمد ، عبدخنجر ، محمد شحادة ، خالد شحادة ، ابو الفهد ، وابو معذب وغيرهم الكثير .. والغالبية الساحقة منهم استشهدوا ولا تقل خسائر الفاشيين في تل الزعتر وحده عن ١٥٠٠ قتيل وجريح » .

(عدنان عقلة ، حديث خاص ..)

« كلنا حملنا السلاح في المدة الاخيرةللدفاع عن المخيم . هربنا من قصـــف اسرائيل لكي نتعرض لقصف الكتائب. الفروقات معدومة بينلبناني وفلسطيني او مسلم ومسيحي .. كلنا كتـــــــانشارك في الدفاع عن المخيم. استشهد احد ابنائي ».

(حسن عطية ، لبناني من اهالي كفر شوبا ،حديث خاص ..)

« محور الدكـــــوانة كان محـــورا مشتركا بين اللبنانين والفلسطينيين . ولم يكن هناك اي تمييز بين الهويـــاتوالجنسيات ، كلنا في معركة واحدة ، ندافع عن المقاومة والحركة الوطنيـــةوالشعبيين اللبناني والفلسطيني ،ومن اجل عروبة لبنان ، ووحدة ارضـــهوشعبه » .

(مريم خليل ، لبنانية من الجنوب ، حديـــث خاص ..)

التامر ودور الصاعقة والنظـام السوري :

التآمر : « لا يوجد تفكير بالاستسلام بالرغم من الحالة الصعبة جدا التي يمر بها المخيم .. الواقع ان الشيـــخ شمس الدين وهو من اتباع موســـى الصدر حاول ان يبث روح الاستسلام وان يسجل اسماء بعض الناس الذين يرغبون في تسليم انفسهم للكتائب لكي ينقلوهم الى المنطقة الغربية . الا ان حركة المقاومة والقوى الوطنيةاللبنانية ومعهما الغالبية الساحقة من جماهير المخيم وسكـــان راس الدكوانة وقفـــت بالمرصاد لهذه المحاولة المشبوهـــة ولمعرفتها بطبيعـــــة واساليـــب الفاشيين » .

دور الصاعقة : « لما كنا على تلـــة المير وبدات معركة المكلس والمصانع ، طلعت قوة من الصاعقة على اساس تقوم بتلغيم طلعة معمل الجرفي كلهـــا في منطقة المصانع . وحين تقدمـــــت الملالات لم تنفجر تحتها الالـــغام .. .. لان بلال حسن مسؤول الصاعقة كان متفقا مع الكتائب مثل ما نبين النـــا بعدين.وكانت الالغام محطوطة من غيرصواعق . وعلى فكرة كانت التنظيمات الثانية هي اللي ناوية تطلع وتلغم ..بس بلال قال لهم : انا بعثت مجموعة علشـان تلغم مافش داعي تبعثوا حدا،واحنا عنا الغام اكثر .. خلوا الالغام اللي معاكو لمناطق غيرها ! والصاعقةهي اللي سلمت القلعـــــة للقـــوى الفاشية بدون قتال » .

(موفق عبد الحليم ، حديث خاص ..)

« اقتحم الكتائب والاحرار وجيـــشبركات المصانع واخذوا تلـــة الـــ ٣٧

بعدما انسحبت منها الصاعقة .. او الاصح سلمتها بدون قتال .. على فكرة الصاعقة كانت كتير متامرة ..ما كانتش تشتغل مظبوط او كما هو مطلوب . باستثناء الاخ الشهيد ابونوال رحمة الله عليه .. وبعض اللي انسحبوا منها وانضموا النا ، بلال حسن مسؤول الصاعقة العسكري بعت رسول للكتائب على الدكوانة علشان يعمل مفاوضات معهم لسحب المدنيين والجرحى من تل الزعتر .كان رد الكتائب انهم بيشترطوا توجه المقاتلين بمجموعات من عشرة كل مجموعة الى ساحة الدكوانة ويرموا اسلحتهم ويسلموا (وبهاي الطريقة ،طبعا ، بتم ابادة كل المقاتلين) وبعدين بوافقوا على سحب المدنيين .وكان بلال منفرد بها لتصرف وما وافق حدا على هالشي لا من الاهالي ولا من المقاتلين . وبعدين **سلم بلال نفسه للكتائب في الدكوانة مع مجموعة من عناصره** . واحنا بدنا نطالب الثورة الفلسطينية من اجل المحافظة على دم الشهداء بان تحاكم امثال هؤلاء الناس مثل بلال وزبانيته واللي تخاذلوا كتير في معركة المكلس والمصانع .

ففي معركة المكلس والمصانع ،واناكنت فيها ، تشكلت ثلاث مجموعات كبيرة . مجموعتين قوات مشتركة من جميع المنظمات والمجموعة الثالثة من الصاعقة على اساس ان تقوم فقط باسناد المجموعتين . لكنها لم تلعب هذا الدور .. وتحجج بلال بعدين بانوما عندوش شباب كتير .. وكانت النتيجة اننا خسرنا عدد من الشهداء والجرحى في هاي المعركة وما تمكناش من استعادة كل المواقع .

مطلب جماهير تل الزعتر ان تظل الثورة مستمرة مهما كانت الصعوبات ولا يكون هناك تخاذل ابدا .. وبعدين على الثورة ان تحاسب كل انسان خان او تخاذل في حماية تل الزعتر . اوخان الثورة ككل لازم يتحاكم ويعدم فورا».

(عباس علي ، حديث خاص ..)

« اعتقد ان الجنود السوريين كانوا يشاركون بالاقتحامات ويسلمون المواقع للفاشيين » .

(المصدر السابق)

جنود سوريون وقذائف عبرية :

« القوات السورية شاركت في معارك مخيم الصمود بشريا واليا ، وكنا نشاهدهم مع دباباتهم من نوع ت ٦٢ بالعين المجردة ، وهناك ملالات جديدة نشاهدها ، لاول مرة ، ظهرت في معارك التل . كما ان بعض القذائف سقطت في المخيم ولم تنفجر عليها كتابات باللغة العبرية » .

(«السفير » اللبنانية ، « حكايا من مخيم الصمود يرويها مقاتلان تسللا من تل الزعتر » ١٦

ـ٧ـ٧٦) .

« كنا نسمع اصوات ولهجة الجنود السوريين بشكل واضح اثناء المعارك ، الكتائب والاحرار جبنا ، كانوا يخافوا من الهجوم ومعظمهم مخدر ، كانوا يشربوهم مخدرات ومشروبات علشان يتشجعوا ويقاتلوا . كنا نفرغ اكثر من ١٥ طلقة ومرات مخزن كامل حتى يقع العنصر منهم على الارض . وهذا مما يدل على ضعف الاحساس بالالم فورا نتيجة المخدرات والمشروبات .. قتلنا خمسة من الكتائبيين وجدنا في جعبهم الواح من الحشيشة مع سجاير كنت وطعام » .

(مونق عبد الحليم ، حديث خاص ..)

« الشعب السوري يقاتل معنا » :

« كان هناك شخص سوري بيشتغل في معمل ضو . انضم الينا وقت الحوادث ، استلم سلاح ودربناه وقام بعمليات ناجحة كثيرة ، اقتحم مع مجموعته تل البرج العالي والمدرسة اليونانية .. وفي كثير من الشعب السورى بالمخيم كانوا يقاتلوا معنا » .

(المصدر السابق)

تل الزعتر يقرر الصمود .. ويأمل :

« نحن هنا ، اخذنا قرارنا ، وهو قرار نهائي ، اننا سوف نناضل حتى آخر قطرة من دمائنا ، فليس لدينا خيار سوى بين حلين اثنين اما الصمود حتى آخر قطرة من دمائنا والاستشهاد واما ان نكسر شوكة الهجمة الفاشية ونفوت على الفاشيين فرصة اشباع شهوة الدم فيهم .. سوف نبقى صامدين حتى تنفذ طاقاتنا وكل امكاناتنا ، وجماهيرنا هنا لها امل كبير في ان تستطيعوا الوصول اليها لافشال مخطط اعداء شعبينا الفلسطيني واللبناني سواء منهم الفاشيون او حكام دمشق » .

(نص البرقية التي ارسلها اهالي ومقاتلوا تل الزعتر الى غرفة العمليات ونشرت في الصحف في ١ ـ ٨ ـ ٧٦) .

ويخاطب مؤتمر وزراء الخارجية العرب دون جدوى :

«نتحدث اليكم ليس من موقع الاستجداء واستدرار العطف انما

مـن موقـع الصمـود البطولـي .لقد ولدنا من قلب الجوع والعطش ، لذلك قررنا ان نضع امامكم صورة حية لمخيمنـا وان نسجل **للتاريـخ** اننـا وضعناكم امام مسؤولياتكـم حتـى لايقع في ذهن اي من الجماهير العربية انكم لا تعلمون ما يجري .. ان كثيرا من جرحانا الذين كان يمكن الا تـؤدي اصابتهم الى الموت قـد نزفوا حتـى الموت بسبب انعدام الدواء .. ولقـد دفنـا شهداءنـا في اقـرب حفـرة استطعنا حفرها واستشهد بعضنا اثناء ذلك . ان ما يجـري الان في مخيمنـا يصفع اولئك الذين كذبوا او قالوا انهم جاؤوا لكي يفكوا الحصار عنه وهـم حتـى الان يكذبون الكذبـة ذاتهـا ويساعدون الفاشيين . نريد ان نعلمكم اننا سنقاتل دفاعا عـن هذا المخيـم بالاظافر اذا نضب السلاح ، ونحملكم مسؤولية ابعاد الغزاة السورين الذين هم الان طرف في النزاع » .

(نص البرقية التي ارسلها اهالي ومقاتلو تل الزعتر الى وزراء الخارجية العرب · الصحف ١٤ ـ ٧ ـ ٧٦) ·

ومع ذلـك .. سقط الزعتـر

وفقـدت مصادر المياه ، وشحـت الذخيرة ، واوشك العدس والطعـام على الانتهاء ، لم يعد هناك خشـب من البيوت المهدمة لم يحترق بعد !.. طـال الانتظار .. والصمـود ليس ارادة فقـط .. بـل مقومـات واستعدادات ، والاطفال يموتون مـن الجوع والعطش ، والطريـق الـى تل الزعتر ما زالت طويلـة وشاقة.. الطريق من الزعتر الى الجبل والمتحف وعيون السيمان اسهل ! اسهـل من الصمود بـدون مقومات « نستطيـع الصمود كمان عشرين يوما بدون طعام ولا ماء لو نعـرف انكـم ستشقـون الطريق » .. هكذا خاطبنا المقاتلون والاهالي بشموخ وقهر .

كيف تمت عملية الاخلاء ــ المذبحة ؟

« تعهد اميـن الجميل في رسالـة خطية الى اهالي المخيم، بعد الاتصالات التي قام بها مبعوث الجامعة العربية صبري الخولي مع الكتائب ، « تعهد » بأنه لن يتم التعرض لسكان وجرحـى المخيم اثناء عملية الاخلاء التي ستتـم تحت اشراف ممثل الجامعة العربيـة والصليب الاحمر الدولي .. ولكن ما ان تحركت سيارات الصليـب الاحمر لاجلاء السكان حتـى بدأ الفاشيـون تصفية كل عناصر الشباب مـن سن ١٢ فما فوق ، بعـد ان كانوا قـد فتحوا نيران رشاشاتهم علـى الاهالي بشكل عشوائي ، والقيام بتجريدهـم من كل ما يحملون من اموال وحلـي وخواتم واي شيء له قيمة .

حين وصلوا الينا .. قادونـــا انـــاوالدكتور عبد العزيز اللبدي والممرضين والممرضات في طريق طوله حوالي ٢٠٠متر ، رايت بعينـــي جثث الاهالـــي منتشرة علـــىجانبي الطريق من اولهحتى نهايته .

في الدكوانة كـــان معـــي عشـــرةممرضيـــن اوقفوهم بالصـــف اثنيـــن اثنين وبعـــد لحظات اطلقوا عليهـــم النار وقتلوهم جميعا امام عينـــي . لا استطيـــع ان انسى منظـــر القتـــل الجماعي هذا ما حييت . لقـــد تـــم انقاذي والدكتور عبد العزيز اللبـــدي بفعل الصدف . لقد تعرف علي آمر مجموعة كتائبية كنت قـــد عالجتـــه فيما مضى وقد عمل علـــى مرافقتـــي عبر الحواجـــز حتـــى تـــم انقـــاذي وعبد العزيز بعـــد تدخـــل صبـــري الخولي . انهم مجرمون لا يعرفـــون المبادىء ويتسترون بالدين . لقد قتلوا الكاهن بولس عبد الكريـــم ذبحـــــا بالسكين في تلة المير لانه فلسطيني . كما قتلوا الدكتور جورج ديـــب و ٧ممرضين فلسطينيين مسيحيين » .

(د. يوسف عراقي ، طبيب الهلال الاحمـــر الفلسطيني في تل الزعتر ، نفس المصـــــدر السابق)

« اين انتم » ؟ :

فتاة في العاشرة وقفـــت على احد الجدران في دار المعلمين والمعلمات في بئر حسن وقالت متسائلة : « ايـــن انتم يا من يجب ان تدافعوا عنـــا ؟ اين كنتـــم عندمـــا اكلنـــا العـــدس وشربنـــا مياه المجاريـــر طوال ثلاثـــة اشهر ؟ » .

(« السفير » ١٢ـــ٨ـــ٧٦)

« وفق ما افاد مبعوثان ارسلهما كامل الاسعـــد « للاطمئنان » علـــى ابناء تل الزعتر ، قال المبعوثان وهما احمد زعرور وشارل خوري ، بعـــد مقابلتهما (للفاشي) مارون خـــوري « الباشا » : ان الجثث كانت تنقـــل بالجرافات .. وكان هناك ١٢ حاجزاللتصفية بين مهنية الدكوانة والمتحف . والاليات شوهدت تسير فوق اجساد الجرحى .. سحلـــوا جثث ٨ مـــن الشباب علـــى طريـــق جونيـــــه .... وجميعهـــم ، امس ، كانـــوا هناك : القتلة المهووسون ، اللصوص المحترفـــون والمرتزقـــة الحاقـــدون ، احاطوا بالمخيـــم كقطيع من الذئاب ..ومئات مـــن الشبـــاب اللبنانييـــن والفلسطينيين اختفوا ... منهم مـــن قتل على الحواجز فورا ، ومنهم مـــن سحب الى التحقيق .. ولم يعد » ..

(نفس المصدر السابق)

الوحوش اخذوا بنتي الحلوة !

« لقد قتل اولادي الستة ، وقتـــل زوجي معهم . وما زال هناك ولـــدان لي في تل الزعتر ، يقاتلان حتى آخـــر نقطة من دمهما كما اقسما . ولـــي ولدان استشهدا قبل قليـــل . لقـــد ربطوا ايديهما بحبال واوقفوهما على جدار . وبعد ذلك بطحوهما ارضا . وبعد ان اشبعوهما ضربا ، قتلوهمـــا امام عيني .. لقد رشوهما رشا .. وشاهدت الدماء تنفر من ضلوعهمـــا ومن ضلوعي .. وكذلك سرقـــوا لي ابنتي الان . لقد جاءت معي وعلـــى المتحف وجدوا علـــى صدرها شـــارة الهلال الاحمر فأنزلوها مـــن السيارة يا ولدي .. اخذوا لي بنتي الحلوة . اخذوها ولم يبـــق لـــي سوى هؤلاء الثلاثة ، هؤلاء الاطفال الثلاثة . الى من اذهب ؟ وهل يردون لـــي بنتـــي الحلـــوة ؟ قبـــل ان اخرج من تـــل الزعتر ، قال لي ابني وهو يودعني : اذهبـــي ياما ، باللـــه عليـــك لاتحرجيني . فأنا لا أعرف ماذا اقول لك . ولكن لي طلب واحد منك هو ان تديري بالك من اختـــي ، واخوتـــي الصغار ، آه يا ابنـــي ، الوحـــوش اخذوا اختك » ..

(صفية محمد موسى الخطيب ، نفس المصدر السابق)

« جميع الشباب لازم يموتوا » :

« طلعت براسي . اولادي الخمسة ماتوا .. شبابي قتلوهم امام عيني . كنا في الدكوانة ، حصلت على ورقـــة من اجل انقاذ أحد اولادي ، واحـــد فقط . تصور ان علـــي ان انتقـــي واحدا منهم ! ولما علم اولادي بذلك ، اخذ كل واحد منهم يتبرع من اجـــل انقاذ الثاني . ولم يبق لي في النهاية سوى اصغرهم . وعندما وصلنا الـــى المتحف اخذوا لي الخامس . قلـــت لهم انني حصلت علـــى ورقة من اجل انقاذه ، قالوا : « الشباب جميعهـــم لازم يموتوا » . وليس هناك اوراق نعتمد عليها . لقد مات الخمســـة ، حتى الصغيـــر .. اراد ان يلحـــق اخوته . لقد قال لي قبل ان يأخذوه : تشجعي يا امي . صحيـــح ان اولادك ماتوا . ولكنك تملكين جميع الابنـــاء المقاتلين . وقبل يدي . وذهـــب يـــاولدي . يا اولادي .. لو كنت اعلـــم انهم سيقتلوننا ، لفضلت المـــوت فـــي تل الزعتر وراء المتراس الذي قضيت عليـــه شهرين ولفضلـــت الموت مـــع اولادي . لماذا لم يساعدونا ؟ » .

(وفيقة احمد وهبي ، نفس المصدر السابق)

امراة سورية
من تل الزعتر :

« امراة سورية فقـــدت وحيدها .. واخذت تردد على اسماع من حولها :
« شلحونا علـــى الحواجز الصيغـــة والخواتم والساعات .. ولادنا مشي

القمل في رؤوسهم .. شهر ونصف قاعدين في الملاجىء .. اجسامنا ما شافت المي .. حافظ الاسد بعت بجنوده ليقتلوك يا ولدي .. موسى الصدر وازلامه خانوك يا ولدي .. شو عملنا حتى يضربنا الجيش السوري بسلاحنا .. اكلنا عدس وتمر ولم نهتم .. ولكن المي اثرت علينا .. لولا المي ما سقط تل الزعتر .. شو بدي اعمل بعدك يا محسن ؟ » ..

« الزعتر ما بينكسر » ..

امرأة اخرى قالت لي : « **نحن يا خالتي ما انكسرنا والزعتر ما بينكسر** .. بس المي والغذاء والجيش السوري والخونة هم الذين كسرونا » .. « وفي مكان آخر تجمهر عدد من الشبان حول مقاتل استطاع ان يتسلل مع مجموعته عبر طريق جبلية ، قال : لم يكن سقوط تل الزعتر واردا لولا افتقاره الى الماء والمواد الغذائية . لقد ابدنا الكثير من الفاشيين اثناء هجماتهم المتتالية على المخيم . كنا نحصدهم كالماعز ولم يسقط منا الكثير برصاصهم ، بل معظم الذين استشهدوا او جرحوا اصابتهم شظايا القذائف .. انهم جبناء غدروا بنسائنا واطفالنا . لقد فضحوا اربعة بنات من اقربائي واعتدوا على بعض النسوة .. وقتلوا الكثير من الرجال على الحواجز » .

(جريدة بيروت ١٣ــ٨ــ٧٦)

قوات الامن العربية تتفرج ! :

« في طريقنا امام السيار (قرب اوتيل ديو بالاشرفية) خطفوا اربعة اشخاص من اقربائي وهم محمد رزوق ورسمي ومحمد الحاج صبري واخوه على حاجز الاحرار وضربوهم بأعقاب البنادق والمسدسات واخذوهم الى جهة مجهولة . لماذا تواجد قوات الامن العربية في منطقة المتحف ، وما هو عملها ، والقوات الفاشية تخطف وتقتل وتضرب على بعد عدة امتار منها ؟ ان الفاشيين ارتكبوا مذابح رهيبة بحق اهالي تل الزعتر وذبحوا وسحلوا عددا كبيرا من النساء والشيوخ والاطفال » .

(عبد الوهاب عبد المال ، المحرر ، ١٣ ــ٨ــ ٧٦)

رايت .. واصيب ابني :

« رايت في الفندقية (بالدكوانة) بعض المسلحين يطلقون النار على العائلات التي التجأت اليها ، وقد اصيب عدد كبير من الاهالي ومن

ضمنهم ابني الذي يبلـــغ من العمـــر ١٥ سنة برصاصة في راسه » ..
(مريم محمد برغوت ، نفس المصدر السابق)

« سلبوني ١٥٠ ليرة واخذوا مني اربعة اولاد وتركوني وحـــدي الجـــا الى المنطقه الغربية .. ولا اعـــرف الـــى اين سأذهـــب الان مـــن دون اولادي » ..
(نايفة شحرور ، نفس المصدر السابق)

وجهنا نداءات .. وبقينا وحدنا نحارب :

« لقـــد وجهنا نداءات ورسائـــل مفتوحة الى الدول العربية ، وخاصة وزراء الخارجية العرب عندما كانـــوا في القاهرة ، وحملناهـــم مسؤوليـــة استمرار حصار تل الزعتر والهجمات الوحشيـــة التـــي تقوم بها القـــوات الفاشية دون جدوى .. ولم تحـــرك ساكنا .. وبقينا **وحدنا** نحارب فـــي ظل العطش والجوع والمرض .. ان الجثث متناثرة في الشوارع ، والميـــاه مفقودة تماما ، والحصول عليهـــا شاق جدا ، وتأتي ممزوجة بدمـــاء الشهداء » ..

(محمود الاحمد ، المحرر ، ١٣ــ٨ــ٧٦)

ذبحوا عشرة اشخاص من عائلة واحدة :

« لقد القوا القبض علـــى جميـــع افراد عائلتي وزوجاتهـــم واطفالهـــم ونقلونا الى النافعة ووضعونا صفوفا طويلة ارضا حيث اخذ بعض الفاشيين الشباب من بيننا حيث كانوا يطلقـــون عليهم النار **امام انظارنا** فيتساقطـــون الواحد تلو الاخر . وبعد ان انتهـــوا مـــن هذه المجزرة نقلونـــا بواسطـــة الشاحنات الـــى الاشرفيـــة وكانـــوا علـــى الطريق يقولون لنـــا « جلس راسك » .. وما ان يفعـــل احدنـــا حتـــى يطلقون عليه النار فيقتلونـــه ويلقون بجثتـــه في الشارع . وكنـــت اجلس على احد ابنائي في الشاحنـــة ومعي زوجته وطفلهـــا فطلبوا منـــا الوقوف وما ان شاهدوه حتى اخذوه من بيننا ونقلوه الى جهة مجهولة ..وعندما حاولت زوجته الصراخ اطلقوا عليها النار وقتلوها مع طفلها ..

وقد فقـــدت مـــن افراد عائلتـــي **عشرة نبحـــوا وواحـــد خطـــف** ويقي معي الان ٨ اطفـــال لا ادري كيف اؤمن لهم وسائل المعيشة وانـــا لا املك شيئـــا . والذيـــن ذبحهـــم الفاشيون ذبح النعاج هـــم اولادي : غندور الحسيـــن الغندور ٣٧ سنـــة وزوجته فوزيـــة موسى ٢٥ سنـــة ، وقاسم ٣١ سنة وزوجتـــه خديجـــة ٢٥ سنـــة ، وناصـــر ٢٧ سنـــة ، ومشهور ٢٢ سنة ، ومحمـــد حسين ١٩ سنة ، ويسرى ابنة ابني علي ،

وحسين ابن ابني علي ومريم زوجـــة ابني علي » .

(حسين علي الغندور ، المحرر، ١٥ــ٨ــ٧٦)

عشرات الجثـث :

« في الدكوانة ، المدخل الشمالي للمخيم ، منـظر يثيـر الرعـب . اذ تتراكم هناك **عشرات الجثـث** وتجبـر رائحتها المـرء علـى ارتداء قنـاع ليمكنـه من متابعة السير . ويستحيـل احصـاء هـذه الجثـث التـي **تشمل الرجال والنساء والاطفـال** ، لان الامر يتطلب زيارة المنازل واحـد بعد الاخر » .

(مراسل وكالة الصحافة الفرنسية ، النهار، ١٤ــ٨ــ٧٦)

صمـودك العنيد ..
أحبط فرحهم بالانتصار ! :

ولاحظ مراسل وكالـة الصحافـة الفرنسية ، الذي قام بجولـة تفقدية الى المخيـم ، « ان ميليشيا القوات المحافظة لم تبد غداة النصر الـذي حققته مظاهر الفرح او التفوق الحربي التي تعقب عادة اي انتصار من هذا النوع » !

(نفس المصدر السابق) .

ايها المعلم ! :

صمودك العنيد .. لم يتحول الـى هزيمة .. حتى اعداؤك لم تسمـح لهم ان يفرحوا بسقوطك .. صمودك العنيد لم يتحـول الى سقـوط !.. وسقوطك المفجع الدامي انذار لنـا لكـي نتدارك سقوطنـا وهزيمتنـا وترددنا .

لقد افتديتنا يا تل الزعتر .. جعلتنا نرى مـاذا تفعل الفاشيـة الدمويـة بالشعب ، اذا لـم تسحـق نماماوباقصى سرعة ؟

علمتنا بالدم والضحايا والالام مـاهي مخاطر الاوهام والحلول الوسطية في لحظة لا تسمح فيها طبيعة الصراع واحتدامه بأي حل وسط .

علمتنـا الوضوح ، قلـت بجـوع وعطش اطفالك ونسائـك ومنازلـك المحترقة ودماء شهدائك وابريائـك : **هوذا العدو بدون اوهام ..**

وقدمـــت لنا الصمـــود والتحـــدي جوابا .

فتحت لنا الطريق اخيرا الـــى تل الزعتر !

ورأينا فيـــك ، بالعين المجـــردة ، (فنحن لا نرى الا مـــــا يقـــع مباشرة امام اعيننا ولمسافـــة أمتـــار قليلـــة فقط) كيف تنعكس نتائـــج الحلـــف الامبريالي الصهيوني الفاشي الرجعي العربي على الجماهير ..

خجلت يا تل الزعتر ان انظـــر في عيون مهجريك ومقاتليك .. لاستفسر منهم مباشرة عما حدث في اللحظـــات الاخيرة . وعيونهم تتهمني ، تتهمنـــا جميعا . وتتساءل بالحاح عن الطريـــق الى تل الزعتر ؟

عيون اهلـــك ومقاتليـــك تطاردنـــا بأسئلتها ولا تقبـــل الردود والاجابات المتأخرة ..

ماذا قال عنك الفاشيون ؟ :

قالوا انك مجرد معسكر حربـــي لايوجد فيك اطفـــال ولا نساء .. وان فقراءك من العمال والكادحين قـــوم مـــن اللصوص وقطاع الطـــرق .. رسموك في دعايتهم الحاقـــدة بعبعـــا وثـــرا .. لان جماهيـــرك تحمـــل السلاح وتريـــد ان تقاتـــل حلفاءهـــم الامبرياليين والصهاينة . قالـــوا .. وقالوا .. بينما اطفالك يموتـــون من الجفاف وســـوء التغذيـــة .. حقـــدوا عليك لانك تقاتل ضد فقرك ومن اجل فلسطين . ومن اجل لبنان وطنـــي ديمقراطي عربي في آن واحد !

تحدثوا عن « الامتيازات » التـــي يحظى بها سكانك وهم في اكواخهـــم التنكية يقبعـــون .

اليوم دمروا مخيـــم تل الـــزعتر ، كانوا يريدونه ، فقط ، قوة عمل ماجور تباع في ســـوق النخاســـة ، لا قـــوة سياسية ثورية ..

لذا حقدوا عليه ، وعلى كل الوطنيين والكادحين في لبنان .. وهم يمارسون حقدهم تشويشا وكذبا وافتراء ..

« يكون مذلة ان نقوم على ارض لبنان مدن تنكية » .

(الفاشي سعيد عقل في مؤتمر صحفي ، الصحف ١٥ ـ ٨ ـ ٧٦)

الطريق الى تل الزعتر !

لقد عبدت لنا بصمودك يا تل الزعتر : الطريق الى تل الزعتر ! الطريق اليك باتت شاقة وطويلة ·· لكن لا خيار ، فما من طريق آخر ··

الطريق الى تل الزعتر تمر بقبر التردد والحلول الوسطية ، تمر بسحق الفاشيين وحلفائهم وتوحيد لبنان بقوة السلاح · الطريق الى تل الزعتر تمر من خلال طرد ودحر التدخل العسكري الرجعي ·

الطريق الى تل الزعتر ، تمر بضرب التسوية الامبريالية في لبنان والمنطقة العربية ، االطريق الى تل الزعتر يمر باقامة نظام وطني ديمقراطي في لبنان ومهما كانت الولادة عسرة ، الطريق الى تل الزعتر طريق الاستمرار والتصدي والعنفوان الثوري : طريق الجماهير ·

الطريق الى تل الزعتر تمر في عمان وجرنية ودمشق وعواصم عربيـــة كثيرة ·· وتؤدي الى فلسطين !

طريق تل الزعتر اقرب االطرق الى فلسطين !

لمحة اجتماعيـة اقتصادية :

انشىء مخيم تل الزعتر عام ١٩٥٠ ★ ، وهـو يقـع فـي المنطقـة الشرقية الشماليـة مـن ضواحـي بيروت . وتعتبر هذه المنطقـة التي تحيـط بالمخيـم مـن اهـم المناطـق الصناعية في لبنان . فهي كانت تضـم عام ١٩٦٨ ٢٩٪ من عدد المعامـل في لبنان ، و ٢٢٪ مـن عـدد العمال ، و ٢٣ ٪ من رأس المـال الصناعـي اللبناني . تبلـغ مساحـة المخيـم الاجمالية حوالي ٢٩٥ دونما .

بلغ عدد سكان المخيـم عام ١٩٧٢ حوالي ١٤ الف فلسطينـي وتقديرنـا عـام ١٩٧٦ حوالـي ١٧ الـف فلسطيني . وهـو يضـم عـددا كبيرا من اللبناتيين ، وخاصة اهـل الجنوب وبعلبك .

★ كل المعلومات التي سيأتـي ذكرها الان مأخوذة عن كتاب : هاني منـدس ، « العمل والعمال في المخيم الفلسطيني » ، بحث ميداني عن مخيم تل الزعتر ، مركز الابحاث الفلسطيني، بيروت ، ١٩٧٤ .

بلغ عدد الاولاد الذين من فئة عمر٦ ــ ١٤ خارج المدارس ١٣٤١ ولدا لعام ١٩٧١ ، اي بنسبة ٣٦،٨٪ .فالاولاد يضطرون ، بسبب تردي الاوضاع الاجتماعية ، الى ترك المدرسة في سن مبكرة والالتحاق بالعمل .

ينتمي معظم اهالي المخيم ، من حيث اصولهم الاجتماعية في فلسطين ، الى سكان القرى بنسبة ٨٦،٩٪ .

اما الاوضاع الاجتماعية العامة بالمخيم ، فمن حيث الاكتظاظ السكاني فان معدل كل ٤ ــ ٦ افراد يسكنون في غرفة واحدة وكل ٦ ــ ٨ افراد يسكنون في غرفتين .

معظم مساكن المخيم من براكسات التنك والتخاشيب أو انها مشادة بجدران من الباطون المسقوف بالواح الزينكو .

الطرقات الداخلية في المخيم ضيقة للغاية ، وهي في معظمها غير معبدة بالباطون وتمتلىء بالحفر والاوحال والاوساخ . كما تمر في وسطها الاقنية ومجارير المياه القذرة المكشوفة .

والاونروا لا تقدم جميع خدماتها الى جميع السكان ، بل الى حوالي ٣٥٤٠ شخصا فقط . علما ان معدل مجموع خدمات الاونروا في كافة المجالات (غذاء + طبابة + تعليم) لا تتجاوز ٧ ليرات لبنانية في الشهر للفرد الواحد اي ما يعادل دولارين !

ولا يوجد مستوصف للاونروا خاص بالمخيم .

قبل ظهور الثورة الفلسطينية في لبنان عام ١٩٦٩ ، كان محظورا على الفلسطينيين القيام باي ترميم أو اصلاح جزئي للمسكن الا بعد الحصول على موافقة رسمية من السلطات المختصة وكان اهالي المخيم ، وسائر المخيمات الفلسطينية الاخرى في لبنان بالطبع ، يعانون الامرين من تعسف السلطات اللبنانية . فقد كان محظرا عليهم ممارسة اي نشاط سياسي أو اجتماعي او ثقافي ومعرضون للملاحقة والاعتقال والمضايقات المتكررة .

يعمل العمال الفلسطينيون في المؤسسات الصناعية الصغيرة والاعمال ذات الطبيعة الموسمية والشاقة .وتصل نسبة العمال الى حوالي ٩٠٪ من مجوع العاملين .

ومستوى الدخل الشهري للاغلبية الساحقة من العمال (حوالي ٨٥٪)

لا يتعدى ٤٠٠ ل. ل .

ويعاني العمال الفلسطينيون مايعانيه العمال اللبنانيون من مشاكل الصرف الكيفي من العمل والتعويضاتوبدل ايام المرض والاجازة السنوية .

الا ان العمال الفلسطينيين يعانونبدرجة اكبر وخاصة لجهة اشتراط الحصول على اجازة العمل أواستخدامها من قبل رب العمل كأداة ضاغطة لكي لا يطالب العامل الفلسطيني بأية زيادة في الاجر او حق من حقوقه المشروعة الاخرى . والعمال الفلسطينيون يتمركزون عادة في المؤسسات الصناعية الصغيرةوالمتوسطة التي تزداد فيها درجة الاستغلال والعلاقات الشخصية .

ولا تخول اجازة العمل العامل (الاجنبي) الفلسطيني حق العمل في كافة المؤسساتأو المهن المختلفة،بل انهاتقتصر على السماح بالعمل في المؤسسة التي يعمل بها فقط وبناء على موافقتها الشخصية . والعمال الفلسطينيون ، بل والفلسطينيون عموما فيلبنان لاتشملهم خدمات الصندوق والضمان الاجتماعي بالرغم من كونهم يدفعون الرسوم المسنحقة ! فهم يعاملون (كأجانب) في كل ما يتعلق بالقوانين .

هذا ، بأيجاز شديد ، وضع مخيم تل الزعتر.. والفلسطينيون (الاجانب) في لبنان .

مَدرسة الصمود والاقدام في تل الزعتر

الدكتور نجيب ابو حيدر

الصمود في الحرب فضيلة عسكرية من الطراز الاول ، ودليل حسي على ان افراد القوه الصامدة أمام الهجمات المتلاحقة المتسمة بالتصميم والاستمرارية يقاتلون من اجل هدف سام يؤمنون به ؛ ومثل عليا يسعون الى تحقيقها . ويمتلكون قسطا عاليا من الشجاعة النفسية التي تعي وجود الخطر وتحس بالخوف ، ولكنها تسيطر عليه وتقهره ، لانها تعرف بالممارسة القتالية ودراسة التاريخ ان الخطر الناجم عن الصمود اقل بكثير من المخاطر المادية والمعنوية التي ترافق التخاذل والتخلي عن الموقع .

ويقف الصمود دائما في مواجهة الاقدام . وهذا لا يعني ان الصمود متناقض مع الاقدام فكلتا الصفتين تنبعان من مصادر سامية واحدة . ولكن اولاهما تظهر في العمليات الدفاعية وصد الهجمات المعاكسة ، على حين تظهر الثانية في العمليات الهجومية وخلال الهجمات المعاكسة . ولا يكشف الصمود او الاقدام مثل موقف الخصم. فكلما ازدادت شراسة الخصم وحدة هجماته وتواترها اخذت فضيلة الصمود مغزاها واوتفع مستواها ، وكلما اختل ميزان القوى لصالح الخصم كان الاقدام في الهجمات المعاكسة حقيقيا يستحق الاعجاب . هذه هي الحقائق التي طرحتها امامنا معركة تل الزعتر، وفي ضوء هذه الحقائق يمكن فهم مغزى القتال البطولي الذي كشف فضيلتي الاقدام والصمود لدى القوات الفلسطينية التي دافعت عنه خلال ٥٢ يوما ويرهن على تحليها بالقوى المعنوية العالية والكفاءة القتالية النادرة .

لقد كان مثلث « تل الزعتر ــ جسر الباشا ــ النبعة » دائما موقعا متقدما للثورة الفلسطينية والقوى الوطنية داخل المنطقة التي تسيطر عليها الكتائب وحلفاؤها (القوات اللبنانية) كما كان ، بحكم موقعه ، شوكة الى جانب هذه المنطقة ، وخطرا يهدد مؤخراتها وتحرك قواتها . لهذا كان من الطبيعي ان يفكر الكتائبيون وحلفاؤهم بتصفية هذا المثلث منذ اندلاع الاحداث في نيسان ١٩٧٥ . ولكن ميزان القوى لم يكن يسمح لهم بذلك ، فاكتفوا بتطويق المثلث الذي غدا جيب مقاومة مغزولاً تقريبا عن القوى الصديقة .

وبقي الجيب مطوقا عدة شهور،وبقي سكانه الفلسطينيـــون واللبنانيون محاصرين طوال هذه المدة عسكريـــا وتموينيا ، ولم يصلهم من الامـــدادات سوى كميات محدودة خلال فتـــرات الانفراج الامني التي عرفتها الحـــرب الاهلية . ورغم هذا الحصار الطويل ،فان قيادة الكتائب وحلفائها لم تقدم على اقتحام المثلث رغم رغبتها في ذلك ،ورغم قيام الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية بتوسيع الرقعة التي تسيطر عليـــها ،والقيام بمبادرات تعرضية جريئة بقواها الذاتية . ولا يرجع احجام قادة الكتائب وحلفائها عن فكرتهم الهجومية الا الى ميزان القوى ، فلقد كانت مشتتة في اكثر من موقع ، وتقاتل على الغالـــب دفاعيا ، كما كانت هذه القوات بحكـــم طبيعتها وتسليحها وتدريبها وكثافـــة نيرانها عاجزة عـــن ادارة المعركـــة الهجومية ضد موقع محصن ومدافـــع عنه جيدا .

وبقي هذا الوضع قائما حتى ظهـــر عاملان جديدان اثرا على ميزان القوى: ويتمثل اولهما في انشقـــاق الجيش اللبناني ، واكتساب (القوات اللبنانية) لقسم من هذا الجيش بما يملكه مـــن جنود مدربين وكوادر مؤهلة وآلـــيات مدرعة ودبابات واسلحة ثقيلة ومدفعية . اما العامـــل الثانـــي ، فيتمثـــل في التناقض الذي وقع بين حلفاء الامس الذيـــن كان مـــن المفترض ان يكـــون تحالفهم استراتيجيا طويل الامد (دمشق من جهة ، والثورة الفلسطينية والحركة الوطنية التقدمية اللبنانية من جهـــة اخرى) ، وما رافق هذا التناقض من صدامات دامية . وبفضل الاضافـــة الكمية والنوعية الى قوى « جبهـــة الكفور » والتشتت الاستراتيجي الذي اصاب « جبهة الثورة الفلسطينيـــة ــ الحركة الوطنية اللبنانية » ، تبـــدل ميزان القوى ، واصبح بوسع الكتائب وحلفائها وضع مخطط مهاجمة مثلـــث « تل الزعتر ــ جسر الباشـــا ــ النبعة» موضع التنفيذ .

وعلى اساس ميزان القوى الجديـــد حشد حزب الاحرار وجيش بركـــات قواتهما لشن الهجوم في ليلة ٢٢ ــ ٢٣ حزيران على مخيمي جسر الباشا ، وتل الزعتر ، ولم تلبث الكتائب وبقية قوى « جبهة الكفور » ان انضمت الى الهجوم وسقط المخيم الاول في ليلة ٢٩ــ٣٠ حزيران ، وتابع المهاجمون الضغوط على مخيم تل الزعتر من عدة محاور . وكان المنطق الذي حكم تفكير قادة الهجوم على تل الزعتر ، بعد ان حشدوا حوله منذ منتصف حزيران ١٩٧٦ قوات كبيرة من المشاة والمدرعات والمدفعية، يعتمد على القاعدة العسكرية القائلة : « **عندمـــا يتعرض موقع دفاعي للتطويق من جميع الجهات ، ويغدو جزيرة صغيرة فـــي بحر من القوات المهاجمة المتفوقة عدديا وتسليحيا ، ويتعذر امداده عن طريـــق الجو او فك التطويق بهجمات معاكسة خارج الطوق او من داخله ، يصبح هذا الموقع ساقطا او برسم السقوط** » .

وساعد هذا المنطق على الترســـخ تفوق القوات المحتشدة عدديا بنسبة لا تقل عن ٣ الى واحـــد ، وامتلاكها لوسائط دعم ناري قوية ، وقدرتها على زج قوة نار وصدمة تضم حوالي (١٠٠ــ١٢٠) دبابة وعربة مدرعة ، وتمتعها بزخم نفسي حاقد ناجم عن الاسلـــوب السلفي المستخدم للتعبئة المعنويـــة المعتمدة على الايديولوجية الطائفيـــة المتخلفة التي تخاطب الغرائز لا العقل

ولهذا كله كان قادة الهجوم موقنين من القدرة على تحقيق النصر الحاسم والسريع ، فرسموا خطة المعركة ، واعدوا في الوقت نفسه البيانات العسكرية التي ستذاع بعد نجاح الهجوم الذي كان من المنتظر ان يحقق اغراضه خلال يومين او ثلاثة ايام على ابعد تقدير .

ولقد حكم هذا المنطق نفسه تفكير العديد من المراقبين العسكريين والسياسيين خارج المخيم منذ ليلة ٢٢ ــ ٢٣ حزيران ، وخاصة بعد البيانات المتفائلة التي اصدرها المهاجمون في يومي ٢٣ و ٢٤ ، واعلنوا فيها ان قواتهم تتقدم وتكسب المواقع ، وان معنوياتها عالية ، « وليس امام المدافعين سوى الاستسلام ! » . ولم يستطع احد من المهاجمين او المراقبين ان يفسر انذاك بيان قيادة الدفاع عن المخيم حول « تطويق المخيم من جميع الجهات بقوات كبيرة وتعرضه لهجوم قوي ، واستعداده رغم ذلك للصمود » . اذ ليس من المعقول ان تستطيع قوة محدودة ومعزولة ادارة المعركة الدفاعية بنجاح ولمدة طويلة طالما ان قواها البشرية ومخزونها من المؤن والذخائر والمواد الطبية ينقص يوما بعد يوم ، في الوقت الذي يستطيع المهاجم بتجديد قواته ومدها بالرجال والسلاح والمؤن والذخائر بشكل لا ينقطع .

وهكذا حاكم الكثيرون معركة تل الزعتر في ايامها الاولى في ضوء منطقهم . ولكن المدافعين عن المخيم كان لهم منطق اخر . اذ لم يكن المخيم المطوق مجرد موقع ينبغي الدفاع عنه حتى اخر طلقة واخر رجل فحسب ، بل كان بالنسبة اليهم ايضا « منارة » لا بد من بقائها مضيئة اطول مدة ممكنة ، حتى تقرأ الاجيال العربية في ضوئها ملاحم الصمود ، وتتعلم في مدرستها حقائق الدفاع ، وتعي قدرة الانسان العربي على صد الهجمات المتفوقة عندما تتوفر لدى قياداته ومقاتليه الارادة على تحدي المستحيل .

وقدر اكثر المراقبين تفاؤلا ان ميزان القوى يفرض على المدافعين اللجوء الى الدفاع الثابت الذي يوقف المهاجمين ويكبدهم خسائر متراكمة تحد من اندفاعهم وتساعد المدافعين بالتالي على الاحتفاظ بمواقعهم . ولكن القيادة السياسية ــ العسكرية في المخيم لجأت الى اسلوب دفاعي ارقى ، فلم تكتف بالدفاع الثابت الذي يجمد القوة المحتشدة امامها ، بل لجأت الى الدفاع الهجومي ، وشنت (رغم اختلال ميزان القوى) هجمات معاكسة متكررة ، كانت تسترجع على اثرها المواقع المفقودة في المكلس ، ومنطقة المصانع ، وتلة المير ، ورأس الدكوانة ، وحرش تابت . وتطارد المهاجمين المنسحبين وتهاجم قواعد انطلاقهم . وهنا امتزج الصمود في الدفاع مع الاقدام في الهجوم المعاكس . واضطر المهاجمون الى زج المزيد من القوات للهجوم ، وتحول المخيم من موقع محاصر يدافع عن نفسه الى نقطة اجتذاب واستنزاف للقوات المهاجمة ، وبدا الفراش يحترق على المصباح المضيء ، وطالت المعركة اضعاف وسط دهشة المهاجمين والمراقبين على حد سواء ، وبقيت الراية خفاقة فوق هذه المدرسة الدفاعية .

ولقد زاد من اهمية قتال المدافعين وبريقه واعطاه سمة بطولية واضحة ، ان المهاجمين الذين اذهلتهم بطولة الدفاع والخسائر البشرية والمادية التي

اصابت قواتهم خلال الهجمات المتعاقبة، كانوا بحاجة ملحة الى تحقيق نصر عسكري باي ثمن حتى يرفعوا معنويات قواتهم ويغطوا باحتلال المخيم الاثر النفسي السلبي للخسائر الضخمة التي لحقت بهم وخلقت تذمرا بين صفوفهم لهذا جرى دفع المزيد من القوات الى المعركة بشكل جعل التفوق العددي والتسليحي ساحقا . وزاد من ضخامة حشد المهاجمين تنافس تنظيمات « جبهة الكفور » على ارسال قواتها الى منطقة القتال بشكل يضمن وجودها الكثيف في المعركة ، ويدعم بالتالي موقعها داخل جبهة الكفور نفسها وبين صفوف الجماهير المارونية المخدوعة بالدعاية الطائفية.

لكن التفوق المتزايد جوبه بتصاعد الصمود . وبقي مقاتلو المخيم يحاربون ببطولة حتى بعد ان تقلصت الارض التي يسيطرون عليها الى حدود المخيم نفسه وحتى بعد ان اصبح كل شبر من ارض المخيم مزروعا بالقنابل والصواريخ وازدادت الازمة التموينية حدة واصبحت مسألة انقاذ مئات الجرحى معضلة تضغط على قيادة المخيم بعنف قبل ان يتدخل الرأي العام العالمي والصليب الاحمر الدولي لاخلاء الجرحى ابتداء من ٣ آب (اغسطس) . ولا يمكن تفسير هذا الثبات المذهل في الظروف التي احاطت بالمعركة الا بالعوامل التالية :

١ ــ الاستعداد القتالي الجيد ، وارتفاع مستوى المقاتلين والقيادات في مجال المهارات العسكرية .

٢ ــ الاعداد الكامل لمسرح المعركة الدفاعية تكتيكيا ولوجيستيكيا وتحصينيا

٣ ــ تحلي المدافعين عن المخيم بقوى معنوية هائلة ناجمة عن التوعية المستمرة المسبقة ، والقناعة المطلقة بعدالة الحرب التي يخوضونها .

٤ ــ الصمود النفسي لدى سكان المخيم ، وتحليهم بالانضباط الذاتي ، والتفافهم حول طليعتهم المسلحة.

٥ ــ الحزام الناري الذي اقامته الوسائط النارية للقوات المشتركة وجيش لبنان العربي (اساسا) حول المخيم بعد ان تعذر عليها فك التطويق لاسباب ذاتية وموضوعية اهمها التشتت الاستراتيجي الذي تحدثنا عنه من قبل.

٦ ــ المجازر التي ارتكبتها (القوات اللبنانية) في المعارك السابقة (المسلخ، الكرنتينا ، ضبية ، ضهور الشوير ، جسر الباشا ، الفنيعة) ضد السكان المدنيين واسرى (القوات المشتركة) وجرحاها ، وانعكاس هذه المجازر على معنويات المدافعين بشكل جعلهم يلجأون الى القتال المستميت.

٧ ــ خلل المخطط التكتيكي الذي تبناه المهاجمون لادارة المعركة باسلوب الاكورديون « الضغط والتوقف والانسحاب للتحشد ومعاودة الضغط»، بدلا من ادارتها باسلوب ضربات المطرقة المتعاقبة « الضغط المستمر على محور المزق بشكل مستمر ومتعاقب» مع زج الاحتياط بالتتالي لاستغلال النجاحات

الجزئية المحققة في الهجمات السابقـــة والانطلاق منها في هجمات لاحقه تحقق نجاحات جزئية جديدة يؤدي تراكمهـــا الى تحقيق النجاح النهائي » .

ويدفعنا صمود مقاتلي تل الزعتـــر واقدامهم لان نتساءل : ماذا كان بوسع العرب في العصر الحاضر ان يقدموا الى التاريخ العسكري والقيم الحربيـــــه السامية لو ان كل موقع من مواقعهم صمد كتل الزعتر ؟ وما هو الشكل الذي كانت ستدور به الحروب العربـــية ـــ الاسرائيلية ، لو ان كل موقع وتـــل وقرية تحول في هذه الحروب الى نقطة اجتذاب واستنزاف تتابع القتال حتـــى اخر طلقة ، وحتى بعد اعلان الخصم عن سقوطها ؟ لقد اعلن مهاجمو تـــل الزعتر اكثر من مرة ان المخيم قد سقط ولكن الاعلان الناجم عن الرغبة الذاتية شيء والحقائق الموضوعية على ارض المعركة شيء اخر . وكل البيانـــات المدبجة في برلين عن سقوط ستالينغراد في العام ١٩٤٢ لم تؤد الى سقوط المدينة ولم توهن عزائم المدافعين عنها ، ولم تمنع المارشال فون باولوس و٢٣ من جنرالاته و٩١ من جنوده من الوقوع في الاسر في ٣١ـــ١ـــ١٩٤٣ .

ورغم وضوح عدم فك الحصار عـــن المدافعين ، فقد بقيت « منارة الصمود والاقدام » مضيئة في تل الزعتر خـــلال ٥٢ يوما تعرضت فيها لسبعين هجوما مركزا . واذا كان المهاجمون قد احتلوا المخيم في ١٢ آب ، فانهم لن يستطيعوا ان يمسحوا من وعي هذه الامـــــة وتاريخها ان هذه المنارة بقيت واشعت، وخلقت الاسطورة ، وكشفت وسط نار المعركة معدن الانسان العربي المقاتل وفتحت اعين الجميع على الامكانـــات الكامنة في امة العرب وجسدت الفضائل الحربية النادرة لهذه الامة ، وحولت هذه البقعة المحدودة من ارض لبنان الـــى مدرسة لكل العرب ، تماما كما تحولت « قلعة بريست » الحدودية الى مدرسة لكل الشعب السوفياتي ، بفضـــل صمودها ٣٠ يوما امام قوات المارشال النازي فون بول في حزيران وتموز ١٩٤١ رغم تطويق العدو لها من جميع الجهات والتغلغل وراءها مئات الاميال .

هكذا قدم المدافعون عن تل الزعتر دماءهم ثمنا لخلق ملحمة بطولية عربية يفاخرون بها العرب والعالم . وكانـــت الهجمات المتكررة والمتفوقة « حجـــــر المحك » الذي اعطاهم الفرصة لاظهار صلابة معدنهم . وبخلق الملحمة تحول تل الزعتر من ارض لبنانية مجهولـــــة الاسم الى ثروة عربية وجزء من التاريخ العسكري العربي المعاصر ، بعـــد ان غسلت كل صخرة وبيت وحبة ترابفيه بدم عربي طاهر ، وغدت رمزا للصمود والفضيلة العربية ، وشاهدا ملموسا على ان لدى الامة العربية من الامكانات ما يؤهلها لان تبدل وجه المنطقـــة وان تحول اتجاه الصراع ضد الصهيونيـــة نحو النصر .

وكان من المفروض ان يفهم المهاجمون هذه الحقيقة ، وان يعوا ان كل مقاتل في تل الزعتر يشكل بحد ذاته رمزا ، وان يقدروا مغزى البطولة ـــ الاسطورة عندما استطاعوا احتلال المخيم ، وان ينحنوا باجلال وتقدير امام كل مدنـــي واسير وجريح . وكان من المفروض ان يثمنوا الصمود في تل الزعتر كما ثمـــن المارشال رومل صمود حامية بير حكيم فليس هناك من يقدر البطولة مثـــل المقاتل الحقيقي الذي يحترم الخصـــم الشجاع الذي يؤسر وسلاحه بيده ، ولا يحتقر سوى الخصم الجبان الذي يولي الادبار ويمنحه نصرا سهلا رخيـــص الثمن .

الازمة اللبنانية : افكار واقتراحات

الدكتور كلوفيس مقصود

لا بد من ربط المأساة الحاصلة في لبنان بأبعادها العربية والدولية حتى يتسنى لنا أن نعي معانيها ، ونتمكن من الخروج من نتائجهـــا السلبيـــة والمكبلة ٠

الا ان هذا الربط المطلوب النفاذ اليه ببصيرة واعية ومسؤولة ، لا يجب ان يخفي عنا ان التركيب العامودي الطائفي لنظامنا اللبناني جعل مجتمعنا مستباحا لمن خططوا اصابة مقاتل عديدة في الواقع العربي باسره ٠ ومـن هنا يتعين علينا ان نسابق الزمن من اجل دفع المزيد مـن الاسى والتمـزق والضياع حتى نتمكن من ايجاد المناخ الملائم لاعادة الترميم والبناء والسلام الهادف ٠

ان اعداء لبنان والفلسطينيين والعرب بشكل عام وجدوا ان التقسيـم الطوائفي جعل الجسم السياسي اللبناني مرتهنا بنخب تقليدية طائفية تعايشت فترة وتصارعت زمنا الا انها كلها من خلال حكمها وتحكمها عملـت علـى اخراج كل العلاقات العضوية والافقية بين المواطنين عن ما سمي بالشرعية٠ اذ ان مثل هذه العلاقات التي تؤمنها في ظروف لبنان العلمانية الديمقـراطية كان من شأنها ان تجعل لبنان بمنأى عن التفكك الكامن في النظـام الطائفي وان تعطيه المناعة اللازمة لجعله مساهما في قضـايـا المصيـر ٠ مـن هنـا فان نشؤ العلاقات العضوية الوطنية المتجاوزة للعلاقات الطائفية المتخلفـة اخذت تفرز قيادات لبنانية جديدة ومجددة أخافت النخب التقليدية . فما كان من هذه الاخيرة الا ان ادخلت اللبنانيين في معارك وحـوارات مـن شأنهـا تكريس القواعد الطائفية التي ترتكز اليها ، وحرفت المواطنين عن اولوياتهم الحقيقية في مجالي التطور الاجتماعي العام والمسؤوليـة الوطنية التـي تستوجبها مجابهاتنا مع التحدي الاسرائيلي ٠

نشير الى هذا الوضع الداخلي لانه هو الذي افسح في المجال لقراءة مخططي مآسينا لنا ٠ فالنظام اللبناني كما كان قائما كان ديمقراطيا بالشكل وليس بالمضمون ٠ لم يكن هناك توازن بين السلطات وبالتالي كان النظام يفتقد معالم المحاسبة المطلوبة ٠ من هنا تراكمت الاخطاء فما كان يسمـى

بالنظام الحر صار في الحقيقة نظاما متسيبا ، فكانت قراءة مخططي مآسينا قراءة صحيحة ، وجدونا بدون روابط عضوية صلبة فقرروا قبل نضـــوج مناعتنا المجتمعية والوطنية ان يجعلوا منا ساحة لتصفية القضية الفلسطينية وساحة لتصفية حسابات التناقضات العربية ومجالا لتصادم ارادتها وموقعا بالتالي لافقاد العرب توازنهم ووعيهم للاولويات ، ونزيفـــا لمصـــــداقيتهم وفعاليتهم الناشئة والمتوقعة في المجالين السياسي والاقتصادي ٠

ليس هنا المجال لشرح مقدار التشابك بين ترهل النظام اللبناني والمآساة التي نحن فيها منذ اكثر من ستة عشر شهرا ، الا انه لن نتمكن بدون هـذا الادراك من ان نستعيد المقدرة على وقف استمرار التدهور والانهيار ٠

ولعلي ، استطرادا ، اشير الى اهمية حرية الكلمة التي طالما اشـرنا الى ان عدم المسؤولية في أستعمالها يجعلنا كما جعلتنا سـريعـي العطـب، وعدم احترام قدسيتها من شأنه ان يشحن المواقف المتشجنـــة ويحـول دون حوار العقول وعدم احترام حرمة الكلمة طيلة السنوات الماضية من قبل معظم الساسة التقليديين والنخب المتحكمة ـ حتى لا نقول جميعهم ـ ساهم فـــي ايصالنا الى الوضع الذي اصبح التوجه الى الغرائز البدائية والعشائرية اسهل بكثير جدا من التوجه الى العقل ٠ المهم ، حتى ولو جاء ذلك متأخرا، ان نعيد الى الكلمة مسؤوليتها وحرمتها ٠ فالعالم يتابع ما نقوله وما نصرح به وما نعلنه ٠ لانه على اساس ذلك يكتشف جدية قدرتنـــا علـــى تجـاوز مأساتنا ، او يبقى على رأيه باننا اصبحنا مدمنين على استنزاف ذاتنا ،حتى يكاد يحكم علينا العالم الان والاجيال اللاحقة بنا باننا قمنا بحرب بلا هدف فكان السلام الذي يتبع بدون امل ٠

لذا فان التكاثر في استعمال العنف اللفظـــي هـــو الـــذي يعطـل امكانيات استشراف وضوح في التفكير الستراتيجي والمستقبلي ٠ وبـرغـم قناعتنا بان هذه الامكانيات متوفرة الا انهـــا تعيش تحت ظل من الارهاب الفكري ومن الخوف مما جعل الكثير منها يغادر او ينزوي او يتعطل ٠ فكانت النتيجة ان مواقف كثيرة تؤخذ وتعلن وهي لا تنطوي على الكفـــاية مـــن المعلومات ومن التحليل ومن التصور لما قد تحمله هذه المواقف مـــن مردود عكسي ومن مجازر جعلت حربنا الراهنة من اوسخ الحروب واحقرها ٠

الا ان هذا الواقع المريض للنظام اللبناني وحتميـة سقـوطه وسـرعة عطبه وعفونته ، لا يفسر هذا المستوى من الاقتتال وهذا الاستمرار لهـــذه المدة في التصعيد الاقتتالي ٠ من هنا تجيء عملية الربط المطلوبة ٠

منـــذ انتهاء حرب تشرين عـام ١٩٧٣ ادرك العالم ان العـرب وان لم

يحققوا انتصارا بمعنى الحسم ، الا انهم هزموا هزيمة عام ١٩٦٧ · وكانت النتيجة أن استعاد العرب ثقتهم بانفسهم وكسبوا لانفسهم مصداقية جعلت العالم يرشحهم لان يلعبوا ادورا مسؤولة وضخمة في المعادلات الستراتيجية وفـي المجالات المالية والاقتصادية · كما ان التضامن العربي اوضح ما يمكن للعرب ان يفعلوه خاصة اذا ما طوروا التعاون الى تنسيق او وحدة ·

على اثر هذا التطور اخذت اسرائيل تدرك حدود قوتها كما ظهرت فيها بوادر الشك بجدوى التزمت في صهيونيتها · وككل الكيانـات العنصـرية والاسنعمارية ربطت نجاح العرب في ردعها باحتمال قدرة العرب المستقبليـة على تقويض كيانها الصهيوني وافشال كل مخططاتها العنصرية والتوسعيـة والعدوانية ·

وادركت الولايات المتحدة ان موازين قوى جديدة اخذت تنشأ في المنطقة العربية وكان لا بد من تطويق مثل هذه الاحتمالات · من هنا برزت معالـم الخطة الاميركية التي تجلت في سياسة الخطوة خطوة والتي ادت في نتيجتها المنطقية الى عقد اتفاقية سيناء الثانية · ماذا كان التصور الاميركي في هذا المجال ؟ ان معالم الخطة الاميركية كانت تستهدف باختصار الامور التالية :

اولا ـ اعطاء اسرائيل الفرصة لاعادة ترميم ثقتها بنفسها مـن جراء الصدمة المحدودة التي اصابتها بعد حرب تشرين · جـاءت سياسة الخطوة خطوة تعمل على عزل مصر ـ الدولة العربية الاكبر والاهم ـ عن مجـالات الفعل في الساحة العربية ·

استتبع هذا بالضرورة تنشيط علاقات ثنائية بين دول عربية والولايـات المتحدة تترجح على العلاقات القومية بين الدول العربية واكثر من ذلك فقـد قصدت سياسة كيسنجر ان لا ينشأ اي تنسيق مقبل بين دول المجابهة ، وان تكون كل التوجهات نحو التسوية مفصولة عن بعضها من حيث التنسيق ومن حيث التوقيت· هذا ما ادى الى تصدع المحور السوري ـ المصري رغم التزامهما المشترك بنفس القرارات الاساسية المتحكمة بالتسوية للنزاع العربي الاسرائيلي· لذا فان تفاقم القتال واستمراريته في لبنان يفسر الى حد كبير بكونه انعكاسا لهذا النزاع الحاد مرحليا والمصطنع جوهريا ·

ثانيا ـ ارادت دبلوماسية الملوك التي اعتمدها كيسنجر تنشيط الدور المركزي للولايات المتحدة في تقرير مصير المنطقة ، مما ادى الى تمكينها مـن تسيير تطورات المنطقة بما يزيد حتى عن توقعاتها · وما اسهم في اضعاف مواقفنا وتمييعها في سائر المجالات وعلى كافة المستويات · ان افتقادنا لانفسنا

مركزية التوجيه لمصائرنا مرحليا على الاقل حتم على الثورة الفلسطينية ان نتدارك النتائج السلبية لمثل هذا التمركز الاميركي في تحريك الكثير من عناصر المنطقة ، وقد ادى هذا التدارك الفلسطيني الى اخذ خط مخالف ، وبعض الاحيان ، متناقض مع توجه انظمة المجابهة بحيث وثقت الثورة علاقاتها بالعالم الثالث وبالمعسكر الاشتراكي وبالقطاعات التقدمية في العالم · اكثر من ذلك كان لا بد للثورة من ترسيخ استقلاليتها الذاتية لان هذه الاستقلالية ضرورية لحماية مكاسبها الدولية والقومية وحمايتها من الابتلاع بنمط من التطور يسقط بالنتيجة الحقوق الوطنية والتاريخية والشرعية للشعب الفلسطيني ·

من هنا كان لا بد من السعي لاستدراج المقاومة الفلسطينية الى معارك سعت ما استطاعت الى تجنبها ، لانها وعت ان الحرب النفسية التي واجهتها ولا تزال تواجهها في لبنان انما تستهدف صرفها عن مهامها الاصيلة من خلال وضعها بين فكي كماشة ـ احداهما العدوانية الاسرائيلية من جهة ، والتأجج الطائفي الذي عمل على جعل مفهوم السيادة اللبنانية قائما على مجابهة الفلسطينيين بدلا من مجابهة الاسرائيليين ، من جهة ثانية ·

ويعود استمرار الازمة والتقاتل ايضا الى كون دول المجابهة وانظمتها سلمت بنسب متفاوتة بتوجيه مقدرات المنطقة الى الولايات المتحدة · واذا ادركنا مدى ترابط وتحيز الولايات المتحدة لامن اسرائيل ، بموجب مقاييس اسرائيل ، لادركنا مدى صدق مخاوف الفلسطينيين على مكاسبهم وحقوقهم . وسبب اصرارهم على الاستقلالية وسط واقع عربي يتخلى تدريجيا عن التزاماته باهدافهم المشروعة وحقوقهم المهضومة ·

ثالثا ـ تعمدت الدبلوماسية الاميركية ادخال العرب في حوار مغلوط مع انفسهم بحيث جعلت التنمية الوطنية لمختلف الاقطار العربية مرهونة بمقدار تضاؤل التعبئة القومية للمجابهة · فكان من نتائج هذه السياسة ان تأمنت المصالح الاقتصادية الاميركية خاصة في مجال التأمين البترولي ـ وخاصة وقد اصبحت السعودية اكبر مصدر للنفط المستورد للولايات المتحدة ـ مما جعلها تدفع السعودية الى ان تلعب دورا في المنطقة كانت مصر بحكم موقعها وضخامتها مؤهلة اكثر له ·

هذا بدوره يفسر الى حد كبير ارتباط التحرك العربي وعدم قدرة الاقطار العربية على الحسم بموضوع لبنان ، وبالتالي يفسر العجز العربي الراهن امام مأساتنا وكون القرارات التي اتخذت لم تكن **من المستوى المطلوب** ـ اي القمة ـ وبالمستوى المطلوب ·

رابعا ـ بعدما امنت الولايات المتحدة اهدافها الرئيسية ـ اي توجـــه انظمة المجابهة نحو التسوية بموجب مركزية الاولويات الاميركية ، وتأميـن الحاجات النفطية وتأمين الامن الاسرائيلي بالمفهوم الاسرائيلي له من خـــلال تفكك القوى المباشرة للمجابهة وانحلال العلائق القومية للعرب بصورة عامة ، صارت الازمة اللبنانية ومأساة لبنان بالنسبة اليها ولستراتيجيتها العامـــة مسألة ثانوية لا تثير اهتمامات اساسية ٠

وكان من جراء ذلك ان تمادت القوى المتربصة بوحدة لبنان الحقيقية وبالقضية الفلسطينية في عملية انقضاض غير مردوعة فعليا من جراء الانحلال القوي في الساحة العربية ومن جراء الاكتفاء الاميركي باجترار الالتزامـات الشكلية بوحدة لبنان وسيادته ٠

ثم جاء دخول الجيش السوري الى لبنان ليعطي كفة القوى اليمينيـــة رجحانا يجعلها ممعنة في عملية الانقضاض دون ان تردعها ارادة عربية واضحة او قرار عربي حاسم ، وبرغم انه يوجد لدى جميع الاطراف اقرار بأن لسوريا دورا خاصا ومتميزا في الازمة اللبنانية من حيث جغرافيتها ومقتضيات امنها (وكان هناك لدى المقاومة الفلسطينية وكل القطاعـات اللبنانية الوطنيـــة باستمرار حرص على هذا الدور) الا ان هذا لم يكن ليعني التسليم بـدور مستأثر او هيمنة او سيطرة ٠ وكان رفض سعي سوريا الى الاستئثار نابعا ـ وخاصة في ظروف المنطقة الراهنة ـ من ضرورة المحافظة على استقـلال لبنان ووحدته وعلى قدرة المقاومة الفلسطينية على ممارسة استقلاليتها الذاتية وحريتها في الحركة وسط التناقضات العربية المخيفـة وحريتها فـي تحريك الجماهير العربية التي هي احتياطها الطبيعي ومداها الحيوي ٠

على ضوء هذه العناوين لمعطيات مأساتنا المتفاقمة لا بد لنا من التساؤل عن المخرج من هذا المأزق المدمر ٠

بادىء ذي بدء لا بد من الاقرار بأن خروجنا من المأساة لن يكون للاسف قفزا بل تدرجا ٠ وحتى نضمن عملية الخروج لا بد من تحديد مراحل الخروج والخطوات الفورية والمرحلية والمقبلـة المطلوبة ٠ اكثـــر مـن ذلك وبالنظر للتعقيدات والظروف المتشعبة والاقتتال المتفاقم فانه مطلوب لا ان **تمرحـــل** الخطوات والاجراءاتبموجب جدول زمني بل ايضا ان تتواقت ـ اي ان تجيء بنفس الوقت ـ اجراءات عربية وسورية وفلسطينية ، وفلسطينية لبنانيـة ، ولبنانية لبنانية ٠

من هنا ضرورة الدقة في التعبير والوضوح في التفكير وعدم اللجوء الى

استسهال الحلول · نقول هذا ونحن نعي مدى الارهاق الذي اصبنا به والذي لا بد ان يلازمنا الى وقت يطول او يقصر بمقدار وضوح الرؤية فيما نريد وفيما لا نريد ·

★ ★ ★

على ضوء ما تقدم لا بد من التقرير انه في المراحل القادمة لا يمكن لنا معالجة الازمة المأساة من خلال مسبيبها · كما انه لا يمكن ولا يجوز ان تبقى أو تترسخ المعادلات الطائفية التي كرست التمزق ، ولم تكن صيغ الميثاق الوطني، سوى غطاء لهذا التمزق في الجسم اللبناني وعقدا اوضحت الازمة المأساة كم كان جهنميا لضمان توارث الزعامات الطائفية التقليدية ·

يتشكل عندنا اذن قناعة كاملة في ان وقف اطلاق النار لن يتحقق بالمستوى المطلوب ما دامت معظم القيادات التي افرزها التركيب العامودي الطائفي منذ نصف قرن تدرك ان اي وقف حقيقي لاطلاق النار واحلال سلام حقيقي في الربوع اللبنانية سوف يؤدي الى محاسبة عسيرة لهذه القيادات ، لا من قبل جميع اللبنانيين فقط بل من قبل محازيبهم المشحونين باهداف مستحيلة التحقيق ، واوضاع نفسية خائفة حولتهم الى وقود بشرية لماارب استمرار هذه الزعامات ·

فمن حيث أن وقف اطلاق النار اصبح مطلبا ملحا للغاية لمنع المزيد من التفتيت ومن التمزق والدمار ، فان وقف اطلاق النار يجب ان لا يقتصر على مجرد رغبات معلنة بل على اجراءات محددة مصدقه ومضمونة · من هنا فان الطلب الملح بشأن زيادة قوات الامن العربية حتى تصل على الاقل الى نحو ثلاثين الف جندي من مختلف الدول · نقول هذا لانه ليس مهما ان نحقق وقفا **متقطعا** للقتال والاقتتال ، بل يساهم في احلال فترة نقاهة يمكن للبنانيين اثناءها التخطيط للسلام الحقيقي · ان مضاعفة قوات الامن العربية الى الحد الادنى المقترح يستوجب بالضرورة قرارا عربيا حاسما وملزما ، من هنا فان مؤتمر قمة عربي اصبح لا حاجة لبنانية وفلسطينية فحسب بل حاجة عربية اولا· ·

في هذا الصدد لا بد من ان نقرر ان التلاشي العربي والانحلال الذين ظهرا في الواقع العربي والذي جعل الدول العربية تتردد وتتقاعس وتقف وكأنها مشلولة امام المأساة الحاصلة في لبنان ، افقدنا كعرب كل ما حققناه من هيبة وما توقعه العالم من جدية والتزام وما تصوروه من جدية في معالجاتنا لقضايانا المصيرية ولالتزاماتنا القومية ·

والدليل الاخير على هذا الانحدار في درك الـصرف العربي تجاه مأساة لبنان هو ، بالاضافة الى التاخير المعيب في انعقاد مؤتمر قمة ، هذا التعثر والعشوائية بين صيغة مؤتمر قمة شامل او مؤتمر قمة رباعي ·

ومهما قيل في فوائد قمة مصغرة ، من حيث قدرة هذا المؤتمر على حصر البحث بموضوع لبنان ، فان الهدف من هذا الحصر هو جعل التسوية للازمة اللبنانية ـ اللبنانية وللمعادلة اللبنانية ـ الفلسطينية **متناغمة** مـــع تـوجه انظمة دول المجابهة ـ والدول النفطية (السعودية والكويت) نحو التسوية بموجب الصياغات الاميركية العامة ·

من جهة اخرى فان ما شاهدناه من لا مبالاة فعلية طيلة هذه المـدة من مأساتنا من الدول العربية يجعل جدوى مثل هذا الاجتماع ضيئلة امامزالق مؤتمر قمة عربية مصغرة ومخاوفنا الحقيقية منه ، وامام ضآلة توقعاتنا مـن مؤتمر قمة عربي شامل · فاننا ازاء ما يحدث في لبنان من مجازر على كل المستويات ، وما يحدث في المنطقة من أختلال حقيقي في موازين القوة لصالح العدو الاسرائيلي نؤيد السرعة في **اجتماع قمة عربية ما** · ولعله امام هذا البطء في التحرك العربي وامام مقتضيات السرعة المطلوبة لتدخل عربي جماعي لوقف النزيف الجنوني في جسمنا السياسي ـ وفي عقلنا السياسي ايضاً ـ نرى لزاما ان نقترح كاجراء ذرائعي **جعل مؤتمر القمة المصغرة مفتوحـا** للدول العربية الراغبة في المشاركة ، حتى يأتي القرار **باسرع ما يمكن** وباقرب وقت ممكن خاصة وان عددا من الدول العربية ابدى استعداده للمشاركة ·

ولا بد لقرار مؤتمر القمة المنوي عقده ان يؤمن بالنسبة للوجـــود العسكري السوري مسألتين هامتين:جدولة الانسحاب الكامل من لبنان بموجب مراحل زمنية تبدأ باحلال فوري لقوات امن عربية في مناطق صوفر وجزيـــن ومن ثم التدرج نحو ما يلزمه قرار القمة في هذا الصدد · ولا بد في هـــذا المضمار من ان تكون هناك مشاركة سورية مهمة في قوة الامن العربية يضمن دورها المتميز ويلغي دورها المستأثر والمتحيز ·

ولا بـد مـع هذا ان يتم الاعـداد لقيـام مؤسســات الـــدولـة ـ لا لعودتها ـ من خلال ادخال تعديلات جذرية في النظـام يتضمن وحـدة لبنان العضوية وسيادته الكاملة ، وتوجها لمعالجة القضايا المعلقة والمستجدة اثـر معاناة استمرت اكثر من ستة عشر شهرا · من هنا لا بد من ان يلازم قرار القمة قرار يتعلق بالاجراءات المالية والاقتصادية الكفيلة باعادة الحياة الطبيعية بعد ان دفع لبنان ثمنا غاليا للكسل العربي في معالجـة تناقضاته ، وعلـى المستوى اللبناني لا بد من مباشرة الحوار السياسي الهادف انطلاقا من قواسم

مشتركة اصبحت معروفة ٠

كل هذا من شأنه بالطبع أن يرسي معادلة العلاقات الفلسطينية ـ اللبنانية على اسس من الثقة بأن الدولة اللبنانية الخارجة من انقاض المأساة هي في خندق واحد مع الثورة الفلسطينية في مجابهة العدو المشترك ٠ ولا بد من ان تكون اتفاقية القاهرة وما تبعها من ملاحق (هي محصلة معاناتنا المشتركة) اساس العلاقة القائمة على الثقة المتبادلة ٠

ولا بد من التذكير في هذا الصدد بأنه يتوجب علينا ان نستمر في في مساعينا الجادة لتوسيع اطار الجبهة العريضة على اسس تصورات وقناعات مشتركة ٠ وفي هذا المجال لا بد من الخروج من دائرة التقوقع المذهبي من جهة والانفلاش التقليدي من جهة اخرى ٠ كما يتوجب في هذا المضمار الاقرار بانفتاح الحركة الوطنية على الوسط اللبناني بدون تردد او تزمت او مكابرة كما ان على الوسط بدوره ان لا يتصرف وكأنه بديل محتمل تراهن عليه بعض الانظمة العربية فيتصور أن بمقدوره ان يتجاهل القوى التقدمية والعلمانية والشعبية التي اصبحت واقعا متعاظم القوة والاهمية في الجسم اللبناني ، والتي اثبتت من خلال نضالاتها المطلبية وتلاحمها مع الثورة الفلسطينية أنها مؤهلة لادخال لبنان في عملية صناعة المستقبل العربي بأسره ٠

الحربُ الاهلية والحرب الوطنية

خالد جابر

تطرح الحرب الاهلية في لبنان ، مسالة نظرية بالغة الدقة · فالحروب الاهلية ليست مسائل عابرة في تاريخ الشعوب · بل هي احدى المحطات الرئيسية التي تصنع التحولات الكبرى في التاريخ العاصر · غير انها ، في الحالة اللبنانية ، ليست مجرد حرب أهلية داخلية ، بل هي امتداد للحرب الوطنية التي تخوضها الامة العربية ضد عدوها الصهيوني ـ الاميركي · هنا تطرح مسالة هامة : ما هي علاقة الحرب الاهلية بالحرب الوطنية ؟ في أية لحظة تاريخية تصبح الحرب الاهلية شرطا لازما لنمو واستمرار الحرب الوطنية ؟ ربما ، تقدم دراسة الحرب الاهلية في لبنان ، بكل بطولاتها ومراحلها، اجوبة أولية على هذه المسالة ·

ان النقطة الاولى التي تسترعي الانتباه ، هي كون الثورة الفلسطينية تشكل طرفا رئيسيا في هذه الحرب · والواقع ، ان هذه المشاركة ليست جديدة على الحركة الثورية الفلسطينية · فتاريخ الثورة الفلسطينية ، الى جانب كونه تاريخ صدامات واسعة مسلحة وانتفاضات جماهيرية في وجه الاحتلال الصهيوني ، هو تاريخ صراعات وصدامات مسلحة في الداخل العربي ، مع القوى الاكثر رجعية وارتباطا والتي تتحكم في سلطة كيانين عربيين ، هما الاردن ولبنان ·

ان شعار « كل البنادق نحو العدو » الذي رفعته الثورة هو شعار صحيح، لانه يركز على مسالة التناقض الرئيسي بين مجموع الطبقات والفئات الوطنية العربية وعدوها الوطني · لكنه ليس مقولة للعبادة · فهو حين يفهم كشعار تكتيكي من أجل التخلي عنه عند أول سانحة ، يقود الى حجب التناقض الرئيسي · ويغرق مسالة الخلاص الوطني في ركام من الشعارات الطفولية البراقة · ويؤدي بأصحابه الى الوقوع في الانحراف اليميني والتبعية · اما اعتباره صنما لا يمكن المساس به ، واعتبار كل صدام مع أي نظام عربي ، وفي أى شرط ، انحرافا بالثورة عن مهمتها الاساسية فانه يقود الى الذيلية · فأي شعار سياسي صحيح ، يجب عدم التعامل معه بشكل كهنوتي · البنادق يمكن

أن توجه ، وهي توجه عمليا ضد قوى مرتبطة بالعدو ، أو ضد طبقـــات ، لها مصلحة في المساومه ، اذا كانت الثورة في مرحلة تسمـح بها لنفسها بضرب هذه القوى ، كنقطة تقدم على العدو الرئيسي . لا بد منها · ومن أجل أن توجه كل البنادق نحو العدو ·

ان واقع مشاركة الثورة الفلسطينية في صراعات محلية وحروب أهلية ، يطرح ضرورة الاجابة على موضوعة علاقة الحرب الوطنية بمجمـــوع هذه الصدامات · هل يعني شعار كل البنادق نحو العدو ، انه يجب تجنب أي صدام داخلي ومهما كان الثمن ، لانه يلهي الثورة عن مهمتها الاساسية ؟ ماذا تعني مهمة الثورة الاساسية في الشروط المحددة لتواجدها على أرض المشرق العربي، وفي كيان مثل الكيان اللبناني ؟

الحرب الوطنيـــة والحرب الاهليـــة

الحرب الوطنية ، هي في عصرنا ، نضال مسلح تخـــوضه الشعوب المستعمرة في سبيل ضرب الهيمنة الاستعمارية · وهي بهـذا المعنى شكل من اشكال الصراع الطبقي على المستويين العـــالمي والداخلي : فعلى المستوى العالمي ، تقوم الحروب الوطنية ، بتوجيه الضربات للقوىالرأسمالية الامبريالية، التي تسعى الى الهيمنة والتوسع · من هنا ، فهي توجـه ضربات للبرجوازيات الامبريالية · وحين تجبرها على التراجع ، أو تفرض عليها الهزيمة في أرض المعركة المحلية ، فهي تساهم في اضعاف نفـوذها على الصعيـــد الدولي ، وتعجل في ضرب قبضتها وهيبتها وقدرتها على الاستمرار · اما على المستوى الداخلي : فالحرب الوطنيـــة ، تستدعي بالضرورة جبهـــة تحالفات لمجموع الطبقات والفئات الوطنية في مواجهـة الغزو الخارجي · هـــذه الجبهة ، لا تدخلها الطبقات والفئات الكمبرادورية الطفيلية المرتبطة بالعدو الوطني · كما ان العلاقات الطبقية داخل هذه الجبهة تتعرض لصراعات مختلفة ، حيث تحدد طبيعة المعركة والمهمات المطروحة بالاضافة الى العوامل الذاتية ، الطبقة أو التحالف الطبقي الذي يقود الجبهة ·

من هنا ، تعكس الحرب الوطنية الصراع الطبقي الداخـلي كما تنعكس عليه · وتعبر في مراحلها المختلفة عن توازنات وتحـــالفات هذا الصراع · لـذلك لم تعرف الحروب الوطنية التي خاضتهـــا وتخوضها شعوب البلدان المستعمرة والتابعة ، حروبا صافية · أي مجـرد حروب تتـوجـه ضد العدو الوطني · بل فقد اختلطت الحروب الوطنية دائما بالحروب الاهليـــة · وهذا ما تشير اليه بشكل واضح تجارب شعوب الصين وفيتنام ولاوس وكمبوديا··· يشير هذا الاختلاط الى كون الحرب الاهلية ، تشكل في شروط حرب الشعب ، مرحلة لا بد منها في سبيل ترسيخ التحالف الوطني بقيادة القوى الطبقية الاكثر

جذرية · ولم يسبق أن رفض الثوريون ، وهم يشاركون في حرب الدفاع عن الوطن ، الانخراط في الحروب الاهلية ، عندما تأتي كقفزة الى الامام في سبيل انجاز المرحلة الوطنية الديمقراطية · واذا كان المثال الجزائري يعطى عـــادة كنقيض لهذا التحليل ، فان الحرب الوطنية الجزائريـــة لا تخرج عنه الا في خصوصية حربها التي كانت توجه أساسا ضد الاستعمار الفرنسي الذي يتهاوى في العالم بأسره · لذلك لم تنفجر الصراعات الداخلية الحادة (رغم ان الجزائر عرفت خلال الحرب دعوات وممارسات التعاون مع المحتل) الا عشية النصر ·

يقودنا هذا التحليل الى مجموعة حقائق :

١ ــ ان النضال الوطنيضد العدو الرئيسيليس نضالا مستقيما دائما،بل هو نضال متعرج · فالتناقض الرئيسي مـع العدو الصهيوني ــ الاميركي ، لا يعني ان جميع التناقضات الثانوية يمكن حلها بالحوار · بل قد تصل احداها، وفي مرحلة معينة ، الى مرتبة تناقض رئيسي يجب حسمه بقوة السلاح ·

٢ ــ تستدعي الحرب الوطنية ، الحروب الاهلية · فاقامـة جبهة وطنية متحدة ، تعني مزيدا من القدرة على الحسم مع العملاء والفئاتالمرتبطة بالعدو· كما تعني قدرة على فرض شكل أرقى من الديمقراطية على البرجوازية ، مـع ضرب أجنحتهـــا المترددة التي تدعو الى تقسيم صفوف الجبهـــة ، أو الى الاستسلام للعدو ·

٣ ــ ان اعتبار كل حرب أهلية ، ومهمـــا كانت شروطها ، الهاء للثورة الوطنية عن واجبها الرئيسي ، تعني تسليم رقبـــة الجماهير للذبح على أيدي العملاء ومعاداة كل تقـدم تحرزه الثورة · فالحروب الاهليـــة في الشرط الفلسطيني ــ العربي ، تجري ، ضمن تجزئة الوطن الواحد الى كيانات ، وفرض حكومات مرتبطة ، في شرطين رئيسيين :

أ ــ في شرط عام . يكون فيه العدو الوطني منتصرا . حيث يفرضالتنازلات على الانظمة الوطنية . ويدفع بعملائه وحلفائه الـــى شن حروب الابادة ضد الجماهير المقاتلة · وهذا ما جرى عمليا في الاردن عام ١٩٧٠ ، حيث كانالعدو الاميركي ــ الصهيوني ، خارجا من حرب حزيران بكـــل الغطرسة التي منحه اياها نصر حزيران الرخيص · في هذه الحـــالة ، على الحركة الجماهيرية الصمود في المواقع . والبحث عن أوسع جبهة تحالفات فـي سبيل صد الهجمة وايقافها عند حدها ·

ب ــ في شرط عام . يكون فيه معسكر الاعداء قد تلقى ضربة تجبره على

التراجع محليا ، وحيث يكون وضعه العالمي مهتزا · عندها على الثورة خوض غمار الحرب الاهلية في سبيل تحقيق تقدم مستمر داخل الجبهة الوطنية · فتقوم الثورة ، بترجمه التقدم الموضوعي الى انجازات ملموسة · هذه هي الوجهة الغالبة للحرب الاهلية في لبنان · رغم انها تحمل انعكاسات التجزئة ، واوزار منطق المساومة الذي يحكم تقدم البرجوازية السورية في لبنان ، حيث انتقلت الحرب الاهلية من كونها جبهة عربية واسعة ضد القوى الفاشية الانعزالية ، الى حرب أهلية عربية · هذا هو قانون التطور الثوري في الكيانات، حين يرتطم هذا التطور بسقف الادارة العامة لمجمل الصراع العربي الاسرائيلي ·

٤ ـ الثوري الحقيقي ، هو الذي لا يخشى الحرب الاهلية ، بل يسعى اليها · يقول ماوتسي تونغ : « عندما لا تكون هناك هجمات مسلحة من قبل الامبريالية ، فان مهمة الحزب الشيوعي الصيني هي اما أن يخوض حربا أهلية بالاشتراك مع البرجوازية ضد أمراء الحرب (عملاء الامبريالية) واما ان يتحد مع الفلاحين والبرجوازية الصغيرة في المدن لخوض حرب أهلية ضد طبقة ملاك الاراضي والبرجوازية الكمبرادورية (عملاء الامبريالية ايضا) » · (قضايا الحرب والاستراتيجية · المجلد الثاني ص ٣٠٥) ·

فالحرب الاهلية ليست شبحا يجب الخوف منه · بل هي مسار تاريخي يصل فيه الصراع الطبقي الى قمته (١) · فالتحالف الطبقي يتعرض داخل المعركة الوطنية الى انشطارات حتمية في داخله ، تسمح هذه الانشطارات ، وفي ظروف ملائمة ، للقوى الثورية باحراز المزيد من الانتصارات · لذلك فهي تخوض الحرب الاهلية بشكل واع ولا تخشاها ، ولا تتوقف أمام همسات صغار البرجوازيين المترددين الذين لا يرون سوى المجازر ، ويكتشفون ان ما كتب في

---

(١) يقول لينين في مقاله « حرب الانصار » (المؤلفات الكاملة · المجلد الحادي عشر · ص ٢٢٢ · الطبعة الفرنسية ـ دار التقدم ـ موسكو) : « لا يمكن للماركسي ان يعتبر بشكل عام ان الحرب الاهلية او حرب الانصار التي هي شكل من أشكالها مسألة غير طبيعية او غير اخلاقية · فالارضية التي يقف عليها الماركسي هي الصراع الطبقي لا السلام الاجتماعي · يؤدي نمو الصراع الطبقي خلال فترات الازمات الاقتصادية والسياسية الحادة الى حرب اهلية حقيقية ، اي الى صراع مسلح بين قسمين من مجموع السكان · من واجب الماركسي في هذه المراحل أن يتخذ موقعه في الحرب الاهلية · ان كل ادانة اخلاقية للحرب الاهلية مرفوضة بشكل قاطع من الوجهة الماركسية · على حزب البروليتاريا ان يتخذ في عصر الحرب الاهلية الحزب المقاتل مثالا له ، وهذا امر لا يقبل الاحتجاج على الاطلاق » ·

الكتب الرومانسية عن الثورات لا يطابق الواقع ،فيغسلون أيديهم حتى لا تلوث بالطائفية والقتل ! وينشرون التردد والتخاذل في صفوف الجماهير · الحرب الاهلية بالنسبة للثوريين ، ضرورية ، ويجب أن تتحول الى نقطة ايجابية تخدم قضية الدفاع عن الوطن والشعب التي هي القضية الاولى للطبقة العاملة في البلاد القابعة والمستعمرة ·

شروط الحرب الاهلية في لبنان

لم تفاجىء الحرب الاهلية في لبنان القوى الفعليـــة التي شاركت في صنعها ، رغم ان مسارها ربما فاجأ بعضها · فجميـــع المـؤشرات الدولية والعربية والمحلية ، كانت تشير الى حتمية انفجار الصراع المسلح على أرض لبنان ، بين الثورة والقوى الانعزالية المرتبطة · كما ان مســار الحرب ، في ظل مشاريع المساومة مع العدو الوطني ، فرض تحولها الى حرب اهلية عربية ، وفرض الصدام بين الجماهير وقوات الاجتياح العسكري السوري المدرع :

فعلى المستوى الدولي كان التوازن المؤقت الذي أقيم في المشرق العربي بعد ضرب الاستعمار القديم قد تساقط مع حرب حزيران ، ومع الهجمة الاميركية الصهيونية الشرسة على مصر وسوريا · ولقد استطـــاعت حرب تشرين أن تعـــدل ميزان القوى بشكل فعلي ، في وقت كانت فيه القبضة الاميركية تتعرض للضربات في جميع أنحاء العالم · ان الاختلال الجديد في التوازن الذي حصل بعد حرب تشرين . أجبر الامبريالية على تقديم تنازلات جزئية في سبيل التقاط الانفاس · ان الواقع الدولي العام الذي يؤشر الى تراجع الامبريالية الاميركية لا يعني ان أظافرها قد قطعت ، أو انها فقدت جميع امكانياتها ، بل هي تتراجع وتضع في حقل تراجعها ألغاما موقوتة . وتشن هجمات وقائية ، تسمح لها وفي شروط أفضل بالهجوم العام في سبيل استعادة مواقعها ·

على المستوى العربي استطـــاعت حرب تشرين ، عبر توجيهها ضربة حقيقية للعدو الصهيوني . أن تجبر الامبريالية الاميركية على اعادة النظر في استراتيجيتها الشرق أوسطية · وسمحت للانظمة العربية بأن تحقق تقدما فعليا لصلحتها في ميزان القوى في المنطقة · واذا كانت الاتجاهات المساومة قـــد استطاعت أن تفرض تراجعات ملموسة نتيجة تحكم البرجوازية بمقاليد السلطة. وتخوفها من الصدام مع العدو الاميركي ، فان الوجهة العامة التي افرزتهـــا

الحرب قد سمحت بتقدم عربي ، انعكس بدوره عـــلى الصيغـــة اللبنانية عبر محاولات الطرف الوطني « الاسلامي » اضعاف الغلبة المارونية · انعكست هذه المحاولات عبر حركات احتجاج في الشارع الوطني وصلت ذروتها في الحرب الاهلية · ان هذا هو التفسير الفعلي لقدرة التحالف الفلسطيني السوريالوطني في فرض تراجعات ملموسة على الطرف الانعزالي · أما انفجار هذا التحالف فيعود الى الصراع على افق التسوية مع العدو ، وعلى الحـــدود التي ارادت البرجوازية السورية تكبيل الثورة الفلسطينية ضمنها ، عبر تحجيمها وادراجها ضمن التصور السوري للتسوية ·

اما على المستوى المحلي فلقد تعرض التوازن اللبنـــاني لاختلال عميق نتيجة فقدان نقطة التوازن الرئيسية بين الحركة الوطنية العربية والامبريالية · فالواقع الجديد الذي انعكس ايجابيا على نمو الثورة والحركة الوطنية لم يحسم مسالة التوازن هذه ، بل شكل نقطة متقدمة في صراعاتها · من هنا ، كان قلق الدوائر الامبريالية على عملائها المحليين ، ومحاولتها شن هجوم وقائي بهم ، لم يكن بمقدورها تقديم الدعم الكافي له كي ينجح · فانتقلت الثورة والحركـة الوطنية الى الهجوم العام ، واضعة ولاول مرة مصير الكيـــان اللبناني على بساط البحث · فانفجار ١٣ نيسان ١٩٧٥ لم يكن سوى حلقـة متقدمة لاختلال عميق في توازنات المنطقة لا يمكن حسمه الا بقوة السلاح ·

في سياق الحرب الاهلية ، قدمت مجموعة من التحاليل في سبيل فهمها بشكل أفضل ، من أجل صياغة تكتيكات واستراتيجية تحقق النصر · ســوف نتوقف الآن ، عند أربعة تفسيرات تشارك بعضها في تحمل مسؤولية التراجع الذي يفرض على الحركة الجماهيرية اليوم · ان مناقشة هذه التحـــاليل تدخل في صلب مهمة القوى الثورية . لان دحض الآراء الخاطئة ، واكتشاف الافكار السديدة التي هي التلخيص المكثف لتجربة الجماهير على ضوء النظرية الثورية، هو وحده الذي يسمح لنا بفهم تجربتنا بشكل ايجابي في سبيل توظيف دروس التراجع من أجل عمليات تقدم الثورة الى الامام ·

التفسير الاول : **الحرب الاهلية هي مؤامرة اميركيـة صهيونية لضرب الثورة في لبنان** تستند هذه المقولة الى فهم خاطىء لطبيعة الوضع اللبناني، ولطبيعة الصراع الدائر على أرض لبنان · ما هي المؤامرة ؟ المؤامرة هي تحرك سياسي يقوم به قبضة من العملاء · فهي قد تأخذ شكل اغتيـــالات سياسية او عمليات ، او قد تصل الى مستوى الانقلاب العسكري · لكن المؤامرة لا تشعل حربا أهلية تشترك فيها جميع الشرائح الاجتماعية والطوائف والقوىالسياسية·

ان استخدام كلمة مؤامرة ، يخفي مفهوما خـــاطئا للصراعات الاجتماعيـة والطبقات والحروب · فالمؤامر يستطيع الدخول فـي الصراع ، أي ان اشتعال حرب أهلية يسمح للعملاء والجواسيس والعصابات بمحاولة التأثير في مسار الحرب عبر استخدام الاسلوب التآمري · تحمل هذه المقولة كـــذلك . مفهوما خاطئا لطبيعة الامبريالية · فالامبريالية التي تستطيع عبر التآمر اشعال حرب أهلية ، هي امبريالية لها قدرة غير محدودة ، وأصابعهـــا تلعب في الخفاء وتفصل ثياب التاريخ ·

ان التركيز على الجانب التآمري وحده في الحرب الاهلية ، يقود الـــى مفاهيم وممارسات خاطئة تهمل دراسة الواقع الفعلي وتناقضاته التي فجرت الحرب الاهلية · وتعجز عن التعامل مـــع المتآمرين الصهاينـة والاميركيين واشباههم الذين يحاولون التدخل في مسار الحرب الاهلية ·

التفسير الثاني : **الحرب الاهلية هي هجوم اميركي عام على المنطقة العربية** ينطلق هذا التفسير ، من بعض ظواهر الواقع العربي ليعممها دون محـاكمة . ثم يبني استنتاجاته على أساس هذه التعميمات · فهو يرى في جميع التحركات العربية قبل حرب تشرين وبعدها الاصابع الاميركية · فحرب تشرين هي حرب اميركية ، والحرب الاهلية في لبنان هي جزء من لعبة الامم التي يتقنها الساحر كيسنجر بكل براعة ·

متى كانت الولايات المتحـدة معنية بحـل أزمة الشرق الاوسط ؟ فعندما كانت اسرائيل على ضفة قناة السويس ، وموشي دايان يمـارس هواية جمع الآثار في الجولان ، كان كيسنجر يحدث وزراء الخارجية العرب عن الملفات التي تنتظر في درجه ، والتي لم يحن وقت دراستها بعـــد . ومن بينها ملف الشرق الاوسط ·

ان الامبريالية الاميركية تتراجع اليوم في العالم بأسره · لذلك ، تحاول الامبريالية الاميركية ترتيب أوضاعها في الشرق العربي ضمن التراجع الذي فرض عليها · لكن كل تراجع يحمل في داخله امكانية للهجـــوم ، وقد يقوم بهجمات تكتيكية تمهد للانتقال من التراجع الى الهجوم · هذا هو جوهر الموقف الاميركي : تجزئة الحل ، ابتزاز تنازلات أساسية ، تعريب الصراع ، وذلك في سبيل تعهير الوضع العربي تمهيدا للانقضاض عليه من جـــديد · فالامبريالية لا تتخلى عن اسرائيل بسهولة ولا تتخلى عن المنطقة الغنية بتروليا واستراتيجيا دون أن تقاتل حتى الموت · لكنها ، تتراجع حين يفرض عليها ذلك وتستعـــد للهجوم · هذا هو التفسير الوحيـــد للفرق الشاســـع بين براون ١٩٧٦ ومورفي ١٩٥٨ ، بين القوات الاميركية والقوات السورية · بين الهيمنة على

لبنان عام ١٩٥٨ بشكل متوازن مع عبد الناصر . وبـين السماح للسـوريين ولو مؤقتا بهذه الهيمنة بشكل متوازن معهم · ان الاميريالية وهي تتراجع ، تشن هجمات وقائيه وتنسق مع أصدقائها وحلفائها في هدا الاتجاه · لكنها لا تملك مقادير كل شيء ، ولا تستطيع فرض هيمنتها الا عبر صراع طويل وبالغ الخطر

التفسير الثالث **الحرب الاهلية هي صراع بين الاتحاد السوفيـاتي والولايات المتحدة** ينطلق هذا التحليل من مقوله صحيحة ليقوم بتعميمها بشكل خاطىء ومبتذل · فالصراع بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة هو صراع حتمي والوفاق ليس سوى لحظة في الصراع · ولا حاجة الى التأكيد مجددا على موضوعة لينين حول حتمية الحرب·غير ان تفسير الحرب الاهلية بهذا الصراع وحده ، تكون كمن يسقط تحليلات جاهزة على واقع لا يعرفـه بشكل دقيق · فهو ، على المستوى الدولي ، يهمل ظـاهرة نمو حركات التحرر الوطني التي تشكل اليوم ثقلا رئيسيا في العلاقات الدولية · كما يهمل خصوصيـة الصراع في لبنان من ضمن الواقع العربي · فلبنان بوصفه نقطة توازن عربية وعربيـة امبريالية يتعرض للاختـلال من ضمن حركـة الصراع العربي مع العدو الصهيوني ـ الاميركي · لذلك يجب ان تتوجه جميع القوى الوطنية نحو حسم هذا الصراع مع العدو وعملائه · كما ان تحليلا كهذا ، يهمـل واقع موازين القوى الفعلية في الشرق العربي . حيث يواجه النفوذ السوفياتي انحسارا كبيرا بعد طرد الخبراء السوفيات من مصر · والواقع ، ان الموقف المتردد في وجهته الغالبة . الذي اتخذه السوفيات تجاه الحرب في لبنان . يعكس ضعف نفوذهم وكونهم في موقف الدفاع · فمحاولة اقامة وفاق فلسطيني ـ سوري بأي ثمن ، ليس سوى محاولة لابقاء الوضع الراهن ، لان أي تطور في الصراع ، يمكن أن يؤدي الى وقوع السوريين في أحضان الاميركيين والمصريين ! لذلك يحـاول الاتحاد السوفياتي اقامة توازن سوري فلسطيني مهما كان الثمن ، ويدفع الى تشكيل محور . لا يبدو انه يمكن أن ينجح في ظل الاصرار السوري على الحسم·

ان تحليل الحرب الاهلية في لبنان بوصفها صراعا بين الدولتين ، يعني دعوة مطلقة الى التهدئة ، بحجة عدم السماح لاحد الطرفين باستغلال الصراع لمصلحته · ويخفي وجهة يمينية تتعامل مع الحركة الوطنية بشك مطلق ، يصل الى حد اتهامها بالوقوع تحت تأثير الدول الكبرى ·

التفسير الرابع : **الحرب الاهليـة هي صراع طبقـي داخـلي** · يقود اعتبار لبنان تشكيلة اقتصادية ـ اجتماعية مستقلة . والتعامل مع التجزئة كمعطى مطلق . الى الوقوع في خطأ عدم الفهم الدقيق للصراع الفعلي . واعتبار الطائفة مجرد ايديولوجيا ، وعدم أخذ الواقـع العربي بعين الاعتبـار بشكل جدي · ان هذا المفهوم . لا يحتاج الى نقاش . فقد وضعته الحرب الاهلية

في مكانه الحقيقي·فعندما انتقلت الحربالى حربأهلية عربية،كشفت زيف هذا الطرح ولا جدواه · فأوهام الثورة الاشتراكية اللبنانية ، تساقطت مع دخول الدبابات السورية · واهمال حتمية الصراع مع البرجوازية السورية ، ومحاولة التحايل عليه بكل أنواع الذكاء البرجوازي الصغير المبتذل ، ساهمت في ايصال الحركة الوطنية الى البلبلة التي تجد نفسها اليوم فيها ·

★ ★ ★

ان مناقشة الحرب الاهلية في لبنان، تفترض التقاط النقطة المفصلية في التركيبة اللبنانية · فلقد نشأ الكيان اللبنـــاني سنة ١٩٢٠ بقرار استعماري وضمن ظروف الهيمنة الفرنسية على لبنان · ولم يتكرس عام ١٩٤٣ الا عبر صيغة تستند الى أساسين :

١ ــ وجود نزعة « مارونية » اقليمية تريد الانفصال عن سوريا والسيطرة على لبنان ، ضمن اوالية نمو مركبة للطائفة بالعـــلاقة مع شريحة التجـــار الكومبرادور التي على رأس هرمها ·

٢ ــ التقاء هذا الواقع بمساومة استقلالية قامت بها البرجوازية السورية (باعتبار لبنان جزءا من بلاد الشام ، وحتى الآن لا وجود لسفارة سورية في بيروت كشكل لاعتراف سوريا نهائيا بانفصال لبنان) مع الاستعمار البريطاني وعلى حساب الفرنسيين ، منحت لبنان استقلالا وسمحت للصيغة بالتبلور ·

لقد أعيد انتاج الكيان اللبناني عام ١٩٥٨ بشروط عربية أفضل ، وهذا ما قام به عبد الناصر في مساومته مع مورفي على الوضع اللبناني · فالصيغة اللبنانية هي في جوهرها صيغة توازن بين الطرف العربي والامبريالية · وتتغير شروط هذه المساومة ، عندما تتغير شروط العلاقة العربية الامبريالية ·

ان التغير الجوهري الذي تشهده الساحة اللبنانية في هذه الحربالاهلية يتلخص في عامل رئيسي يتمثل في نمو البرجوازيات العربية ونمو طموحاتها في شروط محلية ودولية ملائمة · فالبرجوازية السورية الخارجة من حرب تشرين بنصر جزئي ، لم تعد ترضى بصيغة مساومة ١٩٥٨ ، بل هي تطلب المزيد · وهذا يفسر تحالفها في المرحلة الاولى من الصدام مع الثورة والحركة الوطنيـــة · غير ان هذا النمو يصطدم في المقابل بسقف المساومة مع العـــدو الامبريالي ، وشروط هذه المساومة · فالبرجوازية السورية تعمـــل على المستوى اللبناني داخل شرطين متلازمين :

الشرط الاول ، ويتعلق بالمسألة اللبنانية · اي في حجم المكـــاسب التي تستطيع تحقيقها على الساحة اللبنانية · فاذا كانت الامبريالية الاميركية قـد سلمت ، للسلطة في سوريا ، بالحق في ان تشكل ضمن معادلة التوازن اللبناني المقترضة الطرف الرئيسي في هذا التوازن ، فانها لا تسمح قطعا للبرجوازيـة السورية بانهاء صيغة التوازن هذه ، عبر تصفية الكيان اللبناني وتصفيـة مرتكزاته · هنا ، يكمن جوهر انقلاب الموقف السوري ، وتحوله نحو التحالف المعلن مع القوى الانعزالية المتمثلة بجبهة الكفور · فالبرجوازيـة السورية ، تعلم جيدا أن الغاء المعادلة اللبنانية سوف يعني صداما واسعا مـع العـدو الوطني · لذلك ، فهي تكتفي بالحجم الذي تستطيعه ، دون أن يعني ذلك تخليا عن طموحها القديم في استعادة لبنان بأسره ·

الشرط الثاني : هو أفق تسوية الصراع مع العدو الصهيوني ، عبر تقديم تنازلات متبادلة في سبيل الوصول الى انسحاب اسرائيلـي من الاراضـي المحتلة · فالبرجوازية السورية ، تسعى عبر مشروعها الكونفدرالي الـى تجميع اكبر كمية من اوراق الضغط في يديها والى التسليم ببعض شـروط الاعداء : عدم الاعتراف بمنظمة التحرير كطرف مستقل ·

هنا ، يلتقي الشرطان في الجوهر على مسألة مركزية : الافـق الذي رسمته البرجوازية لصراعها الوطني · تتشكل حدود هذا الافق اساسـا من العامل الداخلي : عجز سلطة البرجوازية عن احداث تغيرات طـوعية فـي داخلها ، تسمح بالشروع فيحرب وطنية شاملةتقوم بتصفية مواقع الامبريالية في بلادنا ، في شروط دولية ومحلية ملائمة · هنا ، لا بد من الاصطـدام بالثورة الفلسطينية والحركة الوطنية بهـدف تطويعهمـا واخضـاعهمـا للاستراتيجية التي وضعها النظام السوري :

فالثورة الفلسطينية ، تشكل تحالفا طبقيا واسعا يمارس ارقى انـواع الكفاح : الكفاح الشعبي المسلح ، الذي يفترض ديمقراطية جماهيرية واسعة نسبيا · كما أن الثورة ، في ظروف المد الوطني ، مجبرة على دخول الصراع في الواقع اللبناني ، بوصفها جزءا رئيسيا من معادلة القوى فـي الشرق الاوسط · كما أن وجودها ذاته ، يصبح في مرحلة محاولة النظام السـوري اقامة التوازن الجديد مهددا ، لانه يحجمها ويضعها داخل شرط قبـول افق النظام السوري لحل مشكلة الصراع العربي ـ الصهيوني ·

كما ان الحركة الجماهيرية في لبنان ، التي شهدت نموها الواسع مـع دخول الثورة ، والتي استطاعت ان تعيد ترتيب القوى داخل الشارع الوطني، تصطدم هي الاخرى بالاستراتيجية السورية · فالحركة الجماهيرية اللبنانية،

هي اساسا حركة قومية بالغة الحساسية لمسألتي الوحدة العربية وفلسطين· لذلك ، فحين يلتحم الشارع الوطني عبر ظواهره الاساسية (تنظيمات مسلحة، جيش لبنان العربي ···) بالثورة ، فانه يعبر عن طموحين مشروعين :

١ ـ رفض الجماهير للوصاية التقليدية ، التي تعبر عن طموح اجنحة الكومبرادور الاسلامي لتوظيف نمو الحركة الوطنية العربية في محاولة اعادة انتاج التجزئة ـ الكيان ، واقتسام السلطة بشكل افضل مع الجناح الكومبرادوري الماروني · يعبر هذا الرفض المشروع عن عمق ارتباط الجماهير الوطنية بمسألة الخلاص الوطني ·

٢ ـ ارتباط هذه الحركة بالثورة ، بوصفها تمثل على المستويين العربي واللبناني ، اداة جماهيرية ديمقراطية نسبيا لخوض الصراع مع العدو القومي ·

من الهجوم العام الى الدفاع

لم يفاجيء الاجتياح العسكري السوري المدرع للاراضي اللبنانية احدا، سوى اولئك الذين وضعوا رؤوسهم في الرمل كالنعامة ، واعتقدوا انهم يستطيعون أن يلعبوا مع النظام السوري لعبة الذكاء الضيق الافق ، مهملين حقائق الصراع الفعلي في لبنان · فالواقع ، انه منذ أن اتخذ قرار الهجوم العام ، عبر تفجير الجيش وانشاء جيش لبنان العربي ، بدا واضحا أن المسألة المطروحة هي مسألة السلطة وتوازناتها في لبنان · فالطرف السوري يريد من خلال مساومته اقتسام السلطة في لبنان مع القوى الانعزالية واستبعاد الثورة والقوى الوطنية · في المقابل ، فان الثورة حين تبادر الى الهجوم العام ، فانها تطرح مسألة السلطة في لبنان ، وهي بهذا تطرح مسألة ادارة الصراع العام داخل حركة التحرر العربية ضد العدو ، أي تطرح عمليا فرض التراجع على النظام السوري ، واحداث تغيرات في داخله لمصلحة خطوات ديمقراطية فعلية · ان قدرة الثورة والحركة الوطنية على الانتقال الى هذا المستوى ، تعود اساسا الىظرف موضوعي ملائم ، يتمثل في التراجع القسري الذي فرض على الامبريالية والذي يسمح للحركة الجماهيرية بانتزاع مكاسب افضل ·

في ذروة الهجوم ، وبعد اسقاط الفنادق ، وانتقال المعركة الى الجبل في عينطورة ـ المتين والكحالة · توقف الهجوم العام ، بعد أن بدأ ابتزاز التدخل السوري ، في محاولة لترسيخ موازين قوى ، تراهن على نصر دون الصدام مع النظام السوري · ان الهجوم العام الذي شنته الثورة ، كان يعني اساسا، انتقالا نوعيا في مسار الحرب الاهلية ، يتمثل في ذهاب الطرف الوطني

الى الحسم ، واستعداده لاقتناص لحظة تاريخية ، قد تعني تحولا خطيرا في تاريخ الشرق العربي ٠

غير أن التردد ، دفع بالقوى الوطنية الى محاولة تجنب الصدام مع السوريين ، وبذلك احجمت عن توجيه ضربة ساحقة الى القوى الانعزالية٠ فاعلنت الهدنة المسلحة ، وابتدأ العد العكسي في مسيرة التراجع ٠ ولقد استطاع النظام السوري تمرير بعض المكاسب في ظل التردد الذي ساد اوساط الحركة الوطنية :

١ ـ جرى تمرير انتخاب السيد الياس سركيس رئيسا للجمهورية ٠ ورغم ان هذا الانتخاب بحد ذاته ، لا يشكل انتقالا خطرا في مسار الحرب الاهلية ٠ غير انه سجل نقطة لصالح الطرف السوري ، سمحت له بالانتقال فيما بعد الى هجوم واسع تحت غطاء شرعيتين ، يستطيع التلاعب على حبالهما ٠

٢ ـ في الوقت نفسه ، قامت القوى الانعزالية بهجومها الواسع على محور لزعرور ـ عينطورة ٠ في محاولة لترجمة النصر السياسي السوري ـ الانعزالي على ارض القتال ٠

غير أن المقاومة البطولية التي جوبه بها الهجوم الانعزالي ، اجبرت الطرف السوري على التدخل العسكري المباشر ٠ فنشب الصدام الذي حاول الجميع تجنبه بشتى الوسائل ٠ لقد استطاع الهجوم السوري ان يجتاح البقاع وعكار دون مقاومة تذكر ، وعبر مسرحية مبتذلة لاشعال الاقتتال الطائفي في عندقيت والقبيات ٠ ثم تقدم الى بيروت على محوري صوفر ـ بحمدون وصيدا ٠ هنا حصلت المفاجأة ٠ فقد فاجأت الجماهير الجميع بهبتها البطولية وصمودها الاسطوري في مواجهة الدبابات الضخمة والصواريخ المتطورة ٠ واستطاعت ان تثبت أن الجماهير المسلحة هي دائما الاقوى ٠ وأن الشعب حين يخوض حربه يستطيع تحقيق الانتصارات ٠ ان صمود الشعب هو الذي اجبر النظام السوري على تغيير تكتيكه ، وهو السبب المباشر الذي دفع قوات الامن العربية الى لعب دور ولو هامشي ٠ لقد اثبتت ملاحم القتال مع جيش النظام السوري ان الجماهير العربية في لبنان ، تستطيع الصمود رغم الحصار ورغم قطع الماء والكهرباء ٠ وتستطيع ، في ظل توجه سياسي صحيح الوصول الى النصر النهائي ٠

ان الصفعة التي وجهت الى الطرف الآخر ، اجبرته على تغيير تكتيكه والانحناء المؤقت امام قرارات الجامعة العربية ، في محاولة لاستخدامها لصالحه عبر حركتين متلازمتين :

١ ـ دفع القوى الانعزالية ، الى استغلال تشتت القـــوات الـــوطنية وارهاقها ، عبر شن هجوم واسع على المواقع الوطنية في تل الزعتر ، جسر الباشا ، الكورة والضبعة ، حيث استطاع الهجوم تحقيق اهدافه بصورة كلية· وبقي تل الزعتر ، قلعة للبطولة ، وملحمة سوف تكون منارة لشعبنا العـربي يتعلم منها دروس الصمود والتضحية والبطولة · كما بدأت هذه القوى بشن هجمات شرسة على محور صنين ـ عينطورة في محاولة لفتح طريق زحلة ـ المتن بالقوة ·

٢ ـ قيام الجيش السوري بمهمة اشغال القوات الوطنية في الجنـوب والجبل · ولعبه دور الاسناد المدفعي والصاروخي للقوات الانعزالية في كثير من الاحيان ·

ان الصراع المسلح مع النظام السوري هو صراع حتمي ولكنه ليـس بغير حدود · تأتي حتميته من كون الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية قـد دخلت ، عبر ثغرة التراجع الامبريالي وعبر تباشير هزيمة القوى الانعزالية العميلة ، مرحلة جديدة تتمثل في التدخل المباشر في ادارة الصراع العـام ضد العدو ، وفي فرض مزيد من التنازلات عليه · يهدد هـــذا التـــدخل ، البرجوازية التي في السلطة ، عبر تهديده لطموحها التوسعي ولسقف صراعها ـ مساومتها مع العدو الوطني · من هنا تأتي حتمية الصراع بـــين قـوى الثورة والنظام السوري · غير أن هذا الصراع ليس بغير حـــدود : أي ان الثورة تستطيع دائما التمييز بين العدو الرئيسي والعدو الثانوي · من هنـا فهي حين تصطدم مع النظام السوري تضع لهذا الصـدام سقفـا محـددا : اجبار النظام السوري على التراجع عن مشروعه لتحجيم الثـــورة ، وعـــن التسويات التي يسعى اليها · تسمح هذه المسألة باحداث تغييرات اساسيـة داخله ، دون أن تعني بالضرورة اسقاط سلطة البرجوازية نهائيا · بل تفرض عليها تراجعات تسمح بديمقراطية اوسع ، وتضرب اجنحتها اليمينية والتـي تدعو الى المساومة باي ثمن ·

يتحاشى هذا الفهم المحدد لطبيعة الصدام مع النظام السوري ، الوقوع في منزلق الانتهازيتين : اليمينية : التي تدعو الى المساومة باي ثمن وحتـى على حساب الثورة · واليسارية ·· التي تعتقد ان الشعارات البراقة والجمـل الثورية تكفي وتغني عن المهمات الملموسة ·

ربما كان التردد والمراهنة الخاطئة على استحالة الصدام مع الجيش السوري ، هو الذي اوقع الحركة الوطنية في بلبلة ندفع اليوم ثمنها غاليا · فامام التردد والاحجام عن استكمال الهجوم العام الذي بدأته الثورة والحركة الوطنية ، استطاعت القوى المعادية المتحالفة ، ان تجبر الثورة على التراجع،

وفرضت عليها الانتقال من الهجوم الى الدفاع ، كما كشف لاول مرة ، جدية استعداد الحلفاء الجدد على المضي في مشروعهم وصولا الى تصفيـــة الثورة ٠

ان حرب الابادة التي يشنها الانعزاليون بمساندة حلفائهم ، لا تعني سوى ان الثورة تتعرض اليوم لمحاولة التصفية ٠ وهذا يقتضي وقفة حازمة تواجه هذا الخطر ، كي تنتقل بعدها الثورة مرة اخرى الى الهجوم ، وبذلـك تمنع البرجوازية التي في السلطة من فرض قيادتها الاحادية على بلاد الشام٠ تفترض هذه المواجهة ، فهما دقيقا لمعطيات الواقع ٠ فرغم اجـواء العـزلة. تستطيع الثورة الاستفادة من هامش مناورة يسمح به الوضع العربي اساسا، في سبيل اعادة ترتيب القوى ٠ وهذا يفترض فهما دقيقا لطبيعةِ المرحلـة، وللتناقضات العربية التي تبرز على ساحة الصراع في لبنان ٠

ان التناقضات بين الانظمة العربية في مرحلة ما بعد حرب تشـــرين ، ليست مسألة عابرة ، ولا تعبر عن شرخ في تضامن عربي هو الاصل ٠ بـل تعبر عن تطور موضوعي في مسار الوضع العربي وتعبر عن ثلاث حقائق :

الحقيقة الاولى : هي نمو البرجوازيات العربية ، وفقـــدان القطـــب (البرجوازية المصرية) بعد هزيمة ٦٧ ٠ ونمو البرجوازية السـورية وبروز النظام السعودي ٠ فلقد استطاعت البرجوازيات العربية الخروج من مازقهـا المزمن بعد حرب تشرين ، وطرحت امكانية الاعتراف بها علـــى المستـــوى الدولي كطرف رئيسي في الشرق الاوسط ٠ وابرزت امكانية تسوية « غيـر مذلة » للصراع ٠

الحقيقة الثانية : هي ميل هذه البرجوازيات الى التوسع ٠ واتجاهـا العام نحو توسيع هيمنتها على المناطق المجاورة ٠ هذا هو جوهـــر الموقـف المصري في السودان (قام الجيش المصري باحباط محاولتي انقلاب ضد نظام النميري في السودان الاولى شيوعية والثانية قامت بها جماعة الاخـــوان المسلمين) كما أن هذا هو جوهر الموقف السوري في لبنان ٠

الحقيقة الثالثة : هي أن الصراع بين هذه البرجوازيات هو صـــراع حتمي ٠ فالبرجوازيات القطرية الاقليمية لا تسعى الى الوحدة ، بل تسعى الى الالحاق والهيمنة ٠ وهذه مسألة حتمية تقود الى صراعاتها مع بعضها ٠ كمـا يزيد من تفاقم الصراع في المرحلة الراهنة عامل اساسي : **هـو الصراع على** المساومـــة المطروحة فالتكتيك الامريكي يسعى الـى اثارة الصراعات العربيـة فالاطراف البرجوازية العربية تتنازع الان على من يقود مسيرة التســـوية ويفرض بالتالي قيادته على المشرق العربي ٠ هكذا برزت منذ اتفاقية سيناء

التناقضات العربية التي تتفاقم وتزداد شراسة مع محاولة السوريين السيطرة على لبنان ٠

ان هامش الصراع العربي هذا ، يسمح للقوى الوطنية باستغلاله لصالحها ، ويجب التعامل معه على هذا الاساس ٠ فالتبشير بالموقف العربي الواحد هو في المحصلة موقف سحري ، يحمل جميع البقايا السيئة الذكر في الفكر الفوق يساري ٠ كذلك فالوضع العربي لا ينقذ الثورة ،وهذا ما اكدته مبادرة الجامعة العربية في حجمها المتواضع رغم الخلاف السوري ـ المصري ٠

ان الصمود والقتال الطويل النفس ، هو وحده الذي يستطيع أن يمنع حرب الابادة من النجاح ٠ والخط السياسي الصحيح هو وحده الذي يقود الجماهير الى النصر ٠

وصمود المناطق الوطنية والاصرار على القتال ، ليس امرا مستحيلا في ظل هذه الحرب الاهلية الوطنية ٠ ان الجماهير التي ترفض بطرحها الايجابي محاولات تقزيم انتفاضتها تطرح مجموعة مسائل :

١ ـ سلطة شعبية مسلحة ، تقودها لجان الاحياء والنواحي والمناطق٠ تطرح هذه اللجان مسالة حل مشاكل الجماهير بشكل ديمقراطي وقيادة الصراع في سبيل دحر القوى الانعزالية وفرض التراجع على النظام السوري ٠

٢ ـ توحيد الميليشيا الشعبية في تنظيم ديمقراطي مسلح يقود الصمود ٠

٣ ـ اعادة بناء جيش لبنان العربي بشكل عسكري وسياسي صحيح كي يلعب دورا رئيسيا في المواجهة ٠

٤ ـ الانفتاح على جميع القوى المعادية للاجتياح العسكري السوري والرافضة للهزيمة ٠

ان الجماهير المقاتلة في لبنان ،اعلنت بانتفاضتها المجيدة أن الشعب لا يركع امام اعدائه مهما كانت قوتهم كبيرة ٠ وجماهيرنا حين تدافع عن نفسها ، تدافع عن قضية الامة العربية باسرها ٠

لقد دخلت البرجوازية التي في السلطة ، عبر صراعها مع الثورة منعطفا

مجهولا · ووصلت في مقامرتها على سلطتها الى اقصى الحدود · وليس ما يضمن غدا من انقلاب اصدقائها الجدد عليها . وبداية الهجوم الاميركي الصهيوني العام في سبيل اعادة الوضع العربي الى ما يشبه حزيران ٦٧ · عندها ستكتشف البرجوازية ولو متأخرة قدرها الذي اختارته ، بوصفها مطية للامبريالية . تفقد الامة باسرها فرص النصر في سبيل مصالح ضيقة ·

سياسة "الخطوة خطوة" في الشرق الاوسط

(دراسة امريكية لأدوار شيهان)

ميشيل كامل

صدر في الولايات المتحدة واوروبـــا عدد كبير من الدراسات عن السياسة الامريكية في الشرق الاوسط ، في اعقاب حرب تشرين (اكتوبر) . وتتضمن هذه الدراسات قدرا كبيرا من البيانـــات والمعلومات . وتكشف عن بعض اسرار المداولات والمباحثات ، والمواقف غـير المعلنة للاطراف المختلفة . كما تتناول بالتحليل والتقييم منهج كيسنجر ، فيما اصطلح على تسميته سياسة (الخطوة خطوة).

ان الفائدة التي يمكن أن نحصل عليها من القراءة **الواعية** لهذه البحوث لا يرقى اليها الشك ، ما دمنا نراعي التحفـظ ازاء ما تشتمل عليه من استنتاجـات مغرضة .

فمن الملاحظ ان هذا النوع مـــن الدراسات شبه الاكاديمية ــ المحدودة التداول ــ تتوخى امداد القارىء بكمية ضخمة من المعلومـــات الصحيحة ، ولكنها ترتب وتصاغ بطريقة ملتوية .بهدف الخروج بانطباعات واستنتاجات مغلوطة (١) ، لانهـــا تتعامـــل في الاساس مع النخبة من الغرب ، وتعبر هذه الدراسات عن وجهـــة النظر الامبريالية ، وتتبنى خطا معاديا للحركة الوطنية التحررية العربية ، بغض النظر عن الطابع النقدي العنيف الذي يتسم به بعضها.

وقد نشرت مجلـــة (السياســة الخارجية) Foreign Policy في عددها الصادر بتاريخ ٧ــ٣ــ١٩٧٦ دراسة هامة للمعلق الامريكي المعروف **ادوار شيهان** ، احدث نشرها ضجـــة واسعة في الاوساط الدولية والعربية، بسبب ما عرف عن الكاتب من علاقات وثيقة بالمسؤولين الامريكيين ، وما تردد من انه استقى معلوماته مباشرة مـــن كيسنجر *

ونستعرض فيما يلي ابرز المعلومات والاراء التي جاءت بالدراسة ، بعـــد اعادة ترتيبها بصورة تكفل القاء الاضواء على حقيقة ودوافع واهداف السياسة الامريكية ، وتكشف النقاب عن بعـــض خفايا منهج كيسنجر ، الذي تروج لـــه بعض النظم والقيادات العربية ، على انه يشكل تغييرا جذريا في السياســـة

الامريكية ، وتحولا نوعيا لمصلحـــــةالجانب العربي .

والواقع ان كل الكتابات الخاصـــةبهذه المرحلة تبرز دور هنري كيسنجر على انه المهندس الحقيقي و (متعهد)السياسة الخارجية الامريكية طـــوال السنوات السبع الاخيرة ، منذ انتقالهالى البيت الابيض في كانون ثان (يناير) ١٩٦٩ ، ثم ترؤسه لمجلس الامن القومي(مركز قيادة السياسة الخارجيـــة) ، فانتقاله الى وزارة الخارجية ، ليجمعبين يديه سلطات هائلة ، قلما توفرت لرجل واحد . الا انه يجب عدم المغـــالاةفي هذا العامل ، لان حريته في الحركة تظل محكومة بنظام صناعة القـــراراتالامريكي . هذا ، بالاضافة الى كونه مرتبطا اشد الارتبـــاط بالسياســـةالتقليدية ، لا يتحول عنها الا بقـــدر محدود محسوب ، وعندما يفرض عليهذلك فرضا ، وتتهيأ ظروف مواتيـــة . واتخذ كيسنجر نفسه موقف (الصقور)ازاء العديد من القضايا الحيوية ، فانتقد بعنف سياسة ايزنهاور من حـــــربالسويس عام ١٩٥٦ ، وامتدح التدخل الامريكي في لبنان عام ١٩٥٨ . وكـــانمن دعاة توسيع العمليات الحربيةعبر الحدود الصينية اثناء الحرب الكورية.. وهي السياسة التي انتهجها فـــي مواجهة الحرب الثوريـــــة في فيتنـــامالجنوبية ، بالقصف الوحشي لجمهورية فيتنام الشعبية وكمبوديا ولاوس . كماكان وراء الانقلاب العسكري في لاوس وشيلي .. الخ .

وقد ارتبط اسم كيسنجر بمترنيـــــخالذي تولى المسؤولية عن سياســـــة النمسا الخارجية في عصـــــر غـــروبامبراطوريتها . وتبدت عبقريته في تأجيل وابطاء مسار عملية التدهور والانهيار.

ولعل الدليل على تضخيم (عبقرية)كيسنجر ، نجده في عجز السياســـــة الامريكية ـــ الكيسنجرية عـــن ادراكطبيعة التغيرات التي طرأت في المنطقة العربية في وقت مبكر .

ـــ فلم يقدر كيسنجر مدى عمـــــقالتحولات في السياسة المصرية ، منـــذ قبول مشروع روجرز ، ثم ـــ والاهممن ذلك ـــ مغزى خطـــوات السادات التالية ، التي بدات بمبـــادرة شـــباط ـــ فبراير ـــ ١٩٧١ ، وانقلابه علـــى المجموعة الناصرية في ايار ـــ مايو منفس العام ، وتحالفه مع السعودية ، وتبنيه لسياسة (الانفتاح الاقتصادي)،حتى (مفاجأة) (٢) طرد المستشارين السوفيات ، التي يقول شيهان عنـــها: « ووقع هذا على كيسنجر وقع الدهشة البالغة ، وسأل مساعديـــــه : لماذاأسدى السادات الي هذا المعروف ؟ ولماذا لم يتصل بي ؟ ولماذا لم يطلب مني اولا جميع انواع التنازلات » ص٦ كذلك الاستخفاف بمغزى مهمـــــة حافـــظاسماعيل ـــ موفد الرئيس المصري ـــ شباط ١٩٧٣ ، والقرار الاستفـــزازي الذي اعلنته واشنطن ، بعد اقل مـــن من ٢٤ ساعة من رحيله عن واشنطن« بتزويد اسرائيل بست وثلاثين طائرة سكايهوك وثمان واربعين طائرة فانتوم»ص ٧ ، ثم استهتاره بوزراء الخارجية العرب اثناء لقاء اواخر ايلول ١٩٧٣ ،بعد توليه منصب وزير الخارجيـــة . وعجز عن ادراك العديد من الظواهربالغة الدلالة ، في السياسة المصرية ، وفهم مغزى الرسائل المتبادلة،ومنهاعلىسبيل المثال ، النثر المبتذل الذي ارسل

به اشرف غريال (٣) لكيسنجر . «وقال فيه : في احدى الحفريات التي قمت بها حديثا ، عثرت على عبارة استغرابيةقديمة ، كانت في قبر امنحوتب ، اله الطب في ازمنة الجاهلية القديمـــــة ،والعبارة تقول : تعال زر نيلى ، وليس عليك ان تقف في الصف ، لان لدى دواءناجع لاوجاع معدتك ، وكذلك لوجـــع راسك على وجه التاكيد . فما رايك فيذلك عزيزي هنري .**هل ندخل الشرق الاوسط من باب عريض ؟** » !! صـــ٥و٦ .

ـــ فوجيء كيسنجر باندلاع الحرب.ولم تكن المفاجأة بسبب نقص المعلومات او عجز اجهزة المخابرات الامريكـــيةوالاسرائيلية ـــ المترابطة ـــ ، او براعة التمويه من الجانب العربـــي ، وانمانتيجة **الحسابات الخاطئة** ، وعدمالقدرة علـــى فهم الواقع العربي ، وعقليـــةالنظم والقيادات ، وطبيعة ازمتهـــا ، وتصورها للمخرج من هذه الازمة .

عام اوروبا ينتهي في الشرق الاوسط .

خلال عام ١٩٧٣ صرح كيسنجـــــرلمسؤول عربي بان « الشرق الاوسط غير مهيأة لي الان» ص٦ . وكان وزيرالخارجية الامريكي « يتجاهل صرخات السادات المسرحية في طلب المساعدة.وكان يتمسك بنظرية يرتاح اليها ، وهي ان الحليف الاستراتيجي الوحيد الذيتدعو الحاجة اليه في الشرق الاوسط هو اسرائيل » . وكان كيسنجر قـــداسقط قضية الشرق الاوسط من حسابه واعلن ان ١٩٧٣ هو « عام اوروبا » .وركز جهوده على دعم حلف الاطلنطـــي او احياء مشروع جان موريت للمثلـــثالذهبي الذي يضم اوروبا الغربية وكندا والولايات المتحدة ، ولتحسين العلاقاتمع اليابان (بعد الازمة المترتبة عـــلى تخفيض الدولار والانفتاح على الصين)كما وجه اهتمامه للتوصل الى اتفـــاق « سولت ٢ » مع الاتحاد السوفياتي ،وتوسيع العلاقات مع الصين ، لموازنة العلاقة مع السوفيـــات واستغـــــلال التناقضات بينهما ، بالاضافة الـــــى تقوية مواقع واشنطـــــن في امريكااللاتينية ، التي اهملت وتفسخـــت ، ومحاولة تجميد الاوضاع في فيتنـــام ،وحماية الحكومة العميلة في الجنوبمن الانهيار (زيارته الاولى لهانوي في شباط١٩٧٣).

تلك كانت مشاغـــــل كيسنجر ،وبرنامج العمل لعام ١٩٧٣ ، عندمـــا فوجيء باندلاع الحرب في تشرين .

من المعروف ان اسلوب كيسنجر في« حل » الازمـــات هو التصعـــيد «والتسخين» الى ابعد الحدود ،تمهيدالتدخله ، من موقع قوة (نموذج فيتنام) وينقل الكاتب عن كيسنجر « الحكمة»التي يرددها دائما « انا لا اعالج الازمات وهي باردة ، بل وهي حامية » ص ٤ .وقد اتبع نفس الخطة ازاء الحـــرب العربية الاسرائيلية ، فبادر باقامة جسرجوي هائل ـــ لم يسبق له مثـــيل في التاريخ ـــ لنقل السلاح لاسرائيـــل ،ووضع خطة طـــوارىء لامـــدادها بالمتطوعين الامريكيـــين ، وتدخـــلالاسطول الامريكي ، اذا لزم الامر ، وانتظر تحول مجرى القتال لمصلحـــةاسرائيل (ثغرة الدفرسوار والتراجع

في الجولان) ، وخرق وقف اطـــلاق الـــنـــار ، لتطويـــــق الجـيش الثالث ، ودعم الوجـــود العسكري الاسرائيلي في الضفة الغربية للقـتال ، وهدد السادات (الذي امتثل صاغرا)ضد محاولة تصفية الثغرة ، مؤكـدا تدخل امريكا المباشر في هذه الحالـة ،ووضع قوات الولايات المتحدة في كـل العالم على اهبة الاستعـداد للحرب .ويذكر شيهان ان « المصريين استشفوا من خلال الحوار خيطا رفيعا جدا ، هوالتهديد الضمني من كيسنجر باتـــه سيطلق العنان للاسرائيليين ، حتـــىينقضوا على الجيش الثالث ، اذا لـم يذعن السادات لمقترحاته » ص ١١

وكانتالاوضاعهواتية تماما، فالجبهة العسكرية مختلطة متداخلة ، لا يقبل بها او يتحملها احد من الفرقاء ، وتشكـلخطرا على كل منهما . وكانت «اسرائيل ومصر معا ، بحاجة ماسة الى اتفاق .وكان على اسرائيل ان تسرح الجنود والا واجهت خطر الافلاس . وكان علىالسادات ان ينقذ الجيش الثالث ، وان يبرهن ان الحرب اربحته بعض الارض»ص ٢٣ .

صديق عدوي صديقي

وبدا ادراك ـــ متأخر ـــ لامكانيـــةاستغلال التغييرات في المنطقة ، لانجاز تحولات لمصلحة الولايات المتحدة .فعلىنقيض الاتجاه العام لموجة المد الثوري التي تجتاح العالم ، كانت التطورات فيالمنطقة ، توحي بفرصة الرد علـــــى الانتصارات الشعبية ، بانتصـــــاراتامريكية مقابلة ، في منطقة ذات اهمية استراتيجية بالغة ، طبقا لمنهج كيسنجربان تعمل الولايات المتحدة « بعد كـل نصر شيوعي » او تقدمي ، على احراز« نصر امريكي اكبر » .

يقول شيهان ان « الجسر الجوي لمؤد الى حرق جسور كيسنجر مـــع السادات » . وكذلك ٢ر٢ مليار دولارمن المعونات المستعجلة ـــ . « بل انه لم يكد يمضي على بدأ ذلك اسبوعانحتى طلع السادات باعلان ان السياسة الامريكية سياسة بناءة .. » وكـانالرئيس المصري « يتحرق شوقا الى عقد صفقة مع الولايات المتحدة ..وكانكيسنجر في واقع الامر ، حتى والاسلحة الامريكية تتدفق على اسرائيل ، وعلىسيناء ، **يستغرب اعتدال رد الفعـــل العربي** » ص ٩ . وكان « السادات قدتوصل ، قبل انتهاء الحرب الـــى ان الولايات المتحدة ، وان كانت مخـــزنالسلاح الذي يغرف منه العدو ، ترغب ايضا ان تبقى صديقة له ، وان الروسلا يستطيعون تقديم السلام » ص ١٠ ، واقنع كيسنجر السادات ، بانه « يجبالان ان نترك جانبا الامور التي لا يمكن التوفيق بينها ، ويجب ان تبنى الثقة ،وان نولد ما يدفع نحو المفاوضـــات . ويجب ان نجري اتفاقيات صغيـــرة ،**وان تمضي خطوة فخطـــوة** » ص ١٠

كما « قبل ـــ الرئيس المصـــري ـــالمسودة التي وضعها كيسنجر من ست نقاط ، ومباحثات الكيلو ١٠١ ، ووافقالمصريون على ان يعيدوا العلاقـــات الدبلوماسية كاملة بالولايات المتحدة »وخرج كيسنجر من قصرالطاهرة «ومعه شيء لم تكن الولايات الملتحدة تملكه منقبل ، وهو سياسة عربية » .. « ومنذ ذلك الحين **اصبح السادات بمثابـــةحجر الزاوية لهذه السياسة** » ص ١٠ واصبح كيسنجر لا ياتي بجديد او يقومبمبادرة في الشـــــرق الاوسط الا بعد استشارة الرئيس المصري ، والمثـــلالعربي يقول عدو عدوي صديقي ،بينما

جعل السادات هذا المثل في صيغـــــةمحررة جديدة وهي « صديق عـــــدوي صديقي ايضا ، » ص ١١

وتلاحقت التنازلات من جانب مصر ،وتهالكت على ارضاء واشنطن ، فقـبد وقعت اتفاقية تثبيت وقف اطلاق النارينقاطها الست ــ اقتراحات دايان ــ واسقطت السلطة مطلبها بالعودة الـــىخطوط ٢٢ تشرين ، وتخلت عن شـــرط تحديدجدول زمني لانسحاب اسرائيلمن الاراضي التي احتلت عـــام ١٩٦٧ وقبلت المنهج الامريكي بالحلول المرحليةالجزئية والمنفـــردة . والواقـــع ان السادات هو « صاحب الفضل » فـــيانتهاج هذا الاسلوب ، منذ مبادرةشباط ١٩٧١ . (٤) .

وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينيـــــة« اصدر كيسنجر تعليماته الى سفيره في القاهرة ، بان يعلم السادات انـــــهالان لا يحبذ اشتراك الفلسطينيين فـــي دعوة مؤتمر السلام . وقد تسمـــــح اسرائيل لفلسطينيين مأموني الجانـــب من رعايا الملك حسين ، بان يجلسوامع الوفد الاردني . ولكنها لا تحتمـــل وجود وفد منفصل تسيطر عليه منظمةالتحرير الفلسطينية . وهذا معنـــــاه ان كيسنجر قد استبعد عن مشـــــروع اقرار السلام ، العنصر الاساسي فـــي النزاع العربي الاسرائيلي » .

كل رد الفعل من جانب السلطـــــةالمصرية ، ان كيسنجر « في زيارتـــــه للقاهرة في ١٣ كانون الاول ــ ديسمبر ــ وجـــــد ان الســـــادات كـــــان مكتئبا (!) ، بسبب اخفاقه في تدبير امراشتراك الفلسطينيين في دور لهم فـــي جنيف . ومع ذلك فقد وجـــده ايضامستعدا **للملاينة والمراضاه** . واكد لـــه كيسنجر : اننا ننظر اليك باعتبارك اكبرزعيم عربي . وغرضنا هو تعزيـــــز مركزك في مصر وفي العالم العربي »ص١٧ .

وعلى هذا الاساس ، فان وزيـــــرالخارجية الامريكي في ٢٠ كانون الاول « باح للاسرائيليين بسر ، وبمذكـــــرةللتفاهم وعد فيها بانـــه لـــن يدعـــى مشتركون آخرون الى اجتماعات جنيفي المستقبل ، دون موافقة المشتركيـــن الاول اي اعطاء اسرائيـــل الحـــــقرفض اشتـــراك منظـــــمة التحرير الفلسطينية » . ص ٢١

وفي اوائل كانون الثاني ، عاد ديانالى واشنطن « وابرز فكرته عـــــن المناطق الخمس ، وقال ان منطقة فـــكالارتباط ، يجب ان تشمل خمس مناطق منها منطقة حاجزة للامـــم المتـــحدة(المنطقة الاولى) بين الجيشين المصري والاسرائيلي . وتكون قوات هذيـــــنالجيشين في منطقتين (هما الثانيـــــة والثالثة) مخفضة تخفيضا شديدا .وفيما وراء المنطقتين الثانية والثالثـــة يجب ان تكون على كل جانبي قنـــــاةالسويس المنطقة الرابعة والخامسة.. بعمق ٣٠ كيلو مترا ويمنع فيها وضـــــعالصواريخ ارض جو » .

« وهذه الخطة اصبحت الاســـــاسالتصوري للاتفاق الـــذي عقـــب ذلك بوقت سريع . **والفكرة كانت فكرةديانوليست فكـــــرة كيسنجر** » ص ٢١ .
« ويمكن ان يدعى ديـــان الاب السريلهذه الخطة » ص ٢٢

« قال السادات : يصعب علي انأوقع وثيقة تحدد القـــوات في الارض الخاصة بي » ، لكنه « قبل خطة ديانالتصورية ، واضاف قائلا: **لن اماحكفي التفاصيل ..» !**

« وفي عصر ذلك اليوم ارتأى كيسنجران يضمن صورة فك الارتباط في وثيقتين اتفاق رسمي توقعه مصر واسرائيل ،وكتاب منفصل من الولايات المتحـــدة ، موجه الى كلتا الحكومتين ، يرد فيـــهتعيين لما تفهمه الولايات المتحدة مـــــن تحديد القوات . اما الاتفاق الرســـميفيلمح الى تحديد القوات تلميحا لا غير، بينما الكتاب الامريكي يحددها . **وبهذهالمداورة يستطيع السادات ان يدعـــي بان اسرائيل لم تفرض تحديدات علىمصر** » « وطلب المصريون من كيسنجر ان يعمى خط ديان في المناطق الخمس ،وافقوا على **تعيين خمس مناطق فـــي الاتفاق وثلاث نقاط على الخريطة** » !ص ٢٢ . وهكذاخفضت القوات المصرية شرقي القنالمن ٦٠ الف الى ٧ آلاف ،وخفض السلاح ، واخليت منطقـــة عرضها ٣٠ كيلو متر غرب القنال مـــنالصواريخ .

« لم يتلق السادات جـــدولا زمنيالانسحابات اسرائيلية اخرى .. ووعد الولايات المتحدة سرا بانيسمحللشحناتالاسرائيلية غير الحربية بعبور قنـــاة السويس .. حالما يجري تنظيفهـــــاوتنقيتها .. وقبلت مصر باستطلاعات امريكية جوية فوق منطقة فك الارتباط»ص ٢٢ .

و « حاول السادات مـــــن جملةمساوماته مع كيسنجر في مقابل فـــك الارتباط في سيناء ، ان يقنع امراءالنفطبانهاء المقاطعة » ص ٢٣ . كما يشير الكاتب الى ان وزير الخارجية الامريكي« طار الى القاهرة في ٩ تشريـــن اول (١٩٧٤) ، لا ليبحث معه المفاوضـــات الجديدة بشأن سيناء فحسب ، ولكـــن ايضا ليلتمس مناصرته للاردن في مؤتمر القمة العربي الموشك على الانعقاد » ص ٣١ . ولم يعد خافيا دور الساداتسواء في المؤتمر ، او بمـــــناورة بيان الاسكندرية الذي حاول عن طريقـــه الالتفاف حولقرارات الرباط واجهاضها.

ويكشف شيهان دور الرئيس المصريفي تجنب « جنيف » ، فينقل الكاتب عنه قوله لكيسنجر في اسوان «ولماذاجنيف؟يمكنك ان تفعل ذلك كله هنا » ص ٢١. ويستطرد قائلا : « وقد ساعد فـــك الارتباط ايضا ، في القضاء على مؤتمر جنيف . وكـــــان السادات كارهامفاوضة اسرائيل وحده ، ولم يكـــن يستطيع ان يجازف بالعودة الى جنيف،الا بعد ان تكون سوريا قد استعادت بعض الاراضي عن طريق فك الارتباط »ص ٢٣ .

وعندما عاد كيسنجر الى دمشـــق« وجد الاسد مستشيطا غضبا علـــى السادات .. **وخفض الاسد مطالبه** ،مما اعطى كيسنجر نقطة انطـــلاق ، ابلغها للاسرائيليين » ص ٢٣ . الامرالذي يوضح التأثير السلبي للاتفـــاق على موقف النظام السوري.

وبعد ان شعر وزير الخارجية ببوادرفشل مساعيـــه في مفاوضات اذار ـــمـــارس ـ ١٩٧٥ ، راح يشـــرحمخاوفه لقادة اسرائيل ، قائلا فـــي

حديث بالغ الدلالة « الزعماء العـــرب الذين اعتمدوا على الولايات المتحدة ، سيساء الظن بهم ، ولا يصدقهم احـــد في اقوالهم ، فاسلوب الخطوة خطوة قد مني بما قطع انفاسه ، اولا من ناحية الاردن ، وثانيا من جهة مصر . وقد اخذ زمام ضبط الحوادث والسيطرة عليها يفلت من يدنا . والان سنرى العـــرب يعملون معا في جبهة متحدة . وسيشتد الاهتمام ويزداد بالفلسطينيين ، وسيتم ربط بين التحركات في سيناء وفـــــي الجولان ، وسيعود السوفيات الـــى مسرح الاحداث والولايات المتحدة اخذت تفقد سيطرتها عل يمجرى الامور .. وسيضطر الاوروبيون الى التعجيل في انشاء علاقات لهم بالعرب .. الـــخ » ص ٣٤ .

ولم يصدق حدس كيسنجر ، ولـــم تتحقق مخاوفه (٥) ، فقد « اكـــــد السادات ثقته بكيسنجر ، وجدد مـــدة انتداب قوات الطوارىء التابعة للامـــم المتحدة في سيناء . واعاد في اوائـــل حزيران ــ يونيو ــ فتـــــح قنـــاة السويس . **وهذه العوامل تضافـــرت جميعها على نقض الصورة التي كـــان كيسنجر ياخذ بها عن المستقبل** » .

عبقرية فرد ام تخاذل انظمة ؟

فالمسألة اذا ، لا علاقة لها بنبـــوغ وعبقرية الفرد كيسنجر (وان كنـــا لا نبخسه حقه في الذكاء والحنكة) ، ولاترجع الى مرونة وتفتح المؤســـــات الامريكية المختصة ، او قدرة نظـــام صناعة القرار الامريكي على التأقلـــم والتكيف (وهذا يجري في حدود ضيقة للغاية محكومة باطار الحتمية التاريخية) وانما نعزو نجاح هذه السياســـة في الاساس الى **ظروف وواقع موضوعي محلي** ، كانت عاملا في « فرض » النجاح على وزير الخارجية الامريكي (رغـــم انفه ، ان جاز القول) ، حتى حينمـــا اخطأ الحساب واساء التقدير ، المـــرة تلو المرة . **فالتحولات الجذرية التـــي طرات على المنطقة ، داخـــل النظم والقيادات البرجوازية ، انضجـــت الظروف ومهدت الطريق ، وفتحـــت الابواب على مصراعيها ــ بل واقامت اقواس النصر ــ للمسيرة المظفـــرة للسياسة الامريكية ، في عصر افولها** .وذلك لان النظم والقيادات الراسمالية المحلية استنفدت طاقاتـــها وقدراتها« الوطنية » ودخلت مرحلة عقمهـــا **وانهيارها ــ كحتمية تاريخية ــ** ، الامر الذي يقود بالضرورة الى مواقف الخنوع والاستسلام ، والاكتفاء والالتحام في وضع التبعية للمعسكر الامبريالـــي ، دون ان يبرز وينضج البديل الثوري المؤهل لانجاز المهام القومية والاجتماعيـــة ، بالقدر الكافي والقوة الاستقلاليـــة ــ الفكرية والسياسية والتنظيمية ــ التي تكفل احباط الردة .

ويتابع الكاتب ــ باختصار ــ تغطية مباحثات وتوقيع اتفاقية سيناء الثانية .. « والسادات يبـــدو مستسلمـــا بصورة غريبة » .. و « كان المصريون قد وافقوا على محطات المراقبـــــة الامريكية » ص ٤٠ و «اعطى السادات اسرائيل الالتزام بحالة عدم الحرب في كل شيء الا الاسم .. ووعد كيسنجر سرا ، بانه لن يشترك في حـــرب اذا هاجمت سوريا اسرائيل » ص ٤٣ .. الخ . ولكن شيهان لا يتطرق الـــى التحولات الداخلـــــية السياســـية

والاقتصادية ، والاجتماعية داخل مصروغيرها من البلدان العربية ـــ ، رغم انها حجر الزاوية في فهم السياسة الخارجية ، فالاخيرة انعكاس مباشر للطبيعة الاجتماعية للنظام . فالتغييرات الجذرية في التركيب الطبقي للسلطة ، وهيمنة الرأسمالية الكبيرة ـــ ونفوذ القطاع الطفيلي والكومبرادوري بالذات ـــ وما اعقبه ، وترتب عليه ، من تطورات اقتصادية واجتماعية في اتجاه التخلي عن الاستقلال الاقتصادي ، وربط مصر بالسوق الرأسمالي الغربي، واخضاعها لسيطرة الاحتكارات الامبريالية . . كانت هي الاساس في انتهاج خط الاستسلام السياسي .

ويشير شيهان عرضا الى ان احدمقومات سياسة كيسنجر في المنطقة هي « الترويج للتكنولوجيا الامريكية ، ليكون ذلك واسطة لزيادة النفوذ الامريكي في الامم العربية جمعاء » ص٣ وان جوهر سياسة تسير على مستويين ، اولهما حصر الصدام العربي ـــ الاسرائيلي ، و « المستوى الثاني هي الترويج للتكنولوجيا الامريكية التي يتشوق اليها جميع العرب ، بمن فيهم الراديكاليون » .. « ومن ناحية المصريين فان السياسة الامريكية الموازية ، هي بذلك المساندة الدبلوماسية والمال الامريكي ، وتشجيع الاستثمار الامريكي في مصر ، وتشجيع امراء النفط على انقاذ الاقتصاد المصري .. وتشجيع الاوروبيين الغربيين على بيع الاسلحة الى السادات .. لسد الطريق على الاتحاد السوفياتي ...الخ » ص ١٦

واصبحت سياسة كيسنجر العربية « قائمة على ما هو شبيه بالتحالف بين القاهرة وواشنطن، او هي على التعيين قائمة على الصداقة بين كيسنجر والرئيس المصري انور السادات » ..وقد ادرك وزير الخارجية الامريكي منذ البداية الاهمية التي تمثلها مصر ، وانه « اذا ضمن السادات، فسيحذوا العرب الاخرون حذوه » ص ٣ . وكان ينصح القادة الاسرائيليين دائما « بضرورة ادراك الضغوط القاسية الواقعة على السادات . وكان « الاستراتيجيون الاسرائيليون يتحدثون عن فصل مصر عن سوريا ، واخراج مصر من دائرة النزاع العربي الاسرائيلي » ص ٣٢ .ولكنهم كانوا عاجزين عن اتخاذ المواقف الكفيلة بتحقيق هذا الهدف الحيوي ، بسبب عقليتهم العنصرية المتزمتة . وهنا يبرز دور كيسنجر ، الذي يملك بحكم حسه التاريخي ونظرته الاكثر شمولا ، القدرة على الترشيد ـ الجزئي ـ للسياسة الاسرائيلية ، الامر الذي يخدم مصالح اسرائيل ـــ وامريكا بطبيعة الحال ـــ بقدر اكبر مما توفره النظرة الاستاتيكية الجامدة للقادة الصهيونيين . .

« يجب تخليص الاسرائيليين من انفسهم »

ان المصالح الامريكية في المنطقة لم تتغير ، وكذلك استراتيجيتها . كل ما هناك انها اضطرت لادخال تعديلات في الاسلوب والتاكتيك ، اي **الشكل لا الجوهر** .

فما زالت الولايات المتحدة تنتهج خط دعم اسرائيل عسكريا واقتصاديا للمحافظة على قوتها ودورها « الرادع» في الشرق الاوسط ، ولحماية مصالحها

البترولية ، وضمان تدفق النفط العربي بافضل الاسعار ، والاستحواذ على القدر الاكبر من العوائد المالية لدول النفط ، وتقليص دور الاتحاد السوفياتي والهيمنة على المنطقة اقتصادياوسياسيا وتلعب ايران والسعودية ومصر — مؤخرا — دور الركائز الاساسية في هذا المخطط ، جنبا الى جنب مع اسرائيل .

ويحاول كيسنجر اقناع « العرب »بالتغير في السياسة الامريكية .. وموقفه الحيادي . وروج القادة واجهزة اعلام النظم والتنظيمات المتهالكة على الحل الامريكي ، لهذه المفاهيم الزائفة. وكان يضايق وزير الخارجية الامريكي الا يتفهم قادة اسرائيل حقيقة وودافع وتاكتيكات واشنطن ، التي تتوخى حماية اسرائيل نفسها ، ومن نفسها ،حتى لا تؤدي تصرفات حمقاء ضيقة الافق ، الى احباط مخططها لاخضاع المنطقة كلها ، الامر الذي يتفق تماما مع مصالح اسرائيل .

وبعد تعثر مباحثات اذار ، قال كيسنجر لايجال آلون « ان احد الاسباب ، لما انا وزملائي فيه من غيظ، هو ان **نرى صديقا لنا يحدث الضرر لنفسه** ، بعد خمسة اعوام من الان ،لاسباب تبدو تافهة » ص ٣٤ ، ثم وانه « من الامور الفاجعة ان يرى المرء **اناسا يحكمون على انفسهم ، بالتزام مسلك فيه من الخطر ما لا يصدق** »ص٣٥ ..

وينقل شيهان عن المساعدين المقربين لكيسنجر انه (ما من شيء يسبب له عذاب النفس ووجع القلب ، اكثر من اتهامات من هذا القبيل » .. «وهو شديد الافتخار بانه يهودي ، وحينما يحض على تغييرات في سياسة اسرائيل فهو انما يفعل ذلك لانه يود لاسرائيل وليهود العالم الفلاح وحسن الحال . ومما يحز في نفسه ، ويمزق احشاءه ان تنسب اليه الخيانة والغدر ضد قومه وفي اثناء الاسابيع التي تجلت فيها احدة العواطف بعد المفاوضات الفاشلة سأل كيسنجر عددا من الذين زاروه من اليهود:كيف يمكن لي وانا يهودي ان اعمل شيئا اخون به قومي؟..» ص ٣٨ وكان يحمل الدعوة الى ضرورة « تخليص الاسرئيليين من انفسهم » .

ويذكر شيهان ان كيسنجر قال لاحد معارفه « اليهود في التاريخ يكونون في الغالب مفكرين يحسنون الاختلاط مع جميع الشعوب . ولهم تبصر بعيد في الامور . ولكن المثل الاعلى في اسرائيل هو الجندي الفلاح . فالعادة الا يكون الجندي من اصحاب الفكر . وقل من الجنود من كان له بعد في التبصر وسعة الخيال . والفلاح معروف باحجامه وعناده ، وباته مفرط في الحذر .. وهم ممعنون في دقائق الاعتبارات القانونية على غرار التلمود » ص ٣٦ .

والواقع ان كيسنجر قد انجز بسياسته لمصلحة اسرائيل ، اكثر بمراحل مما كانت تقدر عليه تل ابيب باستخدام المنهج الذي تتبناه . ورغم ذلك ظلت واشنطن تسخو في العطاء لاسرائيل ، وتخضع لابتزازها ، وتقدم لها تعهدات ومساعدات بلا تحفظ .ويستشهد الكاتب بمذكرات الاتفاق الاسرائيلية الامريكية ، التي جاء فيها على سبيل المثال « تحاول حكومة الولايات المتحدة ان تحول دون اقتراحات توافق هي واسرائيل على انها مضرة

باسرائيل . والولايات المتحدة مصممة على المحافظة على القوة الدفاعيـــة لاسرائيل عن طريق تزويدها بانـــواع متطورة من الاجهزة ، كطائرات فـــ١٦ على المحافظة على الثورة الدفاعيـــة وان تقوم بدراسة مشتركة للتكنولوجيا المتطورة والاسلحة المعقدة ، بما في ذلك صواريخ بيرشينج ارض ــ ارض ذات الرؤوس العادية .. والولايات المتحدة لن تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية، ولن تفاوضها ما دامت هذه لا تعتـــرف بحق اسرائيل في البقاء ، ولا تقبـــل بقراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ ورقـــم ٣٣٨ ... وحكومة الولايات المتحـــدة تسعى لتنسيق موقفها واستراتيجيتها في مؤتمر جنيف مع موقف واستراتيجية الحكومة الاسرائيلية » .

وقد اثارت هذه التعهدات نقدا شديدا داخل الدوائر الامريكيـــة نفســـها ، اعتبرها مساعدو كيسنجر « مفزعـــة للنفس » ، وبمثابة « عقد للزواج » . ويعلق الكاتب « اذا كان لا بد لامريكا من ان تدفع مهرا بهذا القدر من اجـــل جزء يسير من سيناء ، فكم يكون مبلـــغ ما ستدفعه من اجل السلام ؟ » ص ٤٢

ويضيف شيهان انه منذ حـــــرب تشرين امدت الولايات المتحدة اسرائيل بما قيمته على الاقل ٣ بلايين دولار من الاعتدة » ص ٤٤ وانها « ستتلقى حتى نهاية ١٩٨٠ ما قيمته ٥ بلايين مـــــن الدولارات او اكثر من السلاح ، وكثير من هذا ، على سبيل الهبة » ص ٤٣

الرياض ودمشق :

وفي الرياض كان هدف هنري كيسنجر الرئيسي التعجيل بالغاء الحظر عـــلى النفط . ولعب على « النغمة » المحببة الى نفس فيصل ، لتبرير مســـك واشنطن فقال « الدافع عندنا رغبة في الحيلولة دون حدوث زيادة في النفـــوذ الشيوعي . فلما شرع السوفيات فـــي ارسال الاسلحة اضطررنا للرد عـــلى ذلك .. » ص ١٢ . والتقط الملـــك الخيط ليحمل على «الشيوعية والالحاد» واستطرد « اود ان تعلموا مبلغ مـــا يصيبني من الم اذا انا اتخذت خطوات قد تلحق الضرر بصداقتنا » و « يجب ان تتحركوا بسرعة لكي نرفع الحظر. لقد كان من دواعي ألمي ان اتخذ هـــذا الاجراء ضد اصدقائنا الامريكيين » . وشرح له صعوبات اعادة الضخ ، قبل تحرك مقنع من جانـــب واشنـــطن ، معتذرا « فانا ايضا في وضع صعب ».. « الشيوعيون يتهمون بعض العرب بالرضوخ للضغط الامريكي » ص ١١٤ (وهو يقصد الحركة الوطنية التقدمية عامة) ، الامر الذي يكشف احد اهم دوافع القرار والخوف من التراجـــع بشأنه . ولكن قرار رفع الحظر اتخذ الربيع !

وكشف الملك فيصـــل عـــن دور « التهجين » الذي يلعبـــه بالنسبة لسوريا ــ بعد مصر ــ فبادر الى تنبيه وزير الخارجية « سألت صديقا سوريا عما اذا كانت سوريا تعـــارض زيارة مساعدتكم لها . وقد اجاب ان سوريـــا ترحب بكم » ص ١٣ . وحض عمـــر السقاف وزير الدولة للشؤون الخارجية كيسنجر على زيارة دمشق ، «ونقـــل له اعتقاد فيصل ان سوريا هي مفتاح للسلام » ص ١٥ . ويقول شيهـــان « ووعد (فيصل) كيسنجر في منتصف كانون الاول ــ ديسمبر ــ ، بان يفعل ما يستطيع لتشجيع المفاوضات ، ولا سيما في سوريا . وهو امر له اهميته الجوهرية في واقع الامر .. واصبح الملك هو الممول لدبلوماسية كيسنجر المؤقتة في جميع الشرق الاوسط. فقد مد السادات

بالمال ، واستمال السوريين ، وساعدالصحف في بيروت ..» ص ١٥

وقد شرح الكاتب ، كيف غضب الرئيس الاسد من الاتفاق المصري الاول وفي لقائه مع كيسنجر لاول مرة قال له: « لا بد من اتفاق على فك الارتباط ، قبل مؤتمر جنيف » .. و« خفض مطالبه » ، وعندما اوشكت المباحثات على الفشل « وضع الاسد يده على يدكيسنجر ، وقال : شيء مؤسف . لقد قطعنا تلك المسافة الكبيرة ، ولم نوفق ، الا يمكن ان نفعل شيئا بشأن هذا الخط . عد الى القدس وحاول مرة اخرى » ص ٢٧ . وبعد يومين تم الاتفاق . وكان على غرار فك الارتباطالاسرائيلي المصري.. نظام الخمس مناطق بما في ذلك منطقة الامم المتحدةومنطقتان بعمق ١٠ كيلو متر لاسرائيل وسوريا ، حيث الجنود والمدفعيةوالدبابات محدودة تحديدا شديدا ، ومنطقتان متناظرتان بعمق ٢٠ كيلومتر ، تكون الصواريخ فيها ممنوعة . وفيما وراء منطقة القنيطرة ، سمح للاسرائيليين بان يتابعوا فلاحة الحقول ضمن المنطقة الحاجز ، واحتفظوا بمستوطناتهم وبالثلاث ذات القيمة الاستراتيجية . « واتفق على تسميةالقوات المسلحة للامم المتحدة باسم قوة المراقبة ، لمنع الحساسيات عن سوريا » .

القضية « المؤجلة »

في عرضه للمقومات الاساسيةلسياسة كيسنجر بعد حرب تشرين يقول شيهان « منذ غداة الحرب، حتى اواخر السنة الماضية ، كان كيسنجر يتشبث دائما بتفادي القضية الفلسطينية ،وانكانت هذه القضية في موضع المحك من الصراع العربي الاسرائيلي » ص ٣ .

وقد اعلم السادات بذلك .. وقبل الرئيس المصري « مكتئبا » ، فابلغ وزير الخارجية الامريكي اسرائيل بذلكفي « مذكرة التفاهم » ، واصبح من القواعد المتفق عليها .

وفي اللقاء الاول لكيسنجر مع الرئيس الاسد ، عمل على « ازاحة » موضوع « الفلسطينيين » ، بعد انضمن موقف السادات ، «فابرز مسودة كتاب للدعوة الى المؤتمر (جنيف) ..واشار الى الجملة الجوهرية في الكتاب وهي : ان الاطراف قد وافقت على انمسألة المشتركين الاخرين من مناطق الشرق الاوسط ، سيجري البحث فيهاومناقشتها في المرحلة الاولى من المؤتمر » ــ اي استبعاد منظمةالتحرير ــ . وابلغ كيسنجر الرئيس السوري « ان اسرائيل لا تريد اشارةالى الفلسطينيين في هذه النقطة . ونحن نعترف بانكم لن تحلوا هذه المشكلة دون اخذ المصالح الفلسطينية في الحساب . ولكننا نرى انه من الخطا اثارة المسالةالفلسطينية في بداية المؤتمر » ص ١٨.

ويوحي الكاتب من خلال المقتطفاتالتي اوردها للحوار بين الوزير الامريكي والرئيس السوري ــ بان الاسد لم يتوقف طويلا عند هذه النقطة ، اذ انتقل مباشرة الى مناقشة موضوعات اخرى.

وانعقد مؤتمر جنيف في ٢١ كانـــون الاول ، دون ان تحضره سوريا ومنظمة التحرير . وفي المباحثات التالية مـــــع دمشق (ايار ١٩٧٤) تركزت المساومات في (فك الارتباط) على جبهة الجولان.

«وبنهاية تشرين اول ، كـــان بروز منظمة التحرير الفلسطينـــية بصورة متزايدة في المجال الدولي ، مثارا للذعر عند كيسنجر» ولذلك فقد سافـــر في ٩ تشرين الى القاهرة ليطلـــب مناصرة السـادات للاردن في مؤتمر القمة الموشك على الانعقاد . وكان الرئيس المصري عند حسن ظنه ، فناور ـــ مـــــع السعودية ـــ وراء الكواليس فـــي الرباط . وعندما عجز عـــن التاثير في القرار ، اصدر بيـــــان الاسكندرية (الشهير) الذي يتضمن نقضا لمضمونه.

وكان كيسنجر يخادع ويـــداور في مسألة « الفلسطينيين » ويناور امـــام القادة العرب ، على اساس ان المشكلة مؤجلة ، وليست مستبعدة ، وسيأتـــي دورها في الوقت المناسب « مع الامـــن والحدود والقدس » ص ٣١

وبعد فشل مباحثات اذار ١٩٧٥ ،وظهور خيارات اخرى ، غير طريـــق الخطوة خطوة ، داخل الادارة الامريكية ومنها اعادة الدعوة لعقد مؤتمر جنيف بهدف بحث « تسوية نهائية في الشرق الاوسط تشمل ضمانات لامن اسرائيل» .. يقول الكاتب « ومن الغريب ان حل المشكلة الفلسطينية ، وان كان واردا ضمنا في الخيار الاول (التسويـــــة الشاملة) ، فانه في غير ذلك ، ارجيء في المذكرات السرية الخاصة بالموقـــف المقترح اتخاذه ، وفي المناقشات العديدة التي قام بها كيسنجر » ص ٣٧

وكان كيسنجر « مثل نيكسون » والرئيس جونسون من قبله ، يعتبر الملك حسين بانه مضمون. فالاردن على الرغم من كل شيء ، كان تقريبا **محمـــــية امريكية** . ولكنه على خلاف اسرائـــيل لم يكن له دائرة انتخابية ، ولذلك كـــان عليه ان يكتفي باي فتات تهتم واشنطن بان تلقيه في طريقه » . وكان كيسنجر « يحبه (الملك حسين) ويجـــب ان يطريه على جلده وصبره في الازمة التي حدثت مع الفدائيين الفلسطينيين سنة ١٩٧٠ » وكان الملك بدوره ، ينتظر من صديقه « ان يدخل الاردن في نطـــاق دبلوماسيته الجديدة . وكان مشروع كيسنجر الاصلي الخاص بجنيف ، متمثلا في فك الارتباط عن اسرائيل ومصر ، هو فك الارتباط على الجبهة السوريـــة والجبهة الاردنية » .

وكان كيسنجر يرى ان التسلســـل المنطقي للامور ، يقتضي ان يجيء دور الاردن بعد سوريا . وبعد فك الارتباط على الجبهة السورية « **انذر الاردنيون كيسنجر بانهم اما ان يستعيدوا بسرعة الضفة الغربية ، واما ان منظمة التحرير الفلسطينية ستسبق الـــى تحقـــيق دعواها** » .. **ولكن اسماعيل فهمـــي كان هو ايضا في واشنطن ، وقـــدم المصريون حججهم ليثبتوا اسبقيتهم على الهاشميين** » ص ٣٠

ويستطرد الكاتب ، انه في كانـــون الثاني ١٩٧٤ قدم الملك حسين والرفاعي الى كيسنجر خريطة تقترح بان تنسحب اسرائيل من نهر الاردن الى داخل الضفة

الغربية ، مسافة ثمانية الى عشرة كيلومترات .. لكن اسرائيل رفضت الخريطة الاردنية » واقترحت تسوية نهائيـــة سياسية مع الاردن . وكان الاقتـــراح مذلا ، حتى انه لم يكن جادا . وفـــي الاقتراح تحتفظ اسرائيل بالقدس العربية وباجزاء مهمة من الضفة الغربيـــة ، وبحدود دفاعية على امتداد النهر . وتعيد ما بقي من توافه الاشياء الى الاردن ، مع ادخال الجيش الاسرائيلي فيها ، بحيث يتأتى عن ذلك منطقة عربية اشبه ما تكون بمنطقة ليزوتو في جنوب افريقيا» ص ٣٠ .

ويشير شيهان الى ان « مؤتمـــر الرباط كان اول هزيمة كبرى مني بهـا كيسنجر بعد حرب تشرين » ويرى ان السادات « قد استفاد بطريق غيـــر مباشر من قرارات الرباط ، اذ اسقطت الولايات المتحدة فكرة اتفاقية مـــع الاردن » واصبح كيسنجر « يفضل ان تكون سيناء موضوع المفاوضات التالية» ص ٣١ .

وسبق ان اوضحنا كيف ان مذكرات الاتفاق الاسرائيلية الامريكية المكمـلة لاتفاق سيناء الثاني (ايلول ١٩٧٥) تسلم بحق « الفيتو » لاسرائيل ، فيما يتعلق بتمثيل « الفلسطينيـــين » في جنيف .

ويفضح شيهان نوايـــا كيسنجر والفكرة التي تحركها ، فيلخص وجهـة نظره في التالي « لو فرضنا ان قطعـــة مبتورة من فلسطين يمكن توفيرها ، فان الفكرة لم تجد هوى لدى كيسنجـــر .فكتب التاريخ قد علمته ان مثل هـــذه الدويلة المصغرة تربى في النفـــوس عواطف الحماس لاسترداد المسلوب ، وتسبب انفجارات فيما بعد ، وتبعـــث على قيام منازعات خطيـــرة بيـــن الدول العظمى . **وقد ينال الفلسطينيون دولة لهم ، ولكن على ان تكـــون فقط جزءا من الاردن »** ص ٣١

وبعد توقيع الاتفاقيـــة المصرية ــ الاسرائيلية ــ الامريكية، وما اعقبها من ردود فعل وخيبة الامل وشكوك في امكانية التوصل لخطـــوات جديدة ، توخى كيسنجر الابقاء على قوة الدفع ،في اتجاه التسوية الامريكية « باحياء ثقة الاسد به ، فاخذ يلين في موقفـــه من الفلسطينيين ، مثال ذلك تصريـــح نائب مساعد وزير الخارجية السابـــق ساندرز الذي اشار فيه الى ان البعد الفلسطيني هو لب الصراع العربـــي الاسرائيلي ، ومطاوعة كيسنجر على اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في مناقشة مجلس الامن في كانون الثانـــي (يناير) » ص ٤٦

والتطورات اللاحقة تظهر انه كلما زاد الاقتراب من « لب المشكلـــة » تضاعفت المؤامرات ضـــد الشعـــب الفلسطيني وقيادته المتمثلة في منظمـــة التحرير الفلسطينية ، فيجري احيـــاء مشروع المملكة المتحدة ، ومشاريع بديلة لوحدات كونفدرالية اوسع نطاقا ويشتد شعار حملة التصفية الجسدية للمقاومات المقاتلة والقوى الثورية ، وشحذ سلاح« تعريب الصراع » وشق الصفـــوف ، الامر الذي نشهد ذروته حاليا في العالم العربي ، وبصفة خاصة ــ ومدمرة ــ

على ارض لبنان .

والواقع انه منذ توقيع الاتفاق المصري ـ الاسرائيلي الاخير ، تمت المعارضة لسياسة « الخطوة خطوة »وتصاعدت موجة النقد لمنهج كيسنجر في امريكا واوروبا . كما ان بعض الذين تبنوا منهجه ، يعتقدون الان انه قد استنفد اغراضه وفقد فاعليته ،وينصحون بالتحول الى العمل على ايجاد « تسوية شاملة » . وهو « مايحبذه معظم الموظفين الرسميين الامريكيين الذين كانت لهم صلة بالشرق الاوسط » ص ٤٦

بل ان شيهان يعتبر فك الارتباط الاسرائيلي السوري انه كان « بمثابة الاوج لدبلوماسية كيسنجر في الشرق الاوسط ، بدأنا نلاحظ بعده تطاول الاشباح والخطوات المتعثرة المتخاذلة وخيبة الامل والمهاترة والشكوك وشلل في الاعمال » ص ٢٨ وان « اعمال السلام التي شرع فيها كيسنجر واماله العريضة منذ عامين ، يظهر انها قد توقفت الان في شتاء من الشكوك والسخط » . ص ٤٤

ويبدو شيهان متشائما ، فيما يتعلق باحتمالات التوصل الى تسوية شاملة ويعزو ذلك الى ان كيسنجر ، « قد استبعد عن مشروع اقرار السلام، **العنصر الاساسي** في النزاع العربي ـ الاسرائيلي » اي قضية الشعب الفلسطيني . ويرى انه فوت الفرصة غداة الحرب . وان التصدي لها اليوم اصبح اكثر صعوبة من ذي قبل »ص ١٧ .

لكن عمليات التحضير لجولة جديدة في مخطط التسوية الامريكية الاستسلامية ، تجري اليوم على قدم وساق » تشهد معالمها في تحركات القوى الرجعية ، وضراوة حملة التصفية القذرة ضد المقاومة الفلسطينية والقوى المناصرة لها ، المتحالفة معها .

وهكذا فان الاستبعاد السياسي« **للعنصر الاساسي** » يتحول الى محاولة لاستبعاده بالابادة الجماعية باستخدام ادوات عربية ، تحركها اصابع الامبريالية .

«١» على عكس الدراسات الموجهة في الوطن العربي ، التي تركز اساسا على حجب المعلومات وتزييف الواقع .

* اعتمدنا على النص المترجم ، من اعداد قسم الترجمة والتحرير والنشر في مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

«٢» والمفاجآت تعني دائما خطأ الحسابات واساءة التقدير.

«٣» مدير قسم المصالح المصرية في واشنطن واول سفير بها بعد عودة العلاقات الدبلوماسية

«٤» وجوهر هذا المشروع كان مقدما من موشى دايان .

«٥» لا شك ان جانب من هذه الصورة ، تصدبه التأثير على اسرائيل ، بتخويفها من عواقب الفشل ، وتراخي « قوة الدفع » ، الا ان جانب اخر ـ لا يستهان به ـ يعكس عجز السياسة الامريكية عن ادراك الواقع العربي والتصورات التي طرأت على الخريطة السياسية والاجتماعية في المنطقة.

اميركا تجيّر حرب تشرين لخدمة مصالحها الاستراتيجية

المقدم الهيثم الايوبي

تتمحور سياسة الولايات المتحدة الاميركية اليوم في جميع مناطق العالم الحساسة، ومن بينها منطقة الشرق الاوسط ،حول هدف اساسي هو « الحفاظ على الاستقرار وتثبيت الوضع الراهن » . ومن المؤكد ان السعي لتحقيق الاستقرار لا ينبع من رغبة اميركية في خلق المناخ اللازم لتطور الشعوب اقتصاديا واجتماعيا واخراجها من التخلف الموروث ، بل ينبع من ان المصالح الاميركية الحالية (استمرار الاستغلال وعدم الصدام مع السوفيات) لا يمكن أن تتحقق الا في مناطق متخلفة ولكنها مستقرة ، وخاضعة للبنى الاقتصادية ــ الاجتماعية ــ السياسية المفوتة التي خلقها الاستعمار القديم قبل رحيله عن بلدان العالم الثالث ، وربطها به مصلحيا ، ثم جيرها للامبريالية الاميركية الجديدة في المناطق التي ورثتها هذه الامبريالية او انتزعتها من الامبراطوريات الاستعمارية القديمة . وعلى هذا الاساس فان « هدف » تحقيق الاستقرار لا يشكل غاية بحد ذاته ، وما هو سوى العملية الاولى والضرورية لبناء « ارضية راسخة » تضمن الوصول الى الاغراض الحقيقية المتباينة (في النوع لا في الجوهر) بتباين ثروات المناطق المنوي تهدئتها ، واهمية موقعها الاستراتيجي ، وطبيعة قواها وتناقضاتها ومعضلاتها .

ونظرا لموقع الشرق الاوسط ،واهمية ثروته البترولية ، فان تهدئته (خلق الارضية الراسخة) تعني بالنسبة الى واشنطن نزع اي فتيل متفجر محلي قد يؤدي الى التصعيد نحو صدام نووي انتحاري مع السوفيات والحفاظ على الوضع الذي يسمح باستمرار استغلال النفط ، وتأمين خطوط النقل النفطي البرية الى شواطىء البحر الابيض المتوسط بالاضافة الى خطوط النقل البحرية عبر الخليج العربي ــ مضيق باب المندب ــ البحر الاحمر ــ قناة السويس ــ شرقي البحر الابيض المتوسط . هذا هو الاصل . وكل ما عدا ذلك فروع ،مراحل ، خطوات مرسومة لتأمين الاصل وخدمته .

ان الوصول الى الهدف لا يتم دون « وسيلة » . ومن الطبيعي ان تكون الوسيلة مرحلة متشعبة متعددة المحاور والبدائل . واذا كان تحديد

الهدف والوسيلة اللازمة لبلوغه عملايدخل في نطاق الاستراتيجية الثابتة الى حد ما ، فان تمرحـــل الوســيلة ،والمناورة على محاورها المتشعبـــة ، واستخدام البدائل المتغيرة بتغيـــر المواقف ، امور تدخل في نطاق التكتيك المرن القابل للتبديل . واذا كان الهدف الاستراتيجي الاميركي ، كما ذكرنا ، يتمثل في التهدئة وتامين الاستقرار ، فقدكانت الوسيلة قبل الحـــرب العالمية الثانية تتمثل في الاعتماد على سلطـة الدولتين الاستعماريتين القديمتـــين (بريطانيا وفرنسا) المسيطرتين عسكرياوسياسيا على منابع النفط وطـــرق نقله ، والمستعدتين لتامين مصالحهـــافي المنطقة بالاصالة ومصالح الولايـات المتحدة بالوكالة .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية وبدءانهيار الامبراطوريتين البريطانيـــة والفرنسية، بدلت واشنطن «الوسيلة»ووجدت ان التهدئة يمكن ان تتم عـن طريق « الدولة الصهيونية » التـــيخططت بريطانيا من قبل لانشائهـا ، خاصة اذا دعمت هذه الدولة منـــذانشائها لتصبح قادرة على لعب دور " الشرطي المحلي » ، واتخذت التدابير الكفيلة بتكريس التخلف والتجزئة في الوطن العربي ، حتى يبقى « الشرطي »اقوى من المتمردين المحتملين . وكـان هذا الامر ممكنا وبتكاليف محدودة خلال مرحلة ارتباط الدول العربية بالغـرب سياسيا وتسليحيا (١٩٤٥ــ١٩٥٥) .

بيد ان وجود اسرائيل جـاء ليضيف عاملا جديدا وديناميكيا الى العوامـل الاقتصادية والاجتماعية والنفسيـــة الكامنة وراء عـدم استقرار المنطقة . ولقد ادى هذا الوجود المفتعل ، وتزايد الشعور القومي العربي ، وتنامـــي حركة التحرر العالمي المدعومة من قبل المعسكر الاشتراكي (الذي غدا بعـد الحرب منافسا خطيرا للمعسكـــر الراسمالي) ، وكسر احتكار السلاح في العام ١٩٥٥ ، الى ظهور وضع جديديهدد « سياسة التهدئة » ، ويهـدد بالتالي المصالح الاميركية . هنـــاحافظت الولايـات المتحـدة علـــى « الوسيلة » (الشرطـي المحلـي) ،ولكنها بدلت تكتيكها لتقويته ، فلم تعد تكتفي بتدعيمه عسكريا واقتصاديـا ،بواسطة اطراف ثلاثة (بريطانيـا ، المانيا الغربية ، فرنسا) بل اضافت الى ذلك العمل الجاد لاضعاف المعسكر العربي ، عن طريق التآمر علـى قوى التحرر الوطني العربـي الراديكاليـة واستنزافهـا اقتصاديـا وعسكريا .وعندما وجدت ان الاضافات التي حصلت عليها اسرائيل ، والنقص المستمر الذي أصاب قوى التحرر الوطني العربي قد بدلت ميزان القوى ، واوجدت المـناخ الملائم لتسديد ضربة حاسمة تحقق لها عدة اغراض بآن واحد ، أعطـــتاسرائيل الضوء الاخضر . وكانت حرب حزيران ١٩٦٧ .

وحققت اسرائيل في هذه الحـرب انتصارا عسكريا اظهرها كقوة منظمة ديناميكية قادرة على خوض الحـــربالحديثة بكل تعقيداتها ، والتغلب على الدول العربيـــة مجتمعة ، واعـــادةالاستقرار الى المنطقة بقـــوة الردع العسكري المتزامن مع العمل المتدرج ،والافادة من مظلة الردع لتهويد المناطق المحتلة وتدجينها وضمها على مراحـل متعاقبة (الضم الزاحف) . ورغـــم انسجام توجه اسرائيل نحو فـــرض الاستقرار مع مصالح الولايات المتحدة

الراغبة في التهدئة، فقد وجد الاميركيون في الفترة التي اعقبت حرب ١٩٦٧ ان السياسة الاسرائيلية ستؤدي على العكس الى تفاقم عدم الاستقرار، نظرا لان الكرامة العربية المجروحة في الحرب العربية ــ الاسرائيلية الثالثة ستكون حافزا قويا لاعادة بناء القوات المسلحة العربية بمساعدة السوفيات ، وشن حرب ثأرية رابعة .

ولقد بنت واشنطن حكمها على عدة مؤشرات أهمها : استمرار الدعم العسكري السوفياتي لمصر وسورية والعراق ، وبدء حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس ، وتنامي العمل العسكري ــ السياسي الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها . وتكونت في العديد من الاوساط الاميركية قناعة بضرورة تبديل التكتيك، واقناع اسرائيل ، رغم تقويتها بسلاح اميركي ، بضرورة التخلي عن كل او بعض الاراضي العربية المحتلة، وايجاد صيغة معقولة لاحتواء الزخم الثوري الفلسطيني عن طريق اعطاء الفلسطينيين بعض حقوقهم عبر النظام الاردني ، على اعتبار ان السير على هذا السبيل يشكل المدخل العملي لمنع الدول العربية من تقوية علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي ، مصدر السلاح اللازم لتحرير الارض بالقوة، والوسيلة المثلى لحرمان الثورة الفلسطينية من الامتداد والتجذر . وانطلاقا من هذه القناعة طرح وزير الخارجية الاميركية دين راسك خطته لحل الازمة (تشرين الثاني ١٩٦٨) ، وتبنى مجلس الامن القومي الاميركي خطة للتحرك نحو حل شامل من خلال تسويات جزئية (مطلع ١٩٦٩) ، وطرح ويليم روجرز مشروعه (كانون الاول ١٩٦٩) . بيدان اسرائيل اصرت على ضرورة التمسك بالتكتيك القديم القائل بأن « اسرائيل القوية » هي الضمانة الوحيدة للاستقرار والتهدئة .

وبقيت الولايات المتحدة مترددة في العودة الى التكتيك القديم حتى نهاية العام ١٩٧٠ ، حيث ادى توقف حرب الاستنزاف ، وضرب قواعد الثورة الفلسطينية في الاردن ، ووفاة الرئيس جمال عبد الناصر ، الى خلق وضع جديد اقنع الاميركيين بامكانية العودة الى تكتيك ما قبل حرب ١٩٦٧ . وزاد من قناعتهم ان الاسرائيليين استطاعوا تهدئة المناطق المحتلة الى حد ما ، وافادوا من الجسور المفتوحة مع الاردن لاظهار الاوضاع في المنطقة وكأنها سائرة نحو التعايش الذي يلعب فيه الزمن دور العامل المهدىء، ويخفف حالة العداء بالتدريج .

وبعودة واشنطن الى التكتيك القديم عادت اسرائيل الى الهجوم العسكري ــ السياسي ــ النفسي ، وطبقت استراتيجية الردع لتذكير العرب بمعادلة « التفوق الاسرائيلي والعجز العربي » بغية تدجينهم واستنزاف ارادتهم القتالية . وفي هذا الوقت كانت محاور العمل الاميركي تستهدف دعم اسرائيل بشكل مستمر ، وتفتيت المعسكر العربي ، وعزل مصر عن المعركة ، واستغلال الخلافات العربية حول القضية الفلسطينية ، وتنفيس التوتر النفسي العربي ، وتخفيف حدة العداء لاميركا ، واضعاف النفوذ السوفياتي ، بدلا من تصفيته النهائية، على اعتبار ان بقاء شيء من النفوذ السوفياتي غير الخطر يرفع عن كاهل الولايات المتحدة اعباء اقتصادية ينبغي عليها ان تحملها اذا ما خرج السوفيات نهائيا من المنطقة .

ومع قدوم العام ١٩٧٣ كانـــت التكتيكات الاميركية قد حققت عددا من اغراضها فلقد اصبحت اسرائيل قويـة الى الحد الذي سمح لها بالعربـــدة والضرب في العمق العربي ، وبـــدا المعسكر العربي مفتتا ، وظهرت فـي مصر تيارات تستهدف تصفية الناصريةبمعناها الاقتصادي ــ الاجتماعـــي الداخلي وبمعنـــاها الاستراتيجـي وتحالفاتها مـــع المعسكر الشرقي ، وحوصرت الثورة الفلسطينية في لبنانبعد خروجها نهائيا من الاردن على اثر احداث جرش وعجلون (تموز ١٩٧١)وعبئت ضدها قوى النظام القديـــم الرسمية وغير الرسمية ، وانهت مصر ــ بدفع اميركي غير مباشر ودفـــع سعودي مباشر ــ مهمـــة الخبـــراء السوفيات (٢١ الفا) في تموز ١٩٧٢ بعد ان استطاعت تصفية مجموعة علي‌صبري في ايار ١٩٧١ ، واخذت معاداة السوفيات شكلا رسميـــا في مصر ،واستطاعت المشاريع السلمية تنفيس التوتر الحربي واعطت العرب امـــلابامكانية التوصل الى حل لمسألـــة الاراضي المحتلة دون الاحتكام الـــى السلاح . وكانت كل الدلائل تشير الى ان الاستقرار مؤمن بفضـــل حالـــة« اللاحرب واللاسلم » التي قـــدر الكثيرون ان الدول العربية المتنازعـــة عاجزة عن تحطيمها .

ورغم رضا الولايات المتحدة النسبي عن التهدئة المحققة ، فقد كان في الادارة الاميركية عناصر (ومن بينها كيسنجر)ترى ان التهدئة الاسرائيلية بالعنف لـــم تقتلع كل أسباب النزاع ، وان هـــذه التهدئة لا تستند الى قواعد صلبة. وان التكتيك الامثل للتهدئة هو خلق « منطقةمتجانسة » تسود بين دولها علاقـــات غير عدائية ، بغض النظر عن انظمـــة هـــذه الدول وتراثهـــا الفكـــري وايديولوجياتها . ولكن وجـــود هـــذه المنطقة المتجانسة كان يتطلب اتفاقيـــة سلام يقف في وجهها رفض العـــرب للسلام من موقع الهزيمـــة خاصة اذا كان هذا السلام سيجبرها على التخلي عن جزء من الاراضي المحتلة في حرب حزيران ١٩٦٧ ، وتعنت اسرائيـــل واتساع شهيتها لضم المناطق المحتـــلة وقدرتها على الافادة من اللوبـــي الصهيوني المتصلب امـــام اي ضغـــط اميركي . لذا تجمد المسعى الاميركـــي لخلق « المنطقة المتجانسة » ، وبقـــي الشرق الاوسط في حالة استقـــرار ظاهري قلق يخفي تحتـــه عوامـــل الانفجار .

وفي السادس مـــن تشرين الاول ١٩٧٣ انقلب التوازن القلـــق ، وزال الاستقرار الذي بدا ثابتا منذ نهايـــة حرب الاستنزاف ، وتحـــول العداء الكامن الى صدام مسلح واســـع النطاق . وسواء كانت الولايات المتحدة قد شاركت في التخطيط لحرب مرسومة الابعاد والاهداف (كما يقول الرئيس حافظ الاسد) ، ام انها فوجئت بها كما فوجيء الاسرائيليون (كما يقول الرئيس محمد انور السادات) ، فقد ظهر امام واشنطن وضع ساخن جديد. وتصرفت الولايات المتحدة كدولـــة عظمى ذات مصالح حيوية ، فلم تقف مـــن النزاع موقفا سلبيا ، بل عملت ما في وسعها لاستغلاله وتجييره لمصلحتها مطبقـــة بذلك مبدأ « العمل وفق معطيـــات الواقع الموضوعي وما يمكن انجازه في ضوء هذا الواقع ، وفي ظل الظـــروف المهيمنة » .

ولقد راى الدكتور هنري كيسنجر ،مهندس « المناطـــق المتجانســـة » ان

بوسع الولايات المتحدة استغلال الوضع الساخن من اجل خلق المناخ الملائم لبناء « المنطقة المتجانسة الشرق اوسطية » في المستقبل ، شريطة ان تجري الامور بشكل يحقق ما يلي :

اولا : اعطاء العرب فرصة ليقولوا كلمتهم ، ويستعيدوا عزتهم القومية ، ويصبحوا بالتالي اكثر استعدادا وقدرة للبحث في مسائل السلام .

ثانيا : عدم السماح للضربة العربية بأن تأخذ بعدا اكبر مما ينبغي ، حتى لا تتعرض اسرائيل لهزيمة تعرض المناطق الواقعة وراء الخط الاخضر (حدود هدنة رودوس ١٩٤٩) للخطر ، وتفتح شهية العرب اكثر مما ينبغي ، وتحطم مصداقية اميركا كزعيمة (للعالم الغربي) وكدولة مستعدة للوفاء بالتزاماتها وتثير نقمة يهود اميركا المهيمنين انتخابيا وسياسيا ، وكيلا يزداد النفوذ السوفياتي على اثر انتصار جيوش عربية مسلحة ومدربة بمساعدة السوفيات .

ثالثا : مساعدة الدولة الصهيونية قبل ان تحشر في زاوية ، حتى لا يقف الاسرائيليون بعد انتهاء القتال (كما وقف العرب بعد حرب ١٩٦٧) موقف الرافض للسلام من موقع الهزيمة . (يذكر البعض ان عدم السماح بحشر الاسرائيليين في زاوية كان يرجع ايضا الى خوف كيسنجر من لجوئهم في حالة التعرض لخطر ماحق الى استخدام سلاح الدمار الشامل النووي او البيولوجي او الكيماوي ، الامر الذي قد يؤدي الى رد فعل سوفياتي مماثل يكون شرارة اندلاع حرب نووية عالمية بالاستجرار . ولكن ليس هناك من الدلائل ما يؤكد هذه الفرضية حتى الان) .

رابعا : اعطاء الطرفين المتنازعين الفرصة لمتابعة القتال ودهورة الوضع الى « حافة الهاوية » بغية اقناعهما بعبثية اللجوء الى السلاح ، وضخامة الخسائر الناجمة عن الحرب وخطورة هذه الحرب المحلية على السلم العالمي ، الامر الذي يؤدي الى تقوية حجج المعتدلين الميالين الى ايجاد حل سلمي للنزاع طالما ان الحل العسكري عاجز عن تحقيق اغراضه .

خامسا : مساعدة اسرائيل على تسديد ضربة معاكسة تعيد التوازن العسكري والنفسي الى المنطقة ، وتجعل النتيجة النهائية (واحد الى واحد) ، الامر الذي يخلق في النهاية لدى الطرفين احساسا بالفخار البطولي وشعورا بامكانية التعرض للهزيمة (التي لم تقع) . وهذا مناخ نفسي جيد لبدء المفاوضات .

سادسا : التدخل الجدي في لحظة ذروة الازمة بغية ايقاف « قتال الديكة المنهوكة » ، والتصرف كحكم محايد يحتكر مفاتيح الحرب والسلام .

واذا عدنا الى مسلسل احداث حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ، وجدنا ان الامور جرت بشكل متطابق الى حد مامع ما ذكرناه . فلقد اخفت الولايات المتحدة معلوماتها عن الهجوم العربي (سواء كانت هذه المعلومات ناجمة عن

مشاركتها في التخطيط او عن مصادر استخباراتها التقنية وغير التقنية) ،ولم تؤكد لاسرائيل بان الهجوم واقع حتما الا قبيل ساعات ، الامر الذي شارك في تعرض الاسرائيليين للمفاجاة (علما بأن الاسرائيليين كانوا في وضع نفسي يسمح بمفاجاتهم) . وادت المفاجاة الى حرمان الجيش الاسرائيلي من القيام بالهجوم الاجهاضي المسبق ، كما ادت الى اجراء التعبئة على عجل والتعرض لخسائر جردت الاسرائيليين من تفوقهم الاولي .

وكان من الواضح ان الاميركيين يعتقدون بأن اسرائيل ستنجح في تسديد الضربة المعاكسة اللازمة لاعادة التوازن ، رغم المفاجاة وما رافقها من اضطراب وخسائر . وعندما رات بأن هذه الضربة قد تعثرت في الجولان وتعذر القيام بها في سيناء ، اعادت تسليح الجيش الاسرائيلي حتى لا يشعر بأنه في مازق ، وقدمت له المعلومات ليقوم بمغامرة الدفرسوار منذ يوم ١٥ تشرين الاول .

وفي اليوم التالي طرح الرئيس السادات مشروعه السلمي على اساس القرار رقم ٢٤٢ ، فلم تغتنم واشنطن الفرصة للقيام بضغط جدي لايقاف القتال ، بل آثرت منح الاحتياط الاستراتيجي الاسرائيلي المحتشد في سيناء فرصة تطوير عملية «الغزالة» .وفي ١٧ تشرين الاول اجتمع الرئيس الاميركي في واشنطن باربعة من وزراء الخارجية العرب فلم يطرح ما يدل على انه متعجل لوقف القتال . وتشكل لدى الوزراء العرب الاربعة الانطباع نفسه عندما اجتمعوا الى كيسنجر .وهكذا أجل الاميركيون عمدا أي بحث جدي في وقف اطلاق النار ، وتركوا رحى الحرب تطحن الطرفين حتى تفتح ضخامة الخسائر عيونهم على عبثية القتال وضراوته وجدوى البحث عن حل سلمي . وفي ٢٠ــ١٠ طار كيسنجر الى موسكو للاتفاق مع السوفيات على وقف القتال وهو متأكد من ان قرار وقف القتال الذي سيتم التوصل اليه في مجلس الامن بعد يوم أو يومين سيلقى ترحيبا من جميع الاطراف المتصارعة التي تعرضت خلال القتال لخسائر كبيرة وغير مألوفة من قبل .

ورغم صدور قرار وقف القتال في ٢٢ــ١٠ ، تابعت القوات الاسرائيلية تقدمها حتى قطعت طريق القاهرة السويس في ٢٣ــ١٠ . وغضت الولايات المتحدة الطرف عن هذا الخرق الفاضح لقرار مجلس الامن الذي شاركت في التصويت عليه ، وكانت غايتها اعطاء الاسرائيليين فرصة اضافية لتكريس نجاحاتهم ، وترك الكرة تتدحرج الى « حافة الهاوية ». ولقد تدحرجت الكرة بالفعل عندما ارسل ليونيد بريجنيف سكرتير الحزب الشيوعي السوفياتي الى كيسنجر رسالة شديدة اللهجة في يوم ٢٣ــ١٠ وهدد فيها بانه اذا لم تتدخل الدولتان العظميان معا لوقف القتال فان الاتحاد السوفياتي قد يتصرف منفردا ويرسل قواته لتنفيذ قرار مجلس الامن .

واستغل كيسنجر الرسالة السوفياتية لاقناع الرئيس ريتشارد نيكسون بضرورة الرد على التهديد بتهديد اعنف . وصعد نيكسون الوضع الى مستوى استنفار الاسلحة الاستراتيجية (النووية) . وفي هذا الجو المتوتر الموحي باحتمالات وقوع صدام دولي نووي ، صدر القرار رقم

٣٤٠ ، والغى نيكسون الاستفتـــار النووي ، وقدمت الولايات المتحـــدة نفسها كحكم محايد قادر علـــى ايجاد الحل السلمي .

ان كل هذه الامور تدل علـــى ان الولايات المتحدة استخدمت الحـــرب وسيلة للضغـــط عـــلى المتطرفيـــن في الطرفين المتنازعين بغيـــة تدجينهم ، واقناعهم بعدم جدوى الحرب ، ودفعهم نحو موقف المعتدلين . وحتى اعـــلان استفتار الاسلحة الاستراتيجية فتـــدكان عملا لا مبرر له من الناحيـــة العسكرية ، وتصعيدا مفتعلا الـــى « عتبـــة » اعلى مما ينبغي ، ليس بقصد الضغط عـــلى السوفيات او استفزازهم وجرهم الى الصدام ، بـــل بقصد الهاء الشعب الاميركي عن قضية « ووترغيت » من جهـــة ، وايهـــام العرب والاسرائيليين بأن اقتتالهـــم سيؤدي الى اندلاع حرب نووية عالمية من جهة اخرى .

ونجم عن حرب تشرين وضع نفسي جديد وموازين قوى جديدة. واذا كانت ايام تشرين المجيدة قد هزت معظـــم المقولات الاسرائيلية القديمة حـــول التهدئة ، ونقضت جوهر المخـــطط الصهيوني ، فقد ادت الى اكتشـــاف الامة العربية لقدرتها على مجابهـــة الغزوة الصهيونية ودحرها ، وامتلاكها لقوى بشرية واقتصادية وعسكريـــة قادرة على قلب موازين القوى المحلية والتأثير الجدي على موازين القـــوى العالمية ، وكانت نقطة انتقال الامـــة العربية من مرحلة امتلاك القوة الـــى مرحلة الوعي بامتلاك هـــذه القـــوة والقدرة على استخدامها .

والى جانب هـــذه النتائج ، ادت الحرب ، والشكل الذي تم به ايقـــاف القتال ، والاعلام الذي احاط باستخدام سلاح النفط (رغـــم اخطـــاء هـــذا الاستخدام) الى نتائج اخرى تمثلت بمايلي : ١ ــ ظهور ارتباط اسرائيـــل باميركا حياتيا وامنيا ، ٢ ــ ارتفـــاع هيبة ومركز وثروة (وبالتالي قـــوة) الدول العربية التقليدية ، ٣ ــ تزايـــد قوة المعتدلين على جانبي الخندق ، ٤ــ تحسن سمعة الولايات المتحدة بسبب الثقة الممنوحة لها من بعض العـــرب دون اساس موضوعي ، واستنادا الى الاعتقاد الموهوم بوجـــود تبـــدل استراتيجي في الموقف الاميركي مـــن النزاع العربي ــ الاسرائيلي ، ٥ ــ عودة التناقضات العربية للظهور، ٦ ــ اشتـــداد الحملات ضـــد الحليف الاستراتيجي السوفياتي ، ٧ ــ ترسخ الفكرة لدى بعض العـــرب بـــأن اميركا تملك كل مفاتيح الحرب والسلام، ٨ ــ حصول الشركـــات النفطيـــة الاميركية على ارباح هائلة من جـــراء رفع اسعار النفط ، ٩ ــ تضرر العديد من الدول المحايدة او الصديقة مـــن ارتفاع اسعار النفط .. انطلاقـــا من هذه المعطيات الجديدة ، بدلت الولايات المتحدة تكتيكها مع الحفاظ على هدفها الاستراتيجي (التهدئة) ، وبـــدات خطواتها الصغيرة لبناء « الســـلام الاميركي » على انقاض « الســـلام الاسرائيلي » الذي هـــدمه الجنـــدي العربي والسلاح السوفياتي فـــي السادس من تشرين الاول .

وكان جوهر التكتيك الجديد هـــو تنفيس الايجابيات العربية في حـــرب تشرين واستغلال الاوضاع الجديـــدة عنها من أجل تخفيف العداء بين دول

المنطقة كخطوة على سبيل الحـــل السلمي الذي يكـون مدخلا لبنـــاء « المنطقة المتجانسة » التي تعـــذربناؤها في الخمسينات عندما فشلـــت محاولات ضم الدول العربية واسرائيل الى الاحلاف الاقليمية . اما مرتكـزات ومحاور هذا التكتيك فكانت : الظهـوربمظهر الطرف المحايد الراغب في ايجاد حل عادل ودائم للنزاع المستحكم منـذربع قرن ، وتفتيت الصف العربـــي وحرمانه من ايجابية التضامن التـي اظهرتها الحرب ، وتدعيم « المعتدلين » لدى الطرفين والتعامل معهم مـــع محـاصرة المتشددين لتليينهـــم او احتوائهم او ضربهم وتحجيمهم عنـــد الضرورة ، وتقويـــة العسكريـــة الاسرائيلية بحيثتبقى عامل ضغط على العرب المتشددين ، واقناع العـــرب المعتدلين بأن موقفهـــم المعتـــدل و « الموضوعي » سيكسبهم عطـــف الراي العام العالمي والاميركي وسيفتح المجال امام مساعدتهم تكنولوجيـــا واقتصاديا بشكل يؤمن لهم حـــل معضلاتهم الاقتصاديـــة المتراكمة ، والضغط باتجـــاه تقليص النفـــوذ السوفياتي في المنطقة (دون اقتلاعه)، على اساس ان هذا النفوذ قد جاء على اثر الدعم العسكري الذي « لم يعد له مبرر » طالما ان الحل سيأخذ مجـراه سلميا ودون الاحتكام الى السلاح الذي حاولت الولايات المتحدة ، كما راينـا ، اظهاره كعمل عبثي خطير باهـــظ التكاليف ولا يمكن ان يحقق الحسم . ولقد استخدم هذا التكتيك بنجاح في مرحلة مباحثات فصل القوات ، ووصل الى ذروة النجاح في اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء (١٩٧٥) الذي شـــق معسكر العرب المحاربين ، واخـــرج مصر من المعركة بعـــد ان اقرت لاول مرة منذ بدايـــة الصراع العربـــي الاسرائيلي بـــأن النزاع في المنطقة « لايتم حله بالقـــوة المسلحة وانمـــا بالوسائل السلمية » (المادة الاولـــى)وتعهدت « بعدم استخدام القـــوة أو التهديد بها » (المادة الثانية) وعـــزل بالتالي جيوش دول المغرب العربي عن المشاركة في معركة التحرير بعـــد ان حرمها من منطقة حشدها الطبيعيـــة وخلق بينها وبين الدولة الصهيونيـــة حاجزا جغرافيا ، واعطى الولايـــات المتحدة موطيء قدم في سيناء وجعلهـــا عراب السلم في الشرق الاوســـط ، وسبب توترا في العلاقات السوفياتية ـ المصرية ادى الى توقف امداد مصـــر بالاسلحة وقطع الغيار السوفياتيـــة والغاء المعاهدة المعقودة بين البلديـــن (١٩٧٦) ، واعطى اسرائيل الحـــق بمرور بضائعها عبر قناة السويس بما يمثله هذا الحق من مكاسب اقتصادية ومغزى سياسي ونفسي ، وخلق بيـــن اسرائيل والقوة العربية الاولى (مصر)حاجزا اميركيا ماديا ومعنويا اعـــاد المنطقة الى حالة تشبه حالة « اللاسلم واللاحرب » التي سبقت حرب تشرين.

وتبقى عودة الاميركيين الى المنطقة كوجه مقبول من المعتدلين في المعسكرين المتنازعين اهم ما حققته السياســـة الاميركية بفضل حرب تشرين . ومـــن المؤكد ان تجيير الحرب لصالـــح واشنطن لم ينجم عن انجازات هـــذه الحرب المجيدة ، بل كان افرازا مـــن افرازات السياسات العربية الخاطئة التي تلتها ، وانعكاسا لمفاهيم المعتدلين العرب حول طبيعة النزاع العربـــي ـ الاسرائيلي وحقيقة القوى المحليـــة والدولية المشتركة فيها والتحالفـــات والتناقضات التي لا بد من تقييمها عند تقدير الموقف ، وتجسيدا عمليا لعجـــز المعتدلين عن فهم حرب تشرين كضربة ايقاف للتوسع الصهيوني ، لا بد وان تتبعها مرحـــلة الهجـــوم المعاكس الاستراتيجي العربي . وعجزهم عـــن

وعي حقيقة الطاقات العربية الكامنة التي فجرتها الحرب على مختلف الاصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية والنفسية ، وما ادت اليه من تبديلات في موازين القوى المحلية والعالمية .

وليست العودة الاميركية الى المنطقة نهاية المطاف بالنسبة للسياسة الاميركية . ولكنها مجرد انجاز ، خطوة ، مرحلة على طريق السلم الاميركي ، وما ينجم عنه من انشاء « المنطقة المتجانسة » التي تخدم مصالح اميركا الاستراتيجية . تلك المصالح الثابتة بثبات الاستراتيجية ، والمتعارضة بالتأكيد مع مصالح الامة العربية على قدر تعارض مصالح الناهبين مع مصالح المنهوبين .

وانا احب .. وقلبي ميسلون

سليم بركات

عندما يتبهون
سوف يخفون بداياتي ، وقد يختصمون
حول من يقتلني
حول من ينسج أبعادي بخيطٍ
من خياناتٍ ، ويلقي زمني
في تجاويفِ السنين .

عندما ينتبهون
سوف أخفي الصاعقه
تحت ثديَّ . وأمضي بالرياح الحذِقه
نحو سوريا وأُرخي الزيزفون
فوق أقواس يديْ المتَّسِقه
وأشدُّ الارضَ من ميراثها
صارخاً . هذا نهاري
مأتمٌ مثلي وقلبي ميسلون .

عندما ينتبهون
عندما ينتبه الشرقُ الذي يغسلهم
بتواريخ البلاد الميِّته
سأنادي وردتي الملتفته
وأحاذي قاسيون
وأحاذي اللغةَ الممتَهنَه
فاتحا للمئذنَه

مدخلَ الجرح وأعشاشَ الغصون
لارى كيف يقود الميتون
تحت احشائي بلادي ،
وأراهم يُبْعثون

في دمشقَ ـ العتبَه ٠

عندما ينتبهون
عندما يقتبه البرقُ ، وتدنو المركباتُ الهاربه
من حصاري
وافتجاءاتِ دمي المرتقبَة
ساضم العاشقين
واضم الموجَ مفتوناً بأسماء الصواري
وهي تجتاحُ اجتياحاً عابقاً بالغلبَه ٠

انني بعضُ دمشقٍ ،
ودمشقُ العتبَه
ستحاذيهم فلا ينتبهون ٠
ساحاذي قاسيون
وانا بعضُ دمشقَ الهاربه
في غلالاتٍ من القصدير والماسِ ،
وقلبي ميسلون

ودمي صيدا ،
وصيدا طعنتي المرتقبَه ٠
وانا ماسٌ وقصديرٌ ، ومزجٌ كوكبيٌّ ،
وانا صيدا فهل يعترفون
ان صيدا رحمُ الماء واعراسُ الحصون
حين لا يبقىٰ من المجد سوىٰ حشرجةٍ ،
وعويلٍ عائمٍ في الابجديّة ؟

عندما ينتبهون
عندما ينتبهُ الرملُ وأجراسُ الغبار العربيّة
ساضيءُ الحَلَبَه
رافعاً للتائهين
خوذةَ الشامِ واقمارَ العيون المتعبَه
وانادي : قاسيون
اىُّ ميثاقٍ لهذه الشعلةِ المنطفئَه ؟
اي ميثاقٍ لقبرٍ قادمٍ من صوب سوريّا ؟٠٠
انادي قاسيون

وانادي الاوبئَهْ
وانادي الفِلْزَ والأفْقَ ، واقتادُ الغصونْ
لأشتعالٍ ربَّما يجعلني
وطناً ، أو رايةً منكفِئَهْ .

عندما ينتبهونْ
سَيَغيْرونَ لكي يقتَسِموني
سَيَغيْرونَ ، ولكنّي تهيّأْتُ وخبّأْتُ العيونْ
في عيوني
ثم خباتُ السنينْ
تحت اعشاشِ الرِّئَهْ .

فليكنْ .. إنّي خرابٌ ،
وانا النَّسْلُ وروحي العربَهْ
وانا الحبُّ ، وقلبي ميسلونْ
وانا صيدا ، وصيدا طعنتي المرتَقَبَهْ .

* * *

وَيندلع الزعتر

مي صايغ

لن اكتب مرثيه
حين انفرط العقدُ بجيدِ صبية
سقطتْ عينُ شهيدٍ سهواً
وانفجرَتْ في لُعَبِ الاطفالِ الشهداءِ شظية

لن اكتب مرثيّه
حين اندلعَ الزعترُ في فيروزِ وشاحِكِ
كان المشاهُ الاموىّ
يغلُّ يديهِ
يمرّغُ وجَهك بالرمضاءِ
كان ملوَكُ الردةِ والخلفاء
يقتسمون دماءَك
في آبارِ النفطِ على طرفِ الصحراءْ
ويُحِلُّ دَمَ الاطفالِ جنودُ أُميَّة

★ ★ ★

لن أكتبَ مرثيّه
حين اندلعَ الزعترُ في فيروزِ وشاحِكِ
كان القصرُ الوثني ، يصادرُ وجهَ القدس ، ونهرِ الاردنِ
بصادرُ ظلَّ الصخرةِ والاسراءْ
يسرقُ من عينيكِ الشوقَ ، ولونَ الحلمِ ،
ونكهةَ طينِ الارضِ ، وسيفَ عليٍّ والشهداءْ
يخلعُ من مقلتيكِ الضوءَ ، يعفّنُ جرحَكِ في اقبيةِ الموتِ ،
يُفجِّرُ كلَّ الوجعِ الطفلِ بصدرِ صغارِكِ ، يطلقُ نهرَ الموتِ على
بركانكِ ، يطلق وحشَ الجوعِ ، ووحشَ الحمّى ، وحشَ القصفِ ،
وينثرُ لحمكِ في الطرقاتِ ، يخثرُ صوتكِ فوقَ دروبِ دمشقَ

الشام وفي الشهباءْ يلوي عُنُقَ الحريّةْ ٠

★ ★ ★

لن اكتبَ مرثيةْ
حطَّ النورسُ في خلجانِكِ ، جاءَ النورسُ يحمـــلُ في جنحيهِ
الزّبَدَ الغائرَ من امواجِ البحرِ يحيكُ قمـاطَ المولودين بحضنِ
الموتِ ، ويحملُ ثلجاً ينسجُ منه ضماداً للاطفالِ ، ويصنعُ من
اطواقِ حمامِ الابكِ الداكنِ خبزا
كانتْ كلُّ طيورِ الفرّي تولدُ في نيرانكْ ، كلُّ زهورِ الفلِّ تفتّحُ
في احضانِكْ ، كان الوطنُ القـادمُ يولدُ مهراً اشهبَ ، يولدُ
سهماً ينفذُ في احزانِكْ ٠
حطَّ النورسُ في خلجانكْ
ان يتحدثَ عن احلامِكْ ، لن يتحدثَ عن احلامكْ
كلُّ حروفِ لغاتِ الارضِ لاعجزُ من أن تحكي
والالوان الخصبة اقصر من أن ترسم من أن تروي
وحنينُ الصيادين الزاحفِ من عمقِ التاريخِ الى الشطآنِ
تعلّق في جنحيه شحيحاً يهربُ في الانغامِ المحكيه

لن اكتبَ مرثيه
حين اندلعَ الزعترُ في فيروزِ وشاحِكْ
سقطَ الموتُ قتيلاً فوق ظلالكْ
جاءت كلَّ حقولِ الحنطةِ تبسمُ بين عيونكْ
انتِ على دائرةِ الشمسِ
واعلى من راياتِ النصرِ
رمن اوسمة النصرِ
وفوقَ شفاهِكِ يقطرُ ماءً جبلُ الشيخ
وانتِ بروقٌ ، انتِ سنابلُ ،
انتِ رياحٌ ، انت مناجلُ
تحصدُ غزوَ الشرّ وغزوَ دمشقَ الرابعِ والستين
وانتِ الارضُ الفولانيّةْ

لن اكتبَ مرثيه
ان دروعَ حديدِ الارضِ

لاضعفَ من أن تحمي قصرَ الحُمَّرِ من شهدائِكِ
اعجزَ من ان تحمي شاهَ اميّه
ذلك أنّ سماءَ النصرِ ، ومجـــــرى الكـوكبِ ، عيني شعبكِ
تحرسُ مجدَ صبــاحِكِ .
تبقى نارُ الزعترِ جرحاً يزهرُ في نبضاتِ الارضِ
وفي فيروزِ وشاحِكِ
ويظلُّ الزعترُ يولدُ .. يولدُ .. يولدُ في الاكواخِ التنكيةْ .

* * *

أمـــام الارض

الدكتور الياس شوفاني

في جوهره ، يدور الصراع على الساحةالفلسطينية ، بيـــن الشعب العربـــي الفلسطيني ، صاحب البلد الاصيل ، وبين المستوطنين الصهاينة علـــى العلاقة برقعة الارض الفلسطينية اياها. فبينما ناضل الشعب الفلسطيني ، وما يزال، من اجل البقاء على الارض والحفاظ على علاقته بها، ليس كوسيلة انتاجفحسب، وانما كوطن قومي ايضا، سعى المستوطنون ، وما انفكوا ،الى استكمال عملية اجلاء هذا الشعب عن الارض ، وقطع علاقته بها . كل ذلك من اجل فرض علاقة جديدة على تلك الارض ، تصبح معها ، ان هي استسلمت لذلك ، وطنا قوميـــا « للشعب اليهودي » ، غير المحدد الهوية ، وبالتالي قاعدة للامبريالية ضد حركة جماهير الامة العربية المتطلعة الى التحرر والوحدة ، اذ لا مجال لنجاح عملية الفرض هذه دون تأمين القاعدة العدوانية ، كونهما رديفين .

ومازال هذا الصراع محتدما منذ حوالي قرن من الزمن، وليس هناك ما يشير الى انه اوشك على ايجاد حل له ، وعلى الاقل ، ليس في اطـــار الكلام الدائـــر حاليا حول التسويات منذ حرب تشرين . واما الشعب الفلسطيني، فقد خطى بقيادة ثورته المسلحة، خطوة كبيرة نحو توفير امكانات الحل ، عندما قبل بمبدا المشاركة في الانتماء الى الارض ، شرط التساوي في الحقوق والواجبات. ولكن الكيان الاستيطاني ، ممثلا بقيادته الصهيونية الحالية، ما زال يرفض هذا المبدا ويمعن في العمل على تجسيد المشروع الصهيوني ـــ تهويد الارض ، كـــل الارض في فلسطين وربما فيما وراء حدودها المتعارف عليها حاليا . وهو ان قبل ببقـــاء بعض العرب الفلسطينيين على الارض ، فانما ذلك لضرورات المرحلة ، والى ان تحين الظروف المؤاتية لطردهم منها . والشعارات التي رفعها المستوطـــنون في مسيرة « ارض اسرائيل » ، بقيادة « غوش ايمونيم » (حركة ارض اسرائيـــل الكاملة) ، تعبر اصدق تعبير عن الاهداف غير المعلنة للعدو . وكان هؤلاء قـــد رفعوا الشعار : « اما ارض للعرب فنعم ، واما ارض عربية فلا » . وهـــذا الاصرار الصهيوني على توسيع رقعة استيطانه ، وما يترتب عليه من مصادرة للاراضي وتهويدها ، كان عاملا رئيسيا في انتفاضة الضفة الغربية اخيرا ، وهو الذي فجر الصدام الدموي في « يوم الارض » بالجليل .

ويوم الارض في الجليل طفرة اخرى ، متميزة في نوعها وتصاعد درجة عنفها ، في سلسلة نضال شعبنا الرازح تحت الاحتلال منذ ١٩٤٨ .وهي حلقةجديدةتفتح

جبهة اخرى في معركة المصير بين شعبنا الفلسطيني والاستيطان الصهيوني . وبطفرتهم هذه ، لحق عرب الجليل باخوانهم في الضفة الغربية ، الذين سبقوهم الى الثورة على الاحتلال والى التصدي العنيف لعملية الاستيلاء على الاراضي العربية وتهويدها . وهم قد فاجأوا العدو الصهيوني والكثيرين من ابناء امتهم ، وربما انفسهم ايضا ، بهذا التحرك الجماهيري الواسع ، بعد ان ساد الاعتقاد بانه تم تدجينهم منذ حين . وبذلك التقى هذا النصف من الشعب الفلسطيني ، الواقع تحت الاحتلال ، سواء منذ ١٩٤٨ او منذ ١٩٦٧ ، مع شقه الثاني في الخارج على طريق الكفاح ضد الاستيطان الصهيوني ، فعمت المواجهة الشعب الفلسطيني باكمله . وبينما يصارع النصف الاول للحفاظ على علاقته بوطنه القومي ، يكافح الثاني لشق طريقه الى ذلك الوطن وتجديد الرابطة معه . ويتلاحم نضاله اثبت الشعب الفلسطيني ، الذي عمل العدو على تشتيته وتذويبه ، وحدته وتماسكه رغم جميع الظروف التي مر بها ، واصراره على التمسك بالعلاقة العضوية التي تشده الى وطنه ، مهما كانت التضحيات .

وبالمقابل فهناك اصرار صهيوني علىوضع اليد اليهودية على كامل ارض فلسطين ، وهذا ما يسمونه بالتهويد ، وهذا يعني اقتلاع الجذور العربية منها ؛ واضفاء طابع جديد عليها . وهذا الاصرار لا ينبع من الحاجات الانية للاستيطان الصهيوني ، ولا هو بالحقيقة تلبية لضرورات اقتصادية او حتى امنية ، وانما هو ركن من اركان المشروع الصهيوني . ولا يتم تجسيد ذلك المشروع الا بامتلاك القدرة السياسية الكاملة على تقرير العلاقة بين الارض ومن عليها من السكان . ولما كان المشروع الصهيوني ينطلق ، ولو نظريا ، من ان « الشعب اليهودي »، ولو بأكثريته،سيهاجر الى « وطنه الجديد ــ القديم » ، فقد اعتمدت الحركة الصهيونية منذ بدايتها مبدأ وضع اليد اليهودية على الارض باي ثمن ، لتجعل منها وقفا ذريا على ما اسمته بالشعباليهودي ، والذي لا يزال الى يومنا هذا غير محدد الهوية . وهكذا تميز الاستيطان الصهيوني بجشع لابتلاع الارض لا يعرف الشبع ، وانفرد بين اقرانه بكونه اجلائيا لا يعرف الهوادة في هذا الشأن .

والكلام عن هذا الركن في المشروع الصهيوني بمصطلح « سياسة اسرائيل التوسعية» لا يفي بالغرض . فالواقع ان الارض التي وقعت في يد المستوطنين عام ١٩٤٨ لم تضق بهم فعمدوا الى التوسع لحل ازمة سكانية واقتصادية . ومعلوم ان المناطق الريفية هناك لم يتم الاستيطان فيها بشكل مكثف . فالنقب مثلا ، رغم كل الجهود التي بذلت لاعماره واجتذاب المستوطنين اليه ، خاصة ايام بن غوريون ، لا يزال شبه خال من السكان الى الان . وبيوت « كريات اربع » ، في الخليل ، رغم كل ما يثار من ضجة حولها ، ورغم ازمة السكن الخانقة في القدس القريبة ، لا تزال بمعظمها غير ماهولة . وفي الجولان لا يربو عدد المستوطنين عن بضعة الاف،يغلبعليهم الطابع العسكري . وكذا الحال في مستوطنات الضفة الغربية ومشارف رفح الجديدة . وواضح ان السمة الديمغرافية البارزة في الاستيطان الصهيوني هي التمركز في المدن الكبرى ، خاصة في وسط البلاد والمشاكل التي يثيرها المهاجرون الجدد عندما يزج بهم في المناطق الريفية لم تعد خفية على احد . فلماذا اذن هذا التكالب المؤسسي على الاستيلاء على الارض وتهويدها .

في اوروبا القرن التاسع عشر ، قامت الصهيونية وبلورت خطوطها العريضة

على خلفية ظاهرتين بارزتين : القومية والاستعمار ، وكلتاهما من نتاج تـ طـور الراسمالية الاوروبية . وعلى اطراف هاتين الظاهرتين نمت الصهيونيـة ، وفي سياق الزحف الاوروبي في ذلك العصر راحت تبني حركة سياسية علـى اساس قومي ـ حضاري ، مما انتهى بها الى ان حل المسألة اليهودية لا يتم الا باقامة دولة قومية خاصة باليهود . واما السبيل الى ذلك فقد جاء متفقا مع النهـج السائد في اوروبا آنذاك ـ الاستيطان في البلدان غير النامية . وكان طبيعيا ان يتأثر الفكر الصهيوني السياسي بالتراث اليهودي ، كونه في اساسه قوميا ـ حضاريا يؤكد اهمية الظواهر الحضارية في تكوين قومية الجماعة البشرية التي يسعى الى حشدها في الحركة السياسية المعبرة عنه . والواضح ان الصهيونية اخذت الكثير من التراث الديني اليهودي ، وحاولت ان تصبه في قالب علماني . واذا كان الفكر القومي ـ الحضاري هو القوة الدافعة وراء فكرة اقامة الدولة اليهودية ، وكان الاستيطان هو السبيل الوحيد المتاح لتجسيد هذه الفكـرة ، فالاكيد ان الاثر الديني في تلك الحركة السياسية ، التي اظهرت العلمانية ، كان العامل الحاسم في تحديد المكان واصطفاء فلسطين بالذات لذلك الغرض .

ويزخر التراث الديني اليهودي بالاشارات الى « الارض المقدسة ». ونشأ في اليهودية على مر العصور ، وخاصة في ما اصطلح على تسميتـه « بالشتات اليهودي» ،وذلك بعد خراب الهيكل الثاني وتشتت اليهود ، نوع من « لاهوت الارض المقدسة » ، يربط بين الله وشعبه المختار وارضه المقدسة . فما دام الشعب مختارا ، فكذا هي رقعـة الارض التي اصطفـاها الله لتكون « ارض الميعاد » لشعبه . ومن هنا فالتراث اليهودي يميز هذه الارض عن غيرها مـن بقاع العالم ، وهو لا يتحدث عنها الا بافعل التفضيل وصيغ المبالغة . وقد احيا الفكر الصهيوني ثالوث اليهودية القديمة: وحـدة الله بالشعب بالارض . فانعكس ذلك في ما خصت به الصهيونية اسرائيل من موقع مركزي في حيـاة اليهود حيثما كانوا ، وما اولته من اهمية لعملية « افتداء الارض » اثناء تجسيد المشروع الصهيوني وفي الممارسة العملية للكيان الذي انبثق عنه .

ويقول الاستاذ عبد الوهاب المسيري ، في **موسوعة المفاهيم والمصطلحـات الصهيونية** ، ص ٦٦ ، ما يلي : « وارتباط الدين هذا الارتباط الكامل بالارض هو تعبير آخر عن هذا النمط البنيوي الذي نلاحظه في اليهودية وهو ارتباط المطلق (الدين) بالنسبي (المكان) الامر الذي يجعل التسامي والجدل مستحيلين . والتاريخ اليهودي حسب التصورات التقليدية والصهيونية ان هو الا تعبير عـن الارتباط بالارض ، وهو ارتباط في الواقع يربط بين التاريخ الحي والجغرافيـا الثابتة ، مما يؤدي الى الغاء وجود اليهود التاريخي خارج فلسطين (باعتبار انه وجود « خارج » الارض وبالتالي خارج التاريخ) كما انه يلغي تاريـخ الارض نفسها (باعتبار انها « مكان » مطلق معقم من الزمان خاو على عروشه ينتظر ساكنيه الازليين المقدسين) ».

ولقد احاط الادب الحاخامي الارض بهالة من القدسية ، واغدق عليها صفات المبالغة بحيث جعل امكان اقامة الشعائر الدينية كاملة مستحيلا خارجها .ويقول المسيري :«وتعاليم التوراة لا يمكن ان تنفذ كاملة الا في الارض ولا يمكن ليهودي ان يتنبأ الا وهو فيها وحتى جوها يجعل الانسان حكيما . وقد اصبحت السكنى في الارض بمثابة الايمان لان من يعيش داخل ارض اسرائيل يمكن اعتباره مؤمنا اما

المقيم خارجها فهو انسان لا اله له » (كما جاء في احد اسفار التلمود وفي احـــد تصريحات بـــن غوريون) . بل ان فكرة الارض تتخطى فكرة الثواب والعقاب والاخلاقية فقد جاء في نفس السفر ان من يعش خارج ارض الميعاد كمن يعبد الاصنام ، وجاء ايضا ان من يسر اربع اذرع في فلسطين يطهر من الذنوب ، بل ان حديث من يسكنون في فلسطين في حد ذاته توراة » .(نفس المصدر ص ٦٥).

ويقر الاستاذ فيريلوفسكي ، عميد كلية الاداب في الجامعة العبرية ، (**مـــن الفكر الصهيوني المعاصر** ، مركز الابحاث ١٩٦٨ ، ص ٢٣ ــ ٢٤) ، أن صلـــة الشعب اليهودي بفلسطين « ظلت ، حتى العصر الحديث تستقي من الدين ، قبل اي ينبوع آخر، صورتها وصياغتها».وتساءل الكاتب اذا كان ذلك لا يزال ممكنا بعد ، حيث يقول : « كذلك ينبغي ان نقر بان طبع التاريخ اليهـــودي ، حديثا ، بطابع العصر ، يشكل منعطفا حاسما ان لم يشكل ازمة في تواصـــل التاريخ المذكور » .

واشار فيريلوفسكيفي كلامه الى العقدة التي يتعسر على المفكرين الصهيونيين خاصة العلمانيين منهم ، حلها عند الكلام عن العلاقة بيـــن الشعب اليهودي والارض ، فقال : « يبقى لزاما علينا ، رغم ذلك ، ان نلاحظ ان بعض المفكرين اليهود المنتمين الى الطبقة العليا ظلوا ، في هذا العصر نفسه ، لا يستطيعون الا ان يلجأوا الى اللغة الدينية لكي يفسروا ويصوغوا على النحو الذي يرضيهـــم ، معنى هذه العلاقة الفريدة بين الشعب وبين ما كانوا ، هم ايضا ، يعتبرونه ؛ عبر تجربة الشعب ذاتها ، ارضا له ».هذا اللسان الديني كان يستعير لهجات عدة : فمن لهجة الحاخام المتصوف الكابالي كوك وهي تقليدية نسبيـــا ، الى لهجة مارتن بوبر الحديثة ، الى اللهجة التولستوية التي يعتمدها اهارون دافيد غوردون وهواقرب الى القديس العلماني منه الى اللهجة العقائدية التي نجدها عند حركة المزارع الاشتراكية (الكيبوتس) .

وبامكان الباحث في القضايـــا الصهيونية ان يفهـــم آراء وتنظيرات مفكـــري الصهيونية المتدينين ، حيث يجد انسجاما بين غيبية آرائهم السياسية ومعتقداتهم الدينية . الا ان المفارقة تبرز في فكر اولئك الذين يدعون العلمانية ويتجردون من الميول الدينـــية ، ومنهم مـــنتزعم الحركة الصهيونية ، امثـــال هرتسل ووايزمن وبن غوريون .. الخ . وقد اكتشف بعضهم هذه المفارقة في كلامه عن القومية اليهودية ومقوماتها المادية ، ومن ثم ربطها « بارض الميعاد » وحشرها في خصوصية « الشعب المختار » ، استنادا الى الاسفار الدينية ومـــا ورد فيها من اقوال . وكان بين هؤلاء المنظر الصهيوني بير بوروخوف ، الذي انطلق من فكر ماركسي ومنطق جدلي كي يفسر انفراد فلسطين ، من بين بقاع العالم ، بملاءمتها وصلاحياتها لاقامة دولة اليهـــود . وراح بوروخوف يتخبط في تنظيراته الى ان وصل الى الطريق المسدود . فعاد ادراجه يتسلل الى التيار العام في الفكر الصهيوني ، واللجوء لقبول الاساس الديني للربط بـــين الشعب والارض . وبالمقابل حاول الفيلسوف اليهودي مارتن بوبـــر حجب المنطلقـــات الصهيونية الشوفينية بوشاح مـــــنالفلسفة الصوفية ، الا ان ذلـــــك الوشاح بقي شفافا جدا .

وتبلغ الشوفينية الصهيونية ذروتها في كتابات رواد العمل الصهيونيالتنفيذي، امثال كاتسنلسون وبن غوريون . وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد هنا بعضا من اقوال بن غوريون في مناقشاته مع رجال « عصبة السلام » (بريت شالوم)،

حول المسألة العربية في فلسطين . وكانت عصبة السلام قد طرحتشعار الدولة ثنائية القومية ، على اساس ان العرب الفلسطينيين يرون في ذلك البلد وطنا لهم ، كما يرى الصهيونيون ذلك . فرد عليهم بن غوريون قائلا : « واذا كنتم تريدون بصيغتكم هذه تقرير تعادل اهمية البلد بالنسبة الى العرب واليهود ، فانكم مرة اخرى تخطئون الجوهر وتشوهون الحقيقة . فارض اسرائيل بالنسبة الى الشعب اليهودي لا تستوي وارض اسرائيل بالنسبة الى الشعب العربي .» وبعد ان قدم اسبابه لعدم تساوي الحق العربي في فلسطين مع الحق اليهودي ، مشيرا الى اتساع العالم العربي .. الخ ، قال : « وبالنسبة الى الامة اليهودية باسرها ــ في جميع عصورها وشتاتها هذا هو البلد الواحد والوحيد الذي يرتبط به مصيرها ومستقبلها التاريخي كافة . وفقط في هذا البلد تستطيع ان تجدد حياتها وتقيم وجودها المستقل واقتصادها القومي وثقافتها الخاصة ، وهنا فقط تستطيع ان تبني استقلالها وحريتها كدولة ، وكل من يشوه هذه الحقيقة ــ فانما يضحي بحياة الامة » .

من هذه المنطلقات الفكرية راحت الصهيونية تعمل على تجسيد مشروعها في فلسطين . ولما كان هذا المشروع بطبيعة الحال لا يشكل قاعدة للحوار مع سكان البلاد الاصليين ، فقد عمدت المؤسسة الصهيونية الىتجاهلهم كلية،والى الالتفاف حول مسألة وجودهم على الارض . وانعكست عملية الالتفاف هذه في اعلام نشط يهدف الى تغييب الشعب الفلسطيني ، بحيث يتلاءم كما ونوعا مع مراحل بناء الكيان الاستيطاني . وقد بدا ذلك بالتغييب المادي اي بالنفي القاطع لوجود الشعب الفلسطيني على الارض . ومن هنا طرحت الصهيونية شعار « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » . الا انه مع تصاعد الصراع على ارض فلسطين ، لم يعد بامكان المستوطنين الاستمرار في نفي الوجود المادي للشعب الفلسطيني . فانتقل الاعلام الصهيوني في تبريره لعملية الاستيلاء على الارض وتهويدها الى تغييب السكان المحليين حضاريا وانسانيا . فصار الكلام يتمحور حول الارض الخربة ، التي تنتظر سواعد المستوطنين لاستصلاحها ، بعد ان كان يتركز على الارض الخالية ، التي تفتح ذراعيها لاستقبال المستوطنين القادمين لاعمارها واستعمارها . وفي هذه المرحلة زاد الكلام الصهيوني عن تخلفالشعب الفلسطيني ، وحاجته الماسة لمساعدة المستوطنين اليهود ، الذين سيعينونه على تطوير احوال معيشته .

ومن ناحية اخرى برز في الاعلام الصهيوني الكلام عن ازدهار الصحراء وتجفيف المستنقعات واصلاح حال البلد اقتصاديا ... الخ . وكأنما لسان حال المستوطنين يقول ان اهل البلد الاصليين لا يستحقون الارض التي يعيشون عليها ، وبالتالي فالمستوطنون اليهودلم يرتكبوا اثما كبيرا في الاستيلاء عليها . ولما لم تعد تلك الذرائعتنفع ، واحتدم الصراع مع الثورة الفلسطينية ، وطرحت الثورة برامج سياسية ناضجة ، لجأ الاعلام الصهيوني الى تغييب الحركة الفلسطينية سياسيا . وهكذا برز نفي الماضي السياسي ، وعم الطعن بشرعية النضال الفلسطيني من اجل تقرير المصير السياسي ، مما ترتب عليه التشهير باساليب الكفاح الفلسطيني المسلح . وهذا ما نشهده اليوم في الكلام الصهيوني عن منظمة التحرير والمنظمات الفدائية الفلسطينية .

اما من الناحية العملية ، فقد قام الاستيطان الصهيوني في فلسطين على ثلاثة اركان : تهويد الارض ، تهويد العمل ، وتهويد السوق . وفي الواقع فان تهويد الارض يعني استيلاء المستوطنين عليها ، واقتلاع جذور السكان المحليين منها .

ولهذا الغرض اقامت الحركة الصهيونيةمؤسسة خاصة ، هـــي « الكيـرن كاييمت » ــ الصندوق القومي اليهودي ، همها امتلاك الارض وطرد من عليها من السكان العرب . واما تهويد العمل ، او ما اسماه المستوطنون « العمـل العبري » ، فكان في الواقع يعني استثناء العمال العرب من المنافع الاقتصادية الناتجة عن تطوير البلد . ومن اجل ذلك اقيم « الهستدروت » ــ اتحاد العمال اليهود ، واوكلت اليه مهمة مقاطعة العمال العرب في المشاريع الاقتصاديـــة اليهودية . والسوق اليهودية اقيمت من اجل مقاطعة المنتوجات العربية . وبهذه الوسائل وعلى الرغم من التمويه في التسمية وغيرها . اراد المستوطنون اخراج السكان المحليين من حياة البلد الاقتصادية وبالتالي اجبارهم على النزوح . الا انه على الرغم من جميع المحاولات الصهيونية ، وبغض النظر عن الانحرافـات التي برزت في بعض الاوساط الفلسطينية ، خاصة في قضيـه الارض ، لـم يستطع المستوطنون ، حتى عام ١٩٤٨ ، امتلاك اكثر من جزء بسيط من الارض الفلسطينية . لكن الكارثة التي حلت بشعب فلسطين في ذلك العام ، فتحت باب الاستيلاء على الارض امام الكيان الصهيوني على مصراعيه .

بعد حرب ١٩٤٨ ونتيجة لها وقع حوالي ٨٠ بالمائة من ارض فلسطين فـي ايدي الكيان الصهيوني الذي قام بعد الحرب . ولم تمض فترة وجـيزة حتى صادرت السلطات الصهيونية جميع اراضي العرب الذين نزحوا من البـلد ، واتخذت الاجراءات الشكلية لتهويدها . ولكن ذلك لم يكفهـا . وراحت تناوش من بقي تحت الاحتلال من العرب الفلسطينيين لسلبهم القليل من الارض الذى بقي في ايديهم . ومنذ ذلك الحين ، وبينما الفلسطينيون المشردون يناضلـون من اجل العودة ، كان اولئك الذين آثروا الاحتلال على التشرد يخوضون نضالا مستمراً ، اتخذ خلال السنين اشكالا مختلفة للحؤول دون اقتلاعهم من الارض واستلابهم منها . ولم يترك هـــؤلاءوسيلة للمقاومة الا ولجأوا اليـها ــ شرعية كانت او شبه شرعية او حتى غير شرعية . وتعرضوا نتيجة لذلك لاشكال مختلفة من القمع والتنكيل . ففرضت عليهم الاحكام العسكرية ، وسنت مـن اجلهم القوانين الملفقة ، ناهيك عن المناورات والاساليب الملتوية ، كلها للاستيلاء على الارض . والواقع ان الهدف الرئيسي لفرض الحكم العسكري على العرب تحت الاحتلال ، كان انتزاع الارض من ايديهم فالحكم العسكـــري كان ذراع السلطة الصهيونيةفي تنفيذ هذه العملية.ولمترفع الاحكام العسكرية عن كاهل العرب في الكيان الصهيوني حتى ادت الغرض منها وقامت بمهمتها في مجال تهويد الارض ، بان مهدت الطريق لانتزاع القسم الاكبر من الاراضي التي كان يملكها العرب هناك . ومهما يكن من امر . فاولئك العرب الذين تفـــرد بهم العـدو الصهيوني ، فسامهم انواع القمع والتنكيل وهم في عزلة شبه كاملة ، غلبوا على امرهم في مواجهة عدوهم ــ حاكمهم الا انهم لم يستسلموا قط .

وكما ان العرب الفلسطينيين تحت الاحتلال لم يتركوا وسيلة للنضال مـن اجل الحفاظ على علاقتهم بالارض الا ولجأوا اليها ، هكذا بالمقابل لم يوفر العدو شكلا من اشكال القمع الا واستخدمه في سبيل تطويع هؤلاء العرب واخضاعهم للمخطط الصهيونيفي الاستيلاء على الارض . فالمحاولات العربية بعد الاحتلال للاستمرار في التعامل مع الارض على النهج السابق قوبلت بالاحكام العسكرية وتقسيم الارض الى مناطقمحظورة ، لا يجوز الدخول اليها الا بتصاريح لا تسمح بفلاحتها او استثمارها . وكل محاولة لتحدي هذه الاحكام قوبلت بالقمـــع اما

الوسائل القانونية والتقاضي امام المحاكم ، فقد جاء الرد عليها باستصـــدار القوانين التي تجيز للسلطة الاستيلاء على الارض تحت هذا الغطـــاء او ذاك . وواكب هذه السياسة عدد من الدوافع ، كان بعضها مخططا بالطبع ، كارتفاع اجور عمال البناء وانخفاض اسعار المنتوجات الزراعية العربية .. الخ ، ممـــا ساعد السلطة الصهيونية على كسب معركتها مع السكان العرب ، وانتزاع القسم الاكبر من اراضيهم بوسيلة او باخرى .

ومنذ الاحتلال ، عام ١٩٤٨ ، ارتبطت اشكال نضال العرب الفلسطينيين في الارض المحتلة ضد سياسة الكيان الصهيوني بالاستيلاء على اراضيهم بالصورة التي برز فيها ذلك الكيان في موازين القوى في المنطقة . وهي قد اختلفت نوعا وحدة طبقا لتقييم هؤلاء العرب لقوة العدو ازاء القوى في المنطقة ، وبالتالـــي ازاءهم . ففي سني قيام ذلك الكيان الاولى ، عمت المفاجأة جميع من بقي تحت الاحتلال . وكانت النظرة السائدة اليه انه ظاهرة طارئة لا تلبث ان تزول .وعليه فلم يأخذوا الخطوات التي اتخذها ازاء مصادرة الارض بجدية كاملة . ثم ما لبثوا ان بدأوا يشعرون بان المسألة ليست بالسرعة التي توقعوها ، فراحوا يجسون نبض الكيان وردود فعله . فكانت بعض محاولات التحدي التي جوبهت بالاحكام العسكرية . ثم بدأت مرحلة التراجع امام الكيان ، والتي بلغت ذروتها في اواسط الستينات ، خاصة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . وفي حينه برز الكيان الصهيونـــي كقوة كبيرة ، يستحيل على الاقلية العربية المعزولة داخل ذلك الكيان تحديها . فتوجه النضال من اجل الارض نحو المحاكم والتقاضي مع المغتصب في مؤسساته. اما هو فقد عمد الى استصدار عدد من القوانين تؤمن غطاء قانونيا لعملية سلب الاراضي . ومع ذلك فلم يخل نضال هؤلاء من التحدي والتظاهر والخروج على الاوامر كما حصل ايام اثيرت قضية قريتي كفر برعم واقرت الى ان جاءت حرب تشرين وغيرت الاوضاع القائمة .

ومهما تكن النتائج الموضوعية لحرب تشرين على موازين القوى في المنطقة ، فالاكيد انها هزت صورة الكيان الصهيوني في نظر جماهير الامة العربية ، بمـــن فيها العرب الفلسطينيون تحت الاحتلال ، سواء منذ عام ١٩٤٨ او ١٩٦٧ . فقد نفست حرب تشرين الانتفاخ الكبير في حجم ذلك الكيان ، خاصة في اعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ . والواضح ، من المكاسب التي انجزتها منظـــمة التحريـــر الفلسطينية منذ حرب تشرين ، ان كل تحجيم اصاب الكيان الصهيوني نتيجـــة لتلك الحرب قد صب في كفة الثورة الفلسطينية ، فانتزعت بعدما تعرقل مســـار التسوية السياسية ، قرارات الرباط وبالتالي قرارات الامم المتحدة ، التـــي اعترفت بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني . وفي حيـــن فجرت انجازات الثورة الفلسطينية انتفاضة الضفة الغربية ، فقد جعلت المؤامرة عليها في لبنان امرا محتوما ، اذ لم يكن معقـــولا ان يتـــرك اعـــداء الثـــورة الفلسطينية الامور تسير في صالحها بهذا الشكل .واما انتفاضة الضفة الغربية من جهة ، وصمود الثورة الفلسطينية في لبنان من جهة اخرى ، فقد فجرا انتفاضة عرب الجليل في (يوم الارض).

ان نظرة سريعة على خارطة الاستيطان الصهيوني في الجليل ، بيـــن ١٩٢٢ و١٩٤٨ ، تدلل على ضحالته ، وبالتالي على فشله في استملاك مساحة واسعة من الاراضي فيه . بعد قيامه ، احاط الكيان الصهيوني الجلـــيل بحزام مـــن

المستوطنات ، يمتد في الشمال على طول الحدود مع لبنان ، وفي الشرق على سفوح الجليل المنحدرة نحو غور الاردن، وفي الجنوب في مرجبن عامر ، وعلى طول السهل الساحلي من حيفا الى راس الناقورة في الغرب. اماقلب الجليل فقد بقي عربيا ، خاصة في جزئيه الاسفل والغربي . وتقول مصادر العدو بان اللواء الشمالي من كيانه، من خط حيفا ــ الناصرة شمالا ، سيصبح عربيا باكثرية سكانه في بداية الثمانينات ، نظرا لتزايد السكان العرب فيه بشكل منقطع النظير . وهذا الوضع ما زال يقلق المؤسسة الصهيونية الحاكمة منذ قيام دولتها خاصة وان الجليل كان قسما من الدولة العربية في مشروع التقسيم لعام ١٩٤٧ ولم ينفك قادة العدو يتحدثون عن ضرورة تهويد الجليل ، من ايام بن غوريون ، مرورا باشكول ، والى يومنا هذا . وفي فترة حكم اشكول طرح مشروع مفصل لهذا الغرض ، قدم تحت غطاء « تطوير الجليل » . الا انه لم يتم تنفيذه ، لاسباب عدة اهمها عدم توفر المستوطنين . هذا بالاضافة الى ان الضرورات الامنية لم تكن ملحة،نظرا لهدوءالجبهة مع لبنان.ومع ذلك فقد صودرت آلاف الدونمات من اراضي القرى العربية الزراعية ، واقيمت عليها مستوطنات جديدة ، او اضيفت الى اقطاعات المستوطنات القائمة . وكان ابرز ما تمخض عنه هذا المشروع بناء مستوطنة كرميئيل ، في قلب الجليل الاسفل ، على منتصف الطريق تقريبا بين عكا وصفد . وقد اثار ذلك في حينه ضجة كبيرة حول الاراضي التي تم الاستيلاء عليها لاقامة تلك المستوطنة ، التي ما زالت على حافة الانهيار منذ انشائها . ومع ذلك فقد عاد العدو مؤخرا يتحدث عن اقامة مستوطنات في مناطق مماثلة . وهذا يعني مصادرة المزيد من الاراضي العربية. ولدى الاعلان عن تنفيذ هذا المخطط ثار عرب الجليل على السلطة ، فكان «يوم الارض » .

في تقديرنا ان النجاحات التي احرزتها منظمة التحرير الفلسطينية في السنوات الثلاث الاخيرة ، سواء على الصعيد الخارجي او الداخلي ، من اتساع الاعتراف بها دوليا وتنامي قواها الذاتية ، كانت الدافع الرئيسي الى فتح ملف تهويد الجليل مرة اخرى . ومن المؤكد ان ما يدور من كلام عن تسوية شاملة في المنطقة ، وما يثار احيانا من العودة الى مشروع التقسيم كاساس لتسوية القضية الفلسطينية وارتباك قيادة العدو بعد حرب تشرين، كان حافزا قويا لديه للعودة الى اسلوبه المجرب ــ الاستيطان ، استباقا لما عساه ان يطرح من مشاريع حلول تتضمن الجليل ايضا . وقد زاد هذا الامر الحاحا على قيادة العدو ، المحاصرة داخليا وخارجيا ، ازاء صمود الثورة الفلسطينية في وجه المؤامرة في لبنان، حيث يلعب العدو الصهيوني دورا رئيسيا في كل ما يجري هنا. هذا بالاضافة الى حسابات العدو من امكان انقلاب لبنان الى دولة مواجهة، تفتح جبهة جديدة معها في منطقة يكون الاستيطان الصهيوني فيها شريطا عازلا ضيقا جدا بين جنوب لبنان ، الذي سينقلب في تلك الحال الى قاعدة الانطلاق الرئيسية للثورة الفلسطينية ، وبين الجليل ، الذي تسكنه اكثرية عربية،طال حنينها للحاق بركب ثورة شعبها . وهكذا فعل العدو عندما طرحت مسالة التسوية في الضفة الغربية مع الاردن . وهناك لم يكتف المستوطنون الصهاينة بما تفعله وتخطط له قيادتهم وانما راحوا يحتلون نقاط استيطان لها ذكر في التراث اليهودي ، بقصد احراج حكومتهم ودفعها الى المزيد من التصلب في مفاوضات التسوية . وكذلك فعلت حكومة العدو عندما بدأ الكلام عن تسوية مع سوريا في الجولان،حيث سارعت الى الاعلان عن مشروع واسع للاستيطان هناك.

ولكن العدو الصهيوني في عام ١٩٧٦ هو غير ما كان عليه عام ١٩٦٧، وكذلك الحال بالنسبة لسكان الجليل من العرب الفلسطينيين . فبينما انكسرتشوكة الاول في حرب تشرين ، تنامى الشعور القومي والانتماء الى النضال الفلسطيني لدى الثاني . وهكذا عندما تحرك العدو لمصادرة الاراضي الجديدة ، تحـــرك عرب الجليل، بتضامن لم يسبق له مثيل ، ومعهم اخوة لهم في الضفة والقطاع وخارج الارض المحتلة ، للتصدي لمخطط السلب الجديد . وكان العدو يـــدرك جيدا مدى الخطورة التي ينطوي عليها مثل هذا التحرك من قبل من كان يعتقد انه تم تدجينهم . والاخطر من ذلك علمه بمدى التحام هذا التحرك بما يجري في الضفة ، وبالتالي علاقة ذلك كله بما يدور على الساحة الفلسطينية ككل . وكان انتخاب الشاعر الوطني ، توفيق زياد ، مرشح حزب راكاح ، رئيســـا لبلدية الناصرة العربية مؤشرا واضحا الى التحول الذي حصل لدى عرب الجلـــيل في السنوات الاخيرة . ومن هنا كان تصميم العدو على قمع هذا التحرك المضاد لمخططه ، من خلال مظاهرة عرض عضلات تستعيـــد له هيبتـــه المفقـــــودة ، اضافة الى تنفيذ مخطط السلب الكبير . وقد وصل فقدان التوازن لدى العـــدو ذروته عندما هدد قائد قواتهعلى الجبهة الشمالية باجتياح قرية سخنين الثائرة، ان هي لم تنصع لاوامره . ولكن ذلك لم يجد سلطات العدو فتيلا، فما ان اقتربت قوات قمعه من القرية العربية المضربة في يوم الارض ، حتى انفجر الصـــــدام الدموي معبرا عن التناقض القائم بين الطرفين حول العلاقة بالارض.

ولم يقتصر الصدام على مالكي الارض المفرزة للمصادرة ، او على الطبقة التي ينتمون اليها . فهؤلاء ممثلون بالوجهاء ورؤساء البلديات والمخاتير ، عقدوا اجتماعا في بلدة شفا عمرو قبل الاضراب في « يوم الارض » ، وتداولوا في الامر وقرروا عدم اللجوء الى الاساليب الجماهيرية وفضلوا اســـلوب الوساطـــة التقليدية مع السلطة . وبالفعل فقد الفوا وفدا لمقابلة رئيس حكومة العـــدو في محاولة لاقناعه بالعدول عن قرار حكومته . الا ان الوفد عاد صفر اليدين ، اذ رفض رئيس حكومة العدو قبول طلبهم . ومع ذلك فقد ابدى هـــؤلاء استياءهم ومرارتهم من مصادرة الاراضي ، وعمدوا الى اتخاذ خطوة اكثر جراة قـــد تضعهم على سكة الصدام الاشد مع سلطات الاحتلال . فقد الف هؤلاء وفـــدا يسافر الى الخارج للقيام بحملة اعلامية عن تصرفات العدو تجاه عرب الجليل . وهذه الطبقة من ابناء الارض المحتلة ، التي بطبيعة تركيبها ومصالحها ، كانت اول من هادن سلطات الاحتلال ، قد عادت اليوم ، تحت ضغط واقع الاحتلال، لتغير توجهاتها وتقترب من جماهير شعبها وتشارك ، ولو بحدود ، في نضالها . وهكذا بدات المناوشة بين هذه الطبقة وسلطات الاحتلال . واكيدا انها تتصاعد، ولا بد لها من ان تفرز الغث من السمين في هذه الطبقة من الوجهاء . والاكيد ايضا ان ما قاله رئيس بلدية سخنين « نحن مع الارض » يمثل موقف الاكثرية من هؤلاء الوجهاء ومالكي الارض . واكبر دليل على ذلك ان تعلقـــهم بالارض جعلهم يتحملون كابوس الاحتـــــلال ويفضلونـــه علـــى التشرد مـــن الارض والانفصال عنها .

وكذلك لم يقتصر الصدام في يوم الارض على نشيطي الاحزاب . وعلى صعيد التكتلات السياسية القائمة بين عرب الجليل ، برز حزب راكاح بنشاط في تنظيم ذلك اليوم والدعوة الى الاضراب فيه . وكذلك فقد تصدى حزب راكاح لاعمال السلطة القمعية في ذلك اليوم . ونشط راكاح في تنظيم لجنة الدفاع عن الارض وفي التحريض على المشاركة الجماهيرية في الاحتجاج علـــى سلـــب الاراضـــي العربية . ولكنه تنصل من اعمال العنف التي نتجت عن الصدام بين الجماهيـــر

وقوات السلطة . وكذلك فحزب راكاح لم يسهم في اعطاء ذلك الصدام طابعه القومي ، رغم ظروفه الخاصة التي قد تعتبر مبرراً لذلك . وعمد الحزب غداة الاضراب الى طرح المسألة في الكنيست الصهيوني ومناقشتها وكانها مسألة سياسية داخلية . وتقدم الحزب بمشروع قرار نزع الثقة من الحكومة القائمة في الكيان الصهيوني . كانما تغيير الحكومة يغير شيئا من سياسة الاستيطان . وعلى اي حال فلم ينجح الحزب في تجنيد التأييد اللازم لاسقاط الحكومة . ومع ذلك فالصراع على الارض ، وتبني راكاح قضية عرب الجليل سيدفعان الحزب الى تصعيد مناهضته للسلطة وبالتالي زيادة التحامه بنضال الجماهير الفلسطينية ، مما يقربه من الثورة الفلسطينية في الصراع مع الكيان الاستيطاني .

الا ان الطليعة الصدامية من عرب الجليل في يوم الارض مع قوات القمع العدو لم تكن من مالكي الارض ونشيطي الاحزاب . وربما لا نبالغ اذا قلنا بأن الاكثرية ممن شاركوا في الاضراب وبالتالي في الصدام الدموي لا تملك ارضا ابدا ، كما انها لا تنتمي الى الاحزاب المشاركة في المؤسسة الصهيونية . ووصف شهود عيان احداث يوم الارض واكدوا ان الفئة التي صعدت العنف ضد ادوات السلطة كانت من الشباب ، الذين في اكثريتهم لا يملكون ارضا . كما هو العرف في القرى العربية حيثيحتفظ الابمبملكية الارضالى يوم وفاته. فقد اورد مراسل « صانداي تايمز اللندنية ، ٤ـ٤ـ١٩٧٦ » ما يلي : « شرح شاب عمره ١٧ سنة ، قميصه ممزق وهو يحمل خنجرا في يده ، الاسباب التي من اجلها خاض المعركة مع قوات الجيش والشرطة في كفر كنا ـ الجليل بقوله: يحاول الاسرائيليون ان يأخذوا ارضنا » . وفي هذه الجملة اصدق تعبير عن شعور هؤلاء الشباب . وهو قد استعمل صيغة الجماعة دون تحديد ، ولم يتكلم عن مسألة فردية . فبالنسبة اليه هناك « هم » « الاسرائيليون » بغض النظر عن اتجاهاتهم السياسية ، وهناك « نحن » « وارضنا » بغض النظر ايضا عن التفاصيل . وهذا يدل على ان الحافز للتصدي قومي في اساسه، وينبع من مفهوم العلاقة بالارض كوطن اصلا . والجدير بالذكر ان مثل هؤلاء الشباب ولدوا في الارض المحتلة وتعلموا في المدارس التي يشرف على برامجها العدو . ومع ذلك ، وربما لاجل ذلك ، فهم يتحدثون بلغة « نحن » في مقابل « هم » دون تمييز .

ومضى مراسل«التايمز» يقول : « ومنذ اسبوعين ، وفي ظلام الليل عندما دفن الطفل الذي قتل برصاص الجنود قرب قرية في الضفة الغربية ، صرختامه بان اولادها الثلاثة الباقين سيصبحون كلهم فدائيين . وفي الجليل هنفت عائلات القتلى « لا توجد اسرائيل هنا .. هنا فلسطين فقط ، كلنا الان « فتح » . هذا هواذن جوهرالصدام، فالفلسطينيونفي الارض المحتلة يتطلعون الى اخونهم في الثورة الفلسطينية وللمشاركة في نضالهم من اجل الا تبقى هناك « اسرائيل» بل فلسطين ، حيث تقوم العلاقة الطبيعية بينهم وبينها . ولقد نجحوا بانتفاضتهم هذه في تثبيت موقعهم في النضال الفلسطيني العام من اجل التحرير. وهم بانتفاضتهم في يوم الارض قد شطبوا العديد من المقولات التي راجت في مشاريع التسوية بعد حرب تشرين . وقد جاءت تلك الانتفاضة مواكبة للمؤامرة الكبرى على الثورة الفلسطينية وجماهيرها في لبنان ، وما تكشف خلالها من انحرافات عن الخط القومي السليم في الساحة العربية . ولعلها تسهم في تعديل الخطوط ووضع الامور في نصابها .

عودة العرب اليهود : المسألة والحل

الدكتور اسعد عبد الرحمن

قدمت حركة المقاومة الفلسطينية ،في منتصف العام ١٩٧٥ ، مذكرة الى الملوك والرؤساء العرب اقترحت عليهمفيها ، تبني خطة متكاملة لتنظيم الهجرة اليهودية المعاكسة من اسرائيل . وقدانطلقت الخطة من فرضية مؤداها ان اليهود الذين اقاموا في البلاد العربيةتعرضوا لمؤامرة صهيونية تضمنت الترغيب والتهديد لحثهم على الهجرةالى فلسطين . وقد تواكب ذلك مع « قصر نظر لدى الانظمة العربية مماحمل هؤلاء اليهود على الهجرة الى اسرائيل .. (حيث) وقعوا بين نارين:فقد خضعوا أولا الى تمييز عنصري داخل اسرائيل ، وفقدوا ، ثانيا ، الامل بالعثور على ملجأ اخر لهم» (١) ولذلك، جاء اقتراح المقاومة الفلسطينية داعياالدول العربية الى اعادة « الثقة الى نفوس اليهود العرب في اسرائيل ،وتنظيم حملة لاعادة تهجيرهم من اسرائيل واعادتهم الى الدول العربية التي نزحوا منها » (٢) .

ومنذئذ ، اصبحت المسألة مطروحةعمليا وواقعيا اذ بادرت بعض الحكومات العربية (وبالذات المغربوالسودان) الى تبني اقتراح حركة المقاومة ودعوة اليهود العرب الىالعودة ، في حين عكفت حكومات اخرى على دراسة الموضوع جديا تمهيدالاتخاذ الاجراءات اللازمة (٣) . كما أن واحدا من قادة المقاومة على الاقل قامبجهود مكثفة تمثلت في وضع دراسة لبدء الحوار حول شعار اعادة العرباليهود الى مواطنهم الاصلية (٤) . كما تلا ذلك عقد ندوات خاصة وعامة (٥)،وتشكيل لجان متابعة (٦) هدفها اغناء الحوار واتخاذ خطوات عملية لترجمةالشعار ، ولو جزئيا ، وربط عربة « اعادة اليهود العرب » بقطار النضالالفلسطيني والعربي المتجه نحو ازالة الكيان السياسي الصهيوني منالاراضي العربية المحتلة . واخيرا ، قامت صحيفة واحدة على الاقل ، بفتحالمجال أمام حوار علني على صفحاتها ، شارك فيه عدد من المفكرين والكتابالعرب طوال اكثر من شهر كامل (٧) .

ولقد كان طبيعيا ان يحتدم النقاشوينقسم المتحاورون ، من حيث الشكل، بين مؤيد متحمس او متحفظ ومعارض رافض بشدة او باعتدال لفكرة « اعادة اليهود العرب » (٨) . كذلك ،انقسم المتحاورون ، من حيث المضمون الى مجموعتين : واحدة تقبل بالفكرةلاعتبارات مبدئية / او عملية ،

ومجموعة اخرى ترفض الفكرة ذاتهـــااما لاسباب مبدئية او عملية . وعلـــى الرغم من ان النقاش عاني ، بحكـــــم احتدامه ، من الامراض المعتادة في كل حوار ساخن، فانه ــ بالتأكيد ــ اسهم الى حد بعيد في تسليط الضوء علـــــى الفكرة وازالة كثير من الظلال التـــــي احاطت بها وحجبت بعض جوانبهـــا ، وكي لا يكون كل ذلك الجهد الذي بذله الجميع لاثراء الحوار طفرة سرعان ما تبخرت ، ومن أجل دفع الحوار خطوة جديدة الى الامام ، لا بد من محاولـــة جديدة لتسجيل الحقائق بعـــد أن زال عنها الضباب الذي نشأ في الاصل مـــن ملامســه الجزء العاطفي مـــن النقـــاش للوقائع الباردة . فما هي **اولا** مسوغات قبول الفكرة الداعية الى عودة اليهود العرب الى بلدانهم السابقة ، وما هي **ثانيا** ابرز الذرائع التي اتى بها كل مـــن عارض الفكرة ، وما هي **ثالثا** قيمة تلك الذرائع ، وما هو **رابعا** واخيرا، الاطار السليم لبدء ترجمة ذلـــــك الشعـــار الترجمة العملية المطلوبة .

أ ــ مسوغات القبول :

لا يخفى علـــى احـــد أن الهجـــرة اليهودية الى اسرائيل هـــي على راس قائمـــة الاولويـــــات الاسرائيليـــــة والصهيونية. بل أن الصهيونية ليست، في جوهرها ، الا هجرة اليهود الـــــى فلسطين لاقامة وطن قومي لهم دون ان تقيد حركتهم حدود معلنة (٩) . كما أن الهجرة اليهودية الى فلسطين تشكـــل بالنسبة لاسرائيل ــ علاوة على كونها الفكـــــرة المركزيـــة في الايديولوجيـــة الصهيونية ــ المصدر الاوفر لتأميـــــن الامان المعنوي لليهود والامن الفعلـــي المادي لاسرائيل(١٠).وهذا يفسر تشجيع اسرائيل يهود العالم على الهجرة بدءا بما أعلنته في « وثيقة الاستقلال » فـــي العام ١٩٤٨ ؛ ومرورا «بقانون العودة» للعام ١٩٥٢ ، وانتهـــــاء « بقانـــون الجنسية » للعام ١٩٥٢ وما تلاه مـــن انظمة واجراءات في الاعوام التالية(١١)كما ان ذلك يفسر « الاجماع » علـــى موضوع الهجرة من قبل جميع الاحزاب الاسرائيلية بما في ذلك حركة « سيح » (اليسار الاسرائيـــــلي الجديـــد) ،والفهود السود ، وحتى منظمتي ماتزبن وراكاح المناوئتين للصهيونية (١٢) .

وعلى الرغم من عدم نجاح الحركة الصهيونية واسرائيل النسبي في جهود تجميع يهود العالم، ازداد عدد سكـــان « اسرائيل » اليهود من ٦٥٠ الفا فـــي العام ١٩٤٨ الى ما تجاوز مليونيـــــن ونصف من اصل ما يقارب ١٦ مليونـــا من اليهود في العالم (١٣) . وغني عن الذكر ان تلك الزيادة اضافت الكثيـــر الى قوة الدولة الصهيونية التي لم تكن،مع ذلك، خلوا من المشاكل الاساسية. ولعل ابرز هذه المشاكل : انقســـــام المجتمع عموديا بين طائفتي الاشكنازيم والسفارديم، وما رافق ذلك من توترات وازمات مجتمعية (عنصرية ، وطبقية، وثقافية ، وسياسية) ، وتغير سمـــة التكوين البشري الطائفي الاسرائيلي من مجتمع « غربي » عرقيا الى مجتمـــع « شرقـــــي » اذ انخفضـــت نسبـــة الاشكنازيم من ٩٠٪ فـــي العام ١٩٤٨ الى اقل من ٤٠ ٪ الان (١٤) . بل ان الاهم من ذلك كله ، نشوء ما يمكـــــن تسميته « بتحدي الهجرة » امـــــام اسرائيل (١٥) ، وبخاصة في ظـــــل تحول محصلة الهجرة الى الحـــــدود السلبية وتغلب ارقام الهجرة المعاكسة من اسرائيل على ارقام الهجرة اليهـــا

مع العام ١٩٧٥ (١٦).

وكي لا تكون « مؤشرات ١٩٧٥ »هذه مسألة عابرة (كما كان عليه الحال في مؤشرات ١٩٥٣) ،ومن اجل ان يستديم تحدي الهجرة (١٧) فيوجه اسرائيل، وفي سبيل تفسيخ المجتمع الصهيوني الاسرائيلي تكتيكيا واستراتيجيا وصولا الى تحقيق الاهداف الفلسطينيةوالعربية الخاصة باقامة الدولة العلمانية الفلسطينية تمهيداً لقيام الدولة العربية العلمانية الديمقراطية في جميع ارجاء الوطن العربي ،لا بدمنتبني مشروع دعوة اليهود العرب للعودة الى أوطانهم الاصلية كحلقة من سلسلةالمشاريع القتالية العسكرية والسياسية والاقتصادية ألتي يقتضيهاتحرير العرب لارضهم وتحقيق أهدافهم الاستراتيجية الاخرى .

ب ــ ذرائع الرفض : (١٨)

اما ابرز الذرائع التي يطرحهامعارضو مشروع دعوة العرب اليهود للعودة الى بلدانهم الاصلية فتتلخصبالاتية :

١ ــ تنطوي الدعوة على سحبالبساط من تحت اقدام المشروع الفلسطيني الهادف اقامة الدولةالديمقراطية العلمانية في فلسطين . ذلك انه اما ان نلتزم بذلك المشروعفنبقى اليهود حيث هم لكي تتشكل منهم الدولة الديمقراطية العلمانية العتيدة ،او نسحبهم من هناك فينتفي بذلك الاساس البشري اللازم لاقامة مثل تلك الدولة .

٢ ــ سيؤدي تنفيذ فكرة عودةاليهود العرب الى تفريغ فلسطين المحتلة من اليهود الشرقيين ، مخففا بذلك من حدة ازمة التناقضبينهموبين اليهود الغربيين من جهة ، ومفسحا المجال امام استجلاب موجات هجرة جديدة منهؤلاء الاخيرين من جهة ثانية .

٣ ــ سيكون الاتيان باليهود العربالى الدول العربية كمن جاء « بالدب الى كرمه » . ذلك ان احضار يهودتشبعوا بالفكر الصهيوني طوال اكثر من ربع قرن ، سيجعل منهم طوابيرخامسة وعملاء وجواسيس جاهزين للعمل لصالح اسرائيل وبخاصة وانهم ــ يضيف البعض ــ سيكونون عرضة في البلاد العربية للتمييز القومي والديني ضدهم، ناهيك عن انهم سيتطلعون،بما عرف عنهم منحذاقة في اعمال التجارة،اقتصاد البلدان العربية التي يفدون اليها وسيشربون النفط العربي حتى اخرقطرة .

٤ ــ ستقتصر عودة اليهود ــ انعادوا ــ على الكبار في السن الذين لا يزالون يحملون معهم ارتباطهم بالاوطان التي نشأوا فيها . وعندئذ نكون قد خففنا عن اسرائيل عبئهم اولاوارهقنا انفسنا بهم ثانيا ، دون ان نفرغ اسرائيل من عنصرها البشري الذي تحشده لقتالنا ثالثا .

٥ ــ اليهود ــ في الدين والتاريخ ــ« اشرار بطبيعتهم » ولذلك ، سيكونون

دوما ادوات خراب او افساد.فلم نأتيبالطاعون الى عقر دارنا ؟

٦ ــ المسألة غير مطروحة فعليـــاوعمليا.

ج ــ قيمة الذرائع :

تنطوي الذرائع المساقة اعلاه علىثغرتين اساسيتين :

فبعضها ، اولا ، ذاتي الى درجـــةالسقم . وما كان ليضير فكرة ما ان تكون ذاتية طالما ان ذلك ينطبق علـــىالواقع الموضوعي او ــ على الاقـــل ــ لا يجانبه كثيرا . وقد نتج عن المنحـــى الذاتي المفرط الذي يتبدى في كثير من الذرائع المعطاه اعلاه ، عدة نواقص .فالذاتية تلك ، دفعت البعض الى خلق « حقائقهم » على حساب الحقائـــقالقائمة او تلوين تفسيراتهم للحقائـــق بالوانهم الشخصية الذاتية . كذلك ،قادتهم ذاتيتهم ــ في حالات اخرى ــالى لوي اذرع الحقائق او جعلها مطلقـــةتنطبق على كل زمان ومكان .

فالبعض بذاتيتـــــه الشوفينية ,او الفاشية ، او ربما بكلتيهما ، قـــــرر ــ هكذا ــ بان اليهود بطبيعتهم ادواتشر وافساد وانهم جبلوا على الخداع واللؤم . وما الى ذلك من نعوت تدينصاحبها اكثر مما تسفه . وغنى عن الذكر ، في هذا المجال ، ان مثل هـــذه« الحجة » لا تستند الى اي اســـاس علمي . ذلك انه ــ علميا وتاريخيا ــليس من شعب متفوق او مختار (بالمعنى النازي او بالمعنى الذي ينادي بـــــهكاثوليك الكهان اليهود او الصهاينة ، تماما مثلما ليسهناكشعب جبان او لئيم او ما الى هناك من صفات . ولنذكر في هذا الصدد ، ماروجه الاستعـــــمارالفرنسي من الطبائع المخزية التي اراد حينذاك الصاقها عشوائيا بالشعـــــبالفيتنامي ، وكيف ان الحقائق عادت فاكدت نفسها وقامت بدفن الاصباغات الذاتية الفرنسية . وكذلك الحـــــال مع الشعوب الصينية ، والكوبيـــة .والعربية وغيرها مـــن الشعوب التـــي تعرضت ــ حديثا بالمقياس التاريخي ــالى فيض من مغالطات لم تدم الا فيخلايا العقول الفاشية .

ولعل الاخطر من هذا كله ، كـــون البعض قد قام ــ هكذا ــ بتعيين نفسه فقيها في الدين الاسلامي وضليعـــــا بتفاسيره فاجتزأ من الآيات ما حلا له ، ناسيا (او على الارجح ، متناسيا) ان اليهود من اهل الكتاب وان ما كان من امر بعضهم ، في مكان وزمان معينين،لا ينطبق عليهم جميعا وفي كل الاماكن والازمات .

كما ان قرار البعض باغماض عينيهعن الحقائق القائمة والتقرير ــ هكذا ــ بان المسألة غير مطروحة علميا وعمليا امر فيه الكثير من الذاتية . ذلـــك ان المسألة مطروحة فلسطينيا مـــن خلالما عرضناه في مقدمة هذه الدراسة . وهي ، كذلك مطروحة عربيا بدليل انبعض الدول العربية (وبالذات العراق، والسودان ، والمغـــــرب ، وتونس)اعلنت قرار ترحيبها بعـــــودة اليهود العرب ، وسنت قوانين خاصة بهدفتشجيع عودتهم . كـــــما ان المسألة

مطروحة اسرائيليا من خلال ما نرويه الارقام من ازدياد في حجم الهجـــرة المعاكسة ومن خلال ما اعلنته المصادر الاسرائيلية (وبالذات مصادر الفهود السود) مؤخرا عن بدء عودة يهـــود المغرب الىٰ وطنهم الاصلي . (١٩)

واخيرا ، يطالعنا من ثغـــرة الاراء« والحقائق » الذاتية المشار اليـــها اعلاه ادعاء يقول بانه لن يغادر اسرائيل الا كبار السن او ان من يغادرها هـــو بالضرورة مشبع بالافكار الصهيونية .وفيما يتعلق بالشق الاول من الادعاء . لا يجد المرء اي اساس علمي يدعمه .بل ان حديث الوقائع ينسف ذلك الادعاء من اساسه . (٢٠) . وفيما يتعلـــق باؤلئك الذين يسوقون « حجـــة » التشبع بالافكار الصهيونية،فانهم لايعرفون ـــ فيما يبدو ـــ معنى الصهيونية التي هي ـــ اولا وقبل كل شيء ـــ العودة او السعي من اجل دعم عودة اليهود الى صهيون . ثم ان من عاش في اسرائيل وغادرها قرفا لا يتوقع لـــه ان يكون داعية للفكر والعمـــل الصهيونيين او مؤمنا بهما.

اما الثغرة الاساسية الثانية التـــي تنطوي عليها الذرائع المقدمة من رافضي فكرة عودة اليهود العرب الى اوطانهم فتكمن في خلطهم بين سلامـــة المبدأ وصعوبة التطبيق . فرفض فكـــرة مالانها تنطوي على تكاليف او صعـــوبات فحسب ، امر لا يحتاج الخطـــأ فيه الى اية ايضاحات . ذلك ان الصعوبات او التكاليف واردة في كل مهمة كبـــرت ام صغرت . والمهم هو ان لا تكون التكلفة اكثر من قيمة الهدف المنوي تحقيقه .وفيما يختص بموضوعنا ، لا يختلـــف اثنان على ان هـــدف ازالة الكيـــان السياسي لاسرائيل لا يتقدم عليه اي اعتبار وتهون من اجله كل التكاليـــف بشرية كانت ام مالية . وليس في مثـــل هذا القول اية عاطفية ـــ كما قد يبدو لاول وهلة ـــ . ذلك ان اية حسابات عملية للارباح والخسائر في عملية اقامة الدولة الديمقراطية العلمانية على ارض فلسطين لا بد وان ترجح ـــ بالقطع ـــ كفة الارباح .

ربما اضعف الذرائع قاطبة هي تلك القائلة بأن من يعود من اليهود العرب سيكونون من الجواسيس او طوابيـــر خامسة .وبدون مناقشة للبعد الفاشي الشوفيني الذي قد يتضمنه مثل هـــذا القول ، نقول : ربمـــــا يكون ذلك الافتراض صحيحا جزئيا . اي ربـــما يكون البعض اما عائدا في مهمـــــة تجسسية او جاهزا اكثر من غيره ليكون طابورا خامسا . ولكن الجواب علـــى هذه « المعضلة » بسيط اذ انـــه لايستحق اكثر من سؤال نساله : الـــم تثبت اجهزة الاستخبارات والمباحـــث الداخلية العربية جدارتها اكثر من اية اجهزة في هذا الوطن ؟ وعليه ، فـــان مثل ذلك التخوف المضخـــم يتقلص ـــ عند التفحص والتدقيق ـــ الى حجمـــه الحقيقـــي فيغـــدو مجـــرد مسألـــة فنية. (٢١)

د ـــ حيثيات الخطة ومعالم تنفيذها:

لا بد ، في البداية ، من استعراض العوامل التي طالما ساعدت على ازدياد هجرة اليهود الـــى فلسطين المحتلـــة قبل وبعد العام ١٩٤٨ ، والعوامل التي طالما ساعدت على اضعاف تلك الهجرة وتحويلها احيانا الى هجرة معاكســـة من اسرائيل الى الخارج ، وتوظيـــف نتائج هذا الاستعراض التحليلي لرسم الخطة العربية الواجبة .

اما العوامل المساعدة على هجـــرة اليهود الى فلسطين واضعاف الهجـــرة المعاكسة منها فتتلخص فيما يلي :

اولا : اللاسامية التاريخية (ما قبل العام ١٩٣٩) ، وبخاصـــــة في دول اوروبة ، واستثمار الحركة الصهيونية لها . (٢٢)

ثانيا : ظروف ومقـــدمات الحرب العالمية الثانية ونهاياتها (الاستفادة من يهود المعسكرات في اوروبة الغربية ، ومن يهود اوروبه الشرقية) (٢٣)

ثالثا : ظروف تقسيم فلسطين فـــي العام ١٩٤٧ ، والحرب العربيـــــة الاسرائيلية الاولى في العام ١٩٤٨ ومـــارافقها من عواطف وردود فعل قومية متسرعة معادية لليهود (سياسيـــاواقتصاديا) في البلاد العربية . (٢٤)

رابعا : الانتعاش الاقتصادي فـــي اسرائيل في الاعوام (١٩٥٥ ــ ١٩٥٧ ؛ في اعقاب تبلور اثر التعويضات الالمانية (الرسمية والشخصية) بدءا من العام ١٩٥٣ . كذلك الانتعاش الاقتصادي في الفترة (١٩٦١ ــ ١٩٦٤) (٢٥)

خامسا: النصر العسكري الاسرائيلي المذهل في العام ١٩٦٧ وما خلقه من مشاعر قوية ونضامن وثقة في وسط يهود العالم (٢٦) . تماما مثلما كانـــت الصهيونية قد استخدمت ، في الماضي، ولا تزال تستخدم تكتيك « التهويـــل بالخطر الخارجـــي » لاخفـــاء (٢٧) التناقضات والوجه البشع لاسرائـــيل ولشحن يهود العالم بالتعاطف مـــع اسرائيل والتحرك باتجاه انقاذها .

سادسا : التحـــرك السياسي ــ الاعلامي الصهيوني المكثف ، وبخاصة منذ العام ١٩٦٧ فـــي حدوث الطلاق السوفياتي لاحراجه والضغط عليـــه لتشجيع هجرة اليهود السوفيات الـــى اسرائيل . وقد سرع انحيـــاز الاتحاد السوفياتي للعرب سياسيا وعسكريـــا منذ العام ١٩٦٧ في حدوث الطـــلاق السوفياتي ــ الاسرائيلي ؛ واطلاق يد الحركة الصهيونية في معاداة الاتحاد السوفياتي الذي كان لتلك الحركـــة معه ــ علاوة على العداء النابع من كونها حركة استعماريـــة ــ ثارات قديمة . (٢٨). وهذه الاخيرة ناجمة عن الموقف الصلب الذي وقفته روسيا منذ الثورة البلشفية اذ لم تسمـــح السلطات السوفياتية الا بهجـــرة (١٥٫٨٠٠) يهودي في الفترة (١٩١٩ ــ ١٩٢٣) ، وما يعادلهم في السنوات (١٩٢٤ ــ ١٩٣١) ، وبهجرة عشـــرة اشخاص فقـــط في الاربعيـــنات والخمسينات ، وبهجرة خمسة اشخاص سنين طوال الفترة ما بين ١٥ ايـــار مايو ١٩٤٨ ونهاية العـــام ١٩٥١ ، في حين لم تسمح بهجرة احد فيما بين (١٩٥٢ ومنتصف ١٩٥٥) ، وهجـــرة ١٢٥ شخص فقط طوال الفترة ما بيـــن (تموز ١٩٥٣ ــ وايلـــول ١٩٥٥) وهجرة (١٢٠٫١) في العام ١٩٥٨ ، وهجرة مئتـــي يهودي في العام ١٩٦٣ . (٢٩). هذا ، وتسعـــى اسرائيل الى تهجير يهـــود الاتحـــاد السوفياتي اليها لكونهم لا يفيـــدون اسرائيل ماليا ، ولا يشكلون قـــوة سياسية ضاغطة علـــى القـــيادة السوفياتية (كما هو الحال في الولايات المتحدة وغيرها) ، ولكونهم « كـــوادر علمية » تستفيد منها اسرائيل ، علاوة على الرغبة في استخدامهم لتعديـــل التوازن البشري الطائفي في اسرائيـــل وذلك بترجيحهم لكفة الاشكنازيم .(٣٠)

سابعا : الايديولوجيات والمواقـــف الشوفينية العربية ، الرسمية وغيـــر

الرسمية ، طوال سنوات عديدة منجهةوتقصير الاعلام العربي التقدمي الجديد ازاء اليهود ، والشرقيين منهم على نحوخاص ، من جهة ثانية . ولعل هـذا هو السبب الاهم في ترسيخ لحمةالمجتمع الصهيوني ومنع تفسخه فيالماضي ، وهو السبب الاهم في ابقاء « حركـةالفهود السود » ، مثلا ، غير مستعدة « للمشاركة في الكفاح العربي ضـد الصهيونية » وكونهـم غيـر مهتميـن « سوى في الحصول على قطعة مـنالجبنة الصهيونية في اسرائيل » .(٣١) كما ان ذلك كله ، اضافة الى غيـاببرنامج ايجابي عربي لاعادة توطـين اليهود العرب الاسرائيليين في الوطـنالعربي ، لعب دورا بارزا في « اغلاق عقل اليهودي العربي في اسرائيل ازاءاحتمالات عودته الى موطنه الاصلي ، وبالتالي ، بقائه في الدولة الصهيونيـةطالما انه غير قادر لاسباب ثقافيـة نفسية ومالية على الهجرة الـى الدولالغربية . (٣٢)

اما العوامل التي اضعفت الهجرةالى اسرائيل او ساعدت على الهجرة المعاكسة منها فتتلخص في التالي :

اولا : المقاومة الرسمية والشعبيةالعربية المتمثلة في المقاطعة الاقتصادية والرفض السياسي وبالذات القتـالالعسكري وبخاصة منذ ظهور حركـة المقاومة الفلسطينية المسلحة بدءا منالعام ١٩٦٥ وما اعقب ذلك من معارك كان ابرزها ما وقع في تشرين الاول ــاكتوبر ١٩٧٣.

ثانيا : نضوب ماعرف باسم «مناطق الضيق » (اوروبة الشرقية ، العـالم العربي) نتيجة هجرة غالبية يهود هذهالمناطق الى اسرائيل في اعقاب قيـام الدولة الصهيونية . (٣٣)

ثالثا : اغراءات ما عرف باسـم« مناطق الرخاء » (امريكا الشمالية والجنوبية ، اوروبه الغربية، استراليا،افريقية الجنوبية) لليهود للبقاء فيهـا او الهجرة اليها من اسرائيل وغيرها . (٣٤)

رابعا : الازمات الاقتصادية فـيـاسرائيل ، وبخاصة في العامين (١٩٥٢ ــ١٩٥٤) ، وكذلك في العامين (١٩٦٥ــ١٩٦٧) . وقد انخفض مستـوى الهجرة في هاتين الفترتين بشكلملحوظوازدادت فيهما الهجرة المعاكسة مـن اسرائيل . (٣٥)

خامسا : عدم صهيونية العديد مناليهود وتفضيلهم لمستقبلهم الذاتي . ومن الادلة البارزة على ذلك ، انـهعندما استقلت الجزائر لم يهاجر الـى اسرائيل الا ٧ بالمئة من مجموع (١١٠) آلاف من اليهود الجزائريـن . وقـد فضل الباقون السفر الى فرنساوالاقامةفيها . (٣٦)

سادسا : القيود السوفياتية علـىهجرة اليهود الى اسرائيل . (٣٧)ولهذا العامل اهمية بالغة خاصة اذا تذكرناان عدد اليهود في الاتحاد السوفياتـي يكاد يعادل عدد يهود اسرائيل . (٣٨)وفي هذا المجال ، لا تلجـأ الدولة

السوفياتية الى الاجراءات السلبيةبمنع اليهود من المغادرة فحسب ، بل انها بالتمييز (المقصود وغيرالمقصود) لصالح سكانها من اليهود تجعلهم غير راغبين في مغادرة الاتحاد السوفياتي على الرغم من الضغوط الصهيونية والاسرائيلية الهائلة عليهم . والدليل على حسن المعاملة هذا (بل ربما التفضيل) ان يهود الاتحاد السوفياتي الذين لا يشكلون الا (٥ر١ بالمئة) من مجموع السكان ، يشكلون ٧ر١٤ بالمئة من الاطباء ، ١٤ بالمئة من الكتاب و٤ر١٠ بالمئة من المحامين، ٣٢ بالمئة من الملحنين والمؤلفين ، و١٣ بالمئة من الفنانين في الدولة السوفياتية . (٣٩)

سابعا : المشاكل غير الاقتصادية داخل اسرائيل . وتتلخص هذه في مشاكل الاستيعاب والتكيف ومايرافقهما من احساس شديد بالغربة والعزلة والرونين الحكومي المعقد والمل ، والامتيازات التي تقدم للمهاجرين الجدد والتي خلقت ردود فعل عدائية في وسط المهاجرين القدامى الذين اصبحوا يجاهرون بعدائهم لكل مهاجر جديد بحيث يسرعون في تشجيع مغادرته البلاد ان حضر، او «اقناعه» بالاحجام عن الحضور ان كان يفكر في ذلك . (٤٠) واخيرا ، وليس اخرا ، مشكلة التمييز العنصري الحاد داخل المجتمع الاسرائيلي وتحول الاغلبية اليهودية الى مواطنين من الدرجة الثانية وما نتج عن ذلك من توترات وحركات رفض وتمرد . (٤١)

ثامنا : مواقف بعض الدول العربية ازاء هجرة مواطنيها من اليهود الى اسرائيل وتشجيعهم نفسيا وماديا ، على البقاء في البدان العربية المعنية . ولعل الامثلة البارزة في هذا المجال هي موقف لبنان منذ العام ١٩٤٨ وكل من المغرب وتونس منذ العام ١٩٥٨ . (٤٢)

اذن ، وبعد ان استعرضنا العوامل التي تساعد على هجرة اليهود الى اسرائيل ، ودرسنا العوامل التي تقلل من الهجرة اليها او التي تزيد الهجرة منها ، ما هي معالم الخطة العربية التي تزيد من تفاقم « تحدي الهجرة » الذي يواجه اسرائيل ، وتساعد، في الوقت ذاته ، على تفسيخ المجتمع الصهيوني بها وتعزز بالتالي ، حركة الثورة الفلسطينية والعربية ازاء العدو الصهيوني ؟

اولا : نشر وترسيخ الفكر التقدمي المضاد للفكر الفاشي والشوفيني الذي لا يميز ضد اليهود فحسب ، بل وضد الاقليات الاخرى بشكل عام .

ثانيا : تأكيد الدول العربية ، رسميا، وعلى اعلى المستويات وباكثف زخم ممكن الموقف المبدئي التاريخي للامة العربية المتسامح مع الاقليات بشكل عام ، ومع الطائفة اليهودية بشكل خاص . وارفاق ذلك بخطوات عملية جذرية تعزز اوضاع ما تبقى من اليهود في البلدان العربية . ولعل في موقف الثورة الفلسطينية من يهود لبنان اثناء الحرب الاهلية اللبنانية خير مرشد في هذا المجال . ناهيك عن الموقف العراقي . في دستور العام ١٩٢٥ ، والذي كان قد ساوى بين المواطنين العراقيين يهودا وغير يهود، في الحقوق والواجبات ، وذلك قبل ان

تلغي حكومة نوري السعيد ذلك النص عمليا في الاجراءات التعسفية التي اقدمت عليها في العام ١٩٥٠ . (٤٣)

ثالثا : تبنى الدول العربية ، رسميا،وعلى اعلى المستويات وباكبر كثافة من الجدية ، قرارا يسمح بعودة اليهود العرب الى الدول العربية ، كمواطنين اصليين ، لا رعايا ، مع تمكينهم ماديا من اعادة بناء مستقبلهم في وطنهم الجديد ــ القديم وذلك بشد ازرهم عن طريق جهود « الوكالة العربية » التي تنشأ لهذه الاغراض . (٤٤)

رابعا : تمتين صلات الدول العربية بالاتحاد السوفياتي وتشجيعه ، بمختلف الوسائل ، على مقاومة الضغوط الصهيونية والغربية الموجهة اليه لفتح ابواب الهجرة على مصراعيها امام اليهود السوفيات ، والسعي لدى الدولة السوفياتية من اجل اعادة اغلاق الباب نهائيا في وجه التأثيرات الصهيونية على المواطنين السوفيات ،وقبول اعادة اليهود السوفيات الذين اكتشفوا جوهر اسرائيل البشع فغادروها فعلا او هم في طريقهم الى مغادرتها .

وبعد ،

ان الدعوة الى عودة اليهود العرب من اسرائيل الى البقاع الاصلية التي سبق لهم وعاشوا فيها على امتداد رقعة الوطن العربي ، هي الوجه الاخر للدعوة الهادفة تنفيذ الهدف الاستراتيجي للثورة الفلسطينية والخاص باقامة الدولة العلمانية الديمقراطية في فلسطين .بل ان هذه الدعوة تشكل ركنا اساسيا من اركان الهدف الاستراتيجي للامة العربية الساعي الى اقامة الدولة العربية العلمانية الديمقراطية التي لاغنى عنها كبوتقة لصهر انسان الارض العربية في امة واحدة متلاحمة تقطع الطريق على كل محاولات الاستعمار القديمة ــ الجديدة التي طالما سعت الى تقطيع اوصال الامة العربية بسيف « التمايز الديني» حينا ، وبسيف « التمايز العرقي » حينا اخر . ولعل الانتصار الابرز ــ ان كان ثمة انتصارات اخرى ــ في تجربة « المسلخ اللبناني » الاخير هو انتصار صيغة « دولة كل الطوائف » على صيغة «دولة لكل طائفة » هذا من جهة .

ومن جهة ثانية ، لا تشكل الخطة الخاصة باعادة اليهود العرب الى مواطنهم الاصلية، على عظمها واهميتها الا تحديا فرعيا امام الامة العربية. اما التحدي الرئيسي فهو في انه لن يكون للخطة المبينة اعلاه اية قيمة ما لم يقتنع يهود اسرائيل والعالم بان اسرائيل وجدت لتزول . وهم لن يقتنعوا طالما ان نار الجبهات العربية ، باستثناء الجبهة الفلسطينية ، غير مشتعلة ،كما لن يكون للخطة ذاتها اية قيمة ان لم تواكبها خطة اقتصادية وسياسية واجتماعية شاملة لتعزيز مواطنية العرب المقيمين (يهودا وغير يهود) وتمهيد الطريق ليس امام عودة العرب (اليهود فحسب) ، بل واقناع العرب (من غير اليهود) بالبقاء في وطنهم اولا ،وتمهيد الطريق امام عودة العرب المهاجرين.(من غير اليهود) الى بلادهم ثانيا . وهنا بالذات يكمن التحدي الحقيقي الذي يواجه امتنا العربية.

الحواشي

١ ــ انظر صحيفة **القبس** الكويتية في ٢٢ــ٢ــ ١٩٧٦ ، ص ١ و١٦ .

٢ ــ **المصدر السابق** ، ص ١٦

٣ ــ كما جاء في مقالة اللواء كمال عبد الحميد، « لا .. لهذه الاسباب » ، **القبس** في ١ــ٣ــ١٩٧٦

٤ ــ انظر دراسة ابو مازن ، عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني ــ فتح **الصهيونية .. بداية ونهاية** « مكتب التعبئة والتنظيم في حركة فتح ، ١ــ١ــ١٩٧٦ ».

٥ ــ من نوع الندوة الخاصة التي عقدها ابو مازن ، احد قياديي فتح ، مع عدد من الشخصيات الاعلامية الفلسطينية والعربية بمقر منظمة التحرير الفلسطينية في الكويت في شهر شباط ــ فبراير ١٩٧٦ .وكذ لك ، الندوة العامة التي عقدت بدعوة من الاتحاد العام للكتاب والصحيفيين الفلسطينيين ــ فرع الكويت بتاريخ ١٦ــ٣ــ١٩٧٦ والتي اشترك فيها كل من : الدكتور هاني فارس والدكتور اسعد عبد الرحمن « مؤيدان لفكرة عودة اليهود العرب » والدكتور ابراهيم مكي واللواء كمال عبد الحميد «معارضان» . وقد ادار الندوة وساهم فيها الاستاذ خالدالحسن احد قادة فتح . انظر تفاصيل الندوة في **القبس** بتاريخ ١٧ــ٣ــ ١٩٧٦

٦ ــ فقد شكلت لجنة متابعة في الكويت، مثلا.

٧ ــ انظر صحيفة **القبس** بدء من ٢١ ــ٢ــ ١٩٧٦ وحتى ٢٥ــ٣ــ١٩٧٦ على سبيل المثال.

٨ ــ ومن الامثلة على هذه الاراء ، انظر مقالات مؤيدي الفكرة :

أ ــ توفيق ابو بكر « نعم لهذه الاسباب » ، القبس في ٢٨ و ٢٩ ــ ٢ ــ ١٩٧٦ .

ب ــ د. اسعد عبد الرحمن ، « التحدي الفرعي والتحدي الرئيسي » ، **المصدر السابق**، في ٣و٤ ــ ١٩٧٦

ج ــ حسين خليل ، « نعم .. لاسباب قومية وانسانية « **المصدر السابق** ، في ٩ــ٣ــ١٩٧٦.

د ــ حسين ابو النمل ، « العودة .. والتصعيد العسكري » **المصدر السابق** ، في ١٢ــ٣ــ١٩٧٦ .

اما المقالات المعارضة فهي :

ا ــ اللواء كمال عبد الحميد ، « لا .. لهذه الاسباب » ، **القبس** . في ١ــ٣ــ١٩٧٦ .

ب ــ فتحي الحديدي ، « لا لعودة الجواسيس » ، **المصدر السابق** ، في ٢ــ٣ــ ١٩٧٦ .

ج ــ د. ابراهيم مكي ، « لا تضيفوا الى اخطائنا خطأ جديدا » ، **المصدر السابق** ، في ٦ــ٣ــ١٩٧٦ .

د ــ د. حسين مؤنس ، « اذا عادوا .. سيشربون النفط حتى اخر قطرة » ، **المصدر السابق** ، في ٧ــ٣ــ١٩٧٦ .

هـ ــ الحبيب محمد علوان ، « لا .. لهذه الاسباب » ، **المصدر السابق** ، في ١٩ ــ ٣ ــ ١٩٧٦ .

اما مقالة د. عزيز شكري فكانت مقالة بين بينية يصعب تصنيفها . انظر ، « دعائيا : نعم، واقعيا : المسألة غير مطروحة » **المصدر السابق** في ٨ــ٣ــ١٩٧٦ .

٩ ــ انظر ، عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل : مشاكلها وكيفية التصدي لها»، **شؤون فلسطينية** (العدد ١٠ ، ١٩٧٢) ، ص ٥٣ . كذلك ، مصطفى عبد العزيز ، **اسرائيل ويهود العالم : دراسة سياسية وقانونية** (بيروت مركز الابحاث ، ١٩٦٩) ص ١١٧ــ١١٨ .

١٠ ــ عبد العزيز ، **المصدر السابق** ص ١١٩ ــ١٢٠ .

١١ ــ عبد الحفيظ محارب **المصدر السابق** ، ص ٥٤ .

١٢ ــ المصدر السابق ، ص ٥٣ . كذلك ، عبد الحفيظ محارب « اليسار الاسرائيلي الجديد (سيح) ، شؤون فلسطينية (العدد ١٩، ١٩٧٣) ص ٦٤ .

١٣ ــ كما ورد في : عبد الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٥٥ ــ ٥٦ . كذلك ، احمد حجاج ، **سكان اسرائيل : تحليل وتنبؤات** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ، ص ٨٥ .

١٤ ــ كما جاء في المصادر التالية : محارب، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٦٢ــ٦٦ .

كذلك ، عودة ابو ردينة ، « اليهود الشرقيون

في اسرائيل » ، **شؤون فلسطينية** (العدد ٥ ، ١٩٧١) ، ٢٩٢ — ٢٩٥ . ايضا عبد الحفيظ محارب ، « الهوة الاجتماعية في اسرائيل » ، **شؤون فلسطينية** (العدد ١٥ ، ١٩٧٢) ص ٣٧ — ٤٣ .

١٥ — التعبير مستعار من دراسة عبد العزيز ، **المصدر السابق** ، ص ١١٨ .

١٦ — انظر : ابو مازن ، **المصدر السابق** ، ص ٤٥ .

١٧ — المقصود الهجرة المعاكسة من اسرائيل ورجحان كفتها على الهجرة الى الدولة الصهيونية في العام ١٩٥٣ / ١٩٥٤ . انظر ، حجاج ، المصدر السابق ، ص ٢٩ و ٧٠ — ٧١ .

١٨ — جميع الذرائع المتضمنة في هذا القسم مستقاه من المقالات التي كتبت ضد عودة اليهود العرب علاوة على مقالة د. عزيز شكري الانفة الذكر . انظر حاشية رقم ٨ .

١٩ — انظر : ابو مازن ، **المصدر ذاته** .

٢٠ — **المصدر السابق** ، ص ٤٤

٢١ — من اجل تفاصيل اكثر عن مضمون القبول والرفض حول مسألة عودة العرباليهود انظر وقائع الندوة الخاصة بذلك والتي نشرتفي القبس بتاريخ ١٧ — ٣ — ١٩٧٦ ، ص ١١ .

١٢ — انظر ، محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٥٧ .

٢٣ — **المصدر السابق** ، ص ٥٥ — ٥٧ كذلك عبد العزيز المصدر السابق ص ١١٩— ١٢٠ .

٢٤ — محارب ، **المصدر السابق** ، ص ٥٦ كذلك ، عبد القادر ياسين « عصبة مكافحة الصهيونية في العراق ، » **شؤون فلسطينية** (العدد ١٥، ١٩٧٢) ص ١٥٩ .

٢٥ — راجع : محارب **المصدر السابق** ، ص ٥٧—٥٨ . كذلك ، حجاج ، **المصدر السابق** ، ص ٧٠—٧١ .

٢٦ — محارب ، **المصدر السابق** ، ص ٥٨ .

٢٧ — محارب « الهوة الاجتماعية في اسرائيل» **المصدر السابق** ، ص ٣٨ .

٢٨ — انظر ، داوود تلحمي ، « بلجيكا : مؤتمر بروكسل ويهود الاتحاد السوفياتي » ، **شؤون فلسطينية** (العدد ٢ ، ١٩٧١) ، ص ٢٣٤ . كذلك ، الدراسة التي اعدها د. صلاح دباغ بعنوان **الاتحاد السوفياتي وقضية فلسطين** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ، ص ٦٢ ، ٦٥ .

٢٩ — **المصدر السابق** ، ص ٦١ — ٦٢ .

٣٠ — تلحمي ، **المصدر السابق** ، ص ٢٣٦. كذلك : محارب ، اليسار الاسرائيلي الجديد » ، **المصدر السابق** ، ص ٦٤ .

٣١ — ابو ردينه ، **المصدر السابق** ، ص ٢٩٤

٣٢ — محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٦٦ .

٣٣ — **المصدر السابق** ، ص ٥٨ ، ٦٢

٣٤ — انظر المراجع التالية : **المصدر السابق** ،ص ٥٨ — ٥٩ . كذلك مصطفى عبد العزيز ، **الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٦٨)ص ١٦٤ — ١٩٦٨ .

٣٥ : حول الازمة الاقتصادية في ١٩٥٢ — ١٩٥٤ ، انظر حجاج ، **المصدر السابق** ، ص ٢٩ وحول الازمة الثانية في ١٩٦٥ — ١٩٦٧ ، راجع: محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٥٨ .

٣٦ — **المصدر ذاته** .

٣٧ — **المصدر السابق** ، ص ٦٢،٦٧

٣٨ — دباغ ، **المصدر السابق** ، ص ٦١—٦٢

٣٩ — عبد العزيز ، **اسرائيل ويهود العالم** ، ص ١٣و١٧٣ .

٤٠ — محارب ، **المصدر السابق** ، ص ٦٢ — ٦٥ .

٤١ — ابو ردينة ، **المصدر السابق** ، ص ٢٩٢

٤٢ — انظر ، محارب ، **المصدر السابق** ، ص ٥٧ و ٦٦ — ٦٧ . كذلك عبد الحفيظ محارب ، ظاهرة الفهود السود في اسرائيل : اسبابها واصولها » ، **شؤون فلسطينية** (العدد ٤٤، ١٩٧١) ص ١٥١ .

٤٣ — ياسين ، **المصدر السابق** ، ص ١٥٩ .

٤٤ — تقتضي الاشارة الى ان اول من كتب حول هذا ، بحدود علم المؤلف ، هو الحفيظ محارب ، « الهجرة الى اسرائيل » ، **المصدر السابق** ، ص ٦٧ .

دور الدستور اللبناني في تفجير الحرب الاهلية اللبنانية

الدكتور خيرات البيضاوي

لا جدال في كثرة العوامل والاسباب التي اسهمت في تفجير الحرب الاهلية اللبنانية ، وتشابك خيوطها الداخلية وتقاطعها مع « لعبة الامم » من جهة ، وتجييرها لصالح حسم الصراع العربي ـ الاسرائيلي كما تريد وتشتهي الولايات المتحدة وربيبتها اسرائيل ، من جهة ثانية . الا ان تمحور المطالب الوطنية «الاسلامية » طوال ليالي الازمة ـ المحنة حول الاصلاحات الدستورية ؛ وتحديد صلاحيات الرئاستين التنفيذيتين وخصوصا الاولى منهما ، قد اضفيا طابعا مهما على دور الدستور اللبناني في تفجير الاوضاع الداخلية ، وكيفيه ولادته وممارسته والشوائب والنقائص التي علقت به منذ رؤيته النور بعملية « قيصرية » عام ١٩٢٦ على ايدي الانتداب الفرنسي . من هنا الاهمية البالغة التي علقتها الحركة الوطنية اللبنانية على تعديل الدستور اللبناني لتقويم ما اعوج من ممارسة مواده والخروج من حال « انعدام الوزن » الذي كانت تدور في فراغه البرلمانية الديمقراطية اللبنانية المتأرجحة بين كفتي الدستور و « الميثاق الوطني » غير المكتوب .

وتنبع تلك الاهمية من هيكلية الاسس التي اعتمدها الجنرال غورو في اعلان جمهورية « لبنان الكبير » في الاول من ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٠ من جهة ؛ والسيد هنري دوجوفنيل في اخراج دستور ٢٦ ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٦ ، الى عالم الوجود من جهة اخرى . فبعد مرور خمسين عاما على ولادة الدستور اللبناني ، وثلاثين عاما على « الميثاق الوطني » اختلطت الاوراق ، وجرت مياه كثيرة تحت الاعمدة التي ارتفعت فوقها « طرابيش » و « قبعات » الزعامات السياسية الاقطاعية ، والعشائرية ؛ والعائلية ، والمالية ، ووجد « اهل النظام » انفسهم وقد لفهم الضباب والظلام من كل جانب ، ولفحت نفوذهم نيران الحرب الاهلية التي حولته الى رماد تذروه الرياح اللاهبة فوق هضاب وجبال وسهول وشواطىء « لبنان الاخضر » ...

ولادة غيـــر طبيعيـــة

تمخضت معاهدة فرساي الموقعة في٢٨ حزيران (يونيو) ١٩١٩ عن ولادة « عصبة الامم » التي تضمنت مادتهـــاالثانية والعشرون التالي نصها الحرفي فرض مبدأ الانتداب على البلاد العربيةالمنفصلة عن الامبراطورية العثمانية :

« ان المستعمرات والاقاليم التـــيقضت نتائج الحرب الاخيرة بخروجهامن سيادة الدول التي كانت تحكمها فيمـــاضى ، تسكنها شعوب لا تستطيع حكم ذاتها بذاتها في الاحوال الشاقة التـــيتسود العالم الحديث ، ينبغي ان يطبق عليها المبدأ القائل ان خير هذه الشعوبوتقدمها هما امانة مقدســـــة في عنق المدنية ، وان تدمج في هذا الميثـــاقالضمانات اللازمة لحسن اداء هـــذه الامانة . وان خير طريقة لتطبيق هـــذاالمبدأ عمليا هو ان يعهد بتدريب هـــذه الشعوب الى الامم الراقـــــية التيتستطيع بفضل مواردها وخبرتهـــا او موقعها الجغرافي ، الاضطلاع بهـــذهالمسؤولية على خير وجه ، وان تتولى هذه الامم تدريب هذه الشعوب بصفتهامنتدبة من قبل عصبة الامم.

« ان بعض المجتمعات التابعة سابقاللامبراطورية التركية بلغت مرحلة من التقدم يمكن معها الاعتراف باستقلالهااعترافا مقيدا بشرط قيام دولة منتدبة يعهد اليها تقديم المشورة الاداريـــــةوالمساعدة لهذه المجتمعات حتى يحين الوقت الذي تستطيع فيه (كل منها)القيام بنفسها منفـــــردة بمتطلـــبات الاستقلال . **ويجب أن تكون رغباتهذهالمجتمعات قاعدة اساسية في اختيـــار الدولة المنتدبة** » .

ان تعبير «الانتداب» لم يكن اكثر منلفظ سياسي جديد مهذب للاستعمـــار اكتوت بنيرانه الشعوب العربية التي رزحت تحت ممارسته اللا انسانيـــــة واللا اخلاقية طوال ربع قرن . فلجنـــةالاستفتاء الاميركية المعروفـــة باسم كينغ ــ كراين والتي ارسلهـــا رئيسالولايات المتحدة الاميركيـــــة وودرو ولسون حينذاك الى الشرق العربـــيللتعرف على « رغبات الشعوب العربية في اختيار الدولة المنتدبة » عادت بخفيحنين بعد ان زارت اربعين مدينـــــة وقابلت ما لا يحصى من الوفود ، وتلقتحوالي ١٨٠٠ عريضة . ولقد انجـــزت مهمتها بسرعة (١٠ حزيران (يونيو) ــ٢١ تموز (يوليو) ١٩١٩) ، ورفعـــت تقريرها للرئيس ولسون وهو يتضمن:

١ ــ اصرار المؤتمر الســـوري في١٩١٩ على وحدة سوريا ولبنـــــــان وفلسطين ، واستقلالهـــــا ، وقبـــولمساعدات اقتصادية وفنية من الولايات المتحدة ، واذا اعتذرت فمن بريطانيا ،ورفض قبول اية مساعدة من فرنسا.

٢ ــ مطالبة سكان « جبل لبنـــان »بالاستقلال ضمن اطار الانتدابالفرنسي بعد ضم : بيروت ، وطرابلس ، وصيداوصور ، والبقاع والاقضية الاربعة : (حاصبيا ، راشيا ، بعلبك ، والمعلقة).

الا ان ما لم يكن يعرفه الرئيس ولسون حينذاك هو توقيع اتفاق سايكس ــ بيكو السري في ٩ ايار (مايو) ١٩١٦ بين بريطانيا وفرنسا حول اقتسام البلاد العربية المشرقية المنفصلة عن السلطة العثمانية . من هنا خيبة امل ولسون وعدم اشتراك اميركا في عضوية «عصبه الامم» وعودتها الى سياسة العزلة ، وترك الميدان خاليا لكل من لندن وباريس لتنفيذ مشاريعهما الاستعمارية في البلاد العربية . ولقد اقرت « عصبة الامم » الصيغة النهائية لانتداب بريطانيا على العراق وفلسطين من جهة وفرنسا على سوريا ولبنان من جهة ثانية في التاسع والعشرين من ايلول (سبتمبر) عام ١٩٢٣ ، وعلى « وجوب وضع قانون اساسي للعراق وسوريا ولبنان في غضون ثلاث سنوات من بدء تنفيذ الانتداب ، وعرضه على العصبة للمصادقة عليه » . الا ان الممارسة العملية « الانتدابية » كانت توأم الاستعمار بوجهه البغيض . فانفجر الوضع ضد فرنسا في سوريا في تموز (يونيو) عام ١٩٢٥ ، وامتد الى بعض مناطق لبنان الجنوبي وطرابلس وعكار . وخشيت فرنسا امتداد لهيب الثورة الى بقية المناطق فعمدت الى التلويح للبنانيين بوضع دستور للبلاد ينسجم مع قرار « عصبة الامم » التي وافقت فيه على الانتداب الفرنسي والمفروض انجازه في مدى ثلاثة اعوام .

لقد كانت الثورة السورية العامل الحاسم في تعجيل فرنسا في وضع الدستور اللبناني لتبرهن للسوريين بان رفع السلاح بوجه الدولة المنتدبة لا يوصل الى الاستقلال ، بل على العكس يقفل ابوابه ويوصدها في وجه الوطنيين. ولكي تقرن الحكومة الفرنسية القول بالفعل الفت لجنة نيابية « فرنسية » برئاسة « بول بونكور » للنظر في المشروع الدستوري الذي كان المفوض السامي الفرنسي حينذاك الجنرال ساراي قد ارسله اليها للموافقة عليه. ولكن الحفاظ على ورقة توت المظاهر . اجبر اللجنة النيابية الفرنسية على الاعتراف بان « اقرار الدستور اللبناني يجب ان يتم في المجلس النيابي اللبناني. وان مهمة الدولة المنتدبة تنحصر في الاشراف على سير الدروس الدستورية ومناقشات مجلس النواب مشروع الدستور .. وفي العاشر من كانون الاول (ديسمبر) ابلغ الجنرال ساراي مجلس النواب اللبناني قرار الحكومة الفرنسية ، « فانتخب مجلس النواب لجنة ثلاثية عهد اليها بوضع مشروع للدستور اللبناني بالاتفاق مع المفوض السامي وتحت رقابته . وبعد ان وضعت اللجنة الثلاثية مشروعا بالاتفاق مع المفوض ، او بالاحرى ، **وافقت على مشروع الدستور كما وضعه الجنرال ساراي** » (١) ، عاد مجلس النواب فانتخب لجنة ثانية اطلق عليها اسم « لجنة الدستور » ، وكانت على الشكل التالي :

الرئيس : موسى نمور

المقرر : ميشال شيحا .

المستشاران : شارل دباس (اللبناني) والمستشار القانوني للمفوضية العامة الفرنسية : سوشيه.

اعضاء : ميشال شيحا ، شبل دموس ، عمر الداعوق ، يوسف سالم ،

جورج زوين ، بترو طراد ، روكز ابـــوناضر ، صبحي حيدر ، يوسف الزين، جورج تابت ، عبود عبد الرزاق .

وكل ما قامت به تلك اللجنة هـــوتوجيه الاسئلة التالية الى رؤســـاء الطوائف الدينية ، وكبار الموظفيـــن ،وبعض وجهاء السياسة :

١ ــ ما هو شكل الحكومة : ملكيةدستورية ام جمهورية ؟
٢ ــ هل يجب ان يتألفالبرلمان منمجلس او مجلسين ؟
٣ ــ هل تكون الوزارة مسؤولةامامرئيس الدولة ام امام البرلمان ؟
٤ ــ ما هو الافضل : المسؤولـيةالوزارية الفردية ام المسؤولية الوزارية التضامنية ؟
٥ ــ ما هو الافضل : تعيين مجلسالشيوخ ام انتخابهم ؟
٦ ــ هل يجب اخذ الطائفية اساسالتوزيع المقاعد في البرلمان ؟

ولم يتعد ذلك الاستفتاء النطاق الذيرسمته له الدولة المنتدبة ، فكانـــت « الاجوبة التي وردت الى اللجنة قليلةجدا » . ووافق المجلس التمثيلي فـــي جلسة علنية عقدها في ١٩ ايار (مايو)١٩٢٦ علىمشروع الدستور ، وفي ٢٢ من الشهر ذاته تحول المجلس التمثيليبقدرة الدولـــة المنتدبـــة الـــى مجلس نيابي « ووافق المفوضالسامي على الدستور الجديد » ونشره في اليوم التالي : هنا لا بد من تسجيل ما جـــاءفي مذكرات رئيس الجمهورية اللبنانية السابق الشيخ بشارة الخوري ، حول انتخاب المجلس التمثيلي الاول (١٩٢٢ ــ١٩٢٥) (٢) :

« وتم انتخاب المجلس بتدخل سافرمن السلطة الفرنسية كما جرى فـــي بيروت » .

اما عن انتخابات المجلس النيابـــيالذي انقلب بقدرة الدولة المنتدبة الـــى جمعية تأسيسية ثم عاد سيرته الاولىمجلسا نيابيا بعد اعلان الدستور(١٩٢٥ ــ ١٩٢٩) فيقول ايضا : (٣)

« كان المسيو ديمـــون (منـــدوبالمفوض السامي) يعـــد القوائـــم الانتخابية للمرشحين المحظوظيـــن .

وسفر عن تدخل السلطة الفرنسية في هذا الاستفتاء الشعبي سفورا مفضوحا ونجحت لوائحها في جميع المناطق عـــدامحافظة بيروت ».

فكيف يمكن ان تـــكـــون الـــولادةالدستورية طبيعيـــة ، والممارسة البرلمانية سليمة في ظل حراب الانتداب،والتدخل السافر من قبل سلطة اجنبية في انتخاب الممثلين الشرعيين الذيـــنيتحملون مسؤولية وضع القانـــون الاساسي للبلاد ؟

الممارســـــة العرجـــاء

لقد نص الدستور اللبناني المستوحىمن دستور الجمهورية الفرنسية الثالثة (١٨٧٥) على عدم مسؤولية رئيـــــسالجمهورية الا عند خرقه الدستور او في حال الخيانة العظمى (المـــادة ٦٠) ،و « مقررات رئيس الجمهورية يجـــب ان يشترك معه في التوقـــــيع عليهاالوزير او الوزراء المختصون ما خـــلا تولية الوزراء واقالتهم قانونا » (المادة٥٤) .

فمسؤولية رئيس الجمهورية محدودةبحالتين اثنتين فقط ، واما مسؤولية الوزراء فغير محدودة . فكيف يتحمـــل المسؤولية من لا يمارسها ؟ وكيف ينجو من عواقبها من يقررها ؟

ان مونتسكيو في كتابـــــه « روحالشرائع » لم يقر مبدأ توزيع السلطات الا حفاظا على الحرية ومنعا للاستبدادوالطغيان . ولكن مبدأ توزيع السلطات يختلف اختلافا بينا تبعا لنوع نظام الحكموشكل الدستور في كل بلد . ففي نظام تسلط التشريعية كسويسرا مثلا ، تعتبرالسلطة التشريعية المنتخبة من قبـــل الشعب وحدها ممثلة للسيادة الشعبية،وجمعية مجلسي التشريع الاتحاديينهي التي تعين مجلس الاتحاد المؤلف مـــنسبعة اعضاء لمدة اربع سنوات .هؤلاء الاعضاء يقومون باعبـــــاء الوزراءوينتخبون من بينهم كل سنة رئيســـــا للاتحاد السويسري . ولقد اتبعـــــتفرنسا هذه الطريقة في دستور عامـــي ١٧٩٢ و ١٨٤٨ . اما مبدأ توزيـــــعالسلطات بصورة مطلقةفهو متبـــع في النظام الرئاسي . ففي الدستـــــــورالاميركي مثلا ، توزع السلطات بصورة حاسمة بين حكومة الولايات ، ومن ثمتتوزع في كل من هذه الحكومـــات بين فئات ثلاث : التشريعية والقضائيـــــةوالتنفيذية . والسلطة التشريعية تتركز بالكونغرس المؤلـــف مـــــن مجلسيالشيوخ والنواب . فالوزراء لا يحق لهم ان يكونوا اعضاء في اي منهـــــما ولايمكنهم ان يحضروا مناقشاتهمـــا . ولا يجوز لرئيس الجمهورية حق اقتراحايقانون الا قانون الموازنة (منـــــذ عام ١٩١١) . اما السلطـــــة التنفيـــذيةفمستقلة تماما عن السلطة التشريعية. ويراسها رئيس الجمهورية المنتخب منالشعب . وهو الذي يعـــــين الوزراء ويقيلـــهم وهـــــم مسؤولون امامـــهفقط لا امام الكونغرس . وتاتي اخيرا السلطة القضائية وهي مستقلة تمامـــاعن شقيقتيها . وهي حامية الدستور، اذ باستطاعتها رفض تطبيق كل قانونيخالف نصوص الدستور ، ولقد حصل ذلك مرارا في التاريخ الاميركي .

ولا يخطرن ببال احـــــد ان تلـــكالسلطات الثلاث في النظام الرئاســـي الاميركي لا تتلاقى ابدا ، بل هي تتحركباتجاه متناسق متناغم لا يسمع فيـــه صوت نشاز الا نادرا . فالكونغرس مثلايعين لجانا دائمة تمثل حلقة الاتصال مع الوزراء . ومجلس الشيوخ هو الـــذييوافق على تعيين السفراء وقضـــــاة المحكمة العليا وكبار موظفي الدولة .ومن الضروري موافقة ثلثي اعضائه على المعاهدات لكي تصبح نافذة المفعول. وليس الرئيس الاميركي « القيصر » الحاكم بامره كما يتخيله البعـــــض .فالكونغرس يراقبه ليل نهار . ولقـــــد صفع عهد نيكسون في شهوره الاولىصفعة مدوية على اثر رفضه تعييـــن

اسمين متوالين رشحهما حينـــذاكلعضوية المحكمة العليا . ثم اطاح بـــه هو نفسه واضطره الى الاستقالة علىاثر انفجار فضيحة ووترغيت.

اما في النظام البرلماني فهناك مـــايسمى « توازن السلطـــات » اي ان السلطات الثلاث تتوزع بصورة مرنـــةوتتداخل وتتشابك ولكن دون ان تطغى احداها على الاخرى . وواسطة العقدفيما بينهما هي مجلس الوزارة لا مجلس الوزراء . فمجلس الوزاوة يعاون رئيسالدولة في ممارسة السلطة التنفيذيـــة الفعلية ، من جهة ، ويقترح مشاريـــعالقوانين بالاشتـــراك مع السلطـــة التشريعية ، من جهة اخرى ، وهو لايستطيع البقاء في الحكم الا اذا ظـــل حائزا على ثقة اعضاء المجلس النيابيفاذا ما خذله المجلس قدم اعضـــاؤه استقالتهم لرئيس الجمهورية وانصرفوا الى بيوتهم.

ولقد اعـــطـــى الدستـــور اللبنانيصلاحيات واسعة للوزراء اذ ان المادة (٦٤) منه تنص على ما يلي : « يتولىالوزراء ادارة مصالح الدولة ويناط بهم تطبيق الانظمة والقوانين كل بما يتعلقبالامور العائدة الى ادارته وبما خص بـــــه » .

والمادة (٦٦) تقول :«يتحمل الوزراءاجماليا تجاه المجلس تبعة سياســـــة الحكومة العامة ويتحملون افراديا تبعة افعالهم الشخصية ويعد بيان خطـــــة الحكومة ويعرض على المجلس بواسطةرئيس الوزراء او وزير يقوم مقامه ».

هناك اذن معادلة دستورية متوازنةنوميء الى ان رئيس الجمهورية لا يحكم الا بواسطة الوزارة الحائزة على ثقـــةالمجلس النيابي . فالوزراء في النهايـــة مسؤولون امام النواب وليـــس امامالرئيس الاول . وحتى التهديد بحـــل المجلس النيابي لا يمكن دستوريا لرئيسالجمهورية ان يقدم عليه الا اذا كـــان قرارا **معللا وبموافقة مجلس الوزراء** :وتقول المادة (٥٥) : « يحق لرئـــيس الجمهورية ان يتخذ قراراً معللا بموافقةمجلس الوزراء بحل مجلس النواب قبل انتهاء عهد النيابة وفي هذه الحالتجتمع الهيئات وفقاً لاحكام المادة ٢٥ ويدعى المجلس الجديد للاجتماع في خلال الايامالخمسة عشر التي تلي اعلان نتائـــــج الانتخاب » (٤) .

ان التلويح « بفزيعة » حل مجـــلسالنواب كلما ظهرت بوادر حجب الثقـــة عن حكومة يؤلفها رئيس الجمهورية ،لهي بدعة لبنانية تخالف روح النـــص الدستوري ، وتبطل مفعول رقابة ممثليالشعب على الســـــلطة التنفيذيـــة . فالنظام الرئاسي شـــــيء والنظـــامالبرلماني اللبناني شيء اخر . ولا يعقل ان تتمتع الرئاسة الاولى بصلاحيـــاتالنظامين معا . فاما رئيس منتخب من الشعب يعين الوزراء ويقيلهم ويتحملنتائج اعمالهم امام نواب الشعب ، واما رئيس برلماني يترك اللعبة البرلمانيـــــةتأخذ مجراها الطبيعي وتصل الى اخر الشوط . والرئيس اللبناني حســـــبنص وروح الدستور اللبناني هو حكم وليس حاكما .

وقصة الحكم في لبنان بعد الاستقلال هي في ملخصها صراع علني وخفي حول كيفية استعمال صلاحيات الرئاسة الاولى مع المحافظة على ميزان الطائفية والعائلية الاقطاعية ، والاحتكارية ومايفرع منها من تداخلات اقليمية محلية وخارجية . يضاف الى ذلك كله ان الحكم فن ، والسياسة فن الممكن ، وان « الاسلوب هو الشخص » كما يقول المثل الفرنسي اي ان الشخصية وخصوصا في الحكم وفي الادب والفن لا تظهر الا من خلال الاسلوب الذي نستخدمه للوصول الى غاياتها . فالشخصية القوية الحادة القاطعة كالسيف تستعمل اسلوبا يختلف عن الشخصية الناعمة المرنة الزئبقية التي تحافظ على « شعرة معاوية» بينها وبين الاخرين . واذا ما علمنا ان الشخصيات تختلف باختلاف الامزجة والطباع والتربية والثقافة ، فالتصادم فيما بينها وخصوصا في قيادة عربة الحكم في بلد كلبنان ، لا بد واقع لا محالة .

تنازع السلطة وتنافر الشخصيات

ولقد ظهر تصادم الشخصيات اول ما ظهر في عهد الاستقلال بين الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح . ولم يسفر عن وجهه الا بعد تجديد الرئاسة الاولى لمدة ست سنوات . فالسنوات الاولى « للميثاق الوطني » غير المكتوب مرت سراعا بغير احتكاك حاد لانشغال الرجلين بالامور الخارجية وتحقيق الجلاء وتسلم الصلاحيات من السلطة المنتدبة . وكان هناك شبه اتفاق على اقتسام النفوذ . ولم يكن النفوذ حينذاك الا توزيع الوظائف ومنح رخص الاستيراد وتلزيم المشاريع العمرانية وما شابه . ولم تكن القضايا الاجتماعية والاقتصادية والتخطيط الانمائي ومعضلات الشباب وازمة البطالة قد بدات تطرق ابواب البيت اللبناني . ولكن بعد الاجلاء والتجديد ، وجد الرئيسان الصديقان نفسيهما في موقف مختلف : فالشيخ بشارة قد كسب معركة التجديد بواسطة مجلس ٢٥ ايار (مايو) ١٩٤٧ الذي انتخبته وزارة رياض الصلح ، ووجد هذا الاخير نفسه في مواجهة شبه مكشوفة مع « السلطان سليم » شقيق الرئيس الخوري والخواجه هنري فرعون ، والنسيب ميشال شيحا ، عدا اهتزاز قاعدته الاسلامية ، وبالتالي كرسي رئاسة الوزارة التي كان يجلس عليها .

ماذا حدث يومها؟ يقول الشيخ بشارة الخوري في مذكراته ما يلي : (٥) : «ومن دواهي الدهر في تلك الفترة ان ظهر « رياضيون » اكثر من رياض ، و « خوريون» اكثر من الخوري ، وهؤلاء واولئك هم الآفة » . ويتابع الشيخ بشارة قائلا : «اقتربت الانتخابات ودخل الناس مرحلة التحضير لها ، وكان قد مضى على رياض الصلح اربع سنوات وهو رئيس للوزارات المتتابعة ، فاتفقت معه ان يتخلى عن الرئاسة برضاه وان يفسح المجال لتأليف حكومة ادارية بحت تؤمن الحياد في الاستفتاء المقبل . وهذا الحديث بيننا يرجع الى ما يزيد على السنة ، وقد حرصت فيه على ان يطمئن صديقي رياض الى المستقبل والي حبي له . ناهيك بخدماته الوطنية ، ولباقته وسداد رأيه ومواهبه الجمة ، ولكن هناك عوامل سيكولوجية وسياسية تضطرنا الظروف الى مراعاتها .

فاتفقت اذن وصديقي على ان تأتـــي وزارة حيادية للانتخابات يرئسها الحاج حسين العويني . ثم يخلفه بعدها كل من عبد الله اليافي فصائـــب سلام فسواهما على التتابع ، ليأخذ كل سني كفوء قسطه من تحمل المسؤوليات ثـم يعود رياض الى الحكم فاختم رئاستي كما افتتحتها برفقته . اتفقنا علـى هذا قبل سنة ، ولما حان اجل التنفيذ «غص» الرفيق وعز عليه ان يغادر الحكم ويبقى بعيدا عنه اثناء الانتخابات وبعدها .فشعرت بتردده فراعيت جانبه وعالجت الامر بالتأني . فكان اجتماع اول بيني وبينه واجتماع ثان حضره حبيب ابـو شهلا ، واجتماع ثالث حضره حبيب ابو شهلا وصبري حماده واحمد الاسعد ، حتى اسفرت تلك الاجتماعات عن قبول رياض الصلح برغبتي ووعدني بان يقدم استقالة وزارته في مطلع العام الجديد على ان يعين موعد الاستقالـة فيمـا بعد » . (٦)

ومن الواضح ان رياض الصلح كان قد ثبت «مركز قوة» له في الشارع الاسلامي البيروتي على الرغم من « حرتـقات » السلطان سليم . الا ان نقطة الضعف عنده كانت مجلس النواب . فأعضاؤه لا يتلقون الوحي الا من عل ، خوفا على كراسيهم النيابيـــة ؛ والمرشحـون والطامعون برئاسة الوزارة من السنيين كثيرون . فهم حاضرون لتأليف اية وزارة دون قيد او شرط . وعلى الرغم من كل قوة شخصية رياض وشعبيته الا انه لم يستطع مقارعة الشـيـخ بشارة بسلاحه . فجرب تحريـــك الشارع الاسلامي واللبناني يوما ولكنه لم ينجح تماما . فطرابلس معـــقودة اللـواء لسماحه الافندي ، وكانت بينه وبيـن رياض أكثر مما فعل الحداد . وصيـدا ليست ذات ثقل سياسي . فاسقط في يده اخيرا ،وحاول وصل ما انقطـع مع الشيخ بشارة بواسطة الزعيم الاول فؤاد شهاب .

« وفي الثالث عشر من تموز زارنـي الزعيم الاول فؤاد شهاب قائد الجيش. واسر الي بان رياض الصلـــح قابله وشكا اليه سوء حظه بعد انتخابـات نيسان المنصرم ؛ وابعاده عن الحكم ،وان صدره قد ضاق ، وعيل صبره ، وانه اضطر للمعارضة » . (٧)

لا يختلف اثنان ان ريـاض الصلح وخير الدين الاحدب كانا ابرز وجـوه السنة في مقاعد الحكم في ايامهما الا انهما عجزا عن خلق « مركز قوة » لرئاسة الوزارة وهـــو حـــق دســتوري لها وليس افتئاتا على صلاحيات رئيس الجمهورية . ولطالما صرح بيار الجميل قائلا : ان مسؤولية « خصمـــي » صلاحيات رئاسة الوزارة تعود الـى رؤساء الوزراء انفسهم ، فلمـــاذا لا يمارسوا صلاحياتهم الدستورية ويقفوا بوجه الاعتداء على صلاحياتهم ؟ لقـد حظر الدستور على رئيس الجمهورية توقيع اي مرسوم الا اذا اقترن بتوقيع الوزير المسؤول : فلماذا يوقع الوزيـــر اذا لم يكن مقتنعا ، ولماذا لا يرفض ؟

الرفض هنا سهل قولا ، ولكنه يكاد يستحيل عمليا . فحق الرئيس الاول بتعيين الوزراء واقالتهم يجعل من الصعب على الوزير ان لا يكون على انسجام تام مع رئيس الجمهورية . وما ينطبق على الوزير ينطبق على رئيس الـوزراء . ومرد ذلك الى فقدان رئيـس الوزارة للقاعدة النيابية التي تشد ازره وتسنده

في المواقف الصعبة . فهو اذا لـــــم ينسجم مع مقام الرئاسة الاولى فقــد مركزه ، وقدمه بسهولة للسنييـــــن المقيدين على « لائحة الانتظار » .

ولكن لكل لعبة حدودا واصولا ،فاذاما تجاوزها اللاعب الماهر انقلب السحر على الساحر . فخلاف رياض الصلـــح بشارة الخوري ، وما ترك مـــن ترسبات نفسية على الصعيد الشعبي ،قد مهد لتمرد سامي الصلح على العهد الخوري ، واضطر بقية الزعماء السنةلحذو حذوه والامتناع عن التعاون معه، فسقط ذلك السقوط المريع ، وتكررت اللعبة مع شمعون والرؤساء السنة ، فتمسك رب قصر السعديات بسامـــي الصلح وجعله « مكسر عصا » الحكم ، حلق الزعماء السنة ايضا حـــــول المعارضة وانـــهى عهـــده بالشكـــل المعروف .

ولما انتخب الامير فؤاد شهـــــاب للرئاسة في عام ١٩٥٨ ، تغير كل شيء تقريبا في العلاقات بيـــن الرئاستـــين وظهرت هوة سحيقة بين الرئيســين الاول والثالـــث . فالرئيس شـــهاب انضباطي يلزم نفسه بحرفية النصوص ويتجاوز ما يسمى بالاعيب الساســة والسياسيين نظرا لتربيته العسكريـــة الصارمة . ولكن كل ذلك لا يمنـــع ان له شخصيته الهادئة المنطوية علـــى نفسها ، البعيدة الاغوار السحيقـــة القرار . ولقد اصطدم بشخصية سلام وانسجم مع عقلية كرامي . فالرئيس كرامي بارد الاعصاب ، يخطط للبعيـــد وبسرية كالعسكر . اما الرئيس سلام فمعروف « بنوفز » الاعصاب والنرفزة والانفعال والصراحة والتأثر بالمظهـــر والشكليات واخذه بعكس ما يقول المثل: « لا تكن قاسيا فتكسر ، ولينا فتعصر» .وكان ما كان مما لا يزال طريئا في جميع الاذهان من تربع رشيد افندي علـــى سدة الرئاسة الثالثة طيلة ايام حكـــم الامير الشهابي وخليفته الحلو تقريبا ،وابعاد « ابو تمام » عن السراي الكبير طوال تلك المدة .

ونظرا لمجيء رجل عسكري لرئاسة الجمهورية وللمرة الاولى في تاريخ لبنان السياسي ، فلقد اختط لنفسه اسلوبا جديدا في العمل داخل الرئاسة ، فنقل مقر الرئاسة ولاول مرة ايضا من بيروت العاصمة الى صربا ، وترك مهمـــة اعادة تنظيم الادارة اللبنانية « للانتدان لاي » ، ووسع دوائر القصر الجمهوري توسيعا كبيرا ، فأنشأ مركز المستشار القانوني وعهد به الى السيد اليـــاس سركيس للتدقيق في شرعية المراسيـــم وانطباقها على القوانين ، واستحـــدث مركزا فنيا للاشراف على مشاريع الطرق والكهرباء والمياه حتى لا تبقى موازنـــة الاشغال العامة منحصرة في محافظـــة جبل لبنان بل تتوزع خيراتها على بقية المناطق اللبنانية المحرومة .

ولقد انطلق الرئيس شهاب في نظرته الى الحكم من شعار : « لكل قريـــــة لبنانية طريق ومدرسة وعامود كهرباء وقسطل مياه وسلك هاتف » . وترك السياسة ، التي يعتبرها شرا لا بد منه للساسة التقليديين ، على ان يكبـــــح جماح الاعيبهم عند الحاجة « الشباب »و « الاخوان » ولقد اخطأ الرئيـــس شهاب هنا كما اخطأ يوما « تورغو »وزير مال لويس السادس عشر الذي كان قد رفع شعار : « تخفيض الضرائب العينية لابعاد الناس عـــن الاهتـــمام بالسياسة » .

فالاثنان اعتبرا الانسان حيوانـــابيولوجيا ــ اقتصاديا فقط . ونسيا بأن « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان »فبعد « تورغو » اشتـعـلت الثورة الفرنسية ، وبعد شهاب ، انفجـرت« ثورة الوسط » لاسباب مختلفةمتباينة لا رابط بينهما . ولقد اعتبر شهاب انتنمية المناطق المحرومة والمتخلفة تحقق عملية « اللبننة » وتصهر جميعاللبنانيين في بوتقة « القومية » اللبنانية وتمنـع الانظار من الاتجاه الى خارج الحدود .لربما كانت تلك النظرة للواقع اللبناني صحيحة على المدى القصير . ولـكنتجاوزات « الشباب » و « الاخوان » واستمرارهم للعبةالسياسية الشيطانيةقد اطفح الكأس وقدم الحكم للوسط مع دعم شعبي قوي .

اما عهد الحلو فكان بمثابة الجسـربين عهد شهاب وعهد الوسط . ولقـد طبعت شخصية الرئيس حلو اللعبةبينهوبين « الشباب » و « الاخـــوان » بطابع خاص ، وكان من اوله الـــىاخره مطاردة بين الرئيس الذي يحاول القبض على صلاحياته كاملة ، وبيـن« الاخوان » و « الشباب » الذيـــن يحاولون متابعة لعبـــة « النهـج »الشهابي . واستمرت المطاردة ســت سنوات كاملة كانت مـلأى بالانفاخالمنصوبة ، والشراك الملغومة .

الطائفيـــة والدستـور

لقد ترك العهد الشهابي ــ الحلوي ارثا ضخما متشابكا : فالى جانـــب الجهاز القانوني والفني وعادة جلساتالعمل مع ممثلي مختلف الوزارات (وهي جلسات من المفروض ان تتم في رئاسةالوزارة) ورث سليمان فرنجية ايضـا مبدأ المناصفة في الحكم اي حكم المادة٦و٦ مكرر وهو المبدأ الذي طبقه العهد الشهابي عمليا ولا يزال ساريالمفعولباستثناء بعض الوظائف الكبرى التي بقيت احتكارا لاحدى طوائف العائلـةاللبنانية اي المارونية . ولم ينـص الدستور اللبناني على التوزيع الطائفيللوظائف والوزارات والرئاسات . ولكن المادة (٩٥) منه تنص على ما يلـي :« بصورة مؤقتة والتماسا للعـدل والوفاق ، تمثل الطوائف بصورة عادلةفي الوظائف العامة وبتشكيل الوزارةدون ان يؤول ذلك الى الضرار بمصلحـةالدولة » .

لقد ظل نص تلك المادة حتى اخرعهدشمعون يعني المشاركة الى ان تبدل مفهومه في عهد شهاب فاصبح يعنـيالمناصفة على صعيد الوظائف العامة باستثناء مراكز : رئاسة الجمهورية ،رئاسة الجيش ، مديرية الامن العام . رئاسة مجلس الشورى ، رئاسـةالجمارك، رئاسة مجلس القضاءالاعلى، مديرية الخارجية ، مديرية الاحـوالالشخصية ، حاكمية المصرف المركـزى وغيرها.

وكذلك لم يذكر الدستور اللبنانـيشيئا عن القوات المسلحـة ، ووزارة الدفاع واعلان الحرب وتسمية القائـدالاعلى للجيش لسبب بسيط لانه وضع في ايام الانتداب حين كانت كل تلـــكالصلاحيات بيد الدولة المنتدبة . فلما عدل الدستور في عام ١٩٤٣ ، لم يفكراحد في القوات المسلحـــة ، ووزارة الدفاع ، واعلان الحرب والقائد الاعلىللجيش ، فبقيت كلها غائبة عن الدستور وتخضع مثل غيرها للقوانين العاديـةفوزارة الدفاع مثلا مثل غيرها مـــن

وزارات الدولة يرئسهـــا وزيـــر ،وموظفوها يخضعون للقوانين التنظيمية الخاصة بهم . فالقائد العام للجيش مثلايعين بمرسوم يتخذ في مجلس الوزراء وبناء على اقتراح وزير الدفاع ويوقعهرئيس الجمهورية مثل بقية المراسيم . ليس لرئيس الجمهورية سلطة خاصةعلى الجيش . فصلاحياته المنصوص عنها في الدستور اللبناني لا تشير الىشيء من ذلك مطلقا . والدليل علـــى ذلك ان اعفاء العماد اميل البستانـــيمن قيادة الجيش لم ينفرد به شـــارل حلو بل اتخذ بناء على اقتراح وزيـــر الدفاع المير مجيد ارسلان وموافقـــة مجلس الوزراء وتوقيـــع رئيـــس الجمهورية . ولاينفرد رئيس الجمهورية لوحده ــ حسب الدستور اللبناني ــالاقي « المفاوضة في عقد المعاهـــدات الدولية وابرامها ويطلع المجلس عليهاحينما تمكنه من ذلك مصلحة البـــلاد وسلامة الدولة » (المادة ٥٢) . وفـــي تعيين الوزراء واقالتهم (المادة ٥٣) . وفيما عدا ذلك فكل مقرراته تبقـــى حبر على ورق اذا لم يشترك مـــعه في التوقيع عليها الوزير او الـــوزراءالمختصون (المادة ٥٤) . ان ما سمي « عقدة » وزارة الدفاع في اثناء مخاض" وزارة الشباب » عام ١٩٧٠ ليـــس فيها على الصعيد الدستوري اي تعقيدوعلاقة رئيس الجمهورية بها مثل علاقته ببقية الوزارات . فالنظام اللبناني ليسرئاسيا ليتفرد رئيس الجمهورية بتعيين واقالة القائد العام للجيش . فترومانمثلا تمكن بمفرده وبموجب سلطتـــه الدستورية من عزل « ماك آرثر »اشهرقائد اميركي في القرن العشرين بمرسوم عادي وفي ذروة الحرب الكورية وذلكعندما اصر « قيصر الباسفيك » وقاهـــر اليابان على اجتياز نهر « يالو » وضربمنجمعات المتطوعين الصينيين داخـــل حدود الصين الشعبية خلافا لاوامـــرالقائد الاعلى للجيـــش الاميركـــي . فالدستور الاميركي الرئاسي ينـــصصراحة على ان رئيس الجمهوريـــه الاميركية هو القائد الاعلى للجيـــشالاميركي . وهو الذي يعلن الحـــرب بموافقة الكونغرس ، ويوقع معاهداتالسلم . اما في لبنان فليس لرئيـــس الجمهورية دستوريا اي حق في التفردبمثل تلك الامور . بل لا بد هنا مـــن موافقة الوزير او الوزراء المختصين .

ان كل ذلك ليدل اوضح دلالة علـــىان النظم اللبناني ليس نظاما رئاسيـــا بل برلمانيا قائما على اساس مبـــدأ« توازن السلطات » فمجلس النـــواب هو السلطة المشترعة الوحيدة (المادة١٦) ؛ « وتناط السلطة الاجرائيـــة برئيس الجمهورية وهو يتولاها بمعاونةالوزراء وفاقا لاحكام هذا الدستـــور » (المادة ١٧) . فرئيس الجمهورية هوالامين على تنفيذ القوانين التي يقرهـــا مجلس النواب ، ولا يمكن تنفيـــذ تلك القوانين الا بواسطة الوزراء الحائزين على ثقة مجلس النـــواب . فالوزارةبمجموعها هي «بيضة القبان»في النظام البرلماني اللبناني . فاذا ما انـــحازتلرئيس الجمهورية شلت حركةالبرلمان، واذا ما تضامنت مع البرلمان ضـــــذرئيس الجمهورية اضطر هذا الاخيـــر للخضوع او الاستقـــالة . فهـــي لاتستطيع الحكم الا بانسجامها مع مجلس النواب ورئيس الجمهورية معا . فاذااصبحت وزارة رئيس الجمهورية فقط وكما تحاول الدعاية الخبيثة تصويـــرهللناس ، فسدت اللعبة البرلمانيـــة ، وبطل مبدأ التمثيل الشعبي ، واصبحالحكم « من فوق » بدون قاعدة مـــن تحت .

لقــد طغــت صلاحيــات رئاســة الجمهورية في عهد سليمان فرنجية على كل ما عداها فأصبحت قولا وفعلا هــي مصدر جميــع السلطات ، وتضاءلــت صلاحيات رئيس الوزارة لدرجة اصبحمعها مجرد «باشكاتب» او«باشبوزك»، لا يملك من امر السلطات الا مظاهرهاالبروتوكولية . ومما زاد في اختــلال التوازن بين الرئاستين الاولى والثالثةنتيوء جيل لبناني مسلم جديد استفظع مبدا التمييز في احتكار « الوظائف ــالمفانيح » للطائفة المارونية ، ولم يدرك لها سببا معقولا سوى انها نوع مــن« التمييز العنصري » تجعل منه مواطنا من الدرجة الثانية وتقتل في نفسه كــلطموح مستقبلي ، ولا تجعل منه توأما في المواطنية والحقوق والواجبات مثلبقية اللبنانيين . وزاد من حدة التمايز الماروني تقاعس الدولة اللبنانية عــنالدفاع عن الحدود الجنوبية اللبنانيــة امام الاعتداءات الاسرائيلية الشرســةعلى القرى الحدودية ، وترك الاجواء اللبنانية والمخيمات الفلسطينية تحــترحمة الطيران والصواريخ الاسرائيلية بدون اي ردة فعل على صعيد الدولة اللبنانية . وطفت على السطح الازمة الاجتماعية ــ الاقتصادية التي عمقــتالهوة الفاصلة بين اهل الفقر واهــل الغنى ، وانتشر « حزام البؤس » حولبيروت ، ووجد اهل النظام البرلمانــي اللبناني انفسهم فجأة في بحران مــــنالمشاكل السياسيــــة والاقتصاديــة والاجتماعية ، فلم يستطيعوا مقابلتها فيمنتصف الطريق ، بل رفضوا كل بحث في المطالب الوطنية ــ الاسلامــــــيةالاصلاحية التي بدات بالمطالبة بتحديــد سلطات رئيس الجمهورية ، وايقافهعندحدود روح الدستور ، اي كف يده عن التدخل المباشر في ممارسة الحكم والبقاءحكما لا حاكما . ولكن تشابك العوامل والاسباب واختلاط الاوراق الداخليةوالخارجية ، فجرت الوضع السياسي في الثالث عشر من نيسان (ابريل) عام١٩٧٥ . وكان في طليعة الاســــباب الداخلية للحرب الاهلية اللبنانية سوءممارسة صلاحيات الرئاســة الاولى اعتمادا على النصوص الجامدة لدستور« انتدابي » وضع قبل نصف قرن مــن الزمان .

المراجـــع العربيــة

ــ الخوري ، بشارة خليل : حقائق لبنانية ،٢ اجزاء ، منشورات : اوراق لبنانية ، بيروت ــ ١٩٦٠

ــ الخوري ، اميل ، واسماعيل ، عادل : السياسة الدولية في الشرق العربي ، ٥ اجزاء، منشورات : دار النشر للسياسة والتاريــخ ،بيروت ــ ١٩٦٠ ــ ١٩٧٠ .

ــ الخطيب ، انور : الاصول البرلمانية فيلبنان وسائر البلاد العربية ، منشورات : دار العلم للملايين ، بيروت ــ ١٩٦١ .

ــ الجمعية اللبنانية للعلوم السياسيــــة :مجموعة الوثائق الاساسية المتعلقة بالنــــظام السياسي في لبنان ، دار المنشورات الحقوقية،بيروت ــ ١٩٦٨.

ــ رباط ، ادمون ، القانون الدســتــــوريالبناني ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ــ ١٩٧٠ .

ــ سالم ، يوسف : ٥٠ سنة مع الناس ،منشورات دار « النهار » للنشر ، بيــروت ــ ١٩٧٤ .

ــ محمصاني : صبحي:الدستور والديمقراطيةمنشورات دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٢.

ــ يكن ، محمد زهدي : دستوريات لبنانية ،منشورات دار يكن للنشر ، بيروت ــ ١٩٧٤ .

Duverger, Maurice : Droit Constitutionnel et Institutions Politiques, Presses Universitaires de France, Paris, 1955.

Godchot. J. E. : Les Constitutions du Proche et du Moyen — Orient, Sirey, 1957.

Laski, Harold : Democracy in Crisis, G. Allen and Unwin, London, 1933.

Montesqieu : L'Esprit des Lois, Hachette, Paris, 1970.

Pickles, Dorothy : The Fifth French Republic, Methuen and Co. London, 1962.

Rabbat, Edmond : Unite Syrienne et Devenir Arabe, Paris, 1937.

Sabin, George : A History of Political Theory, Holt and Co., New — York, 1958.

Sibert, Marcel : La Canstitution de la France du 4 Septembre 1870 9 Aout 1944, Padone, Paris, 1946.

Vedel, Georges : Manuel elementaire de Droit Constitutionnel, Paris, 1949.

(١) الاصول البرلمانية في لبنان والبلاد العربية، تأليف انور الخطيب ، ص ٣٥ ٠

(٢) بشارة خليل الخوري : حقائق لبنانية ، ١٩٦٠ ، ص ١١٦ ٠

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٠ ٠

(٤) وهو يجتمع برئاسة رئيس الوزارة ، امـا مجلس رئاسة الوزارة فيجتمع برئاسة رئيس الجمهورية .

(٥) بشارة خليل الخوري : حقائـق لبنانية ، الجزء الثالث ، ص ٣١١ ٠

(٦) المصدر السابق ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ٠

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٩١ ٠

فلسفة الميثاق الوطني اللبناني تأجيل للدخول في مرحلة الوطن

مروان ناصر

اذا كان من الواضح تماما ان المشروع الاميركي المطروح لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي تسوية « نهائية » (قبل تغيير اتجاه الرياح العربية المؤاتية حاليا لهذا المشروع) هو الاطار العام الذي تتحرك فيداخله الازمة اللبنانية الحالية ، فان لهذه الازمة خصوصيات واضحة ضمن هذا الاطار العام ،تتحدد بعدة عوامل ، منها ما اصبح يمثله لبنان بالنسبة للمقاومة الفلسطينية منموقع جغرافياخير في الجوار العربي المحيط باسرائيل ، ومنها التجاور الجغرافي بين لبنان وسوريا ، احد ابرز الاطراف المعنية مباشرة بمشروع التسوية المطروح . ومنها خصوصية الوضع اللبناني بتركيبته الطائفية · فقد بقيت هذه التركيبة، منذ بداية نصف القرن الاخير في عمر الامبراطورية العثمانية ، تحاول الوصول الى صيغة للكيان الوطني اللبناني مبنية على التعدد الطائفي ، وقد كانت أخرها صيغة الميثاق الوطني االتي بنيت على اساسها اول دولة مستقلة في لبنان المعاصر ·

وهذه الصيغة الاخيرة للعلاقة بين العناصر الطائفية للكيان اللبناني ، نمت تحت الانتداب الفرنسي ، وكان يتوقع لها مهندسوها وفلاسفتها ، أن تكون الحلقة الاخيرة في سلسلة الصيغ المتعددة للتركيب الطائفي للمجتمع اللبناني ، وان تكون بالتالي المدخل للانتقال بلبنان الى مرحلة الوطن ذي النسيج الاجتماعي الموحد والمتماسك . فتصبح الخلقية التعددية في تركيبه الطائفي عامل اثراء بشري ، لا عامل تفجير كامن ، يلتهب في كل مرة يصل فيها الوطن الى مفترق طرق امام قضية مصيرية من قضاياه ·

لقد عرف الكيان الوطني لعدة بلدان الاهتزازات العنيفة التي عصفت بوحدة الوطن . بل وجزأتها . بفعل الصراعات الطائفية (كالهند) ولكن الصيغة الوطنية اللبنانية كانت من بين هذه المجموعة . الاكثر تعرضا لاعادة النظر فيها ، والتهديد بنسفها (خاصة من قبل الطرف الانعزالي)· بل ان هذه الصيغة قد كشفت عن هشاشتها حتى في مرحلة تكونها الجنيني تحت الانتداب الفرنسي ، عندما وصل حد الاهتزاز بالصيغة الوطنية الموحدة (المبنية على التعايش الطائفي) الى حد التخوف من استقلال الوطن ، بل والعمل الايجابي لمباشر ضد استقلال الوطن ، لدرجة ان فئات سياسية كبيرة في لبنان كانت تبني خطط تحركها السياسي على اساس بقاء الانتداب . حتى فاق حماسها لبقاء الانتداب ـ في اواخر ايامه ـ حماس دولة الانتداب نفسه .التي كانت سياستها في لبنان تقررها عوامل ذاتية ودولية تتجاوز الرقعة الجغرافية اللبنانية ·

من هنا تكتسب هذه الخصوصية في الوضع اللبناني (خصوصية الخلفية الطائفية للكيان الوطني) اهمية خاصة في فهم وتحليل اسباب ومسار الازمة اللبنانية الحالية . بحيث ان بالامكان القول بغير

تحفظ ولا تردد ، ان الانفجار الاخير ، انما هو اعلان كبير لفشلصيغة التعايش الطائفي في ان تتحول بمرور الزمن الى كيان وطني يستوعب الاماني الوطنية ويصوغها ويبلور مسيرتها من خلال الصراع السياسي الوطني . فبينما يتحول الصراع السياسي داخل اي وطن متماسك الى صراع من اجل الوطن ، اصبح الصراع السياسي في اطار التعايش الطائفي اللبناني يتحول الى صراع على الوطن ، بحيث اصبح لبنان المستقل يقف كلما احتدم الصراع فيه حول قضية سياسية او اجتماعية مصيرية امام واحد من حلين : اما وقف الصراع بتجميده او بالتحايل عليه والالتفاف من حوله ، واما اعادة النظر في صيغة الوطن وكيانه ...

ان الازمة اللبنانية الاخيرة هي نموذجية من حيث التطابق بين الصراع السياسي (بمختلف وجوهه) مع الخلاف على الشراكة الوطنية ... فالازمة الاخيرة تلخص كل الصراعات الداخلية لدولة لبنان المستقل بنفس الزخ والقوة ، سواء في ذلك الصراع القومي على هوية لبنان وعروبته وكل ما تعنيه هذه الهوية من مواقف ومسوولیات ، او الصراع الاجتماعي·ومرة اخرى ، فأن تحول هذه الصراعات الوطنية الى صراع على كيان الوطن نفسه ، دليل حسي كبير على عجز صيغة الكيان الطائفي، المبني على التعايش والتوازن الطائفيين ، عن استيعاب الصراعات الوطنية وتحويلها الى قوة دافعة للوطن ، كما هي الحال بالنسبة لكل الامم في كل العصور ·

لذلك فان اي بحث في حل وطني جذري للازمة اللبنانية الحالية يجب ان ينطلق اولا – وقبل اي شيء – من الاعتراف بفشل صيغة التوازن الطائفي (صيغة الميثاق الوطني) في ان تكون بديلا عن الوطن او مقدمة للوطن ، او في ان تكون الوطن نفسه · نقول هذا لان رياح تسوية وسطية بدأت تلوح في الافق ، تتلخص في اعادة الاعتبار لصيغة الميثاق الوطني ، مع تعديل في نسب التوازن الطائفي ، على اعتبار ان الازمة هي تعبير عن اختلال نسب التوازن الطائفي ، وليست تعبيرا عن فشل صيغة هذا التوازن عن تحمل اعباء الصراع الوطني بشكل طبيعي · ويتمثل هذا الاتجاه في وثيقة سليمان فرنجية (التي سميت « الوثيقة الدستورية ») والتي تحاول بعد ثلث قرن من عجز صيغة الميثاق الوطني غير المكتوب . ان تحول هذا الميثاق الشفهي الى وثيقة دستورية مكتوبة ، وفي احياء الزعامات الطائفية التقليدية في المناطق الوطنية ، بعد ان وصل الصراع الى تجاوز الصيغ الطائفية الى صيغ وطنية واجتماعية صارخة ، ذلك ان الزعامات الطائفية الانعزالية بدأت تدرك انه مهما كانت المكاسب المؤقتة التي ستحل عليها من الحوار مع الحركة الوطنية اللبنانية ، فستتحول هذه القوى – حتى من غير ارادتها – من صوت طائفي ، الى صوت سياسي ،فتضطر لخوض معاركها السياسية كممثل للانعزالية (على صعيد الصراع القومي) وكممثل لليمين (على صعيد الصراع الاجتماعي) ،متخلية بذلك اضطراريا عن القناع الطائفي الذي كان حتى الان بمثابة الكابح الذي تعرقل به الانعزالية اليمينية في لبنان المستقل المسيرة الطبيعية للصراع ·

ان مقتل فلسفة الميثاق الوطني انها لم تصغ منذ البداية لتكون صمام امن له مهمة موقتة هي منع الاستعمار الفرنسي من استغلال الترتيب الطائفي للمجتمع اللبناني كحاجز يمنع الاستقلال ، بل اعتقد واضعوها ان صمام الامان ، ما دام قادرا على تحقيق الاستقلال ، فهو قادر بالتالي على بناء دولة الاستقلال ، واستيعاب كل ما تقتضيه طبيعة هذا البناء من صراعات وطنية ·

ولم يكن هذا الاعتقاد ملازما لحاملي فلسفة الميثاق الوطني في الاربعينات فقط

بل ظل ملازما لهم حتى الان ، مرورا بازمة ١٩٥٨ التي كان يفترض فيها انتكون ناقوس خطر كاف يعلن استنفاد فلسفة الميثاق الوطني لكل قدرتها على العطاء والبقاء ٠

ان من يقرأ مذكرات الشيخ بشارة الخوري (« حقائق لبنانية ») ابرز القادة السياسيين لصيغة الميثاق الوطني (على اعتبار ان ميشال شيحا ـ شقيق زوجة الشيخ بشارة ـ هو ابرز قادتها الفكريين) كثيرا ما يقرأ له عبارة يعلق بها على احداث نثبت خطأ حساباته وخططه بالنسبة لمسألة ما ، فيقول انه لو اوتي علم الغيب لما قرر كذا وكذا ٠

ولكن عندما دون الشيخ بشارة الخوري خلاصة تجربته السياسية في عام ١٩٦٠ ،لم تكن فلسفة الميثاق الوطني في علم الغيب ،بل كانت قد اختبرت لسبعة عشر عاما ، ومع ذلك فقد ظل ايمان الشيخ بشارة بهذه الصيغة لا يشوبه اي تحفظ ٠

واذا كنا نفهم ذلك من بشارة الخوري، على اعتبار ان السياسيين عندما يدونون مذكراتهم في اواخر العمر ، لا يعنون ابدا بمقارنة آرائهم السياسية بما تلاها من احداث ، بقدر ما يعنون باعادة استحضار الماضي ، بكل القه وزهوه ومصداقيته ،فان فيليب تقلا ،احد اخلص ابناء مدرسة الميثاق الوطني ، قد ابدى في مقدمة المجلد الثاني من المذكرات فعل ايمان مطلق بصيغة الميثاق الوطني (في الماضي والحاضر والمستقبل)، واعتبر احداث عام ١٩٥٨ مناسبة لتجديد الدعوة للميثاق ، وليس دليلا على حلول ساعة اعادة النظر فيه ٠

ليس لدينا اي وهم حول انّ ميزان القوى الداخلي في لبنان ، وميزان القوى العربي من حول لبنان هما اللذان سيقرران الان المدى الذي يمكن ان تذهب اليه اية عملية تغيير ستفرزها الاحداث اللبنانية الصاخبة، ولكن ذلك لا يمنع ، ونحن امام محاولة فرض الحل بتعميق الصيغة الطائفية ، بدل تجاوزها ، ان نستعيد من الماضي ، ومن مذكرات ابي الميثاق الوطني ، بعض الصور السياسية المتناقضة ، والتي جاء الميثاق الوطني اقرب الى ان يكون تحايلا عليها لا حلا لها ، وهي مواقف تعكس الترجمة السياسية للتركيبة الطائفيةالتعددية للمجتمع اللبناني على اكثر من صعيد ، منها مسألة الانتداب والاستقلال ، ومنها مسألة تحديد هوية لبنان الطويلة ، ومنها الموقف من القضية الفلسطينية التي كانت ـ في ذلك الوقت ـ في اخطر مراحلها المباشرة،مرحلة الاعداد لانشاء دولة اسرائيل ٠ وذلك ليلمس القارىء ان الادلة الحسية على عجز فلسفة الميثاق الوطني عن بناء وطن موحد متماسك كانت موجودة قبل ولادة الميثاق كما هي موجودة بعده،وخاصة في الاحداث الحالية٠

قبل لاستقلال

في الصفحة ١٩٩ من المجلد الاول من « حقائق لبنانية » ، يصف الشيخ بشارة الخوري الوضع السياسي في لبنان فياوائل عام ١٩٢٧ ، يوم كان اميل اده قد اصبح رئيسا للجمهورية ، بينما اصبح بشارة الخوري رئيسا لاهم كتلة برلمانية (الكتلة الدستورية) التي كانت تقارع الانتداب حول الدستور كلما تجاوزت نصوصه او علقت تنفيذه ، يقول تحت عنوان « العرب عربان » :

« ويحسن القول ان وجه لبنان السياسي انقلب من ذلك اليوم وسرت في البلاد روح عامة ، فانقسم العرب عربين : لبنانيون يسعون الى الاستقلال بالغاء الانتداب ، وأخرون يتعلقون بالسلطة المنتدبة ويدوام سيطرتها ، فيستعينون ويستمدون منها نفوذهم ومكانتهم ٠لبنانيون ينادون بالتعاون مع البلاد العربية ، وأخرون يتمسكون بالعزلة والانكماش ويولون وجههم شطر الغرب وحده ، ويديرون ظهرهم للشرق رافضين كل تعاون معه ، متنكرين للغته وتقاليده ٠ روح لبنانية حقيقية لا تفرق بين مسيحي ومحمدي ، وروح انتهازية ترتكز

على تعصب طائفي ذميم ، مستترة بالوصاية الاجنبية لتحقيق اهداف خاصـــة · وليـس هناك من غيرة على الدين ولا من يحزنون · فلا عجب والحالة هذه من الموقف الـــذي وقفه العهد الجديد من مطلب الدستوريين ، في حينكانت السلطة الفرنسيةفي ذلكالظرف عينه اكثر اعتدالا » ·

ثم يروي في الصفحة ٢٠٣ من المجلـــد الاول بعض تفاصيـــل المفاوضات مـــع الفرنسيين لتوقيعالمعاهدة الفرنسية اللبنانية (سنة ١٩٣٧) التي اشترك فيها كل منااميل اده كرئيس للجمهورية ، وبشارة الخوري كرئيس للوفد البرلماني :

« دامت المفاوضات شهرا كاملا تحملت فيه اكبر مشقة في المناقشة بين الوفدين · وكنت اخلص النصح للرئيس اميل اده لافتا نظره الى كل نقص في النصوص . وهو يتشبث بان تكون المعاهدة دائمة كأنه ملكي اكثر من الملك ، فرفضنا نظريته ، ورفضهـــا معنـــا المفوض السامي ، وحددنا اجلهـــا بخمس وعشرين سنة · واراد ان يتساهل في مدى استعمال اللغة العربية فيالدوائر فعارضته، وصار تبادل رسائل يضمن مقـــام لغتنـــا الوطنية ، مما اثار استياء الغـــلاة مـــن الفرنسيين واللبنانيين » ·

بين الاستقلال والانتداب

اذا كانت هذه المشاهد القصيرة المقتضبة تعطي صورة عن المعهد الـــذي كان فيـــه الانتداب في عز سطوته ، يعين النـــواب وروساء الجمهوريـــة ، ويغـــري ضعـــاف النفوس على توسل المناصب من سلطته ،فان الصور الاكثر بلاغة في التعبير عن اهتزاز صورة المجتمعالسياسي اللبناني ذي الخلفية التعددية الطائفية ، هي تلك الصور التـــي يقدم لنا بشارة الخوري بعضا منها عـــن الفترة التي تعايش فيها الانتـــداب مـــع الاستقلال (اذا صح التعبير) اي الفتـــرة الواقعة بين اواخر ١٩٤٣ (سنـــة اعـــلان الاستقلال الدستوري والسياسي) واواخـــر ١٩٤٦ (سنة الجلاء العسكري التام لقوات الانتداب الفرنسي) ·

فمع ان دولة الاستقلال كانت قد اخـــذت شكلها السياسي والدستوري ـ على الاقل ـ فأن هذا الشكل بقي مهتزا ابلغ الاهتـــزاز في كثير من القطاعات الطائفية اللبنانية . التي بقيت على امل انتصـــار السلطـــة الانتدابية على السلطة الاستقلالية الوليدة ·

في الصفحة ٨٦ من المجلد الثاني ، يروي الشيخ بشارة ما اثاره نجاح يوسف كـــرم في الانتخابات النيابية ، وهو حفيد يوســـف كرم ابن زغرتا واهدن الذي قاتل الاتراك في القرن التاسع عشر ، ونسجت حوله اساطير من العواطف الدينية ، كالقول بان السيـــدة العذراء كانت تظهر دائما فوق رأسه وهـــو يقاتل (جثمانه ما زال حتى اليوم محنطا في احدى كنائس اهدن ، كما ينتصب تمثاله في باحة الكنيسة نفسها) · يقـــول بشـــارة الخوري :

« وما ان عرفت نتيجة الانتخابات فـــي الشمال حتى اندفع خصوم العهد يبشـــرون بهذا الفوز ،صابغينه بصبغة سياسية زائفة، كأنه فوز للسياسة الاستعمـــارية علـــى السياسة اللبنانية ! واندفعت الابواق التي تتلبس بالمسيحية ، تبشر بالقيامة ، وتستعد لدخول كرم المجلس بتظاهرات شعبية ·ومما اذاعته الابواق المعلومة ان ابن كرم ، حفيد يوسف بك ، سيصل الى بيروت ممتطيـــا جوادا ادهم بلباس جده اللبناني·واستفادت بعض الدوائر التابعة للادارات الفرنسية ، والمؤلفة خصوصا من لبنانيين ، لبث الدعاية ودفع المال وتوزيع الاسلحة ، حتى تبـــدأ التظاهرة ساعة وصول يوسف كرم الـــى بيروت ، تنقلب الى شغـــب ، ومنهـــا الـــى ثورة دموية تجتاح العهد ، وتريح الـــدولة المنتدبة من هيكـــل الحكومة الجـــديدة ،

فينتعش الانتداب المحتضر · »

وفي نفس الصفحة يتابع الشيخ بشارة قصة يوسف كرم ، والجماهير الزاحفة لتأييده ، بين العلم البناني القديم (الذي ما كان سوى العلم الفرنسي تتوسطه ارزة خضراء) والعلم الجديد (العلم الحالي)

« ووزعت قوى المدرك والشرطة على جوانب البرلمان ـ وكان الجيش والامن العام لا يزالان بايدي الفرنسيين ـ وقد دخلت المدينة سيارات متعددة من جسر بيروت ، مع سيارة يوسف كرم ، متجهة نحو ساحة الشهداء حيث ترجل المتظاهرون ، وانضم اليهم أخرون حملوا العلم اللبناني القديم،اي العلم لفرنسي الذي تتوسطه ارزة ، وساروا الى البرلمان واخترقوا الحواجز حتى وصلوا الى ساحته · وحمل أخر العلم الفرنسي محاولا ان يرفعه على باب المجلس ، واراد الجمع ان يقتحم الباب الحديدي ويدخل قوة وقسترا ، فاطلقت قوى الامن النار في الفضاء ، واطلق نعيم مغبغب من المدخل بعض القنابل اليدوية ارهابا فجرح ،وتفرقت الجموع مع علمها القديم ، وقيل ان الفرقة السنغالية المرابطة لحراسة دار التلفون الفرنسية اشتركت باطلاق النار من الجهة القبلية على المجلس النيابي · واختلط الحابل بالنابل ،وقطعت اسلاك التلفون حتى انني لم اتمكن من مخابرة المندوب الفرنسي لاطلعه على تصرفات اتباعه ، وفي مقدمتهم مرافقه الخاص البوليس منصور الذي قاد التظاهرة بكل وقاحة · ولحسن الحظ سيطر الدرك اللبناني على الموقف بسرعة فائقة واعتقل بعض المتظاهرين ، ومنهم كاهن اشوري مسلح اطلق الرصاص يمينا وشمالا · »

وبعد ان دخل يوسف كرم المجلس ،وبعد بيان مقتضب لرئيس الوزراء رياض الصلح ندد فيه بـ « الخونة » وقد عقب عليه النائب يوسف كرم ، فادلى ببيان بعد الجلسة قال فيه :

«استغل بعض المشاغبين والخونة مناسبة حضوري الى مجلس النواب ، فحاولوا رفع العلم الفرنسي على باب المجلس ، اصطياداً في الماء العكر ، فجرت حوادث أسف لها كل الاسف ، وانا استنكر هذا العمل كل الاستنكار ، واؤيد بكل قواي وطني العزيز لبنان العربي المستقل » ·

العروبة وفلسطين

على هذه الخلفية الداخلية ، ووسط هذه العواطف السياسية الانعزالية ، يروي بشارة الخوري متاعبه في شق الطريق امام علاقات لبنان العربية ، والصيغة التي اجتهد في ان يصوغ تلك العلاقات بها حتى تمر وسط الالغام الانعزالية ، فقدم لنا في مذكراته الصور والمشاهد التالية :

« عاد وفدنا من الاسكندرية ، وعرضنا الحوادث الداخلية في مصر ، وحوادث البلدان العربية ، ومشاورات الوحدة ، وراجعنا محاضر الجلسات فاعترضت على فقرة واحدة متعلقة بالسياسة الخارجية المفروضة على دول الجامعة·واتفقت ورياض الصلح وسليم تقلا (شقيق فيليب تقلا) على وجوب تعديل النص المذكور بنص اخر لا يقبل لبسا في سياستنا العربية · ذلك انه ورد في احدى فقرات البروتوكول انه لا يجوز لدولة من الدول المتعاقدة ان تتبع سياسة خارجية تضر بسياسة الجامعة العربية او بمصالحها » · (حقائق لبنانية ـ المجلد الثاني ـ صفحة ١١٠) ·

وفي الوقت الذي اعتبرت فيه هذه الفقرة في ضرورة التضامن العربي في ميدان السياسة الدولية مجالا لاذكاء مخاوف الانعزاليين وشبه الانعزاليين على «استقلال» لبنان ، اذا بمفهوم اغرب يرد على لسان رياض الصلح في مجال تطمين اصحاب هذه المخاوف :

« فنحن ايها السادة اينما ذهبنا ، رواد استقلال وتعاون واتحـــاد ووفـــاق بـين المسيحيين والمسلمين ، ونحن نحمـي هـــذا الاستقلال التام الناجز ونفـــديه بدمـائنا وارواحنا ، ليس فقط ضد الغرب ، بل ضـد الشرق ايضا (تصفيق) » · (حقائق لبنانية ـ المجلد الثاني ـ صفحة ١١١) ، مـــع ملاحظة ان عبارة الشرق ، عندما تستعمل في مخاطبة الخائفين من استقـلال لبنـان ، لا تعني في القاموس السياسي اللبناني مـا تعنيه اليوم (الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي ، فهذا المعسكر لم يكن قائما على كل حال في ذلك الوقت المبكر) ولكنها تعني كيانا فضفاضا يضم العرب فيمن يضم، كما يعني تركيا والعالم الاسلامي بشكل عام ·

ويتضح من مذكرات الشيـــخ بشـــارة الخوري في المجلد الثاني (١٩٤٣ ـ ١٩٤١) ان همه الرئيسي في تلك الفترة الاستقلالية الاولى ، كان محاولة تثبيت الشخصيـــة اللبنانية المستقلة ، وصيـــاغة تفاصيلهـــا، وفقا لمفهوم الميثاق الوطني ، ولعل ابـــرز اجزاء المذكرات في شرحهذا المجهود وتحديد معالمه السياسية والفكرية ، هو ذلك الجزء الذي يصف فيه رحلاته الثلاث الىالمحافظات اللبنانية المختلفة في الشمـــال والبقـــاع والجنوب (المجلد الثاني ، ١٥٧ ـ ١٩٤)، محاولا ان يستجمع من الخلفية السياسية والاجتماعية والروحية للعناصر الطائفيـــة التي تكون المجتمع اللبناني ،مفاهيم مشتركة حول الاستقلال والعروبة وفلسطين الخ ···

فهو يقول في طرابلس :

«ولما سرنا على هذه السياسة الاستقلالية الجريئة ودفعنا عن انفسنا تهمة العـــزلة والانعزال ، وتلفتنا الى العرب الذين تجمعنا واياهم رابطة اللغة والعـــادات والاخـلاق الشرقية (ملاحظة : هذا المعنى تأكيد لمفهوم « لشرق » كما حاولنا تعريفه في المقطـــع السابق) والمصلحة والاماني ، لم يعد فـي لبنان سلبيون وايجابيـون ، لا مسلمـــون ولا نصارى ، بل صار الجميع شخصـــا واحدا ، لبنانيا ، استقلاليا ، قوميا ،عربيا، بكامله · واكبر شاهد على ذلك ما رأينـاه في هذه البلدة التي لم تكن تهتـف وتصفق لرئيس غير هذا الرئيس الذي ترى فيه رمزا لجمهورية لبنانية استقلاليةعربية ديمقراطية» (المجلد الثاني ـ صفحة ١٦١) ·

ثم يقول شارحا ـ في طرابلس ـ كيفية التوصل الى تحقيق الصيغة الاستقلالية :

« وتطرقت الى معجزة العهد وليســـت بالوحيدة من نوعها : « اذ اصبح الـرئيس المسيحي اكثر اسلامية من رئيس وزرائـــه السني واصبح رئيس الوزارة السني اكثـر مسيحية من الرئيس الماروني » · (المجلـد الثاني ـ صفحة ١٦٢) ·

وهذا مشهد أخر في الديمـــان ، المقـر الصيفي للبطريرك الماروني ،حيث قال بشارة الخوري مخاطبا البطريرك (في نفس الرحلة الشمالية) :

« ولذلك اطلب منه ان يمد بايامكم حتى تروا هذا الاستقلال ناجزا تجاه دول الغرب وجميع دول الغرب ، وناجزا ايضا تجـــاه دول الشرق وجميع دول الشرق » · (المجلد الثاني ـ صفحة ١٦٤) ·

وفي نفس الصفحة مشهد أخر في بشري: « واتيح لي ان القي خطابا في البلـــدة المارونية لاطمئن الخائفين على مصير لبنان، ومن جملة ما ذكرته وجوب الجلاء ، فقلت : « ان الجلاء يجب ان يتم وشيكا ، ومن جميع انحاء لبنان ، واذا طلبنا الجلاء فلان وجود جندي اجنبي واحد عندنا يناقض استقلالنا، فضلا عن كونه يهدد اخواننا في الدجلـــة والنيل » ·

وهذا مشهد أخر من الرحلة الشماليـــة نفسها ، في اهدن (مشتى الزغـرتاويين) حيث اراد بشارة الخوري طرح رأيه فـــي

القضية الفلسطينية ، ورصد ردود الفعل عليه :

« تكلم حميد فرنجية في مأدبة العشاء ، واجبته مرتجلا ، وقبل ان اختم خطابي مر في بالي شبح فلسطين ، وتخيلت البلد الماروني البحت الذي انا فيه ، وقلت في نفسي : هذه فرصة سانحة لاستفتي لبنان المسيحي في قضية فلسطين ، وسياستنا فيها ، وما هي لحظة حتى عرضت المسألة امام الحاضرين فقلت : « اذا رجعتم الى قلوبكم والى ضمائركم،امكنكم ان تشعروا بمدى الاهتمام الواجب بهذه القضية ، اذ ليس من العدل ان يؤتى من مشارق الارض ومغاربها باناس لا يربطهم بنا اي نسب ليكونوا اكثرية مصطنعة · فاليهودية شيء ، والصهيونية شيء آخر ، اليهودية دين تسلسلت عنه المسيحية واعترف به الاسلام ، فابناؤها من هذه الناحية لهم ما لنا وعليهم ما علينا من الحقوق والواجبات ، انما الصهيونية فكرة تحكم واستثمار وسيطرة سياسية لا علاقة لها بالدين قط ··· واني وانا في منطقة مسيحية صرفة ، بل ومارونية صرفة ، اعلن ان هذه الفكرة هي فكرتها ، وهي تؤيدها ··· » وما ان القيت هذه العبارة حتى شق التصفيق والهتاف عنان الجو، واطلقت السهام النارية في الجو استحسانا وحماسة ، ولم يكن لذلك ادنى استعداد او تهيئة · وهذا كان اول صوت رسمي لرئيس دولة عربية ارتفع للذود عن فلسطين ،وفرق بين اليهودية والصهيونية ، وهو صوت رئيس جمهورية لبنان ، في بلد ماروني مائة بالماية ، فاستقبله البلد الياسل بتلك العاطفة الفياضة » · (المجلد الثاني ـ صفحة ١٦٥) ·

مثل هذا الكلام الذي فيه شيء من العاطفة مع شيء من الفكر ، يقف عند منتصف الطريق فيقول عن الهجرة اليهودية الى فلسطين « يؤتى من مشارق الارض ومغاربها باناس ··· » ، فلا يشير الى العلاقة بين الاستعمار (بريطانيا في ذلك الوقت) وبين المشروع الصهيوني فخلق بذلك موقف تاييد عاطفي بدلا من موقف التأييد السياسي ، الامر الذي اثبت فشله بعد ذلك في مواجهة التحديات الحقيقية للقضية الفلسطينية ··· لذلك فاننا نجد ، بعد ثلث قرن ، رئيس جمهورية لبنان سليمان فرنجية يقول كلاما مشابها امام الامم المتحدة ، ولا يمنع ذلك ان يكون هذا الرئيس نفسه قد قاد قبل خطاب الامم المتحدة محاولة سحق المقاومة الفلسطينية بواسطة الجيش الرسمي ، ثم قاد بعد خطاب الامم المتحدة محاولة سحق المقاومة الفلسطينية بالمليشيات الانعزالية ·

واذا كان بشارة الخوري قد حاول لتبشير بقضية فلسطين في اهدن ، فانه يروي لنا مشهدا مختلفا ، وبلهجة مختلفة من رحلة صيدا فيقول باختصار شديد :

« وانتقلت الى الكلام عن فلسطين ، في بلد يعتبر جبهة اولية في خط الدفاع ضد الصهيونية » (المجلد الثاني ـ صفحة ١٧١)) ، ولا يرى حاجة لان يضيف الى هذا الكلام شيئا حول هذا الموضوع ·

نجد ان الشيخ بشارة الخوري يكاد يعترف في جزء آخر من مفكراته بان هناك شيئا ما غير الدعاية يجب عمله للقضية، وان قوى خارجية تتدخل لفرض مشروع انشاء دولة اسرائيل ، ولكنه يطرح الاسئلة وبسرعة ، ويجيب بسرعة اشد اجابة الذي يعرف الحقيقة ويتهيب من الاعتراف بها ، خوفا مما يترتب عليها من خطوات سياسية· وهذا مقطع بالغ الدلالة ، بالغ الصراحة ، في هذا المجال·يقول في التعليق على اجتماع انشاص (ايار ١٩٤٦) الذي كان اول مؤتمر ذروة عربي (على حد تعبير الشيخ بشارة) دعا اليه الملك فاروق «للمشاورة بشؤون تهم الجامعة العربية عامة وفلسطين خاصة » ، يقول :

« وليتنا ونحن نعد الوثيقة الشهيرة ،التي نشرت على العالم . فكرنا بتأليف جيش

عربي من متطوعي جميع البلـــدان العربية ليدافع عن فلسطين ويتدرب في مصر للوقت العصيب ، غير انه لم يخطر على بالنا ان المواثيق الدولية ستمزق ، ويطرح العرب في ارضهم عزلا ، يقتلون ويتشردون ولما تنسحب الجيوش البريطانية كلها مـــن فلسطـين ! (علامة التعجب في النص الاصلي) لم يعط احد منا علم الغيب · وهب انه تألف هـــذا الجيش ، فهل كان بامكانه ان يتسلح تسليحا عصريا او ان يقاتل فعليا دون ان يقفـــوا (ملاحظة : الفاعل هنا ايضا يظل مجهولا) بوجهه لتنفيذ وعد بلفور » ·

وعندما يصل الشيخ بشارة الى وضـــع اليد على المفتاح الحقيقي للازمة (التحالف الاستعماري ـ الصهيوني) سنرعان ما يغفل الموضوع : « يطول المجال بنا جدا فيما اذا استسلمنا لهذه التأملات كلها فـي حالـــة الدول العربية · لنعد الى ما بعد التوقيـــع على الوثيقة ، اردت ان اودع الملك فاروق في جناحه بانشاص ··· »· (المجلد الثاني ـ صفحة ٢٤٧) ·

اما الرياح التي كانت تهب على مخاوف الانعزاليين ، فتذكيها في ذلك الوقت، فيبدو انها كانت تتركز في مشروع سوريا الكبرى الذي كان ينادي به من شرق الاردن الملـــك عبدالله·ولكن من الواضح ان هذا المشروع، حتى كما يتحدث عنه الشيخ بشارة ، لم يكن تعبيرا عن خط النضال الوحدوي العربي، بل كان ـ على العكس تماما ـ من مشاريع المطامع والصراعات الاقليمية ، التـــي كانت تثير المخاوف في سورية قبل لبنان ، يقـول بشارة الخوري عن هذا المشروع :

« اصبح مشروع سوريا الكبرى مزمنا، وحكومة شرقي الاردن تثيره من وقت الـــى آخر وتحدث اثارته ردة فعل في سوريـــا ولبنان · ورأى بعضهم ان لبنان خارج عن هذا المشروع ، وتساءل لاي سبب يعتـرض عليه كلما اثير · ولكن الامر على خلاف ما يظن لان كل تغيير في الاوضاع القائمة في البلدان العربية من شأنه ان يضعف موقف لبنان ، ولان شرقي الاردن يرغب في حالـة تحقيق المشروعفي ان يعاد النظر في الحدود اللبنانية كمرحلة اولى ، واما المرحلـــــة الثانية ففي استجماع دول الهلال الخصيب، وكفى الدين لا يرون في هذا المشروع خطرا على لبنان ، ما ورد في تصـــريح وزيـــر خارجية شرقي الاردن في تشـــرين الثاني ١٩٤٦ من « أن لبنان في حالته الحاضرة قد ارغمت بعض المناطق والاقاليم منه علـــى الانضمام اليه ، وعلى قبـــول شكل حكـــم معين · » ··· واثيرت هذه التصريحـــات اول ما اثيرت في المجلس النيابي واول من اثارها النائب عبد الله اليافي ، وقد تكلم بصراحة ما بعدها صراحة اذ قال : « ··· فانا ، بصفتي نائبا لبنانيا ، ونائبا مسلما سنيا عن لبنان ،، ونائبا عن بيروت ،اعلن اننا في لبنان ، نصارى ومسلمين ، قـــد ارتضينا حالة لبنان الحاضرة بملء رضانا واختيارنا ، واننا لا نبغي عن هذا الوضع بديلا · وان تصريحي هذا يعبر عن رغبـــة اللبنانيين جميعهم ، اكانوا نصـــارى ام مسلمين · وهذه السياسة التي ارتضاهـا لبنان لنفسه قد تمشت عليها الحكومـــات اللبنانية جميعها ، بدون لبس او ابهـــام ، واختطت لنفسها ان تعلن عنهـــا في كـــل مناسبة . حتى اصبحت دستـــورها فـــي برامجها الحكومية · ولا ازال اذكر كلمـــة دولة رياض الصلح ، وقد قال فيها : « ان لبنان في وضعه الحاضر هو صنع ايدينا ، واننا سندافع عنه ضد الشرق والغرب » · (المجلد الثاني ـ صفحة ٢٧٦) ·

ولعل ادق تلخيص لتناقضات الخلفيـة الطائفية للمجتمع اللبناني ، كما صورهـــا ابو الميثاق الوطني الشيخ بشارة الخوري، هي التي جاءت على لسانه في خطبة بلديـة بشري ، في ٧ـ١٠ـ١٩٤٥ · (المجلد الثاني ـ صفحة ٢٩٣) :

« كان المسلمون في عهد الانتداب جـــد حذرين ، فلما تحققوا ان الرسالة استقلالية

بحتة ، أمنوا بالاستقلال وبلبنان وصاروا من اول عماله ٠

ولما بزغ العهد الجديد خـــاف بعـــض النصارى ان يكون العهد مجحفا بهم،وخافوا ان يزول الانتداب فيكونوا عرضة لامر ما من الداخل » ٠

★ ★ ★

لسنا هنا طبعا امام محاكمة تاريخيـــة للميثاق الوطني ، فهذهالمحاكمة لا تكـــون موضوعية وعادلة الا اذا شملت دراسة كـل الخلفيات التاريخية والاجتماعية والثقافيـة والاقتصادية التي تمت في اطارها وترعرعت التشكيلات الطائفية ـ السياسية للمجتمـع اللبناني ،بما في ذلك دراسة المرحلة الاخيرة في عمر الامبراطورية العثمانية والحـــركة المعاصرة للقومية العربيـة ، ومشكـــلات الاقليات الدينية في الوطن العربي ، والدور اللبناني فيالنهضة العربية القومية الحديثة فكرا وسياسة . وكيف نما هذا الدور . ثم كيف غاضت مياهه في مستنقع الطائفيـــة بعد ان كان قد انطلق بصحـــة وعافيـــة متجاوزا الفتنة الطائفية الكبرى فـي القرن التاسع عشر وما نتج عنها من صيغ سياسية واجتماعية في عهد المتصرفية ٠

دراسة كل هذا اذن ضرورية ، مع دراسة

الظروف الدولية التي كانت سائـــدة قبـل واثناء الحرب العالمية الثانية ، حتى تكون المحاكمة التاريخية لفلسفة الميثاق الوطنـي عادلة : هل كان الاستقلال اللبناني ممكنـا بطرق اخرى وسط هذه الفسيفساء الطائفية وما يحيط به من موازين قوى ؟

تلك مسألة تاريخية . ما يهمنا الان هـو المسألة السياسية الراهنة ، حيث ما زالت الصيغة الطائفية للميثاق الوطني مطروحة كحل لاعادة تجميع اجزاء الوطن اللبناني الذي وضحت معالم بعثرته بعد سنة ونصف من الاقتتال ٠

ان اثنين من ابطال الميثاق الوطني ،ومن الذين سجنوا دفاعا عن رايته (كميل شمعون وبيار الجميل) يقودان اليـــوم معـــركة فك الشراكة الوطنية بالدم والحـــديد والنار ، استمرارا لحربهما عليها منذ عام ١٩٥٨ ٠ والقائد الثالث لهذا التيـــار ـ سليمان فرنجية ـ ليس بعيدا عن اجـواء الميثـــاق الوطني ، فشقيقه حميد هو الـــذي قـــاد مفاوضات الجلاء عام ١٩٤٦ ، كل ذلك لان الانتماء للعروبة لم يعد تعبيرا عن اللغـــة الرسمية للدولة ، بل تجاوزه الى النضـال من اجل استعادة الامة العربية مكانتهـــا الحضارية وسط الصراعات الدولية ، ولان النضال منأجل فلسطين لم يعد يكتفي بخطبة فوق منبر الامم المتحدة او باغاثة مجموعة من اللاجئين باكياس من الطحين ، بل اصبح دخولا في صراعات ارادات تاريخية فـوق ارض المنطقة ، تفترض اتخـــاذ مواقـف والدخول في تحديات وتغييرا عميقا في نمط التربية والحياة ٠

ان خط تطور ونمو هذه الزعامـــات « الميثاقية » في الشارع الماروني بالـــذات، يعتبر من العناصر السلبية اذا وضعنـــا امامنا الان ليس فقط امكانية بناء لبنان ـ الوطن،بل حتى امكانية اعادة تركيب لبنان ـ الكيان الطائفي المتوازن ٠٠٠ غير ان هـذا العنصر السلبي تقابله عناصر ايجابيـــة اخرى منها ان الشارع المسيحي لم يعـــد حكرا على هذا النوع من الزعامات ،فهناك فئات عريضة كسرت طوقها الطائفي ودخلت في اطار الانتماء السياسي المباشر الـــى الوطن ، وانحسار موجة العنف الحاليـــة سيكشف عن هذه الفئة بحجم اكبر بكثيـــر مما يتصوره البعض ٠

اما العنصر الايجابي الاخـــر فهو ان الزعامات الطائفية في الشارع الاسلامي ـ لوطني قد دخلت في مرحلـــة التلاشـــي

التاريخية ، فكلما علت امواج المد التحرري العربي والوطني ، كلما اصبح صوت هذه الزعامات اخف ، وجماهيريتها اضعف·حتى ان هذه الزعامات تستعين على الجماهير الوطنية ـ في ساعات الضيق ـ بالزعامات الطائفية في الخندق الاخر ·

من هذا العرض السريع نخرج بحقيقتين:

١ ـ ان مجرد مرور الزمن على صيغة « الوطن المؤقت » لا تكفي لتحويله الى وطن دائم ، فالكيان الطائفي المتوازن ليس مرحلة على طريق الوطن بل هو تأجيل للدخول في مرحلة الوطن ،يجب وضعه جانبا وبصورة نهائية ، اذا اردنا الانتقال الى مرحلة الوطن ·

٢ ـ ان ميزان القوى داخل التركيبة الاجتماعية اللبنانية لم يعد يهيمن عليه الطابع الطائفي ، كما كان الحال عندما ابتدعت صيغة الميثاق الوطني لدى مواجهة مسألة الاستقلال عام ١٩٤٣ ·

وعلى هاتين الحقيقتين يجب ان تبنى اية حلول سياسية للازمة الحالية ، فاذا كانت صيغة « الوطن المؤقت الموحد » قد عاشت ثلث قرن ، فان صيغة «الوطن المؤقت المجزأ» المطروحة حاليا لن تستطيع العيش عقدا واحدا من السنين ·

هذا هو الدور الأميركي في لبنان

هذا النص ، هو ترجمة حرفية ، لفصل من كتاب الدبلوماسي الاميركي روبرت مورفي : دبلوماسي بين المحاربين ، يشرح وجهة النظر الاميركية للحرب الاهلية في لبنان ١٩٥٨ ، من خلال الغزو العسكري الاميركي ، ثورة العراق، والعلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة .

تنشر شؤون فلسطينية ، هذا الفصل في ظروف شبه مشابهة . حيث الحرب الاهلية تشتعل في لبنان ، منذ سنة ونصف ، وحيث يبرز الدور الاميركي من خلال براون مبعوث الرئيس فورد .

تنشر هذا الفصل ، بهدف المقارنة واستخلاص العبر ، رغم اننا نقرأ النص بحذر وتحفظ ونبدي عليه ملاحظات كثيرة منها :

١ ــ يتكلم السفير مورفي ويكتب بلهجة الاستعلاء التي تميز جميع المستعمرين عبر العصور . وكلامه المنمق عن الشرق الساحر، يخفي وحشية الامبرياليين ، واحتقارهم للشعوب.

٢ ــ ان الدور الاميركي ، والقدرة الاميركية قد بدأت تنهار . ليس في بلادنا فقط ، بل في العالم باسره . وهذا ما يفسر ، لعبة اظهار العضلات عام ١٩٥٨ ، والمرونة المناورة والتي يظهرها الاميركيون اليوم . وهذا لا يعني تغيرا في طبيعة الامبريالية العدوانية ، بل تغيرا في شروطها الموضوعية.

٣ ــ ان بروز محور المقاومة ــ الحركة الوطنية ، كمحور شعبي مقاتل ، يضفي على الحرب الاهلية الان ، شرطا جديدا ، لم يكن موجودا عام ١٩٥٨ .

* * *

وبين النقاط الخطرة ، كان قلق وزارة خارجيتنا مركزا على الجمهورية اللبنانية . ففي هذا البلد الصغير ــ مليون ونصف مليون نسمة ــ كان التوازن غير الثابت بين المسيحيين والمسلمين مختلا نتيجة وجود ٣٠٠ الف لاجيء فلسطيني ، حيث كان هؤلاء المنفيون اليائسون يحملون الولايات المتحدة مسؤولية بؤسهم ، ويتهمونها بمساندة اسرائيل . وقد علمنا ان بعض القوميين العرب العملاء لعبد الناصر يحرضون جماهير المسلمين ويوزعون السلاح خفية .

بدا قلق واشنطن على الوضع في لبنان ، حين رأت الناصرية تمتد الى احد اكثر بلدان الشرق الاوسط تطلعا الى الغرب . ووصل قلق

الكونغرس الى حد لم يعد يبخل فيه بتقديم الاعانات التي طلبتها وزارة الخارجية لمساعدة الحكومة الشرعية في لبنان .لقد تدهورت الحالة في لبنان اوائل حزيران ، الى حد انها وصلت عمليا الى حالة الحرب الاهلية . كانت الاذاعة والتلفزيون المصرية تساند المتمردين . شارل مالك ، سفير لبنان في الولايات المتحدة ، كان يطالب بمساندة مالية ضخمة . اما الرئيس كميل شمعون ، فكان يلح على السفارة الاميركية في بيروت ، في الحصول على امدادات حربية ــ كان يطالب بالبيات ، ووصل به الامر الى طلب انزالها بالمظلات ويقال انه بعث حفيده وجواهر زوجته الى الخارج . رئيس وزرائه سامي الصلح ابلغ سفيرنا انه يرحب بانزال الجيش الاميركي في لبنان .

وعد الرئيس ايزنهاور ووزير الخارجية دالس، بان الولايات المتحدة لن تتخلى عن لبنان ، واصبح تطور الحالة هناك الشغل الشاغل لوزارة الخارجية.

وفجاة حصل الانفجار ، ليس في لبنان كما كان متوقعا . بل في بلد اخر في الشرق الاوسط، العراق ، حيث قتل الملك فيصل ، وابيدت عائلته بشكل بغيض في ١٤ تموز ١٩٥٨ من قبل مجموعة ضباط اعلنت حكومة ثورية ، واعلنت ان العراق هو « جزء من الامة العربية » .

طلب الرئيس شمعون التدخل الاميركي الفوري خوفا من المخاطر الجمة التي تهدد استقلال بلده، وتلقت الوحدات البحرية في اوروبا الموجودة تحت تصرف القيادة الاميركية امر الاستجابة لهذا الطلب .

كنت على علم بهذه الاحداث المفجعة ، لكنني مهتم بقضية مختلفة تماما في واشنطن : اذ ادى رفض وزارة الخارجية اعطاء جوازات سفر لبعض المواطنين الاميركيين الى استئناف امام المحاكم الفيدرالية . وكان اهتمام الوزارة كبيرا، في سبيل تشريع استثنائي في هذا المجال . كنت اعد ملفا كي اقدمه في جلسة عامة للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ . جرت هذه الجلسة في ١٨ تموز ، في القاعة القديمة لمجلس القضاء الاعلى في الكابيتول . قاعة فسيحة تتسع للعديد من الصحفيين والفضوليين . لم اكد انتهي من القاء خطاب الافتتاح ، حتى اخبرت ان وزير الخارجية يتصل بي هاتفيا . اعلمني ان الرئيس ايزنهاور قرر ارسالي حالا الى لبنان . وطلب مني الاعتذار من الهيئة والمجيء الى وزارة الخارجية للتشاور قبل سفري . كان دالس ينتظرني في مكتبه حيث ابلغني انني عينت مستشارا للاميرال هولووي القائد العام للقوات الاميركية التي تنزل في هذا الوقت بالذات في لبنان. كان هذا التحرك العسكري الاتي استجابة لرغبة رئيس الدولة اللبنانية ، مبررا بسياسة الولايات المتحدة التقليدية : حماية مواطنيها المقيمين في الخارج و ... حماية مصالحنا . فالى جانب موظفي سفارتنا والموظفين الاخرين ، يعيش عدد كبير من الاميركيين في لبنان ، اكثريتهم من الاساتذة والمبشرين ورجال الاعمال . كما تجذب شواطىء بيروت الاميركيين المقيمين في الشرق الاوسط عددا كبيرا من السياح . قال لي دالس ان دوري يكمن اساسا ، في تنسيق تحركات قيادتنا العسكرية مع سفارتنا وباقي السلطات المدنية الاميركية.

بعد هذا الحديث السريع ، توجهت مع دالس الى البيت الابيض ، حيث عرض علينا الرئيس تفصيليا دوافع انزال رماة البحرية الاميركية في لبنان . كثيرا ما يقال في الشرق الاوسط وخاصة في مصر ان الاميركيين يتكلمون ولا يفعلون شيئا خوفا من ردات الفعل السوفياتية . اعتقد ايزنهاور انه ستلحق بنا خسارة معنوية لا تعوض اذا بقينا مكتوفي الايدي . كما اراد ان يبرهن على ان الولايات المتحدة مستعدة لمساعدة اصدقائها في كل وقت وكل ساعة . « علينا ان نقوم بعمل بناء ومطابق لشريعة الامم المتحدة . تحركنا شرعي . فلبنان هو البلد العربي الوحيد الذي وافق على مبدأ ايزنهاور ، فيحق له على الصعيد الدولي ان يستدعينا علنا » .

اعطاني الرئيس معلومات شفهية غامضة بطبيعة الحال . بالنتيجة ، اوصاني بمصالح الولايات المتحدة بعد انزال قواتنا .

اجبرتني هذه المهمة الجديدة كممثل شخصي

للرئيس ، على استخدام اسلوب مختلف عـــن الاساليب التي استخدمتها في قضية السويس . في الحالتين ، اوفدت فجاة لمراقبة تطور ازمـة في الشرق الاوسط ، وفي الحالتين ذهبـــت دون تعليمات واضحة .

في مسالة السويس ، كرست اربعة اشهر ما بين لندن وواشنطن ، في مفاوضات صعبة وفـي مشاريع تسوية مدروسة . لكن في لبنان ، اكتشفت بسرعة اني سأضطر الى التنقل بين عواصـــم غربية ، والى طرح اسئلة صريحة تتطلب اجوبة واضحة ، ومن ثم اتخاذ قرارات مباشرة وتنفيذها فورا .

اتصلت بزوجتي هاتفيا ، قبل التوجه الـى البيت الابيض مع دالس ورجوتها وضـع بعض الملابس الصيفية في حقيبتي . تسلمتها منها بعد ثلاث ساعات في مطار واشنطن ، حيث نقلتنـي طائرة حربية الى مساشوستس . وفي قاعـــدة وستوفر الجوية كانت تنتظرني طائرة ك س ١٢٥ الطراز الجديد لطائرة بويـــنغ ٧٠٧ ، مزودة بخزانات اضافية تمنحها قدرة استثنائية علـــى العمل . قمنا بالرحلة على ارتفاع ١٢٠٠٠ متر . وعندما حطت الطائرة على مدرج مطار بيروت ، كنا قد قطعنا ٨٨٠٠ كم في مدة احدى عشرة ساعة وقت قياسي.

في المطار استقبلني السفير روبرت ماكلينتوك، الاميرال هولووي ووزيران لبنانيان يبدو عليهما الانهاك . وافاني ماكلينتوك ــ الذي كـــان مساعدي لسنوات طويلة عندما كنت سفيرا لى بروكسل ــ بالمعلومات الاولية . اعطت عملياتنا العسكرية نتائج اكثر من المنتظر ، رغم انهـــا قدرت ونفذت على عجل . ففي الساعـــات الاربع والعشرين التي تلت نـــداء استغاثة الرئيس شمعون ، تم انزال ٣٦٠٠ رجل من رماة البحرية التابعين للاسطول السادس على شاطيء قريب من بيروت وحققوا فورا حماية المطار وبعض المرافق في المدينة . بعد ذلك اتت طائرات شحن من طراز ث ١١٩ بوحدات من كتيبة المارينز الحادية عشرة النازلة في كهف لوجون في كارولين الشمالية . وكانت طائرات كلوب ماستر ث ١٢٤ تترك قاعدة دونالدسون بسرعـــة في كارولين الجنوبية لنقل مظلي الكتيبة الرابعة والعشرين الى اوكسبورغ في المانيا الغربية . كما اقلعت طائرات معترضة نفاثة وقاذفات من قاعدةمنغلي في فرجينيا .

عندما وصلت الى بيروت ، كان حوالي سبعة الاف رجل من رماة البحرية ، يطوفـون المدينة وضواحيها بالاليات . وكانت هناك ناقلات مصفحة برمائية وقاذفات ذرية . « الا ان جميع القنابل الذرية بقيت على متن السفن الحربية » .

ــ لم ينتج عن عملية الانزال اي هادثمؤسف او أية اضرار تحت قيادةالاميرال هولووي الحكيمة ــ في ١٨ تموز كان حول ميناء بيروت من ٧٠ الى ٧٥ سفينة حربية اميركية تابعـــة للاسطول السادس ، وتشكل مشهدا جميلا لزبائن مطعـم كروت اوبيجون . وكانت مواكب المارينز تمر امام فندق سان جورج الفخم ومسبحه الخاص حيـث النساء يتشمسن على متن اليخوت . اما في سماء المدينة ، فكانت تسمع زمجرة الطائرات المنطلقة من حاملتي الطائرات سرانوغا واسكس . في ٢٥ تموز وصل عدد قوات الانزال الى ١٠٦٠٠ رجل على الاقل . منهم اربعة الاف من المشاة و٦٦٠٠ رجل من رماة البحرية . اي اكثر من مجمـوع الجيش اللبناني .

بما ان قواتنا ، اتت الى لبنان بناء علىدعوة شمعون ، فقد كان همي الاول تقديم احترامـي للرئيس في مكان اقامته الرسمي . قابلت رجـلا تعبا والهموم تبدو عليه يقيم في سجن ارادي ، ولم يقترب من النافذة منذ ٦٧ يوما . وكان هذا تصرفا صائبا . لان امكانيات اغتياله كانت كبيرة . في لبنان لا يحق لرئيس الجمهورية ، ان يمارس الا ولاية واحدة . فعندما عرض شمعون تعديـــل الدستور ليتمكن من ترشيح نفسه لولايـــة ثانية، ساهم في اشعال الحرب الاهلية .

منذ اقامتي في برلين عام ١٩٤٥ ، لم اعـرف مكانا متفجرا مثل بيروت في ذلك الصيف ،رمايات قنابل ، حرائق ، كل يوم وخاصة في الليـــل ، ومقابل القصر الجمهوري تقريبا ، كانت البسطة.

متاهة من الشوارع والمباني ، ويسمونها في بعض الاحيان القصبة . طلب السفير البريطاني حماية من رماة البحرية ، امنت له ، ومنذ الليلة الاولى اصيب مبنى السفارة برصاص قادم من البسطة، والذي مر قريبا جدا من بعض جنودنا . اخبرني الرئيس شمعون انه امر اللواء شهاب قائدالجيش بتمشيط البسطة . لكن اللواء يرفض . نصحت شمعون بعزل شهاب واستبداله بضابط قادر على احياء الامن وسلطة الحكومة .. لكن الامور لم تكن بهذه البساطة.

اللواء شهاب رجل شديد الذكاء ، ينتمي الى عائلة مارونية كبيرة ، متخرج من سان سير ومن المدرسة الحربية الفرنسية العليا . يامر حوالي ٧ الاف جندي الى جانب ٢٠٠٠ دركي تتالف قواته من عدد شبه متساو من المسيحيين والمسلمين ، ويبدو ان هم اللواء الاساسي ،كان الحفاظ على وحدة جيشه . لذلك كان يخشى من ان اي هجوم على المتمردين ، سوف يؤثر على الخلافات الدينية بين العسكريين ، ويحمل العسكريين المتعاطفين مع المتمردين ، على العصيان ، وفي هذه الحالة ينفجر الجيش ويختفي.

لم تتدخل الحكومة الاميركية ، الا بعد ان اوضحت للرئيس شمعون ان لا مجال لمساعدة اللبنانيين ، الا اذا كانوا مستعدين للدفاع عن بلدهم . وها هو رئيس الدولة نفسه ، لا يملك اية سلطة على جيشه . وبالتالي لا يملك اية امكانية للدفاع عن نظامه . كان اللواء شهابيهدد بالاستقالة ، بينما يكتفي الرئيس باعطائه مقترحات يتناساها اللواء . لكنه يعطي توصيات خاصة للذين تحت امرته .

تحادثت مع اللواء ومع هيئة اركانه . بدا لي انسانا مخلصا . عندما تدارسنا المشكلة مع الاميرال هولووي ، اتفقنا ان هذا الجيش رغم هزاله ، هو العامل الوحيد القادر على صيانة شيء من السلطة للحكومة اللبنانية ، التي لم تعد تسيطر الا على جزء صغير من الاراضي اللبنانية حوالي الثلث فقط ، وكان وسط العاصمة في ايدي المتمردين . كنت امل في اقناع اللواء شهاب بالقيام بتحرك جدي لاعادة الامن الى بيروت .لكنه لم يقم الا بتدابير خجولة لمحاصرة تحركات المتمردين داخل الاحياء بشكل تدريجي . كان شهاب راغبا في التعامل مع القوات الاميركية . وقدرت مع هولووي ان تأييده ولو المؤقت يكفينا للوصول الى اغراضنا المباشرة .

اخبرني هولووي عن الحادث الذي جرى في اليوم الاول لانزال القوات الاميركية ، كي يبين لي استعدادات شهاب الطيبة . فتاريخ لبنان البائس والذي يرجع الاف السنين الى الوراء ، تعرض لغزوات عديدة ابتداء من الاشوريين والفرس والرومان ، حتى المماليك والاتراك المعاصرين . وقد اتلف الاتراك آخر المحتلين «!» غابات الارز وابادوها . وقد نظر بعض اللبنانيين الى القوات الاميركية بوصفها جيش احتلال .كما قررت مجموعة من ضباط هيئة الاركان مقاومة تدخلنا . فبعد نزول رماة البحرية في مطار بيروت، اتجهوا الى المدينة على الطريق الوحيد المؤدي اليها ، دون ان يعيروا الانتباه الى كون ١٢ آلية اعدت مع اوامر باطلاق النار على رجالنا . وما ان علم ماكلينتوك بالامر ، وفي آخر لحظة ، حتى اتصل باللواء شهاب واقنعه بالاتجاه حالا نحو هذه الوحدة برفقته وبرفقة هولووي في سيارة السفارة التي ترفع العلمين اللبناني والاميركي . وصل شهاب الى ذلك المكان واعطى الاوامر بعدم اطلاق النار . وبذلك تجنبنا اشتباكات مأساوية .

لم تكن الاضطرابات محصورة بالقضايا السياسية الكبرى ، والانقسامات بين المسيحيين والمسلمين ، بل كانت هناك خلافات عديدة بين الجماعات السياسية والطوائف الدينية. فاستنادا الى التقاليد اللبنانية ، كان على رئيس الجمهورية ان يكون مسيحيا ، ورئيس الوزراء مسلما . كان هذا التوفيق يعمل على ما يرام وبرضى شمعون والصلح . فكلاهما طلب المساعدة الاميركية لقمع التمرد ، وكلاهما يناوئ مع ماكلينتوك وهولووي . لكن رئيس الوزراء كان هدفا لابناء طائفته الذين احرقوا منزله فدمر بكل ما فيه .

بعد فترة قصيرة من وصولي الى بيروت ، دعاني رئيس الوزراء مع السفير وبعض الشخصيات الاميركية لتناول الغداء في مقره

الرسمي الذي هو عبارة عن بناء جميل مـــن الطراز العربي . وكان رئيس الوزراء يذهبعادة الىمقرهبسيارة تتقدمها دراجات الحرس النارية . غير انه عندما خرج في ذلك الصباح كعادته ، لاحظ وجود سيارة منوقفة الى جانب الطريـق، كانت تحتوي على ٥٠ كيلو من المتفجرات، ومحكمة بخيط يمتد على عرض الشارع .غير ان سيارة قادمة من وجهة السير المضادة ، مرت علـى الخيط ، ثواني قليلة قبل سيارة رئيس الوزراء ، فانسحقت بركابها الخمسة ، كما قتل الحرس . سلم سامي الصلح ، واصر على ان يجـري الغداء في موعده ، وشارك في الحوار متصفـا بهدوء عظيم .

كان لبنان في اوائل حزيران ، اي قبل شهـر تقريبا من انزال القوات الاميركية ، قد احتج على تدخل مصر وسوريا في شؤونه الداخلية .وقـد سمع مجلس الامن لامينه العام داغ همرشولـد بارسال مراقبين الى بيروت للتحقق من دخـول رجال واسلحة الى لبنان بشكل غير شرعي . كان غالو بلازا ، رئيس الاكوادور السابق يدير هذهالبعثة بمعاونة الهندي راجسغار دايـــال ، والماجور جنرال الفاروجي او دبول وموظفاميركي من الامم المتحدة دافيد أ. بليكنستاف . وقد اعلنت البعثة ، انها غير قادرة على تاكيد الاتهـــام اللبناني ، كما كانت تميل الى التقليل من اهمية النشاطات السرية التي تقوم بها مصر وسوريا . غير أنهم اخبروني ، انهم لم يتمكنوا من العمـل على المرتفعات الحدودية الا خلال النهار . فتبقى شبكة الطرق دون مراقبة ليلا . لقد استطاع رماة البحرية الاميركيون اقامة جهاز مراقبة على الخط الهاتفي الذي يصل العاصمة السورية بالبسطة في بيروت . فتبين لنـــا بشكل واضـــح ، ان متمردي البسطة مدعومون ومسيرون مـــن الخارج . اثار انزال قواتنا الدهشة والقلق لدى مراقبي الامم المتحدة . اذ ربما عارض التدخـل الاميركي مجهودهم الخـــاص لانهاء الحـــرب الاهلية (؟) استمر تهريب الاسلحة طيلة فتـرة الاضطرابات . وعلمت ان جميع العائـــلات اللبنانية تقتني السلاح بحكم العادة . يعود ذلك دون شك الى عصور الاحتلال الخارجـــي . فاللبناني لا يشعر بالارتياح الا اذا كان يملـــك سلاحا والافضلية للاسلحة النارية (المســـدس او البندقية) . اكثرية الرجال يرغبون في اطلاق النار ، وهم ماهرون فيه . ويواكب رصـــاص الابتهاج جميع الاحتفالات العائلية . وقد كنت يوما ضيفا في حي بيروتي ، ولاحظت وجود اسلحـــة رشاشة في الزوايا الاربع لحديقة مضيفي .

قرر هنري ن. تايلور مراسل صحف سكويس هاورد ، ان يقوم بدراسة لسوق الاسلحة فـــي بيروت . كنت اعرف هذا الصحفي الشاب مـن واشنطن واقدره. اخبرني عن نتائج ابحاثه. اخذ سيارة اجرة ، وسأل السائق بكل بساطة ايـن يمكنه ان يشتري بندقية رشاشة . اخذه السائق الى حانوت صغير في قلب المدينة . عرض علينا هناك بائع بشوشجميع انواع البنادق الرشاشة، هل يريد هنري نوعا فرنسيا ، انكليزيا ، المانيا ، تشيكيا ، روسيا ، في امكانه الحصول كذلـك على نوع اميركي . طلب هنري سلاحا مصريـا ، فاخرج البائع رشيشا مصريا مستعملا من داخـل كيس من الخيش ، سأل هنري كيف يمكن التاكد من صلاحية السلاح : تجربه ــ اجاب بائـــع الموت المفاجيء ــ وقاد هنري الى سطح مجهز باكياس رمل حيث افرغت مخازن عدة . عندئـذ اخذ متمردو البسطة المجاورة يطلقون النـــار بدون اهداف ، وقد خدعتهم طلقاتنا . بعـــد المساومة دفع هنري ٣٥ دولارا ثمن الرشـاش المصري ، وعاد به الى الفندق بسيارة اجـرة ليبرهن لزملائه سهولة الحصول على اسلحـــة في بيروت . بعد عامين لاقىهنري ن. تايلور الابن الوحيد لسفير اميركا في سويسرا ، حتفه وهـو يقوم بتغطية اعلامية للقتال في كانتغا .

في بيروت ، لم يكن التدخل الاميركي مرغوبا من الجميع ، فاذا لاقاه الرئيس شمعون بالترحاب ، فقد كان المتطرفون المسلمون معادين له بقوة . يشعر المرء في لبنان ، انه قريب جدا من الاصول المسيحية ، اما انا ، فرغم كوني كاثوليكيا ، فقد كنت لا اعرف شيئا عن المذاهب الكاثوليكيـــة العديدة الموجودةفيهذا البلد،حيثحافظت الكثيرمن الشيع المسيحية على علاقات غير مستقرة غالبا مع الاسلام خلال العصور. اما التدخل العسكري الاميركي ، فكان يحظى على الغالب بتاييـــد المسيحيين ، علما بان بعضهم رفض اعلان ذلك

خوفا من تاثير المسلمين .

قمت بزيارة بولس المعوشي ، بطريرك انطاكيا الماروني ، في الصرح البطريركي المهيب ، حيث يوجد مقره وكنيسته . كان ذلك صبيحة احد ايام الاحاد . حضرت القداس الذي اقامه البطريرك حسب الطقس السرياني ، ثم استعرض الحالة العامة في البلد خلال تناولنا طعام الغداء ، وبرهن عن معرفة مدهشة في المسائل السياسية . عاش البطريرك اربعة عشر عاما من شبابه في الولايات المتحدة مع الجالية اللبنانية التي كانت ترسل مبالغ كبيرة من المال الى عائلاتها التي بقيت في الوطن ، والبطريرك معروف جيدا في الولايات المتحدة ، وتاثيره كبير في لبنان .

قدمت ايضا احتراماتي لمطران الروم الارثوذكس صليبي الذي اخبرني ان له ٤٠٠ نسيب في الولايات المتحدة ، كذلك لمطران الروم الكاثوليك نبعة ، وكلاهما حكيم يؤخذ بدأته . لقد اطمأن بعض المسيحيين في لبنان الى وصول القوات الاميركية ، واعتقدوا انها ستقضي على الحرب الاهلية الطائفية التي تهدد سلامة الجمهورية . غير أن بعضهم الاخر ، قدر انه كان على رماة البحرية الاميركيين ، السيطرة على المتمردين بسرعة اكبر في مناطق تواجدهم على الاقل . بالطبع ، لقد اراد بعض السياسيين استغلال وجود القوات الاميركية في سبيل مصالحهم الخاصة . وكثيرون كانوا يتهمون الرئيس شمعون بالقيام بذلك .

ثابرت على زيارة الرئيس شمعون مرة او مرتين في اليوم الواحد برفقة السفير الاميركي . كما اجريت محادثات يومية مع هولووي ، الذي كان التعامل معه لذيذا . لم تتعثر العلاقات بين الدبلوماسيين والعسكريين الاميركيين يوما . وقد ساهم هذا الى حد كبير في نجاح مهمتنا اللبنانية.

اظهرت لنا دراسة متانية قمنا بها على ارض المعركة ، ان الصراع يعود بنسبة كبيرة الى التنافس الشخصي وليست له اية علاقة بالخلافات الدولية . وأذا كان للشيوعيين امل بالاستفادة من اعمال الشغب ، فان دورهم المباشر في التمرد لم يكن له اهمية تذكر . لكن الواقع ليس كذلك بالنسبة للعملاء المصريين والسوريين . بعد محادثاتي مع شمعون ، ماكلينتوك ، هولووي وغيرهم من الشخصيات ، قدرت ان على المجلس النيابي انتخاب رئيس جديد للبلاد وفقا للدستور . واصررت على شمعون ورئيس المجلس ان يتخذا التدابير اللازمة في اسرع وقت ممكن . كنت آمل ، ان يهدىء هذا الحل النفوس ، ويسمح بانسحاب القوات الاميركية ، مع بقاء ممثلي الامم المتحدة بوصفهم مراقبين . وقد وافقت وزارة الخارجية الاميركية على هذا المخطط .

بدأت محادثاتي مع قادة المتمردين الاكثر نفوذا برفقة ماكلينتوك . كنت اريد ان اعرض عليهم موقف السياسة الاميركية واتاكد من تعاونهم . اخبرت شمعون بنيتي قبل الاتصال بهم . وكان واضحا ان مقابلتي مع اخصامه لا تعجبه ، لكنه لم يبد أي اعتراض . وقد ازالت هذه الاتصالات القدر الاكبر من سوء التفاهم حول النوايا الاميركية . وساهمت في آخر المطاف في تسوية الحرب الاهلية سلميا .

أردت في بادىء الامر مقابلة صائب سلام ، رئيس الوزراء السابق ، الذي يقود مجموعة من المسلمين الذين يسيطرون على البسطة ، وكان يقال انه بالغ السخط على التدخل الاميركي. وقد اقسم انه لن تجري انتخابات رئاسية قبل رحيل قواتنا . حاولت الحصول على حراسة من اللواء شهاب . لكن لم يكن من الممكن اقناعه بهذا ، طالما الامر يتعلق بالبسطة . لذلك سررت جدا حين التقيت في بيروت ، بصديقي القديم الكولونيل وليم ا. ادي الذي كان يشغل منصب مستشار فني لدى شركة النفط العربية الاميركية. كان ادي ملحقنا البحري الجدية في طنجة عام ١٩٤٢ حين كنت اهيىء للانزال الاميركي في افريقيا الشمالية . بادر هذا الضابط المتقاعد في البحرية واستاذ اللغة الانكليزية السابق في وارتموث ، والذي يتحدر من عائلة مبشرين ومستعربين ، الى تنظيم لقاء سري خارج بيروت مع اثنين من رجال صائب سلام . كان هذان الرجلان ، يعتقدان ان القوات الاميركية لم تات الى لبنان ، الا في سبيل ابقاء شمعون رئيسا .

واخذا يتلوان فيه لائحة من التهم . واعلنا انهما يفضلان عبد الناصر على شمعون ، كما اكدا ان مصر لا مطامح لها في لبنان ، كما نفيا المساعدة السورية ، غير ان نفيهما لم يكن مقنعا . وبعد ساعات من النقاش ، بدا ان مبعوثي سلام فهما ان الولايات المتحدة لا تسعى الا الى حماية استقلال لبنان . وخلصا الى القول ، انهما لا يحملان تجاهنا اي شعور غير ودي ، عندها اغتنمت الفرصة للحديث حول امن القوات الاميركية . واوضحت لهما ان الواجب الاول للقائد العسكري هو حماية رجاله . وبينت لهما ، ان النيران تطلق ليليا عن قصد او دون قصد على رماة البحرية ، وانه لاعجوبة ان لا يقتل احد منا . اضفت ، انه طالما لم نتكبد اية خسائر خلال عملية الانزال ، مفسرا هذا بالنية الحسنة عند جميع الاطراف ، التي اقدرها . وافق المتمردان المسلمان دون ان تتغير ملامحهما البريئة . عندها تابعت كلامي ، فوصفت العتاد الذي كان في حوزة الاميرال هولووي ، وقوته التي تكفي لتدمير بيروت تدميرا كاملا خلال بضع دقائق . ثم كررت عليهما بأن واجب الاميرال هولووي وهو الرجل الحسن النية هو الحفاظ اولا على امن قواته . الا يمكن لصائب سلام او لمؤيديه ان يكفوا عن اطلاق النار العشوائي الذي يمكنه ان يؤدي في اية لحظة الى رد قوي ؟ كان لكلامي اثر واضح . توقف التراشق في اليوم التالي ، ما عدا بعض الرشاشات الخاطفة ، واصبحت الحياة في بيروت اكثر هدوءا . كنت دائم الامتنان لبيل ادي ، الذي سهل هذا اللقاء، الذي يشكل منعطفا في السياسة اللبنانية ، بعد بضعة ايام تمكنت من لقاء صائب سلام في البسطة .

اما الاتصالات التي اجريتها فيما بعد مع قائد اخر من قادة التمرد ، القائد الدرزي كمال جنبلاط ، فقد ارغمتني على سفر غريب في جبال الشوف حتى قلعته في سبلين . وقد اعد اهد النواب ، وهو نائب رئيس الحزب التقدمي ، هذا اللقاء . لم يكن تسلق هذه الطرق الضيقة الوعرة سهلا ، لكن رؤية مسلمين ملتحين مخفرين على طول الطريق زادني قلقا . وعلى الرغم من ذلك فقد كان الاستقبال وديا . كان جنبلاط صديقا حميما للرئيس شمعون ، قبل ان يهزم جنبلاط في الانتخابات النيابية الاخيرة ، واتهم شمعون انه كان سببا في ذلك ، كما ادعى ان المال الاميركي هو الذي مول الحملة التي جرت ضده . كانت افكار جنبلاط السياسية مبهمة . وقد تناوب افراد عائلته على مقاعد المجلس النيابي خلال اربعة اجيال ، لذا كان لهزيمته اثر كبير على نفوذ عشيرته . وبدا لي ان ابعاد جنبلاط كان خطا سياسيا ، الى جانب اخطاء اخرى تاكدت منها قبلا ، تبرهن عن تمسك شمعون بولايته على حساب اصدقائه ومنافسيه معا .

بقي علينا بعد ذلك ان نلتقي شخصية اسلامية اخرى : رشيد كرامي ، الذي كان يختبئ على الشاطيء قرب طرابلس . تمكنت برفقة ماكلينتوك من عبور مناطق المتمردين لزيارته وذلك بفضل مساعدة اللواء شهاب . عندما يكون القائد خارجا على القانون ، وفي خطر مستمر ، لا يمكنه التفكير بشكل طبيعي ، وغالبا ما تكون معلوماته مشوهة . كان كرامي يعتقد ان ناصر لا يهدد استقلال لبنان ، بل الولايات المتحدة هي التي تريد ابقاء شمعون في سدة الحكم . لكن كرامي لا يكن اية مشاعر عدائية ضد الولايات المتحدة . وعندما اصبح رئيسا لمجلس الوزراء فيما بعد ، كنت مسرورا برؤيته في واشنطن .

كان يتردد احيانا اسم ريمون اده نائب جبيل المحبوب ، بين المرشحين المؤهلين لخلافة الرئيس شمعون . دعاني يوما الى زيارة مقاطعته الانتخابية التي تمتد حول المرفا التجاري الفينيقي القديم . اطلعني مدير متحف جبيل ، بين ذخائر الماضي الساحرة على الابجدية الفينيقية الاولى المنحوتة على الحجر . أما مشاهدة الجرار الماتمية المدفونة قبل سبعة الاف سنة فجعلتنا ننظر الى العصيان الحالي بصفاء . بعد أن تحاورنا مع الشخصيات المحلية وتناولنا طعام غداء فخم ، قمنا بزيارة قريتين عربيتين حيث استقبل اده بزخات الرصاص التقليدية وبكثير من المدح وفناجين القهوة . كان اده يعرف ناخبيه جيدا ، وهم يضمرون له بدورهم محبة جلية . ثم اتجهنا نحو نهر ادونيس ، المركز الديني منذ الاف السنين ، حيث كانت تاتي السيدات

الرومانيات الوثنيات للصلاة والحصول على البركات الالهية ، وخاصة الاخصاب . يتدفق النهر من فوهة في الجبل قرب مغارة ، من حيث ظهر فجاة مقاتل مسلح ببندقية وجعبتين طويلتين معلقتين على كتفيه . كانت تتقدم سيارتنا دراجتان ناريتان تابعتان للجيش ، ولا بد ان الزي الرسمي لم يعجب المقاتل . بدا اده يتحادث مع هذا الجبلي الكثير الشكوك ، لكن رفاقه الذين كانوا يراقبوننا ، ظنوا بان صاحبهم سيعتقل ، فاخذوا يطلقون النار . عندها بدأت مجموعة الدبلوماسيين الاميركيين ، بما فيهم السفير الاميركي ، تتراكض ، متناسية كل اعتبارات الوقار ، نحو السيارات التي انحدرت بسرعة مميتة . عندما استعاد اده انفاسه ورباطة جاشه ، اوضح لنا ، انه لم يكن لدى هؤلاء المحاربين اية نية في قتلنا . فهم رماة مهرة ولو ارادوا قتلنا لنجحوا . فهمت حينها ان على اده ان يتمتع بصحة جيدة كي يستطيع تمثيل هذه الدائرة في مجلس النواب ، ومع ذلك لم يخلف اده شمعون في رئاسة الجمهورية .

لم تكن عملية جمع المجلس النيابي سهلة . لان عددا كبيرا من النواب كانوا مختبئين بعد دخولهم صفوف العصيان . كما ان شمعون كان لا يزال يخفي نواياه . فقد كان لا يزال مصرا على ترشيح نفسه لولاية ثانية ، ولم يكف عن اسقاط شهاب من اعتبار المعركة ، والتعبير عن شكوكه حول اخلاصه ، او حول قدرته على اخماد الفتنة ، وذلك خلال النقاشات العديدة التي اجريتها معه . اخيرا ، ورغم كل شيء ، اصبح الاجتماع النيابي ممكنا ، وانتهى شمعون الى القول انه لم يحاول خلافة نفسه ، واعترف لي بان اللواء شهاب هو المرشح الوحيد المقبول رغم كل سيئاته . كنا قد تجاوزنا الاسوا . هنأت الرئيس وودعته . كنت اعتبر شمعون صديقا للولايات المتحدة ، لكنني لم افهم مخططاته تماما . كان ضحية افراطه وكيده . وخلص الى خسارة جميع فرصه في السياسة اللبنانية المبلبلة .

في ٢١ تموز ، انتخب المجلس النيابي اللبناني ، اللواء فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية في دورة الاقتراع الثانية بثمانية واربعين صوتا ، مقابل سبعة اصوات نالها ريمون اده ووجدت ورقة بيضاء . قبل الانتخاب ، استمعت الى عدد كبير من اللبنانيين يتكلمون باحتقار عن شهاب معتبرينه ضعيفا وحتى جبانا . لكن هذا الجو تغير تماما بعد الانتخاب ، فتفاعلت بامكانية المصالحة الوطنية . كان تقديري لشهاب قد ازداد خلال هذه الاسابيع الصعبة . كان مخلصا للجيش ، وانا متاكد من انه لم يكن يسعى للرئاسة ، رغم ان الطموح السياسي ينمو عند بعض الافراد بسرعة . كان شهاب يتمتع برشد كبير ، وقبل ترئيسه كمساومة لا بد منها لاعادة السلم الاهلي الى لبنان، افهمت وزارة الخارجية الاميركية ، انه علي مغادرة الاراضي اللبنانية عشية انتخابات الرئاسة حتى لا يتهم الاميركيون في التدخل بالعمليات الانتخابية . فجهزوا لي خطة لزيارة بلدان اخرى في الشرق الاوسط ، بعد ايام قليلة من الانتخابات تسنى لي المرور ببيروت فترة وجيزة ، حيث علمت ان كل شيء سار على ما يرام دون فتن او بلبلة ، رغم التنبؤات المشؤومة . كان شهاب قد وزع جنوده بشكل يتجنب فيه محاولات العنف خلال الانتخابات . انتهت الحرب الاهلية . اعتبر ماكلينتوك وهولووي اننا قمنا نحن الثلاثة بعمل جيد يستحق بعض التهاني .

في اليوم التالي لنزول رماة البحرية في بيروت ، جالت طائراتنا النفاثة في سماء لبنان ورمت الاف البيانات التي تحمل صور الرئيس ايزنهاور ، وتشير الى ان القوات الاميركية جاءت الى لبنان بناء على طلب الرئيس شمعون ، وذلك لحماية استقلال البلاد ، وانها مستعدة للانسحاب حين يتاكد استقلالها . غير ان شهاب لم يكن على عجلة من امره في ترحيل القوات . كانت زخات الرصاص تطلق بين الحين والاخر ، وبدا شهاب حريصا على العمل بشكل عام بناء على نصائحنا. كان للولايات المتحدة حوالي اربعة عشر الف رجل في لبنان نهار ١٣ اب حين غادرته فرقة عسكرية، لاظهار نيتنا في الانسحاب . في نفس الوقت ، كان برنامج المساعدة الاميركية قد بدا يعمل : التجهيزات والمؤن بدات في الوصول . وثبت للبنانيين اننا لا نتمسك بابقاء قواتنا في بلدهم .

اما سلوك رجالنا فقد كان مثاليا . من ناحية اخرى لم نسجل الا خسارة واحدة ، رقيب قتل برصاصة قناص . عادت فرقتان في ١٤ ايلول . وفي ٢٩ منه غادر اخر رماة البحرية الاراضي اللبنانية ، تاركين وراءهم ٧ الاف جندي من المشاة . اما المظليون فقد غادروا في ٤ تشرين الاول . واستمر هذا الانسحاب التدريجي الى ان انتهى في ٢٥ تشرين الاول . قدرت تكاليف هذه العملية التي دامت مئتي يوم بمئتي مليون دولار . والحديث على الناحية المالية يذكرني بمداعبة السفير التركي سفدت دولجر عندما اعلن عن رضاه التام عن المبادرة الاميركية ، لكنه لاحظ ان الكلفة كان يمكن ان تكون اقل لو قامت الولايات المتحدة برشوة جميع اللبنانيين .

في ذلك الوقت ، ومن اجل تسهيل عملياتنا ، انحصر التدخل بالاميركيين ، رغم أن الانكليز كانوا قد انزلوا ٢٥٠٠ مظلي في المملكة الهاشمية المجاورة في الاردن ، كما ايدنا الاسطول البريطاني في المتوسط ، ووضع قواعده في قبرص تحت تصرفنا . اما الولايات المتحدة ، فكانت تمد القوات البريطانية الموجودة في الاردن ، عن طريق الجو ، بالتجهيزات اللازمة من مواد غذائية وعتاد . كما ابقينا على الاتصالات الوطيدة مع حلفائنا الفرنسيين ، واعين لحقيقة نفوذ فرنسة في الشرق الاوسط . وكان السفيران البريطاني ميولتون والفرنسي روش ، يتمتعان بمعرفة عميقة باحوال البلد ، ولم نكن نتمنى استقبالا افضل من الذي قدماه لنا . وقد بعثت الحكومة الفرنسية بالسفينة « دوغراس » لاظهار تضامنها . لكن الاميركيين ، مع تقديرهم لهذه الخطوة راوا ان الظروف غير مناسبة لهذه الخطوة . اذ ان وجود الفرنسيين يهدد باثارة غضب المسلمين المؤيدين للانتفاضة الجزائرية . وقد توصل السفير روش بلطف كبير الى الاتفاق مع الاميرال جوزان على ترحيل السفينة «دوغراس» قبل ان تعلم اذاعة دمشق بوجودها.

لقد احدث التدخل الاميركي في لبنان اشاعات مجنونة في الشرق الاوسط بأسره . واعتبرت وزارة الخارجية انه من الضروري تطمين بعض رؤساء الدول المجاورة . فتلقيت تعليمات بضرورة القيام بجولة دبلوماسية قبل الرجوع الى واشنطن . وكان من ضمن اهداف هذه الجولة اقناع الرؤساء ، بأن تدخلنا سيؤدي الى الاستقرار في الشرق الاوسط . كما اوكلت الي مهمة دراسة مشاكل اخرى ، والتاكد من ازدياد نفوذنا بشكل ملحوظ في هذا الجزء من العالم .

بعد انتهاء مهمتي في لبنان ، قمت بزيارة الاردن ، اسرائيل والعراق . اعلمني سفير مصر قبل مغادرتي بيروت ، ان الجمهورية العربية المتحدة ستكون سعيدة باستقبالي في القاهرة كي اقابل الرئيس عبد الناصر . وصول رماة البحرية الاميركيين كان قد فاجا ناصر ، الذي كان يعتقد حتى الان ان الولايات المتحدة غير قادرة على تقديم اية مساعدة عسكرية لبلد صديق بمبادرتها الخاصة ، وانها لا تصلح سوى للخطابة في الامم المتحدة . عندما جرى انزال القوات الاميركية ، كان ناصر مع الماريشال تيتو في يوغوسلافيا . فاستقل الطائرة فورا الى موسكو ، وذلك في سبيل حث الروس على الرد. واظن انه غير رايه حول التأييد والحماية الروسيتين حين راى ان آماله لم تتحقق. ففاجانا في مظاهرة القوة هذه ، التي نجحت بمهارة ودون خسائر ، كان له مفعول ايجابي على ناصر، بوصفه عسكريا محترفا .

في مطار القاهرة ، استقبلني ريمون ا. هير سفير الولايات المتحدة ، ومجموعة من الصحفيين المصريين المتوتري الاعصاب الذين طرحوا اسئلة بالغة الاحراج . كان هير زميلا قديما في السلك الدبلوماسي . اخذني بالسيارة الى مقر السفارة الاميركية حيث زارني احد معاوني ناصر ، في سبيل تحديد برنامج محادثاتنا خلال المقابلة التي عين موعدها في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي . ثم اتصل بي هذا الموظف الكبير هاتفيا، ليؤكد لي ان برنامج المحادثات قد قبل . غير انه اتصل بي في السابعة من صبيحة اليوم التالي ، ليخبرني انه خارج لتوه من مقابلة عاصفة مع الرئيس عبد الناصر ، وانه يريد ان يراني فورا. كان ناصر يستفيق عادة متاخرا في الصباح . غير انه استفاق هذا اليوم باكرا ، ليقرا تقريرا من نيويورك حول الخطاب الذي القاه هنري كابوت لودج رئيس الوفد الاميركي في الامم المتحدة ،

امام مجلس الامن ، حول تدخل الجمهورية العربية المتحدة في شؤون لبنان الداخلية . كان ناصر بالغ الغضب . اذا كان الموقف الاميركي هكذا ، فلماذا التكلم مع مورفي . شرحنا له ، هير وانا ان خطاب لودج كان مقررا في سياق التحرك في الامم المتحدة . ومن سوء الحظ انه طابق يوم مقابلتي مع ناصر . بعد قليل دعي السفير الاميركي وحده الى مقابلة وزير الدولة علي صبري ، الذي ردد الكلام نفسه . اجاب هير بأن زيارتي للقاهرة جاءت بناء على دعوة المصريين انفسهم . وانني ساغادر القاهرة على كل حال صبيحة اليوم التالي . انتظرنا حتى السادسة مساء ، وبما انه لم يات اي خبر جديد من ناصر ، اتصلت هاتفيا بمساعد وزير الخارجية راونتري في واشنطن ، وتعمدت ان ابدأ كلامي بهذه الكلمات : « تحدث هنا حالة مضحكة » . هنا ، قطعت مصلحة المراقبة المخابرة ، وكان اعادة الاتصال مستحيلا . راهنت هير ، على اننا سنتلقى اتصالا من ناصر خلال اقل من ساعة . غير انني خسرت الرهان، فقد انتظرنا ساعة ونصف ، الى ان دعانا ناصر للمجيء الى مقره في التاسعة مساء . استقبلنا مع اثنين من وزرائه الرئيسيين دون مراسيم . وكانت محادثات ودية دامت حتى الثانية صباحا، كان ناصر خلالها هو المتكلم في اغلب الاوقات ، ادهشتني قابلية ناصر على الحديث، فتذكرت راي كالفن كولدج : « لا يضرني الذي لا اقوله ».كان ناصر يعرض نفسه لاخطار عديدة وهو ينثر كلامه . كان ناصر مهتما بشكل رئيسي بالتدخل الاميركي في لبنان . ويبدو ، انه قبل تاكيداتي بان لا هدف للتدخل الاميركي سوى المحافظة على استقلال لبنان. كان مقتنعا ، ولو بشكل جزئي ، بان هذا التدخل العسكري سينحصر في لبنان . واشتكى من عدوانية الرئيس شمعون تجاه الحكومة المصرية ، لكن انتخاب شهاب كان يلائمه . واكد بكثير من الكلام احترامه لاستقلال لبنان ، طالما توقفت حملة شمعون العدوانية . وانتهى ناصر الى القول ، انه سيكون سعيدا باقامة علاقات صداقة مع العهد الشهابي .

تمكنت اخيرا من تغيير موضوع النقاش ، وسألته بعض الاسئلة المتعلقة بالمملكة الاردنية، البلد الاول الذي زرته بعد مغادرتي لبيروت . كان من حق الملك الشاب (٢٤ سنة) ان يخاف على استقلال بلده وحتى على حياته . عندما زرت العاهل الاردني في قصره في عمان ، برفقة المسؤول عن الشؤون الامريكية هناك توماس ك. رايت . اشتكى حسين بحدة من عداوة ناصر له ، والمؤامرات التي تديرها القاهرة ، ومحاولات ابعاد الجيش الاردني عن واجباته . ضحك ناصر عندما ذكرت له الاشاعات التي تقول انه سيغزو الاردن أو يسقط حسين . وقال انه لا يفكر ابدا بزيادة همومه التي تكفيه بشكل كامل . فشكوك حسين لا أساس لها ، ومن الصواب تطمين هذا الشاب . فناصر ، لم يكن يرى اي حل لمشاكل الاردن طالما بقي هذا البلد دون امكانيات لتثبيت استقلاله ومع ذلك ، فقد اكد انه لا يضمر أي ضرر لحسين ، بل هو على العكس من ذلك ، معجب بشجاعته . كان موقف حسين الضعيف وشجاعته الواسعة قد لفتا نظري انا ايضا ، خلال المقابلة التي اجريتها معه في مكتبه في القصر . كان يجلس تحت صورة كبيرة لجده الذي قتل عندما كان حسين في الرابعة عشره من عمره . كان الشاب قرب جده عندما اعتدي عليهما ، ورصاص القتلة كسر احد ازرار بذلته . اما الان فمملكته الصغيرة محاطة بالثوار في العراق ومنافسيه العرب في سوريا ويهود اسرائيل ، وليس بامكانه ان يثق بأحد منهم . «٢٥٠٠» جندي بريطاني يعسكرون في ضواحي العاصمة ، وليس للاردن غير طريق ضيقة ، وحيدة للتمردين تمر عبر ارض وعرة حتى خليج العقبة . كما ان وجود نصف مليون لاجيء عربي ، يشكلون عبئا لا يطاق على شعب فقير ، فخزائن الدولة فارغة عمليا . ورفض حسين التنازل عن العرش ، رغم سيف ديموقليطس المرفوع فوق راسه . عندما اخبرت ناصر بان حسين يثق بشكل عام بجيشه ضحك ناصر من جديد وقال : « قلبت ملك مصر بعد خمس سنوات من المؤامرات ، لم تثر شكوك احد . كيف يمكن لحسين ان يكون واثقا بجيشه انت تعرف ماذا جرى في الشهر الماضي لابن عمه الملك فيصل في العراق »

ما جرى في العراق ، كنت اعرفه ، طالما انا قادم من بغداد ، حيث اغتيل الملك فيصل ورئيس

وزارته وولي العهد ، وغيرهم من افراد العائلة المالكة . وخلال مقابلتي لحسين ابدى الملـــك الشاب آماله في عدم اعتراف الدول الغـربية الكبرى بقتلة اقـربائه . لكنني كنت اعلـم ان الولايات المتحدة ستعترف بالنظام العـــراقي الجديد في اليوم التالي . اما روسيا السوفياتية فقد بادرت على الفور الى اقامـة عـــلاقات دبلوماسية مع الحكومـة الثـورية ، كما كانت الولايات المتحدة معنية ، بمراقبة الحالةعن كثب. لم يظهر السفير الامريكي في بغداد ، فالديمار ج. غالمان اي حماس عنـــد اعلان زيارتـــي للعراق ، بعد هذه الفترة القصيرة على الانقلاب لقد كانت مخاوف صديقي في محلها . فمـــا ان ظهرت طائرة (ل ت)٥ ، التي وضعها الطيران الحربي تحت تصرفنا ، حتى امرتها قاعدة حربية عراقية بالعودة ومغادرة الاجـواء العـراقية . اجاب قائد الطائرة ، بان بغداد سمحت لنـــا بالمرور . لم نتلق اي جواب . تابعنا طريقنـا ، وصلنا المطـار حيث الجو رطـب والحـرارة تصل الى حوالي ٤٦ درجة . استقبلنا السفير الامريكي البشوش وبعض مساعديه وممثلون عن الحكومة العراقية الجديدة . اخبـرني غالمان ، ونحن نعبر الشوارع الخالية الا من دوريـات عديدة نحو « البيت الابيض » الصغير الذي هو مقر سفارتنا في بغداد ، بالاحوال التي حصلت في المدينة منذ فترة وجيزة .

اما الرجل الذي قاد الثورة عبد الكريم قاسم فاصبح رئيسا للوزراء . اتخذ السفيـر غالمان التدابير اللازمة لنقوم بزيارته في وزارة الدفاع ، حيث كان يعمل ويقيم في الغرفة التي يشغلها منذ اندلاع الثورة . كانت جحافل حـرس الـوزارة عصبية ، اكثر مما هي يقظة . وقاسم يحمـل مسدسا رشاشا . قاسم ، هو رجل قصـــير القامة ، حذر قليل التجاوز ، وهذا ما جعـل نقاش القضايا التي تهمنا شبه مستحيل ، لولا تدخل وزير خارجيته عبد الجبـــار جومرد : اشقر ، عيناه زرقاوان ، وهو من مواليد الموصل قيل لي ان جومرد لم يشترك في المؤامرة علـى الملك فيصل ، لكنه علم فجاة ، عن طـــريق الاذاعة ، انه عين وزيرا . اخبرني قاسم انـه كان يفكر بالثورة منذ سنوات عديدة . وقد دبر مؤامرته بسرية تامة بالاشتراك مع حوالي مئة من زملائه الضباط . وجاء انتقـــال بعـض الوحدات العسكرية بمثابة فرصة انتهزها في تموز حين تمكن المتآمرون من تنفيذ خطتهم بســرعة ، فكانت المفاجاة كاملة . برر رئيس الـــوزراء انقلابه ، بان الطرق اللاشرعية هي الوحيدة ، التي تسمح لشعب العراق المسكين بالتخلص من ملكية فاسدة . واكد قاسم على الطابع الداخلي للثورة التي جرت لاسباب وطنية اكثر مما هـي ايديولوجية . ولم يبد اي اسف للوحشية التي تمت فيها الثورة . قلـت لقاسـم ، انني اتيت الى بغداد ، كي تفهم حكومتي سياسته بشكل افضل ، كما لفت نظره الى سرعة اعتـــراف الولايات المتحدة بالحكومة العراقية الجديدة . فهل صحيح ما قيل لي ، ان التدخل العسكري الامريكي في لبنان المجاور يثير الشكوك في صفوف القادة العراقيين . اجابني قاسم بالايجـاب ، وابدى شكه في اقتصار الامريكيين على لبنان . كان متاكدا من ان تدخلنا في لبنان ، ليس سوى مقدمة لاجتياح بلده، وكان مصمما على المجابهة. اجبته ، بانني رايت من الطائرة جزءا كبيرا من العراق ، فهذه المساحة الشاسعة من الاراضي الصحراوية ليس لها اية جاذبية من الناحيـــة العسكرية . وذكرت قاسم بان رئيس الولايات المتحدة يتمتع بتاريخ عسكري طويل وحافـــل، وابديت ملاحظتي لقاسم ، بانه هو ا[illegible] عسكري . فهل يمكنه ان يشير الى سبـ[illegible] يمكنه ان يدفع ايزنهاور الى اجتياح بلد فقير مثل العراق . لفظت عبارتي وانا ابتسم ، ولكن دون اي استهزاء .. وبعد لحظة ، ابتسم قاسم هو ايضا . ويبدو ان عبارتي اثرت عليه . فابدى ارادة في اقامة علاقات صداقة مع الولايـــات المتحدة وباقي الدول الغربية . غير ان وصول بعثة سوفياتية هامة الى بغداد ، تعمل بعلاقة وثيقة مع حزب شيوعي محلي ، كان يقلق الغرب اشرت لقاسم بهذا ، وراجعت مصـــير بعض البلدان التي بدات بقبول المساعدة السوفياتية ، وانتهت الى فقدان استقلالها . عندها ، شرح لي قاسم ، باسلوبه العسكري البسيط ،افكاره حول الاصـلاحات الاجتماعيـــة والاقتصـادية الضرورية لبلده . وأكد لي ، انه لم يفجـــر ثورته كي يقدم العراق هدية للاتحاد السوف[illegible]

أو لمصر . بدا قاسم ، وكأنه بهلوان متوازن على خيط ممدود بين موسكو والقاهـرة . اعلن ان حكومته تنوي تأييد سياسة الجمهورية العربيـة المتحدة ، لكنها ستحترم التزاماتها الدولية ، كما انه كان يخطط لزيادة صادراته النفطية الـى الغرب بنسبة ٥٠ ٪ . وعندما علم ان عمـلاء مصريين بدأوا يتغلغلون في العراق ، أعلم ناصر كما قال لي بهـدوء قاس ، ان انابيب النفـط العراقية يجب ان تعمل كالمعتاد . لم اشـك لحظة ، في ان قاسم سيتخذ موقفا صلـبا ، دفاعا عن استقلال العراق . لكن بعد اقل من خمس سنوات ، اغتيل على يد مجموعة منرفاق السلاح الذين يتزعمهم الكولونيل عبد السـلام عارف ، المغالي في اعجابه بناصر .

خلال الساعات الخمس ، التي قابلته فيها ، شرح لي ناصر اوضاع الجمهورية العـربية المتحدة ، وشرح لي ضرورة الوحدة العربية ، من اجل امن بلد صغير وضعيف مثل مصـر ، لكنه لم يشر الى تصوراته حول العراق . افاض في الحديث عن اسرائيل التي زرتها كذلك قبل زيارتي لمصر . ليس هناك مشكلة دبلوماسيـة اكثر صعوبة من الخلاف العربي ـ الاسرائيلي التي يمكن للوقت وحده ان يأتيها بحل وحتىالان لا يوجد احد ، له مرونة كافية تمكن من ايجـاد شكل وساطة . غير ان وزارة الخـارجية الامريكية ، كان لها الفضل على الاقـل ، في محاولة ذلك بصبر منذ سنوات . كانت علاقتنا مع ناصر مغلوطة بشكل اكيد ، بسبب ايمانـه الذي عبر عنه مرارا ، بان الولايات المتحـدة ستقف دائما الى جانب اسرائيل مهما حصل . الموقف الامريكي خلال ازمة السويس جعله يشك بذلك قليلا دون ان يقتنع بعكسه . عندما اثرت هذه النقطة ، هز ناصر كتفيه ليفهمني استحالة اي حل . لكنه امتنع عن الادلاء باي تصريـح استفزازي ضد جيرانه اليهود . لا بد وان تقدم الاسرائيليين بسرعة البرق في سيناء ، اعطت لناصر وضباطه نظرة اكثر موضوعية للامـور .

كنت قد وصلت القدس على الاوتوسـتراد الممتاز الذي شيد بفضل المساعدة الامريكية .في المدينة المقدسة ، تبين لي ، كم هي الاماكـن المقدسة للاديان الكبيرة : المسيحية ، اليهودية والاسلامية ،قريبة من بعضها ، لاحظت الاسلاك الشائكة التي تفصل اسرائيل عن الاردن . في الناحية الاردنية استقبلني الحاكم بلطف كـذلك استقبلني اصدقائـي في وزارة الخارجيـة الاسرائيلية على بوابة مندلبوم . اغتنمت الفرصة لزيارة الجامع العمري الكبير وحائط المبكى ،كما قضيت وقتا ممتعا مع مجموعة من الـرهبان الارثوذكس . بعدها استقليت السيارة الى تـل أبيب لاجراء محادثات مع رئيس الوزراء دافيد بن غوريون . كان متحمسا لمشروع تعاون يسعى له بين اسرائيل وكل من تركيا وايران والحبشة والسودان . وصرح بان اسرائيل ستضطر الى احتلال الضفة الغربية لنهر الاردن دون الاهتمام بالاشكالات الدولية ، فيما اذا استولى ناصـر على المملكة الهاشمية ، عبر التخريب أو ايـة طريقة اخرى . كان بن غوريون ، يأمل في تفهم ناصر لنوايا اسرائيل وامكانياتها الاجرائيـة . فكرت بحزن ، في وضع الملك الشاب ، وبفشـل الجهود الامريكية في سبيل ايجاد حل عـربي اسرائيلي .

اتاحت لي هذه السهرة الطويلة التي امضيتها مع ناصر ، الفرصة لتفسير السياسة الامريكية ورغبة الرئيس ايزنهاور ووزير الخارجية دالس في مشاركة الدول الحرة من اجل ايجاد حـل لمشاكل الشرق الاوسط الاساسية . غير ان ناصر ادعى ان الولايات المتحدة لعبت مع مصر لعبة القط والفار . قال ان دالس كان فظا فيما يخص بمشروع اسوان ، وان الاتحاد السوفياتي ابدى تفهما اكبر ، وانه يحفظ جميله . عندها ، ذكرته بالمساعدة الكبيرة التي قدمتها الـولايات المتحدة لمصر ، وبموقفنا من قضية السويس . ابديت أملا ، في تحسن العلاقات بين مصـر وحليفنا الانكليزي ، هنا قاطعني ناصر ، مشفقا على مصير بلده خلال ثلاثة قرون من النير التركي و٧٥ عاما من السيطرة الانكليزية .

ادهشتني حساسية ناصر من انتقـادات الصحافة الامريكية . كان يوجد في صالونهمجموعة من الصحف والمجلات الامريكية . اراني بعض المقالات بغضب ، يبدو انه كان يستاذ العثـور على اقوال يعتبرها مغلوطة في حقه . شرحت له

ان جميع السياسيين الامريكيين اعتادوا على هذا التصرف . قال لي احد اعضاء الكونغرس يوما ان على رجل الدولة ان يقلق في نقطة واحدة ، هي سكوت الصحافة عنه . فضحك ناصر ،ولكن دون جدل . وانتهى اللقاء في جـو ودي . كان انطباعي بان تدخلنا في لبنان ، اوحى لناصـر باحترام الولايات المتحدة . اما وطنيته واخلاصه للقضية العربية فلا شك فيهما . املة بتحسين اوضاع ملايين المصريين الفقراء ، يبدو اهـلا للتفهم غير انني تركته بشـعور من القلـق ، فالضغوط التي يتعرض لها ، يمكن ان تؤدي به الى اعمال غير منتظرة وتعسفية .

من القاهرة استقليت الطائرة الى اديس ابابا لان الامبراطور هيلاسيلاسي كان قد طلب مـن وزارة الخارجية ، ارسال احد كبار الموظـفين للتداول في شؤون عاجلة . وبما انني كنت هنـا فقد امرتني وزارتي بزيارة الامبراطور قبل عودتي. كان السفير الامريكي ينتظرني في المطار .وكالعادة كان زميلا قديما في السلك الدبلوماسي . السفير دون س. بلس. ورافقنيحتى القصرحيث وجدت الامبراطور جالسا مع كلبه الصغير امام موقده كبيرة تشتعل بالاخشاب . كان الطقس منعشـا على ارتفاع اكثر من الفي متر . وانزعجت قليلا من التغير المفاجيء في الطقس . المواضيـع الثلاثة التي اراد هيلاسيلاسي بحثها معي كانت تتناول التدخل الامريكي في لبنان ، وسقـوط الملكية في العراق ، ونوايا ناصر ضد الحبشة . رحب الامبراطور بتدخلنا في لبنان ، وابدى تاييده لمفعول التدخل في تثبيت الاوضاع في هذه المنطقة من العالم.كان شديد الخوف نتيجة مقتل العائلة المالكة في العراق . وعبر عن قلقه من الاعـلام المتزايد الذي توجهه اذاعة القاهرة، نحو الاقلية الاسلامية في الحبشة ، والذي يعتقده مقدمـة لتدخل مصري في شؤون مملكته . كما كان يخشى طموحات الروس الذين يديرون مستشفى فـي اديس ابابا . ويهمه البقاء حذرا في مواجهـة اي تدخل شيوعي . كان هيلاسلاسي رجلا ذكا ووقورا ، ويحمل احساسا حادا بمسؤوليته . كان يتمنى تفهم الاميركيين لمخاوفه.كانت الولايات المتحدة تتعاون مع الحبشة في الكثير من المجالات وحاولت جهدي اقـناع الامبراطور بعاطفتنـا الفعالة .

بعدها ، وبناء على تعليمات وزارة الخارجية ، استقليت الطائرة الى اليونان ، بعد ان توقفت في مستعمرة عدن البريطانية ، وفي جزيرة رودس اعلمت في عدن عـن غـزوات يشنها رجال البدو اليمنيون . وفي رودس زرت السفينة حيث تجهيزات اذاعة صوت اميركا . عند وصولي الى اثينا ، حيث كان صديقي جيمس ريدلبرغر يعمل سفيرا هناك ، وهو كذلك عضـو قديـم فـي مجموعتي في برلين بعد الحرب ، علمت انني اضعت فرصة اللقاء برئيس الوزراء الانكليـزي هارولد ماكميلان ، الذي غادر في اليوم الذي سبق وصولي ، بعد ان اجرى محادثات مـع الحكومـة اليونانيـة في سبـيل ايجـاد حـل للمشكلـة القبرصيـة . دعـانا رئيس الوزراء قسطنطين كرمنلس ريدلبرغر وانا الى بيته القروي يرافقه وزير خارجيته . كنـت شغوفا بمعرفة آرائهم حول المسالة القبرصية لكنهم كان قد اشبعوا هذا الموضوع . وطلبوا مني ان اتكلم مرة اخرى عن التدخل الاميركي في لبنان وحول الموقف المتردي في الاردن ، وحول علاقات مصر مع الغرب . كان لليونان مصالح في مصر ، كما لم يكن رئيس الوزراء يائسا من ناصر . كان يرحب بالتدخل في لبنان . ومن ناحيتي اعجبـت بالطريقة التي كان يدافع فيها عن المثـال الديمقراطي في مواجهة الضغوط الشيوعيـة المتتالية .

صباح اليوم التالي ، استقليت الطائرة الـى لندن ، تلبية لدعوة وزير الخارجية سلوين لويد . امضيت فترتين بعد الظهر والمساء في « الشكرز » البيت الصيفي لرئيس الوزراء ، برفقة سفيرنـا جون. هي. ويتني ، وعدد من افـراد وزارة الخارجية ، حيث اجتمعنا ، لنبحث وضع الشرق الاوسط بشكل مطول . كنت قد تعلمت ، خـلال الحرب ، تقدير زملائي البريطانيين المشتركين في هذا الاجتماع : سلوين لويد ، دافيد اورمسبي غور ، ديريك هوير ، ميلر ، باتريك دين ، وليم هايتر ، افلين شوكبرغ ، مايكل مادو ، وفرانك اكونت . كانت هذه العقول المتمرنة والمليئـة بالخبرة،ذات قيمة لا تقدر في المفاوضات الدولية.

في البرنامج البريطاني ، لم تكن قضايا الشرق الاوسط ناقصة : قبرص ، السويس ، العربية السعودية ، البحرين ، قطر ، الكويت ، التواجد العسكري في الاردن ، المقتل البشع للملك فيصل في بغداد . ماذا سيجري في العراق حيث لبريطانيا مصالح كبيرة ؟ هل ستدعم الولايات المتحدة اصدقاءها البريطانيين في الخليج الفارسي ؟ مسائل خطرة ، لان لهذه المنطقة اهمية حيوية بالنسبة للانكليز الذين يعرفونها جيدا . تمنيت احيانا ، لو كان للولايات المتحدة الحماس نفسه تجاه الشرق الاوسط ، حتى ولو كان ذلك فقط لان المملكة المتحدة هي حليفنا الرئيسي . غير ان الحالة ليست كذلك . فمصالحنا المادية والجغرافية مختلفة . لقد خيب الاميركيون امال الانكليز في تعاون وثيق في هذه المنطقة في العالم . وذلك لان المصالح والمخاوف الانكليزية ، ليست بالضرورة نفس مصالح ومخاوف الولايات المتحدة .

بعد ليلة مريحة قضيتها في منزل السفير في لندن ، استقليت الطائرة الى باريس ، لاجراء محادثات برفقة السفير هوتون مع كوفدومورفيل وزير الخارجية الفرنسية ، مرة اخرى راجعنا مجمل قضايا الشرق الاوسط .

التقيت الرئيس ايزنهاور ووزير الخارجية دالس ، مساء اليوم التالي ، في نيويورك ، التي قدما اليها ، للمشاركة في اجتماع الامم المتحدة ، وذلك لمناقشة الموضوع نفسه . دعاني الرئيس للعودة الى واشنطن في اليوم التالي ، على متن طائرته الخاصة ، كي يتسنى له الاستماع لتقرير كامل حول رحلتي واستنتاجاتي . كان تقريري عن الشرق الاوسط ، جاهزا تماما ، بفعل كثرة تلاوته .

خلال رحلتي باسرها ، كنت ابعث يوميا بتقرير طويل الى وزارة الخارجية ، رؤوس الاقلام هذه ، شكلت مادة هذا الفصل ، لكن لدي ، مذكرات كثيرة وحية لاشياء رأيتها . ولم اسجلها في تقاريري الى وزارة الخارجية . لن احتاج قطعا الى ملاحظات ، كي اتذكر مشهد اللبنانيين المستهجن وهو يستحمون ، ويمارسون الغطس تحت الماء والتزلج المائي قرب مراكبنا الحربية الراسية في مرفأ بيروت ..

نقل النص الى العربية جاكلين جريصاتي

العلاقات بين اسرائيل .. ويهود اميركا

يوسف حمدان

اعتبرت اسرائيل دائما يهود الولايات المتحدة الاميركية الركيزة الاساسية للمشروع الصهيوني في فلسطين . فهم من جهة يشكلون حوالي ثلثي العدد الاجمالي ليهود العالم خارج الكيان الصهيوني ، وهم من جهة اخرى يتمتعون بنفوذ اقتصادي وسياسي كبير في الدولة العظمى ذات النفوذ القوي في العالم . واذا كان بعض الاسرائيليين يعتقد أن مستقبل اسرائيل مرهون باستمرار دعم يهود الولايات المتحدة اللامحدود لها ، واذا كان بعضهم قد بدأ يتخوف من عدم امكانية استمرار هذا الدعم بصورة قوية ، ونظرا لما يعنيه ذلك بالنسبة لاستمرار الدعم الاميركي الرسمي اللامحدود للسياسة الاسرائيلية ، فمن الضروري مواصلة تناول موضوع تطور العلاقات بين اسرائيل ويهود أميركا باستمرار لما ينطوي عليه ذلك من أهمية بالنسبة لنضال الشعب الفلسطيني .

•

وقبل ان نتطرق الى عرض وتحليل نواحي العلاقات التي تربط بين اسرائيل ويهود اميركا ، سنعمد في البداية الى اعطاء صورة موجزة عن أوضاع هذه الجالية اليهودية في المجتمع الاميركي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . وبصورة خاصة كما تتجلى صورتهم عبر ما ينشر عنهم بواسطة المهتمين بهم من الكتاب والصحفيين الاسرائيليين .

يهود اميركا في المجتمع الاميركي

تفيد الاحصاءات الاسرائيلية والاميركية أن عدد سكان الولايات المتحدة من اليهود يقرب من ستة ملايين . ويتوزع معظم هؤلاء على المدن الكبرى والمراكز التجارية والصناعية الضخمة مثل نيويورك ولوس انجلس ، ويمتاز الاميركيون اليهود بكثرة عدد تنظيماتهم المختلفة ، فبينما يذكر الكتاب السنوي ليهود اميركا الصادر عام ١٩٧٣ ـ أن عدد المنظمات اليهودية بلغ ٣٤٠ منظمة ذكرت بعض الصحف الاسرائيلية نقلا عن مصادر اميركية يهودية ان ليهود الولايات المتحدة ٤٠٠ منظمة مسجلة و ٨٠٠ منظمة غير مسجلة (١) . ولكن بما يتعلق باسرائيل هناك منظمتان يهوديتان كبيرتان تركزان عمل المنظمات اليهودية الاميركية المختلفة الذي يصب في خدمة اسرائيل وهما : (١) **الجباية اليهودية الموحدة** ، التي تهتم اساسا بالشؤون المالية وتخصص حوالي ٨٠ ٪ من الاموال التي تجمعها لاسرائيل (٢) . (٢) **لجنة الرؤساء** ، وهي مؤلفة من رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية وعددها ٣٢ منظمة ، وقد تأسست على يد ناحوم غولدمان سنة ١٩٥٥ ويرأسها اليوم الحاخام عزرائيل بيلر . وهذه المنظمة تهتم اساسا بالشؤون السياسية وبتنظيم

الدعم السياسي لاسرائيل ، بما في ذلك جماعة الضغط ـ « اللوبي » ـ اليهودية في الكونغرس الاميركي .

ان الحديث عن ستة ملايين يهودي في الولايات المتحدة لا يعني ان كل هؤلاء يشعرون عمليا بانتماءهم للديانة اليهودية ، بل الواضح أن معظم هؤلاء يشعرون بأنهم مواطنون اميركيون بالدرجة الاولى ، ولا يمارسون طقوس الديانة اليهودية ولا ينتمون الى اي تنظيم يهودي او حتى اي كنيس يهودي ، وهم بالتالي لا يمارسون اية نشاطات صهيونية . وهذا الامر دفع بعض الكتاب الاسرائيليين الى القول ان « أكثرية يهود أميركاهم فقط يهود على الورق » (٣) . وبحسب دراسة أعدتها الجباية اليهودية الموحدة عام ١٩٧٢ شكل اليهود اللامنتمون الى اي تنظيم أو كنيس يهودي نسبة ٥٨ر٢ ٪ من مجموع يهود اميركا (٤) . وتوصلت هذه الدراسة ايضا الى أن الشباب والشابات اليهود الذين تزوجوا عام ١٩٧٢ بلغت نسبة من تزوج منهم زواجا مختلطا (أي زواج شاب يهودي من فتاة غير يهودية وفتاة يهودية من شاب غير يهودي) نسبة ٣١ ٪ مما اثار قلق الدوائر الاسرائيلية وجعلها تتوقع انه « حتى أواخر القرن العشرين سنفقد ملايين اليهود، وذلك عن طريق الاندماج التدريجي (٥)».

ان مراقب المنظمة الصهيونية العالمية يقدم تقريرا سنويا الى اللجنة التنفيذية الصهيونية المنعقدة سنويا في اسرائيل . وفي التقرير الاخير(٥ـ١ـ٧٦) حقائق وأرقام احرى أقلقت الصهيونيين في اسرائيل ، وقد ورد في التقرير المذكور مثلا أن عدد اولاد اليهود في اميركا الذين تتراوح اعمارهم بين ٥ـ١٧ سنة بلغ مليونا و ٧٥٠ الفا ، ولكن فقط أقلية ٧٥٠ ألفا من هؤلاء تلقت بعض التثقيف اليهودي ، وفقط ١٦٠ ألفا من بين هؤلاء يدرسون في مدارس يهودية . وعقب يوسف ترنشتاين رئيس « منظمة صهيونيي أميركا » على هذا الامر بقوله انه « حتى هؤلاء الـ ١٦٠ الفا الذين يدرسون في مدارس يهودية اميركية يتلقون تربية يهودية فقط وليس تربية صهيونية (٦) » .

وعلى الرغم من ضخامة العون الاقتصادي اليهودي الاميركي لاسرائيل فان الاحصاءات الاسرائيلية تقول ان ٢٠ ٪ فقط من يهود اميركا يتبرعون بالمال للجباية اليهودية الموحدة (٧) . ويبدو ان معظم هؤلاء من اليهود المتدينين .

ثلاث طوائف :

وبحسب احصاءات الجباية اليهودية الموحدة ينقسم يهود الولايات المتحدة الى ثلاث طوائف رئيسية :

١ ـ اليهود المحافظون ولهم ٢٣ ٪ من الكنس اليهودية في الولايات المتحدة .
٢ ـ اليهود الاصلاحيون ولهم ١٣ ٪ من الكنس اليهودية في الولايات المتحدة .
٣ ـ اليهود المتدينون ولهم ٩ ٪ من الكنس اليهودية في الولايات المتحدة .

والطائفة الاخيرة تعتبر من انشط اليهود في خدمة اسرائيل وفي مجال الهجرة اليها . ويهتم اعضاؤها اكثر من غيرهم بتربية اطفالهم تربية يهودية وصهيونية . من هنا ان الاحزاب اليمينية المتطرفة في اسرائيل والمتزمتة في منطلقاتها الصهيونية مثل حيروت مثلا ، لا تعترف الا بهذه الطائفة (٨) ، على اعتبار انها تؤمن بأن تعريف الصهيوني « هو كل يهودي يهاجر الى اسرائيل » .

ومن جهة اخرى يقسم بعض الاسرائيليين يهود اميركا الى ثلاث مجموعات :

١ ــ مجموعة صغيرة نسبيا متعصبة دينيـا ، « ولا تهتم بالصهيونية كحركة قومية علمانية (٩) » ومع ذلك فعلاقات هذه المجموعة مع اسرائيـل قوية ونابتة .

٢ ــ مجموعة تريد اشباع هويتها الاميركيـةوهويتها اليهودية في آن معا ، عن طريق الاخذ بالنظرية القائلة بوجوب تواجد مركزين لليهود في العالم هما اسرائيل و « بابل » ــ (أي الولايات المتحدة الاميركية) « وهذه النظرية تؤمن بهـاتيارات مختلفـة في اسرائيل نفسها (١٠) » . ويقصد الكاتب الصهيوني أوساط الحركة العمالية وغيرها والتي بدأت تغير موقفها مـن مقولة أن الصهيوني هو من يهاجر الى اسرائيل وتكتفـي بالقول ان الصهيوني هو من يؤمن باسرائيـل ويدعمها ماديا وسياسيا حتى وان لم يهاجر اليها.

٣ ــ مجموعة تشكل الاكثرية من يهود اميركاوهي « تفضل بابل على اسرائيل » ولا ترى من واجبها الهجرة اليها او الارتباط بها ثقافيا او حتىدعمها بالمال ! ويؤكد هذا الكاتب بناء علـى ذلك ان اسرائيل لاتملكقنوات الاتصال مع شرائـحواسعة من التجمعات اليهودية في اميركـا ، فاسرائيل تعتمد اساسا على اتصالاتها بلجنـةالرؤساء التي مع انها تمثل ٣٢ منظمة رئيسيـة فان « نصف مليون طالب جامعي يهودي مثـلا لايوجد لهم اي تمثيل في لجنة الرؤساءهذه (١١) ».

اليهودي « العادي » واليهودي « غير العادي » :

نستنتج مما تقدم أن يهود الولايات المتحدة لايشكلون فئة واحدة متجانسة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وبالتالي فان لهم مواقف متباينة من اسرائيل والصهيونية . ويتضح ذلك اكثر مـن طرح السؤال التالي : من هو اليهودي الاميركي العادي ومن هو اليهودي الاميركي غير العـادي من وجهة النظر الاسرائيلية الصهيونية ؟

الكاتب الصهيوني ابراهام هيرمان (١٢) يعرف اليهودي الاميركي العادي على النحو التالي : « ... انه من مواليد الولايات المتحدة وبصورةعامة ولد والداه ايضا هناك . انه خريـج مدرسة ثانوية وفي اغلب الاحوال خريج جامعة . انه لا يهرب من يهوديته بل يشعر انه يهودي ولا يؤمن بمبدأ الاندماج . من ناحية عمله ينتمي الى الطبقة الوسطى او الطبقة الوسطى العليا . معظم معارفه واصدقائه من اليهود . انه ليـسمتدينا ولكنه يحرص على ان يكون لاولاده ثقافة عامة عن الديانة اليهودية وتقلقه جدا فكرة أنيتزوج اولاده من غير يهود . ينتمي الى كنيـس غالبا ما يكون محافظا او اصلاحيا ، يعـرف اسرائيل عبر زيارة قام بها اليها هو أو أحـد معارفه ولكنه لا يفكر بالهجرة اليها . يتبرع الى الجباية اليهودية وربما اشترى سندات حكومـة اسرائيل ليس كتوظيف بل سجلها باسـم أولادهلانه اراد مساعدة اسرائيل وربطهم بها رمزيـا ونفسيا . يقلق جدا على اسرائيل عندما تتعرضلاي مكروه كما حدث في حرب يوم الغفران (حرب تشرين ١٩٧٣) . عندما يقرأ جريدة ينتبه الـى أخبار اسرائيل ويقرأها باهتمام . لا يعرف اللغة العبرية ولا يعرف الكثير عن الديانة اليهودية وفينفس الوقت يميل الى الاعتزاز بيهوديته ويحترم العارفين بشؤون الديانة اليهودية . لم يصطدمباللاسامية مباشرة ويؤمن بأن ما حدث لليهود في اوروبا لا يمكن ان يتكرر في أميركا » .

اما اليهود الاميركيون « غيـر الماديين »فيقسمهم هيرمان الى ثلاثة اقسام :

« ١ ــ الشباب اليهود الذين تربوا في بيـوتمتدينة وتلقوا تربية دينية متزمتة ، وهؤلاء يؤمنون

بأن الحياة اليهودية لا تكتمـــل الا بالعيش فـــي اسرائيل . وهذه فئة صغيرة ولكنها مصدر مهـــم للهجرة .

٢ ــ فئة اصغر من الفئة السابقة وهي جماعةصهيونية ناعلة ولا تنتمي الى اليهود المحافظين.

٣ ــ مجموعة كبيرة من الزعماء التقليديين لاولئـــك اليهود العاديـــين وهؤلاء الزعمـــاء غيـــر عاديين في تفانيهم واخلاصهم لقضايا الجمهـــــوروبانهماكهم المتصل فيالعمل التنظيمي والشعبي».

الواضح اذن ان القوة اليهودية في اميركـــــاوالهالة المحيطة بها غير نابعة من الكثرة العددية ليهود أميركا الذين يشكلون اقل من ٣ ٪ مـــنمجموع السكان ، ولا من كونهـــم يؤلفون كتلـــة متماسكة متحدة الاهداف والمواقف ، بل ان وجودمؤسسة يهودية منظمة وفاعلـــة ودات امكانيات ضخمة وتستغل طبيعة النظام السياسي الاميركيمن جهة ، والتركيب النفسي لليهودي الاميركـــي العادي من جهة اخرى ، هي التي تقف وراء هذه القوة وتجعلها ذات تأثير فعال على الصعيـــد الاميركي العام وعلى الصعيد اليهودي.وسنوضح دور هذه المؤسسة في سياق هذا المقال .

... جزء من الشعب الاميركي

ان يهود الولايات المتحدة جزء من الشعـــــب الاميركي وهم خاضعون للتأثيرات التي يتعـــرض لها الشعب الاميركي عامة . وقد لوحظ مؤخـــرا على سبيل المثال ان التحول الذي طرأ على ما تنشره الصحافة الاميركية منذ حـــــرب تشرين ،وخاصة انتقاد عمليات الاستيطان في الاراضـــي العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ ، أثر في الرأي العام الاميركي اليهودي وغير اليهودي علـــــى السواء بحيث بدات ترتفع اصوات يهودية اميركيةمتزايدة ضـــد الاستيطان وضد تزمت السياسة الاسرائيلية .

مع ذلك تحاول الحركة الصهيونية باستمـــــرارخلق صفاتمميزة ليهود اميركا عنبقية المجموعات الاثنية في المجتمع الاميركي محاولة اقناعهم بأنهميهود قبل أن يكونوا اميركيين وتحاول ارهابهـــم بمعبع « اللاسامية » التي قد تظهر في اميركـــــا ــ على حد قولهم ــ مثلما ظهرت في اوروبـــــا ولذلك عليهم الاسراع بانقاذ انفسهم عن طريـــقالهجرة الـــى « ملجأ اليهود » اي الى فلسطين المحتلة . فمثلا قال المهولون بخطر اللاسامية ان الولايات المتحدة قد تتعرض الى أزمة اقتصاديـــة سيكون أحد نتائجها رد فعل معاد لليهود . وقال هؤلاء ان مرور الولايات المتحدة بثورة اجتماعية سيؤدي الى رد فعل من اليمين الاميركي ضـــــد اليهود ، لان لهـــم دورا بـــارزا في اوســـــاط الراديكاليين والليبراليين . وقال هؤلاء ايضا انه بعد انتهاء حرب الفيتنام سيكون هناك رد فعل غاضب ضد اليهود في الولايات المتحدة .

ومع أن كل هذه التوقعات لم تتحقق فـــــانحملة التخويف مستمرة .

فمثلا نشرت في العام الماضي دراسة لاستـــاذيهودي من كلية علم الاجتماع في جامعة هارفـــرد الاميركية (١٣) استنتج فيها ان يهود اميركـــــــامعرضون لاخطار « اللاسامية » منذ اواخـــــــر الستينات ودلك لبروز ثلاث ظواهر :

١ ــ ظهرت في الولايات المتحدة حركة ضـــــدالتمييز العرقي والجنسي وضد اصحاب الامتيازات واليهود يعتبرون من اصحاب الامتيازات البارزينومن دلائل ذلك مثلا انهم ــ اي اليهود ــ يشكلون

نسبة ٣ ٪ فقط من مجموع سكان الولايات المتحدةفي حين تصل نسبتهم بين أساتذة الجامعات المرموقة في الولايات المتحدة الى ١٩ ٪ .

٢ ــ بدأ الاهتمام ينصب على المجموعات الاثنية في المجتمع الاميركي ويجري القيام باعداد الدراسات والاحصاءات المختلفة حول هذا الموضوع . وهذا الامر سيساعد على كشف من هم أصحاب الامتيازات الذين يأخذون من المجتمع اكثر مما يستحقون . واليهود يحتلون مراكز حساسة وبارزة فيالاماكن الهامة ومكاسبهم بارزة بشكل « يقلع العيون » .

٣ ــ العامل السابق يصبح خطيرا عندمايضاف اليه العامل الثالث : **اسرائيل** . فاليهود يطلبون الكثير الكثير لدعم اسرائيل « واليوملا توجد أمة كبيرة مستعدة ان تقف ضد القوة العربية والارهاب العربي وان تظهر كصديقةلاسرائيل سوى الولايات المتحدة ... » ان المساعدات التي تقدمها الولايات المتحدة لاسرائيلتفوق حجم كل المساعدات الخارجية الاميركية وهذا الامر يضع اليهود في موضع الارتباكوالانفضاح فهم من جهة مكشوفون اثنيا ومن جهة ثانية مكشوفون كطالبي عون مبالغ فيه لاسرائيل.وهكذا بدلا من ان يظهر اليهود مثل سواهم في المجتمع الاميركي تبرزهم كمميزين عن سواهم .هناك مثلا في الولايات المتحدة ايرلنديون ويونانيون يؤيدون بلادهم الاصلية ولكنهم لا يطلبون من الولايات المتحدة ان تقدم لها الكثير . فعندما غزت القوات التركية قبرص عام ١٩٧٤ ثار اليونانالاميركيون وتظاهروا . فماذا كان مطلبهم ؟ كل ما طلبوه هو ان لا ترسل الولايات المتحدة الاسلحةالى تركيا عدوة بلادهم الاصلية (١٤) » .

اما المخرج الذي يقترحه الاستاذ المذكور فهواقناع الرأي العام الاميركي بواسطة اليهود ووسائل اعلامهم هناك بأن الولايات المتحدة التيتدين بمبدأ المحافظة على حقوق الافراد ومساعدتهم لا يكفي ان تساعد الافراد فقط بلعليها مساعدة الامم ايضا بحيث يكون في ذلك تبرير لمساعدة اسرائيل . وهو في الواقع بدلا منان يقترح حلولا ليهود اميركا من اخطار قد يتعرضون لها في وطنهم بسبب الدعم الهائللاسرائيل على حساب الشعب الاميركي ، يحاول دفعهم لمزيد من التورط في نفس الاتجاه . وليسهذا غريبا اذا ما علمنا ان بعض الصهيونيين يتمنون فعلا ان تظهر في اميركا موجة «لاسامية»لان الوسائل الاخرى لم تنجح حتى الان في حمل اليهود الاميركيين على الهجرة من وطنهم الىفلسطين المحتلة .

مع ذلك يبدو ان كل هذا التخويف لا يحققالنتائج المرجوة منه بدليل ان الهجرة اليوم من الولايات المتحدة الى اسرائيل تعاني هبوطامستمرا في حين تتصاعد الهجرة من اسرائيل الى امريكا ، حيث تقدر المصادر الاسرائيلية ان اكثرمن ربع مليون اسرائيلي هاجروا الى امريكا . وقد ذهبت صحيفة اسرائيلية الى القول انه « منذحرب اكتوبر اصبحت الهجرة اليهودية من امريكا واصبحت الفكرة الصهيونية فيها تمران في حالةاحتضار » (١٥) .

العلاقات بين اسرائيل ويهود اميركا

يمكن النظر الى مجموع العلاقات بين اسرائيل ويهود امريكا من اربع زوايا :

١ ــ من الناحية الايديولوجية
٢ ــ من الناحية السياسية
٣ ــ من الناحية الاقتصادية
٤ ــ من الناحية الطبيعية ــ أي الهجرة .

العلاقة الايديولوجية

يأخذ الصهيونيون في اسرائيل على يهوداميركاان ارتباطهم بالايديولوجية الصهيونية ضعيف ، بل وآخذ بالتلاشي باستمرار . ولكن تقييم هذه الناحية متباين بحسب التيارات الصهيونية داخل الاحزاب الاسرائيلية المختلفة . فهناك اوساطواسعة في الحركة العمالية الحاكمة في اسرائيل تميل الى التسليم بوجود مركزين كبيرين لليهود : اسرائيل وأمريكا . وتبدي استعدادها لاعطاء شهادة صهيونية لكل يهودي يدعم اسرائيلسياسيا وماليا كما عبرت عن ذلك تصريحات قادة المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية التي تعاقب على رئاستها رجال من حزب العمل مثل اريه بنكوس وبنحاس سابيرويوسف الوجي . ولكن الاحزاب اليمينية وخاصة حيروت والمتدينون ما زالوا يتمسكون بالمبدا القائل ان الصهيوني وحتى اليهودي لا تكتمل صهيونيته أو يهوديته الا عندما ينتقل للعيش في« ارض اسرائيل » .

فاذا كان موضوع الهجرة الى اسرائيل هو المقياس لصهيونية يهود امريكا يمكننا القول اليوم ان الايديولوجية الصهيونية ، بهذا المعيار تكادتكون معدومة في الولايات المتحدة لان هجرة اليهود الامريكيين الى اسرائيل التي كانت ضعيفة دائماكادت تتوقف كليا منذ حرب تشرين ١٩٧٣ ، كما شهدت على ذلك الاحصاءات الرسمية الاسرائيلية .

مع ذلك قد يكون صحيحا ان معظم يهودامريكا يؤمنون بوجود اسرائيل كما يزعم الاسرائيليون ولكن هؤلاء يفضلون العيش في الولايات المتحدة ويكتفون بالتأييد السياسي والمالي كتعبير عن تعاطفهم معها . اما الاقلية منيهود امريكا التي تؤمن بوجوب العيش فياسرائيل فترى ان اسرائيل بمجتمعها القائم « خالية من المضمون اليهودي الروحي الذي قد يجعل منها مركز جذب للاخرين » (١٦) .

ان مجتمع اليهود في امريكا مختلف عن مجتمع اليهود في فلسطين المحتلة . فيهود امريكا اكثر تسامحا وليبرالية ، ربما بحكم كونهم اقليةفي الولايات المتحدة : ان ظاهرة تعاظم اليمين في اسرائيل بعد حرب حزيران ١٩٦٧ لم ترافقهاظاهرة مماثلة لدى يهود امريكا ، فحركة «غوش ايمونيم » الاستيطانية في اسرائيل لا تجد تأييداالا لدى القليلين من اليهود في امريكا وهؤلاء يشكلون اقل من عشر يهود امريكا «وعندما ادلى الدكتور كيسنجر بتصريح ضد الاستيطان الاسرائيلي في الاراضي العربية المحتلة لم يرتفعضده صوت يهودي واحد » (١٧) .

وهنا يبرز السؤال : لماذا هذا الدعم الكبيرسياسيا واقتصاديا ؟ هناك عدة عوامل قد يكون اهمها ما يلي :

١ ــ المؤسسات والمنظمات التي تتزعم اليهودفي امريكا تجني مكاسب اقتصادية وسياسية من وراء جمع وتنظيم الدعم لاسرائيل . ولدى هذه المؤسسات وسائل ضخمة لتحقيق اهدافها في مختلف الميادين .

٢ ــ عقدة الاضطهاد عند اليهود الذين هاجر اباؤهم واجدادهم من اوروبا الشرقية الى امريكا منذ بداية القرن . ويلاحظ انه عندما يزور زعيماسرائيلي الجاليات اليهودية في امريكا يقبل عليه اليهود الامريكيون ويصغون الى خطبهومحاضراته وكلما كان هذا الزعيم الاسرائيلي متطرفا اكثر فان حماس اليهود الامريكيين يكوناكبر . ويحدث العكس اذا كان الزائر معتدلا في ارائه وقد حدث ان قاطع هؤلاء ندوات لاشخاصمثل متتياهو بيلد واوري افنيري . ويفسر اوري افنيري هذه الظاهرة قائلا انهم يعيشون عقدةنفسية عميقة بسبب ماضي ابنائهم في اوروبا

الشرقية ويشعرون بعقدة نقص تجاه الانكلـــوساكسون وهم لذلك يريدون ان تكون اسرائيل قوية متحجرفة وتعامل المير بقســوة مثلما كان القياصرة يعاملون اجدادهم . انهم يريدون اقناع عقدتهم النفسية ولكن ليس الى حد الاصطدام بالادارة الامريكية الامر الذي يهدد مصالحهم في الولايات المتحدة (١٨) .

العلاقة السياسية

المقصود بهذه العلاقة ناحيتان اولا : مدى مشاركة يهود امريكا أو زعاماتهم في اتخاذ القرار في اسرائيل . ثانيا : النشاطات السياسية التي تقوم بها هذه الزعامات ومؤسساتها داخـــل الولايات المتحدة من اجل دعم اسرائيل سياسيا . فمن ناحية المشاركة في القرار الاسرائيلي يبدو ان هذا الامر معدوم تقريبا ولكن ظهرت في السنوات الاخيرة مطالبة يهودية امريكية بالمشاركة في الحياة السياسية في اسرائيل وتويت هذه المطالبة بعد حرب تشرين ١٩٧٣ (١٩) .

اما الناحية الثانية والاهم فهي مجمـــوع النشاطات السياسية التي تقوم بها المؤسسات والمنظمات اليهودية الامريكية بهدف التأثير على مؤسسات الحكم والادارة في امريكا وعلى الرأي العام الامريكي واليهودي فيها . هذه النشاطات التي كثيرا ما تتخذ طابع الضغط والابتزاز . فما هي المنظمات الصهيونية الرئيسية التي تقـــوم بهذه النشاطات ، وما هي ميادين نشاطاتها :

١ ــ **«الدهليـــز» اليهـــودي في الكونغـــرس** وهو اهم دهاليز الضغط الصهيونية في مؤسسات الحكم والادارة الامريكية ويمثل هذا الدهليز لجنة مشكلة من رؤساء لاربع عشرة منظمـــة صهيونية في الولايات المتحدة وتنتحل هذه اللجنة اسم «اللجنة الامريكية الاســـرائيلية لشـــؤون الجمهور » « A. I. P. A. C. » ووظيفتها « تركيز كل الجهود من اجل اسرائيل في الكونغرس» (٢٠) أي ان هذه اللجنة المتمركزة في الكونغرس تؤثر على اعضائه ومواقفهم بواسطـــة قوة وامكانيات ١٤ منظمة صهيونية قوية تقف وراءها في امريكا وتؤثر هذه اللجنة في نفس الوقت على نتائـــج انتخابات اعضاء الكونغرس وعلى تعيين مستشاريهم ومساعديهم . ويرأس هذه اللجنة منذ بداية ١٩٧٥ موريس اميتاي وهو شاب يهودي «٣٩ سنة» وتدسّل منذ عام ١٩٧٠ منصب مساعد السيناتور اليهودي ابراهام ريبيكوف . وفي منصبه هذا نشط كثيرا في « الشؤون اليهودية » مثل تقديم المساعدات الى اسرائيل وتعديل جاكسون حول الهجرة من الاتحاد السوفيتي وغير ذلك . وهو المســـؤول الاول عن تشكيل مجموعة من المساعدين اليهود لاعضاء الكونغرس الذين ينشطون في العمل على دعم اسرائيل . ونشاط اميتاي هذا دفع رؤساء المنظمات اليهودية الى تعيينه رئيسا للجنـــة المذكورة .

ويمكن الوقوف على طبيعة نشاط اميتاي ولجنة في الكونغرس من قراءة مقابلة اجرتها معه صحيفة **نيويورك تايمز** في أول آب ١٩٧٥ . ومن جملة ما قاله للصحيفة : «لم يحدث مرة ان خسرنا اية معركة جدية «لصالح اسرائيل» في الكونغـــرس... الدراسة التي تعدها منظمتنا هي من افضل الدراسات التي تعد في واشـــنطن . نحـــن مشتركون بجريدة **الجيروزالم بوست وبيروت سفار** واكثر من ذلك : **انني اعرف جيـــدا كل هـــؤلاء الناس في وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية** . نحن قادرون ومؤثرون ولدينا ما نبيعه للامريكيين : ما هو حسن لاسرائيل حسن لامريكا ايضا ... اذا كنت تحاول ان تحصـــل على شيء فمن الافضل ان تستخدم ضغطا مبالغا به بدلا من ان تستخدم ضغطا اضعـــف **مـــــايجب** » (٢١)

وقد لوحظ ان هذه التصريحات اثارت غضب بعض الاميركيين ، وحتى بعض زعماء المنظمات اليهودية الذين عارضوا هذه التصريحات قائلين : « انه كلما سمع من الدهليز اليهودي اقل كلما كان نجاحه اكبر » ولكن البعض فسروا ذلك على انه خلاف بين جيل الزعماء الشيوخ الذين يفضلون اتباع التوسل والالحاح وجيل الزعماء الشباب الذين يفضلون الضغط المباشر واظهار القوة . ويبدو ان في الموضوع مسألة توزيع ادوار حيث ان امتياي ورفاقه يتولون مهمة استعراض العضلات والترهيب بين حين واخر ، واما الزعماء الشيوخ مثل عزرائيل ميلر (رئيس لجنة الرؤساء) فيعملون على امتصاص ردود الفعل الغاضبة التي قد يثيرها استعراض العضلات . ومهما يكن شأن تصريحات امتياي هذه فيمكن القول بصورة عامة ان جماعات الضغط وسائر المنظمات الصهيونية تتبع عادة طريقة العمل بصمت في مجال التأثير على رجال الحكم والادارة في اميركا .

ويعتبر الكونغرس الاميركي اهم جهاز يمكن التأثير منه على السياسة الامريكية ، فأول ما يهم النواب فيه هو جمهور ناخبيهم من ولاياتهم ومناطق انتخابهم وتعمد المؤسسة الصهيونية بواسطة اعلامها وامكاناتها الى التأثير على الرأي العام في كل ولاية لجهة انتخاب المرشح المؤيد لاسرائيل . وللكونغرس دور فعال في رسم سياسة البيت الابيض الخارجية ووضع ميزانية المساعدات الخارجية خاصة اذا كان الحزب المعارض يتمتع بالاغلبية كما حدث في الانتخابات الاخيرة لمجلس الشيوخ والنواب . والكونغرس يؤثر ايضا على معركة انتخابات الرئاسة من خلال التأثير على اعضاء المؤتمر الوطني لكل من الحزبين والرأي العام .

وقد اتضحت قوة الضغط اليهودي على الكونغرس من حقيقة ان البيت الابيض « احتاج اكثر من مرة الى دعم اسرائيل بهدف اقرار ميزانية المساعدات الخارجية ففي السنوات الاخيرة لحرب فيتنام عمد البيت الابيض الى ربط ميزانية المساعدات لاسرائيل مع مصاريف الحرب في جنوب شرق اسيا لكي يصادق الكونغرس على مجموع الميزانية بفضل مصادقته الاكيدة على المساعدات لاسرائيل ... » (٢٢) .

٢ ــ **لجنة الرؤساء** : وتركز هذه اللجنة، المؤلفة من رؤساء ٣٢ منظمة صهيونية ، النشاطات السياسية وتنسق بين جهود جاليات الولايات المتحدة لخدمة مصالح اسرائيل ، وتستطيع بامكاناتها المتوفرة وخلال وقت قصير جمع عشرات الالوف من اليهود بهدف التظاهر في المدن الاميركية تأييدا لاسرائيل ، « وهي تعمل بوحي من حكومة اسرائيل وتمشيا مع سياستها الرسمية دون اي تدخل في شؤون اسرائيل الداخلية » (٢٣)

٣ ــ الجباية اليهودية الموحدة التي تركز الجهد المالي الضخم وتخصص ٨٠ بالمئة منه لاسرائيل ويفترض في هذه المنظمة من الناحية القانونية ان لا تتدخل في الشؤون السياسية ، وان تخصص الاموال التي تجمعها في الاعمال الخيرية والانسانية ولكن تلك الاموال المعفاة من الضرائب تصب في مجال تسليح اسرائيل بصورة رئيسية ويخصص جزء منها لتمويل مختلف الاحزاب الاسرائيلية وعمليات الاستيطان في الاراضي العربية المحتلة. وهذه المنظمة لا يوجد لديها اي اشراف على كيفية تصرف اسرائيل بالاموال التي تقدمها لها .

٤ ــ « بني بريت » واهم جهاز في هذه المنظمة الصهيونية لجنة تنتحل اسم « لجنة مكافحة التشهير » وهي بمثابة جهاز مخابرات صهيوني واسع يلاحق رجال السياسة والاقتصاد والاعلام الاميركيين ويكشف عن كل من « يعادي اسرائيل واليهود » ويشهر بهم .ويوجه اليهم الضغوط بمختلف الوسائل . وقد نشط هذا الجهاز مؤخرا بملاحقة كل شركة اميركية تبدي استعدادا للتجاوب مع المقاطعة الاقتصادية العربية لاسرائيل .

اضف الى ذلك اجهزة الاعلام وشركات العلاقات العامة التي تسيطر عليها هذه المنظمات . وهذا

لا يقتصر على اجهزة الاعلام الرئيسية في المراكز الكبرى كنيويورك وكاليفورنيا بل ان هذه المنظمات تحرص على ان تكون لها صحف خاصة ونفوذ في باقي الصحف في كل ولاية بهدف التأثير على الراي العام فيها لما ينطوي عليه ذلك من اهمية بالنسبة لانتخابات اعضاء الكونغرس والانتخابات الرئاسية .

وباختصار يقوم الدعم السياسي لاسرائيل على الاسس التالية :

أ — خلق جماعات ضغط في مؤسسات الحكم والادارة ، ففي النظام الاميركي يوجد « تطابق مصالح » بين الناخب والمنتخب . واستغلال طبيعة هذا النظام بهدف توجيه الضغط على الاعضاء المنتخبين في مجلس النواب والشيوخ والمؤتمرات الوطنية للاحزاب المنعقدة قبيل الانتخابات الرئاسية بهدف خدمة مصالح اسرائيل.

ب — القيام بنشاط واسع من اجل التأثير على نتائج الانتخابات الرئاسية واهم وسيلة متبعة لذلك العمل على انتخاب « اصدقاء اسرائيل » اعضاء في مؤتمرات الحزبين الجمهوري والديمقراطي . هذه المؤتمرات التي يتم فيها انتخاب مرشح الحزب لرئاسة الجمهورية وكذلك التأثير عن طريق الاعلام على ناخبي هؤلاء الاعضاء في ولاياتهم . فلأن الولايات المتحدة تتبع اسلوب المناطق الانتخابية الجارية تستغل المؤسسة الصهيونية حقيقة ان فورد هو رئيس غير منتخب ويخوض الانتخابات لاول مرة بهدف الضغط عليه من اجل ملائمة برنامجه السياسي مع مصالح اسرائيل .

حـ — القيام بنشاط اعلامي واسع يستهدف الراي العام اليهودي والاميركي وحتى مندوبي اعضاء الامم المتحدة المقيمين في نيويورك عن طريق اجهزة الاعلام المختلفة وتنظيم المظاهرات الحاشدة.

العلاقة الاقتصادية

وتقوم هذه العلاقة على الدعم الاقتصادي الضخم الذي تعتمد عليه اسرائيل ويمكن تقسيمه الى قسمين :

١ — ما تجمعه الجباية اليهودية الموحدة المتخصصة بجمع اموال التبرعات من يهود اميركا وقد بلغ مجموع ما قدمته هذه الجباية الى اسرائيل من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٧٥ مبلغ ٢٢١٤ مليون دولار (٢٤) .

٢ — المساعدات والقروض الضخمة التي يقرها الكونغرس من ميزانية الولايات المتحدة لمساعدة اسرائيل ، والتي تفوق كل ما تقدمه الولايات المتحدة من « المساعدات الخارجية » لباقي دول العالم . وللمؤسسة الصهيونية كما اسلفنا ، دور رئيسي في دفع الكونغرس الى اقرار هذه الميزانية كل عام .

وبالاضافة الى ذلك تعمل اسرائيل والمؤسسة الصهيونية في اميركا ، على دعم الاقتصاد الاسرائيلي بالوسائل التالية :

أ — توظيف رؤوس الاموال الاميركية في اسرائيل وخاصة في الفروع التي تدعم قدرتها الاقتصادية.

ب ــ توظيف احدث الخـــــبرات العلمية والتكنولوجية في فروع الاقتصاد الاسرائيلي .

ج ــ توظيف الاموال عن طريق شراء سندات دين خاصة بالحكومة الاسرائيلية ومنظمة اليونرز الصهيونية .

د ــ تشجيع التبرع الى الجباية اليهودية .

الهجـــرة

رغم كل الوسائل التي تتبعها المؤســـــسة الصهيونية لدفع يهود اميركا للهجرة الى اسرائيل يبدو ان الجاليات اليهودية الاميركية غير متحمسة لمغادرة وطنها الى اسرائيل . ان اعلى رقـــم حققته الهجرة اليهودية من اميركا الى اسرائيل في سنة واحدة لم يزد على ٧ــ٨ آلاف مهاجـــر على الرغم من كون الولايات المتحدة تحتوي على اكبر تجمع يهودي في العالم .

وقد اعترف السفير الاسرائيلي في واشنطن (٢٥) بأنه اذا كان لدى الشباب اليهـود في اميركـا بعض المشاعر الصهيونية فان هذا الشعور لايشتمل على تحسس « واجب الهجره الـــــى اسرائيل » . ودعا الى اتباع الطرق التاليـــةلتشجيع هذه الهجرة :

١ ــ استجلاب طلاب يهود من اميركا للالتحاق في الجامعات الاسرائيلية لمدة سنة واحدة ، على امل ان يمددوا اقامتهم فيها .

٢ ــ انتتاح جامعات اميركية في اسرائيل . ولاتوجد حتى الان مثل هذه الجامعات .

٣ ــ تشجيع رجال الاعمال اليهود في اميركاعلى بناء المدن والضواحي في اسرائيل والتي تلائم متطلبات سكنى اليهود الاميركيين .

وقد عبر اهود ابريئيل ، قنصل اسرائيل العام في شيكاغو ، عن يأسه من امكانية الهجرة مـــن اميركا الى اسرائيل ، ودعا فقط الى محاولـــــةاعادة الاسرائيليين الذين هاجروا من اسرائيل الى مدن الولايات المتحدة (٢٦) .

واعترفت صحيفة دافار شبه الرسمية (٢٧)، ان اسرائيل تواجه في مسألة الهجرة من اميركا فشلا مضاعفا . فمن جهة توقفـــت الهجرة مـــن اميركا ، ومن جهة ثانية زاد عدد المهاجريـــــن الاسرائيليين اليها . ودعت الى اتباع الوسائل التالية لتشجيع الهجرة الى اسرائيل مـــــــن اميركا .

١ ــ اغراء المتقاعدين من يهود اميركا في ان يقضوا اوقاتهم على شواطىء فلسطين المحتلـــة بدلا من شواطى كاليفورنيا وفلوريدا . لكـــــــي يصرفوا دولاراتهم في اسرائيل .

٢ ــ اغراء الشباب اليهود الثائرين ضـــــد التقاليد الى البحث عن اساليب حياة جديدة فـــي اسرائيل بدلا من ان يتحولوا الى « يساريـــــن وهيبيين » .

٣ ــ العمل على اعادة ربع مليون مهاجـــر اسرائيلي من اميركا بواسطة حملة دعاية واغراء.

وكانت الصحيفة نفسها (٢٨) قد دعت الى تركيز الاهتمام بالفقراء من يهود اميركا وهم الذين لا يزيد دخلهم على ٥٠٠٠ دولار في السنة، وعددهم حوالي نصف مليون يهودي .

وذكرت الصحيفة نفسها ان هؤلاء لا يعرفون اسرائيل لانهم لا يزورنها لاسباب مادية . واتهمت الصحيفة الاجهزة الصهيونية المختصة باهمال هذه الفئة من اليهود الفقراء .

ولعل من العوامل التي تجعل الهجرة اليهودية في اميركا الى اسرائيل ضعيفة ما يلي :

١ ــ اليهود الاميركيون غير مستعدين للتخلي عن رفاهيتهم الاقتصادية في اميركا والتي لايجدونها في اسرائيل .

٢ ــ الخوف من الاوضاع الامنية بسبب عمليات المقاومة الفلسطينية واحتمالات الحرب مع الدول العربية.

٣ ــ بعض اليهود الاميركيين يعرف ان اسرائيل دولة تقوم على وطن الشعب الفلسطيني المغتصب بالقوة .

٤ ــ المتدينون اليهود في اميركا يزعمون انهم يستطيعون ممارسة حياتهم اليهودية في اماكن تجمعاتهم في اميركا اكثر مما يستطيعون ذلك في اسرائيل التي يخلو مجتمعها من المضمون الروحي ــ على حد قولهم ــ والكل فيها يسعى وراء المال وهي مهمة اسهل بكثير في اميركا نفسها .

قلق على مستقبل العلاقات ؟

يجمع المراسلون الاسرائيليون في الاونة الاخيرة على ان علاقات اسرائيل بيهود اميركا آخذة بالضعف والفتور . وقد شنت الصحف الاسرائيلية حملة على يهود اميركا لانهم على حد زعمها لم يفعلوا ما فيه الكفاية لمواجهة قرارات الامم المتحدة التي عرفت الصهيونية كحركة عنصرية .

من ناحية اخرى شكت الدوائر الاسرائيلية من تزايد قوة الاعلام العربي في اميركا واحتمالات تأثيره على الرأي العام الاميركي وبضمنه الرأي العام اليهودي هناك . خاصة وان منظمات وشخصيات يهودية اميركية بدأت مؤخرا تدين بصوت عال سياسة التوسع الاسرائيلية وتزمتها في التنكر لحقوق الشعب الفلسطيني العادلة .

ومهما يكن من امر فان اهم ما قد يؤثر على نوعية العلاقات بين اسرائيل ويهود اميركا هو الوضع العربي العام وممارسات العرب السياسية والعسكرية والاعلامية ونمو قوتهم الذاتية . وكذلك وضع الكيان الصهيوني المتأثر حتما بالوضع العربي . ولايضاح ذلك نورد الملاحظات التالية :

١ ــ حرب تشرين عام ١٩٧٣ وحظر النفط العربي خلال تلك الحرب ، كانا عاملين هامين في انتشار النقد اليهودي الاميركي لاسرائيل . وهناك شخصيات يهودية اميركية سكتت عن الاحتلال الاسرائيلي قبل وبعد حرب حزيران ١٩٦٧ ولكنها بدأت عقب حرب تشرين تنتقد نوايا التوسع الاسرائيلية ولو بدافع الخوف من ان سياسة التوسع والتصلب التي تنتهجها الحكومة الاسرائيلية في ظل نمو قوة العرب ، قد تؤدي الى انهيار الدولة الصهيونية في المستقبل . ان القوة التي اظهرها العرب وتضامنهم النسبي خلال تلك الحرب جعلا الكثيرين من يهود اميركا يشعرون بانهم بمراهنتهم على اسرائيل ، انما يراهنون على « حصان خاسر » .

٢ ــ يهود الولايات المتحدة جزء من المجتمع الاميركي ، ويخضعون للتأثيرات التي يخضع لها المجتمع الاميركي ككل . وكل كسب اعلامي عربي على صعيد الصحافة الاميركية يؤثر على مواقف الشعب الاميركي ايجابيا ويضمن ذلك يؤثر على اليهود الاميركيين ومواقفهم.

٣ ــ علاقات يهود اميركا باسرائيل هي علاقات مصلحية بالدرجة الاولى . فمثلا نجاح المقاطعة الاقتصادية العربية في التأثير على تعامل الشركات الاميركية مع اسرائيل قد يؤدي الى النتائج ذاتها مع الشركات اليهودية الاميركية.

٤ ــ ان كون يهود الولايات المتحدة يعانون من العقدة النفسية التي اشرنا اليها انفا ،والتي تجعلهم يميلون الى رؤية اسرائيل قوية وقاسية وتعامل الغير بفظاظة مثلما فعل القياصرة مع اجدادهم . هذه الحقيقة قد تجعلهم يتنكرون لاسرائيل اذا ما ظهرت ضعيفة ومغلوبة على امرها . ولعل هذه الحقيقة هي التي جعلت يهود اميركا يلتفون حول اسرائيل بعد نصرها في عام ١٩٦٧ وجعلتهم ينتقدونها بعد الضربة التي تلقتها في حرب ١٩٧٣ .

٥ ــ ان اليهودي الاميركي الذي يشعر انه يضحي بالكثير من ماله من اجل اسرائيل ، يصاب بخيبة امل كبيرة عندما يصل الى علمه ان المجتمع الاسرائيلي يتخلله الكثير من مظاهر الفساد . وان مسؤولين اسرائيليين كبارا من مدنيين وعسكريين وجدوا متورطين بالرشوة والكسب غير المشروع كما ظهر بشكل خاص في اعقاب حرب ١٩٧٣ ، وتأكيدا لذلك يقول البروفسور امنون روبنشتاين في معرض نقده لعلاقات يهود اميركا واسرائيل : « من اجل ان تقوي العلاقات بين اسرائيل ويهود اميركا ، يجب ان تجري عمليات جراحية عميقة في داخل المجتمع الاسرائيلي نفسه » (٢٩) .

٦ ــ ان مظاهر الضعف والانتكاسات التي تتعرض لها اسرائيل تؤثر سلبيا على يهود اميركا. وفي نفس الوقت فان مظاهر القوة في العالم العربي تؤثر ايجابيا على الجاليات العربية في الولايات المتحدة وتقدم لها الفرصة والقدرة على زيادة وتحسين نشاطها السياسي والاعلامي لدعم القضية العربية على صعيد الرأي العام الاميركي .

٧ ــ ان عملية فضح العنصرية الصهيونية والتي حققت نجاحا هاما في قرارات الامم المتحدة التي ادانت الصهيونية كحركة عنصرية ، ومواصلة هذه الحملة بنجاح ، من شأنها ان تبعد الكثيرين من اليهود عن الفكرة الصهيونية وان تجعل من مهمة المدافعين منها مهمة صعبة .

٨ ــ ان قوة يهود اميركا مهما عظم شأنها ،لا يمكن ان تقبل كمبرر لسياسة الحكومة الاميركية في وقوفها مع العدوان الاسرائيلي ضد الحق العربي ، خاصة وان الاسرائيليين انفسهم يشهدون ان يهود اميركا لن يذهبوا في ممارساتهم المؤيدة لاسرائيل الى حد التصادم مع الادارة الاميركية ، وان يهود اميركا « يبيعون » الاميركيين الفكرة . القائلة : ان كل خدمة لمصالح اسرائيل هي خدمة لمصالح اميركا نفسها .

الهوامش

١ ــ أوري غوردون،دافار ، ٩ ــ ٩ ــ ٧٥ .
٢ ــ هآرتس ، ١١ ــ ١١ ــ ٧٤ .
٣ ــ دافار ، ٩ ــ ٩ ــ ٧٥ .
٤ ــ هآرتس ، ١٤ ــ ١١ ــ ٧٥ .
٥ ــ دافار ، ٩ ــ ٩ ــ ٧٥ .
٦ ــ معاريف ، ٥ ــ ١ ــ ٧٦ .
٧ ــ ميخائيل شاشار ، يديعوت احرونوت ، ٦ ــ ١١ ــ ٧٥ .
٨ ــ هآرتس ، ١٤ ــ ١١ ــ ٧٥ .
٩ ــ يديعوت احرونوت ، ٦ ــ ١١ ــ ٧٥ .
١٠ ــ المصدر نفسه .
١١ ــ المصدر نفسه .
١٢ ــ معاريف ، ٥ ــ ٩ ــ ٧٥ .
١٣ ــ بروفسور نتان غلايزر ، دافار ، ١٥ ــ ٨ ــ ٧٥ .
١٤ ــ المصدر نفسه .
١٥ ــ دافار ، ١٦ ــ ١٠ ــ ٧٥ .
١٦ ــ هآرتس ، ٢٧ ــ ٢ ــ ٧٦ .
١٧ ــ هآرتس ، ٥ ــ ١ ــ ٧٦ .
١٨ ــ همولام هزه ، ٩ ــ ٧ ــ ٧٥ .
١٩ ــ هآرتس ٢٧ ــ ٢ ــ ٧٦ .
وايضا :
The Jewish Post and Opinion , April 6 , 1973 .
٢٠ ــ دافار ، ٥ ــ ٩ ــ ٧٥ .
٢١ ــ المصدر نفسه .
٢٢ ــ معاريف ، ١٣ ــ ١٠ ــ ٧٥ .
٢٣ ــ هآرتس ، ١١ ــ ١١ ــ ٧٤ .
٢٤ ــ عل همشمار ، ٢٤ ــ ٦ ــ ٧٥ .
٢٥ ــ دافار ، ٢٤ ــ ١٠ ــ ٧٥ .
٢٦ ــ المصدر نفسه .
٢٧ ــ دافار ، ٢ ــ ١١ ــ ٧٥ .
٢٨ ــ دافار ، ١٦ ــ ١٠ ــ ٧٥ .
٢٩ ــ هآرتس ، ٥ ــ ١ ــ ٧٦ .

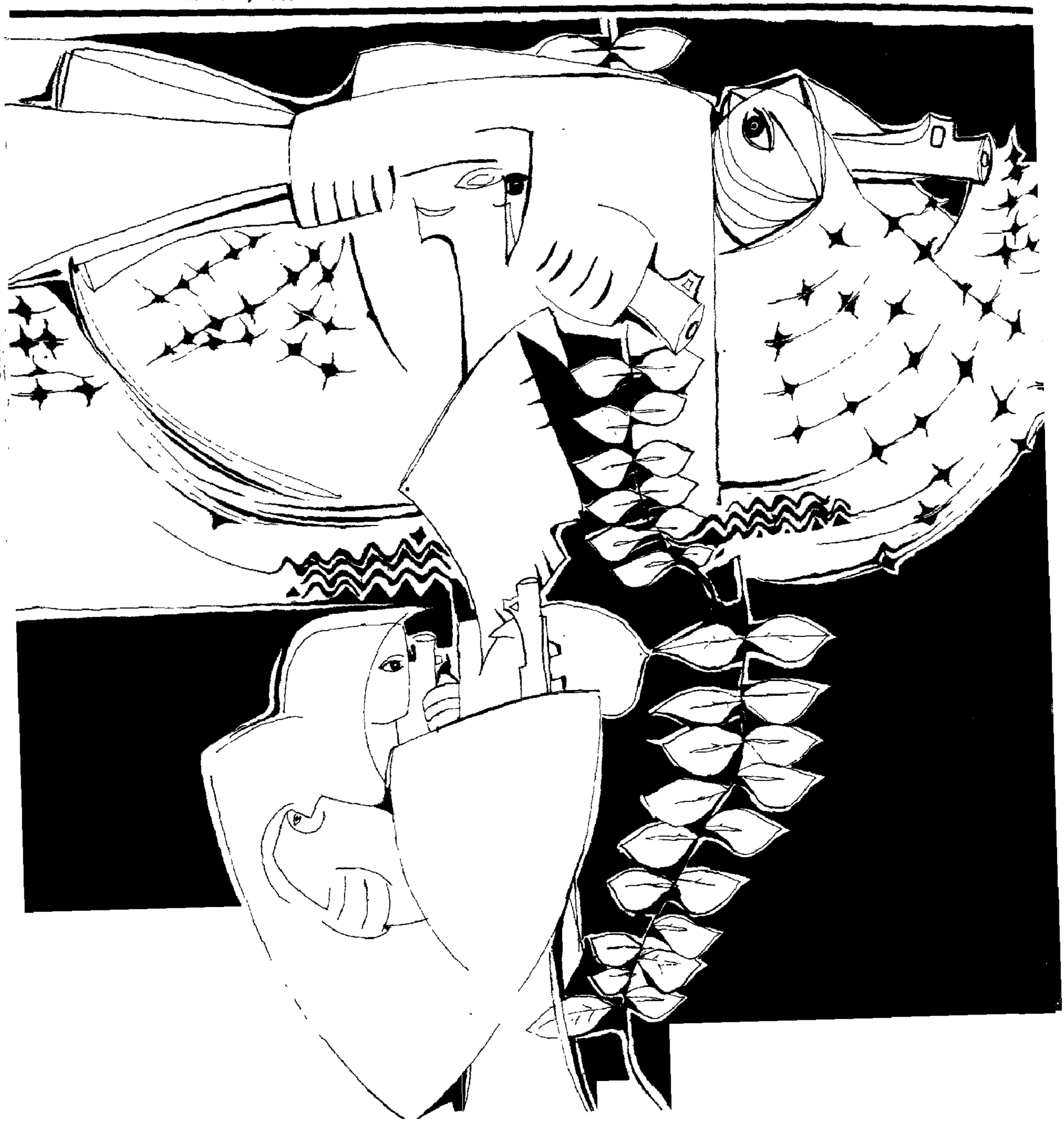
Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail) : Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل٠ل٠ في لبنان
٤ ل٠س٠ في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٨ دراهم في دولة الامارات العربية
٤ ١/٢ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٦٠
تشرين الاول / تشرين الثاني ١٩٧٦
(اكتوبر / نوفمبر)



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٦٠ — تشرين الاول / تشرين الثاني (اكتوبر / نوفمبر) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ؛ رأس بيروت ، بيروت ــ لبنان ؛ ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٢/١ ٣ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٢/١ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في اميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة الفنانة
منى السعودي

المحتويات

صفحة ٤ دم لا يغيب ، محمود درويش ·

٦ من أوراق مقاتل فلسطيني في الجبل ، يحيى رباح ·

٢٦ ثمانية مكاسب اسرائيلية من الحرب الاهلية في لبنان ،
المقدم الهيثم الايوبي ·

٤٢ الجنوب ، مروان ناصر ·

٥٥ الاتجاهات الامبريالية في مخططات اسرائيل الاقتصادية ،
حسين ابو النمل ·

٦٧ الوحدة الكفاحية بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ··
طبيعتها ، تطورها ، اشكالها ، سعيد جواد ·

٩٨ الطائفية والطوائف في لبنان ، البرت حوراني ·

صفحة ١٠٩ **الثقافة والبوليس** ، الياس خوري ·

١١٨ **صور** ، عباس بيضون ·

١٢٣ **المراة الفلسطينية والثورة : ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧** ، غازي الخليلي ·

١٤٥ **مدينة الرواج ومخاض الحرب الاهلية** ، رئيف كرم ·

١٥٥ **الدور الاسرائيلي في احداث لبنان** ، ربيع الاسير ·

١٦٧ **وثيقة:« مشروع كنيغ » بشان الموقف من العرب في اسرائيل** ·

١٨٥ **تعقيب على وثيقة « كنيغ » : اعتراف بسياسة الاضطهاد القومي والعنصرية** ، يوسف حمدان ·

١٨٩ **مناقشات** : حول مذكرات القاوقجي ، نجيب الاحمد ·

دم لا يغيب

■ تتصرف الكتابة الان الى البحث عن ذاتـها الموزعة بيـن التفاصيـل والانهيارات والحلم · تجلس ، تنتظر ، تغيب ، وتعـود الى النهر · سنحتاج الى كتابة جديدة ـ هكـذا نصرخ مع الانفجارات وحرية التجول بين قذيفتيـن · وحين يأتي السكون ، وهو دائمـا نسبي ، نكتشف ونحن خارجون من الحمـاس والغبطة ان الكتابة جديدة دائما · ومع ذلك ، فان المطالبة تاخـذ شكل الكـفر حين يعيش الكاتب فـي التجربة الساخنة ، الملتهبة ·· حين يعيش الـزلزال الدموي ، فيبحث عـن اداة انخراط عاجلة قد لا تكون هـي الكتابة · انـه السؤال ـ المأزق المزمن لا يجـد جوابـه الا في المسافة المولودة من الالتحام ·

وللحصى حواس قادرة على الادلاء بشهادة · قد لا يكون لمثل هذا العـذاب وصف ، ولكننا نعيشه · واولئك الذين ماتوا ، وحيدين ، مـع جلاديهم ورأوا دمهم عـلى السكاكين الهادئة لا يبخـلون الان الا في الرعشة والغضـب ولا تسعهم عبارة · تبقى الكتابة غريبة عـنهم وفيهـم وتموت في التجربة · وتلـك الطفلة الصغـيرة الخارجة من تـل الزعتر ، مضافة الى تراكم البساطة فـي الموت ، وهي تطيـر فـي الفضاء ·· تطير ولا تربطها باليابسة الا كف قاتلهـا المسكة بالجديلة ··· لن تستطيـع أن تدلي بعفويتها وعذابها لانها طـارت وماتت · في هذا الزمن ، تخجل الكتابة من طبيعتها وتعترف ، نعـم تعتـرف بأنها عاجزة عـن تقديم الخـدمة الفورية للناس ، فليس بوسعـها ان تنقـذ طفلة من سادية قاتل ، ولا ان تسرق رغيفا من زحام شظايا ، ولا ان تقدم المـاء لمحاصرين قريبين من البحر وفلسطين · هل نلغـي الكتابة اذن ؟ انها تتمرد عـلى ذاتهـا وتعـرف انها تتحـول ، فـي لحظة من اللحـظات ، الى تـرف · ولكن الحياة ذاتهـا تاتي دائـما وتعترف بانهـا قاسية حتى السخـرية التـي لا ترحـم حين تاخـذ وجهتهـا وتسير استجابة لطبيعتها مزودة بسرها ونسيانها·

ونحن ايضا سنكتب · نمشي الى النهر بتجربة جديدة ، وبقلوب اشد ازدحاما

بالناس · ان اشياء كثيرة تسقط ، ومراحل كثيرة تغلق دوائرها ، ولا يسقط الحلم ، ولا يتوقف النهر · نكبر في التجارب ونصبح اكثر قدرة على الاقتراب من الانسان الذي لا تنقذه الا الثورة · ينمو فينا الفلسطيني والعربي الى الانساني ، وليس العكس هو الصحيح كما قد يتراءى للضيقين · ان للمؤقت جانبية قصيرة العمر ·· وفي البرهة امكانيتان : اما ان تتصل بالمدى ، واما ان تقيم في لذة الغريزة · والذين حاصروا انفسهم بالبرهة وقطعوها عن سياق التاريخ يشعرون الان برغبة صادقة في البكاء · اما الذين الحقوا البرهة بسياقها التاريخي فلا يكفرون بأحلامهم ·

وباختصار : ان جيلا جديدا جديدا قد ولد ، وتبلور ، وعرف كيف يعرف وكيف يقاتل ·لقد انتصر الفرد الجديد على سهولة الهزيمة الاولى، وعلى فضيحة حزيران ، ودخل بوعي جديد مرحلة الصراع الطويل مع تردد تشرين · لقد بدأ الخطو في الطريق الذي لا يخلو من تعرجات · ولن نسمي البرهة الراهنة باكثر من اسمها · انها مفترق بداية ونهاية وتقاطع حاسم ، والوعي الثوري الجديد هو الذي يحمل البوصلة · ولن يكون تمجيد المقاتل الفلسطيني الجديد ، اينما كان ، مجرد اغنية · هو الذي نقل الدفاع الى مواجهة · وهو الذي انقذ الامة ، حين انقلبت التحالفات ، من خطر الابادة وانهيار الحلم ·

ان جيلا جديدا قد تبلور ، والصراع ما زال في الاوج ، وهو الذي يربط الكتابة بفاعليتها · وان الذاهبين في البداية الجديدة هم الذاهبون الى المستقبل ·والذين استشهدوا في معركة الحلم العربي الجميل هم الذين اسسوا هذه الفاتحة · كانوا يعرفون الوجوه التي قاتلوها · وعلينا الان ان نقاتل الايدي التي تحاول ان تسرق نارهم ودمهم · ولن يسقط الحلم وقد تسلح !

محمود درويش

من أوراق مقاتل فلسطيني في الجبل

يحيى رباح

١٩٧٦/٣/٢٨

بعيدة هي المسافة بين سفوح جبل الشيخ حيث العرقوب ، وبين قمم جبل لبنان، حيث صنين والزعرور وجبل الكنيسة وتلال عينطورة ٠٠٠بعيدة هي المسافة في المكان وفي الزمن النفسي ايضا ٠٠٠ ولكن كل شيء الان يتغير بطريقة انقلابية حادة ، طيلة السنوات الماضية كنا نفخر باننا في العرقوب ، ننطق الكلمة باعتزاز ، تتوهج مشاعرنا ، تلمع بريق الاعجاب في عيون الاخرين حين يسالون ٠

ـ أين انتم ؟

ـ نحن في العرقوب ٠

العرقوب بوابة فلسطين ، العرقوب نقطة التماس الساخنة ، العرقوب خط الصدام الاول ، وحينئذ يصبح الموت ٠٠ والقصف ٠٠ والمطر الذي يغرق الخيام والخنادق ، وضيق التنفس خلال الصعود فوق نتوءات الصخور ، يصبح كل ذلك شيئا جميلا ، مشعا ضمن حالات منالشعور بالخطر والفخر والتقدم ٠٠٠ ولكن كل شيء يتغير الان بطريقة انقلابية ، القتال يتسع ٠٠ وتصبح المواقع الامامية في متاريس الشياح ، وقرى طرابلس ، وعلى حافة البحر في الدامور ٠٠٠ وكنا قد سيطرت علينا حالة من الحزن ونحن ندير حوارا فاترا في خيمة محفور لها في الارض ٠٠٠ المطر يهطل بتدفق منتظم ، ودخان سجائرنا يرسم في فراغ الجنحة دوائر وعلامات غامضة ٠

ـ كنا في الخط الاول ٠٠٠ صرنا في الخط الاخير ٠

ولعل كل واحد منا اخذ نفسا اعمق من سيجارته ، لكن صفير جهاز اللاسلكي أعاد الينا التوتر القوي من جديد ٠

ـ التحرك فورا الى الجبل ٠

ليس للثورة خط أخير ، كل مواقع الثورة ، وأشكـال وجودها هي خطـــوط اماميه ٠٠٠ حيث يوجد الفدائي والبندقيه يوجد الخط الامامي ، وتفتح عـلـى مصاريعـــها جبهة القتال ٠

قمة الزعـرور عالية جـدا ، الفي متر عن سطح البحر ٠٠٠ ابو فراس يقود الفصيل الاول ، الثلج ضيع الطرق ، يتراكم ماحيا حدود المسافـــات من السفح حتى القمة العـالية ٠٠ وأبو عيسى مساعـد قائد الكتيبة يصدر الاوامر للمدافع بالرمي ، عليه أن يؤمن سدا ناريا لاسناد المقاتليـــن الزاحفين الـــى أقـرب خمسين مترا ٠٠ أصيب ابو ابراهيم بجرح في عمليـــة الصعود نزفت مـــن ساقه الغائصة في الثلج بضع نقاط من الدم ٠٠٠ قال معلقا :

ـ هذه هي العـلامة الاولى ٠

علامة الفدائي هي دمه ٠

دم وثلج ولهب متفجرَ ، وعـند الفجر وصل أبو فراس مع فصيله الاول الـــى القمة ، وعـندما كانت قدماه تتركان بصمة الوصول فوق وجه الثلج عـند اعلى نقطة ، أصابت طلقة من فلول الاعـداء المهزومين المقاتل محمد دعيبس فسقـــط شهيدا ٠ منذ بضـع سنوات كان محمد دعيبس شبلا في مخيم اليرمـــوك ، صار الان شهيدا فوق القمة العـالية ٠٠٠ حين تكتمل دائرة القذيفة يحـــدث الانفجار ، وحين تكتمل دائرة التضحية يحدث الاستشهاد ٠٠ وقال أبو خالد وهو في مركز القيادة المتقـدم ٠

ـ امسكنا الان بالنقطة الاولى ٠

ثم بدأ بعـد ذلك يصدر سلسلة من الاوامر التي تتعـلق بادق التفاصيـل ، ابو خالد اشبه بنحات ماهر ٠٠ تتجذر الفكرة في رأسه ، وفي البدايـة تبـــدو قطعـة الصخـر لا معـنى لهـا ، ثم بعـد ذلك تتلاشى الاستحالة ، ويتكامـل أمامنا شيء متناسق عـظيم ، وفـي البداية عـلق الكثيرون من منطلقـــات مختلفة ، كيف يمكن ان يصمد المقاتلون فوق هـذه القمم الثلجية العارية ؟ لكن ابوخالد ، كان يجابه اسئلة الاستحـالة بالصمت ، وبمتابعـة المزيد مـــن التفاصيل ٠

هنا الجبل ،

قمم صنين والزعرور والتلال الغربيـــة وجبل الكنيسة وتلال عينطورة تتنامى

فيها الحياة ٠٠ صارت القمم الثلجية العارية اشبه بالمدن التي تمتليء بالنـاس والعلاقات والمواسم ٠٠٠ هنا الجبل

ـ انا قادم من الجبل

ـ أنا ذاهب الى الجبل ٠

مزيج خاص متوهج من القسوة والاعتـزاز والاعجـــاب ، دم وثلج ولهـــب متفجر ، نحـن في الخـط الامامي الاول ، ولن نكون فـي الخط الاخير ٠

١٩٧٦/٤/١١

زارنا منذ يومين عـدد من أعضاء القيادة ، وكان يرافقهم هاني جوهريـــة المصور السينمائي في السينما الفلسطينية ٠٠ كانت آخر مرة رأيته فيهـــا ، في ايلو عمان ١٩٧٠ ، سألته مازحا :

ـ ماالذي جاء بك الى هنا ؟

قال وهـو يبتسم :

ـ جئت اتبع الوميض ، انني استطيع ان اتجاهل كل شيء ، ما عـدا الوميض٠ هاني جوهرية ، هـو الذي حفظ لنا عـن طريق ذاكرة الكاميرا ،صور المجزرة والبطولة في ايلول ، ثم لم نعـد نراه بعـد ذلك ، رفضت المخابرات الاردنيـــة منحـه جواز السفر ، وظـل يحـاول الـى ان خرج من عـمان قبل اربعـــة شهور ، وها هو يأتي الينا مسرعـا ٠

ـ اريد ان اصور فيلما حيا ٠

ـ ولكنك التقطت بما فيه الكفاية من الصور ٠

ـ هـــذه صور لاستهـــلاك الصحـف اليوميـــة لا بـد ان نحتفـظ بوثيقـــة حيـــة للتاريخ ٠ كان ضوء الشمس باهـرا ، والقمـــم الثلجية تضحـك من شدة البريق ، وفي الليل نهض هانيجوهرية من نومـــه مشحونا بالتوتر ٠٠ سالني :

ـ هل يوقد المقاتلون نارا للتدفئة الان ؟

ـ نعـــم ٠

ـ اذن انهض ·· سنذهب الى موقع يوقد فيه المقاتلون نـــارا ·

ـ ولكـــن ···

ـ ولكن أنا مصمم عـلى ان اسجـل بكاميرتي في هذا الليل القـارس ،العلاقة بين توهج الجمر ، وعـيـون الفدائيين ·

اليوم صباحا ، قال هاني جوهرية للرائد ابو عيسى ،

ـ أنا ذاهـــب معـــك ·

ـ ولكني سأشرف على رماية المدافع ·· ومواقع الانعزاليين سترد ·

ـ وأنا أريد ان اصور تقاطع القذائف ·

وصعـد الرائد ابوعيسى ومعـه هاني جوهرية الى التلال الغربية ·· فـــي الساعـة الواحدة والنصف ظهرا ، كان هاني جوهرية قد تابع بالكاميرا ، وديض كل القذائف ، بما في ذلك القذيفة التي اضاءت في وجهه ومزقته ، واصيب الرائـد ابوعيسى اصابة بالغـة ، واكتمل المشهد الاخير ··· لكن التلال والقمم صارت هي البند السري الاول في جدول أعـمال الضغوط والمساومات والتحضيرات ··

ـ كيف استشهد هاني ؟

ـ مثلما يمكن ان يستشهد أي فدائي يتواجد تحت مظلة القصف ·

وصار معروفا لنا في الجبل ، ان هناك فرقا هائلا بين بريق البطولة ،وتكاليف الصمود ، في المسافة من ترشيش الى عينطورة ، لم يبق منالاهالي سوى ابـو ابراهيم ، وهـو رجل عـجوز طاعـن فيالسن ، يبلغ من العمر خمسة وثمانين عاما ، بقي في المنطقة كانه يحرس الذكريات ، او كانه شاهد عيان لما حدث، ولما سوف يحـدث فيما بعـد ، ومعـه بقى ابنهابراهيـم الذي يبلغ من العمر خمسة وخمسين عـاما ، والـذي فقد عـقله منذ كان صبيا صغـيرا ··

ابراهيم المجنون يصرخ فـي الفراغ ، يتشاجر مع اشياء الطفولة التـــي لم يعـد لها وجـود الا فـي عـقله المضطرب ، وابو ابراهيم العجوز الطاعـــن يتذكر كل شيء ، حدود قطع الارض المغطاة بالثلوج ، ومواقع ينابيع المـاء التي تجف بعـد ذوبان الثلج، والتي تستمر طوال العـام ، والقنوات المخفية التـي تغذي المنطقة ، وانواع الكرز البلدي والايطالي ،وموعد نضوج التفـاح ···· وكنا نتساءل دائـما :

ـ متى يذوب الثلج ؟

فيرد ابو ابراهيم بلهجة الواثق :

ـ أيام ٠٠ أيام بسيطة ويبدأ الثلج في الذوبان ٠

فجأة يتساقط الثلج بكثافة ، ثم يهطل المطر كأنه انهار دافقة من السماء ٠

موجات متعاقبة من الثلج والمطر والضباب ، وابو ابراهيم حارس هـــذه التلال عبر السنوات الطويلة ، يختلط عليه الامر ، يتمتم باندهاش ٠

ـ شيء عـــجيب ، من خمسين سنة ما حصل شتاء مثل هذا ٠

والمقاتلون يعلقون بمراره :

ـ لماذا نحن الفلسطينيون ، تحـــدث معـــنا الاشياء النادرة ؟؟

في اعوام الرحيل الاولى داهمنا المطر حتى انه اغـــرق الخيـــام فجرفتهـــا السيول ، وازال عـــن وجـــه الارض اكواخـــنا الطينية ٠٠ وقالوا يومها ٠

ـ هذا شيء نادر يحدث لاول مرة ٠

ثم الاوبئة ، والجوع ، والجراد ٠٠ والعـــذاب الذي لا يصدق ، كل ذلـــك لم يحـــدث للاخرين من قبل ٠٠

في التلال الغربية يختلط المطر مع القصف ٠٠٠ يختلط الغرق مع الموت ٠٠ يضعف الشباب في احـــد المواقع ٠٠ يضعـــفون ويحاولون التراجع الى السفوح اتقاء للمطر والشظايا التي تضيء وتمزق الاجساد ٠٠ ولكن ابو محمد قائد الموقـــع يقول لهـــم :

ـ تذكروا جيدا ٠التراجع معـــناه ان تعـــود مخيماتنا حظائر للحـــزن ، وان تعـــود احذية الجلادين تدوس رؤوسنا ٠٠كل من يدافـــع عـــن خندقه ٠٠ يدافـــع عن شرف امه حتى لا يهـــدر من جديد ٠

ويرسل ابو محمد برقية عـــلى الجهاز عـــن اخـــر تطورات الموقف ٠

ـ يستمر المطر ٠٠ يستمر القصف بمدفعية الهاون ومدافع الدبابات ، لكننـــا

جزء من هـــذه التلال ولن نرحـــل ابدا ٠

والان البرقيات تتوالى من المواقع :

ـ تقطعت الخيام

ـ امتلات الخنادق بالميـــاه ٠

ـ ملابسنا واغطيتنا اختلطـت بالوحـل ٠

ـ يوجـــد عـندنا حـالات تجمـــد ٠

ـ القصف كثيف فـــوق كافـــة المواقـــع ٠

ـ صامـــدون ٠٠٠ والمعنويـــات عالية ٠

يبتسم الرائد داوود ابو الحكم ، تخرج ابتسامته مشحونة بالسخط ، يعـلق قائلا :

ـ القمم قريبة من السماء ،

لنرسل برقية استغاثة الى السماء ٠

ابو خالد قائد المنطقة ينادي بانفعـال مسيطر عـليه :

ـ الى السماء ٠٠ الى السماء ٠

مطلوب وقف الثلج ٠٠ مطلوب وقف المطر ٠

يعلق احد المقاتلين قائلا :

ـ لم يتوقف شيء ، يبدو ان السماء صماء ولا تسمع ٠

نضحـك ، نضحك كثيرا فيهدأ الانفعال ، وتنتشر الدعابة في كافة المواقـــع وعـلى السنة كل المقاتلين ٠

ـ لن نرسل برقيات الى السماء ، لانهـا طرشاء ولا تسمع ٠

تضيء الابتسامات في الوجوه المرتعشة من الارهاق والصقيع ، ولكنهـــا ابتسامات تلمع بين حافة الموت وحافة الموت ، ويصبح الوضع عندنا اكثر تعقيدا ٠٠٠ فوق التلال لا نستطيع ان نرسل للمقاتلين سوى ارزاق ناشفة ، حيـــث عـملية الطهو مستحيلة تماما ، يضاف الى ذلك ان الفصيل من المقاتلين الموجود في اية نقطة ، يحتاج الى فصيل اخـر لكي يوصل اليه التموين والذخائـــر والاسلحة ، والطرق الشاقة مغـلقة امام الاقدام التي اهترأت احذيتها ، بشكـل عشوائي ، لكن الجبل صار يعبق برائحتنا ، ويتوهج بدمنا ، ويحمل اسمنـــا وملامحنا واثار خطواتنا العارية ٠

٧ـ١٠/٥/١٩٧٦

كل التفاصيل اصبحت تؤكد ان الهجوم سيقع فجرا ، حركة اليات الانعزاليين وحشودهم في المروج وبولونيا وبسكنتا ٠٠ ورمائية مدفعيتهم التي كانت تسجـل مواقعـنا ، والمعـلومات القادمة من خـلف خطوط العـدو في بتغرين وغيرها ، والرموز التي تم التقاطها من خـلال التنصت عـلى أجهزةاللاسلكي ، وها نحـن ننتظر وقوع الهجوم ، وصل ابومازن من اجازته من دمشق ، سألناه :

ـ كيف الاجازة ؟

ـ ليست مريحـة ٠

ـ لمـــاذا ؟

ـ لان دمشق أصبحت غير مريحة ٠

وصل ابومازن من اجازته بعد الظهر ، واندفع فورا الى موقعه في التلفريك، واعطيت الاوامر من قبل قائد المنطقة الى الجميع بالاستنفار ٠٠ والى المدافـــع بان تكون جاهزة للعمـل ، والى كافة المواقع باليقظة التامة ،والى جميع محطات اللاسلكي بان تفتح باستمرار وبتمرير اية معلومات مهما كانت صغيـرة باقصى سرعـة ، وفـي مثـل هـذه الحـالات يستنفر الجسم البشري ، تنهض فيـــه طاقة كامنة لم تكن ظاهرة من قبل ، اكتشفنا هذه الحقيقة منذ سنوات ، فـــي

الظروف العـادية يشعـر الانسان بالنعـاس فلا يستطيـع ان يغـالب النـوم، يشعر بالجوع ·· بالعـطش ·· بالمرض ·· فيضعـف وينهار ··· ولكن الان تنهض طاقة سرية ·· يصبح الجسم جهازا شديد التعقيد ، شديد التحمـل ، شديد الحساسية ·· وفي حالات من هذا النوع ايضا ·· يتبلور فهم خـاص للاشياء وعلاقات خاصة معهـا ·· أذكر انني كنت أتبادل الدعابات الجـادة مع يونس ضابط المدفعية ، وكان يقف معـنا أبو نضال وابو راكز عامل الاشارة، وكنا نتـحدث بمرح عـن النسبية الجديدة ··

ـ أيهما افضل ، ان تعيش بساق واحـدة ، أم الموت ؟ بذراع واحـدة ام الموت ؟؟؟

وقال يونس ضابط المدفعية ·

ـ أي شيء احسن من لا شيء ·

وكانت مناسبة الحديث ان مقاتلا فقد أحـد اصابع يده اليسرى بفعـل احـدى الشظايا ·· ولعلنا كنا نريد تعزية انفسنا ·· ذلك اننا في جبهة القتـال حيـن يصاب واحـد منا ·· يشعـر كل واحـد من الباقين انالدور سوف يحل عليه بعـد ذلك ·

بدا الهجوم في تمام الساعـة الخامسة والنصف فجرا ، تمهيد بقصف مدفعي كثيف على كافة المواقع ، تتشابك نداءات اجهزة اللاسلكيتنقل المعلومات والاوامر ·· وتتشابك في تشكيل عجيب قذائف المدفعية من عيارات مختلفة، وقذائف مدفعية الدبابات ·· والرشاشات المختلفة ، وتصبح الدقائق خطوط اتصال ناريـة لا تنتهي ·· تحطمت موجة الهجوم الاولى في صنين وتحطمت موجة الهجوم الاولى في التلفريك ، موجات الهجوم تتوالى ، الآليات المعادية تقترب اكثـر من الكمائن المتقدمة ، سقط موقع الدوشكا ، الانعزاليون اقتحموا موقع الفنادق ، ابو نضال بقي وحيدا على رشاش الـ ٥٠٠ وابو مازن يقود هجوما معاكسا ، ابو مـازن يطارد فلول الانعزاليين ويستعيد موقع الفنادق ، يشتد القصف من مدفعيـة الدبابات على رشاش ابو نضال ، تتكالب عليه القذائف حتى يسقط شهيدا ··· وابو مازن يقاتل على رشاشه ٢٤ ساعة متواصلة ثم يستشهـد وابو راكـز تصدعه قذيفة دبابة فيتهدم مثل الجدار الصلب ·

اعترف الانعزاليون بوقوع قرابة خمسماية اصابة بين قواتهم ، بالاضافـة الى احدى وعشرين آلية مختلفة ، وبعض المدافع والرشاشات ، والاسلحـة والذخائر التي غنمناها ·· ولكننا فقدنا عددا منالشهداء وفقد ابو مازن ، كـان

حادا مثل السيف وقويا مثل الصخرة ، وها هو يتكسر الآن دون ان نتمكن مـــن احضار جثته فورا ·· يونس ينظر في وجهي ويسكت ·· في جبهة القتال تكبـــر الاشياء آلاف المرات ، او تصغر الاشياء الاف المرات ·· فقدنا ابو مازن ·· ابو مازن مقاتل واحد ·· ولكن في جبهة القتال واحد يمكن ان يكون ثغرة ويمكن ان يكون انتصارا ··والموت ·· الموت كله يمكن ان يختزل في جبهة القتال الى كلمة ، أو ايماءه ، أو الى الصمت في اغلب الاحيان · يزداد عدد شهدائنا الذين نزرعهمفي الجبل ، لكن الجبل يصبح كبيرا ووحشيا مثل الحرب ، واليفا مثل تحية الصباح ·· صار الجبل وتضاربه وطرقه ضمن قاموسنا اليومي ·· موقـــع الدوشكا ، فنادق الشهيد ابو مازن ·· تلة الشهيد فاخر ··

وحين يستشهد واحد في الصباح وواحد في المساء ·· نقول في اللغة اليوميـة لجبهة القتال ، الشهيد القديم والشهيد الجديد ···

الجبل ·· صنين ··والزعرور ·· والتلفريك

الجبل ·· عينطورة ·· المتين ·· قرنايل ·· رأس المتن ··

الجبل ·· وهم وحقيقة

صمود ·· وموت

بطولة ·· وشظايا

الجبل موقع متقدم ، ودائرة حصار ، وقرار صعب ، وفعل يومي ، وخنـــادق وتحصينات ، وجداول رماية ، ومقاتلون ، ومليشيا·· الجبل مجهول كالخرافة·· ومألوف كالبيت الصغير ·· في مقر القيادة كانت ملصقات الشهداء تتكاثـر · · ملصقات بالوان مختلفة واحجام مختلفة ·· ملصق بواحـــــد ، ملصق باثنين ، ملصق بثلاثة ، ملصق باربعة ··

وكنا في لحظات الاستنفار القصوى ، ننظر الى وجوه بعضنا بحنـو غريب·· ويتساءل كل واحد منا بينه وبين نفسه :

ـ ترى من منا يرتفع الى الجدار في المرة القادمة ؟ يطرد الواحد منا هـــــذه الفكرة المزعجة على الفور ·· لكن الملصقات التي تحمل وجوهنا وتواريخ الميلاد والاستشهاد ·· تتكاثر مثل طحالب البحر فوق الجدران ·

١٩٧٦/٦/١١

حزيـــران شهر الهزيمة

حزيران شهر المهزومين

سألني مقاتل من مخيم عين الحلوة ، بينما الطبيب ينظف له جراحه من آثـــار الشظايا ٠

ـ هل كنا نعرف طبيعة النظام السوري ؟

ارتبكت ٠٠٠ ولقد تعلمت منذ زمن بعيد ، ان الاسئلة البسيطة هي التي تثيـــر الارباك دائما ٠٠ لان الاجوبة عنها تتطلب الحقيقة ٠٠ ومن الذي يريد الحقيقة ؟

ـ نعم ٠٠ كنا نعرف طبيعة النظام السوري ، فلقد جاء على اشلائنا في ايلـــول والاحراش ٠ فالح ذلك المقاتل بصوت متعب وحزين ٠

ـ اذن ، لماذا ٠٠لماذا ؟

مرة اخرى ارتبكت ٠٠ وقلت للطبيب ٠

ـ هل جراحه خطيرة ؟

ـ نعم ٠٠ ولكنه سيعيش ٠٠

وخرجت من العيادة الخلفية ، وكان ثمة حوار يدور حول حادث وقع اليوم في البقاع ٠٠ ذلك ان شاحنة تقل عدداً من القرويين مرت على حاجز للجيش السوري عند مثلث قب الياس ٠٠٠وحين توقفت الشاحنة تصايح القرويون ببساطـــــــة ملوحين للجنود ٠

ـ طريق الجولان ليست من هنا

وحينئذ اطلق الجنود السوريون نيران رشاشاتهـــم ... فقتل واحد مـــن القرويين واصيب أربعة بجراح .. وكان القرار في الجبل ، أن البقـــاع لا يجب ان يخلو من الانفجارات والعبوات الناسفة والقنابل .. لا يجب ان يخلو مـــن المقاومة .. وكان الجبل قد تحول من مجرد موقع الى تجربـــة .. حالـــة مـــن النهوض .. تمركز حول شيء محدد الملامح ، المقاتلون من مختلف الفصائـــل أصبحوا مقاتلين في فصيل واحد اسمه الجبل ،

صار الجبل متراسا ..

صار الجبل تجربة متكاملة القوى والعلاقات ..

صار الجبل خيوطا تمتد من البقاع الى بيروت ومن مخيم اليرموك الى مخيـــم نل الزعتر ..

صار للجبل ابطاله الذين لم تلصق صورهم بعد على الجدران ، أمثال ابـــو زياد صنين ، والشيخ عمر التلفريك ، وجهاد التلال الغربية ، وأبو خالد هاشـــم قاع الريم ، وعامر بطل تشريك الصواريخ ، ويونس بطل المدفعية .

وصار للجبل حكاياته ايضا ، من بين هذه الحكايات ان عمر السعدي سائـــق سيارة اللاندروفر الخضراء ، ارتبط بقصة حب مع آمنة احدى الممرضات فـــي مستشفى الشهيد فاخر .. وهو مستشفى ميداني جهزناه في كفرسلوان ، وانـــه كان يعد الايام بسرعة ليكون معها أول عروسين في الجبل

عمر السعدي جاءنا ساخطا

ـ مـــاذا ؟

ـ جرافة سورية تحرسها دبابة ، تقوم بسد الطريق عند ثعلبايا .

وثارت الاسئلة

هل يقاتلنا السوريون ؟؟

هل نقاتل السوريين ؟؟

وقبل ان تكتمل الاجوبة وجه السوريون انذارا ٠

ـ الانسحاب الفوري أو القتـــال

ـ لا ٠٠ الصمود

ثم بعد ذلك ، وقبيل الغروب بساعتين ، تصاعدت اعمدة الدخان والغبـــــار من مواقع متعددة في المنطقة ، ثم توترت اجهزة اللاسلكي وهي تنقل اخبـــــار الهجـــوم ٠٠

ـ قصف كثيف وتقدم آلي على صوفر

ـ قصف كثيف وتقدم آلي على صيدا

البرقيات تتقاطع

ـ الى جميع المقاتلين

اجعلوا من اجسامكم الغاما تتفجر في وجوههم : وبسرعة تمت عملية امتصاص الصدمة الاولى ، فاصدر ابو خالد اوامره بان تندفع مجموعات وتصطدم مـــع الدبابات في صوفر ٠٠ تحطم الهجوم فيصوفر ٠٠ وجاءت برقية من صيدا تقول:

ـ صيدا تسهر على الدبابات المحترقة

الجبل ٠٠ الطموح ٠٠ التجربة ٠٠ مثل صيدا ٠٠ حدد كل الملامح ٠٠ وأعلن الصوت بكل قوة ٠

كيف تحمي التجربة ؟

ماذا سيكون ثمن التجربة ؟

ما اصعب السؤال ٠

ولقد ضاعف من قسوة الاسئلة على نفوس المقاتلين في الجبل ان فاخـــــر

النحال قد استشهد ·· كان فاخر بطلاحقيقيا من أبطال حرب الشعب ·· يحفـر الخنادق بأصابعه ، ويتسلق كل الصخور ، ويزرع الالغام والدبابات تتقدم نحوه لكي يتأكد انها ستنفجر ، وينام متقدما عن أول مقاتل من مقاتليه ·· وأهم من ذلك كله أنه لا يشكر أبـدا ·

سألته مرة ·· لماذا ؟

أجـاب :

ـ كلما ساءت الامور أعد نفسي لان تصبح الامور أكثر سوءا ·

وأذكر ان النقيب فاخر النحال تدرب على نوع جديد مـن الصواريخ لمـدة ساعات فقط ·· ثم انه بعد ذلك اطلق الصاروخ الاول فدمر دبابة للانعزاليين ، ثم أطلق الصاروخ الثاني فابتعد في التلال ·· يومها فقط رأيت فاخر غاضبا ·· وها هو يستشهد ·· ولكنه ظل بيننا مثل الحالة ·· أطلقنا اسمه على احـدى التلال ·· فصار اسمها تلة الشهيد فاخر ·· وأطلقنـا اسمه على المستشفى الميداني االذي جهزناه ، فصار اسمه مستشفى الشهيد فاخر · ولقد حاول كـل واحد منا ان يبدو قويا وخاصة أمام المقاتلين الذين يعشقونه وفجعوا بموته ·· لكز حين يحدث الموت ينظر الواحد ويتساءل :

ـ من منا سترتفع صورته على الجدار في المرة القادمة ·

١٩٧٦/٧/١٣

لن تعود الاحراش ثانية

هبت خلال الايام الماضية رياح قوية في الجبل ، رياح كنا نشم معها رائحـة الاحراش . ولقد قام السوريون في مطلع هذا الشهر بنسف جسر قبيع ·· وقطع الطريق بالرشاشات والقصف المتواصل ··· وهكذا صار الجبل دائرة مكتملـة الحصار ، اتخذنا كافة الاحتياطات ، شكلنا لجنة من النساء في قرية كفر سلوان مهمتها تحويل اكياس الطحين ، الى ارغفة من الخبز ، واصلحنا فرنا في المنطقة كان معطلا منذ فترة طويلة ··· وكان نبيل وخليل ولؤي ومصطفى قد ثبتـوا جذورهم فوق جبل الكنيسة وعلى امتداد سفوحه التي تصـل الى احـراش كفر سلوان ، والى قرية بوارج حيث اشرف نبيل وخليل على اعادة النهـوض

بخلايا التنظيم في المنطقة ، واعداد برنامج للشباب هناك للمشاركة في القتـــال ضمن مهمات مختلفة ·· نبيل جاء من متاريس الشياح هو ومصطفى ··

قال لنا ذات مرة :

ـ أن قتال يوم واحد هنا ، يعادل عشرة أيام قتال في متاريس المدن ·

ـ لمـاذا ؟

ـ هنا كل شيء تواجهه مباشرة ، تواجهه عاريا ·· ابتداء منشظايـــا القذيفة ·· وانتهاء بخط سير المؤامرة ·

كنا في الجبل قريبين مـــن كل شيء ·· نلامس كل شيء ·· قريبين مـــن السوريين والانعزاليين ·

من الحصار والنجـاة

من القمـة والقاع

كنا في الجبل في كل لحظة قريبين منالقرار الشجاع ومن الانتظار القاتل ·

ولقد وقع اليوم حادث مؤلم هزنا من الاعماق ·· ذلك ان قتالا نشب في صنيـن على ارتفاع ٢٦٠٠ متر عن سطح البحر ·· قتال برز فيه ابو زياد كبطل حقيقي·· وبرز فيه أبو خالد جورج والشيخ علي ومحمد شبارو وعشرات من المقاتليـــن كانوا يدوسون على نتوءات الصخور بأقدامهم العارية ·· وكانوا يقفون فـوق أعلى قمة مثل آلهة جدد ·· ولكن مقاتلا من هؤلاء شطرته قذيفة مباشرة الـــى نصفين ·· وحين أردنا ان نحمل جثمانه ·· لم نجد سوى نصفه العلوى ·· اما النصف الآخر فلم نعثر عليه ·· بحث الشباب طيلة النهار وطيلة الليل ·· لكـــن يبدو أن نصفه الآخر قد تطاير الى الجانب الاخر ·

وصرنا نتساءل :

هل مصير كل شيء أن ينشطر الى نصفين ؟

هل نحن امة واحدة ام امتان ؟

هل ... هل ... هل ؟

اسئلة كثيرة تدور .. اسئلة مغموسة بالدم .. معجونة بالاشلاء .. منوهجة بطموح عظيم .. وصلنا ان الصحافة الاجنبية كتبت عنا في تقاريرها ، اننـــا اعدنا للسلاح شرفه المهدور في الشرق الاوسط منذ ثلاثين عاما ... كنت أتحدث مع أبـو شهيد عن ذلك ، فسألني :

ـ ما هو الموقف ؟

ـ أن سلمنا متنا .. وان قاتلنا يمكن ان ننجو ..

اطرق ابو شهيد قليلا ثم قال :

ـ اننا سيف هذه الامة .. كيف تكسر امة سيفها .. وتبقى عزلاء في وجـــه الغـزو ؟؟

كانت معارك تل الزعتر قد وصلت الى مراحلها القصوى .. وكنا نشـــارك بمدافعنا في صنع الحزام الناري حول المخيم حتى نمنع الاجتياح .. وكان عزمي الصغير يقود المجموعات التي تخترق الحصـار وتصـــل الى تل الزعتـــر .. مجموعات من المقاتلين يحملون الذخائر والتموين وقطرات الماء .. كنا في الجبل بمحاذاة كل شيء ..

بمحاذاة العذاب والبطولة

الحقيقة والخرافة

الحصار والطوفان

كنا في الجبل نشبه بعضنا في الكلمات

في المعقـل

في الطموح

الشيوعي والفتحوي والرفض ، كل المقاتلين من كل المنظمـــات والاحزاب ،

صاروا مقاتلين في حزب واحد أسمه حزب الجبل٠٠ حتى أصحاب البغـال مـن القرى المجاورة الذين كانوا يوصلون التموين والذخائر الى المواقـع الوعرة ، وأبو عمار القروي من كفر سلوان دليل الطرق الصعبة ، ورعاة الماعز ،وسائقي الجرافات صارت لهم نفس ملامحنا ٠٠ وحازوا على هوية جديدة في وطن جديـد اسمـه الجبل ٠

٨/١ ـ ١٩٧٦/٩/١

تراكمت عندنا في الجبل مسائل كثيرة دفعة واحدة ، من بينها انمناطق كثيرة الحقت ضمن مسؤولية أبو خالد ٠٠ منطقة المتين وقرنايل وحمانا وراس المتن ٠٠ وزادت الاعباء ٠٠ وكان آخر تقرير للموقف قدمه ابو خالد قائد المنطقة ان هناك سبعة عشر محورا صالحة لتقدم الآليات السورية والانعزالية ٠٠ وصار واضحا ان فرقا هائلا بين الجبل كتجربة وحالة ٠٠ والجبل كامكانيات ٠٠ وها نحن نعبر الآن المسافة الحرجة بين الهاجس والقرار الشجاع ٠٠ وقد استشهد ابو خالـد جورج في صنين ٠٠

كان قد شق الطرق الى القمم ٠٠ وعلم الشباب الذين معه كيف ان كل شـــيء مهما كان صغيرا ، له أهمية قصوى في جبهة القتال ، وكان الى جانب كل ذلـــك متواضعا وهادئا مثل نسائم الصيف ، يحدث القصف ، تئز اجهزة اللاسلكـــي بحالة الاستنفار ، تختلط ذرات الهواء بالرصاص وشظايا القنابل ٠٠ لكن ابـو خالد جورج يظل هادئا ٠٠ يتحدث بصوت خفيض ، يبتسم باتزان ويحزن باتزان كذلك ، يحرص على مد جسور من الالفة مع كل الاشخاص ومع كل الاشيـاء ٠٠ وحين استشهد سيطرت علينا حالته ، اختفى كل واحد منا وراء شجرة تفـــاح وذرف دموعا صامتة ٠٠

واستشهد ابو سنبل الذي كان نسرا من نسور العرقوب ، قدماه تركتا آثـــارا فوق جبل الشيخ ، وفي لحظات الموت المحدقة كان يعبر الحواجز الناريـــة ٠٠ استشهد ابو سنبل في المتين ٠٠ قال واحد منا ٠

ـ اقترح ان نقيم مقابر لشهدائنا في كل مكان نصل اليه ٠

ـ لمـاذا ؟

ـ هذه آثار رحلتنا العظيمة

ـ ولكن لو نجحت المؤامرة . فأنهم سيجتثون حتى قبور الشهداء ٠

فلسطين هي المستهدفة

فلسطين الوطن

فلسطين الشعب

فلسطين الملامح السياسية

فلسطين الحالة الثورية ٠

وها نحن ندافع بآخر ما نملك عن كل شيء ٠٠ وسقط مخيم تل الزعتر ، طوال شهرين من حصاره كنا نشارك في صنع حـــزام ناري حول المخيم لكي نمنـــع اجتياحه ٠ وكان عزمي الصغير يبذل جهودا مستحيلة لدفـــع مجموعـات مـن المقاتلين ، يخترقون الحصار ، ويصلون الى المخيم ، يحملونعلى اكتافهم الذخيرة والمؤن واوعية الماء وما يتوفر من الادوية ، وكان ابو خالد قد قدم اقتراحا لانقاذ مخيم تل الزعتر ، زيادة المشكلة تفاقما ٠٠ احتلال مواقع جديدة للانعزاليين فـي بولونيا والمروج والصفصاف وضهور الشوير ٠٠ والوصول الى ابواب بكفيا٠٠ الاقتراح لم ينفذ ٠٠ فلقد كان يعني الدخول في مرحلة كسر عظم للانعزاليين ٠٠ ولم تكن الآفاق السياسية السائدة تتناسب مع ذلك ٠٠

سقط مخيم تل الزعتر مثل انهيار الارض ٠٠ وكنا في الجبل قد وصلنا الـــى مرحلة الحوارات الساخنة ٠٠

قال ابو خالد :

ــ يجب ان نخرج من حالة الجمود ، يجب ان نكسر حالة الانتظار القاتلة ٠٠

عقد اجتماع للكوادر في المنطقة ، تبلور الموقف عن عدة مبادرات ٠٠واستدعينا اعضاء القيادة واحدا وراء الآخر لمناقشتهم في الامر ، ووضعهم في صورة كـــل التفاصيل ٠٠ وكنا نلح على ضرورة القرار الشجاع ٠

ــ دفع مجموعات تقاتل الى البقاع ٠

ــ الامساك بزمام المبادرة

ولكن ذلك كان يعني تحليلا دقيقا للوضع ، واتخاذ قرار بكسر الجرة مـــع

السوريين ..

ـ القــرار الشجــاع

وكنا في الجبل قد توحدت رؤيتنا .. كنا نتحدث بنفس الكلمات ، صـــارت وجوهنا متشابهة .. خليل من الحزب الشيوعي ، وبلال من منظمة العمـــل ، كلنا صارت لنا نفس الملامح ، كلنا صرنا مقاتلين عربا في جبهة واحدة اسمهـــا الجبـــل ..

١٩٧٦/١٠/١ ـ ٩/١

يقول المثل الفلسطيني « أيلول ذيله مبلول » .

أيلول مبلول بالماء أم بالدم ؟؟

قال أبـــو خالد :

ـ سيكون الهجوم في أول الشتاء

وقال الرائد داوود أبو الحكم :

ـ سيكون الهجوم في أول الربيع

ـ هل تراهن ؟

ـ نعم أراهن .

وكان عمر السعدي قد أتى مع عروسه ، جاء سيرا على الاقدام من ثعلبايـــا الى توتيا .. كانت في انتظارهما سيارة اللاندروفر المدهونة باللـــون الاخضر، كانت العروس ترتدي ثوبا أبيض ، وتحمل في يدها باقة صغيرة من الورد ، وكان هو يبتسم ، يتخيل مع نفسه التعابير المحببة التي سيقولها لهما الفدائيون فيالجبل

أول عروسين في الجبل .

ادار محرك سيارة اللاندروفر الخضراء ، وانطلق كأنه يمتطي صهوة مهـــرة جامحة ، كانت القمم تقترب اكثر ·· ووجوه الفدائيين تتكاثر ، ثم حدث الانفجار. تطايرت اشلاء السيارة والعروسين في الفراغ ، ثم عادت وارتطمت بالارض ·· ابتسامة جمدها الموت على وجه عمر السعدي ، أما هي فقد تجمدت يدها علـــى باقة الورد الصغيرة الممزقة المغموسة برائحة البارود ··

وقع هذا الحادث في الاسبوع الاول من الشهر ، صارت الشمس تحتجب لبعض الوقت في النهار ·· وصار الضباب عند الغروب يملأ الاودية العميقة ·· فتبـدو التلال والجبال حين تتدافع موجات الضباب وراء بعضها ، كأنها تسبح في بحـر خرافي ليس له حدود ··

وكانت آخر برقية قد ارسلت من قيادة المنطقة الى مركز العمليات الرئيسية في الساعة الحادية عشرة من مساء ٩/٢٧ تقول :

ـ ان هجوما مؤكدا سيقع صباح الغد ·

ووقع الهجوم فعلا ،

سدود من النيران القت بها راجمات الصواريخ ، والمدافع المتنوعة العيارات ، ومدافع الدبابات ، والرشاشات ، وارتال من الدبابات والمشاة تتقدم على عـــدة محاور لتلتقي عند محور رئيسي حيث مركز القيادة ·· لكي يكتمل الطوق ·· وتتم عملية الابـادة ·

ابو خالد يحاول ان يسيطر على عملية القتال والتراجع ، فيختار الطريق التي لا يتوقعها الاعداء المهاجمون ، والرائد ابو الحكم ، يقوم بالملاحظة لرماية المدافع يصاب من جراء قذيفة مباشرة ، تفتح الشظية ثغرة في جنبه الايسر فيتدفق الدم ·· يحاول بيده ان يوقف النزيف ويهبط مشيا على قدميه من تلال قرنـــايل ·· يتمتم لنفسه :

ـ لقد خسرت الرهان ·

يتدفق النزيف ، يصبح على وشك الاغماء فيقول لنفسه :

ـ اذا اغمي علي ·· انتهيت ·· يجب ان اظل مستيقظا ·

وطوال الطريق الوعرة ، يظل ابو الحكم متشبثا بكل ارادته بحافة التوازن والصحو حتى لا يحدث السقوط ٠

ويتواصل الهجوم والتقدم عبر دائرة كاملة مقلقة ، ابو خالد يسيطر علـــى القتال والتراجع ، من ترشيش ، الى مجدل ترشيش ، الى تلال عينطورة ، الـــى المتين ، الى رأس المتن حيث يشكل آخر عقدة قتال ، السوريون والانعزاليون لليوم الرابع ، يعزفون لحنا واحدا متناسقا ، اسمه لحن ابادة الفدائيين وخيانة كـــل شيء ٠٠ ابو خالد يشكل في رأس المتن اخر عقدة قتال ، بما تبقى من القذائـــف المضادة للدروع مع مدفع واحد يدمر خمس دبابات سوريـــة ٠٠ لكن الثغـــرة الوحيدة التي يمكن ان يخرج منها مع بقية المقاتلين توشك ان تغلق بالنيـــران والدبابات ، والمقاتلون الذين بنوا معه تجربة الجبل يقولون :

ـ لقد تحطمت التجربة ٠

لكن ٠٠ لا يجب ان يتحطم الرجل ٠٠

توشك ان تطبق دائرة الحصار القاتل ، ابـــو فراس على رأس فصيل مـــن المقاتلين يحاول ان يفتح ثغرة في الحصار ، في تمام الساعة الثالثة من يوم الاول من تشرين يتمكن ابو خالد ومن معه من الافلات من اطباق الدائرة ، ويستشهـــد ابو فراس راسما بدمه الساخن ، آخر المشاهد لقصة عظيمة دامت اكثر مـــن مئتي يوم ، قصة اسمها الطموح والموت في الجبل ٠

ثمانية مكاسب اسرائيليّة من الحرب الأهليّة في لبنان

المقدم الهيثم الأيوني

بدأت الحرب الاهلية اللبنانية منذ ١٨ شهرا بين طرفين محليين تصاعد التناقض بينهما الىدرجة جعلت من المتعذر الوصول الى حل مقبول بالوسائل السلمية · وكان من الممكن ان يحسم أحد الطرفين النزاع لصالحه ، فيحقق اغراضه، ويفرض ارادته ، ويؤمن بالتالي مصالحه على حساب الطرف الاخر · ولكن الامور لم تجر بهذا الشكل ، فلقد تدخلت في الصراع منذ بدايته (بشكل مباشر او غير مباشر) اطراف عربية ودولية ، فامتنع الحسم السريع ، وطالت الحرب ، وأصبح بالامكان اعتبار الطرفين المتنازعين خاسرين ، طالما انهما تكبدا ما تكبداه دون ان يحققا اغراضهما ·

ورغم الخسارة المتبادلة في المعسكرين الداخليين المتحاربين ، فان هناك اطرافا خارجية رابحة من بينها اسرائيل · وسواء كانت الدولة الصهيونية قد استغلت عدم استقرار التوازن الاقتصادي ـ الاجتماعي ـ الطائفي في لبنان ، وشاركت في التخطيط لاندلاع النزاع بغية اقتناص المكاسب ، ام انها اغتنمت فرصة الصدام وأفادت منه ، فان من المؤكد أنها كانت على رأس قائمة المنتفعين من الدم العربي المسفوك على الارض اللبنانية · وهذا ما سنبرهن عليه في هذا المقال ·

مشاغلة المقاومة واستنزافها :

اعتمدت اسرائيل في مجابهتها العسكرية مع المقاومـــة عـــلى عـــــدة اساليب متكاملة ومتوازية هـــي : ١ ـ كشف خلايا الداخل وضربهـــا ، ٢ ـ فصل القواعد الخارجية عن القواعـــد الداخليـــة ، ٣ ـ استخـدام الحـرب السرية لمطاردة قادة المقاومة خارج الارض المحتلة ، ٤ ـ ضرب قواعد المقاومة في الاراضي العربية المضيفة بقوات اسرائيلية برية أو جويـه ، ٥ ـ القيـــام، او التهديد بالقيام ، بعمليـات ردعية ضد أهداف فلسطينية أو عربية ، بغيةخلق تناقض بين الامن الفلسطيني وأمن البلد العربي المضيف ، يؤدي الـى صـدام عربي ـ فلسطيني تقوم بـه القوات المسلحـة العربية بمهمة استنزاف المقاومة واشغـالها أو تصفيتهـا ان أمكن ٠

ولم تكن الاساليب الثلاثة الاولى تلاقي في العـادة اعتراضا عـالميا عنيفـا، كما كانت نتائجها تتناسب مع الجهد المبذول لتحقيقها ٠ في حين كانالاسلوب الرابع ، وخاصة القصف الجوي ، يثير ردود فعـل عـالمية غـير ملائمة ، ويشوه سمعة اسرائيل في المجتمع الغربي ، ويهـدد بتفجير خـلاف اميركـي ـ اسرائيلي عـلى الاسلوب ، ولا يؤدي الى نتائج عملية تتناسب مع الجهـــد المادي المبذول والخسائر المعنوية والسياسية التي تتعرض لها الدولة الصهيونية، ويعطي المقاومة على العكس فرصة خلق الملاحم البطولية ، واكتساب التعاطف الجماهيري العربي ، وتحقيق مزيد من التوسع والتجذر ٠ ولقد شرح زئيف شيف صعوبة هذا الاسلوب نظرا لانتشار القوات الفلسطينية في جميع انحاء لبنان تقريبا ، وقال : « ان تصفية القوة المحاربة للفلسطينيين ، ستتطلب اكثـر من عـملية قصيرة ٠ واية عـملية تؤدي الى نتائج فعـلية ، ستكون طويـــلة ومـرهونة باحتلال مساحـات كبيرة من الارض ، بما في ذلك مخيمات لاجئين، وتورط داخـل المدن ٠ وستكون هناك ضرورة ، في نهاية الامـر ، الـــى استخدام اجزاء كبيرة من الجيش الاسرائيلي في هذه العملية ٠ ونظـرا الـــى ان هذه عملية طويلة ، فانها قد تتدهـور الى حرب مع سوريا ومع دول عربية اخرى ٠ وكانت اسرائيل تتجاهل هـذه الاخطار ، لو ارادت حقا جر سوريـا اليوم الى حـرب شاملة » (١) ٠

لهـذا كله كانت اسرائيل تفضل دائما اللجوء الى الاسلوب الخامس الـذي حقق نجاحات ملحوظة في نهاية الستينات ، وادى الى شحن القوات المسلحـة الاردنية واستخدامهـا لضرب المقاومة فـي ايلول ١٩٧٠ ٠ ولقد جـــرت عملية شحـن القوات المسلحـة اللبنانية بالشكل نفسه منـذ ان بـدأ التواجـد الفلسطيني المسلح الكثيف في جنوبي لبنان . وتصاعـد التسخين الردعـــي الاسرائيلي مع تنامي المقاومة عـلى هذه الساحـة العربية ، ونجم عـن ذلـك

عدة مصادمات مسلحة ، وصلت الى ذروتها في احداث ايار ١٩٧٣ ، التي كانت صورة مصغرة لايلول ١٩٧٠ ٠

بيد ان بنية المجتمع اللبناني المعقدة المعتمدة على التوازنات ، وحجم القوات المسلحة اللبنانية وتكوينها الداخلي ، اعطت الضربة اللبنانية خصوصية مميزة ، وجعلتها تختلف عن الضربة الاردنية من ناحية العنف والاساليب ودفعت السلطة الى الاعتماد في العام ١٩٧٥ على المليشيات الطائفية، التي لم تبدل طبيعة الضربة واهدافها ، وان كانت قد اكسبتها مظهرا مغايرا لما جرى في الاردن ، وحولتها من عملية قمعية تقوم بها القوات النظامية ، الى حرب أهلية تشنها السلطة والمليشيات المؤيدة لها ضد المقاومة والقوى الوطنية المتحالفة معها ٠

وتم استنزاف المقاومة ومشاغلتها بقوى لبنانية طوال سنة كاملة ، فانخفضت عملياتها ضد العدو الصهيوني من نيسان ١٩٧٥ الى اذار ١٩٧٦ الى حوالي ٨٠ ٪ من مجموع عملياتها في الفترة المقابلة من العام السابق ٠ ووصل الاستنزاف الىذروته عندما تجمعت العوامل التي ادت الى تزعزع الحلف الاستراتيجي بين سورية من جهة والمقاومة والحركة الوطنية من جهة اخرى ، ووقع الصدام بين اصحاب الهدف الواحد والمصير الواحد، فخسرت المقاومة في الصدام اعدادا كبيرة من المقاتلين والكوادر ، وانشغلت بالقتال ضد القوات السورية وبصد الهجمات التي شنتها بقايا السلطة وميليشياتها ، فانخفضت عملياتها ضد اسرائيل في فترة نيسان ايلول ١٩٧٦ بشكل خطير . مع ان النمو المادي والمعنوي للمقاومة كان يفترض تزايد هذه العمليات بدلا عن تناقصها ٠ ولولا عدد من العمليات المنفذة من قبل خلايا الداخل ، وانتفاضات سكان الارض المحتلة التي زادت خلال الاحداث لساد اعتقاد بان العمل ضد العدو الصهيوني قد توقف ٠

تكريس فكرة فسيفسائية الشرق الاوسط ٠

ان الكيان الصهيوني المزروع داخل العالم العربي كيان دخيل لا يستطيع البقاء على المدى التاريخي في خضم عربي متجانس متماسك ، لانه يبقى مهما اتسع ، جسما غريبا عن المنطقة اتنيا وحضاريا ، ومعرضا بالتالي للانتزاع ٠ ولا تستطيع اسرائيل تثبيت وجودها كدولة اقلية عنصرية تيوقراطية الا اذا كانت المنطقة المحيطة بها عبارة عن مجموعة فسيفسائية ، تضم اكبر عدد من دويلات الاقليات العرقية والدينية ٠ وعلى هذا الاساس حاول وايزمان في كتابهعن القومية العربية ، ودون كبير نجاح ، تقديم البراهين على ان

العرب لم يعرفوا الوحـدة طوال تاريخهم ، ولم يملكوا يوما مقومات الامـــة المتكاملة ، وان العـالم العربي مجموعـة من دزيلات تسكنها تجمعـــات بشرية من عروق مختلفة لا يـجمعها رابط قومي أو حضاري · وعلى هـذا الاساس ايضا كانت اسرائيل ، منذ ان وجدت ، تحارب الوحـدة العربيـة ، وتؤيد الفكر القطري والحركات الانفصالية مهما كان نوعها وتعددت منطلقاتهـا (تدعيم الانفصاليين في جنوبي السودان ، ومحاربة الوحدة المصرية السوريـة كفكرة وكحقيقة قائمة منذ شباط ١٩٥٨ حتى ايلول ١٩٦١ · ومساندة العصيان الكردي في شمالي العـراق تسليحيا وتدريبيا ··· الخ)· ويذكر اورى دان ان اسرائيل عـملت في العـام ١٩٥٨ لصالح السلطة اللبنانية بغـية عـدم تغيير الوضع القائم في لبنان « فعـندمـا نشبـت الحـرب فـي لبـنان انذاك ، وكان هناك خـوف من تغيير الوضع القائم فيـه ، سارع حاييـم لاسكوف رئيس الاركان ، الى اصدار اوامره بحشد قوات في الشمال ،حتى دون ان يسأل دافيد بن غوريون ،رئيس الحكومة ووزير الدفاع انذاك ،لان الخط الاحمر كان واضحـا ··· كما ان ايسر هريئيل ، المسؤول عن المخابرات ، ابلغ بـن غوريون ، بأنه يعـمل من اجل عـدم تغيير الوضع الداخلي في لبنـان · بـل انه سافر في جولات بعـيدة لضمان ذلك . دون ان ينتظر تصديق (بن غوريون) عـليه · هكذا اهتم المسؤول عـن اجهزة المخابرات ، ورئيس الاركان ـ بتأييد من رئيس الحكومة ـ بتمكين المسيحيين من الصمود في لبنان ، حتى لا تجد اسرائيل نفسها في مواجهة جبهة جديدة خطرة »(٢) ·

ولقد كان من الطبيعـي ان تستغـل اسرائيل الاحـداث اللبنانية لتـكريس فكرة الفسيفسائية وتعميقها ، مستندة في عـملية الاستغـلال الى الطابـــع الطائفي الذي اخذته الحرب الاهلية ، والى مقولات بعض اطراف المعسكـــر اليميني الانعزالي التي لم تهاجر من الفكر العربي الـــى الفكـــر القطـــري اللبناني فحسب ، بل ابتدعت ايضا ما اسمته «**الامة** » **المارونية** ، لتكون ملاذها الاخير بعد هجرتها من الفكر القطري نفسه · واذا كان الطابع الطائفي للحـرب قد اعـطى اسرائيل مجالا لنقض مقولة الدولة الديمقراطية التي طرحتها المقاومة الفلسطينية كحل للنزاع العربي ـ الاسرائيلي (وهو نقض مهزوز سنرد عـليه في مقال لاحق)، فان التأكيد عـلى وجود «**الامة** » **المارونية** (وهو تأكيد خاطيء يحرف تاريخ الطائفة المارونية العريقة في عروبتها . ونترك للاخـوة مفكـــري الموارنة المجال لدحضه)، والمناداة بضرورة الدولة المارونية المعزولة عـــن العالم العربي ، والمرتبطة مباشرة مع الغرب ، يمنـــح اسرائيل مبررا جديـدا لوجودها كدولة عـنصرية دينية تشكل رأس جسر غربي متقدم في عالم عربي نـام « اسلامي الطابع »·

ويلاحظ من يتابع الاعـلام الاسرائيلي خلال الاحداث اللبنانية ان الدولـــة

الصهيونية لم تترك الفرصة تفوتها · فلقد اكد البروفسور مردخـاي افير تأييد اسرائيل للاقليات العرقية في العـالم العربي ، وأشار الى ان القومية العربية كانت تضغـط عـلى المسيحيين في لبنان وتسعـى لتصفية الطابع الخـاص لدولتهم والتوجه الغربي لحضارتهم (٣) · وفي حديث مع مندوبي «البونـد» في الولايات المتحـدة قال شلومو افنيري ، المدير العـام لوزارة الخارجية :«ان في الشرق الاوسط مجالا لتعدد الحركات الوطنية ، وانه ينبغي العمـل لافشال المساعي العربية لخلق شرق اوسط موحد يضـم العرب المسلمين جميعا » (٤) · والاخطر من ذلك أن أفنيري استعـار في الحديث نفسه مقولة متطرفـي الانعزاليين حول الكيان الماروني عـندما قال : « لا استطيع رؤية حـل لبناني، لا يشترك فيه ابناء **الشعـب** الماروني **كشعب** له حق تقرير المصير » (٥) ·ويضرب بيغـال الون على الوتر نفسه عـندما يؤكد انـه « ليس بوسع اسرائيـل التسليم بتسوية لبنانية تؤدي الى تدمير **الشعـب** الماروني العريـق » (٦) · وهكذا تستغل اسرائيل الحرب الاهلية اللبنانية لتعميق الفكر **الانفصالـي** ، وتدعـيم الدعـوات المشبوهة المعـادية للفكر القومي العربي الذي يشكل اكبر تهديد لاسس وجودها المصطنع في المنطقة ·

تشويه سمعـة المقاومة سياسيا وعسكريا

لا تزال اسرائيل تتبنى منذ وجودها سياسة عدم الاعتراف بوجود شعـب فلسطيني ، وترفض كل القرارات الدولية التي تطالبها بتطبيق حق هذا الشعـب في العـودة وتقرير المصير ، وتعتبر الفلسطينيين عربا جاؤوا من الصحـراء الى « ارض اسرائيل » خلال الفتح العربي ـ الاسلامي ، وليس عليهم اليـوم سوى العودة الى الصحراء ، والعيش في الاقطار العربية ، والاندمـاج مـع سكانها (يلاحـظ اليوم ان الاعـلام اليميني اللبناني يردد هذا القول بلا كلل)·

وما ان رفعت المقاومة البندقية في العام ١٩٦٥ حتى ظهر امام اسرائيلخطران هما : الكفاح المسلح الذي جابهته بالعنف القمعي ، وظهور الشخصيـة الفلسطينية المستقلة الذي جابهته بحملة تشويه مستمرة · وعندما تنامت المقاومة واخذت حجما سياسيا عـالميا ، استخدمت اسرائيل اسلوب الالتفاف .واعلنت اكثر من مرة أنها ترفض الاعتراف بمنظمات المقاومة ، ولا تقبل اي مفاوضـات مع الفلسطينيين المسلحين ، وتعتبر الاردن الطرف المفاوض الوحيد المؤهـل للتحدث باسم الفلسطينيين ، وكان لها في موقف الحكومـةالاردنية انذاك مبرر سياسي · ولكن اضطرار الحكومة الاردنية الى التخـلي عن تمثيل الفلسطينيين، وموافقتها عـلى مقررات مؤتمر القمة السابع في الرباط (٢٦ـ٢٩ تشرين الاول ١٩٧٤) حول اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الوحيـد للشعـب

الفلسطيني ، وقيام هيئة الامم المتحـدة بدعـوة رئيس اللجنة التنفيذيةللمنظمة لحضور جلسات الجمعية العـامة في تشرين الثاني ١٩٧٤ ،ووجود منـــدوب للمنظمة في الكثير من المؤتمرات والهيئات الدولية . افقد اسرائيل حجتهـا ، ووضع في مجابهتها منظمة فلسطينية معترفاً بها دوليا ، ولهذا كان عليها تكثيف حملتها لتشويه سمعة هذه المنظمة وتجريدها من بعض انجازاتها السياسية ٠

ولقد وجدت الدولة الصهيونية في الحرب الاهلية اللبنانية مادة دسمـــة للتشويه ٠ فاستغلت النزاع السوري ـ الفلسطيني ، وكررت ما تبثه وسائـل الاعلام اللبنانية اليمينية من ترهات حول تصرفات المنظمة ونواياها ، واكدت ان المنظمة ستخرج من الحرب الاهلية اللبنانية ضعيفة ، ودعمت محاولات النظام الاردني الرامية الى تجاوز مقررات مؤتمر الرباط والعودة الى المسرح كممثل للشعب الفلسطيني ٠ ولقد اعلن اسحاق رابين سياســة اسرائيل في هــذا المجال عندما قال : « لقد اثبتت منظمة التحرير الفلسطينية من دون شك انهـا جسم سرطاني في نسيج العالم كله ٠ والظروف الدولية القائمة حاليا مؤاتية لشن حملة اعلامية واسعة تستهدف ، من ضمن امور اخرى ، الحد من نفوذ المنظمة وتأثيرها » (٧) ٠

وتدخل اسرائيل من نافذة ما يجري في لبنان لاظهار المقاومة كمؤسســة عسكرية غير كفؤة ، وعاجزة عن الصمود امام « القوات اللبنانية » المحدودة . وعاجزة بالاحرى عن الصمود امام القوات الاسرائيلية الاكبر من القــوات اللبنانية بما لا يقارن ، وغير قادرة بالتالي على تطوير نضالها المسلح الى مستوى حرب التحرير الشعبية ٠ وغرض اسرائيل من كل ذلك احباط همة الشعــب الفلسطيني ، واطفاء جذوة حماسته للكفاح المسلح ، ودفع الجماهير العربية الى فقدان الثقة بقدرات المقاومة على تحقيق النصر ٠

تفتيت الصف العربي

يشكل التضامن العربي ، حتى في حالاته الاولية البسيطة ، احدى روافــع قلب ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي ٠ ولقد اخذ هذا التضامن خلال حرب تشرين شكلاً مقبولاً الى حد ما ، واعطى عدداً من النتائج الايجابية ، وكان مما اثبتته هذه الحرب ، ان اندلاع القتال ضد العدو الصهيوني عامل يجمــع كلمــة العرب على اختلاف مشاربهم وايديولوجياتهم ، كما اثبتت سنوات الهدوء التي سبقت الحرب وتلتها ، ان طرح الولايات المتحدة لمشاريع السلام (مشروع روجرز قبل حرب تشرين ومشاريع كيسنجر للحل السلمي بعد هذه الحرب) ، وتوقف الصراع المسلح مع العــدو الخارجي بانتظار مخرج سياسي ، يخلقان المناخ المناسب لشرخ التضامن العربي الداخلي ٠

وفي الوطن العربي اكثر من سبب محلي وايديولوجي لتفجـــر الصراعات العربية ولكن السبب الاول والاهم هو تباين المواقـــف من الصراع العربي ـ الاسرائيلي · وتباين وجهات النظر حول دور المقاومة السياسي واساليب عملها العسكـــري ضمن اطار هـــذا الصراع · وبسبب هذا التباين وقع الصدام الـــذي تحـــول الـــى حـــرب اهلية متعـــــددة الاطراف · ووجدت كل دولة عربية (وعالمية) المجال لتقديم الدعم المادي والسياسي والاعلامي الى الجانب المنسجم مع استراتيجيتها ، وأصبحت الاراضي اللبنانية مسرح صدام بين عرب التسخين وعرب التهدئة ، عرب اميركا وعرب معاداة اميركا ، ووقفت سورية الى جانب المقاومة والحركة الوطنية ، حليفتها ضد معسكر اتفاق سيناء ، وبقي الامر كذلك حتى الشهور الاولى من العام ١٩٧٦ ، التي باتت فيها امكانات الحسم العسكري ضد اليمينيين الانعزاليين على الابواب ·

· والحقيقة ان اسرائيل كانت تراقب انذاك الاحداث اللبنانيـــة عن كثب . وتستعد لاستغلالها بضربة عسكرية مفاجئة ، مستفيدة من صرخات الاستغاثـــة التي أطلقها كميل شمعون من السعديات ثم من الكفـــــور ضد ما أسمـــاه « بالاجتياح السوري » · ولم يكن التدخل العسكري بعيدا عن استراتيجيتهـــا المعلنة · ولقد ساد في المستوطنات الاسرائيلية الشمالية قلـــق كبير في مطلـــع العام ١٩٧٦ على اثر قيام جيش لبنان العربي ، وسقوط الدامور ، وسيطرة المقاومة والحركة الوطنية على جنوبي لبنان ، ودخـــول وحدات من الجيش السوري وجيش التحرير الفلسطيني (القادسية وحطين)الىالاراضي اللبنانيـــة وكانت وسائل الاعلام الاسرائيلية تضغط باتجاه خلق المناخ الدولي المناســـب للتدخل استنادا الى عدة اعذار يمكن اجمالها بما يلي : حماية المستوطنات ، واملاء الفراغ الامني في جنوبي لبنان ، وحماية المسيحيين ، والابقاء علـــــى لبنان القديم الاخذ بالزوال من الخريطة ، ومنع القوات السورية والتـــــوات الفلسطينية النظامية من اجتياز نهر الليطاني (٨) ·

وفي هذه الفترة بالذات تفاقم التفتت العربي ووصل الى اسوأ حالاتـــــه عندما دب الخلاف بين حلفاء الامس ، وتحول بسرعة الى صدام مسلح بيـــن المقاومة والحركة الوطنية وجيش لبنان العربي من جهة ، وسورية والمنظمـــات اللبنانية المتحالفة معها من جهة اخرى · وتضاعفت الخلافات العربية ، وتزايدت امكانات التدخل العربي الخفي لدعم المقاومة وحلفائها ·

ووجد اليمينيون الفرصة المناسبـــــة لالتقاط انفاسهم واستعادة توازنهـــم والقيام بهجوم مضاد ، فرفعوا شعار « تحرير » لبنان من الفلسطينيين « الغرباء » (وهو شعار اقليمي مرفوض قوميا) وشعار توحيد الوطن الذي كانوا يلوحون

بتقسيمه من مواقع الهزيمة ، الامر الذي يثبت انهم يفضلون الانكفاء الـــى دويلة صغيرة طائفية عنصرية ولا قومية في حالة احتمال تحول لبنان الى بلـد عربي وتقدمي (الى حد ما) · ولكنهم لا يرفضون العودة الى لبنان موحد ، اذا أمن لهـم ميزان القوى العسكري تطهيره من الفلسطينيين والقوى الوطنية، واعادة بنائه وفق مفاهيمهم ، ليكون تحت حكم الاقلية المستغلة التي عملـت منذ العام ١٩٤٩ على عزل هذا الجزء من العالم العربي عمليا عن قضايا العرب المصيرية ، وعلى رأسها قضية فلسطين ·

وبسبب هذا الوضع الجديد ظهر عامل اخر زاد حدة التناقضات العربيـة وتفتت الصف العربي · والمستفيد الاول من هذا الوضع هو اسرائيل التي صرح رئيس وزارتها اسحق رابين بقوله ، « ان العالم العربي لا يستطيع ـ فـي الوقت الذي تتركز فيه جهوده السياسية والعسكرية الرئيسية في لبنان ـ تحرير نفسه للاهتمام بأي نوع من المحادثات مع اسرائيل · سواء حول اتفاق عام او حول انهاء حالة الحرب »··· « وهناك كذلك انخفاض في خطر قيام تنسيـق عسكري عربي لمجابهة اسرائيل » (٩) ·

خنق الرئـة اللبنانيـة :

ان وجود بلد عربي مزدهر اقتصاديا ومتطور الى حد ما يشكل تحديـا حضاريا لاسرائيل ، ونقضا لادعاءاتها بانها القلعة الغربية المتقدمة في عـالـم متخلف · ولقد كان لبنان ـ حتى بشكله القديم وسياسته غير العدوانية ازاء اسرائيل ـ عبارة عـن بداية تحد حضاري · وكان من الممكن ان يأخـذ هـذا التحدي حجما اكبر لو ان لبنان القديم كان دولة علمانية تسود فيها العدالـة والمساواة ، وترتفع فيها راية العروبة عاليـا ·

ومهما كانت طبيعة النظام الذي سيسود في لبنان بعد انتهاء الحرب ، ومهمـا تسارعت وتيرة اعادة البناء وارتفع حجم المساعدات العربية خلال المرحلة المقبلة، فان مستوى التحدي الحضاري الذي سيشكله لبنانسيكون ـ ولمدة غير قصيرة ـ منخفضا بسبب : ١ ـ الخسائر المادية الكبيرة التي أصابت البنية التحتيـة الاساسية للاقتصاد اللبناني ، ٢ ـ اهتزاز الثقة باستقرار النظام ، ٣ ـ هجرة الادمغة والكفاءات واليد العاملة الفنية واحتمال عدم عودة جزء كبير منها اذا ما دامت الحرب الاهلية مدة تكفي لاستقرار المهاجرين في المهجر ، ٤ ـ الدمار الذي أصاب المؤسسات العلمية ومؤسسات الخدمات ، وما تحتاجه عملية اعادة بنائها منجهد ومال ، ٥ ـالشرخ النفسي الشاقولي الذي أصاب المجتمعاللبناني، ٦ ـ تدهور سمعة الفرد اللبناني في الخارج بسبب الفظائع المرتكبة خـلال

الحرب ، والمخالفات الصارخة والثابتة وثائقيا لكل قوانين الحرب واعرافهـــا وشرائعها واخلاقياتها ، والتجاهل الكامل للقانون الدولي العام الذي تشكـــل المعاهدات الرامية الى تنظيم الحرب وتأنيسها جزءا منه ٠

ومن الطبيعي ان اسرائيل (بالاضافة الى دول اخرى عربية وغير عربية) افادت وستفيد من هذا الوضع ٠ وتعتبر الدولة الصهيونية ان فائدتها ستكون اكبر بكثير اذا ما أمكن التوصل الى حل ينهي حالة الحرب بين العرب واسرائيل، ويعيد العلاقات بين دول المنطقة الى الوضع الطبيعي ، لان انعدام المنافســـة اللبنانية التجارية والثقافية والسياحية ، سيجعل اسرائيل العميل التجـــاري الرابح بين منتجي العالم الرأسمالي ومستهلكي العالم العربي ، ومحطة السياحة الاولى على الشاطيء الشرقي للبحر الابيض المتوسط ٠

وبالاضافة الى كل ذلك ، فقد كان لبنـــــان بؤرة اعلامية مفتوحة على العالم وكان مهاجروه المنتشرون في كل بقاع العالم سفراء غير رسميين يعملون فـــي المجتمعات التي اندمجوا بها لمجابهة الاعلام الصهيوني ٠ ولقد حققت اسرائيل من الحرب الاهلية في هذا المجال مكسبين : **اولهما** تحويل جزء من المهاجريـــن الى دعاة ضد المقاومة الفلسطينية يقدمون الى اسرائيل خدمة اعلامية مجانية، **أما الثاني** : فهـــو منع الاعلام اللبناني من الاشعـــاع الـــى الخارج بسبـــب انقطاع المواصلات والانشغـــال بالاعـــلام الداخـــلي ، وحرمان الاعـــــلام التقدمي العربي القوي في لبنـــان من متابعـــة رسالته في تثوير المنطقة العربية وكشف مخططات الامبرياليين والتصفويين ٠

ومن المؤكد ان اسرائيل لا تكتفي بهذين المكسبين ، بل تأمل مع عدد كبير من الدول والقوى الاجنبية والعربية ، **بأن تؤدي الحرب الى وأدبدايات الفكر التقدمي** الثوري المتنامي في لبنان ، والذي يمكن ان يتحول الى «كوبا فكريـــة »تشارك في ايقاظ العقل العربي وتثويره وقطع شبكة العنكبوت التي يحيكها حولهالاعلام الرسمي المبستر والمفوت في كثير من الاقطار العربية ٠ كما تأمل مع الـــدول والقوى المذكورة ، بأن يتوصل اليمين الى اجهاض بدايات تنظيم القـــــوى الوطنية والتقدمية ، التي تشكل بفكرها وممارساتها وتحالفها مع المقاومـــــة نموذجا يمكن أن يشكل ، اذا ما انتشر عـــلى امتداد الوطن العربي ، عامـــلا ديناميكيا في مسيرة التحول الراديكالي التي لا يمكن ان تكون الا ضد اسرائيل والامبريالية الداعمة لها ٠

الحصول على صك الغفران

بنيت اسرائيل على العدوان ، وتغذت بالعنف القمعي ، وعاشت ولا تـــزال

تعيش تحت ظلال الحراب · ولقد ارتكبت الصهيونية خلال تاريخها الدامـــي الكثير من الجرائـم ، ومارست المجازر المخططة ضد الشعب العربي عـــامة والفلسطيني بشكل خاص . وبنت مع الايام جدار الدم الذي ما زال يرتفع يومـا بعد يوم · ولقد أدان الرأي العام العالمي تصرفات الصهاينة قبل العام ١٩٤٨ وبعده ، واتخذت المنظمات الدولية والاقليمية بحق اسرائيـل عـدة مقررات ، واعتبرت الصهيونية نوعـا من العنصرية · وظهرت اسرائيل ، رغم كـــل محاولات اميركا لتبرئتهـا ، دولة عنصرية قمعية لا تختلف عـن جنوبـــي أفريقيا · الامر الذي دفع مفكري العالم المتحررين من عقدتي « اللا سامية » و« الصليبية » الى مهاجمة الكيان الصهيوني كفكرة وكممارسة · ودفـــع عـددا من الاسرائيليين التقدميين (وخاصة من حـزب «راكاح» ومنظـــمة « ماتسبن ») الى كشف فظائع اسرائيل ومخالفاتها لحقوق الانسان · ووصـل العنف الاسرائيلي ، خـلال عـمليات قمع انتفاضات سكان الارض المحتلـة، الى درجة دفعـت أوري أفنيري الى القول :

« لقد استخدمت اليد القوية ، وعندمـا لـم تنجح استخدمت يدا اقوى » ·· « لقد وصل الاحتلال (الاسرائيلي) الى مرحلة كلاسيكية ، وسيضطر الى ان يكون اكثر شراسة . واكثر وضوحـا ، واكثر انكشافا أمام انظار العالم »(١٠)

ولقد حاولت اسرائيل دائما تبييض صفحتها ، او تبرير اعمالها الساديـــة (النابعة من عقدة القهر الدائم وحياة الغيتو وافران معسكرات الابـادة) بحجة الدفاع عـن النفس ضد الخـطر العربي ، ومقاومـــة « الارهـاب » الفلسطيني · واعطاها العـرب في بعض الحالات فرصا جيدة لتغذية اعلامهـا « التنظيفي »، ولكن افضل ما قدموه لهـا فـي هـذا المجال هـو الشكـــل الطائفي الذي اخذته الحرب الاهلية اللبنانية في كثير من مراحلها ·وتتمثـــل مكاسب اسرائيل هنـا بالنقاط التالية :

١ ـ استغـلال المجازر الطائفية الوحشية ، وعـمليات النهب والحـــرق والخطف والقتل عـلى الهوية وتدمير اماكن العبادة وقتل رجال الدين ··الخ، لاعـطاء العـالم صورة رهيبة عـن الانسان العربي الوالغ في دم اخيـــه · وتبهيت صورة مجازر دير ياسين والسموع وغـزة ومدرسة بحر البقر ومصنـع ابي زعبل ومخيم نهـر البارد ، عـن طريق مقارنتها مع الصورة الحيـــة للمجازر الجماعية في لبنان (الانطباع الاسوأ يطرد الانطباع السيء) ·

٢ ـ استغلال الخوف الغريزي لدى مسيحيي الجنوب ، والذي زاد مـــن تأججه الاعلام الطائفي ومجريات الحرب الاهلية نفسها ، وتقديم الدولـــة الاسرائيلية كدولة « انسانية » تحمي القرى المسيحية الحدودية وتدافع عـنها

ضد « عـدوان » المسلمين واليساريينوالفلسطينيين ، وتسمح بلجوء المسيحيين اليها اذا ما تعرضوا للخطر · ولقد لجأ عـدد من سكان القرى المسيحـيـن بالفعل الى اسرائيل · في اواخر العام ١٩٧٥ ومطلع العام ١٩٧٦ ،وخاصـة بعد معـركة الدامور ·

٣ ـ استغلال الازمة الاقتصادية الناجمة عن الحرب للقيام بمبـادرة « انسانية » تتمثل بما يلي :

ـ شراء المحصولات الزراعية وخاصة التبغ · ولقد اقدمت اسرائيل بالفعـل على شراء صفقتي تبغ من رميش (عـدة اطنان)، ثم توقفت بحجة غـلاء الاسعـار التي يطلبها اللبنانيون ·

ـ بيع بعض المحصولات الزراعية كالبيض والملح والبصل الى الفلاحيـن بالعـملة اللبنانية ، عـلى اساس ان سعـر الليرة اللبنانية يعـادل ٥ر٢ ليرة اسرائيلية . مع ان السلطات المصرفية ترفض صرف الليرة اللبنانية بأكثـر من ٣٥ر٢ ليرة اسرائيلية · وذلك لاقناع الفلاحين بأن الجيش الاسرائيلـي « الطيب جدا » يتحمـل فرق السعـر · وتذكر المصادر الاسرائيليـة ان اللبنانيين اشتروا خـلال شهر اب ١٩٧٦ بحوالي مليون ليرة اسرائيلية ، وأن الملح كان اهـم المشتريات (١١) ·

ـ تشغـيل العـمال اللبنانيين اعتبارا من ٢٨ـ٧ـ١٩٧٦ بناء على قـرار اعـلنه مدير عـام وزارة العـمل ارييه غورال · وذلك في مجالات : البنـاء والتبغ والتـحريج والقطاف · ويحتمل أن تبلغ امكانات التشغـيل حوالـي ٥٠٠ عامل سوف يتقاضون اجورا مشابهة لاجور العمال الصهاينة في الاعمال المماثلة (١٢) ·

ـ السماح للرعـاة بالاقتراب من السياج المكهرب لرعـي مواشيهم ، علما بان الاقتراب من السياج كان محظورا ويعرض من يقدم لرمايات المراكـز والدوريات الاسرائيلية ·

٤ ـ استغلال النقص الفادح في الخدمات الطبية في الجنوب لتقديم خدمـة «انسانية » اخـرى تتمثـل في معـالجة المرضى والمصابين في اسرائيل · ففي ٣ تشرين الثاني ١٩٧٥ اقترح وزير الصحـة الاسرائيلي فكتور شمطـوف مساعـدة لبنان بالمـواد الطبية واستقبال المرضى ، وبدأ عـدد محدود مـن اللبنانيين من قرية القليعـة الدخـول الى اسرائيل للمعالجة عبر فتحات فـي « السياج» · ثم فتح الاسرائيليون مستوصفين في المطلة (قرب كفر كـلا)

ودوفيف (قرب رميش) ·واتسع نطاق العملية بعد ذلك ليشمل ارسال المرضى والمصابين الى مستشفى صفد أو حيفا · ويدعي العدو الاسرائيلي ان عدد اللبنانيين الذين تلقوا العلاج « حوالي ٥٦٥٦ شخصا في الفترة الواقعة بين ١٥ نيسان و١٥ اب ١٩٧٦ » (١٣) ·

٥ ـ بالاضافة الى هذه الخدمات «الانسانية » قامت اسرائيل بمد انبوب مياه داخل الاراضي اللبنانية قرب رميش ، وأمنت المحروقات والخدمات البريدية للقرى الحدودية ، وفتحت الباب امام المزارعين لزيارة المستوطنات ومناقشة سكانها حول المسائل الزراعية ، وقدمت الارشادات الزراعية للفلاحين اللبنانيين وسمحت لهم بلقاء أهلهم القاطنين في الجليل ،وتصرفت على العموم كدولة « مسالمة متحضرة »، في الوقت الذي كان فيه جنودها يصادرون اراضي الفلسطينيين ويهجرونهم ويستعملون معهم كل ضروب العنف والتنكيل !

تخفيف حالة العداء وتنمية العلاقات الطبيعية ·

ان من التبسيط الكبير للامور القول بأن سياسة « السياج المفتوح » التي لجأت اليها اسرائيل في جنوبي لبنان منذ تشرين الثاني ١٩٧٥ وتوسعت في تطبيقها في اوائل حزيران ١٩٧٦ لا تعدو ان تكون عملا اقتصاديا ـ طبيا دعائي الطابع فالمسألة في جوهرها سياسية ـ أستراتيجية · ومن المؤكد ان السياسة التي اطلقت عليها دافار (٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٧٦) اسم سياسة « السياج اللطيف » لا تستهدف فقط الدعاية ، أو نشر صور الفلاحين الجنوبيين المتشبثين بأسلاك « السياج »وسطولهم بأيديهم ، أو بث احاديث المسلحين الكتائبيين المتسللين من جونية الى قرى الجنوب عبر اسرائيل ، بل تتوخى أيضا تحقيق هدف استراتيجي ـ نفسي يتمثل في تخفيف حدة العداء العربي ـ الاسرائيلي ، وتنمية العلاقات الطبيعية مع سكان الجنوب (موارنة كانوا ام شيعة)، واقناعهم بان الدولة الصهيونية لا تريد بهم شرا ،وان كل ما لحق بهم من اذى على يد الاسرائيليين من قبل كان ناجما عن وجود المقاومة الفلسطينية بينهم · وان ابتعاد هذه المقاومة (المشغولة في صد الهجمات اليمينية في مختلف ارجاء البلاد ، وغير الراغبة حاليا في تشتيت قواها لتثبيت وجودها في الجنوب) ازال العامل الذي كان يدفع اسرائيل الى قصف الفلاحين الجنوبيين ، وخطفهم ، واحراق مزروعاتهم ، وتهديم مساكنهم، واجبارهم على الهجرة الى حزام البؤس المحيط بالعاصمة للقيام بالاعمال السوداء لقاء اجر محدود ·

وبعد تحقيق هذا الغرض ، وتكريس التناقض بين امن الفلاح الجنوبي وامن

المقاتل الفلسطيني ، تستطيع اسرائيل الانتقال الى المرحلة التالية من مخططها عبر تسليح العناصر المتطرفة في الجنوب ، وتقديم الضمانات الامنية والوعود بالمساعدة العسكرية لسكان القرى الحدودية ، على أمل ان تتحول سلسلة القرى الحدودية الى حزام أمني يحجم فيه القرويون عن مساعدة المقاومة خوفا من الضربات الردعية ، في حين تقوم العناصر المتطرفة بمهمة مخافر مراقبة متقدمه بعمق عدة كيلومترات بعيدا عن الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية · ولقد بدأت هذه المرحلة بالفعل . واستطاعت اسرائيل خلق مجموعات انعزالية في قرى القليعة وعين ابل ودبل ورميش وعلما الشعب ، وقدمت اليها عددا من الاليات ، وربطتها بمخافر الحدود الاسرائيلية سلكيا ولا سلكيا ، حتى تسمح لها بطلب النجدة والدعم الناري عند اللزوم ·

وبالاضافة الى هذا المكسب النفسي المؤهل للتحول الى مكسباستراتيجي، فان اسرائيل تسعى من وراء «« السياج اللطيف » الى مكسب سياسي يكون مع الجسور الاردنية المفتوحة ، ومرور البضائع في قناة السويس ، دليلا اضافيا على امكانية التعايش مع العرب ، رغم اغتصاب الارض الفلسطينية وتشريد اهلها ، ورغم الصراع الدامي منذ عشرينات هذا القرن ·

وليس هذا المكسب هدفا بحد ذاته . ولكنه وسيلة يمكن ان توضع في يد كيسنجر للرد على المعتدلين العرب ، الذين قبلوا بانهاء حالة الحرب مع اسرائيل ، ولكنهم رفضوا الصلح معها نظرا لحالة العداء العنيف الناجم عن صراع طويل ، وتركوا هذه المسالة للاجيال المقبلة · كما انه حجة تقدمها اسرائيل الى الاميركيين (الذين يطالبون الدولة الصهيونية بانسحابات معقولة من الاراضي العربية) لاقناعهم بأن استمرار الاحتلال الاسرائيلي للاراضي لا يخلق المناخ لاندلاع حرب عربية ـ اسرائيلية خامسة ، ولا يؤثر بالتالي على مصالح اميركا في المنطقة ·

اكتساب تعاطف الادارة الاميركية :

أن التوافق الاميركي ـ الاسرائيلي على اخضاع الامة العربية امر ثابت لا يحتاج الى مزيد من الايضاح· ولكن هذا التوافق لا يعني بالضرورة تطابق الاغراض والوسائل · واذا كان غرض الاميركيين من السيطرة ضمان مصالحهم الاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة ، فان غرض اسرائيل بناء دولة صهيونية واسعة تضم معظم يهود العالم ، وتفرض وجودها السياسي ـ العسكري على الوطن العربي ، وتشارك الراسمالية العالمية في عملية الاستغلال · وهكذا نرى ان الفرق بين الغرضين هو في الحقيقة ما يميز الاستعمار الجديد عن الاستعمار القديم ·

ولكل استعمار وسائله · ولذا فان من الطبيعي ان لا تتطابق وسائل الاستعمار الاميركي الجديد المناسبة لطبيعة العصر ، مع وسائل الاستعمار الاسرائيلي المستعارة من الوسائل الاوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر · ومن عدم التطابق المذكور تأتي عادة الخلافات بين الحكومات الاسرائيلية الراغبة في استخدام القوة المادية المجردة واساليب الارهاب والتشريد والاقتلاع لزرع المستوطنين الجدد ، والحكومات الاميركية التي ترى أن من الضروري اللجوء الى أساليب حاذقة . مخادعه ، أريبة ومعصرنة ، تمزج بين الخرق النفسي ، والمساعدة الاقتصادية ، والتلويح باستخدام القوة ، وتعتمد في العمل المادي العنيف على شحن القوى التقليدية المفوته في البلد المنوي اخضاعه ، وربط مصالحها بمصالح الرأسمالية العالمية المعادية اساسا لمصالح جماهير البلد ، ودفعها عند اللزوم لضرب القوى المتقدمة التي تهدد مصالح اميركا ، مع الحفاظ على اسرائيل القوية كقوة احتياطية استراتيجية ، تستخدمها عند الضرورة القصوى كآخر وسيلة محلية لضرب الدول العربية التي يفشل فيها مخطط الاخضاع المعصرن . وتبدأ بازعاج الولايات المتحدة وتهديد مصالحها ·

لهذا كله ، كان للولايات المتحدة منذ ١٩٦٧ اسلوبها الخاص في مجابهة حركة المقاومة الفلسطينية والدول العربية الراديكالية وازمة الشرق الاوسط بشكل عام · وكان هذا الاسلوب مختلفا في اغلب الاحيان عن الاسلوب الاسرائيلي العنيف ، ولكنه لا يستبعده نهائيا ، بل يدخله كعامل ضاغط من جملة العوامل المستخدمة ·

وكان للولايات المتحدة ايضا اسلوبها الخاص لمعالجة الحرب الاهلية اللبنانية ، بكل جوانبها المحلية والعالمية ، كجزء من معالجة مسألة الصراع العربي ـ الاسرائيلي · ويتسم الاسلوب الاميركي بتجنب استخدام القوة بشكل مباشر ، والاكتفاء بتفتيت الصف العربي ، واستنزاف المقاومة في لبنان بقوى محلية وخلال مدة طويلة ، حتى تنتهي الانتخابات الاميركية وتبدأ عجلة الحل السلمي الكيسنجري بالدوران من جديد ، ويتم عقد اجتماع مؤتمر جنيف والعرب مفتتون متناحرون ، والمقاومة الفلسطينية مدجنه او محتواة ، وفاقدة لحرية القرار السياسي ·

ولم تكن اسرائيل في البداية تعارض هذا المخطط الذي يخدم مصالحها مجانا · ولكن تلاحق هزائم اليمينيين في اواخر العام ١٩٧٥ ومطلع العام ١٩٧٦ ، وسيطرة القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية على معظم المواقع ، وتواجدهما المسلح الكثيف في الجنوب . ودخول القوات السورية ووحدات من جيش التحرير الفلسطيني الى لبنان ، خلقت وضعا جديدا دفع اسرائيل

الى التفكير بالعـودة الى استراتيجيتها التي تفرض عـليها عبور الحـدود الى عمق البلاد العربية المجاورة والقيام بهجمات اجهاضيـة (وقائية) محدودة أو واسعـة النطاق « لمد يد المساعـدة للحلفاء العلنيين أو غـير العلنييـن (الموجودين أو المحتملين) في دولة عربية أو اخـرى ، او فـي حـالـة تغير الوضع الراهن في دولة مجاورة لاسرائيل بشكل مهـدد لاسرائيل بصـورة قاطعة » (١٤) ٠

ولهذا ظهرت في اسرائيل اتجاهات قوية للتدخـل في لبنـان « وعـدم الاكتفاء بالتفرج عـلى الحرب من عـلى الشرفة »، وعـدم ترك الامور تتدهور الى الحد الذي يصبح فيـه لبنان بلد مواجهة تعمـل عليـه المقـاومـة بحرية ٠ وكانت كل **العوامل المحلية** تسمح لاسرائيل بالتدخل ،وتعطيهـا المبـرر السياسي لاحتلال الجنوب وتحقيق اغراضها التوسعـية ٠ ولم يكن الزعـماء الاسرائيليون بعيدين كثيرا عـن هذا التفكير ، ولكنهم لم ينتقلوا من الفكـرة للعـمل ٠

ويرجع احجام اسرائيل عـن تطبيق استراتيجيتها ، وقبولها بالتخلي عـن جزء من عقيدتها العسكرية المعلنة ، والتخلي عن فرصة التوسع ، الـى **عامـل خارجي** يتعلق بتوازن موقفي واشنطن وموسكو ازاء الازمة ، وبرغبة اسرائيل في اكتساب تعاطف الادارة الاميركية وعـدم عرقلة مخططاتها الداخليـة والخارجية ٠ وكانت الولايات المتحـدة قد اعـلنت اكثر من مرة أنها ضـد اي تدخل اجنبي في الحرب الاهـلية ٠ وهي لم تعارض التدخل السوري منـذ بدايته بل اعتبرته وسيلة معقولة لحل الازمة وطلبت من اسرائيل عدم الرد عليه بعمل عسكري « لان الاميركيين لا يرون اي بديل معقول للتدخل السوري » (١٥)، و« لان الولايات المتحـدة تشى نشـوب حـرب شاملـة فـي **الشـرق** الاوسط ٠ وتعتقد ان امكان انتخاب فورد سيتضاءل كثيرا اذا نشبت الحرب فـي المنطقة »(١٦) ٠

والحقيقة ان اسرائيل ، التي ازداد ارتباطها الحياتي والامني بالمساعـدات الاميركية بعـد حرب ١٩٧٣ ، لم تكن تستطيع استفزاز الادارة الاميركيـة وتحميـل الرئيس فورد همومـا اضافيـة فوق همومـه الانتخابيـة ، خاصة وان احتمالات بقائـه فـي سـدة الرئاسـة الاميركيـة اربـع سنوات اخرى لا تزال كبيرة ٠ ولقد رأت ان من مصلحتها استغلال الحـرب الاهلية اللبنانية عن طريق اقراض الرئيس فورد ووزير خارجيته دفعـه علـى

الحساب ، تتمثل في عدم التدخل العسكري في لبنان ، حتى يتذكرا هذا الدين بعد الانتخابات • خاصة وان الوضع على حدود اسرائيل الشمالية لم يتدهور بشكل يهدد امن الدولة الصهيونية الى الحد الذي يجبر الاسرائيليين على مخالفة اميركا •

• وعلى هذا الاساس بدأت التراجعات الاسرائيلية الرسمية ، وتناقصت التهديدات بالتدخل لاحتلال الجنوب (وان لم تنته بكل قاطع) ، واختفى « الخط الاحمر » الجغرافي (نهر الليطاني) الذي حددته اسرائيل في بداية التدخل السوري ، واعتبرت ان اجتيازه من قبل السوريين سيفرض عليها التدخل عسكريا ، وحل محله « خط احمر » غامض غير محدد المعالم « هو مجموعة اعتبارات تتعلق بالمكان الذي توجد فيه قوات سورية ، وحجم هذه القوات ، والهدف من دخولها ، ومدة بقائها في لبنان» (١٧) ، وذلك لاعطاء الحكومة الاسرائيلية امكانية واسعة لتبرير عدم التدخل ، اذا طلب منها الاميركيون ضرورة ضبط النفس ، ورأت ان عليها عدم مصادمتهم •

★ ★

وهكذا تدور رحى الحرب الاهلية اللبنانية لتطحن الشعبين اللبناني والفلسطيني ، ويستمر نزيف الدم ضمن اطار «لعبة الامم » ،ويدفع الخاسران الرئيسيان كل ثمن الحرب ، بينما يقف على الشرفة متفرجون يعدون النقط ، ويحسبون الارباح التي تأتيهم مجانا • وعلى الشرفه رابحون صغار يكسبون ما يتناسب مع حجمهم ومستوياتهم وطموحاتهم ، ورابحون كبار يحولون الدماء والدموع والدمار الى مكاسب استراتيجية ، وفي مقدمة هؤلاء الرابحين تقف اسرائيل •

المصادر

١ ـ هارتس ، ٤ ـ ٤ ـ ١٩٧٦

٢ ـ معاريف ، ٣٠ ـ ١ ـ ١٩٧٦ •

٣ ـ معاريف ، ١٩ ـ ٣ ـ ١٩٧٦ •

٤ ـ ر ٠ ا ٠ أ ، العدد ١٠٤٠ •

٥ ـ المرجع نفسه •

٦ ـ دافار ،٢٧ ـ ٦ ـ ١٩٧٦ •

٧ ـ دافار ، ٦ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ •

٨ ـ يديعوت احرونوت ،١٩ ـ٣ـ١٩٧٦

١٠ ـ هاعولام هازيه ، ٢٤ـ ٣ـ ١٩٧٦

١١ ـ تقرير خاص صادر عن مركز التخطيط الفلسطيني بعنوان « الجنوب والجولة القادمة » ، ١٦ ـ ٩ ـ ١٩٧٦ ، ص ٦ •

١٢ ـ المرجع نفسه ، ص ٧ •

١٣ ـ المرجع نفسه ، ص ٦ •

١٤ ـ ييغال الون ، انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي ،دار العودة،ص ٢٤٨

١٥ ـ يديعوت احرونوت ، ١٦ ـ٦ـ١٩٧٦

١٦ ـ هارتس ، ١١ ـ ٦ ـ ١٩٧٦ •

١٧ ـ هارتس ، ١٦ ـ ٦ ١٩٧٦ •

الجنوب

مروان ناصر

للمناطق الحدودية في كل الاوطان وفي كل الازمان طبيعة خاصة تتميز بالحساسية والتأرجح وعدم الوضوح ، حتى في فترات السلم والاستقرار ، وحتى عند الامم المكتملة النمو القومي والسياسي ، ذلك انه اذا كان التمايز بين البلدان المتجاورة يبدو واضحا وحاسما في مناطقها الداخلية ، فان مناطقها الحدودية غالبا ما تكون على تداخل بشري ولغوي مع البلدان المجاورة الامر الذي يشكل مصدر غنى وفير على صعيد التمازج البشري ، ومصدر مشاكل دائمة على الصعيد السياسي ، ولقد كان نمو اقلية مجرية على الحدود المجرية ـ اليوغسلافية ، واقلية تشيكية على الحدود المجرية ـ التشيكية الخ ٠٠ مصدر اضطراب سياسي دائم في اوروبا الوسطى وفي البلقان حتى تمت تسويات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، كما ان تأرجح مقاطعتي الالزاس واللورين بين فرنسا والمانيا مثال صارخ على هذه الحقيقة ، فحتى عندما كانت الحروب تحسم هذا التأرجح لمصلحة هذه الدولة او تلك ، ظل التمازج الالماني ـ الفرنسي هو الطابع المميز لهاتين المقاطعتين ، بغض النظر عن وضعهما الجغرافي ـ السياسي ٠

ليس لهذه المقدمة العامة علاقة مباشرة بموضوع الجنوب اللبناني المتاخم لفلسطين المحتلة ، سوى التأكيد على ان التحديدات الجغرافية على

الخريطة ليست كافية لتحديد معـالم الفصل الحدودي بين دولتين ، فسياسـة الامر الواقع على الحدود هي الاقوى ، حتى فـي ايام السلـم والاستقرار ، فكيف في ايام الصراعات الطويلة الممتدة ، والتي لم يتم الحسم فيها بعد ؟

لمحة تاريخية

وضع الجنوب اللبناني المتاخم لفلسطين لم يبدأ بالظهور على موائـد المخططين السياسيين في القرن العشرين منذ قيام دولة اسرائيل فقـط ، بـل منذ ان وضعت خريطة البلدان العربية الخارجة من حطام الإمبراطوريةالعثمانيةفي اعقابالحرب العالميةالاولىعلىموائدالدول الاوروبية المنتصرة ،سواء فيمحادثات سايكس ـ بيكو الشهيرة التي انتهت بخريطة واضحة لتقاسم المغانم في المشرق العربي بين فرنسا وبريطانيا ، او تقارير لجنة كينغز ـ كرين التي اعتبرهـا المجتمع الدولي (الاوربي ـ الاميركي في ذلك الحين) استفتاء لـدول المشرق العربي حول الدول الغربية التي يفضل ان توضع بلاده تحت لوائها في مـا اصطلح يومها على تسميته بـ « الانتداب » ٠

فمنذ تلك الايام ، ومنذ ان انحصر الصراع على لبنان وفلسطين بيـن فرنسا وبريطانيا ، ادخلت المنطقة الحدودية بين البلدين حلبة صراع خرائـط المشاريـع الجغرافيـة ـ السياسية بيـن القوتيـن الدوليتين ، فبالاضافـة الى التأرجح التاريـخي السياسي المستمر لجنوب لبنان بيـن فلسطين ولبنان ، فان علاقاته الاقتصاديةوالبشرية بفلسطين تشكل واقعا مستمرا يتداخل مع واقعه الجغرافي ـ السياسي ٠

ولو كان المشروع السياسي المطروح انذاك مشروع وحـدة عـربية ،لتحول هذا الواقع الجنوبي الرجراج الى همزةوصل بين لبنان وفلسطين ،يغني ويدعم التداخـل القومي بينهمـا ، اما والمشروع استعماري تتنافس فيه دولتـان كبيرتان ، فقد انصبت محـاولات فرنسا عـلى استغلال علاقتها الخاصـة بالموارنة لتحريك وتأليب القرى المسيحية في الشريط الحدودي باتجـاه يضمن بقاء تلك المنطقة داخـل الحـدود اللبنانية اثناء رسم خريطة لبنان الكبير وبعـد ضمان وضع لبنان تحت الانتداب الفرنسي ، بينما كانتبريطانيا تشد المنطقـة في الاتجاه المعاكس ، معتمدة على العلاقات البشرية والاقتصادية الجنوبية التي تولي وجهها عادة صوب فلسطين ٠ وليس مستبعدا ان يجد المتعمق في دراسة وثائق تلك الفترة دليلا عـلى اهمية مياه الجنوب اللبناني بالنسبة لبريطانيـا، التي كانت سياستها الفلسطينية انذاك قد دخلت حيز تنفيـذ وعـد بلفـور ، وانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ٠

وقد ادى هذا التنافس الاستعماري المرتكز على تحريك معطيات الواقع المحلي ، الى صدامات دامية في تلك الفترة معروفة باسم « حوادث ١٩٢٠» (اعدت عنها دراستان واحدة بعنوان « مؤتمر الحجير » لمنذر جابر ، والثانية بعنوان « حوادث عين ابل » لالياس صادر) ٠

غير ان هدوء التنافس البريطاني ـ الفرنسي بعد ذلك ، واستتباب الامور على اساس الحدود الدولية الحالية لكل من فلسطين ولبنان ، عاد بالحياة الى طبيعتها في تلك المنطقة بين عين ابل (مركز الاضطرابات الرئيسي انذاك) وسائر القرى المحيطة بها ٠

وكان من نتيجة الاهتمام الفرنسي المبكر بتلك المنطقة ، وبقراها المسيحية خاصة ، ضمن اطار العلاقات الفرنسية ـ المارونية المزدهرة منذ احداث ١٨٦٠ الطائفية ، قيام احتكاك مبكر لقرى الحدود المسيحية ، المتخلفة انذاك كسائر قرى الجنوب ، بالحضارة الاوروبية ، وانعكس هذا الاحتكاك بشكل رئيسي على قرية عين ابل ، اهم واكبر القرى المسيحية في شريط الحدود الجنوبية ـ الغربية ٠ ويذكر سكان بنت جبيل ـ مثلا ـ ان اول استاذ مدرسة عصري في بلدهم (يوسف بركات) كان يأتيهم من عين ابل على ظهر دابة ، في الوقت الذي كان فيه التعليم في بنت جبيل لا يزال في عصر « الكتاب » ٠ وظلت هذه العلاقات تنمو وتتصاعد ، فأصبحت مدرسة بنت جبيل الرسمية تستقبل الاساتذة والتلامذة من عين ابل ، كما ان مدرسة راهبات عين ابل تضم ٦٠٠ تلميذ من ابناء بنت جبيل ، من اصل ٨٠٠ تلميذ ٠

وبينما انخرط اهالي عين ابل في دورة اقتصاد الخدمات في بيروت (شركات الطيران ، المصارف ، وسائر فروع اقتصادالخدمات)، كانت قريتا دبل والقوزح تراوحان مكانهما في التخلف لعدة اسباب اهمها عزلتهما عن شبكة المواصلات وقد شاركتهما رميش حالة التخلف برغم اتصالها بشبكة المواصلات ، الامر الذي جعل اهالي رميش ، مثل العديد من القرى الجنوبية الاخرى ، يتعيشون على مورد رزق واحد هو زراعة التبغ، كما كثر انتماء ابناء هذه القرية بالذات الى سلك الجندية ٠

ومن المهم جدا ان نعرف ان قرية عين ابل التي تبدو الان في مركز اصدارة في الاستجابة للمخطط الاسرائيلي ـ الانعزالي بالنسبة للشريط الحدودي ، كانت القرية المسيحية الوحيدة من هذا الشريط التي دخلها تيار حركة التحرر العربية المعاصرة ، فقد التزم بعض ابناء عين ابل بتيار حزب البعث العربي الاشتراكي في الخمسينات ، وظل الالتزام الحزبي حتى انفجر

الصراع بين تياري صلاح جديد وحافظ الاسد في سورية ، ففك بعثيو عين ابل التزامهم الحزبي ، ليظلوا عـلى ولائهم للتيار البعثي العـام ، ومع ان هذا التيار لا يضم في عين ابـل سوى خمسة وثلاثين شخصا بالتحديد ، الا انـه يشكل المجموعة الوحيدة ذات الالتزام السياسي المستمر والمتماسك ٠

اما الخريطة السياسية الكاملة لعين ابـل ، فتضم الى جانب هذا التيـار الواضح الالتزام الوطني ، تيارا اخـر غير متماسك يضم اقلية تحركهـا العواطف الانعـزالية ، اما الكتلة السكانية الاساسية في عين ابل فكانت ومـا تزال حتى الان معتدلة تتمسك بشروط التعايش الطبيعـي بين مجموعـة القرى الحدودية المتجاورة وحتى ان هـذه الاكثرية ، ومع بداية العـهد الشهابـي ، بدأت تحاول التعبير عن تطلعاتها السياسية باتجاه لبناني تحديثي معتـدل ٠

على طول هذا السياق التاريخـي كانت رميش ، وحدها تنفرد بنوع مـن العلاقات السرية مع العدو الاسرائيلي ، حيث كانت الاستخبارات الاسرائيليـة تصطاد بين اهالي رميش ، بشكل خاص ، مجموعـة من المتعاونين ، تعـلو الحاجة اليهم وتنخفض مع سخونة وبرودة الاوضاع على الحدود ٠

وكانت نشاطات التهريب بين جانبي الحـدود هي النشاطات الدائمة بصورة شبه عـلنية وتحت كـل الظروف ، وكانت رميش ايضا تحتل مركز الصدارةفي هذه النشاطات ٠

فترة الحرب الاهلية

ومع ان الحرب الاهلية اللبنانية حملت بذورا طائفية منذ شراراتها الاولى، فقد ظلت مجموعة القرى المسيحية والاسلامية عـلى الشريط الحـدودي فـي حالة هدوء، برغم الانهيار الكامل لاي رادع سلطوي يلجـم اي فوران للمشاعر الطائفية ، بل عـلى العـكس من ذلك ، بالرغـم من وجود كل عـناصـر الاغراء بتحريك الغرائز الطائفية ، وذلكسواء بدافع من اسرائيل او باندفـاع وراء الجو العام الذي طغى على الحرب الاهلية فترة من الزمـن ، ومـع انفلات اجهزة الاعـلام الخاصة التي راحت تركز يوميا عـلى الشحن الطائفي المباشر والمكشوف والمحموم ، ومع اغـراء سهولة انقضاض الاكثرية الطائفية عـلى الاقلية الطائفية ٠

ومن المفيد فـي هـذا المجال ، وقبل محاولة تفسير هذا الواقع ، الاستشهاد ببعض الاحداث التي تثبت ان عـدم استجابة شريط القرى الحدودية للغرائـز

الطائفية واقـــع سياسي حقيقي وعـــميق الجذور يتجاوز ما يسمى بـ« التعايش الاخـــوي » بين الطوائف ٠

فعـــلى الرغـــم من ان موجة الخطف والذبح على الهوية وفقا للانتماء الديني والطائفي قد اجتاحت بيروت وضواحيها فـــي اواسط الازمة وراح ضحيتهـــا اعداد لا يستهان بها من ابناء الجنوب والقرى الحدودية ، فلا ردود الفعـــل العفوية ، ولا استفراد مجموعـــة صغـــيرة من القرى المسيحية عـــلى الحـــدود البعـــيدة اديا الى موجة خـــطف ثأرية ٠ حتى انعـــددا من ابناء بنت جبيـــل بالذات كانوا قد ذهبوا ضحية موجة خـــطف وذبح في بيروت ، لم ترتفـــــع مطالبة بردود ثأرية من الجـــوار المسيحي سوى اصوات قليلة خافتة ما لبثـــت ان خنقهـــا الموقف الوطني الواعـــي لابناء بنت جبيل ٠ ولم تسجل هـــــذه الفترة السوداء سوى حـــادث ثأري واحـــد في تلك المنطقة بين قريتي يارييـــن ومروحين ، لم يلبث ان طوق واعتقل الفاعـــلون ، ولم يسمـــح لـــه بالتحـــول من حـــادث فردي الى موجة جماعـــية ٠

واذا كانت فترة « الجسور المفتوحـــة » الحالية بين اسرائيل والجنـــــوب تسترعـــي الاهتمـــام والدراسة واستخلاص العبر ، فان فترة عـــدم استجابـــة الشريط الحدودي المتخلف والمحروم والمتروك فريسة الضغوط المتنوعة لموجات الغرائز الطائفية التي صبغت فترات معينة من الحرب الاهليـــــة اللبنانيـــة ، وكانت عـــنوانا بارزا لبعض هذه الفترات ، هـــذه الفترة تستحـــق هي الاخرى الالتفات والدراسة واستخلاص العبر ٠ بل ان من الواضح ان فهـــم الحجـــم الحقيقي والاسباب الحقيقية لعـــملية «الجسور المفتوحـــة » ، والمعتمدة فـــــي بعض جوانبها على تحريك المخاوف الطائفية ، غير ممكن الا بالمقارنة بالفترة السابقة الممتدة من بداية الحرب الاهلية ، حتى بداية فترة « الجسور المفتوحة»٠

ان عدم استجابة الشريط الحـــــدودي لموجات المد الطائفي فـــي الحـــــرب الاهلية اللبنانية يتجاوز كما قلنا المفاهيم السطحية لـــ « التعايش بين الطوائف »، ويثبت ان التنويعـــات الطائفية في تركيبة المجتمع اللبناني ، حتى في اكثـــــر مواقـــــع تخلفـــه ، لا تتحول الـــى تحركـــات سياسية الا اذا كانت هناك يـــد ترسم وتخـــطط ، وتتوجه عـــمدا الى تحريك التركيبة الطائفية للمجتمـــــــع اللبناني ، وتحويلها الى تحركات سياسية في هـــذا الاتجاه او ذاك ٠

على ضوء هـــذه الحقيقة يمكننا الانتقال بسهـــولة ووضوح لاستعـــــراض واقع « الجسور المفتوحـــة »، متجنبين الوقوع فـــي فخي الـــتهويل والتهوين، فنضع اليد عـــلى الاسباب الحقيقية وعـــلى عـــوامل توسع او ضيق رقعـــــة

« الجسور المفتوحـــة » في المستقبل ٠

ما من شك في ان المواقع الحدوديـــــة تكون في فترات الصراع مواقـــــع نموذجية ، تبدو عـلى جوانبها مضخـمة ومجسمة كل عـوامل الضعـف وكـل عـوامل القوة عـند الاطراف المتصارعـة ، ليس عـلى الصعـيد العسكـــري فقط ، بل ايضا عـلى الاصعـدة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ٠

وهكذا ، يمكننا رسم صورة الجنوب اللبناني كتعبير عـن الصراع العربـي ـ الاسرائيلي كما تفهمه وتمارسه الحكومات العربية (وخاصة الحكومـــــة اللبنانية) وكما تفهمه وتمارسه الجماهير العربية ، وكما تفهمـــــه وتمارسه اسرائيـــل ٠

فبالاضافة الى ما هـو معـروف عـن تسخـير اسرائيـل لكل ارصدتهـــا الداخلية والخارجية ، المادية والبشرية ضمن خـطة استراتيجية متكاملـــــة لادارة صراعـها مع العرب، فقد كشفت نصوص الرسائل المتبادلة بين بـــن غوريون وموشيه شاريت حول الوضع اللبناني ، والعامل الطائفي فـــي هـذا الوضـــــع ، وامكانيات استغلال العنصـر الماروني . عن ان التعمـــيـق فـي فـهم تركيبة المجتمع المقابل عـلى الجانب الاخـر من خـط الصراع ليس همـا يقتصر على رجال الفكر والثقافة في اسرائيل ، بل هو من صلب هموم رجـال السياسة الذين يرسمون خـطط الصراع ويديرون عـملية تنفيذها في الوقـــت نفسه ٠

يقابل هذا الواقع على الجانب اللبناني الرسمي سياسة رسمية للدونـــة ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، كان من اوضح المعبرين عـنهـا الرئيس الاسبق شارل حلو ، عندما اعتبر نجاة لبنـــان من هزيمـــة العرب فـــي معـركة ١٩٦٧ دليلاً عـلى حكمة الخـطة اللبنانية الرسمية المعتمدة ، عـلـــى ابقاء لبنان خـارج اطار الصراع العربي الاسرائيلي ٠

وبين هذين الخطين الرسميين الاسرائيلي واللبناني ، تتململ الجماهيـــر اللبنانية العربية الانتماء ، لتجد لنفسها مكانا مناسبا تمارس فيه دورا فـي الصراع ضد اسرائيل وهي تقاوم ثلاثة عوائق كبرى : القوة الاسرائيلـيـــة الرادعـة الجاثمة على صدرها ، التخـلف والحرمان ، سياسة التهرب مـــن التحدي التي اعتمدتهـا الدولة اللبنانية خطة دفاعية رسمية ٠

بالاضافة الى هذه المعـالم الجنوبية التي يمكن ان تميز اية منطقة حدودية

اخـرى ، فقد اخـذ الجنوب يكتسب اهمية متزايدة بالنسبة للصراع العربـي ـ الاسرائيلي لعـدة اسباب :

١ ـ الاطماع الاسرائيلية التاريخية فـي الجنوب ، والتي كانت مخـــطة ومعبرا عنها بوضوح ودقة حتى قبل انشاء دولة اسرائيـــل ، وذلك نظـــرا لحاجة اسرائيل الى مياه الليطاني ٠

٢ ـ تحول الجنوب اللبناني بعد عام ١٩٧٠ بالذات ، الى منطقة تخـــرج الى حد بعيد من تحت سلطة منطق التهرب اللبناني الرسمي ، الى تحت سلطـة منطق المقاومة الفلسطينية ، سواء كمنطقة تمركز وتدريب ، او كنقطة انطـلاق للعمليات داخـل حـدود الارض المحتلة ٠

٣ ـ التلاصق الجغرافي بين الجنوب اللبناني والجايل الفلسطيني . وهـو التلاصق الذي اصبح يقلق اسرائيل اكثر فأكثر بعـد انتفاضة الجليل الكبـرى في مطلع هـذه السنة ردا عـلى محـاولات الاستيلاء عـلى الاراضي العربية للسير فـي مشروع تهويد الجليل ٠ والخـطر هنا مزدوج فالجليل هو اكبـــر مراكز التجمع العربي في الارض المحتلة عـام ١٩٤٨ ، ثم ان دافـــع الانتفاضة الاخيرة هـو اخـطر الدوافـع ، دافـع التعلق بالارض وبهويتها العربيـــة كوطن وليس كمورد رزق فقط ٠

٤ ـ كون الجنوب ، بسبب الحرمان والتخلف الشديدين والكثافة السكانية العالية ، منطقة حبلى بالتيارات الثورية ، وارضا خصبة قابلة لاي بـــذور ثورية تلقى فيها ٠

شريط « الجسور المفتوحـة » والتوتر العسكري

الى كل هذه العـوامل السابقة للحرب الاهلية اللبنانية ، اضيفت في الفترة الاخيرة عـوامل جديدة اهمهـا عاملان :

١ ـ بروز الاثار الاقتصادية التموينية التي شملت لبنان باسره اثناء الحرب الاهلية ، وبشكل اكثر حدة في الجنوب ، بسبب التخلف والحرمان التقليديين، وبسبب اعتماد قطاعـات سكانية كبيرة في الجنوب عـلى زراعـة منفردة هي زراعـة التبغ ، فهـو عـنوان البحبوحة او الفاقة في حالي الازدهـــار او الكساد ٠ وقد كان اكثـر عـوامل هـذه الظاهرة حـدة فـي الفترة الاخيـرة تعطل جميع مستشفيات الجنوب القريبة من الحدود ، بما فـي ذلك المستوصفات

الثلاثين ، بالاضافة الى المستشفى النقـــال الذي كان يديره وينفق عليـــه مجلس الجنوب ، ولقد وصل الامر في الفترة التي سبقت ورافقـــت بداية « الجسور المفتوحة » الى حد اقفـــال المستوصفات الثلاثين اقفالا تامـــا ، لافتقارها الى جميع انواع الادوية وابسط المواد الطبية ، حتى ان مستشفـــى صور المرسمي كان ، حتى الفترة الاخيرة ، يفتقر الى مادة البنج ٠

٣ ــ مع ان عـــين ابـل بالذات قد اغـرقت بالمواد التموينية فـي اشـــد لحظات الازمة ، فقد كان هناك اهمال واضـح ازاء بعض القرى المسيحيـــة الاخرى ، حيث كانت تهمـل الطلبات التي تقدمها لجان شعبية من هـذه القرى، بسبب عـدم وجـود ممثلين عن احزاب الحركة الوطنية في هـذه اللجـــان، كما ان قيادة الجنوب السابقة فـي جيش لبنان العربي ، ارتكبت خـــطأ عدم قبول انضمام عناصر قرية رميش الى حدث لبنان العربي وعـدم دفـــع رواتبهم ٠

واذا كانت هذه هي الخلفية العامة التي تحركت فوقها سياسة « الجسـور المفتوحة » ، فقد اصبح واضحا الان ان الخلفية السياسيـــة لهـذا التحـــرك قدمتهـا فترة الجزر التي دخـلت فيها المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنيـة اللبنانية بعـد انقلاب ميزان القوى لغير صالحـها فـي اعـقاب التدخـــل العسكري السوري في لبنان ، وهو الوضع الذي وصل الى ذروته بسقـــوط مخيم تـل الزعتر بعـد صمود اسطوري ٠

ولقد بدا واضحـا عـلى اثـر « الثقة بالنفس » التي اكتسبها المعسكـــر الانعزالي في اعـقاب سقوط تل الزعتر انه راح يحـاول استغـلال الوجـــود السوري لتحريك مواقـع اخـرى ، طمعـا في تغيير وجـه هذه المواقع قبـل عـودة ميزان القوى الى وضعـه السابق ٠ وفـي هـذا المجال كانت التحركات المشتركة بين القوات الانعـزالية والقوات السورية في منطقة جزين وجوارها واضحـة المعـالم والمعاني ٠

وسط هذه العوامل كلها ، هبط عـين ابل سبعـة عشر مسلحـا ، منهـــم خمسة عشر من ابناء عين ابل العائدين من القتال فـي تل الزعتر وعنصران غريبان عـن القرية ٠

لم يكن لدى اهالـي عين ابـل اي مبرر للـتجاوب مع هذا الوجود المسلـــح الاستفزازي ، بعـد ان كانت احتياجاتهم التموينية مؤمنة بشكل ممتاز من خلال لجنتهم التموينية التي كانت تشكل صلة الوصل بينهم وبين المقاومة والحـركة

الوطنية ، كما كان وضعهم الامني ممتازا مع القرى المجاورة ومـــع الفصائـل المسلحة للمقاومة والحركة الوطنية ، وبالفعل فقد طلبوا الـــى المسلحيـــن مغـادرة القرية والحـوا في الطلب ، وامتنعـوا في البداية عـن اي تجـاوب معـــهم ٠

غير ان هـذا الجيب المسلح ترك من غـير خطة للتصدي له وتطويقه فـــي المهد ، ففرض وجـوده القسري عـلى عين ابـل حتى اتيح لـه ان يفتعـل الحـادث الاستفزازي الذي ذهب ضحيته اربعـة من عناصـــر المقاومـة الفلسطينية وثلاثة من المسلحين الانعزاليين ٠ وقد اثبتت وقائع الحـادث انـــه افتعل لاسباب سياسية ، وكان عاريا عن اية عوامل امنية او دفاعية (كما تم اخراجه وتصويره بعـد ذلك) بدليل ان عـناصر المقاومة لم تكن تقصد عـين ابـل ، بلكانت تمر بخراجها فـي دورية استطلاع لا عـلاقة لها بعين ابـــل٠ ويبدو ان عـناصر الجيب المسلح قد نجحوا في استغـلال هذا الحادث لخـلق شعـور من الفزع من وجود تهديد لامن عـين ابل من قبل قوات المقاومـــة والحركة الوطنية ، فعـقب الحـادث تحـرك بعـض اهالي عـين ابل عـــن موقفهم السلبي من الجيب المسلح ، بدليل ان عناصر هذا الجيب افتتحـوا معسكرا للتدريب ، انضم اليه عدد من سكان القرية ٠ ثم اصبحت الحواجـــز والحواجز المضادة تقام بين مجموعـة قرى الشريط الحـدودي ٠ ويقـــول وطنيو تلك المنطقة ان وضع المنطقة الجغرافي يجعل المرء يستنتج بالبداهـــة ان اسرائيل هي طريق مرور وامداد هؤلاء المسلحين ، كما ان مساندتها لهـم هـي مصدر تجرؤهم واصرارهم عـلى التحـرش بجوارهم ، وعـلى فرض نفسهـــم عـلى عـين ابـل وغيرهـا من القرى المسيحية ٠ ويضيف هؤلاء الوطنيون ان المنطقة ملأى بالاخبار التي تقول ان مئات من المسلحين الانعزاليين يتلقـــون التدريب في اسرائيل لتأدية مهمة توسيع الجيب الانعـزالي على الشريـــط الحـــدودي ٠

غير ان هـذا الجيب المسلح ترك من غـير خطة للتصدي له وتطويقه فـــي المهد ، ففرض وجـوده القسري عـلى عين ابـل حتى اتيح لـه ان يفتعـل الحـادث الاستفزازي الذي ذهب ضحيته اربعـة من عناصـــر المقاومـة الفلسطينية وثلاثة من المسلحين الانعزاليين ٠ وقد اثبتت وقائع الحـادث انـــه افتعل لاسباب سياسية ، وكان عاريا عن اية عوامل امنية او دفاعية (كما تم اخراجه وتصويره بعـد ذلك) بدليل ان عـناصر المقاومة لم تكن تقصد عـين ابـل ، بلكانت تمر بخراجها فـي دورية استطلاع لا عـلاقة لها بعين ابـــل٠ ويبدو ان عـناصر الجيب المسلح قد نجحوا في استغـلال هذا الحادث لخـلق شعـور من الفزع من وجود تهديد لامن عـين ابل من قبل قوات المقاومـــة والحركة الوطنية ، فعـقب الحـادث تحـرك بعـض اهالي عـين ابل عـــن موقفهم السلبي من الجيب المسلح ، بدليل ان عناصر هذا الجيب افتتحـوا معسكرا للتدريب ، انضم اليه عدد من سكان القرية ٠ ثم اصبحت الحواجـــز والحواجز المضادة تقام بين مجموعـة قرى الشريط الحـدودي ٠ ويقـــول وطنيو تلك المنطقة ان وضع المنطقة الجغرافي يجعل المرء يستنتج بالبداهـــة ان اسرائيل هي طريق مرور وامداد هؤلاء المسلحين ، كما ان مساندتها لهـم هـي مصدر تجرؤهم واصرارهم عـلى التحـرش بجوارهم ، وعـلى فرض نفسهـــم عـلى عـين ابـل وغيرهـا من القرى المسيحية ٠ ويضيف هؤلاء الوطنيون ان المنطقة ملأى بالاخبار التي تقول ان مئات من المسلحين الانعزاليين يتلقـــون التدريب في اسرائيل لتأدية مهمة توسيع الجيب الانعـزالي على الشريـــط الحـــدودي ٠

هذا التوتر العسكري ، كانت اسرائيل تمهـد لـه وتواكبه بانفتاح «انساني» غريب ودقيق التوقيت عـلى صعـيد التموين والخـدمات الصحية وكذلك على صعـيد فرص العـمل والتلويح بشراء موسم التبغ ، مستغـلة بذلك التعثـــر الذي رافق تنفيذ التعهد العربي بشراء موسم التبغ بكامله ٠ ولكن يبدو ان أشـد هذه الخـدمات الاسرائيلية اغـراء للسكان ـ بشهادة الجميع ـ هي الخدمات الطبية ، وهذا الاغـراء بالذات يشمل المنطقة الحدودية بقراهـــا المسيحـيـة والاسلامية ٠ ولكن ليس معـنى هـذا ان الاستجابة عـامة شاملـة ٠ فمـع ان منطق المستفيدين من هـذه الخـدمات بشكل عـام ما زال هو منطق المتعامل

المضطر وليس المتعامل المفتوح القلب ، فان عـددا كبيرا من الاهالي ما زالـوا يعتبرون التعـامل مع العـدو حتى في هـذا المجال الاضطراري تنازلا عـن وطنيتهم · ويروي اهل عيترون قصة مواطنهم الذي ماتت ابنته بسبب عـدم توفر العـلاج ، واصراره على رفض الذهاب بها الى اسرائيل ·

اما مجالات فرص العـمل للعـاطلين ، فقد انحصرت في عشرات من عمال المرجة الاولى ، بعد ان اكتشفوا ان الاجور متدنيـة ، وان فرص العمـل ليست مفتوحة بالشكل الذي يمكن فعـلا ان يحل مشكلة البطالـة لمنطقـة باسرها · اما مسألة شراء التبغ فلم تتعـد مجال الدعـاية الكلامية ، فقـد اعترف مسؤول مصنع التبغ الاسرائيلي بعـد ايام قليلة بان العـملية ان تتـم بسبب ارتفاع الاثمان التي يطلبها مزارعو الجنوب ، وبالفعـل لم يتم بيـع اية كمية من التبغ اللبناني لاسرائيل ، خاصة وان عـمليات الشراء الليبـي قد عـادت الى الانتظام ·

كذلك ابتدات المقاومة والحـركة الوطنية ، فـي هذه الاثناء بالتنبه ولو فـي وقت متأخر ـ للثغرات التي تسللت منها انسانية اسرائيل المفاجئة ، فتحسنت نسبيا حالة بعـض المستوصفات الطبية ، كما ان القيادة الجديدة لجيش لبنان العربي في الجنـوب سارعت الى اصلاح خطأ القيادة السابقـة فأعادت استقطاب عسكريي رميش وسائر القرى المسيحية ، ودفعت لهم بعض المتأخـر من رواتبهم ، كـما ان القيادة بدأت سلسلة من الاتصالات مـع اهالي عين ابل ورميش وسواهمـا ، وساهمت في امتصاص موجة الحواجز المتبادلـة بين القرى ، وذلك باحلال حواجز جيش لبنان العربي محلها ، على شبكـة الطرق التي تصل بين مختلف قرى الشريط الحـدودي · غير ان الحصيلـة الـعامة للوضع ما زالت تسجل نجاحا اسرائيليا في خطين متوازيين متكاملين:

ـ محاولة تحريك مجموعـة القرى الحدودية المسيحية عـن طريق اثـارة مخاوفهـا من جهة ،ودفعها ـ بالتعـاون مع الاحزاب الانعـزالية ورغبتها فـي مد نفوذها الى قلب المناطق الجنوبية ـ الى توسيع الشقة مع جوارهـا والانجرار في الاعـمال العسكرية ضدها ، الامر الذي سيدفع هذه القـرى، اذا استمر الوضع وتطور للوقوع عسكريا ضدها في احضان اسرائيل ، التـي تبدو عندئذ « كسند » لهذه القرى ومورد « دعـم » لها ·

ـ محاولة تمييع الوضع العـام فـي المنطقة الحدودية باسرها ـ بقراهـا المسيحية والاسلامية ـ عـن طريق استغـلال ثغرات التخلف والحرمان التـي تفاقمت مؤخـرا بموجات المهجرين من النبعـة وسواهـا ، وباشتداد الازمـة

التموينية وازمة البطالة بفعـل الظروف من جهة ، واستخفاف القوى الوطنية كلها بهذا الجانب الهام من المعركة · واسرائيل تعرف طبعا انها اعجز مـــن ان تصـل الـى حـل اية مشكلة اجتماعية او اقتصادية من مشكلات الجنوب، وهي الغارقة في هذه المشكلات حتى اذنيها ، ولكن هـــدف اسرائيـــل ليس طبعا حـل هـذه المشكـــلات ، بل استغلالها من اجل تحرك استعراضي تكسر به طوق الحصار النفسي والعـداء الذي ما زال حتى الان معضلتهـــا التاريخية الكبرى فـي المحيط العربي الذي افتعـلت لنفسها وجودا فيـــه، وهي المعضلة التي لا يكفـي لحـلها توقيع اتفاقيات السلام مع الحكومـــات العربية ·

عن المستقبل : الاهداف والخـطة

حتى الان ، ما زالت ردود الفعـل عـلى هـذا الامر الواقـع الجديد تتراوح بين الادانة الخلقية والوطنية للتعاون مع العـدو ـ كحد ادنى ـ ومحاولـــة سد بعض الثغرات التي نفـذت منهـا اسرائيل ، وخاصة الثغرات التموينيـــة والطبية واجواء التوتر المسلح بين قرى الحـدود ـ كحد اقصى ـ،وذلك وسط التخوف الشديد من جهـة والاستهانة بما يحـدث من جهة اخـرى ·

غير اننا اذا كنا حقا نرى في كل ما حصل فـي لبـــنان مؤامـــرة مدروسة دفعت بعناصر الوضـع اللبناني الى التصادم بشكل يخـدم اهداف التسويـــة وفقا للشروط الاميركية (وتسلسل الاحـداث يؤكد هذا التفسير) فمن الواجب سحب هـذا المنطق على التصرفات الاسرائيلية الاخيرة في الجنوب وعندئـــذ سنجد امامنا الـرد واضحـا عـلى مجموعـة من الاسئـلة الهامة :

ـ لماذا انتظرت اسرائيـل حتـــى منتصف عام ١٩٧٦ لتحرك خطتهـــا في الجنوب ، وتركت كل الفترة الزمنية الفاصلة بين مطلع عـام ١٩٧٥ (بدايـــة الازمة) ومنتصف عـام ١٩٧٦ دون ان تجـرب ما كانت قادرة عـلى تجربتـه في اي وقت ؟

ـ لماذا تصرفت اسرائيل هذه المرة بما يكشف ، بوضوح عنتعاونها مع القوى الانعزالية اللبنانية ، واشراكها في بعـض التحركات ، ووضعـها في واجهـة تحركات اخـرى ؟

ـ هل ستتبع اسرائيل ذلـك بتحـرك عسكري تحقق بواسطته اطماعـهـــا « التاريخية » في المياه اللبنانية ، ام ستكتفي بايصال الخطة الـى حـد تحويل

الجنوب الى منطقة « ساقطة » عسكريا ؟

ما دامت المؤامرة مؤامرة تسوية ، فمن الواضح ان تحرك كل اطراف التسوية يسير منذ مدة باتجاه تحسين شروط التسوية وتكبير الحصص ٠

وبما ان الازمة اللبنانية قد عدلت في مواقع الكثير من اطراف التسوية، فكبرت حصص البعض وصغرت حصص البعض الاخر ، فقد كان لا بد لاسرائيل من الاسراع في انتزاع حصتها من الازمة اللبنانية ، لذلك لم تتحرك اسرائيل تحركا واضحا الا عندما دنت ساعة القطاف ، فارادت خلق واقع جنوبي لا يمكن لاحد تجاهله سواء راوحت الازمة مكانها ، أو تمت التسوية بالعودة الى دولة لبنان الموحد ، المسيطرة على كل الاراضي اللبنانية ، او انفجرت الازمة فادت الى تقسيم لبنان ، وبشكل تبقى فيه حصتها محفوظة في كل الاحوال ٠

وبما ان المؤامرة مؤامرة تسوية ، فقد فرض ذلك على اسرائيل اولا ادوات التحرك ، فكان لا بد من استبعاد تدخل القوات الاسرائيلية مباشرة في الجنوب ، واستبدالها بالتحرك المعتمد على استغلال الاوضاع الداخلية للمنطقة الحدودية ودفع هذه الاوضاع لدرجة تضعها تحت حكم اسرائيل تماما٠

كذلك ، والى ان تنكشف كل الجسور السرية التي كثر الحديث عنها بين اسرائيل والقوى الانعزالية اللبنانية طوال فترة الازمة ، فقد حرصت اسرائيل، وقبل هدوء العاصفة (اذا هدأت) على ان تكرس علانية مبدأ هذه الصلة الجديدة المباشرة بينها وبين القوى الانعزالية اللبنانية ، بطريقة لا يعود هناك مجال لانكارها ، وبذلك تطرح اسرائيل حقيقة جديدة في الوضع اللبناني لا يمكن تجاهلها في التفاعلات المقبلة داخل لبنان ، ومهما كان المسار الذي تتخذه الازمة وبشكل لا يجعل القوى الانعزالية وحدها صاحبة المبادرة في اخفاء العلاقة وابرازها حسب تطور ظروفها ٠

اما الهدف الثالث الذي تحققه اسرائيل بمحاولة خلق « الجسور المفتوحة»، وبصلتها الجديدة مع بعض قرى الشريط الحدودي وخلق وضع عسكري متوتر في بعض هذه القرى ، فهو اقامة حزام عسكري يتحكم بمواقع تسلل الفدائيين الى الارض المحتلة على الشريط الجنوبي ـ الغربي ، ويطوق بالتالي اتفاقية القاهرة ، فيما لو ادت التسوية الى احياء العمل بكافة بنودها ٠وهكذا لا تترك اسرائيل نفسها تفاجأ بامكانية احياء اتفاقية القاهرة ، او اي اتفاق

جديد اخر يضمن للفدائيين شيئا من حرية العمل والتحرك في الحدود الجنوبية • وبذلك لا تضمن اسرائيل فقط التطويق المبكر لاي احتمال بعودة نشاط المقاومة عبر الحدود الجنوبية فقط ، بل تحاول اضافة حاجز لبناني امام هذا النشاط هو مجموعة القرى التي يمكن ان تتحكم فيها القوى الانعزالية بدعم ومساندة من اسرائيل طبعا •وبديهي ان كل حد من امكانيات تحرك المقاومة ، يستتبع بالتالي مزيدا من تصغير حجمها في أية تسوية مقبلة ، بالاضافة طبعا الى الاغراض الامنية التي تحققها اسرائيل بمثل هذا الوضع •

هذا هو الواقع الجديد الذي بدأت اسرائيل تحاول خلقه في الجنوب ، ابتداء بالشريط الحدودي ، وليس ما ينفي امكانية محاولة اسرائيل توسيع رقعة هذا الواقع كلما سنحت لها الظروف •

وهذا الواقع الجديد ستجده امامها اية جهة ستتولى مسؤولية الحدود الجنوبية وفقا لنسار الازمة ، سواء في ذلك تحالف المقاومة والحركة الوطنية، او الدولة اللبنانية العتيدة التي قال رئيسها الجديد ان القتال الذي خاضه اللبنانيون داخليا طوال الحرب الاهلية لو خاضوه في حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣ ضد اسرائيل لاختلفت صورة لبنان اليوم •

وتبقى الحقيقة التاريخية الثابته والخالدة التي تقول ان المناطق الحدوديةلها دائما صفة الارض النطرية ، القوة الاقوى والاشد تصميما على جانبي الحدود هي الاقدر على وضع بصماتها عليها وطرح البذور فيها ، ولا يشذ الجنوب اللبناني عن هذه القاعدة •

١٩٧٦/١٠/١

الاتجاهات الامبرياليّة في مخططات اسرائيل الاقتصاديّة

حسين ابو النمل

مدخـــل :

هنالك كثير من الاسئلة السياسية الهامـــة المتعلقـة بالصراع العربـــي الاسرائيلي ، ما زال بدون اجوبة علمية محددة · وفي رأس هذه الاسئلة ، اسرائيل والصراع الطبقي ، والصراع الطبقي كوسيلة لتصفية الكيان الصهيوني العنصري في ارضنا المحتلة ·

ان الذي يعطي اهمية كبرى لهذه التساؤلات ، وبالتالي ضرورة ايجـــاد اجوبة لها ، هو ان قطاعات واسعة من حلفاء واصدقاء للثورة الفلسطينية مـا زالت تعول كثيرا على موضوعة الصراع الطبقي في اسرائيل وتعتبره العنصر الحاسم في الصراع · الامر الذي قادها الى قناعة خاطئة اخرى هي تبنيهـــا لموضوع الصلح مع اسرائيل متصورة ان مناخ السلم هو المناخ المناســـب لتفاقم الصراعات الطبقية في دولة العدو ·

ان الاجابة الصحيحة على جملة الاسئلة المطروحة انما تتوقف على المعرفة الصحيحة بالاساس الموضوعي الذي يقوم عليه مجتمـــع العدو ، والنقطـــة الاساسية انما هي الواقع الاقتصادي الاسرائيلي ، حاضرا ومستقبـــــلا ،

وبدون الالمام بها فان اي حديث عن الصراع الطبقي وما يتفرع عنه من مسائل سياسية ، يبقى مجرد لغو نظري لا طائل تحته · وفي هذا الصدد يحضرنا قول لينين في مقدمة الطبعة الفرنسية لكتاب الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية عن انه « اذا لم يدرك المرء الجذور الاقتصادية ·· اذا لم يقدر اهميتها السياسية والاجتماعية حق قدرها ، لا يستطيع ان يخطو خطوة في ميدان حل المهام العملية ···» وكذلك المقولة اللينينية الشهيرة بان « السياسة هي اقتصاد مكثف ··» وبكلمة اخرى فان تعميق فهمنا لمسألة سياسية ما يعني بالضرورة تعميق فهمنا للوضع الاقتصادي الذي تتحرك على ارضيته ومن هنا فان نقطة البدء هي في محاولة رسم ملامح الاقتصاد الاسرائيلي ·

ان هذه المقالة ، ونظرا لضخامة ودقة الموضوع ، لا تدعي انها اكثر من محاولة اولية ومدخل للنقاش · لان الاجابة الكاملة تحتاج لدراسة تفصيلية وموسعة تجيب على كافة الاسئلة السياسية الاقتصاد المطروحة ، وكي يكون ممكنا لنا الوصول الى الاجوبة المطلوبة ·

ان الحديث عن الاقتصاد الاسرائيلي يجب ان يرى ضمن اطارين : الاول ، موقع اسرائيل في استراتيجية الامبريالية العالمية وعلاقاتها ومصالحها الاقتصادية · والاطار الثاني ، الاوضاع الاقتصادية الداخلية لاسرائيل ·وكلا هذين الاطارين يحدد مستقبل الوضع الاقتصادي الاسرائيلي وبالتالي اهداف ومخططات اسرائيل السياسية للمرحلة القادمة ·

ان النموذج الاسرائيلي ولاسباب عدة هو نموذج غير عادي ، في تطوره ونموه · وهذه الخصوصية تجعل من دراسة اقتصاد اسرائيل امرا صعبا ودقيقا الا انها لا تعني ان التجربة الاسرائيلية هي خارج اطار القوانين العلمية للماركسية ـ اللينينية التي تحكم سير التاريخ وسير الصراع في هذا العالم ·

مركز ومحيط الدول الامبريالية :

ان الاطار الاول الذي سنرى اسرائيل من خلاله هو ، تقسيم العالم غير الاشتراكي على النمط الامبريالي بين الدول الصناعية البرجوازية المتقدمة ـ الدول الامبريالية الرئيسية والتي يمكن لنا تسميتها دول (المركز) والدول البرجوازية التابعة التي ترتبط بشكل او باخر بالدول الامبريالية أي (محيط) بدول الامبريالية · وفي ضوء هذا الانقسام تتحدد الوظيفة الاقتصادية بين دول المحيط ودول المركز بالشكل الذي يضمن موضوعيا تبعية دول المحيط الى المركز · ان الامبريالية باعتبارها اعلى مراحل الرأسمالية حدد لينين سماتها وابرز هذه السمات تصدير رأس المال الى دول المحيط ليقوم بدور استغلالي ، كثافة رأس المال الموظف ، وتقسيم سوق العمل الدولي وسوق

المواد المنتجة ، بين دول المركز التي تقوم بتصدير المواد المصنعة ودول المحيط التي فرض عليها التخصص في تصدير المواد الخام التي تحتاجها دول المركز واستهلاك البضائع التي تنتجها الدول الامبريالية واستطرادا فان سوق العمل الدولي ينقسم ايضا على هذا النمط ويبقى محكوما بالدور الانتاجي الذي تتخصص به كل من دول المركز ودول المحيط • ولذا فان دول المركز تفرض عبر وسائل عدة نمطا معينا من التنمية الاقتصادية على دول المحيط الامر الذي يبقى هذه الدول اسيرة علاقاتها مع الدول الامبريالية وفي موقع العاجز عن تحقيق استقلالها السياسي والاقتصادي ، ويتضح هذا جليا من مراجعة العديد من الامثلة ، بحيث يمكن لنا القول ان الدول الامبريالية لم تساعد اية دولة من دول المحيط في بناء مشروع صناعي يمكن لنا اعتباره صناعة ثقيلة • ولا يقتصر الامر على عدم المساعدة بل يتعداها الىمحاولة تخريب محاولات بعض دول المحيط للقيام ببناء مثل هذه الصناعات الامر الذي يدفعنا للقول ان العلاقات الاقتصادية لدول المركز مع دول المحيط محكومة دائما وابدا بقرار سياسي تتحكم به المصالح السياسية والاقتصادية لدول المحيط • ويعبر خير تعبير عن هذا الامر ، قول مستشار المانيا الغربية عن « ان المساعدات الخارجية ليست واجبا اخلاقيا ، بل هي عنصر استراتيجي »• وبكلمة اخرى فان حاجة دول المحيط الماسة للمساعدة ليست هي الامر المهم ، بل المهم هو استراتيجية الدول المركز •

صراع الدول الامبريالية لا يلغي وحدتها :

وبرغم صراعات الدول الامبريالية فيما بينها على دول المحيط ، فان الصراع يتجمد كليا عندما يصل الى حدود تستفيد منه دول المحيط •

وعلى هذا الاساس فاننا نستطيع القول ان هنالك تطور (لا متكافيء)بين دول المحيط ودول المركز بحكم تفاوت نقطة انطلاق كل منهما ، الامر الذي يجعل وتيرة نمو دول المركز اعلى من وتيرة نمو دول المحيط • وفي هذا الصدد يمكن لنا استرجاع جوهر طرح كارل ماركس في كتابه مخطوطات ١٨٤٨ عن « الغني الذي يزداد غنى والفقر الذي يزداد فقرا »• وخلاصة القول ان اي تنمية لدول المحيط ستبقى محكومة بالفشل ما دامت هذه الدول مرتبطة بالسوق الامبريالي ومحكومة بعلاقاته •

ان السمة الجديدة التي يمكن ملاحظتها في العقدين الاخيرين من القرن الحالي هي انخفاض نسبة رؤوس الاموال التي تصدرها دول المركز الى دول المحيط وتزايد رؤوس الاموال المتبادلة بين دول المركز نفسها • وذلك لان عملية استكشاف مصادر المواد الخام قد انتهت تقريبا في العالم • والذي

يتم حـاليا قليل بالقياس لما كان يحـدث فـي الماضي ، واستطرادا لم تعـد توجـد مجالات جديدة لتوظيف مزيد من رؤوس الاموال الا فـي قطاعـي الصناعـات التحويليـة والصناعـات الثقيلـة بعـد ان اشبع قـطاع الصناعات الاستخراجية تقريبا · ودول المركز ليست على استعداد للمغامـرة لانها تعـلم ان مثـل هـذه الصناعـات قد تضـع دول المحيط على بدايـة طريق الاستقلال الاقتصادي والسياسي · وبرغـم التبعية المفرطة لبعض دول المحيط فان دول المركز لا تقوم ببناء اية صناعات انتاجية ، لانه وان كان النظام السياسي القائم حاليا هو نظام تبعيته مضمونة ، لكن احتمـالات المستقبـل كحدوث ثورات شعبية او انقلابات عسكرية مفاجئة تنهي النظام السياسي الموجود تبقى احتمالات واردة ·

وفي الحالات التي تقوم بهـا الامبريالية ببناء صناعـات انتاجية في بعـض البلدان فانهـا تحرص عـلى الا تكون هـذه الصناعـات كاملة ، حيث تنتـج هذه الدول غالبية اجزاء السلعـة ، لكن يتبقى جزءا دقيقا يصنع فـي دول المركز ، وبدونه تبقى السلعـة المنتجة دون فائدة · ولا يغـرب عـن البـال حادثة تاريخية بالغـة الدلالة الا وهي قيام الطائرات الاميركية في الحـرب العـالمية الثانية بالتدمير الشامـل للمؤسسات الصناعـية في المناطق الالمانيـة التي كان متوقعـا ان تحررهـا القوات السوفياتية وفي الوقت نفسه تجنـب الطائرات نفسها ـ قدر الامكان ـ ضرب المؤسسات الصناعـية في المناطـق التي كانت مرشحة للاحتلال من قبل القوات الفرنسية ـ الاميركية ـ البريطانية· والاهداف البعيدة لمثل هذا الامر واضحة كل الوضوح وذلك لالقاء اعبـاء مستقبلية عـلى النظام الجديد الذي كان سينشأ في المناطق التي حررتها القوات السوفياتية ، والعكس صحيح بالنسبة للمناطق الاخرى · وفـي الشـرق العربي وبرغـم سني الاستعـمار الطويلة ، سواء اكان الاستعمار مباشـرا او غـير مباشر ، فاننا لا نستطيـع ان نلـحظ اي مشروع صناعـة ثقيلة قامت به دول امبريالية ، وبالمقابل فان مشروع الحديد والصلب وكهربة الريف وسد اسوان في مصر ، كلهـا ترتبط بالمساعـدات السوفياتية · وفي سوريا فـان الحديث عـن اي صناعـة ثقيلة هو حديث عـن مساعـدات المانيا الديمقراطية لهـا ·

اسرائيل في خريطة الامبريالية :

في ضوء ما تقدم وبعـد ان اتضحت لنـا سياسة الدول الامبريـالية تحـاه المحيط يطرح السؤال التالي : ولكن ماذا عـن خـطة التنمية الاسرائيليـة ؟ وهل هي شبيهة بنمط التنمية الـذي تفرضه الدول الامبريالية على دول المحيط؟

يتشكل الاقتصاد الاسرائيلي كاقتصاد اية دولة اخـرى من القطاعـــات الثلاثة المعـروفة ، الصناعـة ، والزراعـة والخدمات · ولكن العبرة هـي في الاهمية النسبية لكـل من هذه العناصر الثلاثة ، وما هي حركةكل من هذه العناصر ؟ واين الاعتماد الرئيسي للاقتصاد ، عـلى الزراعـة ام عـلـى الصناعة ام عـلى الخـدمات ؟ لنترك الارقام تتحـدث ···

بلغت الصادرات الزراعـية عـام ١٩٤٩ ما مقداره ١٢٣ر١٨ مليون دولار اي ما نسبته ٦٣ر٦ ٪ من اجمالي الصادرات مقابل ٣٧٢ر١٠ مليـون دولار صادرات صناعـية اي ما نسبته ٣٦ر٤ ٪ · ومنذ ١٩٤٩ حتى ١٩٧٣ استمرت القيمة المطلقة للصادرات الزراعية بالتزايد بحيث بلغـت ١٧٣ر١ مليـون دولار عـام ١٩٧٣ · ولكن قيمتها النسبية هبطت لتبلغ ١١ر٩ ٪ فقط من اجمالي الصادرات ، وفي الوقت نفسه قفزت الصادرات الصناعـية لتبلغ ١٢٧٥ر٦ مليون دولار عـام ١٩٧٣ اي ما نسبته ٨٧ر١ وخـلال هذه الفترة تضاعفت الصادرات بشكل عـام ٥٠ر٨ مرة ، وبينما تضاعـفت الصادرات الزراعـيـة ٩ر٥ مرات فقط ، فان الصادرات الصناعـية تضاعـفت ١٢٣ مرة · وكذلـك الامر بالنسبة لواردات اسرائيل فقد طرأ تغـير اساسي وجذري عـلى هيكـل الواردات وذلك لصالح السلع الاستثمارية والسلع الوسيطة في مقابل السلـع الاستهلاكية بحيث لم تشكل الواردات الاسرائيليـة من السلع الاستهلاكية سوى ٩ر٨٪ من اجمالي الواردات عـام ١٩٧٠ ·

مساعدات الامبريالية عـنصر حاسم :

ان التبدل الجذري الذي طرأ عـلى هيكلية واردات وصادرات اسرائيل ذو دلالة بالغـة الاهمية ويوضح الدور المتزايد للصناعـة في الاقتصاد الاسرائيلي· وان القفزة الصناعية الاسرائيلية قد بدأت في العام ١٩٦٤ · وذلـك العـام هو العـام الذي انتهى بـه تنفيـذ مشروع تصنيع اسرائيل بشكل شامل والذي قامت به المانيا الغربية تحت ستار اتفاقية التعويضات ، والذي بدأ فـي العـام ١٩٥٤ · ونفذ عـلى ثلاث مراحـل ضمن خـطة متكاملة وشاملـة ·والتيتقول عنها المصادر الالمانية الغربية نفسها ما يلي :« لقد تم قبـول حوالـي ٨٠٪ من الاتفاق ـ اي اتفاق التعويضات ـ في صورة شحنات من سلع رأسماليـة من جميع الانواع ، وبناء عـلى ذلك كانت الشحنات التي تمت وفقا للاتفـاق تشكل عـنصرا اساسيا واضحـا ودائـما في بناء الصناعـة في اسرائيـل في تلك السنوات الاولى وهو عنصر بالغ الاهمية بالنسبة لتماسك اسرائيـل اقتصاديا ، وكان ذلك بمثابة مساهمة هامة وبناءة في تصنيع اسرائيل · ان الشحنات التي تمت وفقا لذلك الاتفاق يمكن العثور عليها في جميع انحـاء

اسرائيل وبصفة خاصة فـي المناطق والمقاطعـات ذات الاهمية الصناعـيـــة، مما يوضح قيمة المساهمة التي تحدثت عنها ــ اي المصدر الالماني الغربـي ــ والتي كان اثرها بناء وفعالا باكثر من مجرد قيمة الارقام فـي ذلك الوقـــت بالـذات ٠

ان مساعـدات المانيا الغربية هي بالتأكيد « عنصر استراتيجي وليس واجبا اخلاقيا ».. كما قال شميدت وعنصر استراتيجي بمعـنى تدعـيم وجود اسرائيل كعـنصر هـام في استراتيجية الامبريالية العـالمية التي تقودها الولايـــات المتحـدة والتي كانت قد اوكلت لالمانيا الغربية هـــذه المهمة ٠

ان التوقف مليـا امام مساعـدات المانيا الغربية كنموذج لما قدمتـه الـــدول الامبريالية لاسرائيل انما هـو بهدف توضيح نمط العلاقات التي تقيمهـا الـدول الامبريالية مع اسرائيل ، انها تعاملها ليس بوصفها من دول المحيط بل من دول المركز ، وهنا من الضروري تذكر الاتفاقية التي وقعتـــها دول السوق المشتركة مع اسرائيل فـي ٢٣ــ١ــ١٩٧٥ ، ونصوص تلك الاتفاقية تبيـــن ان السوق المشتركة التي هي احـدى المراكز الرئيسية للامبريالية فـي العـالـم ، تريد ان تدمج اسرائيـل فـي هذه الكتلة وتعاملهـا عـلى هذا الاساس ٠ وفي الوقت الـذي تنص الاتفاقية عـلى استيراد المواد المصنعـة من اسرائيـــل وتعطيها المزيد من الاستثمارات والخبرات العلمية ، فان دول السوق تعطـــي لمصر مساعدات غذائية وتوقع اتفاقية مـع دول المغـرب العربي تنص عـلـــى استيراد المواد الخـام فقط !

لقد وفرت الدول الامبريالية على اسرائيل فترة طويلة من النمو واختصرتها بسنوات قليلة ، بحيث حققت اسرائيل بمدة بسيطة كـل التطـور الـذي سبقت الاشارة اليه ٠ وبدأت تشهد نفس الظواهر التي ميزت الدول الامبرياليـــة العريقة ٠ فهنالك التوسع المستمر فـي الصناعـة ، وهنالك كثافة راس المـــال الموظف في الداخـل وتمركز الرساميل والمؤسسات في يد الاحتكارات التـــي تشرف عـليها الدولة ٠

اسرائيل ، مشروع اقتصاد امبريالي :

ان ما تقدم يؤكد لنـا ان الاقتصادالاسرائيلي يتميز بعـدد من السمات التي يمكن لنا معـها اعتباره مشروع اقتصاد امبريالي ، ويستدل عـلى ذلك مـن نمط خطة التنمية ٠ وطبيعـة علاقتها مع الدول الامبريالية ٠ وكذلك تنظيـــم اقتصادها عـلى اساس التقسيم الامبريالي لسوق العـــمل وسوق المـــواد

الخام ، وتؤكد طبيعة علاقتها مع المناطق المحتلة هـذه المسألة ان تستوعـبفي اقتصادها نسبة من العـمال العـرب تشكل حوالي ١٠٪ من طاقتها العاملـــة بشكل عـام ولكن هـذه الـ ١٠٪ تشكل حوالي ٩٠٪ من اليد العاملة غـير الفنية تلك الاعمال التي قال عـنها لينين : « يشتغل المهاجرون من اوروبا الشرقيـــة وامريكة الجنوبية في الاعمال التي تدفع مقابلها احط الاجور بينما يؤلف العمال الاميركان اعلى نسبة من المناظرين ومن العمال الذين يقومون بالاعمال التيتدفع مقابلها اعـلى الاجـور »٠ والان ففي الوقت الذي يضطر المهندس او الطبيب في المناطق المحتلة للهجرة بحثا عن العملان الاقتصاد الاسرائيليليس على استعداد لاستيعابه فان اسرائيل بحاجة لاي عامل يدوي عربي غيـــر فني ٠ كما بدأت تقيم في بعض المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ بعض المشاريع التي تؤمن سلعا نصف مصنعة يحتاجها الاقتصاد الاسرائيلي ٠

السلام الاقتصادي شرط هام جدا :

واضافة للواقع القائم حاليا فان تصور اسرائيل للمستقبل يتضمن اصرارا على السلام الاقتصادي الذي يكفل لها رقعا اقتصادية جديـــدة ٠ وكما قـال ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل السابق « ان اسرائيل ترغب في ان تكـــون علاقتها بالدول العربية كعلاقة الولايات المتحدة باميريكا اللاتينية » ٠ وهـــذا الكلام غـني عـن الشرح او التعريف ، ويوضح اهدافاسرائيل ولـه اساسه المادي ولا يلقى جزافا ٠

ما تقدم يؤكد لنا ان النمـو الاقتصادي الاسرائيلي هو وليد تعامل الـدول الامبريالية معـها بوصفهـا جزءا لا يتجزأ من مركز الدول الامبريالية وهـذا يدفعـنا للقول بان اسرائيل قد قطعـت اشواطا بعـيدة باتجـاه التحـــول الى دولة امبريالية وما تحتاج اليه فقط هو (امريكا اللاتينية)الخاصة بها ٠

ان اسرائيل تحاول ان تستغل موقعها الجغرافي في نقطة حساسـة وقريبـة لافريقيا واسيا كـي تلعـب دور القاعـدة الاقتصادية للامبريالية العـالمية فـي المنطقة ، اضافة الى دورها التقليدي المعـروف كقاعـدة عسكرية وسياسية٠ وتستطيع الامبريالية العـالمية ان تقيـم فـي اسرائيل المشاريع التي تريـد ، دون خشية الوقوع في ايدي سلطـات معـادية لهـا ، بحكم الترابط العضوي بين الكيان الاسرائيلي والامبريالية ٠ وفي هذه الحـالة فـان صناعـــات الامبريالية تكون فـي مأمن من ناحية ، ومن ناحية اخـرى تكون قريبة مـن سوق المواد الخـام وسوق الاستهلاك ، وفـي الوقت نفسه هنالك فيض مـن اليد العـاملة العربية ـ في حالة السلام ـ والتي تؤمنها من كـل الـــدول المجاورة : المناطق المحتلة ٦٧ ، لبنان ، سوريا ، الاردن ٠

القاعـدة الاقتصادية والانعكاسات السياسية :

ان لوضعـية اسرائيل الاقتصادية انعكاساتها عـلى اوضاع اسرائيـل الداخلية كما ان لها انعكاساتها على مخططاتـها الخارجـية · وقـد انعكست اوضاع اسرائيل الاقتصادية على مستوى معيشة المواطن الاسرائيني بحيث بلغ دخـل الفرد الاسرائيلي عـام ١٩٧٠ .. ٩ر٢٥٢٣ دولار سنويا بعـد حسم اعباء الدفاع مقابل ٢٨٥ دولار للفرد السوري و١٤٧ دولار للفرد المصري· وقد قيل بشأن مستوى معيشة الفرد الاسرائيلي انه اعـلى من مستوى معيشـة الفرد في النمسا وايطاليا وهولندا · ليس هـذا سوى الوجه الاخـر لتزايـد حجم الناتج القومي والذي بلغ عـام ١٩٧٤ : ٨ر٧ مليار دولار في الوقـت الذي بلغ به في مصر في نفس العام ٨ر٤ مليار دولار ، مع الاخـذ بعـين الاعتبار ان عـدد سكان مصر ١٢ ضعـف سكان اسرائيل ·

وفي هذه المرحلة تحاول قيادة الصهيونية العـالمية والقيادة الاسرائيلـية الحاكمة ان تنفذ بحرفية النظرية الصهيونية عن التمييز والتمايـز كوسيلـة لاستمرار الحركة الصهيونية والتي عبر عـنها بن جوريون بقوله : « ان مبـدأ مساواة اليهود بغير اليهود في الحقوق والواجبات هـو الذي يجعـل خـطر الاندماج اشد »· وبكلمة اخـرى فاذا كانت الصهيونية قد استغـلت التمييـز الواقع ضد اليهود لدفـع هؤلاء لدعـم البرنامج الصهيوني الاستيطاني كمخرج وحل لمشكلة الاضطهاد الواقعـة عـليهم فـي دول الشتات ، فان الصهيونيـة العالمية تخطط حاليا لان تقلب موضوع التمييز ضد اليهود ليصبح لصالحهـم وعـلى حساب الاخـرينمحـاولة من وراء تقديم المكاسب لهـم ان تجعلهـم مميزين وتضعـهم في موقع المدافع عـن الامتيازات التي حققوها · وهذا ينطبق مع الفهم اللينيني عن « الشعوب المستغـلة والشعـوب المستغلة » وحديـث انجلز في نهاية القرن التاسع عشر عن «البروليتاريا البريطانيا التي تتبرجـز اكثر فاكثر وحيث يبدو ان هذه الامة الاكثر برجوازية بين الامم تريـد ان يكون لديها في نهاية الامر والى جانب البرجوازية ،ارستقراطيـة برجوازيـة ، وبروليتاريا برجوازية ··» وحديث لينين عن «العمال البريطانيين الذين كانـوا يدعمون سياسة حيازة المستعـمرات »· وعـن انه « لا وجـود لحـزب عمال، كل ما يوجـد هنا همـا حزبا المحافظين والراديكاليين ، اما العمال فيتمتعـون معـهم مطمئنين بوضع انجلترا الاحتكاري ازاء المستعـمرات وبوضعهـا الاحتكاري في السوق العـالمية »·

التركيب الطبقي الشاذ والصراع الطبقي :

وينطبق حديث انجلز ولينين حرفيا عـلى الوضع فـي اسرائيل ، فاضافـة

الى مستوى المعيشة المرتفع فان التركيب الطبقي للمجتمع الاسرائيلي شاذ وغير طبيعـي ، فالمجتمع الاسرائيلي هـو مجتمع طبقي باعتباره مجتمعـا رأسماليا، ولكن القاعـدة الطبقية المسحوقة والتي يقع عـليهـا عـبء الاعـمال للشاقة هي اليد العـاملة العربية من منطقتي الاحتلال ٤٨ و٦٧ · وما تبقى مـن التشكيل الطبقي الاسرائيلي يتوزعـه اليهود ـ ومزيدا ثم مزيدا من عـمليات توسيع القاعـدة الطبقية واحتلال العـرب لـدور البروليتاريا في التشكيـل الطبقي والاقتصادي لاسرائيل . مرشحـة لان تتم مستقبلا · وبكلمة اخـرى فان الحديث عـن بروليتاريا في اسرائيل انما هو حديث بالدرجة الاساسيـة عن العـرب لانهم الغالبية الساحقة من تلك الطبقة · وفـي هـذا المجـال فان اسرائيل تتفوق عـلى غـيرها من البلدان الامبريالية التي تستوعـب فـي اقتصادها عمالا اجانب ، ولكنهم لا يشكلون النسبة المرتفعة التي يشكلهـا العمال العـرب في الاقتصاد الاسرائيلي · وفي ضوء ما تقدم فان الحديـث عـن اضطهاد طبقي هـو بالدرجة الاساسية حديث عـن الاضطهاد الواقـع عـلى العـرب ·

ان الصراع الطبقي في اسرائيل بحكم الواقع الاقتصادي وبحكم طبيعـة التشكيل الطبقي انما هـو بشكل رئيسي صراع بين المستغـلين العرب ·قوميا وطبقيا ، وبين المجتمع الاسرائيلي الذي يستفيد من الاحتلال بشكل او باخـر وبنسبة متفاوتة وحسب الشرائح الطبقية المختلفة · وفي محاولة ذكية مـن القيادة الصهيونية لخلق « سلام اجتماعي » بين المستوطنين اليهود وعـلـى حساب المواطنين الفلسطينيين المضطهدين قوميا وطبقيا ·

المباراة الاقتصادية والتكامل الاقتصادي وتفاوت نقطة الانطلاق :

ان الحديث عن تكامل اقتصادي بين العـرب واسرائيل ، وعـن الكـم العربي والنوع الاسرائيلي ، هو الوجـه الثاني لعملية تقسيم وتوزيع العـمـل على النمط الامبريالي ، على صعـيدي السوق . والمواد الخـام ، اليدالعاملة، وفي الوقت نفسه فان نظرية المباراة الاقتصادية بين العرب واسرائيل غـيـر سليمة ايضا لان نقطة انطلاق كل منهما غـير متساوية ، باعتبارها ،عمليـا، مباراة بين دولة من دول المركز واخـرى من دول المحيط ·

الجذور الاقتصادية للانحراف الدائم باتجاه اليمين :

ان الحقائق الاقتصادية في اسرائيل قد عكست نفسها على التشكيل السياسي الاسرائيلي وعلى طريقة نمو الاحـزاب السياسية في اسرائيل · وقد اشـار الحزب الشيوعـي الاسرائيلي (ركاح) الى هذه الحقيقة في تقريره الصادر عن

مؤتمره السادس عـشر اذ قال « ان تسرب رأس المال الاجنبيلاسرائيل الذي لم يصغر خلال عشرين سنة منذ قيام دولة اسرائيل فقط ، بل ازداد ٠٠٠ ان استيراد رأس المال الى اسرائيل هو الاعـلى ، نسبيا ، فـي كل العـالم ٠ في نهاية سنوات الخمسينواوائـل سنوات الـ ٦٠ كان هناك في البلاد صعـــود اقتصادي مثل « الاعجوبة الاقتصادية » الاسرائيلية ٠ ومن المستحيل ان لا يؤثر كل ذلك عـلى الوضع الاجتماعـي الداخـلي فـي اسرائيل ، وان لايشجع اتجاهات البرجوازية الصغـيرة ٠٠ (ص ١٠٢ ـ ١٠٣ الطبعـة العربية مـن التقرير)٠ وفي مقابل هـذا فانه ليس من قبيل المصادفة المحضة ان يتشكـل الحزب الشيوعـي الاسرائيلي (راكح) من غالبية عربية ، واضحـة جـــدا تبلغ حوالي ٩٠٪ ٠ برغم ان نسبة عرب المناطق المحتلة ٤٨ لا تبلـغ سـوى حوالي ١٤٪ من سكان اسرائيل ٠ وفي المقابل فان الفريق المنشق عن الحـزب الشيوعـي الاسرائيلي والذي خرجت معـه الغالبية اليهودية ، يتجه اكثـر فاكثر نحو الصهينة ، وتخلى اخيرا حتى عن كلمة شيوعـي في اسمـــه ٠ ان هذا الانحراف النظري هو بالاساس انعكاس للواقع الطبقي لقاعدتـه ٠ وبالاضافة لهـذا فان بعـض حلقات المثقفين التي تتبنى الماركسية والتي تعـمـل بشكل منفصل عـن راكح لا تستطيع اعتبارهـا معبرة عـن واقع طبقي باعتبـار انها صغـيرة جدا واعضاؤها لا يتجاوزون العشرات وتتكون في معظمها ٠ ـن البرجوازية الصغـيرة (الطلاب ـ مدرسين)٠

وفي موازاة هذا فان الاجنحـة اليمينية فـي ما يسمى بالاحزاب العماليةقد بدأت بالنمو على حساب الاجنحة الاخـرى ، ان الانشقاقات التي تعرضت لهـا كانت دائما انشطارات باتجاه اليمين ٠ وليس مصادفة معزولة عـن الواقـــع الاقتصادي والطبقي ان يكون التحالف العـمالي الحاكم ـ هو الذي شن حرب ٥٦ و٦٧ وما زال في قمة الحكم حتى الان يدعـم ويخطط للعـدوان ٠

في مواجهة الضمور في حجم الاحزاب العمالية وتنامي الاجنحة اليمينيـــة منها ، نلحظ تزايدا في قوة احـزاب اليمين الصهيوني ويبدو ذلك منالتشكيـل الحالي للبرلمان الاسرائيلي ٠ وقد لحـظ الحـزب الشيوعـي الاسرائيلي(راكح) هذه الحقيقة في تقريره الصادر عـن المؤتمر السادس عـشر ، فتحت عنـوان « تحول الى اليمين في خريطة اسرائيل السياسية » ،والعنوان غنـي عـــــن التعريف ، قدم تقرير الحزب عرضا وتحليلا للاوضاع السياسية في اسرائيل في ضوء انتخابات الهستدروت وانتخابات الكنيست السادسة قال عنها بالحرف الواحد «في انتخابات الهستدروت اشتركت لاول مرة قائمة «جاحل »كتلة حيروت (الليبراليون) ولم تشترك للمرة الاولى احدوت هعفودا بقائمة مستقلة بل فـي قائمة واحدة مع المباي ٠ وكان هـذا تحـول الى اليمين في الهستدروت من

ناحية سياسية عـامة وطبقية ٠٠ « ص ٣٦» ٠ وعـن النتائج المباشرة قـال التقرير : « ان نتائج انتخابات المؤتمر العاشر للهستدروت قد ادتالـى فشل الزعـامة الحالية ، فالمعراخ (التجمع) قد حصل على ٨٨ر٥٠٪ منالاصوات فقط ٠٠ بينما في انتخابات المؤتمر التاسع حصل المباي وحـده عـلى ٤٣ر٥٥٪ من الاصوات ٠٠ ان فشل التجمع في انتخابات الهستدروت قد عبر عـن عـدم رضا العـمال عـلى سياسة زعـامة المباي وعـلى التجمع بين المباي واحـدوت هعفودا ٠٠ ولكن الامر السلبي في نتائج انتخابات الهستدروت قد كان فـي انه قد نشأت قوة يمينية قوية في الهستدروت « ص ٣٧ـ٣٨ » واما بالنسبة لانتخابات الكنيست فقد قال عـنها التقرير «وبعـد انتخابات الكنيست مباشـرة كان واضحـا انه قد طرأ تحـول الى اليمين في خريطة اسرائيل السياسيـة ٠٠ « ص ٣٩ » وعن مراقبة مسار الامور السياسية فـي المراحـل اللاحقة للانتخابات التي يشير اليها التقرير يتضح ان الميل باتجـاه اليمين قد استمـر وتصاعد اكثر فاكثر ٠

راكح حزب الاقلية العربية :

وفي مواجهة نمو اليمين ونجاحه المتزايد عـلىحساب الاحـزاب العمالية، وبكلمة اخرى انحياز القاعـدة للبرنامج الاكثر تطرفا وصهيونية ، نلحـظ انحيازا عربيا اكثر فاكثر لراكح ،وليس من قبيل المصادفة ان تكون (الناصرة) المدينة العربية ، هي المدينة الوحيدة التي يسيطر راكح عـلى مجلس بلديتهـا ، اضافة الى ان نقابة عـمال البناء ، حيث للعرب اغلبية ساحقة ، هي النقابة العـمالية الوحيدة التي يسيطر عـليها راكاح ٠

خلاصـات ونتائـج

ان ما تقدم يوضح لنا الخريطة الاقتصادية والتركيبة الطبقية والسياسيـة لاسرائيل وبحيث نجد انفسنا امام مثـل حي وواضح لمـا كان لينين قد تحـدث عـنه عـندما قال عـن شعـوب مستغـلة وشعـوب مستغـلة ٠

وفي ضوء التركيب الطبقي لاسرائيل ، وفي ضوء النمـو الاقتصادي الـذي عرفته اسرائيل ، والمرشح للتزايد مع تحـول اسرائيل اكثر فاكثر نحـو ان تصبح دولة امبريالية ، او حسب التعبير الجديـد المتعارف عـليـه (امبريالية صغـيرة)وفي ضوء عـمليات الافساد الطبقي والايديولوجي التي يتعرض لها المواطن الاسرائيلي يوميا ، والتي تؤدي حكما الـى تمييع الصراع الطبقي في اسرائيل ، وفي ضوء الحقيقة القائلة بان اسرائيل بحكم طبيعـة تكوينها وعلاقاتها وارتباطاتها وبحكم ، تأصل الايديولوجية الصهيونية ،والتي

بدأت تستند الى واقع اقتصادي ، انعكس بشكل مستوى معيشة مرتفع لغالبية المواطنين .الاسرائيليين • اخذ شكل تمايز عام لصالحهم بالقياس لعرب المناطق المحتلة ٤٨ و٦٧ • وباعتبار ان تزايد الصراعات الطبقية انما يرتبط بالفوارق الطبقية وبعمليات الاستغلال الطبقي • لهذه الاسباب نستطيع القول ان تركيب المجتمع الاسرائيلي هو تركيب غير عادي ، وان كان ينقسم الى مستغلين ومستغلين ، فان هذا الانقسام يتداخل مع التشكيل السكاني الثنائي ، حيث يشكل عرب المناطق المحتلة الغالبية الساحقة من المستغلين وبالمقابل يشكل يهود المناطق المحتلة غالبية المستغلين ، وبرغم التفاوتات الطبقية بين شرائحهم الطبقية المختلفة • واذا كانت هذه التفاوتات سببا في وجود صراعات طبقية ، فان درجة حدة هذه الصراعات تبقى دون حدة الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية • ومن هنا ومع وجود عرب المناطق المحتلة والذين يحملون عبء المجتمع الاسرائيلي ويقع عليهم ابشع انواع الاستغلال الطبقي ، فان الطرفين الرئيسيين للصراع الطبقي في اسرائيل هما العرب واليهود وليس لاعتبارات قومية فقط ، بل لاعتبارات طبقية ايضا •وهذا الوضع الشاذ لا يشبهه سوى وضع الدول العنصرية كجنوب افريقيا وروديسيا وغيرها من مجتمعات المستوطنين • في مثل هذه الحالة فان العامل الحاسم لن يكون العامل الذاتي بل هنالك اهمية قصوى لدور العنصر الخارجي الذي يلعب دورا رئيسيا في تنشيط وتفجير التناقضات في الداخل ، لان تحطيم المجتمعات التي تحكمت بها النزعات الفاشية والرجعية والعدوانية ، انما كان يتم من الخارج دائما برغم وجود بعض القوى التقدمية والثورية في داخل تلك البلدان والتي لم ولن تستطع لاسباب موضوعية ان تكون العامل الحاسم في الصراع •

■ هذا المقال يشمل الافكار الرئيسية لرسالة دكتوراه يعدها الكاتب (في مركز الابحاث – بيروت) لجامعة كارل ماركس – لايبزغ في جمهورية المانيا الديمقراطية •

الوحدة الكفاحية بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ...
طبيعتها، تطوّرها واشكالها

سعيد جواد

■ لقد ولد التحالف والتلاحم بين الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية التقدمية اللبنانية ، وترعرع ، وتطور ، خلال مسيرة الكفاح المرير الذي خاضه الشعبان الشقيقان ضد اعدائهما ، وضد القوى التي تتعارض طبيعته واهدافها وسياستها مع طبيعة واهداف وسياسات حركة التحرر الوطني لكل منهما ولا شك في انه يشكل تجربة ثورية فريدة ومجيدة في تاريخ حركة التحرر الوطني العربية ·

ان هذه الوحدة الكفاحية التي تعمدت بالدم والدموع والمعاناة ، لم تترسخ وتتوطد على اساس المنطلقات والشعارات القومية والوطنية التقدمية ، المناهضة لاسرائيل والصهيونية والامبريالية فحسب ابدا ، انما في خضم النضال والقتال الضاري واليومي في مواجهة هجمات القوى الفاشية والرجعية اللبنانية ، التي تحظى بالدعم المباشر والمعلن، العسكري والسياسي والمالي من اسرائيل والامبريالية الاميركية والرجعية العربية وقيادة النظام السوري ·

ان الاهمية التاريخية لهذه الوحدة ، سواء من حيث دلالاتها ، ودروسها ، ونتائجها ، تنبع من تحول المعركة في لبنان الى خط دفاع اول عن الثورة الفلسطينية ومجموع حركة التحرر العربية ، بعد ان حولته الامبريالية الاميركية الى ميدان متقدم للهجوم على الثورة وتوجيه ضربات عسكرية وسياسية ، اريد لها ان تكون حاسمة ، عبر ادوات لبنانية وعربية، تمكن من اخضاعها وتطويعها ، وبالتالي اندراجها في مسيرة الحلول الاستسلامية، الاميركية ـ الاسرائيلية ـ الهاشمية ـ العربية · وعندها يمكن مواصلة اندفاع اتفاقية سيناء نحو الجولان والضفة الغربية وترتيب تصفية المسألة الفلسطينية ·

لقد تميزت جميع هجمات قوى الثورة المضادة ومن وراءها ، والقوى المعادية لسياسة الثورة واستقلال قرارها الوطني والمناهضة للحركة لوطنية اللبنانية ، في مراهنة سياسية مركزية هي ، فصم عرى الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية اللبنانية ، واقتعال تناقض مصطنع بين مصالح الغالبية الساحقة من الشعب اللبناني ومصالح الشعب الفلسطيني ، وبالتالي بين الثورة والحركة الوطنية اللبنانية · وهذه المراهنة كانت ولا زالت تتكرر باستمرار وتتخذ لها اشكالا متنوعة وفقا لخصائص كل مرحلة من مراحل الصراع وشوط من اشواطه ·

وبالرغم من ان الهدف الاساسي والاول ، هو التصدي للثورة الفلسطينية للوجـــود البشري والمسلح للشعب الفلسطيني ، الا ان المناورات السياسية ، كانت تتخذ احيانا ، شكل دفع هذا الهدف الى الوراء ، وتأجيله ، عبر اعتبار ان القوى الانعزالية لا تختلف مع الثورة ، بل وتدافع عنهاوعن اهدافها لقضية مقدسة · وان المشكلة هي مع « اليسار الدولي الهدام والمستورد » · اي مع الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية · وفي احيان اخرى تتخذ شكل الحديث عن ثورة فلسطينية مخدوعة من « أقلية يسارية ضالة » · ولكـــن سرعان ما تستأنف الادعاءات الاولى القائلة بان الثورة الفلسطينية هي المشكلة الاساسية ، وانهـــا ما ان تخرج من الصراع حتى « تحل المشاكل بين اللبنانيين خلال ٢٤ ساعة فقط » · وفقـا لتصريحات بيار الجميل الاخيرة والمتكررة ·

اما بالنسبة لقيادة النظام السوري فقد ادعت في بداية تحول مبادرتها ان خلافهـا مع الحركة الوطنية اللبنانية فقط ، وان الثورة وسوريا حليفان ثابتان ، لكي تتحول الى المطالبة بتغيير القيادة الوطنية الفلسطينية « واستحداث » قيادة جديدة مطواعة ، بعد ان « لملمت » قيادات لبنانية للحركة « الوطنية والقومية » موالية لسياساتها ومشاريعها ·

والان ، ما هي هذه الادعاءات والمراهنات ؟ وما هي طبيعة وحقيقة الوحدة بيـــن الثورة والحركة الوطنية اللبنانية ، بين مصالح الشعبين واهدافهما الوطنية · اي اهداف حركتي تحررهما الوطني التي تكسرت وما زالت تتكسر على صخرتها جميع الادعاءات والمراهنات والمناورات ؟

ـ ان الاحداث التي جرت في صيدا ، في اوائل اذار ١٩٧٥ (١) ، عبرت عن الوجه اللبناني للصراع ، بمعنى انها عبرت عن احدى ظواهر الصراع الوطني والطبقي فـــي لبنان · والمعركة وما رافقها كانت تتويجا لمعارك وطنية وطبقية واجتماعية متواصلة على امتداد السنوات السبع الاخيرة ·

ـ وفي نيسان ٧٥ كانت مجزرة عين الرمانة ، وكان يراد لها ان تدفع بالوجـــه اللبناني (الانعزالي) ـ الفلسطيني الى المقدمة ، وارجاع الوجه اللبناني الى الوراء ، لطمسه ، وتغييبه تماما · تلك المجزرة كانت هي الاخرى تتويجا لسلسلة من المعارك بين القوى الانعزالية الرجعية والثورة الفلسطينية على امتداد الاعوام ٦٨ ـ ١٩٧٥ ، وشكلت بداية مرحلة واشكال عنف جديدة من الصراع ·

هاتان المعركتان اللتان شنتهما الاوساط الرجعية في النظام والمنظمات الفاشيـــة ضد الجماهير اللبنانية والحركة الوطنية اولا ، وضد الجماهير وقوى الثورة الفلسطينية ثانيا ، كانتا اشارة البدء لعام ونصف من المعارك والمواجهة الشاملة التي تميزت بتوحيد كافة القوى المضادة للثورة وللحركة الوطنية والمتعارضة مع طبيعتهما واهدافهما ·وبالمقابل رسخت ووطدت اعمق الاسس لوحدة الكفاح المشترك بينهما ·

واذا كان الصراع الاجتماعي والطبقي يضرب جذوره بعيدا في تربة المجتمع اللبناني، بالرغم من الاقمطة الطائفية التي تكبله ، فانه قد اتخذ اشكالا اكثر حدة في السنوات العشر الاخيرة · وذلك بفعل اشتداد ساعد الحركة الجماهيرية المطلبية والوطنية وبفعل تداخـــل نضالها مع مهام النضال ضد اسرائيل ومواجهة اعتداءاتها على القرى الحدودية ، ومـن

اجل ان ينخرط النظام اللبناني في الصراع ضد اسرائيل وبالاخص بعد العام ٦٧ · وذلك ليس بسبب من كون لبنان دولة عربية مجاورة لاسرائيل ، ولا بد لها من ان تنخرط في الصراع العربي الاسرائيلي فحسب ، بل لان الاطماع الصهيونية قد بدأت تتخذ لهـا اشكالا اكثر وضوحا وخطورة في المقام الاول ·

بالمقابل كانت الجماهير الفلسطينية تعاني من القمع والتعسف والاستغلال ، ومصادرة حق التعبئة والتنظيم والتدريب والقتال ضد اسرائيل · لكن هزيمة حزيران ١٩٦٧ التي وفرت امكانات تصاعد المقاومة المسلحة في الاردن خلقت بدورها شروط بدء العمليات الفدائية ، ومواجهة هجمات القوات الصهيونية ضد القرى والجماهير اللبنانية والفلسطينية في جنوب لبنان · وكلما تصاعدت عمليات المقاومة وباشرت الجماهير الفلسطينية بانتزاع حق التعبئة والتدريب والقتال ضد اسرائيل ، كلما تمكنت من شل يد القبضة القمعية الدركية والبوليسية ، سواء في داخل المخيمات او خارجها ، وقبلها على خطوط المواجهة مع اسرائيل ·

هكذا ولدت شروط التحالف الكفاحي والمصيري بين الشعبين وحركتي تحررهما بين الجماهير اللبنانية المناضلة ضد القمع والاستغلال ، والمطالبة بحق التدريب والتسليح لمواجهة الهجمات والاطماع الصهيونية ، والتي تناضل كذلك في سبيل دفع الدولة للقيام بواجبها والانخراط في القتال ضد اسرائيل ، والجماهير الفلسطينية التي بدأت بانتزاع بعض حقوقها في الاعداد والتدريب باشرت فعلا شن العمليات العسكرية عبر الحدود(٢)·

هذه الشروط للوحدة ، امتحنت ، وجربت ، في اول مواجهة بين قيادة الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين العاملين عبر القرى الحدودية (٣) · لقد تحركت وحدات من الجيش لتطوق مجموعة من المقاتلين في قرية مجدل سلم · وعلى الفور نزلت الجماهير اللبنانية الى الشوارع في تظاهرات غاضبة هادرة · في المدن والقرى ، في بيروت وصيدا وطرابلس بشكل خاص ، وقد توجت في تظاهرة ٢٣ نيسان ١٩٦٩ المجيدة التي سقط فيها عدد من المواطنين اللبنانيين ، شهداء الدفاع عن حق الثورة في القتال ضد اسرائيل ، وشهداء التلاحم الكفاحي الذي ارست قاعدته في نيسان ١٩٦٩ ، وترسخت بعد ذلك ، في المواجهة الثانية والاخطر في أيار من العام ١٩٧٣ · ودشنت اشد مراحله خطورة ، واغناها ، واكثرها اهمية من حيث النتائج ، في صيدا ـ عين الرمانة ، اذار ـ نيسان ١٩٧٥ ·

ان طبيعة بنية النظام اللبناني شبه الاقطاعية ، والمغلفة بالاقمطة الطائفية التي كبلت وشوهت نمو العلاقات الرأسمالية في داخلها ، قد ساهمت الى حد كبير في خلق شروط وحدة النضال اللبنانية ـ الفلسطينية ضد اسرائيل ، ومتطلبات تشييدها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية · سواء في مواجهة القمع المسلط على رقاب الجماهير اللبنانية والفلسطينية او لجهة الكفاح ضد العدو الصهيوني ، وبالضرورة ضد القوى التي تمنعها باصرار من التحضير والتأهيل للمواجهة ·

ففي الجنوب تعاني الجماهير اللبنانية من اضطهاد مركب ، طائفي واجتماعي اضطهاد زعامة طائفة سائدة لاخرى مسودة ، واضطهاد داخل الطائفة ذاتها من قبل

الشرائح الاقطاعية الرأسمالية السائدة فيها · بالاضافة الى الاستغلال والقمع المسلطيـــن من التحالف الاقطاعي ـ الرأسمالي ذاته في قمة النظام وعبر اجهزة الدولة · وهذا ما جعل جماهير القرى الامامية تواجه العدوان الاسرائيلي من جهة والقمع والاضطهاد من جهـة اخرى ، وهي طائفة بائسة ممنوعة من حمل السلاح ومحرومة من الحماية ، وقراها وارض وطنها ومياهه تحت رحمة الاطماع الصهيونية الشرهة ·

ـ هذا الواقع جعل المسالة الوطنية مشتعلة · وجماهير القرى الحدودية تواصـــل مطالبة الدولة بالقيام بواجباتها في الدفاع عنها وتسليحها لايقاف خطر الهجمات الدائمة ضدها (٤) ·

من هنا ، كانت الحركة الوطنية اللبنانية ، انطلاقا من مهماتها القومية ازاء المسألة الفلسطينية وتجاه الكيان الصهيوني ، تناضل بثبات من اجل ان يشارك النظام اللبناني في الصراع العربي الاسرائيلي (٥) · ومن اجل الدفاع عن جنوب لبنان ، وتعبئـــة جماهيره واعدادها وتسليحها ·

ـ بعد العام ١٩٦٧ تفاقمت المسألة الوطنية على امتداد الارض اللبنانية · وتزاوجت مع المسألة الاجتماعية التي عبرت عن نفسها في اضرابات الطلبة والمزارعين والعمـــال وتحركاتهم المستمرة · وقد ارتوت ارادة الصمود والتصدي من معين تصاعد المعـــارك الاجتماعية التي خاضتها الجماهير في الجنوب ضد الاستغلال والقمـــع الاقطاعـــي ـ السلطوي المركب · ولقد كانت معركة مزارعي التبغ في النبطية ومعركة صيادي الاسمـاك في صيدا ، معركتين بارزتين في تاريخ الصراع الاجتماعي والطبقي ضد الاقطاع واركان تحالف الدولة والنظام ·

ـ وفي الوقت ذاته كانت المعارك في كفرشوبا وكفركلا ضد الغارات الصهيونية بداية مرحلة جديدة في مسألة المواجهة مع اسرائيل · هكذا انبثقت المقاومة الشعبية اللبنانية المسلحة (٦) ، وبرزت الوحدة القتالية بين الثورةوالحركة الوطنية اللبنانية في خطوط المواجهة الساخنة وباسطع المعاني ·

من هنا فان ولادة المقاومة الفلسطينية المسلحة في الجنوب ، ساهمت في التعجيل بولادة المقاومة اللبنانية المسلحة في بعض القرى وتسريعها ، كما وفرت شروط وامكانات انتشارها من كفرشوبا وكفركلا الى العديد من القرى الحدودية في جنوب لبنان ·

كما ان معركة مزارعي التبغ في النبطية في الجنوب ، امتدت على شكل تحركات ومعارك وطنية واجتماعية ، طلابية وفلاحية وعمالية فيمختلف المدن والقرى الرئيسية · وكانت معارك عمال غندور والمواجهة التي اتسمت بها مع اصحاب العمل واجهزة الدولة، علامة بارزة في تلك النضالات ·

هذه الوقائع كانت تتفاعل على ارضية اجتماعية ـ طبقية ملائمة تماما ، ساعدت على تسريع وتيرتها ودفعت بها الى افاق جديدة ارقى ·

فالمخيمات الفلسطينية الذي يمتزج ويتفاعل فيها حرمان الجماهيـــر الفلسطينيـــة واللبنانية ، تكونت لها امتدادات ، او مخيمات بؤس وشقاء لبنانية فلسطينية متزايـــدة (منها احزمة البؤس المحيطة بمدينة بيروت) ، واينماحلت ، شكلت بـــؤرا للصـــراع

الاجتماعي والاحتجاج والتمرد ·

وبدات الاخطار تتجسم امام القيادات الانعزالية وتتخذ لها ابعادا ، باتت تهدد فيها التوازنات الطائفية وتماسك القوى الفاشية التي تتشرنق في اغلفتها · وتهدد بزعزعة اسس النظام شبه الاقطاعي الطائفي برمته · لقد تجسد ذلك في ظواهر ثلاث كانت تولد بدورها مضاعفات متفاعلة باستمرار · وقد تمثلت في :

* ـ الاعتداءات الاسرائيلية المتواصلة ، البرية والجوية ، ضد القرى اللبنانية وضد المخيمات الفلسطينية · وفي سياقها واخطرها كانت عملية « الكوماندوس » في قلب بيروت· اما قيادة الجيش اللبناني فكانت تواصل سياسة اللادفاع · بل وتكشف تواطؤها جليا خلال جولة القوات الاسرائيلية داخل شوارع وعمارات بيروت لفترة طويلة · بينما كان اركان الدولة يواصلون سياسة عدم تسليح الجماهير اللبنانية ، بل وتحريم حمل السلاح عليها ·

هذه السياسة خلقت ظروفا مؤاتية لتصاعد حركة الاحتجاج الوطنية ذات الطابع الجماهيري العارم ، وقد تتوجت تلك المرحلة في تظاهرة الربع مليون مواطن ، التي طافت في شوارع بيروت بالاضافة الى تحركات المدن الاخرى بعد العملية واغتيال القادة الفلسطينيين الثلاثة في ١٠ نيسان ٧٣ ، ضد سياسة اللادفاع والتواطؤ ·

* المقاومة الفلسطينية المسلحة ضد اسرائيل في الجنوب ، والتي ولدت بدايات مقاومة لبنانية في القرى ، باتت تهدد بالانتشار الى جميع قرى ومدن الجنوب المهددة بالاجتياح والعدوان الصهيوني ·

* المطالب الاجتماعية والاقتصادية تسارعت وتيرتها في ظل الجو الذي خلقه نمو وتصاعد المقاومة الفلسطينية · وكذلك وفي ظل الشلل النسبي لاجهزة القمع في مناطق احزمة البؤس اللبنانية وامتدادات المخيمات في المدن وحواليها الذي نتج عنها ، خاصة بعد افتضاح عجز قيادة الجيش عن القيام بايدور في مواجهة الاعتداءات الاسرائيلية · هذه العوامل الى جانب غيرها مساعدة ، جعلت المطالب الوطنية ـ الاجتماعية غاضبة ومسلحة للدفاع عن نفسها في وجه اية محاولات قمعية تصفوية مضادة ·

الجهد الانعزالي ـ الرجعي لعرقلة التفاعل الفلسطيني ـ اللبناني ·

ان السلطات اللبنانية والقوى الفاشية التي تقف خلفها ، لم تكن لتغفل للحظة واحدة، هذا التطور الخطير على سياساتها والذي يهدد مصالحها ، منذ بدايات نشوء عوامل التفاعل الفلسطيني ـ اللبناني واتخاذه تعبيرات مختلفة ·

لقد كانت الاوساط الانعزالية ـ الرجعية ـ ممثلة في قيادة الجيش واعمدة النظام ، تعتقد بان انزال ضربات بالثورة الفلسطينية وجماهيرها ، سوف يمكن من لجم الحركة الوطنية المطلبية الجماهيرية اللبنانية ، ويجهض بدايات انطلاق المقاومة المسلحة الخطير، تماما ·

ومنذ اواخر العام ٦٧ ، بدات السلطات اللبنانية حملة منظمة، وبدات محاولة تحريض جماهير الجنوب ضد العمل الفدائي ، وعبر مختلف الاساليب ، عملت على اثارة الشكوك حولجدوى المقاومة الفلسطينية ، محذرة في الوقت ذاته ، من عواقب التعاون مع الفدائيين او مناصرتهم ، ناهيك عن الانخراط في صفوفهم ٠

وبالاضافة الى هذا الدور كانهناك دور هجومي اخر ٠ لقد كان للاوساط الانعزالية، والمشبوهة داخل قيادة الجيش ، وكذلك اجهزة المكتب الثاني ، الدور الاساسي والمنظم في محاولات محاصرة بدايات المقاومة المسلحة في القرى الحدودية ووضعها تحت مطرقة العدوان الاسرائيلي ، وسندان الوحدات العسكرية واجهزة قمع المكتب الثاني (٧)٠

وكانت الهجمات العسكرية المتوالية ، عملية مجدل سلم في اوائل العام ٦٩ ٠ ومحاولة الاجتياح لمخيم صبرا والطريق الجديدة في قلب بيروت في ايار ٧٣ ، بهدف توجيه ضربة قاصمة لمواقع المقاومة الاساسية في العاصمة ٠

وكما كان حصاد محاولة عام ١٩٦٩ ، التظاهرات العارمة ، والازمة الوزارية وتضاعفاتها ، ومن ثم اضطرار القوى الفاشية والرجعية الى القبول باتفاق القاهرة الذي يعترف بحق الوجود المسلح للثورة والشعب ، فقد شكلت نتائج معركة ٧٣ انتصارا ساحقا ليس للثورة فحسب ، بل وللحركة الشعبية اللبنانية ٠ فالثورة خرجت من المعركة اقوى ، واحرزت انتصارا عسكريا وسياسيا بعد دحر تلك الحلقة من المؤامرة ٠ اما الحركة الوطنية ، فقد احرزت انتصارا ضد سياسة النظام والقوى الانعزالية من ورائه ، لكنها على امتداد السنوات اللاحقة من مواصلة تعبئة الجماهير وتنظيمها وبلورة مطالبها الوطنية وحقها المشروع في التعبئة والتسلح لمواجهة الاعتداءات الصهيونية ، في ظروف اكثر ملائمة ٠ كما ساعدت على تصاعد نضالاتها الاجتماعية والديمقراطية على الارضية الجديدة ذاتها ٠

من هنا فان اتفاقية القاهرة هي الابن الشرعي للوحدة الكفاحية بين الشعبين وحركتي تحررهما الوطني ، وثمرة انتصاراتهما الاولى ٠ وترتيبا هي ملك كفاحهما المشترك ضد اعدائهما المشتركين ٠

الا ان ما هو اكثر دلالة ، وجديرا بالاهمية والملاحظة ، هو موقف حزب الكتائب والقوى الانعزالية اليمينية الاخرى ٠ فهذه القوى وافقت على اتفاقية القاهرة ، لانها ادركت بان موازين القوى الوطنية والطبقية لم تعد في صالحها ٠ كما ان ظروف الثورة الفلسطينية كانت تتميز بالصمود السريع والمتواصل ، وبازدياد انخراط الجماهير الفلسطينية فيها والتفاف الجماهير العربية حولها (٨) ٠ وكذلك كان الموقف القومي التقدمي للنظامين الوطنيين المصري والسوري حينذاك لمصلحة الثورة والجماهير اللبنانية الملتفة حولها ، والحركة الوطنية المتحالفة معها (٩) ٠ وبالنتيجة فان استمرار الازمة ، لا يمكن ان يؤدي سوى الى المزيد منتفجير الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وبالتالي الى اختلال جديد في موازين القوى لصالح الثورة والحركة الوطنية اللبنانية وفي غير صالح القوى الانعزالية واليمينية ٠ وهكذا تراجعت القيادات الانعزالية ، وقبلت اتفاقية القاهرة بهدف التحضير والعمل الجدي الذي يمكن من نقضها ٠ تراجعت لكي تستوعب دروسها جيدا ٠ وتعين طريق العمل لتحضير شروط نقضها ، بعد ان اصبح قبولها امرا

لا مفر منه · واستنتجت التالي :

ـ ان الجيش لوحده غير قادر على حسم الصراع ، ولابد منتطوير المليشيات وبنـاء قوات اضافية تشكل دعما كافيا لحسم الصراع ·

ـ ان الظروف اللبنانية والعربية غير مؤاتية ، ولا بد من انتظار الظروف الاكثـر مؤاتاة ، والمساهمة في صنعها لبنانيا · (١٠) ·

ان المعركة التي خاضتها قيادة الجيش ضد المقاومة الفلسطينية كانت ردا علـى تصاعد النضالات الجماهيرية اللبنانية الوطنية والاجتماعية في الفترة ما بين ١٩٦٩ ـ ١٩٧٣ واستهدفت وضع حد للتفاعل بينها وبين الثورة الفلسطينية ·

لقد كان رد قيادة الجيش على الحركة الوطنية اللبنانية وجماهيرها هو رد مداوروغير مباشر ، عندما استهدف توجيه ضربة قوية للمقاومة الفلسطينية اولا · اي ضرب بؤرة تأجيج المسالة الوطنية ،مسالة المواجهة مع اسرائيل ، ومناهضة سياسة اللادفاع والتخاذل· اي اضعاف القاعدة التي خلقت مناخا عسكريا وسياسيا يساعد على نمـو التحركـات الجماهيرية المطلبية ويفضح فساد النظام شبه الاقطاعي واقمطته الطائفية ويساعد علـى تفاقم الانفجارات الاجتماعية ·

من هنا فان العمليات العسكرية في ايار ١٩٧٣ استهدفت المقاومة والحركة الوطنية في آن معا · وباخفاقها تمكنت من افشال حلقة تآمر ضدها · بينما كرست الحركة الوطنية انتصاراتها واجبرت القوى الانعزالية واركان النظام على الاعتراف الجزئي ، وأن اتخـذ اشكالا اولية (١١) ·

مرة اخرى تتراجع القوى الانعزالية التي كانت وراء قيـادة الجيش وتستخلص دروسا اضافية اهمها : الجيش ليس عاجزا فحسب ، بل مهددا بالانقسام وباحتمال تمرد وحدات منه الى جانب الحركة الوطنية (١٢)· لا بد من الاسراع في بناء وتطوير المليشيات والقوات النظامية الانعزالية ·المعركة القادمة ستكون طويلة ، وراس الحربة لا بد ان تكون فيها القوى الانعزالية كقوة ضاربة ومبادرة · الظروف اللبنانية والعربية والدولية لا تزال غير مؤاتية ·

ووافقت مرة ثانية علىاتفاقية القاهرة وعلى تكريسها في محادثات فندق ملكارت(١٣)

ومرة اخرى توطدت الوحدة النضالية بين الثورة والحركة الوطنية · بين الشعبين الفلسطني واللبناني ، واكتسبت زخما جديدا مكنها من مواصلة الصراع في ظروف افضل·

ولقد جاءت حرب اكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ لتؤجل تفجر الصراعات مؤقتا · ولكـن سرعان ما استأنفت عملية تراجع وارتداد النظام الساداتي ، وبوتيرة اسرع ، وقدمـت نتائج الحربواحدة تلو الاخرى على مذبح التسوية المصرية الاسرائيلية ، وتوجتباتفاقية فصل القوات الاولى · ومع بداية جولة كيسنجر الاولى في الربع الاول من العام ٧٥ حتى كانت اوضاع القوى الانعزالية وحساباتها على الوجه التالي :

■ انها قد تقدمت كثيرا في التعبئة والاعداد والتسلح ·

■ ان التسوية الاميركية ـ الاسرائيلية ـ المصرية قائمة في سيناء ولا بد من تحضير شروط مرتكزاتها في لبنان ·

■ ان المظروف العربية والدولية هي مؤاتية نسبيا ويمكن ان تكون مؤاتية تماما مع تقدم الصراع ·

الى جانب هذه المعطيات ، كان هناك عامل مباشر عجل في بدء العمل بالمشروع العسكري الكتائبي ، وهو معركة اذار ذات الوجه اللبناني · ذلك لان مسار المعركة ونتائجها اكدت بأن الصراع الاجتماعي يتفاقم بسرعة ، وان المواجهة مع الحركة الشعبية وقياداتها الوطنية تكسبها قوة ونفوذا متزايدين · كما ان استخدام الجيش لقمع التحركات الجماهيرية ، يطرح على الفور مسالة دوره تجاه اسرائيل ، وكذلك سياسة النظام اللادفاعية · وبالتالي تتصاعد المطالبة الوطنية بضرورة انخراط النظام في الصراع العربي الاسرائيلي وتسليح الجماهير اللبنانية · (١٤)

وبالاضافة الى ذلك فان الطابع اللبناني للصراع ، سوف يدفع بالطابع الاخر ، اللبناني (الانعزالي) ـ الفلسطيني الى الوراء ، ويلغي بالضرورة امكانات استثمار الفرص التي يمكن ان توفرها الاتفاقية المصرية ـ الاسرائيلية التي كانت المفاوضات تجري بصددها ، وما يمكن ان تثيره من خلافات عربية فلسطينية توظف في خدمة المشروع الانعزالي · أي الاضعاف من امكانات استثمار الظروف العربية ـ الفلسطينية والعربية والدولية التي يمكن ان تكون مؤاتية ·

من هنا كان لا بد من قسر الطبيعة اللبنانية للصراع ، وتحويله الىصراع لبناني (انعزالي) ـ فلسطيني ، بالمراهنة على تحويله الى صراع لبناني فلسطيني شامل (١٥)، بعد زعزعة الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية عبر ضربات عسكرية قوية للثورة تضعف دور الحركة الوطنية اللبنانية الجماهيري او تشله وتلغيه ·

على اساس هذه الحسابات بدأ الهجوم الكتائبي ونفذ مجزرة عين الرمانة ضد الفلسطينيين في ١٣ نيسان ١٩٧٥ بدم بارد ·

ان المذكرتين اللتين بعث بهما بيار الجميل الى رئيس الجمهورية ، والحملة الاعلامية التيرافقتهما، وتصاعدت ضد الثورة والفلسطينيين ، خاصةبعد اخفاق قيادة الجيشفي معركة صيدا اللبنانية ، والشعارات الشوفينية التي رفعت تحضيرا لعملية ١٣نيسان ، اكدت بشكل قاطع ان المجزرة اريد لها ان تحقق ثلاثة اهداف سريعة : الاول ،تقديم النموذج الذي يراد التعامل به مع الثورة ، وبشكل حاد ، والعمل على تعميمه من عين الرمانة الى جميع مناطق تواجد الثورة والشعب الفلسطيني · (١٦) الثاني،هو طمس معضلات الصراع اللبنانية ودفع مسالة الوجود الفلسطيني المسلح وبقوة الى السطح · الثالث ، هو استخدام ، الظروف العربية والمصرية خاصة عشية توقيع اتفاقية سيناء لاستفراد الثورة، وفرض تنازلات عسكرية وسياسية سريعة عليها ، قبل ان تتمكن الجماهير اللبنانية والحركة الوطنية من تنظيم الدفاع عنها ونجدتها · وكانت المراهنة تنصب على فرض التراجع على الثورة ومواصلة الهجوم العسكري والسياسي والاعلامي المزدوج من القيادة الانعزالية

وقيادة الجيش · وهو ما يمكن بالنتيجة من عزل الحركة الوطنية واحبـــاط التحركـــات الجماهيرية وبالتالي طمس المعضلات الوطنية الاجتماعية ·

ظواهر وتحضيرات ومؤشرات :

ولكي تتوضح الاهداف المشتركة ضد الثورة والحركة الوطنية وشمولهـــا كمشروع انعزالي متكامل ، لا بد من استحضار الظواهر ، والتحركات التي سبقت عملية ١٣ نيسان، وكذلك القوى التي لها مصلحة مشتركة في اضعاف الثورة ولجم الحركة الوطنية اللبنانية الصاعدة والمتحالفة مع الثورة (١٧) ·

لبنانيا وفلسطينيا ·

ـ من ١١ الى ١٨ كانون الثاني قصف اسرائيلي متواصل للعرقوب وتدمير كفرشوبا وتهجير اهاليها · وكما اشرنا ، انبثاق المقاومة اللبنانية المسلحة الى جانب المقاومـــة الفلسطينية في القرى الامامية التي تتعرض للعدوان · والجميل يصرح ، وينسب ما جرى في العرقوب الىعمل «لا مسؤولين وغير معروفين» وبالطبع المقصود هو المقاومة اللبنانيـة والفلسطينية التي تسببت في ازعاج اسرائيل ·

ـ ٢٤ كانون الثاني · الجميل يقدم المذكرة الاولى الى رئيس الجمهورية تتركز حول، وجود المقاومة والوضع في الجنوب ويتكلم فيها عن «السلطتين والجيش» ·

ـ ٣٠ كانون الثاني : اضراب شامل في الجنوب وتظاهرات حاشدة في بيـــروت والمناطق تلبية لدعوة المؤتمر الوطني لحماية الجنوب · وقد جاء الاضراب والتظاهرات والدعوة الى المؤتمر كرد على مذكرة الجميل ومضمونها التحريضي ضد بدايات المقاومـة اللبنانية بالاضافة الى المقاومة الفلسطينية في القرى الحدودية ·

ـ ١٣ شباط · مذكرة ثانية من حزب الكتائب الى رئيس الجمهورية يعلن فيها ضرورة اجراء استفتاء شعبي حول الوجود الفدائي في لبنان ·

ـ ٢٦ شباط · تظاهرة سلمية للصيادين في صيدا · الجيش يقتحم المدينة ، يطلـــق الرصاص على المتظاهرين ، احد عناصر الجيش يوجه رصاصه نحو معروف سعد فيصيبه اصابةخطرة ·

ـ ٢٧ شباط رقيب عسكري يقتال مواطنين شيوعيين في كفررمان (حسن شكرون وسليم او زيد) بلاغ الناطق العسكري يعلق « ان الرقيب اقدم على ذلك تحت نوبة نفسانية حادة » !

ـ بعد مجزرة صيدابايام ، الكتائب وحلفائها ينظمون التظاهرة الطائفية الحاشـدة تاييد لفعلة قيادة الجيش ويحثانها على مواصلة جهودها ·

ـ ١٢ ـ ١٧ اذار ، ينعقد في فندق البستان (في بيتمري) مؤتمر « تضامن شعـــوب

الشرق الاوسط » تحت شعار « مكافحة الشيوعية في المنطقة وابرز مخططاتها التخريبية ونوايا التدمير التي تعدها للانسانية » ٠

x الدعوة الى المؤتمر وجهها جورج بيطار نقيب مراسلي الصحافة الاجنبية في لبنان ٠

x تراس جلساته كميل شمعون ٠

x المدعوون جاؤوا من ١٥ بلدا ومن منظمات « المؤتمر الدولي لمكافحة الشيوعية ، الذي عقد مؤتمره العشرينفي العام ٧٤ في فيتنام الجنوبية ٠ (اي قبل تحريرها الكامل)٠ و « المؤتمر الاسيوي لمكافحة الشيوعية » ، و « أتحاد دول اميركا اللاتينية لمكافحة الشيوعية » بالاشتراك مع « رابطة العالم الاسلامي » ، في مكة ٠

• المقررات التي تسربت هي : الانضمام الى المؤتمر الدولي لمكافحة الشيوعية ، المطالبة بطرد اليمن الديمقراطية من جامعة الدول العربية ومن الامم المتحدة ٠ هذا ما اريد تسريبه واعلانه ٠ اما المقررات السرية فقد بقيت سرية جدا حتى بدات تتكشف بوضوح منذ بداية احداث ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، وحتى اليوم ٠

١٤ اذار الجميل يحتج باسم الكتائب على قرار نقل الضابطين ، الذين اعتبرا مسؤولين عن احداث صيدا ٠ ويقول « لم يعد بامكان الكتائب السكوت عما يجري من التحدي والاستفزاز »

في وسط تحركات نقابية ونشاطات جماهيرية ، وكرد على مذكرة الجميل الثانية :

x ينعقد المؤتمر الثاني للاتحاد الوطني لنقابات العمال والمستخدمين في للفترة من ٢١ ـ ٢٣ اذار ٠

x في ٦ نيسان ينعقد المؤتمر الاول لفلاحي ومزارعي البقاع ٠ المؤتمر يوصي بالدعوة الى مؤتمر وطني عام للفلاحين ٠ والطابع العام للتحركات والمؤتمرات هو الطابع الوطني الذي يعبر عن تفاقم الازمة الاجتماعية ٠

دوليا :

ـ ١٣ شباط ٠ فورد يهدد بانه اذا فشلت المهمة التي يقوم بها كيسنجر ، فانه قد ينجم عن ذلك خطر الحرب في هذه المنطقة ٠ هذا التصريح الاميركي يأتي في سياق لضغوط المكثفة لانتزاع اكبر ما يمكن من التنازلات التي تواصل تقديمها القيادة المصرية٠ وضرورة استجابتها للشروط الاميركية الاسرائيلية الضرورية والكافية لانجاح المساعي

الاميركية لعقد اتفاقية سيناء (١٨) ٠

لقد اتضح للقوى الانعزالية بالوقائع المتكررة ، ان الهجوم على الحركة الوطنية اللبنانية ومطاليها لا بد ان يؤدي الى ردات فعل جماهيرية متصاعدة ، واستنتجت، ان لا بد من التراجع المؤقت ٠ وبالفعل فقد استجاب كل من اركان النظام والقيادة الانعزالية لبعض المطالب الوطنية المتعلقة باحداث صيدا ومضاعفاتها ٠ وبالمقابل ضرورة العمل ، والاسراع في ابراز الطابع اللبناني (الانعزلي) ـ الفلسطيني للصراع ٠

وفعلا بدأ الهجوم الكتائبي بعد افتعال اسباب تافهة ، ونفذت مجزرة عين الرمانة ضد الفلسطينيين ، بهدف اسدال الستار على الجوهر اللبناني الوطني للصراع ودفعه الى الوراء لتحاشي مضاعفاته التي كانت معركة صيدا وما ترتب عليها نموذجا له ٠

لقد راهنت القيادة الكتائبية على ان صراع الجبهات والمتاريس والقذائف المدمرة يمكن من شل التحركات الجماهيرية الوطنية اللبنانية وبالتالي يمنع تفاعلها مع الثورة الفلسطينية ويضعف الدورالذي يمكن ان تضطلع به الحركةالوطنية في التحالف مع الثورة الى حد كبير ٠

هذه الخلفية الموضوعية الملموسة للمشروع الانعزالي ـ السلطوي ضد الحركة الوطنية والمقاومة هي التي جعلت ارضية التلاحم بين الثورة والحركة الوطنية شديدة القوة والصلابة لا يوازيها في ذلك سوى قوة وصلابة وحدة مشاريع اعدائهما المشتركين ٠

مراحل الحرب وخصائصها ٠

المرحلة الاولى : لقد بدأت هذه المرحلة في هجمة ١٣ نيسان التي استهدفت استفراد الثورة وايقاف نمو الحركة الشعبية واغتيال مطالبها ومحاصرة قيادتها الوطنية ٠ بالاضافة الى هدف اضعاف دور الجماهير الفلسطينية في الدفاع عن الثورة ٠ وذلك عن طريقتغليب الطابع اللبناني (الانعزالي) ـ الفلسطيني للصراع والذي يتخذ شكل عمليات عسكرية ٠

وعلى امتداد الجولات الثلاث الاولى ، حاولت القوى الانعزالية تأجيج الطابع الطائفي اولا والاقليمي ثانيا ٠ لا ضد الشعب الفلسطيني فحسب ، بل ضد المسلمين الذين يتحالفون معهم ويدافعون عن حقوقهم ٠ (١٩)

ومن المؤشرات البارزة لذلك : المخطف على الهوية ٠ قتل العمال السوريين ٠ التعذيب المنظم ٠ (٢٠) تزايد الشعارات الشوفينية التي ترتبط بالايديولوجية الانعزالية العامة٠

وبالرغم من ذلك فان المحاولات الانعزالية لاضفاء الطابع الطائفي لم تتمكن من ان تخفي السمة الجوهرية للصراع الوطني الاجتماعي اللبناني ، وقد برز ذلك في تصريحات القيادة الانعزالية ذاتها بطريقة مداورة ٠ فمؤتمر الرهبانيات يعلن عن « عدائه للشيوعية» امعانا في محاولة اخفاء الطابع اللبناني الاجتماعي للصراع ٠ ويستعدي السلطة ضد الفلسطينيين ٠ وبيار الجميل يصف ما يحدث بانه « محاولة انقلاب يسارية » !

المنتيجة : لقد كان حصاد الجولات الثلاث في مصلحة الثورة والحركة الوطنية ·وفي غير مصلحة المشروع الانعزالي السلطوي واهدافه · فطابع الصراع عاد لبنانيا وطنيـــا اجتماعيا بشكل واضح · وسقط مشروع الحكومة العسكرية التي ارادتها القيادة الكتائبية والسلطة كأداة لحل فاشي ·وتشكلت حكومة رشيد كرامي على انقاض الحكومة العسكرية، وان كانت الحركة الوطنية قد اطلقت عليها صفة « حكومة اللون الواحد» الا انها لا تتمكـن من ان تضطلع بوظيفة ضرب الثورة وطمس المطالب الوطنية اللبنانية · لقد كانت حكومة « الهدنة المؤقتة » تمثل بالضبط توازنا بين حدود التراجع الانعزالي المؤقت عن هدف تغليب الطابع « اللبناني » الفلسطيني العسكري للصراع ، وبين ما وصلت اليه قدرة الحركـة الوطنية اللبنانية حينذاك في معركة فرض الجوهر اللبناني الوطني والطبقي للصراع وعلى الارضية السياسية الديمقراطية لياديته·ولقد انتقل التوازن في صيغته العسكرية والسياسية الى تركيبة حكومة رشيد كرامي · حكومة اللون الواحد ·

بعد هذه الحلقة ، خرج التلاحم الفلسطيني اللبناني اكثر تماسكا وقوة دفع ، وقـــد فاز بشروط جديدة للتفاعل والتداخل والوحدة · استعدادا لمواجهة الحلقات القادمة فـي الصراع ··

من هنا · فالاهداف الانعزالية ضد الثورة كما اسفرت عن نفسها هي بالضرورة والواقع ضد الحركة الوطنية···والنجاحات التي حققتها الثورة هي بالتاكيد لكلا الحركتين الوطنيتين الشقيقتين ولتعزيز وحدتهما · تماما كما هي الاخفاقات التي يمكن ان تصيب اي منهما هي بالضروره ، وبالترتيب تصيب حليفتها بالدرجة ذاتها · ذلك لان اي انتكاسة للثورة ستؤدي الى اضعاف الحركة الوطنية ونضالاتها ، وان كان ذلك مؤقتا بالتاكيد ·

الوجه الثاني للمناورة ·· محاولة تحييد الثورة مؤقتا ؟

بعد الجولة الثالثة مباشرة ، حاولت القوى الانعزالية الدخول من الباب الثانـي ، لزعزعة الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية · لقد حاول كل من بيار الجميل وشمعون، الادعاء بان التناقضات مع الثورة الفلسطينية هي من النوع الذي يمكن تسويته بسهولة· وبان المشكلة الاساسية هي مع « اليسار الدولي » اي مع الذين هـــم وراء « المحاولـــة الانقلابية اليسارية »، كما قال الجميل بعد أحداث صيدا وتفاعلاتها ، وذلك بهدف امتصاص جزء من عناصر تفجير المسالتين الوطنية والاجتماعية فالجميل يعلن في ١٦ اب ١٩٧٥ ، باسم حزب الكتائب ، وبعد خلوة طويلة ، بان الحزب « يرفض محاولة استدراجه في اية فتنة ، ويدعو الدولة الى تحقيق المساواة وانصاف المحرمين ، ويؤيد نضال الشعـــب الفلسطيني ··· » (٢١)

وصحيفة العمل ، لسان حال حزب الكتائب ، تبدأ في تدبيج المقالات التي تشيـــد برئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات « واعتداله » ، كما تضع الصحيفة باسم الحزب التصنيفات التالية : في حكومة رشيد كرامي شمعون يمثل المسيحيـــن ، وكرامي يمثل المسلمين ، وفي الثورة الفلسطينية الاخ ابو عمار هو الرجـل « المعتدل » الذي يمكن التفاهم معه · وبالتالي التفاهم بينه وبين اركان الحكومة لحل الازمة ·

وكميل شمعون هو الاخر ، بعد ان دخل الوزارة « التسوية » حـــاول ان يجـــري اتصالات عديدة مع الثورة وبشكل خاص مع الاخ ابو عمار · وفي حينه كانت صحـــف الوطنيين الاحرار تبرز فلسطينية شمعون ونضاله من اجل فلسطين وتأييـــده للقضيـــة الفلسطينية ·

لكن مثل تلك المحاولات سرعان ما تتفضح وتبوء بالفشل · لانها تقوم على المنـاورة والخداع ، والتي تستهدف انتزاع مواقف من الثورة تصدع تحالفها مع الحركة الوطنية ، والثورة ترفضه بقوة ·

وسط هذه المحاولات المفضوحة ، تتصاعد عوامل تفجر المسالة الوطنية اللبنانية ففي ١٨ اب ١٩٧٥ يذيع كمال جنبلاط باسم الحركة الوطنية وثيقة الاصلاح الديمقراطي « لبناء لبنان عربي ديمقراطي ، تلغي الطائفية السياسية ، ويدعو لاصدار قانون انتخابي يجعـل من لبنان دائرة واحدة ، ونائب لكل ١٠ الاف مواطن ناخب ويحدد صلاحيـــات رئيس الجمهورية ، ويتم انشاء مجلس دفاع اعلى ومجلس قيادة مع حصر صلاحيات قائـــد الجيش » (٢٢)

وبينما المسالة اللبنانية تفرض نفسها ، تتزايد عوامل الاغراء ضد الثورة لاسبـــاب قديمة ـ جديدة ابرزها اتفاقية سيناء ·

ـ ففي ١ ايلول ١٩٧٦ توقع اتفاقية سيناء بين اسرائيل والحكومة المصرية · وبعـد اسبوع واحد تعلن منظمة التحرير رسميا رفض الاتفاقية · وهذا العامل من اهم العوامل التي تشجع القوى الانعزالية على معاودة شن الهجوم ضد الثورة · ودفع المعضـــلات الفلسطينية في لبنان الى المقدمة ·

لكن الطابع اللبناني يبقى طاغيا بالرغم من جميع محاولات اخفائه · وذلك بسبـــب من استمرار تفجر المعضلات الاجتماعية · اما العامل الجديد الخاص باتفاقية سيناء ،فلن يفعل سوى اعطاء الصراع ضد الثورة والحركة الوطنية طابعا مركبا اوسع شمولا مـن ذي قبل ·

ـ في ١٢ ايلول ١٩٧٦ · الخارجية الاميركية تدخل مباشرة ورسميا في الصـــراع وتتهم جنبلاط « بانه تلقى موالا من ليبيا ·· » ومفهوم ما يعنيه هذا التصريح الاميركي ، فهو يحاول ربط الصراع بعامل خارجي لكي يقدم التشجيع والمبرر لكل الاطراف المتدخلـة والمتحفزة للتدخل ضد الشعبين اللبناني والفلسطيني · ولكن بالرغم من السمة التحريضية للتصريح فانه يكشف حقائق الصراع اللبنانية باعتبار ان جنبلاط هو ممثـل الحركـــة الوطنية ورمزها البارز ·

ـ وفي اول لقاء لهيئة الحوار الوطني التى انبثقت من « الهدنة التسوية » المؤقتة ، فى ٢٥ ايلول ١٩٧٦ ، طرح كمال جنبلاط مطالب الحركة الوطنية ، بينما تحدث الجميـل واعلن « رفض التقسيم والطائفية والشيوعية والاشتراكية والتغيير ·· » ·

ـ قيادة الثورة اعلنت من جانبها الالتزام باتفاقية القاهرة ، واستعدادها لتطبيقها· ويعثت الى هيئة الحوار الوطني رسالة تؤكد موقفها هذا باسم قيادة المنظمة · ومحاولة الثورة تلك تاتي لسحب اية حجة يتذرع بها الانعزاليون لنسف هيئة الحوار وتخريب التسوية المؤقتة ·

ـ ولكن بعد ان تشعبت الحوارات حول الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي اللبناني ، بادرت القيادة الكتائبية لحسم الامور ، ونسفت هيئة الحوار بمذبحة جديدة في عين الرمانة بتاريخ ٣٠ ايلول ١٩٧٦ ·

المرحلة الثانية من ايلول حتى ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٦ ·

من ايلول حتى كانون الثاني ١٩٧٦ يهيمن الطابع اللبناني ، الوطني ـ الانعزالي ، على الصراع ، وتدور المعارك في غالبية ميادين القتال بين القوى الانعزالية وقوات الحركة الوطنية والثورة التي تلعب الاولى دورا بارزا فيها ·

وفي هذه المرحلة تحاول القوى الانعزالية تأجيج الطابع الطائفي للحرب (مذابح تل عباس ، سبتية ، حارة المغوارنة ، طرابلس ·· وغيرها) · لكن الطابع الوطني يبقى هو الغالب ايضا ·

ـ في ٥ كانون الاول تعلن القمة الاسلامية ، المطالب الوطنية ، قبلتوسيع الحكومة ·· والمفتي حسن خالد ، يشدد على التمثيل النسبي وتحديد صلاحيات رئيس الجمهورية ·

عودة نحو ، فلسطينية ، الصراع : ـ بدءا من ٤ ايلول ، حاولت القوى الانعزالية مرة اخرى ابراز مسالة الوجود الفلسطيني الى المقدمة للخروج من المازق · وبدات حرب تجويع مخيم تل الزعتر ·

ـ كذلك في ١٢ منه ، هاجم ١٥٠٠ مسلح من القوى الانعزالية مخيم ضبية الحاصر داخل المناطق الانعزالية · هذا الاختيار لوقت تفجير مسالة الوجود الفلسطيني اريد لها ان يترافق مع مناقشة القضية الفلسطينية في مجلس الامن · حيث بدات المناقشة في الثالث عشر من كانون الاول ١٩٧٥ ، بهدف التاثير على موقف منظمة التحرير واضعافه·

وفي اليوم التالي تقتحم القوى الانعزالية مخيم ضبية وتتكل بسكانه العزل وتدمر المخيم ·

ـ ردا على هذه المحاولات ، كانت قوات الحركة الوطنية ترد على جميع الجبهات· ويدور الصراع حول مناطق لبنانية تشكل كل منها مواقع ضعيفة بالنسبة للقوى المحيطة بها · وخلال ايام تنفذ القوى الانعزالية مجزرتي السلخ والكرنتينا ، وبينهما ترد قوات الحركة الوطنية والثورة الفلسطينية بدخول الجية والدامور والسعديات ·

هكذا يعود الطابع اللبناني الى المقدمة بوضوح ...

ابعد من ذلك ، وابتداء من ٢٠ كانون الثاني ، تتفاقم الازمة في اجهزة الدولة ،وتبدأ بالتفكك ، وحرب الثكنات تتواصل في بيروت وعلى امتداد المناطق اللبنانية اي ان السمة اللبنانية للصراع بدأت تغوص في العمق (٢٣) .

واختلت موازين القوى العسكرية لصالح الحركة الوطنية ، والثورة الفلسطينية . واضطرت القوى الانعزالية الى القبول بوقف اطلاق النار وأصبح ساري المفعول في ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٠ .

لكن القبول بوقف اطلاق النار كان يخفي الرفض المطلق والدائم من قبل القيادة الانعزالية للاعتراف بموازين القوى القائمة والانتقال بها الى الصراع السياسي ،وصياغة الاسلام على اساسها . ومنذ الجولة الاولى كانت المعضلة تتكرر : انكار كل التطورات الموضوعية العسكرية والسياسية ومحاولة العودة الى الوراء نحو الصفر بمعزل عن الوقائع. وفي ٩ نيسان ١٩٧٦ يبدأ تدفق القوات السورية المجتاحة . وفي ١ حزيران اندفاع جديد وبدء المواجهة .

وبعد ايام فقط من توقف الاجتياح العسكري السوري على مشارف صيدا وفي صوفر، وبالضبط في اليوم الثاني لبدء الانسحابات الجزئية السورية من مداخل بيروت ، استأنف الهجوم الانعزالي ، وبدأت عملية حصار تل الزعتر بشكل خاص في ٢٣ حزيران ١٩٧٦ .

لقد كان للهجوم هدفين مباشرين : الاول ، هو محاولة الامساك بالقوات السورية . وتقديم مبررات لاستكمال اجتياح المناطق الوطنية بحجة تجدد القتال عند بدء الانسحاب . والثاني ، هو العودة نحو تغليب الوجه الفلسطيني للصراع ، وذلك عن طريق اثارة مسألة الموقع الجغرافي لمخيم تل الزعتر وكذلك بالنسبة لجسر الباشا ، وما يترتب على ذلك من محاولة للاقتلاع الكامل للمخيمات . ولقد اصبح ممكنا وضع هذه الاهداف العريضة ، فقط ،بسبب احتلال القوات السورية لما يعادل ٦٠٪ من المناطق اللبنانية الوطنية ،وتربض على صدر الجماهير قوات تتألف من ما يقارب الـ ٤٥ الف جندي . وبالرغم من كل ذلك كانت معركة الدفاع عن مخيم تل الزعتر مفخرة في الصمود والتصدي .ومواجهة الاجتياح اسطورة في الاستبسال. لقد انتصرت معركة رفض الاستسلام . وانهزمت المراهنة الانعزالية التي ارادت جعل المعركة « نموذجا » للاستسلام الزاحف (٢٤) .

القيادة السورية : المناورة الانعزالية ذاتها .

ان المبادرة السورية وما ترتب عليها من دور سياسي وعسكري لم تشذ عن قاعدة العمل الانعزالية ،بل كانت اكثر وضوحا واصرارا في محاولات النيل من الوحدة الكفاحية، الفلسطينية اللبنانية . وقد تركزت في محاولات خلق تعارض مصطنع بين الشعبين الفلسطيني واللبناني واهدافهما الوطنية . ولقد كانت اكثر امعانا في التضليل بسبب من اشعارات التي تعلن الالتزام بها ، القومية والوطنية . والادعاءات العريضة عن الوحدة النضالية

مع الثورة والشعب الفلسطيني ، والنضال ضد الامبريالية واسرائيل ، بالاضافة الى شعارات مصلحة لبنان ووحدة أرضه وشعبه وامته ·

ـ وحينما كانت في طور الحياد ومحاولات تحقيق التوازن ، وقبل ان تتحول الى مناهضة الحركة الوطنية ، كانت تحاول احتواء موقف الثورة ، عبر الادعاءات عن وحدة الهدف ، روجود القيادة السورية ـ الفلسطينية المشتركة ، والتي تشكلت بمبادرة غير مفهومة من القيادة السورية · اما التعامل مع الحركة الوطنية في الفترة ذاتها ، فقد كان يتميز بالتذبذب · ولكن خطه العام كان واضحا وهو : ان القيادة السورية كانت تعتقد بان الحركة الوطنية يمكن تطويعها عن طريق تطويع الثورة ، او عزلها وتصفيتها بسهولة ·

ـ وفي ٣١ اذار ١٩٧٦ ، كان الاعلان الرسمي عن مناهضة القيادة السورية ومبادرتها للحركة الوطنية اللبنانية · وبالضرورة تحالفها مع أعدائها واعداء الثورة الفلسطينية ، اي مع الجبهة الانعزالية·وعلى الفور تحول هدف فك الوحدة بين الثورة والحركة الوطنية، **الى مطلب رسمي يقدمه حكام دمشق وعلى اعلى المستويات الى قيادة المقاومة كشرط لاستمرار التعايش والتعامل معها ·**

ـ ومنذ التاسع من نيسان تتحول المبادرة الى اجتياح عسكري بارادة النظام السوري لمنفردة ، وبموافقة الطرف الانعزالي التي جاءت لمساعدته · وفي ٦ حزيران ١٩٧٦ اخذت مدافع الدبابات اتجاهها ضد الثورة والحركة الوطنية وفي مواجهه صدور مقاتليهما الفلسطينيين واللبنانيين ·

وعلى امتداد الاشهر الاخيرة ، يستمر الهدف اياه ، ويتكرر الطلب ذاته ، وان باشكال وتعبيرات مختلفة : فصم التحالف بين الثورة والحركة الوطنية ، كبند اول في جدول اعمال المبادرة ·· وفي المراحل الاخيرة تعلن الاهداف بشكل اكثر وضوحا :تصفية الحركة الوطنية ··· وابعد « خلق » قيادة فلسطينية « جديدة » مطواعة تبارك الدور السوري السياسي والعسكري ، وتندرج في خطط النظام الامبراطورية اللاحقة لتسوية قضايا الصراع في المنطقة ، وبشكل خاص المسالة التي تتدرج هي الاخرى كبند اساسي في اهداف المبادرة (٢٥)·

ولكي يمكن معرفة الارضية المشتركة لجميع اطراف العداء للثورة والحركة الوطنية ، لا بد من تفحص جوهر كل مشروع منها : الانعزالي ، والسلطوي ـ الانعزالي ، ومشروع المبادرة السورية ، والاخير بالرغم من منطلقاته وشعاراته المختلفة ، الا انه في الواقع العملي ، ارتكز على القوى الانعزالية ذاتها بالتحالف والتنسيق ، وقوى النظام الطائفي ومرتكزاته ذاتها · كما حصل على تاييد القوى والاطراف العربية والدولية التي باركت المشروع ووقفت وراءه ، والنتيجة ـ والعبرة بالنتائج ـ هي المواجهة الدموية مع الثورة والحركة الوطنية في آن معا ، مضطلعا بوظيفة القوى الانعزالية بالكامل ·

وعند وضوح اسس المناهضة المشتركة للثورة والحركة الوطنية في جميع المشاريع

المعادية تتعين بدقة الاسس الموضوعية المتينة والعميقة للوحدة الكفاحية المصيرية بيـــن الشعبين الفلسطيني واللبناني وحركتي تحررهما في مواجهة المشاريع المعادية والمناهضة المختلفة ٠

١ ـ المشروع الانعزالي ـ الكتائبي ـ الشمعوني ٠

ان بنود المشوع الانعزالي الحقيقية اصبحت معلنة وواضحة بما فيه الكفايـــة ٠ والسياسة الانعزالية والمناورات المرتبطة بها لم تفعل شيئا سوى محاولة خلط البنـــود ببعضها البعض وتقديم احدهما على الاخر لاخفاء وحدتهما العضوية ٠ ولكن جوهرهـــا وتسلسلها كما اكدته الاحداث هو التالي :

ـ مشروع تصفية الوجود الفلسطيني المسلح ، وتوزيع الوجود البشري علـــى الاقطار العربية ، او الابقاء على جزء منه في سجون المخيمات تحت هيمنة الجيش والدرك كما كان الوضع عليه قبل حزيران ١٩٦٧ ٠ وبالمقابل الاستفادة من الايدي العاملـــة الماهرة والرخيصة التي سبق ان عملت طويلا في خدمة مصالح الرأسماليين والاقطاعيين وكبار التجـار اللبنانيين ٠

ـ المشروع الانعزالي ـ ضد الثورة اولا ٠ ان تحقيق المشـــروع الانعزالـــي ضـــد الثورة ، يخل في موازين القوى اللبنانية لصالح القوى الفاشية المسلحة (٢٦) وهو مـا يجعل مسالة تجريد الحركة الوطنية من سلاحها ، والتي حملتـــه حديثا للدفاع عـــن الثورة وفي سبيل المطالب الوطنية والاجتماعية ، هدفا انعزاليا جادا لاحقا ٠ وعندهـــا تصبح المطالب الوطنية والاجتماعية الاصلاحية يتيمة عزلاء يمكن تماما تمييعها وتجويـف مضامينها ٠ وهو ما يمهد بالنتيجة لتوفير شروط اقامة نظام لبناني فاشـــي ، يصـــادر الحريات الديمقراطية النسبية وكذلك المكاسب الوطنية والاجتماعية التي حققتها الحركة الشعبية عبر كفاحها الطويل ٠ وربما اتخذت شكل صيغة فاشية متلفعة فـــي اغلفـــة تقليدية رجعية طائفية ، مسيحية واسلامية ٠

ـ اما المناورة القائلة بالتعايش مع الثورة ، وتصفية الحركـــة الوطنية اولا ، باعتبارها تتشكل من القوى التي تحاول « احداث انقلاب يساري » والتي ترتبط باليســار الدولي ، فهي تعبر عن الوجه الثاني لمرتكز المشروع الاول ٠

ـ ان محاولة الجميل ـ شمعون الادعاء بان المشروع الانعزالي لا يستهدف الثورة بل « اليسار الدولي المخرب » كانت محاولة لم يكتب لها التقدم والنجاح ، وبالرغم من انها استمرت على امتداد اب ايلول ١٩٧٦ ، الا انها سرعان ما ارتطمت بالاسس الموضوعية الصلبة لوحدة الكفاح الفلسطيني اللبناني ، ولانها هي بالذات لا تعبر عـــن الواقـــع وحقيقة مواقفهم وسياساتهم ، فقد تناثرت شظايا مدافعهم ضـــد الشعبيـــن اللبنانـــي والفلسطيني ، وضد حركتي تحررهما الوطني ٠

ـ وبالترافق مع ذلك ، فان تمكن الحركة الوطنية اللبنانية ، من دفع عناصر الصراع اللبنانية الى المقدمة ، وحشد طاقات الجماهير ، وقيادة كفاحها السياسي والجماهيري المسلح ، جعلها تشكل خطرا جديا على المشروع الانعزالي · وفي سياق ذلك جاءت مناورة الجميل ـ شمعون لتحييد الثورة اولا · لكي تتفرغ القوى الانعزالية لانزال ضربة موجعة بالحركة الوطنية تمكن من لجمها تماما · وفي المرحلة الثانية يستأنف المشروع عمله ضد الثورة ، دون عقبات وطنية لبنانية ، دون دور للحركة الوطنية، وبوتيرة اسرع ، ودون مضاعفات ·

٢ ـ من البرنامج السلطوي ـ الى الانعزالي الكامل ·

منذ معركة المِام ١٩٦٩ ، مرورا بعملية ١٩٧٣ وحتى اوائل العام ٧٥ كانت محاولات اركان النظام الانعزالي تتواصل بدفع من القاعدة الطائفية الانعزالية ودعمها الكامل، لان ظروف المبادرة في المشروع لم تنضج بعد من خارج السلطة ·

ومنذ نيسان ١٩٧٥ تصدت القوى الانعزالية لاخذ زمام المبادرة ، وتحركت بمعزل (شكلي) عن مؤسسات النظام ، لكنها حاولت توظيف اجهزة الدولة بشكل كامل في خدمة المشروع · وقد اندمجا كليا ، الدور الكتائبي ـ الانعزالي ودور النظام ، من حيث الاهداف والوسائل والشعارات ، سواء تجاه الثورة او الحركة الوطنية ، على يد سليمان فرنجية واجهزته وشرعيته الرئاسية منذ الربع الاخير من العام ١٩٧٥ ·

المبادرة السورية طبيعتها ومسارها ·

ـ لقد بدات المبادرة سياسية ، وسرعان ما تحولت الى عسكرية سياسية · بدات تحاول تحقيق التوازن ، وتحولت نحو تشكيل حلف سياسي ـ عسكري مع القوى الانعزالية · طرحت هدفا معلنا وبشكل شبه رسمي هو ضرب الحركة الوطنية · وعلى الفور تحولت الى مواجهة الثورة والحركة الوطنية معا · وبالضرورة وضعت قواها في خدمة معسكر جميع اعدائهما · وبالترتيب في مواجهة القوى الوطنية والتقدمية العربية والعالمية الحليفة لهما والمدافعة عن اهدافهما ·

ـ في تصديها للحركة الوطنية اللبنانية ، عملت على استبدالها بالزعامات الاقطاعية والرجعية التقليدية ، والمجموعات التابعة للنظام السوري ذات التركيب اليميني الرجعي ، او المرتبطة بأجهزة مخابراتها ، والتي لها سوابق في الارتباط بالمخابرات العربية · وسرعان ما تحولت هذه القوى ، « الجبهة القومية » الى احتياطي ينشط في خدمة القوى الانعزالية وضد الثورة والحركة الوطنية ، عبر مواقف وتحركات مختلفة ·

ـ محاولة فرض وثيقة ١٤ شباط « وثيقة فرنجية والقيادة السورية » ، بهدف الابقاء على طائفية الرئاسات الثلاث ، وتكرس لبنان الطائفي عموما · وهي الوثيقة التي تمكن القوى الانعزالية والرجعية واليمينية التقليدية من الاحتفاظ بمواقع كبيرة واحتلال اخرى تواصل منها القتال والمناهضة ضد الثورة والحركة الوطنية ، بينما هي في المقابل تحرم

المجاهير اللبنانية وحركتها الوطنية من تحقيق اي مكسب وطني ديمقراطي ·

ـ تعمل المبادرة على تكبيل الحركة الجماهيرية اللبنانية · بمعنى تقييد حريتهـــا ، ومصادرة مكاسبها ، ومطالبها الوطنية الديمقراطية ، وبالتالي عرقلة كفاحها من اجـــل ادخال لبنان في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، كما ان الوقوف بوجه المطالب الوطنيـة الاصلاحية يعرقل تعبئة قواها ، ويضعف شروط وامكانات صمودها وتصديها لاسرائيـل والقوى الانعزالية · وبهذا المعنى هي محاولة لتجفيف بحر الحركة الجماهيرية اللبنانية الذي تسبح فيه الثورة ، من حولها · وانتزاع الدرع الذي يشكل خط صدامها الامامي مع القوى الانعزالية ، وفي مواجهة الهجمات الاسرائيلية على جنوب لبنان ·

ـ العمل على تشتيت ومحاصرة القوى العسكرية للحركة الوطنية ، والعمل علـــى تصفيتها ، اي تصفية القوى الحليفة للثورة وعمقها الاستراتيجي ، في كفاحها المصيري ضد اسرائيل واعدائها الاخرين ·

ـ على اساس التحالف بين القيادتين السورية والانعزالية ، خيضت المعارك الدامية ضد الثورة والحركة الوطنية ، وقد نالت الثورة والشعب الفلسطيني النصيب الاوفر · وبينما تطبق القوات السورية على انفاس الشعبين اللبناني والفلسطيني وتجمـد القـوى العسكرية للثورة والحركة الوطنية ، تواصل القوى الانعزالية مجماتها ضد مواقعهما · بالمقابل يتدفق العتاد والسلاح على الجبهة الانعزالية ، في الوقت الذي يشتد الحصـــار السوري على الموانىء والمواقع الوطنية وينسجم مع الحصار الانعزالي والاسرائيلـــي · وتشارك الدبابات السورية في معارك تل الزعتر وجسر الباشا وبرج حمود والنبعة ،بينما كان التواطؤن مع القيادة السورية من جماعة الحركة « الوطنية القومية » يعملون علـى تسهيل تسليم النبعة للقوى الانعزالية ·

ـ المعاهدة « الامنية » التي يراد فرضها بالقوة على النظام اللبناني وضد ارادة شعبه وبمعزل عنها · وكذلك الكونفدرالية التي يراد ادخال لبنان والثورة الفلسطينية الى محيطها ، تهدف هي والمعاهدة « الامنية » الى وضع الثورة والحركة الوطنية اللبنانيـــة امام فكي الكماشة السورية ـ الهاشمية · وهذه اهداف اصبحت معلنة وشبه رسمية ·

دورة المبادرة السورية · من المناورة الى الاجتياح العسكري ·· ومنه الـــى عقـــد الاتفاقيات ··· وبعدها اجتياح عسكري اخر ·· حتى يمكن فرض شروط الاستسلام الكامل·

من مناورات ايار ٧٦ لتنصيب الياس سركيس ·· الى الاجتياح العسكري فـــي حزيران ٧٦ · ومن اتفاقية دمشق تموز ٧٦ الى عملية اجتياح الجبل في اواخر ايلول · سياسة واحدة متكاملة ، وحلقات متصلة واهداف واحدة ·

* في اوائل ايار كانت خطة العمل تقوم على التدخل السياسي والعسكري (الجزئي) المباشر في انتخابات الرئاسة ، بالهجوم السياسي تحت مظلة الردع العسكري · وقد ترافق مع اعلى درجات الضغط والابتزاز لاستفراد الحركة الوطنية ··· وسرت العملية وخرجت وحدة الثورة والحركة الوطنية اكثر قوة وتماسكا · واخفقت المناورة في تحقيق هدفهـــا

الاساسي · لا بد اذن من مواصلة الاجتياح العسكري ·

• في حزيران بدأت المغامرة العسكرية ، لكنها ارتطمت بصخرة الوحدة الصلبة بين الثورة والحركة الوطنية ، وتكسرت على مشارف صيدا وعند حدود صوفر ··· لا بـــد من ابرام الاتفاقات المؤقتة !

• في تموز عرضت القيادة السورية التفاوض على اساس المبادرة الليبية ·وتجاوبت الثورة الى ابعد الحدود لتاكيد موقفها المبدئي لانهاء القتال ، ولتجريد القيادة السورية من اعذارها وعقدت اتفاقية دمشق في ٢٩ تموز التي حاول النظام السوري ان يجعلهـا مدخلا لتصديع التلاحم بين الثورة والحركة الوطنية · ولكن سرعان ما اخفق ، ومـزق الاتفاقية ·

• ومنذ اوائل ايلول ، بدأت القيادة السورية محاولاتها في الضغط المتعدد الاشكال وممارسة الابتزاز المكشوف مع القيادة الفلسطينية لكي تنسحب من الجبل · (وهو مطلب انعزالي اساسي دائم) · وقد اصطدمت جميع عروضها بموقف الثورة الحازم وصلابـة الوحدة الكفاحية بينها وبين الحركة الوطنية ·

وفي فجر السابع والعشرين من ايلول استأنفت عملياتها العسكرية ، بالتنسيـــق الكامل مع القوى الانعزالية لاحتلال المواقع الوطنية في الجبل · وهكذا تستكمـــل دورة المبادرة من المناورة الى المغامرة العسكرية ، ومنها الى الاتفاقات ·· ومن ثم معاودة الاجتياح العسكري ·· بهدف فرض شروط الاستسلام كاملة · (٢٧)

وبالرغم من المكاسب العسكرية التي حققتها القيادتان السورية والانعزالية ، الا ان القتال الباسل والمقاومة الفلسطينية ـ اللبنانية قبل الانسحاب من اي موقع افقد العملية اهم اهدافها الاساسية ، وهو فرض الانسحاب بواسطة الضغط العسكري والابتـــزاز السياسي · وقد كانت النتيجة بالنسبة للثورة والحركة الوطنية خسارة موقع عسكري وبالمقابل تحقيق نصر سياسي كبير (٢٨) ·

ـ ان ما هو اشد خطرا في مسيرة المبادرة السورية ، هو ان المشروع اذا تحقق ، او نجحت القيادة السورية في تحقيق جزء منه ، أي اضعاف الثورة واحكام الوصاية عليها ، يواصل المشروع الانعزالي ولن يتوقف حينذاك عند حدود ·

وربما لن تتمكن سوريا من ايقاف اندفاعه ان هي أرادت ، او بالاحرى اذا كـــان ايقافه في خدمة مشروعها ، واندفاعه ليس في صالحه · ان القوى الانعزالية ستواصـل اندفاعتها بعد ان تكون القيادة السورية قد أدت وظيفتها وأخلت في موازين القوى لصالح القوى الانعزالية بشكل كبير ، وعندها تواجه الجبهة الانعزالية مقاومة ضعيفة وفي غياب الحركة الوطنية المنهكة ، ستظهر الانياب الشوفينية ، وتطـــرح مهمة تصفية الوجـــود العسكري والسياسي للثورة ثانية وفي ظروف مؤاتية ·

من هنا تنبع خطورة الدور السوري ، ومن هنا ايضا تنبع صلابة الوحدة بين الثورة

والحركة الوطنية لمواجهة حلقاته وتكسيرها واحدة بعد اخرى ٠

ومن استعراض مواقف مختلف الاطراف المعادية للثورة والحركة الوطنية ، يبدو واضحا ان التدخل السياسي والعسكري السوري هو في ثقله الاكبر ضـــد الثـــورة الفلسطينية وأهدافها الوطنية ومستقبلها ٠

ومن المفيد ان نسجل مجموعة من المؤشرات التي برزت عشية دخول الوحدات الاولى من القوات السورية في ١ نيسان ١٩٧٦ ٠ والتي هي ذات دلالة كبيرة ٠

ـ في ٢١ آذار يبدأ الموفد الاميركي دين براون مبعوث الرئيس فورد مهمته كوسيط لحل الازمة اللبنانية ٠

ـ وفي اليوم ذاته ، تهاجم منظمة البعث السوري كمال جنبلاط ممثل الحركة الوطنية اللبنانية ، وتتهمه « بالعمالة والخيانة » ٠

ـ وبعد يومين اثنين فقط ، وفي الوقت الذي تظهر فيه القوات المشتركة عينطورة وتعلن الهدنة العسكرية المؤقتة ، وتذيع برنامجها لانهاء القتال ، يهدد كيسنجر وزيـــر الخارجية الاميركية بتدويل الازمة اللبنانية ٠

المواقف الدولية والعربية التي باركت المباشرة العسكرية ودعمتها ٠

١ ـ اسرائيل : باركت التدخل العسكري ، وشجعت على مواصلته ٠ في البدايـــة وضعت خطا احمر لحدود الاجتياح ، وسرعان ما استبدل بضوء اخضر دائم ٠

وتحول الخط الاحمر من جغرافي الى سياسي ، يرتبط بالهدف الذي تسعى اليـــه القوات السورية ٠ وقد اصبح هدفها من قبل حكومة تل ابيب مرغوبا فيه تماما فهو ، اضعاف منظمة لتحرير وضرب الحركة الوطنية اللبنانية ٠

كما ان اسرائيل لا تخفي مكاسبها العديدة من اجتياح القوات السورية ، وتصيبها في استمرار القتال ٠ وقد حددتها رسميا على الشكل التالي كما في تصريحات عدد مـــن قادتها في الفترة الاخيرة :

ـ انهاك المقاومة الفلسطينية واضعافها ٠

ـ تحول الجيش السوري عن الصراع ضد اسرائيل وانشغاله في القتال ضـــد المقاومة الفلسطينية ٠

ـ اشتداد المعارك الطائفية التي تؤكد اراء اسرائيل ٠ اي التي تبرر قيام الدولـــة العبرية العنصرية ٠

ـ وبعد عملية اجتياح الجبل اعلن شمعون بيريز « ان هـــدف القدس حاليا هو نفس هدف دمشق » ٠

٢ ـ اميركا : الحكومة الاميركية ، وقبل بدء الاجتياح العسكري ، كانت قد اعطـــت الضوء الاخضر للحكومة السورية ٠ وفي رسالة رسمية ٠ (٢٩) وكذلك في بيانـــات وتصريحات وتحركات مختلفة ٠

وما قاله براون في ندوة تلفزيونية عقدها في واشنطن بتاريخ ١٠ اب ١٩٧٦ كـــان شديد الدلالة والوضوح ٠

* حينما سأله الصحفي « تربويت » عن التقاء الموقفين السوري والاسرائيلي في الازمة اجاب براون :

« نعم هذا احتمال وارد » ٠ ثم اضاف«انما يقوله السوريون هو انهم يريدون ان يروا الفلسطينيين اكثر لينا تجاه تسوية سلمية ٠٠٠ ولا شك ان حركة فلسطينية اكثر توحدا لا تقع تحت تهديد اليسار فيها ، ومحكومة اكثر من دول المواجهة مع اسرائيل يمكـــن ان تقودنا في اتجاه التسوية ، اذا ما امكن ايجادها كنتيجة للمواجهة القائمة في لبنان »(٣٠)٠

٣ ـ **النظام الهاشمي** ـ لقد سافر الملك حسين عشية الاجتياح السوري الى واشنطـن في محاولة لاستعجال الموافقة الاميركية على التدخل السوري ٠ وفعلا كان لجهوده دورا في استكمال العوامل التي بنت اميركا قرارها على ضوئها (٣١) في اعطاء الضوء الاخضر للاجتياح ٠

ـ وفي ١ نيسان ٧٦ اعلن الملك حسين انه « يؤيد تدخل سوري في لبنان لانه يمنـــع محاولة المسلمين المتطرين تغيير النظام اللبناني » (٣٢) ٠

ـ وفي تصريحات لاحقة اعلن بأنه « يؤيد الجهود السورية لايقاف القتال وان منظمة التحرير هي السبب في استمرار القتال لانها تتدخل في الشؤون الداخلية للبنان ، تمامـــا كما تدخلت في الاردن » ٠ (٣٣)

٤ ـ **الانظمة الرجعية** : ان المواقف الفعلية للانظمة العربية الرجعية منذ بدايـــــة التدخل العسكري السوري هي الموافقة الضمنية المعبر عنها بالصمت والمتفرج الطويـــل الامـــد ٠

كما تاكد ذلك ايضا من خلال كل « الجهود » التي بذلت لايقاف الاجتياح ٠حيث اندرجت جميعها في المبادرة السورية ٠ بسبب عجز القيادة السوريـــة عن تحقيق الحسم العسكـــري السريع وانهاء الازمة أي تأدية وظيفتها ضد الثورة والحركة الوطنية ، بدأت التحركات العربية لايجاد مخرج للنظام السوري ذاته ٠

أما المواقف الرجعية التي يمكن أن تذهب أبعد من ذلك فانها ترتبط بالصراعـــات الثانوية حول دور وحجم المبادرة السورية في حسابات مستقبل المنطقة ٠

ولقد كان دين براون واضحا ايضا في تحديد موقف الانظمة العربية الرجعية وهو بصدد حديثه عن السياسة الاميركية تجاه لبنان · والذي اصبح الدور العسكري السوري كاحدى ادواتها ، قال المتحدث الاميركي « ان وجهة نظر اميركا تجاه لبنان تتشارك فيها ـ سوريا واسرائيل ··· وبالتاكيد تشاركنا فيها ايضا السعودية وكل البلدان العربية التي نطلق عليها « معتدلة » ·

اما الانظمة الوطنية الاخرى فأن الصمت والتفرج الذي تنهجه كان عمليا في خدمة الجهد السوري العسكري وليس ضده · والمواقف التي اتخذت شكل المعارضة لم تكن فعالة حتى الان ·

٥ـ القيادة السورية · والنظام السوري هو الاخر اصبح لا يخفي حقيقة اهدافه ولا ينكر الموقف الدولية التي تدعمه في المبادرة العسكرية ·

ففي لقائه مع للوفد الفلسطيني ، خلال مباحثات اتفاق دمشق ، اعترف حافظ الاسد للوفد « بان اسرائيل لم تعترض ولم تتدخل عندما دخلت القوات السورية الى لبنان ، لانها كانت ترى ان هذه القوات دخلت لتصفية المقاومة ! » ثم يكمل حديثه « ·· اما الان فهو ، اي الاسد ، يتوقع عدوانا اسرائيليا بعد الاتفاق (اتفاق دمشق) · (٣٤) وبعد مضي شهر واحد فقط ، مزقت دمشق الاتفاق · والاعتداءات الاسرائيلية لم تحصل ! ولماذا تحصل ؟ بدلا منها تكاثرت تصريحات التأييد · اخرها تصريحات بيريز في ايلول « لسوريا واسرائيل نفس الهدف » ·

الحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية هي درع الثورة وعمقها الاستراتيجي في لبنان·

ـ من الواضح ان الاهداف الوطنية ـ الاجتماعية ، التي تناضل في سبيلها الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية هي بالضرورة والواقع في مصلحة الثورة الفلسطينية وفي خدمة اهدافها المباشرة والاستراتيجية ·

ـ أن المهام المتمثلة في برنامج الاصلاح الديمقراطي والاجتماعي والسياسي ، تساعد على تعبئة الجماهير اللبنانية وتنظيمها واعدادها للمساهمة في القتال ضد اسرائيل · كما تمكن الحركة الوطنية والتقدمية اللبنانية ، والجماهير الملتفة حولها ، من خوض نضال متواصل من اجل سياسة وطنية دفاعية تجاه اسرائيل ، وانخراط لبنان في الصراع العربي ـ الصهيوني ·

ـ والنضال من اجل مهام البرنامج الوطني الاصلاحي ، يمكن ايضا من تكثيف مساهمة الحركة الوطنية التقدمية في النضال في سبيل انتزاع حق الثورة والشعب الفلسطيني المطلق في الوجود البشري المسلح ، وحق التعبئة والتنظيم والتدريب والقتال ضد اسرائيل · كما ان انجاز البرنامج الوطني يمكن الحركة الوطنية اللبنانية من خوض القتال الى جانب الثورة جنبا الى جنب ومن موقع اقوى وافضل ضد اسرائيل والقوى المعادية للثورة ، والوقوف بوجه محاولات تطويقها ومصادرة استقلالها السياسي او انتقاصه ·

ـ أن مناطق قوة ونفوذ الحركة الوطنية ، السياسي والعسكري ، تشكل عمقـــا استراتيجيا ، وقاعدة جماهيرية وسياسية وعسكرية آمنة للثورة ٠

من هنا ، فان عناصر مشاريع القوى الانعزالية والمناهضة للثورة والحركة الوطنية اذا كانت تشكل الوجه الاول لوحدة التحالف الوطني الفلسطيني ـ اللبناني ، فان الاهداف الوطنية والقومية المشتركة تشكل وجهها الثاني ٠ بمعنى اذا كانت الاهداف النضاليـــة الاخيرة تشكل سدة التحالف ، فان مشاريع معسكر القوى المعادية والمناهضة للحركتين الوطنيتين المناضلتين هي لحمته ٠

وهذا يعني ان التحالف الذي يرتكز الى اسباب موضوعية تاريخية يكون بالتاكيد اقوى من جميع المخططات والمناورات لفصم عراه القوية ٠

٠٠ كما في ميادين الحرب ٠٠ في ميادين الصراع السياسي ٠

ـ كما هو من الطبيعي ان يتخذ الصراع اشكالا وتعبيرات مختلفة الى جانب القتال، وفي خدمته ، واستمرارا له ، فان اشكال التحالف والتلاحم هي الاخرى تتخذ لها تعبيرات سياسية وجماهيرية الى جانب القتال وفي خدمة اهدافه ، او تتويجا للحرب واستمرارا لها باشكال وتلاوين اخرى غير دموية ٠

ان الصراع السياسي والجماهيري الذي يواكب الحرب او يعقبها ، هو بلا شك اكثر تعقيدا وتشابكا من القتال ٠ سواء من حيث وسائله المتنوعة او اشكاله او من حيث القوى التي تنخرط فيه ٠

والثورة والحركة الوطنية حينما تقاتلان في خندق واحد ، فانما تقاتلان ضـــد اعدائهما المشتركين في الخندق المقابل ٠ ولكن حينما يكون الصراع في الميادين السياسية سواء الى جانب خنادق القتال او بعد توقف نشاطها ، فان اسس الوحدة الكفاحيـــة تكون قائمة في الميادين السياسية بقدر حضور عناصر المخططات المعادية التي تمتد الى الصراع السياسي كمساعدة ، او تنتقل الى ميادينه ، كميادين اساسية ، بعد توقـــف القتال ، حيث تأخذ تلاوين متنوعة ٠

وهذا يعني ان الثورة حينما تقف الى جانب الحركة الوطنية في الصراع السياســي خلال الحرب ، دفاعا عن اهدافها ومصالحها ، فان المواجهة السياسية المشتركة للمخططات المعادية التي تخوضها الثورة والحركة الوطنية بعد الحرب ، تتواصل على القاعـــدة الكفاحية الموحدة ذاتها ٠ والثورة بذلك تواصل الدفاع عن وجودها واهدافها الوطنية ضد اهداف القوى المعادية ذاتها التي يراد لها ان تتواصل باشكال جديدة في الميادين السياسية٠

ان هذا الواقع يؤكد بان الثورة لا تتدخل في الشؤون الداخلية اللبنانية ، بـــل وبالضبط ، تحاول منع التدخل في شؤونها ، وايقاف حلقات التآمر التي تزرعها القيادة السورية وغيرها والتي تتخذ لها اشكالا جديدة غير عسكريـــة في الميادين السياسيـــة ٠ وفيها يجري التصدي للعدوان الذي يتحول من قذاف وصواريخ ودبابات ، الى مؤامرات

وخطط سياسية ، تشارك فيها القوى التي اشعلت الحرب وادارتها ، بالاضافـــة الـى مساهمة قوى اخرى لم تتمكن من ان تلعب الدور ذاته خلال المعارك او في ميادينها ٠

ويمكن تلخيص ذلك على الوجه التالي :

ـ ان الخطط المعادية للحركة الوطنية ، والتي تضر بمصالح واهداف الثورة هـي بالضرورة تلك الخطط التي ترتبط باهداف المشروع العسكري المعادي ذاته ، والتي يراد تحقيقها عن طريق المناورات السياسية الى جانب الصراع العسكري او بعد توقفه وعجزه عن تحقيق اهدافه ٠

ـ كما ان نضال الحركة الوطنية في الميادين السياسية هو امتداد له في ساحـــات القتال ، وفي جوانبه الوطنية والاجتماعية هو في خدمة الثورة واهدافها ، وبالتالي فـــان ارضية التحالف مع الثورة في الميادين السياسية هي الارضية ذاتها التي ترسخت عليهـا الوحدة الكفاحية في ميادين القتال ٠

ان من بين اهم المعضلات التي احتدم الصراع السياسي حولها خلال القتال ، ولا يزال وسيتواصل بشكل اكثر حدة بعد توقفه ، هي مسألة قيادة الحركة الوطنية التقدمية اللبنانية ، وتمثيلها الشرعي لحركة التحرر الوطني والديمقراطي اللبنانية ٠ على هـذه المسألة تتركز محاولات القوى الانعزالية ، والقيادة السورية ، هادفة الى تجاوز شرعيتها النضالية التي تعكس الحقائق الموضوعية ، او تحاول ثلمها واضعافها ٠

ان من أبرز تعبيرات هذه المحاولات تتمثل في العمل على تزييف ارادة الجماهيـــر اللبنانية ، « وتركيب » قيادة « بديلة » للحركة الوطنية ، مكونة من القوى والعناصر التي تناهض مطالب الحركة الوطنية السياسية والاجتماعية ، والتي تهادن قوات الاحتـــلال ، وتتحالف وتتواطىء مع القوى الانعزالية التي تقاتل ضد الثـــورة والحركة الوطنيـــة اللبنانية ٠ هذه القيادة المزعومة يراد لها ان تأتمر بأوامر السلطات السورية وتنفذ خططها وخطط القوى الانعزالية ضد مصالح الشعبين الفلسطيني واللبناني الحيوية ٠

من هنا فان هذه المعركة التي هي اساسا معركة الجماهير اللبنانية وحركتها الوطنية هي معركة تمس اهدافها ونتائجها مصالح الثورة ومستقبلها على الارض اللبنانية ٠

ان معركة تمثيل قيادة الحركة الوطنية كتعبير سياسي لحركة التحـــرر الوطنـــي الديمقرطي ، ترتبط بمعضلات اخرى لا تقل اهمية عنها ،وهي تحديدا ، مسألة الادارة المدنية ومستقبلها ٠ التي تنهض بواجب توفير المتطلبات الضرورية لحياة الجماهير اليومية وتنظيم صمودها ، وقيادة كفاحها السياسي ، استكمالا لقيادتها في المعارك ٠

وهذه المعضلة ترتبط ايضا بالمعركة مع القوى والعناصر التي تحاول اعادة تنظيم حياة الجماهير ، كما تحاول عرقلة النضال من اجل البرنامج السياسي الاصلاحي بهدف الابقاء على مرتكزات النظام الطائفية شبه الاقطاعية الرجعية ٠

واذا كان لكل من الثورة والحركة الوطنية سياسة متميزة تجاه هذه المعضلات ، تنبع من الطبيعة الخاصة لكل منهما ، وظروف نضالها ، فان التمايز يسير بشكل ثابت علـــى ارضية التحالف وضمن نطاقه ٠

وكما يكون التمايز تجاه المعضلات الداخلية ، كذلك هو في العلاقات العربية ، وتجاه التناقضات المختلفة بين الانظمة ، وكيفية توظيف السياسات المنبثقة عنها لصالح الثورة والحركة الوطنية اللبنانية وفقا لاشكال التحالفات والتعامل الذي تنتهجه كل منهما تجـــاه ومع كل نظام عربي وفقا لطبيعته وسياسته ومواقفه تجاه كل من الثورة والحركة الوطنيـة اللبنانية ٠

وكذلك ينسحب التمايز على قاعدة التحالف ، على علاقات الثورة والحركة الوطنية مع القوى التقدمية العالمية ٠ حيث يتم على قاعدة العلاقات المتمايزة بين كل منهما والقـــوى التقدمية العالمية ، توظيف الدعم والمساندة ، في خدمة وحدتهما النضالية وعلى ارضيتها المشتركة ٠

وكما اثبتت الوحدة الكفاحية في ميادين القتال انها اقوى من كل المؤامرات ومحاولات زعزعتها ، وخرجت اقوى واصلب عودا بعد كل مرحلة ، كذلك تخوض الكفاح السياسي الى جانب العمليات الحربية وبعدها ، ولان تخرج اكثر قوة وصلابة ، حتـى يمكن توفيـــر شروط تسوية ديمقراطية متوازنة للازمة ٠ وعندها تتمكن الثورة من مواصلة كفاحهـــا ضد اسرائيل في ظروف اكثر ملائمة ومؤاتاه ، كما تشدد الحركة الوطنية نضالها من اجل البرنامج الاصلاحي الديمقراطي الى جانب الكفاح الوطني ضد اسرائيل على قاعدة الكفاح المتمايز والمشترك مع الثورة من اجل مصالح الشعبين واهداف حركتي تحررهما الوطني الديمقراطي ٠

الحواشي

(١) مجزرة ارتكبتها قيادة الجيشـــ عندما اقتحمت المدينة ،واطلقت النار على المتظاهريـن ، سقط خلالهـــا عشرة من المدنيين اللبنانيين ٠

(٢) على امتداد الاعوام ٦٨ـ٧٣ كانت التحركات الجماهيرية ترتبـــط دائمـــا بشعارات تطالب الدولة بالقيام بدورهـــا في مواجهة الهجمات الاسرائيلية وانتهاج سياسة دفاعية ٠

(٣) لقد دخلت الجماهير اللبنانيـــة على الفور كطرف معني ورئيسي ومستهدف في الصراع ٠

(٤) منذ الاشهر الاولى التي اعقبت هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، بدأت الجماهير اللبنانية تحضر وتتحفز للقتال ضـــد الكيان الصهيوني ، لاستئناف تاريخهـــا المشرق في مواجهة العدو منذ بدايـــة الاستيطان على ارض فلسطين ٠

(٥) بعد ان وضع نفســـه خـــارج الصراع ، وابتعد عن الحروب العربيـة ـ الاسرائيلية ٠ خاصة حربي ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ ٠ تحت ستار اكذوبة كبيرة تقول « ان قوة لبنان تكمن في ضعفه » ٠

(٦) لقد انخرطت الشبيبة اللبنانية في

الجنوب في صفوف المنظمات للدفاع عن القرى الامامية · وفي السنوات الاخيرة انبثقت عمليات المقاومه اللبنانية المسلحة، وبرزت بشكل خاص في المساهمة البطولية المسلحة لاهالي كفرشوبا ضد العدوان الاسرائيلي · كما في تصدي اهالي الطيبة للغارة الاسرائيلية على قريتهم وفي معركة كفركلا تصدت مجموعة من اهالي البلدة لقيادة « الحرس الشيعي » والقوى الوطنية التقدمية الاخرى وكانت معركة مجيدة · حيث تكبدت فيها اسرائيل ما يزيد على ٣٠٠ جندي بين قتيل وجريح · (الوضع اللبناني الراهن · والمهام المرحلية للحركة الشعبية ـ منظمة العمل الشيوعي ص ٣٧ ـ ٤٥) ·

(٧) على امتداد الاعوام ٦٨ ـ ٧٣ كانت سياسة التواطؤ ، قد مكنت الاسرائيليين من مواصلة هجماتهم ضد المخيمات الفلسطينية في الجنوب وبيروت والشمال · وكذلك ضد القرى والجماهير اللبنانية في الجنوب · تلك السياسة التي مارستها اوساط معينة في الدولة وقيادة الجيش ·

(٨) بالاضافة الى الوجود العسكري والسياسي القوي في الاردن ، الذي شكل قاعدة عسكرية وسياسية اساسية للثورة ، كان تاثيرها قويا في جميع مناطق تواجد الثورة ·

(٩) وذلك بسبب ما كانت تعانيه تلك الانظمة من نتائج هزيمة حزيران١٩٦٧، بالاضافة الى السمة الوطنية المتقدمة للنظامين حينذاك ·

(١٠) لقد اشار بيار الجميل في صدد الدفاع عن توقيعه على الاتفاقية ، الى انهم ، اي زعماء القوى الانعزالية وبعض اركان النظام ، كانوا يواجهون شران شر قبول الاتفاق وشر الحرب الاهلية ، وبالطبع لم يكونوا مستعدين للاحتمال الثاني حينذاك · وهذا اعتراف صريح بلبنانية الصراع · والذي يعني ان الجماهير اللبنانية وحركتها الوطنية المتحالفة مع الثورة قد ساهمت بقوة في اجبار القوى الانعزالية على قبول الاتفاق· حتى ان الزعامات اللبنانية التقليدية ، اتخذت مضطرة مواقف واضحة الى جانب المطالب الشعبية الوطنية اللبنانية ·· والاقرار ببعض من حقوق المقاومة الفلسطينية في التعبئة والاعداد ·

(١١) تشكلت الوزارة حينذاك بموافقة الحركة الوطنية وباشتراكها فيها ، مراهنة منها على امكانية استخدام الوزارة كاحد منابر الصراع ولتحقيق بعض الانجازات التي في صالح المسالتين الوطنية والاجتماعية ·

(١٢) ان ما يؤكد حقيقة كون المشروع الكتائبي الانعزالي العسكري والسياسي استهدف الحركة الوطنية اصلا ، ومن ثم حليفتها التي ساعدت على ازدياد نفوذها، المقاومة ،هو ان المليشيا الكتائبية تشكلت مع بداية الاستقلال وظهرت بشكل واضح في احداث ١٩٥٨ · وحددت وظيفتها المحافظة على التوزيع الطائفي القائم وحماية مصالح الطوائف السائدة بشكل خاص ·

(١٣) في مباحثات ملكارت ، لم يحصل سوى اضافة ملحق يكرس الاتفاقية ويفسرها فحسب ·

(١٤) ان المضاعفات المترتبة على تصاعد المطالب الوطنية والاجتماعية كانت تصب بغزارة في بحر الثورة الفلسطينية ، وتوسع درعها الجماهيري اللبناني وتزيد من عوامل التلاحم بين الشعبين ·

(١٥) اي صراع لبناني ـ فلسطيني · ومسيحي ـ اسلامي ومن ثم طائفـــي شامل · وقد سلكت القيادات الانعزالية منهجا منظمـــا لتسعيـــر الصراعـــات الطائفية ، لكن القوى الاساسية والفاعلة في الثورة والحركة الوطنية كانت تناهض وتقاوم اي شطط وردود فعل طائفية فـي المعسكر التقدمي ، لكن هذا لم يتمكن من ان يحول دون حصول العديد من ردات الفعل الطائفية التي ارتكبتها عناصـــر غير مسؤولة او مشبوهة ·

(١٦) اي بعد وضع الثورة بين فكـــي كماشة الاداة العسكرية الكتائبية واركان النظام وقواته ، وقد كان على الاخير ان يقوم بدوره تحت شعار تطبيق الاتفاقات المعقودة مع الثورة ، تماما كما اريـــد لمعركة صيدا ان تكون نموذجا للتعامـــل مع الحركة الوطنية في كل مدينة ،ومصنع وقرية ، حيث كانت لغة التعامـــل مـــع الجماهير اللبنانية هي زخات الرصاص وحصد المتظاهرين ·

ـ اما التظاهرة الطائفية فقد كانـــت تأييدا لفعلة قيادة الجيش وحثها علـى الاستمرار في نهجها بالاضافة الى ابراز الوجه الطائفي الصارخ لتغطية الوجـــه الاجتماعي للصراع ·

(١٧) ـ ان العديد مـن الظواهـــر والوقائع ، كانت تؤكد تداخل المعـــارك الوطنية والاجتماعية اللبنانية ، ، مـــع المعارك التي تخوضها الثورة الفلسطينية في مواجهة اسرائيل ·

وبالمقابل تؤكد بان المشروع الكتائبـي هو مشروع مزدوج الاهداف · فهو ضـد الثورة والحركة الوطنية اللبنانية فـــي آن معا ·

(١٨) ـ الطريق عدد خاص عن الحرب اللبنانية صفحات ٣٢١ ـ ٣٥١

(١٩) وقبل ان تبدا هدنة الجولة الثالثة حتى تمكنت الحركة الوطنية والتقدميـــة من دفع الطابع اللبناني الوطني والاجتماعي الى المقدمة · وقـــد كانت التحركات الجماهيريـــة توضـــح معالـــم الصراع الجوهرية ·

ـ الاتحاد الوطني لنقابات العمـــال والمستخدمين يؤكد في بيان رسمي « ان الاقتتال الطائفي لمصلحة أعداء الطبقـة العاملة ومستثمريها ·

ـ بعد الازمة الوزارية ، واستقالـــة حكومة رشيد الصلح ، اقامت الحركـــة الوطنية مهرجانات شعبية تحـت شعارات وطنية منها « لا حكومة الا حكومة المطالب الوطنية » ·

(٢٠) في شهادة ادلى بها رئيس البعثة الطبية المصرية جاء بها « ان اعمـــال التعذيب اليمينية مدروسة ، وكانت تحضى بموافقة القيـادة الكتائبيـــة والقيادات الانعزالية الاخرى ·

(٢١) الطريق اللبنانية · العدد الخاص في الحرب الاهلية أعداد ١ ـ ٨ كانـون الثاني ـ اب ١٩٧٦ ·

(٢٢) المصدر السابق · ص ٣٢٨ ·

(٢٣) بعد تفكك اجهزة الدولة ، خاصة الجيش والدرك والادارة ، وانتصـــارات الحركة الوطنية الحاسمة في الجبل بدأت مسألة السلطة السياسية ومستقبل لبنـان تطرح نفسها بحدة ، وفي الوقت الذي كان فيه الخط السياسي للحركـــة الوطنيـة والتقدمية بشكل عام هو في أطار التحرر الوطني ووحدة لبنان ، كانـــت بعض

التصريحات تشير الى ابعد مـن ذلك ، الى لبنان الوطني الديمقراطي · الذي يتحقق بالوسائل الثورية ·

وبالطبع ليس مجال هـذه المقالـة مناقشة تلك الشعارات وخط اذار بشكل عام · الا ان ما يهمنا هنا هو : ان الواقع الجديد كان يشكل سببا اضافيا لارتعـاب القيادة السورية من قيام نظـام وطنـي ديمقراطي في لبنان · وهو ما صعـد بالنتيجة من موقفها العدائي ضد الحركة الوطنية والثـورة · ذلك لان النظـام الديمقراطي يشكل خطرا ماحقا على النظام السوري وانظمة عربية اخرى · لانـه يطرح من بين ما يطرحه :

١ ـ قضية الحريات الديمقراطية ·

٢ ـ تحويل لبنان الى قاعدة فعليـة في مواجهة اسرائيل وبوجود الجماهيـر المسلحة ·

٣ ـ مسالة الشعب المسلح ·

(٢٤) ان الشعارات التي سبقت الحصار ثم الحصار الواسع والاطباق المحكم على المخيم ، والهجمات الانهاكية المتواصلـة ، وما رافقها من ظواهر يربرية ، بالاضافة الى الحملة الاعلامية الهستيرية التـي اججت المسعار الشوفيني الـى اقصاه ، كل هذه الظواهر والممارسـات ، كـان لها هدفا سياسيا محددا وكبيرا هو :

ـ اجبار المخيم على الاستسلام رسميا والتفاوض مع قيادة الثورة على ترتيب الاستسلام والاقتلاع ·

هذا الهدف السياسي اريد له ان يكون « نموذجا » للتعامل الجديد مع الثـورة في ظل قوات الاحتلال ·

لقد اريد للاستسلام الطوعي الرسمي ان يكون « نموذجا » زاحفا يجري تطبيقه على كل المخيمات ، وجميع المواقع واحدا بعد الاخر ·

لكن الصمود والتصدي والاستبسـال للمقاتلين والجماهير ضغط النصر الانعزالي الى نصر عسكري محدود ، بينما اخفقت القيادة الانعزالية تمامـا في تحقيـق هدفها السياسي ·

وبالمقابل كان انتصارا سياسيا كبيرا وبالغ الاهمية ، لقد كان سقوطه منتصرا وكواكب الشهداء مهرا لاحباط مخططات « النموذج » ·

(٢٥) في المناورات العديدة التـي حاولتها القيادة السورية بدءا من اتفاق دمشق الاول مرورا باللجان الامنيـة والاقتراحات الاجرائية وحتى اتفاق دمشق الاخير ، كان الهدف ماثلا : مصير علاقة الثورة بالحركة الوطنية ·

ولقد كانت عروض «التسوية» والاتفاقات مصحوبة دائما بلغة التهديد والابتـزاز ووضع البدائل امام الثورة ·· للوصول الى استفراد الحركة الوطنية اولا ·

ولقد كانت عروض «التسوية» والاتفاقات تلجأ الى مناورات العروضـن وعقـد الاتفاقيات ، بهدف الحصول على تغطيـة لمواجهة الازمة الداخلية والضغوطـات العربية النسبية بسبب التناقضات (والتي تنصب اصلا على حجم التدخل واشكاله فحسب !) ولكنها ما ان تعقد الاتفاقيات، كاتفاق دمشق في ٢٩ تموز ١٩٧٦ ، حتى تبدأ العمل باعطاء بنودها ونصوصهـا تفسيرات خاصة بها تدور كلها حول مسالة ابعاد الثورة عن الحركة الوطنية وفرض الشروط الاستسلامية عليها · وحينمـا

تخفق المناورات امام موقف الثـــورة الحازم ، تعاود المغامـــرة العسكريـــة زحفها ٠

(٢٦) وذلك بسبـــب مـــن ان القوى الانعزالية المسلحة ولدت وتطورت بفعـل طبيعة النظام وتركيبه ٠ وبفعل عوامـــل خارجية اخرى منها التحالف والتنسيق مع اميركا واسرائيل ٠

(٢٧) هذه الدورة كانت سمة ملازمـة للسياسة الهاشمية تجاه الثورة بين ٦٨ و ٧١ تموز وبالاضافة الىذلكفان مضاعفات المغامرة العسكرية ، اللبنانية والعربيـة والدولية التي انصبت على ادانة العملية، يمكن للثورة والحركة الوطنية ان تحولها الى نصر سياسي لها وهزيمة سياسيـة ماحقة للنظام السوري ٠

وفي هذا المعنى ايضا كانت تصريحات كريم بقرادوني منسق العلاقات بينالكتائب وحكام دمشق بالغ الدلالة ٠ قال بقرادوني « ان ما يجب التنويه به ، هو ان مـــا حاول الرئيس سركيس التوصل اليـــه بالحوار (القيادة السورية اساســـا) وبموافقة جميع الاطراف (الانعزاليون طبعا) توصل اليه السوريون بالقوة ٠٠ وهذه امثولةيجب ان يتعلمهاالفلسطينيون للمستقبل ٠ اذ ما زال بامكانهم تعلـــم الامثولات ٠٠٠ » ٠ هكذا بالضبط يطرح بقرادوني على لسان القيادتين السورية والانعزالية ان « النموذج » لا زال صالحا لتحقيق الانسحابات وفرض شـــروط الاستسلام تحت الابتزاز والتهديدبالقوة، دونما الحاجة للقتالالذييهدد بمضاعفات غير معروفة النتائج ٠

(٢٨) ان اصرار القيادة السورية وقبلها الانعزالية على ان تسلم المقاومة الجبـل دون قتال وعلى اساس الشروط السورية كان يعني بالضبط تقديم « النموذج »الذي تريده القيادة السورية لمستقبل التعامـل بين الثورة والقيادة السوريـــة ٠ اي ان توافق الثورة على الانسحـــاب وتقـــدم « النموذج » الذي يراد له ان يزحف مـــن موقع الى آخر ومن منطقة الى ثانية تحت ضغط وابتزاز متزايدين في كل مـــرة ٠ بمعنى ان تفقد الثورة اهم اسلحتهـــا مضاء وهو سلاح الصمـــــود ورفـــض الاستسلام ٠

وهكذا كما اخفق الانعزاليـــون فـي مراهنتهم على « نموذج » تل الزعتر على اساس هزيمة سياسية ، اخفقت القيـادة السورية واحبط « النموذج » ٠ وتكرس النموذج الصحيح الوحيد والثوري وهو المواجهة والقتال ورفض شروط الاستسلام الكامل ٠

(٢٩) انظر : اريك دولو : « سوريا في المستنقع اللبناني » ٠ اللوموند ١ حزيران ١٩٧٦ ٠ والتي جاء فيها ان الرسالـــة التي نقلها السفير الاميركي الى الحكومة السورية في ١٦ تشرين الاول يبدو انهـــا منحتها اشارة الانطلاق لحـــل الازمـــة اللبنانية في الوقت الذي باتفيه استخدام القوة امرا لازما لنجاح الوساطة ٠

ـ كما ان كيسنجر اعلن مديحه للدور السوري البناء قبيل الاجتياح وبعده ،وان وضع له حدوداً غير واضحة ٠

(٣٠) تصريحات براون ٢٣ اب ١٩٧٦٠ نشرت في « الموندي مورنغ » والصحـف اللبنانية العربية ٠

(٣١) اريك دولو ٠ في اللومونـــد ٠ المصدر السابق ٠

(٣٢) الطريق عدد خاص عن الحرب

الاهليـــة ٠

(٣٣) والجهود الهاشمية لتشجيـــع سوريا على المغامرة العسكريـــة التـــي تتواصل ولم تنقطع لهادوافع واهداف عدة كما يعتقد الملك حسين ويعمل من اجله !

ـ ان اي اضعاف للثورة الفلسطينية بشكل خاص ، يشكل انتصارا لسياستـه ومشاريعه ضـــد الثـــورة والشعـــب الفلسطيني ٠

ـ ان خروج الثورة والحركة الوطنية منتصرتان ، يشكل خطرا داهما ليســـن بالنسبة لمشاريعه في الضفة الغربيـــة فحسب ، بل على نظامه فـــي الضفـــة الشرقية ذاتها ٠

وهذا يعني انه معني بالوضع في لبنان اكثر من اي نظام عربي على الاطلاق ٠

(٣٤) الحرية البيروتية ـ عدد ٧٨٢ ـ تاريخ ٢ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ ٠

الطائفية والطوائف في لبنان

البرت حوراني

هذه الدراسة هي فصل من كتاب البرت حوراني « الاقليات في العالم العربي » الذي انجز عام ١٩٤٥ ونشر عام ١٩٤٧ عن دار اكسفورد في انكلترا *

ان الدراسات التي تعالج مسالة اقليات وتركيبها الاقتصادي والديمغرافي قليلة جدا، لذلك يعتبر كتاب الاستاذ حوراني مرجعا اساسيا في عملية سد هذه الثغرة في الدراسات العربية المعاصرة ٠

وعلى الرغم من كون المعلومات التي يتضمنها هذا الفصل حول تكوين ومشاكل الاقليات الطائفية في لبنان قديمة ، الا انها تكشف عبر تحليل دقيق جزءا من تاريخ المسالة الطائفية في لبنان ٠ وتسمح بالتالي للدراسات الجديدة بالانطلاق من خلفية تاريخية ٠

ان التطور الكبير ، على المستويين الاقتصادي والديمغرافي الذي حصل على تركيب الطوائف في لبنان خلال ثلاثين سنة ، يغير كثيرا من الصورة التي يرسمها هذا الفصل ٠ غير انه يعطيها في الوقت نفسه قيمة خاصة باعتبارها وصفا تحليليا لمسالة اساسية في تركيب المشرق العربي ، تلعب دورا هاما في التطور السياسي في لبنان ٠

« شؤون فلسطينية »

توزع الاقليات

يبين الجدول التالي توزع سكان لبنان تبعا للطوائف الدينية والاقضية كما كان في الحادي والثلاثين من كانون الاول (ديسمبر) ، عام ١٩٤٤ :

---

* سوف يصدر هذا الكتاب قريبا بترجمة عربية لحمود حداد ٠

الجـــدول

الطائفـــة	محافظة بيروت	محافظـة جبل لبنان	محافظـة لبنان الشمالي	محافظة لبنان الجنوبي	محافظـة البقاع	المجمـوع
المسنـة	٥٩ر٥٩٣	٢٠ر٣٦٩	١٠٢ر٤٦٢	٢٣ر٤١٨	٢٩ر٧٥٣	٢٣٥ر٥٩٥
الشيعـــة	١٠ر٩٧٩	١٨ر٩٤٨	١ر٠١٧	١٢٦ر٧٠١	٥١ر٦٩٣	٢٠٩ر٣٣٨
الـدروز	١ر٩٢٦	٥٩ر٣٠٣	٣٤	٦ر١٦٧	٦ر٨٨١	٧٤ر٣١١
الموارنـة	١٥ر٤٠٤	١٧٦ر٢٤٨	٨٦ر٤٧٦	٢٧ر٩٩٢	٢١ر٧٢٦	٣٢٧ر٨٤٦
الروم الكاثوليك	٥ر٨٤٠	١٥ر٤٧٠	١ر٨٤١	١٧ر١١٨	٢٤ر٠١١	٦٤ر٢٨٠
الروم الارثوذكس	٢٠ر٠٧٥	٢٢ر٣٧٣	٤٧ر٥٢٢	٦ر٩١١	١٣ر٠٠٢	١٠٩ر٨٨٣
البروتستانت	٣ر٧٦٠	٣ر٠٢٥	٧٥٠	١ر٧٩٥	١ر١١٠	١٠ر٤٤٠
اللاتين	٢ر١٩١	٥٤٠	٦٣	١٧٩	١٤٤	٣ر١١٧
الارمن الارثوذكس	٣٦ر٢٦٤	١٥ر٣٧٩	١ر٠٢٥	١ر٦٩٥	٥ر٣٨٦	٥٩ر٧٤٩
الارمن الكاثوليك	٥ر٣٦٠	٣ر٠٩١	١٩٤	٢٧٣	١ر١٢٨	١٠ر٠٤٨
السريان الكاثوليك	٤ر٠٨٩	٢٧٥	١٦٩	٩	٤٤٢	٤ر٩٨٤
السريان الارثوذكس	٢ر٠٧٠	٢٠٩	١٠٠	٢٢	١ر٣٥٢	٣ر٧٥٣
اليهـــود	٥ر٠٢٢	٦٥	٣١	٥٠٦	٤٢	٥ر٦٦٦
الكلدان	٩٧٤	١٢٠	١	١٠	٢٢٥	١ر٣٣٠
طوائف مختلفة	٤٥٢	٣٥٩	٥ر٢٧٩	٥٢	١١٩	٦ر٢٦١
المجمـوع	١٧٤ر٠٠١	٣٣٥ر٧٧٤	٢٤٦ر٩٦٤	٢١٢ر٨٤٨	١٥٧ر٠١٤	١ر١٢٦ر٦٠١

من هنا فان ٥٣ بالمئة من سكان لبنان هم مسيحيون ، و ٤٦ بالمئة مسلمون · واكبر طائفة منفردة هي الطائفة المارونية التي تؤلف ٢٩ بالمئة من السكان ·

الضمانات المكتوبـــة :

يحتوي الدستور اللبناني ، المعلن عام ١٩٢٦ ، على ضمانات كاملة لحقوق الافراد والطوائف · فالمادة التاسعة تعلن :

« حرية الاعتقاد مطلقة ، والدولة ، بتاديتها فروض الاجلال لله تعالى ، تحترم جميع الاديان والمذاهب وتكفل حرية اقامة الشعائـــر الدينية تحت حمايتها ، على ان لا يكون في ذلك اخلال بالنظام العام · وهي تضمن ايضا للاهلين ، على اختلاف مللهم ، احترام الاحـــوال الشخصية والمصالح الدينية · »

كذلك ، نصت المادة العاشرة على ان التعليم حر ، شرط الا يتعارض مع النظـام أو الاخلاق العامة او يمس كرامة الطوائف الدينية · ولن يسمح بالمساس بحق الطوائف فـي ان تكون لها مدارسهـــــا ، في ظل الانظمة العامة الخاصة بالتعليـم العـــام التي تصدرهـــا الدولـــة ·

الاحوال الشخصية والتنظيم الطائفي :

قبل حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ كانت بعض شؤون الاحوال الشخصية تقع تحت السلطـة القضائية للمحاكم الدينية التابعة للملل المختلفة ، في حين أن جميع الشؤون الاخرى كانت ضمن اختصاص المحاكم الشرعية ، الاعلى مستوى من المحاكم الطائفية · وعام ١٩١٧، في ذروة الحرب ، حرم « قانون الاسرة العثماني » المحاكم المسيحية واليهودية من سلطاتهـــا القضائية ، التي منحت للمحاكم الشرعية · غير انه لم يعمل بهذا القانون ابدا والغي عام ١٩٢١ · وبعد ذلك بوقت قصير وضعت المحاكم الشرعية الاسلامية على مستوى واحد مع محاكم الطوائف الاخرى عن طريق نقل جميع شؤون الاحوال الشخصيـــة باستثناء الزواج والطلاق والانفصال والغاء الزواج ونفقة الزوجة المطلقة ، الى المحاكم المدنية · غير أن هذا الاجراء وجد معارضة من جميع الجهات ، وعلق المرسوم الذي يحتوي عليـه بانتظار القيام بدراسة أوسع لموضوع الاحوال الشخصية برمته ·

وبعد عدة محاولات فاشلة لاصلاح نظام السلطات القضائية باكمله ، اصدر المندوب السامي ، في نيسان (ابريل) عام ١٩٣٦ ، مرسوما شاملا يحدد وضع الطوائف الدينية · وقد منح هذا المرسوم اعترافا قانونيا واضحا بالطوائف التاريخية ، واعتبرت تشريعات هذه الطوائف نافذة المفعول ،ووضع تطبيقها تحت حماية القانون ومراقبة السلطات العامة· كما كانت ستتمتع بصفة مشتركة ، وتتمثل في علاقاتها مع السلطات العامة برؤسائهـــا الروحيين · وكان اعضاء الطوائف مجبرين على الامتثال لقوانينها في امور الاحـــوال الشخصية ، وللقانون المدني حيث لا يكون هناك نص في قوانين الطوائف · بيد انه كـــان لكـــل من يبلـــغ سن الرشد حرية التخلـــي عن طائفتـــه والانضمـام الـــى طائفة اخرى · ونص المرســـوم كذلـــك علـــى الاعتراف بالحـــق المشترك للطوائـف ،

اضافة الى امتلاكها للسلطة القضائية على الاحوال الشخصية · وكانت هذه الطوائف تتمتع بحقوق معينة ، كحق التملك ، الا ان افرادها كانوا يخضعون للقانون المدني في شؤون الاحوال الشخصية ، وكان هذا الامر الاخير سيطبق ايضا على الافراد الذين لا ينتمون الى اية طائفة دينية ·

وقد عارضت السلطات الدينية هذا المرسوم ايضاً · وفي كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٣٨ صدر مرسوم اخر ، يعدله في نقاط معينة ، مثال ذلك ان المرسوم الجديد اوضح ان على الاولاد القاصرين اتباع مذهب والدهم في حالات الطلاق ، حتى بعد موت الاب ، وحتى لو كانت الام وصية على الاولاد بعد الانفصال او الطلاق ·

وكما كان الامر بالنسبة لمرسوم عام ١٩٣٦ ، جوبه مرسوم عام ١٩٣٨ ،بمعارضة من جميع الجهات ، ولم ينفذ تنفيذا كاملا ، ولا يزال وضع المحاكم الدينية غير محدد وغير مرض حتى الان ·

البنية الاجتماعية للطوائف

ثمة فرق كبير بين البنى الاجتماعية للطوائف المختلفة · فالموارنة مجتمع زراعي بصورة رئيسية : لقد تجزأت الكثير من الملكيات الكبيرة خلال القرن التاسع عشر وانبثقت طبقة من الملاك الزراعيين · اما مستوى الحياة بينهم فهو ، بوجه الاجمال ، على منه بين معظم الطوائف الاخرى ، نظرا الى خصوبة اراضيهم والهجرة الى العالم الجديد · وبالاضافة الى المزارعين ، هناك بورجوازية كبيرة ومزدهرة في بيروت · الا ان القوة التي تبقي الطائفة متماسكة هي الكنيسة ، التي يلاحظ ان كهنتها ، ككهنة جميع الكنائس المعترفة بسلطات بابا روما ، هم اعلى ثقافة من كهنة الكنائس الشرقية المستقلة : للبطريرك سلطة اجتماعية هائلة الا انها تواجه معارضة من عائلات كبار ملاك الاراضي ذات التقاليد الاقطاعية ·

اما المسلمون السنة فيشكلون ، بصورة كاملة تقريبا ، مجتمعا مدنيا مركزا في طرابلس وبيروت وصيدا ، وهم يؤلفون جزءا كبيرا من بروليتاريا تلك المدن ، الا ان هناك ايضا بورجوازية تجارية ومهنية سنية وبعض العائلات المالكة لاراض كبيرة · ولا يتمتع السنة بأي نوع من التضامن الذي يمكن مقارنته بالتضامن الديني والزمني للموارنة · ربما لانه لم يكن لديهم تنظيم ملي في أيام العثمانيين ·

اما الشيعة فهم ، بصورة رئيسية ، فلاحون في الاقضية الجنوبية وفي البقاع ، علما بانهم يوجدون كذلك في صيدا وصور وفي الشرائح الدنيا من الطبقة العاملة في بيروت · وهم اكثر الطوائف تخلفا من الناحية الاقتصادية ، وفي الغالب عبيد ارض في ملكيات اسياد شبه اقطاعيين · ومعظم اسيادهم في البقاع سنيون ومسيحيون ، اما في الجنوب فمعظمهم من الشيعة الذين كانوا يتمتعون في الماضي باستقلال ذاتي عمليا · وهذا يعطي الطائفة درجة كبيرة من التماسك بنوع خاص ·

ويشكل الدروز ايضا مجتمعاً زراعيا بصورة رئيسية ، فهم مزارعون حذرون ، ومزدهرون نسبيا ، وامتن الطوائف الدينية تنظيما من الناحية الاجتماعية · فلديهـــم تنظيم مزدوج : التنظيم الديني بتسلسله الهرمي ، والتنظيم الاقطاعي بتسلسل مراتبـه · على ان النزاعات الفئوية اضعفت هذا التنظيم منذ عهد بعيد ، وما المنافسة السياسية بين عائلتي جنبلاط وارسلان الكبيرتين الا المرحلة الاخيرة من هذه النزاعات · ويتعرض نظـام الاراضي الذي يرتكز عليه هذا التنظيم للتفكك تدريجيا ·

اما طائفتا الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك فهما مجتمعان زراعيانجزئيا ، من حيث انهما تضمان نسبة كبيرة من صغار ملاك الاراضي ، ومن حيث انهما مزدهرتان عن طريق الهجرة ، كما انهما بوجه عام اقل من الطوائفالاخرى خضوعا لسيطرة كبار ملاك الاراضي· كما تؤلفان جزءا كبيرا من الطبقة التجارية في بيروت والمدن الاخرى ، وتضمان في الواقع بعض الاسر التجارية والمالكة للاراضي ·

الارمن ·

هنالك طائفة اخرى تختلف عن جميع الطوائف السالف ذكرها من حيث انها لا تنطق العربية لانها قدمت الى لبنان اخيرا : انها الطائفة الارمنية ·

هناك نحو ٧٠ الف ارمني في لبنان استقر معظمهم حديثا في البلاد · وقد استوطنت قلة منهم في بيروت قبل حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ، لكن معظمهم دخل لبنان في موجات متعاقبة خلال الحرب وبعدها ، هربا من الاضطهاد ، او من توقع الاضطهاد ، كما حصل عام ١٩٣٩ بعد استيلاء تركيا على الاسكندرون · وقد وصل معظمهم في حالة معدمة واستقروا فـــي اكواخ في ضواحي بيروت · الا انه طرأ تحسن كبير على وضعهم الاقتصادي والحياتـي في العقدين الماضيين بفضل جهودهم الخاصة وجهود « مكتب نانسن » · * وهم بصـــورة رئيسية حرفيون وتجار صغار وموظفون وجميعهم تقريبا يسكنون المدن ·

ومن الناحية الاجتماعية يبقى الارمن مجتمعا شبه منعزل يتجمع حول كنائسه · وهم يحافظون الى حد كبير على عاداتهم الاجتماعية الخاصة وعلى حسهم العائلي القـــوي وتضامنهم القومي · كما انهم يتمسكون بلغتهم ويديرون مدارسهم الخاصة بالاضافة الى منظماتهم الخيرية وصحفهم وحياتهم الثقافية الخاصة ·

ولم يكن لدى الارمن على الدوام علاقات حسنة مع العرب ،حتى مع العرب المسيحيين· ويتذمر القوميون العرب من ان وجود الارمن تسبب في مشكلة اقليات اضافية ، وهـــي مشكلة صعبة الحل بنوع خاص · وينظر المسلمون اللبنانيون اليهم على انهم احد عوامل السيطرة المسيحية ، فلولا هجرتهم الى لبنان لصار المسلمون اكثرية فيه · وهم مكروهون ايضا لكونهم دخلوا البلاد معدمين بينما هم الان في وضع مزدهر · كما انهم عرضـــة للانتقاد بنوع خاص لكونهم يتركزون فيعدد صغير نسبيا من المدن · لكن مستواهم الاخلاقي والثقافي العالي واجتهادهم ومثابرتهم تجعل منهم عنصرا خيرا في المجتمع ، الامر الذي

---

* مكتب انشىء لاغاثة الارمن في تلك الفترة ·

سيزيل التحيز الموجه ضدهم بمرور الوقت ٠

الفوارق التربوية

ثمة فوارق تربوية لا يستهان بها بين الطوائف ، وهي تنبع بوجه عام من كـــون التعليم ، بصورة رئيسية ، في ايدي المؤسسات الخاصة التابعة للطوائف في معظمها او التابعة للجمعيات التبشيرية الاجنبية ٠ وينطبق هذا الوضع بنوع خاص على التعليـــم الثانوي والعالي ٠ ولا توجد لدى الحكومة اية مؤسسات للتعليم العالي ، باستثناء دارين للمعلمين ومدرسة مهنية واحدة ٠ وعدا عن هذه المعاهد ، فان جميع المدارس الثانويـــة والجامعتين (الجامعة الاميركية وجامعة القديس يوسف اليسوعية) هي في ايدي هيئـات خاصة ، دينية بصورة غالبة ٠ ولم يكن هناك عام ١٩٣٨ غير ١٧٧ مدرسة حكومية مـــن اصل ١٨٦٧ مدرسة ابتدائية ، علما بان ١١٨٠ مدرسة منها كانت تقع تحت سيطرة هيئات محلية و ٥١٠ منها تحت سيطرة مؤسسات اجنبية ٠ كما كانت هنالك ٢ مدارس ثانويـــة حكومية فقط ، من اصل ١٢٢ مدرسة ، ٤٤ منها محلية و ٧٥ اجنبية ٠

ويسيطر الموارنة والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك على اكبر عدد من المدارس الخاصة المحلية ، فيحين ان الارساليات الكاثوليكية الفرنسية تملك اكثرية المدارســـ الاجنبية ٠ وهكذا فان التعليم اللبناني هو بصورة غالبة مسيحي واكليركي في روحه ومن حيث السيطرة ، وكاثوليكي بنوع اخص ٠

أما نسبة الاطفال المسيحيين الذين يدرسون في مدارس دينية مقابل اولئك الملتحقين بمدارس حكومية فهي اكبر بكثير من النسبة المقابلة لها بين المسلمين ٠ كما ان عـــدد الطلبة المسيحيين اكبر بكثير من مجموع عدد الطلبة المسلمين ٠ وبخاصة في التعليـــم الثانوي والعالي ٠

يمكن التوصل الى عدة استنتاجات من هذه الحقائق ، اولا ، ان التعليم لا يساهم ابدا في تخفيف الفوارق الطائفية بل على العكس من ذلك ، اذ انه يقع في الغالب تحت السيطرة الطائفية ٠ ثانيا ،ان الطوائف المسيحية هي بوجه عام اعلى ثقافة من الطوائف الاسلامية، الامر الذي يؤدي الى فوارق واضحة في البنى الاجتماعية والاقتصادية ٠ ثالثـــا ، ان المسيحيين بوجه عام يتلقون نوعا من التربية يختلف عن النوع الذي يتلقاه المسلمـــون : ينطبق هذا بنوع خاص على الموارنة وغيرهم من مسيحيي الطوائف الشرقية الخاضعـة لسلطة البابا الذين قطعوا شوطا بعيدا نحو تبني المدنية واللغة الفرنسية ٠

المسيحيون والمسلمون ٠

فيماعدا الفوارق بين الطوائف المختلفة ، هناك انقسام عام بين المسلمين والمسيحيين لا يشبه تماما الانقسام القائم في البلدان المجاورة ٠ فلبنان هو البلد الوحيد الناطق بالعربية الذي افلح المسيحيون فيه بالمحافظة على حياة مسيحية مستقلة ، فردية واجتماعيـــة ، وبمقاومة الاتجاه نحو الاندماج الاخلاقي والاجتماعي ٠ وينطبق هذا بنوع خاص علـــى الموارنة ، الذين حافظوا بلا انقطاع على ارتباط بالعالم المسيحي الغربي ، بفضل مركزهم

على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وصلتهم التقليدية بالحكومة الفرنسية ونشاط البعثات الكاثوليكية بينهم ٠

كذلك فان وضع المسلمين غير عادي ايضا ٠ فالدروز والشيعة معا يفوقون السنـــة عددا ، ولذا فان الاخيرين ابعد ما يكونون عن تأليف اكثرية او عن التمكن من بناء كتلة اسلامية متينة لكونهم مع هذا يحافظون ، بدرجة معينة ، على عقلية الطائفة الحاكمة ٠ وكما ذكرنا سالفا فان المدن الساحلية التي يقطنها معظم ابناء الطائفة السنية لم تكنتشكل جزءا من لبنان قبل الاحتلال الفرنسي ، بل كانت جزءا من ولاية بيروت العثمانية ٠ وبضمهم الى لبنان وجد ابناء هذه الطائفة انفسهم وقد تحولوا فجأة من جماعة حاكمة الى طائفة بين طوائف عديدة في دولة ذات مناخ مسيحي الى حد كبير ٠ وقد كـــان هذا تغييرا صعـب عليهم القبول بـه ٠

لبنان الكبير والصغير

ثمة فارق بارز اخر وهو بين سنجق لبنان القديم والاقضية التي كانت سابقا جزءا من ولايتي بيروت ودمشق والتي اضافها اليه الفرنسيون لتكوين الجمهورية اللبنانية ،فسكان السنجق القديم هم بصورة رئيسية موارنة ودروز وروم كاثوليك ، في حين يتألف سكان الاقضية من روم ارثوذكس وروم كاثوليك في جميع الاجزاء ، وارمن في بيروت وسنـــة في المدن الساحلية وشيعة في الجنوب والبقاع ٠ ولدى الاولين تقليد سياسي من الحكـــم الذاتي ، وتقليد اجتماعي من الاقطاعية وتقليد ديني من التسامح يربطهم معا، وقد كـان من القوة الى درجة كافية جعلت السنجق المتمتع بالحكم الذاتي يعمل بنجاح ٠ اما الاخيرون فلا يؤلفون جزءا من التقليد اللبناني ولا يملكون اي تقليد مشترك خاص بهم ٠ وبالاضافة الى ذلك فان طائفة واحدة على الاقل ، وهي الطائفة السنية ، وعناصر مهمة في معظـــم الطوائف الاخرى ، لم تكن ترغب بالانضمام الى لبنان الكبير قط ٠ ولا يزال التوتر مستمرا بين الطوائف التي تؤلف جزءا من لبنان الحقيقي والطوائف الاخرى ٠

السياسة الفرنسية

لا يمكن لدولة على مثل هذا الانقسام العميق في التركيب وفي الافكار ، كالجمهورية اللبنانية المفتقرة ايضا الى اية روح وطنية موحدة ، ان تستمر في الوجود ، في شكلهـا الراهن على الاقل ، الا اذا كانت هناك قوة خارجية ما تسيطر عليها سيطرة وثيقة وتتدخل باستمرار في شؤونها ٠ وقد كانت الدولة المنتدبةهي التي توفر هذه السيطرة الخارجيـة حتى عام ١٩٤٣ ٠ وكانت سياستها موجهة نحو جعل لبنان حصنـــا من حصـون النفـــوذ الفرنسي٠ وادى هذا الهدف الى خلق لبنان مستقل وتوسيع حدوده ٠ كما انه اوحى بمحاولات المحافظة على اكثرية مسيحية رغم توسيع الحدود والتزايد الاكثر سرعة بين السكان المسلمين: كان هذا احد اسباب توطين اللاجئين الارمن حول بيروت ٠ كما بذلت كل الجهود الممكنة لربط المسيحيين بفرنسا ربطا اوثق : عن طريق النشر السريع والمنظم للثقافة الفرنسية ، ومحاباة المسيحيين في الشؤون السياسية والادارية ، واثارة مخاوفهم من الاضطهاد الاسلامي ٠ وجرت محاولة مماثلة لاستمالة المسلمين من غير السنة ولكن الى حد اقل ، بل حتى جرت محاولة « لفرنسة » السنة بواسطة التعليم ٠

من بين المسيحيين ، جرى تفضيل المسيحيين الخاضعين لسلطة البابا ، وبنوع اخص الموارنة ، الذين اعتبروا انفسهم واعتبرهم الاخرون عامة العنصر المسيطر في حيـــاة الجمهورية · لكن جهودا اخرى بذلت ، في الوقت نفسه ، لابقاء الطوائف الاخرى مفعمـة بالامل وقانعة لمنعها من محاولة تفكيك الجمهورية · وقد تم تحقيق ذلك من خلال التوزيع الدقيق للمناصب الكبيرة والصغيرة بين اعضاء الطوائف المختلفة ، ومن خلال تشجيـــع الشعور اللبناني الذاتي ·

الطائفية في السياسة ·

لم يكن من الممكن خلق اي شعور حقيقي بالتضامن في بلد منقسم على ذاته انقساما جوهريا ومن وجوه كثيرة مختلفة كما هي الحال في لبنان · فمنذ ولادتها وحتى عام ١٩٤٣ على الاقل لم يكن هنالك ما يبقي على تماسك الجمهورية اللبنانية سوى سيطرة فرنســـا وتدخلها المتواصل · وضمن الاطار الذي وفرته تلك السيطرة ، حافظ الشعور الطائفـي على قوته بل وزادها ·

نص دستور الجمهورية اللبنانية ،المعلن عام ١٩٢٦ ، على تنظيم سياسي يجب ان يأخذ في الاعتبار الانقسامات الطائفية في البلاد وقام بوضع مبدأين أثنين · كان الاول ان جميع المواطنين اللبنانيين متساوون امام القانون ،ولهم نفس الحقوق والواجبات ، ويسمح لهم على السواء بتولي جميع المناصب العامة ، دون أي تمييز (المادتان ٧ و١٢) · وكان الثاني ان الطوائف يجب ان تمثل تمثيلا منصفا في المناصب العامة وفي الحكومة ،بصورة مؤقتة على الاقل ، وشرط الا يضر ذلك في مصلحة الدولة (المادة ٩٥) ·

وتبين جميع اجزاء التنظيم السياسي للدولة تاثير هذين المبدأين · وهكذا فقد كـان رئيس الجمهورية دائما مسيحيا · ولموارنة ذلك كان رئيس الوزراء عادة مسلما سنيا بينمـا كانت الوزارات الاخرى توزع بين الطوائف ·وكان مجلس النواب ، خلال الفترات التـي كان يقوم فيها بوظيفته ، يتالف بشكل يمثل الطوائف بما يتناسب مع القوة العددية لكل منها على وجه التقريب · وحيث ان النواب كانوا ينتخبون من قبل ابناء طوائفهم ، فقد كان يتم تنظيم هؤلاء على اساسطائفي وجغرافي ايضا ·

اما فيما يتعلق بمسالتي التعيينات والترقيات في الوظائف العامة ، فان التمثيـــل العادل للطوائف هو اعتبار اهم من الجدارة والكفاءة ، لا في اذهان الذيـــن يقومـــون بالتعيينات فحسب بل ايضا في اذهان الراي العام ، وبنوع اخص في اذهان زعمـــاء الطوائف المختلفة الذين يراقبون عن كثب للتثبت من عدم الاخلال بالتوازن ·

وتحاول الاحزاب السياسية في لبنان ، شانها شان مؤسساته السياسية الاخرى ، ان تكون غير طائفية ، شكليا على الاقل ، وهي تقوم عادة باختيار مسؤوليها ولجانها ومرشحيها الانتخابيين من بين عدد من الطوائف · وتحتوي برامجها عادة على اشارة معينة الـــى الحاجة الى مثال للوحدة الوطنية ليحل محل مشاعر الغيرة الطائفية القائمة · وتكـــون

هذه الاشارة صادقة احيانا بينما لا تكون كذلك في احيان اخرى · والحقيقة ان الاحزاب التي تؤكد على استقلال لبنان تكون في اغلب الاحيان مارونية الروح والعضوية ·
اما احزاب الوحدة العربية فهي بالطريقة ذاتها (ولكن الى حد اقل) مسلمة ·

المفاهيم السياسية

من المحتم ان تنشأ في مثل هذه الظروف مفاهيم مختلفة جدا لماهية لبنان ولما يجب ان يكون : الى درجة محدودة يتفق تباين الافكار مع تباين المذاهب الدينية · ومن الممكن على وجه التقريب التمييز بين خمس نظرات رئيسية الى لبنان :

(١) هناك بعض من ينظر الى لبنان كجزء لا يتجزأ من آسيا العربية ، لا يميزه أي اختلاف اجتماعي او سياسي جوهري عن الاجزاء الاخرى ، وليست له اية رسالة او غاية خاصة · وهؤلاء يريدون ان يندمج لبنان اندماجا كليا في دولة سورية او عربية ، دون ان يتمتع باستقلال ذاتي على ان يكون له ترتيبات خاصة فيما يتعلق بموضوعي الاحوال الشخصية والتعليم الديني للاقليات ، كتلك الموجودة في مناطق عربية اخرى ·

(٢) يعترف اخرون بان تاريخ لبنان الماضي منحه شخصية خاصة به وخلق فجوة بينه وبين المناطق العربية الاخرى · الا ان هؤلاء يفكرون ان تكون شخصية لبنان المميزة تفرض عليه واجبات او رسالة خاصة · وهم ينظرون الى صفاته الخاصة على انها ليست اكثر من عادات قديمة بالية ستختفي آجلا ام عاجلا · واصحاب هذه النظرة مستعدون للتسليم بدرجة معينة من الحكم الذاتي اللبناني او حتى بالاستقلال الكامل ، ولكن كتدبير مؤقت ليس الا بغية تبديد مخاوف الاقليات واقناعها تدريجيا بقبول الاتحاد الكامل مع دولة سورية او عربيـــة ·

(٣) تنظر فئة ثالثة الى لبنان بالدرجة الاولى كملاذ تستطيع فيه الاقليات المضطهدة العيش بسلام · ولذلك تريده ان يكون منفصلا انفصالا تاما عن منطقة الداخل العربي ،ولا يهمها شكل الحكم القائم طالما هو قوي بدرجة كافية للقيام بحمايتها ·

(٤) ثمة فكرة اخرى وهي ان لبنان بلد مسيحي متوسطي (نسبة الى البحر الابيض المتوسط):وليس الطرف الغربي للعالم الاسلامي العربي بل الطرف الشرقي للعالم المسيحي الغربي · فهو ليس جزءا من العالم العربي بأي معنى جوهري ، بل ان شعبه يؤلف امـــة مستقلة · ولذا يجب ان يكون لبنان دولة مستقلة تدير وجهها نحو اوروبا ·

(٥) هناك اخرون يحاولون ان يستخلصوا ويجمعوا عنصر الحقيقة في جميع هذه الاراء · فهم يعترفون بان لبنان بلد عربي الشخصية والمصير لكنهم يعتقدون ان تقاليده الخاصة تمنحه مصيرا خاصا في العالم العربي : كمركز للحياة المسيحية العربية وكبوابة للغرب ، وكمكان يستطيع اتباع الديانات المختلفة ان يجتمعوا فيه على قدم المساواة التامة ·

ويمكن القول بوجه عام وبتحفظات كثيرة ان الفكرة الاولى يتبناها بصورة رئيسية المسلمون السنة ، وان الفكرة الثانية يتبناها القوميون العرب المسلمون واولئك المسيحيون

الذين يؤمنون بان القومية العلمانية ممكنة ومرغوب بها ، ويتبنى الفكرة الثالثة اعضاء جميع الاقليات ، وخاصة الجيل الاكبر سنا ، ويتبنى الفكرة الرابعة بصورة رئيسية الموارنة وغيرهم من المسيحيين الخاضعين لسلطة البابا ، بينما يتبنى الفكرة الخامسة المسيحيون الذين يريدون ان يبقوا مسيحيين تماما مع كونهم قوميين عرب تماما كذلك ٠

هذه الاختلافات في المفاهيم تنطوي على وجهات نظر مختلفة حول قضايا مختلفة :

(١) مسالة حدود لبنان ٠ بوجه عام كان الذين ينظرون الى لبنان ككيان منفصل يرغبون في المحافظة على حدود عام ١٩٢٠ ،اذ بخلاف ذلك سيكون من الاصعب الدفاع عنه، كما سيكون اقل قدرة من الناحية الاقتصادية مما هو عليه فى الوقت الحاضر ٠ وعلى العكس من ذلك فان الذين يتبنون النظريتين الاولى والثانية كانوا يرغبون في العودة الى حدود السنجق القديم ، مع احتمال اضافة بيروت ٠

(٢) ان الكثيرين ممن ينظرون الى لبنان كبلد مستقل او كملاذ ، يرغبون في ان يكون تحت حماية دولة غربية تهتم به اكثر من مجرد اهتمام سياسي ٠ وفي تقدير معظم هؤلاء ان تلك الدولة الغربية يجب ان تكون فرنسا ، غير ان اخرين يفضلون بريطانيا العظمى او الولايات المتحدة ، الا ان الذين ينظرون الى لبنان كجزء من العالم العربي ، باي معنى من المعاني ، يعتبرون مثل هذه الحماية بالغة الخطر بالنسبة الى كل من لبنان والعالم العربي بحيث يجب عدم السماح بها ٠

(٣) ان الكثيرين جدا ممن يعتبرون لبنان بلدا منفصلا يعترفون مع ذلك بانه لا بد له من ان يكون على ارتباط وثيق مع سوريا وغيرها من البلدان الناطقة بالعربية ٠ بيد انهم يؤكدون على ان هذا الارتباط يجب ان يكون قائما على المساواة الرسمية ٠ وعلى البلدان الاخرى ان تعترف بالوجود المستقل للبنان ، ومن ثم سيكون المجال مفتوحا لعلاقات اوثق، خصوصا في الحقل الاقتصادي ٠ ومقابل ذلك فان اولئك الذين يتبنون ايا من النظرة الاولى او الثانية يتطلعون الى وقت يصبح فيه لبنان اقليما ، او اقليما متمتعا بالحكم الذاتي على الاكثر ، في دولة سورية او عربية ٠ الا ان اتباع النظرة الخامسة يأملون في ان يروا لبنان دولة ، عضوا في اتحاد فيدرالي سوري او عربي ، يتمتع بنفس المنزلة وحرية التصرف التي تتمتع بها الدول الاخرى الاعضاء ٠

التطورات منذ ١٩٤١

منذعام ١٩٢٦ عندما تأسست الجمهورية اللبنانية وبدأ جهازها السياسي بالعمل وحتى عام ١٩٤١ ، لم يطرأ اي تغير جوهري في بنية لبنان٠ صحيح انه جرى التفاوض عام١٩٣٦ على عقد معاهدة فرنسية ـ لبنانية تنص على استقلال لبنان التام بعد عدد من السنين ، الا ان هذه المعاهدة لم تبرم ٠

وفي عام ١٩٤١ ، بعد احتلال قوات الحلفاء لدول المشرق بوقت قصير اعلن الجنرال كاترو استقلال لبنان في وثيقة اعلنت ، ان حكومة لبنان ستضمن المساواة في الحقوق المدنية والدينية والسياسية بين جميع مواطنيها دون اي تمييز ٠

وفي عام ١٩٤٣اتخذت الخطوات الاولى لتنفيذ سياسة الاستقلال منخلال اجراءانتخابات لمجلس النواب ٠

واظهر تكوين مجلس النواب والوزارة التي انبثقت عنه ان تغييرا كبيرا قد طرأ على افكار ومواقف الطوائف المختلفة خلال الاعوام القليلة السابقة ٠

(١) ان القسم الاعظم من اللبنانيين الذين يملكون وعيا سياسيا يرغبون في استمرار الاستقلال الذاتي ولم يعودوا مستعدين للسماح بنفس الدرجة الكبيرة من التدخل الاجنبي في شؤونهم الداخلية كما كان يجري في ظل الانتداب الفرنسي ٠

(٢) ثمة عدد متزايد ممن يرغبون في انهاء الارتباط مع فرنسا كليا ٠ وتتالف هـذه الجماعة من قسمين : اولا ، اولئك الذين ما زالوا يرغبون بوجود حماية اجنبية ولكنهـم يعتقدون ان فرنسا لم تعدقادرة على توفيرها ولذلك يتطلعون الىبريطانيا العظمى للحلول مكانها ٠ ثانيا ، اولئك الذين يرفضون فكرة الحماية باكملها ويعتقدون ان الضمانـــة الوحيدة للمركز الخاص الذي يتمتع به لبنان تكمن في ارتياح البلدان المجاورة اليه ٠

(٣) ان الكثيرين من القوميين العرب الذين كانوا سابقا يرغبون في تصغير لبنان الى حدوده القديمة او حتى الغاء استقلاله الذاتي الغاء تاما تقريبا ، باتوا يرغبون الانفي المحافظة على لبنان الكبير كتدبير ملائم مؤقت على الاقل : فلبنان الكبير بعدد سكانه الكبير والمتزايد من المسلمين هو اقل حماسا للانفصال مما كان سيكون عليه لبنـــان الصغيـــر باكثريته المارونية ، هو بالاضافة الى ذلك يوفر احتمال تطور قومية عربية غير طائفية ٠ وللاسباب نفسها يرغب الكثيرون من القوميين اللبنانيين الان في العودة الى لبنان الصغير ذي الاكثرية المسيحية الكبيرة ٠

لقد كانت الازمة الفرنسية ـاللبنانية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣تشملجميعهذه المشكلات ٠ ونتيجة لتلك الازمة حقق لبنان درجة اكبر من الحكم الذاتي ٠ واتخذت خطوة اخرى عام ١٩٤٤ عندما شارك ممثلون عن الحكومة اللبنانية في مؤتمر الاسكندرية الذي وضع اسس جامعة الدول العربية ٠ وقد احتوى البروتوكول الذي صدر في نهاية المؤتمر في تشرين الاول (اكتوبر) على ملحق خاص يضمن استقلال لبنان ضمن حدوده الحاضرة شرط ان تستمر الحكومة اللبنانية في انتهاج سياسة الاستقلال التي تبنتها عام ١٩٤٣ ٠ وفي عام ١٩٤٥ـ١٩٤٦ تم التوصل نهائيا الى اتفاق حول انسحاب القوات الفرنسية والبريطانية من لبنان الذى اصبح استقلاله بذلك ناجزا ٠ ولكن تبقى مع ذلك المشكلات الاعمق المتعلقة ببنية لبنان وعلاقته بالعالم الخارجي ٠

الثقافة والبوليس

الياس خوري

١ ـ

الحرب الاهلية الوطنية التي اشعلت لبنان وحولته الى بركان العرب الذي ينذر بالولادات ، كانت اعصارا كشف الجوهري وترك الاقنعة مرمية على مفترق المتوسط ٠

الحرب الاهلية تختصر الزمن في قدرتها على الكثافة الفعلية ٠ فالزمن القديم يتحول الى زمن التغيير ، أي ان التاريخ يسرع دورته ويكشف اطراف لعبته على ايقاع التحولات العنيفة التي حولت الحجارة الى متاريس والمدن الى غابات ٠ رفعت الحرب القناع عن الذين كانت اقنعتهم مطوية بعناية الى درجة الرهان على عدم كشف الوجوه ٠ دمرت عروس المتوسط وفتحت الزمن العربي على الاحتمالات ٠ زمن الحرب يتسع من رقعة صغيرة في ضاحية بيروت الجنوبية اسمها الشياح ـ عين الرمانة ليصل الى دمشق مع دبابات الاجتياح العسكري ، الى الكويت حيث يرتجفون رعبا امام احتمالات اليد الجماهيرية ، الى القارة العربية بأسرها حيث اختلطت الاوراق « ولدت تحالفات وانهارت تحالفات والفوضى تزدحم امام العواصم » ٠

نقف في بيروت التي نعرفها ، ونرى فندق المتوسط يتحول الى «غابة اسمنت مسلح » ، غابة تكتظ بالرجـــال والبنادق ، ترتفع فوق القصف ، تنتقم مـــن نفسها الى درجة العري ، تتوجع • بيروت الفندق ، الشوارع ، المطاعـم ، المعارض ، المجلات ، دور النشر ، تنهار وتولد غابة الاسمنت التي تقاتل كمـا لميقاتل احـد ، تنتصر كما لم ينتصر احد ، وتموت كما لم يمت احد• الحرب الاهلية هي مبدئيا بداية ، وحتى تكون بداية يجب ان تكون نهاية • انها نهاية عـلى كل حـال ، نهاية : لانهـا حتى لو اكتفت بالوصول الى ابواب السمـاء دون كسرها ، لن تسمح للماضي بالعـودة الا بوصفه الماضي ، أي بوصفـــه تكرارا مبتذلا لما كان ولمـا لن يكون كما كان•

٢ ـ

كانت اشكالية انهيار الكيان اللبناني اشكالية خاصة ببنيتـــه • انـــهار في حرب اهلية •كل حـرب اهلية في التاريخ هي عـلى المستوى العـملي انقسام في السكان وقتال شامـل عـلى السلطة او عـلى ادارة الحرب الوطنية • وهذا ما حصل في لبنان • انقسام السكان الى فئات تتقاتل • غير ان اشكاليـــة الانقسام اخـذت في لبنان طابعـا خاصا : الطائفية • انقسام السكان الـــى طوائف متقاتلة • أي ان الانتماء الطائفي هو الـــذي حـــدد عـند اندلاع شرارة الحرب الشكل العام للانتمـــاء • و « الاقتتـــال الطائفي » هو شيء متوحش ، همجي ، غير عادل ، نستطيع ان نعود الى جميع التعابير الاخلاقيـــة التي في القاموس ونكتبها وتكون صحيحة • غير ان هـذا الاقتتال الطائفـي لم يكن لان اللبنانيين ما زالوا قبائـل تعيش خارج دائرة الرأسمالية •الانقسام الطائفي يترنح ، لقد استنفد تماما مثل سلطة الرأسمالية الوسيطة التياستنفدت• سلطة دولة مفبركة لا اساس لها سوى ارادة المستعمر ورضوخ الطرف الاخـر لهـذه الارادة عـندمـا لم يكن يملك المقومـات او القوى الحقيقية التي تستطيع رفضها • الرسمالية اللبنانية هي رأسمالية متوحشة تقوم على الوساطـــة والكومسيون والسمسرة والشعوذة والنصب والاحتيال والسرقة • رأسمالية تراكم تجاري هو وليد الشطارة الغبية القائمة على قهر العـرب واذلالهـــم وسرقتهم • انتفخت هذه الرأسمالية كالجثة ، لذلك عـندما وجدت انهـــــا مهددة مثلت بالجثث ، قتلت بوحشية نادرة ، سحقت، كانت في مأزقهـــــا التاريخي لا تجد المخرج ولا الخـــلاص من نهاية محتومة ، فاقتربـت مـــن الانتحار • الرأسمالية الوسيطة تخلع قفازها الناعم وتظهر على حقيقتها بوصفها رأسمالية همجية • الشكل الطائفي يدمـر نفسه في الصراع فيما تدمـــــر الرأسمالية الوسيطة سلطتها التي تتساقط بحثا عـن اعـادة تركيبهـا • ومـع

تحول الحرب الاهلية من حـرب مواقـع وخطف الى حـرب حقيقية بدا الشكل الطائفي يترنح ، لقد استنفد تماما مثـل سلطة الرأسمالية الوسيطة التياستنفدت وجاءت الدبابات كي تعيد تركيبه حاملـــة معها مؤشرا لبحر الدم وأفـــق المشانق الذي تبشرنا بـه البرجوازية المساومة وهي تبحث عـن الخلاص مـــن مأزقها بالاندفاع الى منع التغيير وسحق شعلة الحرب الوطنية التي يرفعهـــا الشعـب ٠

يقولون : هـذه ليست حربا أهلية ٠ هذا اقتتال طائفي٠والطائفية شيء يمجه العقل والمنطق الحديث ، يغسلون ايديهـم بالمياه المعـدنية ويدعـون الـــى ايقاف الاقتتال الطائفي عبر اعـادة تركيب المائـدة الطائفية القديمة مع بعـض التعديلات ، يعـللون ذلك بالقيـم والاخـلاق والشرف ٠ وهم لا يخـافون عـلى القيم بل على فتات المائدة ٠ فبعد انهيار المائـــدة لن يبقى مكان لفتات ٠

يقولون : هـذه ليست حربا أهلية ٠ فالحـرب الاهلية يجب ان تقوم بيـــن اللبنانيين وحدهم ٠ اما هنا فهـي بين اللبنانيين كما انهـا حرب بين اللبنانيين والفلسطينيين ٠والنيوم اصبحت حربا لبنانية ـ فلسطينية ـ سورية ٠ من قال أن الحرب يجب ان تفصل عـلى اساس نموذج ما ٠ ومتى كانت الحـــروب في هذه القارة العربية المزقة مجرد حروب داخليـــة ؟ ثورات العشرينـــات كانت تمتد من جبـل العـرب الى راشيا ٠ ثورة الثلاثينات الفلسطينية كانت تمتد من فلسطين الى دمشق ٠ حرب ١٩٤٨ كانت حرب مصر كما كانـــت حرب عشرات المتطوعين الذين ركبوا البحر من بيروت الى حيفـا ٠ حـــرب ١٩٥٨ الاهلية كانت حـرب عبدالناصر كما كانت حرب اللبنانيين ٠ كل ما هنالك انه عام ١٩٧٥ قرر الطرفان اللذان يتشكل الكيان اللبناني كصيغـــة توازن بينهمـا رفض الصيغـة القديمة ٠ والجديد انه فـي احشاء الطـــرف العربي تولد فلسطين والتغيير الذي لم يعد يتسع له هذا الزمـــن ، فقرر ان يراهن على زمنه الجديد ٠

ـ ٣

مع تصاعـد الحرب انهارت دولة الكيان وانهار كل شيء ٠ الجيش ينقسم كبار التجار يديرون اعـمالهم بين المرافيء ، صغار التجار يفلسون أو يعودون الى تجارة الكشة ، وصحافة بيروت تتحجم الى اقصى الحدود ٠ والتجـــار الذين جاءوا الى بيروت المتحضرة يغـادرون الى اماكن اخرى ٠ الوجه الغالب الذي يبقى هو السلاح المرفوع في وجـــه الاعـــداء ، وارادة رغـم النكسات تقاتـــل ٠

انهيار السلطة كان مذهلا · أذهل جميع الناس ما عدا اللبنانيين الذيـــن كانوا يعرفون دولتهم جيدا · فكما كان لبنان فضيحة التجـارة الدوليـــــة ، لانه بقدر ما تخطى اصولها البرجوازية الحقيقية وكشفها بوصفهـــا شعوذة وصفقات ، أي سرقة عرق المنتجين الحقيقيين ، كشف لبنان حقيقة « الدولـة » بوصفها جهازا لا يكون الا لتغطية السلطة الحقيقية بقالب قانوني · فسلطـــة التوازن الدقيق اللبنانية التي يسمونها « التجربة الحضارية » انكشفت وكشفت حقيقة كل السلطات بوصفها جهاز قمع طبقي · واذا كانت الطبقة السائـدة تتخلى عن جهازها « الدولة » في لبنان بهذه السرعة فهذا يعود الى كون هذا الجهاز ليس سوى جهاز توازن وخلفه تقع اجهزة السلطة الفعلية · لقـد فضح انهيار الدولة الدول · وخلال مسار الحرب الاهلية فضحت الكثير من الامور · فضح عزيز الاحدب الانقلابات وكشف معناها الفعلي · فالواقع ، انه هكـــذا في الدول التابعة تحصل الانقلابات كي تنقذ جهاز الدولـــــة من الانهيـــار وتنتصر · اما هنا ، فكان الانقلاب مسرحية مضحكة تكشف « المغامريـــن » الانقلابيين وتكشف ذكاءهم الابله · كما فضحت الفاشية الصغـيرة الانعـزالية جميع الفاشيات · فعوض استعمال الاقبية السرية للقتل والتعذيب ، حولـت الفاشية الصغيرة الشوارع الى أقبية والساحات الى سراديب · لقد فضحت التركيبة اللبنانية بانهيارها السلطة ، واجهزتها ، وقدمت خـلال سنة ونصـف من القتال ، نمزجة جديدة لفهم كيف تتحـرك الامور وتتغيـر المقاييس ،وكيف تستطيع الجماهير متى دخـلت المعـادلة قلب المعـادلة رأسا عـلى عـقب ·

مع الانهيارات تساقط « القمع اللبناني » ، قمع السلطة · تحولت الفنادق الى متاريس والاسواق الى جبهات والثقافة الى اشبه ما يكون بلا شيء · بيروت مدينة الصحافة والمعارض والفكر والفن والمطاعـم الراقية تختفي مـع اختفاء السلطة القديمة · كل شيء يتوقف ما عدا بضعة كلمات يكتبها رجـال راهنوا عـلى موتهـم وسط شلالات الموت الجميل ، وبقوا ليكتبوا ليس اجمـل الاشياء ، بل ربمـا ، اكثر الاشياء قدرة عـلى الشهـادة · لماذا هـــــذه الانهيارات ؟ في بيروت القديمة لم تكن هناك سلطة · كانت الحرية مطلقـــة الى اقصى الحدود · حرية التجارة وحرية الكتابة · لذلك تحولت بيروت الـى ملتقى التجار ووكلاء الشركات وملتقى المثقفين · ملتقى الباحثين عن الربـــح السريع وملتقى الباحثين عن المجد السريع ·

لكن الحرية لم تكن حرية ،كانت حرية التجار ! ماذا تعـني حرية التجار؟ التاجر لا يهتم بالمقدمات ، يبحث عن النتائج · أي ان التجـارة لا علاقـــة لـها بالانتـــاج ، بمعناه الحقيقي بوصفه تراكما للعرق وتراكما للمعرفـــة

وتراكما لراس المال · تراكم العرق والمعرفـــة وراس المال يقدم هيكليـــة اجتماعية حقيقية ، أما تراكم الغباء والشطارة فلا يقدم سوى نتيجة واحـدة هي ازدياد الثروة او ازدياد التبذير · حريـــة التجارة تبحث عن النتائـج ، والفكر والثقافة الذي ينمو وسطها هو فكر وثقافـــة النتائج · في جو هـذه الحرية اختلطت المقاييس الى حـد الجنون · وتحولت الكتابة الى انفصـــام للشخصية · نمو الصحافة المذهل ونمو النشر ايضـــا بالشكل العشوائـــي هو امتـداد لتورم التجارة · ان طغـيان المظاهر « المتحضرة » لا يلغـــي جوهر الواقع الذي هو في صراع من اجـل الولادة · الكتابة والثقافـــة التي لا يهمها سوى النتائج تنكشف عندما تطلب المقدمات في لحظة الانفجـــار حسابها ، لان الكتابة في الجوهر هي ممارسة اجتماعية من طبيعة خاصـــة ولا تستطيـع التحرر من طبيعتهـا الا بشكل خـادع ومؤقت حين تعـلو اصوات التجار واصوات حريتهم عـلى اصوات المنتجين الحقيقيين · تصل الحريـــة المخادعـة الى نهايتها : حرية التجار تلغـي الحرية وتحولها الى احتكـــار فاشي للحرية ، وحرية الرأي تلغي الرأي وتحوله الى لغـــة بلا دلالات او الى معلومات صغيرة وتافهة · لهـذا تتنافس الانظمة القمعية على رشوة الصحافة اللبنانية وتتنافس عـلى طلب الغـائهـا · تنمـو وسط الغـاء الرأي وتنتهـــي في نفس الدائرة ·

٤ ــ

الحرية هي وجه اخر للقمع · حرية التجارة ودولة التوازن تحمل اواليـــة قمع خاصة · فالدولة هي بالدرجـة الاولى جهاز قمع · دولة الاحتكار وتنظيم الاحتكار تقوم هي الاخـرى بتنظيم القمـع عبر اربع اشكاليات متناسقة ·

النموذج وحجب النموذج :

النموذج في الحالة اللبنانية هـو المثال الذي تقدمه التجـــارة الحـرة · الاقتصاد الحر ينتج نموذجا حـرا · التاجر الذيفعـل كل شيء ببراعـــة يربح كل شيء ولا يخسر شيئا · ماذا يخسر ؟ مجموعـة من قيم الشهامـــة العربية الباقية داخـل اشكالية نمـو تحافظ عـلى العائلة كوحدة اجتماعيـة ! فيقوم بحجب هذه الخسارة عبر تقديم نموذج اضافي : الحضارة الغربية · فتجري اعـادة انتاج القيم الحديثة وضرورة رفض القيم البالية وضـــرورة تمثل الحضارة الحديثة وقيم الحرية الفردية الجديدة · هكذا يحجب النموذج نفسه · التاجـر يتحول الى رجل متحصر والمشعوذ الى فيلسوف والقاتـل الى قاض · هذه الاشكالية بالغـة الطرافة ، فهي التي تتحكم فـــي الوسط

« بيروت » وتمتد تدريجيـــا الـــى الاطراف · هكـــذا تتحـول الشعـــوذة الى سياسة والعلاقات المتوحشة الى حضارة · النموذج هو السلطة التي تمسك بلعبة التجارة بوصف السياسة تجارة ، وحجب النموذج هو مجموعة المباخر الايديولوجية التي تمتد من ميشال شيحا الى توما الاكويني مجسدا في شارل مالك الى الفولكلور البليد · أو المؤسسات ذات الاخراج المتحضر ـ ميـــــاه معدنية ـ وخلفها تختفي الخوات والقبضنات واللغة الفرنسية !

التهميش

داخـــل بنية السلطة ، هناك هامش واسع يجري الدفع باتجاهه · ففـــــي هيكلية السلطة هناك اساسية وطوائف هامشية · وداخل دورة الرأسمـــال التجاري هناك فئات اساسية وفئات هامشية · الهامش هو الانتاج او ما تبقى منه والذي يندرج داخـــل الرأسمال التجاري ويعـــطيه قدرة عـــلى الحركة ·هكذا تهمش مناطق الانتاج الزراعـــي ويجري ادخالها تدريجيا في دورة الـــــرواج، وتهمش فئات اجتماعية كاملة كي تشكل اليد العاملة الرخيصة ، وتهمش قطاعات واسعـــة من السكان عـــلى المستوى الثقافي كي تتحـــول الى معلمين صغـــــار ومستهلكين صغـــار للثقافة السائدة · وحين يحاول الهامش اختراق المركز فانه يضرب بقسوة ·

التصفية

ادوات القمع اللبنانية هي ادوات شكلية : الجيش ، الدرك ، المكتب الثاني، هي اشكال استقطاب لمجموعة من الهامشيين في سبيل اسكاتهم · كل القمـــع في لبنان هـــو قمع شكلي ، جميع اجهزة المراقبة ترتشي، جميع ادوات المحافظة على المجتمع تشارك في اعمال غيـــــر قانونية · وحـــــده بوليس السير يقف وسط الشارع يسجل محاضر الضبط بالسائقين دلالة على وجـــود السلطـــــة · حتى محاضر الضبط لا يعاملها الناس بوصفها سلطة تريد فرض القانون بـــــل بوصفها سرقة · هذا النموذج البائس للقمع ليس قمعا · لكن اجهزة القمـــــع تتحـــول من شركات مساهمة الى اجهزة قمع فعلية في حالة واحدة : عـــندمـــا يحاول الهامشي كسر هامشيته والوصول الى الاساسي · عندها تتحـــرك الة التوازن اللبنانية بأسرها ، ويصبح الجيش جيشا · يتحـــول التجار الـــــى قتلة واللصوص الى قضاة متحضرين · « من اطلق النار ؟» في مذبحة عمـــال غندور · الفقراء او البوليس ؟ والدليل على ان العمال هم الذيـــن اطلقـــوا النار هو موت عاملين ! لقد قتل العمـــال بعضهم لان المخربين اندسوا فـــــي صفوفهم ! او نطرد جميع المعلمين الابتدائيين خلال اضرابهم الشهيـــر · القمع

يتحول الى قمع فعـلي عـندما يهـدد الهامشي التوازن · هذا هو تاريـــخ عـلاقة السلطة بالشعـب الفلسطيني منذ عـام ١٩٤٨ وحتى ولادة المقاومة ·

التوازنات التقليدية

هي ضابط المجتمع وضابط السياسة · هي القمع الفعـلي الذي يختفي خلف كل اشكال الحرية · فالتوازن اللبناني يقوم على قواعد ثابتة ، ولا يمكـــن احـداث خلل فيه الا عبر خلخلة قواعـده · والخلخلة تحصل في لحظة انهيار التوازنات العـامة التيتحكم المشرق العربي · في هذه اللحظة يحاول الهامشي عبر التحالف مع احـد الاطراف الاساسية اختراق التوازن وتغيير معـادلاتـه او تدميره · التوازن اللبناني هو القمع ، هو الذي يغطي اشرس انواع القمـع الذي مورس عـمليا بغـطاء ليبرالي مبتذل ·

ـ ٥ ـ

عند اندلاع الحرب الاهلية الوطنية ، كان واضحـا أن التوازن بدأ ينهار، وأن اطرافه تريد ضربه من اجـل ان تقيمه من جديد عـلى اسس ملائمـــة · انهارت المؤسسات ودخـلنا احـدى اشرس الحـروب في التاريخ ، انهـــارت سلطة التوازن بالغلبة وجميع اجهزتها لتقوم سلطات اخرى تتصارع · ولم يعد لبوليس السير البائس من دور يقوم به فذهب الى البيت · في ذروة هـــذا الانهيار ، انهارت جميع القشور · وبقي الواقع الفعـلي الذي يحاول النموذج طمسه · في هذا الوقت تحولت بيروت من مدينة الثقافة العربية حيث يتجمـــع المثقفون العرب ويكتبون الى مدينة خالية الا من بعض الذين راهنوا علـــى البدايه الحقيقية · ما هي عـلاقة الثقافة التي انهارت ببوليس السير البـــائس الذي ذهب الى منزله ؟ لماذا تحـولت بيروت من مدينة الثقافة العربية الـــى مدينة تقاتل بعـد ان انهـارت « ثقافتها » أو اختفت ؟

يمكننا أن نقدم مجموعـة تفسيرات لهـذا الواقع الجديد :

التفسير الاول ، هو ان الثقافة العربية هي ثقافة مازوكية · فعـندما انهار البوليس في لبنان وسقط القمع ذهبت الثقافة الى حيث البوليس والقمع · فهي ثقافة لا تستطيع أن تعيش الا في ظل القمع والاضطهاد ، وتمارس تعذيـــب النفس بامتياز · الواقع ، ان هذا التفسير لا يقنع احدا · فالحرية اللبنانيـة وخاصة حرية الكتابة والصحافة (بوصفها مصدرا لجلب رؤوس الامـــوال العربية التي تساهم في الازدهار) كانت بلا رقابة تقريبا · فانهيـار السلطـــة

لا يغير كثيرا · فلم يكن هناك قمـع لحرية الرأي حتى تتعـوده الثقافة وتذهب الى حيث القمع ·

التفسير الثاني ، هو أن لا مكان للكلمة وسط دوي المدافع واطـلاق الرصاص· الكلمة تخاطب العـقل والعواطف النبيلة والرصاصة تخاطب نزعات القتـل · الكلمة بناء والمدفع هدم · من قال ان الكلمة بناء ، الكلمة هدم ايضا والمدفـع بناء هو الاخـر · وتعطينا الثورات والانتفاضات امثلة بالغـة الدلالة علـى دور الكملة والملصق والاغنية والقصيدة والقصة والمقالة والبيان ··· الكتابـة لا تغـير التاريخ وليست بديلا عـن الرصاص · لكنها في لحظات التحول تبحث عن دورها وسط التحـول · وهي كما نفترض ليست لغـة الازمنة الراكـدة كالمستنقعـات ·

التفسير الثالث ، يشير الى ان انهيار السلطة قد خلق سلطات مسلحة ·وهي سلطات قمعية لا يمكن للكلمة الحرة ان تعيش في وسطها · الواقـع ان الفاشية الانعـزالية الصغـيرة التي لم تستقطب احدا ، ما عـدا بعض الكتاب السابقين والسفاحين اللاحقين امثال سعـيد عـقل وشارل مالك فرضت في المناطق التي تسيطر عليها الغاء كاملا للثقافة لانها فاشية لا تستطيع ككـل الفاشيات التعايش مع الحرية · اما في المناطق الوطنية فان اشكـال الحريـة الفعـلية التي لا تظهر عـادة فـي التاريخ بهـذا الزخـم الا خلال الانتفاضات الجماهيرية والثورات فقد كانت عـامة وشاملة · الحرية بمعـنى حرية التغيير، وبمعـنى تعايش ازمنة مختلفة في لحظة التغيير ·

الواقع ان هذه التفسيرات الثلاثة خاطئة · فعلاقة الثقافة ليست مع بوليس السير البائس ، بل يجب البحث عن علاقتها بالتجارة والرواج · فبانهيـار التوازن الذي عـلى قاعـدته تقدم التجارة والرواج انهارت بيروت القديمـة وانهارت قيمها بأسرها · وظهر الواقع ليس بوصفه زمنا جامدا ، بل بوصفـه زمن التغيير · هنا انكشفت اللعبة · سقط القناع ، وسقطت مع القنـاع جميع المساحيق والالوان ، ولم يبق سوى الحقيقي بتواضعه الشامخ وهو يبحث عن لحظة التغيير ·

٦ ـ

لم تكن بيروت التجارة والفنادق ضحية ،بل كانت القاتل · وليست الجماهير ضحية بل هي الذي يثور ويغير ·هكذا في زمن التحولات بكل امجاده ولحظات زهوه ، كانت الاعراس تولد في مأتم الفقراء وهم يدفنون موتهم · وكانـت

اجساد المقاتلين الجميلة تعانق الدم القليل وهو يمتد على قمة الجبال ويتساقط شلال اوجاع على المدن ٠٠ وكانت بيروت غابة حقيقية وبنادق حقيقية وارادة تغيير ٠ اما الذين اكلوا فتات المائدة ، فعندما سقطت المائدة سقطوا ٠عندما سقط قمع نظام التجارة والكوميسيون سقطوا ، وبقيت كلمات تصلح ان تكـون عنوانا لموتنا ، وبقيت كتابة كانت البنادق تحولها الى ممارسة ٠

نتساءل عـن الكتابة في زمن الحـرب ، ونؤكد انالكتابة هي تلخيص لكثافة الحركة التي في الواقع ، حيث الكلمات اشارات لما تصنعـه التجربـة ٠ ان الكتابة في زمن التغيير انخراط في التغيير وتغيير في الكتابة ٠

صـــور

عباس بيضون

« يا صور • لقد تبدلت نبرتنا ، حين نزلنا اليك انتزعت من حناجرنا الوتر
الفلاحي ، وها نحن بالكلمات التي تعلمناها منك لا نستطيع أن نصفك •
لا نصفك لانك ما زلت تبحثين في جلدك عـن فمك المندمل
ولانك تنطقين بزفير ساخـن عـلى وجوه مخاطبيك القليلين
لانك بلا صوت تحكين يابستك ورملك
وتلقين بلا تحية يدك عـلى شمال البحر
هذا هو جسدك يضيع ولا مصباح عـلى جلدك يقرع فوق طرقك الهاربة
ستتاكلين وستتجمع حجارتك كل عـام
بعـد أن تهبط أوتادك ستصبح لك كل عـام جثة حجرية
ستقعين عـند البحر بينما تلمع مطابخك من بعيد
لقد قامت خصاص سريعـة تحت سقوفك الساقطة
لكن النوافذ التي تفتح في رمتك
لا تدعـو المتنزهين ولا التلاميذ
رأسك بين كتفيك واكتافك تنحني
ولن تستطيع النسوة المنتظرات تحت الادراج وفي الغرف العـالية
قدوم الابناء والازواج المتخلفين في الحانات
لن تستطيع الكلاب الجائعـة
ولا أرضك التي تغـلي بالفئران
أن ترفع قناطرك المصطكة
أن تمنع طرقك من السقوط في الخنادق ودورات المياه
والتجول في الادغـال الداخلية انفاقا حـرة

ان ينزع النجوم من عـيون الثقوب وعـيون الحشرات
ويفك الشوارع من عـقدة ابهامك الضيقة
ستقعين ايتها الام المسنة ولن تقوم مدينة بعـــد الان
ستنزلين على اضلاعـك كالمدخنة الهاوية
وترقدين على الشاطيء ورأسك في الرمال ككلب البحر
لن يكلمك احد فمن يحدس انك تتكلمين وسط نسمتك المتعثرة
ووسط مصابيح السيارات المسلطة عـلى حـدودك
من يحدس أن حرفا اصغـر من جناح ذبابة
ينزل مغبرا بالبارود وسط الرصاص الذي يدرز نوافذك
ويصمت في الـدم الذ يلطخ الابواب
من يحدس أن فمك الذي ضاع في جوفك كخاتم في بئر
ينطق في عاصفة رعدية وموجة ترفع السواحل
لن يكلمك أحـد ولن تتبدل مياهك بعـد الان
ستكونين في طرف العـالم وسيرجع الجميع قبلك
الحدائق التي ترافق البحر لن تجروء على اقتحام احجارك السود
والطيور المهاجرة تخشى ان تعتق لف يغيومك المدخنة
سحابة أزهار الليمون التي تصحـب المسافرين
ستهبط على تخومك القريبة
ولن يصل المسافرون
ولن تتبدل سماؤك
سيبقى لك الهواء الذي يتلكأ عند مداخل الازقة ٠
يفور دائما بالملح والرمل والذباب
ينزف على الاواني والسواقي والانقاض
ساقطا هنا وهناك ، بطيئا ،مذ دوخته ملوحة الضفاف
وها هو يبذر قمح المتوسط عـلى جلودنا
ويترك في عقود العرق النازفة
ثقل دمـــوع البحر

★ ★

كنت جزيرة وحصنا وخانا للمسافرين
لا يتسع نهارك للبناء ، ولا يكفي ليلك للاحلام
لم تكن نجومك كبيرة ، ولا قمرك لامعـا
لذا كان بحارتك يسقطون على السلالم
وجنودك يجفون في الابراج

على القوارب المبتعــدة كنا نرى السماء الواسعــة
ونغــني ونتناسل كحشرات الكروم
نرقص في النسيم الخفيف ، ونرفع قصائد وحبا
للواتي لا يصعــدن الى الشرفات
تكف الرطوبة رياحك
لذا لا تشتعــل على سفوحك النيران الكبيرة
طيورك لا تحلق عاليا ، وابناؤك لا يذهبون بعيدا
لك قلب سمكة وروح طير بحري
لذا تتركين موتاك على الصخور
وتسقطين من ضربة المجذاف

انت حذاء البر المندسة بين شقوق الموج
تحمل طرق البر المزارعــين اليــك
وتحمل طرق البحر الغزاة
فتطفح السلال بعيون الفلاحين
يمر عليك الجنود الفارون
ومــن نوافذك
يطلقون على الناس في الاسواق
هكذا مر عــلماؤك وقضاتك ورؤساؤك
تحتْ السلاح

بينما فقراؤك يثقبون الاسماك الميتة
بحثا عن ملح المائــدة

حين نزلنا من القرى
نقبوا في جلودنا
عن حبــة قمل وتراب وحنطة
افرغوا بنادقنا من كل حبة باقية
اوقفونا على موائد وعرضونا على السكارى
قطعونا على صخرك بعيدا عــن نجوم الحقل
ربطونا الى السفن حمالين وعبيداً
على الحبال عصروا القلوب المدورة كتفاحات الجبل
واطلقوا الامواج الصغــيرة على جثث الغواصين
هكذا كنا في اسواقك نرقص بين الطلقات
نمشي وعيوننا في الارض
كانها تبحث عن زر ضائــع وراس ابره

هكذا بتنا بقلوب خصية وجووه كالنعـــال
نخشى أن نبتعد فيك الى الحد الذي تصل اليه جرذان الليل
ننكر اصوات البرق والريح والمطر
لنتعـلم كل يـــوم
لهجة سرطان البحر المتعـفن في المياه

* *

هذه احلامك تجمد حالما تخرج من ثقوب رأسك المدببة
وها هي تتكاثر كحجارة رمادية في حوضك الضيق
تبتعدين عــن يد البحر المعانقة
وتغتسلين من الزبــد
لكن تبقى مشاعــل عارتك تخطو على الامواج
هل تهمسين بكلمة ٠٠ هل تحطمت على فمك صدفة ؟
هل ارتعشت عظامك لحظة ، أم الدمعــة الاخيرة تقرع في حجر القلب
انت صور التي سقطت من جيب التاريخ
كيف تبقين على الرمال كالعلبة الضائعة ؟
من يدفعــك ثانية الى البحر
من يحمل شجرة الى شوارعك المسقوفة
ما زالوا يحجزون الميناء في قفص
ما زال الصيد متصلا عــلى جبينك
وجبينك ينتن من رائحة الصيد والدماء الباردة
ما زالوا يخوفون التلاميذ من البحر ، والصيادين من الكتب
نحن الذين نتكلم من جثتك
نفتح نوافذنا في رمتك المتصخــرة
نرى الدماء تنزل من العصي والسكاكين وورق اللعــب
لكن نبقى الى أن يصلنا التيار ، الىان يلمس قلبك
لا نفارقك كامراء البحر ولا طيور اليابسة
فنحن لسنا شيئا سوى قناطرك وصخورك وأسماكك
وانت مركبتنا ، ندفعــك للجبل والبحـــر
لكن نسقط تحت عجلاتك في نهاية اليوم
نغني حيث نعــمل
لكن الوقت يمر عــلينا ويغادرنا اعـــمدة ورخاما
والوقت يتوجع وهو يكمل لسته الحجرية

امامك نحن نصطف جزرا متباعـدة
وانت تنقلين عـلينا قدمك الى المياه
في الليالي تسرع القوارب والفصول : ولن تموتي
ستحلقين ايتها الام على جسورك ستحلقين بينما تهبط جسورك الى الاودية

★ ★

المرأة الفلسطينية والثورة
١٩٤٨ - ١٩٦٧

غازي الخليلي

تأثر وضع المرأة الفلسطينية في هذه المرحلة بما طرأ من تغييرات واسعة على بنية المجتمع العربي الفلسطيني ، اثر قيـــام الكيان الصهيوني على الجزء الاكبر من ارض فلسطين ، واقتلاع وتشريد غالبية الشعب الفلسطيني مـن ارضه ، فبعد العام ١٩٤٨ وجد ما يزيد عن ٩٠٠ الف من الفلسطينيين أنفسهـم بلا مأوى وبلا مورد رزق ثابت ، موزعين في اكثر منمكان ، في فلسطيـــن المحتلـة وفي الضفة الغربية وقطـــاع غزة وفي عدد من الاقطـــار العربيـــة المجـاورة (١) · ومن بقي من الشعب الفلسطيني مقيما على أرضـــه غيـــر المحتلة فقد تاثر بموجة التهجير الواسعـــة هذه وبسياسات الالحاق السياسي العربية لهذه الارض · حيث الحقت الضفة الغربية بالنظام الهاشمي في شرق الاردن ، ووضع قطاع غزة تحت الادارة المصرية · اما الذين بقوا في فلسطين المحتلة والذين كان يبلغ عددهم نحو ١٦٠ الف نسمة (٢) ، فقد اخضعـــوا للحكم العسكري الاسرائيلي المباشر ، ولسياسات اسرائيـــل العنصرية ·

لقد نجم عن سياسات الاقتلاع والتشريد والبعثرة هذه وسياسات الالحـــاق السياسي العربية لما تبقى غير محتل من الارض الفلسطينية ، تغييرات واسعة في بنية المجتمـــع العربي الفلسطيني ، انعكست على وضع المرأة فيـــه · وكان من ابرز هذه التغييرات **تفتيت البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية** للمجتمع العربي الفلسطيني ، فالاقتلاع من الارض افقد الفلاح الفلسطيني صلتـــه الانتاجيـــة بالارض ، وحوله الى انسان عاطل عن العمل ، او انسان يتعاطى اعمـــالا

★ هذه الدراسة جزء من كتاب « المرأة الفلسطينية والثورة » الذي سيصدر عـــن مركـز الابحاث ·

هامشية غير انتاجية · كذلك فان العامل الفلسطيني الذي وجـد نفسه خارج ارضه بدون عمل ، اضطر الى البحث عن أي عمل لاعالة اسرته · فمثلا ، بلـغ عدد الفلسطينيين العاملين في سوريا في العام ١٩٥١ والمسجلين لدى « الاونروا» فقط ، ٦٠٠ر١٥شخص ، كان من بينهم ٦٠٠ر١ بائع ــ معظمهم باعة متجولون ــ أي ما نسبته ٢ر١٠ ٪ من مجموع العاملين اضافة الى ٤٠٠ شخص كـانوا يقومون بمهن غير منتجة ــ خدمات ــ أي ما نسبته ١ر٢ ٪ من مجموع العاملين، في حين بلغ الذين يتعاطون الزراعة والصيد ٩٠٠ر٥ شخص أي ما نسبتـه ٣٨٪ من مجموع العاملين (٣) · وبين الفلسطينيين في لبنان نجد صـورة مشابهة تقريبا ، فمن اصل ٠٢٧ر١٩ شخص كانوا يعملون في العام ١٩٥١(من الفلسطينيين المسجلين لدى الاونروا فقط) بلغ عدد الباعة ٦٥١ر١ شخص أي ما نسبته ٥٤ر٨ ٪ من مجموع العاملين ، كما بلغ عدد الذين يتعاطون مهنـا غير منتجة ــ خدمات ــ ٦٢٤ شخص أي ما نسبته ١١ر٣ ٪ من مجموع العاملين ، في حين بلغ الذين يعملون في الزراعةوالصيد ٦٥٨ر٦ شخص أيما نسبته ٢ر٣٥٪ من مجموع العاملين (٤) ·

وتشير احصائيات « الاونروا » للعام ١٩٥١ ، ان مجموع العاملين من اللاجئين الفلسطينيين المسجلين في العام ١٩٥١ لديها (بما فيهم العاملون من اللاجئين داخل الكيان الصهيوني والذين بلغ عددهم انذاك ٢٥٧٤ شخصا) بلـغ ١٠٠ر١٦٠ شخص ، كان عدد الذين يعملون في الزراعة والصيـد منهم ٩٠٠ر٦٣ شخص أي ما نسبته ٩ر٣٩ ٪ من مجموع العاملين · وبلغ عدد التجـار والباعة ٧٠٠ر١١ شخص اي بنسبة ٣ر٧ ٪ من مجموع العاملين · والجدول التالي يوضح عدد العاملين وتوزعهم بحسب المهنة للعـام ١٩٥١ (٥) :

	العدد « بالالف »	٪
العاملون في جميع المهـن	١ر١٦٠	١٠٠
١) المهن الفنية والعلمية	٣ر١	٨ر٠
٢) الاعمال الادارية والكتابية	٥ر١	٢ر٢
٣) تجـار وباعـة	٧ر١١	٣ر٧
٤) الزراعة والصيـد	٩ر٦٣	٩ر٣٩
٥) البنـاء	٣ر٧	٥ر٤
٦) النقل والمواصلات	٨ر٦	٢ر٤
٧) اصحاب الحرف والصناع وعمالالانتاج	٤٥ر	٧ر٢٨
٨) الخدمـات	٧ر٦	١ر٤
٩) لا مهنـة لهـم :	٧ر١١	٣ر٧

مـــلاك	٩ر٧	٠ر٦
تلاميـــذ	ر٢	١ر٢

توضح هذه الاحصائيات الاهتزاز الاقتصادي ـ الاجتماعي الكبير الذي اصاب المجتمع العربي الفلسطيني بفعل الاقتلاع والتشريد ٠ فبعد ان كانـت غالبية الشعب الفلسطيني تتعاطى الزراعة * ،انخفض عدد هؤلاء الى اكثر قليلا من الثلث من مجمه - لعاملين ، ولو كان هذا التغيير وليد تطور اقتصادي، لكان مقياسا للتقدم ، الا انه كان وليد الهجرة والاقتلاع من الارض ،وهمـــا هجرة واقتلاع افقدا الشعـب الفلسطيني تركيبه الطبقي المتوازن ، بامتصـاص مجالات العـمل غير الانتاجية ، النسبة الكبرى من القوى العاملة الفلسطينية٠ ولقد استمر هـذا التركيب الطبقي غـير المتوازن للمجتمع العربيالفلسطينـــي في السنوات اللاحقة ، مع انخفاض نسبة الفلسطينيين الذين يتعاطون اعـمالا انتاجية مباشرة ٠ فمثلا بلغـت نسبة الذين يعملون في الزراعـة والصيـــد في الاردن وسوريا في العـام ١٩٦١ ، ١ر٣٤ ٪ من مجموع العاملين ،وانخفضت نسبة اصحـاب الحرف والصناع وعـمال الانتاج من ٧ر٢٨ ٪ في العـــام ١٩٥١ الى ٣ر٢٤٪ في العام ١٩٦١ ، في حين زادت اعداد الذين يعملون فـي الاعمال الادارية والكتابية والخدمات (٦) ٠

ولم يكن حال العـرب الفلسطينيين الذين بقوا على ارضهم في الضفـــة الغربية وقطاع غزة ، بافضل من حال بقية الشعب الفلسطيني التي اقتلعـت من ارضها ٠ فقد تأثر الوضع الاقتصادي ـ الاجتماعـي لسكان الضفـــة الغربية وقطاع غزة بعاملين اثنين ، همـا :

١) ازدياد الكثافة السكانية

فالاعداد الكبيرة من المهاجرين الذين لجأوا الى الضفة الغربية وقطـــاع غـزة ،جعـلت من غـير الممكن استيعـاب القوى العاملة لهذه الاعـداد في مجالات العـمل الانتاجي ، فالمساحـة القابلة للزراعـة في الضفة الغربيـــة كانت لا تتجاوز الثلاثة ملايين دونم من الارض من اصل مساحة الضفة الغربيـة الكلية والبالغة ٥٦٤٢ كم٢ ، وثلثي هذه الاراضي القابلة للزراعة كانـــت اراضي بعلية (٧) وكان على الضفة الغربية ان تعيل سكانها البالغ عددهـــم حوالي ٤٠٠ الف نسمة ، وما يوازي هذا العـدد تقريبا من اللاجئين ، فـي وقت فقد عدد لا يستهـان به من القـوى العاملـة في الضفـة الغربيـة

★ في العام ١٩٤٤ كان سكان القرى يمثلون ٦٦ ٪ من مجموع السكان العرب فـي فلسطين ٠

مجالات عمله في مدن الساحل الفلسطيني بعد قيام الكيان الصهيوني · اما في قطاع غـزة ، فقد كان الوضع اقسى وامر ، حيث استقبل القطاع اكثـــر من ضعـف عـدد سكانه الاصليين ، فبلغـت نسبة اللاجئين الى سكانـــه الاصليين ٢٢٢٪ · هذا في حين كان ٢٠ ٪ فقط من السكان الاصليين فـــي القطاع يعملون في زراعة مساحة القطاع ، بينما كان هناك حوالي ٨٠٪ من سكان القطاع يزرعـون الاراضي الواقعـة ضمن الاراضي المحتلة او بمهـن تعتمد على انتاج الاراضي التي احتلت عـام ١٩٤٨ · ولذلك وضع سكـان القطاع في السنوات التي اعقبت عام ١٩٤٨ لم يكن بافضل من وضع اللاجئين «٨» ويذكر محمد علي خلوصي في كتابـه « التنميـة الاقتصاديـة فـي غـزة (فلسطين) ١٩٤٨ ـ ١٩٦ . ص ٦٥ » ، ان كشوف طالبي الاعانات من السكان الاصليين بلغ ٧٠ر٠٠٠ في العـام ١٩٤٩ ، ولم ينخفض هذا الرقم الـى ٣٥ر٠٠٠ الا في العـام ١٩٦٠ ·

لقد نجم عـن هذا الوضع ازدياد العاطلين عـن العـمل ، وانخفـاض نسبة الاجور ، وهجرة اعـداد كبيرة من القوى العاملة للعـمل في اقطـار البترول العربية (٩) مما ادى الى احداث خلل كبيرة في البنية الاقتصاديـة ـ الاجتماعيـة للمجتمع العربي الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة ·

٢ ـ سياسات الالحاق السياسي العربية

حال الحاق الضفة الغربية الى النظام الهاشمي ، ووضع قطاع غـزة تحت الادارة المصرية ، دون تمكن الشعـب الفلسطيني من اعـادة بناء وحدتـه السياسية وبنيانه الاقتصادي الاجتماعي على ارض وطنه · ولـو قـام نظام وطني ديمقراطي عـلى ما تبقى غـير محتل من الارض الفلسطينيـة ، لكان بالامكان ايجاد حلول ثورية للمشاكل الاقتصادية والاجتماعيـة التـي نجمت عـن اقتلاع الشعـب الفلسطيني من ارضه وتفتيت بنيته الاقتصاديـة ـ الاجتماعية ، وذلك باتباع سياسة تنمية اقتصادية مكثفة لاستيعـاب القـوى البشرية العـاملة من الشعـب الفلسطيني عـلى ارضها · لقد عـمل النظـام الهاشمي على تكريس عملية التفتيت هذه ، فشرع القوانين التي تمنع قيام مؤسسات اقتصادية كبيرة في الضفة الغربية ، وحرمها من مشاريع التطوير الزراعي،واتبع سياسة تقوم عـى تهجير اكبر عـدد ممكن من القوى البشرية العـاملة الـى خـارج الضفة الغربية ،وذلك خدمة للسياسات الصهيونية والامبريالية فـي العـمل عـلى تبديد الشخصية الوطنية للشعـب الفلسطيني ، وتذويب الشعب الفلسطيني في الكيانات العربية · وفي قطاع غزة ، لم تقم الادارة المصريـة باية مشاريع اقتصادية انتاجية ذات قيمة لتخفيف عـبء البطالة الكبيرة التي كانت متفشية بين سكان القطاع مما زاد من هجرة القوى البشرية العـاملـة

خـارج القطاع ٠

لقد كانت القيادة الوطنية الفلسطينية بعـد العـام ١٩٤٨ مشتتة ومبعثرة، وعاجزة عـن القيام باي دور وطني بارز ، فقسم منهـا سار وراء سياسـات الالحاق السياسي العربية فارتهن للسياسة الاردنية او المصرية ، وقسم منهـا استمر عـلى هامش الحياة السياسية وارتضى حياة المنفى بدون اي فعـل٠ وقسم اخـر اهتم بمصالحـه الاقتصادية ، فعـمل عـلى تنمية ثروات ومصالـح اقتصادية له فـي اقطار اللجوء العربية ٠ وفي ظل غياب قيادة وطنيـة للشعب الفلسطيني ، سارت سياسات الالحاق ومحاولات تبديد الهـوية الوطنيـة الخاصة للشعـب الفلسطيني . دون ان يرتفع صوت في وجهها ، حتى كانـت الثورة الفلسطينية في العـام ١٩٦٥ ، التي اعـادت صياغـة هذه الشخصيـة الوطنية من خـلال النضال ٠

التوزيـع الجغرافي

اضافة الى الاقتلاع والتشريد وسياسات الالحاق ، فان التوزيع الجغرافي للشعب الـفلسطيني على اكثر من بلد وفي اكثر من مكان ،ساهم الى حـد كبير في تفتيت البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للمجتمع العربي الفلسطينـي ٠ فالمجتمع العربي الفلسطيني لم ينتقل فقط منوضع انتاجي يسيطر فيه عـلى ادوات انتاجه الى وضع لا يملك فيه السيطرة عـلى شيء بل واجه ايضـا محاولات تقسيمه الى عـدة مجتمعـات عـلى عـدد التجمعـات الفلسطينية في الاقطار العربية ،وهي تجمعـات خضعـت لتأثيرات سياسية واقتصاديـة واجتماعية متباينة نجمت عن التباين في اوضاع اقطار اللجوء العربية ، وعـن التباين في سياسات هذه الاقطار ازاء العرب الفلسطينيين المقيمين علـى ارضها ٠ ولولا توفر ظروف موضوعية وذاتية ، كانت تدفع باتجاه مواجهـة هذه المحاولات واحباطها ، لفقد المجتمع العربي الفلسطيني ما تبقى لـه من وحدته كمجتمع ، وهي وحـدة نماها وغذاها **نضال الجماهيـر الفلسطينيـة** من اجل العـودة الى وطنهم وشعورهم بالاغتراب الاجتماعـي في المجتمعـات العربية التي وجدوا وسطها ٠ كذلك فهـي وحـدة نماها وغذاها وجـود **المخيم الفلسطيني كوحدة اجتماعية ـ سياسية** ، حافظت عـلى شكل مـن اشكال التماسك الاجتماعي للشعب الفلسطيني ٠ وعلى ارضية هذا التماسك الاجتماعي ، احبطت الجماهير العربية الفلسطينية مشاريع الاسكان والتوطين الاستعمارية لغالبية الشعب الفلسطيني في اقطار اللجوء العربية ٠

لقد كان التوزيع الجغرافي في نظر الصهيونية والامبريالية والرجعية

العربية ، مقدمة للقضاء على الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني ، واذابة تجمعاته الصغيرة في البلدان العربية عبر مشاريع للاسكان ، او عبر مشاريـــع للتطوير الاقتصادي ــ احيانا ــ في هذا القطر العربي او ذاك لدمج التجمعات الفلسطينية دمجا كليا في الحياة الاقتصادية للمجتمعات العربية التي وجدت وسطها · ولذا لم يكن صدفة اقامة المخيمات الفلسطينية في اقطار اللجوء العربية على مقربة من المدن وفي عدة امكنة متباعدة · ففي لبنان مثلا اقيمـت اكبر المخيمات حول المدن الرئيسية في بيروت وطرابلس وصيدا وصور · وفي الاردن اقيم اكبر مخيمين حول مدينة عمان (الوحدات ومخيم الحسين) · وفي الضفة الغربية اقيم اكبر مخيم في عقبة جبر قرب اريحا ، وذلك تمهيدا لتوطين القسم الكبير من الفلسطينيين في منطقة الغور · ومحاولات الاذابـــة والدمج كانت تجد ارضا مؤاتية لها في السياسة التعليمية التي انتهجتهـــا « الاونروا » ازاء الفلسطينيين · فالسياسة التعليمية « للاونروا » كانـــــت تستهدف فقط تزويد الجيل الشاب من الفلسطينيين ببعض المعارف والعـــلوم التي تؤهله للقيام ببعض الاعمال العادية ــ تعليم ، اعمال ادارية وكتابيـــة ، ومهن بسيطة ــ في اقطار البترول العربي ، وذلك امعانا في المزيد من التشتيت للشعب الفلسطيني ، والمزيد من التفتيت لبنيته الاقتصادية ــ الاجتماعية ·

المخيم كوحدة اجتماعية ــ سياسية

عاش اللاجئون الفلسطينيون في اقطار اللجوء العربية على شكلين ،فقسم منهم عاش وسط المدن والقرى التي لجأ اليها ، وكانت غالبية هذا القسم من سكان المدن والقرى في فلسطين · وقسم اخر ، كان في غالبيته من سكان القرى، عاش في مخيمـات على اطراف المدن والقرى التي لجأ اليها · و « كان المخيم هو الوحدة الجغرافية ــ الاجتماعية الجديدة او الوسط الاجتماعـي الفلسطيني الذي تشكل بعد العام ١٩٤٨ · فالمدن والقرى التي ذهب اليها اللاجئون لـــم تكن تمثل بيئة اجتماعية فلسطينية صرفة ، بل هي اوساط قائمة بذاتها ، دخـل اليها الفلسطيني ليتكيف مع واقعـها الاجتماعـي والاقتصادي · اما المخيمات فكانت الوسط الاجتماعي الفلسطيني الذي تشكل لدى وجود اللاجئين فيه» · (١٠) والمخيم بهـــذا المعنى لم يكن وحدة اجتماعية ــ جغرافيـــة معزولـــة كليـا عـن المجتمع المحيط بـه ، بـل نجـد ان اشكالا من التداخـل مختلفة ومتباينة قامت بين المخيم كوحـدة جغرافية ــ اجتماعية وبين المجتمع المحيط بـه ·مما اوجد نوعـا من التاثيرات المتبادلة بين الطرفين · وهي تاثيرات كانت اقـل بكثير من تلك التي تعرض لها اللاجئون الذين سكنوا المدن والقرى وسط تجمعات قائمة بذاتها · وبهـذا شكل المخيم الاطار العـام للعـلاقات الاجتماعية لعـدد كبير من الفلسطينيين · فحسب احصاءات « الاونروا » كانت نسبة من هـــم

في المخيمات الى مجموع اللاجئين المسجلين لديهـا اكثر من الثلث تقريبا · ففي العام ١٩٥٤بلغ عددسكانالمخيمات منالاجئين المسجلينلدى «الاونروا»٣٠ ر٣٠٥ اي ما نسبته ٤ر٣٤٪ من المجموع ، وفي العـام ١٩٦٢ ارتفعت النسبة الـى ٩ر٣٨٪ (١١) وعلى الرغم مـن ان المخيمات الفلسطينية قامت في اكثـر من بلد عربي وفي مناطق متباعـدة عـن بعضها ، فاننا نلاحـظ وجودخصائص مميزة لمجتمع المخيم اينما كان · وهي خصائص تقيم شبها كبيرا بيـن اي مخيم فلسطيني واخـر فـي اي بلـد عربي · من هذه الخصائص : (١) ان سكان المخيمات في غالبيتهم من اصـل قروي (٢) ان المخيم كوحدة اسكانيـة عبارة عـن رقعة جغرافية ضيقة تضم سكانا من عـدة قرى ، يقيمون عليهـا بشكل مكتظ في وحـدات سكنية حقيرة ملاصقة لبعضها واوضاع صحية سيئة (٣) ان المخيم لا يشكل وحـدة انتاجية ، فلا ارض حـول المخيم يعتاش السكان من زراعتها ، ومجالات العـمل وسط المخيم ضئيلة جدا ، لا تتعدي محـلات البيع الصغـيرة او بعض الورش الصغـيرة ولذا لا يمكن وصف المخيم بالقرية او البلدة الصغيرة ، كما « لا يمكن اعتباره حيا فقيرا عـلى غـرار الاحيـاء الفقيرة حول المدن الكبيرة ، لان المخيم يعتبر خـارج اطار المدينة ويجمع سكانه خصائص وطنية مما يجعـلهم جماعـة سكانية متمايزة شبيهة بالجماعات الاثنية في المدن » · (١٢) ولذا فالعلاقات الاجتماعية بين سكان المخيم ليسـت علاقات انتاج ، بل هي عـلاقات تقوم عـلى التضامن الاجتماعـي ـ السياسي اكثر مما تقوم على اي شيء اخر · (٤) لا يوجد بين سكان المخيـم تمايـزات اجتماعية حادة · فاغلبهم يكاد يتساوى في الفقر ، اما الميسورين نسبيا من موظفين وغـيرهم ، فان التمايز بينهم وبين باقي الاهالي ليس صارخـا ولا يصل ، بحكم طبيعـة العلاقات ، الى التناقض الحاد ·

تولد عـن هذه الخصائص نمطا من العـلاقات الاجتماعية غير ثابت في البداية· فبانعـدام عـلاقات الانتاج التي تحدد العلاقات الاجتماعية بين الناس ، لـم يكن امام مجتمع المخيم حتى يحافظ عـلى شيء من تماسكه الاجتماعـي الا التمسك بعـلاقات البلد الاصلي في فلسطين ، فسادت عـلاقات تقوم عـلـى اساس الترابط بين سكان القرية الواحدة كحد اعلى وبين الاقربـاء مـن الحامولةاو العائلة الواحدة كحد ادنى · ولذا فان سكان القرية الواحـدة اخـذوا يسكنون حيا واحـدا فـي المخيم كانوا يطلقون عـليه اسم قريتهم · وضمن هذا الحي توزع الاقرباء في مساكن متقاربة للحفـاظ علـى وحـدة الحامولة او العائلة الواحـدة كحـد ادنى · ولذا فان سكان القرية الواحـدة المخيمات ، قامت علاقات شبه عـدائية بين سكان القرى المختلفة في المخيـم الواحـد ، واحيانـا كانت تقوم مشاجـرات بينهـم لاتفه الاسباب ، وكـان يتحزب افراد الحامولة الواحـدة او القرية الواحـدة ضد احدى الحامـولات

او احـدى القرى فـي هذه المشاجرات · وهذا دليل عـلى استمرار نمـط العلاقات شبه الاقطاعية التي كانت سائـدة فـي القرية الفلسطينية · الا ان **هذا النمط من العـلاقات كان هشا ولا يقـوم عـلـى اي اساس مـادي** ، فانهيار البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية للمجتمع العربي الفلسطينـي بعـد النكبة ، لم يكن انهيارا ماديا فقط ، بل كان ايضا انهيارا اصاب البنـى الفوقية للمجتمع باهتزاز كبير · وجعـل من غـير الممكن استمرار نمط علاقات القرية بكل قيمها وعاداتهـا مع انهيار الاساس المـادي للمجتمـع · كان التشبث بالعـلاقات القديمة ، باطرها ، وقيمهـا وعاداتها ، نوعـا مـن الحفاظ على الوجود الاجتماعي في البدايـة · لكن هـذا التشبث بالتراخـي مع نمو عوامل موضوعية جديدة فرضت تغييرا في العلاقات السائـدة · ومن هذه العوامل ، **الحاجة الاقتصادية** ، التي فرضت عـلى رب العائلة التخلـي عن كثير من قيمه وعاداته وسلطته العائلية احيانا ، في سبيل تامين حاجـات الاسرة الاقتصادية · فالفتاة التي كانت تحرمها التقاليد من العـمل ، اجبرتها الحاجة الاقتصادية عـلى كسر حـدود التقاليد والخروج الى العـمل خـارج البيت · وهو خـروج سوف لا تقتصر تاثيراته على كسر حدود التقاليـد في هذا المجال فقط ، بل وايضا مع ما يحمله هذا الخروج من نمو شخصيـة الفتاة داخل الاسرة وفي المجتمع نفسه ، باعتبارها اصبحت عضوا منتجـا تعتمد عـليها الاسرة فـيتامين جانب من اسباب معيشتها · ومن هذهالعوامل ايضا ، **القضية الوطنية** ، فسكان المخيمات الذين اتوا من اصول طبقية كادحـة في معظمهم ، كانوا اكثر الناس معاناة وتاثرا بالاغتصاب الصهيوني لارضهم، ولذلك فانهم كانوا اكثر الناس اندفاعا وحماسا في النضال من اجل عودتهم · ولهذا فان القضية الوطنية ، او النضال من اجل استرداد فلسطين والعودة ، كان يشكل اطارا للعلاقات اوسع واعم واكثر ثباتا من اطار علاقات القريـة او العلاقات العشائرية · ولم يكن من الممكن لهذا الاطار الجديد من العلاقات ان ينمو ويتكرس ويذيب في داخله اطار العلاقات القديمة ، الا مع نمو النضـال الوطني ، وصيرورته جزءا هاما من الحياة اليومية للانسان الفلسطيني · ولذا فان اطار العلاقات ـ الوطني ، لم يتقدم على حساب العلاقات القديمة الا فـي اوائل الستينات من هذا القرن ، مع بداية النمو الثوري في المجتمع الفلسطيني، وطغيان الثورة على الحياة اليومية لمجتمع المخيم · وبذلك تحول المخيم الـى **وحدة اجتماعية ـ سياسية** ، وليس مجرد وحدة جغرافيـة ـ اجتماعيـة وبهذه الصفة اكتسب المخيم تماسكه الاجتماعي ـ السياسي ، وحلفظ على وجوده باعتباره من اهم مرتكزات الثورة الفلسطينية بشريا واجتماعيا وسياسيا ·وهذا الوضـع كان يطرح باستمرار امكانية احداث تغييرات اجتماعية واسعـة ضمن مجتمع المخيم · ولو توفرت الرؤية الثورية ، وتوفر الجهـد الثوري لامكن احداث مثل هذه التغييرات بشكل اوضح بكثير مما هي عليه الان ·

انعكست هذه التغييرات التي طرأت على بنية المجتمع العربي الفلسطيني على وضع المرأة في هذا المجتمع · ومن خلال استعراضنا السابق وجدنا ان ابرز هذه التغييرات كانت انهيار الاساس المادي للمجتمع ، أي الفقدان الكلي لوسائل الانتاج من ارض وغيرها · وهو انهيار رافقه بالضرورة ، اهتزاز كبير في البناء الفوقي للمجتمع مما فرض احداث تحول ليس بسيطا في العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع العربي الفلسطيني قبل النكبة ، بكل ما كانت تنطوي عليه هذه العلاقات من قيم وعادات وسلوكيات* · والتحولات في البناء الفوقي لا تتم عادة بنفس سرعة التحولات التي تجرى في البناء التحتي ـ الاساس المادي ـ للمجتمع ، بل تأتي بطيئة ·

وعلى الرغم من ان ما طرأ من تغيير على البناء التحتي للمجتمع العربي الفلسطيني كان فجائيا وصاعقا بفعل النكبة · فان التحولات في البناء الفوقي حافظت على وتيرة بطيئة من النمو ، حيث تداخلت عوامل اخرى الى جانب انهيار الاساس المادي ، تحكمت سلبا او ايجابا في نمو قيم وعادات وسلوكيات جديدة تتلاءم والتطورات الجديدة التي طرأت على المجتمع العربي الفلسطيني· من هذه العوامل : التداخل والاحتكاك بين التجمعات الفلسطينية في الاقطار العربية ومجتمعات هذه الاقطار · وهما تداخل واحتكاك لم يفرزا دائما نتائج تدفع بالاسراع في التحولات في البناء الفوقي · فبعض المجتمعات العربية كانت لا تزال تعيش اوضاعا متخلفة ، كانت تحد من قدرة المجتمع العربي الفلسطيني على الخروج من اطارات هذه المجتمعات وقيمها · في حين ان مجتمعات عربية اخرى ـ كالمجتمع اللبناني ـ كانت اكثر انفتاحا وتقبلا لما طرأ او يطرأ من تحولات

---

* عندما نشير الى انهيار الاساس المادي للمجتمع العربي الفلسطيني ، فاننا نعني بذلك غالبية الشعب الفلسطيني التي اجبرت على مغادرة ارضها · والتي عانت كثيرا من فقدانها الاساس المادي لوجودها الاجتماعي ·لقد بقي قسم من الشعب الفلسطيني مقيما على ارضه في الضفة الغربية وقطاع غزة وفي فلسطين المحتلة·ولكن كما اوضحت فان هذا القسم على الرغم من احتفاظه باساسه المادي لوجوده ، فانه تأثر بموجة الهجرة الواسعة، كما انه تأثر بماطرأ من تحولات على غالبية الشعب الفلسطيني · ولذا فانه على الرغم من ان التعميم في حالة كهذه قد يكون خطأ فاننا نرى ان ما واجهه الشعب الفلسطيني بمجموعه يكاد يكون واحدا ، فكما عانى اللاجىء فقد عانى ايضا ساكن الضفة الغربية او قطاع غزة ، كما عانى ايضا العرب الفلسطينون داخل الارض المحتلة من التعسف الصهيوني ·

في البنية الفوقية للمجتمع العربي الفلسطيني · ومن هذه العوامل ايضا ، **العلاقات الاجتماعية التي فرضها المخيم كوحدة جغرافية ـ اجتماعية ، ثم كوحدة اجتماعية ـ سياسية** · فالمخيم كان اكثر حرصا في الحفاظ على علاقاته القديمة بكل قيمها وسلوكياتها · وكان يبدو ذلك اكثر ما يبدو في الموقف من المرأة · فالمرأة في المخيم ، حتى لو خرجت للعمل خارج البيت، فانه كان من الصعب عليها الخروج عن سيطرة العائلة ومراقبتها ،فكانت تخضع لسيطرة العائلة في كل شؤونها الخاصة او العامة · والعامل الثالث من هذه العوامل ، هو **العمل الثوري** ، فالنضال السياسي او العمل الثوري بشكل عام ، بما كان يفرضه من تكريس اطار للعلاقات الاجتماعية اوسع واشمل واعم من اطار العلاقات القديمة ،. ساهم بشكل او باخر في الحد من سيطرة التقاليد والعادات القديمة · وانجذاب المرأة الفلسطينية الى حلبة الصراع الوطني والثور ي، جعلها اكثر قدرة على كسر حدة التقاليد من حولها ، واكثر جراة علىمواجهة المجتمع بثقة اكبر في النفس وباستقلالية في الرأي ـ الى حد ما ـ ولكن لا بد هنا من الاشارة الى ان مساهمة العمل الثوري في اخراج المرأة من واقعها التلقيدي ، كانت تتاثر الى حد كبير بافق قيادات العمل الثوري غير الواضح من مسالة تحرير المراة ، وبتخوف هذه القيادات ـ احيانا ـ من طرح هذه المسالة ، طرحا علميا وثوريا ·

كانت هذه العوامل الثلاث ، تؤثر بحدود من خلال العامل الاساسي وهو انهيار الاساس المادي للمجتمع · وهو انهيار القى بثقله على **الاسرة الفلسطينية** وفرض عليها تكيفا مع الوضع الجديد · فالفقدان الكلي لوسائل الانتاج احدث بالنسبة للاسرة الفلسطينية « وضعا اقتصاديا جديدا من التدهور والتردي اجبرها على القبول بالتغير والبحث عن وسائل انتاجية غير مشروطة بان يلعب رب الاسرة الدور الاساسي فيها · فالعامل الموسمي الذي كان يعيل اسرته في فلسطين اصبح بعد الهجرة عاطلا دائما عن العمل ، بحيث ادى هذا التوقف الى التطلع نحو الابناء من بنات وذكور كي يساهموا في انقاذ الاسرة من الجوع والفقر والمرض · ولقد ادى هذا بدوره الى تغيير في مستوى الادوار داخل الاسرة واصبح الابن كما اصبحت الابنة التي اخذت على عاتقها مسؤولية حماية الاسرة بما فيها رب الاسرة الاساسي من الفقر والجوع والمرض تمسك بزمام الدور الرئيسي (اقتصاديا) في الاسرة وتوجيهها ··· كما ادى فقدان الارض كوسيلة انتاجية كانت تجمع افراد الاسرة للعمل فيها من رجال ونساء واطفال » · ادى الى اجبار الاسرة على الحاق ابنائها بالمدارس التي باتت تشكل بالنسبة لها المخرج الوحيد للازمة الاقتصادية التي تعاني منها الاسرة · «١٣» لقد ادى كل ذلك

الى تكسير حدة التقاليد التي كانت تحيط بالمراة سواء من ناحية السماح لهـــا بالعمل في مجالات عمل لم تكن تسمح بها الاسرة سابقا ، او من ناحية فتـــح مجالات التعليم امامها ، لتكون اكثر تأهيلا وقدرة عـلى القيام باعـمال تدر دخلا اكبر · ولذلك فاننا نلاحظ في هذه المرحلة ازدياد عـدد الطالبـات فـي مراحـل التعليم المختلفة بشكل لا يقـل كثيراً عـن عـدد الطلاب كما كـان الحال قبل العـام ١٩٤٨ ٠١ وكانت نسبة التفاوت بين عـدد الطالبات الـى الطلاب تضيـق سنـة بعـد سنة لتصـل الى وضع متقارب في اواسـط الستينات · وهذا يدل على ازدياد اقبال الفتيات على التعليم · في العـام ١٩٥٤ بلغ عـدد التلاميذ في مدارس «الاونروا » في غـزة والاردن وسوريـا ولبنان ٧٤٨ر٩٠ في المرحلة الابتدائية ، كان منه م٤٠١ر٣٠ اناث اي بنسبة ٥ر٣٣٪ من مجموع التلاميذ · وفي المرحلتين الاعدادية والثانوية كـان عـدد التلاميذ ٣٨٤١ منهم ٢٣٩ من الاناث فقط اي بنسبة ٢٢ر٦ ٪ ، (١٤) وهذا التفاوت الكبير بين عدد التلاميذ الذكور الى عدد التلاميذ الاناث يعود الى عدموجودفتيات مؤهلات لمرحلتي الدراسة الاعـدادية والثانوية يوازي او يقارب عدد الطلاب، وهذا التفاوت اخـذ يضيق في السنوات اللاحقة معتخرج اعداد كبيرة مـن الفتيات اللواتي انهين الدراسة الابتدائية واصبحـن مؤهلات لاكمال دراستهـن الاعـدادية والثانوية · ففي العـام ١٩٦٣ بلغ عـدد التلاميذ في مـدارس الاونروا في كل من غـزة وسوريا والاردن ولبنان ٩٣٢ر٣٠ تلميذ فـي المرحلتين الاعـدادية والثانوية ، كان منهم ٣٧٦ر١١ اناث اي بنسبة ٧٧ر٣٦٪ وفي المرحلة الابتدائية كانت نسبة الفتيات الى مجموع التلاميذ ٨٥ر٤٤٪ حيث بلغ عدد التلاميذ ٣٠ر١١٧ تلميذ كان منهم ٤٩٣ر٥٢ من الاناث ٠(١٥)

وهذا يدل عـلى ان الفتاة الفلسطينية قطعـت شوطا كبيرا في الحصـول على فرص متكافئة مع الرجل في مجالات التعليم ، ولم يعـد الاهل يعارضـون او يمانعـون في سفر الفتاة الى بلد عربـي اخر لاكمال تحصيلها العلمي فـي الكليات الجامعـية ، بل عـلى العـكس من ذلك فقد كانت نسبة كبيرة مـن الاسر تشجع فتياتها عـلى اكمال تحصيلهن العـلمي ، لان الحصول عـلـى شهادة عـلمية اصبح هو المدخـل للحصول عـلى وظيفة ودخـل جيد · ولا شك ان وضعـا كهـذا يقلص من حـدة اخضاع الفتاة لاسرتهـا ، ويكسبهـا نوعـا من الاستقلالية في الرايوفي العـمل · ولهذا فاننا نلاحـظ في هـذه المرحلة تزايد عـدد الاناث العاملات فـي مجالات العـمل المختلفة ولا سيمـا في اقطار البترول العربية التي كانت تمتص العـدد الكبير من المتعلميـن الفلسطينيين في مدارسها بشكل خاص · ففي العام ١٩٦٥ كان يعـمل فـي

الكويت ٢٢٥٨ فلسطينية معظمهن كن يعملن في التدريس وبلغت نسبة الفلسطينيات الى الفلسطينيين الموظفين في الكويت ٢٨ر٩١٪ في العام ١٩٦٦ · (١٦) الا ان ما يجدر ذكره هنا ، ان معظم العاملات الفلسطينيات في اقطار البترول العربية كالسعودية والكويت ، كان في التدريس ، والغالبية منهن كن معلمات في مدارس ابتدائية * ، وهذا يدل على ان حاجة الاسرة الاقتصادية كانت تفرض على الفتاة العمل قبل اكمال دراستها الجامعية ·

لقد نجم عن فتح مجالات التعليم والعمل امام المرأة الفلسطينية ، بعض التغيير في نمط العلاقات السائدة داخل الاسرة الفلسطينية ، ولكنه لم يكن تغييرا كبيرا الى حد يمكن القول ان انقلابا جذريا حدث في وضع المرأة الفلسطينية سواء داخل الاسرة او في المجتمع · ان ما حدث كان بمثابة مؤشر على اهتزاز العلاقات القديمة وعدم قدرتها على استيعاب التطورات الجديدة · وهو اهتزاز كان اكبر واوضح في الاسرة التي من اصل مديني عنها في الاسرة التي من اصل قروي · كذلك فانه كان اوضح واكبر في التجمعات الفلسطينية التي تقيم خارج المخيمات منه في تلك التي كانت تعيش في المخيمات · وهذا هو الذي يفسر لنا ما نلاحظه من استمرار للسلوكيات والعادات التقليدية لدى بعض الاسر الفلسطينيين ازاء المرأة بهذه الدرجة او تلك من الحدة او الصرامة ، ومن بداية تلاشي هذه السلوكيات والعادات لدى اسر اخرى ، بهذه الدرجة او تلك من المرونة · ووجود ظواهر كهذه يدل على ان المجتمع العربي الفلسطيني يمر في مرحلة انتقالية ، ويؤكد ان الخروج من اطار العلاقات الاجتماعية القديمة ، وتحديدا فيما يتعلق بالمرأة ، امر يتطلب زمنا معقولا ويحتاج الى جهد ثوري ·ولذا فان حصول

★ لا توجد احصاءات عن العاملين من الفلسطينيين في اقطار البترول العربية قبل العام ١٩٦٧ باستثناء الكويت ، وجميع الاحصاءات هي بعد هذه الفترة · اضافة الى ذلك فان نسبة كبيرة من الفلسطينيين حاملي الجنسية الاردنية يصنفون هناك كاردنيين وليس كفلسطينيين · ولذلك فاننا في ايرادنا لبعض الاحصاءات لاعتمادها كمؤشر ، سنأخذ العام ٦٨ ـ ٦٩ كاساس لهذا المؤشر · وسنعتبر المصنفين كاردنيين ، فلسطينيين · في العام الدراسي ٦٨ ـ ٦٩ بلغ عدد المدرسين « اردنيين وفلسطينيين » في السعودية ٨٣٣٠، كان من بينهم ٢٥٩٠ من الاناث ، منهن ٢٤٦٨ كن يدرسن في مدارس ابتدائية · وكان يدرس في الجامعات السعودية ٤٤ كان منهم ٢ من الاناث · وفي البحرين كان يوجد في العام الدراسي ٦٨ ـ ٦٩ ٣٠٠ مدرسا كان منهم ١٢١ من الاناث · وفي ابو ظبي كان يوجد ١٨٧ مدرسا كان منهم ٧٧ من الاناث · وفي قطر بلغ عدد المدرسين « فلسطينيين واردنيين » في العام الدراسي ٦٧ ـ ٦٨ ، ٣٦١ مدرسا و ٢٤٩ مدرسة ·

ـ جميع هذه الاحصاءات مأخوذة عن احصاءات فلسطينية ص ٢٢٩ و ٢٧٤ و ٢٨١ و ٢٧٨ ·

الفتاة على قسط من التلعيم ودخولها معترك الحياة كعضو منتـــج ، لـــم يخلصاها بشكل كامل من سطوة المجتمع بقيمه وتقاليـــده السلفيه ولكـــن بهمـا ومن خـلالهمـا شقت المرأة الفلسطينية بدايات جيدة ، للتحرر مـــن بعض اشكال اضطهادها · وهو تحرر لم يكتسب صفة شمولية بعـد ، ولا يزال محصورا في اطار النسوة المتعلمات او اللواتي يعملن ، في حين ان جمهـــرة النساء لا تزال تعيش تحت سيطرة اشكال من الاضطهاد اقسى من تلك التـــي تواجهها المرأة المتعلمة او العـاملة · وهذا يعـني ، انه عـلى الرغـم مـن المعطيات الجديدة التي طرأت على بنية المجتمع العربي الفلسطيني بعد النكبـة ، والتي كانت تدفـع في الاسراع بوتيرة التحولات في البنية الفوقية له باتجـاه ثوري ، فأن المجتمع العربي الفلسطيني لا يزال يزخر باشكال وظواهـر عديـدة عن استلاب المرأة وقسرها في بوتقة النظرة التقليدية للرجـــل ·

نشاطات المرأة الثورية

شاركت المرأة الفلسطينية في مختلف النشاطات الثورية في هذه المرحلـــة ، عبر اشكال من النضال مختلفة ومتفاوتة · وعـلى الرغـم من ان اشتـــراك النساء في النشاطات الثورية في هـذه المرحلة ، كان ارقى واعـــم ، ممـــا كان عـليه اشتراكهن في المرحلة السابقة ، فان مدى مشاركتهن لم يكن بمستوى ما طرأ عـلى المجتمع العربي الفلسطيني من تغييرات وتطورات ، ولم يبلـــغ تلك الدرجة التي تجعـل من مسألة اشتراك المرأة في العـمل الثوري مسألـة عـادية ، او مسألة لا تثير استغـراب المجتمع المحيط بهـا ، سواء كـــان استغراب الاعجاب بنشاطها الثوري او استغراب الاستهجان به والنفـــور منه · فالمرأة المناضلة والتي تساهـم بفعـالية في النشاطات الثورية كانـــت لما تزل حالة طلائعية ومحصورة الى حـد كبير بين النسوة اللواتي نلن قسطا لا بأس به من التعليم والثقافة ، او بيـــن النسوة اللواتي كـــن يعشـــن في عائلات يغـلب عـليها الجو الوطني ويغـلب عـلى معـظم افرادها التعاطـي بالعـمل السياسي الوطني والثـوري · اما المرأة العـاملة في مصنـــع او القروية او المقيمة في مخيم ، وربة المنزل ، والى حـد ما . المتزوجة ، فقـد ظلـت بعـيدة عـن التعـاطي بالعـمل السياسي او الاشتراك في النشاطـات الثورية ولو فـي حدودها الدنيا ، باستثناء فترات المد الوطني التي كانـــت تجرف اوسع الجماهير الى حلبة الصراع الثوري · ففي هـذه الفترات ،التي كانت عبارة عـن هبات جماهيرية ، كانت الجماهير النسائية تشارك ـ بحدود ـ في النشاط الثوري ، ولا سيما بالتظاهرات ، التي كانت تضم المرأة ـ الام وربة المنزل ، جنبا الى جنب مع المرأة المتعلمة أو الحزبية ومع الطالبـــة · **وكانت التظاهرات في كثير من الاحيان ، هي الشكل النضالي السائد وشبـــه**

الوحيد الذي كان يتيح اشتراك اوسع الجماهير النسائية في النشاط الوطني والثوري · ونقول بكل اسف . ان هذا الاشتراك الواسع للجماهير النسائية في النشاط الثوري عبر التظاهرات ، والذي كان يدل على وجود رغبة لدى النساء للاشتراك بفعالية في النشاط الوطني او الثوري ، لم يكن يجري تطويره او الاستفادة منه في اشراك عدد اكبر من النسوة في اشكال نضالية اخرى · ولذا فان مثل هذا الاشتراك الواسع لم يكن ليتجاوز حالة الطفرة التي كانت تهب مع حالات المد الوطني لتغيب غيابا شبه كلي مع حالات الجزر الوطني وسيادة اجواء الارهاب والقمع · وسيادة مثل هذه الظواهر في النضالات السياسية للمرأة لم يكن سببه المرأة كما يقول بذلك الكثرة من الرجال الذين لا يرون في اشتراك المرأة في العمل الثوري ، الا سعيا من المرأة للبروز واستعراض نفسها امام الرجال ، بل يعود الىالرجل نفسه الذي لا يزال يرى في المرأة مجرد تلك « الحرمة » او «الولية » التي تقع عليها مسؤولية الحفاظ على شرف العائلة · وهو لذلك يخاف عليها ، لانه يخاف أن يلوث شرف االعائلة اذا تعرصت للاعتقال او الاختلاط بالرجال من جراء نشاطها الثوري · لقد كانت النساء بشكل عام ، يبدين اندفاعا نحو العمل الوطني او الثوري اذا اتيحت لهن الفرصة ، وما كن ليتقاعسن· واللواتي اتيحت لهن الفرصة ابدين مقدرة وكفاءة لا تقل عن مقدرة وكفاءة اي من المناضلين من الرجال · فهذه رجاء ابو عماشه التي كانت تقود التظاهرات ضد حلف بغداد وسقطت شهيدة في القدس · وهذه ناديا السلطي التي اشتركت في نسف مبنى مجلس الاعمار الاردني في عمان في العام ١٩٥٨ وتعرضت للاعتقال ولابشع انواع التعذيب ، ولم يمنع كونها امرأة من انتعتقل وتعذب · وكثيرات تعرضن للاعتقال والتعذيب في الاردن في اواخر الخمسينات والنصف الاول من الستينات ، منهن سعاد هريش ونهيل عويضه ووداد قمري، اللواتي اعتقلن في الاردن فيالعام ١٩٦٦ لنشاطهن السياسي وانتمائهن الى حزب سياسي ·

فالمرأة اذن عندما تتاح لها الفرصة لا تتوانى ولا تتقاعس عن تادية واجبها الوطني ، ولكن ما يحول دون اشتراك المرأة الواسع في النضال هو المجتمع بقيمه وتقاليده · المجتمع الذي قد يعجب في بعض الاحيان ، بصورة المرأة الناضلة والثائرة ويرى فيها مجالا للفخر والاعتزاز ، ولكنه لا يستسيغ ولا يقبل تحمل ما يفرضه وجود امرأة كهذه من تغيير في انماط السلوك ازاءها وفي انماط التعامل معها ، بما يتيح لها انماء شخصيتها المستقلة واكتساب ثقتها بنفسها · بل نجد على العكس من ذلك ، ان المجتمع كان يفرض حدودا وضوابط للتعامل مع المرأة المناضلة

والثائرة ، لا تختلف عـن تلك الحـدود او الضوابط التي يفرضها عـلـــى المراة القابعـة في البيت ، والتي لم تكتشف شخصيتها وكيانها من خـــلال انغماسها النضال او من خـلال احتكاكها المباشر بالمجتمـع االواسع مـــن حولها · ولذلك فان مجتمعـا كهذا كان يحاسب المراة المناضلة بقسوة عـلـى اي خـطأ قد تقع فيه بحكم ما يفرضه الاحتكاك والاختلاط بالمجتمع من تصـادم مع المشكلات الاجتماعية ، وهـو تصادم لا يخـلو بالضرورة من الوقوع فـي بعض الاخـطاء ، ومن سلوكيات لا تتوافق مع السلوكيات السائدة ازاء امور كثيرة ·

لقد تاثرت المراة الفلسطينية بنكبة ١٩٤٨ وعاشت هول النكبة وعمـــق المأساة · عاشت هـول النكبة عـندما فقدت الارض والبيت ، فكانت تشعـر بالانتماء الى الوطن كأي رجل ، كانت تدرك انه لا بد من النضال لاستعـادة هذا الوطن ، وهو نضال يفرض عـليها تبعـات ومسؤوليات · وهذا الادراك تمثل في اكثر من صورة نضالية ، منهـا ، **صورة المراة ـ الام** ، التي كانت تربي اطفالها وتربي معـهم الشعور بالانتماء الىالوطن والقضية · صـورة المراة ـ الام التي كانت تتجاوز امومتهـا وشعـورها كام ، عـندما كـان يعتقل او يستشهـد ابنهـا من اجل القضية · وكثيرات من الامهات اللواتـي كن يستقبلن نبأ استشهاد ابنهن فـي معـركة مع العـدو الصهيوني او خـلال تظاهرة وطنية بالزغاريد · صحيح أن الام والزوجة والاخت كن في حـالات عديـدة عامـل شد الـى الـوراء بالنسبـة الـى الرجـل ، يذكرتـه دائمـا بمسؤولياتـه العائلية ويطلبـن منـه التخفيف او الحـد من نشاطه الوطني والثوري لانه « رجل العائلة » ومعيلها · ولكنه صحيـح ايضا ،ان موقف الام او الزوجـة او الاخـت هـذا ، لم يكن الا وليـد كـون الرجل هو المسؤول الى حـد كبير عـن اعـالة العائلة ، ولذا فان هـذا الموقف اخـذ بالتراجع مع وجود اكثر من مصدر رزق واحد للعائلة الواحـدة عـندما اخـذت الزوجة او الاخـت ، والام ـ احيانا ـ تعـمل · كذلك فـان هذا الموقف كان يضيق تاثيره ويتراجع كثيرا اثناء فترات المد الوطني ·

كان المجتمع بقيمه وتقاليده السلفية عـاملا من اهـم العـوامل التـي انتصبت امام المراة وحالت دون اشتراكها بفعـالية في النضال من اجل قضيتها الوطنية ، وكانت المراة المناضلة تعـاني من جراء ذلك الكثير ، فكثيرا مـا كانت تقع فريسة الصراع بين الالتزام بواجبها الوطني وما يفرضه هذا الالتزام من تطور في شخصيتها وعـلاقاتها مع العائلة والمجتمع ، وبين الالتزام بقيـود العائلة والضوابط التي تفرضها حول المراة ·

اضافة الى عامل المجتمع كعامل معرقل لاشتراك المرأة في النشاطات الثورية بفعـالية ، برزت عوامل اخرى ضاعـفت من التاثيرات السلبية لهذا العامل· ومن هذه العوامـل :

١) **التوزيع الجغرافي للشعب الفلسطيني** : وضع التوزيع الجغرافي للشعب الفلسطيني ، التجمعات العربية الفلسطينية في اقطار اللجوء العربية وسـط مجتمعـات عربية مختلفة ومتفاوتة في تطورها الاقتصادي والاجتماعـي ، مما خلق تفاوتا واختلافا في دور هـذه التجمعات في العملية الثورية فـي كـل مجتمع ، وذلك على ضوء التحديات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تواجهها هـذه التجمعـات في الاقطار التي لجأت اليها ، وعـلى ضوء الوضع السياسي والحقوقي لهـذه التجمعـات في كل قطر وجدت فيه · فالفلسطينيون في الاردن والذين كانوا يمثلون النسبة الاكبر من سكانه اعتبروا رعايـا اردنيين وجنسوا بالجنسية الاردنية ، وكانوا في مركز التأثير حضاريـا فـي حياة السكان من اصـل شرق ـ اردني بحكم التفاوت الحضاري بيـن المجتمعين الفلسطيني والشرق ـ الاردني · ولقد وجد الفلسطينيون فـي الاردن انفسهم في مواجهة نظام فاشي قمعـي ، كان له دور كبير في العـمل ضد القضية الوطنية الفلسطينية . فناضلوا ضد النظام الهاشمي ومن اجـل قضيتهم الوطنية والقضايا القومية الاخـرى ، وشكلوا الجسم الاكبر مـن الحـركة الوطنية في الاردن · لقد كانت الساحـة الاردنية ساحة نضـال ونشاط ثوري جذبت اوسع الجماهير هناك الى حلبة الصراع الثوري · والمـرأة الفلسطينية في الاردن لم تكن بعيدة عـن هـذا الواقع ، بل اشتركت فـي النضال باشكاله المختلفة وكانت لهـا مساهمات قيمة في هذا المضمار ولهـذا فقد كانت تجربتها السياسية في الاردن انضج واوضح من تجربتها فـي اي قطر عربي اخـر · اضافة الـى ان اللواتي استقطبهن العـمل الثوري فـي الاردن كان اكبر منه فـي اي قطر عربي اخـر · وهذا الاستقطاب لـم يبق في حـدود التاثيرات الكمية ، بل اوجد تغييرا نوعـيا في وضع المراةالفلسطينية هناك ، واوجد نوعـيات جيدة لنساء مناضلات ساهمن بفعـالية في الثورة الفلسطينية في المرحلة اللاحقة ·

اما في قطاع غـزة ، فلم تواجه المراة الفلسطينية التحديات نفسها التـي واجهتها المراة الفلسطينية في الاردن بحكم اختلاف مهمات الحركة الوطنيـة ـالفلسطينية هناك عن مهمات الحركة الوطنية في الاردن · فكان مـدى اشتـراك المراة هناك في النشاطات الثورية ضئيلا ، واحيانا كان مقتصرا عـلـى الجمعـيات النسائية الخيرية ذات الافق البورجوازي · وفي اقطار اللجـوء

العربية في سوريا وفي لبنان مثلا شاركت المرأة الفلسطينية في النشاطات الثورية عبر الاحزاب والتنظيمات السياسية التي كانت موجودة في هذه الاقطار ، وشاركت في الهبات الجماهيرية ضد الاحلاف الاستعمارية وسياسات التوطين والاسكان للاجئين الفلسطينيين · ولكن هذه المشاركة لم تكن بالمستوى الذي كانت عليه المرأة الفلسطينية في الاردن ·

نخلص من كل ذلك ، الى ان التوزيع الجغرافي على الرغم من انه لم يقض على الوحدة النضالية التي كانت تجمع كل الفلسطينيين اينما كانوا في النضال من اجل عودتهم الى وطنهم ، وما كان يفرضه هذا النضال من خوض نضالات على مستوى القطر نفسه احيانا ، على الرغم من ذلك، فان التوزيع الجغرافي لفرز مهمات نضالية متفاوتة ومختلفة للتجمعات الفلسطينية في هذا القطر او ذلك ، مما اوجد اختلافا وتفاوتا في درجة استقطاب المرأة الى هذا النضال وهما اختلاف وتفاوت لم يؤثرا فقط على وضع المرأة الفلسطينية في العملية الثورية في كل قطر ، بل اثرا ايضا والى درجة معقولة على نسبة انعتاق العدد الاوسع من النساء من نطاق بعض القيود الاجتماعية ·

٢) عدم جدية الاحزاب والتنظيمات السياسية في طرح مسالة تحرير المراة :

ان اهم ما يميز هذه المرحلة من النضال الوطني الفلسطيني هو غياب الشخصية الوطنية الفلسطينية كشخصية مميزة لها اداتها السياسية والتنظيمية المعبرة عنها · فسياسات التوزيع الجغرافي والالحاق السياسي للارض والشعب ، عملت على طمس الشخصية الوطنية الفلسطينية ،ولم يجر ابراز هذه الشخصية الا في اوائل الستينات وتحديدا مع بداية الثورة الفلسطينية في العام ١٩٦٥· وغياب الشخصية الوطنية الفلسطينية حال دون قيام اية تنظيمات فلسطينية تخبر عن المهمات النضالية المحددة لحركة الوطنية الفلسطينية ، ولهذا فقد ناضل الفلسطينيون في الاقطار العربية من خلال الاحزاب القومية او الشيوعية التي كانت قائمة في هذه الاقطار · ومن ابرز هذه الاحزاب ، حزب البعث ، حركة القوميين العرب . والاحزاب الشيوعية العربية عامة والحزب الشيوعي الاردني خاصة ·

وعلى الرغم من تفاوت هذه الاحزاب في نظرتها لمسالة تحرير المراة ، فانها جميعها لم تعط هذه المسالة اهمية ملحوظة ، وكانت محاولاتها في هذا المجال ، لا تتعدى العمل على ضم بعض النسوة الى الحزب او الحديث العام عن ضرورة مساواة الرجل والمراة · ولم يطرح اي حزب منها

برنامجا محددا لمسألة تحرير المرأة ، كما لم يطرح اي منهـا حتىّ في برامجـه العامة مطالب نسوية محددة باستثناء بعض الاشارات العامة وغير المحـددة التي كانت ترد احيانا في بعض البرامج * وحتى هذه الاشارات العـــامة كانت تظل جبرا عـلى ورق ولا تجد طريقها الى التنفيذ عـلى صعـيد عملي.

فالحزب الشيوعي الاردني مثلا ،والمفروض فيه ان يقدم النموذج الافضـل في هذا المجال ، لم يكن وضع المرأة داخله ومجمل مواقفه المعلنة والعملية مـن المرأة لتختلف كثيرا عـن اي حزب قومي بورجوازي اخـر . فالحزب كـان يخشى او يتخـوف من طرح مسألة تحرير المرأة على مستوى واسع مراعـاة للتقاليد وخوفا من ان يفقد قاعدته الشعبية ظنا منه ان طرح مسالة تحريـر المرأة سيلاقي معارضة شديدة من اوسع الجماهير . ولهذا كان الحـزب يبالغ في مراعـاة التقاليد وكان يفرض عـلى اعضائه من النسوة تجنـب تحدي قيم المجتمع وتقاليده ، وكان يحثهن على ان يراعـين في مسلكهـن ومظهرهن المستوى العـام للفئات الشعبية التي يعـملن في اوساطها . ومن هذا المنظار ، فقد كان للنساء فـي الحـزب خلاياهن الحزبية الخاصة واجتماعاتهن الحزبية الخاصة « ولم يكن هنالك اي خلايا حزبية مختلطة الا في حالات نـادرة جداً . ونتيجة لذلك فقد اقتصرت مهمـة المرأة الحزبية عـلى القيام بالدور التحريضي الذي يمارسه مجموع الاعضاء ، كتسيير التظاهرات ، وتوقيـع العرائض ،وطباعة المنشورات والصاقها على الجدران . (١٧) او القيـام بمهـمات ضباط الاتصال لايصال الرسائل والمنشورات من مكان لاخر . فقد ظل تنظيم الفتيات في الحـزب مقتصرا عـلى الطالبات وبعض النسوة المرتبطات بعلاقة قرابة او زواج باعضاء من الحزب . ونتيجة لهـذا الواقع ، فانه طيلـة تاريخ الحزب الشيوعي الاردني لم تصل الا امرأة واحـدة الى مرتبة عضـو لجنة مركزية في الحزب » (١٨)

وبالنسبة **لحزب البعث** ،لم تكن الصورة لتختلف كثيرا . فالمرأة دخلت الحزب من منطلق وطني عام ، باندفاعات ذاتية او نتيجة لعلاقة قرابة او زواج مـن بعض كوادر واعضاء الحزب . ولم يكن هناك وجـود لاي خلايا مختلطة ، وغالبية الفتيات المنتميات الى الحزب كن من المثقفات والطالبات ، وعضويتهن في الحزب لم تكن مستقرة ، فكانت الغالبية منهن تتساقط من الحزب بعـد الزواج . ومجالات نشاط المرأة في الحـزب لـم تكن تتعدى النشاطـات

---

* مثال على ذلك ما ورد في البيان الصادر عن المؤتمر القومي السادس لحـزب البعث العربي الاشتراكي والمنعقد في العام ١٩٦٣ حيث جاء فيه حول المرأة « ان تحريـر المرأة يقع في رأس مهمات الثورة القومية الاشتراكية ، وان بناء مجتمع عصري ديموقراطي متحرر لا يمكن ان يكون تاما وسليما الا اذا واجه قضية تحرير المرأة مواجهة مبدئيـة وشاملة » .

التحريضية ، والاشتراك في التظاهرات وتوزيع المنشورات وايصال الرسائل ٠

وفي حركة القوميين العرب كانت الصورة مشابهة لما عليه في حزب البعث ٠ فالتنظيم النسائي في الحركة كان من الطالبات والمثقفات ،وارتباطهن بالحركة كان نتيجة علاقة قرابة او زواج من بعض اعضاء الحركة ، ولم يكن يوجد اي خلايا مختلطة ٠ فالتنظيم النسائي كان تنظيما قائما بذاته له خلاياه الخاصة واجتماعاته الخاصة ، والمسؤول عنه ليس امرأة بالضرورة ٠ واعلى مرتبة تنظيمية وصلت اليها امرأة في الحركة كانت عضو شعبة اي عضو لجنة منطقة ، حيث وصلت امرأة في مدينة نابلس الى عضو لجنة منطقة في العام ١٩٦٥ ولم تتكرر هذه الظاهرة في اي مدينة اخرى ٠ اما مجالات نشاطات المرأة في الحركة فكانت هي نفسها مجالات نشاطات المرأةفي حزب البعث باستثناء بعض الحالات االنادرة جدا ، حيث قامت بعض النساء في الحركة بمهمات وضع متفجرات في بعض الاماكن في الاردن وبمهمات نقل سلاح واخفائه ٠

تعددت اشكال النشاط الوطني والثوري للمرأة الفلسطينية في هذه المرحلة بتعدد المهام النضالية امامها وباختلاف الوضع الطبقي للنشيطات من النساء٠ ويمكن اجمال هذه النشاطات بالاتي :

١ ـ تشكيل الجمعيات والنوادي النسائية : وهي جمعيات ونواد كانت تقوم بنشاطات اجتماعية لتقديم بعض الخدمات للاسر الفلسطينية التي شردتها النكبة ٠ ولم يكن لهذه الجمعيات والنوادي اية نشاطات سياسية محددة، وكان معظم القائمين عليها من النساء البورجوازيات ٠ ولذلك فان هذه الجمعيات كانت لا تتعدى كونها جمعيات خيرية ، لم تمارس اي نشاط فيما يتعلق بمسالة تحرير المراة باستثناء القلة القليلة منها والتي اخذت في تجاوز االطابع الخيري او الاجتماعي لعملها ٠ من هذه الجمعيات :

١ ـ دار الطفل العربي ـ القدس ـ اسستها هند الحسيني للعناية باطفال شهداء دير ياسين ٠

٢ ـ دار اليتيم ٠

٣ ـ دار رعاية الاحداث اسستها ليندا ناصر ٠

٤ ـ جمعية المراة العربية ٠

٥ ـ نادي الشابات العربيات ٠

٦ ـ جمعـية المناضل الجريح ـ غـزة ٠

٧ ـ جمعية تأمين العمل اللاجيء الفلسطيني ـ دمشق (١٩) ٠

٨ ـ جمعية انعاش الاسرة ـ البيرة ـ تأسست في العـام ١٩٦٥ باشراف عدد من النشيطات من النساء الفلسطينيات في الاردن ٠ ولم تقتصر مهماتهـا على المهمـات الاجتماعية والخيرية فقط ، بل عـمدت الى تأسيس مشاغـل خياطة وتريكو لتدريب الفتيات وايجـاد مجالات عـمل لهن وقامت بنشـاط ملحوظ لمحو الامية بين النساء ٠ كما كانت تقوم بتقديم مساعـدات للطلبـة لاكمال دراستهم ٠ لقد تضاعـفت مهمـات هذه الجمعية ونشاطاتها بعـد العـام ١٩٦٩ بشكل اساسي ٠*

ب ـ **العمل النقابي النسوى** : توزيع الشعـب الفلسطيني ومحاولة طـمس شخصيته الوطنية بعد نكبة العـام ١٩٤٨ ، كان لهـما الاثر الاكبر في عـدم قيام مؤسسات نقابية فلسطينية خاصة ٠ ولذا فأنه الى ما قبـل نشوء منظمـة التحرير الفلسطينية في العـام ١٩٦٤ ، تعثرت كل المحاولات التي كانت تقـوم بها نساء فلسطينيات لانشاء اتحـاد نسوي فلسطيني ٠ حيث ان النظام الاردني كان يمنع قيام اي اتحـاد او مؤسسة نقابية باسم فلسطيني ، معتبـرا ان الفلسطينيين في الاردن رعـايا اردنيون كما ان الدول العربية الاخـرىلم تكن تشجع قيام مثل هذه المؤسسات ٠

ولكن مع الاعـلان عـن قيام منظمة التحرير الفلسطينية ، بدأت تظهر الـى الوجود اتحـادات ومؤسسات نقابية فلسطينية ٠ فجرى في العام ١٩٦٥ عـقد مؤتمر نسائي فلسطيني في القدس برعاية منظمة التحرير الفلسطينية انبثـق عـنه الاتحـاد العـام للمرأة الفلسطينية باعتباره تنظيما شعبيا نسائيـا فلسطينيا مهمتـه تنظيم وتعبئة المرأة الفلسطينية وتوحيد طاقاتها لخدمـة المعـركة ٠ *

ج ـ **الانخراط في العـمل الحزبي** : التحقت المرأة الفلسطينية بالاحـزاب العربية من بعث وحركة قوميين عـرب واحزاب شيوعية من اجل الدفاع عـن

---

* انظر عرضنا التفصيلي عن هذه الجمعية ونشاطاتها في الفصل الخاص بهذا الكتاب عن المؤسسات النسوية الفلسطينية ٠

★★ عقد هذا المؤتمر في القدس في الفترة بين ١٥ ـ ٢١ تموز ١٩٦٥ بحضـور « ١٣٩ » مندوبة يمثلن جميع قطاعات العمل النسائي الفلسطيني ٠

قضيتها الوطنية · ولكن كما اشرنا ، فان نسبة من استقطبتهن هذه الاحـزاب كانت قليلة جدا ، وكن في غالبيتهن اما طالبات او نساء مثقفات · اضافـــة الى ان غالبيتهن كن من اوساط بورجوازية · ولذلك فان تجربة المراة الفلسطينية في الاحزاب العربية لم تقدم لهـا الشيء الكثير ، ولم تساهم كثيرا فـي تقدم مسألة تحررها · والنتيجة المهمة لانخـراط المرأة الفلسطينية في العـمـــل الحزبي ، هو بناء عـدد لا بأس به من الكوادر النسائية اللواتـي لعبن دورا طلائعيا وقياديا في المرحلة التالية اي بعد العام ١٩٦٧ ·

اضافة الى هذه الاشكال من النشاط الوطني والثـوري ، فأن المرأة لم تكن غائبة عـن مسرح الاحداث مع نشوء منظمة التحرير الفلسطينية ، حيـث اشتركت عـشر نساء في المؤتمر الوطني الفلسطيني الاول الذي عـقد فـي القدس في ايار ١٩٦٤ باعتبارهن ممثلات للقطاعـات النسائية الفلسطينـيـة، وبوحـي منهن اتخـذ المؤتمر قرارين بصدد المراة : فقد نص احد قـرارات المؤتمر عـلى « العـمل عـلى محو الامية ورفعمستوى الاسرة الفلسطينيـة » كما نص احـد القرارات العـامة للمؤتمر عـلى « اشتراك المراة الفلسطينيـة العربية في جميع مجالات العـمل التنظيمي والنضالي ومساواتها بالرجل فـي جميع الحقوق والواجبات من اجل تحرير الوطن »(٢٠) · وعلى الرغـم مـن أن هـذه القرارات لم تكن تعبر تعبيرا كافيا عـن طموحات المراة الفلسطينيـة والتقدميين الفلسطينيين ، فجاءت عـامة وينقصها الوضوح والتحديد ،فانهـا كانت تشكل بداية لا بأس بها ·

---

(١) يذكر نزيه قورة في كتابه « تعليم الفلسطينيين ـ الواقـع والمشكـلات » منشورات مركز الابحاث الفلسطينيـة ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢١ ، ان سجلات الامم المتحدة تشير الى ان الفلسطينيين الذين هاجروا في العام ١٩٤٨ توزعـوا فـي الاقطار العربيـة كالتالي ٨٣ر١٨٧ فـي سوريا ، ١٠٦ر٨٩٦ في لبنان ،٤٦٥ر٣٤١ في الاردن و ١٤٣ ر ٢٠٠ في غـزة ، اضافة الى ٣٨٠ ر ٢٤ كانوا لاجئين فـي فلسطين المحتلة ·

(٢) انظر احصاءات فلسطينية ،اعداد الياس خوري ، منشورات مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ١١ ·

(٣) الاونروا ، النشرة الاحصائيـة ، ايار ١٩٥٠ ـ حزيران ١٩٥١

(٤) المصدر نفسه ·

(٥) يوسف ، شحـادة ، الواقـع الفلسطيني والحركة النقابية ، منشـورات مركز الابحاث الفلسطينية بيروت ١٩٧٣ ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ·

(٦) المصدر نفسه ص ٢٨ ـ ٢٩ ·

(٧) قورة ، نزيه ص ٢٢ ·

(٨) المصدر نفسه ، ص ٢١ ٠
(٩) يذكر نزيه قورة في كتابه « تعليم الفلسطينيين ـ الواقع والمشكلات ص ٢٢ « ان ١٧٦و٩٧٦ شخصا تركـوا الضفـة الغربية طوعا خلال سنوات ١٩٥٢ـ١٩٦١
(١٠) يوسف شحادة ٠٠٠ ص ١٧ ٠
(١١) احصاءات فلسطينيـة ٠٠٠ ص ٢٩٧ بي
(١٢) شحادة ، يوسف ٠٠٠ ص ٢٠
(١٣) الرملاوي ، نبيل ، المجتمـــع والاسرة الفلسطينية في ضوء التغيرات نحو المستقبل ، قضايا عربية العدد ٣ ـ ٤ ١٩٧٥ ص ٨٨ و ٨٩
(١٤) احصاءات فلسطينية ص ٣٧٢
(١٥) المصدر نفسه ص ٣٣٤
(١٦) المصدر نفسه ص ٢٤٩
(١٧) انظر : مقدمات حول واقع المراة وتجربتها في الثورة الفلسطينية ، صـــ ٥٤ ٠
(١٨) المصدر نفسه ، ص ٥٥ ٠
(١٩) المصدر نفسه ص ٠ ٥٢ ٠
(٢٠) انظر قرارات المجلس الوطنـــي الفلسطيني ، اعداد : : راشـد حميـد ، منشورات مركز الابحاث الفلسطينيـــة ٠ بيروت ١٩٧٥ ٠ ص ٠ ٤٤ ـ ٤٥ ٠

مدينة الرواج ومخاض الحرب الأهلية

رئيف كرم

١ ـ بيروت واشكالية الرواج في الحرب الاهلية

المدينة حيز تريده المؤسسات السائدة امتدادا ماديا يؤكد سيطرتها· سياستان متكاملتان تحكمان التخطيط المديني :

ـ تثبيت امتلاك الحيز المديني من قبل النظام ودورته عبر تشكله المادي ومقاومة هذا التشكل ـ مقاومة الاسمنت والحديد ـ لكل ما يطرأ عليه ويهدده في عملية نمو التناقضات الداخلية ـ

ـ استيعاب الناس في هذا التشكل ودفعهم للانخراط في زمن توقعه دورة النظام الثنائية ، الانتاج / الاستهلاك

بيروت ، عصب الكيان / النظام الوسيط (١) وحيز تكثيف دورة الرواج(٢)· تمركز الخدمات / الكثافة السكانية ـ مدينة بنتها طفرة الذكاء المركنتيلية : سفينة تجارية رست عند اسفل الجبل ـ قاعدة الكيان الوسيط ـ مقدمتها وتشتد لمة بيروت « بالجبل » عبر سيطرة العصبية الكيانية على بيروت وتسويقه · مؤخرتها ابواب مشرعة على الداخل / دائرة الوساطة ـ الريف ، المنطقة الغربية ـ يشدها اليه تبعيته وحاجته · بنيتها الداخلية حيز توازن يتزاحم فيه الناس في دورة الرواج وحركة الوصل والنقل زمن انتصار

رغبات الغـــرب بالعنف المباشر وغـــير المباشر ، تغـــلق حركتهم في محدوديتها وعرضيتها ـ محدودية وعرضية التوازن فـــي صراع المركز / الدائرة ـ قيـــم الكسب بهالة وهمية من الثبات تنتج حضارة الكيان الطفيلية الازلية / المؤقتة ـ الرواج وتعطيله ٠

البيروتي هو الابن البار لدورة الرواج ٠ يولد من اغتصاب الغـــــرب لتخلف العرب زمن الخضو ع٠٠ موقع بيروت ـ ينمو ابنا مدللا في عافيـــــة التوازن المفروض ـ الطريق الى الداخـــل العربي سالكه ـ يتغذى من انتفـــاخ المدينة / مفصل التوازن ـ بيروت افراز دورة المال والبترول ـ ويطفو علـــى السطح بالرغـــم من تخمته ، يتحرك برشاقة «الخادم» الغادرة ، يعرف مـــن اين تؤكل الكتف ، يهضم حاضره في تألق المدينة المضيافة وافرازات اغراءاتهـــا ـ كوكبة الشرق ـ وحين يعسر عـــليه الهضم ويكتشف تفاهة دوره وطفيليته يستعيد من ماضيه رموز « قدسية رسالته » يجترها دورة كاملة للرواج تحيـــط بدماغه كما تحيط « الدائرة الالهية » رأس قديس في الايقونات القديمة ٠

بيروت ، هذه الحلبة الرياضية ـ المسالمة ـ لصراع النـــــاس فـــــي دورة الرواج ، هذا الحيز التزييني السريع العـــطب لنظام الخـــدمات منها انطلقت الرصاصة التي فجرت الحرب الاهلية بين الاسمنت والالمنيوم والزجاج فيهـــــا عرفت الحرب اكبر الصدامات احتداما وتدميـــرا ٠ ومن تحـــت انقاضهـــــا تحاول اصابع الكيان المنهـــار ان تنتشل الابن الضال لدورة الرواج ، تشده غيرتها الوطنية لتنصبه بطـــل خلاص في ساحاتها العامة ـ تيمنا بانصـــــاب رجالات الكيان العظماء ـ يناطح في وقفتهالمعتادة ـ عادته قبول نتيجة رياضية للحرب ـ دوام الثلج على قمة فم الميراب ودوام الخضرة في ارز الجبـــل ٠ وعلى عودته تراهن سلطة الرواج على انبعاث دورتها من جديد متجاهلـــة « الاثقال » التي حملتها الحرب الاهلية الدامية لهـــذا «البطل »٠

هل ينفذ البطل الشاطر ـ الشطارة ميزة اصالة للرواج ـ باثقال الحـــرب ام يسقط تحت وطأتها ؟ تلك هي اشكالية مأزق النظام في جدلية التـــــورط والخلاص التي اوقعته فيهـــا حتمية اختلال التوازن في الحرب الاهلية ٠

٢ ـ تحولات بيروت ٠

موقع بيروت المركزي في الكيان الوسيط يجعلها تكثف صـــــراع التـــوازن والاختلال في دورة الرواج : تكثف عافيته وتكثف اعتلاله ٠

- زمن الرواج / حيز منبسط ٠

استمرارية الكيان تؤمنها استمرارية غلبة المركز الامبريالي على دائرتـــــه

العربية في التوازن · توازن الكيان ينبسط في عـافية دورة الرواج تقنـي لها غلبة عصبية التجزئة · تشبك بيروت بالداخـل الذي يشكل بتركيبتـه التاريخية صمام الامان للتنمية الوسيطة الطفيلية ـ فائض نهب البتـرول ـ وتشتد لحمة بيروت «بالجبل » عبر سيطرة العصبية الكيانية على بيـ ـروت الشرقية وضواحيها واحكام قبضة غلبتها وركائز شراكتها على بيروت بخرقهـا للمواقع التي تهدد دورة الرواج (٣)فينبسة حيز بيروت افقيا له شبكة الـرواج المدينية : تعانق الطائفة الغالبة الطوائف المشاركة ، تفكك تكتلاتها في دورة الرواج وتفترها على منبسط المدينة :

اتوستراد جونيه ـ بيروت يحكم قبضة انتفاخ الخدمات ببيروت الشرقية · شبكة الجادات تصل بيروت الشرقية ببيروت الغربية / تمركز مواقع السلطة ـ الوزارات ، البنوك ، لا سيمـا البنك المركزي ـ وتلفها من ناحية البحـر حيث تنمو اكثر فاكثر مدينة اخرى تحاكي بكبريائها « الحضاري » مدن الغرب ـ الروشة ، الرملة البيضاء ، عين المريسة ، الفنادق ـ وتحكم الطـوق حول « بؤر البؤس » تجرفها هامشية على جنبات مسالك الرواج ·

زمن الرواج ، تنتظم بيروت منبسطا من القنوات السالكة ، تسهل عـملية التوزيع والخدمة · تتكاثر المسالك في الزحمة · يتدفق الناس عبرها فتطفـو بهم بيروت فـي خارجها البراق ـ اضواؤها ، عماراتها ، ضجيجها ، ··· تعيش عـافية زمن الرواج في حاضرها ، تشق لبطلها في يومه مسلكه الامن·

● منبسط الرواج / الممرات السالكة ·

الممر السالك ليس حجارة مرصوفة وسيارة تقطعـه وشارعا تحدد عبوره دلائل فقط · الممر السالك كناية عـن مسيرة يومية / خط بياني وهمي لبطـل بيروت يشد به حيزها زمن رواجها ·

يندفع البيروتي في المسلك الضيق ـ يضيق المسلك في زحمة السالكيـن · يدفعه فيه انتماؤه ـ طائفة ، عائلة ،··· يصادم كتفه الاف الاكتاف · يلطم كتفا · يزيحه من دربـه · يلطمه كتف اخـر ، يزيحه · الكتف مراتبيـة وقاعـدة السباق · يتابع الكتف المنتصر مسلكه مخلفا غريمه عـلى قارعـة الممر ـ القبول بالهزيمة مدخـل لتجاوزها ـ تحرسه دلائل القانون ـ قانـون التسابق في دورة الرواج وتمفصله بمراتبية الطائفة والعائلة ـ بتجاوز الحاجـز القانوني / محطة امتحان قدرته عـلى اكمال السباق · تجاوز الشارة الحمراء، يحرمه القانون · تجاوز الامتحان ممكن · امكانيته ضرورة تحلل التجاوز من قبل المبتدع للمنع ابن النظام المدلل · عقوبة التجاوز ـ لو حصلت ـ حاجـز

تجربة للنجاح ـ تمزيق محضر الضبط بين يدي مسؤول ـ نتوءات المسلك يمكن عبورها وان تخلل العبور تململ او وشوشات تلطف النتوءة · يصل البطل الى قصبة السباق ويشهد بوصوله على عافية النظـــام زمن الرواج · تتـــراوح القضية بين وظيفة حاجب في دائرة رسمية وصفقة ملايين ·

ومن يسقط عـند اول نتوءة / امتحان ترذلـه الحركة الجنونية عـلـــى المنبسط وترميه في بؤرة المنبوذين : يتفرج على تحركات الناس في المدينة مذهولا بتسارعهـا ، معطلا النفس بالعودة ـ التحايل ـ يهرب المبيعات ، يستزلـــم ويفرض خوة . ·· وعندما يكلل بالنجاح ينخرط في سلك البوليس ··

في مسلكه الامن تمتزج قناعته بخارج المدينة المضاء بالف اون ولون ·خيالات تسد رغبته بلذة الامتلاك ـ يمتلك او لا يمتلك ، تلـــك مسالـــة اخـــرى ـ تعكس مداخل المحلات الزجاجية مسالك نهاره في الليل · يجـــد صورتـه معكوسة في مرايا مدخـل السينما او المسرح او المقهى · تستجمع صورتـــه حولها خارج المدينة في المراة ـ يدخـل قاعـة الملهى ـ ثقافة دورة الرواج ـ ويراجع مع العرض حواجز نهاره ويتجاوزها في العرض مرة اخرى « بنكتة بريئة » ـ ميزة لعروض التنفيسية (٤) ـ يحضر في المشهد / السباق ويمتزج حضوره بحركـة السيارة التي تجتـــاز عواميد المصابيح الكهربائية فـــي الشارع المشع ·

● نتوءات المنبسط / العراقيل ·

مسيرة البطل في الممر السالك تصطدم بنتوءة يعجز عن تجاوزها ـ يفشل البطل عن سلوك الممرات التحتية للمنبسط : التهريـــب ، الاحتيـــال ··· ـ فتنعطف مسيرته عن الممر السالك وتقذفه الدوامة / الرواج الى بؤرة هامشيـــة ـ بؤر نبذ دورة الرواج للتجمعـات التي تعـجز عـن استيعابها ، حـــزام البؤس والحرمان ، المخيمات ··· ـ وهناك يقضم يومه زمن الـــرواج خارج الممر السالك ، ينتظر زمنا اخـر بين امثاله ·

بيروت زمن الرواج حيزان وزمنان ،

ـ مدينة تعيش عافيتها المؤقتة في حاضرها المتليء ، زمنها سباق موزعي البضاعـة ـ حركة النقل ـ وسباق الوسطاء ـ الخدمات : مجازبا حـــركة خادم المقهى ـ حركتان تتمفصلان وتغلف مفصلهما ايديولوجية ديموقراطيـــة المؤسسات السائدة ·

ـ مدينة ينتصب انينها خافتا ٠في حاضرها نتوءات تعرقل مسالك الرواج ، وتهدد بتناميها التوازن على منبسط المدينة الاولى ٠

المدينتان تتداخلان ٠ اضواء الاولى تتسلط فتنعكس شعاعـــات الحمراء والروشة و ٠٠٠ على بيوت الصفيح تترك في الظل الثانية ، ويمحي الضـوء الباهر بروز النتوءات امام العين المجردة ـ ايديولوجيا العافية في الثقافـــة ووسائل الاعـلام ٠

هكذا ينعطف المسلك المستقيم عـند ارتطامه بنتوءة قاسية ـ انعـطاف شـارع شارل حلو نحو سن الفيـل عـند ارتطامه بتلة جسر الباشا / المخيم ـ٠
هكذا يجرف منبسط التخطيط المديني بيوت التنك المراقيل ـ كمب طراد ـ٠
هكذا يرتفع الجسر عـند مستنقعـات مياه الامطار ـ جسر جادة كميـــل شمعون على مستوى كمب وطى المصيطبة ٠

وفي كل مرة يتحايل المسلك عـلى النتوءة ، يتجاهلها كما يتجاهل حائـــط الكرنتينا الموازي لجادة شارل حـلو زمن البؤرة المدينية القابعة خلفه ٠

زمن عافية الرواج تخدش النتوءات قدمي بطل السباق ، تجرحـه ولكنهـا لا تمنعـه عـن متابعـة مسيرته المظفرة ، يغلفها بتبريرات لا حد لهـا ، تصل الى حد تحميل منبوذيها مسؤولية النحف ـ تبريراتعنصرية مثل التخلف الفطري. تعدد الزوجات وكثرة الاولاد ٠٠٠ يصل الى حافة المسلك ـ حدود استمرارية دورة الرواج ـ ويفجع بسقوطه في الهـوة ـ لم يكن يتوقعـها ـ حافة المسلـك الامن ، فراغ رهيب تتجمع فيه همـوم ومصائـب كل الذين اهملتهم عـافيـــة النظام ، وكبلتهم محدودية الرواج في الكيان ، وتنذر بتراكمها بزمن اخر هـو زمن العـلة ٠

زمن العـلة انين / عمق لوقع زمن العافية ٠

- ممر البيت / حيز البطل زمن الحرب

رصاصة تنطلق عند مفترق المراية ، تنتشر كالوهم ، تستقطب الصرخـــة تتهدات الحناجر المحبوسة ، تنتهي « لعبة البراءة » ٠ ينقشع الضباب ٠ ينتصب النار والحديد خنادق ومتاريس ٠ تقطع المسالك ، وكتل بشرية تـــهدد وتعـد ٠ يختبيء البطـل الاله خلف الحائط السميك في ممر بيته الامن ـ ملجأ من لم يقدر عـلى الهرب من « اللامبالين » ـ تنقشع امام عينيه عبر ثغرة احدثتها قذيفة فـي

الحائط نتوءات المدينة ووعورة الممرات التي كانت امس سالكه · يتعالى دخان الاطر المحروقة في الفضاء ـ بعـد مقتل معـروف سعد / حواجز السخط ـ فيحجب الدخان المتصاعـد نقمة ، زرقة السماء · تهب عـلى السفينة ريـاح الحرب الاهلية العاتية · تترنح السفينة في لجة الدماء والدمار · تخفـت اضواؤها ، يخفت ضجيج الرواج ويرتفع ازيز القذائف · وخلف الحائـط السميك ينتظر البطل ارتداد العاصفة واتزان السفينة ·

● الاختلال / التوازن ·

انفجرت بيروت في الحرب الاهلية · انفض الغلاف الرقيق لزمن الـرواج ـ ايديولوجيا التعايش في السباق ـ · تفسخ المنبسط الافقي اللامتناهي زمـن العافية في مسار الحـرب ، وعـلت العصبيات كتلا عامودية في زمن الصدام·

مسار الحرب الاهلية عـطل مفاصل التبادل لدورة الرواج ـ المركز التجاري، المواصلات ، المعاملات ··· ـ بخر مفاصل التعايش ـ اماكن اللهو المشترك ، الثقافة الموحدة ـ عـمق مزالق العبور ـ الخطف ، القتل على الهوية ··· ـ ومع انفراط البقية المتبقية من السلطة ، تحولت المزالق الى سدود منيعة ترتـد عندها حركة الرواج ـ فـي خفوتها ـ الى الحيز الامن ـ الكتلة المتجانسـة سياسيا / طائفيا ـ ومع ارتداد الحـركة برزت العصبية / بطل الحـرب الاهلية (٥) · توحد بطل الرواج بالعصبية ومن خلالها كافح مستميتا مـن اجل اعـادة التوازن المفقود والغلبة الكفيلة باستعـادة المسلك الامن ·

التوازن لا يقوم الا بالغلبة · الغلبة عمليـة شد العصبيـة الغالبـة ـ التظاهرات الطائفية التي سبقت اندلاع الحرب الاهلية ـ الشد يحتاج الى محـرك يفجره ـ مجزرة عين الرمانة ـ الانفجار مزق زمن الرواج المختل ـ اختلاط مسالك الرواج بمسالك القتال فـي بيروت منذ ١٩٦٩ حتى اندلاع الحـرب ـ في حركة ثنائية ·

حركة باتجاه المركز / الانفجار شدت العصبية الغالبة في بيروت الشرقيـة وضواحيها · وحركة باتجاه معاكس مزقت تمفصل العصبيات الاخـرى بهـا ، فتباعدت عنها في بيروت الغربية والشرقية وخلقت ضرورة الالتفاف (٦) على المركز / العصبية الغالبة فـي عـملية معقدة : الحركة باتجاه المركز عـمليـة تمتين لموقعه بتمتين عصبيته ـ عمليات التأطير الطائفي / القتل على الهويـة خاصة في لحظاتها الحاسمة مثل السبت الاسود ـ والحركة بالاتجاه المعـاكس تحاول احكام الدائرة ومحاصرة المركز ـ بدء الهجوم العام الوطنـي ـ ·

وعندما عجزت الدائرة عـن الاكتمال ـ عـامل الدخـول السوري ـ فتح المركز لـه ثغـرة في الدائرة ـ سقوط النبعـة . ومن قبلها المسلخ والكرنتيـنا ـ وضرب نصف الدائرة تصفية المواقع المعادية في بيروت الشرقية ـ فاحكـم لحمة بيروت الشرقية بالجبل وتوحـدت به في حركة جديدة : المجابهة المتعادلة·

بيروت حيزان ـ دائرة مشطورة عـند قطرها ـ مرتبطان بنصفي الكيان ، فصلهمـا جدار جبهات التماس ـ طريق دمشق ـ بيروت ـ وثغرة الامل في المتحف دليـل عجـز قطب التوازن الجديد ـ الدخـول السـوري ـ عـن تأميـن اتصالهمـا ـ محاولاتـه ما زالت مستمـرة ـ ومع ذلـك فانهـا تترك امكانية التوحيد مفتوحـة · تتسع الثغرة وتضيق في جدلية تركيـب التوازن الجديد واختلاله · بذلك انتقل موقع الحسم من بيروت الى الجبـل وتركت بيروت فـي انتصاب شطريها ـ الند للند ـ تحيا ابتزاز التـوازن المختل ـ اختلال الغلبة ـ فيعـمليات القصف المتبادل للاحياء السكنيـة ـ احياء صرخات التعايش التقليدية ـ وعقم الاشتباكات المحدودة عـلى حـط التماس ·

● رواج زمن الحرب / نسبية الاختلال ·

في الكيان المرتبط بالرواج اصلا لا يملك المتنازعـون ما يختلفون عـليـه ـ ملكية وسائل الانتاج ـ بل يختلفون عـلى ما يملكون من حقوق وامتيـازات في عملية الوساطة ·

في بيروت الحرب الاهلية في وجهها المعـطل للرواج ـ دورته العـادية ـ قتل ونهب وتدمير وخرق لسيادة النظام ـ منطق الغلبة ـ المشاركة ـ ودموع تذرف فوق ركام الابنية وبقايا المؤسسات · الوجه الاخـر لنفس العـملـة ـ نفس المنطق ـ تسابق على امتلاك مدخرات بيروت الخاصة وفيما بعد ممتلكات الدولة وقذفها . في دورة جديدة لرواج الحرب الاهلية / الحركـة الداخليـة ـ داخل المناطق«المحررة» ـ العلنية بالاضافة الى مسالكها السرية ومسالكها غيـر المباشرة ـ اتصال شطري بيروت عبر مناطق التوازن ـ تكثفت الدورة في بيروت الشرقية ـ مستودعـات المرفأ ، المنطقة الصناعـية ، مستودعات السيارات ·· فراج تعدد الوسطاء وراجت اقتطاعات الخوة واقتطاعات عبور الحواجـز · وراجت جباية الخـوة ـ الممتلكات المبنية ، المحلات ،··· في تنازع الاطراف لسلطة الاحياء واصبح الاستزلام لطرف مسلك الحرب لبطل الكسب :

زمن التوازن اتفاق · العصبيات المتفاوتة تقبل بغلبة عصبية فتنخرط في مباراة نظامية تباركها تقاليد المنافسة المتفق عليها ·

زمن الاختلال / التفكك اعادة انتاج التوازن والاتفاق ·العصبيات المتفاوتة تطرح مسالة الغلبة في مواجهة منظمة تسيرها تقاليد تحسين المواقع ومن ثم الاتفاق عليها ·

بيروت زمن الحرب الاهلية مدينتان ،

مدينة تقاتل من اجل ان تنبسط دورة الرواج من جديد بعد ان تذيب نيران الحرب الاهلية جليد النتوءات الغريبة على مسالكها ـ ايديولوجيا اعادة انتاج الرواج تتراوح بين تحميل الغرباء / العرب مسؤولية الاختلال وتحميلها للروح الشيطانية التي هبت على منبسط التاخي والتفاهم غيمة صيف لا بد ان تزول : جدلية المواجهة والابتزاز ـ هكذا تجرف الالات الكرنتينا والمسلخ وتل الزعتر والنبعة ، هذه البؤر / النتوءات التي ما برحت تهدد زمن الرواج وتعكر وقعه بتحركات حولت المدينة الصامتة وشوارعها الامنة الى مسيرات تشييع الفلسطينيين الصاخبة في مسالك تهددها غزوات اعدائهم بالتفجير ـ الهجوم الاسرائيلي على المطار وعلى شارع فردان ـ ·

مدينة من اجل ان تنتصب النتوءات في المدينة اعلى من انصاب ارباب الكيان ، تقاتل فتمزق المنيسط المؤقت المغلق للرواج في الكيان وتكثفه في بيروت بعد ان تطفيء قذائف الحرب الاهلية اضواء الرواج الباهرة فتنقشع في العتمة تلك النتوءات المنسية في بيروت الصفيح وزوايا الساحات المنبوذة وبين اوساخ الازقة · هكذا فضحت الحرب الاهلية عيوب زمن العافية:

ابناء بيروت الرواج هجروها في الحرب ، ابنيتها الفخمة « تصغر» زمن العلة · ابناء بيوت الصفيح تمددوا جثثا هامدة تحت جسور المدينة ، تحت انقاض التنك والخشب ومن نجا منهم ـ وهم كثيرون ـ قصد الابنية الفخمة على غير عادته لا يعرف كيف ينعم بسكناها المؤقت ـ حدود الحرب الاهلية ـ وقد خفف من غرابتها عليه افتقارها الى الماء والكهرباء والهاتف والاثاث وتقاليد تملؤها بعافية الرواج · ومع ذلك فهي وان شيدت ناطحات سحاب لزمن الرواج ـ بيع وشراء ـ تصلح لزمن الحرب وتصد كثافة الاسمنت والحديد النار القادمة ، بيروت هذه الغابة من المتاريس «الطبيعية ».

في الحرب الاهلية المدينتان تتعايشان وتتصارعان · غلبة احداهما يرتبط بمصير التوازن واختلاله في الكيان · ومع اشتداد قطبيه في اعادة انتاجه·

الضغـوط الخارجية بمختلف وسائلها ـ يتبدى المنبسط القديم معانقا انتصاب النتوءات ، وتتسع ثغرة الامل في المتحف لتصبح ذلك المنبسط الذي يتوجب عليه ان يتمدد ولكن بصعوبة هذه المرة لا تخفي امكانية استحالتـــه في المخـاض العسير ٠

٢ ـ المخاض

١٥ ايلول ١٩٧٦ ـ بيروت هادئة ، معفية من القصف ٠ عـمال البلديـــة يرفعـون النقابات بالقرب من الروشة ٠ حركتهم بطيئة ، وجوههم قسمـــات غير مبالية ، يؤدون خدمة مجانية ـ مستضعفون مجبرون « عنوة » عـلـــى تدشين عـودة الحياة الطبيعـية ـ واثقون انهم اخـر من يعـلم ٠ رائحـــة التفاؤل تفوح من تنقلات ارباب التوازن في الرواج ٠ تحركاتهم الجنونية مـن المحيط الى الخليج ـ انطلاقا من دمشق ، مسكينة بيروت فـقدت رونقها ! ـ تصارع الزمن ، تكثفه ، تضغـط الاسبوع المتبقي من عمر العهد القديم المشؤوم ـ التفاؤل ايمان بلبنان ـ وتبسط حرائر السعـد امام العـهد الجديد ٠

مولودان للعـهد الجديد ٠ كلاهما يحتاج الى عـملية قيصرية في رحـــم بيروت المخاض : المولود الاول قائد موحد للبلاد يخرج بعـملية عسيرة تقطع خط التماس من المتحف حتى بعبدا ٠ عـملية خـطرة والاصرار على القيـام بها خلاص للمولود بدونها يخرج مبتور النصف ٠

المولود الثاني هو ذلك البطل البريء ابن الرواج ، ذلك المسكين المـــذي قذفته براءته الى المعـركة في الحرب الاهلية بفعـل الغريب الساحر المـــذي انتشله من ممر البيت الامن ، تماما كما رثاه الرئيس الراحل في خطبة الوداع، فانساق يهـدم مدينته الحبيبة بيد ، ويده الاخـرى تمسح دمعـة ندم سالت على جدار منهار ، المولود الثاني يحتاج الى عملية سحرية لا تفي بها عمليـــة طريق المتحف ـ بعبدا ، ولادته تمر عبر نفق وهمي تبدعـه ـ معجـــزة !ـ المحبة الكامنة في اليد البناءة القادرة على نحر اكياس الرمل وصبها فنـــادق رواج المحبة التي تحيك طبلة الاذن القادرة عـلى دمج اصوات القذائف بترانيم التاخـي الوطني ٠ المحبة المتطلعـة من العين القادرة على اقتناص لحظـــة الماضي «الجميل » في سقطة الضحية البريئة الهاوية كما هـوت احـلام الملذات في خبايا بيروت الممزقة ٠ وتمتد تلك العـين تجذبها الحياة الغابرة مع رتـــل السيارات التي تشق طريقها في شارع الحمراء (٧) بشائر وتذوب في قطـرات المطر على الورقة الخضراء وترى في « اول الغيث اول الفرج »٠

مستحيل ان يتحول ذلك الابله الذي حاكت دماغه قصبات الكشة الى ذلك المجنون الذي يحمل السلاح ليخرب بيده ملعب احلام الربح والخسارة في لعبة « بريئة » جعلت من بيروت قبلة انظار العالم المتمدن واطماعه وقاتلة للعين السمراء الحاسدة · المولودان تؤمان · يحاران ايهما يخرج اولا · هذا ما بشر به الطبيب الشرعي ، وبيروت مثل الكيان تعيش ماض زمن اخر ·

الحواشي :

(١) راجع « السلطة والتوازنفيلبنان»، خالد جابر · شؤون فلسطينية عدد ٥٠/٥١ · ١٩٧٥ ·

(٢) بديلالانتاج في الاقتصادوالوسيط ، المرجع نفسه ·

(٣) راجع « التوازنات المسلحة» · خالد جابر · شؤون فلسطينية عدد ٥٧ ـ ١٩٧٦ ولا سيما دور السبعينات في عملية استكمال بناء القاعدة الطائفية لنظام الخدمات ·

(٤) راجع « نقطة الصفر للممارسة المسرحية » · ملاحظات حول العرض البيروتي · رئيف كرم · قضايا عربية عدد ١ ـ ١٩٧٥ ·

(٥) بالتحديد العصبية /الغلبة/ بطل الرواج الخفي · عمليات نبذ الخوارج على العصبية في بيروت الشرقية ·

(٦) عملية الالتفاف ربما كانت سبب الاختلال فيي السنوات الاخيرة التي تلت احداث ١٩٧٣ · وتهديد حصن تل الزعتر الاختلال في السنوات الاخيرة التي تلت ونهاية التهديد بسقوطه ·

(٧) ابتداء من ١٥ ايلول ، درجت صحيفة النهار على جذب القارىء الى حيز «التفاؤل» عبر صورة فوتوغرافية تبشر بعودة الحياة الطبيعية ـ رتل سيارات ، ازدحام ، قطرات المطر على ورقة خضراء ··· ـ وتتداخل الصورة في عامود «الوضع العسكري» وتطغى على اخبار الجبهات المفصلة باحرف صغيرة ·

الدور الاسرائيلي في أحداث لبنان

ربيع الأسير

« ان اعظم وانجح انتصار هو ارغام العدو على التخلي
عن مشروعاته وخططه ، دون ان يتحمل الطرف الاخر اي اذى »

بيليزير

احاط الغموض لفترة طويلة بحقيقة الموقف « الاسرائيلي » من احداث لبنان ، والاساليب التي استخدمتها الدولة الصهيونية لتحقيق اهداف ذلك الموقف · ولقد افاد « الاسرائيليون » من ذلك الغموض الى حد بعيد ، حيث اعتبر العديد من المراقبين بأن الموقف « الاسرائيلي » هو موقف « المراقب » ازاء « نزاع داخلي » · غير ان تطور الاحداث سرعان ما كشف حقيقة موقف « اسرائيل » وضخامة دورها في تأجيج الصراع في لبنان·

ولئن كانت « الحرب اللبنانية » في احد وجهيها مؤامرة استعمارية ـ صهيونية تستهدف القضاء على امكانيات تحرر الامة العربية وتوحيدها ،فان الوجه الاخر لها هو وجود نواة تخمر ثوري في المنطقة العربية ، يدفع المنطقة خطوات الى الامام على طريق التحرر والوحدة والتقدم · وبالتالي كانت « الحرب اللبنانية » ، ومنذ بدئها ، صراعا بين قوى الاستعمار والتخلف والمحافظة على اوضاع الاستغلال فيالمنطقة (وعلىرأسها اسرائيل) من جهة ، وبين قوى التقدم والتحرر في الامة العربية ، وفي طليعتها الثورة الفلسطينية من جهة ثانية · من هنا كان دور «اسرائيل» العمل على انجاح الوجه الاول لهذه الحرب، وقطع الطريق على امكانات تنامي الوجه الثاني ·

« اسرائيل » ولبنان قبل ١٣ ـ ٤ ـ ١٩٧٥

كان لبنان موضع تركيز استعماري دام فترة طويلة من الزمن ، استهدف اعطاءه طابعا مميزا عن المنطقة العربية ، واعداده ليلعب دورا خاصا في تلك المنطقة · ولقد افسحت التعددية الطائفية فيه المجال لخلق وتركيز « مسألة » طائفية كانت دائما منفذا لتسرير جانب من المشاريع الاستعمارية التي تستهدف اضعاف الامة العربية

من اجل استمرار نهب ثرواتها ٠

ولقد حرص النظام اللبناني منذ العام ١٩٤٩ على ابعاد لبنان عن الصراع العربي-الاسرائيلي ٠ غير ان « التوازنات » الخاصة في داخله وذلك القدر من « الحريـــات » الديمقراطية التي تمتع بها ، وتنامي النضالات الجماهيرية فيه خلال فترة الخمسينات ، ووجود عدد كبير من المهجرين الفلسطينيين (ثاني قطر بعد الاردن) ، ادى الى اكتسابه اهمية متزايدة في المنطقة العربية ، خاصة بعد ان استطاع النضال الجماهيـــري فـــي لبنان منح تواجد المقاومة الفلسطينية على الارض اللبنانية « شرعية » جماهيرية ، وبعد ان اصبح منبرا تتمكن فيه جماهير المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان ، وحركة الجماهير العربية كلها ، من التصدي لما تحيكه الدوائر الامبريالية من مؤامرات على الامة العربية ٠ ولقد تصاعدت تلك الاهمية بعد تصفية الوجود العلني للمقاومة الفلسطينية على الساحة الاردنية في ايلول ، ١٩٧٠ ، حيث اصبح لبنان مركز التواجد العسكري الرئيسي للمقاومة ٠

وعلى اثر حرب تشرين ، ١٩٧٣ ، نشطت السياسة الاميركية لاحتواء ما نجم عن تلك الحرب من ايجابيات اظهرت الطاقات الكامنة للامة العربية ٠ وعلى الرغم من التراجـع الامبريالي في امكنة اخرى من العالم (جنوب شرقي آسيا ، انغولا الخ) فلقد اتسمـت السياسة الاميركية بالهجوم في المنطقة باعتبار المنطقة العربية خط الدفاع الاساسي عـــن وجودها ووجود النظام الرأسمالي العالمي ٠

وفي المقابل فقد حققت منظمة التحرير الفلسطينية مكاسب هامة على الصعيـــد السياسي ، عندما تمكنت من انتزاع شبه اجماع عالمي على الاعتراف بحقـــوق الشعـب الفلسطيني الذي تمثله ، كما تمكنت من انتزاع قرار يعتبر الصهيونية نوعا من العنصرية٠ وفي الوقت نفسه ، تصاعد العمل الفدائي داخل الارض المحتلة ، وتطور نوعيا بادخال نمط جديد من العمليات (العمليات الانتحارية) ٠ واصبح واضحا ان المقاومة الفلسطينية هي العقبة الاساسية امام « تسوية » تضمن للامبريالية الحفاظ على مصالحها ، كما تعيد للكيان الصهيوني امكانيات استمراره ونموه وتفوقه مجددا بعد اختلال موازين القـــوى لغير صالحه ، وذلك على الرغم من مراهنة بعض الانظمة العربية والدوائر الغربية لفترة على امكانية زج بعض اطراف منظمة التحرير في « التسوية » ، الامر الذي استهدف ضرب القوى الوطنية ببعضها البعض ، وافراغ المنظمة من مضمونها الثوري المعادي للكيـــان الصهيوني ، وتوفير تغطية للانظمة العربية خلال مسيرتها التراجعية ازاء ذلك الكيان ٠

وكان من الضروري ان يكون لبنان ساحة الصدام بين الامبريالية والصهيونية مـن جهة ، وقوى التحرر والتقدم وفي طليعتها ثوار فلسطين من جهة ثانية ٠ وليس من قبيل الصدفة ان يتمكن كيسنجر من دخول معظم عواصم المنطقة من اوسع ابوابها ، في حيـــن منعته الغضبة الجماهيرية في لبنان من دخول بيروت ٠

وظهرت الحاجة الى نمط جديد من المواجهة ، بعد ان فشلت سابقا اليد الاسرائيلية في لجم نمو الثورة الفلسطينية وبعد ان ظهر جليا في ايار ، ١٩٧٣ ، ان النظام اللبناني اعجز من ان يقوم بما قام به شقيقه الاردني ٠ نمط يساهم فيه قطاع كبير من « الجماهير»

اللبنانية ، بحيث يكون هذا القطاع مدخلا لزج قوى اضافية لمواجهة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية والجماهيرية في لبنان ، كي يحدث انقلاب في موازين القوى لغير صالح حركة الجماهير ٠

ولقد عبر رابين عن هذا النمط الجديد من المواجهة في حديث له تعليقا على عمليـــة سافوى البطولية (ليلة ٥/٣/٧٥) التي شنها ثوار فلسطين في قلب تل ابيب عشية زيارة كيسنجر لاسرائيل ، خلال احدى جولاته الهادفة الى تحقيق تسوية مرحلية في سيناء ٠ وأكد رابين في ذلك الحديث أن اسرائيل لن ترد على عمليات المقاومة الفلسطينية ، اذ ان الرد سياتي في قلب الساحة اللبنانية نفسها ٠

الاهداف « الاسرائيلية » في المخطط الاستعماري الصهيوني :

على الرغم من التحالف الاستراتيجي بين الولايات المتحدة الاميركيةو«اسرائيل » ، فان للاخيرة أهدافا « خاصة » تتميز عن اهداف الاولى كنتيجة لتعارضات في المصالـــح وفي الاساليب والوسائل ، وللتمايز في الادوار ، وذلك بالاضافـــة الـــى الاهـــداف المشتركة ٠

« فاسرائيل » لا ترضى بديلا عن تصفية المقاومة الفلسطينية ٠ اذ ان المقاومـــة وما تمثله من امكانات وما تحمله من آفاق مستقبلية ، تشكل النقيض المباشر لدولـــة الاحتلال الصهيوني ٠ وفي حين تراهن بعض الدوائر الغربية على « تدجين » منظمـــة التحرير الفلسطينية ، وتنادي بضرورة تغيير قيادتها ، وتكتفي بهذا الحد من المكاســـب المرحلية لتجنب مخاطر انفجارات في المنطقة لغير صالح الاستعمـــار فيها لو استمرت التناقضات بالاحتدام ، فان « اسرائيل » تعمل ما في وسعها للقضاء النهائي على منظمـــة التحرير ، وترفض الاعتراف بوجودها ، حتى ان « اسرائيل » وجهت نقدا للولايات المتحدة الاميركية حين تمت اتصالات اميركية ـ فلسطينية تتعلق بتأمين رحيل قافلـــة الرعايـــا الاميركيين والاجانب من لبنان ٠ ولقد عبر العديد من المسؤولين « الاسرائيليين » عـــن خط « اسرائيل » الاستراتيجي بالنسبة للموقف من المقاومة الفلسطينية ، والمتمثل بـــأن « التسوية السياسية في المنطقة مشروطة باجتثاث سرطان منظمة التحرير الفلسطينية »(١)٠

من جهة ثانية ، عملت « اسرائيل » دائما على تعزيز التناقضات ذات الطابـــع العرقي والطائفي في المنطقة العربية ، من ضمن سياسة تفتيت القوى العربية ٠ وكانـت « اسرائيل » ترى في تلك التناقضات تبريرا للطابع « اليهودي » الذي تتسم به٠ كما ان تلك التناقضات تشكل نوعا من الضمانة لاستمراريتها عبر وقوفها عقبة في وجه الوحـــدة العربية ، وما تحمل هذه الوحدة من تكثيف ودفع للطاقات العربية ، وما تمثله بالتالي من خطر على وجود الكيان الصهيوني ٠ ولقد اثارت « المسالة » الطائفية في لبنان اهتمـــام « اسرائيل » ، التي وجدت فيها ارضا خصبة ومدخلا لتحقيق املها القديم في اقامة مجموعة من الكيانات الطائفية الهزيلة في المنطقة المحيطة بها ، لا على ارض لبنان فحسب ، وانما في غيره من الاقطار ٠ ومن المؤكد أن احتمالات الانفجارات الطائفية في المنطقة العربية لا تزال قائمة ، وأن كان استمرار وجود المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان والمنطقة يشكل قوة مؤهلة للوقوف في وجهها ٠

ولقد عبرت « اسرائيل » عن حرصها على تفجير التناقضات ذات الطابع الطائفي في اكثر من مجال · حتى ان وزير خارجية دولة العدو ايبان دعا الى مساعـــدة المسيحيين « لانشاء دولة خاصة بهم »(٢) · في حين أكد يوريافنيري مدير عام وزارة الخارجيـــة « الاسرائيلية » في محاضرة له ان « المثل الذي ضربته اسرائيل يشكل عاملا مشجعـــا لطوائف وقوميات في الشرق الاوسط يميزها قاسم مشترك هو عدم استعدادها للقبـــول بالسيطرة العربية ـ الاسلامية على المنطقة » (٣) ·

من ناحية اخرى ، استهدفت « اسرائيل » ضرب القوى العربية ببعضها البعض ، بعد اختلال موازين القوى في المنطقة لغير صالحها ، ولاعادة تفوقها العسكري المـــذي كان يشكل ركنا هاما من اركان نظريـــة الامن « الاسرائيليـــة » ، وعامل ردع اساسي لاستمرارها في المنطقة العربية · ولقد اشار الكاتب « الاسرائيلي » زئيف شيف ، قبـــل اندلاع الاحداث في لبنان ، الى ان « العدو الرئيسي والمخطـــر هو الجيوش العربية ، وليس المخربون » (٤)· وتعكس هذه المقولة ذعر « اسرائيل » من الطاقات الكامنة فـــي الجيوش العربية ، والخوف الدائم من ان تؤدي الوحدة العربية ، او وحدة الارادة علـــى الاقل ، الى زج تلك الجيوش في المعركة مع اسرائيل · وعلى الرغم من ان « اسرائيل » تدرك ان الانظمة العربية مستعدة الان واكثر من اي وقت مضى لتقديم تنازلات لصالـــح الامبريالية والكيان الصهيوني ، فانها تدرك ايضا ان امكانات التغيير في المنطقة العربية ما تزال قائمة ، وان وقوع تغيير ايجابي سيدفع تلك الجيوش مجددا الى المعركة ·

ولقد كانت « لاسرائيل » دائما مطامع في الارض اللبنانية (وبشكل خاص ارض الجنوب) ، نظرا لخصوبتها وغزارة مياهها · كما ان الحدود مع لبنان هي الحدود الوحيدة التي لم يطرأ عليها أي تعديل على اثر حرب ١٩٦٧ ، بعد ان احتلت « اسرائيل » اراض عربية جديدة شكلت نوعا من الحزام الامني حول « المناطق الاسرائيلية » الصناعية ، ذات الكثافة السكانية العالية · لذا فان « اسرائيل » ترى ان من مصلحتها خلق حزام امني على تلك الحدود ·

لقد كانت « اسرائيل » حريصة دائما على ان يقبل بها في المنطقة كأمر واقع لا يمكن تغييره ولكنها تحرص كذلك على ان تقبلبها الجماهير في المنطقة العربية، وليس فقط الانظمة· ولم تكتف « اسرائيل » بذلك ، بل عملت على ان يجد فيها جزء من جماهير المنطقة (مـــن الاقليات الطائفية والعرقية الخ ···) حليفا وصديقا بحيث لا تبقى وحيدة في خضـــم بحر معـــاد ·

من ناحية اخرى ، ارادت « اسرائيل » في « الحرب اللبنانية » القضاء على تجربـــة التفاعل الرائعة بين المقاومة الفلسطينية وحركة الجماهير في لبنان · فبقاء تلك التجربـــة سيؤدي بالضرورة الى تعميمها وانتشارها على امتداد المنطقة العربية ، الامر الذي سيقود الى زج طاقات الامة العربية باسرها في معركة التحرير ، وبالتالي الى زوال الكيـــان الصهيوني في فلسطين · ولقد ادى ذلك التفاعل والعطاء المتبادل الى تنامي الطرفين ، بحيث اصبح من المتعذر على النظام اللبناني تصفية او احتواء الاثنين معا ، او الانفراد بطرف ومن ثم الانتقال لتصفية الاخر ·

« اسرائيل المراقبـــة » :

حاولت « اسرائيل » ان تظهر بمظهر « المراقب » للاحداث في لبنان طيلة فترة طويلة من الحرب اللبنانية · كما حرصت ان يبقى دورها العلني ضمن حدود « حث » العالـــم على « انقاذ الاقلية المسيحية » من الاخطار التي تتهددها ·

ولقد ظهر هذا الحرص عبر ترك التناقضات تتفاعل داخل لبنان ، وعدم القيـــام حتى بعمليات « الردع » التقليدية · فيعلق يشعياهو بن فورات على العملية الاسرائيليـــة المحدودة في « عيتا الشعب » (حزيران ، ١٩٧٥) ، بتوجيه نصيحة « بعدم التوغـــل عبر الحدود ما دام لبنان ساحة لحرب داخلية » ، واحباط « ضربات المخربين دون القيام بعمليات تفتيش داخل القرى اللبنانية في الظروف الحالية » (٥) · غير ان السياســـة « الاسرائيلية » لجأت في فترة المراقبة الى نوع من المحافظة على التوازن بين عمليـــات « ردع » محدودة ضد القرى اللبنانية (كفركلا ، عيتا الشعب ، بليدا الخ ···) وبين المحافظة على صفة « المراقب » للاحداث · وكانت « اسرائيل » تاخذ في الاعتبار عدة عوامـــل ، منها مدى احتدام المعارك الداخلية في لبنان ، لاتخاذ قرارات تتعلق بشن عمليات «الردع» ·

كذلك حرصت « اسرائيل » منذ اندلاع الاحداث على تصويرها وكانها صراع بيـــن المسيحيين والمسلمين الذين يساندهم الفلسطينيون ، وعلى تحريض العالم « المسيحي » لانقاذ لبنان · واستهدفت « اسرائيل » من وراء اضفاء الطابع الطائفي على الصراع الدائر في لبنان اذكاء التناقضات ذات الطابع الطائفي ، والمساهمة في تمييع حقيقـــة الصراع · ولقد لخص رابين الصورة التي حاولت « اسرائيل » ان تعطيها للصراع في لبنـــان ، و « الدروس » التي تعلمتها «اسرائيل» من ذلك الصراع ، في مأدبة عشاء فينيويورك في مطلع العام ١٩٧٦ · قائلا « ان العرب من الديانتين حاولا ان يعيشا معا في سلام ، ولكن جهودا خارجية ، خصوصا من المنظمات الفلسطينية حاولت ان تضفي الطابع الاسلامي على لبنان» · اما الدروس فكانت « ان العالم العربي لا يتسامح مع اية اقلية ذات استقلال ذاتي » ، وان « العالم كان اعمى بالنسبة للعديد من الحوادث اللااخلاقية » ، واخيرا « مراقبة صمـت العالم المسيحي في الوقـــت الذي كان فيه المسيحيون يتعرضون للاعتداء لانهـــم مسيحيون ··· » (٦) ·

من جهة ثانية ، حرصت « اسرائيل » على نفي اي علاقة بالاطراف الفاشية اللبنانية ، متهمة الفلسطينيين باطلاق مناورة دعائية «لاتهام الكتائب بالتعامل مع اسرائيل » حيـــن كشف النقاب عن صفقة اسلحة « اسرائيلية » للاطراف الانعزالية (٧) ·

وعمدت « اسرائيل » في تلك الفترة الى اطلاق تحذيرات عديدة من تدخل خارجي في لبنان · واعلن الون في تصريح نشرته مجلة « نيوزويك » الاميركية انه لا يستبعد حدوث تدخل عسكري « اسرائيلي » في لبنان خاصة « اذا حدث غزو سوري » · الا انـــه زعـــم انه ما دامت الصراعات في لبنان محصورة داخل نطاق « الطوائف » فانـــــه لا يعتقد ان « اسرائيل » ترغب في القيام باي تدخل (٨) · واكد رابين في حديث الى التلفزيـــون « الاسرائيلي » (١٤/١٠/١٩٧٥) ان « اسرائيل معنية تماما بالمحافظة على امنها في حـــال قيام سوريا بالتدخل في لبنان » ، وقال ان اية محاولة للتدخل في لبنان « ستخلق وضعـــا

هو بمثابة اعتداء على امن اسرائيل » وهدد بان « اسرائيل » ستتدخل عسكريا في لبنـان لمواجهة هذا الاعتداء (٩) ٠

الا ان تعديلا على الموقف « الاسرائيلي » من التدخل السوري بدأ يطرأ بعد فترة ٠وأكدت صحيفة « التايمز » في عددها الصادر في ٢١ ـ ١٠ ـ ١٩٧٥ ان « اسرائيل » وافقتعلىعدم اتخاذ أية خطوة تتعلق بالازمة اللبنانية « حتى في حالة تدخل ســـوري » دون استشارة الولايات المتحدة الاميركية ٠

ونشرت « النهار » في عددها الصادر في ١٢/٤/١٩٧٦ نبأ عن اجتماع عقد بيـــن ملكولم تون السفير الاميركي في « اسرائيل » وآلون ٠٠٠ اشار معلقين « اسرائيليين » الى ان الهدف الاساسي من الاجتماع كان « تهدئة المخاوف الاسرائيلية » بالنسبة الـــى دخول قوات سورية الى الاراضي اللبنانية ٠

وبعد ان حددت مصادر عسكرية اسرائيلية نهر الليطاني كحدود يبدأ التدخل العسكري الاسرائيلي في حال اختراقها من قبل القوات السورية ، أكد مسؤولون « اسرائيليون » ان « الخط الاحمر » ليس بجغرافي ، وانما يتعلق بعوامل واعتبارات اخرى ٠

ولقد كشفت « الواشنطن ستار » نبأ مفاده ان سورية تشاورت مع « اسرائيل » عـــن طريق السفارة الاميركية في كل من دمشق وتل ابيب للتأكد من ان اعمالهـــا العسكرية في لبنان لن تؤدي الى اعمال انتقامية « اسرائيلية » ٠ ونسبت الصحيفة الى مسؤوليـــن اميركيين قولهم : « لا تستطيع أية حكومة اسرائيلية ان تعترف علنا بأنها اعطت الضوء الاخضر لسوريا لترسل قواتها الى لبنان ، ولو حتى الى مسافة نصف ميل ٠ وافضـــل تعبير لما يفعله الاسرائيليون هو القبول » (١٠) ٠

وذكرت صحيفة « دافار » « الاسرائيلية » ان « اسرائيل » تتوافر لديها اسباب وجيهة للالتزام بموقف الترقب تجاه احداث لبنان ، « على الاقل بسبب احتمال حدوث مواجهـــة عسكريـــة بين الفدائيين والسوريين ، وحدوث فتور شديد في العلاقات السوريـــة ـ السوفياتية » (١١) ٠ وفي وقت لاحق ذكرت الصحيفة نفسها ان السوريين يواصلون زحفهم العسكري ويريدون انهاء « ما تبقى من الجيوب الفلسطينية وتحطيم جميع اتصالات منظمة التحرير الفلسطينية لوضع عرفات في مأزق » (١٢) ٠

ولقد جاء حرص « اسرائيل » في الفترة الاولى على ابعاد نفسها عن واجهة الصراع، وتمييعها لطبيعته ، نتيجة لفهمها لضخامة العامل التحريضي بالنسبة الى جماهير المنطقة العربية فيما لو تبين ان طرفا من الاطراف يلتقي معها ، ولو موضوعيا ، بالنسبة للموقف من قضايا الامة العربية ٠ فحتى يتمكن اليمين الفاشي اللبناني من تأدية الدور الموكـــل اليه في المخطط الاستعماري الصهيوني ، لا بد وان يظهر نوعا من الاستقلالية ولو لفترة ، كما لا بد وان يظهر وكأن له قضية بمعزل عن المصالح الغربية و « الاسرائيليـــة » فـــي المنطقة ٠ وان كان الواقع الموضوعي يسمح « بخلق » تلك « القضية » ، من خلال المسألـــة الطائفية ذات الجذور القديمة في الواقع اللبناني ، فان العامل الذاتي يجب ان يركـــز

على « لبنانيته » ، حتى تظل القضية قضية « قتال بين اشقاء » ، وحتى يكون للانظمـــة مبرر للوقوف على « الحياد » لفترة بالنسبة للصراع الدائر في لبنان ، والذي قد يوازي في ضخامة آثاره نكبة ١٩٤٨ ٠

وسواء كان هناك تنسيق مباشر بين « اسرائيل » واركان النظام السوري او لـــم يكن ، فلقد كان من المطلوب أن يقتصر دور « اسرائيل » (ولو لفترة) على « مراقبـــة » التدخل العسكري السوري في لبنان كي تحافظ القضية على طابعها العربي ٠ ومن الثابت ان « اسرائيل » وعت منذ البداية ان قوى النظام اللبناني واليمين الفاشي اعجز من ان تقوم بمهمة تصفية المقاومة ٠ ولقد عبر عن ذلك « اهود يعرى » عندما علق على تجربة الحكومة العسكرية (ايار ١٩٧٥) ، التي استمرت فترة ساعات قلائل لتسقط على اثر انتفاضـــة جماهيرية واسعة ٠ واكد « يعري » انه « من وجهة النظر الاسرائيلية ، تضاءل الان احتمال حل قضية المخربين في لبنان ، او تقييدهم ، عن طريق مواجهة داخلية في هذا البلد »(١٢) ٠

ولقد ادركت « اسرائيل » ان التدخل العسكري السوري قد يحقق معظم اهدافها ، ان لم يفسح لها المجال لتحقيقها كلها ٠ اذ ان الجيش الســـوري ، وهو ثاني الجيوش العربية من حيث القدرة القتالية ، اقدر على تصفية المقاومة ، واجهاض تجربة التفاعـــل بين المقاومة وحركة الجماهير في لبنان ٠ كما أن سوريا نفسها مرشحـة لانفجارات تتخذ طابعا طائفيا ، ومن ثم تنتقل تلك الانفجارات الى غيرها من الاقطار ٠ وبالاضافة الى ذلك قد يؤدي اصطدام الجيش السوري مع المقاومة الى انهيار ذلك الجيش وتفتته ، وبالتالي الى اختزال قوة عربية ذات وزن كبير في الصراع العربي ـ « الاسرائيلي » ٠ وبعد ذلك يمكن « لاسرائيل » ان تفرض نفسها كأمر واقع ، كما يمكن لها ان تحقق حلمهـــا بالمزيـد من التوســـع ٠

ان كل هذه العوامل والحسابات كانت وراء بقاء « اسرائيل في وضع « المراقبة » ، والتدخل في الاحداث عن طريق التهديد بالتدخل (اننا على الساحة ولكن دونما ظهور ··· آلون) ٠ وعدم الاعتراض على دخول القوات السورية طالما ان هدفها سحق المقاومـــة، وابقاء امكانية التدخل قائمة في كل لحظة رغم عـــدم الاعتراض المبدئي على دخـــول السوريين ، حتى تتمكن من الامساك بالفرصة المناسبة عند اللزوم ، والحفاظ على حريـــة العمل ضد السوريين اذا ما حصل تبدل يستوجب ذلك ٠

« اسرائيل السياج اللطيف »

في ٦ تشرين الثاني ، ١٩٧٥ ازالت مجموعة من الجنود « الاسرائيليين » الاسلاك الشائكة بين العديسة وكفركلا ٠ وفي ١٢ منه ، نشرت صحيفة « السفير » اللبنانية نبـــأ جاء فيه ان العميد ريمون اده لفت نظر رئيس الوزراء اللبناني رشيد كرامي الى « ابعـــاد التدبير الاسرائيلي الذي قضى بازالة الشريط المكهرب في بعض نقاط الحدود » ٠ كمـــا قال ان القوات « الاسرائيلية » بدأت تتساهل مع رعاة المواشي اذ تسمح لهم بالاقتراب من الحدود ، وحتى من دخول الاراضي الاسرائيلية بقصد المرعى ٠ وصرح اده ان الشريـط المكهرب قد نزع على امتداد ٣ كلم قرب منطقتي رميش وبارون ، وكذلك علـى امتداد ٢٠٠ متر قرب كفركلا ٠

وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٦ ، امر « وزير الدفاع الاسرائيلي » شمعون بيريز القوات « الاسرائيلية » على الحدود بالسماح « للاجئين المسيحيين من لبنان » بعبور الحـــدود · ولقد كان ذلك الامر بمثابة اعلان بدء مرحلة جديدة في الموقف والدور « الاسرائيلي » بالنسبة لاحداث لبنان : مرحلة « السياج اللطيف » ·

وفي ٢٩ كانون الثاني ، ذكرت صحيفة « السياسة » نقلا عن « مصدر في تل‌أبيب » ان اول « لاجىء عربي من لبنان » قد دخل الارض المحتلة ، وهي فتاة عمرها ١٥ عامـــا (هيلين سالم من القليعة) عبرت الحدود لتلقى العلاج ·

وتوالت الانباء عن دخول اشخاص لبنانيين الى الارض المحتلة كذلـك انشـــأت « اسرائيل » ثلاثة مستوصفات على الحدود (في المطلة ودوفيفا وحانيتا) وذلك بالاضافة الى توفير «خدمات طبية » داخل الارض المحتلة ·

وقامت «اسرائيل» بتنظيم عملية توزيع مياه في بعض المناطق الحدودية ، وشـــراء محاصيل المزارعين الجنوبيين ، كما ابدت استعدادها لفتح مطارها لكـــل راغب فـــي السفر من لبنان ، ومن ثم قامت بتقديم مساعدات من « الخضر والفواكه الطازجـــة ومنتجات الالبان » الى ابناء القرى الحدودية ، بالاضافة الى بيـــع المحروقات · وبعد ذلك اعلنت انها ستسمح للبنانيين بالعمل في البناء والزراعة » ·

وشكلت « اسرائيل » «لجنة اهلية لمساعدة لبنان » · وقيل انمهمتها العمل علـــى « مساعدة ضحايا الحرب في لبنان »(١٤) ·

ويقول « ايهود يعرى » في مقاله « السياج اللطيف اسلوب مؤقت » ان « السياج اللطيف يرتكز على استغلال الفراغ الجزئي للحكم في الجنوب ، والضائقة التي يعانيهـا السكان هناك ، وعلى مخاوف القرويين المسيحيين المعزولين والمنتشرين على طول خـــط الحدود ، وعلى احجام منظمة التحرير الفلسطينية عن تسخين المنطقة » (١٥) ·

ولئن كانت « اسرائيل » قد افادت من الفراغ النسبي-القائم في الجنوب ، ومـــن حاجة ابناء القرى الجنوبية للمواد الغذائية والتموين ، تلك الحاجة التي نجمت عن«الحرب اللبنانية » ، فان « السياج اللطيف » يشكل اداة هامـــة من ادوات تحقيـــق الاهداف الاسرائيلية · فعبر « السياج اللطيف » تمكنت « اسرائيل » من ان تعطي لنفسها صورة انسانية في العالـــم ، حيث ظهرت وكانها مهتمة بمصير ابناء القرى اللبنانية ·

كما ان « السياج اللطيف » ساهم في اظهار « انسانية » « اسرائيل » بالمقارنة مـــع ما ظهر خلال الحرب اللبنانية من جرائم لا اخلاقية ، وسادية ومجازر جماعية · كذلك مكن «السياج اللطيف» اسرائيل من دخول الجنوب من دون احتلاله ، واقامة علاقات مع جزء من جماهير المنطقة ، اعترف عمليا بوجود اسرائيل عبر التعامل معها · الامر الذي زاد من تعقيدات الوضع وتعقيدات الاحتمالات المستقبلية ·

« اسرائيل الطرف المباشر في الصراع »

في الفترة الاخيرة من « الحرب اللبنانية » ، بدأت « اسرائيل بلعب دور واضـــح ومباشر في الصراع - كذلك بدأت الانباء تتسرب عن العلاقات الوثيقة التي تربط بينهـا وبين الانعزاليين ، وعن الدرجة العالية من التنسيق بين الطرفين ·

فعلى اثر الصدام ما بين الجيش السوري والمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان ، وبعد ان بدأ النظام السوري عملية حصار على المناطق الواقعـــة تحت سيطرة القوى الوطنية حاولت اسرائيل احكام الطوق حول تلك المناطق ، عبر فرض حصـــار بحري على الموانىء الجنوبية التي تشكل المتنفس الوحيد لجماهير تلك المناطق ·

كما اقدمت اسرائيل على احتجاز عدد كبير من البواخر بتهمـــة تهريب الســـلاح والمقاتلين الى « المخربين » · الامر الذي ساهم في تنامي صعوبات وصول التموين للمناطق الواقعة تحت السيطرة الوطنية · وكانت « اسرائيل » تعمد في كثير من الاحيـــان الـــى احتجاز مواطنين عرب واستجوابهم ·

لقد اظهر الحصار البحري الذي قامت به « اسرائيل » على المدن الجنوبية درجـــة التنسيق (المباشر او غير المباشر) بين كل من الانعزاليين والنظـــام السوري والعـــدو الصهيوني · وذلك وسط صمت الانظمة العربية و « تعاميها » و « حيادها » غير المعلن ·

من جهة ثانية ، كشف في الاونة الاخيرة مدى اعتماد الاطراف الانعزالية على اسرائيل بالنسبة للتسليح · ولقد ذكر دين براون ، المبعوث الاميركي السابق الى لبنـــان ، ان « اسرائيل » اصبحت احد مصادر الامداد الرئيسية « للمسيحيين » ، وذلك في ندوة عقدت في العاشر من آب ١٩٧٦ (١٦) · وكشفت مجلة « درشترن » الالمانية ، في عددها الصادر في ١٢ اب ١٩٧٦ ، النقاب عن ان كميات كبيرة من الاسلحة والذخائر التي استخدمتفـي عملية اقتحام مخيم تل الزعتر كانت « اسرائيلية » · وقالت المجلة ان « جورج اسكندر » احد قادة « جبهة تل الزعتر » اشار ان الانعزاليين تسلموا طائرات من « اسرائيل » فـــي جونية ، بحيث اصبح بالامكان « قصف تل الزعتر من الجو » ·

اما مجلة « التايم » الاميركية ، فلقد ذكرت في عددها الصادر في ١٣ ايلول ، ١٩٧٦، ان بيريز قام باربع زيارات لجونيه ، حيث اجتمع مع مسؤولين انعزاليين ، وان رئيس الوزراء « الاسرائيلي » رابين رافقه في احدى الزيارات · واضافت المجلة ان كتيبـــــة من القوات « المسيحية والمسلمة » تتلقى التدريب على حرب المدرعات في قاعـدة تقـــع على طرف صحراء سيناء ، وان الكتيبة ستعود بعد انتهاء تدريبها ومعها ٣٨ دبابة اميركية من طراز « شيرمان » · واشارت المجلـــة الى ان « الاسرائيليين » يدربون ابنـــاء القرى الحدوديـــة ·

وتشير صحيفة « الواشنطن بوست » في عددها الصادر في ٢١ تموز ، ١٩٧٦ الى ان المراقبين العسكريين مقتنعين بان بامكان « المسيحيين » الحصول على امدادهم من السلاح مباشرة من مستودعات حكومة (اسرائيل) ·

واشارت الانباء الى ان اعداد كبيرة من المسلحين الانعزاليين قد دخلوا القـــرى المسيحية الحدودية (رميش ، القليعة ، دبل ، الخ •••) عن طريق الارض المحتلة ، وان اولئك المسلحين ينسقون تنسيقا كاملا مع القوات « الاسرائيلية » في لجنوب ٠

واعترفت نشرة لبنان ، التي يشرف عليها الانعزالي سعيد عقل بانه في حين لن تدخـل القوات «الاسرائيلية» الجنوب، فان « اسرائيل » ستستمر في مد الانعزاليين بالسلاح (١٧) ٠

لقد اضطرت « اسرائيل » الى اتخاذ دور اكثر مباشرة في الصراع في الفترة التـــي وقع فيها الانعزاليون في مأزق ٠ فقبل التدخل السوري العسكري ضد القوات المشتركـــة، كان الانعزاليون في وضع تراجعي ، بعد ان منيوا بسلسلة من الهزائم العسكرية ٠ ويبدو ان « اسرائيل » بدأت بشحن كميات ضخمة من الاسلحة للانعزاليين فـي تلـــك الفترة بالذات ، وذلك في محاولة منها لوقف التقدم الوطني ، ولوقف الخلل في موازين القـــوى لغير صالح القوى الانعزالية ، وكذلك لتحقيق ربط قطاع من الجماهير اللبنانيـــة بهـــا ، وظهورها وكأنها حليف وصديق ، لا بل « منقذ » لذلك القطاع ٠

كما ان « اسرائيل » ، بسبب احتدام التناقضات ، وازدياد امكانية الحسم تعد نفسها لمواجهة كافة الاحتمالات ، ولعب دور اكبر في الصراع فيما لو اضطرت لذلك ، وربما ايضا تحقيق احلامها التوسعية في الجنوب ٠ و « اسرائيـــل » تدرك جيدا هشاشة الانظمـــة العربية ٠ وهي بالتالي تعي ان تغيرا في الوضع السوري لا بد وان يحدث خللا كبيـــرا وهاما في موازين القوى ، الامر الذي سيكون له بالضرورة انعكاسات خطيرة على « امـــن اسرائيل » ٠ ولقد اعلن المسؤولون « الاسرائيليون » اكثر من مرة انهم لن يسمحـــوا للفدائيين بالعودة للانطلاق من الجنوب مهما كلف الامر ٠ من هنا ، فان « اسرائيل » لا تريد ان ينهار النظام السوري وهي غير قادرة على التصدي للظرف الجديد الناشيء ومـا يتضمن من تعقيدات ٠ ويبدو ان الانعزاليين اللبنانيين مدركين أيضا لابعاد هـــذه النقطة ، وبالتالي فانهم يجدون في « اسرائيل » حليفا اكثر مصداقية ، واكثر مدعاة للثقة مـــن النظـــام السوري ٠

واستفاد « الاسرائيليون » من شريط القرى المسيحية التي دخلها اعداد كبيرة مـــن المسلحين الانعزاليين، لتشكيل نوع من الحزام الامني على الحدود الشمالية للارض المحتلة٠ كما انهم خلقوا بذلك ذريعة لتدخل اكثـــر مباشرة فيما لو دعت الحاجة بحجة حمايـــة « الاقلية المسيحية » في تلك القرى ٠

اسرائيل « الطرف في واجهة الصراع »

كما كانت « اسرائيل المراقبة » شرطا ومدخلا « لاسرائيل السياح اللطيف » ، وكمـا كانت « اسرائيل السياح اللطيف » كذلك شرطا ومدخلا « لاسرائيل الطرف المباشـــر في الصراع » ، فان « اسرائيل الطرف المباشر في الصراع » شرط ومدخل « لاسرائيل الطرف في واجهة الصراع » ٠

وفي حين حاولت اسرائيل طوال الفترة الماضية ان تحقق اكبر قدر ممكن من اهدافها

باقل قدر ممكن من الخسائر والاضرار التي تلحق بها ، فان استمرار الصمود الوطني ، وانهيار حلقات المؤامرة الاستعمارية الصهيونية ، سيعيد اسرائيل بالضرورة الى واجهة الصراع ، وبالتالي ستجد نفسها مضطرة لخوض مواجهة عربية ـ اسرائيلية جديدة ، قد ينجم عنها « الحرب الخامسة » ٠

ويمكن القول بالتالي ان «الدور» الاسرائيلي الحقيقي المباشر في لبنان لم يبدأ بعد، بمعنى ان « اسرائيل » التي تمثل جزءا من الاحتياطي الاستراتيجي بالنسبة للمخطط الاستعماري الصهيوني ، لا تزل الى حد ما خارج المشاركة الفعلية في الصراع ، ولكنها تستعد ـ ككل قوة احتياطية ـ لدخول الحلبة بكامل قواها ، عندما تظهر في الافق ملامح تغيير موازين القوى في المنطقة العربية لصالح قوى التحرر والتقدم وفي طليعتها ثوار فلسطين ، او عندما تقنع ان اوان « قطف الثمار » قد حان ٠ ووجود هذا الاحتياط واعلانه عن استعداده للتدخل عند اللزوم ، يعطي النظام السوري « مبررا » لمتابعة عمله في لبنان لسحق المقاومة والحركة الوطنية ، بحجة « ضبط الامور » و « حماية الامن القومي » (!) ، ويعطي قادة الانعزاليين بالتالي فرصة للحديث (وهذا اضعف الايمان) عن الاستعداد لتحرير كل لبنان «من الفلسطينيين والشيوعيين» ، مع ان هؤلاء القادة يعرفون ان قوتهم لا تكاد تكفيهم لتامين الدفاع ٠

وهكذا تتدخل « اسرائيل » مباشرة عبر الحصار البحري ، وتسليح الانعزاليين وتدريبهم ، وخلق الجيب « الانعزالي » (الاسرائيلي) في الجنوب ٠ وتتدخل «اسرائيل » ايضا عندما تهدد بالتدخل ، فتعطي ذريعة لعدم ارسال قوات امن عربية بالحجم الذي تتمكن معه من وضع حد للقتال في لبنان ، كما تعطي ذريعة للنظام السوري ليقوم بالدور المرسوم له في المخطط الاستعماري الصهيوني ٠ الا ان التدخل « الاسرائيلي » سيكبر مع سقوط الحلقة الراهنة في المؤامرة ، او عندما تجد « اسرائيل » ان الظرف يسمح لها بقطف ثمار المرحلة الراهنة من التآمر على الامة العربية وتطلعاتها وآمالها ٠

لقد وجدت « اسرائيل » في قلب العالم العربي لتكون اداة لضرب الامة العربية باسرها ، والرد الطبيعي على ذلك هو ان تكون جميع القوى العربية معبأة لتهديد « اسرائيل » ، واجبارها على استخدام قواتها لحماية حدودها ، واستنزاف هذه القوات في حرب مستمرة يكون للفلسطينيين فيها مكان اساسي بين اخوانهم من المقاتلين العرب٠ ولكن سياسة الردع « الاسرائيلية » ، ومخططات السياسة الامبريالية الاميركية ، وتشابك المصالح الاقتصادية ، اخرجت بعض القوى العربية من المعركة ، وجعلت البعض الاخر (في الاردن ولبنان) يلعب دوره في حراسة الحدود « الاسرائيلية » ، ويضرب المقاومة التي تهدد هذه الحدود ، وتخلق حولها المناخ الملائم لبناء قاعدة الانطلاق لحرب التحرير الشاملة ٠ وفي هذا المجال تدخل الاحداث اللبنانية ، وضمن هذا المنظور يمكن تقييم التدخل « الاسرائيلي » في هذه الاحداث ٠

الحواشي :

* كتب هذا المقال قبلمعركة بحمدون وقمة الرياض وما تلاها من تطورات ، ان على صعيد القرار بارسال قوات امن عربية، او على صعيد تفاقمالاوضاع فيالجنوب.

ومن جديد ، اضطرت اسرائيل للعب دور اكبر في الاحداث اللبنانية ، فمن جهة عاد الحديث حول « خط احمر» بالنسبة لقوات الامن العربية . ومن جهة ثانية تصاعدت حدة المواجهة في القرى الحدودية في لبنان . وترمي اسرائيل في الفترة الراهنة الى استكمال الحزام الامني على الحدود،ووضع القوى العربية (قوى مؤتمر الرياض) في وجه الثورة الفلسطينية ، وتعميق « تحالفها » مع قطاع جماهيري لبناني ، بالاضافة الى خلق ذريعة لتدخل اكثر مباشرة فيما لو تمكنت المقاومة من تجاوز الضغوطات التي ستتعرض لها من قبل الاطراف العربية . وتجدر الملاحظة ان انكشاف الدور الاسرائيلي ، وازدياده وضوحا ، يعطي الثورة وحركة الجماهير سلاحا هاما في المواجهة ، كما انه يفقد اسرائيل سلاحا هاما وهو رغبتها المتواصلةفي وضع قوى عربية في وجه الثورة ، وتحقيق اهدافها بأقل قدر ممكن من الخسائر .

(١) تصريح « جدعون هاوزنر » ، الوزير بلا وزارة في حكومة رابين. « يديعوت احرونوت » ، ٩ ـ ٣ ١٩٧٥.
(٢) المسفير ، ٢١ ـ ١١ ـ ١٩٧٥ .
(٣) النداء ، ٣ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ .
(٤) « هآرتس » ، ٧ ـ ٣ ـ ١٩٧٥ .
(٥) « يديعوت احرونوت » ، ١٦ ـ ٦ ـ ١٩٧٥ .
(٦) السفير ، ٢ ـ ١ ـ ١٩٧٦ .
(٧) السفير ، ٢ ـ ١ ـ ١٩٧٦ .
(٨) « نيوزويك » ، ١٣ ـ ١٠ ـ١٩٧٥
(٩) السفير ، ١٦ ـ ١٠ ـ ١٩٧٥ .
(١٠) الانوار ، ١٣ ـ ٤ ـ ١٩٧٥ .
(١١) الانوار ، ٣ ـ ٦ ـ ١٩٧٦.
(١٢) السفير ، ٩ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ ١.
(١٣) « دافار » ، ٢٧ ـ ٥ ـ ١٩٧٥.
(١٤) المحرر ، ٤ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ .
(١٥) « دافار » ، ٢٥ . ٦ ـ ١٩٧٦
(١٦) « موندي مورنينغ » ، ٢٣ ـ ٨ ـ ١٩٧٦ .
(١٧) لبنان ، ٨ ـ ٩ ـ ١٩٧٦ .

وثيقـــة :

"مشروع كنيغ" بشأن الموقف من العرب في اسرائيل

(ترجمة من العبرية ، نقلا عن صحيفة « عل همشمار » ، ٧٦/٩/٧ ، ص ٤)

(يسرائيل كنيغ هو متصرف لواء الشمال في وزارة الداخلية ـ الجليل ، الذي يضم اقضية عكا والناصرة وطبريا وصفد ، حيث تعيش اكثرية العرب في اسرائيل)

نص المشروع :

مقـدمـة :

١ ـ سادت الدوائر المسؤولة عن السكان العرب ، حتى قبل وقت قصير للغايـة ، اراء تقول ان قبول هذا الجزء من السكان بوجود دولة اسرائيل هو كامل ، وان اكثريتهم تمر في مراحل متقدمة من التماثل مع الدولة والاندماج في مؤسساتها المختلفة · هكذا،على الاقل ، اتضح « للمهتمين » (بالشؤون العربية من بين اليهود) والمقربين الى المراكـز الاجتماعية للعرب ، سكان الدولة ومواطنيها ·

٢ ـ وقعت اخيرا عدة حوادث مست بهذه الفرضيات ، ووضعت علامة سؤال كبيـرة على ولاء جزء كبير من اولئك السكان للدولة ولمجرد وجودها ·

لقد ظهرت حقا شكوك حول طريقة التفكير في شؤون عرب اسرائيل ومعالجتهـا قبل بضع سنوات ، لاسباب ستوضح فيما يلي ، ولكنها كانت متعارضة مع مفاهيـم « المستعربين » ولذلك اسكتت حالا · ويبدو لنا انـه لا نقاش الان حول ضرورة البحث في « بديهيات » ، كانت تعتبر اسسا مسلما بها حتى الفترة الاخيرة ·

٣ ـ بعد اقامة الدولة ، وجدت البقية التي بقيت من السكان العرب ، نفسهـا دون زعامة · وتكونت اقلية وجدت نفسها ملزمة بالتكيف مع واقع الدولة اليهوديـة ،

المتي تعيش في حالـــة حرب مـــع جاراتها العربيات ، وتثبيت نفسها من خـــلال استعمال القـوة ضدهم ٠

اما الحكم العسكري ، الذي تسلم اولئك السكان ، فقد قوى سلطة « للوجهـــاء » . وانسجم بذلك مع المجتمع العربي القائم على العمائـــلات ٠ وادى الغاء الحكـــم العسكري الى اهتزاز نفوذ « الوجهاء » ومن دار في فلكهم ٠ وادى اهتزاز علاقـة الفـــرد بالدولة ـ الحكم العسكري ـ الى شعور جيل الشباب بالقوة التي يمنحه اياها مجتمـــع ديمقراطي من ناحية ، وتحول المجتمع العربي من مجتمع زراعي الى صناعي ، مع ما يتبـــع ذلك من النواحي الاجتماعية ٠

وبالاضافة الى ذلك ، اجبر تمرد جيل الشباب ، احيانا ، المتقدمين في السن علـــى الانضمام الى معسكر المتمردين ، وجعل من الدولة هدفا لنضالهم ، اذ لم تكن الظروف جاهزة لارتباطهم بالمجتمـــع اليهودي والدولـــة بشكل سليم ومثمـــر ٠ يضاف الى ذلـــك اننـا ساعدنـا ، من ناحيتنا ، على الخروج عن الطوق بمحاولتنا كسب المتمردين « بوسائل » مختلفـــة ٠

خلال الخمسينات ، كان المجتمع العربي مرتبطا من الناحية الاقتصادية بالاقتصـــاد اليهودي ، الذي انفتح تدريجيا امام العرب على مصراعيه ، نتيجة لهرب العمال اليدويين اليهود من العمل في مجال الاشغال اليدوية ٠ وادى ذلك الى نشوء طبقة ميسورة اقتصاديا ، اصبح حسن سير اقتصاد الدولة متوقفا عليها ، الى حد بعيد ٠

٤ ـ مع الغاء الحكم العسكري ، سلمت الدولة مجال الاهتمام بالقضايا العربيـــة الـى متحدثين بالعربية (من بين اليهود) ، الذين اختاروا العناصر الشرسة (من بين العرب) وجعلوا منهم زعماء ، من خلال تدعيم مراكزهم وقواهم للحصول على منافع مادية لهـم وللمقربين منهم ٠ وقاموا بذلك متجاهلين المشاكل الاجتماعية في الوســـط العربي مـــن ناحية ، وانعدام التخطيط للمدى البعيد بشأن خلق نموذج مواطن عربي موال للدولـــة من ناحية ثانية ٠

وكانت المقاييس لتقييم العاملين في المجال العربي ، على المستوى السياسي والعسكري وفي الشرطة وفي المجال المدني ، هي مقاييس العقلية العربية ٠ ولم تلاحظ على هؤلاء العاملين دائما علائم المقدرة على التفكير والتنفيذ بمستوى يفوق مستوى السكـــان الذين يفترض معالجة مشاكلهم ، وكان ذلك يجري بدلا من المحافظة على مستوى التفكير المستقل والقدرة على تحليل الظواهر المزعجة من ناحية ، ومحاولة حل المشاكـــل من خـــلال تفكير موضوعي يؤمن المصالح اليهودية ـ القومية على المدى الطويل من ناحية ثانية ٠

٥ ـ ان واقـــع لواء الشمال ، حيث تعيش اكثريـــة عرب اسرائيل ، وموقعـــه الجغرافي ووضع السكان اليهود فيه يبرز بشكل ملموس المشاكل التي نشات حديثـــا ، وما قد ينجم عنها على المدى القريب والبعيد ٠ واحدى الظواهر الاكثر اقلاقا هي فقدان اليهودي لصبره تجاه المواطن العربي ، وفي بعض الاحيان يمكن ان نلحظ عداء ، قـــد يدفع بعد تحرش بسيط الى انفجار غير مرغوب فيه ،وتصعب السيطرة عليه ، وتكـــون

له نتائج واصداء سلبية في البلد ، وخصوصا في الخارج · (انظر قرارات منظمةالطلبة العرب الجامعيين في حيفـــا بشأن عـدم القيام بحراسة مساكـن الطلبة ، عندما سمـــح لهم بدفع بدل حراسة) ·

وهناك عامل قوي يؤدي الى مضاعفة هذا التوتر النفسي بين السكان اليهود ، وهو اهتزاز التوازن الديمغرافي في المناطق ، وهو اهتزاز يشعر به كـــل فرد (يهـــودي) ويخشـــاه ·

وفي اطار هذه المذكرة ، سنشير الى عدد من المسائل المعقدة ، من خلال شـــرح ارضيتها ، ونقدم توصيات لحلها ·
اما المواضيع التي ستبحث فهي :

أ) المشكلة الديمغرافية ، وظواهر القومية العربية ·

ب) الزعامة العربية وانعكاساتها ·

جـ) الاقتصاد والتشغيل ·

د) التعليم ·

هـ) تنفيذ القانون ·

أ ـ المشكلة الديمغرافية وظواهر القومية العربيـــة

١ ـ يبلغ التكاثر الطبيعي للسكان العرب في اسرائيل نحو ٩ر٥ ٪ في السنة ، مقابل تكاثر طبيعي للسكان اليهود بمعدل ٥ر١ ٪ في السنة ·

ان هذه المشكلة شديدة بشكل خاص في لواء الشمال ، الذي يضم عددا كبيرا مـــن السكان العرب · ويبلغ عدد اولئك السكان ، في منتصف ١٩٧٥ ، في لواء الشمال نحـو ٢٥٠ الف نسمة ، بينما بلغ عدد اليهود نحو ٢٨٩ الف نسمة · واذا نظرنا بحسب الاقضية، نرى انه في الجليل الغربي تبلغ نسبة العرب نحو ٦٧ ٪ من السكان · وفي قضاء يزراعيل (اي الناصرة) تبلغ نسبتهم نحو ٤٨ ٪ من السكان · وخلال سنة ١٩٧٤ ، زاد عـــدد السكان اليهود في لواء الشمال ٧٥٩ نسمة ، بينما زاد عدد السكان العرب ٩٠٣٥ نسمة · وبحسب نسبة الزيادة هذه ستصل نسبة السكان العرب في هذا اللواء الى ما يزيـــد على ٥١ ٪ سنة ١٩٧٨ ·

ويشعر القوميون ـ وهذا تقديري ايضا بالنسبة للسكان العرب ـ ان تكاثرهـــم في الجليل يكمن فيه الخطر الذي يهدد مجرد سيطرتنا على المنطقة ، ويفتح المجـــال لدخول قوات عسكرية من الشمال الى اسرائيل ، ويؤثر في تعاظم الشعور القومي لـدى

عرب اسرائيل واستعدادهم للمساهمة في ذلك ٠

٢ ـ حصل لدى السكان العرب في اسرائيل زخم قومي منذ حرب الايـــام الستة ٠ فسياسة الاتصال الحر مع الضفة الغربية وسياسة الجسور المفتوحة ادت الى تجديد اللقاء بين عرب يهودا والسامرة وفلسطينيي شرق الاردن من جهة ، وعرب اسرائيل من جهـــة اخرى ، وخلقت اساسا للوقوف بهامات مرفوعة ، وخلقت ارضية لشعارات النضال القومي في اسرائيل ٠ هذا التطور الحتمي وجد قوة دفع اضافية بسبب نتائج حرب يوم الغفران (حرب اكتوبر ـ ١٩٧٣ ـ المترجم) وتدعم بسبب الاحداث السياسية الدولية التي تم التعبير عنها بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كحاملة للواء النضال من اجـــل القضيـة الفلسطينية ٠

ويتردد في الاونة الاخيرة ذكر قرار الامم المتحدة حول حدود اسرائيل في العـــام ١٩٤٧ والذي بموجبه تقع اقسام كبيرة من هذه المنطقة خارج حدود دولة اسرائيل ٠

ان العربي الاسرائيلي لم يعد محمولا ، فقد انتقل الى حالة التعبيـــر عن قوميتـه كلاميا فقط في هذه المرحلة ٠ وقد ظهر هذا في عدة احداث هذه ابرزها :

أ) في اثناء زيارة رئيس الحكومة الى الناصرة قبل سنة ٠

ب) الهتاف بشعارات تأييد لمنظمة التحرير الفلسطينية في اثناء المظاهرات والمناسبات الاخـــرى ٠

ج) موقف الطلبة العرب في الجامعات من موضوع الحراســـة ٠

د) التعبير عن الشعور القومي عن طريق الاقتراع في انتخابات بلدية الناصرةالتي جرت في ٩ ـ ١٢ ـ ١٩٧٥ ٠

هـ) تطوع سكان الناصرة غير العادي وغير المتوقع لمساعدة بلدية الناصرة عن طريق تسديد اقساط مستعجلة لخزينة البلدية الامر الذي يساعد حزب ركـــاح (القائمـــة الشيوعية الجديدة) في هذه المرحلة على تسيير ادارة المدينة ٠

و) اجتماع احتجاجي شعبي في قرية سخنين بتاريخ ٧٥/١٢/١٤ وقد اعلـــن رئيس بلدية طمرة في هذا الاجتماع ان على اسرائيل ان تخشى عرب اسرائيل اكثر ممـــا تخشى العرب خارج حدودها ٠

ز) القرارات التي اتخذت خلال اجتماع عقد في الناصرة يوم السبت الموافق٧٦/٣/٦ وهـــي :

١ ـ اعلان الاضراب العام لدى سكان اسرائيل العرب ليوم واحد ، واعطـــاء ذلك

اليوم اسم « اضراب يوم الارض » ٠

٢ ـ دعوة السكان العرب الى عدم الاكتفاء بالاحتجاج السلبي بل « الاحتجاج عن طريق النضال وانهاء النضال فقط في اخر المطريق ٠٠٠ »

٣ ـ الاضراب عن الطعام امام مباني الامم المتحدة باسلوب الاحتجاج نفسه الذي يجرى بشأن سجناء صهيون ٠

٤ ـ « الحكومة بيتها من الزجاج وعلينا ان نكون اول من يرمي الحجارة لتحطيم هذا البيت » ٠

٥ ـ قول رئيس بلدية معليا ـ مسعد قسيس ـ المعتبر شخصيا « ايجابيا » ، وهو نائب سابقلقائمة تابعة للمعراخ (في اجتماع الناصرة المذكور) : « ٠٠٠ ما هو حق اسرائيل المعنوي في مصادرة الاراضي في هذه المنطقة التي تقع بموجب قرار التقسيم من عام ١٩٤٧ ، خارج دولة اسرائيل » ٠٠

هذه الظاهرة تعتبر جديدة نسبيا وتشير الى رغبة جزء هام من السكان في الاحتجاج ضد الحكم الاسرائيلي ولو بنبرة منخفضة ٠ وهذه حقيقة خطيرة جدا بالمقارنة مع سلوكهم في الماضي ٠

ان عهد انتصارات الفلسطينيين في العالم ومكاسب القوميين في اسرائيل تشير الى اتجاه نحو مواجهة مكشوفة مع المشكلة العربية في اسرائيل ٠ وهذا الاتجاه سوفيتعاظم طالما انفرد حزب ركاح (القائمة الشيوعية المجديدة) في حمل لواء معارضة مؤسسة الحكم الاسرائيلية ٠ (يجب ان نذكر ان كلمة « اسرائيل » لا تظهر في اسم ركاح وليست هذه مجرد صدفة) ٠

٣ ـ توقعات

١) تكاثر السكان العرب (من ١٥٠٫٠٠٠ نسمة سنة ١٩٤٨ الى ما يزيد على ٤٣٠٫٠٠٠ نسمة سنة ١٩٧٥) يعطي القوميين العرب احساسا بالقوة والامل ، بان الوقت يعمل لصالحهم ٠ خصوصا في منطقة مثل شمال البلاد ، حيث يشكل الوجود العربي الكثيفي مناطق متصلة ، حاجزا مانعا ٠

ب) ان سيطرة حزب ركاح على مؤسسات « شبه حكومية » مثل المجالس المحلية ليعطي قاعدة قانونية لنشاطات قومية سياسية علنية وسرية ، من خلال تبني الاساليبالتي كانت متبعة في التجمعات السكانية اليهودية « قبل الدولة » وكذلك اساليب شيوعية مالوفة في العالم ٠ وفي الواقع توجد اليوم عدد من المجالس المحلية تحت سيطرة ركاح وفي رأينا ان هذه المجالس غير مستغلة ، عن سابق تعمد ، للقيام بالوظائف المذكورة ، بسبب غياب كوادر كافية للتنفيذ ، وبسبب فقدان الامكانات التنظيمية الكافية لذلك ٠ وفي

رأينا ان عدد الطلاب في جامعات اوروبا الشرقية الحاصلين على منح من ركاح يتزايد باستمرار بغرض اعداد هذه الكوادر ٠

ج) هناك خوف جدي من انه خلال العقد المقبل ستنفذ عملية استيلاء عربية من الناحية الديمغرافية والسياسية على عكا ومنطقة الناصرة ٠

د) يجب الاخذ في الحسبان انه في احدى مراحل العمل السياسي المعادي قد يطلب بشكل أو بآخر اجراء استفتاء عام في شمال البلاد في الوقت الذي يشكل فيه العرب اغلبية السكان ٠

هذا العمل سيحدث بتوجيه من الخارج ، ولكن القائمين به قد يكونون يساريين – قوميين من اوساط السكان العرب في الدولة ٠

هـ) قد يحدث في مرحلة معينة تنفيذ عمل استفزازي مخطط له بواسطة ركاح (او بواسطة عرب بغرض حدوث هيجان لدى عناصر يهودية غير منضبطة ، الامر الذي من شأنه ان يؤدي الى عرض موضوع عرب اسرائيل على المنابر الدولية ، ومن شأنه ايضا ان يدفع المعتدلين من عرب اسرائيل الى حالة يضطرون فيها الى تأييد خطوات متطرفة داخل الدولة وخارجها ٠

و) بدأت تظهر عمليات منظمة لشراء العرب عقارات في مناطق الشمال ويظهر ذلك بشكل بارز في الناصرة العليا وعكا ويظهر بشكل مثير للقلق في مرج ابن عامر ٠

٤ ـ اقتراحات

أ) يجب توسيع وتعميق الاستيطان اليهودي في المناطق التي تبرز فيها الكثافة السكانية العربية ويزيد فيها عدد السكان العرب على عدد السكان اليهود بدرجة تزيد عن الحد المقبول ، ويجب درس امكانية تخفيف عدد السكان في التجمعات السكانية العربية القائمة ٠

يجب توجيه اهتمام خاص الى مناطق الحدود في شمال غرب الدولة ومنطقة الناصرة ٠ التوجه وسرعة التنفيذ يجب ان يخرج عن اطار المألوف الذي كان متبعا تجاه هذه المواضيع حتى الآن ٠ وبموازاة ذلك يجب تطبيق قوانين الدولة بغرض تقييد « عمليات الاستيطان » العربية في اقسام الدولة المختلفة ٠

ب) يجب في الوقت نفسه الاهتمام بايجاد زعامة يهودية قوية وثابتة في الناصرة العليا (اليهودية) وفي عكا تكون قادرة على مواجهة التطورات الخطيرة المتوقعة ٠

ج) اتباع سياسة الثواب والعقاب (ضمن القانون) بالنسبة الى القادة والقرى الذين يتكلمون باية صورة معادية للدولة وللصهيونية ٠

د) من اجل تجريد حزب راكاح من « الزيادة » في حمل لواء .النضال القومي وتمثيل عرب اسرائيل ولاعطاء متنفس للجالسين على « الحافـــة » يجب تأسيس حزب شقيـــق لحزب العمل يكون التركيز فيه على مبادىء المساواة والانسانيات والثقافة واللغـــة والنضال الاجتماعي ورفع علم السلام في المنطقة · وعلى المؤسسات الحكومية ان تهيء نفسها من اجل ان يكون لها وجود خفي في هذا الحزب وان تتحكم فيه ·

هـ) يجب اتباع سياسة تنسيق كامل ومطلق بين الوزارات والهستدروت والسلطات المحلية خصوصا في المستوى التنفيذي على الطبيعة والاصرار على التنفيذ بصورة صارمة·

و) بذل كل جهد ممكن من أجل التوصل الى وفاق قومي بين كل الاحزاب الصهيونية حول موضوع عرب اسرائيـــل بغرض اخراج هذا الموضوع عن مجال الصراعـــات السياسية الداخلية ·

ب ـ الزعامة العربية وتأثيرها

ا ـ المجتمع اليهودي الديمقراطي والمفتوح والذي وجد السكان العرب الذين بقـوا في البلاد أنفسهم فيه بعد قيام الدولة لم يستوعبهم سواء من ناحية التقاليد والانفتاح · واليهـــود الذين اوكلت اليهم مهمة معالجة شؤون هؤلاء السكان العرب وكان هدفهـــم جعل هؤلاء السكان مخلصين لمجتمع اليهود الذي قام في دولتهم لم ، ينجحوا في ذلك · بل بالعكس ، هناك دلائل واضحة على ان كل الخطوات اتبعت من اجل المحفاظ على طابعهـــم الخاص وعزلهم من جهة وعلى محاولات ترمي الى كسب اهتمام انتقائي ومعاملة خاصة ومميزة من جهة اخرى ·

ومع ذلك سمعت التصريحات صباحا ومساء حول المساواة والاندماج وغير ذلك ولكن الافعال كانت مناقضة تماما · هذه السياسة لم تأخذ في الحسبان الطبيعـــة العربيـــة الشرقية السطحية غير المتعمقة والتي تتميز بعمل الخيال اكثر من عمل العقل ·

التعبير الحاد لهذه السياسة المتناقضة هو « تتويج » ممثلين وزعماء للسكان العرب· حتى اليوم لا يوجد أي مسؤول عربي « ايجابي » منتخب على المستوى المحلي ·

ان المجتمع العربي في اسرائيل الذى يمر بمخاض الانتقال من مجتمع زراعي ذي اسس قائمة منذ اجيال الى مجتمع صناعي والى تحطيم الاطارات العائليـــة والدينيـــة والاجتماعية يعاني بالاضافة الى ذلك من الضياع القومي ·

هذا الضياع يتميز بالخطورة ويضع كل فرد امام قرارات حاسمة واحيانا مصيرية · ان مجتمع فترة الانتقال في هذه المراحل في حاجة الى قادة قادرين على ان يكونوا نموذجا شخصيا وان يتملكوا الصفات التي تمكنهم من الاجابة عن اسئلة المرتبكين المخلصين ومـــن سوقهم الى الحل المعقول على الصعيد الشعبي والشخصي ·

ولكن كما ذكرنا في المقدمة لم يكن هذا الاختبار هو الاساس للحصول على شهـادة « زعيم » بل أن الشخص العنيف صاحب المسطوة الذي قلما يكون انسانا مستقيما يصبح ممتلا لرافعي لواء عرب اسرائيل ·

٢ ـ الجيل الثاني الذي تربى في المجتمع الاسرائيلي ويحاول ان يكتسب ولو بصورة سطحية فقط اساليب الحياة الاسرائيلية لا يستطيع ان يتقبل هؤلاء الزعماء · لقد كـــان من الممكن ملاحظة علامات على ذلك منذ عشر سنين ، وكان من الواجب على المسؤوليـــن المختصين بهذه المواضيع ان يخلقوا شخصيات مقبولة بالنسبة للجيل الثاني وان يخلقـــوا مع ذلك اخلاصا تجاه الدولة · وفي رأينا انه اذا كان هذا التقصير قد نجم عن عدم مقدرة او عن تعمد ، فان نتائج ذلك من الممكن ان تنطوي على كارثة · ان احد الدوافع الاساسية للتردي الواقع اليوم هو التحفظ على هذه الزعامة (انظر انتخابات بلدية الناصرة) ·

٣ ـ توقعـــات

أ) الصراع بين ذوى المناصب المختلفة والجيل المتمرد سوف يتصاعد بينما سيكون الاوائل معتمدين في الاساس على مؤسسات الحكم الهستدروتية والحزبية ·

ب) ستكون النتيجة أن الصراع على السلطة والمنصب سيتحول الى صراع ضـــد مؤسسة الحكم والدولة ، والاكثرية ستنتقل باستمرار الى جانب المتمردين ·

ج) العناصر المعادية للدولة سوف تستغل بشكل واسع هذه الازمة الاجتماعيةوسوف تجيرها لمصالحها واصداء ذلك سوف تستغل من على منابر مختلفة في الداخل والخـــارج كنضال اجتماعي وقومي ·

د) في رأينا ، اذا استمر التدهور على الوتيرة الحالية ، فسوف ينجح حزب راكاح بعشرة نواب في الانتخابات المقبلة للكنيست ·

٤ ـ اقتراحـــات

أ) يجب اتخاذ خطوات جريئة يجرى بموجبها تغيير معظم العاملين في القطـــاع العربي التابعين للاجهزة الحكومية والشرطة والاحزاب بما في ذلك واضعي السياسة ·

ب) يجب التخلص من « الزعامة » العربية الحالية التي لا تمثل السكان العـــرب والتاكيد على عدم تضامن الحكم معهم ·

ج) على أولئك الذين توكل اليهم المهمة البدء مباشرة ببناء شخصيات جديدة ذات مستوى ثقافي واستقامة شخصية تتمتع بمواهب قيادية ، ومساعدتها على تاسيس حـــزب عربي كما ذكرنا اعلاه ·

د) يجب تعيين لجنة خاصة (من الاستخبارات العامة) مهمتها تقصي السلوك الشخصي لقادة راكاح والشخصيات السلبية الاخرى ونشر هذه المعلومات امام جمهور ناخبيهم ٠

هـ) اتخاذ خطوات فردية ضد كل شخصية سلبية في كل المؤسسات والمستويات ٠

ج ـ الاقتصاد والعمل

١ ٠ النمو والرخاء الاقتصادي اللذان مرا على سكان الدولة خلال سنوات وجودها شملا ايضا السكان العرب ٠ وفي الحقيقة يبرز هذا الامر بشكل اوضح في ضوء كون معظم الذين بقوا في حدود الدولة بعد معارك ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ هم من الفقراء٠ان الفارق الشاسع بين العرض والطلب على الايدي العاملة في الاقتصادبكل فروعه وخاصة فرع البناء وورش اصلاح السيارات وكل الاعمال اليدوية بشكل عام ، والتبعية التي تميز فروع اقتصاد كثيرة مرتبطة بهذه الايدي العاملة،اعطت شعورا بالقوة لعرب اسرائيل الامر الذي استغلته الجهات المهتمة بذلك ٠

٢ ٠ المساعدة المتبادلة المألوفة حتى اليوم بين افراد العائلة ، وعدم وجود وعي حول توظيف المال في مشاريع انتاجية اكبر من المشاريع متوسطة الحجم ، ادت الى تراكم فائض اموال نقدية كبير جدا في أيدي السكان العرب ٠ هذه الاموال تخفى عن سلطات الضرائب المختلفة ٠ ويجب التأكيد على انه بينما يشكل عدد السكان العرب ١٤ ٪ ولا تحصل لديهم ظاهرة « اقتلاع » الايدي العاملة عن طريق التجنيد للخدمة العسكرية لمدة ٣ سنوات،فان مجموع الضرائب التي يدفعها السكان العرب هو ٥ر١ ٪ فقط ٠ وهكذا يؤمن السكان العرب بصورة اساسية ، مستقبلهم الاقتصادي ٠ كذلك فان تركيب الاعمار (نصف السكان شباب عامل) له مدلول هام : دخل عال لكل عائلة ٠ وبالاضافة الى ذلك هناك منح حكومية (التأمين الوطني) للعائلات التي يزيد عدد اولادها على الاثنين (٩٥ ٪ من العائلات العربية في اسرائيل) ٠

٣ ٠ هناك موضوع بارز بشكل خاص في المنطقة الشمالية ، بسبب التجمع السكاني العربي الكبير فيها وهو المشاريع التي تقيمها الدولة في المنطقة وتوظف لها اموالا ضخمة بغرض زيادة عدد السكان اليهود ٠ هذه المشاريع تجعل عدد العمال العرب فيها يصل الى نسبة تتراوح بين ٢٥ ٪ و ٥٠ ٪ ٠

الطمأنينة الاجتماعية والاقتصادية هذه ، التي تحرر الفرد والعائلة من القلق والهموم اليومية تمنحهم من حيث يدرون او لا يدرون متسعا من الوقت للتفكير في امور «اجتماعية ـ قومية» وهذه الافكار تستغلها عناصر معادية لتوليد ظواهر الغليان والتذمر على انواعها ولخلق شعور بالقوة وبوجود امكانات الاحتجاج الشعبي ٠

٤ ٠ توقعات

١ ـ تجميع الاموال وخاصة السوداء منها (الهربة من الضريبة ـ الترجم) في ايد

غير مرغوب فيها ، وهي تقدر بمئات الملايين ، من الممكن ، بالاضافة الى الضرر الاقتصادي الناجم عن ذلك ، ان تشكل قاعدة للتبرعات التي تجمعها عناصر معادية (ذكرنا كيف جرى التطوع لدفع الاقساط لبلدية الناصرة) ٠

ب ـ كثرة عدد العمال العرب في المصانع والمشاريع قد يؤدي الى الاسراع في عملية الاحتكاك بين اليهود والعرب ، ومن شأن ذلك ان يتطور الى اصطدامات غير مسيطر عليها ٠ وبالاضافة الى ذلك هناك امكانية سيطرة حزب « ركاح» على لجان العمال ٠

جـ ـ ان تركيز السيطرة على قطاعات اقتصادية معينة يمكن العرب من الاضراب او عدم التعاون مما سيؤدي الى اضرار اقتصادية بالغة للدولة وعلى الخصوص اضرار سياسية عن طريق ابراز وزنهم كعامل مهم في اقتصاد الدولة ٠

د ـ هناك مصاعب آخذة في التفاقم بالنسبة لاستيعاب مستخدمين يهود خاصة في الشمال حيث هناك اهتمام خاص بزيادة عدد السكان اليهود على انواعهم ٠

٥ ـ اقتراحات

أ ـ يجب وضع اتفاقات مناسبة مع كل ادارة مشروع او معمل خاضع ل « قانون استثمار رأس المال » في المناطق الحساسة (كما ذكرنا اعلاه) بحيث لا يزيد عدد العمال العرب فيها على نسبة ٢٠ ٪ ٠

ب ـ على سلطة الضرائب اتخاذ خطوات سريعة لتعميق الجباية ولتنفيذها بصورة صارمة وبدون اي استثناء ٠

جـ ـ يجب التوصل الى تسوية مع مصادر التسويق المركزية للمواد الاستهلاكية على انواعها ، يكون من شأنها تحييد الوكلاء العرب ووضع العقبات امامهم خاصة في منطقة الشمال بغرض منع اعتماد السكان اليهود على الوكلاء العرب وخاصة في اوقات الطوارىء ٠

د ـ على الحكومة ايجاد طريقة يمكن بواسطتها تجنب اعطاء المنح للعائلات عديدة الاولاد لدى السكان العرب اما بواسطة ربط المنحة بالوضع الاقتصادي او بواسطة مصادرة هذه الاموال من التأمين الوطني واعطائها للوكالة اليهودية او المنظمة الصهيونية بحيث تكون مخصصة لليهود فقط ٠

هـ ـ العمل على ايجاد وضع تهتم فيه المؤسسات المركزية بتفضيل ترسيخ الاطارات والافراد اليهود مكانة العرب ٠

د ٠ التعليم

١ ٠ ان اهم وابرز تغيير في مفاهيم وسلوك السكان العرب يعود الى تعميق وتوسيع

شبكة التعليم في وسطهم ٠

ان التحسن في الوضع الاقتصادي والامن الاجتماعي لدى الفرد والعائلة ، دفع عددا كبيرا من الطلبة الى المدارس الثانوية ومعاهد الدراسة العليا ٠ هذا الاتجاه دفع الى تطبيق رسم التعليم المتدرج (٦٦ ٪) في المدارس الثانوية ٠ ان الدعم المالي وسياسة المنح لطلبة الجامعات اللذان خلقا مجتمعا طالبيا مثقفا ولو بصورة سطحية وريفية ، يشكلان « الخميرة » لكل حركة قومية وخاصة في مثل ظروف عرب اسرائيل ٠ هذا هو الوضع الحاصل (انظر احداث الجامعات)٠ لقد كان من الواجب على المسؤولين عن هذا القطاع توقع هذه الاحتمالات ومن الواجب منذ الان فصاعدا التخطيط الدقيق من اجل التنسيق بين الاجهزة المختلفة ومن اجل القيام بالنشاطات الواجبة بالنسبة لمجموعة الخريجين على انواعهم ٠

٢ ٠ وضع اسس تفضيلية (علامات منخفضة) لقبول الطلبة العرب في الجامعات والمعاهد العليا على انواعها والمواضيع التي يوجهون اليها (الاداب ، العلوم السياسية، علم الاجتماع) وعدم وجود اهتمام وامكانات لاستيعاب الخريجين للعمل ، كل ذلك ادى الى وجود مجموعة كبيرة من « المثقفين » المتذمرين والذين لديهم حاجة نفسية عميقة تدفعهم الى البحث عن متنفس لتذمرهم ٠ هذا الامر يجد تعبيرا له في معاداة مؤسسة الحكم الاسرائيلية والدولة ٠

هذه المشكلة تتخذ طابعا خطيرا جدا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان عدد الخريجين يزيد على ٥٧٠٠ خريج وان عدد الطلبة العرب في المعاهد العليا اليوم يصل الى حوالي ٢٥٠٠ طالبا ٠

٣ ٠ توقعات

أ ـ بسبب صعوبة الاعتراف موضوعيا بالتخلف المهني سوف يتعمق الشعور بالتذمر وفي الوقت نفسه سوف يزداد باستمرار عدد الخريجين المتذمرين ٠

ب ـ عند اخذ الطبيعة الشرقية بعين الاعتبار وبسبب الديناميكية الاجتماعية سينتقل هذا المجتمع من الاتجاه نحو الداخل الى التعبير نحو الخارج ، ويجب ان لا نتجاهل امكانات التنظيم والانتقال الى العنف والدلائل الاولية على ذلك اصبحت قائمة ٠

ج ـ رفع لواء النضال الاجتماعي والقومي والتاييد العلني لمنظمة التحرير الفلسطينية وحتى لمنظمات اكثر تطرفا ٠

د ـ هناك امكانية معقولة لنجاح بعض القادة على اساس انهم ابناء المجتمع المحلي التقدمي الذي نشاوا فيه وما من شك في ان بعض هؤلاء سيتمتعون بصفات القائد ٠

هـ ـ يجب عدم تجاهل الصعوبات التي ستواجه الحكومة عندما تريد اتخاذ التدابير

ضدهم في الاوقات الحرجة وذلك بسبب مستواهم الشخصي ٠

٤ ٠ اقتراحات

١ ـ يجب الاحتفاظ باسس خاصة بالنسبة لليهود ازاء قبول الطلبة الى المعاهد العليا وكذلك بالنسبة لاعطاء المنح الدراسية ٠

المحافظة على هذه القواعد سينشأ عنها انتقاء طبيعي وستقلل بشكل كبير عدد الطلاب ، هكذا سيقل عدد الخريجين ذوى المستوى المنخفض مما سيسهل استيعابهم في العمل بعد انهاء دراستهم ٠

ب ـ يجب تشجيع توجيه الطلبة الى المواضيع الفنية والمواضيع الاساسية وعلوم الطبيعة ٠ فمثل هذه المواضيع لا تعطي الا القليل من الوقت للانشغال بالقومية وفي الوقت نفسه مستوى الرسوب فيها مرتفع ٠

ج ـ تسهيل السفر الى خارج البلاد بغرض التعليم ووضع العراقيل امام عودتهم وانخراطهم في العمل فمثل هذه السياسة من شأنها أن تشجع هجرتهم ٠

د ـ يجب اتخاذ تدابير صارمة في كل المستويات ضد المحرضين على انواعهم في اوساط المعاهد العليا ٠

هـ ـ اعداد خطة مسبقة لاستيعاب القسم الاكبر من الخريجين حسب مؤهلاتهم ٠ هذه السياسة من الممكن تطبيقها حسب المهلة (عدة سنوات) التي بها يخطط المنفذون لخطواتهم٠

هـ ـ تطبيق القانون

١ ٠ ان وجود القانون وتطبيقه بواسطة الحكم يعبر عن المصلحة الشعبية للمجتمع وتفضيلها على مصلحة الفرد ٠ وفي اطار هذا الموضوع يكون الحرص على الامن الداخلي بكل ما ينطوي عليه من معاني المصلحة القومية والمصلحة اليهودية العليا عامة ٠

ان تطبيق قوانين الدولة في مجتمع يجري بناؤه كما هو الحال في اسرائيل انما هو مشكلة يجب من اجل حلها اتخاذ جانب من اللين والحذر ومنتهى الحكمة ولكن الى جانب ذلك على السلطة التنفيذية العاملة في القطاع العربي ان تؤكد على مراعاة القانون تطبيقه ومنع التدهور ٠

لقد ذكرنا اعلاه كيف اتبعت وسائل متناقضة تجاه هؤلاء السكان العرب ٠ فهؤلاء السكان اصبحوا يعون استنادا الى وقائع انه من الممكن خرق القانون بواسطة اقامة علاقات مناسبة مع اشخاص مناسبين ٠ ان هذه العادات مع ما تسببه من ضرر بالمصلحة العامة بشكل عام ، فانها تظهر علاقات ضعف في الحكم الاسرائيلي في اعين عرب اسرائيل

مما يجعلهم يتوقعون المزيد من التنازلات فيما اذا مارسوا المزيد من الضغط (النمـــاذج على ذلك كثيرة) ٠

٢ ٠ من الصعب ايجاد تفسير مقبول للجباية المنخفضة للضرائب ، لدى كل طبقات السكان العرب بالمقارنة مع ما يجبى من السكان اليهود ٠ وهكذا هو الحال بالنسبة للبناء غير القانوني ٠ وعدم مراعاة القانون فيهذا المجال قد يؤدي الى اضرار خطيرة بالنسبة للامن الداخلي في مناطق واسعة في شمال البلاد وكذلك في المنطقة الوسطى منها ٠

يجب ان نتذكر وان نتعلم من تجارب دول اخرى ذات اقليات قومية ان الليبرالية الزائدة وغير المراقبة لا تؤدي الى النتائج المرجوة بل الى العكس ٠ وبصورة خاصة تنطبق هذه القاعدة على مجتمع مثل الاقلية العربية في اسرائيل (كما فصلنا اعلاه) ٠

٣ ٠ توقعات

١ ـ في مجتمع قائم على القانون ، تنتج عن عدم مراعاة القانون وبصورة علنيـــة ، ديناميكية لمخالفة القانون يتطلب لجم تدهورها جهودا مضنية فيما بعد ٠

ب ـ يجب لفت الانتباه الى انه مع الوقت قد يؤيد يهود كثيرون بسبب دوافع مختلفة مجتمعا يخالف القوانين ٠ واذا ما حاول الحكم جعلهم يطبقون القانون سيتهمونـــه بـ «الاضطهاد » ٠

ج ـ يجب عدم تجاهل عدد السكان العرب ـ ١٤ ٪ اذ ان مخالفة هذه النسبـــة من السكان للقانون قد تتخذ طابع « التمرد » ٠

د ـ عوامل معادية داخل الدولة وخارجها قد تستغل تطبيق القوانين التي لـــم تطبقها السلطات خلال فترة طويلة بحجة الاضطهاد القومي وغير ذلك ٠

٤ ٠ اقتراحات

١ ـ يجب ارشاد كل العاملين في القطاع العربي الى عدم التغاضي عـــن مخالفـــة القوانين وعلى وجوب تطبيقها كما جاءت في النص الحرفي ٠

ب ـ يجب اتخاذ تدابير قضائية ضد موظفي الدولة والمؤسسات الاخرى الذين لا يؤدون واجبهم في تنفيذ القوانين ٠

ج ـ تقديم دعاوى وتنفيذ عدد من الاحكام خاصة في مواضيع ضريبة الدخل والبناء غير القانوني لكي يرتدع السكان العرب عن التفكير بامكانية التهرب مـــن السلطـــات القانونية ٠

د ـ يجب تعزيز وجود قوات الشرطة والامن على انواعها في الشارع العربي من اجل

ردع اوساط متطرفة و « محايدة » قد تنجر الى اعمال التمرد والمظاهرات ·
١ ـ ٣ ـ ٧٦

بعد ٣٠ اذار

اقتـــراح رقم ٢

١ · كتتمة لمذكرتي السابقة وبموجب التطورات واحداث يوم الثلاثين من اذار ومـا اعقبه ارى من واجبي تحليل ذلك وتقييمه وعرض التوقعات المحتملة في المستقبل القريب ، وعدد من المقترحات التي ارغب في تنفيذها عاجلا ·

النجاح الكلي للاضراب في القطاع العربي هو حقيقة يجب درسها جيدا واخذهـــا كحقيقة قائمة وكمنطلق لكل بحث في هذا الموضوع ·

ان نجاح الاضراب وحجمه كان لهما عدة عوامل يجب الوقوف عليها وهي :

أ ـ لا توجد اية امكانية لفحص نسبة او عدد العرب الذين حضروا للعمل خـــارج اماكن سكناهم ·

مع ذلك فانه داخل القرى والمدينتين ، التي يتركز فيها السكان العرب ،كان الاضراب كاملا ·

ب ـ سيطرة منظمي الاضراب على مؤسسات التعليم بكل انواعها في القطاع العربي، بما في ذلك المؤسسات الكنسية ، كانت مطلقة ·

ج ـ حملة الاقناع بضرورة الاضراب بدات بواسطة مصادر « رسمية » كرؤســـاء مجالس محلية وشخصيات عامة تعتبر عادة معتدلة ومتعاونةمعمؤسسة الحكم الاسرائيلية· يجب الاعتراف بان هذه الاوساط فعلت ما فعلته بتأثير الانطباع ان موظفين حكوميـــن كبارا يقفون الى جانبهم وان « تدخل » السكان العرب سيقنع الحكومة بان تمتنع عن تنفيذ المصادرة (مصادرة الاراضي) · وقد تنافسوا في هذه المناسبةعلى اطلاق التصريحـــات المتطرفة مفترضين ان من يكون كلامه اقوى ستكون مكاسبه اكبر ·

د ـ في مرحلة متاخرة جدا وبعد ان اكتشفوا خطاهم لم يستطع الزعماء الرسميون العرب ـ اي رؤساء المجالس المحلية وغيرهم ـ التراجع ، اذ ان التدهور الذي تسببوا فيه جرفهم هم ايضا ·

ان محاولات اليهود الحيلولة دون الاضراب لم تنجح · وادت الى تباين عميق بيـــن السكان العرب وممثليهم المنتخبين بمجرد حدوث الاضراب والاحداث التي رافقته ·

هـ ـ قام منظمو الاضراب بحملة ارهاب شديدة ضد مخالفي الاضراب وصلت الـــى حد استعمال العنف ونجحوا في ذلك · ان وعود مؤسسة الحكم بتأمين حماية كاملـــة

لكل من يخالف الاضراب لم تكنموثوقاً بها وامتنع السكان عن الاعتماد عليها ٠

٢ ٠ مع ان الاضراب بكل ما سبقه ورافقه خطط له ونظم ونفذ على يد ركاح ، حرص الحزب على عدم ابراز نفسه في هذا الدور بغرض الامساك بزمام القيادة عمليا في اوساط القوميين ، وحتى يصبح في الوقت نفسه القائد لكل نشاط قومي عربي في اوساط عرب أسرائيل، في المستقبل ٠

يجب الاهتمام بهذا الموضوع ودراسة دوافعه وعناصره :

أ ـ ان حركة منظمة التحرير الفلسطينية التي تشكل حركة تحرر قومي لعرب فلسطين لم ترسم في برنامجها اهدافا اجتماعية ، فعدا جناح صغير وهامشي ـ جماعة جورج حبش ـ لا يوجد اي جناح يهتم بهذه المواضيع جديا او يشملها بتصريحاته ٠

ب ـ دفع جماهير غير منتمية الى الحزب الى صدام علني وعنيف مع قوات الامن والتسبب باكبر عدد ممكن من الاصابات بين الجمهور بغرض خلق مشاعر الحقد والنقمة لدى السكان والتوتر لدى الحكم تجاه السكان المعادين ٠

ج ـ هناك عملية تقليدية ومألوفة لدى حركات التحرر في آسيا وافريقيا وهي الربط بين النضال القومي والاجتماعي مما يساعد على تجنيد الجماهير لمتطلبات النضال وعلى تأييد الرأي العام العالمي ٠ ومن البديهي ان هناك دولا وكذلك دولة عظمى ذات توجه معين تجد نفسها متورطة ولو على سبيل الدعاية فقط في كل نضال يجري تحت هذه الشعارات ٠

في ضوء ما تقدم يجب توجيه الاهتمام الجدي لهذه الاتجاهات وللظواهر التي قد تنجم عن خلق هذا التجانس بين الرأي العام العالمي والسكان العرب ٠ لذلك سيستمر ركاح في اعتقادي باتخاذ مثل هذه الخطوات خصوصا تحت غطاء قومي ٠

٣ ٠ يجب التأكيد على عدة مكاسب هامة للقومية العربية التي يقودها ركاح كنتيجة ليوم الاضراب وللمشاغبات التي سبقته ووقعت فيه :

أ ـ حدث لاول مرة منذ قيام الدولة وضع ، تضامن فيه كل السكان العرب في اسرائيل عنوعي وبصورة علنية ضد طلب الحكومة ومع مطلب سياسي ـ قومي عربي متطرف ، واستعداد نفسي للعمل من اجل تحقيقه ٠ بالاضافة الى ذلك فان معظم السكان العرب ايدوا ويؤيدون الان ايضا من قاموا باعمال الشغب وهاجموا قوات الامن وهم يتضامنون معهم علنا ويصرحون بذلكعلى الملأ ٠

بعدد كبير من المجالس المحلية ورؤسائها استعملوا كوسائل وادوات من اجل تطوير وتسيير النضال وحتى اولئك الرؤساء الذين لم ينضموا الى المتطرفين في المرحلة الاخيرة بفعل الضغوط لم يعلنوا عن معارضتهمللاضراب بل طلبوا تأجيله لفترةما ، بغرضاستخدام التهديد بالاضراب كوسيلة ضغط على الحكومة كي تخضع لمطالبهم ٠

ج ـ نجح القوميون وحزب ركاح في تحريض وتوريط الجماهير في صدام عنيف

مع قوات الامن مما ادى الى خلق رواسب عميقة وخطيرة لفترة طويلة · ومما يدل على ان المنفذين نجحوا في التخطيط الدقيق انه رغم الهيجان الذي اصاب الجمهور نجـــح المخططون في اخراج المنظمين من الصدام العنيف وفي للمحافظة على سلامتهم الجسدية وكذلك من الاعتقالات التي اعقبت الصدام ·

د · ان اعمال العنف العلنية على الرغم من النتائج المريرة التي جلبتها للسكـان فانها ملأتهم عزة وكبرياء · انهم يعتزون بانهم كانت لديهم الشجاعة للتصادم مع القوات الرسمية للدولة · ويجب الا ننسى ان مثل هذا الاحساس لدى سكان مثل عرب اسرائيل وفي الجو الذي يعيشون فيه ، هو احساس يعطي امكانات كبيرة لاخصائيي الدعاية مـن اجل ابراز « الكبرياء العربية المجريحة » لعرب اسرائيل ·

هـ ــ لقد برزت القوة السياسية التي يملكها القوميون العرب تلك القوة التي يعمل حزب ركاح على ابرازها لخدمة اهدافه ومعاركه السياسية المقبلة كما بينا اعلاه ·

و ــ لقد ادى الاضراب واعمال العنف الى عزل تلك الزعامة العربية الرسميـــة (المنتخبة) ورؤساء المجالس المحلية الذين لم ينضموا الى الاضـــراب او اقترحـــوا تأجيله · لان ذلك الاضراب جرى بصورة كاملة وضد قرارهم الذي اتخذ في اجتمـــاع شفاعمرو · بهذا جرى تسليم الجمهور العربي النشط وخاصة الشباب فيه الى ايدي ركاح ومعاضديه القوميين ·

هنا لا بد من التساؤل هل كان من الحكمة السياسية على المدى الطويل توجيه الضغط الى رؤساء المجالس المحلية في اجتماع شفاعمرو لكي يتصرفوا كما تصرفوا · تجـــب دراسة هذا الموضوع بكل تأكيد واتخاذ القرارات المناسبة · ان النجاح التاريخي المـــذي حققه المنظمون وما يمثلونه هو التوحيد المطلق لعرب اسرائيل الذي تم في « يوم الارض» وكذلك الهوة العميقة التي نجحوا في ايجادها كنتيجة لذلك بين السكان اليهود وبيـــن السكان العرب · ان هذه الهوة نتج وسينتج عنها انعكاسات حادة سواء على صعيد السكان اليهود او العرب · وما من شك في ان جهات معادية ستستغل ذلك الامر ·

ز · ترك الاضراب انطباعا قويا لدى المعامل ومؤسسات الخدمات ، بان حسن سيـر الاقتصاد الذي يديره يهود · هذا الامر ايضا يستغل وسيستغل في المستقبل بغرض خلـق مشاعر « الكرامة العربية » التي لا بد ان عرب اسرائيل سيستثمرونها وسيستغلونها ·

٤ · توقعات

١ ــ الظروف والمعطيات التي تكونت في « يوم الارض » وبعده تعطي حزب ركـــاح والقوميين امكانات كبيرة لاثارة الشغب في الدولة ولخلق عدم الاستقـــرار والتوتـــرات الطائفية · ويبدو بديهيا انهم سيعودون الى استخدام التكتيك نفسه والشعارات نفسهـا بغرض الهاب حماس الجماهير واخراجها الى الشارع كل وقت يريدون ·

ب ــ سوف تتعزز حملة التخويف فتصل الى التهديد واستعمال القوة ضد العرب

المتعاونين مع السلطة بغرض اسكات اي معارضة او اجهاض اي اصوات معتدلة ٠

ج ـ في ضوء الاصداء التي خلقتها الاصطدامات الاخيرة في الشارع العربي سوف تدفع الجماهير الى الشارع لغرض واضح : الاصطدام معقوات الامن والعمل على وقوع اكبر عدد من الاصابات لدى المواطنين من اجل خلق روح الثأر لدى السكان تجـــاه قوات الامن ومن أجل حدوث اصداء في العالم حول عدم الاستقرار في اسرائيل واضطهـاد السلطات الاسرائيلية المحتلة للسكان العرب ٠

د ـ الاصطدامات الاخيرة ستقوي شعور تضامن عرب اسرائيل مع المتضررين وهـذا سيخلق منافذ للدخول الى اوساط كانت مترددة حتى الان في الوقوفالى جانب المناضلين٠

وبصورة عامة فان مثل هذه النشاطات سيؤدي الى التطرف وتدهور الوضع ٠ ويجب التذكير بأن النظرية السائدة لدى هذه الاوساط تقول ان الوضع الحالي سيء بالنسبـــة لعرب اسرائيل وفقط في حالة عدم الاستقرار الشامل في الدولة هناك امكانية للتغيير ، وعلى المدى الطويل وربما على المدى المنظور قد يحدث تفكك اسرائيل من الداخل فتتحول تدريجيا الى دولة فلسطينية ٠

هـ ـ يجب ان نأخذبعين الاعتبار ،كامر بديهي ، ان منظمة التحرير الفلسطينية او قسماً ممن يشكلونها سيعملعلىتحريكعملياتالتطرف هذه مع ان التحريك علىالطبيعةسيقوم به ركاح الذي سيعمل اعضاؤه من وراء الستار وبصورة غير منظورة ٠ وسيتركز الثقل الاساسي لهذه الاعمال على القوميين العرب من بين السكان العرب في اسرائيل ،وخاصة طبقات المثقفين الذين يتوقون الى العمل لاثبات « عروبتهم » واستعدادهم للنضال ضـــد الحكم الاسرائيلي ٠

و ـ الهوة التي خلقتها الاحداث الاخيرة بين السكان اليهود والسكان العرب ستستغل كاملا وسيبذل كل جهد لتعميقها وتوسيعها ٠ يجب ان نأخذ في الحسبان انه من اجل تحقيق هذا الهدف ستنفذ عمليات استفزاز من كل نوع بما في ذلكالاضرابات والمظاهرات واعمال العنف وحتى عمليات التخريب ٠ وفي رأيي انه في الاصطدامات المقبلة سيجري استعمال الاسلحة النارية على نطاق اوسع وذلك لخلق تأثيرات مرسومة وخطيرة للهوة المذكورة ٠

ز ـ هناك امكانية ايضا لاقامة تنظيم قومي ذي توجه غربي لغرض الحصول علـــى تأييد دول واوساط معادية لليسار في العالم ، في كفاحهم ٠

ح ـ سوف تتصاعد عملية السيطرة والتغلغل في المجالس المحلية من اجـــل استخدامها في اغراض الدعاية والتغطية والتحويل والظهور بمظهر التمثيل الواسع ٠وفي «يوم الارض» اثبتت هذه الوسيلة نجاحها الكامل في خدمة الاغراض المذكورة ٠

٥ ـ في ضوء التدهور السريع والتوقعات التي فصلتها في مذكرتي السابقة وفيهذه المذكرة اقترح ما يلي :

٦ ـ المباشرة باقامة لجنة فكرية لكي تقترح على الجهات المقررة ثلاث خطط عمل :

١ ٠ للمدىالسريع

٢ ٠ للمدى المتوسط

٣ ٠ للمدى الطويل

ب ـ يجب المباشرة حالا باقامة لجنة تنسيق وزارية على مستوى المديرين العامين يشرف عليها وزير تعينه الحكومة لهذه الغرض ويساعده مستشار رئيس الحكومةللشؤون العربية ٠

ج ـ بما ان وزارة الداخلية هي قناة الاتصال الرسمية والعملية الرئيسية مع المؤسسات الرسمية والمنتخبة عند السكان العرب اقترح ان يترأس لجنة التنسيق المشكلة من مديرين عامين ، مدير عام وزارة الداخلية ٠

تعقيبٌ على وثيقة "كنيغ" :
اعتراف بسياسة
الاضطهاد القومي والعنصريّة

يوسف حمدان

الصحيفة الاسرائيلية التي نشرت هذه الوثيقة الخطيرة هي « علهمشمار» الناطقه الرسمية لحزب مبام الذي يشكل مع حزب العمل : تجمع « المعراخ» الحاكم بالتآليف مع حزبي الاحرار المستقلين والحزب الديني القومي (المفدال)· واول ما يتباور الى الذهن هو السؤال : لماذا سمح لهذه الصحيفة بنشر هذه الوثيقة ؟ هناك احتمالات عدة منها :

اولا : هناك صراع سياسي بين مبام الذي يحاول ان يلعب دور اليسار في حركة العمال الاسرائيلية « والمفدال » الذي يمثل اليمين الديني · وكاتب الوثيقة هو مسؤول في وزارة الداخلية التابعة للمفدال · والحزبان معروفان بالتنافس على اصوات العرب في الانتخابات وبالتباين في المواقف تجاه القضية الفلسطينية بشكل عام ·

ثانيا : حزب مبام اشتهر في الماضي بالدعوة الى الدولة ثنائية القومية (يهودية ـ عربية) في فلسطين · ومع انه تخلى عن هذه الدعوة ، الا انه الحزب الصهيوني الوحيد الذي يضم المكتب السياسي فيه اعضاءا عربا · ويشهد الحزب منذ فترة نقاشا حادا ، خاصة لدى اوساط الشباب فيه حول وجوب الانفصال عن حزب العمل والعودة الى طابعه « اليساري » المستقل الذي استطاع بواسطته تجنيد قوى يسارية اوروبية تقليدية لاسرائيل ·

ثالثا : الوثيقة مقدمة الى رئيس الوزراء · ووزراء مبام والاحرار المستقلين وبعض وزراء العمل يخوضون منذ فترة صراعا حادا يشكلون فيه الاقلية « المعتدلة » صد اكثرية الوزراء المتطرفة التي يبرز فيها وزراء المفدال بشكل خاص ووزراء كتلة «رافي» في حزب العمل وهذه المجموعة من الوزراء يؤيدها رئيس الوزراء رابين ·

رابعا : الوثيقة تدعـو الى اقامة « حزب شقيق » لحـزب العمل ينـــادي بشعارات « المساواة » بينما يسيطر عـليه حـزب العـمل بشكلغـير منظـور بهدف المضاربة عـلى حـزب ركاح · وحزب مبام اعتبر نفسه دائما المؤهل لهذا الدور ، واقامة مثل هذا الحزب قد تهـــدد مصالحه في الشـــارع العربـي خاصة فيما اذا انفصل عـن « المعراخ »·

خامسا : قد يكون نشر الوثيقة بدافع اقتناع حـــزب مبام ، ان سيـاسـة التفرقة العنصرية والاضطهاد القومي التي تدعـو الوثيقة الى تعميقها فشلـت وادت الى نتائج عكسية بشهادة احـداث الناصرة الاخيرة بشكل خـــاص ، واحـداث الجليل بشكل عـام ، وبالتالي فان التمـادي في هذه السياسة سيؤدي الى نتائج اخطر ·

سادسا : قد يكون نشر الوثيقة وعـدم منـع ذلك من قبل الرقابة العسكريـة يهدف الى دعـوة المؤسسات والرأي العـام اليهودي الى العـمل بموجـب السياسة التي ترسمها الوثيقة ضد عـرب الارض المحتلة منذ عـام ١٩٤٨ وخاصة في منطقة الجليل عـلى اساس ان فائدة ذلكاهـم من ضرر النشر ·

ومهما تكن الدوافع لنشر هـذه الوثيقة فانها بحد ذاتهـا تنطوي عـلـى أهمية كبيرة من نواح عـدة :

١ ـ انها تفضح خطورة السياسة العنصرية وسياسة الاضطهاد القومـي والاعتداء عـلى حقوق الانسان الاساسية التي انتهجتها وتنوي تصعيدهـا السلطات الاسرائيلية ضد ابناء شعبنا في الارض المحتلة منذ عـام ١٩٤٨

٢ ـ انها تشكل منطلقا لتطوير اساليب النضال الوطني الذييخوضهابنـاء شعبنا داخل الارض المحتلة ، وحافزا لتوفير المزيد من الدعـم في كل المجـالات من قبل كل الجهـات المعنية باستمرار هـذا النضال وتطويره في كل الظـروف المتغـيرة ·

٣ ـ انها تعترف في اكثر من مكان بأن منظمة التحرير الفلسطينية التي تتنكـر السلطات الاسرائيلية لوجودها وتصر عـلى عدم الاعتراف بها وتحاول القضـاء عـليها بكل اسلوب ممكن ، « تشكل حركة تحرر وطني لعـرب فلسطين » ـ اي الممثل الشرعـي الوحيد لكل فلسطيني موجود عـلى الارض الفلسطينية وعـلى كلارض ·

٤ ـ ان « دولة اسرائيل » مدينة للمجتمع الدولي اكثر من اية دولة اخـــرى في العـــالم بالمساواة والديمقراطية واللا عنصرية ، وحق الشعـوب في تقريـــــر مصيرها ، لان المجتمع الدولي تحمل مسؤولية وجودها عـلى هذا الاساس · اي بحجة تخليص اليهود من العنصرية والاضطهاد وعـدم المساواة ! وهذه الوثيقة تعـري اسرائيل امام المجتمع الدولي عـلى انها دولـة عنصريـــة ، غـيـــر ديمقراطية ، تعتدي على ابسط الحقوق الانسانية للمواطن وتمارس كل الممنوعات التي اقيمت بسببها !

٥ ـ يصادف نشر هـذه الوثيقة مرور عـام واحـد عـلى قرار الجمعيـــة العامة للامم المتحـدة (الدورة ـ ٣٠ سنة ١٩٧٥)الذي عـرف الصهيونيـــة بانهـا حركة عنصرية ،وادان اسرائيل كدولة تمارس التفرقة العنصرية ·وكمـا هو معـلوم خلق هذا القرار رد فعـل دفاعـي طغى ضجيجه على القرار نفسـه· وهذه الوثيقة اثبات صارخ عـلى ان اسرائيل عـنصرية وتمارس التفرقـــة العنصرية · فهي من جهة تعترف بأن سياسة التفرقة العنصرية مورست ، حيث تقول مثلا : « سمعت التصريحات صباحا ومساء حـــول المساواة والاندمـــاج وغير ذلك ولكن الافعـال كانت مناقضة تماما »· ومن جهة اخرى يحمل كـــل اقتراح فيها تقريبا دعـوة الى ممارسة التفرقة العنصرية ضد العـرب مـــــن مواطني البلد · ومن امثلة ذلك :

أ ـ الدعـوة لتخفيف عـدد السكان العـرب وزيادة عـدد السكان اليهود·

ب ـ الحد من التكاثر الطبيعي للمواطنين العرب عـن طريق قطـــع المنـح لعائلات متعددة الاولاد ·

حـ ـ وضع العراقيل امام التحـاق الطلاب العـرب في المدارس العليا وتشجيع هجرة الطلاب العرب والحيلولة دون عودتهم الى وطنهم · ان الوثيقة تدعـو الى التقليل من عـدد الطلاب الجامعـيين العـرب وتشكو من وجود ٢٥٠٠ طالـــب جامعي عربي مع ان هذا الرقم يشكل نسبة حوالـي ٤٪ فقـط مـــن مجمـــوع طلاب الجامعات في اسرائيل بينما يشكل عدد السكان العرب من مجموع السكان ما يزيد عـلى ١٤٪ ·

د ـ مع ان عدد السكان العـرب في منطقة الجليل سيشكل خلال سنتين ما يزيد على ٥١٪ من مجموع سكان المنطقة ،فان الوثيقة توصي بان لا تزيد نسبـــــة العاملين العرب في معامل ومشاريع المنطقة عـلى نسبة ٢٠٪ !

هـ ــ توصي الوثيقة بافقار العرب عن طريق توسيع وتعميق جباية الضرائب منهم ، والتمييز ضد التجار والوكلاء العرب ٠

و ــ توصي الوثيقة باتباع كل الوسائل لمنع المواطنين العرب من ممارسة حقوقهم السياسية وبتعزيز وجود الشرطة وقوى القمع الاخرى في الشارع العربي ٠

مناقشات :

حول مذكرات القاوقجي

نجيب الأحمد

اطلعت على كتاب (فلسطين في مذكرات القاوقجي (١٩٣٦ ـ ١٩٤٨) اعداد الدكتورة خيرية قاسمية واصدار « مركز الابحاث » . وحفاظا على قدسية نضال شعبنا العربي الفلسطيني ، وامانة للتاريخ ، وكفلسطيني كان لي شرف الاشتراك في ثورات شعبنا ونضاله والتحقت مع المناضلين مقاتلا في ثورة شعبنا عام ١٩٣٦ ، تحت قيادة فوزي القاوقجي ، ولم انه الستة عشر عاما من عمري ، وشاركت القاوقجي قائدا للمناضلين في ثورة شعبنا عام ١٩٤٨ ، ومن خلال ذلك اطلعت وعرفت الكثير من الحقائق والوقائع ، ارى لزاما علي توضيح ما جاء في مذكرات القاوقجي بكل امانة واخلاص ، يقول القاوقجي في مذكراته في الصفحة الثامنة من الكتاب (كان الشعب الفلسطيني الواثق من مشروعية قضيتهمعلقا كل اماله وواضعاكل ثقته في عدل بريطانيا وشرفها) .

ان هذا القول بعيد عن الحقيقة وفيه تشويه لنضال الشعب الفلسيني الذي قاوم وعد بلفور والانتداب البريطاني والهجرة الصهيونية وقام بعدة انتفاضات وثورات ومظاهرات واضرابات منذ اعلان وعد بلفور وقدم الشهداء وحمل السلاح .وتناسى القاوقجي الشهداء محمد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير ودماء موسى كاظم الحسيني التي سالت في شوارع يافا وثورة شعبنا التي قادها الشهيد الشيخ عز الدينالقسام واستشهد ورفاقه فيأحراشيعبدبمنطقة جنين،وتناسى القاوقجي انه جاء مجاهدا لنجدة اخوانه في فلسطين بعد مضي اربعة اشهر على ثورتهم واضرابهم المتواصل . وخانته ذاكرته حيث وصل الى فلسطين وغيره من المجاهدين العرب بتاريخ ٢٥ / ٨ / ١٩٣٦ ، وانسحب منها بعد وقف القتال بتاريخ ٢٤ ـ ١٠ـ١٩٣٦.وما كان الشعب الفلسطيني يوما واثقا في عدل بريطانيا وشرفها وهي التي منحت الصهاينة وعد بلفور وانتدبت على فلسطين لاقامة وطن قومي لليهود على ارض فلسطين العربية.

ويقول القاوقجي بالصفحة (٥٥) من

الكتاب (ان فخري عبد الهادي اول من اطلق بندقية في سماء فلسطين) ومع تقديري لكل من اطلق رصاصة على اعدائنا في فلسطين الا ان هذا القول مناقض لدحقيقة تماما وترفضه روح الشهيد القسام ورفاقه · ويقول القاوقجي بالصفحة السابعة من الكتاب (انه الف مفرزه من دروز شرق الاردن) فلا يوجد في شرق الاردن طائفة درزية ليؤلف منها مفرزة ·

وهناك اخطاء فيالاسماء والمواقع ربما تكون اخطاء مطبعية فلا بد من تصحيحها منها قرية غزة والصحيح قرية عنزة وجبل جريش والصحيح جبل حريش وقرية برولة والصحيح قرية بردله ومختار حيوسي والصحيح مختار جيوس والشيخ نمر الوسان والصحيح الشيخ نمر العرسان ·

هذا ما جاء في مذكراته عن ثورة الشعب الفلسطيني عام ١٩٣٦ اكتفيت بالرد على بعض ما ذكرته باختصار ·

اما عن ثورة شعبفلسطين عام ١٩٤٨ فتشويه الحقائق بمذكرات القاوقجي لا يجوز السكوت عنه ، فوزي القاوقجي دخل فلسطين عام ١٩٣٦ لنجدة شعبها كغيره من المجاهدين العرب الذين هبوا لنجدة اخوانهم في فلسطين ولخبرته العسكرية اختير قائدا للمناضلين · اما دخوله الى فلسطين عام ١٩٤٨ فلم يكن كما دخلها مجاهدا متطوعا عام ١٩٣٦ وانما ضابطا عسكريا عين قائدا لجيش الانقاذ من قبل الجامعة العربية رغم اعتراض الهيئة العربية العليا على رفض تسليح الشعب لفلسطيني ، وتسليم قيادته العسكرية للشهيد القائد عبد القادر الحسيني وتحت اشراف الهيئة العربية العليا واعتراض الهيئة المذكورة على شخص فوزي القاوقجي · وعن هذا الواقع جاء بمذكرات القاوقجي بالصفحة (١٤٦) من الكتاب : ما كاد المقدم صفا يستقر بفوجه في القطاع المعين له حتى شعر بنشاط غريب وقوى ضد هذا الجيش تبديه جماعات مسلحة تدعي انها تنتمي الى سماحة الحاج امين الحسيني · وقد ارسل الي المقدم صفا بتاريخ ٢١ـ ١ ـ ١٩٤٨ برقية يطلب فيها ان ارسل له المفرزة الشركسية التي كانت لا تزال في قطنا ليتمكن من السيطرة على الموقف· وبعد برهة اطلعني المقدم صفا على اكتشافه مؤامرة لاغتيالي يقوم بها احد عشر شخصا مقابل (١٧) الف جنيه وانه وقع بين يديه واحد من هؤلاء ادلى اليه بمعلومات كثيرة غريبة··· وبالسرعة الممكنة ارسلت الي المقدم صفا المفرزة الشركسية ···)

كانت هذه البرقية ولا شك في ذلك نتيجة للحساسيات والخلافات التي كانت بين قيادة جيش الانقاذ التابع للجامعة العربية وبين قيادة الجهاد المقدس(عبد القادر الحسيني) وهي بدون شك من نسج الخيال او جزء من المؤامرات التي كانت تحاك ضد الشعب الفلسطيني ·

المقدم محمد صفا دخل الى فلسطين على رأس فوج من جيش الانقاذ بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ والبرقية كما يقول القاوقجي وصلته بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ اي بنفس اليوم الذي دخل به المقدم صفا وفوجه الى فلسطين فكيف اكتشف ان هناك مؤامرة لاغتيال القاوقجي وأن جماعات مسلحةتابعةللحاج امين لحسيني تقوم بنشاط ضد جيش الانقاذ بنفساليوم الذي وصل بهالى فلسطين·وهناك اسباب ودوفع وخفايا لا مجالهذكرها الان احتفظ بها للوقت المناسب ·

معركة الزراعة

يقول فوزي القاوقجي في مذكرته عن معركة الزراعة (انه طلب من المقدم محمد

صفا مهاجمة احدى المستعمرات اليهوديه في قطاعه وفي ليلة ١٦ ـ ١٧ شباط ١٩٤٨ قام بهجومه علىمستعمرة الزراعةرغم ان المحركات الحربية تكاد تكون غير محتملة بسبب رداءة الجو وصعوبة التحرك في ارض المستعمرة اللزجة التي تضني الجنود • واندفع جنوده الى داخل المستعمرة ودارت بين الفريقيْن معركة شوارع عنيفة ،وهرعت القوات البريطنية لنجدة اليهود في المستعمرة ، مما اضطر المقدم صفا لاصدار امره بالانسحاب وكانت خسائر جيش الانقاذ في هذه المعركة (٣٧) قتيلا واكثر من ذلك جرحى، اما خسائر اليهود فكانت (١١٢) قتيلا عدا الجرحى • وقد كانت معركة الزراعة رغم انها من المعارك البسيطة عاملا قويا في رفع معنويات العرب في المنطقة) •

اتمنى من كل قلبيلوان معركة الزراعة كانت كما جاء بمذكرات القاوقجي لكننا لو طلبنا من قائد المعركة المقدم محمد صفا ان يكتب لنا عنها لما كتب كما جاءبمذكرت القاوقجي،وذكر الحقيقة المؤلمة كما يعرفها جميع من شارك او شاهد تلك المعركة الفاشلة •مستعمرة الزراعة تقع في الجهة الغربية من غور الاردن جنوب مدينة بيسان واراضيها غورية خصبة عميقة طينية ، وتحيط بالمستعمرة والمستعمرات المجاورة لها برك المياه التي اقامها الصهاينة لتربية الاسماك واستعمالها للدفاع عن المستعمرات وقت الحاجة • وكانت الامطار كما يقول القاوقجي غزيرة حيث فصل الشتاءوالجو عاصف•وفي ليلة ١٦ـ١٧ـ٢ـ ١٩٤٨ ورغمعرفةالقاوقجي بالواقع الصعب فقداصدر امره من دمشق الى المقدم محمد صفا بمهاجمة هذه المستعمرة فنفذ المقدم صفا الامر•وما ان اطلقت الرصاصةالاولىمنجيش الانقذعلى المستعمرة حتى فتح الصهاينةبوابات برك المياه حيث تدفقت المياه منها كالسيل الجارف بالاضافة الى غزارة امطار السماء ، حيث اصبحت الارض مكانا لغوص الجنود بالاوحال وانطلقت الانوار الكاشفة من المستعمرة وجاراتها لتكشف المهاجمين الذين وقعوا في ورطة لا مثيل لها ، الارض الموحلة وغزارة الامطاروشدة الزوابع ورصاص الاعداء • وابدى جنود جيش الانقاذ بسالة فائقة وجهدا كبيرا لكن الوضع كانفوقطاقتهم وهرعت قوات المناضلين لنجدتهم وكانت النتيجة غير ما ذكره القاوقجي ، فالجنة والخلود لهؤلاء الذين استشهدوا بمعركة الزراعة اما قتلى العدو فعلمهم عند الله وليس عند القاوقجي ، وكانت معنويا تالاهالي بعد المعركة بعكس ماذكره القاوقجي خصوصا انها اول معركة قام بها جيش الانقاذ في المنطقة •

دخل فوج من جيش الانقاذ بقيادة المقدم محمد صفا الى فلسطينبتاريخ ٢١ـ ١ ـ ١٩٤٨ وقام بالهجوم على مستعمرة الزراعة يوم١٦ ـ١٧ـ٢ ـ ١٩٤٨ ودخل فوز يالقاوقجي قائد جيش الانقاذ الى فلسطين بتاريخ ٦ ـ ٣ ـ ١٩٤٨ واتخذ قرية جبع مقرا لقيادته وهي من قرى لواء جنين وتقع بين مدينتى نابلس وجنين ، واقام بها محطة اذاعةخاصة وبعد وصوله اصدر بيانا للشعب يعلن به انه القائد العام والمسؤول عن المنطقةوامنها ، وعلى جميع المسلحين الانضواء تحت قيادته ويقول القاوقجي بمذكراته بالصفحة (١٩٥٨) من الكتاب(منطقة جنين ونابلس وطولكرم او ما يسمونه بالمثلث كان يتجاذبها عمال الملك عبد الله من جهة وعمال المفتي من جهة اخرى)

لم اكن اتصور ان تصل الامور لهذا الحد من انتجني على الشعب الفلسطيني وما كان ولن يكون الشعب الفلسطيني عميلا لاحد لا للملك عبد الله ولا للحاج امين الحسيني • وكان في فلسطين حزبان كبيران هما الحزب العربي ورئيسه جمل الحسيني وكان يعرف مؤيدوه بالمجلسيين

نسبة الى المجلس الاسلامي الذي كـــان يرئسه الحاج امين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا ، وحزب الدفاع الذي كان يرئسه راغب النشاشيبي ، وكان يعـــرف بالمعارضين بسبب معارضتهم للحاج امين الحسيني والمجلسيين والحزب العربـــي ، بالاضافة الى بعض الاحـــزاب الاخـــرى كحزب الاستقلال وكانت الهيئة العربيـــة العليا تطالب الدول العربية بدعمها بالمال والسلاح لتسلح الشعب الفلسطيني تحت قيادة عبد القادر الحسيني ، قائد الجهاد المقدس • ورفضت الدول العربية طلـــب الهيئة العربية العليا وقررت انشاء جيش الانقاذ ، واختارت له فوزي القاوقجـــي قائدا عاما ونتيجة لخلافات قديمةواسباب لا مجال لذكرها الان • وكان حزب الدفاع يؤيد قرار الجامعة العربية لكن جماهيـــر الشعب الفلسطيني كانت تتسلح باموالها الخاصة ما امكنها ذلك ، وكانت الوفود من المدن والقرى والعشائر تجوب البلاد انعربية طلبالشراء السلاحالذي منع عنها من الدول العربية • وكان عبد القـــادر الحسيني والهيئة العربية العليا تساعـد هؤلاء لشراء السلاح من مالهم الخاص • وقبل وصول جيش الانقاذ الى فلسطيـــن كان عبد القادر الحسيني قائد الجهـــاد المقدس الذي اتخذ بير زيت مقرا لقيادته يعمل على تنظيم المقاتلين فـــي جميـــع المناطق ، ويختار القيادات المحلية في كل منطقة•وكانت قوات المناضلين تهاجمالعدو في القدس وباب الواد ويافـــا وحيفـــا والجليل ومرج بن عامر وطولكرم وبئـــر السبع والخليل وغزة واللد والرملة وفي كل مكان في فلسطين • وقام عبد القـــادر الحسيني بجولات كقائد للجهاد المقدســـ على منطقة رام الله ونابلس وجنيـــن وغيرها لتنظيم المقاتلين وتشجيعهم وحض المواطنينعلى شراء السلاح من اموالهـم الخاصة • وكان يلقى تجاويا جيدا ولم يكن في المثلث ولا غير المثلث اي تدخـل للملك عبد الله ولا يوجد له عمته ، لكن الملك عبد الله كان من اكثـــر الملـــوك والرؤساء العرب معارضة للهيئة العربية العليا رمؤيدالانشاء جيش الانقاذوتسليم قيادته الى فوزي القاوقجي ، الذي كانت الهيئة العربية العليا تعارض بتعيينـــه شخصيا قائدا لجيش الانقاذ ، اذا كان لا بد من انشاء جيش الانقاذ • وكـــان الخلاف على هذا الموضوع بين القاوقجي وعبد القادر لحسيني ، وكل له مؤيـــدوه وما برقية المقدم محمد صفاالتي مر ذكرها الا نتيجة تلك الخلافات • وكان لبيـــان فوزي القاوقجي بدعوة المقاتليـــن فـــي مختلف المناطق اثرها العكسي لدى عبد القادر الحسيني ، الذي زاد من نشاطه في تنظيم المقاتلين في مختلف المناطـــق ودعمهم • وقد كنت انا شخصيا قائـــدا للمناضلين فيمنطقة جنين الشمالية ورغم انني سلحت من مالي الخاص ـــددا لا بأس به من المقاتلين في منطقة جنين ، الا أن اتصالي مع عبد القادر الحسيني كقائد للجهاد المقدس ، قبل مجيء جيش الانقاذ الى فلسطين • وبعد وصول القاوقجـــي الى فلسطين حصلت على كمية لا باس بها من المتفجرات من نوع (TNT) من عبـد القادر الحسيني ، وباتفاق معه قمت مع اخواني المناضلينبنسف خط مشروع شركة كهرباء روتنبرغ التي كانـــت المصـــدر الرئيسي لكهرباء فلسطين • والمعروف ان شركة روتنبرغ صهيونية الملكية•واشترك معيبالعمليةفوزي الجرار•ثمنسفتجسرين على الطريق الرئيسي بين مستعمـــرة العفولة وحيفا • وقام المصهاينة بنســف جسر على الطريق الرئيسي بين جنين ـ اللجون ـ حيفا بالقرب من قريتي رمانة • وعلى اثر ذلك اعتبر القاوقجي ان قيامي بنسف شركة الكهرباء والجسرين خروجا على قيادته ورفضا لبيانه الذي طلب فيه من المقاتلين الانضواء تحت قيادته•فاصدر بيانا نشره بالصحف المحلية واذاعه من

اذاعته بجبع قال فيه :

ان اعمال الشغب والتشويش التي قام بها نجيب مصطفى الاحمد وفوزي الجرار اعمال تخريبيـــة ساوقنهـــا بيـــد من حديد وقد اعذر من انذر ٠

التوقيع : قائد عام جيش الانقاذ فوزي القاوقجي ٠

وعلى اثر هذ البيان توتر الجو بيـن عبد القادر الحسيني وفوزي القاوقجي، وكاد ان يقع اشتباك مسلح بين الطرفين، لكنني وبمعونة الخيرين بذلت جهدا كبيرا لمنع وقوع اشتباكات بين المقاتلينوتوجهت الى دمشق حيث قابلت الحـــاج امينـــ الحسيني في فندق اوريان بلاس ، وحضر عبد القادر الحسيني ٠ وتم الاتفاق على ضرورة مبد التصادم مع جيش الانقـاذ والتعاون بينهما ٠ وبعد عودتي من دمشق اجتمعت مع فوزي القاوقبني بجبع وتـــم الاتفاق على التعاون بين جيش الانقاذ والجهاد المقدس ونجدة كل منهما للاخـر وقت الحاجة وتقديم الذخائر ما امكن الى الى الجهاد المقدس ٠ وقد اتفقنا على لقاء يتم بين القاوقجي وعبد القادر الحسيني في بيتي بقرية رمانة ـ جنين للمصالحـة والتفاهم ٠ وفعلا قدم جيش الانقاذ كميات من لذخائر للجهاد المقدس وانجده فـــي معركة من معارك باب الواد على طريـق القدس ،الا ان اللقاء بين القاوقجي وعبد القادر الحسيني لم يتم بسبب استشهاد عبد القادر الحسيني ٠

واصدر القاوقجيقرارا مكتوبا اعتبرني بموجبه قائدا للمناضلين في منطقة جنين الشمالية ٠ واعطاني كتابا موقعا منـــه ومختوما بخاتمه يحوى القرار المذكور ٠

معركة مشمار هاعيمك

في اوائل شهر نيسان ١٩٤٨ استدعاني فوزي القاوقجي الى مقر قيادته بجبـــع وبغرفة القيادة وبحضور ضباط اركانه . قال فوزي القاوقجي موجها كتمه لي انني قررت القيام بهجوم علىاحدى المستعمرات اليهودية واحتلالهاثأرا لهزيمةجيش الانقاذ في معركة الزراعة التي قام بها المقـدم محمد صفا وتحطيما لمعنويات العدو ورفعا لمعنويات الشعب الفلسطيني والعربيعامة٠ وقد اخترت مستعمرة مشمارهاعيمكبسبب موقعها المناسب وامكانية تطويقها وعزلها من المنجدات ، واشر على موقع المستعمرة بعصاه على الخارطة المعلقـــة بغرفـــة القيادة وقال : لن اسمح لكل المناضلين عشر شخصا مقابل (١٧) الف جيبه وانه وقع بين يديه واحد من هؤلاء ادلى اليه بمعلومات كثيرة غريبة٠٠٠ وبالسرعـــة الممكنة ارسلت الى المقدم صفـا لمفـــرزة المشركسية ٠٠٠)

كانت هذه البرقية ولا شك في ذلـــك نتيجة للحساسيات والخلافات التي كانت بين قيادة جيش الانقاذ التابع للجامعـة العربية وبين قيادة الجهاد المقدس(عبد القادر الحسيني) وهي بدون شك مـن نسج الخيال او جزء من المؤامرات التي كانت تحاك ضد الشعب الفلسطيني ٠

المقدم محمد صفا دخل الـى فلسطين على رأس فوج من جيش الانقاذ بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨ والبرقية كما يقـول القاوقجي وصلته بتاريخ ٢١ ـ ١ ـ ١٩٤٨؛ اي بنفس اليوم الذي دخل به المقدم صفا وفوجه الى فلسطين فكيف اكتشـــف ان هناك مؤامرة لاغتيـال القاوقجـــي وأن جماعات مسلحةتابعةللحاج امين الحسيني تقوم بنشاط ضد جيش الانقاذ بنفساليوم الذي وصل بهالى فلسطين٠وهناك اسباب ودوفع وخفايا لا مجاللذكرها الان احتفظ بها للوقت المناسب ٠

معركة الزراعة

يقول فوزي القاوقجي في مذكرته عـن معركة الزراعة (انه طلب من المقدم محمد

صفا مهاجمة احدى المستعمرات اليهوديه في قطاعه وفي ليلة ١٦ ـ ١٧ شباط ١٩٤٨ قام بهجومه علىمستعمرة الزراعةرغم ان الحركات الحربية تكاد تكون غير محتملة بسبب رداءة الجو وصعوبة التحرك في ارض المستعمرة اللزجة التي تضني الجنود · واندفع جنوده الى داخل المستعمرة ودارت بين الفريقين معركة شوارع عنيفة ،وهرعت القوات البريطانية لنجدة اليهود في المستعمرة ، مما اضطر القدم صفا لاصدار امره بالانسحاب وكانت خسائر جيش الانقاذ في هذه المعركة (٣٧) قتيلا واكثر من ذلك جرحى، اما خسائر اليهود فكانت (١١٢) قتيلا عدا الجرحى · وقد كانت معركة الزراعة رغم انها من المعارك البسيطة عاملا قويا في رفع معنويات العرب في المنطقة) ·

اتمنى من كل قلبيلوان معركة الزراعة كانت كما جاء بمذكرات القاوقجي لكننا ٤ ـ ١٩٤٨ ·

وحسب التعليمات تم حشد قوات جيش الانقاذ والمناضلين الذين هم تحت قيادتي في قرية اللجون الساعة الثالثةمن صباح ٤ ـ ٤ ـ ١٩٤٨ ·لن فئة الهندسة منقوات جيش الانقاذ المتواجدة في منطقة طولكرم وصلت متأخرة وكنت الشمس في السماء وكادت العملية ان تؤجل ، فقلت للقائد ساتحملمسؤوليةنقل فئةالهندسة·وفعلاوبعد موافقته وضعت المتفجرات في سيارة شحن من سياراتي التي نقلت المناضلين وانبطح على ارض السيارة افراد فئة الهندسة من جيش الانقاذ ومعهم بعض المناضلين من رفاقي ،وقمت بتغطيةالجميع بشادر السيارة التي اتجهت صوب قرية ابو زريق على الطريق العام ، باعتبار انها سيارة مدنية مارة باتجاه حيفا ، ونجحت العملية وتم وصول فئة الهندسة وقامت بتفجير الجسر ونسفه·وبالحال امر القاوقجي بقصف المستمرة بالمدفعية وكانت مفاجأة للعدو حيث شوهد اهالي المستعمرة وهم بشوارعها وباعمالهم العادية حين تساقطت عليهم قنابل مدفعية جيش الانقاذ وتهدم من القصف المدفعي حاووز المياه وشبت الحرائقفي المستعمرة وكان الدخان يغطي المنطقة ، وقامت المصفحتان بواجب الدورية وقام كل بواجبه وكانت نتائج القصف المدفعيمثيرة للعواطف ونساء القرى المجاورة تخلط زغاريدها مع قصف المدافع المركز · مما شجع الجميع · ودفعت رياح النصر وتباشيره بطاقم المصفحتين باقتحام المستعمرة والتجول في شوارعها الخالية الا من الدمار ولهيب النيران المشتعلة بها · ودفع بالمناضلين حسب الخطة الموضوعة بمحاولة اقتحام المستعمرة واحتلالها ·وفي نشوة النصر والفرح هذه استدعاني القاوقجي الى قيادته خلف الميدان واستفسر مني عن الوضعفقلت له: نريد اقتحام المستعمرة ومناضلونا الان يقفون على الاسلاك المحيطة بها ونريد خبراء لتفجير او كشف الالغام التي لا بد من وجودها داخل الاسلاك وفوجئت بالقاوقحي يقول لي :

يجب وقف الاقتحام حتى المساء وعليك اعادة المناضلين الى مرازهم في الجبال المحيطة · وسأصدر الامر بالاحتلال في الوقت المناسب · حاولت اقناعه بضرورة الاحتلال الفوري فرفض ،ونفذتالتعليمات واعدت المناضلين الى مراكزهم انتظارا لحلول الظلاموقرر القائد العام بالاحتلال· تناول القاوقجي الغداء من المناسف التي جهزها اهاليقريةابو شوشةالمجاورة وغادر الميدان الى قيادته بجبع ، وسلم القيادة في الميدان الى المقدم مهدي صالح ، وحل لظلام ولم يصدر اي قرر بالهجوم والاحتلال وكان الجو هادئا يتخلله بعض الطلقات هنا وهناك ·

وما ان بزغت شمس اليوم التالي حتى طالعتنا الصحف اليومية العربية وبعناوين ضخمة مثيرة ، وتعلن انهيار

المقاومة فيمستعمرةمشمارهاعيمك وتشيد ببطولة القاوقجي وشجاعته·وكانت اذاعة القاوقجي في جبع تعلن انهيار المستعمرة واحتراقها وتردد الاناشيد الوطنية الحماسية · وفي اليوم الثاني وحوالي الساعة العاشرة صباحاخرجت من مطار نهلال الذي تتواجد به القوات البريطانية اربع عشرة دبابة يتقدمها سيارة جيب تحمل علما ابيض واتجهت صوبنا ·

اتخذت الاحتياطات ووصلت الدبابات البريطانية وارتجل من سيارة الجيب ضابطبريطانيوطلبمقابلة فوزيالقاوقجي، ابلغت المقدم مهدي صلح بذلك فطلب مني مرافقة الضابط البريطاني الى قرية جبع لمقابلة القاوقجي·نفذت الطلبورافقت الضابط البريطاني بسيارة الجيب وبقيت الدبابات البريطانية على الطريق العام ·

قابل القائد البريطاني فوزي القاوقجي بقيادته بجبع وقال له انه يطلب هدنة لوقف القتال مدتها (٢٤) ساعة وذلك لنقل الجرحى منااهالي المستعمرة للمستشفيات ودفن القتلى ، ثم اختليا معا وخرج القاوقجي ليبلغني انه اعطى الضابط البريطاني وعدا بوقف الهجوم ووقف اطلاق النار على المستعمرة لمدة (٤٨) ساعة وليس (٢٤)بشرط ان يحضر مختار مستعمرة مشمارهاعميك مع الضابط البريطاني عاري الرس الى المكان الذي تتواجد به الدباباتالبريطانيةعلى الطريق العام قرب مستعمرة مشمارهايمك حيث يتقدم من قائد الميدان المقدم مهدي صالح وبحضورك مطاطيء الرأس ويطاب الهدنة بنفسه باسم اهالي المستعمرة ، فاذا ماقام بذلك يعطى الهدنة ومدتها ٤٨ ساعة ·

اعترضت على القاوقجي ونصحته ورجوته عدم الموافقة على اعطائهم دقيقة واحدة لان غايتهم كسب الوقت لوصول نجدات لهم · وقلت له انه كلة يتوجب على القائد البريطاني ان يتدخل لمنع اهالي مستعمرة مشمارهاعميك من الهجوم على قرية الغبيه التحتا الواقعةشرق مستعمرة مشمارهاعميك والمجاورة لها ، وهي قرية صغيرة هادئة ، وقد طردوا اهلها منها ولكن القاوقجي اصر على رأيه وقال انني قائد ومسؤول « واعرف كيف اتصرف ، عليك ابلاغ المقدم مهدي صالح بقراري وعليه تنفيذه ولا تخف فسادمرهم ان تحركوا ضدناوضد الاهالي المجاورين لهم » ·

عدت مع الضابط البريطاني وحين وصولنا الى تجمع دباباته ذهب الى مستعمرة مشمارهاعميك واتجهت انا الى مقر قيادة المقدم مهدي صالح في قرية المنسة المجاورة ولما ابلغته قرار القاوقجي غضب وتألم لكن عليه التنفيذ ·

لم يحضر المختار بنفس اليوم وانما حضر في اليوم التالي شخص يهودي عارى الرأس حسب طلب القاوقجي برفقة الضابط البريطانيوكانت اذاعة القاوقجي والصحف اليومية العربية تعلن انهيار المقاومة في مستعمرة مشمارهاعيمكوتعلن عن اجراءات تسليمها للقائد الفذ فوزي القاوقجي اليوم وبحضور قائد القوات البريطانية في مطار نهلال ، وكانت الاذاعات العربية الاخرى تردد نفس الاخبار وهرعمراسلو الصحف العربية والاجنبية وجماهير غفيرة من الاهالي من مختلف انحاء البلاد لحضور عمليةتسليم المستعمرة على حد قول اذاعة القاوقجي والصحف المحلية والعربية · وصل الى نقطة اللقاء القائد البريطاني ومعه الشخص اليهودي واذا به راعي اغنام المستعمرة وليس المختار ، وطلب الهدنة من المقدم مهدي صالح لمدة ٤٨ ساعة فاعطيت له وكانت الات التصوير تلعب دورها في هذه المهزلة المضحكة المخزية لكن الذي تحدث لم يكن راعي الاغنام ، وانما الضابط البريطاني بحجة ان اليهودي لا يعرف عربي ولا انكليزي !!

كل عاد الى مكانه وتوقف اطلاق النار

تماما لكن اذاعة القاوقجي والصحف العربية كانت تعلن استسلام المستعمرة ٠

لكنني فوجئت باليـــوم التالـــي ان القاوقجي استدعاني الى قيادته في جبع وسلمني كتابا مطبوعا وموقعا بتوقيعـــه ومختوما بخاتم قيادة جيش الانقاذ وقال لي ارسل هذا الكتاب الى مختار مستعمرة مشمارهاعميك حالا ٠

اطلعت على الكتاب فورا واذا بي افاجأ بنصه التالي :

انذار الىاهاليمستعمرة مشمارهاعميك

ان الحملة التي قمت بها ضدكم ما هـي الا بسبب تعديكم على اهالي قرية الغبية التحتا وعلى المارة العرب على طريـــق جنين ـحيفا ٠ عليكم التوقف عن هذه الاعتداءات والا اعيد الكرة باشد منهـــا وقد اعذر من انذر ٠

التوقيع

فوزي القاوقجي

قائد عام جيش الانقاذ

استغربت هذه الاجراءات المتلاحقة من القاوقجي واعترضت عليه بألم وحسـرة وقلت لهلماذا هذا، ولماذالا تحتل المستعمرة وينتهي كل شيء ٠ وكنت بحالة غضـــب وعصبية مما اثار غضبه وقال انا اعرف ماذا اعمل هذه برقية وردتني ومصـــدر معلوماتها من الاستخبارات البريطانية سن تل بيب نفسها تحذرني من ان عشرة الاف مقاتل من لهاغاناه في طريقهم الى نجدة مستعمرة مشمارهاعميك ولابادة جيشـــن الانقاذ والاستيلاءعلى مدفعيته،وقد وافقت القيادة (اي قيادة جيش الانقاذ بدمشـق) على اجراءاتي هذه » ٠ فقلت له وكيـف اوصل هذه الرسالة قال لي « سلمها الى صديقنا الشاويش البريطاني قائد مركـز البوليس في الجـــون القريبـــة مـــن مشمارهاعميكحيث يقومهو«بايصالها،وكان هذا الشاويش البريطاني يتعاون معناضد اليهود ٠

اخذت الكتاب وتوجهت الى مخفـــر البوليس في اللجون وسلمته للشاويش البريطاني،ولما عرف واطلع على محتوياته نفجر غاضبا يكيل الشتائم والكلمـــات البذيئة للقاوقجي وقال لي « انا ارفض استلام هذه الرسالة ولا تستمع منه ادخل انت بقواتك من المناضليـــن واحتلـــوا المستعمرة فهي ميتة » ٠

عدت الى جبع وابلغت القاوقجي بما حدث مع الشاويش البريطاني ، فاذاع انذاره من محطة اذاعته بجبـــع ونشره بالصحف العربية في اليوم التالي ٠ وما ان خيم الظلام في اليوم التالي حتى سمعنا اطلاق نار رشاشات لم تدم طويلا في اعلى تمة في المنطقة وهي قمة الجبل الـذي تقع عليها قرية المغبية المفوقا حيث كـان عدد من جنود جيش الانقاذ يرابطون هناك كمركز للرصد المدفعي ٠ اتجهـــت فورا على رأس عدد من اخواني المناضليـــن لمعرفة سبب اطلاق نار الرشاشات الـى القمة ٠ ولماجد حياهناكحيث وجدتجميع عناصر الرصد المدفعي ومن معهم مـــن اهالي القرية قتلى والبعض منهم مذبوحا بالسكاكين ٠ابقيت قسما ن المناضلين في القمة ٠ وعدت مع عدد اخر لاطلاع المقدم مهدى على ما جرى ، واثناء عودتنـــا اطلقت علينا النيران من كمين للعـــدو واشتبكنا معه وانسحب بسرعـــة ولا نعرف الاصابات التي لحقت به ، واصيب مناضلان بجراح احدهما في صدره والاخر في رجله وتم نقلهما الى المستشفى فـي جنين ٠ واطلعت المقدم مهـــدي علـــى الوقائع قال لا استطيع الحركة بدون امر من القاوقجي ، فقلت له اذا انا سأتحرك مع اخواني المناضلين على مسؤوليتنا ٠

ومع بزوغ الشمس تقدمت على رأس عدد لا يقل عن (١٥٠) مناضلا حيث بدأنا بالزحف على المستعمرة بقصد اقتحامهـا

وكنا نتقدم بالتهليل والتكبير والاهازيج· حلقت فوقنا طائرةاسرائيلية صغيرةاعتقد انها من طائرات التدريب والقت علينـــا قنبلتين من صنع محلي كنـا نسميهـــا (قيزان) انفجر احدهما ولم يصـــب اي شخص ولم ينفجر الثاني ، فتقدم بوليس بريطاني وهو احد تسعة من البوليســـ البريطاني الذين تطوعوا مع القاوقجـي حيث كان احدهم شقيقا لاحد البريطانيين الثلاثة الذين شنقم اليهود فـــي اشجار الكينا قرب ناتانيا · وطلب منا الابتعاد واطلق النار من بندقيته على (القيـزان) الذي انفجر واصابته شظية في يدهونقلناه الى المستشفى في نابلس ·

وبدأت تصل النجدات الاسرائيلية الى المستعمرة·وقامت بحركة التفافـحولناحيث وصلت قوات منها من الجنوب والجنـوب الغربي للمستعمرة ، واحتلت قمم سلسلة الجبال المحيطة بنا واشتبكت مع قـوات جيش الانقاذ وقوات المناضلين · وكانت مدفعية جيش الانقاذ بقيادة قائد المدفعية البطل مأمون البيطار (وهو سوري) الذي ابلى بلاء ممتازا ، لكن قوات العدو رغم تكاثرها تراجعت امام القصف المدفعـي المركز وبسالة المقاتلين من جيش الانقـاذ والمناضلين وهرعت النجدات العربية من جميع انحاء المدن والقرى فـــي جنيـــن وطولكرم ونابلس وغيرها · وفشل العدو بحصار قواتنا وانسحب من جميع المناطق التي احتلها عدا قمة جبل واحدة تمكنمن التمركز عليها ، وحاصرناه من الجنوب والشمال والشرق ولم يبق له نجـــاة الا المنطقة الغربية الـــى المستعمـــرات القريبة · لكن القوة المتواجدة على هـذا الجبل من العدو صممت على الصمـود لوقت طويل فجاء ستة من افراد البوليس البريطاني المتطوعين مع جيش الانقاذ ، وطلبوا من المقدم مهدي صالح اعطاءهم بنادق فرنساوية (قصيرة) وقنابل ملـــز يدوية وسكاكين ، كما طلبوا منـــه ان اتقدمهم داخل مصفحة لتغطية زحفهـــم بالرشاش الى قمة الجبل حيث يطـردون العدو ويحتلونه · وبعد قيامنا بذلك وطر. العدو طلبوا ارسال قوة كبيرة لاحتـــلال الجبل والتمركز به لاهميته الستراتيجية، وكان لهم ما ارادوا · تقدمت داخـــل مصفحة من جيش الانقاذ وكنت اغطـــي زحفهم ·ولم يمض وقت طويل حتى تمكنوا من احتلال مركز العدو الذي انسحب مـن قمة الجبل تاركا خلفه ستة مـــن قتلاه احدهم ضابط برتبة مقدم ، واعتقـــد ان هذا المقدم الذي قال عنـــه القاوقجـــي بمذكراته بانه قتل قائد لقوات الاسرائيلية المهاجمة ·

كانت فرحة كبيرة بهذا النصر حيث تم تطهير جميع الاماكن التي احتلهـــا العدو· لن عكر جو الفرح هذا بالالـــم والحسرة التي عمت صفوفنا جميعا حين اخترقت رصاصة معادية جبينالبطل قائـــد المدفعية مأمون البيطار الذي استشهـــد فورا ·

في هذا الوقت كان بامكـــان فوزي القاوقجي ان يصدر امـــره باحتـــلال المستعمرة وكان ذلك ممكنا ، او انسحاب جيش الانقاذ بدون اي عائق حيث جميع الطرق شرقا وجنوبا وشمال ـ شـــرق مفتوحة . او الاستـــمرار بمحاصـــرة المستعمرة من كل جهاتها لفرصة اخـرى مناسبة ، وكان الهدو مخيما على الساحة بعد هزيمة العدو الا من بعض طلقـــات هنا وهناك متفرقة ·

وفي صباح اليوم التالي وصلت عـدة سيارات شاحنة الى مكان المعركة ونزلت قوات منها واتجهت فورا الى الجبـــل القريب من المستعمرة وكانت تطلق النار على المستعمرة بغزارة ، ومن سيرها كان ظاهرا انها سرية مدربة تدريبا جيدا لـم نشاهده في قوات جيش الانقاذ وتمركزت على الجبل القريب من المستعمرة ·وهنا بدأ انسحاب جيش الانقـاذ بمدفعيتـــه

ومصفحاته وجنوده · وما ان حل المساء حتى كانت جميع قوات جيش الانقـــاذ واسلحتها بالكامل قد اتمت انسحابهاالى مراكزها في جبع وغيرها ، واصبحـــت المنطقة خالية منهم تماما ، وتبع ذلـــك قيام القوات الاسرائيلية باحتلال قريـــة ابو زريق لتي نسفت فئة الهندســـة مـــن جيش الانقاذ الجسر الواقع بينها وبيـــن مستعمرة مشمارهايمك ، واغلق اهلهـا الطريق التيتوصلالمستعمرة بالمستعمرات المجاورة حتى حيفا ، ونسفـوا القريـــة بكاملها وقتلوا من قتلوا وخطفوا عددا من فتيات القرية واقتادوهن الى مستعمـرة نهلال القريبة وقامت قوات العدو بمهاجمة القرى العربية المجاورة والتي عجـــزت قوات المناضلين من الدفاع عنها منفردة بدون ذخائر او دعم وانتهت معركـــة مشمارهايمك (المسرحيـــة والمهزلـــة) بالنتائج التالية :

١ ـتدمير ونسف كامل لقرية ابو زريق العربية وخطف عدد من فتياتها وقتل عدد من شبابها واقاموا مكانها فيمـا بعـــد مستعمرة يهودية ·

٢ ـ احتلال الصهاينة للقرى العربية وطرد سكانها ونسفها واقامة المستعمرات الصهيونية فيما بعد علـــى انقاضهـــا والاستيلاء على جميع اراضيها وهي قرى قيرة ، ابو شوشة ، الغبية التحتا ،الغ ية الفوقا ، المنسه التابعة للواء حيفا ،المنسه التابعة لقضاء جنين ، مجدو ، اللجون بخربها الثلاث ، لد العواديـــن ضارب ومساكن عرب التركمان ، جميع الخرب في تلك المنطقة ·

٣ ـاستشهاد قئاد لدفعية البطل مامون البطار وعدد من جنود جيش الانقـــاذ والمناضلين والاهالي ·

٤ ـ انهيار عام في معنويات جيشـــن الانقاذ والاهالي ·

٥ـ اعادة الفتيات العربيات من قبضة العدو بشروط غير مشرفة لا مجال لذكرها هنا ···· ؟ وتبين فيما بعد ان القاوقجي طلب من الملك عبد الله ارسال نجدة من الجيش الادني كانت تلبس لباس جيشـن قال انه مهدد ومحاصر مـــع مدفعيتـــه ودباباته وان القوة التي مر ذكرهـــا وحضرت بالسيارات اخر يوم بالمعركـــة وهو يوم الانسحاب ، ما هي الا سرية من الجيش الاردني كانت تلبس لباس جيش الانقاذ وبقيت تحتل احد الجبال القريبة من المستعمرة حتى تم انسحاب جميـــع قوات جيش الانقاذ واسلحته بكاملها ·

ومنح الملك عبد الله فوزي القاوقجي لقب باشا واصبح فيما بعد ينادى عليه فوزي باشا القاوقجي· ولا بد لي هنا من التذكير بان اربعة طائرات مصرية سبق ان قامت بغارة جوية على مستعمرة نهلال قرب مطار نهلال ، فلاحقتها الطائـــرات البريطانية بامر من القائد البريطانـــي الذي اعطى الهدنة مـــن القاوقجـــي ، واستمرت مطاردتهاحتى اسقطتها جميعا·

هذه معركة مشمارهاعميك على حقيقتها وبنتائجها وليس كما جاء بمذكرات فوزي باشا القاوقجيوهناكامور وخفاياالوقتغير مناسب لذكرها في هذا المجال ·

((تلال مستعمرتي قلندية والنيفي يعقوب))

يقول فوزي باشا القاوقجي بمذكراته بالصفحة (١٩٦) من الكتاب ان قـــوات جيش الانقاذ احتلت بناء على امره وتحت اشرافه مستعمرتي قلندية والنيفي يعقوب الواقعتين شمال القدس وقرب مطارها : كان الصهاينة يشددون الخناق على مدينة القدس ويحاصرونها منالجنوب والشمال والغرب ، وكانت القدس القديمة مهـددة بالسقوط بيدهم وكانااهالي القدس وقوات الجهاد المقدس تدافع عنها ببسالة خارقة، لكن السلاح قليل والذخيرة شحيحـــة · فارسل الحاج امين الحسيني رسالة لـــي

يطلب بذل الجهود مع المقدم مهدي صالح (وهو عراقي) وكان تحت تصرفه عدد من مدفعية جيش الانقاذ لنجدة القدس وفك الحصار عنها وذلك بقصف مراكز العدو بالمدفعية · عرضت الامر على المقدم مهدي صالح فقال انا جاهز لكن لا يوجد عندي من المشاة ما يكفي لحراسة المدفعيـــة ، فعرضت نفسي مع اخواني المناضلين · وفعلا ذهبت مع قوة لا بأس بهـا مـــن المناضلين مع المقدم مهدي صالح ومدفعيته الثقيلة ليلا حتى وصلنا الى قرية النبي صموئيل المشرفة من الشمال على مدينة القدس وقصفت الاحيـــاء والمراكـــز الاسرائيلية قصفا مركزا ،وشبت الحرائق في المناطق الاسرائيلية · وفعلا فوجـــىء العدو بهذا القصف المدفعي وهـــو لاول مرة ، وفتحت طرق القدس وفك الحصار عنها · واثناء انسحاب المقدم مهـــدى صالح ومدفعيتهوقواتنا منالنبي صموئيل عائدين الى منطقة جنين مركزنا ، وفـي قرية قلندية العربية ، استقبلنا اهلهـا بالفرح والاهازيج وزغاريد النساء وطلبوا قصف مستعمرة قلندية المجاورة لقريتهم· وفي هذا الجو الحماسي امر المقدم مهدي صالح بقصف مستعمرة قلندية بعدد من القنابل · وبعد قصفها واصلنا عودتنا الى جنين ، لكن بعض المزارعين مـــن اهالي قرية قلندية العربية هرعوا الينـا قائلين ان اهالي مستعمرة قلندية هربوا من مستعمرتهم بعد القصف المدفعي وهـي خالية ، وطلب مني المقدم مهدي القيـــام بدورية استطلاع لمعرفة الحقيقة · وتقدمت مع عدد من اخواني المناضلين باتجـــاه المستعمرة ، وكانت دهشتي عظيمة حيـن تبين لي صدق قول المزارعين ، حيث لـــم اجد اي انسان في المستعمرة فابلغتالمقدم مهدي صالح ودخلنا المستعمرة بـــــدون قتال ولم نجد فيها اسرائيليا واحدا وهرع اهالي القرى المجاورة ،فسلمنا المستعمرة للجنة من القرى المجاورة ومسلحي تلـك القرى وواصلنا عودتنا الى جنين وهذه حقيقة احتلال مستعمرة قلندية ·

اما مستعمرة النيفي يعقوب القريبـــة منها فقد احتلها الجيش الاردني بعـــد تدميرها الكامل بالمدفعية فيما بعـــد ولا علاقة لفوزي باشا القاوقجي ولا لغيره بذلك ·

بعض الحقائق اوردتها وكل املـــي ورجائي من القائمين على «مركز الابحاث» تأليف لجنة خاصة لكتابة تاريخ نضـــال الشعب الفلسطيني وثوراتهالمتعددة وتقوم هذه اللجنة بدعوة كل من ساهم او عنده اطلاع على مرحلة نضال شعبنـــا ، او الاتصال به شخصيا واصدار اعلان لدعوة العارفين والمشاركين ، لتقديم ما عندهـم حيث تقوم اللجنة بتدقيـــق الوثائـــق والوقائع والرسائل · وبعد التأكد مـــن صحتها تجمع ويصدر مـــن « مركـــز الابحاث » بعد ذلك كتاب خاص عن كفـاح ونضال الشعب الفلسطيني منـــذ عـــام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٨ ، ويليه كتاب اخر من بعد ١٩٤٨ الى الان ليكون مصـــدرا موثوقا صحيحاومرجعالكل قارىء وتثبيتا لصحة تاريخ نضال شعبنا ومنعا لكثيـر من الذين يحلو لهم ان يكتبوا حســـب اهوائهم او ما يوعز لهم وهذا ضـــروري جدا قبل ان يرحل الجيل الذي عاصـــر قضيته منذ الاحتلال حتى الان ، ويأتـي جيل اخر لا يعرف الا ما يقـرأ بالكتـــب وتتطمس الحقيقة ·

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail) : Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل٠ل٠ في لبنان
٤ ل٠س٠ في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٨ دراهم في دولة الامارات العربية
٤ ١/٢ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٦١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٦

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٦١ — كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٦

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

مدير التوزيع : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي فصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد : ٢/١ ٢ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٨ دراهم في دولة الامارات العربية ، ٢/١ ٤ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في امريكا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
منى السعودي

المحتويات

صفحة ٤ شؤون فلسطينية ·

٦ **المسالة الفلسطينية بين احتمالات التسوية او الحرب** ، غـــازي الخليلي ·

٢٦ **الجنوب في مواجهة الحلف الصهيوني ـ الفاشي** ، جهاد سلامة

٤٩ **موقف اسرائيل من احداث لبنان ودورها فيها** ، احمد خليفـة·

٦٣ **الافكار والتحالفات والمباديء والمناورات** ، محجوب عمر ·

٧٤ **التعبير في الحرب الاهلية** ، الياس خوري ·

١٠٦ ٧٦،٧٣ : **قصيدتان** ، مؤيد الراوي

١١١ **ابوجابر الخليلي** (قصة) ، توفيق فياض

١٢٩ **ميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي بعد ثلاث سنوات من حرب تشرين** ، المقدم الهيثم الايوبي

صفحة ١٤٤ بين الكلمة « الوثرية » والفعل الثوري : حـــول مناقشـــات البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحريـر فلسطيـــن ، داود تلحمـــي ·

١٦٤ التكامل الاقتصادي العربي لبناء الصناعة الحربية العربيـــة ، الدكتور خيرات البيضاوي ·

١٧٦ اشارات على مسار حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية ، سميح سمارة

١٨٩ وثيقة كنيغ والمازق الصهيوني ، حسين ابو النمل ·

٢٠٥ رسالة من نيويورك : الحزب الاهلية اللبنانية في الاعـــلام الاميركي ، سلمى حداد ·

٢٠٩ تقرير : سفينة التجسس « ليبرتي » : مثال للتواطؤ الاميركي ـ الاسرائيلي ، يوسف خضر ·

٢١٦ دراسة تاريخية: الحزب الشيوعي الفلسطيني وهبة البـــراق ، شريف ماهر ·

شؤون فلسطينية

خلال سنتين من الحرب الاهلية التي عصفت بلبنان ، كنا في « شؤون فلسطينية » نحاول المحافظة على رسالتنا الفكرية والثقافية والتزامنا الوطني الفلسطيني من خلال ممارستين :

الاولى : هي الالتصاق بقضية الشعب ، في فترة هي من اخصب واخطر واهم فتـــرات النضال الوطني الفلسطيني المعاصر ضد العدو الصهيوني ، وضد محاولات تصفيـــة ارادة شعب فلسطين او تحجيمها أو ابتزازها بالتنازلات ، « فشؤون فلسطينية » حريصة على تأكيد هويتها بوصفها منبرا ديمقراطيا ملتزما بقضية الشعب والثورة ، قادرا على ان يشكل ارضية حوار نضالية بين مختلف اطراف النضال الوطني الفلسطيني ٠

الثانية : هي التغلب على الصعوبات التقنية التي فرضتها تطورات الحرب ٠ فكانـــت معركة الكلمة الملتزمة مع الظروف المستجدة تنطلق من ضرورة ان تكون الكلمة سلاحـــا راهنا ، وليس فقط سلاحا مستقبليا ٠ اداة للتحليل والتغيير في آن واحد ٠

ان بعض الاضطراب في مواعيد صدور اعدادنا الاخيرة هو نتيجة المعادلة الصعبة هذه التي حاولنا صياغتها خلال الحرب ٠ ونامل اليوم وابتداء من هذا العدد ان تعود « شؤون فلسطينية » الى ثبات مواعيـد صدورها كما عودت قارئها ٠

ولم يكن اضطراب مواعيد الصدور هو الخلل الوحيد الذي طرا على « شؤون فلسطينية» فلقد لاحظ القراء خارج لبنان ، بل وربما حتى في بعض المناطق اللبنانية ، انقطـاع وصول المجلة اليهم ، وربما ظن بعضهم انها توقفت عن الصدور ٠

والحقيقة ، انه برغم الظروف القاسية التي سادت الشهور العشرين الاخيرة في لبنان ، والتي عصفت بكل مظاهر الحياة والنشاط ،فلعل «شؤون فلسطينية» كانت الدورية الشهرية الوحيدة التي واظبت على الصدور الذي كاد ان يكون منتظما ، فلقد تمكنا من التغلب علـى كل العقبات الا عقبة واحدة هي المواصلات ، فكانت المجلة تصدر ، ولكنها توزع في اضيق نطاق ممكن ، وهذا في راينا مايعطي الاعداد التي صدرت في هذه الفترة من ٤٤ الـى ٦١ مزيدا من الاهمية ، ليس لان وصولهالم يكن ممكنا الى كل القراء في تلك الفترة ، بل لان هذه المجموعة من الاعداد قد غطت احدى اخطر واخصب واهم الفترات فـــي حيـــاة الثـورة الفلسطينية وحياة الكيان اللبناني ٠

فعلى مدى شهور الازمة العشرين (من نيسان ١٩٧٥ الى تشرين الثانـــي ١٩٧٦)

اصدرت «شؤون فلسطينية» ستة عشر عددا (منها عددان مزدوجان) ، تشكل في مجموعها احد المراجع المهمة عن الازمة اللبنانية بكل جوانبهـــا ٠

فقد نشر في هذه الاعداد ـ وبرغم كل صعوبات الكتاب والكتابة ـ تحليلات للجانـــب اللبناني من الازمة بمجالاته الاقتصادية والسياسية والاجتماعيـــة والطائفيـــة والفكرية ، وتحليلات للجانب الفلسطيني من الازمة مع مقارنات بين احداث لبنان الاخيرة واحداث الاردن (عامي ٧٠ ـ ٧١) ٠ كما شملت هذه المجموعة مقالين تسجيليين تحليليين عن مسار الازمة اللبنانية بكل تفاصيلها اليومية ٠ وفي المجموعة معالجة لثلاث محطات هامة فيمسيرةمعارك الحرب اللبنانية عن تل الزعتر ، والجنوب والجبل ، ومعالجتان للدور الاسرائيلي في احداث لبنان ٠ كما تضمنت هذه المجموعة ثلاث وثائق مهمة احداها فصل من مذكرات روبرتمورفي، المبعوث الاميركي للبنان في اواخر ازمة ١٩٥٨ ، وفصل من كتاب لالبرت حوراني عنالتركيب الطائفي ـ السياسي للبنان في الاربعينات ، وترجمة حرفية لوثيقة كنيغ الاسرائيلية عـن تهويد الجليل ٠

كما تضمنت المجموعة اكثر من مقال يحلل الازمة اللبنانية من خلال علاقتها بالتسوية العامة المطروحة للصراع العربي ـ الاسرائيلي منذ اتفاقية سيناء ٠

وبرغم سيطرة الازمة اللبنانية بكل تفاصيلها على هذه المجموعة من « شؤون فلسطينية» فهي زاخرة بمعالجات مفصلة لجميع المواضيع التي عودت قراءها على متابعتها ، ولعل ابرز مجهود في هذا المجال الندوة المطولة حول انتفاضة الارض في منتصف هذا العـام ٠

شيء واحد كان ينقص هـذا المجهود المتواصل والمتحدي لاصعب الظروف ، هو وصوله الى القراء الذين تعودوا على متابعة « شؤون فلسطينية » ، وهذه هي العقبة الوحيـــدة التي لم نستطع تذليلها ٠ لذلك فان قسم التوزيع التابع لمركز الابحاث ، مستعد لتلبية كل طلب متعلق بمجموعة الاعداد التي صدرت فيإثناء الازمة اللبنانية او اي عدد منفرد منها ٠

ومع العدد القادم من «شؤون فلسطينية » نامل ان نعاود سيرتنا الاولى مع القارىء من حيث انتظام الصدور وانتظام التوزيع ٠

هيئة التحرير

المسألة الفلسطينية بين احتمالات التسوية او الحرب

غازي الخليلي

ماهي ملامح المرحلة القادمة بعد فوز جيمي كارتر رئيسا للولايات المتحدة؟ هل سيغير هذا الفوز من حسابات بعض الدول العربية ومراهناتها حول احتمالات عقد تسوية سياسية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، ام لا ؟ ذهاب كيسنجر ، مهندس معادلات واتفاقات التسوية ومبتدع سياسة الخطوة ـ خطوة ، هل سيغير في الحسابات ويفرض اعادة جمع اوراق الازمة وخلطها من جديد ؟ اسئلة كهذه تطرح نفسها الان ، والاجابة عليها قد تبدو مبكرة او غير مشجعة ـ نوعا ما ـ لو اخذنا منطق هذا البعض من الدول العربية الذي وضع البيض كله في سلة واحدة ، وراهن على كيسنجر وعلى فوز فورد بانتخابات الرئاسة الاميركية ، للتقدم خطوة كبيرة ،وكبيرة جدا في مسيرة التسوية · ولكن منطقا كهذا لا يصمد امام الواقع ، لانه يسقط الرغبات الذاتية على هذا الواقع ، ويقوم على التمنيات اكثر ما يقوم على التحليل العلمي للوقائع والاحداث · ولا يعني قولنا هذا ان فوز كارتر لن يحدث بعض التغيير في الصورة ، لا بل ، سيحدث بعض التغيير ، ولكنه تغيير لا نراه الا بحدود ضيقة ،ويتناول الاسلوب والشكل ولا يتناول الاهداف الثابتة للسياسة الاميركية ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي · ذلك ان الموقف الاميركي من هذا الصراع لم يتغير بوجود كيسنجر او عدم وجوده ، بل ظل ـ ولا يزال ـ ملتزما بثوابت محددة ، يجري التعبير عنها باشكال مختلفة وباساليب متنوعة ، وفقا لما يطرأ من تطورات على هذا الصراع نفسه من ناحية،ولما يطرأ من تطوراتعلى الصعيد الدولي من ناحية اخرى · وسياسة « الخطوات الصغيرة » في مسيرة التسوية تمهيدا لخطوة كبيرة ـ نوعا ما ـ لم تكن باي شكل من الاشكال ، خروجا عن هذه الثوابت ، بل كانت شكلا من اشكال متعددة لتنفيذ السياسة الاميركية في الشرق الاوسط على ضوء ما طرأ من تطورات بعد حرب تشرين ·

ثوابت الموقف الاميركي

الثوابت في الموقف الاميركي ازاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، باتت

واضحة ، ولا تحتاج الى جهد كبير للتدليل عليها او التعريف بها ، ويمكـــن اجمالها بما يلي :

١) دعم وتقوية اسرائيل باستمرار ، وذلك للحفاظ عليها قوية وقـــادرة على مواجهة اية تطورات محتملة في الوضع العربي · ولذلك ففي الوقت الذي كانت فيه ادارة نيكسون أو تقدم نفسها لبعض الدول العربية بثـــوب جديـــد ، كانت تقدم لاسرائيلمساعدات عسكرية واقتصادية ضخمة · وعقدت ادارة فورد قبيل انتخابات الرئاسة ، صفقات كبيرة من الاسلحـة مع اسرائيل لتزويدهـــا بافضل الاسلحة الاميركية واكثرها تطورا ·

٢) ضرب علاقات الاتحاد السوفياتي مع الدول العربية · بالتأثيـر عـــلى هذه العلاقات وتقليص حدود فعلها وتأثيراتها الى ادنى حد ممكن · وفي هذا المجال فقد عمدت السياسة الاميركية خلال السنوات الماضية الى ايجاد نـوع من التوازن النسبي بين الدفع في مسيرة التسوية خطوة ، وبين التراجع فـي العلاقات السوفياتية ـ العربية خطوة او خطوات مقابلة · ولتكريســس هـــذا التوازن ، اوجدت نوعا من الوهم لدى بعض الدول العربية بأن كـــل « اوراق اللعبة » اي اوراق التسوية بأيدي الولايات المتحدة · وبهذا المنظار ، فـــان اتفاقية سيناء كانت في احد مظاهرها تعبيرا عن تراجع كبير فـــي العلاقـــات السوفياتية ـ المصرية وتقدما اكبر واوضح في العلاقات الاميركية ـ المصرية ·

٣) حماية المصالح الاميركية الاستراتيجية في المنطقة ، من نفط وعلاقات اقتصادية وسياسية وطرق مواصلات عالمية · وذلك بدعم القوى الاكثر رجعيـة في المنطقة ، وتمتين علاقات هذه القوى فيما بينها من جهة ، وفيما بينها وبين الولايات المتحدة من الجهة الاخرى · وايضا بالعمل على توسيع شبكة العلاقات الاميركية مع الدول العربية الاخرى ، التي كانت علاقاتها مع اميركا تتســـم بعداء نسبي في الماضي ، والتي باتت اكثر تقبلا الان ، لمد جسور قوية مـــن التفاهم والعلاقات الاقتصادية والسياسية مع الولايات المتحدة ، وذلك علـــى قاعدة استيعاب الدور الاميركي في المنطقة ، وتقبل دور الولايات المتحدة المتميز والخاص في تسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي ·

٤) العمل على تهدئة الصراع العربي ـ الاسرائيلي طالما ان امكانات الوصول الى تسوية سياسية شاملة او شبه شاملة لهذا الصراع ، وفق المنظور الاميركي ، لم تتوفر بعد · وذلك بالتهديد تارة ، وبالوسائل الدبلوماسيـــة وسياسة الخطوات الصغيرة تارة اخرى ·

٥) الالتزام بالموقف الاسرائيلي من المسالة الفلسطينية ، وربط احتمالات حدوث اي تغيير في الموقف الاميركي من هذه المسالة بتفاهم او تنسيق واتفاق مسبقين بين اسرائيل والولايات المتحدة ٠

لقد جرى التعبير عن هذه الثوابت بوسائل مختلفة واساليب متنوعة خلال السنوات العشر الماضية ، والى ما قبل حرب تشرين اتسم التعبير عن هـــذه الثوابت بالتعنت ، في حين انه اتسم بمرونة نسبية بعدها ، وذلـك بهـــدف استيعاب الحالة الساخنة للصراع التي نجمت عن هذه الحـرب ، وامتصـاص النتائج الايجابية التي ولدتها ومحاولة استيعابها ضمن السياسة الاميركية في المنطقة ٠ ويمكن القول بدون تردد ، ان الدبلوماسية الاميركية نجحت الى حـد كبير في محاولتها هذه ، وذلك نتيجة مواقف بعض الانظمة العربية التي اندفعت وراء العربة الاميركية دون تبصر ودون حسابات واضحة ، مكتفية بالوعـــود « وبحسن نية » فورد وكيسنجر ٠

سياسة الخطوة ـ خطوة استنفدت اغراضها ٠

على الرغم من ان سياسة « الخطوة ـ خطوة » ارتبطت باسم كيسنجـــر باعتباره مبتدعها ومنفذها ، فان هذه السياسة طرحت اكثر من مرة قبل حرب تشرين كمدخل او مقدمة لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ وكان المحور في هذه السياسة يدور حول فتح قناة السويس ، وموشيه ديان هو اول من طرح هذه الفكرة في العام ١٩٦٩ ، ثم طرحها كمشروع ، الرئيس انور السادات في شباط « فبراير » ١٩٧١ ، الا ان هذه الفكرة لم تجد طريقها الى التنفيذ لانهـــا اصطدمت آنذاك باكثر من عقبة ٠ فمصر كانت تؤكد على ضرورة ربط الحـــل الجزئي بفتح قناة السويس بالتسوية الشاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي، وتطالب بالحصول على ضمانات مسبقة بالتزام اسرائيل بهذا الربط ، في حين كانـت اسرائيل ترفض اعطاء اية ضمانات وترفض الالتزام بطرح اية آفاق محـــددة للكيفية التي ستتم بها تسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي بشكل شامـل ٠ لقد كانت اسرائيل ـ آنذاك ـ مأخوذة بجنون انتصارها في حرب حزيران «يونيو» ١٩٦٧ ، ولم تكن على استعداد لابداء اية مرونة في الوصول الى تسويـــة ، حتى ولو كانت جزئية ٠

لقد طرأ تعديل على هذه الصورة بعد حرب تشرين ، فاسرائيل « القويـة والقادرة والتي لا تقهر » تعرضت لضربة لم تكن تتوقعها ، والولايات المتحـدة

التي كانت تراهن على عامل الزمن واسرائيل القوية ، فوجئت بالحرب ـ والى حد ما ـ بنتائجها ، فتحركت بهدف تطويق اية مضاعفات قد تحدث ولا يمكن السيطرة عليها • وكان كيسنجر محور هذا التحرك ، والذي يحب كما يشاع عنه ، ان يتعامل مع الاحداث وهي ساخنة • كانت اسرائيل بحاجة الى فترة ولو قصيرة من الهدوء لاستيعاب الصدمة النفسية للجمهور الاسرائيلي،ولاعادة ترتيب اوضاعها العسكرية والاقتصادية والسياسية بعد حرب لم تكن داخلة في تقديراتها السياسية • اما الولايات المتحدة فقد وجدت في اندفاع بعض الدول العربية نحوها لحل الازمة فرصتها للدخول الى الازمة بوضع قوي ، يتيح لها التفرد بالبحث عن حلول لها مستقبلا ويمد جسور قوية من العلاقات مع هذه الدول ، وهو ما يتفق مع استراتيجيتها وسياستها في المنطقة • ومنذ البداية اتسم التحرك الاميركيبالحفاظ على حالة من التوازنالنسبي بين مسيرةالتسوية وبين ما يجري من تطورات اقتصادية واجتماعية في بعض البلدان العربية،كانت تنعكس تلقائيا في تقدم علاقات هذه الدول مع الولايات المتحدة بشكل خاص والبلدان الرأسمالية بشكل عام ، وفي تراجع بل وتدهور علاقات هذه الدول مع الاتحاد السوفياتي •

ولدت هذه المعطيات وتحديدا سياسات انظمة حرب تشرين بعد الحرب ، امكان تنفيذ سياسة الخطوات الصغيرة ، فكانت اتفاقيتا فك الارتباط على الجبهتين المصرية والسورية ثم كانت اتفاقية سيناء التي مثلت خطوة اكبر من اتفاقيتي فك الارتباط ، وكانت تعبيرا عن الاندفاع المصري الاوضح نحو العربة الاميركية ، اضافة الى انها جاءت بمثابة اعلان عن نهاية سياسة الخطوات الصغيرة والبحث عن امكانات لسياسة تتعامل مع الآفاق الشاملة لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي •

بعد عقد اتفاقيتي فك الارتباط دار جدل واسع حول مسار التسوية •كانت انظمة التسوية تحاول الوصول الى خطوة اخرى من التسوية على الجبهات الثلاث ، المصرية والسورية والاردنية • لكن خطوة كهذه كانت تصطدم باكثر من عقبة ، منها ، ان خطوة كهذه كانت تصطدم بالمسالة الفلسطينية ، وهي مسالة كانت مواقف اطراف الصراع المختلفة ، تتصادم خلالها بحدة ، فبرنامج الحد الادنى العربي بخصوص هذه المسالة كما جرى التعبير عنه في مؤتمر قمة الرباط ، كان يتصادم مع الموقفين الاسرائيلي والاميركي اللذين يرفضان فكرة الدولة الفلسطينية ، وفكرة اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني • ومن هذه العقبات ايضا ، ان اسرائيل لم يكن لديها استعداد لتقديم اية تنازلات للانسحاب من مساحة « معقولة » من الاراضي على الجبهة السورية •

واما عقبات كهذه كان النظام المصري امام خيارين : اما الانفراد بحل على الجبهة المصرية ، حيث ان امكانات حل كهذا متوفرة لاعتبارات عديدة ، واما الاستمرار في سياسة البحث عن خطوة من التسوية على الجبهات الثلاث. لقد حاول النظام المصري البحث عن امكانات للخيار الثاني بمحاولة حل معضلة التمثيل الفلسطيني عبر حل معضلة الخلاف الاردني ـ الفلسطيني حول هذا التمثيل . فكان بيان الاسكندرية الذي صدر في ١٨ تموز (يوليو) ١٩٧٤ اثر زيارةقام بها الملك حسين الى القاهرة . والبيان هو عبارة عن اتفاق مصري ـ اردني ، باقتسام التمثيل الفلسطيني بين الاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية . فالاردن يمثل الفلسطينيين من رعايا المملكة الاردنية الهاشمية ، في حين تمثل المنظمة البقية الباقية من الفلسطينيين . والبيان كان غامضا حول فلسطيني الضفة الغربية والمجنسين بالجنسية الاردنية ، هل يعتبرون رعايا اردنيين وبالتالي يشملهم التمثيل الفلسطيني ام لا ؟ لقد اوضح اسماعيل فهمي ، وزير الخارجية المصري ، بعد الضجة التي اثيرت حول البيان ، ان الضفة الغربية تعتبر وديعة لدى الاردن ولكنه لم يوضح الوضع التمثيلي لفلسطينيي الضفة.(١)

رفضت منظمة التحرير الفلسطينية المعادلة المصرية للتمثيل الفلسطيني واصرت على اعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني . وقد تاكد هذا الاصرار في قرارات قمة الرباط التي نصت على ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، وكان نتيجة ذلك ان طويت ـ مؤقتا ـ مسالة التمثيل الفلسطيني ، وانكفأ النظام الاردني على نفسه، وقذف بسلاح « سياسة الاردنة » لافشال قرارات الرباط بصدد التمثيل الفلسطيني .

مثلت قرارات الرباط نوعا من الاتفاق العربي على ضرورة البحث عن مسار للتسوية يشمل الجبهات الثلاث ، المصرية والسورية والاردنية ، عبر مؤتمر جنيف . ولكن القرارات اثارت معارضة اسرائيلية واميركية . واعتبرها الاسرائيليون والاميركيون معرقلة لمسيرة التسوية ، وتضع العصي في عجلاتها . وهنا تاتي دبلوماسية كيسنجر ، التي التفت على هذه القرارات وعلى مؤتمر جنيف ، وعملت عبر الاتصال الثنائي الاميركي ـ المصري على ارجاع مصر الى الخيار الاول ، عبر الاكتفاء بخطوة كبيرة ـ نوعا ما ـ على الجبهة المصرية مقابل الوعد بقطع خطوة مماثلة على الجبهة السورية ، وتاجيل البحث في المسالة الفلسطينية الى مرحلة قادمة .

كانت اتفاقية سيناء حصيلة مساومة غير متكافئة بين اطراف ثلاثة هي اسرائيل والولايات المتحدة ومصر . وكانت الولايات المتحدة اكبر رابح في هذه

الاتفاقية والتي اعتبرت من الانجازات الكبيرة للدبلوماسية الاميركية في الشرق الاوسط • ولا نود هنا اعادة كل ما قيل عن هـــذه الاتفاقيـــة ونتائجهـــا ومدلولاتها ، فقد قيل وكتب الكثير عنها ، ونحن مع التقييم السلبي جدا لها • ولكن ما يهمنا تاكيده هنا ، ان الاتفاقية اخلت بالتوازنات العربية التي كانـت قائمة والتي سادت خلال وبعد حرب تشرين ، وتحديدا في العلاقات بين سوريا ومصر ، قطبي هذا التوازن بين انظمة التسوية • وتولد عن هذا الاخـلال وضع عربي جديد اتسم بغلبة الصراع على العلاقات بين الدول العربية واشتداد حدة هذا الصراع مع اندلاع الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، والتي كانت في احد مظاهرها تكثيفا لهذا الصراع عـلى الارض اللبنانية •

حسب ما اعـلن الرئيس السادات بعـد عقد اتفاقية سيناء ، كان من المفروض ان تتم خطوة مماثلة على الجبهة السورية ، وذلك بناء على وعـــد اميركـــي للسادات بذلك • غير ان خطوة كهذه لم تتم ، لعدم توفر اية امكانية عمليـــة لتنفيذها • فاسرائيل رفضت شروط سوريا التي طالبت بانسحاب اسرائيلـــي « معقول » من الجولان بحيث يشمل انسحابا من المستوطنات الاسرائيلية فـي الجولان واخراج مدينة القنيطرة من اطار الحصار الاسرائيلي لها • غير ان اسرائيل لم تبد استعدادا الا لانسحاب «تجميلي» ومحدود جدا من الجـولان • دون التعرض لاي من مستوطناتها هناك او لمواقعها على التلال المحيطة بمدينة القنيطرة •

تعذر عقد اتفاق سوري ـ اسرائيلي مماثل او شبيه لما جرى على الجبهة المصرية وضع النظام السوري امام خيارات صعبة • فباتفاقية سيناء لم تعـد مصر قادرة على توظيف ثقلها العسكري في الضغط على اسرائيل والولايـات المتحدة للوصول الى اتفاق معقول يرضي الحد الادنى من الشروط السورية • وكان اكثر ما يمكن ان تقوم به مصر هو توظيف علاقاتها مع الولايات المتحدة لتنفيذ الوعد الذي اعطي لها • ومصر كانت تشعر انها بحاجة لاتفاق سوري ـ اسرائيلي حتى لا تتهم بالانفراد • ولكن التعنت الاسرائيلي والمماطلة الاميركية لم تجعلا من الممكن ابرام اتفاق كهذا •ولذا فقد وجدت سوريا نفسها تقفمنفردة في مواجهة التعنت الاسرائيلي والمماطلة الاميركية ، ولم يكـــن امامهـــا الا ان تقبل بالشروط الاسرائيلية وتكتفي بالانسحاب التجميلي لتغطية اتفاقيـــة سيناء ، او ان توسع اطار حركتها تكون اقدر عـلى المناورة والمساومـــة مـع اسرائيل والولايات المتحدة •

ان اقتصار الحركة السورية عـلى الجولان دون تجميع اوراق ضـغط اخرى في يدها ، لن يؤدي بسوريا الا لاحد خيارين: اما القبول بتجميد الوضع عـلى

الجبهة السورية وانتظار الحركة المصرية لانقاذ الموقف ، واما الاندفاع الىحرب مع اسرائيل ، كحرب الجولان التي سبقت عقد اتفاقية فك الارتباط · وكانـــت لدى السوريين قناعة كبيرة بان اسرائيل لن تنسحب من الجولان ، وان انسحابا اسرائيليا كبيرا من الجولان قد يتم في حال الوصول الى تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع مع العدو الصهيوني · وعـلى المدى المنظور ليست هناك امكانية لتسوية كهذه ، وان كان هناك امكانية ، فانها لن تكون متوفرة الا باتفاق عربي عام حولها ·

اما القبول بتجميد الوضع فقد رات سوريا فيه اضعافا لموقفها مما يجعل منها ذيلا للحركة المصرية · اضافة الى ان القبول بموقف كهذا يتعارض كليـا مع تطلعات البورجوازية السورية في السيطرة والامتداد ، والحفاظ على موقعها القيادي عربيا · والاندفاع الى حرب مع اسرائيل كحرب الجولان ، كان يتطلب توفير بعض الشروط اهمها ، الاستعاضة عن الثقل العسكري المصري بثقـــل عربي اخر موازٍ له عـلى اقل تقدير · ولا سيما ان مصر اعلنت بوضوح انهـا لن تدخل حربا مع اسرائيلتكون سوريا هي البادئة بها ،بينما ستدخلها في حال هجوم اسرائيلي على سوريا ·

لقد فشلت ـ لاسباب عديدة ـ كل محاولات تشكيل القوة البديلة لتكون اداة ضغط على اسرائيل ، واخذت سوريا تسعى لتنفيذ مشروع خاص بها ، يقوم على اساس الامساك والتحكم بالمسالة الاساسيةفي التسوية وهي المسالة الفلسطينية· فطرحت لذلك مشروع الكونفدرالية السورية ـ الاردنية ـ الفلسطينية ، لتكون بمثابة الاطار الذي تحل من خلاله مسالة التمثيل الفلسطينـــي والتناقـــض الاردني ـ الفلسطيني بخصوص هذه المسالة ، ولتشكل هذه الكونفدرالية بعـد الامساك والتحكم بطرفيها الاردني والفلسطيني، الهامش الواســع للمنـــاورة السورية بصدد التسوية حول الجولان والمسالة الفلسطينية · ومع اندلاع الحرب الاهلية في لبنان ، دخل لبنان في المشروع السوري ، باعتبـــاره الارضـــ التي تتحرك عليها الثورة الفلسطينية بحرية نسبية ·

كان اندلاع الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، ايذانا بـــان سياســة الخطوات الصغيرة قد استنفدت اغراضها ، وان ما يجري الان هو التمهيـد لتسوية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي «٢» · فمباشـــرة سوريا التمهيد لتنفيذ مشروعها الكونفدرالي ، كان نوعا من الاعلان عن يأسها من الوصول الى اتفاق سوري ـ اسرائيلي ، كذلك فان مصر بعد اتفاقية سيناء كانت لا ترى ان هناك امكانية لخطوة صغيرة اخرى على الجبهة المصريـــة · وهذا ما اعـلنه السادات اكثر منمرة · ولكن تسوية شاملة او شبهشاملة ،تتطلب

اولا ايجاد حل للمعضلة المركزية في هذه التسوية ، وهي المسالة الفلسطينية • ولقد كانت الحرب الاهلية الوطنية التي اندلعت في لبنان ، المقدمة لمباشرة البحث عن حلول لهذه المعضلة ، ضمن الظروف والاوضاع الجديدة التي قد تتولد عن هذه الحرب •

الحرب الاهلية الوطنية في لبنان والمسالة الفلسطينية •

عوامل عدة تفاعلت وكانت سببا في اندلاع الحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، واستمرارها فترة تزيد عن ثمانية عشر شهرا حتى الان • ويأتي في مقدمة هذه العوامل ، ازمة النظام اللبناني الاقتصادية والاجتماعية • وقدعبرت هذه الازمة عن نفسها ، في الاضطرابات الاجتماعية التي شهدها لبنان خلال السنوات الماضية ، وفي عجز النظام الطائفي ـ شبه الاقطاعي عن استيعاب تطلعات البرجوازية اللبنانية الناشئة في الخروج من بوتقة العلاقات الطائفية الى نظام حكم يتجاوز الطائفية ويضع مقدمات لحكم بورجوازي ديموقراطي •

لقد تفاعل هذا العامل مع عاملين اخرين هما: (١) محاولة بعض الانظمة العربية قسر المد الوطني الفلسطيني ومصادرة القرار السياسي الفلسطيني لصالح هذا الطرف العربي او ذاك ، من اجل تطويع الموقف الفلسطيني وادخاله في معادلة التسوية للصراع العربي ـ الاسرائيلي مجردا من اية فعالية او تاثير (٢) محاولة العدو الاسرائيلي ـ الاميركي ـ الرجعي ضرب الثورة الفلسطينية وتصفيتها لاخراجها من معادلة التسوية كعامل ثانوي او رئيسي •

ونحن هنا سنسقط من تحليلنا العامل اللبناني ، وسنركز بشكل اساسي على العاملين الاخرين ، لنرى كيف جرت صياغتهما على ضوء النتائج التي اسفرت عنها هذه الحرب بعد ان اوشكت على نهايتها اثر قرارات مؤتمر القمة السداسي في الرياض ، وقرارات مؤتمر القمة العربي الاخير في القاهرة •

المسالة الفلسطينية هي في المركز من التسوية للصراع مع العدو الصهيوني ، ومركزية المسالة الفلسطينية في التسوية ، امر لا تفرضه حقيقة الصراع مع العدو الصهيوني بل جرى تاكيده والاعتراف به من قبل مختلف اطراف الصراع • والخلاف الدائر الان بين اطراف الصراع لا يدور حول هذه المركزية او عدمها ، بل يدور حول كيفية حل المشكلة الفلسطينية •باتفاقيتي فك الارتباط واتفاقية سيناء ، امكن تجاوز هذه المسالة بعدم التعرض لها ، يمكن ايضا ، تجاوزها اذا كان هناك امكان لخطوة صغيرة اخرى من التسوية على الجبهة السورية او المصرية • ولكن لا يمكن تجاوز هذه المسالة لدى البحث عن تسوية سواء بخطوة صغيرة او كبيرة على الجبهة الاردنية ، او لدى البحث

عن تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي · وحيـــث ان البحث عن منافذ للتسوية بعد اتفاقية سيناء ★ يدور بشكل رئيسي عن حـــل شامل او شبه شامل ، فان البحث عن حل كهذا سيصطدم بالمسالة الفلسطينية · اطراف الصراع المختلفة تتعارض بشكل حاد ، والبعض الاخر بشكل اقل حـدة حول هذه المسالة · والعصب في استمرار هذا التعارض ، هـــو الثـــورة الفلسطينية · في العام ١٩٤٨ « نابت » الدول العربية عن الفلسطينيين وارست حلا ـ هدنة ، للصراع مع العدو الصهيوني ، والحقت ما تبقى من الارضـــ الفلسطينية والشعب العربي الفلسطيني ببعض الدول العربية · كانت القيـادة الوطنية للشعب الفلسطيني ـ انذاك ـ غائبة وشبه ضائعـة · اما الان فالوضـع يختلف ، فمن ناحية توجد ثورة وتوجد قيادة وطنية للشعب الفلسطيني اعادت الحياة والاعتبار للشخصية الوطنية الفلسطينية ، ومن ناحية اخرى فان المطروح الان ليس حلا ـ هدنة ، بل حل شامل ينهي حالة الحرب بين العرب واسرائيل، ليس بهدنة بل باعتراف عربي باسرائيل كدولة وكيان · ولا نريد ان ندخل في متاهات امكانات الحلَ الشاملاو عدمها في المدى المنظور ، فهذا ليس موضوعنا بل نريد فقط ان نبحث امكانات حل المسالة الفلسطينية ضمن ما يطرح من حلول بحثا عن حل شامل او شبه شامل ·

الدخول الفلسطيني في الحرب الاهلية الوطنية في لبنان كان مفروضـا على الثورة الفلسطينية ، لانها هي المستهدفة بشكل اساسي من هذه الحـرب · فلبنان هو اخر اهم موقع للثورة الفلسطينية على الارض العربية بعد ان فقـدت موقعها الهام في الاردن · وفي هذا الموقع ، كانت الثورة تتحرك بحرية نسبية، ترفض ، تقبل ، تتحرك ضد مشاريع معينة ، ضد اتفاقات تمسها وتمس وجودها، تتابع نضالها ضد العدو الصهيوني · اذا فقدت هذا الموقع ، فقدت الكثير من فعاليتها وقدرتها النضالية · لانها لا تفقد فقط امكانات الفعـل المستقبلي عـلـى مدى سنوات قد تكون طويلة ، بل وايضا ، امكانات الفعل في اطر التسويـــة المطروحة ·

تناقض اطراف الصراع المختلفة حول المسالة الفلسطينية وضع التسويـة الشاملة او شبه الشاملة امام الطريق المسدود · الخطوات الصغيرة او سياسة الخطوة ـ خطوة استنفدت اغراضها ولم تعد ممكنة · اذن ، لا بد من حل هـذا التناقض اذا اريد لقطار التسوية ان يتابع سيره · فكيف يكون ذلك ؟ الثـورة الفلسطينية بما تمثله من امكانات فعل وتاثير ، عامل غير قابل للذوبان فـــي

★ هذا اذا تجاوزنا امكان تسوية من نوع الخـطوة الصغـيرة عـلى الجبهة السـورية خلال الفترة القادمة ·

المعادلة · والبرنامج الذي طرحته منظمة التحرير الفلسطينية كاساس لدخولها معادلة التسوية ، مرفوض اسرائيليا واميركيا ولا ترى فيه كل « انظمة التسوية» برنامجا معقولا او ممكن التنفيذ في هذه المرحلة · اذن ، من اجل استمـــرار اندفاع قطار التسوية لا بد من افقاد الثورة الفلسطينية فعاليتها وتاثيرهـــا اي تحجيمها ، او نفيهاكعامل من المعادلة · وفي الفسحة الضيقة بين هذين الخطين، التقت احيانا وتصادمت ـ بحدود ـ في احيان اخرى ، كل القوى التي كانـــت ترى في الثورة الفلسطينية عاملا يعيق مسيرة التسوية ·

كانت الحرب الاهلية الوطنية في لبنان وسيلة هذه القوى للتعامل مـــع الثورة الفلسطينية باعتبارها عاملا يعيق مسيرة التسوية · وخـلال هـذه الحرب طرحت هذه القوى مشاريعها المتصادمة مع المشروع العربـــي الفلسطينـــي للتسوية · وكل هذه القوى كان يحاول شد خيوط الحـرب الى جهته لتتفـــق نتائجها مع مشروعه ·

فالحرب الاهلية الوطنية في لبنان ، كانت في احد ابرز مظاهرها * صراعـا على مشاريع التسوية للمسالة الفلسطينية · القوى الانعزالية طرحت مشروعا يقوم على نفي العامل الفلسطيني من معادلة التسوية ، بانهاء اي وجود للثورة الفلسطينية على ارض لبنان ، وهذا المشروع يلتقي بالكامل مـــع المشـــروع الاسرائيلي ـ الاميركي ومع مجمل مواقف النظام الاردني · النظام الســـوري طرح مشروعا يقوم على الامساك بالمسالة الفلسطينية ، عبر التحكم باداة هـذه المسالة وقوتها الرئيسية وهي منظمة التحرير الفلسطينية ، وذلك عبر اخضاع المنظمة للسيطرة السورية المباشرة · واستخدمت سوريا اكثر من وسيلة لتنفيذ مشروعها هذا · فقد حاولت في البداية ادخال المنظمة في مشروعها الكونفدرالي الاردني ـ الفلسطيني ـ السوري ، ولمـا تعثرت محاولة كهذه بسبب المعضلـــة الاردنية ـ الفلسطينية ، سارت في خـطى تحجيم الثـورة الفلسطينية · ولمـــا استعصت امكانات التحجيم بوسائل الضغط المباشردون الصدام العام ، لجأت في مرحلة لاحقة الى الصدام المباشر والعام الذي اخذ يتأرجح في الصدامـات الاخيرة بين حدي التحجيم والتصفية النهائية للثورة الفلسطينية ·

اما مصر ، فقد اتسمت سياستها في البداية بالمراقبة الحذرة لمجريـــات

---

* نعود للتاكيد اننا هنا اسقطنا العامـل اللبناني والمسالة اللبنانية من تحليلنا ، ليس لان هذه المسالة لا تدخـل في حسابات الحرب ، بل لاننا نبحث هنا فقط العلاقة بين هذه الحرب والمسالة الفلسطينية · والاسقاط هنا لا يعـني باي شكل من الاشكال نفي المسالة اللبنانية او التقليل من اثرها في هـذه الحرب ·

الحرب ، ثم دخلت فيها بشكل غير مباشر عبر مشروع يلتقي مع هدف التحجيم، ملخصه العام : منظمة تحرير فلسطينية معتدلة واكثر انسجاما مع « عـــرب التسوية » تكون طرفا في معادلة التسوية ، يثير معارضة اسرائيلية اقل ، ويلقى مرونة اميركية اكبر • وهذا المشروع كان هو الاقرب الى بقية « انظمة التسوية العربية » باستثناء سوريا والاردن •

لقد جرى خلال الحرب في لبنان تجربة امكانات هذه المشاريـــع عبـر صدامها الحاد مع المشروع الوطني الفلسطيني سواء بحده الاقصى الرافض لاي اشتراك فلسطيني في معادلة التسوية او بحده الادنى كما عبر عنه فـــي البرنامج المرحلي الصادر عن المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة في العام ١٩٧٤ • والان وبعد ثمانية عشر شهرا من الحرب الطاحنة ومن صـراع الارادات ، هل يبدو ان تجربة امكانات اي من هذه المشاريع قد استنفدت ، وان الاطراف العربية التي التقت في الرياض اتفقت على مشروع موحد ، يتم على اساسه انهاء الحرب في لبنان ؟

يبدو من القراءة الاولى لقرارات مؤتمر الرياض السداسي ثم لقرارات مؤتمر القمة الاخير ، ان « انظمة التسوية العربية » التقت على ضرورة انهاء الحـرب بشكلها العنيف في لبنان ، على قاعدة مشروع لتسوية المسالـة الفلسطينيـــة هو بشكله العام ، اقرب الى المشروع المصري منه الى المشروع السوري • ويبدو لنا ايضا ان هذه الانظمة اتفقت ـ ضمنا ـ على عدم التعرض لتحديد تفاصيـل هذا المشروع العام الان لتجري صياغتها مستقبلا على ضوء التطورات التـي تنجم عن ترتيبات انهاء القتال في لبنان ، والتطورات التي يمكن ان تطرأ على مسيرة التسوية للصراع العربي ـ الاسرائيلي •

وعلى ضوء كل ذلك ، فاننا نرى ان الحرب بشكلها العنيف في لبنـــان ، وان شارفت على النهاية بدخول قوات الامن العربية ، فان صراع الارادات حول المسالة الفلسطينية لم ينته بعد ، وان اشكالا من الصراع متعددة ومتنوعة حول هذه المسالة ستكون السمة المميزة للمرحلة القادمة • وذلك لعدة اسباب منها :

(١) ان ترتيبات انهاء القتال في لبنان لا تزال في بدايتها ، واستنـــادا الى تجارب ماضية ، وكذلك استنادا الى الكيفية التي جرى فيها تشكيـل قـوات الامن العربية وقيادتها ، فاننا نقول ان هذه الترتيبات كما جرت وتجري حتـى الان تترك المجال لاحتمالات عديدة يمكن حدوثها خلال الاشهر القادمة • ومما يجدر ذكره هنا ، ان الكيفية التي سترسو عليها العلاقات الفلسطينية ـ السورية خلال الفترة القادمة ، ستشكل احد اهم المؤشرات في تحديد مسار الاحداث، وبأي

اتجاه ستسير وضمن اية احتمالات ٠

(٢) ما يجري من تطورات في جنوب لبنان لا يدع مجالا للشك ان الحلف الاسرائيلي ـ الانعزالي والمدعوم اميركيا ، لم ييأس بعد من امكانية تنفيذ مشروعه بنفي العامل الفلسطيني من معادلة التسوية للصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠وبالتالي فان الطريقة التي سيعالج بها الوضع في جنوب لبنان ستترك تأثيراتها على مسار الاحداث خلال الفترة القادمة ٠

(٣ على الرغم مما يقال او يشاع ان موقفا فلسطينيا اكثر اعتدالا ويشكل انقلابا على الموقف الفلسطيني السابق بخصوص الدور الفلسطيني في التسوية على وشك الصدور قريبا من اجتماع المجلس الوطني * فاننا لا نرى هذا الاحتمال بهذه الشدة ٠ فالموقف الفلسطيني الرسمي من التسوية لا يزال يقوم على الالتزام بالبرنامج المرحلي لمنظمة التحريرالفلسطينية ٠ وان كانت هناك نية لدى بعض الاطراف لادخال تغييرات اساسية على هذا الموقف ، فتقديرنا ان هذه

---

* يجدر بنا هنا التنويه الى الخبر الذي وزعته وكالة رويتر في ١٩٧٦/١١/٣ ونسبته الى مصدر فلسطيني عال في القاهرة ، ونشرته صحف لبنانية (النهار ١٩٧٦/١١/٥)٠ والخبر يشير الى نبذ من سماهم بالمعتدلين الفلسطينيين سياسة القوة لاسترجاع فلسطين واكتفاؤهم بدولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة قد تكون « في نطاق اتحاد كونفدرالي مع سوريا والاردن »٠ كذلك يجدر بنا التنويه ببعض التصريحات التي صدرت عن مسؤولين فلسطينيين حول دعوة المجلس الوطني الفلسطيني للانعقاد ، حيث ربط بعض هذه التصريحات بين دعوة المجلس للانعقاد وبين احتمال ادخال تغييرات على الموقف الفلسطيني على ضوء نتائج الحرب اللبنانية ٠ ونرى ان الاستناد فقط الى مثل هذه التصريحات او التحليلات لتحديد مؤشرات معينة ومواقف معينة ، سيوقعنا في الخطأ الذي وقعنا فيه بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ٠ ففي الوقت الذي كانت تنهض فيه دلائل كثيرة ـ انذاك ـ على عدم امكانية قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال سنوات قادمة ، اندفعت اطراف فلسطينية للتبشير بكل حماس بهذه الدولة وكانها اصبحت قاب قوسين او ادنى من قيامها ، في حين اندفعت اطراف اخرى في المعارضة الشديدة لهذه الدولة وكانها اصبحت حقيقة قائمة ٠ ولقد ولد كل ذلك ، صراعات داخلية فلسطينية ، كانت سابقة لاوانها واضرت بالنضال الوطني الفلسطيني ٠ والان وامام احتمال تجدد طرح المسالة الفلسطينية مع نهاية الحرب في لبنان ، فاننا قد نشهد عودة للاجواء التي سادت عقب حرب تشرين حول هذه المسالة٠ ولذا فاننا نرى انه من الاجدر بنا ان لا نكرر التجربة ، وان نحدد سياساتنا ومواقفنا ليس باقتناص تصريح قيل هنا او هناك بل بالاستناد الى التحليل العلمي لمجريات الاحداث واحتمالات تطورها ٠ ويمكن القول بكل ثقة ، ان قطار التسوية لا يحتمل حتى الان وربما لسنوات قادمة ، ضم عربة الدولة الفلسطينية المستقلة اليه ٠

التغييرات لن تتم قريبا • اضافة الى ان تغييرات كهذه لا يمكن ان تتم في وقت لا يزال فيه مسار التسوية غير محدد وغير واضح • ونرى ان الموقف الفلسطيني في المرحلة القادمة سيتم بالحذر الشديد ، والاستمرار في سياسة « اللاموقف» بصدد حضور مؤتمر جنيف او عدم حضوره • اضافة الى ان الموقف الفلسطيني كما ظهر خلال السنوات الثلاث الماضية ، كان يتسم بالحرص الشديد بعـــدم الاندفاع في الدخول في « اللعبة » قبل ان يعرف ما هو الدور الفلسطيني فـي هذه اللعبة • ولا نرى ان الحرب اللبنانية بكل نتائجها نفت هذا الحرصـــن او الغته •

وقولنا هذا لا ينفي ان اصواتا فلسطينية من هنا او هناك قد ترتفع مطالبـة بادخال تعديلات اساسية على موقف المنظمة من التسوية ومن وضع المسالـــة الفلسطينية فيها • ومثل هذه الاصوات وان كنا لا نقلل من آثارها وخطرها ، الا اننا نرى ان من الخطأ اعتبارها المؤشر شبه الوحيد الذي سيحدد مسارات الموقف الفلسطيني في المرحلة القادمة • ونحن لا نستبعد امكانات او احتمالات ان يخرج المجلس الوطني الفلسطيني في اجتماعه القادم بموقف اكثر وضوحا نحو القبول بدولة فلسطينية على الضفة الغربية وقطاع غزة دون الاشتراطات التي نص عليها البرنامج المرحلي الذي اقر في الدورة الاخيرة •

مؤشرات المرحلة القادمة :
حرب ام تسوية •

لخص احد قياديي الثورة الفلسطينية ملامح المرحلة القادمة بكلمـــات قصيرة بقوله : ان المرحلة القادمة ستكون نوعا من السباق المحموم بين الحرب والتسوية ، وقال : ان الحرب والتسوية ستكونان فرسي رهان ولا يمكن التنبؤ من الان ايهما سيفوز اولا • على الرغم مما في هذا القول منحقيقة ،فاننا نرى ان مجريات الاحداث الان واحتمالات تطورها خـــلال المرحلـــة القادمـــة لا تشيران الى ان السباق بين الحرب والتسوية سيكون متكافئا وعلى درجـــة واحدة من القوة • فعلى الرغم من ان ملامح المرحلة القادمة ستكون نوعا من السباق ـ ولكن غير المحموم ـ بين الحرب والتسوية،فان فرس التسوية ستكون هي الاقوى ، وبالتعبير الشعبي فان فرس التسوية « حمرا وجراية وبتاكل شعير»* في حين ان فرس الحرب لا تعلف جيدا ولم تدرب بعد بشكل جيد عـلى الجري السريع •

هل يعني هذا ان احتمالات التسوية للصراع العربي ـ الاسرائيلي هـــــي

---

* اي حمراء قوية ومدربة على الجري وتعلف جيدا •

الاقوى خلال المرحلة القادمة ؟ لا ، فما نعنيه بالضبط هو ان مؤشر التوجه نحو التسويه بدلا من الحرب لحل الصراع مع العدو الصهيوني سيظل هو الاقوى في المدى المنظور اي خلال السنوات الست او الاربع القادمة • فليس ثمة ما يشير الى ان تغييرا جذريا سيطرأ على الموقف العربي على ضوء تعثر محـــاولات الوصول الى تسوية • كذلك فان ما طرأ من تطورات على مجمل الوضع العربي بعد حرب تشرين ، لا يشير الى ان احتمالات اللجوء للحرب ستسود قبـــل استنفاذ كل الوسائل الممكنة لتسوية هذا الصراع سلميا ، واحتمالات كهـذه لا ترى في مدى ابعد من المدى المنظور • اضافة الى ذلك ، فعلى الرغم مـن ان التناقض بين الموقفين العربي والاسرائيلي حول التسوية وطبيعتها ، يشمـــل اكثرمننقطة واحدة ، فان مركز هذا التناقض هو المسالة الفلسطينية • ولايبدو لنا ان دول « المواجهة » العربية على استعداد لان تذهب لحرب اخرى مـــع اسرائيل ، اذا ابدت اسرائيل مرونة في النقاط الاخرى وتصلبت حول المسالة الفلسطينية • ففي هذه الحالة ستكون الدول العربية اكثر استعدادا لحل هذا التناقض على حساب المسالة الفلسطينية بدل استعدادها كله على حساب الذهاب الى حرب مع اسرائيل • ولعل هذا ما يفسر لنا اشتداد الضغط العربي على منظمة التحرير الفلسطينية الى درجة الصدام العسكري معها ، كلما لاحت في الافق امكانية لقطع ولو خطوة صغيرة في مسيرة التسوية •

كل هذه العوامل تجعلنا نؤكد ان مؤشر التوجه نحو التسوية سيظل هـــو الابرز خلال المرحلة القادمة • ولكن باي اتجاه سيسير هذا المؤشر ؟ وما هـــي مساراته الممكنة ؟

هل ستكون هناك امكانية للعودة الى سياسة الخطوات الصغيـرة ام ان المسار سيكون بحثا عن تسوية سياسية شاملة او شبه شاملة ؟ •

مع فوز كارتر رئيسا للولايات المتحدة ، يبدو ان كل الاطراف تنتظر التعرف على ملامح السياسة التي ستنتهجها الادارة الجديدة ازاء الصراع العربـــي ـ الاسرائيلي ، قبل ان تقدم على طرح مشاريع محددة او اتخاذ مواقف معلنـة من مشاريع مطروحة ويجري تداولها منذ فترة • ولكن كما اوضحنا في بداية مقالنا، فاننا لا نرى ان فوز كارتر يحمل اي امكانية لاجراء تغيير اساسي في السياسة الاميركية • وعلى هذا الاســـاس فـــان السياســـة الاكثـــر احتمالا للادارة الاميركية الجديدة هي متابعة الموقف من النقطة التي انتهـت اليها الادارة السابقة ، اي متابعة البحث عن تسوية سياسية شاملة او شبـــه شاملة للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، هذا مع الاخذ بعين الاعتبار ان فترة من الوقت ـ عدة اشهر ـ ستمضي قبل ان تباشر الادارة الجديدة دبلوماسيتها

الفاعلة في المنطقة · وهي فترة تنظر اليها اطراف الصراع باعتبارها امـــرا طبيعيا تفرض نفسهافي الانتقالمن عهد الى اخر ، ولذلكفانها لا تحمل أية دلالات·

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : **ما هي ملامح هذه التسوية الشاملـــة او شبه الشاملة ؟** لقد طرحت الادارة الاميركية السابقة فكرة انهاء حالة الحرب بين العرب واسرائيل كاطار لهذه التسوية · ويبدو ان الفكرة التي وضعهـــا اندلاع الحرب في لبنان على الرف مؤقتا ، ستعود الى البروز من جديد مع نهاية هذه الحرب وبداية البحث عن منافذ لتسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي · ولكن هل هناك امكانية لجعل هذه الفكرة حقيقة واقعة ؟ اي تجري صياغتهـــا على ارض الواقع باتفاق عربي ـ اسرائيلي ·

يبدو ان « عرب التسوية » متفائلون بامكانية كهذه على الرغم من فوز كارتر واحتمال ذهاب كيسنجر · ولعلهذا ما يفسر لنا تلك التصريحات الكثيرة التي اطلقها الرئيس السادات خلال الشهر الماضي حول انهاء حالة الحرب وعقـــد معاهدة سلام معاسرائيل · وهي تصريحات تشكل نوعا من جس النبض للموقف الاسرائيلي ولتوجهات الادارة الاميركية الجديدة · ومن وحي هذا التفاؤل فان ثمة مشروع عربي لتسوية سياسية شاملة او شبه شاملة اخذ في التبلور مؤخرا بعد الاتفاق العربي علىانهاء الحربفي لبنان ، باعتبار ان هذه الحرب استنفدت اغراضها ضمن الحدود التي انتهت اليها ·

ففي اعقاب مؤتمر القمة السداسي في الرياض ومؤتمر القمة العربي الاخير فيالقاهرة ، اخذت دلائل تنهض على ان ثمة موقفا عربيا شبه جماعـي بصـــدد البحث عن تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع مع العدو الصهيوني ، آخذ في التبلور · وهذا الموقف الذي يشكل التحالف المصـري ـ السعودي ـ السوري سنده الاساسي يقوم على اساس : **الدعوة لمؤتمر جنيف بحضور جميع الاطراف بما فيها منظمة التحرير الفلسطينية مع امكان دعوة لبنان للحضور ، وصـولا الى تسوية تنهي حالة الحرب بين العرب واسرائيل بمعاهدة سلام يترتب عليها انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة في العام ١٩٦٧ ، مع ما يترتبعلى** هذه المعاهدة وهذا الانسحاب من احتمال قيام دولة فلسطينية عـلى الضفـــة الغربية وقطاع غزة (٣) · وحيثيات الموقف العربي هذا تقوم على : ان الحـرب في لبنان اضعفت منظمة التحرير الفلسطينية وجعلتها اكثر طواعية ، وبشروط كهذه ستكون الولايات المتحدة اكثر مرونة في التعامل مع المسألة الفلسطينية · وهي مرونة قد تصل الى درجة الاعتراف الاميركي بمنظمة التحرير الفلسطينية·

وكاسناد لهذا الموقف فأن استراتيجية التحالف المصـــري ـ السعودي ـ

السوري ، خلال المرحلة القادمة ستقوم على أساس تمتين هذا التحالف وضم دول عربية اخرى اليه ، تصعيد لهجة الحرب كاحتمال يمكن اللجوء اليه في حال تعثر التسوية ، الضغط على الولايات المتحدة للتجاوب مع الموقف العربي هذا ، اضافة الى مد بعض الجسور مع الاتحاد السوفياتي كوسيلة ضغط وكاحتمال لا بد منه امام تعثر محاولات التسوية ٠

واحد الاشكالات الرئيسية في الموقف العربي هذا هو حل عقدة التمثيل الفلسطيني واشراك منظمة التحرير الفلسطينية كطرف مستقل في مؤتمر جنيف٠ حتى الان يبدو ان الموقف العربي ، وتحديدا المصري ، كما هو معلن ، يطالب باشراك منظمة التحرير الفلسطينية كطرف مستقل ولكن اذا كان هذا الاشكال سيضع التسوية امام الطريق المسدود ، فان بعض الدول العربية لا تمانع في ان يجري تجاوز هذا الاشكال بالذهاب الى مؤتمر جنيف بوفد عربي موحد تشارك به منظمة التحرير الفلسطينية « ٤ » ٠

الموقف الاسرائيلي

ولكن ما هو مدى التجاوب الاسرائيلي مع مشروع عربي كهذا ؟ استقراء الموقف الاسرائيلي كما هو الان واحتمالات تطوره خلال السنتين القادمتين، لا يشير الى انثمةجديدا في الموقف ٠ولخص يتسحاق رابين الموقف الاسرائيلي في رده على تصريحات السادات الاخيرة بقوله « ان اسرائيل اكثر من مستعدة للتجاوب مع دعوة الرئيس انور السادات الى اتفاق سلام ، لكنها لن تقبل بدولة عرفات في جوارها » (٥) وهذا يدل على ان « العقدة » الفلسطينية هي التي ستتحكم في الموقف الاسرائيلي خلال الفترة القادمة ٠ فكل القوى الاسرائيلية* تجمع على رفض الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثلة للشعب الفلسطيني، كما تجمع على رفض قيام دولة فلسطينية على اي جزء من ارض فلسطين٠وحتى الان لم تطرح اسرائيل حلا محددا للمسالة الفلسطينية ، وكل ما طرح من تصورات اسرائيلية حول هذه المسالة ، لا يتعدى احيانا كونه آراء شخصية لهذا المسؤول او ذاك مثل مشروع ييجال آلون ، او اراء وافكارا عامة مثل رفض قيام الدولة الفلسطينية والبحث عن منافذ لحل هذه المسالة منخلال

---

* باستثناء حزب راكح وبعض المجموعات الاسرائيلية الصغيرة والهامشية مثل«مجلس السلام » والذي اجتمع مندوبون عنه مع فلسطينيين في باريس في تشرين الاول « اكتوبر » الماضي ٠ وقد اثار هذا الاجتماع ضجة في الاوساط الاسرائيلية على الرغم من أنه ليس الاجتماع الاول بين فلسطينيين واسرائيليين من هذه المجموعات ٠ انظر يديعوت احرونوت بتاريخ ١٩٧٦/١١/٥ ٠

المسار الاردني او الاطر البديلة ٠

ولكن هل تستطيع اسرائيل الاستمرار في سياسة الهروب من مواجهة المسالة الفلسطينية ، في وقت تبذل فيه المحاولات لتسوية شاملة او شبه شاملة؟ لقد اكد بيجال آلون في مقابلة اجرتها معه صحيفة معاريف (٢٤ ـ ٩ ـ ١٩٧٦) « انه مقتنع بانه دون حل المشكلة الفلسطينية لن يكون السلام ممكنا » ٠ اذن لا بد من ايجاد حل لهذه المسألة حتى يكون السلام ممكنا ، وطالما ان اسرائيل لا تطرح الا حلولا قصرية للمسألة الفلسطينية ، فان امكانية السلام او التسوية السياسية الشاملة تبدو مستحيلة او بعيدة جدا ٠ فهل من خيارات اخرى امام اسرائيل لمواجهة « حملة السلام » العربية الجديدة ؟

المعلق الاسرائيلي امنون روبنشتاين حذر الحكومة الاسرائيلية من سياسة اللاقرار وقال « بعد الحرب (اي حرب تشرين) كان يبدو ان اسرائيل ستكون مضطرة لاتخاذ قرارات حاسمة وان فترة اللاقرار قد انتهت (والان) يسود في الحكومة قرار صلب بعدم اتخاذ قرار » واكد على ضرورة اتخاذ قرارات حاسمة « لئلا تقع اسرائيل في مطب حرب اكتوبر مرة اخرى » (٦) ٠

وسياسة اللاقرار الاسرائيلية كانت ممكنة ، عندما كانت كل القوى بانتظار ما ستسفر عنه الحرب اللبنانية من نتائج ٠ والان وامام بداية النهاية لهذه الحرب، وامام السياسة العربية الجديدة في « شد خيوط التسوية » التي ارتخت بفعل الحرب في لبنان ، هل يمكن لاسرائيل ان تستمر في سياسة اللاقرار ؟ ٠

بتاريخ ٢٥ ـ ٦ ـ ١٩٧٦ كتب يهوشوع تدمور في صحيفة «دافار » مقالا حول الخيارات امام اسرائيل لدى تجدد مساعي التسوية فاشار الى ثلاثة خيارات او امكانات وقال «تعتقد احدى المدارس الفكرية ـ رئيس الوزراء ووزير الخارجية وغيرهم من الوزراء ـ باتباع اسلوب الاختزال بشكل عام ٠ فالامكانية الاولى لهؤلاء هي استمرار حالة الجمود ٠٠٠ ولكن هذه الامكانية ليست في الحسبان لانها سوف تؤدى ان عاجلا او اجلا الى حرب لا ترغب فيها اي جهة لها ثقلها ٠ والامكانية الثانية هي انتقال ساطع من الوضع الحالي الى مفاوضات حول سلام شامل ٠ وتلك هي الامكانية الملائمة لاسرائيل، ولكن العرب يرفضونها، ولهذا فهي ليست امكانية واقعية ٠٠٠ اضافة الى ان محاولة كهذه سوف تعني مواجهة حتمية مع واشنطن حول ماهية الحدود النهائية ٠ تبقى الامكانية الحقيقية الوحيدة وهي السعي نحو سلام يحكم الواقع على صورة اتفاق لانهاء حالة الحرب بمختلف بنوده ، (واشار) ان اتفاقا لانهاء الحرب هو الخيار الوحيد المتبقي الذي من شانه ان يكون مناسبا ومريحا لاسرائيل على المدى القريب

والبعيد » ٠

غير ان اتفاقا لانهاء الحرب بالمفهوم العربي يعني تسوية شاملـــة ـ الـــى حد ما ـ تدخل فيها المسالة الفلسطينية باعتبارها اساس هذه التسوية ٠ وهذا ما يبدو ان اسرائيل ليست مستعدة بعد لمواجهته ٠ ولذلـــك فان السياســـة الاسرائيلية خلال الفترة القادمة ستحاول تجنب قرارات « حاسمة » ، وسيكون الخط الرئيسي لهذه السياسة هو استمرار حالة الجمود من خلال المنـــاورة بالاختلافات العربية والاسرائيلية حول تفسير انهاء حالة الحرب ودلالاتهـــا العملية ٠ وهي مناورة تستهدف فيها اسرائيل كسب المزيد من الوقت حتى تدفع ببعض خيارتها بخصوص المسالة الفلسطينية الى المقدمة اما من خلال انتظار عودة المسار الاردني الى الواجهة كما يتوقع بيجال الون (٧) او من خلال تنشيط بعض القوى الفلسطينية داخل الارض المحتلة كاطار بديل او مواز على اقل تقدير لمنظمة التحرير الفلسطنية ٠ وستعمد اسرائيل الى توسيع هامش مناورتها هذه بالادعاء انها لن تستطيع اتخاذ قرارات حاسمة قبل اجراء انتخابات الكنيست المقررة في اواخر العام ١٩٧٧ ، وكذلك بالضغط على الادارة الاميركية الجديدة لتنفيس « حملة السلام » العربية الجديدة ٠

اذا كانت هذه هي حدود الموقف الاسرائيلي واطار حركته، فان اطراف الصراع الاخرى ستحاول كسرها ٠ فالاتحاد السوفياتي يبدو مستعجلا عقد مؤتمر جنيف بحضور منظمة التحرير الفلسطينية وسيحاول دفع سياسة « شد خيوط التسوية » التي بدأتها بعض الدول العربية مؤخرا للضغط على الولايات المتحدة ٠ اضافة الى ان الولايات المتحدة لن تستطيع تجاهل التحرك العربي الجديد ، ولا سيما ان هذا التحرك شمل دول النفط العربية التي عادت للحديث عن احتمال العودة الـــى سياسة « حظر النفط » اذا لم تثمر محاولات التسوية ولمواجهة تحركات وضغوط كهذه كيف ستكون الحركة الاسرائيلية ؟

هنا، لا نستبعد امكانية لجوء اسرائيل الى تنشيط احتمالات الوصول الى اتفاق ـ تسوية جزئي على الجبهـــة السورية ، اذا وجدت ان سلام الامر الواقع بانهاء حالة الحرب سيكون ثمنه اتخاذ قرار لا ترغب فيه بخصوص المسالة الفلسطينية ٠ حيث ان اتفاقا كهذا سيعطيها المزيد من الوقت لتجنب مواجهة المسالة الفلسطينية قبل ان تستنفد امكانات خياراتها بخصوص هذه المسالة ٠

المسالة الفلسطينية مفتاح الحرب والسلام

من كل ذلك نخلص الى نتيجة مؤداها ان المسالة الفلسطينية كانت وستظل القلب

والمركز في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وان ما جرى ويجري حتـــى الان هو محاولة الهروب مـــن مواجهة هذة المسألـــة مواجهة حقيقيـــة · وكلما اقتربت محاولات التسوية مـــن هذة المسالة كلما ازداد تباعد اطراف الصراع وازدادت حدة تعارضها حول هذه المسالة · وبذلك تعود المسألـــة الفلسطينية لتكون مفتاح الحرب او السلام في المنطقة · والسؤال هنا ، هل اقتراب التسوية من المسألة الفلسطينية ، سيلغي امكانات التسوية وينقل الصـــراع العربـــي ـ الاسرائيلي الى الامر الذي لا مفر منه وهو الحرب ؟

يبدو لنا ان استمرار وجود حركة وطنية فلسطينية قوية وفاعلة ، تلغـــي وتنفـــي باستمرار ، الخيارات الاسرائيلية وبعض الخيارات العربية لحل المسالة الوطنية الفلسطينية ، سيجعل من الصعب جدا ان لم يكن من المستحيل الوصول الـــى تسوية شاملة او شبه شاملة للصراع العربي الاسرائيلي · وستظل تبعا لذلك محاولات التسوية تدور فـــي اطار « الخطوات الصغيرة»او سياسة التأجيللحل هذا الصراع حلا شاملا اذا لم يكن خيار الحرب ـعربيا ـ ممكنا · ولم نقل خيار الحرب ـ اسرائيليا ـ لان الخيار الاسرائيلي هذا لن يقدم حلا لهذا الصراعكما اثبتت حـــرب حزيران « يونيو» ١٩٦٧ · وبهذا المنظـــار ، فاننـــا نرىان افاق الموقف الفلسطيني ممايجري من احداث وتطورات يجب ان تظل واسعة · ومن الخطأ جدا ان تجد القيادة الفلسطنية نفسها مجبرة ـ تحت ضغط الاحداث ـ على اتخاذ قرارات لا تعطيها هامشا واسعا من المناورة والحركة ، ولا تأخـذ فـــي الاعتبار تطورات المستقبل ·

بعد معارك ايلول سبتمبر ١٩٧٠ ، وما تلاها في الاردن ، بنت قوى كثيـرة احلاما ومشاريع على ان الثورة الفلسطنية انتهت او ماتت · ولكن لم تكد تمض سنتان على هذه الاحداث حتى استعادت الثورة الفلسطينية قوتها وفعاليتهـــا وبرزت من جديد في المقدمة · والان وعقب الحرب الاهلية الوطنية في لبنـــان يبدو ان اسرائيل لن تكرر العودة الى احلامها ومشاريعها ، فمصادرها تعترف وتؤكد انه علـــى الرغم مـــن الحـــرب فـــي لبنان وما تعرضت له الثورة الفلسطينية من خسائر بشرية وربما سياسية فانها ستعود الى الواجهة مـــن جديد وستقف على قدميها · وهذا يؤكد لنا ان المسالة الفلسطينية لما تزل بعيدة عـن امكان تسويتها ، وانها ستظل المسالة التي تشعل فتيل الحرب في المنطقة اذا لم يتم الوصول الى حل وطني لها · لانه في ظل استمرار وجود حركة وطنيـــة فلسطينية فاعـلة وقوية ، تبدو الحـلول القسرية واللاوطنية لهـذه المسالة شبـه مستحيلـــة مهما كان الثمن الذي قـــد تدفعـــه اسرائيـــل للـدول العربية مقابل تسويـــه كهذه ·

١ ـ انظر البيان وتوضيح اسماعيل فهمي حوله ، الاهرام بتاريخ ١٩ـ٧ـ١٩٧٤ ٠

٢ ـ انظر تعليق اخبار اليوم المصرية حول انتهاء سياسة الخطوة ـ خطوة ـ اخبار اليوم بتاريخ ٣ـ٣ـ١٩٧٦ ٠

٣ ـ انظر حديث الرئيس انور السادات لوفد من اعضاء الكونجرس الاميركي زار مصر مؤخرا ، النهار بتاريخ ٩ـ١١ـ١٩٧٦

٤ ـ ذكرت نيويورك تايمز بتاريخ ١٠ـ١١ـ١٩٧٦ ، ان مجموعة الدول العربية التي تشمل مصر وسوريا والعربية السعودية والاردن ، ستسعى الان لعقد تسوية شاملة مع اسرائيل ٠ واضافت ان هذه الدول تفكر بارسال وفد عربي مشترك الى جنيف لتجاوز قضية تمثيل م٠ت٠ف٠ نقلا عن ر٠ت٠ف٠ العدد ١٠٨٤ ٠

٥ ـ النهار بتاريخ ١٥ـ١١ـ١٩٧٦ ٠

٦ ـ هارتس بتاريخ ٢٤ـ٩ـ١٩٧٦ ٠

٧ ـ انظر دافار بتاريخ ١٤ـ٦ـ١٩٧٦ ٠

الجنوب : في مواجهة التحالف الصهيوني ـ الفاشي

جهاد سلامة

الجنوب !

جغرافيا غاب اسمه قليلا وسط احتدام المعارك في بيروت والشمال والبقاع والجبل ، وبدا للوهلة الاولى آمنا وادعا ·· لكنه **بشريا** كان هناك ·· كان فحم ووقود المعارك اللاهبةفي المسلخوالنبعة وتلالزعتر والشياح · وفي الاونةالاخيرة اعتذرجغرافيا عن وداعته الظاهرة ، عاد ليحتل صدر الصفحات الاولى كما كان دائما ، وكما سيظل ، ما دام هناك وطنيون في لبنان يناهضون ويقاتلون الامبريالية والعدو الصهيوني ·

يردد ويستخدم اسمه الجميع : الفاشيون يتذرعون به للحديث عن « السيادة » الرجعية التي لا تزعج الحليف الامبريالي الصهيوني وتوفر له حدودا « آمنة » · العدو الصهيوني يسعى بكل الوسائل العسكرية والسياسية و« الانسانية » لكي يثبت مثل هذه« الحدود الامنة » التي لا تتعارض مع مطامعه التوسعية · الانظمة العربية تعبر عن قلقها اللفظي « العميق » لما يدور في الجنوب ·· وتغض الطرف عن التحالف الصهيوني الفاشي ! « المحرومون » يرتبط اسمهم بالجنوب ، ويجدون من يستغل اسمهم يافطة لمصالح طبقية ضيقة ، ويخونون معها الوطن و « المحرومين » !

الفدائيون والوطنيون يرونه امتدادا لارض فلسطين ، ينطلقون منه وتمتزج دماؤهم بترابه ، فيصبحون ترابه الاحمر وتكبر ارض فلسطين ·

يرتحل ابناؤه في كل اتجاه ولا يستقرون ·· لقد جعلهم الكومبرادور بدو لبنان المعاصر !

اخر الانباء السياسية والعسكرية تحدد لهم المكان الاخير الذي سيبقون فيه· ارض الجنوب رجراجة لم تكتمل صلابتها بعد ·· لا تكتمل صلابتها بمعزل عن بزوغ

فجـــر وطن ديمقراطـــي ·

سابقا ، احاط ابناء الجنوب العاصمة « بحزام البؤس » الشهير ، فوجدوا من يرفض حتى بؤسهم وفقرهم ، لان مشهد البؤس حين يكون مسيسا ، الى هـذا الحد او ذاك ، يخيف العدو الطبقي ويثير احقاده وانتقامه ·

انه عاشوراء دائمة التجدد ما دام الوطن لم يكتمل بعد ·· وما دام جـرح فلسطين يتسع كعدوى ، وما من مقاومة عربية ثورية حاسمة · تعبق ارضه المرتحلة برائحة التبغ والعرق والغبـــار والتعب، ويختلط هواؤه بدخان القذائف والحرائق والتربص والحـــذر ·

يردد معظم الاعداء الرجعيون امام الفدائيين : « توجهوا الى الجنوب ··· نحو « العدو الرئيسي » لا تتدخلوا بالشؤون العربية الداخلية ، هناك العـــدو الرئيسي « المشترك لكل العـرب »·يتوجه الفدائيون والسكاكين مغروسةفيظهورهم من الخلف ، فيصعب الوصول الى الحدود · من يحول دون تطور نضال جـــدي ضد اسرائيل ، من حافظ على « العدو الرئيسي » رئيسيا ؟ ما هي جملة السياسات العربية التي ادت ، وما زالت ، الى وجود وتثبيت العدو الرئيسي · العـــــدو الرئيسي خارجي فقط ام انه شبكة علاقات داخلية وخارجية ترتبط بالامبرياليـــة ومصالحها حيث تحتل اسرائيل وزنا ودورا نوعيا خطيرا ؟ من اجهض دومـــــا النضال الشعبي الفلسطيني والعربي ضد العدو الرئيسي وباسم النضـــال ضـــد العـــدو الرئيسي ؟!

هكذا يتساءل الفدائيون وهم يتوجهون الى الجنوب والرؤية تتبلور فـــي أذهانهم واضحة وضوح الشمس ، هل يمكن تطوير نضال جدي ضد اسرائيـــل دون وجود نظام تقدمي عربي او اكثر لحماية المقاومة لـه مصلـحة حقيقيـــة للمشاركة الفعلية في القتال ضد اسرائيل ؟

الجنوب اليوم ، واقع وخدعة ، واقع يتدهور يوميا وعلينا ايقاف تدهوره بالتصدي للتحالف الصهيوني الفاشي الرجعـي ، وخدعـة تحاك يوميا وواجبنـا فضحهـــا وتعريتهـــا ·

تلتف حول ارضه الحلقة الاخيرة من المؤامرة الامبريالية الصهيونية الفاشية الرجعية التي تستهدف هذا الجسد الفتي المثخن الجراح من المقاومة الوطنيـــة المسلحة الفلسطينية واللبنانية ·

الكتابة عن الجنوب شاسعة ومرهقة • من اين نبدأ ؟ الموضوع مزمن وشائك، متعدد الاطراف ، وجديد باستمرار •

الا اننا سنسلط الاهتمام ، اساسا ، على تحالف الفاشيين السافر مع العدو الصهيوني في منطقة القطاع الاوسط بشكل خاص ومن خلال المعلومات التي استطعنا الحصول عليها من مصادر متعددة موثوقة ، وبالتالي ، القيام بايضاح الدور الخاص المناط بالعدو الصهيوني واهداف النشاط المحموم الذي يبذله مؤخرا ، وقد اجرينا بعض التحقيقات الميدانية اضافة الى بعض اللقاءات مع عدد من الاخوة المسؤولين في الثورة الفلسطينية ، ومع عدد من المواطنين اللبنانيين المطلعين على تطورات الاوضاع هناك • وسنعمل على تثبيت بعض هذه الاحاديث تبعا لاهميتها السياسية والتحليلية ، مستفيدين ، فقط ، من المعلومات المتضمنة في اللقاءات الاخرى •

علاقة الجنوب بالوضع اللبناني العام :

استفحل النشاط الصهيوني ـ الفاشي في الجنوب ، في اثر تلقي الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية عددا من الضربات الموجعة على ايدي التحالف الفاشي ـ الرجعي العربي •

فبعد معركة تل الزعتر الاسطورية الصمود ، خرجت العناصر الفاشية في بعض قرى الجنوب من اوكارها بتشجيع مباشر من العدو الصهيوني ، واخذت تمارس نشاطها السياسي والعسكري مستغلة بعض الاخطاء والثغرات المسؤولة عنهما المقاومة والحركة الوطنية ، وتدهور الوضع التمويني وسوء التنظيم الذي رافقه في اثر الحصار الذي مارسه العدو الصهيوني والفاشيون والنظام السوري على المناطق التي كانت تسيطر عليها الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية •

اذ لا يمكننا فهم توقيت تردي الوضع في الجنوب دون ربطه بالوضع السياسي العام • فقد نشأ في لبنان وضع ثوري جديد تماما بعد فشل الحلقات الاولى من المؤامرة ازاء الصمود البطولي اللبناني ـ الفلسطيني • وكان من ابرز سمات هذا الوضع الثوري انهيار مؤسسات النظام ، ولا سيما اجهزة القمع ، وسيطرة القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية على ما يزيد عن ثلاثة ارباع الاراضي اللبنانية •

ومع ذلك لم تستطع الحركة الوطنية ، ومن ورائها المقاومة الفلسطينية ، الاستجابة النضالية لمهام المرحلة الثورية الجديدة سواء من حيث طرح الشعارات السياسية الملائمة او اساليب

العمل الثورية · فالتراث الاصلاحي التردیونیوني والمواقف الانتظارية السلبيـة من قضية السلطة السياسية للحركة الوطنية ، ظل يرزح بثقله علـــى المرحلـة السياسية مفوتا فرصا تاريخية نادرة قل تكرارها في اتجاه حسم مسألة السلطـــة السياسية وتثبيت الشرعية الثورية ·

اما المقاومة الفلسطينية ، فان الخـلل الاساسي في استراتيجيتها هو التصور انه يمكن شن نضال جدي ضد اسرائيل « العـدو الرئيسي » دون وجود نظـام تقدمي عربي او اكثر ، خاصة في المناطق المحيطة بفلسطين المحتلة ·

وقد ادرك مختلف الاعداء مدى خطورة هذا الوضع الثوري ، فعملوا بسرعة وبكافة الوسائل لاجهاضه ، ووأد اية امكانية لتحويله الى ثورة حقيقيـة · وذلك من خلال توجيه عدد من الضربات العسكرية والسياسية الموجعة للحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية بغية سحب بساط الارض الثورية القوية من تحتهما ، واعارة « الشرعية » الزائفة للنظام الكومبرادوري جهازا عسكريا للقمع بدل جيشهـــا المنهـــار المنقسم على نفسه ·

ان الاساس السياسي لتفاقم المشاكل الاجتماعية والمعيشية والامنية انمـــا يكمن في عدم اقامة الحركة الوطنية مؤسسات السلطة الوطنية الديمقراطيـــة الشعبية · فمثل هذه المؤسسات هي وحدها القادرة على تعبئة الشعب تعبئة ثورية، وتنظيم شؤون حياته المختلفة على اسس عادلة وديمقراطية ووضع حد لاستغلال مراكز النفوذ والاثراء غير المشروع · ان مثل هذه المؤسسات الديمقراطيـــة الشعبية تعكس ديمقراطية ارقى بما لا يقاس من الديمقراطية البرجوازية ·

ان كافة الثمار المرة ، ناجمة عن عدم اتباع سياسة ثورية شاملة للوضـــع اللبناني ـ الفلسطيني ككل تعتمد على تعبئة وتنظيـــم الجماهير في مؤسسـات ديمقراطية شعبية في اتجاه اقامة نظام وطني ديمقراطي · فلا يمكن الحديث عن ضرورة اتباع سياسة ثورية في الجنوب او اي مكان وموقع اخر بمعزل عن شمول هذه السياسة للوضع العـــام برمته ·

ولذا ، لم يكن مستغربا ان تشرئب القوى الفاشية والرجعـية في الجنـــوب برؤوسها في اثر ميل ميزان القوى لصالح الحلف الفاشي الرجعي العربي · وقـد لعبت اسرائيل دورا اساسيا في دعم هذا النشاط المعادي · الا ان توقيت نجاحهابه مرتبط بتدهور موقف القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية بوجه عام · فما كانـت هذه القوى تجرؤ ، في اي وقت مضى ، على المجاهرة بعدائها وقيامها بنشاطهـــا السياسي والعسكري المعادي من خلال التحالف السافر مع العدو الصهيوني ، لو

ان ميزان القوى كان يميل بشكل عام لصالح الحركة الوطنية والمقاومة ، وكمـــا كان الحال في السابق ٠

دور اسرائيل في المخطط الامبريالي :

لعبت القوى الفاشية احتياط النظام الكومبرادوري في لبنان دور قـــارع ناقوس الخطر ضد المقاومة والحركة الوطنية ٠ لقد بذلت هذه القوى الفاشيـــة جهودا مستميتة **لاستدعاء** الرجعية العربية والقوى الامبريالية والصهيونية لكـي تقوم بمساعدتها لمواجهة الخطر الماثل على نظامها وقواها المسلحة والمهدد بقطـع طريق التسوية الامبريالية في المنطقة ٠ ان الهجمة الفاشية المسعورة التي قامـــت بها هذه القوى لم تكن تستمد قوتها من موازين القوى الداخلية في المنطقة ، بـــل من توطيد دعائم الامبريالية في المنطقة والجو السياسي الاستسلامي الذي تقوم به الانظمة البرجوازية العربيـــة ٠

وفي اللحظة المناسبة قامت الانظمة الرجعية العربية بمنع انهيار القـــوى الفاشية ووقفت الى جانبها ضد المقاومة والحركة الوطنية حيث تم الحاق عدد من الضربات الموجعة لهما في اكثر من مكان ٠ لقد كان من الصعب على اسرائيـــل والامبريالية الامريكية القيام بالتدخل المباشر وعلى نطاق واسع لدعم حلفاءهمـا من الفاشيين ٠ لان هذا من شانه ان يؤدي الى زعزعة الاسس السياسية للتسوية الامبريالية واحراج الانظمة العربية كافة امام شعوبها ٠

والآن ، بعد قيام النظام السوري تحت غطاء عربي بفرض هيمنته السياسية على الوضع اللبناني بغية تحسين شروط تسويته الخاصة فيما يتعلق فقط بانسحاب اسرائيل من بعض الاراضي السورية المحتلة ، هل تسمح له اسرائيل بتحسين هذه الشروط على حسابها ؟ فبينما يلوح النظام السوري للامبريالية الامريكية بورقـة سيطرته وامكانية قدرته على تصفية المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية مقابل ممارسة ضغط امريكي على اسرائيل للانسحاب من بعض الاراضي السورية التي تتعدى الحدود « التجميلية » المعروضة سابقا ، هل تقدم اسرائيل بالتواطؤ مـــع الولايات المتحدة (او بشكل مستقل نسبيا) على القيام بعمل عسكري ما في الجنوب او سواه من شانه ان يضعف الموقع التفاوضي للنظام السوري ؟ ام ان اسرائيـل ستقوم ، بالتحالف مع الفاشيين في الجنوب والتذرع بهم ، بتوجيه ضربة عسكريـة في الجنوب ضد المقاومة والحركة الوطنية وخلق وضع جديد من شانه ان يدفـــع النظام السوري والفاشيين للاسراع بمعدل تصفية المقاومة سياسيا وعسكريا ؟

ام انها ستعمل على ضرب عصفورين بحجر واحد: اضعاف الموقع التفاوضي

للنظام السوري في التسوية الامبريالية وتوجيه ضربة للمقاومة والحركة الوطنية في آن واحد ؟ ام ان الدور الاسرائيلي سيقتصر على توجيه ضربة عسكرية موجعة للمقاومة هناك وتمكين الفاشيين في الجنوب من توسيع رقعة سيطرتهم السياسية والجغرافية والعسكرية ؟ هذا ما ستجيب عنه تطوراتالاحداث القادمة في الجنوب·

توقيت المؤامرة الصهيونية ـ الفاشية والوضع العربي :

يقول الاخ بلال احد المسؤولين في الثورة الفلسطينية بالجنوب : « لا يمكن فصل ما يحدث مؤخرا في الجنوب عن عموم الوضع في لبنان · فالمؤامرة ليست على الجنوب والثورة هناك ، بل على المقاومة والقوى المناضلة الوطنية والتقدمية في كل لبنان ·

ففي نفس الوقت الذي كان يتم فيه توجيه الضربات الى المقاومة والحركة الوطنية في البقاع ومنطقة صيدا والجبل وبيروت كانت التحركات المعادية في الجنوب تسير جنبا الى جنب مستفيدة من هذا الوضع فالمؤامرة متكاملة الحلقات ، والا ما معنى عملية تدريب القوى الفاشية في منطقة جزين وغيرها ، في ظل تواجد النظام السوري ،وقيام اسرائيل بتدريب الفاشيين في القليعة والعيشية وعين ابل ودبل ورميش وعلما الشعب داخل الاراضي المحتلة ؟! نحن ندرك ، ايضا ، ان الانظمة بتركيبتها الحالية هي انظمة ليست مع التحرير ، لا تحرير فلسطين ولا تحرير الشعب العربي من كل ما يمارس ضده من اشكال القمع والارهاب وحجز الحريات · هذه الانظمة لا يمكن ان تساهم في معركة التحرير ، فهي ليست حريصة ولن تسمح لنا ان نكون اقوياء لكي نتمكن من التصدي للمؤامرة · انها ، على العكس ، تحاول ان تجرنا الى الرضوخ والقبول باهداف المؤامرة : ترتيب اوضاع المنطقة بما يتلاءم ومصلحة الامبريالية والصهيونية والقوى الرجعية ·

نحن ندرك تماما ونؤمن ايمانا قاطعا ان قوتنا الحقيقية هي قوة الجماهير العربية المناضلة صاحبة المصلحة الحقيقية في التحرير والوحدة · ونحن ندرك ايضا ، ان استمرا ر نضالنا هو السبيل الوحيد لتحقيق الاهداف الوطنيةوالقومية· ولن يتم ذلك ، بالطبع ، من خلال مؤتمرات القمة العربية ولا الدولية · كما اننا نعتقد ان وحدة صفوفنا ورصها « **وحدة كافة القوى المناضلة على الساحة** » هي **الرد العملي والحاسم** بعيدا عن كل المهاترات والمكاسب التنظيمية الرخيصة · ونحن ندرك ، ايضا ، ان الدور الذي يناط بالجيوش العربية لكي تلعبه في لبنان هو استمرار للدور الذي دفعت له هذه الجيوش من قبل انظمتها في اكثر من مرة او مناسبة ، وفي كل الحالات كان ليس هو الدور الحقيقي لها من وجهة النظر

الوطنية او القومية » ٠

مميزات الجنوب والثورة الفلسطينية :

« الجنوب له اكثر من ميزة » ، يضيف الاخ بلال ، وهي « ميزات جعلتـــه منطقة تجاذب وتركيز سواء من قبلنا كثورة فلسطينية وقوى وطنية لبنانية او من كافة القوى المعادية ٠ ابرز هذه الميزات ، ١ ـ التصاق الجنوب بارض فلسطيـن وقربه من منطقة الجليل حيث نجد اكبر تجمع بشري فلسطيني في الاراضي المحتلة٠ بالاضافة الى ميزات استراتيجية وعسكرية اخرى ٠ ٢ ـ ارتباط الجنوب التاريخي بشمال فلسطين على كافة الاصعدة التجارية والسياسية والاجتماعية ٠ ٣ ـ كون الجنوب منطقة تماس مباشرة بيننا وبين العدو الصهيونـي ، ٤ ـ التحركـــات السياسية الوطنية والفلاحية والمطلبية التي كان يقوم بها اهالي الجنوب بلا انقطاع خلقت تراثا نضاليا عريقا من الصعب على القوى المعادية ضربه بسهولـة ، ٥ ـ المحاولات المتكررة من قبل الاقطاع الديني والسياسي لركب موجـــة الجنـــوب « المحروم » والقيام بالنشاطات المشبوهة لمناهضة الثورة الفلسطينية والحركـــة الوطنية اللبنانية ٠

بالنسبة لنا ، كثورة فلسطينية ، نعتبر الجنوب كما نعتبر سائر المناطـــق العربية الاخرى شعبها شعبنا وارضها ارضنا ٠ فالجنوب منطقة شديدة الاهميـة بالنسبة لنا ، وخاصة في ظل الظروف العربية السائدة ، فهو يشكل نقطة انطـلاق لمقاتلة العدو الصهيوني ٠ وقبل ظهور الثورة الفلسطينية كان الجنوب محرما على الفلسطيني دخوله دون اذن رسمي ، خاصة المناطق المحاذية لشريط الحدود مـع العدو الصهيوني ٠ وكان يعتبر الجنوب قبل انطلاقة الثورة الفلسطينية وابـــان سيطرة النظام الرجعي في لبنان منطقة عازلة ٠ والحاجز الامني الذي تسعـــى اسرائيل الان الى اقامته كان موجودا ، بصورة او باخرى ، قبل تواجد الثـورة في الجنـــوب ٠

الجنوب موقع استراتيجي بالنسبة لنا وللحركة الوطنية اللبنانية ولكـــل الوطنيين الذين يدركون خطر العدو الصهيوني ٠ ومن هنا تركيز اسرائيل دائمـا على جنوب لبنان » ٠

اساليب اسرائيل التقليدية لاخضاع الجنـوب :

« القصف ، حرق المزروعات ، قتل المواشي ، توزيع المنشورات التي تطالب اهالي الجنوب بالتخلي عن الثورة الفلسطينية ٠ عمليات التهديد المستمرة ونسف

البيوت والقتل وخطف الوطنيين ، والقيام بعمليات الاحتلال المؤقت للارض ثـــم الانسحاب منها ، احتلال مواقع استراتيجية داخل الاراضي اللبنانية والتمركـــز فيها ، ممارسة شتى انواع الارهاب والتنكيل • الا ان الجنوب المناضل استطاع طوال الفترة الماضية ان يصمد في وجه كافة هذه الاساليب » •

اساليب المؤامرة الاخيرة :

لقد تعددت وتنوعت اساليب التركيز على المواطن الجنوبي لاخضاعـــه مؤخرا ودفعه الى التخلي عن المقاومة والحركة الوطنية • فمن محاولات بـــث النزعة الطائفية الى القيام بعمليات الحصار التمويني والتجويعي لاخضاع هـذا المواطن الصامد • كما حاول الكثير من الانهزاميين ان يبثوا روح البلبة والتشويش بغية تفتيت الموقع الوطني المناضل في الجنوب ، ثم هناك ممارسة الرموز الرجعية السياسية والدينية لمحاولات احداث شرخ في تلاحم الجماهير مع الثورة والحركة الوطنيـــة •

وهكذا تلاقت سياسة القوى المعادية الداخلية والخارجية من اجل تصفيـــة ما يمثله الجنوب من موقع وطني • داخليا من خلال الدور المتآمر للقوى الفاشية والرمـــوز الرجعيـــة المضـــادة ، وخارجيـــا مـــن خـــلال فرض الحصار البحـــري (اسرائيـل والفاشيين) والبـري (النظام السوري) بهدف تجويع المناطق الوطنية واخضاعها ، وقد تقاطعت هذه المواقف والمحاولات، موضوعيا ، مع سياسة العدو الصهيوني واطماعه في الجنوب ، « ان لم تكن منسقة اصلا مع هذه المواقف » ، وحرص هذا العدو على ان ينتهي دور الجنوب كجنوب مناضـــل •

وقد مارست اسرائيل سلسلة من **الاساليب الجديدة** بغية تحقيق اهدافها :

١ ـ اقامة بعض المستوصفات لعـلاج المرضى من اهالي الجنوب •

٢ ـ ادخال المواد التموينية المختلفة الى بعض قرى الجنوب واعتبار هـــذه القرى مرتكزا للتوسع في تسويق هذه المواد (اهم هذه القرى القليعة ورميش) •

٣ ـ افساح « المجال » امام بعض العائلات في الجنوب لزيارة اقاربهـــم في فلسطين المحتلة من تصاريح تمنحـها سلطات العدو الصهيوني •

٤ ـ فتح « المجال » ، ايضـا ، لسكان هذه القرى التي تتعامل معهم للعمل

في المصانع الاسرائيلية ٠

وكان العدو يهلل ويصف كل هذه الاجراءات بانها « انسانية » ومجـــرد محاولة منه « للتخفيف » من آلام اهل الجنوب ٠ ولما لم تجد كل هذه الاساليـب نفعا في جر سكان قرى الجنوب الى الفخ الذي نصبه العدو ، بالرغم من كافـــة المصاعب التي عانى منها اهل الجنوب مؤخرا ، لجأ العدو الى اتباع اسلوب آخر وهو قيامه بتسليح وتدريب سكان هذه القرى التي تشكل مرتكزا له ، وتوجيههـم بالتالي ، نحو خلق توتر معنوي وسياسي وعسكري في المنطقة ٠

لقد قام العدو الصهيوني بتعيين حكام عسكريين ومدنيين مرتبطين به فـــي هذه القرى ، فعين نقولا الحاج حاكما عسكريا في قرية رميش (وهو رقيب اول في الجيش اللبناني سابقا) وغسان حمصي حاكما عسكريا لقرية القليعة ٠ واصبحت الاجتماعات واللقاءات تتم بصورة دورية ومتبادلة بين العدو الصهيوني وهـذه القرى التي تتعامل معه ٠ وقد عقد عدد من الاجتماعات داخل الاراضي المحتلة في صفد ونهاريا وغيرهما » ٠

الاهداف المباشرة للعدو الصهيوني :

يلخص الاخ نور ، احد الاخوة المسؤولين في الثورة الفلسطينية في الجنـوب الاهداف المباشرة للعدو الصهيوني بما يلي :

١ ــ مد خط بشري مؤيد له على امتداد الشريط الحدودي موازٍ للخط الامني العسكري من الاسلاك الشائكة والالغام ٠

٢ ــ تحطيم امكانية عودة الفدائيين الى ممارسة نشاطهم في الجنوب من خلال خلق وقائع جديدة وارساء حالة من العداء السياسي والعسكري ضدهم ٠

٣ ــ تحطيم صيغة التعايش الاخوي بين الطوائف في الجنوب ، بهدف اعطاء المبرر الاخلاقي للغيتو الصهيوني ٠

لقد قاموا بتحريك الفاشين في القرى التي تتعامل مـعـهم للقيام باعـــمال عسكرية وسياسية بغـية تثبيت وتحقيق هذه الاهداف المباشرة ٠ فأخـــذت القليعـة تتحـرك ضد مرجعـيون والخيام وكفركلا ، وتهـدد باستمرار قريـــة دير ميماس ٠ وقام العـدو الصهيوني بتحريك الفاشيين في رميش ودبل ضـد قرية حانين والقرى الاخـرى المجاورة كما قاموا «بزج» قرية عـين ابل في حالة

العـداء ، وعـملوا عـلى تحريك قرية عـلما الشعـب « ولكن بحـدود لـــم يستطيعـوا تجاوزها حتى الان » ، كما يذكـر الاخ بلال ، « من خـلال الـــدور النشط الذي قمنا بـه مؤخرا هناك وقدرتنا عـلى خلق حالة جيدة نسبيا داخـــل البلدة » ٠

« ان اسرائيل تسعـى لمد الحزام الامني الحدودي وتعميقه بقواعد جماهيريـــة مسلحة معـادية للمقاومة ، هذا لم يكن يحـدث سابقا ولـه اسبابه الموضوعية ٠٠ ان هناك ربع مليون مهجـر فـي الجنوب ، الاحـوال الاقتصادية والمعيشية سيئة ، الحصار البحري الاسرائيلي ، والبري يجعـل الارض التي تبذر اسرائيل فيها افكارها قابلة للخصب ، المؤامرة مستمرة عـلى المقاومة ، هدفها استيعابهـا وتصفيتها ، الاسلوب قد يختلف عما تـم فـي الاشهـر الـ ١٨ الماضيـة » (ابو خالد العملة ، « السفير » ٧٦/١١/٨)٠

ويضيف الاخ بلال : « ان الجو الرجعـي العربي مساعـد لتحرك اسرائيـل من اكثر من ناحية ٠ فمثلا قضية التبغ ، وهو المصدر الاساسي لدخـل اهالـي الجنوب ، لـم تتجـه اية دولة عربية لشرائه بصورة شاملة ٠ معـظم التبـغ الان مخـزون في بيـوت الفلاحين ٠ كما لـم يحـاول احـد في مؤتمري القمـة الاخيرين المصغر والموسع تلمس ما يعـاني منه الجنوب للمساهمة في مساعدتـه وانتشاله من حالة التجويع وفقدان المـواد التموينية الاساسية وكافة مستلزمات الصمود الحقيقية امام الهجمة الصهيونية الفاشية ٠ لقد مروا جميعـا عـلـــى قضية الجنوب مر الكرام وكان الجنوب ليس جزءا من لبنان ، بالرغـم من كـــل المحاولات التي قام بها الاخ القائد العـام من اجل الاهتمام بوضع الجنوب على كافة الصعـد ، او قيامـه بابـرازقضية مهجري النبعة والكرنتينا والمسلخ والزعتر وغيرها ، ولكن عبثا ٠٠ ويبدو ان ثمة تغطية عربية رجعية ، او تجاهلا لتحـرك العـدو الصهيوني مع الفاشيين في الجنوب »٠

اساليب الثورة الفلسطينية في مواجهة المخـطط الصهيوني الفاشي :

لقد حاولنا ، يتابع الاخ بلال ، من خلال التعاون مع الحركة الوطنية اللبنانية، ان نعـزز صمـود الجماهير فـي الجنوب امام الهجمة من خـلال الاساليـــب التاليـــة :

١ ـ التوجه لتشكيل لجان شعبية عـلى مستوى قرى الجنوب لمتابعـة القضايا اليومية والحياتية والمعيشية التي كان يعـاني منها سكان الجنوب ٠

٢ ـ تامين المـواد التموينية لاهالي الجنوب باسعـار منخفضة ٠

٣ ـ تأمين الادوية وفتح بعض المستوصفات · تنشيط الخدمات الطبية من خلال « النجدة الشعبية » والصليب الاحمر والهلال الاحمر من خلال السعي لتشكيل لجان صحية في المناطق والقرى للحصول على الادوية اللازمة وتأمين العمل في عدد من المستوصفات · وقد قطع العمل في هذا الاتجاه شوطا لا بأس به (هناك حوالي ٧٠ مستوصفا يعمل الان في الجنوب)· اضافة الى تقديم الثورة الادوية الى المستشفيات الرسمية مثل مستشفيات تبنين وصيدا ومرجعيون والنبطية ·

٤ ـ تأمين المحروقات على الرغم من الظروف الصعبة وبعض السلبيات التي رافقت عملية توزيعها ·

٥ ـ القيام بالتعبئة الجماهيرية المستمرة لمواجهة النعرة الطائفية التي عمل الاسرائيليون والقوى الفاشية على اثارتها في بعض القرى الجنوبية ·

٦ ـ احباط وقطع الطريق على اي رد فعل طائفي ·

٧ ـ بذل المحاولات المتكررة مع القرى المسيحية في الشريط الحدودي بشكل خاص ، ومع كافة القرى المسيحية الاخرى بشكل عام بهدف تنبيه هذه القرى الى مخاطر الانزلاق في الشرك الصهيوني الفاشي · وقد عقدت في هذا الصدد اجتماعات عديدة ولم نلجأ كثورة فلسطينية وحركة وطنية لبنانية الى اسلوب « العنف المسيطر عليه والموجه » ، الا بعد حادثتين بارزتين : الاولى في عين ابل حيث اغتيل لنا اربعة مناضلين · والثانية في العيشية حيث اغتيل لنا ايضا ، اربعة مناضلين وجرح ثلاثة ·

ـ هناك محاولات متكررة يجري بذلها الان ، وبالرغم من كل ما حدث من مواقع معادية وخائنة ، بهدف انتشال البقية من جماهير هذه القرى ومنعها من الانزلاق في المخطط الفاشي الصهيوني · ولا تزال هذه المحاولات مستمرة» ·

النشاط الصهيوني الفاشي :

لا بد من التذكير بان النشاط الصهيوني المباشر في عدد من القرى الحدودية نشاط قديم · وقد اتخذ شكل تكوين شبكات تجسس اسرائيلية مقسمة بين عميل ومخبر · وهناك اكثر من دليل واثبات على وجود هذه الشبكات سواء ابان عهد السلطة اللبنانية السابقة ، او اثناء الاحداث الاخيرة · وقد

تركز نشاط هذه الشبكات في قرية رميش بالاضافة الى عدد مـــن العمـــلاء المنتشرين في معظم القرى الحدودية ٠

وقد حاول عملاء اسرائيل والقوى الفاشية المضادة اثارة الاهالي واستغلال بعض الثغرات الناشئة عن الحصار التمويني على مناطـــق الحـركة الوطنيـــة والمقاومة الفلسطينية ، خاصة لجهة تعذر توفير بعض المواد التموينية الاساسية او سوء توزيعها في احيان اخرى ٠

واخذ عملاء اسرائيل في قرية رميش زمام المبادرة لتشجيع التعـــامل مـــع العدو الصهيوني والسير في سياسة الجسور المفتوحة ٠

وقد نشطت هذه التحركات ، كما اسلفنا ، واتخذت شكلا سافرا ابتداء مـن شهر اب ١٩٧٦ ، وبدأ عدد من المسؤولين الفاشيين يزور بعض القرى عن طريق اسرائيل ٠ ومن بين هؤلاء ابو ارز ، بشير الجميل ، وشربل قسيس ٠

واستغلت العناصر الفاشية وعملاء اسرائيل في قرية رميش قضية عـــدم تسويق التبغ واخطاء وتقصير بعض المسؤولين في جيش لبنان العربي فيمـــا يتعلق بقرية رميش ، لتطرح ضرورة بيعه الى اسرائيل ٠ وكذلـــك الحـــال بالنسبة لقضية شح المياه خلال فصل الصيف في عدد من القرى الجنوبية ٠فقد بادر عملاءاسرائيل فيرميش الى نقل المياه بواسطة جرارات علىاساس ثمن النقلة بـ ١٠ ليرات لبنانية ، وقامت هذه العناصر العميلة بتوزيع وبيع المياه على اهالي بعض القرى مثل دبل ، علما الشعـب ، القوزح الخ ٠٠

وبدأت اسرائيل تمد عـددا من انابيب المياه من داخل اسرائيل الى بعـــض هذه القرى ٠ علما بان ازمة شح المياه في فصل الصيف في القرى الجنوبيـــة ازمة مزمنة وكانت الدولة في السابق تؤمن مياه الشرب لهذه القرى بواسطـة الشاحنات ٠ ثم تطور التعامل مع العدو ، وتم فتح مستوصـــف اسرائيـــلي بمحاذاة قرية رميش ٠ وحاولت اسرائيل فتح عدد من المستوصفات الاخـــرى المماثلة بموازاة عدد من القرى اللبنانية الاخرى ٠ ولكنها لم تنجح كثيـــرا في هذا المجال ٠ ففي منطقة قرية يارون ، مثلا ، لم يتجاوب الاهالي مع فتـــح المستوصف الموازي لقريتهم ، فنقلت اسرائيل المستوصف الذي وضعته هنـــاك بعد ثلاثة ايام ٠

ولكن الاعلام الاسرائيلي بدأ شن حملة اعلامية مركزة فـــي التلفزيـــون

والاذاعة عن الخدمات « الانسانية » التي يجري تقديمها بهدف توسيع اطار التعاون معها في منطقة الحدود ٠

وقد تدرجت الخدمات « الانسانية » التي قامت بها اسرائيل على الشكل التالي :

١ ـ تامين مياه الشرب ، ٢ ـ فتح المستوصفات ، ٣ ٣ـ توفير بعض المواد التموينية ٠ ٤ ـ شق الطرقات الترابية بين اسرائيل وعدد من القرى الحدودية (رميش ، علما الشعب) ٠ ٥ ـ مد شبكات الهاتف والبريد بين اسرائيل والقرىالتالية : رميش ، دبل ، عين ابل ٠ ٦ ـ تزويد عدد من العملاء والفاشيين باجهزة لاسلكية ٠

سلمت اسرائيل بعض اهالي رميش ، وتحديدا العسكريين منهم ،العاملين في الجيش اللبناني سابقا ، مواد تموينية باسعار منخفضة نسبيا ٠وبعدها فتحت المجال لعدد من التجار المدنيين في رميش وغيرها لاستيراد بعض المواد التموينية وتسويقها في قرى المنطقة ٠ والجدير بالملاحظة لن عملية تسويق قسم من محصول التبغ في قرية رميش وغيرهـا من قبل بعض العملاء والفاشيين ، لم تكن عملية عادلة او مربحة ٠ فالاهالي لم يقبضوا الثمن بصورة فورية ٠ كما ان ثمن الكيلو كان اقل من السعر الذي تدفعه شركة الريجي اللبنانية ٠٠ ولم تجر اسرائيل اية عملية تمييز في السعر بين اصناف الدخان المختلفة (الجيد والمتوسط والرديء) ، بل اشترت جميع هذه الاصناف بسعر موحد ٠

دور اسرائيل في التشكيلات المدنية والعسكرية للفاشيين

لم تكتف اسرائيل بدورها « الانساني » وخطواتها السابقة ، بل تعدت ذلك الى الاسهام المباشر في تنظيم شؤون كل قرية من القرى المتعاونة معها على اساس تشكيل لجنتين في القرية الواحدة : لجنة للشؤون العسكرية ،ولجنة للشؤون المدنية ٠

اللجنة العسكرية قامت بتعيين حاكم عسكري واللجنة المدنية عينت مسؤولا سياسيا ٠

واخذت اسرائيل تسلم الاسلحة لبعض العسكريين السابقين في الجيش اللبناني ٠ كما فرضت على الحاكم العسكري المرتبط تنظيميا بها فرض

التدريب والقيام بالحراسات وضرورة تدريب كل شخص قادر على حمـل السلاح ٠ وقد عـقدت سلسلة من الدورات العسكرية داخل اسرائيـل تم فيهـــا تدريـب الفاشيين والمتعاونين عـلى مختلف انواع الاسلحـة وقيادة بعض الاليات ٠

ومما لا شك فيه ان **دور المخابرات الاسرائيلية هو دور اساسي** ٠ فقد انطلق النشاط المعـادي من قرية (رميش) التي يتواجد فيهـا عـدد لا يحصـــى مـن العملاء الاسرائيليين ٠

وابرز ضباط المخابرات الاسرائيليين الذين يقومون بنشاط مركز في قريـــة رميش هم : ابو داوود (اسمه امنون وهـو عـمدة مستعـمرة حانوتا) ورتبتـه ضابط استخبارات ، عـازار ، والشويلي ٠

وقد بدأ توجيه مختلف دعـوات « حسن الجوار » من قرية رميش بدفـع مـن الاستخبارات الاسرائيلية ٠ وكل المقابلات التي كانت تجري مع وفود من اهالي القرى المجاورة ، بحضور ضابط استخبارات اسرائيلي ، انما كانت تتم فـــي قرية رميش او مستوصفها الاسرائيلي٠

والان سنعرض لتطور النشاط الصهيوني الفاشي المعـادي في كل قرية مـــن القرى التي استطعـنا الحصول عـن معلومات وافية عـنها في هذا الصدد ٠

النشاط الصهيوني الفاشي في قرية رميش :

تعتبر هذه القرية « الممر الاسرائيلي » الى قرى الجنوب الاخـرى فـــي القطاعين الاوسط والغربي ٠ وتضم هذه القرية ما يقارب ٤ر٥٠٠ نسمـــة ٠ تعتاش هذه القرية اساسا من زراعـة التبغ ويعـمل عدد كبير من ابنائهـا (حوالي ١٣٠ عنصرا) في الجيش والدرك وهناك ما يقارب ٦٠ عنصرامـن « انصار الجيش اللبناني »٠

القوى السياسية في البلدة : يشكل حزب الكتائب اقوى تنظيم سياسي يليـه الوطنيون الاحرار وبعض العائلات المؤيدة لكامل الاسعد ٠ وزن القوى الوطنية ضعـيف جدا في هذه البلدة وهـو لا يتعـدى بضعـة افراد معظمهم يعملفي بيروت ٠ تحوي هـذه القرية اكبر تجمع لعملاء العدو الصهيوني في عـمـوم المنطقة ٠ وهي القرية التي بادرت الى اقامة الجسور المفتوحـة مـع العـــدو الصهيوني ٠ يتزعـم النشاط السياسي والعسكري فيها نقولا الحاج وهو يملك مدرسة ويعـمل سكرتيرا للويس ابوشرف عضو المكتب السياسي في حـــزب

الكتائب ·

ابرز عملاء العـدو الصهيوني في هـذه القرية هـم يعـقوب موسى الحـاج، الياس الحاج ، فضل غناطيوس الحاج ، اليـاس عقل جريس ، سعـيد شبيـب العميل (وهو عميل مزدوج لاسرائيل والمكتب الثاني اللبناني سابقا) ·

كان المسؤول العسكري في رميش قد توجـه بتاريخ ٧٦/٨/٩ الى جونيـه عبر اسرائيل واجتمع مع عـدد من جنود البلدةالمتواجدين في جونية وغـيرها بهدف احضارهم معـه الى البلدة ·

تم تشغيل حوالي ٥٠ عـاملا من هـذه القرية في مصانـع للسجاير فـي منطقة صفدبفلسطين المحتلة · وهناك حوالـي عشر ممرضات في هـذه البلـدة يعـملن في مستوصفات ومستشفيات اسرائيلية ·

تلقى عدد كبير من العناصر الفاشية عـدة دورات تدريبية داخل اسرائيل·

النشاط الصهيوني الفاشي في قرية دبـل :

كانت هذه القرية هي المحطة الثانية للنشاط الصهيوني الفاشـ يالذي لعبت فيه العناصر العـميلة والفاشية في قرية رميش دورابارزا ·

تضم هذه القرية حوالي ثلاثة الاف نسمة · تعتاش هذه القرية عـلى زراعـة التبغ والحبوب ، وهنـاك قسم يعـمل في بيروت والمهجر ·

القوى السياسية في البلدة : يمثـل الوطنيون الاحـرار (جماعـة كميـل شمعـون) الوزن السياسي الاكبر · وهناك حوالـي ٣٠ عنصرا ينتمون الـى حزب الكتائب ولهـم ناد في البلدة ·

واخذ العدو الصهيوني يمارس دعايته ونشاطه · فقد ظهر عـلى شاشـة التلفزيون الاسرائيلي احـد الاشخاص المسؤولين في رميش في مقابلة تلفزيونية حيث تساءل لماذا لا يأتي اهالي دبل لتسلم المعونات التي بعث بها «المسيحيـون» في اسرائيل (المخابرات الاسرائيلية بالطبع) ، وفي اثر هذه المقابلة توجـه بعض الفاشيين في دبل الى مختار البلدة وطلبوا منه الذهاب للتفاوض مع اسرائيل واستلام المواد · ولكن المختار رفض ذلك اكثر من مرة · فدعـوا ، بعدهـا، الى عـقد اجتماع لاهالي البلدة فـي ٧٦/٨/٢٧ فيمنزل الياس صقر رئيـس البلدية للتداول في مجمـل الاوضاع ، واسفر الاجتماع عـنتشكيل لجنةللبلدة

وضعت ضمن مهامها الذهاب والتفاوض مع اسرائيل بخصوص « المعونـــات» ·
وعند مقابلة اللجنة لبعض المسؤولين الاسرائيليين من ضباط الاستخبـــارات جرى نقاش واسع يتعدى مهمة تسلم المعونات المزعـومة اياها ! فقد طلـــب المسؤولـون الاسرائيليـون مـــن اللجنـــة ضـــرورة تشكيـــل لجنتين فيالبلدة :احداهما للشؤون العسكرية والاخرى للشؤون المدنية · وتـم الاتفاق عـلى ان تقوم اسرائيـل بتامين الدعـم العسكري الكامل لهم · كما جرى ، فيالنهاية ، اعطاؤهم المعونات « الرشوة » لتوزيعـها عـلى الاهالي·

وقد تشكلت بالفعـل ،وبناء عـلى الطلب الاسرائيلي ، لجنتان في البلـدة· تألفت اللجنة المدنية من الاتية اسماؤهم : مارون يونس ، مخايل ناصيـــف ، الياس صقـــر ، مخايل لوقـا · وتألفت اللجنة العسكرية من الاتيـة اسماؤهـم (ومعظمهم من العسكريين السابقين في الجيش اللبناني) : الملازم حنـــا ناصيف ، الرقيب حنا سليم هاشم (وهو المسؤول العسكري)، الرقيب يوســف مشهـور ، العريف شبيب بطرس نداف ، الشرطي (ف ١٦) سعـيد ديب سعـيد، الجندي نخله عيد سعيـد ·

ويعتبر هؤلاء الاشخاص المحركون الاساسيون للنشاط المعـادي في هذه البلدة·

وقد تم تشكيل لجنة ثالثة ، اطلق عـليها اسم « لجنة ارتباط» ، وهي للاتصالات والتنسيق السياسي والعسكري المشترك ·

وتتالف لجنة الارتباط من الاتية اسماؤهم :

عسكريون : الرقيب حنا هاشم ،الرقيب يوسف مشهور ، العريف شبيـــب بطرس نداف ، الشرطي (ف ١٦) سعيد ديب سعـيد ، مدنيون : مارون يـــونس، مخايل ناصيف ·

وفي تاريخ ٧٦/٨/٩ استلمت اللجنة العسكرية في القرية كمية مـن السلاح الصهيوني كدفعـة اولى وتتالف من : ١٨ بندقية نوع فال ٧ قطع مضاد للدروع، ٢ هاون ٨١ ·

اعدت اللجنة العسكرية حوالـي اربع دورات تدريبية لعـدد كبير من شبـــاب وفتيات البلدة · كان من بينهـا دورةاولية فـي دبـل ودورة ارقى في رميـش، ودورة تخصص للتدريب عـلى الاسلحـة الثقيلة في اسرائيل (مدافـع وقيـادة اليات)· وبلغ تعـداد الاشخاص الذين تدريـوا حوالـي ١٢٠ شخصا ، بينهـم

حوالي ٥٠ فتاة ٠

ونذكر من الاشخاص الذين تلقوا بتاريخ ١/١٠/٧٦ دورة تدريبية لمدة ١٥ يوما على قيادة الدبابات في صحراء سيناء : خليل بطرس نداف ، خليل سعيد ، ابراهيم لوقا ، فايز يونس ٠

اما اللجنة المدنية ، فقد بدأت اعمالها بتوزيع المواد التموينية والمعونات اياها (!) ،والقيام ببث الدعاية المضادة للمقاومة والقوى الوطنية والتحريض على عدم استلام اية مواد تموينية من اي مصدر كان دون موافقة اللجنة المدنية !

وفي ١/٨/٧٦ توجه مارون يونس الى اسرائيل وعاد منها في ٩/٨/٧٦ بعد ان تم تزويده بجهاز لاسلكي وثلاث سيارات مرسيدس ملاى بالاسلحة ٠ وباشر فورا ، باعتباره مسؤول اللجنة المدنية ، بتنظيم رحلات عمالية من القرية للعمل في اسرائيل ٠ ويقدر عدد العمال الذين يتوجهون للعمل يوميا هناك بحوالي ٦٠ عاملا وعاملة ٠

النشاط الصهيوني الفاشي في قرية عين ابل :

بدأ التحرك الفاشي الصهيوني في هذه القرية ، التي يبلغ عدد سكانها حوالي ٦ الاف نسمة ، في ٥/٨/٧٦ حين قام احد عملاء اسرائيل المدعو الرقيب الياس حصروني بالاتصال مع ضابط المخابرات الاسرائيلية عازار عن طريق قرية رميش مكان الاجتماع ، ودار الحديث حول موضوع التنسيق وكيفية التحرك داخل عين ابل ٠ وبدأت عملية التحريض الاعلامي وحث الاهالي للسير في ركاب قرية رميش ٠ وجرت عملية استقطاب للعناصر الفاشية وتنظيم صفوفها بصورة سرية في البداية ، وكان من ابرز العناصر الفاشية التي تم استقطابها: مارون رزق حصروني ، وطوني رزق حصروني ، وعيد مارون شحادة ، وفؤاد عتمة ٠ واستطاعت هذه العناصر الفاشية تحريك مسيرة مسلحة في المنطقة الجنوبية من البلدة بتاريخ ٢٠/٨/٧٦ ٠ وقد بلغ عدد المشتركين فيها حوالي ٣٠ عنصرا من الذين تم تسليحهم وتدريبهم بصورة سرية في اسرائيل ٠

وفي مساء نفس اليوم وصل من قرية رميش موكب مسلح الى عين ابل يرافقه جرار زراعي محمول عليه رشاش ٥٠٠ من النوع المتوسط ٠ وكان الموكب يضم ٢٠ مسلحا من رميش ، بينهم ٤ مسلحين قدموا من المنطقة الشرقية في بيروت عن طريق اسرائيل ، نذكر منهم لويس حصروني وطوني نعمة من قرية عين ابل٠

وقد توزعت هذه العناصر على اسطح الابنية المحيطة بالمدرسة ٠ وكان القائد المخطط لكل هذه العملية المدروسة الملازم مارون دياب من عين ابل

يساعـده الملازم فرنسوا الحاج من رميش · وفي ٧٦/٨/٢١ ، عـقد اجتمـــاع في عــين ابل ضم بعض الوجهاء وكاهني البلدة والشباب الوطني التقدمي هنـاك الذين قاموا بتحذير اهالي البلدة من مغبة الاستمرار في نهج التعامل مـــع اسرائيل والقيام بالنشاط المعـادي للمقاومة والحركة الوطنية · وقد تم الاتفاق في هـذا الاجتماع عـلى ضرورة المحافظة عـلى وضع قرية عين ابل كما هـــو عـليه ، وتحجيـم دور الفاشيين وطرد العناصر الفاشية الغريبة التي توافـدت الى عين ابل عـن طريق اسرائيل · وجرى الاتفاق ، ايضا ، عـلى اعـادة نشاط اللجنة الامنية التي تشكلت في القرية سابقا بمساعـدة الحركة الوطنية والمقاومة· هذه اللجنة التي استطاعـت الحفاظ عـلى امن وراحـة البلدة وتوفير المـــواد التموينية المختلفة طيلة الاحـداث اللبنانية ·

الا ان العناصر الفاشية والعميلة لم ترضها هـــذه النتيجة ، فقامـت يـوم ٧٦/٨/٣١ عـلى نصب كمين واغتيال الشهـداء الاربعـة محمود قواص ، نزيـه دياب ، عـادل وطفة (لبنانيون) وابو ناصر وكلهم ينتمون الى حـركة فتـح ،بينما كانوا يمرون في البلدة ·

لقد ارادوا ان يثيروا مخـاوف الاهالي لكي يقفوا الى جانبهم متبعين نـفس اسلوب اوتوبيس مجزرة عـين الرمانة عـام ١٩٧٥ ·

وهكذا تمكن الفاشيون والعـملاء من احـكام سيطرتهـم عـلى قرية عـينابل· ابرز الاشخاص الذين قاموا بالنشاط الفاشي المعادي في عين ابل هـــم : الياس شعـيا ، حنا اسكندر دياب ، ميشال مخـول بركات ، مارون شربـــل بركات ، شربـل خريش ، عبداللـــه خريش ·

اما العسكريون السابقون الذين التحقوا بالفاشيين وتسلح قسم منهم مـــن اسرائيل منهـم :

الملازم مارون حنا دياب ، الرقيب بشارة طانيوس حصروني ، (سلاحـــــه من اسرائيل نوع ناتو)، الرقيب الياس رزق حصروني (سلاحه من اسرائيـل، نوع ناتو) الجندي بولس حنا سلامة (سلاحـه من اسرائيل نوع ناتو)·

اما العناصر الفاشية التي قدمت عن طريق اسرائيل الى عين ابـل وتـــزودت بسلاح اسرائيلي فهي :

١ ـ لويس حصروني ، مسؤول عسكري ، سلاحـه ناتو من اسرائيل ·

٢ ـ انطوان الياس نعـمة دياب ، مسوؤل سياسي ، سلاحه ناتو من اسرائيل·

٣ ـ جوزيف شعيا (من قرية دبل)، مدرب ، سلاحـه ناتو من اسرائيـل ٠

٤ ـ سوزان مطر (من قرية دبل) مدربة للفتيات في عين ابل وهي من سكـان ضبيـة ٠

٥ ـ بطرس منصور حصروني سلاحـه ناتو من اسرائيل ٠

٦ ـ بطرس الاخ قتل في حادث استشهاد الفدائيين الاربعـة في عين ابل٠

٧ ـ دياب خليل دياب ، ٨ ـ انطوان طنوس دياب ٠ ويبلغ عدد هذه العناصر التي قدمت عـن طريق اسرائيل حوالي ١٥ عنصرا ٠

اما المقيمون في عـين ابل والذين تسلح معـظمهم من اسرائيل والتحقـوا بالفاشيين فيبلغ عددهم ٣١ عنصرا ٠ نذكر منهـم ، فقط ، الذين تزودوا بسلاح اسرائيلي ومعـظمهم من الشباب المضلل :

غسان انطوان نعـمة ، يوسف انطوان نعـمة ، يوسف توفيق دياب، جـورج بطرس خليفة ، بولس حنا فرح ، يوسف شكرالله سليمان ، جورج الـيـاس حصروني ، مارون الياس حصروني ، بشارة جورج عتمة ، رمزي نعـمة دياب ، عيد شحـادة ، بيار مارون دياب ، بول مارون دياب ، بركات جوزيف بركـات، بول حنـا بركات ٠

النشاط الصهيوني الفاشي في علما الشعب :

يبلغ عدد سكان هـذه القرية حوالـي ٤ الاف نسمة وهي تقع بجوار الناقورة على بعـد كلم واحـد من الحـدود الفلسطينية ٠

بدأ يستفحـل النشاط الفاشي في هـذه القرية ، ولكن ضمن حـدود ، فـي شهر آب ١٩٧٦ ٠ وقد ساهـم في احياء هـذا النشاط الملازمان في الجيـش اللبناني الياس زعـرب ولويس بواري ، بعـد ان عـادا الى قريتهما عـن طريق اسرائيل ٠ وقد عاونهمـا تحريضيا في عملهما المعـادي المعـاون اول المتقاعـد حنا بواري الذي كان يعـمل مع العـدو الصهيوني منذ ١٩٧١ ٠ وبدأ الشماس (معـاون الكاهن) خليل صقر يساهـم فـي بث النشاط الفاشي المعـادي ٠

ويعمل هـذا الشماس تحت امـرة المطران الماروني يوسف الخـوري الـذي ارسل رسالة الى اهالـي عـلما الشعـب عبر اسرائيل بتاريـخ ٧٦/٧/٣٠

يدعوهم فيهـا الى الالتفاف حـول القيادة الفاشية في البلدة والابتعـاد عـــن التيارات الوطنية ، ضامنا لهـم وصـول الاسلحـة والتموين من العدو حيـــث يذكر في رسالته « انني قـد اتفقت معـهم عـلى ذلك » فمن هـو المعـني في هذا الكلام ؟!

وفي شهر آب ١٩٧٦ اخذت الاسلحة تتدفق الى علما الشعب من اسرائيـل ٠ ومن الذين شاركوا في احضار هذه الاسلحـة العريف جريس فرح وجـــورج فرح ٠واشرف عـلى التدريب في البلدة كل من النقيب أنيس طوبيا والملازمـان توفيق فرح ونزيه الصباح ، والمعـاون اول حنا بواري (ابو ضرغـام)٠ وقد دخـل خليل صقر (الشماس) الى مستعـمرة حانوتا عـدة مرات لترتيب الامور بالتنسيق مع يعـقوب موسى الحاج من بلدة رميش ٠

وفي ٧٦/٩/١٠ حضر كولونيل اسرائيلي اسمه ايلي حداد اصلـه من قريـة عـلما الشعـب واجتمع مع عـدد من اقاربه وبعض العناصر المتعاونة مع العـدو الصهيوني ٠ ويتردد ضابط الاستخبارات الاسرائيلي ابو داوود باستمرار على قرية عـلما الشعـب يرافقه ضابط اسرائيلي اخـر يدعـى ابو يوسف ٠

اما العسكريون الملتحقون بالفاشيين والذين تسلحـوا من اسرائيل فهم:

نقيب مغوار انيس طوبيا ، ملازم (كلية حربية) الياس بواري ، معـاون اول متقاعـد حنا بواري ، رقيب اول يعـقوب عـقل ، رقيب حبيب بـواري (المسؤول العسكري) ، رقيب يوسف فرح ، عريف مخايل فرح ، الدركي ناصيف حـداد ، رقيب منير فرح ، رقيب نعـمة رؤوف ، عريف جريس فرح ، الدركي شكراللـــه طنوس ٠يضاف الى ذلك التحاق معـظم « انصار الجيش اللبناني » بالفاشييـــن وعددهم حوالي ١٨ عنصرا ٠

اما الاسلحـة الاسرائيلية فهناك ملالتان من اسرائيل وحوالي ١٥٠قطعة سلاح٠

خلال شهري ايلول وتشرين الاول ١٩٧٦٠ جرت ثلاث دورات تدريب فـــي اسرائيل : دورة استخبارات لثلاث فتيات ٠ ودورة تدريب عسكرية عـلى قيـادة المدرعـات بـ٦ عناصر ودورة تدريب عسكري لـ١٥ عنصرا ٠

وفيما يلي نص الاتفاقية السياسية والامنية والعسكرية المعقودة بين فاشيـــي رميش وعـلما الشعـب وذلك بموافقة وتشجيع اسرائيل وتحت اشرافها ٠

ففي ٧٦/٨/٢ اجتمعت اللجنة الممثلة لعـدد من عائلات علما الشعـب مـــع

المسؤول الكتائبي في رميش نقولا الحاج ، عـلى اساس ممثلين عن العائـلات التالية في عـلما الشعـب : عـائلة الغفري ، عائلة الصياح ، عائلة زعـــــرب، عائلة فرح ، وممثل واحد عن عائلة سمور وبحضور خليل صقر (الشماس) بصفة شخصية · عـقد الاجتماع في خيمة اسرائيلية بحضور ممثلين اسرائيليين عـلى الحدود قربلدة رميش في الساعة الثامنة من مساء اليوم المذكور انفا وقد تـم الاتفاق عـلى ما يلي :

١ ـ « يسمح لاهالي علما الشعب بالدخول الى الاراضي الاسرائيلية لشـراء جميع المواد الغذائية وغيرها ·

٢ ـ على كل شخص ان يحـمل السلاح اذا استطاع من الدولة الاسرائيليـة او عـلى حسابه الخاص ·

٣ ـ تبليغ السلطة المختصة (!)بكل ما يحـدث في منطقة علما الشعـب ·

٤ ـ اقامة هاتف ما بين عـلما الشعـب واسرائيل وتسليمه الى المختصين في عـلما مع تقديم اجهزة لاسلكية للطوارىء ·

٥ ـ يعـاقب كل شخـص اذا تعـاون مع العـمل الفدائي او الشيوعييـــن او غـيرهم ·

٦ ـ حسن المعاملة مع الجيران في القرى المجاورة للحدود وعـدم التعـــدي عـلى المارة داخـل البلدة ·

٧ ـ لكل شخص الحرية بان يشتري او يبيعما يشاء من القرى اللبنانية الاخرى·

٨ ـ لعلما الشعـب الحق بان تطلب المساعـدة العسكرية من اسرائيل عـنـد الضرورة ·

٩ ـ تجتمع اللجنة العسكرية المختصة في علما مع اللجنة العسكرية المختصـــة في رميش مرة كـل اسبوع في مكان يتفق عـليه في حينه ·

١٠ ـ يعـاقب كل شخص من قبل اللجنة العسكرية اذا تخـلى عـن هـــذا الاتفاق » ·

توسيع النشاط الصهيوني الفاشي :

تشهد القرى اللبنانية الاخـرى ضغـوطا متزايدة تتراوح بين التهديـــد والوعيد لكي تحذو حذو القرى المتعاونة مـع العـدو الصهيوني • وغـطـــاء التحرك الصهيوني ينطلق من القـرى التي تسيطر فيها القوى الفاشية • ففـــي ٧٦/١٠/٢٦ استدعى الحاكم العسكري الاسرائيلي ابو داوود عن طريـــق الفاشيين في عين ابل ورميش وعـلما وفودا من الضهيرة وياارين ومروحيـــن والناقورة وبعض العملاء من بنت جبيل • وكان الاجتماع في حانوتا وذلـــك للتداول بشأن التنسيق والتعـاون المتبادل • وقد طلـب بعـض العـــملاء الاسرائيليين في قريتي الضهيرة وبنت جبيل تزويدهم بقطع السلاح وقد تم ارسال بعضه عـن طريق عـملاء الضهيرة فيما بعـد • ولكن الاجتماع لم يسفر عـن نتائج حاسمة لانه كان يفتقد الى اية صفة تمثلية بالنسبة للقرى الاخـرى •

هذه القرى الجنوبية ما زالت ترفض ، بالرغم من كل التهديدات والاغراءات ، التعامل مع العـدو الصهيوني • وقد تعـزز موقف اهالي هذه القرى عـلى اثـر تحسن شروط التصدي للفاشيين والعـدو الصهيوني • ولـعل موقف اهالـــي كفرشوبا الوطني المشرف وعدد من القرى الاخرى يبرز فشل العدو الصهيونـي، من خـلال اساليبه المتنوعـة التي اعتمدهـا حتى الان ، بخلقشريط بشري امني عـلى طول الحدود الجنوبية •

فقد وجه ابو داوود ضابط الاستخبارات الاسرائيلية رسالة الى احمد اسماعـيل ذيب احد وجهاء كفرشوبا الوطنيين ، يدعـوه فيها الى التعـامل مع اسرائيـــل ويعده بتعمير البلدة التي دمرت « وتقديم « كل شيء » في حال الموافقـة عـلـــى التعـاون • وقد جاء في هـذه الرسالة :

« نحن واياكم جيران ، ومن الضروري ان نتبادل الزيارات • ونحن نعـلـــم ان بلدتكم قد تهدمت ، وكان ذلك في ساعـة شيطانية نعتذر عنها ، ونحن مستعدون لان نوصل لكم التيار الكهربائي ، وننشيء مستوصفا للتطبيب العمومي فـــي كفرشوبا ، كما نؤمن لكم كلما تحتاجونه من مواد غذائية ، ونقدم لكم كل شيء تحتاجونه • لذلك ، فان كنتم توافقون ، فاننا نطلب منكم ان ياتي وفد من قبلنـا اليكم في مستوصف « ميتولا » لنبحث الموضوع تفصيليا • الامضاء جيـــش الدفاع الاسرائيلي » •

وقد رفض الاهالي بصورة قاطعـة الرد عـلى هذه الرسالة ، وكان جوابهـــم « ان لا عـدو لنا غـير اسرائيل ، ومن دمر كفرشوبا وقتل وجرح العشرات من

ابنائها لن يعمرها · لن تكون كفرشوبا بؤرة خائنة تتنكر لوطنيتها فتتعامل مع اسرائيل ، بل ستبقى صامدة شامخة معتزة بوطنيتها وعروبتها » ·
(انظر «المحرر» ١٨/١١/٧٦) ·

هذا هو الرد الوطني الساطع الذي يمثل ارادة وموقف اهل الجنوب الحقيقي · فهل ستتنزع اسرائيل قفاز « الانسانية » و« حسن الجوار » وتشن هجوما عسكريا جديدا بالتنسيق مع الفاشيين لضرب الروح الوطنية الصامدة وتوجيه ضربة جديدة للمقاومة والحركة الوطنية ضمن سلسلة المخطط الامبريالي الرجعي المعادي ؟ هذا ما ستجيب عنه تطورات الايام القادمة في الجنوب ·

موقف اسرائيل من أحداث لبنان ودورها فيها

أحمد خليفة

يشكل الدور الاسرائيلي واحدا من اهم العوامل في الحرب الاهلية في لبنان · ويعرف الجميع ان موقف اسرائيل ، ردود فعلها ، وتدخلاتها في الحرب اللبنانية اثرت تاثيرا هاما في مجرى الاحداث فيها ، وكانت هذه جميعا ، ولا تزال ، عناصر حاضرة في ذهن وحسابات وسلوك كل الاطراف المتحاربة والمساندة · والهدف من هذه المقالة هو تسليط الضوء على هذه العناصر ـ موقف اسرائيل ، ردود فعلها ، ودورها في الحرب الاهلية في لبنان ·

الموقف الاسرائيلي

صرح وزير الدفاع الاسرائيلي ، شمعون بيرس في احدى المناسبات ، ان الحرب اللبنانية كانت مفاجاة كبيرة لاسرائيل (١) · الا انه ليس من السهل تصديق ذلك · فقد كان الهدف الرئيسي (والمعلن) للسياسة الاسرائيلية تجاه لبنان في السنوات الاخيرة ، هو دفع السلطات والجيش اللبناني الى التصادم مع المنظمات الفدائية الفلسطينية ، وتاليب اوسع قطاعات ممكنة من الشعب اللبناني ضد حركة المقاومة الفلسطينية ونشاطاتها في لبنان · ومن الصعب التصور ان تشكيل ، تسليح وتدريب الميليشيات الانعزالية قبل الحرب تم كلية بمعزل عن اسرائيل ـ الجهة المعنية اكثر من غيرها بالهدف من وراء هذا الاعداد ، كما انه من الاصعب التصور ان اندلاع المعارك لتحقيق هذا الهدف ، مهما كان الشكل الذي اتخذه في البداية ، جرى دون ان تكون لاسرائيل يد فيه ·وقد يكون من المستحيل الان وضع اليد على الاثباتات التي تؤكد الدور الاسرائيلي في اشعال المعارك ، او المعلومات التي توضح حجم هذا الدور واشكاله ، اذ تحيط الاطراف الانعزاليةواسرائيل ، كما هو متوقع ، هذا الموضوع بستار من السرية المطلقة · ولا مفر هنا ، كما يبدو ، من الاكتفاء

بالاستنتاج ، وترك المعلومات الى المستقبل ٠

الا ان الموقف الاسرائيلي اصبح بعد فترة قصيرة من اندلاع المعارك واضحـا ، وبالامكان تتبعه دون صعوبات خاصة ٠ ويمكن وصف رد الفعل الاسرائيلي ازاء التطورات في لبنان ، في الاشهر الاولى بعد اندلاع القتال ، بانه مزيـــج من الترقب والتوتر والقلق ٠ وهو مزيج عكسته بوضوح غالبية المقالات والافتتاحيات (الموجهة عادة) في الصحف الاسرائيلية الصادرة في تلك الفترة ، وبصورة لا تقل وضوحا ـ تصريحات المسؤولين الاسرائيليين ٠ فقد تطورت الاحداث ، كما يبدو ، بشكـل مخالف تماما للترقعات ٠ فبدلا من انفجار الوضع بصورة تضع السلطة اللبنانيـة بمجموعها ، والجيش والميليشيات الانعزالية في جانب من المتراس من جهة ، وحركة المقاومة الفلسطينية والجبهة السياسية المساندة لها في الجانب الثاني من المتـراس من جهة اخرى ، وهو السيناريو الذي كانت السياسة الاسرائيليـــة تستهـــدف الوصول اليه ، تفجرت تناقضات الوضع الداخلي اللبناني ، احدثـت انقسامـا عاموديا في السلطة ، اصيب الجيش اللبناني من جرائه بالشلل ، واكتسبت الحرب في لبنان ابعادا طائفية واضحة ، وانقسم البلد اجمالا الى معسكريـــن كبيرين ـ المعسكر «الاسلامي» ، الذي تحالفت غالبيته مع المقاومة الفلسطينيـة ، وانتظمت في داخله ميليشيات مسلحة ذات وزن عسكري لا يستهان به نظمتها بالاساس القوى التقدمية المتحالفة مع الثورة الفلسطينية ، والمعسكر « الماروني » الذي التفـــت غالبيته حول ميليشيات الكتائب والاحرار ، والمنظمات المارونية المسلحة الاخرى٠ وبدلا من ان يبرز مع بداية الحرب هدف ضرب حركة المقاومـــة الفلسطينية او اخضاعها لسلطة الدولة اللبنانية ، ابرز انفجار الوضع الداخلي اللبناني المطالب الاسلامية بتحقيق مشاركة اكبر للطائفة الاسلامية في الحكم ، واضيفت اليها مطالب القوى التقدمية (التي ازداد وزنها بفضل نموها العسكري) بتحقيق برنامجهـــا السياسي ٠ وتطورت المعارك بحيث وجدت اسرائيل نفسها ، بعد فترة قصيـــرة نسبيا من بدء القتال ، امام وضع لا يتجه نحو الابتعاد عن الحاق الهزيمة بالمقاومة الفلسطينية فحسب ، بل وايضا يهـدد السيطرة المارونية على الدولة والجيش مـن أساسها ٠ وقد لامست افتتاحية لصحيفة « هاتسو فيه » ، في مرحلة مبكرة جدا من الحرب (عدد ٢٧ـ٥ـ٧٥) ، مكامن القلق الاسرائيلي بقولها : ان اسرائيـــل تتعقب الاحداث في لبنان من زاوية ـ اولا ، كبح « المخربين » او اتساع سيطرتهم ، وهذا يعني ، مشكلة الامن على الحدود الشمالية ، ثانيا ، « ان استمرار المحافظة على التوازن في لبنان يمنع على الاقل هذا البلد من الانخراط الفعال في دول المواجهة العربية ٠ اما اختلال التوازن بسبب سيطرة اسلامية ، فيخلق وضعا متوترا على الحدود ٠ وقد يجعل لبنان يتسبب في هزات في المنطقة باكملها » ٠ وفيما بعد ، برز ايضا احتمال التدخل السوري ، وامكان انضمام لبنان ، في حال تغير الوضع فيه تغيرا جذريا ، الى الجبهة الشرقية ٠ وهنا يكمن المنبع العميق للقلق الذي ذكرنـا

اعلاه انه كان من سمات رد الفعل الاسرائيلي ازاء تطورات الحرب في لبنان في الاشهر الاولى ٠

وقد مال الموقف الاسرائيلي ، في البداية ، الى التحرك وفقا لنمط التحرك الاسرائيلي ازاء احداث الاردن في عام ١٩٧٠ ٠ ففي شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٥ ، عندما لاح ان لبنان قد يكون مقبلا على تغييرات جذرية في نظامه السياسي ، وبدا ان التدخل السوري بات محتمل الوقوع . اطلق العديد من المسؤولين الاسرائيليين الكبار تحذيرات لسوريا من الاقدام على التدخل في لبنان ، واعلن رابين في منتصف الشهر « ان اسرائيل مهتمة ببقاء لبنان كماهو ،بالصيغة السياسية والنظام الداخلي القائمين فيه ، وان كلمحاولةلاحتلاللبنان «تمس»من اسرائيل » (٢) ٠ وشرحت افتتاحية « هآرتس » ، الصادرة في اليوم التالي ، ان رئيس الحكومة استهدف تذكير كل من يهمه الامر « ان اية محاولة لتقويض النظام في لبنان ستثير بالضرورة شكوكنا وتزيد في قلقنا » ، وان « ما ينطبق علىلبنان، كما هو ، مماثل لما ينطبق على الاردن » (٣) ٠

وفي نهاية الشهر وبداية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ ، كرر المسؤولون الاسرائيليون تحذير سوريا من التدخل ، وهددوا بالاقدام على خطوات عسكرية في حال حدوث ذلك ٠فصرح رئيس الوزراء الاسرائيلي ، يتسحق رابين، ان «اسرائيل قد تجتاز حدود لبنان بقوات عسكرية اذا ما تدخلت سوريا ، او اية دولة عربية اخرى ، اذ سيقوم عندها عدو محتمل جديد لاسرائيل على الحدود الشمالية » (٤) وصرح رئيس اركان الجيش الاسرائيلي ، مردخاي غور ، انه « سيكون من الضروري التمييز بين وضع يبقى فيه لبنان مستقلا ، وبين تغيير جغرافي ـسياسي ٠٠٠ وسيكون الوجود العسكري السوري في لبنان بمثابة تغيير جغرافي ـسياسي للوضع ٠ وستضطر اسرائيل ، بما في ذلك الجيش الاسرائيلي ، الى الرد » (٥)٠ كما صرح السفير الاسرائيلي في واشنطن ، سمحا دينيتس ، « ان اسرائيل تدرس بجدية القيام بعمل عسكري ، اذا تدخلت اية دولة عربية في النزاع في لبنان » (٦) ٠

ولكن سرعان ما اتضح لاسرائيل ان الولايات المتحدة تنظر الى الامور بصورة مختلفة ، وان الموقف الاميركي ، الذي دفع اسرائيل الى حشد قواتها على الحدود السورية في عام ١٩٧٠ لردع السوريين عن الوصول الى عمان ، يتحرك هذه المرة بصورة مغايرة ٠

وقد ذكرت صحيفة « هارتس » الصادرة في ٢٠ـ١٠ـ٧٥ ، ان الولايات المتحدة حذرت اسرائيل من التدخل في لبنان في حال حدوث تدخل سوري ، وابلغتها انها تنتظر عدم قيام اسرائيل باي عمل قبل التشاور مع الولايات المتحدة في حال

حدوث ذلك · واعترف ممثل اسرائيل في الامم المتحدة ، حاييم هيرتسوغ ، فيخطاب القاه في الجمعية العمومية في تشرين الثاني ١٩٧٥ ، ردا على كلمة مندوب م·ت·ف ان انقاذ لبنان ، كما تم انقاذ حسين بمساعدة اسرائيل في سنة ١٩٧٠ ، « يتوقف على نوايا واشنطن »· واضاف ان هناك شكا فيما اذا كانت واشنطن فورد مستعدة لتكرار مناورة نيكسون (٧) ·

وفي ضوء هذا الاختلاففي الموقف الاميركي، بدأ الموقف الاسرائيليفي الابتعاد عن التعامل مع الاحداث في لبنان كما تم التعامل مع احداث الاردن في عام ١٩٧٠· وقد تمثل هذا الابتعاد ، اول ما تمثل ، في الموقف تجاه احتمال التغيير في النظام الداخلي اللبناني · فقد صرحرئيس الاركان الاسرائيلي ، مردخاي غور ، في النصف الثاني من تشرين الثاني ١٩٧٥ ، انه « اذا ما بقي لبنان مستقلا ، يعتبر ما يجري فيه مسالة سياسية ، سواء حكمه المسيحيون ام المسلمون » (٨) · وعاد فكرر في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ ان اي تطور في لبنان ،« حتى ولو لم·يكن محببا لنا » ، لا يهم اسرائيل·واضاف انه لا يعتقد « ان حدوث اسلمه ، او تغيير في الاقلية او الاكثرية ، امر حسن ، ولكنه ليس من شاننا » (٩) ·وصرح وزير الخارجية ، يغئال الون ، في نفس الشهر ، انه لا يعتقد « انه يتوجب علىاية دولة اجنبية ان تتدخل في الوضع الداخلي في لبنان · وان اسرائيل لا تنوي فعل ذلك » (١٠) · واعقبه بيرس في اليوم التالي ، فادعى انه « لم يخطر ببالنا قط ان نتدخل فيما يجري في لبنان » ، وذلك اذا لم يحدث تدخل اجنبي (١١) ·

كما تمثل هذا الابتعاد عن نمط عام ١٩٧٠ ، ثانيا ، في تغير اللهجة والعبارات المستخدمة ازاء التدخل السوري ، في البداية ، ثم في تراجع تدريجي عن المواقف « القاطعة » المعلنة بهذا الخصوص ، فيما بعد · ونورد فيما يلي نماذج من تصريحات المسؤولين الاسرائيليين توضح تطور الموقف الاسرائيلي بهذا الصدد·

في النصف الاول من كانون الثاني ١٩٧٦ ، صرح غور ان اي تطور داخلي لبناني ليس من شان اسرائيل ،« بيد ان دخول قوات اجنبية ··· ربما يقتضي اعادة نظر » (١٢) · وصرح بيرس « ان اسرائيل لا تستطيع ان تقف لا مبالية ازاء اي تدخل سوري في لبنان ، مهما كانت دوافعه ·وسيقتضيها ذلك (انحدث)درس خطواتها » (١٣) · وصرح رابين « انه اذا تدخلت قوات اجنبية في لبنان ، فلن تكون اسرائيل في وضع تستطيع معه احتمال ذلك » (١٤) ·

(جوهر الموقف الاسرائيلي الرافض للتدخل السوري ، مهما كانت دوافعه ، لا يزال قائما · ولكن حلت محل العبارات من نوع « ان اسرائيل قد تجتاز حدود لبنان بقوات عسكرية الخ ، العبارات من نمطان ذلك « ربما يقتضي اعادة نظر» او ان اسرائيل لن تكون في وضع تستطيع معه احتمال ذلك الخ) ·

وفي النصف الثاني من كانون الثاني ١٩٧٦ ، دخلت قوات نظامية تابعة لجيش التحرير الفلسطيني من سوريا الى لبنان للمشاركة في القتال ضد قوى المعسكـــر الانعزالي • وتجنب المسؤولون الاسرائيليون الادلاء بتصريحات مباشرة حـــول الحدث ، واكتفوا بالتعليق عليه بصورة غير مباشرة • فصرح مردخاي غور « ان هناك اثباتات كافية على ان السوريين غير مستعدين اليوم للتدخل في لبنان اكثـر من اللازم » (١٥) • واعقبه وزير الدفاع في اليوم التالي فصرح « ان مصادره لـم تذكر شيئا عن دخول قوات سورية الى لبنان » (١٦) ، وعاد فقال بعـد ايـــام ان الحكومة الاسرائيلية « لا تتوقع غزوا سوريا للبنان » (١٧) • وادلىوزيرالخارجية يغئال الون ، قرب نهاية الشهر ، ببيان في الكنيست بخصوص الوضع في لبنـان ، ذكر فيه : « اوضحنا جيدا ، في اثناء الحرب الاهلية في لبنان ، سواء عن طريـــق تصريحات علنية او عن طريق وسائل فعالة اخرى ، ان غزو جيش سوري للبنـان سيشكل اضرارا بالغا بالمصالح الحيوية الاسرائيلية • ولا شك ــ ولا اقول ذلك على سبيل الافتراض غير المرتكز الى اساس ــ في ان ايضاحاتنا ، باننا سننـظر بخطررة كبيرة الى غزو كهذا ، شكلت ، ولا تزال تشكل ، عاملا مهما ــ ان لم يكن الاهم ــ في ردع سوريا عن غزو لبنان ••• وهذه التوضيحات التي ادلينا بهـا لا تزال قائمة كما هي » (١٨) •

(فضلت اسرائيل عدم اعتبار جيش التحرير الفلسطيني « جيشا اجنبيا »ينبغي التعامل معه وفقا للموقف المعلن سابقا ، وعدم اعتبار دخوله ، رغم قناعتهـا بعكس ذلك ، « خطوة عسكرية » سورية ، وتمسك وزير الخارجية بالاعتقـاد ان مصداقية الردع الاسرائيلي لم تمس)•

وفي آذار (مارس) ١٩٧٦ حدثت جملة من التطورات الهامة ــ انهار الجيـش اللبناني ، واعلن عن قيام جيش لبنان العربي ، ودخلت قوات اضافية من جيـــش التحرير الفلسطيني ، ودخلت ــ اخيرا ــ قوات عسكرية سورية • وبدا ان سوريا هذه المرة ، تجاوزت « الخط الاحمر » الاسرائيلي • ولكن التخوف من تحـــرك رادع اسرائيلي لم يتجسد ، وصرح رئيس الاركان ، مردخاي غور ، ان « ••• السوريين نشيطون في اطر مختلفة في لبنان ، ولكن لم نصل بعد الى وضع يعمل فيه الجيش السوري في لبنان كجيش سوري • واذا ما اتى يوم ودخل جيش ســـوري الى لبنان ، سنقرر ما نفعـله » (١٩) • وصرح وزير الدفاع ، شمعون بيرس ،«ان الجيش السوري لم يدخـل بكامل قوته الى لبنان ، نظرا الى ان اسرائيل اعلنت انها ستتخذ ، في هذه الحالة، تدابير الامن التي ترتئيها» (٢٠) • وتحدثت الصحف الاسرائيلية عن وجود « خط احمر» ابلغت الحكومة الاسرائيلية المسؤوليـــن للسوريين ، بواسطة واشنطن ، انها لن تسمح لقواتهم بتجاوزه • وفسر العديـد من المراقبين « الخط الاحمر » بانه يعني نهر الليطاني •

(تراجعت اسرائيل عن موقفها « القاطع » برفض التدخل السوري ، « مهمـــا كانت دوافعه » ، وحاول المسؤولون تغطية الارتباك الناشيء عن اقدامهم على هذه الخطوة بعبارات من نمط « ان السوريين نشيطون في اطر مختلفـة » و « الجيش السوري في لبنان لا يعمل كجيش سوري » و « الجيش السوري لم يدخل بكامـــل قوته الى لبنان » الخ) ٠

وفي حزيران ١٩٧٦ دخل الجيش السوري الى لبنان ، «كجيش سوري» ،وبقوة وقام ببعض النشاطات في العرقوب (اي جنوبي الليطاني) ، وقررت الدول العربية ارسال قوة امن عربية الى لبنان ٠ وفي هذه المرة كان لدى اسرائيل استعداد للقبول بالتدخل العسكري السوري ، واخذت تصوغ مواقف جديدة ، اكثر عمومية فيـما يتعلق بالتدخل السوري او العربي ، ولكن اكثر تحديدا فيما يتعلق بجنوب لبنان ، الذي يبدو انه اصبح المحط الرئيسي لاهتمامها ٠ فقد صرح يغئال الون ، فيحزيران ١٩٧٦ ، ان اسرائيل لم تتحدث اطلاقا عن « خط احمر » كخط عرض جغرافـــي (يقصد نهر الليطاني) ، بل ان « الخط الاحمر » هو مزيج من عدة عوامل ، كحجم التوغل السوري ، وحجم القوة العربية التي سترسل الى لبنان ٠ ويشمل ايضـا عناصر اخرى كمدة بقاء القوات الاجنبية في لبنان ، وصورة التشكيل الجديـــد لمنظمة التحرير الفلسطينية هناك ، بعد التوصل الى وقف اطـــلاق النار (٢١) ٠ واقتصرت تصريحات المسؤولين الاسرائيليين اللاحقة لهذا التاريخ ، فيما يتعلـق بالتدخل العسكري السوري ، على تحذير سوريا « من التمادي في بسط نفوذها على لبنان ، وبالتالي ضمه باكمله اليها ، او ابتلاع اجزاء منـــه » (٢٢) ، (الون) ، وايضاح ان سوريا وعدت الولايات المتحدة بعدم ادخال قوات سورية الى جنـوب لبنان (٢٣) ، (رابين) ،والتحذير مـن السماح لـ م٠ت٠ف بالعمل ضد اسرائيـل من الاراضي اللبنانية (٢٤) ٠ (دينيتس) ، وقد توصل الصحفي الاسرائيلي ماتي غولان ، في مقالة نشرها في هآرتس اثر التدخل السوري المكثف ، وغياب رد فعـل اسرائيلي معاد له ، الى النتيجة ان « الخـط الاحمر »قد تلاشى عمليا ،وحلتمحله مجموعة مقاييس مطاطة ٠ (٢٥) ٠

وفي صدد تفسير هذا التحول الكامل في الموقف الاسرائيلي بخصوص التدخـل السوري من النقيض الى النقيض ، نجد في متناول اليد التحول المعروف فـــي التوجه السوري في لبنان ، من تحالف مع القوى الوطنية اللبنانية و م٠ ت٠ ف الى استخدام القوات العسكرية السورية لاخضاعهما ، وسحق القـوى المسلحـــة التابعة لهما ٠ونجد ايضا ، بصورة اقل ظهورا ، الموقف الاميركي ، الذي لعب الدور الاساسي في كبح ردود فعل اسرائيلية متطرفة قبل آذار ١٩٧٦ ، اي قبل ان يبدأ التحول في الموقف السوري يتخـذ اشكالا ملموسة ، ولعب دورا هاما بعد ذلك في تطمين الاسرائيليين ٠ ففي تشرين الاول ١٩٧٥ ، حذرت الولايـات المتحـدة

اسرائيل من التدخل في لبنان في حال حدوث تدخل سوري (٢٦) · وفي كانون الثاني ١٩٧٦ ، على اثر دخول قوات جيش التحرير الفلسطيني الى لبنـــان ، رفضت الولايات المتحدة تاييد صيغة تحذير اسرائيلي لسوريا من التدخل في لبنان ، المـــح الى ان الجيش الاسرائيلي قد يرد على خـطوة كهذه (٢٧) · وفي اذار ١٩٧٦ ،في اعقاب انهيار الجيش اللبناني ودخول قوات سورية الى لبنان ، رفضت الولايات المتحدة بعد مشاورات جرت بين المسؤولين في الخارجية الاميركية ومجلس الامـن القومي ، طلبا بان تظهر الولايات المتحدة « نشاطا اكبر في تثبيت الحكم في لبنان ، وحماية النفوذ المسيحي » ، ومارست ضغطـــا على اسرائيـل للمحافظـة على الاعتدال (٢٨) · وكتب ناحوم بارينغ ، مراسل دافار في واشنطن ، في صحيفته ، ان واشنطن طلبت من الحكومة الاسرائيلية « عـدم الادلاء بتصريحات ، وعدم جعـل لبنان موضوعا للدعاية » · واضاف ان الطلب نفذ بصورة او باخرى (٢٩) · وفي حزيران ١٩٧٦ ، في اعقاب الدخـول العسكري السوري المكثف ، كـرر وزيـــر الخارجية الاميركي على مسامع السفير الاسرائيلي في واشنطن التقدير الاميركي « ان اسرائيل تحسن صنعا بعدم التدخل في لبنان ، في هذه المرحلة ، وبالابقاء على الملامح العربية للامور »(٣٠) · وفي اب ١٩٧٦ ، عقب توقيع الاتفاقية بين سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية ، اجتمع كيسنجر بالسفير الاسرائيلي في واشنطن، وحاول ان يبدد مخاوف اسرائيل من سيطرة سوريا على جنوب لبنان ، ومن توقيع اتفاق بين سوريا و هتف يسمح باستئناف الاعمال « التخريبية » عبـر الحـدود اللبنانية · واضافت صحيفة دافار ، التي نشرت هذا النبا ، ان كيسنجر اوضـــح للسفير الاسرائيلي انه ، بحسب التقديرات الاميركية ، لا يوجد احتمال كبير لان يدخل الاتفاق المشار اليه حيز التنفيذ (٣١) · وقد اعترف وزير الدفاع الاسرائيلي، شمعون بيرس ، في مقابلة اجرتها معه صحيفة معاريف في آذار ١٩٧٦ ، بصـورة غير مباشرة ، بالتاثير الهام للموقف الاميركـــي على السياسة الاسرائيلية ازاء احداث لبنان ، عندما اجاب ردا على سؤال واضح ، لماذا اختلف موقف اسرائيل سنة ١٩٧٦ عنه في سنة ١٩٧٠ ، قائلا : « الذي حدث في سنة ١٩٧٠ يختلفتماما عما يحدث الآن · كان هناك ، آنذاك ، تهديـــد سوري للاردن ، وكان الاردنيـون مستعدين للتصدي ومقاومته · وقد وقف الاميركيون الى جانب الاردن ، وفعـلوا اكثر مما صرحوا · واليوم ، كل شيء مختلف · فليس من الواضح تماما ماذا يريد فرنجية · فقد نشأ الانطباع انه بين عرفات والاسد ـ فانه يفضل الاسد ، ولا يلاحظ تحفظ اميركي من محاولات الوساطة السورية » (٣٢) ·

اما بعد آذار ١٩٧٦ ، فبات واضحا ان ضبط النفس الاسرائيلي ، والتوجه نحو القبول بالتدخل السوري ،اخذ يعكس قناعات ذاتية اسرائيلية · فازاء ازديادموجة القلق والتوتر في المستوطنات الاسرائيلية ، نتيجة التطورات في ذلك الشهر ، اعلن بيرس انه على اسرائيل « التصرف بضبط النفس ، وعدم الانجرار وراء عمـــل

متسرع » ، واضاف : « ان التغييرات الاخيرة في لبنان اثبتت ان المصلحة السورية تتناقض مع مصلحة المخربين » (٣٣) · واوضح بعد ايام « انه ليس من الواضح ابدا لاسرائيل نفسها ، بان التدخل من اجل عرفات ، وضـــد فرنجية والاسد ، سيكون سليما ، ولمصلحة قضيتها » (٣٤) · وكتبت دافار في افتتاحيتها ، فـــي ١٢ــ٤ــ٧٦ ، ان « اسرائيل مهتمة ببقاء لبنان ضمن توازن داخلي ما ،وبالمحافظة على سلامة الطائفة المسيحية ونفوذها في تركيب القوى ، وانتخاب رئيس ليبرالي·

وليس بالامكان ضمان كل ذلك ، في ضوء ميزان القوى ، كما اصبح داخـل لبنان · وبحسب جميع الدلائل ، تسعـى سوريا ··· لتحقيق هذه الاهداف »· ونابعـت « انه ما دام هـذا دورها ، وما دامت هذه هي الاهداف السورية ، فـلا مصلحة لاسرائيل في القضاء عـليها »· وربما كان رئيس الحكومة ، اسحـاق رابين ، ابلغ واصرح من الجميع ، عندما صرح «انه على اسرائيـل الا توقـف الثور السوري ، ما دام يدرس عـلى الفلسطينيين » (٣٥) ·

واذا قمنا بمحاولة لتجميع وتركيز التفسيرات الواردة في الصحافة الاسرائيلية لدوافع الموقف الاميركي ، والموقف الاميركي ــ الاسرائيلي المشترك ، فاننا نحصـل عـلى الصورة التالية : رغبة ادارة فورد فـي تجنب الانجرار الى التورط فـــي مغامرة عسكرية في الشرق الاوسط ، خصوصا في سنة الانتخابات الاميركية (٣٦)· التخوف من تعريض الاتفاق المرحلي بين اسرائيل ومصر ، وهو واحد من اهـم انجازات السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، للخـطر (٣٧) ، توقع ان يـؤدي التدخـل السوري في لبنان ، عـلى ضوء الخـلافات العربية (وخصوصا بعـد اصطدام سوريا بالمقاومة الفلسطينية)، الى اضعـاف سوريا ، وهـذا قـــد يجعـلها ، بالتالي ،« مستعـدة للتوقيع عـلى اتفاق اخـر في الجولان بشروط ملائمة » (٣٨) · التقويم الاميركي « بان الاسد ، على الرغم من علاقاته الوثيقـة بالسوفيات ، يتبع سياسة براغماتية متزنة ، تنطوي على تعـاون مع الانظمـــة المحافظة والمعتدلة في العـالم العربي ، مثـل الاردن والسعـودية وعـلى صدام مع الفلسطينيين » (٣٩) ، التوجه السوري ، بعد شباط ١٩٧٦ ، الـــى تدعـيـم الطائفة المارونية والمحافظة عـلى نفوذها في تركيبة القوى اللبنانية الداخلية ، وسد الطريق امام تغيير النظام القديم تغييرا جذريا (٤٠) · التوجه السوري ، بعد اذار ١٩٧٦ ، الى تحجيم المقاومة الفلسطينية ، وضرب قوتهـا العسكريـــة (٤١) · الامل في ان يؤدي التنسيق السوري ــ الاردني ، وجملة التـــطورات الاخرى ، الى تعزيز« امكان حل هاشمي للقضية الفلسطينية · اي دمج الكيـان الفلسطيني (بمـا في ذلك الضفة الغربية) في الاردن ، وليس اقامة دولـــة فلسطينية مستقلة » (٤٢)·

وينبغي الا يفهم من السياق الذي اتبع لعرض الموقف الاميركي ، والمعلومات

الوردة حوله ، ان الولايات المتحدة كانت جازمة ان سوريا ستقـــدم ، فـــي مرحلة متقدمة من الحـرب اللبنانية ،عـلى ضرب المقاومة والحركة الوطنيـــة اللبنانية ، وبالتالي شجعت تدخلها العسكري وعملت على ازالة « العراقيـــل » الاسرائيلية من طريقه ، او انه كان هناك تامر خفي بين الولايات المتحدة وسوريا لتحقيق ذلك · فقد مرت فترات وجهت فيهـا الولايات المتحـدة الى سوريا ايضا تحذيرات شديدة من التدخـل العسكري في لبنان ، والارجح ان سوريا انساقـت الى سلوك الطريق الذي اتبعته لاعتبارات لا نرغب هنا في المخوض فيها ، منهـــا الرغبة في الحصول على « الضوء الاخضر » الاميركي ، وبالتالي الاسرائيلـي ، لاكمال الشوط الذي بدأت السير فيه ·

ولكن اذا كانت اسرائيل قد ابدت مرونة بخصوص موضوع التدخل العسكري السوري ، فان موقفهـا بخصوص موضوع جنوب لبنان ، وامكان عـــــودة الفدائيين الى ممارسة نشاطهم من الاراضي اللبنانية ضدها ، اتسم بالتشـــدد والتصعـيد · وزاد من خـطورة هذا الموقف اقدام اسرائيل في الجنوب عـلـى ممارسة نشاطات عـسكرية واقتصادية وسياسية مكشوفة توقت خلق وضـــع جديد في الجنوب يخـدم اهدافها · وسنقتصر هنا عـلى عرض الموقـــف الاسرائيلي الرسمي من موضوع الجنوب والنشاط الفدائي من لبنان ضـــد اسرائيل ، عـلى أن نتطرق للنشاطات العملية لاحقا ، في سيـاق الحديـث عن الدور الاسرائيلي · ففي كانون الثاني ١٩٧٦ ، فـي اعـقـاب دخـول قوات من جيش التحرير الفلسطيني الى لبنان ، اعـلن وزير الخارجية ، يغـئـال الون ، في الكنيست « انه قد ازداد خطر ان تحاول منظمات الارهاب والتخريـب السيطرة عـلى الجزء الجنوبي من لبنان »، و« اننا لن نسلم بهـذا الخـطر ، ولن نتجاهله اذا تجسد » و« سنستمر في الاحتفاظ بحقنا في الاقدام عـلـــى الخطوات اللازمة ، بحسب ما تفرضه الظـــروف ، مـــن اجـل ضمانـــة مصالحنا الامنية في مناطق الحدود ، وسلامـــة سكانهـا » (٤٣) · وفـــي حزيران ١٩٧٦ ، عـاد الون فصرح «ان اسرائيل لا تستطيـع ، باية حـــال ، الموافقة عـلى اعـادة تشكيل المخربين فيلبنان ، بعد انتهاء المعـارك ، ولـــن نسلم بتجدد اعمالهم ضدنا » · واضاف « ان اسرائيل لن تتحمل ايـــة عـــودة لفترة المواجهة مع المخربين على طول الحدود اللبنانية » · (معاريـــف ١٥/٦/ ٧٦) · وفي ايلول ١٩٧٦ ، كرر الون الموقف نفسه بتشديد اكبر قائلا « انـــه يجب ان يكون واضحـا ، دون اي ظل لشك ، ان اسرائيل لن تسمح بحـــل الصراع الداخـلي اللبناني عـن طريق تفويض هتف بالسماح لها بالعمل ضد اسرائيل من الاراضي اللبنانية · ومن المحظور السماح لـ هتف بالسيطرة مـن جديد على مناطق او قواعـد قريبة من الحدود ، بغرض ممارسة نشاط ضـــد اسرائيل · واعتقد ان سياستنا ، حتى الان ، تكسبنا رصيدا كافيا لان يجعـل رد فعـلنا مفهوما اذا حاولت هتف اعادة الوضع الى صورته السابقـــة » ·

٠٠٠ فالوضع الذي كان قائما في السابق لـن يعود بعد » (٤٤) ٠ اما شمعـون بيرس ، فقـد صرح من ناحيته ، في اب ١٩٧٦ ، ان الحدود مع لبنان هـي الحدود الاسرائيلية الوحيدة والثابتة والمعترف بها دوليا ، وان هناك « فراغـا عسكريا » في جنوب لبنان ، و« قد قام نموذج للتعايش ، مفعـم بالتفاهم والتقدير المتبادلين بين سكان اسرائيل ، وسكان جنوب لبنان »(٤٥) ٠ واوضح لاحـقا « ان تقلص وجود هتف في المنطقة ترجمتـه اسرائيل الى نموذج مدروس للجوار ٠٠٠ وتبين ان السكان يريدون عـلائق تختلف عـن تلك التي فرضت عـليهـم من فوق ، ومن قبل عـناصر خارجية »٠ واضاف« ان في وسع لبنان التأكد ان اسرائيل ستمكنه ٠٠٠ من التخلص من القاس التي تسلطها عليه هتف » (٤٦)٠ وعـاد بيرس فكرر ، بعـد مؤتمر القمة العربية في القاهرة ، ان اسرائيل تعترف بحدود لبنان ولا تنوي تغييرها ، ولكنها ستنظر بخطورة شديدة جدا الى دخـول «مخربين» الى جنوب لبنان ، وستبذل اقصى جهدها لكي يستمر الوضـع الحالـي فيه ٠(٤٧) ٠

ومغزى تصريحات بيرس الاخـيرة هذه هو ان اسرائيل لم تعـد تكتف حتـى بمنع الفدائيين من العـودة الى الجنوب ، وانما تتطلع الى تثبيت « الوضـع الحالي »، الذي تسيطر فيه الميليشيات الانعـزالية عـلى معظم الجنوب اللبناني، وتقوم في اطاره شبكة من العـلاقات بين اسرائيل وقطاع كبير من السكان٠

هذا بخصوص الموقف ازاء الوضع في الجنوب ٠ وتبقى امامنا مسالة تتعلق بالموقف الاسرائيلي العـام ، لا يكتمـل فهمنا لدور اسرائيل دون توضيحهـا ، وهي انه وجدت هناك ، في الحقيقة ،طوال فترة الحـرب ، اوساط سياسيـة واسعـة لم تكن مرتاحـة لتسليم اسرائيل بالتدخـل العسكـري السوري ، او ساورتها الشكوك حول الرضى الذي ساد الاوساط الحاكمة في اسرائيل نتيجـة التطورات في لبنان ٠ وقد عرضت رئيسة تحرير صحيفة دافار، منازيمر ،في مقال نشر مؤخـرا ، الاسباب التي تجعـل من هـذا الرضى،بحسب رأيها امـرا مشكوكا في سلامته ، فقالت ان المركز المتفوق الذي اكتسبته سوريا في لبنـان ينطوي عـلى مغزى عسكري واضح ، ليس ايجابيا من زاوية اسرائيل في حـال مواجهة مع سوريا ، وبشكل تحولا نحـو الاسوأ في وضع اسرائيل الاستراتيجي عـلى الحدود الشمالية ، وانه ليس هناك اساس للافتراض ان سوريا ستـرى نفسها ملزمة بتقديم مقابل لاسرائيل من نوع اتفاقية سيناء ، وانه مقابل الوضـع العسكري الخطير الذي سيقت اليه هتف ، اكتسبت قواتها خبرة عسكريـة عملياتية ، في وحدات نظامية مقابل وحدات نظامية ، وهي خبرة لم تكن لديهـا من قبل ، وان المشكلة الفلسطينية لم تصغر نتيجة حرب لبنان ، بل على العكس ، ازداد الدافع العربي لايجـاد حـل سياسي للمشكلة ، وسيشغـل مكانة اعـلى في سلم الافضليات العربية مما كان في السابق ، واخيرا ان احساس الفلسطينيين

بانهم مواطنون من الدرجة الثانية فـي كل مكان في العـالم العربي قد ازداد نتيجة الحرب ، وان المعاناة والهزائم والمواجهات لا بد وان تكون ادت الـــى تقوية تميزهم القومي واحساسهم بهويتهم المستقلة ـ وكل هذا ليس « حسنـــا لليهود (٤٨) » ٠

الدور الاسرائيلي

قد يكون من المستحيل في الفترة الراهنة ، وربما لسنوات طويلة قادمـــة ، الاحاطة الشاملة بالـدور الذي لعبته اسرائيل في الحرب اللبنانية ، او معرفة جميع تفاصيله ٠ وعـندما نتحـدث عـن الدور الاسرائيلي هنا ، فاننا نعـني بذلك بعض الخطوط العامة ، وما كشف الستار عـنه ٠ ونبتـديء بالاعـم ، ثم ننتقل الى الاخص ٠

اننا نعتقد ، دون الدخـول فـي الشرح ، ان الموقف الاسرائيلي ، في حـد ذاته ، لعـب دورا هاما فـي تطور التوجـه السوري فـيلبنان عـلى النحـو المفجع الذي ال اليه ٠ كما تشير الدلائـل الى ان الموقف الاسرائيلـي ردع ، وسيردع اجمالا ، السوريين عـن الدخـول الى جنوب لبنان٠

ولكن هـذا يظل تدخـلا غـير مباشر ، والاخطر منه التدخـل المباشر عـلى صعـيد المساعـدة العسكرية التي قدمتهـا اسرائيل للفريق الانعزالـي عموما ، وللقوى الانعزالية في الجنوب خصوصا ، اضافة الى المخطط الجاري تنفيـذه حتى الان في جنوبي لبنان ، وباشراف مباشر من الاسرائيليين ، وتنسيق معهم ٠

لقد حرصت اسرائيل عـلى احاطة موضوع التعـاون العسكري مع الفريق الانعزالي بالكتمان الشديد ، ويبدو ان هناك رقابة عـلى الصحف الاسرائيليـة بهذا الخصوص ، اذ تنشر الصحف الاسرائيلية انباء هذا التعـاون دومـــا نقلا عن الصحف الاجنبية ، ودون اضافات ٠ وقد بدأت الصحف الاجنبيـــة ، اعتبارا من اب ١٩٧٦ بالاخبار عن هذا التعاون واشكاله ٠ اتخذت المساعـدة العسكرية الاسرائيلية للفريق الانعـزالي الاشكال التالية : التعـاون مع القوات البحرية السورية والانعزالية في فرض حصار بحري على مرفأي صور وصيدا ، لقطع طرق امداد الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية بالسلاح والذخيرة والمواد الحيويه ٠ وقد تم في نطاق هـذا الحصار مهاجمة واسر واغـراق العديد من السفن بواسطة سلاح البحرية الاسرائيلية (٤٩) ، امداد الفريق الانعـزالـــي بالسلاح والذخيرة والاعتدة الحربية ، واقامة دورات تدريبية لتشكيلات وافـــراد تابعين للقوات الانعـزالية داخـل اسرائيل (٥٠) ٠ مساعـدة تشكيلات وافـراد تابعـين للقوات الانعـزالية على الانتقال من مناطق السيطرة الانعـزالية فـي

وسط لبنان وشماله الى جنوبه عن طريق البحر ـ اسرائيل الجنـــوب (٥١)، الاجتماع بقادة الفريق الانعـزالي من اجل التنسيق ووضع الخـــطط (٥٢) ، مساندة هجمات القوى الانعزالية في الجنوب عـلى قرى الحركة الوطنية وثكنات جيش لبنان العربي بالمدفعية ، وربمـا بالاليات والجنود (٥٣) ٠

اما بالنسبة لجنوب لبنان فتمارس فيه اسرائيل نشاطا ذا شقين : الشق الاول يندرج تحت ما اصطلح عـلى تسميته « بالسياج الطيب »، والشق الثاني استهدف بناء قوة عسكرية مشكلة من القوى الانعـزالية المحلية لملء « الفراغ العسكري» في الجنوب ، ومساعدة هذه القوة على السيطرة على الجنوب باكمله ٠

وقد قدمت اسرائيل في سياسة « السياج الطيب » خدمات طبية ومعونـــات غذائية وسمحت للمزارعين اللبنانيين ببيع التبغ داخل اسرائيل ، وللتجار بشراء المواد التموينية والسلع الحيوية الاخرى وفتحت امام الراغبين مجالا للعمل في اسرائيل ثم مجال الزيارة ٠ وقد ركزت اسرائيل في دعايتها على الدوافع الانسانية التي حـدت بها الى فتح بوابات « السياج إللطيف » امام اللبنانيين المحتاجين الى المعونة ، ولكن وزير التجارة والصناعة ،حاييم بارليف ، اعترف ان لاسرائيل مصلحـــة سياسية في مساعدة «جيرانها» (٥٤) ٠ وكان اتيان هيفـر ، احـــد كتـــاب صحيفة « يديعـوت احرونوت »، اكثر صراحـة عـندما قال « انه مع كل الاحترام والتقدير للجانب الاخـلاقي ـ الانساني ، الذي تنطوي عـليه المساعـــدة لقرى جنوب لبنان ، فليس العـلاج الطبـي ، والعـمل ، والتموين ، وحتـــى البريد وزيارات الاقارب ، الا منتوجات فرعية ، والهدف الحقيقي ٠٠٠ هـــو خلق وضع جديد في المنطقة ، عـلى الحدود الفاصلة بين الدولتيـن (٥٥) » ٠ وصاغ يوئيل ماركوس ، من كتاب صحيفة «هارتس » ، بدقة اكثـر الهـدف الاسرائيلي من وراء سياسة « السياج الطيب » بقوله : « وفي المرحلـة الثالثة، شنت اسرائيل ٠٠٠ حملة مكافحة الفلسطنة في القطاع اللبناني المجاور للحدود الاسرائيلية ، مكافحة الفلسطنه ، اساسا ، في مشاعـر سكان المنطقة وتفكيرهم، وبينهم مسلمون معتدلون ابدوا استعدادا للتجاوب مع حملة من هـذا النـــوع ٠ وقد افادنا « السياج الطيب » على الصعـيد العـالمي ، ولكن اهميته الجوهريـة تكمن ، في الواقع ، فـي الالتزام الثنائي الذي تشكل على جانبي الحـــدود، للمستقبل (٥٦) » ٠

وفي مجال بناء القوة العسكرية الانعـزالية ، صرح وزير الدفاع ، شمعـــون بيرس ، في اوائـل تشرين الثاني ١٩٧٦ ، انه اصبح للمسيحيين والشيعـة في جنوب لبنان جيش تعداده حوالي الفي جندي ٠ واضاف ان هذه القـوة معنيـــة بالمحافظة على جنوب لبنان «نظيفا» من المخربين ، وهي قادرة عـلى فعل ذلك ، وعلى تحويل هـذه المنطقة الى حاجز امام التدخل الاجنبي التخريبي والسوري٠ واوضح بيرس انه من الهـام جدا الامتناع عـن خـلق الانطباع بان هذا الجيش

يعـمل بتوجيهات اسرائيلية (٥٧) ٠

ان هـذه التصريحات والكتابات ، اضافة الى التصريحات التي اقتبسناهـا اعـلاه من الموقف الاسرائيلي تجاه الوضع في جنوب لبنان ، توضح الهـدف الرئيسي من وراء النشاط الاسرائيلي في الجنوب ـ خلق منطقة تعايش سلمـي اخرى مع اسرائيل في جنوب لبنان ، واقامة حاجز امني في وجه الفدائيـين الفلسطينيين ، مشكل من قوة عسكرية محلية فعـلية ، وقائـم على شبكة علاقـات متشعبة تشتمل على الالتزام بابعاد الفدائيين ،وحتى السوريين عنالحدودويمكن القول ان استكمال تحقيق هذاالهدف،سيكون المجال الرئيسي الذي سينصب عليه اهتمام اسرائيل في المرحلة القادمة ، بينما القوات السورية مشغولة باحكـام طوق « السلام العربي » عـلى لبنان ٠

المصادر

(١) يديعوت احرونوت، ١٩٧٦/٩/٢٠ ٠
(٢) معاريف ، ٧٥/١٠/١٥ ٠
(٣) هارتس ، ٧٥/١٠/١٦ ٠
(٤) هارتس ، ٧٥/١٠/٣١ ٠
(٥) هارتس ، ٧٥/١١/٢ ٠
(٦) معاريف ، ٧٥/١١/٣ ٠
(٧) هارتس ، ٧٥/١١/٣ـ زئيفشيف
(٨) هارتس ، ٧٥/١١/٢ ٠
(٩) عال همشمار ، ٧٦/١/٢ ٠
(١٠) معاريف ، ٧٦/١/٢١ ٠
(١١) معاريف ، ٧٦/١/٢٢ ٠
(١٢) عال همشمار ، ٧٦/١/٢ ٠
(١٣) معاريف ، ٧٦/١/٨ ٠
(١٤) عال همشمار ، ٧٦/١/١١ ٠
(١٥) يديعوت احرونوت ، ٠٧٦/١/٢١
(١٦) معاريف ، ٧٦/١/٢٢ ٠
(١٧) دافار ، ٧٦/١/٢٥ ٠
(١٨) هارتس ، ٧٦/١/٢٩ ٠
(١٩) معاريف ، ٧٦/٣/٢٤ ٠
(٢٠) هارتس ، ٧٦/٤/٧ ٠
(٢١) معاريف ، ٧٦/٦/١٥ ٠
(٢٢) هارتس ٧٦/٧/١٦ ٠
(٢٣) دافار ، ٧٦/١١/٣ ٠
(٢٤) دافار ، ٧٦/٧/٣٠ ٠
(٢٥) هارتس ، ٧٦/٦/١١ ٠
(٢٦) هارتس ، ٧٥/١٠/٢٠ ٠
(٢٧) هـارتس ، ٧٦/١/٢٣ ـ دان مرغليت ٠
(٢٨) دافار ، ٧٦/٣/٣٠ ٠
(٢٩) دافار ، ٧٦/٤/٢ ٠
(٣٠) يديعوت احرونوت ، ٧٦/٦/١٦ ـ نسيم كويتي
(٣١) دافار ، ٧٦/٨/١ ٠
(٣٢) معاريف ، ٧٦/٣/٢٦ ٠
(٣٣) يديعوت احرونوت ، ٠٧٦/٣/٢٢
(٣٤) معاريف ، ٧٦/٣/٢٦ ٠
(٣٥) هارتس ، ٧٦/٦/١١ ـ ماتي غولان ٠
(٣٦) هارتس ، ٧٦/٤/٢ ـ يوئـيل ماركوس
(٣٧) هارتس ، ٧٥/١١/٣ ، زئيـف شيف ٠
(٣٨) هارتس ٧٦/٦/١١ ـ ماتي غولان
(٣٩) هارتس ، ٧٦/٨/٣ ٠
(٤٠) دافار ، ٧٦/٤/١٢ ٠
(٤١) عال همشمار ، ٧٦/٩/١٥ ـ مردخاي غور
(٤٢) هارتس ، ٧٦/٩/٥ ـ زئيفشيف
(٤٣) هارتس ، ٧٦/١/٢٩ ٠
(٤٤) دافار ، ٧٦/٩/٢٤ ٠
(٤٥) يديعوت احرونوت ، ٠٧٦/٨/٢٥
(٤٦) عال همشمار ، ٧٦/٨/٢٧ ٠

(٤٧)دافار ، ٣/١١/٧٦ ٠
(٤٨) دافار ، ٢٢/١٠/٧٦ ٠
ـ اتيان هيفر ٠
(٥٠) هتايم (الاميركية) ، ١٣/٩/٧٦،
هشترن (الالمانية) ١٢/٨/٧٦ ٠
(٥١) المصدر السابق ٠

(٥٢) « تايم » ، ١٣/٩/٧٦ ٠
(٥٤) عال همشمار ، ١٢/٨/٧٦ ٠
(٥٣) المصدر السابق ٠
(٥٥) يديعوت احرونوت ، ٥/٩/٧٦ ٠
(٥٦) هارتس ، ١٠/٩/٧٦ ٠
(٥٧) دافار ، ٣/١١/٧٦ ٠

الأفكار والتحالفات ، والمبادئ والمناورات

محجوب عمر

النضال الفلسطيني القومي ينمو عاما بعد عام ، ويتسع ليشمل اليوم العالم كله ..

وبينما يتركز الجهد المسلح العنيف من هذا النضال على ارض فلسطين المحتلة ، ويتناثر هنا وهناك احيانا ، فان الجهد السياسي والفكري لا يتوقف عند حدود الارض المحتلة وانما يتخطاها الى كل مكان حيث يعيش العرب ،وحيث ينتشرون في ارجاء الارض ، وحيث تسعى قوى الثورة الفلسطينية الى ضم كل الجهود المؤيدة لها ، حولها ، على اختلاف درجات هذا التأييد وتنوعه ودوافعه..

وكلما تقدم النضال كلما ازددنا تعلما ، وازددنا حاجة الى التعلم . فنحن لا شك نؤثر بنضالنا فيما حولنا ، ولكننا ايضا لا بد نتاثر في نضالنا بما حولنا ..

فمع اتساع الجبهة العريضة العربية والعالمية التي تناصر قضية فلسطين وتشارك في نضالها بشكل او بآخر ، تطرح عشرات الاسئلة والقضايا السياسية الفكرية نفسها امام المناضلين ، يطرحها احيانا حلفاء مخلصون واحيانا اخرى وسطاء محايدون .

وتتعدد الاجتهادات للاجابة على الاسئلة المطروحة ، وتبرز الاختلافات في وجهات النظر ، ويصبح حيويا ان لا تؤدي هذه الاختلافات الى تفتيت الجهود ، بل على العكس تكون محاولة الوصول الى اجابة واضحة وصحيحة سبيلا

الى مزيد من توحيد الجهود ..

بذلك يزداد الفكر الثوري تعمقا ووضوحا ، كما تزداد الارادة الثوريـــــة وحدة وتصميما ..

★ ★

من بين عشرات القضايا والاسئلة الفكرية فان هذا المقال سيتوجـــه لمسالتين منها فقط ، تتعلقان بما تتعرض له الافكار والمبادىء ، النشاط اليومي وبالذات فيما يخص التحالفات والمناورات ٠

فلا شك ان الاجتهاد التجريبي يحكم معظـــم التصرفات والاجراءات للعديد من قوى الثورة الفلسطينية على تلك الساحات والافاق الجديـــدة التي انفتحت امامنا بعد الانتصارات التي حققناها ٠ فقد اتسعت رقعة التحالفات وانصداقـــات لتشمـــل قـــوى معـــادية للصهيونيـــة وان لـــم تكن معادية للكيان الصهيوني نفسه ، وقوى معـــادية للكيـــان الصهيونـــي وان لم تكن حتى الان مقتنعة بامكان الانتصار عليه ، وقوى اخرى واخرى ، نجح نضالنا المسلح المستمر المنتصر ان يفرض عليها وعلى جداول اعمالها قضية فلسطين ، وان يحاول كل منهم ، من موقع انتصاره لنا ، ان يطرح ما يراه من حلول وبرامج هي ، وان لـم تكن فـي مستوى ما نطرح نحن ، كسب لنـــا لا شك ، فقد كانت كل هذه القوى تقريبا تناصر عدونا او تسلـــم بوجـوده يأسا من جهودنا ٠

لقد **انتصرنا** اذن ، وفتحنا بابا واسعا للتحالف مع اوسع القـــوى المعارضة للاستعمار والمعارضة للعنصرية والمناضلة من اجل التحرر الوطني بل وتلك التي تأبى عليها برامجها الاصلاحية ان تقف موقف اللامبالاة من نضال جماهيري مسلح يشغل بال العالم ليل نهار الا وهو نضال الشعب العربـــي الفلسطيني من اجل استعادة وطنه فلسطين ٠

كل هذه القوى على اختلافها وتنوعها تحمل افكارا مختلفة عن بعضها وعنا ، ولهـــا ايضـــا دوافـــع مختلفـــة عـــن بعضهـــا وعـــن دوافعنا ، ولما كان **واجبنا هو ان نعمق التحالف والصداقة مع هذه القـــوى كلها** ، فان مسالة « **الفكر والتحالفات** » تطرح نفسها بشدة ، بـل ان قـــوى كثيرة تجتهد الان اجتهاداتها الخاصة لحـل ما يترتب عـلى اختلاف الافكار من اختلاف في المواقف وتاثير ذلك عـلى التحالف القائم بالفعـل فقـــط او

بالاتفاق والفعـل معـا ٠

مسالة ثانية تطرح نفسها بشدة خصوصا بعد حرب اكتوبر / تشرين ١٩٧٣٠ تلك هي مسالة المناورة «بالمباديء» والتي وصلت الى درجة دفعت بعـض القوى والتنظيمات لتغيير برامجها الاساسية واستبدالهـا ببرامج جديدة غامضـــــة العبارات ٠ تخلو من الشعارات والمباديء الواضحة التي سبق لهـا ان تبنتها ٠ان مسالة « **المباديء والمناورات** » تبرز في ظل شيوع الاسلوب « **البراجماتـــي** » في عـالم السياسة الدولية اساسا بحيث اصبحنا نسمع ونقرأ همسا وعلنـــا تبريرات التنازل عـن المباديء باعتبارها «شطارة» او «تكتكة » والهجـوم عـلـى المتمسكين بها باعتبارهم شعراء او مثاليين او غـير عـمليين ٠

هذه هي القضايا الفكرية التي سيحاول هذا المقال التعرضـــن لها فـــي محاولة لمزيد من الاتفاق او على الاقل مزيد من الوضوح ٠

* *

اولا : الفكـر ٠٠٠ والتحالفات :

ان كلمة **تحالف** تعني في نفس الوقت **اختلافا** ٠٠٠

اذ لولا وجود قوى **مختلفة** المصالح والدوافـع وبالتالي **مختلفة الافكار** لما تطلب الامر تحالفا بينها ضد عـدو مشترك لها جميعـا يهددها ويهدد مصالحهـا مجتمعة ٠

فلو كانت القوى المتعـددة التي تشترك فقط في معـاداة عـدو واحد لو كانت هذه القوى ذات مصالـح واحـدة واصول ودوافـع واحدة لما احتاجت الـــى « تحالف » لكي تنسق جهودها معا ضد هذا العدو بل توجهت الى وحدة اندماجية فيما بينها ٠

بمعنى آخر لو ان « المصلحة » واحدة ، والدافع واحد ، والظرف واحد لكل من هذه القوى المتحالفة ، لكان مستقبل تحالفها هو اندماج وانصهار فيما

★ تستخدم عبارة التحالف والتحالفات في هـذا المقال بتحفظ بالنسبة للمعـنى الشائع لها ٠ اذ من الضروري التفريق بينها وبين الصداقة والتقاء المصالح مؤقتا التي تعـطـي مدلولا ادق عـلى مواقع عـلاقات الثورة مع البلدان والشعوب والقوى غـير العربية ٠

بينها او انتصار لواحدة منها على غيرها بحيث ينتهي من يرفض هذه الوحدة وتنفض عنه الجماهير لتلتف حول « القوة » الانسب والاقدر والاكفأ والاسلم ممارسة ·

الحديث الى هنا . سهل ، وواضح ، ولا خلاف عليه ·

ولكن المشكلة تبدأ عند وضع هذه الصيغة في التطبيق ، فكما ذكرنا يؤثر « الفكر » الداعي الى التحالف في افكار الحلفاء ويتأثر بها ايضا خلال العمل اليومي · وينعكس هذا التأثير على افكار العاملين بها مع العاملين بافكار اخرى ، وتبرز اتجاهات تدعو الى **مهادنة فكرية** ، تتمشى مع التحالف السياسي والعملي · وتكون هذه الدعوات ثغرة خطيرة في « افكار » المناضلين تؤدي الى عدم التشدد في جلاء ووضوح الافكار والتمييز بينها والحفاظ على تمايزها · وينتهي هذا التمييع الى انحراف الخط السليم وفقدانه القدرة القيادية في التحالف ولان يصبح « ذيلا » لقوى اخرى هي الاقل منه تعبيرا عن المصلحة، ونضالا من اجل الهدف ووضوحا في الطريق الى تحقيقه ··

ولنضرب امثلة على ذلك ·· ان قوى الثورة الفلسطينية مثلا تؤمن بتحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني بحرب الشعب الطويلة الامد · ولكن فكرة تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني هذه ، فكرة **متقدمة** على كثير من القوى السياسية الحليفة سواء في الساحة العربية او الساحة الدولية · ان بعض القوى الحليفة يرى ـ لاسباب ودوافع مختلفة ـ « ان من الضروري ضمان امن دول وشعوب المنطقة وبالذات اسرائيل » وفي نفس الوقت يؤيد نضال الشعب الفلسطيني من اجل « استعادة حقوقه المشروعة » · مثل هذه العبارات تصلح لان تكون حدا ادنى للاتفاق على مواقف سياسية معينة ضد العدو الصهيوني وضد الاستعمار الاميركي ولكنها بالتأكيد ما تزال شديدة التخلف عما يفكر به الثوار العرب ، وما وصلوا اليه بنضالهم ·· لذلك يتوجب التحالف بين قوى الثورة الفلسطينية وبين مثل هذه القوى ولكن في نفس الوقت يجب ان **تشدد** قوى الثورة الفلسطينية من التأكيد على **افكارها وبرامجها الكاملة** دون اي تردد او تهاون ، والا فان الجماهير والمناضلين سيفقدون السلاح الاساسي في سبيل النصر عندما يفقدون وضوح الافكار والاهداف التي يضحون من اجلها ··

ان تعميق وتأكيد **الافكار الصحيحة** داخل التنظيم الثوري ، وتوضيح ملاحظاتنا النقدية على افكار الحلفاء من شأنه رفع القدرة على القتال والتضحية وايضا تأكيد مبدأ **الاعتماد على النفس والاستقلالية** · وهو موقف سيحترمه ولا شك الحليف ـ حتى وان اختلف معنا في افكارنا ـ كما سيساهم مع استمرار

النضال في تطوير مواقف الحلفاء الى الامام ·

وفي كل الاحوال فان « المحفاظ على اسلحتنا الفكرية قوية وحادة » وابـــداء الملاحظات النقدية الاخوية على افكار الحلفاء يتم ـ ويجب ان يتـــم ـ بـروح دعم وحدة الموقف العملي اي دعم التحالف ، لا بروح العداء والانشقاق ··

ولنضرب مثلا اخر ·· نحن نؤمن بأن حرب الشعب طويلة الامد هـــي طريق تحرير فلسطين ·· ولكن كثيرا من القوى ، وعلى الاخص العربية منها، لا تؤمن بهذا الطريق ، بل تخشاه لانها تخشى الجماهير المسلحة ، وهي تبني جيوشا نظامية ليست مهمتها الوحيدة الحرب ضد العدو الصهيوني ، وانما لها مهمة اخرى هي حماية النظام المعين · وكثيرا ما يسخـر منظروا هذه النظم من فكرة حرب الشعب طويلة الامد ، ودائما ما تلجأ هذه النظم الى تجريد الجماهير من سلاحها ·· ومع ذلك فطالما هناك جانب من كل ما يفعلون يتعلق بالحرب ضد العدو الصهيوني فان من مهامنا العمل على ان يتحقق هذا الجانب وان تقوم الجيوش العربية بهذه المهمة · عندئذ تكون معنا في خندق واحد ضد العدو الصهيوني · في هذه اللحظات بالذات ، عندما تخطف الطائـــرات والدبابـات والصواريخ واجهزة الاعلام الضخمة انظار الجماهير ، وتبدو الجيوش والحرب النظامية السريعة القصيرة مؤثرة وفعالة ، فان علينا ان نشدد من تأكيدنا على فكرة « حرب الشعب » وان نمارسها بشجاعة ، ونتمسك بها بثقة ، وان نذكـر قواعدنا وانصارنا وجماهيرنا دائما بان مثل هذه « الحرب النظامية الخاطفة » لا يمكن الا ان تكون «محدودة» · وان الحرب التي لا حدود لها الا التحريـــر الكامل هي « حرب الشعب » وحدها · ذلك دون ان نقلل من ايجابيات اشتـــراك الجيوش في الحرب ومن ايجابيات الحرب نفسها ·

وهكذا ، فليس اعمق من التحالف القتالي في خندق واحد ، ومـــع ذلـــك فـان التحالف القتالي لا يجب ان يؤدي الى التهاون ولو للحظة واحدة فيما يخص افكارنا الاساسية · فستتوقف الحرب النظامية وستستمر حرب الشعب فـــان تهاونا في افكارنا فكاننا نتهاون في اهدافنا ··

ان اي تحالف عملي ، او حتى تهادن تفرضه الظروف ، لا يعني ولا يجب ان يؤدي الى ما يمكن ان يسمى « بالتحالف الفكري » وهو امر مستحيلولاالى التهادن الفكري وهو الاستسلام بعينه ·

★ ★

ثانيا : المبادىء والمناورات :

الثورة حرب ، وللحرب اسلحتها · واهم اسلحة الحرب الثـــورة هـــــي المبادىء والشعارات العامة التي يحارب من اجلها الثوار ·· وكلما كـــان تحديد هذه المبادىء والشعارات العامة صحيحا كلما كانت أقوى وامضى · والمبدأ الصحيح يفوق في قوته كل سلاح ، وكل قوة العدو ، ذلك ان قوة العدو انما تأتي من تفتت صفوف الجماهير المضطهدة ، **والمبدأ الصحيح هو الـــذي يوحدها** لتصبح اقوى منه وتنتصر ·· فالمبدأ الصحيح هو المعبر عن **القضيـة العادلة** بلا شك ، ولكن ذلك لا يتم في لحظة ، وانما هو معركة طويلة تتم خلال تعبئة طاقات الجماهير وتوحيدها · وتوسيع نطاق التحالفات وتنسيق جهودها حول الثورة ، وتحييد قوى كثيرة عند لحظة انطلاق الثورة متعاطفـــة او ذات مصالح متشابكة مع العدو · يتم شق صفوف العدو لنفسه بحيث تنقلب الموازيـن في النهاية لصالح قوى الثورة ، ويقف العدو وحيدا معزولا وضعيـــفا ·· فيهـزم ·

بكلمات اخرى ان المبدأ الصحيح سيمكن الثوار من توسيع **وتوحيد جهود الاصدقاء ، وشق واضعاف صفوف الاعداء ··**

وفي البداية ، عند الانطلاق ، يكون الثوار قلة ، ولكن ايمانهـــم بالمبـــدا الصحيح الذي يحملونه يجعل لهم قوة تتحمل ما يواجههم به العدو من محاولات ابادة ، فالعدو في باديء الامر يرفض حتى مجرد الاقرار بان ثمة ثوارا يطالبون بحق الشعب ··

ولكن مع نمو النضال وتطوره واتساعه يلجأ العدو ـ مجبرابطبيعـــة الحال ـ الى استخدام اساليب متنوعة لمواجهة الثورة النامية ، فعندما تنتشـر المباديء والشعارات العامة بين الناس ، وتكتسب قوة فعـالة بتحركهم وتـزداد صفوف الثوار عددا وعدة ، يلجأ العدو بسرعة الى محاولة نزع هذا السـلاح القوي من ايدي الجماهير ،اي الى محاولة اسقاط الشعـار العـام الصحيـح ، واضعاف ثقة الجماهير في امكان تحقيقه او حتى في صحته ·· وفي نفـس الوقت يلجأ العدو للمناورة كي يتخلى الثوار عن مبادئهم وشعاراتهم العامـــة ملوحا بتنازلات مختلفة ان هم تخلوا عن هذه الشعارات ··

والذي ، يجعل الامر معقدا وصعبا امام الثوار هـو ان العـدو عندما يلجأ الى فرض هذه الوسائل فانه ليس فقط يثير بين صفوف قوى الثورة نفسها جدالا حول امكان قبول عروضه،وانما هو ايضايسعى لعزلهاعنتلك القوىالتيتحالفالثوار

ولكنها صاحبة مصالح مختلفة عنها . او التـي لا تتمتع بالنفس الطويـل فـــي الحرب الطويلة او التي كانت في البدء تتعاطف مع العدو ثم غيـر النضـــال ونموه مواقفها • اي باختصار بعض القـــوى التي لـم تزل بعد بحكم مصالحها، لا تتفق مع الثوار حول كل المبادىء والشعارات العامـــة ، وان ايدتهم فـــي بعضها •• والعـدو في كل الاحوال يسعى بمحاولاته هذه لوقف الحـرب « كشرط من شروطه لبدء المساومة » •

في مثل هذه الاحوال تعلو اصوات من داخل قوى الثورة تطالب بمناقشة « عـروض » العـــدو ، وربما كانت عروض من اصدقاء في نفس الوقت ، مدفوعـــة الى ذلك بدوافع مختلفة لا مجال لنقاشها ، ولكنها تبرر موقفها بضرورة « المناورة » ، وبالهجوم على « الجامدين والمتطرفين » •• الخ •

وهكذا فان وقع الثوار في الفخ تخلوا عن شعاراتهم الصحيحة الواضحـة واوقفوا في نفس الوقت حربهم •• فانهم سيفقدون على الفور قوتهم الا وهـي الجماهير التي التفت حول شعاراتهم ونضالاتهم ••

ان الاصوات التي تدعو من داخل « التحالف الثوري » الى المنـــاورة بالمبادىء تغلف حججها على الدوام بان « السياســـة هي فن الممكن » ، وان «المناورة» ليست وسيلة مرفوضة بـل هي ضرورية ، وان موازين القـــــوى ليست في صالحنا مثلا •• وهكذا ••

ولنلاحظ ان هذه الحجج جميعا تنطلق من يأس من امكان تغييـــر الواقـع، ومن قصر نفس لا يمكن لاصحابه تحمل الطريق الطويل ومشاقه ، والاخطر مـن ذلك ان مثل هذه الدعوات تؤكد عدم ايمان الداعين بهـــا بحتمية النصـــــر النهائي على العدو اي عدم ايمانهم بالمبادىء والشعارات العامة التي يعلنون انهم يؤيدونها ••

فلئن كانت « السياسة هي فن الممكن » في العمل اليومي ، فان الثـورة هـــي فن جعل « الضروري ممكنا » •

ولئن كانت « المناورة » هي فن ضروري للمحارب لكي يحافظ على قواه ويبيد العدو ، فان المناورة التي تتنازل عن المباديء لن تبقى محاربة ولن تهاجـم العدو فضلا عن ابادته ••

ولئن كانت « موازين القوى » في لحظة ما ليست فـيصالح الثورة فـــان المناورة بالتنازل عن اهم اسلحة الثورة يعني تأكيد وترجيح الميزان ضد الثـورة بتقوية اعدائها وخصومها وبخسارة جماهيرها ، وليس العكس •

وحتى لو كان التنازل المقترح مطلوبا من أصدقاء او حلفاء ، وهو امـــر منطقي طالما انهم ليسوا على اي حال محور الثورة والحرب ، ولهم ظروفهـم ودوافعهم الخاصة ، فان المناورة بالمبادىء والاهداف العامة لا يمكن أن تؤدي بحال من الاحوال الى توحيد جهود هؤلاء الاصدقاء والحلفاء حول الثورة ولا الى تطوير مواقفهم منها • بل على العكس ستؤدي الـــى تمزيق وتشتيت هـــذه الجهود والقوى • قد تكسب واحدة منهـا ، ولكن من المؤكد اننا سنخسر الكثيرين منهم ايضا ••

هناك مثل بارز من واقعنا ••

مع تقدم وانتصار الحرب الفلسطينية الثورية ، وبعد حرب اكتوبر/تشرين على وجه التحديد ، اتسعت رقعة الاصدقاء والحلفاء والانصار • وتغيرت بعض مواقف القوى السياسية الموجودة داخل التجمع الصهيوني،بحيث اصبحت تعترف علنا بوجود «الشعب الفلسطيني» بل وبعضها نادى «بحق الشعب الفلسطيني» في دولة مستقلة مع استمرار الكيان الصهيوني « اسرائيل » •

وطبيعي ان هذا الانتقال من مواقع « التجاهل الكلي » لقضية فلسطيـن وشعبها ، واحيانـا العداء ايضا ، الى مواقع اخرى قريبة او مؤيـدة للثـــورة الفلسطينية . هذا الانتقال يتم ببطء ولكن في تزايد ، ولا يمكن ان نتوقع انه يتطابق معنا سياسيا وفكريا فجاة وانما هي رفقة طويلة على طريق النضال وصراع طويل من اجل تقوية هـذه الوحـدة •

على هذا الطريق ، طريق تدعيم وحدة المواقف مع كل القوى التي تؤيدنـا والتي يمكن ان تتحول الى تاييدنا نواجه « اقتراحات » يقدمها اصحابها احيانا بدافع من الرغبة في « **حل المشكلة** » واحيانا اخرى بدافـــع من « محاولـــة » « **جذبنا الى مواقعهم** » وهم يغلفون اقتراحاتهم على الدوام « بالعمليـــة » و « الواقعية » و « اغتنام الفرص » و « المرحلية » الى آخر المغريـــات والمبررات التي يسوقها اصحاب هذه الاقتراحات ••

يقول دافيد شاحام في ندوة عقدتهـا مجلة اسرائيل / فلسطين I. P. في النصف الاخير من شهر تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ وشارك فيها متتياهو بيليد ويوري افنيري وسمحا فلابان واخرون ، يقول :

« ان الحل الوحيد الذي اراه هو ان يستمر كلا الجانبين في التمسك بسياساته وادعاءاته القديمة • ان يعتبر كل منهما انه صاحب الحق في كل البلاد،يمكنهما

الشعور بانهما اصحاب حق الوجود التاريخي في هذا البلد · الاسرائيليـــون لارض اسرائيل والفلسطينيون لفلسطين · ولكن وبغرض **التعايش** يجب عـليهما الموافقة على حل **براجماتي** هو التقسيم الذي يتنازل فيه كل منهما في تحقيـــق دعواه بكل البلاد وذلك لحقبة معينة من التاريخ » ·

ان ما يقترحه دافيد شاحام كحل الان ، مقبول ومتخذ عمليا من اطـراف عديدة وافقت على التقسيم في ١٩٤٧ ، او اعترفت « بالكيان الصهيوني » بعد ذلك ··· ومعظم هذه الاطراف تسعـى الان الى طرح هذا الحل الذي هو باختصار «الموافقة على تقسيم فلسطين » بين الشعب الفلسطيني وبين الغزاة المستوطنيـن الذين يسمونهم احيانا « الشعب اليهودي » واحيانا « الشعب الاسرائيلي » ·

الجديد في كلمات شاحام انه يقر علنا بانه « **حل براجماتي** » ولا يتردد فـي قولها ، ولا يزين اقتراحه بانه سيترك للمستقبل ان تقوم « دولة واحدة متعددة القوميات » او « ثنائية القومية » كما يقول اخرون ··

فهل يمكن فعلا القبول باقتراح يطالب بالاعتراف بالكيان الصهيوني بشكل او باخر بدعوى « العملية » او « الواقعية » او « البرجماتية » او اغتنام الفرص او حتى المرحلية ؟؟ **سيكون ذلك بمثابة المناورة بالمبادىء وهو كاللعب بالنار** · لان مجرد الاتجاه نحو الاعتراف « بحق » العدو الصهيوني « في الوجـــود » على ارض فلسطين لن يعـني فقط تخلي عـن الارض له ولكنه في الحقيقة يعـني التخلي عنالهوية الفلسطينية· كما ان من ينكر على الفلسطيني ،ايفلسطينيحقهفى العودة الى بيته وقريته ووطنه ، **لن يكون** من حقه ان **يمثـل هذا الفلسطيني في اي** مكان· كذلك فانمن ينكرعلى الفلسطيني ،ايفلسطيني،حقه فيالاستمرار بالكفاح المسلح حتى يتم تحرير وطنه ، لا يمكن بأي حال ان **يمثل** هذا الفلسطيني ·· حتى بالمقياس «البراجماتي » الذي يبررون به اقتراحاتهم · كيف يمكن ان يتولى طرف يقر « بالكيان الصهيوني » ويسلم بوقف القتال ، ان يتولى الحديث باســـم مـــن يصر على تحرير بيته ووطنه بالسلاح ؟؟

كل الذي يمكن ان يحدث لمن يتنازل ولو شكليا عن المبادىء ، بحجة المناورة العملية والواقعية انه هو الذي سيخسر الجماهير وستنفض من حوله وتدينه، وهكذا يكون قد خسر القوة الاولى والسلاح الحقيقي الذي يمكن ان يفيده حتـى في « مساوماته» ان اراد المساومة ··

وقد يكون مفهوما من بعض الاصدقاء والقوى السياسية القريبة « وبـالاخص القوى المحايدة » ان تقترح على الفلسطينيين الاعتراف « باسرائيل » كواقع ، وكحل للمشكلة ، فان لها على اي حال دوافعها الخاصة لذلك ، ولكن الامر غير المقبول هو ان تنزلق قوى عربية الى هذا المنزلق بدعـوى « شيء احسن مـن لا شيء » ، وان « المناورة » قد تنقذنا من « مؤامرات التصفية » ، وان اخفـاء شعار القضاء على الكيان الصهيوني من شانه ان يكسبنا المزيد من الاصدقـاء الاقويـــاء ٠

ان منطق « شيء احسن من لا شيء » يكشف عن عدم الثقة في النصر ، اي عدم الثقة بامكان تحرير كل فلسطين وبالتالي فانه يبرر اخـــذ جزء وتسليم البـاقي ٠

اما منطق « المناورة تنقذنا من التصفية » فانه يكشف عن عدم الايمان بالجماهير ولا احترامها ٠ فالاعتراف بحق العدو في الوجود يفقدهم موضوعيا ثقة الشعب الفلسطيني بهم وقد لا يكسبهم حتى رضى الذين يطالبونهم بالاعتراف، اي يصفيهم فعـلا ٠٠

اما قضية « اخفاء » الشعار ، اي انكاره علنا ، مع الوعد بابقائه « سرا » فانه يثير التساؤلات : هل يمكن ان يؤدي بنا الخوف الى اخفـــاء اهدافنـا وشعاراتنا ؟ وهل يمكن ان يؤدي اخفاء هذه الاهـــداف الى تقويتنا ام الـــى اضعافنا ؟ ثم لمن سيبقى الشعار « سرا » طالما اننا ننكره علنا اي ننكره امـام جماهيرنا وجماهير العالم اجمع ؟٠٠

ان المناورة «بالمبادىء » حتى ولو بحجة « المرحلية » تعـني ان يتنـــازل اصحابها عن اهم واول سلاح في ايديهم ، فلولا المبادىء الواضحة الصحيحة لما التفتت الجماهير حول الثوار ، ولما ميزت بينهم وبين « الاصلاحييـــن » او « الانتهازيين » او « الانقلابين » او المساومين بمستقبلها وقضيتها ٠٠

وفي قضية فلسطين فان مبدأين هامين لا يمكن ابدا اخفاؤهما لا على سبيل المناورة ، ولا على سبيل «المرحلية» ، ولا على سبيل «الواقعية » و« العـمليـــة »، هذان هما مبدأ ان كل فلسطين هي للشعب العربي الفلسطيني من حقه العـودة اليها وهي ملك له وذلك يساوي عدم الاقرار او الاعتراف باي شكل بالكيـــان الصهيوني المسمى باسرائيل ، ومبدأ حق هذا الشعب العربي فـي النضـــال المسلح لتحرير فلسطين وذلك يعني عدم التسليم ابدا بامكـــان التخلـــي عن الكفاح المسلح سبيلا وحيدا للتحرير ٠

واي مساس بهذين المبدأين ، واي انكار لهما علنا او سرا ، لن يعني نهاية الثورة الفلسطينية ، وانما سيعني نهاية المنكرين لمبادئها ..

والخلاصة ..

انه كلما اتسعت دائرة الحلفاء والاصدقاء حولنا ، كلما ازدادت حاجتنا الى حماية افكارنا وتوضيحها والتمسك بها لنكون بحق قادرين على تحمل مسؤوليتنا كمحور مركزي لهذه التحالفات .

وكلما ازدادت حولنا الاعلام التي ترفع شعارات ومبادىء قريبة من شعاراتنا ومبادئنا ، كلما توجب علينا ان نرفع نحن عاليا مبادئنا بحيث تتمكن الجماهير من رؤيتها واضحة لا غموض فيها ، لا نتنازل عنها ولا نساوم عليها مهما كانت المغريات .

فالفكر الصحيح المحدد والواضح هو السلاح الاهم في تحقيق النصر ، والمبادىء والشعارات العامة هي التي تعطينا هويتنا النضالية والقومية في وجه مؤامرة الاذابة والتصفية ... لنمسك بهما بقوة ، ولنكن مرنين بعد ذلك الى اقصى الحدود .

التعبير في الحرب الأهلية

الياس خوري

ليست الحرب الاهلية مجرد لحظة انفجار التناقضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي اشعلت هذا اللهب الوطني · بل هي حركة الانفجار في جميع لحظاته · الحرب الاهلية هي مسافة زمن التناقضات · حيز من التوتر والعلاقات والتغيير · واذا كانت السياسة تحكم كل حرب فهي تحكمها بوصفها محددا، غير ان السياسة كبنية ليست في الحرب الاهلية سوى الغطاء الذي يكشف الداخلي العميق ويحدد وجهته · والداخلي هذا ، هو الذي ينفجر معيدا تشكيل نفسه في لحظات اللاتوازن المهددة بالانهيار · ان الطابع السياسي الغالب الذي ظهر داخل المسار العام للحرب ، وداخل شبكة الاشارات التي انتجتها وسائل الاعلام ، لعب ولا يزال يلعب دورالخلفية التي تقف على قاعدتها مجموعة لا تحصى من التحركات والصدامات التي ترمي احشاء العلاقات الاجتماعية الى الخارج ، حيث يختل النظام القديم ، وتتمرد الدلالات لتشير الى نفسها (علاقاتها) ولترسم لوحة الحرب الاهلية ·

الحرب الاهلية هي تعبير عن المجتمع بكل تناقضاته · انها بشكل ادق ، تعبير عن حركة التناقضات التي في المجتمع بعد انخلعت قفازها وتركت الاشكال المعقدة التي تحجبها ، من اجل ان تعيد النظر في علاقات الاشياء وفي سلم القيم الايديولوجية والسياسية التي فيها · الحرب كل حرب هي لحظة اختبار تاريخية · فالحرب العامة تستطيع ان تعبر عن الحركة العامة في مجتمع ما ، وبنيته الطبقية ودور المؤسسة السياسية وصلاحياتها ولحظات تعرضها للانهيار · اما الحرب الاهلية فهي تبدأ من هذه اللحظة · من لحظة الانهياروتكشف بالتالي التركيبة الاجتماعية فارضة على لحظاتها باسرها ان تتركب داخل الانهيار وان تمارس بشكل فعلي · ربما هذا هو على مستوى السياق التاريخي احد اسباب كون الحروب الاهلية تاتي في نهاية الحرب العامة ـ ثورة اكتوبر ـ او داخل مسار الحروب الوطنية ـالصين ـفيتنام ـ فالحرب الاهلية تصبح ممكنة او اكثر سهولة في سياق الحرب الشاملة ، حيث تتعرض البنية القمعية للاهتزاز ، ويدخل

الصراع باشكال مختلفة داخل البنية السياسية (سلطة ، جيش ، بوليس)· هكذا يصبح ممكنا امام جميع اشكال الممارسة الاجتماعية المقموعـــــة خلف ادوات القمع هذه بالانفجار · ويصبح ممكنا للطبقات الثورية تدمير ادوات المجتمـع القديم وقيمه لكي تفرض ادوات نضالها وقيمها الجديدة ·

الحرب الاهلية هي بهذا المعنى مختبر تاريخي اجتماعي · اداة كشف وتغيير توحد مبدئيا وبشكل عجيب بين معـرفة العالم وتغييره · توحد النظرية بالممارسة بشكل تبدو فيه الاشياء وكأنها اكتسبت وحدتها « الطبيعة » · المختبر التاريخي الاجتماعي هذا هو مختبر صراعي · هو سياق يكشف وبشكل عيني ومباشـر كون الصراع هو القانون العام الذي يحكم الاشياء والعلاقات الاجتماعية ، وما فترات السكينة والتوازن الا استمرار الصراعباشكال اخرى· التوازنوالسكينة هو الاستثنائي اما الصراع فهو العام ، ومـا التوازن الا احد اشكاله المؤقتـة · هذه الحقيقة التي تبدو بديهية لا تظهر حقيقتها كممارسة اجتماعية الا لحظـة وصول الصراع الى احدى ذراه · هكذا تعيد الحرب الاهلية تفسير لحظـــات الصراع في فترة التوازن ، وتقوم بنقلها الىمستوى ارفع · لحظة الصراعتحمل اذا استعادة لشكل من اشكال حركتها · لكنها ليست استعادة جامدة ، بل هـــي استعادة في حيز يتحرك ، اي لا تكتفي باعادة تفسير الماضي بل تضيف اليـــه الجديد الراهن المكثف وتعيد بذلك تنظيم دلالات الاشياء ضمن قانـون الصـراع والتناقض العام · هذه العلاقة المعقدة هي جوهرالجدل·كشف تناقضات لحظات التوازن داخل تناقضات اللاتوازن · ضمن هذه العملية يتوحد التفسير بالتغييـر والنظرية بالممارسة الفعلية ·

الجديد في انفجار التناقضات هو الانتقال بالتناقض الى مستوى ارفع ، والدخول فيسياق حركة جديدةتستطيع ان تضيف الى اللحظة الراهنة احتمالها في التحول · بهذا المعنى لا تعود الحرب الاهلية حدثا الا بوصفها تكثيفا لتاريخ هذا الاحتمال ، حيث يتضمن الماضي ليس بوصفه الماضي ، بل بوصفه امكانية تدمير وتجاوز ·

تحمل الحرب الاهلية في لبنان مجموعة من السمات :

فهي اولا حرب اهلية تأتي في سياق الحرب الوطنية ضد العدو الصهيوني · وتأخذ خصوصيتها من واقع التجزئة العربية ، ومن ظرف التضارب بين رؤيـة الانظمة ورؤية المقاومة والحركة الشعبية لموضوعـة الصراع مع العدو · من هنا كان الطرف العربي الفلسطيني ـ السوري ـ المصري ··· هو الطرف الرئيسي في التناقض الذي فجر الحرب الاهلية · فالتدخل العربي في الحرب لم يكن ظاهرة فيها ، بل كان ظاهرتها الرئيسية ·

واذا كان الطرف الاخر في التناقض ـ القوى الانعزالية ـ استطـــاع ان يلعب طويلا على حبال التناقضات العربية ، فانــه وعلى المستوى التاريخي سقط في الواقع العربي ولم يعد يستطيع التحرك بدونه · ان هذا لا يعني مطلقا ان الصراعات قد توقفت بعد دخول القوات العربية ، بل يعني ان حيــز المناورة قد ضاق حول الطرف الانعزالي ، الى درجة لم يعد يستطيع معها الافلات مـــن الحتمية التاريخية ، كما يعــني ان المقاومة والحركة الشعبية وان ضاق اطـــار مناورتهما وتحركهما ، يستطيعــان البقاء في حلبة الصراع تاريخيا ، طالمــا بقي الصراع بين الامة العربية والامبريالية ·

الحرب الاهلية ، تأتي اذن ضمن سياق الحرب الوطنية ، تفجر خصوصية واقع المشرق ضمن عمومية الصراع العربي ضد العدو الصهيوني واشكالية هــذا الصراع ·

وهي تأتي ثانيا في **سياق صراع داخلي على السلطة** · فالصراع الداخلي مستمر منذ انشاء دولة لبنان الكبير ·وقانونه العام يبقى ضمن دائــرة الصراع العام العربي ـ الامبريالي على الاستقلال الوطني · يمكننا ان نرى في الحــرب الاهلية ثلاثة اطراف رئيسية تتنازع على السلطة :

ـ الكمبردور الماروني الذي استطاع من خلال غلبته في السلطة ومن خلال نمو راسمالية الوساطة ، ان يكتل عبر تجمعات واحزاب سياسية وشبه دينية · الكتائب ، الرهبان ،الاحرار ، التنظيم ، حراس الارز · قاعــدة عريضة مـــن الجماهير المارونية خلف برنامج تسلطه عــلى لبنان ، وعــزلــه عن محيطه العربي وجعله حليفا دائما للعــدو الاميركي ·

ـ البرجوازية الاسلامية : بكل اطرافها وطوائفها ، التي تنتظر مرة اخـــرى وكما في٥٨ الفرصة لاقتناص السلطة لتحجيم الغلبة المارونيـــة ، في سبيـــل مشاركة اكبر في مغانم الوساطة اللبنانية وعلى قاعدة ايجاد روابط اعمق بيــن لبنان وبقية اجزاء الامة العربية ·

ـ الحركة الشعبية التي تضم خليطا من القوى الطبقية ـ برجوازية وسطـــى وصغيرة غير مارونية بشكل اساسي ـ والقوى الاجتماعية ـ محلية :جنبلاط ، عربية ـ محلية : المرابطون تطرح برنامجا تحديثيا سلطويا للبنـــان المستقبــل · وتتحالف بشكل رئيسي مع الثورة الفلسطينية باعتبارها اكثر الاطراف العربية مصلحة في الذهاب بعيدا في لعبة الصراع في لبنان ·

يؤدي هذا التقسيم العام الى وجود مسالتين مترادفتين :

ـ ضمور الجانب المحلي امام الجانب العربي طالما لا تسمح موازين القـــوى الدولية للقوى الانعزالية بالاتكال مرة اخرى على الاسطول الاميركي السادس.
ـ بروز سياسات مترجرجة من التحالفات ، او بشكل اصح عدم وجـود قاعدة ثابتة لاقامة تحالفات حول برنامج للخلاص الوطني يضم المقاومة والحركة الشعبية . يعود هذا اللاثبات الى عاملين اساسيين :

أ ـ كون الاطراف الداخلية ـ فلسطينيا ولبنانيا ـ لا تشكل عـلى المستـــوى الموضوعي قاعدة ثابتة للانطلاق . فهي محصلة قوى ومحصلة موازين . انمـا الثوري الخاص فيها ولا سيما في الطرف الفلسطيني هي في كونها محصلـــة ديناميكية وتحمل وجهة محددة : القتال ضد العدو الصهيوني .

ب ـ غياب الطرف العربي الذي يستطيـع ان يقود جبهة وطنية راسخـة . فوحدها الطبقة العاملة بحزبها السياسي ، هي القادرة تاريخيا على القيام بهـذا الدور الوطني .

ان الصراع الداخلي على السلطة هو صراع لا يستطيع في شروط الحرب الاهلية ان يتجاوز سقف الصراع ـ التوازن العام في المنطقة العربية . وهو لذلك يصبح انعكاسا لهـذا الصراع ومؤشرا لاحتمالات حركته العامة ، وربما بشيـــرا بولادة قوى راديكالية تعلمها ممارسة الحرب دروس بناء القوى التي تستطيـــع قلب المعادلة راسا على عقب . لقد استطاع شعار « عروبة لبنان » ان يترسـخ رغم كل تعرجات الحرب ورغم ان هزيمة القوى الانعزالية كانت ضمن المساومة والشروط الاميركية .

لقد عبرت هذه الاطراف مجتمعة عن نفسها ضمن القتال في سبيـــل فـــرض موازين قوى جديدة . لكن الملاحظ ان القتال انحصر في النهاية بثلاثة اطراف. المقاومة ـ الحركة الوطنية ، القوى الانعـزالية ، الجيش السوري . وفي النهاية وبعد سقوط تل الزعتر انحصر القتال بين القوتين الرئيسيتين اللتين تتنازعـــان، الجيش السوري والمقاومة . وهذا يؤكد جانب غلبة العامل العربي وغلبة كون الحرب هي جزء من اشكالية المرحلة الوطنية على مستوى المشرق .

وهي ثالثا **ليست الحرب الاهلية الاولى** . فتاريخ « لبنان » الحديـــث والمعاصر هـو اساسا تاريـــخ الصـراع حـول « المسالة الشرقيـة » . وهذا

ينعكس ضمن نمو الرأسمالية الوسيطة فيحركة صراعات داخلية وحروب اهلية، تمثلت في ثلاث حروب :

حرب ١٨٦٠ التي كانت اساسا في الجبل وامتدت الى بعض المدن : بيروت ودمشق · وتمثلت في حرب طائفية طاحنة ومذابح وهجرات قسرية · وانتهت بتدخل الجيش الفرنسي ، ووضع يد الدول الكبرى على لبنان عبر جعله «متصرفية» يحكمها مسيحي عثماني يعينه الباب العالي بناء على قرار من مندوبي الدول الاوروبية ·

حرب ١٩٥٨ التي كانت اساسا في المدن وشملت الجبل بشكل جزئي · وكانت جزءا من صراع المد القومي بقيادة عبدالناصر مع الامبريالية · وانتهت بتدخل الجيش الاميركي ، وتغيير في معادلتين داخليتين : رئاسة الجمهورية التي بقيت للموارنة انما اصبح الرئيس يعين بقرار اميركي بعد موافقة مصر-(وهذه هي المرة الاولى التي يتدخل فيها الطرف العربي في اختيار رئيس البلاد منذ انشاء دولة لبنان الكبير) · وتوزيع اكثر عدالة للسلطة بين الطوائف مع احتفاظ الموارنة بغلبتهم ومع تعديلفي السياسة الخارجية يراعي الوضع العربي ·

حرب ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ·· التي تمثلت في تواجد ثوري فلسطيني كثيف ومسلح، وفي ازدياد المدى العربي العام وعدماستعدادهفيالمقابل للذهاب بعيدا في الصراع كما تريد المقاومة ، وبرز كذلك نموملحوظ للقوى الفاشستية المارونية ولقدرتها على الاستقطاب · لقد بدأ الصدام في المدن وامتد الى الجبال وتميز بشراسة خاصة ـ قصف عشوائي ، تهجير كثيف ، تدمير ، الخ ··· كما دخل فيه الجيش السوري ثم قوات الردع العربية · ولم تحسم نتائج الحرب ، انما المؤكد ان القوى العربية استطاعت اخذ لبنان دون ان يعني هذا هزيمة ساحقة ونهائية للقوى الفاشية ·

ان المقارنة المتسرعة بين الحروب الثلاث ، تستطيع ان تكتشف مقولة ان التاريخ « يكرر » نفسه ، لكنها تنسى انه في كل حرب كانت النتيجة مختلفة عن الحروب التي سبقتها نتيجة التحولات في البنية محليا وعربيا ودوليا وفي ظرف الصراع ·كما ان اشكالية كل حرب وممارستها الفعلية تتغير بتغير الظروف والبنى ·

هذه السمات العامة الثلاث التي اشرنا اليها ، لا تكفي · انها مجرد مقدمة صغيرة لوضع الحرب في اطارها الواقعي · لكن الاساسي الذي يمكن الخروج منه يتمثل في مؤشرين :

المؤشر الاول هو ان التاريخ لا يتكرر ، فالماضي الذي يعود ليبرز على السطح في كل حرب اهلية في لبنان هو « المسالة الشرقية » ٠

اما اشكالية الحرب ، ومسارها ونتائجها فهي تخضع لتطور الواقع العام ٠ وهي في الوقت نفسه احدى الدلالات الممكنة لتطور وتغير هذا الوضع٠

المؤشر الثاني هو ان الحرب الاهلية لا يمكن ان تفهم فقط من خلال مسارها العام ٠ فهذا المسار العام هو محصلة مجموعة من التصرفات والتحركات الاجتماعية العنيفة التي تعكس مستوى تطور المسار العام وفي الوقت نفسه تحكمه ٠ اي ان الجدلبين المسالتين في لحظات الانفجار يصبح فعلا يوميا ٠

تقودنا هذه المقدمة الى محاولة تسجيل مجموعة من الملاحظات التي قد تبدو ناقصة وهي ناقصة بالفعل ، نحاول الان ان نستكشف اشكالية التعبير ومداخله المختلفة٠والتعبير هنا ، هو الواقع وحركته ٠ اي اننا نحاول ان ننطلق من لحظة رفع الغطاء عن احشاء العلاقات الاجتماعية الذي تقدمه الحرب ، لندرس الواقع في حركته ، والعلاقات الاجتماعية في لحظات توترها ٠ لذلك فلن نناقش التعبير بمعناه المتعارف عليه ٠ لن نتوقف عند التعبير الثقافي المحترف، الذي هو تحديدا جزء من الايديولوجية العامة التي ينتجها مثقفون ٠ فهذا التعبير اثبت خلال الحرب عن عدم فعاليته ٠ المسالة ليست في السؤال البديهي اين كانت الثقافة خلال الحرب ، بلما هي علاقة الثقافة بالحرب ٠ والمسافة شاسعة بين السؤالين ٠ يفترض اولهما ان للثقافة دورا ويناقش مدى تاديتها له ٠ ويحاكم الثاني الثقافة بذاتها ليحاول فهم علاقتها غير المباشرة بالحرب٠ لقد اثبتت الثقافة « السائدة » ٠ ان لا علاقة لها بما جرى ويجري ، انها مجرد اداة حجب ثانوية ، تحاول ان تغطيالتجارة بالقيم التحديثية ٠ وعند سقوط القيم التحديثية والليبرالية امام الواقع سقطت كاي شيء يسقط ٠ لذلك لا نتعجب ونحن نرى السريالي يتحول الى فاشي او شبه فاشي ، والتجريبي المجدد يتحول الى منظر انعزالي والمسرحي الطليعي يتحول الى مذيع يصرخ في عمشيت ٠ فالقشور ليست في النهاية سوى قشور ٠ هذه الصورة العامة يجب ان لا تحجب اصواتا ارتفعت من مجموعة الصحفيين الشباب الى بعض الاصوات الشعرية، وبعض الكتابات التي حاولت ان تكون جزءا من الحركة الشعبية ٠

لن نناقش اذن التعبير « الثقافي » المحترف ٠ سوف نحاول ان نسجل مجموعة من الملاحظات الاولية عن الحركة العامة للحرب ٠ فالحرب هي تعبير٠

وحركتها العامة هي تعبير عن الواقع · لكننا لن نصل الى اكثر من تسجيـــل مجموعة من الملاحظات الاولية · فالحرب تحتاج الى الكثير من الجهد كي يكتب تاريخها الحقيقي ، تاريخ الذين صنعوها بكل لحظات النصر والهزيمة التـــي تخللتها ·

★ ★

اشكالية الحرب

الحرب الاهلية هي انقسام السكان الى فئات تتقاتل في سبيل فرض هدفهـــا السياسي · غير ان هذا القتال لا يجري في فراغ · يجري ضمن قوانيـن عامة تفرزها البنية ، وضمن الحيز الجغرافي الذي يقدمه اطار الحرب ـ المدينة او الريف · وفي سياق اشكالية عامة لانقسام السكان · طبقية ،طائفية ، عنصرية· او مزيج من هذه العوامل المختلفة ·

السمة البارزة هي ان هذه الحرب كانت حرب المدينة · وحتى الانتقـــال الى الجبل بمحدوديته ابقى هـذه الحرب بوصفها اساسا حرب المدينة ·لذلك اخذت الساحات والشوارع والتجمعات السكانية حجما اساسيا في الحرب ·

اتساع المكان · بيروت قبل الحرب · بقيت هي نفسها جغرافيـا · لكـــن الاساسي الذي يتغير هو دلالة المكان · فلقد تعرض المكان الى الاتساع والضيق بالنسبة الى حركته العامة ضمن حركة الحرب · **المخيم يتسع** · فبعد ان كـــان مجرد شبه « غيتو » معزول خلال فترة سيطرة البوليس عليه ، طرد البوليس عام ٦٩ ، امتد بعدها الى الجنوب · ثم عام ٧٥ ـ ٧٦ ، اصبح المخيم هو المدينة · انتقلت قواه البشرية الى الخارج ، دافعت عن المناطق الوطنية ، حررت مناطـق يسيطر عليها الطرف الانعزالي الفاشي · اتسع المخيم · بانتقال قواه العسكرية الى المدن ، نقل نمط علاقاته وبنيته الاجتماعية والسياسية · انغرس في الواقع الجديد ، تاثر به وفرض عليه نسقه بشكل ما · **المناطق الهامشية تتسع والمراكز التجارية تضيق** ، رمل الظريف ـ الزيدانية يبتلع الحمرا ، الطريق الجديـــدة تبتلع كورنيش المزرعة، طرابلس الداخلية تبتلع طرابلس التجارية · انقلبـــت الآية راسا على عقب · الشوارع الرئيسية تضيق لمصلحة الشوارع الخلفية · المركز التجاري يتحول من نقطة استقطاب ونمو وقمع الى نقطـــة يمارس عليها القمع وتستقطب · البنايات العالية يحتلها المسلحون والفقراء · سوق سرسـق يجتاح الحمرا والروشة · الوسط التجاري يصبح مسرح صراع مسلح عنيـــف يؤدي الى الغائه بشكل كامل · ان هذا الاتساع والضيق هو نتيجـــة حتميـــة

لانقلاب المقاييس · سقطت السلطة السابقة وسقطت الحرمات السابقة · المركز يتبع الطرف · المدينة تلتحق جزئيا بالمخيم ، والتجارة لا تتوقف · تأخذ اشكالا جديدة ـ يتدخـل فيها طرف جديد هو اشبه بالسلطة لكنها سلطة لا تحترم قيمـة التجارة ، تناقش النتائج ·

الازمنة المختلفة : كانتعملية الوصولالىالمناطق المغلقةعملية متدرجة ،اتخذت اشكال صراع مع الطرف الاخر وصراع داخلي · مـع المطـرف الاخـر ، تكفلت مراحل الحرب المختلفة وتطوراتها باحكام اغـلاق المناطق بشكل شبـه كامل · اما داخليا فكان الصراع حادا ويحمل سمات تطور الاطراف المختلفـة · في المناطق الانعزالية . وامام اتساع المد الطائفي موضوعيا ، ونمو القبضـة الفاشية ، استطاع الحزبان الرئيسيان الكتائب والاحرار تصفية القـوى غـير المقبولة ـ القبضايات ـ (حادثة عواد) وفرضوا عليها الالتحاق بها · ولكـن بقيت طبعا التنظيمات الشرعـية التنظيم ، حراس الارز ··· وقوى فعلية شارعية التحقت بالحزبينالمذكورين · ان هذا لا يقلل مـن قيمة الصراعات داخـل المناطق الانعـزالية · لكنه يضعـها في حجمها الفعـلي بوصفها صراعـات لبناء سلطة فاشية جديدة · اما المناطق الوطنية فقد قدمت نموذجا لتعايش ازمنـة مختلفة داخـل زمن الحرب، فالشارع الوطني هو متسع ومتعدد : انعكاس للوضع العربي بكل تفاصيله وخلافاته · ورغمان حركة « فتح » استطاعت ان تلعـب دور القوة القائدة ، وعلى الرغم مـن محاولات المجلس السياسي المركـزي اقامة قوة موحدة : «الامن الشعبي »، فقد بقي الشارع الوطني شارع الجميـع · تعايش « القبضاي » مع الطالب المقاتل · والزعـيم التقليدي مع الاعـلام الحمراء · والقتال المنظم مع القتال غير المنظم · يقود هذا التعـدد الـى سمة عـامة فـي الصف الوطني ، هي مزيج من الوضوح الاستراتيجـي وغـياب هذا الوضوح · فلا خطة واحدة تجمع هذه القوى ، التحالفاتمترجرجة· غير ان المفصل الاساسي التي تمسك به القيادة الفلسطينية يقود الى وضـوح مسالة واحدة عـلى الاقل : هي القتال بكل ضراوة تجنبا لاحتمالات التصفية·

فـي المناطق الوطنية ديمقراطية محلية حقيقية، وفـي المناطق الانعزالية قبضة فاشية متوحشة · في المناطق الوطنية تعبئة محدودة او غير شاملـة وفي المناطق الانعـزالية تعبئة وشحن نفسي ومحـاولـة تنظيـم الحـياة اليومية بشكل منضبط ومـن فوق ·

الجبل: بعد انقلاب الاحدب وبسقوط الوثيقة الدستورية ، تحول القتـال الـى الجبل · هنا حدث الانتقال الثاني في اشكالية المعارك ، بعـد الانتقـال الاول ـ الاجتياح في الكرنتينا والمسلخ والدامور · هذه المرة كان انتقالا نوعيـا · الفلسطينيون والوطنيون يهاجمون معاقل الجبل « الماروني » ، يقفون على قمة

صنين ، يصلون الى مشارف المتن الشمالي ومشارف كسروان · هذا الانتقال النوعي سوف يمهد فيمابعد لتكريس مسألة انتماء لبنان العربي وهو على رغم حدوده ومحدوديته ، فتح الجبل على اكثر معاركه ضراوة ومجدا وكتب ملحمة بحمدون ، واحدث انتقالا نوعيا في القتال ، رغم انه لم يصل الى النتائج النهائية·

لم تكن اشكالية الحرب واحدة خلال مرحلة طويلة من القتال الاهلي ـ حوالي سنتين ـ بل كان هناك اربع مراحل رئيسية : انفجار عين الرمانة حتى الوثيقة الدستورية · انقلاب الاحدب ·التدخل السوري ·قوات الردع ·داخل هذهالمراحل هناك لحظات متداخلة· واذا كانت السياسة تحكم الحرب بوصفها محددا، واذا كانت الحرب الاهلية تكشفالغطاء عن احشاء العلاقات الاجتماعية ، فاننا نستطيع انننشير الى اربعة مداخل لاشكالية الحرب بوصفهاتاريخ الجماهير التي صنعتها · ليس هناك حدود صارمة بين هذه المداخل · لكنها تشكل مجتمعة الواجهة الخلفية للحرب الاهلية ·

المدخل الاول : الذات وتاكيدها من خارجها

نمو راسمالية الوساطة ادى الى نمو وتماسك الطائفة على حساب الاشكال الاجتماعية السابقة · ونمو الثورة الفلسطينية ادى الى اتساع تاثير واثر الخط العربي في لبنان الذي يتمثل اساسا في الحركة الوطنية والتجمعات «الاسلامية»·هذان النموان ،يضافاليهما اختلالالعلاقةبين المركزالامبرياليوالقوى البرجوازية التابعة في العالم الثالث لمصلحة هذه الاخيرة ،ادىعمليا وضمن عملية معقدة الى اختلال التوازن اللبناني وانفراطه ·

عملية الانخراط تتم ضمن قنوات طائفية · الحي ،هوالوحدةالصغيرةوالطائفة هي الوحدة الاكبر وبين الحي حيث التجمعات غير المنظمة والطائفة يقوم الحزب الفاشي بتشكيل ذراع الوحدة داخل الطائفة ، او على الاقل هذا هو جوهر المشروع الكتائبي : « التحول من حزب طائفي الى حزب الطائفة » ·

المناطق تغلق تدريجيا·تغلقها متاريس الرمل العالية ، ورصاص القنص القادم من البنايات العالية · القنص هو المدخل الى اغلاق المنطقة · هو الاداة في يد القوى المنظمة من اجل تحويل الطرق الفاصلة / الموصلة بين المناطق الى طرق مغلقة · القنص اذا ليس مرحلة من الفورة الشعبية · انه اداة منظمة وواعية ، ولا علاقة للطرف « الثالث » ! الذي اتهم طويلا به · القناص ليس مجرما يقتل بشكل افرادي ، انه اداة في سبيل الوصول الى بداية المناطق

المغلقة عدا انه عسكريا وفي المعارك الفعلية ضرورى جدا للاطراف المتقاتلـة · اغـلاق المناطق يتم اذن ضمن اواليتين مترابطتين :

١ ـ اشتعال الحرب الاهليةوامتدادها ، بشكليجعل الاحياء المتقابلة في مواجهة بعضها · تخاف مـــن بعضها ·هنا تنمو العناصر المحلية · (حي السريـان) في الاشرفية ، رأس النبع ، التباريس ـ خندق الغميق الخ ···

٢ ـ وجود اداة شاملة تتدخـل في ادارة الحرب · البرجاوي كحـي يستباح من الكتائب ، فتدخل القوى المنظمة « فتح » وتحكم سيطرتها عليه ، ويكـــون مدخلا لمحاولة اجتياح حي الناصرة · حي الناصرة وحيدا لا يستطيع الصمود، القوى التي تجعله يصمد هي قوى الكتائب المنظمة وملالات بقايا الجيش ·

تستدعـي المناطق الانعـزالية المغلقة مجموعـة من التحركات:

١ ـ تطهيرها من الطوائف الاخـرى : العدو في الداخل هو اخطر من العـدو الخارجي · لذلك يجب تطهير المنطقة ـ الحي منه بشكل كامـل · استعملـــت هنااساليب الارهاب المختلفة من التهديد الى تفتيش المنازل الى القتل ·

ب ـ تطهيرها مـــن العناصر الوطنية ، حتى ولو انتمت الى الطائفة المسيحية وقد استعملت نفس اساليب الارهاب السابقة · مـــع لؤمٍاشد تمثل فـــــي العزل الاجتماعي الكامل للعنصر المطلوب اخراجه او قتله ·

ج ـ فرض السيطرة على المناطق المغلقة بشكل كامل · عبر الدوريات العسكرية المكثفة ، اطلاق النار بهدف وبدونه ، فرض الخوات الخ ···

الوصول الى المناطق المغلقة ليس مجرد تدبير اجرائي · انه في الوقت نفسه تعبير عـن واقع اجتماعـي محدد · كيف نفسر الخطف على الهوية ، التعذيـب الوحشي الذي يتبعه ، سادية القتل ، جنون القتل الجماعي · انه تأكيد الذاتمن الخارج · التأكيد على العدو حتى يزداد التماسك · العرب ـ فوبيـا التـــي انتشرت في الاوساط الجماهيرية « المارونية » لم تكن مجرد خدعة قام بهـــا الانعزاليون المحترفون · انها بالاضافة الى ذلك مسار تاريخي واجتماعي · فهذا الهلع والرعـب من العربي (المسلم ، الفلسطيني ، اليساري) القادم لضرب الغلبة المارونية ، يقود الى مستيرية خوف جماعية تؤدي بدورها الى عدوانية، تؤكد الوحدة من الخارج · هذه الوحشية التي عبرت عن نفسهـــا بشكـــل « نموذجي » يوم السبت ٦ كانون الاول ١٩٧٥ ، الذي سمي السبـــت الاسـود

تعبر عن العنف « الجماهيري » الفاشي وقد وصل ذروته · غابة من المجانين الذين يحملون الاسلحة ويقتلون من اجل الانتقام ! ليس هذا مؤكدا من اجلتوتير الجو السياسي ! يمكن توتيره باشكال اخرى واكثر فعالية · من اجل تأكيد الذات · الغلبة المارونية تنهار امام المد العربي : بيار الجميل يزور دمشق يومها ، والجيش السوري يزور بكفيا اليوم ! هستيريا القتل هي اذن تعبير عن خلجات الحشرجة في الجسم الفاشي الذي يتعرض للانقراض · تصفية الغلبة«المارونية» تعيد الى الذاكرة الجماعية الحكم « الاسلامي » والاضطهاد «العثماني» · تصفية غلبة الكومبرادور الماروني تنعكس في الوعي المشوه والملوث بواقع لبنان في خطر تعرض جماهير الطائفة للابادة · «المجزرة بدأت في العاصمة اثر اكتشاف جثث اربعة قتلى في الفنار ، قيل انهم من مرافقي الشيخ بيار الجميل وهم : رولان سعاده ، ايلي بانو ، دافيد عوكر وشقيقه شفيق ، واضافت معلومات خامسا اليهم هو جورج عيسى · وهو ما ردت عليه ميليشيا حزب الكتائب حين افلتت مسلحيها من الصيفي باتجاه ساحة الشهداء وباب ادريس ، تخطف المواطنين بالعشرات ، وتقوم بتصفية بعضهم فورا ، مما جعل المواطنين الذين نزلوا الى اعمالهم ، يعيشون منذ التاسعة صباحا حالة من الذعر تجلت في هستيريا الهروب بمختلف الوسائل والاتجاهات ··· أما اكثر الحواجز وحشية فكان حاجز المرفأ الذي ارتكب مجزرة كان ضحيتها عمال المرفأ حيث اطلق النار على بعضهم والقي بجثثهم في البحر، بينما احتفظ ببعضهم حيا وتم نقلهم الى الاشرفية ·· » (السفير ٧ ك١ ١٩٧٥) السبت الاسود يمتد في الزمان والمكان · يمتد على مساحة الحرب الاهلية : سحل الاسرى بشكل منتظم ،استباحة المناطق حتى ولو كانت مسيحية : الكورة، بشكل مجنون وغير عقلاني · هذا الدفاع عن النفس هو هروب الى الامام · تعبير عن العجز وعن محاولة تغطيته بالفعلحتىولو وصل حدود الانتحار·

الانغلاق النفسي والواقعي هذا ، لم يكن في المناطق الوطنية · فباستثناء بعض الحوادث الطفيفة والفردية التي قام بها القبضايات الذين تعودوا صداقة المكتب الثاني ، فقد بقيت الاحياء المسيحية التقليدية : حي السريان ، المزرعة حيث التجمع المسيحي الارثوذكسي في بيروت الغربية دون ان تمس الا بشكل هامشي وطفيف · بينما استبيح القنطاري للسرقة وليس للقتل · اما حوادث « بيت ملات » و « القاع » ، فانها ممارسات منظمة قامت بها اساسا قوى منظمة مستغلةالعلاقات العشائرية في مناطق البقاع وعكار · طبعا حدث خطف وتعذيب · انما بنسبة لا تقارن بما جرى في الطرف الاخر · ان هذا الاختلاف لا يدل على مستوى « الحضارة » ، فالواضح ان التاثر بالحضارة الحديثة اكثر « عمقا » في المناطق المارونية · انما يعود الى سببين رئيسيين : ـ

١ ـ على رغم ارتفاع شعارات طائفية في المناطق الوطنيـــة ، فـــان المسلمين ليسوا طائفة · وهذا يعود الى عامل تاريخي وسياسي ·تاريخيـا هـم الامة ، الاكثرية · وتنظيمهم الاجتماعي هو الدولة · وسياسيا : هم جزء مـــن الواقع العربي ، امتداده اللبناني · لذلك لم تنجح محاولات عديدة « مدروسة » لتحويلهم الى طائفة · والمطالب الطائفية تتحول في الممارسة السياسية الـــى مطالب قومية · او الى المطلب القومي حين ينعكس لبنانيا بصيغة طائفية · من اجل هذا اتسعت المناطق الوطنية لسكانها المسيحيين وللمسيحيين الوطنييـــــن المهجرين من « الغيتو » الانعـزالي ، واتسعت طرالس لمهجري الكورة ···

٢ ـ نمو قوى اجتماعية وسياسية مرتبطة بالحركة الوطنية العربية ، تطرح شعارات غير طائفية · تستقطب سياسيا ، وتقاتل عسكريا · وهذا ما خفف الى حد ما من دور بعض المؤسسات الطائفية : المجلســـ الاسلامـــي الشيعي الاعلى على سبيل المثال ·

المنطقة الوطنية تريد استيعاب المنطقة الاخرى · هي في حالة مـــد · لذلك لا تحتاج الى رد الفعل لتاكيد الذات ، من هنا كان الرد علـــى السبـت الاسود معركة الفنادق · وداخل ازمنة المناطق الوطنية ترتفع شعارات طائفية وممارسات طائفية ، لكنها تدان على الاقل ايديولوجيا بوصفها عملا مشبوهـا· اما الذين يدافعون عن اخر معاقل الماضي الاستعماري والواقع الامبريالي فـان ممارساتهم كانت مختلفة بشكل كامل ·

المدخل الثاني : المصادرات · الوساطة من تحت ·

لس صدفة ان تكون اسماء محـاور القتال في بيروت تتشابه في دلالتهـــا الى حد عجيب : غاليري سمعان ، الهوليداي ان ، الهيلتـــون ، الاســـواق التجارية ، معمل الريحة ، المازدا ···· حتى في الجبل اسماء اخرى ولكـن الدلالة تتشابه : غاليري خير الله ، مطعم المطعم ، قصور الامراء ··· حتى في اعالي الجبال في الزعرور وصنين تدخل اسماء شبيهة : التلفريك ، فنـــادق بسكنتا ·

لقد جرت المعارك حول رموز النظام اللبناني · والرموز هي تسميـــة للواقع · ففي بلد الخدمات والوساطة والكومسيون وفي مدينة الكوميسيـــون الرئيسية في الشرق الاوسط ، كانت المعارك على مفترق الطرق حيث تقـــف مؤسسات الوساطة وادواتها ·

هل تكون مجرد صدفة او سوء تدبير او اهمال ايديولوجي ان تصبح المصادرات والسرقات عامة الى هذه الدرجة ؟ ربما ليست هناك علاقة بين بعض اسماء المحاور وبين المصادرات ، فهناك الكثير من المحاور التي تأخذ اسماء الشوارع : مارون مسك ، عبد الكريم الخليل ، المرايـة ، الحدث الليلكي ... لكن من المؤكد ان هناك علاقة وثيقة بين شيوع المصادرات والنظام الاقتصادي السياسي السائد ٠

في كل الحروب الاهلية هناك مآس اجتماعية ٠ قتل ، هجرات ،سرقات الخ ٠ لكن الحجم الذي اخذته المصادرات في حرب لبنان الاهلية كان حجما غير مألوف ٠

ما هي المصادرة ؟ انها تحديدا نزع لملكية اشياء من اصحابها في ظروف الحرب ولاسباب محددة : ارتباط المالك بالعدو ، استغلاله للشعب ، احتكار المواد الغذائية ... في جميع الثورات والحروب الاهلية حدثت مصادرات ٠ لكنها وعلى الرغم من طابعها شبه العشوائي حافظت على مجموعة من القيم الجديدة ٠٠ منع السرقة وتحطيم اللوحات الفنية والمباني ذات الطابع الاثري (ثورة أكتوبر) ٠ حتى في الحرب العالمية الثانية حافظ النازي على رغم وحشيته على نصب باريس دون ان تمس ٠

نقاش المصادرات لبنانيا ، يجب ان يناقش التركيبة العامة التي انفجرت٠ فالمصادرات كانت عامة وشاملة ، من اثاث المنازل والسيارات الى المكتبات والتماثيل ٠ من المؤسسات العامة الى المحلات الصغيرة في الاسواق التجارية ٠

هناك ثلاثة اشكال للمصادرات :

١ ـ **المصادرات الجماهيرية** : حيث اندفعت الجماهير الفقيرة الى اماكن القتال ، او الى المحلات العامة ، والفنادق ، واخذت ما أستطاعته ، على الرغم من تعرضها لخطر القنص او القصف المركز ٠ ولعل سرقة محلات سبينس بالشكل الفولكلوري الذي تمت به ، حيث اندفعت الآلاف وتدافعت وقتل حوالي سبعة اشخاص ، هو التعبير النموذجي عن هذا النمط من المصادرات الجماهيرية التي اندفعت اساسا الى المواد الغذائية والالبسة خوفا من خطر المجاعة والتشرد ، وبحثا عن حد ادنى من الضمانات المادية ٠

٢ ـ **المصادرات الجماهيرية المختلطة** ٠ اخذت المصادرات الجماهيرية من الطرفين اشكالا مختلطة في بعض الاحيان ٠ قسم منها على شكل تواطوء كما في مخزن الكرنتينا الشهير حيث كان يصادر من الجانبين دون اي

احتكاك يذكر · وبعضها على شكل غض النظر كما حصل فـــي الاســـواق التجارية ·

٣ ـ المصادرات المراتبية وهي اكثر اشكال المصادرات شيوعـا · فلقـــد اندفعت مجموعات من القوى بشكل منظم ومراتبي الى الكثير من المرافـــق وصادرتها بشكل عشوائي ومنظم · وقد اختلط في هـــذا المستـــوى مـــن المصادرات الاعمال الفردية وشبه الفردية بالاعمال الجماعية · واستخدمـــت المصادرات كموارد مادية لبعض القوى او كأساس لتجميع الثروة في اعلـــى الهرم وخاصة في صفوف القوى « المحلية » شبه المنظمة ، قوى الاحيـــاء التي اندفعت بشكل كامل الى هذه المصادرات فيما كانت تشارك في الرمايـة بجميـــع الاسلحة داخل حقل المعركة ·

المصادرة المراتبية هي اكثر الاشياء دلالة · فاندفاع الجماهيـر الـــى السرقة في ظروف حرب اهلية يمكن ان يفسر جزئيا بالحرب نفسهـــا ، امـــا الوصول الى المصادرات المراتبية فانه لا يمكن فهمه الا من داخل التركيبـــة اللبنانية · فقد استبيح كل شيء · اثاث المنزل المصادر يمكن اعادة شرائه · السيارة المصادرة تختفي او تباع من جديد · تساقطت جميـــع المحاذيـــر والمحرمات ·

انتقال السرقة من فوق الى تحت · يصاحب هذا الانتقال عمليـــة انهيـــار مؤسسات الضبط والقمع الاجتماعي · فلا يبقى محظور فعلـــي · اقتصـــاد الوساطة القائم على السمسرة والكومسيون والاحتكار هو اقتصاد سرقـــة واحتيال · تراكم الثروة هو تراكم القوة وتراكم الشطارة والقـــرب مـــن السلطان · كل الناس تعرف ان الثروة هي سرقة · ومع انهيار نظام السرقـة من فوق جاءت السرقة من تحت · هنا كان الاندفاع الشعبي الى تدمير المجتمع القديم ، تدمير قيمه ،الانقضاض على السارقين وسرقتهم · يبدو هذا التفسير جزئيا وتبسيطيا · فالسارقون الكبار اندفعوا هم ايضا الى السرقة : تجـارة الاسلحة المضبوطةمنفوق، التهريب،الخوات المنظمة،احتكاربعض السلعلكن الحرب افرزت على الاقل مراتبية جديدة ·اضطراللصوص القدماء الى الخضوع لمشاركة قوى جديدة · فانتظمت مراتبية جديدة على ايقاع القتـــال · الوساطة انتقلـت الى تحت ، وهنا ابدت الاشكال الاجتماعية اعلى مستوى مـــن المقاومـــة · فانتظمت المراتبية · وتحول المجتمع القديم الى شكل جديد دون ان يجـــري اختلال عميق في بنيته ·

انهيار القيم البرجوازية : بانهيار المجتمع وتفسخـــه ، انهـــارت قشـــوره

انهارت القيم البرجوازية التي الصقت به فلم تبق قيمة لـم تمس · القيـــم البرجوازية المستمارة تتساقط كالقشور · لم يعد هناك حرمـــة : الجامعـــة اللبنانية بكل اجهزتها الحديثة ومكتباتها واثاثها تنهب ، الوثائق تتساقط ، رئاسة الحكومة وهي بناية اثرية من العهد التركي تحترق وتنهـــب · كـــل القشور سقطت · اللا انتاج ينفلت من عقاله يسقط كل الرموز المستعارة وليبقـي الحقيقي · لذلك لم تكن حرمة لشيء · الملكية الخاصة استبيحت دون أن تمس في جوهرها كعلاقة ·

يحمل هذا الوصف في داخله اشارة الى القوى الاجتماعية ، فالغيـاب شبه الكامل للبدائل الثورية بالمعنى الجذري للكلمة ، هو الذي لم يطرح بديـلا للاشياء · وربما ولادة البدائل لا بد بفعل الضرورة التاريخية من ان تمـــر داخل هذا النسق من الدمار والتدمير ·

المدخل الثالث : القصف ـ الايقاع الخلفي ·

القصف هو تحديدا شكل عسكري للقتال · يقول العلم العسكـــري ان القصف الدفعي يستعمل عادة كتمهيد للهجوم · فيجري قصف مراكز تجمـــع العدو ، او يستعمل ضد تجمعات آليات العدو وقواه البشرية التـــي تهاجـــم فيسند المواقع المتقدمة · ويقول العلم العسكري ان «الهاون » هو مدفع يستعـمل في ميدان القتال ضد التجمعـات العدوة · وهو سلاح بالغ الفعالية · اما فـي الحرب الاهلية في لبنان فعدا عن الاستعمال العسكري ، استعملت المدفعيـة بكل انواعها واشكالها ضد المدنيين ، وضد الاماكن السكنية · وربما جـــرى تفسير ذلك في المدن ، بانه خلال الاشتباكات الفعلية ، فان المراكز السكنيـــة تشكل خطوطا خلفية لامداد وتموين القوى المقاتلة ، كما ركز فيها في بعضـــ الاحيان اسلحة اسناد · يمكن ان يؤخذ هذا التفسير خلال المعارك الفعلية ، خلال المعركة الضارية التي اسقطت فندق « الهوليداي ان » وفندقي «الهيلتون» و« النورمانـدي » · اما حين يصبـح القصف العشوائـي عـامـا الـــى درجة حصد عشرات المدنيين يوميا ، فان هذا يحتاج الى تفسير اخر ·

انه يشير اولا الى واقع يترسخ يوميا · يقود اغلاق المناطق الى محاولة كل منطقة تدمير عدوها · فالاصرار على القصف العشوائي من قبل الاطراف المقاتلة ، وتعميمه الانعـزالي يقود الى التقسيم · تعميم الكراهية والخوف الى درجة مرتفعة جدا · وضع حدود نفسية بعد الحدود الفعليـــة · القصـــف العشوائي رعب دائم · تعبيـــر عن تعميـــم رفض الاخر بيـــن المقاتليـن · ايصال الى التقسيم الفعلي والنهائي · والا فما هو معنى قصـــف المنـــازل

بالصواريخ ومدافع الميدان والدبابات !

وهي تشير ثانيا الى العجز · العجز عن الحسم الفعلي يقود الى حسم وهمي· القصف هو حسم وهمي · انتصار وهمي · يقصف تجمعا سكانيا فيعتقد انه قتل عددا كبيرا من افراد العدو ، لكن الاخر يستطيع ان يقصف تجمعا سكانيا كذلك · العجز لا يحصي سوى خسائر العدو · ينسى خسائره · انها انتصارات وهمية · حرب جبناء كما وصفها احدهم ·

وهي تشير ثالثا الى ايقاع الحرب · اصبح القصف اليومي هو الايقاع الذي يفرض على الجميع العيش وسط الحرب حتى في فترات ضمور جبهات القتال · انه الموسيقى الخلفية التي تهز الجدران والنوافذ · المقاتل على جبهة القتال وامتداده القتالي هو في الداخل حيث الايقاع · القصف ايقاع يومي، نسق تعتاده حتى يصل الى بيتك ، عندها تفاجأ به من جديد ·

المدخل الرابع : الحرب الفعلية واشكالها التعبيرية

سياسيا حدث التحول الجذري في مسار الحرب بعد انقلاب الاحدب وولادة الجيش العربي · وعسكريا بصعود القوات المشتركة الى الجبل في سبيل كسر التقسيم وضرب القوى الانعزالية · بعدها حدثت الانعطافات سياسيا وعسكريا : انتخاب سركيس ، التدخل العسكري السوري ، دخول العدو الصهيوني طرفا مباشرا في حرب الجنوب ، سقوط تل الزعتر ، معركة بحمدون وجزين وروم ، دخول القوات العربية ··

التحول السياسي والعسكري انعكس على اشكالية المعارك ، فعلى الرغم من ان الضبيه والكرنتينا والدامور دشنت الاجتياح العسكري الفعلي للمناطق ، فان الحرب انتقلت بهذا التحول الى مستوى ارفع ، توقف القنص كمؤشر اساسي ، ولم تعد البنايات تحمي من قذائف الهاوزر ، خف الخطف واشتد القصف المركز والعشوائي ·

لقد دخلت الحرب اشد حلقاتها ضراوة · مع اشتداد المعارك قطعت الكهرباء والماء · قصف وحصار تمويني واجتياحات عسكرية وتهجير · دخلنا الحرب الفعلية ·

يمكن تسجيل ثلاث ملاحظات في هذه المرحلة :

١ ـ اشتد اغلاق المناطق ، الطريق الوحيدة الآمنة بين بيروت الشرقية

وبيروت الغربية اصبح عبورها بالغ الصعوبة وقد يصل في كثير من الاحيـــان حد الاستحالة · المناطق تغلق ، تعاني مشاكلها وحيدة ، حصار فـي اكثـــر الاحيان ، حرب تجويع وتركيع وحرب انتصارات ساحقة · ومع اشتداد اغلاق المناطق بدت امكانية كسر المتاريس التي تغلقها عبر الاجتياح · لقد انتهى عهـد الطمانينة التقليدية ، بعـد سقوط الهوليداي ان اصبحت الطريق الى الاشرفيـــة ممكنة ، وبسقوط عينطورة والمتين اصبحت طريق بكفيا ممكنة ، وفي فتـــرة انهيار الطرف الانعزالي كانت الكحالة حتى الحازمية غير مستحيلة · لقد دخلنـا مرحلة الصراع الشاملة · وباختلال ميزان القوى بعد اجتياح البقـاع وعـكار ، كتب تل الزعتر عبر شهرين من الاساطير القتالية ملحمة صموده وسقطت الكورة وابتدأ الحديث والتهويل باجتياح طرابلس وبيروت الغربية · سقط الامـــن القديم القائم على تجربة ١٩٥٨ ·

لقد عكست الحالة الجديدة نفسها على الواقع الجماهيري · لم تعـــد هناك منطقة خارج الحرب · لبنان بأسره من شماله الى جنوبه يدخل الانقسام والصراع · اختلطت الجبهات والتحالفات ، وبدا وكأن التاريخ يكتب احد اهم فصوله ·

٢ ـ النظر الى الحرب من الخارج وفي المناطق « الآمنة » اصبح مستحيلا · لقد دخلت الحرب كل بيت · اصبح الكل معنيا بها بارادته او بفعل الظـــرف الجديد · هنا حدث التحول في ممارسة الجماهير السياسية · فبعد محاولات لانشاء لجان شعبية ولاقامة عمل شعبي بلغ ذروته في المدارس الشعبية التـي كتجربة قدمت نموذجا لبداية انخراط فئات من المثقفين الهامشيين في الحيـاة العامة عبر خلق نماذج لعلاقة مفترضة بين المعلم والتلميذ ، وعبر محاولة كسر حدود المدرسة الايديولوجية وربطها بالحي بعد ان كانت مرتبطـــة بالنظـــام التعليمي (الاديولوجية المسيطرة) وجعلها جزءا من حياة الجماهير اليومية · بدات اللجان الشعبية تتوالد · لقد انهارت تجربة المدارس بعد الوثيقة الدستورية، ولم تعد ممكنة في ظل مطر القذائف المباشرة · غير ان البديل الجديد « اللجان» كان اكثر تقدما · اعداد هائلة من الناس تبحث عن وسيلة انخراط في الحـرب· ووحدها اللجان تستطيع ان تستوعـب هذا المد الجماهيري · لقد جرى تعميم تجربة اللجان في ذروة الحصار · ولدت اساسا ضمن برنامج فعلـــي بالـــغ التواضع ، تنظيم تقنين المواد الغذائية وتوزيعها · لكنها غرقت عمليا في بحر التوزيع ، لم تستطع الانتقال وفي ظل شيوع قيم التوزيع الجديدة الى المستوى السياسي · تركت هذا المستوى للصحف ورجال السياسة واغرقت الجماهيـــر في مشاكل التوزيع الى درجة ان اكثر هذه اللجان وجد نفسه دون عمل بعـــد الانفراج النسبي للمسالة التموينية · هذه الصورة العامة يجب ان لا تحجـب

مجموعة من الممارسات التي بقيت قليلة الفعالية والتي حاولت الانتقال الـــى المستوى السياسيعبر ندوات جماهيرية واقامة لجان منتخبة ·لكن التجربة بأسرها كانت محكومة باشكالية التوزيع · ولم تسمح فتـــرة ازدهارهـــا القصيـــرة للاتجاهات الجذرية ببلورة نسق جديد لعـــلاقة الجماهير بالسياسة · وفـــي المقابل حاولت الادارة المدنية الوصول الى التوزيع من السياسة · فاقامـــت لجانها الخاصة وتدخلت في توزيع المواد التموينية لكنها هي الاخـــرى لـــم تستطع ان تقدم نموذجا جديدا لانها توزيع من فوق ·

تحتاج هاتين التجرتين الى دراسة خاصة وتفصيلية · فهما التعبيـــــر المباشر عن تجربة محاولة ادخال السياسة الى الممارسة الجماهيرية ، الناس تتكلم في السياسة في الاوقات العادية ، وتتكلم في السياسة دائما فـــي زمـــن الحرب ، لكن السياسة تعني مجموعـــة من المهمات الصغيرة والكبيرة ·

٢ ـ في فترة التحول السياسية والعسكرية هذه استمرت المصـــادرات لكنها انتقلت من خطوط القتال الى الداخل ، كما استمرت قـــوى الاحيـــاء العسكرية ، لكن الجديد هو تحول عدد كبير من افراد الميليشيا الى قوات مقاتلة شبه محترفة · الطالب والموظف والكادح ينتقلون من الدفاع عن الحي الـــى الدفاع عن الوطن ، من البقاء في الكمين فترة محدودة الى البقاء في الموقـــع فترة غير محدودة · هذا الانتقال النوعي حول الكثير من المعارك العسكريـــة الى معارك ابداع جماهيرية · هكذا يعـــلم شموخ صنين ، وبطولات صيدا وملحمة بحمدون · لقد انتقل الناس الى الحرب · دخلت الحرب الى البيت وخـــرج الناس من البيت الى الحرب الشاملة · المعركة الحقيقية هي مدرسة التدريـــب الفعلية · وفي المعارك الحقيقية اصبحت السياسة في فوهة البندقية ، ودخـــل تحول على تركيب القوى المقاتلة سوف ينعكس فلسطينيا ولبنانيـــا باشكـــال نضالية مرتفعة ·

في الخنادق كانت الذكريات والاغاني والقصائد هي التعبير الثانوي · فـــي فترات الراحة ، بين معركة ذاهبة ومعركة قادمة كانت الذاكرة تضيف الـــى الواقع بعدا · اما التعبير الرئيسي فكان القتال ، ابداع لحظات القتال بكـــل اسرارها واحزانها ·

ماذا يقدم الجسد للجسد : الجسد في حركته ، يسقط وينحني يتموج ويلمس الريح · وبين الطلقات ، وحول جسد الشهيد ، وفي ظلام السكـــون العميق حين تنتظر العدو فلا يأتي او حين تسمع صوته ووقع خـطاه ولا يأتي، تكون التفاصيل هـــي كـل التعبير،والارض هي الاسرار التي لم تكتشف ·

داخل الكنيسة التي تحولت الى موقع عسكري ، وبين الطلقات والقذائف، يقف المقاتل ، في سكون الليل وارتجاف ثلاث شمعات وامام جسد المسيح الملقى على الارض شبه محطم ، ليقيم قداسا بين رفاق سوف يدخلون معركة حقيقية بعد دقائق ، هذا الاحتفال يتكرر وسط الشارع حين تندفع مجموعة من المقاتلين وهي تعزف على الآلات الموسيقية وتطلق النار حزنا او فرحا او احتجاجا على موت شهيد · او حين يصل الحوار في المواقع وبين الكمائن المتقدمة الى درجة تصبح معها الكلمة على فوهة البندقية تصرخ بالثار وحين تصل الى الاسير تنحني بحنان المقاتل ، تقدم كوب الشاي وتطلب من قيادة الجبل معاملة الاسير بشهامة ورحمة ·

الذاكرة هي تعبير ثانوي ، لكنها لا تبقى مجرد ذاكرة ، تحاول ان تلتقط الايقاع وتشحنه بالمضامين والتجارب الجديدة · كسر الايقاع يحتاج الى زمن اكثر اتساعا · لذلك تلجأ الاغنية الى الايقاع الشعبي وايقاع الاغنيات المعروفة لتحاول ان تقيم تعبيرا خاصا عن حياة القتال والمقاتلين · وعلى الرغم من جدارة محاولات خالد الهبر وبول مطر ، فان الاغنية المباشرة الحية التي يؤلفها احد المقاتلين ثم يؤلفها الجميع بعده بقيت هي سيدة الاغنيات تنشد في المواقع في فترات الهدوء وفي المعسكرات وفي المهرجانات ·

في « القوات » نماذج هائلة من الاغنية الشعبية الفلسطينية التي تحتاج الى جمع ودراسة ، حيث تبرز مواهب المقاتلين واتجاهاتهم · وفي الحرب الاهلية برزت نماذج اخرى تحمل شعارات محددة وتشير الى مستوى معين من منهج التجربة الجديدة · ضمن الروحية الزجلية « لاح العلم الاحمر لاح بالقنطاري وبالشياح » · الى الاغنية الحقيقية الكاملة · ولعل تجربة « حاتم » من السرية الطلابية واللجان الوطنية هي اكثر التجارب دلالة خلال الحرب · فهي اغنية سياسية تنطلق من ظروف المعركة وظروف الواقع لتقول شيئا محددا · تتكىء على اللحن المعروف لتقوم باعادة صياغته من خلال الكلمة :

« الله الله الارادة الربية — كيف الابطال طلعوا الجبال
والمسافات صارت قريبة — ما في شي صعب كل شي بينطال
وان كان اكيد — سقط الشهيد
كل يوم بيخلق — مية عنيد »

على اللحن الفيروزي « الله الله يا تراب عينطورة » تعود عينطورة عربية من جديد وتتجسد ارادة من صنعوا هذا التغيير في وضوح الرؤية وتحليل ملموس للمعركة · الاغنية هي اشارة لتجربة لذلك فحين تنتقل الى المستوى السياسي المباشر فانها تاتي من خلال تجربة مباشرة :

« ثورة ما يغلبها غلاب فلسطينية وعربية
تجمعنا وحدة التراب ووحدة ارض وقضية
والثورة بدها استيعاب الخلافات الثانوية
لا رجعية ولا انتاب ثورة استقلالية ..
على نغم الانشودة المشهورة « وحدة مايغلبها غلاب »

الى جانب هذه التجربة المتكاملة يرتفع صوت « ابو بسام » في هذا الردح الجنائزي على الشهيد عبر التأكيد على الوجه السياسي المباشر · او ينطلق من قمة صنين :

« عالشهيد دمعتين والعهد عليا
فدائي انا ودربي الحرب الشعبية » ·

لا تزال اغنية المقاتلين بحاجة الى تجميع لكننا نستطيع ان نشير الى سماتها الرئيسية :

فهي اغنية تجربة تقدس الشهادة وتحفظ عهد الرفـــاق ، وهـــي اغنيـــة سياسية تبحث عن اداتها الفنية ، تستعير الاداة الموجودة مع محاولة تطويرها وهي اغنية شعبية تنطلق من الموروث الشعبي ومن المعاناة الجماعية ·

في المقابل ، كان هناك ايضا اغنية في الطرف الانعزالي المقاتل · سنقدم هنا نموذجين صدرا بكراس « الثورة الكتائبية » ولا ندخل في المقارنة

« حداي حداي فدائي خطي تصيبوا متل الترغلة
هجوم عليه قطشلوا دينيه لحم عليه ما تخلي
هجوم عليه فقرلوا عينيه مثل الوحش البري
وان هجم على بيتك قرطوا رصاصة بيصلي »
« وعين الرمانة ساحة الدكوانة
جثث مليانة فدائية عم بتموت »

الفاشية الصغيرة · شحن بيولوجي غير سياسي · أستقطاب للزعـران والمرتزقة ومحترفي القتل · ولا مجال للمقارنة ·

★ ★

الحائط

بيروت غابة الاسمنت · وحرب المدن ، تجري بين جدران الغابـة ، بيـــن الابنية العالية والشوارع الضيقة · يصبح الحائط عنوان المدينة ، والكتابـــة عنوان الحي ، والملصق نبرة الوان احتفالية ·

وحدة الحي ليست في الحي المواجه ، بل كذلك في الداخل • هنا يأتي الحائط واليافطة ليكتبان شعارات الوحدة • الحائط هو بهذا المعنى جهاز اعلام، وحدة اعلامية عليها ترفع الشعارات وتحدد المهمات • هكذا ، الانتفاضات الجماهيرية تبحث عن اسلحتها الخاصة • في ثورة اكتوبر كان مايكوفسكي مع مجموعة من الفنانين المستقبليين يصدرون بيانا يعلنون فيه استعدادهم لرسم الملصقات وكتابة الشعارات للقوى الثورية • وخلال الثورة الثقافية الاولى والثانية كانت كتابات الحائط هي اداة الادانة الجماهيرية ، وفي انتفاضة ايار في فرنسا اصبح الحائط ديوان شعر تتاخى فيه اللغة : الشعارات السياسية والمقاطع الشعرية التي تمجد الحلم •

وفي بيروت كان الحائط ، اداة اعلام ، عليه كثبت الشعارات ، وفي وسط شوارعه رفعت اليافطات • وخلال المعارك احدثت فيه فجوات التسلل ، احرق ، وبقيت غابة الاسمنت شاهدا على اشكال الممارسة الجماهيرية •

كانت كتابات الحائط تعبيرا عن واقع القوى السياسية لذلك كانت تحمل اكثر من اتجاه :

١ ـ **شعارات سياسية واضحة** تعبيء الجماهير في سبيل انجاز مطالب محددة : لا للحكومة العسكرية ، نعم لتعديل قانون الانتخاب • ، لا للتقسيم•••

٢ ـ **شعارات ايديولوجية** : المطرقة والمنجل • لا للطائفية البغيضة • لا اله الا الله • فتح ديمومة الثورة والعاصفة شعلة الكفاح المسلح • نعم لعروبة لبنان ••••

٣ ـ **شعارا تحريضية وتكريمية** تل الزعتر لا يسقط • شارع الشهيد•••• نموت واقفين ولا نركع • نعم لجيش لبنان العربي ••

٤ ـ **شعارات محلية** وتتعلق باحداث مرت في الحي او بأحد قادة الحي: اهلا بالبطل ••• او ساهموا في حملة النظافة • من الواضح ان الشعار السياسي هو كل شيء على الحائط • وهو في اشكاله المختلفة يعبر عنحالة جماهيرية اكثر مما يعبر عن مطالب ملموسة او مهمات محددة • الاساسي هو التوقيع ، جميع اليافطات وكتابات الحائط موقعة وكلها يجمعها في المحصلة

شعاران : عروبة لبنان وحماية المقاومة · هذه هي الشعارات الفعلية والباقـــي يفترض انه متضمن فيهما وهو يتغير بتغير الظروف اما هـذان الشعـــــاران فثابتان طيلة الحرب ·

توقيع الشعار اهم مـــن كتابته · الحائط هو وسيلة اعلام تنظيميـة · لذلـــك كان التوقيع فـي بعـض الاحيان اكبر مـن الشعار واكثر اهمية منه · التوقيـــع يشير الى قوى محددة ، بينمـا الشعـار لا يشير اليهـا بالضرورة ·
كان الحائط ملونا ، ممتلئا بالصور والرسوم والكتابات مـــن مختلف الاحجام والالوان ، الى درجة دفعت احد الاصدقاء القادمين مـــن المناطق الانعزاليـــة ليقول : ماهذا ؟ الوان وملصقات ورسوم وفـــن ··· عندنا لاوجـــود لهذا ، انتم كأنكم في عـيد ·· عيد ، اذا شئنا ان نكون متفائلين جدا نقول اننـا فـي عيد ! الجدران كانت تحتفل بالعيد على طريقتها الخاصة · الملصقـــات فـــي كل مكان ، الشهداء فـــي كل مكان · المقاتل ينظر الى الحائط وكأنه ينظر الـى مرآة · ملصق الشهيد فـــي هذا العيد الدموي كان هو العلامة· الحائط اصبح ملصقا كبيرا دون ان يخطط احد لذلك · تنافس التنظيمات وكثرة الشهـــداء تكفلت وحدها بتلوين الحائط ·

الملصق : هو تعبير بالصورة واللون والكلمات عن فكرة محددة ، وضع الشعار السياسيداخل حركة من الاشكال تجعله اقرب الى عقول الجماهير وعواطفهـا · يشير ضياء العزاوي (فن الملصقات في العـراق) الى تحديد الملصـــق عـلـى النحو التالي : « الملصق مطبوع يصمم من اجل ان يفهم من نظرة سريعـة · · وهو يجمع مؤثرات بصرية مباشرة بوسائل اتصال مختصرة، ذات قدرةعلـى منافسة المحيط المشوش بصريا · ولكي يكون كذلك يجب ان يحتفظ بالوضـــوح والتميز· فالملصق اذا ، تعبير عـــن فكرة ، فهو بسيط فـــي تكويناته ، مكثف فـــي كل جزء منه · ولان الفنان يسعى مـــن خلاله الى تحقيق هذه الفكرةعبر التغلب على المشكلات التي تظهر ، فانه يتضمن عنصرا ذهنيا عميقا » ·

عربيا كان الملصق الفلسطيني هو العلامة ، فهووحده استطاع ان يستقطب فـن الملصقات حول قضية سياسية ملموسة وحول الصورة واللون الى اداة تثقيـف سياسيين واذا كانت رومانسيته تأتي من كونه ولد عمليا حول صورة الشهيـــد ، فان الشهيد يبقى هو جوهر الملصق الفلسطيني · ليس هنـاك ثـــورة تقـــدس الشهادةمثل الثورة الفلسطنية ، ولم يسبق ان اصبحت صورة المقاتلين الشهداء هي عنوان المسيرة في ايةثورة فـــي العالم · قبل الحرب الاهلية وفـــــي اثنائها كان ملصق الشهيدهو الاساسي ، اما الملصق الآخر ، الملصق السياسي فلا يزال مجرد ملحق صغير بالملصق الاول ·

جميع الشباب يهيئون صورهم ، وقبل النزول الـــى الكمين يؤكدون عـــلـــى رفاقهم وضع صورة محددة ومختارة في ملصقهم · الملصق هـو مرآة المقاتـل ، ينظر اليه باعجاب وحزن : كلنا على الطريق ، وحين يأتي خبر استشهاد اخ او رفيق ينظر الجميع الى الحائط حيث الملصقات (يحي رباح) · مـــن هـــذه اللحظة التي تمتزج فيها الواقعية باكثر صورها مأساوية بالدهشةالقادمة مـــن الموت ، وصف معين بسيسو في قصيدته « غـزال صنين » هذه الحـالة :

« يذهب للخندق ·
ضيف اخر يا بيت الشهداء
الشهداء الجدد ، على مائدة الشهداء القدماء ·
الملصق فوق الملصق ،
فوق الملصق ،
فوق الملصق ،
لو احرقت الصورة ·
سوف تصير قديما فوق الحائط ·
الان المطبعـة تدور ·
وغزال اخـر ·
يمشي والالوان تغطيه ،
الى الحائط ملصق » ·

ملصق الشهيد : تكريم ، تخليد ، حث على القتال ،تمجيد قيم الشهادة فـي سبيل قضية · الاساسي هو صورة الشهيد المغطى بالالوان ، كأنه يعود الـــى الطبيعة فيتحد بالعناصر الملونة · المهم في ملصق الشهيد اذن هو الصـــــورة والالوان الى جانبها ، الاحمروالابيض اوالابيض او الاخضر أو الازرق ···

اذا اخذنا الملصق العادي الشائع، ملصق المقاتل المجهول فماذا نلاحظ ؟ الصورة وكتابة الـــى جانبها · الكتابة لا تدل عـــلى شيء · تشير الى ثلاثة اشيـاء · الاسم · متى ولد · متى استشهد وكيف؟ ملصق الشهيدلايريد ان يقـــول شيئا اكثر من اعلان الشهادة نفسها ، والعهد على مواصلة المسيرة ·

هذا النسق العام جرى تعميمه من خلال ملصقات «الاعلام الموحد» وهي اكثر الملصقات عددا وانتشارا ؛ الى جميع الملصقات · ولم يخترق هذا النموذج الا في حالات قليلة · وصار «الملصق فوق الملصق» وكأن الحائط هو ملصقنـــا جميعا ·

يمكننا ان نشير الى ثلاث حالات حاولات اختراف هذا الشكل مـــن الملصـق وهي على الرغم من كونها تبقى حالات خاصة وغير معممة الا انها تشير الى

واقع ممكن ٠

الملصق السياسي ٠ حاولت ملصقات القادة الشهداء (جواد ، الحج حسن ، سعد ٠٠٠) اختراق ملصق الصورة واللون عبر التركيز على مسالة الانتماء السياسي والافكار ٠ لكن ملصقا خاصا لشهيد استشهد على قمة جبل صنين يقدم نموذجا لمحاولة الاختراق السياسية ٠ ملصق عادي مستطيل ، اطـــول قليلا مـــن ملصق الشهداء ٠ قاعدته اللونية زرقاء غامقة ، الكتابة بالاحمـــر والابيض والصورة داخل الازرق بالاسود والابيض ٠ الكتابة واضحة الاهداف ٠ ولد الشهيد وسقط الشهيد ، لكن قبلهـــا « شهيد البطولة فـــي صنين » وبينهـــا كتابة سياسية حاولت ان تؤكد قناعات الشهيد محمد شبارو ودوافعه الـــى القتال ٠ « كان يؤمن ان الجماهير هي التي تقود مسيرتنا الثورية وان المناضل الحقيقي هو الذي يخدم الشعب » ٠ وفي النهاية العهد التقليـــدي مكتوبـــا بشكل غير تقليدي « عهدا لك يا محمد شبارو أن تبقى البنادق مرتفعة وان تبقى مسيرة حرب الشعب العربية مستمرة ٠ وانها لثورة حتى النصر» ٠

محاولات متواضعة ، في عرس الالوان ، تريـــد ان تؤكـــد علـــى المغـــزى السياسي للاستشهاد ٠ تريد ان تكون بيانا سياسيا ملحقا ببيانالشهادة نفسها٠

الملصق الفني وسط بحر الالوان ، يسترعي الانتباه ملصق متواضع ، فرح ، تقف امامه مذهولا ٠٠ ملصق مستطيل محاط باطار بنـــي اللون ، قاعدتـــــه بيضاء ، وفي وسطه شاب صغير السن يضحك باللون البنـــي ٠ لا يبتســـم يضحك فرحا بالحياة ٠ وتحت الصورة كتابة بالابيض على البني : « اذا ضحك الموت في شفتيك / بكت مـــن حنين اليك الحياة » (ادونيس) وعلى الجانب الايمن كتابة بخط رفيع « من رفاق الشهيد طوني النمس وحركة وجهة نظر» ٠

الملصق الجماعي على خريطة كبيرة للبنان مرسومة ضمن مساحة خضراء شاسعة ٠ عشرات النجوم الحمراء مزروعة فـــي كل لبنان ، وفـــي البحـــر امام بيروت٠ علـــى اليسار فوق كتابة باللون الاسود : «شهداءالحزب الشيوعي اللبناني اذار ٧٥اذار ٧٦» والى اليمين فـــي اسفل الملصق مقطع شعـــري لمحمود درويش :

لا اعرفهم
لكني اعرف فيهم دربي
وبطاقة حزبي
اعرف فيهم شعبي
لا اعرفهم
لكني اعرف فيهم زمني
اعرف فيهم وطني » ٠

وفـــي اسفل الملصق كتابة باللون الاسود : « استشهدوا فـــي المعركـــة ضد المخطط الانعزالي الفاشي دفاعا عن لبنان ووحدته وعروبته وعن المقاومـــة الفلسطينية » ٠

نجوم حمراء تصفع الوجه ، وتتغلغل في الخريطة معلنة زمـــن الشهـــادة الجماعية الجديد ٠

الى جانب ملصق الشهيد كان هناك الملصق الآخر ٠ ملصقات من مختلـــف الاحجام والالوان ، اشكال ، كتابات سياسية ، اسماء تنظيمات ٠ يمتليء الحائط والاشكال في كن مكان ٠ يمكننا ان نقدم نمذجة اوليـــة لهـــذه الملصقـــات :

ملصق التكريم الذي يراد به الاشارة الى بطولات خارقة ، تمجيـد ابطالها ، تقديمهم كنموذج للنضال (الامينة الاولى زوجة سعادة : الحزب القومي) شهداء **الكورة : الحزب القومي) (جيش لبنـان العربي : الحصان)** ٠

ملصق التحريض ياخذ هذا الملصق حادثة محددة ماساوية فـــي الغالـــب ، ليحرض على الثار (مأساة البولـــدوزر لن تنسى فـــي المسلخ : الاتحـــاد الاشتراكي العربي) او عـــلى اخذ دروس الصمود (تل الزعتر : الاعـــلام الموحد ٠

ملصق التعبئة السياسية : وافضل نماذجه هـــي الملصقات الكتابات دون صور التي اصدرها الاعلام الموحد : « لا للوصاية لا للتبعية ، لا للاحتـــواء » ٠ او «مـــع الحركة الوطنية اللبنانية » ٠٠٠ ـ او ملصقات (القيادة العامة) عن المعارك الاساسية ٠

وقد استخدمت في هذه الملصقات مجموعة من الثوابت :

رموز اخلاقية (الفرس : جيش لبنان العربي) ملصق اتحاد العلماء: الجنوب يا عرب (الاعلام الموحد) **رموز تقليدية** (غصن الزيتون ، حمامة السلام الاعلام الموحد) **رموز قتالية** : البندقية ، الكوفية ، المقاتل (الجميع) ، **رموز جماهيرية** : اليد المفتوحة (الاعلام الموحد) القبضة (الجميع) الجماهير نفسها (الاعلام الموحد ، الاتحاد الاشتراكي العربي) ٠ **الصـــورة الفوتوغرافيـــة** : ملصقات جلسة انتخاب رئيس الجمهورية (الحزب الشيوعي) ملصـــــق الشياح (الاعلام الموحد)٠٠**الرسوم الكاريكاتورية** :) ملصقات الحزب الشيوعي

يمكننا ان نشير الـــى مجموعة ملاحظات حول الملصقات :

١ ـ الكتابة كثيرة حول الاشكال والالوان ، لكنها ليست بالضرورة كتابـــة سياسية تريد ان تقول شيئا محددا انها اقرب الى الحالة منها الى الشعـار السياسي ٠

٢ ـ غياب « الموتيف » الثابت في الكثير من الاحيان ، الـذي يجعـل الناظـر يعتاد ويفهم ويفك الرموز ٠

يمكننا هنا استثناء ملصقات حداد (الحزب الشيوعي) التـــي ركزت على موتيفات الرسوم الكاريكاتورية والثوابت : نجمـــة داوود ، ارزة الكتائـب ، وثوابت الحركة : نقطة الباء في بحمدون تسقـط على رأس الجندي الذي يحاول اجتياحها والنون تتحول الـــى منجل يقطع رأسه ٠

٣ ـ محاولات الصورة الفوتوغرافية التي تعبر عن نفسها في ملصقي منـي السعودي الشياح والكورة (الاعلام الموحد) ٠ حيث يأتي الواقع شامخا وهادئا، يقول كل شيء ٠

٤ ـ محاولة فـــي ملصـــق ذكرى عبدالناصر (الاتحاد الاشتراكـــي العربي) لوضع الجماهير في المقدمة ، والقائد كجزء رئيسـي ولكنه يبقى جزءا منها مع كتابة تؤكد على دور الجماهير ٠ « لكن عبد الناصر تـــرك شعبا » ٠

٥ ـ غياب ملصقات السخرية ، والتركيب ، والكولاج على الاشخـاص بشكـــل شبه كامـــل٠

٦ ـ الامكانات الهائلة التي وضعت بتصرف صناعة الملصقوورق ممتاز مـــن مختلف الاحجام الوان ،اعداد ، ٠٠٠٠٠

٧ ـ غياب ملصقات التوعية الجماهيرية عن القصف او التنظيف ، أو امـــور اخرى بشكل شبه كامل ٠

الاساسي فـي تجـربة الملصـق السايسـي انـه لـم يكـن متفجـرا على ارض المدن التي تتفجـر ٠ الـوان في كـل مكـان ٠ عـرس واسماء التنظيمات بارزة حـد الاختنـاق ٠ لا نـزال بحاجـة ماسة الـى ملصقات بسيطة وواضحة وتعليمية مثل ملصق الحلاج ،(ايلول ١٩٧٠) حيث يقف المقاتل الفلسطيني فـي وسط الملصق محاطا بثلاثـة حيوانات مفترسة تمثل اميركا واسرائيل والمملكة الاردنية تحاصره وتهاجمـه ٠ وفي الاعلى يبرز الامـل الثوري على شكـل طفل يضيء ممتطيـا جواده ٠

الحائط مجموعة الوان ، هذه هي ازمنة التغيير الوطنية · ازمنة تتعـايش وتحاول ان تقول بالصورة واللون ، شعار الدم الذي يغسل لبنان ·

★ ★

وسائل الاعلام

داخل ايقاع الحرب ، داخل المنازل وفي الشوارع كانت وسائل الاعـلام في كل مكان · صحف ونشرات لا تحصى ، اذاعات تتوالد اذاعة الصنائـع اذاعة عمشيت ، صوت لبنان (الكتائب) صوت لبنان العربي (المرابطـون) صوت الناصرية (اتحاد قوى الشعب العامل) صوت النهضـة (الحـزب السوري القومي) اذاعة الثورة العربية (الاتحاد الاشتراكي) اذاعة حركة ٢٤ تشرين في طرابلس اذاعة التنظيم الشعبي الناصري في صيدا الخ ·

الناس في كل مكان يتلهفون لسماع الاذاعة ، وقراءة الصحـف والنشرات (في بعض الاحيان تقرأ مراعاة لخاطر المقاتلين) اصبح الخبر السياسي جزءا من حياة الناس اليومية ·

الواقع ان هذه الفورة الاعلامية تدرجت في الوصول الى هذه التعددية، في البداية كانت الصحافة وحدها هي اداة علاقة الناس بالحرب · الناس تنام على ايقاع الرصاص والمدافع واذاعة لبنان في بيروت لا علاقة لها بما يجري · هنا اخذت الصحافة دورها الكبير · وبدأت الفروق الهائلة في الاعـلام الصحفي تبرز بين الحركة الوطنية والقوى الانعزالية · ففي مقابـل السفير ، النـداء ، المحرر ، الكفاح العربي ··· كان هناك صحيفة العمل شبه وحيدة والى جانبهـا الشرق والانوار · ربما هذا هو احد اسباب التوالد الهندسي في النشـرات الانعزالية · غير ان وسائل الاعلام الرسمية ولا سيما الاذاعة ما لبثت ان دخلت حقل الصراع مع أتساعه وامتداده ·

لن نتوقف هنا عند الصحف الوطنية فاتجاهاتها خلال الحرب الاهلية تحتاج الى دراسة خاصة · كما لن نتوقف عند التلفزيون : باعتبار ان انقطاع الكهرباء تكفـل بتحجيم دورة الى اقصى الحدود · سوف نتوقف عند ظاهرتين : الاذاعة والنشرات الوطنية ·

الاذاعة : « اختلط الحابل بالنابل » ·

في بداية الحرب ، كان دور الاذاعة هامشيا · فالصراع على السلطـة

بين جناحي البرجوازية اللبنانية عطل اغلبية المؤسسات الرسمية ومن ضمنهـــا اجهزة الاعلام · هنا برزت اذاعتان بوصفهما مؤشرا رمزيا : صوت لبنـــان (الكتائب) وصوت لبنان العربي (المرابطون) اهمية هاتين الاذاعتيـــن هـــي الرمز · فهما يشيران الى ان الحرب سوف تستمر وقد وصلت الى نقطة وجود اعلاميين اذاعيين مع ما تحمله الاذاعة من رمز الانقســـام والصراع حتـــى النهاية · نحن في ازمة مفتوحة تقول الاذاعتان · غير انه مع تصاعد حـــدة القتال ، وفي غمرة المساعي التي بذلها رئيس الوزراء رشيد كرامي لايقـــاف القتال على قاعدة بعض المكاسب الاسلامية بدأ يبرز دور الاذاعة من خـــلال صوت شريف الاخوي · لقد تحول هذا المذيع النشيط الى ظاهرة عامـــة · الصو تالبطيء ونبرة الرجل الطيب القلب السمجة ، عبرت في احدى لحظات الحرب الاهلية عن ظاهرتين متلازمتين : ـ

١ ـ انها جواب على الضياع الجماهيري خلال الحرب · فاقد فاجات الحرب واستحالة ايقافها الجميع بما في ذلك الذين خاضوها · فاتى صـــوت الاخوي التطميني ، الذي يدعو الى ايقاف القتال ، وكانه جواب على هـــذا التساؤل الجماهيري ، لكنه جواب يصاغ عبر اسئلة بليدة ، وكانه يريـــد ان يضيع الناس ·

٢ ـ انه جزء من اخر حشرجات الايديولوجية المسيطرة التي يمكن بعثهـا (عاد شريف الاخوي الى الاذاعة مع دخول قوات الردع) · هذه الايديولوجية التي تعترض على القتال وضد المسلحين ، تعهر بطولات الحرب ، وتتوجه الى الاكثرية الصامتة !

لكن شريف الاخوي سقط مع سقوط الاحدب · انقسمت الاذاعـــة · فـــي « عمشيت » برز نباح جبهة الكفور وبرز خط اعلامي واضح : المعركة هي مـع الفلسطينيين · اما في الجانب الوطني ، فقد ارتفع صوت غسان مطر وبـرزت نبرة احمد الخطيب في لحظة بدت وكانها الولادة التاريخية وصيغت مجموعـــة من البرامج الثقافية والترفيهية ابرزهـا اربعـة برامج :

قل كلمتك وامش ، بنبرة شبه مدعية ، تحاول ان تصف الحرب والمستقبل مركزة على معسكر الاعداء ·

الزجل مع زين شعيب عبر تركيزه على مشاكل الجنوب من منطلقـــات وطنية · وقد جاء هذا البرنامج في سياق انشقاق « فرقة زغلول الدامور » وهي احدى اهم فرق الزجل في لبنان الى اتجاهين : زغلول الدامور في اذاعـــة

الكتائب وزين شعيب في اذاعة المصنائع :

« بالكنت معنا وصرت مش معـنا
تذكر انا واياك كنا رفاق
بالامس كان الدف يجمعـنا
الدف انفخت وتفرقوا العشاق » ٠

برنامج « **ميزان الحقيقة** » الذي كان يركز عـلى اصطياد الشعارات والمقولات الاعلامية والسياسية الانعـزالية ويرد عـليها ٠

بعدنا طيبين الذي قدمه الثنائي زياد الرحباني وجان شمعون وجاء كتعبيـر عن لحظتين متداخلتين :

١ ــ رفض بعض ظواهر الحرب ، الاخطاء : التجاوزات ضمن سخرية لاذعـة وفي قالب مألوف ، الحوار بين شخصين امام جهاز الراديو ٠ وهي ظاهـرة مألوفة في جميع البرامج الاذاعية ٠

٢ ــ توجيه نقد مباشر الى التيار الانعزالي ، من خلال فهمه الداخلـي وفهم تناقضاته ٠ لذلك فالبرنامج يكتسب اهميته بوصفه البرنامج شبه الوحيد للاعلام المضاد الموجه الى صفوف العدو ٠ رغم انه لا يزال يتعامل مع العروبة ومع الانتماء الوطني الصريح بحذر ٠

ان اهمية مساهمة الثنائي زياد الرحباني ــ جان شمعون ، تكمن فـي محاولة كسر رتابة الاعلام الوطني والوصول الى الطرف الاخر ، عبر نبـرة تمتزج فيها الفكاهة بالنقد المر بالتردد السياسي في بعض الاحيان ٠

في الوقت الذي كان فيه الاعلام الانعزالي بجميع اجنحته يركز على مسألـة واحدة تفسر الحرب ٠ كان الاعلام الوطني يتخبط مع الشارع في عدم القـدرة على تحديد اسباب الحرب بشكل ثابت وتحديد الخط الاعلامي التكتيكي فـي مراحل تطوره المختلفة ٠ فالاعلام كان ضائعا في تحميل مسؤوليـة الحـرب لفرنجية شخصيا او للتسلط الماروني او للمؤامرة الامبريالية ، ولم يكشـف لجماهير المستمعين الخيط الواحد الذي يربط بين الظواهر باسرها ٠

« اختلط الحابل بالنابل » هذه الاغنية التي تحولت الى لحن يردده الجميع تحولت عن هدفها الاعلامي ٠ ففي الوقت الذي اريد بها ان تكون جزءا مـن الاعلام المضاد في لحظة دخول قوات الردع المناطق الانعزالية ، اصبحـت تعبر عن مأساة الاعلام ومأساة المواطن ٠ لقد ضاع الناس بين مناطق تركيز الاداة الاعلامية ولم يعد احد يفهم مسار الحرب ، اختلط الحابل بالنابل ٠ وبقيـت الاذاعة علامة على اشكالية معقدة لصراع قوى متناثرة لا تتوحـد الا مـن

خارجها ٠

النشرات الوطنية ٠

الدور الاعلامي الاساسي في الشارع الوطني قامت به الصحف الرسمية٠ لكن النشرات عبرت ، بنسب متفاوتة وضمن خط وطني عام معاد للطائفيـــــة والعنصرية ، منفتح الى اقصى الحدود على المسالة القومية ، عن اتجاهات في اوساط وطنية برزت خلال الاحداث ، او تحمل خصوصية لا يعبر عنها فـــي الصحف الوطنية الشرعية ٠

ان ظاهرة نمو القوى الجديدة (المرابطون ، الاتحاد الاشتراكي ، التنظيم الشعبي الناصري ، لجان الحركة الشعبية ، التيارات اليساريـــة : التجمـــع الشيوعي الثوري ، رابطة الشغيلة ٠٠٠ والقوى اللبنانية التي على علاقـــة بفتح : اللجان الشعبية الوطنية ، التنظيم الشعبي اللبناني ٠٠٠ وقوى اخـــرى: انصار الثورة ، رابطة ابناء المصيطبة)٠ **ودور هذه القوى الحاسم في القتـــال الى جانب المقاومة والحركة الوطنية ، فرض ضرورة ايجاد اشكال جديـــدة للتعبير ليست مستوعبة في قنوات الاعـلام الشرعـية المرخصة ٠**

ان النقاط الاساسية التي تستوقفنا امام هذه النشرات تتمثـــل فـــي المحاور التالية :

١ ــ انها تعبر عن تيارات الشباب ٠ فهذه الحرب ، سجلت كممارسة قتالية تدخل قطاعات جماهيرية كانت تقليديا على هامش السياسة اللبنانيـــة ، فاتـت الحرب الاهلية لتسمح لهذه القطاعات الجماهيرية : طلاب ، صغار الموظفيـن ، مثقفين ٠٠٠ بالانخراط في السياسة ٠

٢ ــ انها تحمل هموما جديدة الى الكتابة السياسية ٠ هموم الممارســـة الفعلية في اوساط الجماهير ٠ لذلك كانت تحاول البحث عن اسلوبية جديدة ، ومقترب جماهيري جديد ٠ تلخص بعض تفاصيل الممارسة لكي تحولها الـــى دروس ٠

٣ ــ غياب الطابع الاحترافي الفعلي عنها ٠ فهي في كثير مـن الاحيـــان تتميز بعدم القدرة على ارساء ابواب ثابتة ٠ وبهـذا المعنى تلعـب دور المنشور السياسي ٠ يمكننا هنا تسجيل بعض الاستثناءات ٠ لعل اهمها نشرة **«صـــوت الجماهير» التي استطاعت ان تكون احدى اجمل وانصع تجارب الكتابة خـلال الحرب الاهلية ٠ حيث قدمت تراثا متكاملا ، ومحاولة تلخيص للتجارب الشعبية**

ضمن منهج سياسي واضح بشكل رائع ٠

يمكننا ان نصنف هذه النشرات ضمن ثلاث اتجاهات رئيسية :

الاتجاه القومي الراديكالي : الذي تعبر عنه « **صوت الجماهير** ، **المرابط** ، **القومي العربي**» بشكل رئيسي ٠ وهو اتجاه يحاول استيعاب تجربة النضال القومي العربي بافق جذري وضمن فهم وطني للتحالف الطبقي في مرحلة التحرر ٠ وافضل تعبير عن هذا الاتجاه هو كون **صوت الجماهير** رغم انها تصدر عن مجموعة سياسية : « لجان الحركة الشعبية » فانها كانت جريدة جماهير الحركة الوطنية بكل معنى الكلمة ٠

الاتجاه المرتبط بالثورة الفلسطينية : الذي تعبر عنه نشرات **الفجر** ، **وطني** ٠ وهي على تفاوتها استطاعت وخاصة **الفجر** ان تعبر عن اتجاه لبناني جذري ، يلتحم بالقضية القومية وبالنضال ضد العدو الرئيسي انطلاقا من قواعد لبنانية محلية ، هذه التجربة الخاصة التي تعبر عنها **الفجر** ، لم تستطع حرفية النشرة وافتقارها الى ابواب ثابتة ان تعبر عنها بشكل متكامل فبقيت اشبه بمنشور سياسي ٠

الاتجاه اليساري : الذي عبر عن نفسه عبر مجموعة لا تحصى من النشرات الحرفية ، المتقطعة والثابتة ٠ الثوري ، راية الشعب ، صوت الشياح، الاتحاد ، الشروق ٠٠٠ نستثني من هذا التصنيف نشرة التحرير (منظمة العمل الشيوعي) والاخبار الشمالية (الحزب الشيوعي) لانهما لا تضيفان جديدا على اتجاهات صحف الحزبين ٠

يمكننا ان نشير الى مجموعة من المحاولات الخاصة في هذه النشرات :

ـ هناك دائما باب خاص بالشهداء ٠ وهو باب ثابت ، لا يكتفي بالاشارة الى اسماء الشهداء ، بل يشير الى مناقبيتهم ودوافعهم للقتال ٠

ـ هناك محاولات كاريكاتورية ثورية تبلغ ذروتها في **المرابط** التي حافظت منذ عددها الاول على تقليد نشر الصورة الكاريكاتورية ٠

ـ البيان السياسي الذي يتضمن ضرورة في جميع الاعداد باحجام مختلفة ، يهيمن على العدد **الفجر** ، او يكون مقدمة له **صوت الجماهير** ٠

ـ محاولات للاشارة الى واقع الطرف الاخر ٠ تبلغ ذروتها في **صوت**

الجماهير عبر سلسلة من المقالات والتحليلات والاخبار عن الطرف الانعزالي ·

ـ اهتمام جزئي بالادب ·المرابط ، صوت الجماهير ···· ونشر بعض القصص والقصائد والمقابلات الادبية ·

ـ التركيز على الممارسات المسلحة والجماهيرية ومحاولـــة ابراز دور التنظيم الذي تمثله النشرة ·

ان التجربة التي ارادت ان تعبر عنها هذه النشرات ، نجحت احيانـــا وفشلت احيانا تتلخص في مسالتين :

١ ـ ان تجربة الجماهير تستطيع ان تقول الكثير · وهي لم تكتســـب بعـد · ويمكن للمناضلين كتابتها كي تشكل تراكما من الخبرات والتجارب ·

٢ ـ ان انعطافات الحرب ولدت في بعض الاحيان ترجرجا في التحليل ، عدم قدرة على الرؤية الواضحة وهذا يعود اساسا الى هذا التعدد الاجتماعـــي والفكري الهائل الذي يقف خلف هذه النشرات ·

لقد قالت النشرات اشياء كثيرة ، لكن المهم انها تشير الـــى منابـــع واتجاهات القول ·

★ ★

الحرب الاهلية ، هذا الزمن الكثيف بالاحلام والممارسات ، هـــو علامـة جماهيرنا · وجيلنا الذي ولد فكريا وسياسيا من جديد ، داخل اللهب ، داخل ازمنة التغيير ، « يخرج من الحرب ليدخلها من جديد » · هذا زمن الشعـب ، زمن الفقراء · وهو يسير في خطه حتى لو تعرج الخط كثيرا ·

فالجماهير التي خاضت الحرب تعلمت الكثير وسوف تقول الكثير بعـــد ان تحطمت الكثير من الاصنام وانهارت الكثير من العوائق ·

٧٣، ٧٦ قصيدتان

I

مكان استقر فيه

هنا انتهت مقدرة امتلائي : بيروت ،

مكان ، ثقيلة بها رائحة البحر ، تطرد من الزوايا ، والمطاعم · رائحة بغير فراء ومن غير عائلة ·

هنا ، منذ الصباح ، مطفأة مظلة النوافذ ، فيها سهم دهشتي · حاملها انا ، قاتلها انا ايضا ·

بيروت سرايا المرأة تحمل زهر الحشيش فتحملني غافيا ·

بيروت ملح · مجموعة من الفواكه في جبل الغابات مصابة بالبرد ·

بيروت سحاب متجول فوق همومي ، وردي الغموض · اسود · احمر بلون نصائحي ·

هنا مقدرة الانتشاء المؤلم للغربة ، مثلما ياتي القروي بحذاءٍ الاسماك · فبسكت امامي ·

هنا دواء مسكوب على تراب الريح يطلب جرحي المنقول من عاصمة الى عاصمة فمن يحملك ويحملني

عبر النداء يحملك ويحملني للجلوس مع امرأة واحدة ، امام منضدة واحدة اشرب معهم ايامي ،

هنا زوبعة الرجل يرتب ايامه فوق منضدة ·

بيروت (اعرفها) ريح مجوفة ، امسكها · نصيحة متاخرة تغطي مرافيء
يدك ايتها الايام ، تأتي من غير قامة ووجه

بيروت ثكنة الجوع مغطاة بملابس طويلة وقصيرة كما للغابة ·

بيروت مهمة الرجل اعتذار من العزلة اشد شوقا من الموت ، هو اعتذاري
من العزلة ·

هنا رؤوس الفجر قامت مقصلة ·
هنا منفى السهولات · نداء · معذرة ·

هنا ايام البحث مثل انتحار الماء ، ساحت على سواحلي ·

هنا زهور الليالي وصاية بماء ، تزحف بمجرفة الزوايا · رائحة اوكيديا
الحزن تدخل البارات لتنام طليقة بعض الاحيان

هنا تقف ذاكرتي ، تمنع عن عبور الصداقة · تمنع عن عشقها

هنا حبي المشطور يهوى الانطفاء بملح الخراب

بيروت كيف اعبر هموم الشك ، كيف اطلب مجرفة لاندثاراتي القديمة

ابحث عن مخبأ ·

او كيس ·

لنقود عواطفي ، ابحث عن ساحل تاريخي المتعرج

مثل مغامرتي سهر الجحيم يقظ ببلطة القتلة يحاول الملائمة

جرينا

مع السقوط

لاحمل

الثورة ·

كانون الاول ١٩٧٣

II

مقدرة على الثبـات

في انشقاق الاحمر خطرت لمدينتي ان تجول ؛ فاسمعت باللون مختلـــف البلدان

صوت الريح ، يدور دورة ، ثم يغادر وضوحي ٠

لكن الريح تكبو ، تنحني ، وما عادت تستقيم الريح لتمضي :

حدائقها الحديد والمياه في خزانات عالية

تنشق في الاحمر

تنشق في الاخضر

تنشق في

الشعب ؛

يحمل خبزه لساحات الصباح فلا يؤكل ٠

تنشق في الخليج الاحمر والاخضر الوردي :

مرجانة الثورة ، صاعدة المياه ، الى الملح ، راكضة نحو اسبانيا ٠

محاصرة بالحرس تمضي المقدرة

مطفأة العمر معلقة بين صدفتين ٠

في انشقاق الاحمر

اكدت لي المقدرة بان الساحات وجبال العناصر معامل واقتصـــاد ٠

ليس فيمقدرتها المبايعة ، وما في ليلها يسقط الطائر بجناحين

تاركا البلدان والمدن ٠

اية بلدان نطلب

اية مقدرة نؤسس في المدن ، بينما حافة القلب على راسها بلطة

في انشقاق الاحمر اكدت لنا قوة العمر
ان نؤسس الاحتلال ، وما جاء من الطوائف نؤسسها سحابا ،

اطفالا بيدهم شيلي يتعلمون السرقة فيخفون البلاد في الشيلي

يكرهون الشرطة

في جيش المدن ٠

في انشقاق الاحمر المخفي يذهب الاطفال الى الموج فيمسحون صيـــــدا بالرخام ٠

في انشقاق الاحمر الواضح تغيب معرفة الاعمار الصغيرة بالصـــــراع الطبقي

وشقاء الخيانة

يلزم

قتله ٠

تعالوا ايها الرفاق ننفض الفرح ، ونقطع الكلاب

الآهلة ، تعيش في مياهنا العالية

نخنق المشرف على مقدرتنا بياقة قميصه ٠

في انشقاق الاحمر تتقاطع ، باتجاهات الغرب والشمال ،

الات حادة ،

من البلطات السعيدة ، مفتوحة قبالة ايادينا تشق النجوم

وهذه الاقيانوسات من خلجان الانفجار ملوحة

كعلم اسود

كعلم احمر ، لنطلق الاحمر ، او نغلق جرح ثباته ٠

في انفجار الاحمر

اية امية نؤسس

في انفجـار الاحمر

نار حبك في ليل ، ايتها الثورة

نار حبك في حقد الدمار ايتها الاسلحة

وجمرك في ساحاتنا ينتظر في غرفنا

جسد

بين الخراب

و

الامية ٠

ايلول ١٩٧٦

أبو جابر الخليلي

(قصّة)

توفيق فيّاض

كانت ساعة التيراسانتة في القدس ، قد دقت الثانية صباحا ،حين كان ابو جابر الخليلي لا يزال يجلس على كرسيه القش الصغير ، متلفعا بمعطفه الزيتي الثقيل ذي الازرار النحاسية المخضرة ، التي لا تزال تحمل التاج البريطاني منذ عهد الامبراطورية الزائلة ، وقد اسند ظهره الى حائط البنك البريطاني على افريز الشارع المقابل لساحة باب العامود ، ضاغطا قبعته الزيتية الكالحة ، حتى مست حوافها المهترئة ، ياقة معطفه المتسخة المرفوعة ، واتكأت على رفرفحاجبيه الاشيبين البارزين المتقابلين ، حتى لم يعد يبدو من وجهه الاثري ، غير انفه النسري الانقر ، وذقنه الاستي المغروز ، المطل من بين ثنايا كوفيته المرقطة ، الملفوفة على رقبته تحت ياقة المعطف ، زيادة في الحذر من غدر البرد القدسي القارس في مثل هذا الوقت ، والمخالف لكل تقويم فصلي • اذ ليس ابو جابر الخليلي من يخدعه مزاج الطقس في القدس ، وتقلباته المفاجئة ، فهو يعرف مزاج الطقس في القدس اكثر من معرفته لمزاج ام جابر في آخر الشهر عادة ، بل وحتى من الطقس نفسه • ويكفيه ان يطل بأنفه خارج نافذة منزله الحقير في باب الاسباط، في اي ساعة من ساعات النهار ، ليقول لك كيف سيكون الليل ، واذا ما كان عليك تمديد خدمة معطفك الشتوي لتلك الليلة ام لا ، كي لا تصاب بنزلة صدرية في عز الصيف ، والعياذ بالله •

ولم يكن ابو جابر من هواة التسكع في انصاف الليالي ، والجلوس على كرسي من القش على افريز الشارع ، في هذا البرد ، كالقرد المربوط على بلاطه ، كما قد يظنه من يجهله ، ومن يجهلك عادة يظلمك • ففي الحقيقة أنه كان يفضل الف مرة ، الانجماء الى جانب ام جابر ، والتمطط تحت اللحاف في مثل هذا الطقس البارد ، والاحتكاك بجسدها المربرب الدافيء • الا أن رزق العيال له احكام ، ولكل رزق نطة ، ونطة « ابو جابر الخليلي » لسوء حظه ، اختارت الليل على كبر موعدا لها ، وحرمته الكثير مما احله الله في الحلال من نعمة الليل ، الى

جانب أم جابـــر ٠

وخلاصة القول ، ان « ابو جابر الخليلي » كان مضطرا لهذه النطة ، لانه كان يعمل حارسا ليليا ، ومنذ عشر سنوات ، أي منذ كان في الثانية والاربعين من عمره ٠ اما لماذا طاح على هذا الكار النحس على كبر ، فذلك لانه كان قبـل ان يصبح حارسا ، يعمل شرطيا ٠ ولم يكن ابو جابر شرطيا عاديا ككل رجـــال الشرطة ، بل شرطي تحارير ، أي أخف وانظف وظيفة يتمناها شرطي قنوع بمـا قسمه الله له مثل « ابو جابر » ، ولا يطلب من الخالق عز وجل ، غير الصحـة والعافية ، كي لا يقصر في حق ام جابر وفي حق الاولاد ، الى ان تحيله الدولة على المعاش بعد عمر طويل ، فيفتح له دكانا صغيرا لصق البيت ، ويقضي بقية العمر بالقرب من ام جابر وبيت الله ، بعد أن يكون قد زوج الاولاد وارتاح من شقائهم، ولم يعد لديه من هم الا ان يتقاسم « هالرغيف » الحلال مع ام جابر ، وهي معززة مكرمـــة ٠

ولم تكن واجباته في الخدمة كشرطي تحارير ، والحمد لله ، تتعدى اكثـــر من ابلاغ الناس اوامر الحجز والحبس الصادرة في حقهم ، وان يداوم احيانا في سجن التوقيف في « القلعة » ، حيث كان يرافق الموقوفين الى بيوت الخلاء لقضاء حاجاتهم ، أو للاستنجاء والوضوء ، وعلى اسوأ الاحوال ، كان يرافق أحـــد المخاتير ، كممثل للقانون ، الى بيت احد المحجوز عليهم ، لتنفيذ امر الحجز ٠

وهكذا ظل ابو جابر راضيا بمهنته هذه ، ويحمد الله عند طلوعها ومغيبها ، على رضاه ونعمته ، الى ان اختاره المثل القائل « اعمل خير شر تلقى » لاثبـــات صحته عليه ، أما الخير الذي كان يعمله ابو جابر دائما ، فهو حفاظه علـــى الاخلاق ، بادئا في بيته ٠ اذ كان من اشد الناس حفاظا على الاخلاق والحشمة، وكان هذا يكفيه دلالة على انه خليلي ابا عن جد ، رغم انه مولود في القدس ، حتى انه كان يرى ان مجرد النظر الى فتاة في الشارع او على البلكون نظرة مقصودة، او اية كلمة من باب تسميع الكلام المبطن،سواء كان ذلك بقافية او بغير قافية،يعتبر من باب الزنا والفجور ، ويستحق صاحبه الجلد عليه ٠ فكيف وقد وصل الىعلمه، وثبت بالدليل القاطع ، ان احد ضباط مخفره الاردنيين ، على علاقة اثيمة بامراة مشبوهة ـ والله يستر عالولايا ـ من حارة الغوارنة ٠ واكثر فقد منحها حمايته وحماية المخفر بما فيه أبو جابر نفسه ، فراحت تصول وتجول على راسها ، دون اي رادع ٠

وبالطبع ، ليس أبو جابر الذي يسكت على ذلك ، فلا بد وأن يبريء ذمتـه امام الله ورسوله بـ « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، كما جاء في كتابـه

العزيز · وسرعان ما وصل امر « ابو جابر» بالمعروف ونهيه عن المنكر اسمـاع الضابط المذكور ـ ولا داعي لذكر اسمه ، فله رب يحاسبه ـ فاصدر امـــــرا باعتقاله · ومع من ؟ مع الذين كان قبل ساعة فقط ، يرافقهم الى بيوت الخلاء !! والحجة ، انه شتم جلالة الملك ، وكان يحرض المساجين على النظام ، والانكـــى من ذلك كله ، انه قومي عربي ·

والحقيقة انه لم يكن يعرف ما خطورة ان يكون رجل مثل « ابو جابـــر الخليلي » ، قوميا عربيا ، مما جعله يسخر من الضابط المذكور ، ويقول بكـــل اعتزاز ، انه بالطبع قومي عربي ، والا ماذا يكون اذا لم يكـــن قوميا عربيا ، « صهيوني ؟ واللا اميركاني !!؟ » وعندما عرف ماذا تعني هذه الكلمة ، حمد الله الف مرة أنه لم يود بنفسه في داهية بهذا الاعتراف الخطير الذي لم يجبره عليـه احد · اما بالنسبة للتهمة الاولى والثانية ، فقد رفض ان يجيب عليهما مطلقا ، لانهما باطلتان من اساسهما ·· « قال ابو جابر شتم الملك قال ! اي هو ابو جابر عمره شتم حدا ، ان كان ملك وللا زيال ؟ وللا عمره تعاطى السياسة وتخرف فيها !»

وبفضل ام جابر والاجاويد ، اكتفى الضابط المذكور بعقد مجلس تاديبي له، حيث أخذ بعين الاعتبار سنوات خدمته العشرين ، وماضيه النظيف ، فاكتفـــى « بترميجه » فقط ، ودون مكافاة · وهكذا خرج ابو جابر ، يا ربي كما خلقتني·

ولكن ليس ابو جابر الخليلي ، من يسكت على هذا الظلم وقطع رزقه ، اذ ان قطع الارزاق من قطع الاعناق ، فراح يطس الضابط المذكور ، الشكوى «بقفا» اختها ، مع ان الشكوى لغير الله مذلة ، ولم يترك وجيها الا وطرق بابه ، « من انور نسيبه وجر » ، واقسم ان لا يترك المسالة فالتة ، حتى لو كلفه ذلك بيع مصاغ ام جابر والسفر الى عمان ، والجلوس امام قصر رغدان ، حتى يخرج الملـــك « فيسبق » له ويرمي بنفسه على سيارته ، ولن يحل عنه حتى يسلمه العريضة ، التي كان قد كتبها له أحد الاساتذة الفهمانين سلفا ، في حق الضابط ، ونقلها هو بخط يده كي لا ينطبق على ذلك الاستاذ هو الآخر المثل ، ثم دار بها على كل اهل الحارة ، ، حتى جمع اكثر من عشرين توقيعا وبصمة ، تشهد كلها بان « ابـو جابر الخليلي » ، رجل يخاف ربه ، ويحب مصلحة الناس ، ولم يتعاط في حياتـه كلها ، لا سياسة ولا خساسة ·

وكانت هذه الفكرة قد استقرت في راسه ، وعزم على تنفيذها · وقد ذهب الى سوق الصاغة فعلا بسوار لام جابر يثمنه ، لولا ان جاء اليه ابن حلال ، ولا داعي لذكر الاسماء ، وافهمه على حدة ، بان يترك هذه الحكاية وبدون فضائح، وان عليه ان يحمد ربه لانهم اكتفوا بترميجه فقط ، ولم يدفنوه في سجن الجفر حيا،

لان عزوة الضابط الذي نهاه عن المنكر ، تشمل فلانا وفلانا من اهل القدرةوالحول ليس في قصر رغدان وحسب ، بل وفي « بسمان » و « الحمر » ، ويكفيه خال الملك شخصيا • ناهيك عما لتلك « المستورة » من سلطان في كل المخافر في القدس ، هذا اذا نسي ان تهمته توصل الى المشنقة ، وليس الى الجفر وحسب • ومن ثـــــم « مين انت يابو جابر ، اي هو الكف بلاطم مخرز !؟» •

ولان اللبيب من الاشارة يفهم ،فهم ابو جابر الخليلي ، واقتنع بالمقسوم ،ليس خوفا من سجن الجفر او من المشنقة ، اذ ليس ابو جابر الذي يهاب الموت ، وانما اشفاقا على « رملة » ام جابر وهو على قيد الحياة ، ناهيك عن انها لا تـــزال في عز صباها ، والسنة الناس لا ترحم ، ومن ثم من يدريه ، فقد تصبح « الرملة» في سجن الجفر « رملتين » فعلا ، اذ لم يسمع في حياته عن شخص دخله وخرج منه •• ولم يعد من العمر قدر ما مضى •

ولان ابو جابر لا يقنط من رحمة الله ابدا ، ويحمده ، « عالمليحة وعالعاطلة» دائما ، رافقه ابن الحلال هذا الى الغرفة التجارية ، فاعطته عصا وبدلة رسميـة ومصباحا يدويا ، ورزمة اوراق صغيرة ليثبتها في الاقفال ، وارسلته لحمايـــة ارزاق الناس في الليل ، من اللصوص والعابثين ، والحمد لله ، ولا يحمد علـــى مكروه سواه ، كله اكل عيش ، وان كان عيش المخفر يؤكل في الدفا والعفا ،وعيش الغرفة التجارية ، يؤكل في الحريق والغريق • ولم تكن ام جابر هذه المرة بحاجة لان تذكره ، بانه لو راى الناس « مضفحجين في نص الشارع » ان لا يتدخل بهـم ويا ربي اسالك نفسي •

وهكذا مرت السنون ، وكاد ابو جابر ينسى حكاية الضابط والامـــــرأة المشبوهة ، وكل ما سببته له من متاعب ، قانعا كعادته بقسمته سبحانه وتعالى ، لولا ما كان مخبأ في الغيب ، وحصل ما لم يكن بحسبان احد ، بل وآخر ما كـان يتصوره ابو جابر انه سيحصل ، اذ بين عشية وضحاها كان الصهاينة قد اجتاحوا القدس واحتلوها ، والعلم الاسرائيلي يرفرف فوق المسجد الاقصـــى ، بعد ان انسحب الجيش الاردني بما فيهم ذلك الضابط الفاسق ، وسلموها لليهود تسليم اليد • وعلى قول المثل « اللي ما بتعب بزيتونه ، بهون عليه قطعها ! »•

ولما كان ابو جابر رجلا عاقلا ، وليس له اي دخل في السياسة ، لا من بعيد ولا من قريب ، لزم بيته مع امجابر والاولاد حسب تعليمات القوات المحتلة وراديو اسرائيل ، بعد ان علقت ام جابر خرقة بيضاء على عود حطب ، وثبتتها فوق باب البيت ، منتظرين الى ان تروق الحالة ، وبعدها « اللي بيجـــي من الله فرج » ، والحمد لله ام جابر كانت حاسبة حسابها وعندها مونة سنة » •

وما كادت تمر عدة اسابيع على هذه الحال ، حتى صحا ابو جابر ذاتليلة على خبط شديد على الباب ، فقفز من فراشه مذعورا وهو يستعيذ بالله ، ورجلاه لا تحملانه حتى لكي يقف ويشعل القنديل ، وام جابر ترتجف الى جانبهكالقصلة، وتتشبث به كي لا يفتح الباب ، وخاصة انها كانت قد سمعت ، ان الصهاينـــة يدورون على البيوت ، ويأخذون الرجال ، ثم يقتلونهم بعد تعذيبهم · الا ان « ابو جابر » نهض من فراشه وهو يطمئن ام جابر الى انهم لا بد وان يكونوا قـــد اخطأوا بالباب فقط ، فكل العالم يعرف ان « ابو جابر » لا يتدخل بشؤونالسياسة ولا يكش ولا ينش ، وعليه ان يتصرف بحكمة والا اثار الشكوك حوله ، حتىانهم اذا كانوا لا يقصدونه ، فانهم سياخذونه اذا ما ابدى اي تصرف يثير شكوكهم ·

وما ان فتح الباب ، وام جابر تضع يدها على قلبها وتقرأ آية الكرســـي مشددة على ان يجعل الله من امامهم سدا ومن خلفهم سدا ، حتى انقض عليـه بعض الجنود ، واضعين « الكلبشات » في يديه « من الباب للطاقة»،ودون ايسؤال او جواب · وللمرة الثانية تثبت ام جابر ، انها اصيلة وبنت اصل ، اذ انها حين رات ان الله لم يجعل من امامهم سدا ، نسيت انها كانت ترتعد قبل لحظـــات كالقصلة ، وصرخت صوتا من « قحف » راسها ، وهي تقفز من فراشها وتتشبث به حائلة بينه وبين الجنود ، محاولة منعهم من اخذه ، وراحت تشرح لهم أنهم لا بد وان يكونوا قد اخطأوا ، مما جعل ضابطهم يشكك فيما لديـــه من تعليمات ، وينظر الى ورقة كانت في يده ، ويساله اذا ما كان هو محمد حسين الجابر الملقب « ابو جابر الخليلي » ، والذي كان يعملشرطي تحارير · فهز ابو جابر راسـه بالايجاب ، وقد فتح عينيه على وسعهما كما لو كان لا يصدق ما يحدث ، وراح ينظر تارة الى ام جابر ، وتارة الى الضابط ، وقد نسي ما هو فيه ، وان يديـه مقيدتان ، ولم يعد ليشغله الا كيف عرف هذا الضابط الاسرائيلي ، انه هو محمد حسين الجابر بالاسم ، وابو جابر « الخليلي » باللقب ، والانكى من ذلك انه كان يعمل شرطي تحارير ، في الوقت الذي كاد هو نفسه ينسى ذلك ، وهكذا لم يعـــد هناك اي مجال للشك في ان الجنود ليسوا علىخطأ ، فاقتادوه دون ان يتركوا له وقتـا ، يودع فيه ام جابر ولا حتى الاولاد الذين تقاعطوا من حوله كالزغاليل · والى أين !؟ الى المسكوبية !! حيث وجد نفسه في القاووش الكبير ، الذي يعرفه جيدا ، مع ما يقارب الخمسين او الستين رجلا ، حتى خيل اليه ، انهم لم يتركوا رجلا في القدس الا واعتقلوه ·

ومن في القدس لا يعرف ابو جابر الخليلي ، فتجمعوا حوله ، وهم لا يكادون يصدقون اعينهم ، وان « ابو جابر » بلحمه ودمه هو الآخر معتقل بينهم ، وخاصة بعض الاشخاص ممن كان يرافقهم ايام زمان الى بيوت الخلاء ، حين كان يعمل شرطي تحارير · ثم راحوا يسالونه ما الذي فعله حتى اعتقلوه ، واذا ما كانـوا

وجدوا عنده سلاحا ؟ ولكنه قرر الصمت ، فلا يجيب الا بكلمة لا اعرف ، لانكلمة لا اعرف تريح صاحبها ، ومن ثم ، فاذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وهكذا لم يخبرهم بما حدث اطلاقا · وهكذا ظل ما يقارب الاسبوع وهو لا يدري لماذا هو معتقل ، رغم ان الفأر بدأ يلعب في عبه ، بعد ان تحقق ، من ان جميع المعتقلين معه ، هم ممن وجدواعندهم سلاحا ، أو من اصحاب السوابق السياسية على عهد الملك حسين ، فمنهم « القوميون » ، ومنهم « الشيوعيون » والعياذ بالله ، مما جعل قلبه ينقز ، اذ ما دخله هو في كل هذه المسائل ؟ صحيح ان الجيش الاردني فرض عليه ان يحملبندقية قبل الحرب باسبوع ، ولكنها كانت بندقية طليانية مبردة من أيام الحرب العالمية ، فرماها في الشارع دون ان يطلق بها طلقة واحدة ، وقبل ان يدخلوا القدس ·

ولم يكن ابو جابر يعرف ، ان المخابرات الاسرائيلية ستنبش اوراقه القديمة ، الا حين استدعوه في منتصف الليل ، وما كاد يدخل غرفة التحقيق ـ والعياذ بالله ـ حتى صرخ به المحقق كالمجنون « قومي عربي ·· ها ! » فكاد ابو جابر يقع على الارض من هولالمفاجأة ، اذ كان آخر ما يطرأ على باله ، وراح يحاول بكل ما استطاع من حنكة ، ان يقنع المحقق بأنه لم يتدخل في حياته في السياسة ، وأن القصة كلها انه عمل خيرا فشرا لقي ، حين حاول ان ينهي ذلك الضابط الاردني الفاسق عما يغضب الله ، فاتهمه انه « قومي عربي » لكي ينتقم منه · الا ان المحقق لم يمنحه الفرصة لذلك ، وقاطعه بأن لطمه على وجهه لطمة ادارت الدنيا امام عينيه ، وهو يصرخ به محتدا ، وبعربية سليمة « انت واحد كذاب يابو جابر ·· كذاب كبير » ثم تقدم منه فاردا ملفا قديما امامه وبدأ يقرأ بصوت متهكم « بالطبع انا قومي عربي ، واللا ماذا اكون ان لم اكن قوميا عربيا ·· صهيونيا ؟ ام امريكيا !!؟ » · وقبل ان يصحو ابو جابر من دهشته وخاصة لهذه الصيغة التي سجلت فيها اقواله ، كان المحقق قد طرقه كفا آخر بكل قوته على طبلة اذنه صارخا بغضب :

ـ ماله الصهيوني يابزونك ·· مش عاجبك !!؟

ولم يدر ابو جابر بماذا يجيب ، وقد عزت عليه نفسه ان يهان مثل هذه الاهانة في آخر العمر ، ولو بقي الامر عند لطمه لهان الامر ، اما ان يقول له « بزونك » فهذا كثير ، واكثر مما يحتمله ، رغم انه اراد أن يقنع نفسه ان المحقق لا يعرف معنى هذه الكلمة بالضبط لانه يهودي ، فلو قالها باللغة العربية لما ترك شكا في انه يعنيها ، اما ان يقولها بالتركية فهذا يعني انه يعرف انها شتيمة ولكنه بالتاكيد لا يعرف معناها ·· واحس ابو جابر وكأن حجرا يتوقف في حنجرته يمنعه حتى من ان يقول لهذا المحقق الشاب « عيب عليك يا ابني انا قد ابوك »

فاطرق والدموع تكاد تطفر من عينيه « قال ابو جابر بزونك قال ·· انت يابو جابر الخليلي بزو ··· » ، واستفاق ابو جابر على المحقق مرة اخرى وهو يدقه فيراسه بعقد اصابعه ، مش عاجبك الصهيوني يا عرص ها ·· مش عاجبك يا جوز ··

لم يعد يسمع ابو جابر ما يقوله المحقق ، بعد ان خانته رجولته ، وراحت الدموع تنهمر من عينيه بصمت وهو يتمنى لو ان الارض تنشق وتبتلعه ·· فأين سيخبيء وجهه بعد الآن من وجه ام جابر ، « ام جابر الاصيلة بنت الاصل يقول عنها ···· » ، ولكن المحقق لم يترك له وقتا حتى ليبكي : فامر بجره من الغرفة « ووين الجنب اللي يوجعك يابو جابر » الى ان اغمي عليه ، ولم يعد الى رشده الا في القاووش الكبير ، وجميع الموقوفين يتحلقون حوله ، الا انه سرعان ما اغمض عينيه المورمتين مرة اخرى ، على صورة ام جابر ، لائما نفسه على ما سببه لها من اهانة ، وما جره عليها من نكد العيش « بلعبطاته » ، وهو لا يدري اذا ما كان سيراها مرة اخرى أم لا ··

ولكن ام جابر لم تسكت على هذا الظلم الذي لحق بـ « ابو جابر » ، وراحت تركض من دار فلان الى دار علان ، ولكن على قول المثل « مين ايده في الميويحطها في النار؟ » ، وكادت ام جابر تياس حتى انها كانت مستعدة لان تفديه بكل مصاغها ، لولا ان نصحها احد الذين لا يريدون وضع يدهم في النار ، ان تحزم امرها ،وتذهب الى الشيخ الجعبري في الخليل · فابو جابر خليلي « والعود بحن عقشرته» ، اذ لا احد في هذه الايام له ما للشيخ الجعبري عند اليهود من جاه وقدرة ،وبالتالي كلمته عندهم لا تصير اثنتين ، وكلمة تعيد اليها « ابو جابر » والا قطس في السجن ، « واللي بتطلع عليك بعين تطلع عليه بالتنتين » ، وكان فهم ام جابر كافيا ·

وبالفعل لم يخيب لها الشيخ الجعبري ، توابه عند ربه ، رجاء · ولم تمض عدة اسابيع الا وابو جابر في البيت، ولكن بعد ان « شاف نجوم السما في عز الظهر » · وما ان مرت عدة شهور ، وهدأت الاحوال ، حتى عاد ابو جابر الى كاره ، فحمل عصاه وفانوسه ، وعاد الى حراسة ارزاق الناس كما كان في السابق ، وعلى الاقل لم يرموه من عمله ، كما فعل ذلك الضابط الفاسق الذي جر عليه هذه المصائب ، وما ذنب اليهود « ما هو سوس الخشب منه وفيه » ·

وكان ابو جابر يسلم بالمثل القائل « اللي بتجوز امي هو عمي » ، فلا فارق عنده سواء حكمها الملك حسين او حكمها موسى ديان ، « قال له يا فلان مين احسن الحية السوده واللا الحمرة ؟ قال له التنتين ابلا من بعضهن ، والتنتين بنابهن سم » ، المهم ان يبقوا بعيدين عنه ، لا يقتربون منه ولا يقترب منهم · الا انه سرعان ما وقف على خطئه ، فما كاد يمر شهران على عودته الى عمله ، حتى استدعاه

الحاكم الى مكتبه ، واخبره انه اذا اراد ان يحافظ على وظيفته ـ « «قال الحراسة صارت وظيفة على آخر الزمن » ـ فعليه ان يراعي مصلحة الدولة من « المخربين» الذين بدأوا يقذفون القنابل اليدويـــة على الجنود الاسرائيليين ، ويضعـــون المتفجرات لقتل الناس ·

ولم يفهم ابو جابر باديء الامر ما الذي يعنيه في كل هذه المشاكل،«فوظيفته» كما يعرف هو ، ان يحافظ على ارزاق الناس من اللصوص واولاد الحرام ، أما « المخربين » الذين يقول عنهم سعادة الحاكم العسكري ، فلا دخل له بهم ، وكل واحد ذنبه على جنبه ، الا ان الحاكم العسكري سرعان ما ذكره ، انه لولا خاطر الشيخ الجعبري ومعزته عند موسى ديان شخصيا ، لما كان قد خرج من السجن قبل عشرة اعوام على الاقل ، لان تهمته كانت خطيرة ، ولما كان يعود الى وظيفته وكان شيئا لم يحصل ، ولما كان ليتنازل فيجلس معه ·· ومن ثم من ادراه ان «أبو جابر » قد نفض يديه فعلا من القوميين العرب ، وانه ليس «مخربا» ، ككـــل المخربين،ولذلك عليه ان يثبت له الان عكس ذلك ، ويراقب هؤلاء «المخربين»الذين لا يتحركون الا في الليل ، وما دام عمله في الليل ، فلن يكلفه ذلك اي عناء ، وانما سيفعل كل شيء بحكم وظيفته ، ثم ما عليه الا ان يأتي ويخبر الحاكم فقط ، اذا مـا رأى او وصل الى علمه اي معلومات تدلهم على هؤلاء « المخربين » ـ قال الفدائية صاروا مخربين ، طب واله الواحد لولا الخوف ·· ـ وهكذا يريـــح الناس من بلائهـــم ·

ورغم محاولته اقناع سعادة الحاكم العسكري ، أن لا دخل له في كل هذه المشاكل وانه يريد انَ يظل بعيدا عن السياسة والذين يعملون بها « وانشاء الله بعلقولهم مشنقة بساحة الجامع » ، الا ان الحاكم العسكري اخبره ان « المقابلـــة » قد انتهت ، وعليه ان يفكر في الامر جيدا ، لمصلحته ومصلحة زوجتـه واولاده ، وهكذا خرج ابو جابر وهو لا يعرف رأسه من رجليه ، وعاد الى البيت « يا كبتيا تعسة » · ولكنه ولاول مرة لم يشارك ام جابر في همومه ، ولم يطلعها على ما حصل له ، كي لا تحمل الاولاد معها وتقطع النهر · وكان قد قرر بينه وبين نفسه ان يتحايل على الحاكم العسكري ، وأن يقول له اذا ما استدعاه مرة ثانية ، بـل وسيقسم له على المصحف ـ ففي هذه الحالات لا يطاله اثم ـ بانه لم يسمع ولـم ير في الشوارع غير هؤلاء « الصيع والدشر » من الشباب والبنات الذين صاروا يفيعون عليها من القدس ، الا انه غير رايه كي لا يفسرها الحاكم على هـــواه فيورط نفسه ، ولهذا قرر ان يقول له بانه لم ير ولم يسمع شيئا فقط ، مع ان ابو جابر يعرف كل شاردة وواردة في القدس ، ولا تخفي عليه خافية ، حتى انه يكاد يعرف ما يتعشاه كلواحد ، وخاصة في منطقته ، كل يوم ، فارتسمت على شفتيـه ضحكة ساخرة من مكره ، حين اعتقله المظليون الاسرائيليون من جملة الذيـــن

اعتقلوهم ، في نفس الليلة التي القى الثوار القنابل فيها ، علـــى السفـــارة البريطانية ، فانكر في التحقيق ان يكون قد رأى او سمع شيئا،« قال لا سمع ولا شاف قال ·· اي هو فيك يا بو جابر غير عينيك وذينيك !؟ » ، ولو انه رأى هؤلاء « المخربين » لكان ذهب من نفسه واخبر سعادة الحاكم العسكري بنفسه · صحيح انه قال عن الفدائيين انهم « مخربين » ويكاد يبصق على نفسه حين يتذكر ذلك ، ولكنه لم يتفوه بحرف واحد يكشف عنهم بل وكان مصمما على الانكار حتى ولـــو شنقوه ··· « وان زادوها هالمرة بدي اطبق القول بالفعل ، وما دامهم كل ما دق الكوز بالجرة بيقولو انت قومي ··· لا بدي اصيـــر قومـــي مـــن حـــق وحقيق ، ومش بس قومي لا يا سيدي بدي تصير فتح كمان· ·ولا بصير جاسوس»·

وتخيل ابو جابر نفسه وهو يجلس امام الحاكم العسكري ، ويخبره انـــه « شاف الحاج محمد وبدر الدعنة ، يرموا القنابل عالسفارة البريطانية شـــوف العين ، وكان ابن ·· » ، فانتفض وهو يرفع رأسه ، وكأنه يفيق لتوه من حلـــم مزعج وهو يتمتم : « باطل عليك يا بو جابر ·· هاي آخرتك ؟ تصير جاسوس للصهاينة » · وتخيل نفسه وهو يدخل على أم جابر ، وهي تقف له بالباب ، تنظر اليه كما لو كانت باغتته عند تلك الامرأة المشبوهة من حارة الغوارنة ، ففـــرك عينيه وكأنه يتحاشى نظراتها ، ثم راح يستغفر ربه · على هذه الافكار التي هبطت عليه فجأة ، وراحت تلاحقه ، ثم ما لبث ان شتم المومسات والسياسة ، وهـــو ينهض من مكانه ، عازما على القيام بآخر جولة تفقدية ، دون ان يفكر في شيء من هذا القبيل ، ثم يذهب مباشرة الى البيت مع صلاة الصبح « واللي يصيـر يصير ، وان شاء الله ما بظل ناس ولا بظل رزق » ·

عدل ابو جابـر طاقيتـه ، وشـد معطفـــهعلـى جســـده جيدا ، ثـــم انحنى على الكرسي وتأبطه لايداعه في فندق « البتراء » ، كما اعتاد ان يفعـل عند كل جولة تفقدية ، حيث يبقى صاحب الفندق مستيقظا ، ليس لسبب الا انه اعتاد ربما على ذلك ، ومن ثم الله وحده العليم بسرائر الناس ، فليس كل الناس مثله ومثل ام جابر ، « راسين على مخدة » ، منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما والحمد لله · والا ما الذي يربطه في الفندق طول الليل ، « لا شغلة ولا عملة»، فالفندق يكاد يكون خاليا منذ الاحتلال الاسرائيلي ، ولا يؤمه ســـوى بعـــــض « الصيع » الاجانب ، وبعض الشباب العرب من الارض المحتلة سابقا ، الذيـن ياتون للقدس في آخر الاسبوع كالخواجات ، ليتعرفوا عليها ، ويزوروا المسجـد الاقصى ـ « مش بقولوا تانصلي فيه الا تانزورو !!» ·

ورغم ان ابو جابر كان يغضب عندما كان يسمع من احدهم كلمة «تايزور» وليس « تانصلي » ، وخاصة ممن ينزلون في فندق البتراء ، الا انه كان يحـس بحزن عميق لما وصل اليه اهل الارض المحتلة سابقا ، من قلة الدين ، ثم لا يلبث

ان يعذرهم ، ويحمد ربه ، اللي بعدهم بحكوا عربي تحت حكم اليهود كـــل هالمدة ، وعلى الاقل بعدهم بيقولوا عن حالهم عــرب ومسلمين » ٠

والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، فلهذا كان ابو جابر يتحاشى ان « يغمق» في الحديث معهم في هذه الامور ، وخاصةِ ان صاحب الفندق ، وهو يعرفهم جيدا، قد اخبره أن أهل الارض المحتلة سابقا ، نصفهم شيوعيون ، وهذا يعني انهـــم ملحدون ، والعياذ بالله ٠٠ والنصف الآخر جواسيس لليهود ويعملون مـــع « الاستخبارات » الاسرائيلية ، وهذا ادهى وامر ، وعلى كلا الحالتين شر ، ولهذا فانـــه ٠٠٠

قاطعته صورة نفسه وهو يجلس امام الحاكم العسكري ، وتردد في ذهنـه ما قاله له مرة أخرى ، وكيف انه لم يجرؤ على ان يقول له « انا ٠٠ ابو جابـر الخليلي ، اصير جاسوس للياهود !؟ طب والله ما انا صاير واللي بدك تعملـه اعمله » ، وما ان كادت افكاره تنطق بذلك . حتى انتفض كمن لسعته حية ، وهو يشعر برعشة باردة تتملكه ، متخيلا نفسه وهم يقتادونه الى السجن وام جابـر تلطم على وجهها وتقد ثوبها ، فاستغفر الله وهلل له ، ثم اتجه نحو فندق البتراء٠

كانت جولة « ابو جابر » تشمل الشارع الذي يوصل من باب العامود الى باب الساهرة ، حيث ينعطف يسارا الى شارع صلاح الدين ، ويغادره قـــرب المجمع الحكومي الذي أصبح بعد الاحتلال مقرا للحاكم العسكري الاسرائيلي ، حيث ينعطف يسارا مرة أخرى الى طريق نابلس ، ويغادرها في منتصفها الـــى المصرارة ، ثم يعود ادراجه الى باب العامود ، فيعرج على قهوة الشيخ عبـــد الصغيرة القائمة على زاوية شارع المصرارة ، حيث يشرب الشاي ، ثم يكمـــل « الحصة » التي لم يتفقدها من طريق نابلس ، ويكون الصباح قد طلع ، بينمـــا هو في طريقه الى البيت ٠

كان باب العامود هامدا نائما ، والدكاكين في الطريق الى باب الساهـرة مطبقة اشداقها ، فراح ابو جابر يتفقد اقفالها ، ويحشوها باوراق الحراسة التي كانت الانظمة تقضي بأن يحشو الخفير ورقة منها في كل قفل ، والمفـــروض في شاويش الحرس ، ان يخرج في جولة عامة بعد جولة الخفير ، فيستخرجها ، ولكن الشاويش الحالي « ابو العبد » ، التي كثرت اشغاله في النهار ، والله وحـــــده يعلم ما هذه الاشغال التي تقتضيه ان يداوم في مقر الحاكم العسكري ، جعلتهيبقى في مقره الدافيء في الليل ، ولا يزعج نفسه بالتفقد ، وعليه كان ابو جابريستخرج الاوراق القديمة ، ويحشو اخرى في مكانها ، من باب قتل الوقت فقط ، اذ ان الزمن الذي تستغرقه الجولة ، يتراوح طولا وقصرا ، حسب مزاج « ابو جابر » ، فاذا

جد وقصد · انهاها في نصف ساعة ، واذا « تملكع » وسرح بافكاره ، وهذا مـا يحدث له دائما ، استغرقت ساعة او ساعة ونصف · هذا ـ لا قدر الله ـ اذا لم يلتق باحد ابناء الليل الذين كثروا في المدة الاخيرة ، يداعب اقفال الدكاكين ، فقد ينهي الجولة في المستشفى ، او على احسن الاحوال ، في مخفر الشرطة ، يدلـي بافادته عن ظروف الحادث وملابساته ، فلا يعود الى ام جابر الا بعد ان تصبح الشمس على ارتفاع قامتين او اكثر ·

ووصل الى باب الساهرة بأمان الله ، وصوب نظرة غيظ الى الحارس الاسرائيلي الذي يحرس البريد ، والذي كان يقعي في مكتبه لا يغادرهوالبندقية ابرشاشة امامه ، غير آبه بأحد ، وكأنه في نص تل ابيب ، لان دوريات حـرس الحدود والمظليين ، لا تنقطع عن اللف غير الذين فوق السور ـ « الله يكسـر بخاطرك يا حسين كيف كسرت قلوبهالناس » ـ ، وعندمـا انتبه الـى ان الحارس ينظر اليه ، حول نظره الى اقفال ابواب الحوانيت ، ثم عزم على تفقـد شارع صـلاح الدين ·

قبل الاحتلال كان هذا الشارع كبقية الشوارع ساكنا ، راكـدا في الليل ، والوظيفة كلها قبل الاحتلال ، لم يكن ما يعكرها ، سوى الالتقاء بعض الاحيـان بازعر او اثنين ، او بأحد السكارى والحشاشين ، الذين كانوا يتأبطون بعضهم ويترنحون في الشارع ، محاولين الاهتداء الى منازلهم فتختلط عليهم ابوابهـا بابواب الحوانيت المحيطة بها ، فيبدؤون بمعالجتها ، فلا يحتاجه الامر لاكثر من صرخة وتلويحة بعصاه ، لكي يهتدي الواحد منهم الى باب بيته بسرعة ·

اما بعد الاحتلال ، والعياذ بالله ، اصبح لا يلتقي الا بشبان يعانقـون الفتيات ويقبلوهن في منتصف الشارع،فكانتهذه المشاهد تثير حفيظة «ابو جابر» وتغيظه ، فاذا كان قد فقد وظيفته السابقة لانه لم يسكت على ما كان يفعله ضابطه بالخفاء،فكيف باولئك الذين يفعلون كل ما يغضباللهورسوله فيمنتصفالشارع دون حياء او خجل !؟· وخاصة ان صلاحياته كانت على الاردن ، تخول له القاء القبض عليهم وحتى ضربهم ، دون ان يجرؤ الواحد منهم على فتح فمه ، وكاد يفعل ذلك مرة مع زوجين جديدين ، اما القانون الجديد ، فلا يتيح له التدخل الا في حالتين غير معقولتين ، وهما اذا استنجدت به الفتاة او طلبت الشرطة ، وثانيا اذا كان الاثنان يمارسان الدعارة بمعناها الحرفي في الشارع ، والحالتان غير معقولتين، لان الفتاة لولا انها فالتة على رسغها ، لما كانت تدور في انصاف الليالي مع شاب وتبادله القبل ، ولهذا فان اي تدخل من « ابو جابر » سيكون اعتداء منه على حريتها كما يقول القانون الجديد ، وربما ورطه ذلك بورطة ادهى مـن ورطة الضابط · اما بالنسبة للشرط الثاني فهو غير معقول ايضا ، لان الشارع

لا يعتبر المكان المريح لمثل هذه العملية ٠

وضبط ابو جابر عينيه وهما تجولان في شارع صلاح الدين علّه يجد فيه مكانا ملائما للحب . فانتفض واستعاذ بالله ، اذ وقبل ان يطلع الفجر لا سيرة له ولا شاغل الا الدعارة والسياسة ، بدلا من ان يذكر ربه ويحمده ، فشد ابو جابر فكيه يطبقهما متابعا جولته ، وقد عزم على تصفية افكاره وابعادها عن هذه الوساوس التي لا بد وان الشيطان يطارده بها ٠

ولكنه ما يكاد يسير قليلا حتى شعر بعتاب خفيف يساوره تجاه ربه عز وجل ، فقد قال في كتابه العزيز وهو اصدق القائلين بان « الفاسقين عذابهم اليم»، ومع ذلك يرى الفاسقين ينتصرون على أمة محمد ويحتلون المسجد الاقـ٠٠٠٠ ومرة اخرى استفاق ابو جابر لنفسه ، وراح يعنفها على افكارها وهواجسها ، اذ ما كاد يحولها عن الدعارة والفسق ، حتىادخلتههذه المرة في السياسة ،وهذا ادهى وامر ، فاذا كان عقاب القضية الاولى في الدار الآخرة ، فعقاب الثانية على بعد أمتار منه ، في المسكوبية ، ولا مجال فيها للتوبة والعفو ٠ ولهذا فالابتعاد عن السياسة اسلم واضمن . وعتاب ربه في هذه النقطة عدا عن انه كفر ، فهو مسألة سياسية بحتة ٠

كان قد توغل في شارع صلاح الدين ، وراح يزيد من انتباهه ، ويدقق اكثر في تفقد الاقفال ، فهذا الشارع فيه حقا ما يستحق السرقة ، فحوانيته الفاخرة ، تحتوي على اثمن واجود البضاعة ، وقد اتخمت النعمة تجاره بعد الحرب ، حيث سحبوا في ايام معدودة ما سحبه امثال « ابو جابر » طول العمر ، اذ تدفـــق الاسرائيليون عليهم كالجراد « مخلصين عالاخضر واليابس » ، كي يفرغوا الضفة كلها من البضائع الموجودة فيها ، كي يبيعوها لهم ثانية بسعر مضاعف ، ولكـي يجبروا الناس بعدها على شراء البضائع المصنوعة في اسرائيل، هذا زيادة على ارتفاع الاسعار ارتفاعا فاحشا . لا يقبله ، لا عقل ولا دين ، واصبح امل ابـو جابر في الحصول على معطف جيد لابنه او له ، مثل امل ابليس في الجنة ،وطبعا حتى كترت النعمة قل الشكر وصاع الاصل ، فنسي هؤلاء التجار الكارثة التـي حلت بفلسطين كلها وبالعرب ، حتى انهم افشلوا اضرابين بحجة انه اذا كانت الجيوش الجرارة لم تحرر فلسطين ، فهل يحررها اضراب تجار بسطاء ـ قال بسطاء قال ـ والانكى من ذلك عليه ان يحرس محلاتهم ليزيدوا من ثرائهمويفشلوا كل اضراب ضد الاحتلال ، وهذا ما يجعله يحس بالعار في بعض الاحيان ، ولكـن رزق العيال له احكام ، والعيال يكسرون الظهر ٠٠٠

ولم ينتبه ابو جابر لنفسه الا حين سمع نفسه يقول وبصوت عـــــال

« تفه عالنذل وعيشته . والله العظيم قتلهم حلال في ... » ، فامسك ابو جابر بالكلمات كي لا تفلت من فمه . ثم استعاذ بالله ، وقرر منع نفسه من التفكير في السياسة والمومسات منعا باتا ، اذ أنه من الافضل لها ، ان تفكر في الافواه السبعة القاعدة في البيت تنتظر لقمة العيش ، وتأكل رأس الحية اذا ما احضره لها، هذا عدا نفقات المدارس والكتب والملابس الى آخر كل هذه المصائب التي ازدادت حدة بالغلاء الفاحش وتجميد الاجور .

وما كاد ابو جابر ينجح في صرف نفسه عن التفكير في السياسة والدعارة، حتى كان قد وصل الى تفرع شارع الزهرة من شارع صلاح الدين ، فقبض على تفكيره ، وهو يجنح مرة أخرى نحو الدعارة ، اذ ان شارع الزهرة هذا ، هو شارع النوادي الليلية والمقاهي الفاخرة ، حيث كان يزدحم بالسواح العرب والاجانب قبل الاحتلال . ولكنه ما كاد يمر على الاحتلال الاسرائيلي سنة واحدة، حتى انقلبت الى ماخور شبه رسمي ، يتدفق عليه الاسرائيليون من القدس اليهودية وحتى من تل ابيب ، يشربون ويرقصون حتى الساعات المتأخرة من الليل ، ثم يعودون تاركين وراءهم المومسات وقوادّيهن ، لكي يفرجوا كرب السكارى من ابناء القدس « اللي لا هامهم احتلال ولا هامهم فلسطين » ، والذين كان يعتبرهم ابو جابر ليس فساقا ومصيرهم جهنم وحسب ، بل انهم خونة وجواسيس لليهود ..

اسرع ابو جابر يقطع التفرع دون ان ينظر اليه ، جارا تفكيره جرا كي لا يستوقفه عنده ، لا سيما وان هذا الشارع ، كان مصدر مشاكل في المدة الاخيرة اذ لا يكاد يمر أسبوع دون ان يلقي احد الفدائيين قنبلة يدوية على احد النوادي. فتبدأ بعدها الاعتقالات والتحقيقات ، والسين جيم المتكررة ، هذا ناهيك عن ضرب السكاكين والمشاجرات التي تحصل بين القوادين والمومسات من ناحية ، وبين السكارى من ناحية أخرى ، أو بين السكارى أنفسهم الذين كانوا يختلفون على احدى المومسات . ولم يكن ابو جابر يخاف من اي مكروه اكثر من مكروه هذا الشارع ، فلو بقي الامر بالاحتلال فقط لهان الامر . فالدبابات والجنود في شوارع القدس اهون عليه مصيبة من ذلك ، ومصيرها ان تنسحب آجلا ام عاجلا .. اما ان يحتلوها بالمومسات والقوادين فهذا امر خطير ما من بعده خطر ...

توقف ابو جابر يرهف السمع ، اذ خيل اليه انه قد سمع حرطقة خفيفة . واصواتا منخفضة تأتي من خلفه .. فالتصق بالحائط ، وراح يتسلل بهدوء عائدا الى مكان التفرع ، وما كاد يلقي نظره مسترقة على شارع الزهرة ، حتى اجفل، وتملكته رعشة اوقفت شعر رأسه ، اذ كان ثمة شاب وفتاة يلتصقان باحدى الجدران بالقرب من فندق « الناشانال » ، وكان الشاب كالعادة يهرصها الى الحائط ، وقد غابا في قبلة طويلة ، ولكن وضعهما هذه المرة كان فاضحا اكثر من

جميع الاوضاع التي صادفها حتى الآن ، كانت الفتاة « منجعية » الى الحائـط، حتى تكاد تنبطح عليه ، وقد باعدت ما بين ساقيها ، حيث انغرزت ركبة الشـاب عميقا في اسفل بطنهـا ..

استعاذ ابو جابر بالله ، ثم دعك عينيه واطل ثانية ، ملصقا حنكه بزاوية الجدار ... « اللهم سترك » ، كانت يد ذلك الفاسق قد تسربت من تحت قميـص الفتاة الرقيق ، وراحت تداعب نهديها ... تدعك .. تهرص « اللهم عفـوك ورحمتك » .. لقد اندلق نهدها من فتحة القميص ، فترك الفاسق شفتيها وغـب نهدها غبا .. « اخص لعنة الله عليكما في الدنيا والآخرة » .. وخيل الى « ابو جابر » انه يسمع صوت حمارة « تتمتك » ، فأحس بسائل بارد يسقط علىراحته الملتصقة بخده ، فانتصب وهو يمسح لعابه السائل من زاوية شدقيه بكمه ، ثـم شد قامته يمنع ذلك التخدر الذي بدأ يحسه من ان يسري في دمه ، وراح ينظـم انفاسه المتلاحقة ، حتى كفت عن اللهاث ، بينما ظلت يده تنتفض على العصـا وهو يغالبها كي يمنعها من ان « تعرط » العصا عليهما لكي « يكرسحهما » .. « وهذا ايضا في نظر قانون آخر الزمن ، لا يعتبر دعارة !! ماذا بقي ؟ ان يسحل لها اللباس !؟ » واحس بغيظ شديديتملكه ، اذ حسب القانون الجديد ، عليه ان ينتظر تسحيل اللباس ، ثم يتدخل ، هذا اذا كانت تلبسه اصلا ، وحتى لو كانت تلبسه « تقول لباس ام جابر عاد للقدم ، ما هو زي ورقة السيجارة » ..

وانكر ابو جابر على نفسه ميلا لاغواء طاريء يتملكه ، واحس بدمه يغور. حتى انه لم يعد يحتمل معطفه الثقيل ، رغم ان درجة الحرارة كانت قد انخفضت اكثر .. « اللهم استغفرك واتوب اليك » .. ابو جابر كادت توقعـه نفسه فـي الاثم ، ولو بالنظر ، بحجة المحافظة على الاخلاق « طب انشاء الله ما حدا حافظ ، ولا حدا تحشم .. وانا مالي انشاء بقلبوها كرخانة ، اذا حكامها ما حافظوا عليها ، تايحافظ عليها ابو جابر !؟» .

وشد ابو جابر معطفه عازما على استئناف جولته ، وهو يشعر بألم فـي امعائه وفكه الايمن ، وارسل نظرة اخيرة في اتجاه « الفاسقين » ، تمعن .. دقق، فخيل اليه ان وضعهما قد تغير قليلا ، كان فمه لا يفارق نهدها بعد ، ولكن خيل له ان الفتاة قد ارتفعت قليلا عن الارض ، واصبحت معلقة بين الحائط ووسـط صديقها ، وخيل اليه انه يسمع فحيحا خافتا ، فشعر بألم في مهاشمه وانقلب الى اقفال المحلات التجارية ، يحشوها باوراق الصباح ، ناسيا اخراج اوراق الجولة السابقـة .

انهى جولته في شارع صلاح الدين ، وانعطف الى اليسار في اتجاه طريق

نابلس ، وهو يتجاهل مبنى الحاكم العسكري تجاهلا تاما · كان يعلم ان الجندي الاسرائيلي الذي يحرس المبنى في كشك مخطط ، وضع قرب السور نائم ، وهو يعلم كذلك أن الجندي ينام كل ليلة ، وقد تكشفت له هذه الحقيقة ،اثر تجربةكادت تودي بحياته ، ذلك ان نفسه سولت له ذات ليلة عندما كان يمر امام الكشك ، ان يتملق الجندي الاسرائيلي ، فيطرح عليه تحية الصباح ، واقترب من الســـور فرأى الجندي الاسرائيلي يجلس داخل الكشك ، وسلاحه بين يديه ، وساعد الظلام على تضليله ، فلم يشك في انه مستيقظ ، فحسر كوفيته عن فمه كي تبان بسمته ، « وصبح » عليه ، الا ان الجندي لم يرد التحية ، فعز على ابو جابر ان لا يتنازل برد التحية عليه ، وخاصة انه يعتبره زميل خدمـــــة مع انه اسرائيلي ، ويحرس مبنى الحاكم العسكري وفضل ان يعتقد ان الجندي لم يسمعه ، فتنحنح رافعا صوته هذه المرة ·

ولكن الجندي كان نائما فعلا ، وعندماصرخ ابو جابر «بالتصبيحة » الثانية انتفض كمن لسعته حية وصرخ راطنا باللغة العبرية ، الله وحده يعلم ماذا ·

وظن ابو جابر ان هذه هي طريقة الخواجات برد التحية وكاد يتابع سيره ، لولا ان الجندي استدرك باللغة العربية المكسرة ما قاله باللغة العبرية ، شاهرا سلاحه ، ـ مين خادا ؟

وايقن ابو جابر بالهلاك على اهون « سبايب » فرصاصة واحدة من رشاش الجندي تكفي لنقله الى الديار الباقية ، فانبطح على الارض ودحرج نفسه الى الخلف ، مستفيدا من تدريبه ايام كان في الشرطة « فزادت هذه الحركة من شكوك الجندي ، فانتصب واقفا وهو يصوب بندقيته الرشاشة في اتجاه ابو جابر صارخا:

ـ وكف عندك ·· انت مش بتحرك ·

وعثر ابو جابر على صوته في الوقت المناسب وهو يجمد اعضاءه في مكانه راجفـــا ·

ـ مش بتحرك يا خواجا ·· مش بتحرك ، انا ابو جابر الخفير مشعارفني؟

قال الجندي وهو يخرج من الكشك بحيطة وحذر ··

ـ انا مش بعرف جابر ولا ابو جابر ·· ايش في ·!؟

رفع ابو جابر رأسه نحوه وهو لا يزال منبطحا ···

ـ ولا شي يا خواجا ٠٠٠ صبحت عليك بس ٠٠

زم الجندي حاجبيه سائلا بغضب :

ـ شو ؟

ورد ابو جابر بصوت بطيء معتذر ٠

ـ صبحت عليك ٠٠ الصباح لالله ٠٠ قلت صباح الخير ٠٠

هز الجندي رأسه متبرما وهو ينزل سلاحه ٠

ـ انتو عرب مش بفهم ٠٠ يللا روخ من هون ٠٠ روخ ٠٠ امشي

انتصب ابو جابر بسرعة وهو لا يكاد يصدق انه قد نجا من هذه الورطة ، وراح من هناك وركبتاه تصطكان وهو يلعن في سره « التصبح واللي بصبحوه »، وهكذا كاد تدخله في السياسة هذه المرة يودي بحياته « ويرمل » ام جابر قبـــل الاوان . والا ماذا يكون « التصبيح » الذي لا معنى له على جندي اسرائيلـــي ويحرس مبنى الحاكم العسكري ، ان لم يكن تصبيحا سياسيا ، ونفاقا منه ما بعده نفاق « والله تستاهل يابو جابر لط في الصرمة على طارة نيعك » . ومن يومها وابو جابر يتجاهل وجود الجندي والكشك ، ويركز افكاره كلما مر من جانبهما، على الاقفال واوراق الحراسة ٠

ورغم تجاهل ابو جابر لمبنى الحاكم ، الا انه احس وهو يعبره بشيء مـن العتب على نفسه«ولو يابو جابر عمرك ما كنتجبان٠ ٠شو بدل الله وشو غير؟ خلقة خواجا لو بصقت عليه بتغرقه يكسر قلبك !!؟» ٠ فتوقف ناظرا خلفه وهو يشعر بالذل والاهانة ، متخيلا نفسه وقد انبطح على الارض ، ووجهه يتمرغ بالتراب، يستعطف الجندي الاسرائيلي ، وهو يصوب سلاحه نحوه صارخا به « تقول عبد أبوه » ، فتملكه غضب مفاجيء كاد يدفعه لان يعود ادراجه اليه ، فيهوي بعصاه على نافوخه ، ثم يأخذ منه سلاحه ، ويفرغ « الباغة » كلها في راسه . ولكن بعد ان يجعله يتمرغ هو الآخر بالتراب كما فعل به ، بل ويرفش في بطنه ويقبل حذاءه المهتريء ٠٠ « مش مكفي قلبوها كرخانة ٠٠ يذلونا كمان ٠٠ وفوق هذا كلـــه ينام ويشبع نوم تقول بدارهم ، ولو خليه ناطور كرم مش جندي احتلال وبحرس مقر الحاكم !! تقول ما ظلش رجال في القدس ملعون الوالدين ٠٠ طيب وطـلاق بالثلاثة من ام جابر ٠٠»

ولم ينتبه ابو جابر الى نفسه الا والجندي يصرخ به من داخل الكشك فجاة:

ـ مين خادا ؟

اجفل ابو جابر وهو يتلمثم بافكاره ٠٠ « ارجعنا لمين خادا وروخ من هون ؟ هالمرة ابو جابر مش رايح » ، وتنحنح يسحب العصا من تحت ابطه ٠

ـ هاذا انا ٠٠ ابو جابر الخليلي شو في ؟

ـ انت برفع ايديك ، ومش بتخرك ٠٠ فاخم ؟

« هذا اللي ما حسبناش حسابه » ، وغاصت يد ابو جابر الى جيب «البالطو» تتحسس موس الكباس الذي كان يرافقه منذ عشر سنين قبل ان يرفع يديه الراجفتين غيظا ٠

ـ اه فاخم يا خواجا ٠٠

« ضربة الاعور على عينه ، قال ما هي خربانه وخربانه ٠٠ لا والله ما هي فايتة على ستيرة هالمرة » ، وطافت به صورة ام جابر وهي تحضر له القهوة كعادتها في انتظار عودته بينما خلد الاولاد للنوم ، فارتخت يده على الموسى،الا انها عادت وشدت عليه ثانية « الموت ولا المذلة يا ام جابر والاولاد الهم الله » ٠

كان الجندي يتقدم نحوه بلا مبالاة بعد أن تأكد من أنه أبو جابر حقا ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، بينما كان ابو جابر لا يزال يرفع يديه ، والدم يغلي في عروقه ، وعيناه مثبتتان على الجندي المتقدم منه ٠٠

وقف الجندي قبالته ينظر اليه ، ثم انفجر في الضحك صارخا :

ـ ياالله روخ من هون ؟

عاودته صورة ام جابر والاولاد مرة اخرى ، تقاطعها صورته وهو ينبطح على الارض امام الجندي ووجهه المعفر بالتراب يكاد يلامس حذاءه ٠٠٠

صرخ الجندي ثانية وهو يدقه بكعب بندقيته ٠٠

ـ امشي ٠٠ انت واخـ ٠٠٠٠

انتفضت يد « ابو جابر » القابضة على الموس وهو يكز على اسنانه قلتلـــك ابو جابر مش ماشي ٠٠٠ »

لم يعرف ابو جابر كيف فعل ذلك ، ولم يصح على نفسه الا وهو يركض في اتجاه باب العامود ، والدم يقطر من نصل موس الكباس ، الذي كان لا يزال في يده ، والصرخة التي اطلقها الجندي وهو يخر على قدميه والنصل يغـوص فـي صدره لا تزال تطن في اذنيـه ٠

ميزان القوى العسكري الاسرائيلي بعد ثلاث سنوات من حرب تشرين

المقدّم الهيثم الأيوبي

كانت منطقة الشرق الاوسط منذ اتفاق فصل القوات في سيناء تسير بخطى متسارعة نحو الحل السلمي الاميركي ، رغم معارضة بعض الدول والقوى العربية لفكرة الحل السلمي اساسا ، ووقوف البعض الاخر ضد احتكار واشنطن لمفاتيح الحل ، ورغبته في الوصول الى حل متوازن تشارك فيه الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والدول الاوروبية الغربية بنصيب متماثل · ولم يكن الحديث عن ميزان القوى في ذلك المناخ السلمي يحمل اي معنى ، طالما ان القوى العالمية والمحلية الدافعة نحو الحل السلمي كانت اكبر من القوى الدافعة نحو الصدام المسلح ·

ولكن نجاح الرئيس الاميركي جيمي كارتر في مطلع تشرين الثاني ١٩٧٦، ادخل على الموقف في الشرق الاوسط عاملا جديدا ، يتمثل في احتمال عرقلة التسوية السلمية بشكل كامل او جزئي · ويرجع هذا الامر الى ان الرئيس الجديد يرى ضرورة التشدد ازاء السوفيات ، ويعارض سياسة الوفاق الدولي بشكلها السابق ، وهي السياسة التي خلقت مناخ الحل السلمي للصراع العربي ـ الاسرائيلي · ولايتبنى كارتر اسلوب كيسنجر في معالجة ازمة الشرق الاوسط ، وهو ميال الى دعم اسرائيل اكثر من سابقيه نيكسون وفورد اللذين لم يبخلا على اسرائيل بالدعم · وليس من المستبعد ان يؤدي غياب كيسنجر عن الساحة ، وزوال ضغط الادارة الاميركية السابق على اسرائيل لقبول التسوية السلمية ، وحصول « صقور » اسرائيل على دعم الادارة الجديدة ، الى تصاعد الخط المتشدد وانخفاض صوت «الحمائم » داخل الدولة الصهيونية، وتناقص امكانية ايجاد حل يضمن استعادة الاراضي العربية وحصول شعب فلسطين على حقوقه · الامر الذي يؤدي بالتالي الى تحسن العلاقات العربية ـ السوفياتية بعد طول جفاء ·

ويفضل هذا العامل الجديد ، يمكن ان يعيد العرب (بما فيهم عرب التسوية السلمية) حساباتهم ، وان يقيموا مرة اخرى موقفهم من الولايات المتحدة ، وان يفكروا من جديد بالتوجه نحو الاحتكام للسلاح • وفي هذا المناخ يكون طـرح ميزان القوى مسالة متناسبة مع منطق الدعوة الى الصدام ، الـــذي يغـــدو الوسيلة الوحيدة الممكنة لحسم التناقض ، بعد تراجع الوسائل السلمية الـــى الصف الثاني •

حول حساب ميزان القوى

يعتبر حساب ميزان القوى من اهم الامور الخاصة بتقدير الموقف وانضاج القرار السياسي • وهو يؤلف ، مع التقييم المتعلق بطرفي النزاع حول الوضعين السياسيين الداخلي والخارجي ، والجاهزية النفسية للقتال ، والواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي والعوامل الجيوبوليتيكية والطبوغرافية ، القاعدة التـــي يحـــدد الجهاز القيادي الاعلى على اساسها امكانية خوض الحرب ، ونسبة النجـــاح فيها ، وطبيعة هذه الحرب (تعرضية ام دفاعية) ، ومدتها (خاطفة ام طويلة الامد) •

وعملية الحساب صعبة اساسا ، ولكن حساب ميزان القوى العربـــي ـ الاسرائيلي يتعرض لصعوبات اضافية تنبع من خمسة اسباب هي : ١ ـ انعدام الاستراتيجية العربية الواحدة فيمجابهة الخطر الصهيوني ، ٢ ـ تعدد مراكـز اتخاذ القرار في الوطن العربي ، ٣ ـ تباين تحليلات مراكز القرار حـــول • معسكر العدو ، ومعسكر الصديق ، وطبيعة العصر ، وهامش العمل الممكن في اطار الوفاق الدولي ، ومدى تاثير العامل الدولي على العمل العسكري للدول الصغيرة بالمقابل على العامل الدولي ، ٤ ـ العلاقة بين الزمان والمكـان وهـو عامل يدخل في حسابات موازين القوى بشكل عام ، ولكنه يأخذ بالنسبة الـى الصراع العربي ـ الاسرائيلي اهمية شديدة الخصوصية ، نظرا لسعة الوطـن العربي ، ووجود عـدد من الجيوش العربية بعيداً عن بؤرة الصدام ، وضعف وسائط النقل البري والجوي والبحري والنهري بين اجزاء الوطن العربي ، ٥ ـ تعرض عدة اقطار عربية لاخطار خارجية كامنة تجبرها على اقتطاع جزء من قواتها للدفاع الذاتي ،وتحرمها من امكانية دفعكل هذه القوات الى بؤرة الصراع مع العدو الصهيوني •

ورغم خصوصيات حساب ميزان القوى في الشرق الاوسط ، فقد كـان الاسرائيليون والمحللون الغربيون المتصهينون يتجاهلون الاسلوب الديناميكـي

الحي ، ويلجاون الى اسلوب تجريدي جامد ، يتمثل باجراء جمع رقمي لمجمل القوات العربية ، ومقارنة الارقام الكبيرة الناجمة عن الجمع مع رقم القوات المسلحة الاسرائيلية ، لاظهار التفاوت الهائل بين الرقمين · والانطلاق من هذا التفاوت لاستدرار عطف العالم وابتزاز مساعداته ، ومطالبة الغرب بمزيد من الاسلحة والمعدات لتقليص الهوة التسليحية · او لتركيز الاضواء حول انتصار القوة الصغيرة على القوة الكبيرة (كما حصل في ١٩٦٧) وتبرير هذا الانتصار بالعبقرية العسكرية ، والبطولات الخارقة ، والتفوق القيادي والتنظيمي ، والهوة التكنولوجية !

والامثلة على هذا الاسلوب الستاتيكي الخاطىء كثيرة ، واخرها ، ما قاله الجنرال والنائب في الكنيست اريك شارون في المؤتمر الصهيوني المنعقد في نيويورك خلال النصف الاول من ايلول ١٩٧٦ ، عندما اعرب عن قلقه منميزان التسلحفي الشرق الاوسط ، وقال انه علم من احصائيات المصادر الاميركية المسؤولة ان مصر حصلت من الاتحاد السوفياتي بعد حرب تشرين على ١٠٠ طائرة « ميغ ـ ٢١ » ، و ٤٠ طائرة « ميغ ـ ٢٣ » ، و ٦٠٠ دبابة « ت ٦٢»، و ٤٠٠ دبابة « ت ٥٤ » و « ت ٥٥ » ، ومئات العربات المدرعة وبطاريات المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات والصواريخ ارض ـ ارض · ثم اجمل حديثه بقوله ان العرب حصلوا منذ حرب تشرين على اسلحة قيمتها ٢٠ مليار دولار ، بينما لم تحصل-اسرائيل الا على اسلحة بقيمة ٥ مليارات ، وان العرب سيحصلون في العام المقبل (١٩٧٧) على اسلحةبقيمة ٢،٥ مليار دولار ، في حين لن تحصل اسرائيل الا على اسلحة قيمتها مليار دولار ·

وسواء كانت الارقام التي اوردها شارون صحيحة ام خاطئة ، فاننا لن نتوقف عندها ، لانها لا تتعلق بميزان القوى ، ولا تعطي ـ حتى في حالة صحتها ـ الا صورة عن تجارةالاسلحة في الشرق الاوسط · وتجارة الاسلحة شيء وميزان القوى شيء اخر · واذا كانت الاحصائيات تعطي صورة دقيقة الى حد ما عن اتجاه تجارة الاسلحة ، او عن مخزون الاسلحة في منطقة ما ، فان هذه الاحصائيات لا تدل على شيء عند حساب ميزان القوى · وسنبرهن في الصفحات التالية على صحة هذا الراي ، ومدى الهوة القائمة بين « حساب الحقل وحساب البيدر » · وسنقدم ميزان القوى الحقيقي المحسوب بطريقة ديناميكية ملتصقة بالواقع ونابعة من معطياته ، معتمدين في الحساب على الارقام الواردة في النشرات العالمية غير السرية التي تقدم احصائيات شبه كاملة حول مخزون الاسلحة في العالم (تقارير المعهد الاميركي للابحاث السياسية ، وتقارير المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن ، وتقارير

معهد ستوكهولم الدولي لابحاث السلام) • مع الاشارة انى ان اعتمادنا على هذه المصادر لا يعني بالضرورة تبني كل ارقامها ، ولكنه الوسيلة الوحيدة الممكنة لبدء الحساب دون كشف اية اسرار او معلومات تفيد العدو •

تقول الارقام الواردة في الدراسات المذكورة ، والموجزة في الجـــدول الموجود في نهاية هذا البحث ، ان القوات العاملة الاسرائيلية تعـادل ٢٠ر١٤ ٪ من القوات العاملة العربية ، وان ميزانية التسليح تعادل ٤٢ر٢٢ ٪ من مجمل ميزانيات التسليح العربية • وان الاسرائيليين يملكون من الدبابات المتوسطـة ما يعادل ٣٣ر٤٢ ٪ ، ومن المصفحات والعربات ١٩ر٨٢ ٪ ، ومن الطائـــرات المقاتلة ٢٣ر٢٦ ٪ • وان البحرية الاسرائيلية لا تملك اي مدمـــــرة مقابـــل ٥ مدمرات عربية ، ولا تضم سوى ١٦ ٪ من الغواصات العربية و١١ر١١ ٪ من زوارق الطوربيد و ٨٦ر٤٢ ٪ من زوارق الصواريـــخ سطـــح ـ سطـــح • والاستنتاج الاولي والخاطىء من هذه المقارنة الاحصائية ، هو ان العـــرب يتفوقون على اسرائيل في البر والبحر والجو • وان نسبة القوى لا تسمح لهم بادارة معركة دفاعية ناجحة فحسب ، بل تؤمن لهم التفوق اللازم للهجـــوم الناجح ايضا •

ولكن هذه المقارنة ، رغم صحتها من الناحية الحسابية ، خاطئة مـــن اساسها ، وهي مثال حي للديماغوجية الاعلامية ذات الغطاء العلمي الرقمي ، والشكل الاكاديمي • ويرجع ذلك الى انها تعتمد على المقارنة بين القـــوات الموجودة لا بين القوات المتجابهة او التي يمكن ان تتجابه في زمـان ومكـــان معينين ، مع ان قانون الحشد (وهو قانون رئيسي من قوانين الحرب) يقول بان نتيجة القتال لا تتأثر بحجم القوى التي يملكها الطرفان ، بل بحجم القـوى التي يستطيع الطرفان زجها في ارض المعركة • ولذا فاننا سنسقط هذه المقارنة والمقارنات المماثلة من الحساب ، ونجري الحساب الديناميكي ، اخذين بالاعتبار حقيقة الوضع السياسي ، ومسالة الحشد الاستراتيجي ، ضمن اطار عاملـي الزمان والمكان • وستدل نتيجة الحساب على ميزان القوى الاستراتيجي ، الذي يختلف بالطبع عن ميزان القوى العملياتي او التكتيكي ، الذي يحسبه قـادة القطعات الميدانية بناء على اماكن انتشار القوات ،وقدرتها الحركية ، وطبيعة المواقع التي تتمركز فيها ، ومستوى تعبئتها النفسية واستعدادها للصمود •

ومن الجدير بالذكر ان ميزان القوى الاستراتيجي الذي سيتـم التوصـــل اليه ، متبدل ، حي ، واقعي يتغير من يوم الى اخر ، حسب تبدل المعطيـــات الداخلة في الحساب • وهو في جوهره النتيجة المستخلصة من معادلـــة ذات طرفين متناقضين ومتجابهين : احدهما هو العدو والاخر هو الصديق • ومـع

تبدل احد الطرفين او كلاهما تتبدل المعادلة ، وتتغير بالتالي نتيجتها ، ويظهر ميزان قوى جديد • ولهذا فان حساب ميزان القوى في اليوم (ي) اي يوم اندلاع القتال ، مختلف كل الاختلاف عن حساب الميزان نفسه في اليوم (ي-٢) او اليوم (ي + ١) • وحتى في اليوم (ي) نفسه ، فان الحساب في الساعة (س) اي ساعة بدء القتال ، مختلف عن الحساب في الساعة (س + ٢) او (س + ١٠) • وعلى هذا الاساس فاننا لن نقدم ميزانا واحدا بل عدة موازين ، مفترضين ان اليوم (ي) هو ١ كانون الاول ١٩٧٦ • بكل ما يعنيه هذا اليوم من وضع سياسي عالمي ومحلي ، وبكل ما يجسده من قوى عسكرية موجودة لدى طرفي المعادلة •

ميزان القوى في اليوم (ي - ٣)

تضم القوات المسلحة الاسرائيلية (احد طرفي المعادلة) في حالات السلم المسلح جيشين احدهما عامل والاخر احتياطي • ويضم الجيش العامل ١٥٦ الف رجل مزودين بـ ١٥٠٠ - ١٦٠٠ دبابة و ٢٥٠٠ عربة مدرعة (حولي ٥٠ ٪ من الدبابات والعربات المدرعة المتوفرة) ، وجميع طائرات الصف الاول (٤٦١ طائرة مقاتلة) ، ومعظم سفن سلاح البحرية • ويقسم هذا الجيش الى اربعة اقسام ، ينتشر القسم الاول منه مقابل الحدود الشمالية (٣٠ ٪ ، وينتشر القسم الثاني مقابل الحدود الجنوبية (٣٠ - ٣٥ ٪) ، وينتشر القسم الثالث مقابل الحدود الشرقية (٥-١٠ ٪ ، في حين يتجمع القسم الرابع (٣٠ ٪) كاحتياط استراتيجي في الجزء الجنوبي من الارض المحتلة ، بحيث يستطيع الوصول الى الجبهتين الشمالية والجنوبية بسرعة متماثلة •

ويضم الجيش الاحتياطي حوالي ٤٢٠ - ٤٥٠ الفا يمكن تزويدهم بالاسلحة والمعدات المخزونة في مستودعات قريبة من مناطق الحشد الاستراتيجي • ولكن الاحتياط الاول القادر على الانضمام الى الجيش العامل والمشاركة في عملياته عند التعبئة لا يزيد عن ٢٥٠ الفا • في حين ان الاحتياطيين الباقين عبارة عن اشخاص تفرض عليهم ظروفهم (السن ، الكفاءة البدنية والنفسية ، طبيعة العمل ، التواجد خارج البلاد •• الخ.) ان يكونوا في الاحتياط الثاني والثالث، وان لا يشاركوا الا في اعمال الدفاع المحلي والاعمال شبه العسكرية • ولذا فهم لايدخلون في حساب القوة الضاربة الهجومية او في حساب قوة الصد والرد في الدفاع عن الحدود ولكنهم يدخلون الى حد ما في حساب الدفاع في العمق•

تشير المصادر العالمية الى ان الاحتياط الاول يمكن ان يتحول الى قوة

عاملة ، وينتقل من حالة السلم الى حالة التعبئة والاستعداد للفتح العملياتي خلال ٧٢ ساعة • ولكن خبرة حرب تشرين تدفعنا الى الاعتقاد بان المدة اللازمة لجمع ٦٠ ـ ٧٠ ٪ من الاحتياط الاول هي ٤٨ ساعة فقط ، وخاصة بالنسبة الى القطعات الاحتياطية المخصصة للعمل على الجبهتين الشمالية والشرقية ، نظرا لقصر المسافات التي تفصل المناطق السكنية عن اماكن تجمع الاحتياط القريبة من هاتين الجبهتين • ودليلنا على ذلك هو ان الالوية المدرعة الاحتياطية التي بدأ العدو جمعها في صباح ٦ ـ ١٠ ـ ١٩٧٣ ، لم تكن في صباح ٨ ـ ١٠ مستعدة للحركة باتجاه الجولان فحسب ، بل كانت تشن هجومها المعاكس بقوة ٢ مجموعات الوية •

ويتألف الطرف الاخر للمعادلة من القوة العربية الموجودة بتماس مع العدو • وهي تتألف ، في الوضع الملموس القائم حاليا ، من الجيشين العاملين السوري والاردني ، بالاضافة الى وحدات سعودية تقدرها المراجع الاجنبية بلواء مشاة آلي • ولا يمكن ان ندخل في الحساب في اليوم (ي ـ ٣) قوات دول المشرق العربي (السعودية ، العراق ، الكويت ، اليمن الشمالي ، اليمن الجنوبي) طالما ان هذه القوات متحشدة على اراضيها الاقليمية ، ولم تنتقل مسبقا الى دول المواجهة •

ويجبرنا اتفاق فصل القوات في سيناء على ان لا ندخل القوة المصرية في الحساب في ذلك اليوم (وان كان من الممكن ان تدخل في ظرف معين وبعد فترة معينة كما سنرى) • اما قوات دول المغرب العربي ، فهي خارج الحساب طالما انها لم تنتقل مسبقا الى سورية او الاردن ، لان اتفاق سيناء يحرمها من امكانية التحشد المسبق في مصر • وهي ستبقى خارج الحساب فترة من الزمن ، حتى لو دخلت مصر الحرب بعد اندلاعها، وفتحت ارضها لتحشد قوات دول المغرب العربي ، وهي الفترة التي تتطلبها هذه القوات للانتقال من مواقعها الحالية الى منطقة الحشد العملياتي على الضفة الغربية لقناة السويس •

ومن الضروري ان نستبعد من الحساب ايضا القوة السورية التي تشارك في قوة الردع العربية الموجودة في لبنان ، وان لا ندخل في الحساب القوات العربية الاخرى العاملة في قوة الردع ، لان كل هذه القوات ستكون في اليوم (ي ـ ٣) بعيدة عن ارض المعركة في الجولان ، وبعيدة عن الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية ايضا بسبب وجود « الخط الاحمر » الاسرائيلي • اما الجيش اللبناني وقوات الثورة الفلسطينية (نظامية كانت ام غير نظامية) فهي بحاجة لفترة نقاهة طويلة بعد حرب اهلية دامت ١٩ شهراً • وستكون في اليوم (ي ـ

٢) منتشرة وفي وضع الترقب المتبادل ، الامر الذ يجعل من المتعذر ادخالها فـي المعادلة ، خاصة اذا دارت الحرب بعيدا عن الحدود اللبنانية ٠

ويبقى الاحتياط السوري (١٠٠ الف) والاردني (٣٠ الفا) جزءا مـن القوى الكامنة في الجانب العربي ٠ ولكن طبيعة هذا الاحتياط ، والمدة اللازمة لجمعه ، تدفع الى عدم ادخاله في الحسابفي اليوم (ي ـ ٢) اذا لم تبـدأ عملية التعبئة في اليوم (ي ـ ١) ٠

على اساس كل هذه المعطيات السياسية والعسكرية ، واستنادا الى ارقام الجدول الموجود في نهاية البحث ، يمكن حساب ميزان القوى الحقيقي ، مـع الاخذ بالاعتبار ان القوة السورية الموجودة في لبنان تعادل (حسب تقديرات مراسلي وكالات الانباء) ٢٠ الف رجـل . و ٢٠٠ ـ ٣٠٠ دبابـة ، و و٣٠٠ عربة مدرعة ، وان اللواء السعودي الموجود في سورية يعادل ٣ ـ ٤ الاف رجل ٠ ويمكن تلخيص هذا الحساب بالجدول التالي :

	العرب	اسرائيل	ملاحظات
قوات مسلحة (بالالاف)	٢٤٠	١١٦	ـ
دبابات	٢٤٤٠	١٢٠٠	النوعية متماثلة
عربات مدرعة	١٥٨٠	٢٣٠٠	النوعية متماثلة
طائرات مقاتلة	٤٤٢	٤٦١	النوعية غيرمتماثلة
زوارق طوربيـد	١١	٦	النوعية غيرمتماثلة
زوارق صواريخ	٦	١٨	النوعية متماثلة
غواصات	ـ	٢ ـ ٣	ـ

● ـ لقد اقتطعت القوات الاسرائيلية الموجودة مقابل الجبهة المصرية ، كمـا اقتطعت القوات السورية الموجودة في لبنان ، واضيفت القوة السعوديـة الموجودة في سورية ٠ وادخلت القوات السورية والاردنية الموجودة في العمق على اعتبارها احتياطا استراتيجيا٠

● ـ الجدول محسوب على اساس اليوم (ي ـ ٣) ٠

ويبقى الاعتماد على هذا الجدول لحساب ميزان القوى في اليوم (ي ـ ٣) غير دقيق تماما ٠ ولا بد من ان يدخل عليه تعديلان : يتعلق اولهما بالمستوى المعنوي والتكنولوجي والتدريبي والقيادي واللوجستيكي للطرفين المتجابهين ٠

في حين يتعلق الثاني بنوعية الطائرات المقاتلة وحمولاتها الحربية ٠

ويمكن القول ان المستوى المعنوي لدى الطرفين متماثل ، بسبب اهمية هدف الصراع للطرفين ، وارتفاع مستوى الزخم النفسي داخل القوات المتجابهة ٠ بيد ان هناك تمايزا في المستويات الخاصة بالتكنولوجيا والتدريب والقيادة واللوجستيك ، وهو تمايز مائل لصالح اسرائيل ٠ ولكن الميل غير متساو في جميع المجالات ٠ وهو بالتأكيد ادنى بكثير من الميل الذي كان الاسرائيليون يعتقدون بوجوده قبل حرب تشرين ٠ فلقد اثبتت هذه الحرب ان الهوة اصغر مما كان متوقعا ، وانها تكاد تختفي في كثير من المجالات ٠ ولا يمكن تقدير الهوة الحقيقية اليوم ، وبعد ٣ سنوات من حرب تشرين ، الا بشكل افتراضي ٠ فلقد حاول كل طرف من الطرفين خلال السنوات الثلاث الماضية سد الثغرات وتكثيف الايجابيات ٠ والحرب الخامسة وحدها قادرة على اظهار مدى التقدم الذي تحقق في هذا المضمار ٠

اما بالنسبة الى الحمولات الحربية للقوات الجوية ، فان الامور تبدو اوضح بكثير ، نظرا لاعتمادها على حقائق ثابتة تتعلق بنوعية كل طائرة ومميزاتها القتالية والفنية ٠ ورغم ان عدد الطائرات الاسرائيلية لا يعادل سوى ١٫٠٥ ٪ من عدد الطائرات العربية فانحمولتها الحربية تعادل اكثر من ٣٠٠٪ ٠ ومن الممكن تعويض جزء من هذا الخلل الناري بفضل نيران المدفعية العربية المتفوقة بالتأكيد على المدفعية الاسرائيلية علما بان اسرائيل متفوقة ناريا في مجال الصواريخ ارض ــ ارض ٠

ميزان القوى في اليوم (ي)

يضم طرفا المعادلة في اليوم (ي) نفس القوى المذكورة في معادلة اليوم (ي ــ ٣) بيد ان حساب الميزان يختلف في هذا اليوم باختلاف الطرف الذي يبادر بالهجوم ٠ فاذا كان الطرف العربي مبادرا ، واستطاع تحقيق المفاجأة الاستراتيجية ، كان الميزان مشابها للميزان الذي تحدثنا عنه في الحالة السابقة ٠ اما اذا كانت المبادرة اسرائيلية ، فان هناك حالتان : تتمثل اولاهما بشن الحرب دون تعبئة ٠ ويكون الميزان في هذه الحالة مماثلا لما ذكر اعلاه : اما الحالة الثانية ، فتتمثل في الحالة التي تقوم اسرائيل فيها بالمبادرة بعد التعبئة السرية ٠ وفي هذه الحالة يكون ميزان القوى كما هو مذكور في الجدول التالي :

	العرب	اسرائيل	ملاحظـات
قوات مسلحة (بالالاف)	٢٤٠	٢٦٠	ـ ـ
دبابات	٢٤٤٠	٢١٠٠	ـ النوعية متماثلة
عربات مدرعـة	١٥٨٠	٤٧٠٠	ـ النوعية متماثلة
طائرات مقاتلة	٤٤٣	٥٢٠	النوعية غير متماثلة
زوارق طوربيد	١١	٦	ـ ـ
زوارق صواريخ	٦	١٨	ـ النوعية متماثلة
غواصـــات	ـ	٢ ـ ٣	ـ ـ

- ـ نفس الملاحظة الموجودة في اسفل الجدول السابـق ٠
- ـ الجدول محسوب على اساس اليوم (ي) الساعة (س) ٠

ويلاحظ من هذا الجدول ان الميزان قد اختل بشكل ملحوظ لصالح اسرائيل٠ ولكن الاختلال كما يبدو في الارقام اقل بكثير من الاختـــلال الفعلـــي ٠ لان التوازن التقريبي بالقوات البرية معرض للانقلاب بسبب التفوق الجوي المعادي، نظرا لان القتال يجري على ارض مكشوفة ، وتحت سماء صافية في معظم شهور السنة ، ولا تتلبد بالغيوم المنخفضة التيتحد من حرية عمل الطيران الا فـــي فترات محدودة جدا ٠ ولا يأتي التفوق الجوي الاسرائيلي هنا مـن التفـــوق الساحق بعدد الطائرات ، لكنه يأتي من العوامل التالية :

١ ـ ان الضربة الجوية الاسرائيلية الاولى يمكن ان تدمر جزءا كبيـرا من سلاح الجو الاردني عـلى الارض نظرا لعدم اعداد الملاجيء الاسمنتية فـي المطارات الاردنية ، ولعـدم وجود جهاز دفاع ارض ـ جو صاروخي رفيـــع المستوى في الاردن ،خاصة بعـد ان عرقل الكونغرس الاميركي صفقة الصواريخ « هوك » للاردن ٠ واحبطت الاسباب السياسية فكرة شراء شبكـة صواريـــخ « سام ـ ٦ » من الاتحاد السوفياتي ٠

٢ ـ في حالة عدم تدمير الطيران الاردني كليا او جزئيا بالضربة الجوية الاولى ، فان وجود طائرات تفوق (نسبي) لدى الجانب الاسرائيلي («فانتوم ف ـ ٤ » ، و « ميراج ـ ٣ ») تجعل طائرات « ف ـ ١١٠٤ » و « ف ١٥ » الاردنية (وهي طائرات يتعذر عليها مجابهة « الفانتوم » و « الميراج ») عاجزة عن التحليق في الجو خوفا من السقوط في المعارك الجوية ٠

٣ ـ ان انعدام التغطية الجوية للقوات البرية الاردنية سيجعل هـــذه

القوات تفقد جزءا كبيرامن فاعليتها ، وسيلقي على عاتق المقاتلات السوريـــة عبئا اضافيا لحماية الاجواء الاردنية من جهة ، ومنع تسلل الطائرات الـــى سورية عبر هذه الاجواء من جهة ثانية ٠

٤ ـ ان الضربة الجوية الاولى ضد المطارات السورية غير قادرة علـى تميز الطائرات السورية على الارض ، بسبب كثافة الدفاع ارض ـ جـو فـــي سورية ، ووجود الطائرات السورية داخل ملاجىء من الاسمنت المسلح ٠ كما ان من الممكن الحد من عمل طائرات التفوق الاسرائيلية بوجود طائرات تفوق سورية (٤٥ طائرة ميغ ـ ٢٣) ٠ ولكن الحمولة الحربية للطائرات الاسرائيلية تبقى اكبر من الحمولات الحربية للطائرات السورية بنسبة كبيرة ٠ لذا ، فان الدعم الناري الجوي المقدم الى القوات الاسرائيلية سيكون اضخم من الدعـم الناري الجوي المقدم الى القوات السورية ، الامر الذي يؤثر على ميزان القوى البرية ،وخاصة اذا استطاع الطيران الاسرائيلي توسيع حقل عمله بتدمير مواقع الصواريخ ارض ـ جو السورية بواسطة القنابل الذكية والصواريخ جو ـ ارض الحديثة المتطورة التي حصلت عليها اسرائيل مؤخرا من الولايات المتحدة ٠

وعلى هذا الاساس فان ميزان القوى البرية في اليوم (ي) الساعـــة (س + ٢)، اي بعد اخراج الطيران الاردني من المعركة، سيحسب مع الانتباه الى نقطتين : اولاهما ان الجيش الاردني سيفقد قدرته الهجومية النهاريـــة بشكـل شبه كامل ، وسيخسر ٥٠ ٪ على الاقل من قدرته الدفاعية ٠ والنقطة الثانية هي ان قوة الدعم الناري الجوي التي ستحصل عليهـــا القوات البرية الاسرائيلية اكبر من قوة الدعم الناري الجوي المقدمة للقوات السورية ٠ ومن المؤكد ان الفرق بين قوتي الدعم غير ثابت ٠ وهو يصل الى حده الادنى اذا لجأ السوريون الـــى الدفاع تحت مظلة من الدفاع الكثيف المضاد للطائرات ، ولكنه يصل الى حده الاقصى اذا قام السوريون بالهجوم ، وابتعدت قواتهم البرية عن قواعـــد الصواريخ ارض ـ جو ٠

٤ ـ ان الضربة الجوية الاولى ضد المطارات السورية غير قادرة علـى تميز الطائرات السورية على الارض ، بسبب كثافة الدفاع ارض ـ جـو فـــي سورية ، ووجود الطائرات السورية داخل ملاجىء من الاسمنت المسلح ٠ كما ان من الممكن الحد من عمل طائرات التفوق الاسرائيلية بوجود طائرات تفوق سورية (٤٥ طائرة ميغ ـ ٢٣) ٠ ولكن الحمولة الحربية للطائرات الاسرائيلية تبقى اكبر من الحمولات الحربية للطائرات السورية بنسبة كبيرة ٠ لذا ، فان الدعم الناري الجوي المقدم الى القوات الاسرائيلية سيكون اضخم من الدعـم الناري الجوي المقدم الى القوات السورية ، الامر الذي يؤثر على ميزان القوى البرية ،وخاصة اذا استطاع الطيران الاسرائيلي توسيع حقل عمله بتدمير مواقع الصواريخ ارض ـ جو السورية بواسطة القنابل الذكية والصواريخ جو ـ ارض الحديثة المتطورة التي حصلت عليها اسرائيل مؤخرا من الولايات المتحدة ٠

وعلى هذا الاساس فان ميزان القوى البرية في اليوم (ي) الساعـــة (س + ٢)، اي بعد اخراج الطيران الاردني من المعركة، سيحسب مع الانتباه الى نقطتين : اولاهما ان الجيش الاردني سيفقد قدرته الهجومية النهاريـــة بشكـل شبه كامل ، وسيخسر ٥٠ ٪ على الاقل من قدرته الدفاعية ٠ والنقطة الثانية هي ان قوة الدعم الناري الجوي التي ستحصل عليهـــا القوات البرية الاسرائيلية اكبر من قوة الدعم الناري الجوي المقدمة للقوات السورية ٠ ومن المؤكد ان الفرق بين قوتي الدعم غير ثابت ٠ وهو يصل الى حده الادنى اذا لجأ السوريون الـــى الدفاع تحت مظلة من الدفاع الكثيف المضاد للطائرات ، ولكنه يصل الى حده الاقصى اذا قام السوريون بالهجوم ، وابتعدت قواتهم البرية عن قواعـــد الصواريخ ارض ـ جو ٠

* *

ومن الممكن الان ، وبعد ان بينا اسلوب اعداد جدول ميزان القـــوى ، والعوامل التي تؤثر على الارقام وتفرض تعديلها ، القيام بوضع جدول لكل يوم من ايام القتال ، مع الانتباه الى ضرورة انقاص الخسائر بالرجال والمعـــدات والاسلحة في الايام الثلاثة او الاربعـــة الاولى للحرب ، ومتابعة انقاص الخسائر بالرجال بعد ذلك،مع زيادة عـــدد المعدات والاسلحة بشكل متوازن للجانبيـــن المتحاربين نظرا لان الجسور الجوية السوفياتية والاميركية تكون قد بـــدأت

عملها انذاك بشكـــــل متوازن لتعويض الخسائر بالمعدات والاسلحة والذخائر ٠

ومن الضروري ايضا اضافة القوات العربية التي تبدأ بالوصول تباعـــا الى العمق العملياتي ٠ مع الانتباه الى النقاط التالية : ١ ــ ان الدول العربيـة البعيدة عن بؤرة الصراع لا تستطيع ارسال كل قواتها الى مسرح الحرب وتكتفي بارسال نخبة ضاربة من الطائرات والمدرعات والمشاة الميكانيكية ، ٢ ــ ان القوات العربية لن تصل الى المعركة دفعة واحدة ، فهي محكومة بعامليـــي المسافة والقدرة على النقل ، ٣ ــ ان ضعف اساطيل النقل الجوي العربـــي ، ستجعل الجسور الجوية العربية محدودة الطاقة ، ٤ ــ ان عدم السيطرة البحرية العربية المطلقة على شرقي البحر الابيض المتوسط ــ كما ظهر في حرب تشرين ــ ستجعل نقل قوات المغرب العربي الى سورية عن طريق البحر امرا محفوفـــا بـلمخاطر ، ٥ ــ ان عملية النقل ستعتمد اساسا على الطرق البرية نظـرا لعدم وجود سكك حديدية حديثة تصل بين اجزاء الوطن العربي ، ٦ ــ ان اتفاق فصل القوات في سيناء يمكن ان يجمد القوة المصرية ، ويجمد بالتالـــي قوات دول المغرب العربي ويمنعها من المشاركة في القتال ٠

ميزان القوى من (ي + ١) الى (ي + ٥)

يختلف حسابميزان القوى باختلاف معطيات بدء القتال ٠ وسنحدد فيمـا يلي ثلاث حالات متباينة :

الحالة الاولى : المبادرة اسرائيلية بعد التعبئة : لقد اعلنت مصر بعـــد توقيع اتفاق سيناء ، ان هذا الاتفاق لن يمنعها من التدخل عسكريـــا لصـــد العدوان على اي بلد عربي ٠ فاذا اضفنا الى هذا التعهد الوضع الناجم عـــن انتخاب الرئيس كارتر وتعثر مسيرة الحل السلمي ، وتناقص امكانية الوصـــول الى تسوية مرضية دون اللجوء الى السلاح ٠ وجدنا ان اشتـــراك القـــوات المصرية في الحرببعد اندلاعها امر ممكن ٠ وهذه مسالة مهمة جدا بالنسبـــة الى ميزان القوى ، نظرا لضخامة القوة المصرية من جهة ، وضـــرورة فتـــح الاراضي المصرية امام قوات دول المغـرب العربي من جهة اخـرى ٠

وما دمنا قد افترضنا ان اسرائيل قد عبأت قواتها قبل بدء القتال فـــان الطرف الاسرائيلي من المعادلة سيبقى ثابتا (باستثناء الخسائر) في الفترة من (ي + ١) الى (ي + ٥) في حين ان الطرف العربي من المعادلة سيتبـدل

باستمرار ٠

ففي اليوم (ي + ١) سينضم الى القوة العربية ٥٠ ٪من القوات المصرية البرية على الاقل ، ومجمل القوتين المصريتين البحرية والجوية ٠ كما سيدخل ٢٥ ٪ من الطيرانين العراقي والليبي في الميزان ٠

وفي اليوم (ي + ٢) تكون القوة البرية المصرية كلها في الميزان ٠ وفي اليوم (ي + ٣) تكون ليبيا قد وضعت في الميزان ٣ اسراب من طائرات « ميراج » ويكون العراق قد دفع الى المعركة سربين او ثلاثة « ميغ ـ ٢١ » ، وسربين او ثلاثة « سوخوي ـ ٧ » ، وسربا من طائرات « ميغ ـ ١٧ » ، وسربا من القاذفات « تو ـ ١٦ » ، وتكون قوة الردع العربية (بما فيها القوة السورية) وجيش التحرير الفلسطيني وجزء من المقاومة قد اخذت مواقعها للمشاركة في القتال او لحماية المجنبة الاستراتيجية اليسرى للجيش السوري ، الا اذا فجر اليمين اللبناني لغما جمد هذه القوات ٠ وليس من المستبعد ان يصل في اليوم (ي+ ٣) سرب او سربان سعوديان وسربان او ثلاثة من الجزائر ٠

وبهذا سيتزايد طرف المعادلة العربي في البداية دفعة واحدة في البنود البرية والجوية والبحرية بسبب دخول مصر ، وسيتزايد بالتدريج حتى يوم (ي + ٣) في البند الجوي فقط ، بسبب وصول بعض الطائرات العربية الى العمق العملياتي٠ ثم يتوقف التزايد بعد ذلك حتى يوم (ي + ٥) ٠

الحالة الثانية : المبادرة اسرائيلية دون تعبئة : قد تلجأ اسرائيل الى المبادرة بشن الحرب دون اعلان التعبئة من اجل تحقيق الحد الاقصى من المفاجأة الاستراتيجية ٠ وفي هذه الحالة يتم التزايد في طرف المعادلة العربي كما ذكرنا من قبل ، كما يتم التزايد داخل طرف المعادلة الاسرائيلي على اساس اضافة ٣٠ ٪ من الاحتياط الاول في اليوم (ى + ١) ، و ٦٠ ـ ٧٠ ٪ من هذا الاحتياط في اليوم (ي + ٢) ، و١٠٠ ٪ في اليوم (ي + ٣)، الامر الذي يرفع القوات البرية العاملة الى ٤٠٠ الف رجل + ٣٢٠٠ دبابة + ٧٠٠٠ عربة مدرعة ٠

الحالة الثالثة : المبادرة سورية اردنية : يتم التزايد في طرف المعادلة الاسرائيلي كما لو كانت المبادرة اسرائيلية دون تعبئة ٠ في حين ان التزايد في طرف المعادلة العربي سيكون عراقيا اساسا وسعوديا الى حد ما، وسيتم وفق التوقيتات المذكورة انفا ٠ ومن المحتمل ان لا تزج مصر بقواتها تطبيقا لاتفاق سيناء ، ولعدم وجود ذريعة تدفعها الى التدخل طالما ان المبادرة لم تأت من جانب اسرائيل ٠ ويؤدي عدم دخول مصر الى اسقاط الزيادة الجوية الجزائرية والليبية من

الحساب نظرا لوجودها بعيدة من حقل المعركة ، وعدم قدرتها على التمركز في القواعد الجوية المصرية ٠

ميزان القوى من (ي + ٦) الى (ي + ١٢)

اعتبارا من اليوم (ي + ٦) يأخذ طرف المعادلة العربي شكلا مزايـــــدا في مجال القوات البرية بشكل خاص بسبب بدء وصول قطعات عربية من الدول البعيدة عن بؤرة الصراع ، في حين يبقى طرف المعادلة الاسرائيلي غير قابل للزيادة على اعتبار ان اسرائيل تكون قد جمعت كل احتياطها البري وجعلته جاهزا لدخول المعركة ٠ ومن الطبيعي ان يختلف حجم التزايد حسبما تكـــون مصر داخل المعركة او خارجها ٠ فاذا كانت داخل المعركة اصبح التزايد من جانبين ، وشاركت فيه جيوش المشرق العربي والمغرب العربي ٠ اما اذا كانت خارج المعركة ، فان التزايد يصبح وحيد الجانب ، ولا يأتي الا من جيوش المشرق العربي ٠ وعندما نتحدث عن جيوش المشرق العربي فاننا نقصد العراق (اساسا) ثم السعودية والكويت ٠ كما ان حديثنا عن جيوش المغرب العربي يعني الجزائر وليبيا (اساسا) ثم السودان والمغرب ٠ اما الدول الاخرى غيـــر المذكـــورة اعلاه ، فان حجم قواتها الضاربة او بعدها عن مسرح المعركة ، يجعلها غير قادرة على المشاركة بفاعلية في تعديل ميزان القوى ٠

وتؤكد خبرة حرب تشرين على ان القطعات الاولى من القوات العراقيـــة والليبية والسعودية يمكن ان تكون في قلب المعركة منذ يوم (ي + ٦) ، ثـم يبدأ قلب القوات بالوصول تباعا وفق جدول زمني يمكن تحديـــده بناء علـــى طبيعة القوات ، وقدراتها على الحركة ، والمسافات المقطوعة ، والخطر الجـوي الذي يمكن ان يعترضها ٠ ويمكن بالتالي وضع جدول يبين ميزان القـــوى البرية في الايام (ي + ٦) (ي + ٧) ٠٠٠ الخ ٠ ولقد طورت الدول العربية قدراتها على النقل ، وزادت عدد حاملات الدبابات ، وزادت كفاءة الدفـــاع المتحرك ضد الطائرات ٠ وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بان العراق يستطيع ان يدفع حتى يوم (ي + ١٢) فرقتين مدرعتين على الاقل (٧٥٠ دبابـــة) وفرقتي مشاة ٠ ويكون حجم القوات السعودية المدفوعة لواءان أحدهما مدرع ، والليبية ٣ ـ ٤ الوية اثنان منها مدرعان ، والجزائرية ٣ ـ ٤ الوية اثنان منهـا مدرعان ، والمغربية لواء ميكانيكي معزز بالدبابات ، والسودانية لواء ميكانيكي معزز بالدبابات ، بالاضافة الى وحدات كويتية من المدفعية والاليات ووحـــدة رمزية تونسية ٠

وفي هذه الفترة تتم تعبئة جزء كبير من القوات الاحتياطية السورية والعراقية والاردنية ـ وجزء من الاحتياط المصري · ويصبح لدى القوات العربية مخزونا بشريا كبيرا لتعويض الخسائر ، وزيادة كثافة المشاة في التشكيلات ·

* *

على اساس هذا الاسلوب الديناميكي ، ومع اخذ عوامل الزمان ، والمكان ، ونوعية السلاح ، والخسائر ··· الخ بالحسبان ، يمكن التوصل الى ميزان القوى الاستراتيجي المحدد في وضع ملموس · ولكن ميزان القوى الذي نحصل عليه من هذه الدراسة باسلوب هيغلي ، بعد تحديد القوى الصديقة (المقولة) ، والقوى المعادية (النقيضة او النفي) للوصول الى التركيب (نفي النفي) ، هو « الميزان الممكن» ، في الظروف القائمة · وليس هذا الميزان ملائما في جميع الحالات ، وهو لا يؤمن في افضل الظروف (مشاركة مصر الكلية والمشاركة العربية المتعاقبة) ، التفوق الساحق اللازم لتحقيق نصر حاسم على العدو الصهيوني ، رغم القوى الكامنة اللازمة لتحقيق النصر ·

وللانتقال من « الميزان الممكن » الى « الميزان اللازم » شروط لا بد من تحقيقها ، واهمها : توحيد الاستراتيجية العربية ، واستبعاد الاعتماد على اميركا ، واعادة التحالف مع السوفيات ، والغاء اتفاق فصل القوات في سيناء، وتقريب القوات العربية البعيدة وحشدها مسبقا في العمق العملياتي ، وتكديس الاسلحة والمعدات التابعة للجيوش البعيدة في مستودعات داخل دول المواجهة وصيانتها واعدادها لاستقبال الطواقم التي تنقل بالطائرات عند اللزوم لزيادة سرعة التدخل ، وتحسين المواصلات البرية بين الدول العربية ، وتدعيم اسطول النقل الجوي ··· الخ ·

وتدخل كل هذه الامور في اطار تطوير « المقولة » بسرعة تفوق تطور « النفي » ، لتحقيق «نفي النفي » المناسب ، والوصول الى « ميزان القوى المطلوب » الذي يضمن النصر · والى ان يتم ذلك ، يبقى ميزان القوى هو « الميزان الممكن » الذي حددته هذه الدراسة ، ووضعته في اطار حجمه الصحيح، بعد ان بددت ظلال الاوهام باضواء الحقائق ·

جدول المعلومات العسكرية الخاصة بميزان القوى الرقمي

البلد	القوات المسلحة (بالالاف)	ميزانية التسليح (مليون دولار)	دبابات متوسطة	دبابات خفيفة	مصفحة وعربة مدرعة	احتياط (بالالاف)	طائرة مقاتلة	زورق طوربيد	زورق صواريخ	غواصة	مدمرة
مصر	٣٢٢٫٥	٦١٠٣	٢٢٠٠	—	٢٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠	٣٠	١٣	١٢	٥
سورية	١٧٧٫٥	٦٦٨	٢٣٠٠	٧٠	١٢٠٠	١٠٠	٤٠٠	١١	٦	—	—
العراق	١٣٥	٨٠٣	١٣٠٠	—	١٣٠٠	٢٥٠	٢٤٧	١٣	٨	—	—
السعودية	٤٧	٦٣٤٣	٢٠٠	٦٠	٢٠٠	—	٩٥	—	—	—	—
الاردن	٨٠	١٥٥	٤٤٠	—	٦٨٠	٣٠	٤٢	—	—	—	—
ليبيا	٣٢	٢٠٣	٤٠٠	—	٦٢٥	—	٩٢	—	٣	—	—
الجزائر	٦٣	٢٥٨	٤٠٠	٥٠	٤٤٠	٥٠	١٨٦	٩	١٢	—	—
المغرب	٦١	١٩٠	١٥٠	١٢٠	٢٢٠	—	٦٠	—	—	—	—
السودان	٤٨٫٥	٩٧	١٣٠	١٦	٣٧٠	—	٤٣	—	—	—	—
تونس	٢٤	٥٦	—	٥٠	٥٠	—	٢٤	—	—	—	—
اليمن ش	٣٢	٥٨	٣٠	—	١٠٠	—	٢٤	—	—	—	—
اليمن ج	١٨	٢٦	٥٠	—	٥٠	—	٢٧	٢	—	—	—
عمان	١٤	٣٥٩	—	—	٦٢	—	٤٧	—	—	—	—
الكويت	١٠	١٦٢	١٠٠	—	٢٥٠	—	١٢	—	—	—	—
لبنان	١٥٫٥	١٤٤	٦٠	٤٣	١٨٠	—	٢٠	—	—	—	—
دول الخليج	١٨		—	٢٠	١٨٠	—	٤٠	—	—	—	—
اسرائيل	١٥٦	٣٥٠٣	٣٢٠٠	—	٧٠٠٠	٤٥٠	٥٢٠	٦	١٨	٣٠٢	—

بَين الكلمة "الثورية" والفعل الثوري..
حول مناقشات البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين

راود تلحمي

لا شك ان الحرب الاهلية (والعربية ـ العربية) اللبنانية قد شغلت المقاومة الفلسطينية واستنزفت قواها واهتماماتها · ولا شك ايضا بان آثار هذه الحرب الطويلة الدموية ستنعكس ليس على لبنان فحسب وانما على مجمل منطقة الشرق العربي وبشكل خاص على القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني · وان كنا بالاساس نفضل ـ كمناضلين وطنيين فلسطينيين ـ ان تنصب جهودنا العسكرية على مجابهة العدو القومي (والاساسي) ، الا ان الامر يتجاوز الرغبات والتفضيل بعد ان فرضت علينا الحرب « اللبنانية » فرضا بعد الحرب«الاردنية»، وذلك في اطار « التعريب » الذي عملت له وما زالت قوى الثورة المضادة العالمية والمحلية بقيادة وتنسيق الولايات المتحدة الاميركية ·

ولسنا في هذا المجال « اسوأ حظا » من حركات التحرير المعاصرة الاخرى التي جوبهت (من فيتنام الى انغولا) بنفس عملية « تحويل الانظار » (لاستعمال احد التعبيرات السائجة) لاجهاض الثورة من الداخل واشغالها بتناقضات غير التناقض الرئيسي يجري تسخينها ورفع درجة عدائيتها باستغلال مركز لبعض التمايزات الموضوعية (القومية او الطائفية او الطبقية او جميعها) والتداخلات المحتومة بين النضال التحريري والاوضاع الداخلية لمناطق الانطلاق والقواعد الخلفية ·

وان كان من الطبيعي ان تصب المقاومة الفلسطينية اهتماماتها على المعركة التي تخاض بالاساس ضدها على ارض لبنان ، فمن الطبيعي بالتالي ان تتخذ بعض جوانب النضال الفلسطيني الاخرى احجاما نسبية اقل ، الا انه من الضروري كذلك الا يغيب الانشغال بالحدث اليومي وبالمجابهة العسكرية

والسياسية وتشعباتهما وتطوراتهما المفاجئة احيانا ، الا يغيب كـــل ذلـــك الشمولية في النظرة لطبيعة المعركةوللآفاقالمستقبلية القريبةوالبعيدة · وبكلمات اقل ، لا يجب ان يلغي الانهماك بالتكتيك عن الرؤية الاستراتيجية · ولا يجـب ان يغني الموقف (السياسي) عن البرنامج (السياسي) · فالمعارك في تاريخنا المعاصر لا تحسم بصفات الشجاعة والبسالة والاستعداد للتضحية ولا حتى بحجم القوة وكمية التسليح ونوعيته وحدها ، بل يتطلب تحقيق النصر تحليلا دقيقا لموازين القوى الآنية والمستقبلية القريبة (مع الاخذ طبعا بالديناميكية الثوريـة الفاعلة فيها) تحليلا على اساسه تبنى التحالفات والخطط ، وتحدد وسائـل النضال في كل مرحلة وضد كل خصم · وغير ذلك ليس الا الارتماء في مستنقع التجريبية والانتهازية والتخبط العفوي والدنكيشيتية المتراوحة بين النشـــوة الثورجية المطالبة بتغيير كل شيء (وفورا !) واليأس المطلق بعـد الاصطـــدام بالواقع الصعب والمتردي (كما هو الحال في منطقتنا) ·

ومن هنا يكتسي نشرالبرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في مطلع هذا العام اهمية خاصة في الساحة الفلسطينية ليس بمحتواه وحـــده وقدر ما هو لكونه المحاولة الجدية الاولى لتجاوز العموميات حول « التحريـــر الشامل » و« القضاء على الكيان الصهيوني » التي لا تعدو كونها فـي ظـــل الموازين المحلية والدولية الحالية والمحتملة في المستقبل القريب ضربا من التمني او اهدافا بعيدة تتطلب ـ كما جاء في البرنامج نفسه (١) ـ تغيرا حاسمـــا في ميزان القوى فلسطينيا وعربيا وعالميا ، تغييرا لصالح قو ىالثورة الجذرية على حساب القدرات العدوانية للقوى الامبريالية وركائزها المحلية ·

وكان من الطبيعـي ان تثير هذه المحاولة نقاشات في الصفوف الفلسطينـية داخل وخارج الوطن المحتل ، وان تتباين المواقف منها حسب الموقع (الجغرافي والطبقي والسياسي) · ولسنا هنا بصدد حصر ردود الفعل هذه ، بل سنصب اهتمامنا على ما نشرته «شؤون فلسطينية »في هذا المجال ، ونعني بذلك بالتحديد مقالي د · محجوب عمر (عدد نيسان ١٩٧٦) والاخ سميح سمارة (عـــدد حزيران ١٩٧٦) ·

★ ★

تناول المقالان جوانب متعددة من البرنامج السياسي وبعمق وجديـــة متفاوتين · ومقال الاخ سمارة بالتحديد تميز بالكثير من الخفة وعدم الاستيعاب لفكر الجبهة الديمقراطية ومنطلقاتها ووصل في بعض تعابيره الى حد التجنـي

والتشويه المقصود لخدمة هدف التجريح المجاني ـ ولنا عودة الـــى هـــذا الجانب ـ ٠

لكننا سنبدأ بمعالجة الاطروحات التي نعتبرها اساسية في البرنامج والتي تناولها المقالان بشكل خاص ٠

مسالة السلطة الوطنية والبرنامج المرحلي :

تميزت الجبهة الديمقراطية في السنوات الاخيرة بانها كانت اول مـــن طرح علنا وامام الجماهير (في صيف ٧٣) برنامجا محددا يتلخص فـــي شعار « السلطة الوطنية على الارض التي يتم دحر الاحتلال الاسرائيلي عنها » ، هذا الشعار الذي تم تبنيه من قبل المجلس الوطني الفلسطيني بالاغلبية الساحقة في دورته الثانية عشرة (حزيران ١٩٧٤) ٠

ولا مجال هنا للعـودة الى النقاشات التي تلت هذا الطرح والى كـل ما قيل حول « الدولة الفلسطينية التي ستمنح » او حول « موازين القوى التي لا تعطي سلطة وطنية » ٠ فالمهم اليوم ان نؤكد البرنامج المرحلـــي لم يأت نتيجـــة اتفاق سري بين الدولتين الاعظم ـ كما كان يتوهم بعض انصار الفكر التآمري ـ ولا هو مشروع في الجيب يعكس ميزان القوى الآني الجامد (الستاتيكي) ٠ لقد كان منذ طرحه برنامجا نضاليا لامد زمني لا هو بالقريب العاجل ولا بالبعيـــد المؤجل ، برنامجا يمكن بطرحه من « تحقيق اقصى درجات التعبئة الوطنية لشعبنا ويوطد نضاله المشترك مع حلفائه الطبيعيين عربيا ودوليا » ـ كما جاء فـــي البرنامج السياسي نفسه (٢) ٠

وتأتي احداث السنوات الاخيرة لتؤكد جملة من الحقائق:

ـ لقد تحقق (ولاول مرة في تاريخ الشعب الفلسطيني المعاصر التفـــاف شعبي شامل حول قيادة موحدة (منظمة التحرير) بصفتها الممثل الوحيد له ولتطلعاته ٠ وقد ترجم هذا الالتفاف نفسه في الاراضي الفلسطينية المحتلـــة بانتفاضة متواصلة عمليا منذ تشرين الثاني ١٩٧٤ وحتى اليوم ، لم تقتصر على الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ،بل امتدت (وباشكال متميزة) الى الجليل الذي يشهد تناميا متسارعا للشعور الوطني الفلسطيني وللاستعدادات النضاليـــة الجذرية ٠

ـ بعد نضال عنيد استطاعت منظمة التحرير ان تنتزع في مؤتمر الرباط اعترافا عربيا شاملا بتمثيلها للشعب الفلسطيني باسره ٠ ورغم المؤامـــرات

والتراجعات والاستعداد الدائم للنظام الاردني وحلفائه للعودة عن هذه القرارات فقد اصبحت منظمة التحرير منذ ايلول الماضي عضوا كاملا في جامعة الدول العربية واعادت قمة القاهرة تأكيد قرارات الرباط بشأنها ٠

واخير وبالرغم من « الاستنزاف اللبناني » ، تمكنت منظمة التحرير من تحقيق وتنمية رصيد عالمي هائل تمثل في الاعتراف الكامل بها كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني من قبل البلدان الاشتراكية وبلدان العالم الثالث وحتى بعض البلدان الغربية ٠

وقد اقر ، د ٠ محجوب بهذه الانجازات وعددها بالاسم (قرارات الرباط وقرارات الامم المتحدة والنهوض القومي النضالي لعرب الارض المحتلة (٣)) ٠ وذهب الى حد المطالبة « بتشديد النضال من اجل تثبيت قرارات الرباط وعدم السماح لاحد بالالتفاف عليها او الغائها » (٤) ٠

ولا يسعنا الا ان نؤيد هذه المطالبة بلا تحفظ ٠ لكن يهمنا من اجل توضيح النقاش ان نورد النص الاساسي في قرار قمة الرباط المتعلق بالقمة الفلسطينية٠ يقول القرار (كما وزعته وكالة وفا) في بنديه الاولين والاهم :

« يقرر مؤتمر القمة العربي السابع ما يأتي :

١ ــ تأكيد حق الشعب الفلسطيني في العودة الى وطنه وتقرير مصيره ٠

٢ ــ تأكيد حق الشعب الفلسطيني في اقامة السلطة الوطنية المستقلة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني على اي ارض فلسطينية يتم تحريرها ٠ وتقوم الدول العربية بمساندة هذه السلطة عند قيامها في كل المجالات وفي كل المستويات » (٥) ٠

فاذا كان د٠ محجوب يطالب بتثبيت قرارات الرباط التي حرر نصها الوفد الفلسطيني والتي تتطابق مع البرنامج المرحلي الذي تبناه المجلس الوطني الفلسطيني ، فاين يختلف مع الجبهة الديمقراطية في طرحها لنفس البرنامج؟

في مقال الاخ سمارة نجد بالمقابل تبنيا واضحا للبرنامج المرحلي على اعتبار انه كان متمشيا ــ على حد تعبير الكاتب ــ مع نتائج « حرب تشرين الوطنية وذلك من حيث تحديده للحلقة المركزية في هذه المرحلة من النضال الوطني الفلسطيني » (٦) ٠

ولكن يفترق المقالان في تقييم الحقبة اللاحقة لحرب تشرين • فالدكتـــور محجوب يعتبر ان « نسبة القوى تتحول لصالح الثورة العربية بشكل عام والثورة الفلسطينيةبش بكل خاص » (٧) • اما الاخ سمارة فيرى نقيض ذلك تماما ويعتبر ان السلطة الوطنية اصبحت ابعد مما كانت بعد تشرين مباشرة ويذهب الى حد المطالبة بالتخلي عن البرنامج المرحلي واعتماد برنامج جديد (٨) • ويقترح الاخ سمارة اساسا لهذا البرنامج « العـودة الى الينابيع الاولى اي الميثاق الوطنـي الفلسطيني » ، ويعتبر ان هـذا هو الامر المنطقي الوحيد (٩) !!

اما مقال د • محجوب فيصل الى نتيجة مشابهة ولكن بتماسك منطقي مع منطلقاته (تحسن نسبة القوى) • واختلافنا معه يكمن في هـذه المنطلقـــات بالتحديد • ففي حين تحسن بالتاكيد ميزان القوى لصالح « العرب » (لنستعمل مؤقتا هذا التعبير العام) بعد حرب تشرين الوطنية ولصالح الشعب الفلسطيني بشكل خاص كمحصلة لنضاله المسلح الطويل وتحركاته الجماهيرية والسياسية والاعلامية المترافقة ، الا ان هذا التحسن نسبي ولا يشكل هزيمة حاسمة للحلف الاسرائيلي ـ الاميركي الامبريالي • اكثر من ذلك ، نقول ان البورجوازيات الحاكمة في مصر وسوريا (وفي مصر بشكل اخص) بدت من خلال تهالكها على الوساطة الاميركية وسيرها في ركاب مشاريع كيسنجر ، الكثير من المكاسب التي حققتها حرب تشرين وليس فقط المكاسب الوطنية العـامة للشعبيـن ، بـل وحتى المكاسب التي كان يمكن ان تجنيها كيورجوازيات لها مصالحها الخاصة •

ويكفينا تعبيرا عن هذا التبديد الحرب الاهلية اللبنانية التي اشعلتهـا القوى المرتبطة بالامبريالية الاميركية ، والتي سرعان ما تحولت الى حرب عربيةـ عربية تستنزف فيها كل القوى المشاركة في الوقت الذي تستعيد فيه الدولـــة الصهيونية انفاسها وتؤمن لنفسها شهورا طويلة من الهدوء المطلق على حدودها• وقد عبر هنري كيسنجر نفسه عن هذا التحول فيتصريح اخير له قال فيه بالحرف الواحد : « الظروف الآن ••• تبدو بالنسبة الينا افضل مما كانت عليه في اي وقت منذ انتهاء الحرب » (١٠) •

وعلى الصعيد الفلسطيني ، وبالرغم من كل التزيف البشري في لبنـان ومحاولات الحصار ومصادرة تمثيل الشعب الفلسطيني ، ما زالت المقاومـــة الفلسطينية تحتفظ برصيدها الجماهيرى الهائل (الذي تعبر عنه يوميا انتفاضات الارض المحتلة) وبرصيدها الدولي بالتاكيد •لكن حالة التردي في « التنسيق» العسكري (لنستعمل تعبيرا مخففا عن واقع الحال) بين قوى المواجهة مـــع العدو الاساسي (التي وصلت بالنسبة لمصر بعد اتفاقية سيناء الى حد التجميد الكامل لامكانيات الضغط العسكري على اسرائيل) ليست دون اثر بالتاكيـــد

على ميزان القوى الاجمالي وبالتالي على القدرات الفلسطينية لانتزاع مكاسب ملموسة على صعيد البرنامج المرحلي ٠

ويستنتج الاخ سمارة من هذه التحولات الموضوعية ضرورة استحداث برنامج سياسي جديد للنضال الفلسطيني بدل « البرنامج المرحلي » ٠ واذا سلمنا بضرورة برنامج جديد فهذا البرنامج اما ان يكون اقصى من البرنامج المرحلي او دونه ٠ وفي الحالة الاولى يشكل هذا التجديد هروبا حقيقيا الى الامام لن يقود الا الى المزيد من الارباك والتخبط على كافة الاصعدة (الجماهيرية والعسكرية والسياسية والدبلوماسية) ــ هذا اذا لم يقد الى تسهيل مهمة الخصوم باعادة عزل المقاومة عربيا ودوليا وبالتالي تسهيل تطويقهاوشلها ٠ اما الطريق الثاني، فهو طريق الانحدار الى مستنقع التنازلات غير المبدئية والمتواصلة الذي تسلكه البورجوازيات العربية منذ تشرين ٧٣ ٠

اما ما يطرحه الاخ سمارة (العودة الى الميثاق الوطني الفلسطيني) وهو ما يسميه (« العودة الى الينابيع الاولى ») فهو هروب الى الوراءودفن للرأس في الرمل ٠ فبين الميثاق الوطني الفلسطيني والبرنامج السياسي المرحلي عشر سنوات مجيدة في تاريخ الشعب الفلسطيني سلك فيها الشعب بمجمله درب النضال بكل اشكاله وفي مقدمتها النضال الثوري المسلح واكتسب خبرة نضالية ثمينةجدا على كافة الاصعدة ، خبرة لم تكن عنده او عند قياداته في اية حقبة من تاريخه٠ فشتان ما بين الشعب الفلسطيني عام ١٩٧٤ المسلح بهذه الخبرةوالملتف حول قيادة شرعية واحدة (منظمة التحرير) وبين الشعب الفلسطيني عام ١٩٦٤ الذي كان يعيش حالة من التمزق والارباك وتوزع الولاءاتبالاضافة الى قمع الانظمة العربية المتنوعة ٠

علاوة على ذلك فان المعطيات في منطقتنا تعرضت لتغييرات عميقة في هذه السنوات العشر وبشكل متسارع ٠ ولا نعتقد بان الاخ سمارة ينكر ذلك ٠ ولا نعتقد بانه يرضى بان تكتفي قيادة المقاومة عام ١٩٧٦ بطرح الامور كما لو ان شيئا لم يكن ٠ هذا بالاضافة الى ان الميثاق الوطني ليس برنامجا سياسيا ليحل مكان برنامج اخر (والا لسمي كذلك) ٠

ويذكرنا هذا الموضوع بمحاولات ايجاد التفسير لكل الاكتشفات العلمية والتطورات الاجتماعية والسياسية في الكتب الدينية ٠ او بمحاولات بعض « الفلاسفة » الهروب من صخب الواقع وتعقيداته الى هدوء الريف وسكينة الماضي البسيط ٠

وخلاصة الموضوع ان الموقف السياسي السليم في الظرف الحالي هـــو التمسك بالبرنامج المرحلي وتشديد النضال ـ تحت اشكاله المختلفة ـ من اجـل الاسراع في احداث التغيير الضروري في ميزان القوى الذي يؤمن تحقيق هذا البرنامج • فهذا البرنامج ما زال هو الاقرب تحقيقا بالرغـــم مـــن كـــل المتغيرات على واقع المنطقة والواقع الدولي • وما زال برنامجـا نضاليـــا ـ وليس مشروعـا في الجيب كما توهـم البعـض ـ ويحتاج بالتاكيد لتضافـــر كل العوامـل المساعـدة عـلى التغـيير ، المحلية منهـا والعـالمية • ومن هنا اهمية الحرص عـلى الوحدة الوطنية الفلسطينية وتطويرها وعـلى التحالفـات الوطنية العربية والتحالفات عـلى الصعـيد الدولي • واي استخفاف باي مـن هذه العوامـل ـ تحت اية حجة مهمـا بدت ثورية لفظـا ـ لا يؤدي الا الى المازق (في احسن الاحوال)•

كلمة اخيرة حول هـذا الموضوع : ليس البرنامج السياسي المرحلي بالتاكيـد نهاية المطاف ولا هو « وثيقة ابدية »تصلح لكل زمان • فهو قابل للاستبـــدال لا بل يتوجب استبداله حينما تحدث تغييرات جوهرية على طريـــق تحقيـــق الاهداف المرحلية التي ينص عليها (وهو « مرحلي » بهذا المعنى) • والجبهة الديمقراطية التي تتبنى الماركسية ـ اللينينية نهجا ودليلا (١١) والتي تعمل على امد ابعـد من اجـل « التطـور الاشتراكي لفلسطين » (١٢) ومـن اجل « الوحدة القومية لكافة الاقطار العربية » (١٣) بما فيها فلسطين « الديمقراطيـة الموحدة المناهضة للصهيونية والامبريالية » (١٤) بعد تحقيق « تصفية الصهيونية » عـلـى كامل ترابها (١٥) ، ان الجبهة الديمقراطية اذن لا يعقل ان تعتبر تحقيـــق البرنامج المرحلي نهاية المطاف وختام النضال كما يوحـي بذلك مقال د •محجوب (١٦) بل الارجح لا بل شبه المؤكد ان قطاعات واسعة مـــن البورجوازيـــة الفلسطينية المنخرطة حاليا في النضال الوطني بكل اشكاله هي التي ستعتبـر تحقيق البرنامج المرحلي نهاية المطاف وتتحـول من قوة وطنية مناضلة الـــى قوى محافظة قمعية لمحاولات الاستمرار بالنضال •

مسالة حق تقرير المصير :

يتناول المقالان السالفان الذكر موضوعة « حق تقرير المصير » بالنسبةللشعب الفلسطيني وكانهـا تنازل من الشعـب الفلسطيني او لغـم محشو بالاخـطـار • ففي مقال د • محجوب مثلا فقرات عديدة يتناول فيها هذه الموضوعة بلهجـــة سلبية وينتهي الى القول بان « قيادة م•ت•ف لـم تقبل (في قمة الرباط) بقاعدة حق تقرير المصير بعد دحر الاحتلال عن الضفة الغربية وغزة ، وكان موقفهـــا هو الصواب » (١٧) •

بالمناسبة وكما ذكرنا اعلاه ، تضمنت قرارات الرباط في بندها الاول تأكيد حق الشعب الفلسطيني في العودة وتقرير مصيره (١٨) · وما رفضته قيادة المقاومة ليس حق تقرير المصير ، بل تعليق مستقبل الضفة الغربية وغزة حتى اجراء استفتاء بين السكان · وهذا الامر الذي طرحه الملك حسين في المؤتمر يستهدف ابقاء المواطنين في الضفة والقطاع في حالة ارباك وانتظار· علما باننا لا نشك مطلقا في نتيجة اي استفتاء قد يجري ونعتبر ان الانتفاضات الشعبية المتتالية ومواقف الهيئات والمنظمات النقابية والمهنية المثلة لمختلف قطاعات الشعب تحت الاحتلال قد حددت منذ الان وبوضوح كامل ما هو طريق ممارستها لحق تقرير مصيرها : التخلص من كابوس الاحتلال الاسرائيلي في اسرع وقت وتسلم منظمة التحرير الفلسطينية لزمام الامور في هذه الاراضي·

ويطرح د· محجوب عددا من التساؤلات حول كيفية ممارسة هذا الحق وعلى اية اراضوحول قطاعات الشعبالفلسطينيالذيستمارسهفي اطارتحقيقالبرنامج المرحلي او لاحقا حين تحقيق الحل الجذري للمسألة الفلسطينية (١٩) ·ويطرح المقال حق تقرير المصير كمرادف لحق الانفصال ·(ويرى د· محجوب باستنتاج مفاجيء ان الانفصال المقصود في برنامج الجبهة الديمقراطية هو الانفصال الفلسطيني عن الاردن اما الاتحاد المتضمن في دعوة الجبهة لاعادة توحيد الوطن في مرحلة متقدمة في اطار « دولة ديمقراطية مستقلة » فهو توحيد مع اسرائيل ، اي ان الجبهة الديمقراطية تطالب بالانفصال عن الاردن والتوحيد مع اسرائيل · اسمعوا يا عرب) ·

وسنعود للحديث عن مسالة الحق في الانفصال على الصعيد النظري · ولكن يهمنا مباشرة ان نؤكد على ما يلي :

ـ اولا : ان « الانفصال » الذي يتضمنه حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في هذه المرحلة هو انفصال عن « الاحتلال الاسرائيلي » · لان « الانفصال » عن « الضم الهاشمي » قد تحقق جغرافيا عام ١٩٦٧ لصالح اسرائيل او سياسيا بالاعتراف العربي الشامل به في قمة الرباط وبعد ذلك بالاعتراف الدولي في الامم المتحدة ·

ـ ثانيا : البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية لا يعتبر اي « انفصال » من هذين « الانفصالين »نهاية المطاف · فهو يتحدث عن « تجديد واعادة بناء الوحدة بين الشعبين (الفلسطيني والاردني) » بعد قيام « نظام وطني ديمقراطي في الاردن » وذلك على اسس من « التكافؤ والمساواة الديمقراطية والاختيار الطوعي الحر والنضال المشترك ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية »(٢٠)·

كما يتحدث عن النضال من اجل « قيام دولة ديمقراطية موحدة في فلسطين مناهضة للصهيونية والامبريالية » · (٢١) فاين « الانفصالية عن العروبة » و« الرحدوية مع اسرائيل (الدولة الصهيونية)» ؟ اللهم الا اذا كان المقصود هو التحريض ضد الجبهة الديمقراطية في الاوساط القومية العربية ·

نعود لموضوعة « الانفصال » · ذلك انها تحتاج الى بعض التوضيح · ففي مقال د· محجوب « حق تقرير المصير يعني في الاساس حق الانفصال » (٢٢) واكثر من ذلك يرى ان بامكان اليهود (اذا اعتبروا قومية) ان يمارسوا حق تقرير المصير وبالتالي حق الانفصال عن الدولة الفلسطينية الديمقراطية الموحدة (١٣) ·

في مقال الاخ سمارة تأكيدات عجيبة في هذا الصدد : فهو يعتبر ان البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية « يقوم على قاعدة الاعتراف البديهي وغير المشروط ··· بالقومية **اليهودية** » (٢٤) (ولا ندري من اين نبش هذا الاعتراف **بالقومية اليهودية** ؟) ويصل الاخ سمارة الى حد كبير من الخفة حين يطالب « جميع الدعوات الكيانية القومية الفاشستية بتقديم طلباتها الى الجبهة الديمقراطية لكي تمنحها صك الاعتراف بها »(٢٥)، ويتفهم على هذا الاساس اعتراف الجبهة الديمقراطية « بالحركات الانفصالية في الصحراء المغربية والعراق !! » (اما نحن فنفهم هذا على انه تأييد من الاخ سمارة لمواقف حكومة فرانكو اسبانيا « الثورية » ونظام المغرب « التقدمي » ورفض للاقرار بوجود قومية كردية متمايزة عن القومية العربية · وما طالبت به الجبهة الديمقراطية في الحالتين هو ممارسة حق تقرير المصير للشعبين الذي لا يعني بالضرورة وفي كل الاحوال « الانفصال » كما سنرى) ·

ولا غرابة بعد كل هذا ان **يستغرب** الاخ سمارة **ان تعرف** الجبهة الديمقراطية الحركة الصهيونية بانها « تعبير سياسي قومي زائف عن طموح البرجوازية المتوسطة والصغيرة اليهودية » (٢٦) ، وان يجد تناقضا بين الاقرار بالحق في الانفصال والمطالبة بالدولة الديمقراطية الموحدة (٢٧)،(الحق الذي يعتبره الاخ سمارة حقا لليهود بالانفصال وتفصيل دولتهم كما يرغبون · اليس ذلك هو حق تقرير المصير ؟)

ان حق تقرير المصير الذي تحدث عنه ماركس واستفاض لينين في معالجته **هو حق تقرير المصير للقومية المضطهدة** (بفتح الهاء) وليس للقومية المضطهدة (بكسر الهاء) · وكذلك حق الانفصال · يقول لينين في اطروحاته عن «الثورة الاشتراكية وحق الشعوب بتقرير مصيرها » :

« ان حق الشعوب بتقرير مصيرها يعني فقط حقها في الاستقلال السياسي

والانفصال السياسي الحر عن الشعب الذي يضطهدها ٠» (٢٨)
ويضيـــف :

« وتعني هذه المطالبة بالديمقراطية السياسية عليا الحرية الكاملة للتحريض لصالح الانفصال وحل هذه المسالة عن طريق استفتاء في اطار الشعب الـــذي ينفصل » (اي الشعـــب المضطهد ـ بفتح الهاء ـ وليس المضطهد ـ بكسرهـــا ـ كما ورد في مقال الاخ سمارة وكاحتمال مستقبلي في مقال د٠ محجوب) ٠

ويؤكد لينين بعـد ذلك ان هـذا الاعتراف بحق الانفصال ليس الا «التعبيـــر المتماسك عـن النضال ضد كل اضطهاد قومي »، ولا يعني ان الاشتراكية تتبنـى تجزئة العـالم الى دويلات صغـيرة ٠ فالعـكس هو الصحيح اي ان الاشتراكية « تهدف الى وضـع حـد لتجزئة الانسانية » وتوحيد الشعـوب ٠ والاعتـــراف بحق تقرير المصير وحق الانفصال للشعـوب المضطهدة يشكل « مرحلة انتقالية» وضرورية ـ على حد تعبير لينين ـ على طريق اعـادة توحيد الشعوب عـلـــى اسس جديدة ٠ (٢٩)

ويميز لينين بين « انماط ثلاثة من البلدانبالنسبة لحق الشعـوب في تقريـــر مصيرها » :

١ ـ البلدان الراسمالية المتقدمة التي لم يعد لحركاتها القومية اي دور تقدمي لا بـل تقوم باضطهاد واستغـلال شعـوب اخـرى ٠

٢ ـ البلدان الاوروبية التي لم تكن انذاك (عام ١٩١٦) قد استكملـــت تطورها البورجوازي وما زال لحركاتها القومية البورجوازية دور تقدمي تلعبه٠

٣ ـ البلدان المستعـمرة وشبه المستعـمرة التي طالب لينين بدعـم كليومطلق لحقها في التحرر وتقرير مصيرها (٣٠) ٠

فتطبيق حق تقرير المصير ليس مبدا مطلقا في كل الحالات فهو لا ينطبق بالتالي على الاسرائيليين في موضوعـنا ٠ والشعب الوحيد المعـني بهذا الحق في اطار ما يسمى « بمشكلة الشرق الاوسط » هو الشعـب الفلسطيني دون غـيره ،وهو الذي يحق له بالتالي المطالبة بالاستقلال الوطني (الذي سماه لينيـــن انذاك « الانفصال » لانه كان يفكر بالاساس بالامبراطورية القيصرية) وهو الذي يحق له اقامة دولته الوطنية الخاصة ٠

اما اليهود الاسرائيليون فوضعهم خاص وسنأتي عليه بتفصيل اكبر تحت العنوان التالي • ويمكننا مؤقتا ـ وبتحفظ شديد وانما للتبسيط ـ وضعهم في الخانة الاولى • علما بان لينين اشار في كراسه المذكور اعلاه الى ان ماركس اتخذ موقفا سلبيا من بعض الحركات القومية الاوروبية في اواسط القرن الماضي واعتبر ان هناك «امما رجعية » و« امما ديمقراطية ثورية » (٣١) هكذا بالتحديد •

المسالة اليهودية ومستقبل فلسطين :

في مقال الاخ سمارة محاضرة كاملةحولالمسالة اليهودية وجذور الصهيونية يرد فيها اسمكل من ماركس واسحق دويتشر (الكاتب يصفه « بالماركسي اليهودي ») وابراهام ليون (وهو « ماركسي يهودي » اخر) •

وبعض ما ورد في هذه المحاضرة :

ـ « (المسالة اليهودية) لماركس ••• هو اول موقف علمي من مسالة اضطهادهم (اي اليهود) على يد الراسمالية الاوروبية » • (٣٢) •

هذا مع ان الراسمالية الاوروبية ـ وبالتحديد بعد الثورة الفرنسية ـ هي التي حررت اليهود وحولت « المسيحيين انفسهم الى يهود » (اي الى متعاملين بالمال ورأس المال) على حد تعبير ماركس في المقال ذاته • والاضطهاد الذي يشير اليه الاخ سمارة والذي مورس على نطاق واسع ضد اليهود في اوروبا الشرقية بالاساس لم يتخذ هذه الاحجام الا في الربع الاخير من القرن التاسع عشر اي بعد اكثر من ثلاثين عاما من كتابة ماركس لمقاله الشهير « المسالة اليهودية »•

ـ « الايديولوجية الصهيونية التي جرى بعثها على يد البورجوازية اليهودية الصغيرة بدفع ودعم كاملين من البورجوازية الاوروبية » (٣٣) •

ان هذا الدفع والدعم لم يكن واردا بالاساس لان البورجوازية الاوروبية لم تكن معنية بالصهيونية في مراحل « بعثها » من قريب او بعيد ولم تأخذها على محمل الجد الا ـ بالنسبة لبعض هذه البورجوازية ـ في مطلع القرن العشرين (علما بان نشوء الصهيونية السياسية يعود على الاقل الى مطلع ثمانينات القرن الماضي) • والبورجوازية الاوروبية الغربية لم تكن كلها معادية لليهود (فاقطاعات الليبرالية منها اتخذت مثلا موقف المدافع عن

دريفوس في فرنسا) والقطاعات المعادية لم تكن بالضرورة مؤيدة للصهيونية • الا ان تحولا كبيرا حصل في القرن العشرين بالتأكيد بعد استكمال تقاسم العالم بين الامبرياليات المختلفة وتفاقم التنازع فيما بينها لتحسين خارطة مناطق النفوذ لكل واحدة منها (الاخ سمارة يتحدث عن «الاستعمار» اعلى مراحل الرأسمالية » !) (٣٤) •

وحجة كل هذه المحاضرة جهل الجبهة الديمقراطية بالمسألة اليهودية الذي دفعها الى الاعتراف بالقومية اليهودية (هكذا) وبحقها في تقرير مصيرها !! (٣٥) •

ويستغرب الاخ سمارة بعد ذلك ان امين عام الجبهة الديمقراطية صرح في كراس نشر بعد حرب تشرين (٣٦) ان « الكيانات العنصرية ••• سواء في فلسطين او في افريقيا ••• » تسير نحو الزوال• ويستنتج ان الجبهة الديمقراطية « كوعت » بنسبة ١٨٠ درجة !! (٣٧) •

وفي بعض تعليقاته الاخرى في هذا الصدد ، يصل الاخ سمارة الى استنتاجات مفاجئة وعجيبة • فهو مثلا يتناول الفقرة من برنامج الجبهة الديمقراطية السياسي التي تتحدث عن «احلال المستوطنين اليهود محلهم (اي محل المشردين من شعب فلسطين) واقامة دولة اسرائيل كدولة يهودية مغلقة تعتبر نفسها وطنا لجميع يهود العالم على الارض الفلسطينية » (٣٨) ليخرج باغرب النتائج • فهو يعتبر ان الجبهة الديمقراطية تعترض على انغلاق الدولة اليهودية (وليس على الاستيطان واقامة الدولة كما هو واضح من النص) • واكثر من ذلك يعتبر ان النص « يحمل مطالبة بانفتاح هذه الدولة على الجماهير والاقطار العربية كخطوة اولى لحل التناقض القومي بينهما (اي بين الشعب الفلسطيني والمستوطنين اليهود) (٣٩) •

ولا غرابة ان يجد الاخ سمارة مرة اخرى تناقضا في مواقف الجبهة الديمقراطية (كما فهمها او بالاحرى كما لم يفهمها)• والتناقض المزعوم يكمن هنا بين الدعوة « لفك » انغلاق اسرائيل والانفتاح على العالم العربي من جهة والاعتراف المزعوم ايضا بالكيان القومي الصهيوني من الجهة الاخرى•

وحتى ننتهي من مشكلة « الانغلاق » هذه التي احتلت حيزا كبيرا من مقال الاخ سمارة ، نشير الى كون الانغلاق المقصود هو الانغلاق العرقي (او الاثني) وليس الجغرافي الناتج بالاساس عن الايديولوجية الصهيونية المنغلقة (مبدأ « العمل العبري » الخ) • وما كانت تطرحه القوى الوطنية

والتقدمية الفلسطينية انذاك هـو الدولة الديمقراطية المشتركة (اي التي تضـم العـرب واليهود عـلى قدم المساواة) • واذا كان الاخ سمارة ضد هذا الحـل الديمقراطي (عـام ١٩٤٨)فهـو بالتاكيد ضده في المستقبل ، واذا كان مـع القضاء عـلى اليهـود بشريا او الالقاء بهـم في البحر فليقل ذلك حتى يتضح النقاش • لا شك ان احد بنود البرنامج السياسي الذي اثار النقاش وركز عليه المقالان هـو البند الـذي يتحـدث عـن هـذا الموضوع : موضوع الحـل الديمقراطي الثوري للمسالة الفلسطينية • فالبرنامـج السياسـي للجبهـة الديمقراطية يتحدث عـن « قيام دولة ديمقراطية موحدة في فلسطين ، مناهضة للصهيونية * والامبريالية يتعايش فيها العـرب واليهود في ظل المساواة القومية الكاملة بعيدا عـن اي اضطهاد او تمييز قومي او عنصري او ديني ، وترتبـط بعـلاقات وحدوية مع سائـر اقطار الوطن العربي • » (٤١) •

ويعترض د• محجوب مثلا عـلى المساواة بين العـرب واليهود على اعتبـار ان العـرب قومية واليهود ليسوا قومية (٤٢)•

كما يتعرض الاخ سمارة على الموضوع ذاته ويتحدث عن المادة السادسة من الميثاق الوطني الفلسطيني التي تقول بان « اليهـود الذين كانوا يقيمون اقامـة عـادية في فلسطين حتى بدء الغـزو الصهيوني لها يعتبرون فلسطينيين » •

ونحن نريد ان نطرح على الكاتبين سؤالين محددين :

اولا ـ هل هناك موافقة عـلى الشعـار الذي طرحته حركة فتح باقامة دولـة ديمقراطية يتعايش فيها « المسلمون والمسيحيون واليهود » والذي فسر في بعض التصريحات على انه تعايش بين كل اليهود (الاسرائيليون حاليا) الذيـن يقبلون بهذا التعايش وبين كل الفلسطينيين (المقيمين والعائدين منهم) ؟

يبدو تماما ان الاخ سمارة غـير موافق عـلى هـذا الشعـار • فهو يستنـد الى المادة السادسة من الميثاق الوطني الفلسطيني ليستنتج منها (بشكل غـيـر مبرر) ان اليهود الذين كانوا مقيمين في فلسطن قبل بدء الغزو الصهيونـي (عمليا حتى نهاية القرن الماضي) هم الوحيدون الذين يحق لهـم البقاء فـي « فلسطين المحررة » • في حين ان الميثاق يحـدد في هـذه المادة من هـم الفلسطينيون بين اليهود المقيمين حـاليا في فلسطين المحتلة •

ثانا ـ اذا كانت هناك موافقة عـلى هـذا الشعـار وقبول بامكانية التعـايش (التاكيد بعد نضال طويل ليس هو موضوع بحثنا الان) ، فعلى اي اسـاس

---

* التشديد منا (الكاتب)•

سيكون هذا التعايش ؟ هل هو تعايش بين طوائف تنتمي الى قومية واحدة مثلا ، كما يفسر البعض شعار « التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود » ؟

مرة اخرى حسم الاخ سمارة موقفه بوضوح في مقاله · فهو مع التعايش الطائفي ·وهو يستخرج عبارة اخرى من الميثاق الوطني ليتحدث عن « اليهودية بوصفها دينا سماويا »وينهي بذلك المشكلة ·

في مقال د· محجوب هناك محاولة لتفادي الخوض في الموضوع باستثناء نفي كون اليهود قومية ·

ونحن نعتقد كذلك ان اليهود ليسوا قومية · اليهود المتواجدون في الاتحاد السوفياتي وفي اوروبا والولايات المتحدة وفي انحاء اخرى من العالم ليسوا قومية وليست لهم اية صفات قومية تجمعهم ·لا بل ان الدعوات القومية التي نشات في اوساطهم لعبت تاريخيا دورا رجعيا حطم التضامن بين كادحيهم وكادحي الذين يعيشون فيه واوجد توافقا موضوعيا بين هذه الدعوات وبين الحركات العنصرية المعادية لليهود ، ولاحقا توافقا اخر مباشرا ومستمرا حتى الان مع الامبرياليات الرئيسية ·

ولا نحتاج بالطبع للاطالة في هذا المجال · فالادبيات الماركسية كثيرة حول الصهيونية والحركات القومية اليهودية الاخرى (البوند) · لينين نفسه خاض حربا ايدولوجية شرسة ضد البوند (تنظيم عمالي يهودي في روسيا) بالرغم من ان البوند لم يكن صهيونيا (اي لم يطالب بهجرة اليهود الى فلسطين)· وفي المؤتمر الثاني للاممية الثالثة الذي انعقد في موسكو عام ١٩٢٠ والذي اشرف عليه لينين نفسه تبنى المؤتمر ضمن القرارات الخاصة بالبلدان المستعمرة فقرة واضحة تدين الحركة الصهيونية وتحالفها مع الامبريالية البريطانية ضد شعب فلسطين ·

لكن الموضوع ليس هنا · لان البحث لا يتعلق بكون اليهودية قومية ام لا، فالامر محسوم بوضوح ·السؤال الاساسي هو : ما هي هوية اليهود المقيمين حاليا في فلسطين المحتلة ، اي اليهود الاسرائيليون ؟

معظم هؤلاء اليهود (هكذا يسمون هم انفسهم · ولا يعني استعمال هذا التعبير ـ للتبسيط ـ لا الاعتراف بهم كطائفة ولا كقومية)اتوا طبعا ضمن حملات استيطانية واقاموادولتهم على انقاض الشعب الفلسطيني وقامت هذه الدولة

بالتنكيل بهذا الشعبوما.زالت وستبقى الىزمن لا يبدو قصيرا٠ولهذا فان نضال الشعب الفلسطيني مستمر حتى كسر شوكتها وتصفية الصهيونية وكافة اجهزتهـا وتحقيق عودة الشعب الفلسطيني بكامله الى وطنه وممارسته لحق تقرير مصيره على كامل ترابه الوطني ـ كما نص على ذلك برنامج الجبهة الديمقراطية (٤٣) ٠

هذا الحل الجذري للمسألة الفلسطينية الذي يتطلب تغييرا هاما في موازيـــن القوى العالمية والمحلية سيضعنا امام وضع جديد يختلف عن وضع فلسطين عام ١٩١٧ او عام ١٩٤٨ ٠ فاليهود (الاسرائيليون حاليا) في غالبيتهم الكبيرة من مواليد فلسطين ٠ فهم في غالبيتهم ابناء واحفاد المستوطنين الاوائل او ابنـــاء واحفاد اليهود الفلسطينيين اصلا ٠ والسؤال المطروح اذن هو :

هل يشكل هؤلاء اليهود قوميـة ؟

لقد وجد كل من د٠ محجوب والاخ سمارة في البرنامج السياسي للجبهـــة الديمقراطية ردا بالايجاب على هذا السؤال (بل اكثر من ذلك وجدا ان الجبهـة الديمقراطية تقر بوجود قومية يهودية كما راينا وهو بالتأكيد امر غير وارد في نص البرنامج السياسي لا من قريب ولا من بعيد) ٠ والاخ سمارة يذهب في استنتاجاته الى نتائج مفاجئة باستمرار ٠ فهو يتناول مثلا الفقرة الواردة في البرنامـــج السياسي التي تشير الى « نشوب تناقض قومي محتدم بين الصهيونية وتجسيدها السياسي (اسرائيل) وبين الشعب الفلسطيني » ٠ (٤٤) ليستنتج ان«الاعتراف بالتناقض القومي يتضمن اعترافا واضحا بكيان قومي يهودي في فلسطين يعتبر الصهيونية وتجسيدها السياسي معبران عنه » !! (٤٥) ٠

فاذا لم يكن هذا التناقض قوميا فماذا هو ؟ هل هو تناقض طائفي مثلا او لغوي او عرقي ؟ ام هو تناقض قبلي (بينقبيلة غازية وقبيلة مقيمة) ؟ اذا لم يكن هذا التناقض قوميا فعلى اي اساس يجري تعبئة الشعب الفلسطيني بكل طبقاتـــه لمجابهته ؟ علما بان الشعب الفلسطيني نفسه لا يشكل قومية ٠ كما ان الطـــرف المعتدي لا يشكل بالضرورة قومية ٠

لنعد الى موضوعنا ٠ ما هي سمات اليهود المقيمين حاليا في فلسطين المحتلة (اليهود الاسرائيليين) ؟

نحن بالتاكيد نختلف مع انصار اعتبارهم مجرد طائفة دينية ٠ فهم في غالبيتهم ليسوا حتى متدينين وعناصر التوحيد في ما بينهم لا تقتصر على العنصر الديني لا بل تتجاوزه بالتاكيد الى عناصر اخرى : لغة مشتركة ، ثقافة مشتركة بنيت على

ارضية هذه اللغة وسوق مشتركة ودولة مشتركة منذ ٢٨ عاما · اي بعـــض سمات التشكل القومي (مشابهة من هذه الزاوية لسمات الاقلية البيضاء فـــي جنوب افريقيا) ·

لكن هذه الكتلة البشرية تتميز عن الكتل الثابتة بحركـــة غير عاديـــة وبعناصر عدم استقرار لا يستهان بها (تميزها حتى عن الاقلية البيضاء فـــي جنوب افريقيا) ·فالهجرة والهجرةالمعاكسةملازمتان لهذهالكتلة·والهجرةالمعاكسة (اي الى خارج فلسطين) شهدت تفاقما متزايدا منذ حرب تشرين ١٩٧٣ وستبقى عنصرا ملازما لهذه الكتلة يزداد حدة مع الازمات ومع اي تحول لميزان القـــوى لغير صالح اسرائيل · وعلى الصعيد الاقتصادي ما زال الاقتصاد الاسرائيلـــي يعتمد الى حد كبير على خفيات الاعانات الخارجية ، (والاميركية بشكل خاص) ويشكل من هذه الزاوية حالة منفردة من نوعها في العالم · ويعاني المجتمـــع الاسرائيلي الى جانب ذلك من تصدع داخلي ناتج عن التمايز « الاثني » بيـن اليهود الغربيين (الاشكنازيم) والشرقين (السفارديم) الذي يتخذ احيانا طابع صراع حاد (ظاهرة الفهود السود) · كل هذه العناصر تشكل ارضيةلاحتمالات تفسخ مستقبلية لا يمكن التنبؤ بها منذ الان ·

ان تعايش عناصر التوحيد مع عناصر التفسخ هذه في المجتمع الاسرائيلـــي تجعل من غير المبرر الحديث عن وجود قومية « يهودية اسرائيلية » متكونة حاليا او عن احتمالات تبلورها في المستقبل · فليس بمقدورنا منـــذ الآن حسم هـــذا الموضوع · التطورات الموضوعية هي التي ستقرر · كما انه ليس بمقدورنـــا الآن ان نحدد طبيعة العلاقة بين الشعب العربي الفلسطيني وبين من يتواجد من هؤلاء « اليهود الاسرائيليين » في اطار الدولة الديمقراطية الموحـــدة المستقبلية · فالمعطيات التي ستكون انذاك ــ اي لحظة تشكل الدولة الديمقراطية ــ هي التي ستحدد ذلك · الا ان المهم منذ الآن هو التأكيد على انتفاء اي اضطهاد قومي أو طائفي او عرقي من هذه الدولة (والا لما استحقت تسمية « الديمقراطية») ·وهذا ما فعل البرنامج السياسي للجبهة الديمقراطية · وهذا ما حاول الكاتبان تفسيره على انه حسم للمسائل المطروحة اعلاه · في حين انه ليس بالتأكيد كذلك ·

كلمة اخرى لانصار « المساواة الطائفية » (اي الطرح القائم على اســـاس المساواة بين المسلمين والمسيحيين واليهود كطوائف) · نحن نعتبر هذا الطرح رجعيا جملة وتفصيلا · ليس لانه يعتبر اليهود (غير الفلسطينيين وغير العرب) طائفة فلسطينية فحسب بل لانه كذلك يضع المسيحيين (الفلسطينيين والعرب) في مصاف التمايز عن المسلمين بمقدار اليهود (مما يحمل بنور احياء اصطناعـــي لطائفة غير واردة حاليا) · والانكى من كل ذلك فان شعار « المساواة الطائفية »

لا يستنتج الدروس الضرورية من تجربة النظام الطائفي في لبنان • وباعتقادنا ان من الضروري محاربة هذا الشعار وما يمكن ان يحمله من اوهام تنطلق من الحلم باعادة الوضع الفلسطيني الى ما كان عليه قبل ستين عاما دون اخذ التجارب البشرية الجديدة بالاعتبار وكذلك تطور المعطيات في المنطقة والعالم •

ملاحظة اخيرة في هذا الموضوع • في مجال تعليقه على مطالبة برنامج الجبهة الديمقراطية السياسي « بتصفية المؤسسات الصهيونية » • يقول د• محجوب : « هناك مؤسسات غير صهيونية في الكيان الاسرائيلي » (٤٦) • ونحن نتساءل ماذا يعني د• محجوب بهذه الملاحظة ؟ هل يطالب بمثلا بتصفية الطائفة اليهودية الصغيرة المقيمة في القدس والتي ما زالت حتى اليوم ترفض الاعتراف باسرائيل لان قيامها لم يجر وفقا لتنبؤات التوراة ، هذه الطائفة التيما زالت حتى الان ترفض الاشتراك في الانتخابات العامة بسبب هذا الموقف وترمي السيارات الحكومية التي تمر في احيائها بالحجارة ؟ ام يطالب بتصفية الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح) وهو الحزب الوحيد غير الصهيوني الممثل في الكنيست (ومن بين قادته المعروفين الشاعر الوطني توفيق زياد والكاتب القصصي الكبير اميل حبيبي)؟نحن يهمنا بالفعل ان نعرف ما هيالمؤسسات غير الصهيونية في اسرائيل حاليا التي يرى الكاتب ضرورة تصفيتها • اما نحن فنرى الصهيونية ومؤسساتها اخطبوطا كبيرا مسيطرا على كل كبيرة وصغيرة في حياة يهود اسرائيل • وما هو غير صهيوني فهو اما هامشي واما محاصر ومحارب بلا كلل من قبل هذا الاخطبوط بكل مؤسساته • والمناضلون الشيوعيون واليساريون الثوريون الاسرائيليون يعرفون معنى وثمن هذا « الخروج عن الخط » •

بين الاصلاحية والثورية :

في احدى كتاباته يورد لينين قصة انغلز مع عدد من عناصر الكومونة البلانكيين الذين اوردوا في بيان لهم العبارة التالية :

« نحن شيوعيون لاننا نريد ان نصل الى هدفنا دون المرور بالمراحل الوسيطة وبالمساومات التي لا تؤدي الا الى ابعاد يوم النصر واطالة عصر العبودية »• ويعلق انغلز على هذا البيان : « يا للسذاجة الطفولية التي تحول الاستعجال الذاتي الى حجة نظرية ! » (٤٧) •

ومع كل التقدير لبسالة وشجاعة بلانكي واتباعه كان كل من ماركس وانغلز يحذر من المازق والمخاطر التي يقود اليها الفكر والممارسة الانقلابيين البلانكيين• لكن الافكار والممارسات عمرها طويل على ما يبدو •

في الكثير من النقد الذي وجه لبرنامج الجبهة الديمقراطية السياسي ، تتردد نفس الملاحظات حول « اعتدال » بعض مطالب البرنامـــج ، « واصلاحيـــة » التوجهات في هذا القطاع اوذاك و « التخلي عن شعار اسقاط النظـــام الاردني » (بسبب طرح مهام تفصيلية امام منظمة الجبهة في الاردن تتناول الحياة اليوميـة للجماهير الكادحة وهمومها المباشرة) ، (٤٨) والقبول بمرحلة النضـــــال الفلسطيني الخ.

فكلبحثمودون التحرير الشامل وكل اثارة لقضايا الجماهير المباشـرة ونضالاتها الجزئية دون الحديث عن اسقاط هذا النظام او ذاك او القضاء علـى هذا الكيان او ذاك ، كل ذلك ابتعاد عن الثورية ووقوع في الاصلاحية . نفـــس المنطق البلانكي بحذافيره . فلا علاقة بين النضال الجزئي والنضال الكلي وبين النضال المطلبي والنضال المسلح ولا علاقة بين الاهداف الصغيرة والقريبة التي تعبيء اوسع القطاعات الجماهيرية والهدف الكبير والاخير . ولا علاقة بيـــن الانتصارات الصغيرة والجزئية والانتصار الكبير النهائي . كل شيء او لا شيء.

وهناك موضوع آخر لا بد من التطرق اليه . فقد كان مجال اثارة واسعة فـي بعض الاوساط . وهو موضوع « الكفاح المسلح » . وخلاصة الموضوع ان برنامج الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين لا يؤكد بوضوح كاف على ما يبدو علـــى الكفاح المسلح كاسلوب نضالي ويكتفي بايراده كشكل من اشكال النضال .والاخ سمارة ذهب طبعا الى حد اتهام الجبهة الديمقراطية « بالتخلي الكامل والنهائي ... عن الكفاح المسلح » (٤٩) وقبل ان نتناول هذا الاتهام الغريب لا بد مـن عـودة الى الوراء .

عندما انطلق الكفاح المسلح الفلسطيني المعاصر في مطلع عام ١٩٦٥ شكـــل بكل تاكيد مبادرة فذة حطمت جمود المسالة الفلسطينية وحققت (بعدهزيمة١٩٦٧ بشكل خاص ثم معركة الكرامة) التفاف الشعب الفلسطيني باوسع قطاعاتهحول هذا الاسلوب واقراره به اداة رئيسية لتاكيد الوجود الوطني الفلسطيني . ومـن هنا فلا مجاللانكار امساكحركةفتح بمسالتين مركزيتين ومبادرتها في تثبيتهما. وهما مسالة استقلالية الشخصية الوطنية الفلسطينية ومسالة الكفاح المسلح .

ومنذ اواخر الستينات اصبح الكفاح المسلح كاسلوب نضالـــي رئيســـي امرا مقرا فلسطينيا ولم يعـد موضوع نقاش . وكذلك الامر بالنسبة للشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة التي نالت اعترافا واقعيا آنذاك من العالم بأســـره (تكرس سياسيا وقانونيا عام ١٩٧٤ في الرباط والامم المتحدة) . منذ ذلـــك الوقت كان لا بد من الانتقال الى مرحلة ارقى . من تحديد اهداف اعلى للنضال

الفلسطيني من اجل تحقيقها · ومن هنا كان برنامج السلطة الوطنية ، البرنامج الوطني المرحلي ·

وبالمناسبة « فالكفاح المسلح » و « وحرب الشعب » « والعنف الثوري » ليست برامجا ولا اهدافا بل هي وسائل لتحقيق برامج واهداف · ولهذا فلا مجـــال للمقارنة بين « البرنامج الوطني المرحلي » و « استمرار الكفاح المسلـــح » · فالشعار الثاني لا يشكل برنامجا ولا يحدد اهدافا ولا يغني عن ضرورة وضـــع البرنامج والاهداف ·

ملاحظة اخرى : اتهام الجبهة الديمقراطية بالتخلي او التوجه نحو التخلـــي عن الكفاح المسلح يفتقر الى الحد الادنى من حسن النية ، ازاء ما قدمته الجبهة الديمقراطية من تضحيات خلال الاعوام الثلاثة الاخيرة سواء علـــى الارضـــى الفلسطينية المحتلة او على ارض لبنان حيث كانت قواتها متواجدة عمليا علـــى كل الجبهات وفي كل المعارك · فالمسالة اذن ليست فيمن يردد لفظة الكفاح المسلح اكثر من الاخر بل فيمن يمارسه على ارض الواقع فعلا · وقد علمنـــا رفاقنـــا الفيتناميون درسا عظيما يجب ان نستفيد منه : ان تكون الشعارات والكلمات دائما دون مستوى الفعل والامكانيات وليس العكس ، اي ما معناه ان التصلب الفعلي هو في الممارسة وليس في الالفاظ ، والظروف غالبا ما تقتضي ان تكون الالفاظ اكثر مرونة واعتدالا من الممارسة ·

وحينما يشير د · محجوب مثلا في مقاله التحول « اللفظي » في لغـــة الجبهة الديمقراطية بين عام ١٩٦٩ وعام ١٩٧٥ (عام صـــدور البرنامـــج السياسي) ، نقول بان وراء هذا التحول في « الالفاظ » تحولا في البنية والهوية الطبقية بالتاكيد · فالجبهة الديمقراطية ، رغم اهمية طرحها آنـــذاك للفكـــر اليساري على الساحة الفلسطينية ، الا انها كانت تصطبغ بالتاكيد في فتـــرة ولادتها بصبغة التطرف اليساري الطفولي الناتج عن بنية بورجوازية صغيـرة مثقفـــة بالاساســـ · وما حـــدث فـــي السنـــوات الاخيـــرة وخاصة منذ عام ١٩٧٣ هو انها تحولت شيئا فشيئا طبقيا باتجاه ديمقراطي ثوري يعبر عن مصالح وتطلعات الطبقات الكادحة (والطبقة العاملة بشكـــل متزايد) · ولا غرابة آنذاك ان تتحول لغة الجبهة من « الالفاظ الثورية » التي تقفز فوق الواقع الى الارتباط بالنضالات والهموم المباشرة والقصيرة الامد للجماهير الكادحة في اطار استراتيجية ثورية طويلة الامد تاخذ بعين الاعتبار موازيـــن القوى المحلية والعالمية والية تغييرها لصالح الثورة والجماهير الكادحة ·

وملاحظة اخيرة : نحن لم نتمكن بالتاكيد من مناقشة كل القضايا التي اثارهـا

البرنامج السياسي · فمناقشة كهذه تحتاج الى كتاب وليس الى صفحات قليلة في مجلة دورية · لكننا تناولنا القضايا الرئيسية وتفادينا في المناقشة اسلوب الـرد السجالي قصدا بالرغم من ان مقال الاخ سمارة بالتحديد الذي يتضمن شتائـم واضحة (بالمعنى الحرفي وليس المجازي للكلمة)يستدعي اكثر من نقاش هادىء· لكننا آثرنا ان نترك الحكم للقارىء ·

الحواشي :

(١) البرنامج السياسي : صفحة ٢٤
(٢) المصدر نفسه : صفحة ٥٠
(٣) شؤون فلسطينيةعدد (٥٦): صفحة ٢٦
(٤) المصدر ذاته والصفحة نفسها ·
(٥) النهار ١٩٧٤/١٠/٣٠ نقلا عن «ونا»·
(٦) شؤون فلسطينية عدد (٥٨) : صفحة ٦٣ ·
(٧) المصدر (٣) : صفحة ٢٦ ·
(٨) المصدر (٦) : صفحة ٦٣ ·
(٩) المصدر ذاته ·
(١٠) جريدة « السفير » ١٩٧٦/١٠/١٤·
(١١) النظام الداخلي للجبهة الديمقراطية : مطلع المقدمـة ·
(١٢) البرنامج السياسي : صفحة ٣١ ·
(١٣) المصدر ذاته : صفحة ٤٥ ·
(١٤) المصدر ذاته : صفحة ٣٢ ·
(١٥) المصدر ذاته : صفحة ٣٥ ·
(١٦) المصدر (٣) : صفحة ٢٩ ·
(١٧) المصدر ذاته : صفحة ٢٦ ·
(١٨) راجع المصدر (٥) ·
(١٩) المصدر (٣) : صفحة ٢٢ـ ٢٣ـ٢٤·
(٢٠) البرنامج السياسي : صفحة ٥٨ ·
(٢١) المصدر ذاته : صفحة ٣٢ ·
(٢٢) المصدر (٣) : صفحة ٢٣ ·
(٢٣) المصدر ذاته : صفحة ٢٢ ·
(٢٤) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٦٩ ·
(٢٥) المصدر ذاته : صفحة ٧٠ ·
(٢٦) المصدر ذاته : صفحة ٧٢ ·
(٢٧) المصدر ذاته : الصفحة ذاتها ·
(٢٨) V. Lénine Deuvres Choisies Edition du Progrés , Moscou صفحـة ١٥٦
(٢٩) المصدر ذاته : الصفحة ذاتها ·
(٣٠) المصدر ذاته : صفحة ١٦٠ ·
(٣١) المصدر ذاته : صفحة ١٥٩ ·
(٣٢) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٦٧ ·
(٣٣) المصدر ذاته ·
(٣٤) المصدر ذاته : صفحة ٦٨ ·
(٣٥) المصدر ذاته : صفحة ٦٧ ·
(٣٦) اي قبل اقل من عام من اقـــرار البرنامج السياسي ·
(٣٧) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٧١
(٣٨) البرنامج السياسي:صفحة ٣٠ـ٣١
(٣٩) المصدر (٦) اعلاه : صفحة ٦٨ـ٦٩·
(٤٠) المصدر ذاته : صفحة ٧٠ ·
(٤١) البرنامج السياسي : صفحة ٣٢ ·
(٤٢) المصدر (٣) : صفحة ٢٢ ·
(٤٣) البرنامج السياسي : صفحة ٣٢ ·
(٤٤) المصدر ذاته : صفحة ٣١ ·
(٤٥) المصدر (٦) : صفحة ٦٩ ·
(٤٦) المصدر (٣) : صفحة ٢٢ ·
(٤٧) المصدر (٢٨) اعلاه : صفحة ٥٦٩ ·
(٤٨) في مقال الاخ سمـــارة : صفحة ٧٤ـ٧٥ ·
(٤٩) المصدر ذاته : صفحة ٧٤ ·

التكامل الاقتصادي العربي لبناء الصناعة الحربيّة *

الدكتور خيرات البيضاوي

تتصارع وتيرة « سباق التسلح » بين الدول العربية واسرائيل بصورة لم يسبق لها مثيل منذ زرع الكيان العنصري الاستيطاني الاسرائيلي في قلب الوطن العربي : فلسطين · الا أن اسرائيل قد استطاعت ، عبر شبكة نفوذها الصهيوني الهائل تخطي جميع العقبات، والقفز فوق كل الحواجز لاقامة « ترسانة » حربية في الاراضي الفلسطينية المحتلة · وليس بسر أن المؤسسة العسكرية الاسرائيلية قد حملت كل ما تستطيع من الات وأجهزة حربية متطورة من «عنابر» البنتاغون الذي سمح لقادتها بانتقاء كل ما يلزم جيشهم العدواني · ولم يكتف جنرالات اسرائيل بما قدمته لهم الولايات المتحدة من أسلحة ، بل حاولوا ادخال بعض التعديلات على ما في حوزتهم منها ، وطوروا بعضها الاخر ، واستخدموا خمسة الاف عالم ، ومهندس ، وتقني في قطاع صناعتهم الحربية (١) · تتيح تلك الصناعة الحربية الاكتفاء الذاتي في ميدان التسلح بالنسبة لاسرائيل ، الا انها تعتبر رديفا لتدفق سيل الاسلحة اليها من أميركا من جهة ، ومجالا لاستيعاب شريحة من العمالة الاسرائيلية من جهة أخرى · ومن الواضح أن الصناعة الحربية الاسرائيلية لا ترتكز على الاعمدة الصلبة التي يقوم عليها صرح الاقتصاد القومي والمتجسدة في :

راس المال ، والمواد الاولية ، والطاقة ، والاسواق ، والتنمية ، والمعرفة · وهي كلها عوامل تفتقدها اسرائيل ، و« تستوردها » كلها تقريبا من الخارج اي من الجاليات اليهودية المتواجدة خارج حدود الوطن المحتل وخصوصا في الولايات المتحدة الاميركية · فاذا ما انقطع وصولها ، لاي سبب من الاسباب ، اصفرت أوراق شجرة الصناعة الحربية الاسرائيلية ، ولفظ دخان معاملها انفاسه ، وغاب سواده عن سماء فلسطين ·

أما العرب فالعوامل السالف ذكرها كلها متوافرة لديهم باستثناء التقنية (التكنولوجيا) أي « طريقة وضع المعرفة العلمية داخل الجهد الانساني الفكري والمادي ، بقصد رفع الانتاجية وعقلنة التصميم وعمليات الانتاج » (٢) · وهي تمثل في الواقع ذروة التقدم العلمي المتراكم عبر عشرات السنين · فالثورة الصناعية الغربية لم تؤت ثمارها بين ليلة وضحاها ، بل كانت محصلة عصارة فكرية خلاقة تراكمت عبر السنين لتفرز المدنية

---

* يعالج هذا المقال ، خلفية بناء صناعة حربية عربية ، ولا يتطرق بالتحليل للمحاولات الموجودة فعلا ، والتي سنعالجها في دراسة لاحقة ·

الصناعية الحاضرة • ويتبع التقدم الصناعي عادة قاعدة « التكاثر الهندسي » لا الحسابي • من هنا تضاعف سرعة وتيرته مع الزمن • وذلك ما حصل فعلا بعد الحرب العالمية الثانية ، بدءا بتفجير الذرة وانتهاء بهبوط اول انسان على سطح القمر **ومرورا باكتشاف العقول الالكترونية ووضع الاقمار الصناعية في مداراتها حول الارض •**

الطابع المميز للصناعة الحربية

هناك اجماع تقريبا بين علماء الاقتصاد على أن الصناعة الثقيلة هي ذروة الاقتصاد القومي • واما سدرة منتهاها فهي : الصناعة الحربية • وتتميز هذه الاخيرة بعلامات فارقة تصبغها بطابع خاص يتمثل بما يلي :

١ ـ انتاج سلعها باهظ التكاليف ولا يعود بمردود ربحي اذاكانت سوقها محصورة • وهي تعتبر في المفهوم الاقتصادي استثمارات غير منتجة الا اذا كانت من الجودة والضخامة والتعقيد بما يسمح لها بالتصدير والمنافسة في سوق الاسلحة العالمية مثل : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتي ، وبريطانيا وفرنسا •

٢ ـ تداخل الصناعة الحربية مع صناعات مدنية اخرى مثل الزجاج المطاط والاسلاك المعدنية وعدسات التصوير ووسائل الاتصالات اللاسلكية والعقول الالكترونية والرادار وغيرها •

٣ ـ نوعية العاملين فيها والمستوى التقني العالي المفروض توافره فيهم •

٤ ـ ضرورة توزيع المعامل في رقعة مكانية واسعة لئلا تصبح هدفا سهلا للتدمير من جانب العدو •

٥ ـ اعتبار الصناعة الحربية الدرع الواقية للدفاع الوطني ، والوسيلة الناجعة في استرداد اجزاء الوطن السليب ، واسترجاع الحقوق المغتصبة •

الواقع المأساوي للاقتصاد العربي

ان العوامل الطبيعية المتوافرة لتكامل الاقتصاد العربي لم تستطع حتى الان اختراق الاسوار العالية التي اقامتها الانظمة السياسية في وجه تحقيق الحد الادنى من التكامل • فالتشريعات الجمركية ، والقيود المفروضة على انتقال رؤوس الاموال ، وطريقة استثمارها في هذا البلد العربي او ذاك ، ومنع تنقل العمال العرب بين قطر واخر الا باجازات خاصة ، والفوارق الهائلة الموجودة بين العملات ، كل هذا يجعل من الحديث عن الاقتصاد العربي الحالي كوحدة قائمة بذاتها امرا غير علمي • والمفارقة هنا تكاد تكون مأساوية • فالدول المختلفة اللغات ، وشبه المتكاملة اقتصاديا بدأت بعد الحرب العالمية الثانية في الانضواء تحت لواء منظمة اقتصادية خاصة لمساعدتها في التغلب على مشاكلها الاقتصادية ، والتنسيق فيما بينها منعا للتنافس في انتاج السلعة الواحدة•

ولقد ولدت من رحـم الواقع الاقتصادي الجديد المنظمات الاقتصادية التالية :

١ ـ منظمة التجارة الاوروبية الحرة : European Free Trade Association (E.F.T.A.)

وهي تضم النمسا والدانمرك وفنلندا وايرلندا والسويد وسويسرا وبريطانيا (قبـل انضمامها الى السوق الاوروبية المشتركة)· والقاسم المشترك الذي يجمعهـا هو (٢) « الغاء التعريفات الجمركية فيما بينهـا مع احتفاظ كل منهـا برسومها الجمركية الخاصـة مع بقية الدول الاخـرى التي تتعامـل معـها »·

٢ ـ منظمة الاتحـاد الجمركي : Customs Union وهي تتالف من

دول ال Benelux أي بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ · والفـارق الوحيد بينها وبين منظمة التجارة الاوروبية الحرة هـو « توحيد رسومها الجمركية فـي معاملاتها التجارية مع الدول غـير الاعضاء »· وقد انضمت دول الاتحـاد الجمركـي المذكور الى السوق الاوروبية المشتركة بعـد انشائـها فـي عـام ١٩٥٨ ·

٣ ـ منظمة السوق الاوروبية المشتركة : Common Market وهي ترنو الى التكامـل الاقتصادي الكامل بالغاء القيود على انتقال رؤوس الاموال والعمال ، واعتبار الدول الاعضاء وحدة اقتصادية حقيقية · تتولى الاشراف عليها ووضع التشريعات اللازمة لها والمتعـلقة بتوحيد الانظمة النقدية والمالية والاجتماعـية سلطة اعـلى مـن السلطة القومية (Supranational) لكل دولة · وتضم السوق الاوروبيـة المشتركة حاليا : فرنسا ، ايطاليا ، المانيـا الاتحـادية ، بريطانيا ، هولندا ، بلجيـكا ، اللوكسمبورغ ، الدانمرك ، ايرلندا ·

٤ ـ مجلس العـون الاقتصادي المتبادل :
Council For Mutual Economic Assistance (Eomccon)

وهو يضم : الاتحاد السوفياتي ، وبولندا ، والمجر ، والمانيـا الديمقراطـية ، وتشيكوسلوفاكيا ، ورومانيا ، وبلغاريا ، ومنغوليا · وه الهدفالاساسي منه هو تعزيـز التعـاون الاقتصادي الشامـل عـلى اساس التنفيذ المتماسك لمباديء تقسيم العـمل الدولي الاشتراكي من اجـل بناء الاشتراكية والشيوعية في الاقطار المشاركة وتوسيع التنميـة المخططة للاقتصاديات ، والتقدم الاقتصادي والعلمـي والفني لكل قطر مـع الحفـاظ على مباديء المساواة التامة ، واحترام السيادة والمصالح الوطنية ، والمنفعـة المتبادلة والعـون بين الرفاق » (٤) ·

اما الدول العربية فقد بدات محاولات عـلى طريق الوحـدة الاقتصاديـة والتكامل الاقتصـادي والسـوق العربيـة المشتركـة ، الا انهـا سقطت عنـد أول امتحـان ، وعـجزت عـن تجاوز التناقضات السياسية القائمة بين الانظمة العربية ،فبقيت جسدا بلا روح · ولقد أبرمت أول اتفاقية تجارية بين الدول العربية في العام ١٩٥٣ ، وانبثق عنها المجلس الاقتصادي العربي الذي وافق عليهـا لتصبح ساريـة المفعول « رسميا » في العام التالي · ونصت بنود تلك الاتفاقية عـلى « اعفاء جميع السلع الطبيعية والحيوانية والزراعـية من الرسوم الجمركية ، وتخفيض الرسوم الجمركية المفروضة عـلى بعـض

السلع الصناعية بنسبة ٢٥ ٪ » (٥) · ولكن تلك البنود بقيت حبرا على ورق · ثم تم التوقيع بعد ذلك ، أي في العام ١٩٦٤ ، على اتفاقية « الوحدة الاقتصادية العربية» التي نصت أهم موادها على حرية :

- انتقال رؤوس الاموال والاشخاص ·
- تبادل البضائع والسلع الوطنية والاجنبية ·
- الاقامة والعمل لرعايا الدول ـ الاعضاء ·
- النقل والترانزيت واستخدام كافة وسائل النقل ·
- التملك والارث والايصاء ·

وفي العام ذاته ، وقعت خمس دول عربية هي : مصر والعراق وسوريا والاردن والكويت على اتفاقية « السوق العربية المشتركة » التي لم تنفذ بنودها عمليا حتى الان· ويرجع الفشل في تطبيق تلك الاتفاقات للاسباب التالية :

١ ـ اختلاف الانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الدول العربية وتباين التشريعات المالية والنقدية والجمركية والعمالية في كل واحدة منها ·

٢ ـ تخوف الانظمة السياسية من مخاطر السماح بتنقل رؤوس الاموال والاشخاص واعتبارها خطرا على النظام السياسي في هذا البلد أو ذاك ·

٣ ـ الفارق البارز بين تفاوت نسبة النمو الاقتصادي في الاقطار العربية وضالة كمية التبادل التجاري فيما بينها لكونها جميعا بلادا تعتمد على الاستيراد من الدول الاجنبية ·

٤ ـ تاثير العوامل السياسية الخارجية على بعض الدول العربية والايحاء لها بالابتعاد عن كل ما يؤدي الى الوحدة الاقتصادية الحقيقية فيما بينها ، وتفاوت نسب برامج التنمية بين البلدان العربية النفطية وغير النفطية ، واستحالة تنفيذها بتوقيت واحد ، ووتيرة واحدة ·

٥ ـ اقتصار السلع العربية على المواد الخام المعدة للتصدير الى البلاد الصناعية (٦) ، مثل النفط في الخليج العربي وشمالي افريقيا ، والفوسفات في الاردن والمغرب وموريتانيا والقطن في مصر والسودان »·

عوامل التكامل الاقتصادي العربي :

الا ان كل تلك المعوقات « الاصطناعية موالانية لا تستطيع حجب حقيقة وجود عوامل

التكامل الاقتصادي العربي الممكن ايجازها فيما يلي :

أولا : توافر رؤوس الاموال اللازمة لاقامة صرح اقتصاد عربي متين تستطيع فوائـــض العائدات النفطية مده بكل ما يلزمـه من أموال تثمير حتى يستطيع الوقوف على قدميـه **وانتاج سلع صناعية ذات مردود ربحـي ٠**

ثانيا : ضخـامة السوق العربية المؤلفة من كتلة تضم ١٢٠ مليون مستهلك تقريبا ٠

ثالثا : القدرة الشرائية الهائلة لمواطني الدول العربية النفطية ، وتعويضها عـن عـامل الحجم السكاني ذي الكثـرة العددية وانخفاض الدخل الفردي فيه (مصر مثـلا)، وهـو ما يعرف بعلم الاقتصاد بـ « اقتصاديات الحجم » ٠ Economies Of Scale

رابعا : سهولة انشاء شبكة مواصلات بين الدول العربية ، واتصالها الجغرافي الطبيعي فيما بينها ٠ وهناك ارتباط وثيق بين المسافة الجغرافية الطبيعية بين مكان واخر (٧) وه المسافة الاقتصادية التي لا تعتمد عـلى بعـد المسافة التي تقاس عـادة بالميل أو الكيلومتر بين مكانين جغرافيين ، بل عـلى سهولة الاتصال فيما بينهمـا وعـلى كثافة الحـــركة التجارية القائمة بين طرفيهمـا »٠

خامسا : تواجد المواد الاولية الخـام التي تؤلف « العمود الفقري » لكل صناعة ثقيلة أي الحديد والصلب ومشتقاتهما ٠

سادسا : رخص سعـر الطاقة المحـركة لكل الالات وتوافرها بكثرة هائلة ٠
سابعا : كثرة اليد العاملة وضالة أجورها ٠

القاعـدة الاقتصادية العربية للصناعـة الثقيلة :

لا شك بان القاعـدة الاقتصادية العربية تتمتع بالمزايا الضرورية والعـوامل الكفيلـــة لتجعل منها قوة صناعـية ان لم تستطع المنافسة في الاسواق العـالمية ، فانبوسعـها على الاقل ، تحقيق شبه الاكتفاء الذاتـي للمواطنين العـرب القاطنين بين طرفي المحيط والخليج٠ ومن الواضح ان الكلام هنا يعـني الاقتصاد العربي كوحـدة ، وليس كحلقات مفككة مبعثرة لا يجمع بينهـا جامع ، وتمنـع الانظمة السياسية أي تحـرك جدي نحو تحقيقها ٠وه المسح الاقتصادي » عـلى أرضية الواقع الاقتصادي العربي ككل ، يظهـر بوضوح رجاحة العوامل المشجعة في ميدان التصنيع الثقيل الكفيل بتلبيـة متطلبات الصناعـــة العسكرية ، علـى العـوائق التي تقف حجر عثرة في طريقهـا ٠ والصناعـة الثقيلة في كل بلد ، وبصـورة عـامة ، قادرة في ايـام السلم عـلى انتاج الالات الضـخمة والمحركات اللازمة للاستهلاك المدني أو الصناعـي غـير الحربي مثـل البرادات والجرارات والحفارات ، والشاحنـــات وغيرها ٠ وهناك ايضا الصناعات الخفيفة الرديفة مثل المطاط ، والاتسجة ، والاســـلاك المعـدنية ، والاخشاب والجـلود ، والبطاريات ومنتجـات البلاستيك والنايلون ٠ وهـــي كلها تتداخـل بشكل أو باخـر في الصناعـة الحربية ٠ فالبسة الجنود مثـلا وخوذهـــم،

و« جزماتهم »وغيرها تكلف تزويد الجيوش العربية بها عشرات الملايين من الدولارات التي من السهل توفير القسم الاكبر منها ، وذلك عن طريق توحيد انتاجها ، وتوزيعه على الجنود العرب • وبالاضافة الى التوفير المالي هناك الفرصة الجديدة المتاحة أمام العمال العرب للعمل في تلك الصناعات التي تشكل جزءا هاما رديفا من استكمال عدة كل جندي ذاهب الى ميدان القتال ، أو مستقر في الثكنات •

رؤوس الاموال :

اذا كان المال « عصب الحرب » فهو ايضا ، والى حد كبير ، « عصب الصناعة الثقيلة » • فالثروات الطبيعية المخزونة في جوف الارض لا يمكن اخراجها من بطنها الا بتوظيف أموال ضخمة تنفق على شراء التجهيزات الالية اللازمة وصيانتها ، ودفع أجور العناصر البشرية من مهندسين ، وتقنيين ، وعمال ، ولا يفتقر العرب الى قلة الاموال ، بل على العكس ، تتراكم لدى الدول النفطية العربية وتوظف وتستثمر خارج الوطن العربي • وهي معرضة ، على الرغم من ضخامتها « الاسطورية » ، الى الغرق في مياه التضخم أو التخفيض الرسمي لبعض العملات الاجنبية • ولقد ذكر الدكتور علي عتيقة ، الامين العام لمنظمة الدول العربية المصدرة للبترول ، بأن الدول العربية النفطية قد خسرت في العام ١٩٧٥ حوالي ملياري دولار بسبب سقوط قيمة الجنيه الاسترليني ، وارتفاع مؤشر التضخم في الدول الصناعية •

ان التقديرات شبه الرسمية للاموال العربية الموظفة خارج الوطن العربي ، او القابعة في خزائن بعض المصارف الاجنبية تشير الى أنها تقارب الثلاثين مليار دولار • وهي مرشحة للقفز الى ما يقارب المائة والخمسين مليار دولار في أواسط الثمانينات ، وهو مبلغ خيالي لا يمكن لاي خبير اقتصادي أن يتخيل بقاءه « رأسمالا طائرا » أو موظفا في سبيل الربح « الوهمي » بدل تشميره في مشاريع انتاجية دائمة داخل الوطن العربي •

المواد الاولية الخام

يتربع الحديد على عرش المواد الاولية اللازمة للصناعة الثقيلة • فكمية انتاجه مع توأمه من الصلب تصنف مركز الدول الصناعية في العالم • (٨) « فالدول الاربع الصناعية الاولى في العالم : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والمانيا الاتحادية واليابان ، تحتل المراكز الاربعة الاولى في انتاج الصلب والحديد » • وتمتلك البلاد العربية خامات الحديد بكميات متباينة (٩) « تتوزع بين مصر والجزائر والمغرب وتونس وموريتانيا والسعودية » • ويقدر الاحتياطي المكتشف منها في البلاد العربية حتى الان بحوالي ٨مليارات طن • ويتضاعف الطلب على الحديد والصلب ومنتجاتهما كل ١٥ سنة • تشير الدراسات التي قامت بها لجان الحوار العربي – الاوروبي (١٠) الى « ان العالم العربي يحتاج حتى يصبح متوسط استهلاك الفرد الواحد فيه من منتجات الحديد والصلب مائة كلغ في عام ١٩٨٥ ، الى انتاج اضافي قدره ٥ر٢٢ مليون طن سنويا تستلزم استثمارات يقارب حجمها الى ١٥ مليار دولار »• وتؤكد الدراسات والاحصائيات في الدول الصناعية على ان صناعة الحديد والصلب تخلق فرص عمل للسكان اكثر من اية صناعة اساسية اخرى ، وتؤدي الى تكوين مهارات فنية وأطر (كوادر) فردية

اكثر مما توفرها اية صناعة اخرى • وتسهم صناعة الحديد والصلب في حل تطويرها ، بمكننة الزراعة العربية راسيا وافقيا ، فمعدل انتاج الوحدة الزراعية العربية حاليا يقل حوالي ٨ مرات عن معدلات الانتاج العالمية ، بسبب افتقارها الى الجرارات والات الحرث والبذر والدرس والحصد ، فالدول المتطورة تستهدف تخصيص جرار ذي قوة ٦٠ حصانا لكل ١٠٠ هكتار اي ٨ر٠ حصان / هكتار • اما الدول العربية فنسبتها من الحصان / الهكتار هي كما يلي :

مصر : ٢ر٠ ، سوريا : ٠٦٧ر٠ ، المغرب : ٠٦٥ر٠ ، ليبيا : ١ر٠ ، الجزائر : ١ر٠٠ وتقدر احتياجات الدول العربية من الجرارات الزراعية سنويا بحوالي ٢٢ الف جرار (قدرة ٤٥ـ٦٠ حصانا) • وهي لا تكاد تنتج منها شيئا الان •

هناك مجمع للحديد والصلب في حلوان ينتج حوالي مليون طن سنويا • وتحاول الجزائر انشاء مجمع خاص بها بالقرب من الحدود المغربية ـ الجزائرية • ومن الممكن تجميع انتاج الدول العربية من خامات الحديد في مركز واحد • ويمكن اعتبار مجمع حلوان نواة ذلك المركز الذي من السهل جدا توسيعه بل وشراء كل ما يلزمه من معدات حسب الاتفاقات المعروفة به اتفاقات المفتاح باليد » ـ Turn-Key ـ وتوافر الاموال العربية يسهل تلك العملية ويجعلها ممكنة التطبيق في المستقبل المنظور•

ويدخل الحديد والصلب في تركيب وتجميع كل الاسلحة التقليدية تقريبا من الغواصة الى الصاروخ ومرورا بمحركات الطائرات والدبابات والمصفحات والمدافع والصواريخ وناقلات الجنود ومختلف انواع الذخيرة التقليدية • والى جانب صناعة الحديد والصلب، لا بد من اقامة صناعات رديفة لاستكمال تجهيز الاسلحة الحربية من مطاط ، والومنيوم ، وزجاج ، وعدسات ، واسلاك وغيرها •

الطاقة

منذ اكتشاف الطاقة الناجمة عن الاحتراق ، وسواء كان ذلك البخار الناتج عن الفحم والحطب وغيرهما ، فقد تفوق النفط عليها جميعا في اوائل القرن الحالي نظرا لرخص استخراجه ووفرة احتياطيه ،ولقد ثبت عند اكثر من خبير نفطي (١١) ان « العالم العربي يسبح فوق محيط من النفط ، ويحتفظ في جوف اراضيه بما يتراوح بين ٦٥ و٧٥ في المائة من الاحتياطي العالمي المكتشف حتى الان من الذهب الاسود • فالولايات المتحدة تمتلك ٧٪ من الاحتياطي العالمي ، والقارة الافريقية ٨ر٥ ٪ ، والقارة الاميركية من شمالها الى جنوبها ٤ر١٣ ٪ ، والعالم الاشتراكي ١ر١٦ ٪ » • ولا (١٢) « تتجاوز تكاليف التنقيب عن البرميل الواحد من النفط في البلاد العربية سنتا واحدا ، بينما تبلغ في الولايات المتحدة ١ر٤٧ دولارا ، و٩٧ سنتا في اوروبا الغربية ، و٧٠ سنتا في كندا ، و١٧ سنتا في القارة الافريقية » • ولا يزال النفط المادة الحرارية الاكثر استعمالا في العالم بالنسبة لمثيلاتها المستخرجة من الطاقة الفحمية او المائية او الغازية الطبيعية او النووية ، فنسبة استعماله « (١٣) تبلغ ٥ر٤٤٪ من مجموع الطاقة المستعملة في الولايات المتحدة ، و٥ر٥٩ ٪ فرنسا ، و٣ر٤٣ ٪ في بريطانيا ، و٢ر٧٥ ٪ في ايطاليا ، و٢ر٥٨٪ في المانيا الاتحادية و٦ر٥٢ ٪ في مجموعة دول السوق الاوروبية المشتركة ، و٨ر٦٩ ٪ في

اليابـــان » ٠

وهكذا يوفر النفط للدول العربية الاموال اللازمة لاقامة مصانع الصناعة الثقيلة ، كما يوفر لها الطاقة شبه المجانية لادارة محركاتها مع صناعاتها الرديفة التي تساعد على زيادة الانتاج الزراعي والخلاص من « حرب التجويع » التي تلوح بها الولايات المتحدة بوجـــه العرب كلما شعرت بوجود خطر مباشر أو غير مباشر يهدد الكيان العنصري الاسرائيلي ٠

الاســـواق :

يكاد يجمع علماء الاقتصاد والاجتماع ان اسباب الحروب ، ومهما اختلفت اسبابهـــا المباشرة تبقى في النهاية اقتصادية ، وتتجسد في المنافسة على الاراضي الغنية بالمـــواد الاولية ، والتزاحم على الاسواق لتصريف السلع ، وهي تصطبغ تارة بالايدولوجية ، وطورا بالشعور الشوفيني القومي ، الا انها تبقى في جوهرهـــا فصـــلا مـــن مسلسل الصراع ، والاسواق بالنسبة الى السلع المصنعة مسالة حيوية ، فاذا لم تتوفر الاسواق اللازمـــة لتصريفها ، انقلبت الى كارثة على اصحابها اذ يخسرون راس المال الذي استهلك لانتاجها، من هنا تكامل العوامل التي تجعل من الوطن العربي وحدة اقتصادية طبيعية تمتلك رؤوس الاموال ، والمواد الاولية ، والطاقة والاسواق، ومن الواضح ان الكثافة السكانية العربيـة تجعل من الوحدة الاقتصادية العربية سوقا تجارية رابحة على كل صعيد ٠

عوامل نجاح اقامة صناعة حربية عربية :

ثمة حقيقة ازلية لا يمكن تجاوزها وهي ان « الانسان اغلى راسمال في العالم » ، فوجود راس المال والمواد الاولية والطاقة والاسواق لا تكفي كلها لاشادة بناء الصناعة الحربيـــة الثقيلة اذا لم يتوفر لها العقل الانساني المبدع الخلاق ٠ وتبقى ركائز القاعـــدة الاقتصادية بحاجة الى الذكاء الذي يستقرىء ويستنتج ، ويقارن ويجرب ، ويخطىء ويصيب ليفاجىء العالم بالاكتشافات والاختراعات التي حققت في النصف الثاني من القرن العشرين ذروة التقدم الصناعي ، والمبدعون من العلماء والمخترعين هم النخبة في كل بلد صناعي متقدم٠

اما بالنسبة الى البلاد العربية فان هجرة النخبة من ابنائها اي (١٤) «حملة الشهادات الجامعية واصحاب الكفاءات والمواهب كالعلماء ، والمهندسين والخبراء والفنيين » الـــى البلدان الصناعية المتقدمة قد خلق مشكلة قومية ذات ابعاد مستقبلية خطيرة على الصعيدين الانمائي والاقتصادي ، فبدلا من استفادة مختلف البلدان من الطاقات العلمية لابنائها فـــي سبيل دفع عجلة مشاريع انمائها للحاق بركب القرن العشرين ، تضطر الى استقدام الخبراء والتقنيين الاجانب فتصبح خسارتها حينذاك مضاعفة عشرات المرات لان (١٥) « تعلـــيـــم وتدريب العالم الواحد يقدر بحوالي ٢٠ الف دولار » ٠ أما المردود المالي لاستثمـــــار خبرة وموهبة العالم الواحد للاقتصاد الاميركي (١٦) « فتقدر بحوالي ٢١٤ الف دولار »٠ فاذا ما علمنا ان هناك (١٧) «حوالي ١٠ آلاف من ارباب المهن العرب ، وعلى رأسهم العلماء والمهندسين والاطباء والخبراء يهاجرون كل عام من ثمانية اقطار عربية هي : لبنان وسوريا والاردن والعراق ومصر وتونس والمغرب والجزائر ، وان ٧٠ في المائة من العلماء العـــرب الذين يسافرون الى الاقطار الغربية للتخصص لا يعودون الى بلدانهم الاولى » ادركنا مدى

الخسارة الاقتصادية والانمائية التي تتحملها سنويا بعض الاقطار العربية ٠

لقد ادركت بعض الدول العربية مثل العراق وسوريا ومصر والاردن خطورة استمرار نزيف الادمغة العربية فسارعت منذ عام ١٩٦٨ الى اصدار التشريعات اللازمة لاستعادة الادمغة المهاجرة ، وذلك عن طريق اغراء أصحاب « الخلايا الرمادية » بالمزايا المادية التي تمنح لهم بعد عودتهم من تأمين العمل ذي المردود الربحي المتناسب مع كفاءاتهم ، وتقديم قطع ارض مجانية لبناء منازل لهم ، ووضع تحت تصرفهم كل ما يطلبونه من مختبرات وآلات وتأسيس مراكز ابحاث للاسهام في نهضة بلادهم عن طريق ما حصلوا عليه من خبرة وعلم طوال اقامتهم في الخارج ٠

ان فقدان العنصر البشري اللازم والضروري لاقامة الصناعة الحربية الثقيلة مثل المهندسين الكهربائيين ، والميكانيكيين ، والعلماء المتفرغين للعمل في المختبرات ومراكز الابحاث العلمية الصناعية يمثل عائقا هاما ٠ الا ان التغلب عليه ممكن اذا ما بدأت الدول العربية في سباق عد عكسي مع الزمن حول :

- استعادة أكبر عدد ممكن من الادمغة العربية المهاجرة ٠
- استقدام بعض الخبراء العالميين لتدريب جيل عربي تقني على أيديهم ٠
- انشاء مراكز البحوث المخاصة بالصناعة المتطورة ٠
- تهيئة الادمغة العربية اللازمة للصناعة الحربية المعقدة عن طريق ارسال البعثات العلمية الى الخارج ٠
- توسيع دائرة النواة التقنية العربية المتواجدة حاليا في كل من مصر والجزائر ٠

ومن المؤسف القول انه لا يوجد علماء او تقنيون عرب اخصائيون في شؤون الصناعات الالكترونية مثل الكمبيوتر والاقمار الصناعية ، وعلم الاشعات ، والاشعاعات ، وهي كلها تتداخل في صلب الصناعة الحربية ٠ ولقد تطورت هذه الاخيرة بعد الحرب العالمية الثانية تطورا مذهلا جعل صناعة الطائرات والصواريخ الموجهة ، والالات الالكترونية واشعة (ليزر) تمثل ثلثي الاموال الموظفة في الصناعات الحربية، والرقم القياسي في غلاء اسعارها ٠ واصبح العامل الالكتروني عنصرا حاسما في كل آلة حربية معقدة ، فالطائرة الحربية تكاد تصبح مختبرا الكترونيا قائما بذاته ٠ من هنا صعوبة انشاء صناعة قومية خاصة متطورة للطائرات الحربية ٠

الا ان هذا العائق لا يقف حائلا دون اقامة مصانع تجميع لمحركات الطائرات ، والاتفاق مع الدول او المصانع المنتجة لذلك الصنف من الطائرات على شراء حق تجميع اجزائها، (١٨) فـ « الهند مثلا قد استطاعت انتاج طوافات Alouette الفرنسية ، وطائرات ميغ ـ٢١ السوفياتية ، وطائرات مقاتلة من نوع Gnat البريطانية وطائرة Marut المقاتلة ، وهي تنتج في الهند وتنقل اهم اجزائها من المعامل او الدول التي اتفقت معها الحكومة الهندية على انتاج ذلك النوع من الطائرات او ذاك الطراز من الصواريخ ، وليس ما يمنع الدول العربية من احتذاء مثل الهند ٠ فالاموال لديهم متوافرة وتجارة السلاح دهليز لا يستطيع الدخول اليه والخروج منه محملا بكل ما يحتاجه من انواع الاسلحة الا صاحب الامكانيات المادية ٠

ان الكلام عن العرب هنا يعني مجموعة الدول العربية الغنية منها بالاموال والمواد الخام من جهة ، والغنية بالعناصر البشرية القادرة على استيعاب التكنولوجيا الحديثة من جهة أخرى ، فالدول الخليجية النفطية مثلا لم يتح لها الوقت بعد لانشاء نواة علمية قادرة على الاسهام في انتاج الاسلحة • فالتراكم العلمي المفروض تواجده مفقود تماما هنا • ويكفي من تلك الاقطار اسهاما بما لديها من أموال وطاقة ، أما مصر والجزائر وسوريا والعراق ولبنان وتونس فبامكانها تقديم العناصر البشرية المتوافرة لديها حاليا ومضاعفة عددها ، وتحسين نوعيتها ، وتمكينها من استيعاب كل ما يستجد في عالم التقنية ، أما الفراغ الهائل الذي يشكو منه العرب فينحصر في ميدان التقدم الكهربائي ـ المغناطيسي المتجسد في العقول الالكترونية ، ووسائل الاتصالات اللاسلكية ، واستخدام مجالات الاشعة وخصوصا (الليزر) منها • فهنا لا بد من البدء من الصفر تقريبا • الا أن رحلة الالف ميل تبدأ بخطوة • وقد يقال هنا أن تلك الصناعة الكهربائية ـ المغناطيسية اللاسلكية تدخل في نطاق عالم الاسرار التي تحتفظ بها الدول لنفسها • ولكن هناك آلات معقدة أصبحت في متناول من يدفع ثمنها وهي تكفي للبدء في تمرين الجيل العربي الجديد على استعمالاتها المختلفة ، وليس بسر أيضا أن الاموال تملك مفاتيح جميع خزائن الاسرار : الحربية منها والسياسية •

هنا لا بد من ايضاح • فالصناعة الحربية العربية سوف تنحصر في حدود القدرة على الدفاع عن الوطن العربي الممتد من المحيط الى الخليج ، واسترجاع الوطن السليب فلسطين، وما قضمته اطماع بعض جارات العرب من الاراضي العربية • وهي معروفة وليست هناك حاجة لتسميتها • فعامل الربح والخسارة المادية لا يدخل في حساب اقامة الصناعة الحربية العربية • فالعدو الاسرائيلي ما زال يغرز انيابه في الجسد الفلسطيني الذبيح ، ويبقي الاراضي العربية المحتلة بين شدقيه ، ويزيد تسلحه لدرجة انه يخصص لموازنته الحربية اكبر نسبة عالمية من دخله القومي اذ بلغت في العام الماضي ٣٦ في المائة ، وبالاضافة الى المكاسب القومية التي يجنيها العرب من اقامة الصناعة الحربية ، فهناك توفير نسبي ايضا في الاموال المخصصة لموازنات الدفاع في البلدان العربية • ففي الاحوال الراهنة ، يضطر كل بلد عربي الى رصد اعتمادات دفاعية قد لا تتناسب مع دخله القومي وكما يتبين من الاحصاءات البيانية التالية : (١٩)

تطور موازنات الدفاع بملايين الدولارات نسبة الدخل القومي المئوية المخصصة للدفاع

الدولة	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤
الجزائر	٢٣٩	٣٧٦	٤٠٤	٢٨٥	٤ر	٣ر٩	٤ر٧	٤ر٦
مصر	١٥١٢	٢٧٥٧	٤٠٧١	٦١٠٣	٢١ر١	٣١ر٩	ر٣١	٢٢ر٨
العراق	٤٧٣	٨١٥	٨٠٣		١٢ر٧	١١ر٣	١٦ر٤	١٤ر٢
الاردن	١١٧	١٤٧	١٤٢	١٥٥	١٤ر٨	١٦ر	١٦ر٤	١٤ر٢
ليبيا	١٢١	١٤٥	٤٠٢	٢٠٣	٢ر٣	٣ر	٢ر٨	٦ر٨
المغرب	١٤٢	١٩٦	١٩٠		٢ر٩	٣ر٢	٣ر٥	٣ر٢
السعودية	٩٤١	١٤٧٨	١٨٠٨	٦٣٤٣	١٥ر٦	١٩ر٢	١٨ر٣	١٥ر
السودان	١٢٠	١١٤	١١٨	٩٧	٥ر١	٥ر٢	٤ر٦	٤ر٣
سوريا	٢٤٩	٤٠٥	٤٦٠	٦٦٨	١١ر٨	١٢ر١	١٦ر	١٥ر٧

ان مفتاح البدء باقامة صناعة حربية عربية يكمن في اعتبار البلاد العربية كلها وحدة اقتصادية متكاملة قائمة بذاتها • فمقولة اموال العرب وثروات العرب للعرب صحيحة مائة في المائة • فالالماني القاطن في الرور لا يعتبر مناجم الفحم والفولاذ الموجودة في جوفه ملكا لسكان الرور • وكذلك الحال بالنسبة للاميركي القاطن في تكساس • فهو لا يفكر فـــي الاحتفاظ بالعائدات النفطية المتوفرة من أبارها ملكا لولايته بل ثروة للامة الالمانية وللامـة الاميركية ، وكذلك الامر فيما يخص الامة العربية ، فالارتفاع الى المستوى القومي واجب يعلو كل النزعات الاقليمية والمنافع المادية الصغيرة • الرهان مصيري ، ويتعلق بمستقبل ومكانة الامة العربية تحت الشمس • فجميع العوامل متوافرة لاقامة صناعة حربية عربيـة تقليدية وشبه متطورة • ولا يحول دون انشائها سوى اتخاذ القرار السياسي المناسب ووضعه موضع التنفيذ فورا ، وتجاوز كل الخلافات الهامشية والاجتهادات العقائدية التي عطلت حتى الآن اكثر من مشروع قومي كان من الممكن ان يعود بالنفع على كل العرب •

(١) ابو النمل ، حسين : بحـــوث فـــي الاقتصاد الاسرائيلي ـ منظمة التحريـــر الفلسطينية ـ مركز الابحاث ـ بيروت ـ ١٩٧٥ ـ ص : ٥٥

(٢) « ندوة الدراسات الانمائية » عدد :٢٢ ـ « تثمير العائدات البترولية في الانحـاء العربي » ص : ٢٢٤

(٣)
Ballassa' B : « The Theory Of Economic Integration ; George Allen And Unwin London , 1969 ; PP : 21 - 56

(٤) عزيز ، محمد : مجلس العـــون الاقتصادي المتبادل (الكوميكون) ،حاضره ومستقبله ، « المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦ • ص : ٢٢ـ٢٣

(٥) الفرا ، محمد علي : « التنميـــة الاقتصادية في دولة الكويـــت » منشورات جامعة الكويت ، ١٩٧٣ ، ص : ٣٥٠

(٦) كامل ، امين حلمي : « مذكرة عـــن الحوار العربي ـ الاوروبي » مرفوعة الـى الاجتماع الاول لوزراء الصناعة العرب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص : ١٢ـ١٤

(٧)
Makower , H . And Morton , G.A « A contribution ToWards A Theory Of Customs Unions » : The Economic Journal , March 1953 ; PP : 33 - 49

(٨)
Westdeutsche Landsbank Giroyentrale ; Quarterly Report , 1/1/1975, Dusseldorf , 1975 ; p : 12

(٩) كامل ، امين حلمي : المصدر السابق: ص : ١٢

(١٠) المصدر السابق : ص : ١٥

(١١)
Jean, Pierre : Pètrole : La Groisième Guerre Mondial ; Calmann Léry , Paris, 1974 ; p : 97

(١٢) المصدر السابق : ص :٩٩

(١٣)
Khader , Bichara : Le Petrol Politique (Mai Juin Juillet) 1974 Paris P : 106

(١٤) زين ، الياس : « هجرة الادمغـــة العربية » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص : ٧

(١٥) المصدر السابق ، ص ٧٥

(١٦) المصدر السابق ، ص : ٧٥

(١٧) المصدر السابق ، ص ٧ـ٩

(١٨)
Dubos , Jean - François : Ventes D'armes : Une Politique ; Gallimard Paris ' 1974 ; P : 32

(١٩)
The Military Balance 1975 , An iiss Publication . The International Institute For Strategic Studies , London, 1975 .

الايوبي ، الهيثم ـ عبدالله ، هشام : ميزان القوى العربـــي ـ الاسرائيلي ـ دراسات فلسطينية ٩٨ ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ مركزالابحاث ـ بيروت ، اذار (مارس) ١٩٧٤ ـص ٨

اشارات على مسار حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية ★

سميح سمّاره

● **ملاحظـــات واشكالات عامـة :**

نسجل في البدء اعتقادنا انه باعلان القيادة السياسية الفلسطينية عن موعد الـــدورة الثالثة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني في كانون الاول المقبل ، وذلك بهدف اجراء مراجعة وتحديد مسار حركة الجماهير الفلسطينية في ظل المعطيات الراهنة ، انه بذلك فان صـــراع الجماهير العربية في الساحة اللبنانية ضد قوى التحالف الامبريالي ـ المرجعي ، يكون قد وصل الى احد المفاصل الرئيسية له ، المرتكز على اجراء مراجعة وتقييم واضحين للمسألة الرئيسية التاليـــة :

● حجم وقوى واتجاهات وتحالفات ومسار جبهة الجماهير ·

● ثم حجم وقوى واتجاهات وتحالفات ومسار جبهة الاعداء ·

وذلك لاعتبار يشير الى أن المعركة الفادحة التي خاضتها وتخوضها الجماهير العربية في لبنان قد قدمت لحركة التحرر العربية العديد من الاجابات الواضحـــة على الاسئلـــة الغامضة ، وبينت مغالطة الكثير من المقدمات الرئيسية والقناعات المسلم بصحتها ، وشكلت بحد ذاتها نقاط ضوء بارزة ، تستطيع القوى الثورية العربية على اساسها وبواسطتها ان ترى الواقع وتفسره وتحل اشكالاتها النظرية خلال ذلك · هذه الاشكالات التي كانت وما زالت

★ يعتمد تحليلنا في هذه المقالة على قانون رئيسي يشدد ويؤكد على جدلية العلاقـــة القائمة وتداخلها بين النضالات الطبقية ضد القوى الاجتماعية المرتبطة براس المـــال الامبريالي والمعادية لاهداف الجماهير العربية في التحريـــر والوحدة والاستقـــلال الاقتصادي ، وبين النضالات القومية ضد العدو الرئيسي المتمثل بالامبريالية العالميـــة والصهيونية (الحركة الصهيونية والقاعدة الامبريالية الصهيونية) ، وباعتمادنا هذا القانون كمرشد رئيسي في النظر الى اشكالات الواقع يكون خلافنا قد تحدد معالتوجهات ذات الاساس القطري كوجهة نظر سياسية ، نعتقد ان حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الوطن العربي ككل قد تجاوزتها وخلفتها وراءها ، وسببت لها مثل هـــذا المـازق

تشكل عقبة رئيسية في طريقها ، انحرفت بها نحو اتجاهات طفولية او ضيقة الافق ، مما اتاح للقوى العدوة ان تنكل بالقوى الثورية تنكيلا في العديد من الاقطار العربية ، فتخلو الساحة لها لتزوير ارادة الجماهير ٠

فان تقود القوى الحاكمة عملية الابادة الموجهة ضد الجماهير والقوى السياسية التي تقودها في ساحة لبنان ، مع اختلاف موقع كل قوة في هذه العملية ٠

وان يجد العدو الامبريالي ـ الصهيوني كل هؤلاء الوكلاء المحليين في هذه المرحلة من نضال الجماهير العربية ٠ ثم ان تغمر المفاجأة بذلك القوى التي تقود جبهة الجماهير ، وحتى حلفائها الاستراتيجيين ، الامر الذي يعكس نفسه على قرارها السياسي ٠

ثم ان تباشر القوى المرتبطة ارتباطا عضويا بالامبريالية اتصالا وتعاملا علنيا ومكشوفا مع العدو القومي دون اي رادع ، ودون اي خشية ٠

ان يحدث كل ذلك ، فان هذا يشير اولا وقبل كل شيء الى خلل رئيسي يتوجب اكتشافه

التاريخي الذي نعيشه الآن ٠ اذ في تقديرنا انه اذا كان المازق التاريخي لحركة التحرر العربية يتمثل في احد جوانبه بتقييم القوى الثورية العربية لدور البرجوازية في العملية الثورية ، فان الجانب الآخر له والاشد خطورة هو في تلك التوجهات القطرية اساسا التي تعمل القوى الثورية على فرضها واقحامها على الواقع ، وكان التجزئة في بلادنا هي قانون ثابت وراسخ ونهائي او خارج اطار المرحلة على الاقل ، وليست نتيجة رئيسية للسيطرة الامبريالية على بلادنا ٠

اننا لا نستطيع ان ننظر الى كل صراع في اي ساحة قطرية الا بكونه صراع جبهة الجماهير العربية ضد اعداءها التاريخيين ، اي صراع كل القوى الثورية العربية كتعبير سياسي تاريخي عن الطبقات الثورية المتحالفة ، ضد الامبريالية العالمية والطبقات المحلية الحليفة لها ٠

من هنا يجيء اطلاق تسمية « الساحة الرئيسية » على اقطار مصر ، سوريا ، لبنان، الاردن ، وفلسطين ٠ وذلك انطلاقا من شبه الاتفاق السائد ـ في تقديرنا ـ بان محور صراع القوى الثورية العربية ضد الامبريالية يتجه ، ولا بد ان يتجه اساسا واولا ضد القاعدة الامبريالية الصهيونية في فلسطين ٠ لذا فان الاقطار العربية المحيطة بفلسطين تشكل بمجملها الساحة الرئيسية في الوطن العربي بين كافة الساحات ٠ هذا بالاضافة الى ان هذه الساحة تشكل الثقل البشري الاول ، حيث يزيد عدد سكانها عن نصف الامة العربية ، ثم موقعها الاستراتيجي ٠ والاهم من هذا كله هو اعتقادنا بان كافة التناقضات الرئيسية في هذه الساحات القطرية هي تناقضات يرتبط حلها جميعا ترابطا عضويا بعملية الصراع مع القاعدة الامبريالية الصهيونية من اجل تصفيتها او تثبيتها ، والملاحظ والملموس ان الصراع في هذه الساحة الرئيسية يقرر دوما اتجاه وطبيعة الصراع في الساحة العربية ككل ٠

في اساس الموقف النظري ـ السياسي لحركة التحرر العربية ٠

ان الصراع المفتوح الذي تخوضه جماهيرنا العربية الآن ضد اعدائها ، سوف لن يعيقنا عن اجراء مثل هذه المراجعة الضرورية ، بل ان ذلك يشكل حافزا رئيسيا لاجرائها ، لان ذلك هو الشرط الرئيسي ، والذي بدونه ، يصبح من المستحيل على جبهة الجماهير ان تصل الى أهدافها وتكسر هذا الطوق الذي تفرضه عليها جبهة الاعداء في هذه اللحظة ٠

ان الظاهرة السائدة التي لا ترى غير الشقوق في جبهة الاعداء فتحاول الانسلال منها ، والتي لا تجد امامها غير رهانها على التناقضات الثانوية في جبهة الاعداء ٠ والتي تعطي العوامل الخارجية حجما في حساباتها اكثر بكثير مما تستحق واكثر بكثير من الحجم الذي تعطيه للعوامل الذاتية ٠

ان مثل هذه الظاهرة التي ليست الا انعكاسا لخلل فادح في بنية الحركة الثورية ، يجب ان يتم التوقف عندها بامعان ، ويجب أن يتم اكتشاف الخلل التي هي انعكاس له ٠

وفي المقابل ، ويتوفر مثل هذا الشرط ، يصبح الرهان على تقييم وفهم موضوعي وجدلي لحدي المعادلة (جبهة الجماهير وجبهة الاعداء) ممكنا ووواردا ٠

هكذا ، وفي ضوء ذلك ، نتجه الى اجراء القراءة السريعة التالية لحركة القوى السياسية في الساحة الرئيسية بشكل خاص ، وذلك كتمهيد لمناقشة الاشكالات النظرية ـ السياسية العامة ٠

● حلف « الرياض » وموضوعة التضامن :

تتجه القيادة الوطنية الفلسطينية الآن نحو عقد مؤتمرها الوطني العام بعد أن اعتبرت انها قد تمكنت من الخروج من معركتها في لبنان بانتصار سياسي مركزي يؤكد على ان القرار السياسي الفلسطيني لم يخرج من يدها الى أيدي آخرين في الساحة الرئيسية يراهنون فعلا على « اعتقال » هذا القرار ٠

وفي هذا المجال ، لقد كانت معركة بحمدون التي خاضها المقاتلون الفلسطينيون واللبنانيون هي المقدمة الضرورية للنتيجة التي أعتبرت القيادة الفلسطينية أنها انتزعتها من مؤتمر الرياض والتي اكدت على صيانة حق التمثيل الفلسطيني لمنظمة التحرير الفلسطينية، واغلقت بذلك الباب امام المنافسة السورية ، الاردنية على هذا الحق ٠

وبكل حال سواء جاء هذا الانتصار كنتيجة لمعركة بحمدون ام نتيجة لدائرة التناقضات العربية الثانوية ام للسببين معا ، فان القيادة الوطنية الفلسطينية تستطيع ان تعتبر الآن انها قد ارست بشكل اكثر رسوخا مسالة الاعتراف بها كطرف مستقل ضمن المجموعة العربية الحاكمة ٠ وهذا بحد ذاته وفر نتيجة اخرى يجيء المؤتمر الوطني العام القادم لتلبيتها وتحديدها ٠ وهي نتيجة ترتكز بشكل رئيسي على ضرورة انسجام هذا القرار السياسي الفلسطيني المستقل مع القرار السياسي العربي العام ، وذلك بهدف ان تخوض

هذه المجموعة منسجمة معركتها السياسية لعام ١٩٧٧ ، التي تراهن من خلالها على التوصل الى « تسوية سياسية » لمسألة الصراع العربي ـ الامبريالي الصهيوني ، تعتقد انه ليس امام العدو القومي من اختيارات اخرى غير التسليم بهـا !

وهكذا بين الاستقلال والانسجام يقع العمل الفلسطيني في الفترة القادمة ·

في هذا الوقت كانت القيادة الوطنية اللبنانية تسعى الى مراجعة حساباتها لصياغة تحالفات جديدة يمكن ان تساعدها في أحداث ضغوطات سياسية على القـــوى المقررة في المنطقة ، تحصل هذه القيادة بها على مطلبها المركزي بان تكون شريكا في اتخاذ القـــرار السياسي اللبناني ، طالما ان مسألة الاعتراف بها كممثل للجماهير العربية في لبنان غير واردة على الاطلاق ، ولا ميزان القوى يستطيع ان يفرضها ، خصوصا بعد ان اعتمد الحلف البرجوازي في الرياض والقاهرة ممثل البرجوازية الوسيطة في لبنان (الياس سركيس) كوكيل عام ينفذ القرار السياسي العربي الصادر اساسا من الرياض · فيكون بذلك قد تـم تقليص الدائرة التي تتحرك بها كل من الاستقلالية الوطنية المعادية للامبريالية ، والاستقلالية الانعزالية المرتبطة بالامبريالية ، وان لم يغلق الباب مع ذلك امام مشاركة كل من هذيـــن الطرفين في صنع القرار السياسي المحلي المهيمن عليه تمامـا ·

وفي هذا الوقت · كانت برجوازية السلطة (١) في كل من مصر وسوريا تعمق مـــن تحالفها مع البرجوازية الكمبرادورية الحاكمة في اقطار النفط العربي ، والقابضة عمليا على القرار السياسي العام بحكم لعبها لدور الممول الرئيسي لكل الاطراف في الساحة ، فتخضع لشروطها محليا وعربيا ودوليا ، مما يعمق ارتدادها عن الخط المعادي للامبريالية، ويجعلها كتلة لا اكثر في جيش البرجوازية العربية الخاضعة في قرارها السياسي للفئة المرتبطـــة منها ارتباطا موضوعيا وتاريخيا بالامبريالية ، فيذوب الحجم التاريخي لكل مـــن ساحتـــي مصر وسوريا ، وتذوب مركزيتهما السياسية الفاعلة في الوطن العربـــي ·

في هذا الوقت ، لم تفلح محاولات نفخ البرجوازية المرتبطة في الاردن ، على أســـاس ان تتشكل كجزء من محور يمكن ان يقف في وجه هيمنة محور الرياض ـ القاهرة · فتعيد البرجوازية الحاكمة في شرق نهر الاردن هيمنتها على الارض والجماهير الفلسطينية ، مقابل ان تسلم للبرجوازية السورية بمركزية الهيمنة على ساحة المشروع الكونفدرالي المطروح ·

لكن ، وبعد اعلان الحلف البرجوازي في الرياض عادت البرجوازية الاردنية المرتبطة الى احتلال حجمها الطبيعي كقواد سياسي صغير يستخدم وقت حاجة القوى السائدة له ·

هكذا ، اذن ، وفي اطار هذه الصورة العامة ، برزت مسألة « التضامن العربي » كتعبير سياسي عن هذا الحلف الجديد ، وهو « التضامن » الذي سبق له ان تفكك وتفسخ خلال معركة لبنان ، اي معركة استقلال الاطراف المختلفة ، وبرزت بذلك الحقائق التالية :

١ ـ يقوم هذا « التضامن العربي » في مضمونه الاساسي على تسليم البرجوازيـــات

القطرية المعادية للامبريالية لعنق استقلالها السياسي الى البرجوازية الوسيطة والطفيلية العربية المرتبطة بالامبريالية ارتباطا عضويا ، مع ما يتضمن هذا التسليم من انعكاسات حتمية على الصعيد الداخلي تتناول صيغة تحالف هذه البرجوازية مع الفئات والشرائح والطبقات الطفيلية والرأسمالية المرتبطة برأس المال الامبريالي ـ الرجعي ، مما يكرس بالتالي فقدان هذه البرجوازية النهائي لاستقلالية قرارها السياسي ، ولدورها في الجبهة المعادية للامبريالية ، ويؤكد تبعيتها الكاملة للقرار الامبريالي ـ الرجعي ٠

٢ ـ اننا نشهد بذلك خاتمة نهائية للصراع ضد الامبريالية والقوى المحلية المرتبطة بها ، الذي قادته برجوازية السلطة التي هيمنت طوال العقدين السابقين على القرار السياسي للساحة الرئيسية ، والتي « اكملت دورة حياتها وانتكست الى نظام تابع خاضع للسيطرة الامبريالية » ، (٢) وذلك بعد سقوطها التاريخي امام الامبريالية في حزيران ١٩٦٧ ، وهو السقوط الذي حاولت ترميمه في حرب تشرين ١٩٧٣ ٠ وها نحن نشهد الآن لحظة الاجهاض لهذه المحاولة ٠

٣ ـ هكذا وفي ظل هذه النتيجة التاريخية ، يجيء نضال قوى اخرى من برجوازية السلطة في اقطار اخرى من الساحة الرئيسية ، وذلك كرهان على امكانية انتزاعها لاستقلالية قرارها السياسي ، وحصولها على سلطتها الوطنية ، دون أن تتعلم ولا حتى ان تقف عند تجربة الفئات المماثلة لها والتي تمتاز عنها ، حتى ، بتوفر أساس موضوعي راسخ لسعيها نحو الاستقلال ، هذا الاستقلال الذي تمكن اخيرا التكالب الامبريالي ـ الرجعي من تدميره نهائيا ٠ يجيء هذا النضال لكي يشبه تماما اولئك الذاهبين الى الحج بعد أن انتهى الموسم كله ، وعاد جميع الحجاج ٠

ان ظاهرة الهيمنة الامبريالية ـ الرجعية ، والتي يقابلها ارتداد كامل من قبل البرجوازية المعادية للامبريالية عن دورها المركزي السابق في قيادة حركة الصراع الطبقي (ضد القوى البرجوازية المرتبطة تاريخيا وموضوعيا بالامبريالية) ـ القومي (ضد العدو الامبريالي والقاعدة الامبريالية الصهيونية) تشير ـ هذه الظاهرة ـ وبشكل رئيسي الى ان كل محاولة للتخلص من هذا القانون الذي يعم الوطن العربي الآن ، من جانب باقي فرق هذه البرجوازية المعادية للامبريالية ، والتي لم يقصم ظهرها بعد ، وخصوصا في بعض اقطار الساحة الرئيسية ، ليست الا محاولة تدل على الخرق الكامل الذي يشمل بنية هذه الفئات ٠ وتشير من جهة اخرى الى ان الاختيار الوحيد الذي ما زال مفتوحا أمام هذه الفئات هو اعلان انحيازها الكامل الى برنامج جبهة الجماهير حتى يكون لها دور في الجبهة المتحدة العريضة التي ستقود نضال الجماهير العربية في المرحلة القادمة التي نقف عند ابوابها الآن٠

ان مثل هذا الفهم لمسألة « التضامن العربي » ، ولبروز ظاهرة الهيمنة ـ الارتداد ، التي شملت اقطار الساحة الرئيسية جميعها ، يشكل في تقديرنا المقدمة الضرورية لرؤية مسار حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية ، ولمناقشة مسائله :

التناقض والوحدة في الدائرة البرجوازية :

ان المسألة المركزية ـ في تقديرنا ـ التي يجب التدقيق فيها ، واتخاذ الموقف الواضح

منهـا ، حتى يمكن على ضوء ذلك تفسير كثير من الظواهر وعلامات الاستفهام التي افرزها الصراع في الساحة الرئيسية ، هي ما يتعلق بالموقف من البرجوازية العربية بمجمـــوع فصائلهـــا وفئاتهـــا ٠

ان كثيرا من الاخطاء القاتلة والمآزق التي تقع فيها حركة التحرر العربية تعـود في اساسها الى الموقف من هذه الطبقة ، هذا الموقف الذي رايناه يفرز كثيرا من التعويـــلات الفاقدة الى اساسهـا ، ومن المراهنات الخاسرة سلفـا ٠

فمن المراهنة على الامكانية الواسعة للتحالف مع بعض فصائل البرجوازية ، وبقيادتها، لتنفيذ برنامج الثورة « الوطنية » الديمقراطية ٠

حتى تفسير ارتدادها ، او ارتداد بعض فصائلها ، بأسباب خارجة عنها ٠ مـــرورا بمحاولة غمر العلاقة الصراعية القائمة معها بخيمة التناقض الرئيسي العربي ـ الامبريالي٠

او استثناء بعض فصائلها من قوانين هذه العلاقة ، او تطبيق القوانين على فصائـل منها ، وأستثناء فصائل مماثلة ، والسعي لايجاد المسوغات لذلك ٠

في اطار هذه المراوحات التجريبية المفتقدة الى الاساس الصراعي المبدئي الثابت الذي لا بد ان يحكم العلاقات بين الطبقات ، رغم تداخلها في بعض المراحل ، يقع تقييم حركـــة التحرر العربية ومجمل التحليلات والتنظيرات ، لدور البرجوازية العربية في هذه المرحلة من الصراع الطبقي ـ القومي العربي ٠

فمثلا : يعتبر الاستاذ ميشيل كامل ان ازمة نظم « رأسمالية الدولة الوطنية » ، « لا ترجع الى عوامل خارجية او تآمر أجنبي ، بل تعود في الاساس الى عناصر وتناقضـــات داخلية » اي « ازمة نظام ، تفجرها تناقضاته ، مما يفترض ضرورة تجاوز النظام بكامله ، باعتباره السبيل الوحيد لانجاز الاهداف القومية » ٠ فيطبق هذا القانون بشكل صارم على النظام الحاكم في مصر ، لكنه وفي نفس الوقت ، وفي نفس المقال (٣) يعمل جاهدا لاستثناء انظمة مماثلة من هذا القانون ، بل هو يعول كثيرا على « الجبهة العريضة من الناقورة الى العقبة » !! ويعتبر ان دخول قوات النظام السوري الى لبنان قد جاء بفعـــل « توريـط » الامبريالية الامريكية لسوريا في لبنان ـ اي لعوامل خارجية ؟!

ايضا ، وفي نقطة مقابلة ، نلمس تشديدا بالغا على العوامل الخارجية ، وعلى مسالـــة الصراع العربي ـ الامبريالي في مجموعه ، بحيث يتم غمر الجانب الطبقي من الصراع في هذا الاطار الواسع (٤) ٠

اذ صحيح ان « المعركة العربية مع العدو الرئيسي هي معركة قومية ، اي انها معركة جميع الطبقات الوطنية العربية » ٠

وصحيح ان الثورة الفلسطينية « تشكل **تحالفا طبقيا واسعا** يمارس ارقى انواع الكفاح : الكفاح الشعبي المسلح ، الذي يفترض ديمقراطية جماهيرية واسعة نسبيا » وهذه مسائـل

لا تثير بحد ذاتها خلافا على الاطلاق ، لكن الخلاف يقع حين نلحظ مثل هذا الاصرار من قبل الاستاذ خالد جابر على القفز عن تساؤل بسيط واساسي هو :

على اي اساس يقوم هذا التحالف بين مجموع هذه الطبقات الوطنية ، وما هـــو برنامجه ، وبرنامج اية طبقة يتم ؟؟

ان هذين المثلين ، وهناك غيرهما الكثير فعلا ، يجدر ان يشكلا دافعا مهما لنا لتحديد الموقف الواضح من هذه القضية المطروحة (البرجوازية العربية) ، وعبره من مجمـــوع الاطر السياسية الحاكمة او الساعية للحكم في الوطن العربي ، وفي الساحـــة الرئيسية خصوصا بحكـم مركزيتهـا ·

القطرية البرجوازية كظاهرة سائـدة :

ليس لدينا شك ان الاعتقاد ببرجوازية قومية قائمة او يمكن ان تقوم في الوطـــن العربي ، لتنفيذ برنامج الثورة القومية الديمقراطية ليس الا نتيجة خاطئة لمقدمات خاطئة · وفي تقديرنا ان المدخل الوحيد لفهم حركة الصراع الطبقي ـ القومي العربي الراهنة لا بد من ان تمر عبر رؤية العلاقة التي تشكلت بين الوطن العربـــي بمختلف اجزائه وبيـــن الامبريالية خلال قـرن مضى ·

ان عملية تفتيت وتجزئة البرجوازية العربية القومية الى برجوازيات عربية قطرية يفصل بينها اكثر من عشرين حاجز جمركي ، وهي العملية الفاحشة التي فرضها تنازع الامبرياليات في بلادنا ، قد حكمت على البرجوازية بالتمزق منذ بدء تشوئها ، بل ان عملية انشائها واعادة صياغتها على اساس قطري قد نفذت على ارضية التجزئة الامبريالية لبلادنا ، اي علـــى ارضية التبعية الكاملة للامبرياليـــة ·

من هنا ، يجيء سقوط كل رهان على امكانية قيام هذه البرجوازية او مساهمتـا في اية عملية توحيدية للوطن العربي او لاجزاء منه · ولا حتى بقيادتها وببرنامجها ، وذلـــك بسبب التداخل القائم بينها وبين المشروع الامبريالي ، بحيث انها تحولت الى سرطان حقيقي في الوطن العربي ، تصب لديها كل خبرة الامبريالية واساليبها في النهب وقمع وتضليـــل الجماهير · ويفضل ثرائها الفاحش والطفيلي اساسا ، فهي تقود الآن جبهة الثورة المضادة في بلادنا · لكن ، وضمن هذه الاطر القطرية الناتجة عن « التجزئة المفروضة بقوة العنف الامبريالي » ، (غ· جابر ـ المصدر السابق) فقد نضجت منذ بداية الخمسينات وبـــرزت ظاهرة الصراعات على اقتسام الثروة ، وتملك وسائل الانتاج ، والاستيلاء ـ بالتالي ـ على السلطة السياسية بين الشرائح المختلفة المكونة لهذه الطبقة في معظم هذه الاطر القطرية ، وحسب درجة التطور العام لكل قطر ، وذلك بسبب التناقض الناتج عن موقع كل شريحة في عملية الانتاج · اي ان عملية التبعية الكاملة للامبريالية التي تقودها الشرائح الكبيرة مـن البرجوازية عجزت عن ان تعبر عن مصالح الشرائح المتوسطة والدنيا من نفس الطبقة ·

في نفس الوقت الذي كانت تتناقض فيه هذه العملية تماما مع مصالح الجماهيـــر والطبقات الكادحة العربيـة ·

وقد كان وعي الامبريالية ، من جهة اخرى ، لضرورة تفتيت وسحق العناصر المكونة لبنية المجتمع العربي حتى بعد تفتيت الكيان القومي للبرجوازية ، وذلك لاغلاق الباب نهائيا امام الصراعات الطبقية القادمة بفعل حركة التطور الطبيعي للواقع ، حافزا اضافيا ، لكنه قدم نتائج عكسية ، لمنع توفير قواسم مشتركة يتم خلالها توحيد البرجوازية العربية القطرية في اطار واحد يدافع عن نفسه في وجه الهجوم الطبقي القادم ٠

وقد جاء انشاء الكيان الامبريالي الصهيوني في فلسطين ، وبالمساهمة والمشاركة الفعلية للبرجوازية الطفيلية المرتبطة بالامبريالية ليكشف امام الشرائح المتوسطة والدنيا من هذه البرجوازية ان مسالة التبعية الكاملة للامبريالية مسالة لا تلبي ، بل تتعارض تماما مع المصالح الحقيقية لها ٠ حيث ان هذه التبعية لا تقدم لها غير الفتات من الثروة الاجمالية، بينما تستولي الشرائح الكبيرة على القسم الاعظم منها ٠

وقد برزت هذه الظاهرة بشكل خاص بعد اضطرار البرجوازية المرتبطة واضطرار الامبريالية ذاتها الى « عصرنة » المجتمعات العربية القطرية بغرض تسهيل عملية ربطها بالسوق الامبريالي ، مما ادى الى توسيع قاعدة الشرائح المتوسطة والفقيرة من البرجوازية، النازحة من الريف الذي تم تدميره الى المدن ٠

جاء هذا الاضطرار لكي يزيد من حدة التناقض بين هاتين الشريحتين المكونتين للبرجوازية القطرية وبراكمه ٠

هذا بالاضافة الى حدة وفحش ودموية الغزوة الامبريالية للساحات القطرية العربية المختلفة وانعكاسات ذلك على وعي الجماهير المتوسطة في المدن العربية ، التي اصبحت ترى، وكانت الشواهد امامها كثيرة ، ان عملية التدمير الامبريالي سوف لن تقفز عنها بل هي ستشملها بالضرورة ٠

ويتبلور هذا التناقض بين شرائح البرجوازية العربية القطرية طوال خمسة عقود من الزمن وبعودة جيوش البرجوازية المرتبطة المهزومة من فلسطين ، فقد جاءت الخمسينات لكي تفجره في عدد من الساحات القطرية ، وبواسطة الاداة الوحيدة للفئات المتوسطة ، المتمثلة بالجنود وضباط الصف الصغار ذوي الاصول الطبقية الفلاحية ٠

وهنا ، يكون قد تم احداث شرخ اساسي وقاصم في اطار التحالف القائم بين الشرائح البرجوازية ، بحيث يتطور هذا بعد فترة بسيطة الى علاقة صراع محتدم بين الشريحتين على مستوى الوطن العربي كله ٠

ففي حين بقيت الشرائح المرتبطة بالامبريالية على ارتباطها القديم ، قادت الشرائح المتوسطة ممثلة بانظمة ما يسمى بـ « رأسمالية الدولة الوطنية » او البرجوازية البيروقراطية التي نطلق عليها برجوازية السلطة معركة العداء الواضح ضد الامبريالية من جهة ، وضد البرجوازية المرتبطة بها من جهة اخرى ٠

هذا ادى بدوره الى خلق محورين متصارعين او قناتين للصراع على ساحة الوطـــن العربي ككل ، قادت طرفه الاول البرجوازية المعادية للامبريالية ومركزها القاهرة ، وقادت طرفه الثاني البرجوازية المرتبطة بالامبريالية ومركزها الرياض • فقادت الاولى معركـــة استقلال الوطن العربي وتوحيده ، وخاضت ضد الاستعمار والاقطاع والراسمال الامبريالي المحلي معارك عديدة • وقادت الثانية معركة تطبيق المشروع الامبريالي المضاد بحذافيره •

وهنا نقف عند الإشارات البارزة التالية :

١ ـ تتميز البرجوازية المعادية للامبريالية (برجوازية السلطة) اولا وقبل كل شـــيء بعدم التجانس في صفوفها بحكم تكونها من اصول طبقية متعددة ، مما يؤدي الى حـــدوث عملية فرز واستقطاب مستمرة داخلها ، وذلك اثناء (وفي فترات الهدنة خصوصا) خوضها لمعركتها الرئيسية ضد الهيمنة الامبريالية ـ المرتبطة •

٢ ـ تقوم هذه البرجوازية في بداية تسلمها للسلطة بالبحث عن قواسم مشتركة بينها وبين الطبقات الكادحة كي تحصل على الدعم الجماهيري المطلوب في معركتها المصيرية ، فتقوم بطرح شعارات التحرير والوحدة والاستقلال الاقتصادي وتحقيق الديمقراطية ، اي شعارات الطبقات الكادحة ذاتها ، التي تجد رغم شكها العميق في ماهية هذه الشعارات ، ولعامل افتقادها الى قيادتها التاريخية المثلة بحزب الطبقة العاملة ، اى من مصلحتها ان تقاتل دفاعا عن هذه الاهداف التاريخية ، هذا بالاضافة الى توفر قواسم مشتركة راهنـــة بينها وبين برجوازية السلطة كما تعبر عنها هذه في عدائها الواضح للسيطرة الامبريالية•

٣ ـ ان احتدام المعركة مع الامبريالية لا يمنع الطبقات الكادحة من رؤية واقعها اليومي، رغم حرص اعلام برجوازية السلطة الشديد في التركيز على هذا الصراع « الخارجي » • لكن تراكم التناقضات الثانوية الصغيرة والتفصيلية اليومية بين الحلف الطبقي القائـــم في هذا الاطار السياسي • ثم الضغط الامبريالي المتنوع لاحداث الشروخ في بنيـــة هذا الحلف ، كما تمثل ذلك بنقاء في التجربة المصرية ، يجعل برجوازية السلطة تسير بين حدي الموس • فهي من جهة لا تستطيع ان تتبنى وتنفذ البرنامج الجماهيري • ولا تستطيـــع من جهة اخرى ان تخفف من عداءها للامبريالية والمرتبطين بها •

٤ ـ يتمثل المأزق الرئيسي لهذه البرجوازية في قطريتها ، فهي من جهة تدعي انهـــا تخوض معركتها مع الامبريالية على المستوى القومي ، اي انها تخوض معركة الامة ضـد عدوها الرئيسي • لكنها وفي ذات الوقت لا تستطيع ومن المستحيل موضوعيا عليها ان تنجز مسألة توحيد الامة وان تقود عملية انجاز اهداف الثورة القومية الديمقراطية •

وفي الوقت نفسه فان مسألة احتفاظها باستقلالها القطري مسألة مغلقة تماما •

من هنا يجيء عجزها الحتمي عن توفير شروط الانتصار النهائي في الصراع ضـــد الامبريالية والبرجوازية المرتبطة بها •

٥ ـ هذه الدائرة المغلقة التي تدور فيها برجوازية السلطة تفقدها توازنها تماما ، فيتوفر بذلك ظرف نادر للقوى المضادة لتوجيه ضربتها القاضية كما حـــدث في حزيران ١٩٦٧ • فتهلك لها كل ادواتها وتقصم ظهر التحالف الذي قام بينها وبين الطبقات الكادحة ، وتعيدها

الى حظيرة التحالف مع البرجوازية المرتبطة ، ومع الامبريالية مباشرة ، وذلك كما يعلمنا الواقع الراهن للساحات القطرية العربية بشكل جلي وبالغ الوضوح ٠

٦ ـ في هذا الوقت تكون البرجوازية المرتبطة قد احتفظت طوال فترة الصراع بكامل قوتها ، بحكم استمرار قيامها بعملية النهب الواسعة ، وتنفيذها لسياسة الامبريالية في اضطهاد وقمع الجماهير ، ولعبها دور الحارس الشديد الاخلاص للمصالح الامبريالية التي في مقدمتها : الاحتكارات النفطية والقاعدة الامبريالية الصهيونية واكثر من ذلك فهي تتنازل « بمروءتها التقليدية » عن اجزاء هامة من الوطن العربي وتبطش بالجماهير بالمشاركة الكاملة مع الامبريالية والبرجوازية الايرانية في الخليج العربي وتعمل بنشاط لتكريس التجزئة ، وتدعو الى تثبيت القاعدة الامبريالية الصهيونية والاعتراف بها واقامة العلاقات معها ٠

هنا لا تجد البرجوازية المعادية « سابقا » للامبريالية غير الخضوع الكامل لهذا البرنامج البرجوازي ـ الامبريالي وتنفيذه ٠

٧ ـ وعلى هذه البرجوازية ان تقدم الادلة السريعة والواضحة على خضوعها وارتدادها وتحالفها الجديد ، فنرى انقلابا جذريا في السياستين الداخلية والخارجية لهذه البرجوازية حينئذ يحدث ان يصاب الذين راهنوا وربطوا مصير نضالهم بمصير هذه البرجوازية بخلخلة كاملة في خطوطهم السياسية وبرامجهم ، ويصيبهم بفعل ذلك الكثير من الضيم ، وهو الامر الذي نشهده هذه اللحظة بالذات ٠

٨ ـ ومع كل ذلك ، علينا ان نراعي مسألة مهمة يجب ان نراها ، خصوصا في مثل هذا الظرف الدقيق الذي نمر به ٠ وهو انه رغم التحالف الجديد المعلن والوثيق بين كل من البرجوازية المرتبطة وبرجوازية السلطة ، الا ان هذه الاخيرة لا تستطيع في الواقع الا ان تحتفظ ولو بخيوط رفيعة تربطها مع الطبقات الكادحة في المجتمع ٠ وهو ما يفسر هذا الاصرار من جانب اعلام برجوازية السلطة على ادعاء دفاعها عن البرنامج المعادي للامبريالية (الحفاظ على المقاومة الفلسطينية وصيانة وحدة لبنان مثلا) ٠ هذه الخيوط الرفيعة هي التي تشكل المأزق القاتل والخانق لهذه البرجوازية ٠ اذ انه عبر عملية ارتدادها وارتباطها الجديد بالامبريالية فهي تراهن في الواقع على امكانية ان يحقق لها هذا الارتداد ولو جزءا من برنامجها ، او برنامج التحالف القديم ، حتى تقدمه للطبقات الثورية كدعم لابقاءها في السلطة ٠ وهو جزء يتمثل ـ كما في حالة البرجوازيات الحاكمة في اقطار الساحة الرئيسية ـ بتحرير الاراضي التي احتلت من قبل الامبريالية عام ١٩٦٧ ٠

اي ان تحقيق هذا الشرط هو الحد الادنى الذي على ضوئه يمكن لبرجوازية السلطة ان تبقى وتستمر في السلطة ولو لفترة من الوقت ٠

لكن ، وفي نفس الوقت ، فان الحلف الامبريالي ـ البرجوازي المرتبط يشترط خضوعا كاملا وحاسما له ، بل هو في الواقع عاجز عن تقديم هذا الحد الادنى المطلوب لبرجوازية السلطة لان ذلك يخل بشرط هيمنته على المدى البعيد او حتى المتوسط ٠

٩ ـ ان هذا المازق الرئيسي يشير بشكل واضح الى نتيجتين رئيسيتين :

١ ـ الاستحالة الموضوعية « للتسوية السياسية » لمسألة الصراع العربي ـ الامبريالي

المصـهيونـــــي ٠

ب ـ ليس امام برجوازية السلطة غير السقوط الكامل والنهائي ، وهو الامر الـذي يعتمد من جهة ثانية على توفر العامل الذاتي المتمثل ببلورة البرنامج الثوري لانجاز مسالة اسقاط برجوازية السلطة ٠

● على ضوء ذلك فبأي اتجاه يسير الصراع في الساحة الرئيسية ؟

الهيمنة ـ الارتداد ٠٠ والمازق التاريخي لحركة الصراع في الساحة الرئيسية :

نجد ضرورة للتأكيد هنا على ان القانون الجديد الذي بـات يحكـــم حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية بصورة خاصة والوطن العربي كله بالمجمل هـــو قانون الهيمنة ـ الارتداد الذي تم على اساسه :

● الحاق الهزيمة ببرنامج برجوازية السلطة ٠

● تشكيل علاقة توازنية جديدة اطلق عليها « التضامن العربي » ٠

وقد ثبت بالملموس الآن ان المحاولة السورية للتمرد على هذا القانون العام قد باءت بالفشل ، حيث تم في مؤتمري الرياض والقاهرة منعها من تحقيق هدفها المركزي الذي كان يقضي بالحاق الساحات القطرية اللبنانية والفلسطينية والاردنية بها ، وتشكيل محور يقوم قاعدة الوقوف في وجه هذا القانون ومحاولة كسره ٠ وهي محاولة كانت تفتقد فعلا الـى اسس نجاحها ٠ وهذا لا يعود الى قوة الخصم بالدرجة الاولى ٠ اذ ان البرجوازية السورية كانت تستطيع ان تقف وان تنتشر في وجه هذا القانون لو انها طرحت مشروع علاقة تحالفية بين هذه الساحات القطرية تقوم على قاعدة البرنامج المعادي للامبريالية ، وتشكيل جبهـة مقاتلة بالفعل « من الناقورة الى العقبة » ٠

اذن ، كان لا بد لهذا المشروع من السقوط ، بحكم افتقاده الى كل حليف ، وتناقضه مع البرنامجين : المرتبط بالامبريالية والمعادي لها (٥) ٠

وبهذه النتيجة ، تعود برجوازية السلطة نهائيا الى حظيرة البرنامج الامبريالي ، لكي تحل معه تناقضها الذي بات شكليا ، بعد ارتدادها الموضوعي ٠ ولكي تلتقي بذلك مع رديفتها المصرية ، على اساس رهانهما المشترك بان يحل لهما البرنامج الامبريالي ـ البرجـــوازي المرتبط ازمتهما الداخلية بايجاد « تسوية » لقضية الصراع بين البرنامـــج الامبريالي ـ الصهيوني ـ البرجوازي ، وبين البرنامج الثوري العربي الذي ما زال يفتقد ـ في الواقع ـ الى قيادته التاريخية القادرة على تحقيقه ٠ وخصوصا بعد الهزيمة الكاملة التي تم الحاقها ببرجوازية السلطة المعادية للامبريالية ٠

وقد اصبح معروفا الآن ان محاولة هذه البرجوازية لحل ازمتها الداخلية في تشرين ١٩٧٣ لم تقدم اي حل او تسوية لاي بند من بنود البرنامج الذي يقع حتى في حده الادنى

(استرجاع الاراضي التي احتلت بعد ١٩٦٧ ، واقامة سلطة وطنية فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة) في قطب التناقض الكامل مع البرنامج الامبريالي · وقد كانت اتفاقية سيناء وخطوات كيسنجر دليلا كاملاً على ذلك · اذ انها لم تقدم للبرجوازية المصرية غير اتفاق الخضوع ـ وان عملت على تغليفه امام الجماهير العربية ـ للبرنامج الامبريالي ـ الصهيوني ـ البرجوازي المرتبط · وهو الامر الذي عكس نفسه في الخطوات السابقةواللاحقة للاتفاق محليا وعربيا ودوليا ·

وفي نفس الوقت ايضا فانه من الصعب القبول بان تقدم البرجوازية المرتبطة القائدة للثورة المضادة في بلادنا الآن ، على تفجير تناقض ، ولو تكتيكي ، مع المشروع الامبريالي الذي تتولى هي تنفيذه في الوطن العربي ، الا اذا اعتبرنا ان مأزق برجوازية السلطة قد اصبح يشمل الآن البرجوازية المرتبطة كذلك ، واصبح مطلوب منها ـ بالتالي ـ ايجادمخرج واضح لهذا المازق كمثل الاقدام على عمل حربي خامس ضد حلفائها الاساسيين · ودون ان نغرق في البحث عن ايجاد المخرج لمأزق القوى المضادة ، فاننا نرى تطور حركة الصراع الطبقي ـ القومي في الساحة الرئيسية تدور بين القطبين التاليين :

●● عمل حربي خامس ضد القاعدة الامبريالية الصهيونية يستخدم كمخرج للحلف البرجوازي الجديد ·

●● او سقوط انظمة برجوازية السلطة التي كشفت عن عورتها · وسقوط الحلف البرجوازي كله بالتالي ، وتقدم الطبقات الكادحة العربية لتسلم السلطة في اقطار الساحة الرئيسية ·

وعلى اساس هذا القطب الاخير يطرح سؤال رئيسي :

اين هي تلك القيادة التاريخية للطبقات الكادحة لتنجز مثل هذه المهمة ، وتحقق برنامجها ؟؟

هذه هي المسالة · وهذا هو المأزق ·

الحواشي :

(١) نعتمد هذه التسمية للتفريق بين هذه الفئة من البرجوازية العربية وبين فئة البرجوازية الكمبرادورية (الوسيطة) او المرتبطة عضويا بالامبريالية ، والتي تقود الآن جبهة الثورة المضادة في بلادنا ·

(٢) ميشيل كامل ـ المأزق التاريخي لحركة التحرر الوطني العربية ـ شؤون فلسطينية (٥٨) حزيران ١٩٧٦ ·

(٣) المصدر السابق ·

(٤) خالد جابر ـ التوازنات المسلحة ـ شؤون فلسطينية (٥٩،٥٨،٥٧) ٠

(٥) يجب ان نسجل اختلافنا هنا مع الاسباب التي طرحها بعض الرفاق لاضطـــرار مشروع البرجوازية السورية الى التراجع ٠ اذ ان بناء الموقف السياسي على اســـاس الرهان على الظواهر الخارجية لحركة الصراع دون محاولة اكتشاف القانون الذي يربط هذه الظواهر ويعيدها الى جذورها ، كثيرا ما يوقع ـ وسوف يوقع حتما ـ في مأزق قاصمة٠

ان استمرار النظر الى كل صراع في اي ساحة عربية على انه صراع مغلق تحكمه قوانين الحركة وموازين القوى داخل هذا القطر ٠ وان العجز المزمن عن رؤية القوانيـــن الواحدة للصراع في الساحتين القطرية والقومية ، والتشابك الموضوعي بينهما ، وان العجز المزمن عن رؤية حركة الصراع الطبقي ـ القومي لمجموع الوطن العربي ٠ وان استمرار النظر الى واقع التجزئة الامبريالية على انه قانون موضوعي ثابت ٠

ان ذلك في تقديرنا هو المأزق الرئيسي والمركزي لمجمل « الحركات الوطنية » والاحزاب والتنظيمات ذات الاساس القطري المنتشرة في الساحات القطرية العربية ٠ وهو المأزق الذي يشكل بنفس الوقت المقتل الحتمي لهذه الحركات والاحزاب ٠

وبكل حال ، اننا نراهن على ان يتمكن الصراع الجاري في الساحة اللبنانية من ان يجرف في طريقه ايضا مثل تلك الاتجاهات السياسية ذات الاساس القطري ، التي لن يمضي زمن طويل حتى تكتشف انها قد اصبحت خارج الزمن تماما ٠ ونراهن كذلك على ان يتمكن الصراع الجاري من فرض اضافات نوعية تقلب البنية الداخلية لتلك الاتجاهات ٠

راجع رهانات الرفيق جورج حاوي في « المخطط الامريكي ـ السوري امام الهزيمـة الحتمية » دار الفارابي ٠

وثيقة "كنيغ" والمأزق الصهيوني

حسين أبو النمل

في ١٩٧٦/٩/٧ نشرت صحيفة علهمشمار ، الناطقة بلسان حزب مابام ، احد اطراف التجمع العمالي الحاكم في اسرائيل ، مذكرة اعدها يسرائيل كنيغ * ، متصرف لواء الشمال في وزارة الداخلية والذي يضم اقضية عكا والناصرة وطبريا وصفد حيث يعيش اكبر تجمع للعرب في اسرائيل · وقد كانت هذه المذكرة سببا في ردود فعل ما زالت تتصاعد داخل وخارج الارض المحتلة · والمرشحة للتزايد يوما بعد يوم نظرا لخطورتها وذلك لما احتوته من مقترحات عملية ، وللروح العنصرية التي تطبعها من أول حرف الى اخر حرف فيها ·

يقدم الدكتور صبحي ابو غوش مدير المحاكم الشرعية في اسرائيل اربعة اسباب تجعل من مذكرة كنيغ مثيرة للاهتمام وهي «لانلهاتاثيرمصيري على مستقبل الاقلية العربية في اسرائيل ··(ولانها) تتسم بالتعصب ، ولان لها صلة مباشرة بالواقع الذي يعيشه العرب في اسرائيل ولان السيد كنيغ كان في موقع المسؤولية مدة حوالي ١٥ سنة وقد توصل اليها ـ أي المذكرة ـ بعد عمل مع المواطنين العرب طيلة هذه المدة ···» · (١) واما الشاعر سالم جبران ، عضو راكاح وأحد محرري جريدة الاتحاد ، فقد عمق وجهة نظر الدكتور أبوغوش واعتبر « ان كنيغ ليس ظاهرة فردية شاذة في السياسة الاسرائيلية تجاه الاقلية العربية ·· فقد كان طوال كل السنوات الماضية يمثل السياسة الحكومية وساعد على تعميق التخلف في المجتمع العربي ···» (٢)

---

* سقطت سهوا ، جملة ، من الفقرة (ز) من وثيقة كنيغ المنشورة في عدد ٦٠ من شؤون فلسطينية · ص ١٨٢ والفقرة الصحيحة والكاملة هي :

« ترك الاضراب انطباعا قويا لدى المعامل ومؤسسات الخدمات ، بأن حسن سير الاقتصاد يعتمد على الايدي العاملة العربية · وفي الوقت نفسه اثبت السكان العرب حيويتهم بالنسبة للاقتصاد الذي يديره يهود · هذا الامر ايضا يستغل وسيستغل في المستقبل بفرض خلق مشاعر « الكراهة العربية » التي لا بد أن عرب اسرائيلسيستثمرونها وسيستغلونها » ·

وعمم السيد جبران الطابع العنصري لوثيقة كنيغ واعتبرهـا نموذجا للمجتمـع العنصري الاسرائيلي ·· » فاراء كنيغ ليست شاذة ·· بل هي انعـزاز طبيعـي علـى تربة السياسية الاسرائيلية الرسمية ·· واستمرار طبيعي لها ··» (٣) ·

واعتبر سبب « الصدى الواسع ·· اولا وقبل كل شيء البرنامج التفصيلي التطبيقي الذي يقترحه السيد كنيغ » · فمذكرته طيست وثيقة فلسفية او فكرية ولكنهـا وثيقـة سياسية تطبيقية ··» (٤) ·

أن العلاقة بين الطابع العنصري للمذكرة المذكورة ، والمقترحـات العـملية التي تقدمت بها ، هيعـلاقة السبب بالنتيجة · فسياسة الحكومة الاسرائيلية بالاستيلاء على الارض العربية وطرد سكانها ، هي سياسة ثابتة للحـركة الصهيونية ما قبل وما بعـد انشـاء الكيان العنصري في ارضنا المحتلة ، وليسمصادفة ان تكون بداية تاريخ الصراع العربي الصهيوني في عـام ١٨٨٦ عندما هاجم الفلاحـون المطرودون من اراضيهم التي اصبحت تعرف بمستعـمرة بتاح تكفا ـ ملبس · وبالتاكيد فأن هـذه المذكرة ليست هـي المذكـرة الاولى التي أعـدت ، لان السياسة التي دعـت اليها ، ليست سياسة جديدة عـلـى الاطلاق فمصادرة الاراضي وتهجير السكان العرب هي من صلب مفاهيـم الحـركة الصهيونية · خصوصا منذ تبلورت نظرية احتلال الارض والعـمل · وقد حاولـت اجهزة الاعـلام الاسرائيلية ، بعـد ان تسربت الوثيقة ، أن تلقي المسؤولية عـلـى كاتبها ، في محاولة مفضوحة للاستمرار بادعاءاتها ان اسرائيل كدولـة ، وكشعـب يتوقون الى تقـدم المواطنين العـرب فـي البلاد ، ويريدون العـيش بتفاهـم وبأخـاء، وان سياسة الحكومة أثبتت هذا الشيء منـذ ان قامت دولة اسرائيل ، وان مذكـرة كنيغ تمثل اراء شخصية ، ولا تمثل سياسة واراء الحكومـة ··(٥) » ولكـن هـل هذا الادعـاء صحيح ؟·

هنالك كثير من الوقائع التي تؤكد ان كنيغ في مذكرته كان يعبر عن سياسة الحكومة ، والتي فوجئت بنشر المذكرة ووجدت نفسها مضطرة لـ التحفظ » عـليها فقط ، فلجنـة الداخلية في الكنيست « تنتقد تسريب المذكرة الى الصحف ، ولا تقول كلمة عـن مضمـون المذكرة ··· » ، وء الاصوات التي انتقدت المذكرة كانت اصواتا شعبية ·· من صحفييـن وسياسيين » · وقد فضح ازدواجية موقف الحكومة التي « تعـلن ليلا نهارا ان سياستها سياسة مساواة ولكنها عـلى الطبيعـة ليست سياسة مساواة ·· » (٦) ·

اضافة الى كل ما تقدم · فان اهمية مذكرة كنيغ تنبع من شخص واضعـها الذي قضى في منصبه خمسة عشر عـاما ، أي أنه من صلب المؤسسة الحاكمة ، ويعبر عن وجهـة نظرها ، وطول المدة التي قضاها في منصبه ، يعـني انه عايش مرحلتين سياستين من تعامل المؤسسة الصهيونية مع عـرب الارض المحتلة : مرحلة الحكم العسكري والذي رفـع لتحل محله سياسة المرحلة الاكثر «ليبرالية» ، وبالتاكيد فأننا نستطيـع اعتبـار موقـف الحكومة الاسرائيلية برفع الحكم العسكري اعترافا بفشل تلك السياسة ، وهـا هـو كنيغ يأتي ليطالب بالتراجع عـن السياسة « الليبرالية » ، وهذا بحـد ذاتـه اعتـرف بفشل هذه السياسة أيضا في تحقيق الاهداف التي توختها اسرائيل من وراء السياستين المشار اليهمـا ·

ويمكن ايجاز معاني مذكرة كنيغ في ثلاث مسائل : روحها العنصريـــة ، كونهـــا برنامج عمل ، واخيـرا الخلفيـات والابعاد السياسية للمذكـــورة • ولا شـك ان المسالة الاخيرة هي الاكثر اهمية وخطورة ، ولسوف نحصر الحديـث فـــي المسالـة الاخيرة ، نظرا لان المسالتين الاوليين في منتهى الوضوح ولا تحتاجان الى كثير عنـــاء لاكتشافهما ، فكلمات المذكرة واضحـة وحاسمة ومحـددة ومباشرة ولاتحتمل اكثـر مـن تفسير ••

اهمية الجليل بالنسبة لاسرائيل

قبل تناول هذه المسالة لا بـد من الاشارة الى اهمية الجليل بالنسبة لاسرائيـــل ، والاسباب التي تجعـل اسرائيل تولي هذه المنطقة واهتماما خاصا • فقد كان الجليـــل وعلى الدوام مشكلة بالنسبة لاسرائيل نظرا لتركز غالبية عربية بلغـت عـــــام ١٩٧٥ ٤٦ر٢٨٪ من عدد السكان ، (٧) ونظرا لتزايد عـدد السكان العرب بنسبة تبلغ حوالـــي اربعة اضعاف نسبة تزايد السكان اليهود (٩ر٥ ٪ عرب ، ٥ر١ ٪ يهود) • يتوقـع ان تبلغ النسبة سنة ١٩٧٨، ٥١ ٪ واكثر من ذلك فـان نسبـــة العرب في بعـض الاقضية تزيـد عن نسبة اليهود ، فنسبةالعـرب في الجليل الغربي تبلغ ٦٧٪ من السكان •

الجليل ، جنوب لبنان ، ام شمال اسرائيل ؟!!

ان تركز اعـداد كبيرة من المواطنين العـرب هـو عنصر اساسي فـي أستمـــرار الخصائص المميزة وتراث وتقاليد المواطنين العرب ونموهم بشكل جماعي ، وبالتالـــي ضعف المؤثرات الخارجية عـليهم فيما لو كانـوا اقل كثافة • وان الذي يزيد مـــن خطورة هـذه المشكلة بالنسبة لاسرائيل ، هو قرب الجليل من الجنوب اللبناني ،ووجود حركة المقاومـــة الفلسطينيـة هنـــاك، بمـا لهـا من تاثيـرات عـلى عـــرب الجليل • وامكانية نقـــل هـذا الوجـــود ، فـــي ظل ظروف تاريخية معينـة هـــي مكانيـــة واردة ، وقد سبق لاسرائيل ان كشفت بعـض هذه المحـاولات • وقد عبرت اسرائيل عـن انزعـاجها من هـذه المسالة اكثر من مـرة ، وخير تعبير عـن ذلك التساؤل الـذي طرح عما اذا كان الجليل هو جنوب لبنان ام شمال اسرائيل ؟! (٨) وقد عبـر كنيـغ عن هـذه المسالة بقوله : و«يشعرالقوميون ـ وهذا تقديري ايضا بالنسبة للسكان العـــرب ـ ان تكاثرهم في الجليل يكمنفيه الخطر الذييهدد مجرد سيطرتنا على المنطقة،ويفتح المجالللدخول قوات عسكرية من الشمال الى اسرائيل • ويؤثر في تعاظم الشعور القومي لـدى عـرب اسرائيل واستعدادهـم للمساهمة فـي ذلك » •

الجليل العربي وامكانية طرح شعـار حق تقرير المصير لـه

وفي موازاة هـذا الاحتمال فلا يمكن لاسرائيل انتتجاهل ان شعـار حق تقرير المصيـر للشعـب الفلسطيني قد اصبح يحتـل حجما سياسيا كبيرا في كافة الاوساط المحليـــة والعالمية ، الرسمية والشعبية • وتؤكد عـليه كافة القرارات الصادرة عـن الهيئـــات والمحافل الدولية • يضاف الى ذلك ان الجليل كان خـارج حدود الدولة اليهودية

حسب قرار التقسيم الشهير • ونظرا لانه من المتفق عليه في كافة الاوساط الدولية ان حق تقرير المصير يعني حق الانفصال ، فان امكانية اثارة المشكلة دوليا هي امكانية لها حظ كبير من النجاح وتستند على شرعية دولية ، وعلى امكانية عملية كذلك نظرا لوجود اغلبية واضحة مرشحة لان تبلغ ٥١٪ عام ١٩٧٨ • وبالتاكيد فان اسرائيل لا تستطيع ان تتجاهل هذه الحقيقة ، والتي فيما لو طرحت ، تكلف اسرائيل على الصعيد السياسي غاليا • وفي الوقت نفسه فانها لا تكلف العرب او الفلسطينيين شيئا ، وقد اشار كينغ الى هذه المسالة عندما اشار الى «قول رئيس بلدية معليا، المعتبر شخصا «ايجابيا» ✱ ••• ما هو حق اسرائيل المعنوي في مصادرة الاراضي في هذه المنطقة التي تقع بموجب قرار التقسيم من عام ١٩٤٧ ، خارج دولة اسرائيل •••» وكذلك عندما توقع أن « يحدث في مرحلة معينة تنفيذ عمل استفزازي ••• بغرض حدوث هيجان لدى عناصر يهودية غير منضبطة ، الامر الذي من شأنه ان يؤدي الى عرض موضوع عرب اسرائيل على المنابر الدولية ••» • ولذا فقد نبه كنيغ الى انه « يجب الاخذ في الحسبان انه في احدى مراحل العمل السياسي المعادي قد يطلب بشكل او باخر اجراء استفتاء عام في شمال البلاد في الوقت الذي يشكل فيه العرب اغلبية السكان ••»•

وفي هذا السياق تاتي مذكرة كنيغ ، وقبلها قرار الحكومة الاسرائيلية بمصادرة ٣٠ الف دونم ضمن سياسة اسرائيل الدائمة لتهويد الجليل ، حيث كانت الحكومة الاسرائيلية ترجه جزءا كبيرا من جهودها لتطبيق هذه السياسة ، وحتى في الفترات التي كانت اسرائيل تعيش فيها ازمات اقتصادية حادة ، كما حدث بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ،حيث اضطرت الحكومة الاسرائيلية لخفض مصروفاتها ، وخصوصا في قطاع الاستثمارات والبناء ، فان الجليل كان مستثنى من هذه الاجراءات ، وانطبق عليه في حينه ما انطبق على المصروفات الامنية حيث استثنيت ميزانية وزارة الدفاع ووزارة الداخلية (٩) وبهذا كانت الحكومة الاسرائيلية تعامل موضوع الجليل بوصفه مسالة امنية •

المضامين الايديولوجية لمذكرة كنيغ :

ان وجهة النظر التي تحصر النقاش في الطابع العنصري والمقترحات التطبيقية لمذكرة كنيغ هي وجهة نظرة قاصرة واحادية الجانب • ولا ترى افاق وخلفيات المذكرة المذكورة • فكنيغ ، لم يقدم ، ولم يشأ ان يقدم وجهة نظر فكرية وفلسفية ، بل حصرها في عرض المشكلة ، تقديم المقترحات والتوقعات • وان لم يقدم كنيغ وجهة نظر فلسفية او فكرية ، ولكنه بشكل غير مباشر قدم رؤية فكرية هي بالتاكيد أهم من كل الجانب العملي والتطبيقي التي تعرضت له ، اهميتها تكمن في الفرضيات السياسية التي اكدتها او نفتها تلك المذكرة ، واكثر من ذلك فهذه الفرضيات لا تتعلق بوجهة النظر العربية او الفلسطينية بل بقناعات اركان المؤسسة الصهيونية ، وكيفية نظرتهم للامور فكنيغ يتحدث في مقدمة مذكرته عن «اراء» سادت الدوائر المسؤولة عن السكان العرب ••» وانه قد « وقعت اخيرا عدة حوادث مست بهذه الفرضيات •• » •

ماذا يعني المساس بالفرضيات الصهيونية ؟• انه تاكيد على صحة الفرضية

المنقيضة !! فما هي الفرضية الصهيونية ؟· انها « اراء تقول ان قبـــول هـــذا الجزء من السكان العـرب ـ بوجود دولة اسرائيل هو كامل ، وان اكثريتهم تمر في مراحل متقدمة من التماثل مع الدولة والاندماج في مؤسساتها المختلفة ·· » ولكن الذي حـــدث هـــو وقوع « حوادث مست بهذه الفرضيات ، ووضعـت علامة سؤال كبيـــرة عـلـــى ولاء جزء كبير من اولئك السكان للدولة ولمجرد وجودها ·· » · حديث كنيغ الـــذي قضـــى ١٥ عـاما في الاشراف عـلى شؤون العـرب ، اعتراف بفشل اسرائيل في تذويب الاقليـة العربيـــة ونفي هويتها القومية ، وعلى الجانـــب الاخر اعتراف صهيونـــي بوجـــود قوميتين تربطهما عـلاقة تناقض ، وأحداهما ترفض مبدأ وجود اسرائيل · أي أن مشكلة عـرب الارض المحتلة ليست مسألة « احترام الاصول الدينية والتربوية للعـرب ··» (١٠) بل « مشكلة قومية لها حقوقها ولها مصلحتها ··» (١١) ·

اهتزاز فرضية صهيونية حـول عرب الارض المحتلة :

لقد اهتزت وبعنف الفرضية السياسية الاسرائيلية التي كانت تشكل موقف اسرائيل تجاه عـرب الارض المحتلة ، حيث كانت ترى فيهـم كما مهملا يتلقى بسلبية مفرطة أيـــة أجراءات اسرائيلية · وقد اكد كنيغ هذا الاهتزاز ، سواء على صعيـد الوقائع التـــي قدمها ، او عـلى صعـيد اللغـة التي استعـملها عـند تقديمه لارائه ·· فهنالك « تعاظم الشعـور القومي »· وهنالك « تطوع غـير عـادي » لسكان الناصرة لمساندة بلديتهـم الديمقراطية · هنالك توقع بـأن « الاكثرية ستنتقل باستمرار الى جانب المتمردين ··» · ويقول عـن الزعـماء الرسميين ـ الايجابيين « ان التدهور الذي تسببوا فيه جرفهم هـم ايضا ·· » · وعـندما يتحـدث عـن اضراب يوم الارض يقول عـنه « النجاح الكلـي للاضراب » · « وتضامن فيه كل السكان العـرب في اسرائيل عـن وعـي وبصورة عـلنية ضد طلب الحكومة ومع مطلب سياسي ـ قومي عربي ـ متطرف واستعـداد نفسي للعـمل من اجـل تحقيقه ··» · و« يعتزون بانهـم كانت لديهم الشجاعـة للتصادم مع القـــوات الرسمية للدولة ··» ويستعـمل تعبير « النجاح التاريخي » « والتوحيد المطلق » عـنـد وصفه لما حققه اضراب يوم الارض · وعـــن العـلاقة بين العـرب واليهـود يتحـــدث عـن « الهـوة العميقة » والتي « سينتج عـنها انعكاسات حـادة سواء على صعـيـد السكان اليهود أو العـرب ··» ·

ان « تعاظم الشعور القومي » و« التطوع غير العـــادي » و« النجـــاح الكلـــي للاضراب » و« تضامن كل السكان عـن وعـي » و« النجاح التاريخي » و« التوحيـــد المطلق » و« الهـوة العـميقة و« الانعكاسات الحادة ··» هي تعبيرات ملاى بالمضاميـــن، انهـا تعـكس الحالة الذهنية ، والسياسية ، والايديولوجية لقادة الحركة الصهيونيـة ، والتي نسفت الاوهـام الصهيونية حـول وجـود الاقلية العـربية في المناطق المحتلة ١٩٤٨· واصبحت اسرائيل في مواجهة مشكلة عربية بكـل ما تعـني الكلمة من معـنى ، وليس مشكلة مواطنين عـرب للدولة الاسرائيلية ، لا يعـدو أستكمال هضمهم ودمجهم كونـــه مسالة وقت فقط · لقد اتضح ان المسالة ليست مسالة وقت بل مسالة مبدا · هذه المشكلة لم تتولد في اثر يوم الارض كما حاول كنيغ الادعاء ، وان اخذت اجلى مظاهرها في ذلك اليـــوم · فهى موجودة قبـــل ذلك وقد اشـــار اليهـا في الجـزء الاول من مذكرتـــــه التي اعدها قبل حـدوث اضراب يوم الارض ، حيثاشار الى الهـوة بين العـربوالصهاينة

بقوله : « احدى الظواهر الاكثر اقلاقا هي فقدان اليهودي لصبره تجاه المواطـــن العربي » و« تعرش بسيط » يؤدي« الى انفجار غـير مرغـوب فيه وتصعـب السيطرة عـليه ...» ومن هنا فيوم الارض لم يخلق الهوة بل قـــدم الدليـل على وجودهـا ، وأوضـــح ان سياسة اسرائيل التي كانت تحـلم بتعميق (اندماج) العـرب قد انتهت الى تعمـــيـق (الانفصال) .. وما كان من الممكن الا ان تنتهي سياسة الاندماج ، بتعميق الانفصـال، ولسوف نناقش هـذه المسالة لاحقا ..

اهتزاز فرضية صهيونية حـول الاستيطان

الفرضيـة الثانيـة التـي اهتـزت بعـنف هـي نظريـة احتـلال الارض والعمل من قبـل اليهود . فتمسك الحكومـة الاسرائيليـة والحـركـة الصهيونية بهـذه النظرية لا يوازيه تمسك مساو بها من قبل المستوطن اليهودي ، فمقابـل تمسك المواطن الفلسطيني في أرضه ، كما عبر عـن ذلك في يوم الارض ، هنالك « هرب العمال اليهود من العمل في مجال الاشغال اليدوية ...» . واكثر من ذلك « فقد اقيـم مصنع في معالـوت لتشغيـل سكانها ، ولكن الذي حدث ان عمالـه هم من ابنـاء القرى العربية المجاورة ». ولا يختلف الامر كثيرا على صعـيد المـزارع حيث تؤجـر للعـرب والذين يقومون بتشغيلها ، ومن هنا كان اقتراح كنيغ بالا يتجاوز عدد العمـال العـرب ٢٠٪ . بينما اشار الى انهم حاليا يبلغـون نسبة تتراوح بين ٢٥ ٪ و٥٠٪ ، علما بـان هذه المشاريع كانت مخصصة اصلا لليهـود « ووظفت فيها اموال ضخـمة بغرض زيـادة عدد السكان اليهود ...» . وبالاضافة الى هـذا فهنالك انحسار فـي عـملية الاستيطـان في الجليل رغـم سياسة الحكومة ، فرغـم ان عـدد سكان الجليل يتكون من ٢٨٩ الـف يهودي ، مقابل ٢٥٠ الف عربي ، فان التزايد كان خـلال عـام ١٩٧٤ ، ٧٥٩ نسمة يهود مقابل ٩٠٢٥ عـرب . عـلما بان الزيادة الطبيعـية في عـدد السكان اليهود هي ٣٣٥٤ نسمة ، بواقـع نسبة تزايـد سنوي تبلغ ٥ر١٪ . اي ان مشاريع اسرائيـل لتعـدد الاستيطان قد انتهت بتقلص رغـم كل المحـاولات والاجراءاتالتي اتخذتها .

بداية استيطان عربي مضاد :

وفي مواجهة تعثر عمليات الاستيطان الصهيوني ، هنالك نشاط عربي مضاد . لـذا نشأ « خـوف جدي من انه خـلال العـقد المقبـل ستنفذ عـملية استيلاء عربية ،ن الناحية الديمغرافية والسياسية عـلى عـكا ومنطقة الناصرة ... » وهذا الامر بالاضافة الـى انه ناتج عـن التكاثر الطبيعـي للعـرب ، فهـو ايضا بفعـل عـمل منظم ومخـطط . فقد « بدات تظهـر عـمليات منظمة لشراء العـرب عـقارات في مناطق الشمال ، ويظهر ذلـك بشكل بارز في الناصرة العـليا وعـكا ويظهر بشكل مثير للقلق في مرج ابن عامر ...» وفي الناصرة العليا التي يتحدث عنها كنيغ والتي أراد الصهاينة من وراء انشائهـا خنق مدينة الناصرة ، هنالك عـملية شراء او استئجار للبيوت من قبل العـرب ...وهنالك من اليهود من كان يطالب بصوت عـال بمنـع العـرب من دخـول المنطقة . وما ن لاحت له الفرصة ووجد مشتريا لبيته حتىباعـه للعائلة العربية التي أجزلت الثمن (١٢) ،الامر الذي اعتبره البعض « غـزو العـرب للمكان الذي اعـد ليكون لليهود فقط ...(١٣) » .وقد كان من الملفت للنظر « ان العـربالذين يأتون لشراء منازل مستعـدون لدفـع اي ثمن

يطلب منهم ·· ان هذا الامر يدل على محاولـة منظمة تؤيدها مصادر ماليـــة ·· انهـــم ينفقون الاموال بسخـاء وسهولة وحتى انهم لا يساومون ··(١٤) ، · ولعـل هذا ما عناه كنيغ عندما اشار الى « تجميع الاموال وخاصة السوداء منها ، في ايد غيـــر مرغـوب فيها ، وهي تقدر بمئات الملايين ، من الممكن ، بالاضافة الى الضرر الاقتصادي الناجم عن ذلك ان تشكل قاعـدة للتبرعـات التيتجمعـها عناصر معـادية ···» ! ·

ان الفرضيات الاسرائيلية بصدد الاستيطان والوجود القومي لعـرب الارض المحتلـــة يمكن لنا ايجازه بكلمات أحـد مندوبي اتحـاد الطلبة العرب الذي قال ·· « اننـــا نعتبـر انفسنا جزءا لا يتجزأ من الشعـب الفلسطيني ·· وما دامـوا لا يعترفون بحقنا في تاييد اخـواننا في مخيمـات اللاجئين فلن يكون هنالك هدوء في الجامعـات ··· واذا كان من حق الطلبة اليهـود التظاهر من أجـل الاستيطان فمن حقنا التظاهر ضده ···» (١٥)·

ان حديث مندوب اتحاد الطلبة العرب انمـا يوجز الطابـع التناحري للصراع داخـــل الارض المحتلة · ويؤكد على الطابع القومي لهذا الصراع ، ومضامينه المتلـــة بمسألـــة الارض · وقد اعترف كنيغ بهذه المسألة ·· وبان بعـــض المفرضيات قد مسـت ·· ولكـن كنيغ ، ممثل الحكومة الاسرائيلية ، وايديولوجيتها الصهيونية ، كـان عاجـــزا عـــن الاعتراف بالحقيقة كاملة ، ولذا فقد قدم مقترحـات لا تمت بصلة الى المقدمات التي انطلق منها والوقائع التي سجلها ··

الصهيونية ايديولوجية الانفصال وليس الاندماج :

كنيغ ، يعـمل على تنفيذ سياسة الحكومة الاسرائيلية الداعية الى (دمج) و(هضـم) عرب المناطق ، وقد سجل الظواهر ، وقدم مقترحات من صلب الايديولوجيـــة الصهيونية · من أجل ماذا ؟ من أجل الدمج ، وهنا وقع في خطيئة كبيرة عندمـا قفز فـــوق الحقيقـــة المعروفة الا وهي ان الايديولوجية الصهيونية ، ليســت ايديولوجية الاندماج ·· بـــل خلقت خصيصا لصنع الانفصال ··

الفرضية الثالثة التي اهتـزت

ومن هنا الفرضية الثالثة التي لم يسجلهـا كنيغ ، ومن المستحيـل على صهيوني ، ان يعترف بها : استحالة دمج العـرب بالدولة الصهيونية ·· واستطرادا المازق الذي لـــن تستطيع الخروج منه اسرائيل او الحركة الصهيونية وسيتضحهذا معـنا مـــن خـلال استعراضنا للمقترحات التي قدمها للخروج من المأزق ·· والتي لن تؤدي الا الـــى الدخـول في مازق جيدة ، وخير معين لنا في فهـم هـذه المسألة هي الايديولوجيـــة الصهيونية بحـد ذاتهـا كما عبر عـنها بعـض دعاتها ومنظريها ··

الاضطهاد ·· و·· الانفصال ··

يقول روف برينر عضو اللجنة الوطنية للهستدروت وعضو المكتب السياسي لحزب مابام « تضامن اليهود في وجـه الاغتصاب والفظائع ···» (١٦) و« بدون معتقد خاص لا تكون

انفصالية وبدون انفصالية لا يكون بقاء بل انصهار عاجل ·· وبدون بقاء تكون نهايـــة اسرائيل ·· (١٧) · «الطرد والفيتوات امنت بقاءنا ··» (١٨) » و « الانفصـــال القـــوي هو في طبيعـة الاشكال والمحظورات الكثيرة في ديانتنا ··»(١٩) ·· « هـذه المحظورات ادخلت في سبيل الحفاظ عـلى الانفصال ··(٢٠) » ·

و« فتحت اللاسامية عيني عـلى العـودة الى هويتي المنسية ·· (٢١) » وأما هرتزل فيقول « اللاسامية هي قوة شديدة لا شعـورية بين الجماهير ·· أنني أعتبرها حـركة مفيدة للشخصية اليهودية ، فهي تمثـل تثقيف جماعـة بواسطة الجماهير ·· ويتـــم التثقيف عـن طريق الضربات القاسية وحدها » (٢٢) ·· وسيقدم المعادون للساميـــة الحافز ··(٢٣) ·

الاضطهاد وسيلة تثقيف جماعـي

« الضربات القاسية وحدها ،·· الكلمات لهرتزل ، والممارسة لكنيغ ولحكومة اسرائيـل ·· والضحية هذه المرة عـرب الارض المحتلة ·· وهذه الضربات القاسية التي يقترحها كنيغ · الن تكون عملية تثقيف جماعي ·· للعرب هذه المرة ·· ومفيـدة للشخصيـــة العربية الفلسطينية هذه المرة ايضا ؟· الن تفتح العـيون عـلى الهوية المنسية ·· هذا ان نسيت أصلا ·· والتضامن في وجـه الاغتصاب والفظائع ·· كما يقول روف بريتر الـن يكون هو تضامن العـرب ·· لانهم ضحية الاغتصاب والفظائع ؟· اليست هذه هـي السياسة التي مارستها اسرائيل ضد عرب الارض المحتلة ·· ويأتي كنيغ داعيـا لمزيـد من اجراءات الاغتصاب والفظائع ·· لنعد لالقاء نظرة على كلمـات مذكـرة كنيـغ ·· ولنقرأها في ضوء الجمل المختارة من الفكر الصهيوني ·· يقول كنيغ « تعاظـم الشعـور القومي» و« النجاح الكلي للاضراب » و« تضامن كل السكان عـن وعـي » و« النجـاح التاريخي » و« التوحيد المطلق » و« الهـوة العميقة » و« الانعكاسات الحـادة ··» ·

في ضوء ما تقـدم يمكن لنا تسجيـل الفرضيةالثالثة الا وهي استحالة حل مشكلـة الاقلية العربية في الارض المحتلة و(دمجها) و(احتواؤها) في (دولة) اسرائيـل عـلى اساس البرنامج الصهيوني · والذي فصل اساسا للحفاظ علـــى (انفصـال) و (وتمايـز اليهود)· انفصالهم وتمايزهم)عـن محيطهم ·· ماذا يعـني هذا ؟ انه يعـني ببساطـة شديدة (انفصال) و (تمايز) غير اليهود أيضا ·· مع فارق جوهري في معنـى الانفصال والتمايز بالنسبة للطرفين ، فالانفصال والتمايز ، يحـملان معنيين متناقضيـن ، فـالاول يحـمل معـنى أيجابيا ، بمعـنى تمييز لصالح اليهود ·· والثاني تمييز ضد العرب ·· ولهذه المسالة اهمية كبيرة جدا فـي حياة الصهيونية واسرائيل وخوفهما من اندماجاليهود في دول الشتات كما يحلو لهم التسمية ، فبن غوريون يقول« ان مبدأ مساواة اليهود بغير اليهود في الحقوق والواجبات هـو الـذي يجعـل خطر الاندماج أشد ··» (٢٤) · ان حديث بن غوريون انما يمس مسالتين في غـاية الاهمية ، وهما مفتاح فهمنا للعديد من القضـايا· المسالة الاولى كيفية نشوء المسالة اليهودية ، والمسالة الثانية كيفية استغلال الحـركة الصهيونية للمسالة اليهودية لتنفيذ المشروع الصهيوني واقامة دولة يهوديـة في فلسطيـــن لعدم مساواة اليهـودي في اوروبـا منـــح عـمليـــة الذوبـــان وأوجـــد

وضعا استغلته الحركة الصهيونية التي قالت ان طريق الخلاص هـو البرنامج الصهيوني ··

وليس مصادفة تاريخية ان تكون أولى واوسع الهجرات اليهودية قد كانت من روسيـــا القيصرية ·· واذا كان (عـدم المساواة) بالمعنى السلبي ، أي التمييز لغير صالـــح اليهـود قـد كان عنصرا رئيسيا في نجاح المشروع الصهيوني · فأن عـدم المساواة هـذه المرة ، بمعـنى التمييز لصالح اليهـود ، يشكل عنصرا رئيسيا فـي سياسة التركـــة الصهيونية لاستمرار وجود اسرائيل وضمان تدفق المهاجرين وبحيث يكون المهاجـــرون « متأكدون انهم بذلك يحسنون مركزهم ·· وان الخروج ـ اي الهجرة ـ سيكون في الوقت نفسه ارتقاء طبقيـا ·· (٢٥) » ·

« تحسين مركزهم » و« الارتقاء الطبقي » و« التمايز » الن يحتاج الى طرف اخـــر · « يساء مركزه » و« يهبط طبقيا » و« يعـاني من التمايز » · هذا هو المجتمع الصهيوني الذي انشيء . ويأتي كنيغ ويقدم اقتراحاتـه بشأن الاقليـة العربية ·· فهـــل اخرجت مقترحات كنيغ اسرائيل من مأزقها وعقده الانفصال التـي تعـــاني منهـا والمرشحـــة للتزايد لدرجـة الخـطر ··

المقدمات الخطا ·· والنتائج الخـطا :

نظرا لان كنيغ ينطلق اساسا من ايديولوجيـة رجعية هي الايديولوجية الصهيونية ، فـان كافة النتائج المترتبة على تلك البداية الخاطئة ستكون رجعـية ولن تخـرج اسرائيـل مـــن مأزقهـا ·· بل عـلى العـكس من ذلك فأن عـملية الانفصال والتناقض ستتعمق اكثـــر فاكثر ·· فمقترحاته تتلخص بكلمة واحـدة · **الاضطهاد** · الاضطهاد في كل شـــيء· والاضطهاد وحسب القاموس الصهيوني يعـني شيئـا واحدا : **الانفصال** · فماذ يقترح كنيـــغ ؟·

كنيغ الذي تأثر كثيرا بيوم الارض ، يقفز كليا فوق هذه المشكلـة ويقـــدم مقترحـــات لا علاقـة لها من قريب او بعيد فـي جوهـر المشكلة ويقـدم مقترحـــات تحت خمســـة عناوين ، فبالنسبة للمشكلة « الاولى والتي يسميها « المشكلة الديمغرافية وظواهـــــر القومية العربية » يقترح « توسيع وتعميق الاستيطان اليهودي في المناطق التـــي تبـــرز فيها الكثافة السكانية العربية ··· ويجب درس امكانية تخفيف عـدد السكان فـــي التجمعـات السكانية العربية القائمة » « وبموازاة ذلك يجب تطبيق قوانين الدولـــة بفرض تقييد عـمليات الاستيطان العربية في اقسام الدولة المختلفة ··» · ماذا يعـني هذا الاقتراح ؟· طرد العـرب من اماكنهم الاصلية ، ومنعـهم من الاقامة في مناطق أخرى · اذا اين يقيمون ؟!· الطرد الى الخـارج ! الى أين ؟ ولكن أقتصاد اسرائيل يحتاج اليهم ·· هنا يقدم كنيغ رغبة ولكنها تكاد تكون مستحيلة !·

و« لتجريد حزب ركاح من الريادة في حمل لواء النضال القومي وتمثيل عرب اسرائيل، ولاعطاء متنفس للجالسين على (الحافة) يجب تأسيس حزب شقيـق لحـزب العمـــل يكون التركيز فيه على مباديء المساواة والانسانيات والثقافة والعدالة والنضال الاجتماعي ورفع علم السلام في المنطقة ··» اقتراح حسن ، ولكن الم توجد احزاب شقيقه قبل ذلـــك ، و « مباديء المساواة » التي يقترح كنيغ ان يرفعها الحزب الشقيـــق اتعنى ان تصـــادر اراضي العربي لتعطى لليهودي ؟· ركاح يعـلن موقفه صراحـة ، ويؤكده بالممارسة ···

والحديث المكثف عن المساواة والانسانيات ... غيرها من مبادىء الحزب الشقيـــــق هل تعوض الفلاح عـن أرضه المصادرة ؟!

ومن اجل « خلق نموذج مواطن عربي موال للدولة .. » يقدم كنيغ مقترحـة الثانـــي بشان « الزعـامة العربية وتأثيرها » .. يقول بوجوب « التخلص من الزعامة العربيـــه الحالية » و« تغيير معـظم العـاملين فيالقطاع العربي التابعين للاجهزة الحكوميـــة والشرطة والاحـزاب بما فـي ذلك واضعـي السياسة .. » والتشهير بقادة ركـــاح « واتخـاذ خـطوات فردية ضد كـل شخصية سلبية في كل المؤسسات والمستويات ...» . ولان السيد كنيغ منتبه الى الخطأ الذي وقعت فيـــه « السياسة التـي لم تأخـذ في الحسبان الطبيعـية العربية الشرقية والسطحية غير المتعمقة والتي تتميـز بعـمل الخيـال اكثر من عـمل العـقل ..(٢٦) » يقترح ايجاد « قادة قادرين عـلى أن يكونوا نموذجـا شخصيا وان يتملكوا الصفات التي تمكنهـم من الاجابة عـلى اسئلة المرتبكين المخلصين ومن سوقهم الى الحـل المعـقول عـلى الصعـيد الشعبي والشخصي .. » .

ولكن هذا « البطل » ماذا سيكون جوابـه على سؤال يطرحـه فلاح شرقـي سطحي ، غير متعمق ، خيالي ، لا عقلاني . كما يصفه كنيغ ، وسؤال هذا الفلاح لمـاذا يصـادرون ارضي ؟. ماذا سيكون جواب الزعـيم وما هو الطريق الذي سيقترحـه ؟ بالتاكيـــد ان الارتباك سينتقل من الفلاح الى الزعـيم .. هنـا افرط كنيغ الى درجة السذاجة في تقديـر سذاجة ذلك الفلاح او العـامـل الذي لن يجـدجوابا ايضا عـندما يتساءل لمـاذا اجري اقل من أجر زميلي اليهودي الذي يؤدي نفس العـمل ؟..

واما على صعيد المشكلة الثالثة ، اي الاقتصاد والعمل فان كنيغ يعتبـــر « بـــان الفارق الشاسع بين العرض والطلب عـلى الايدي العاملة في الاقتصاد بكل فروعـه وخاصة فرع البناء وورش اصلاح السيارات وكل الاعـمال اليدوية بشكل عـام ، والتبعية التـي تميز فروع اقتصاد كثيرة مرتبطة بهذه الايدي العاملة ، اعطت شعورا بالقـــوة لـدى عـرب اسرائيل ..» هـذا الواقع يقـدم لـه الحـل التالي « يجب وضع اتفاقـــات مناسبة مع كل ادارة مشروع أو معـمل خاضع لـ قانون استثمار راس المال » فـــي المناطق الحساسة .. بحيث لا يزيد عدد العمال العـرب فيهـــا على نسبة ٢٠٪ .. » . و« تعميق الجباية » و« تحييد الوكلاء العـرب ووضع العقبات امامهم ».. الاقتراحـــان الاخيران هما في متناول يد السلطات الاسرائيلية ، ولكن العنصر الاهم هـو دور اليـد العـاملة العربية في الاقتصاد الاسرائيلي . هنا يتناسى ان تحديد نسبة العـــمال العـرب ، مسألة لا تمسهـم فقط بـل تمس الاقتصاد الاسرائيلي ككل . فأن طرد العمال العرب ،فأين سيعـملون ؟!.. ان مصيرهم هو البطالة . وهي المشكلة الاولى ، وأمـــا الثانية ، فمن أين سيأتي السيد كنيغ بالبديل ، وهـــو نفسـه يعتـــرف بـ « الفـــارق الشاسع بين العرض والطلب .. » . فقد يستطيـع أحضار عـمال يهـود ولكن ، مـــن سيملا مكانهم الشاغـر ؟ وفيما لو وجـد من يحـل مكان العـمال العـرب ، فهـل سيرضى العمال اليهود بممارسة المهن التي يؤديها العـرب ؟ . هل سيرضون بنفس الاجـور ؟..

والاخطر من ذلك ، أن العـمال العـرب والمهن التي يؤدونها ليست مسألة نسبـــة مئوية فهم لا يشغلون نسبة ٢٠٪ فقط ، هم مسؤولون عن مرحلـة انتاجيـــة لا يمكـــن الاستغناء عنها ، وبدون هذه المرحلة الانتاجيـة ، فأن ما يتبقى من مراحـــل الانتاج عرضه

للشلل (٢٧) · فهل سيغامر كنيغ بطرد العمال العرب ؟· ان مغامرته ستعني خلخلة هيكلية الاقتصاد الاسرائيلي ككل · وستؤدي حكما الى هبوط الناتج القومي ·· واثار اخرى لا يستطيع الاقتصاد والاسرائيلي تحملها بدون هزات ستعرض كل التركيب الاجتماعي في اسرائيل للخطر ·

مقترحات كنيغ على صعيد « التعليم » لا تختلف على الاصعدة الثلاثة السابقة · فهو يقترح تقليل عدد الطلاب وضمان استيعابهم بعد التخرج ، وتوجيههم نحو « المواضيع التي لا تعطي الا القليل من الوقت للانشغال بالقومية وفي الوقت نفسه مستوى الرسوب فيها مرتفع ··» · و« تسهيل السفر الى الخارج ووضع العراقيل امام عودتهم وانخراطهم في العمل ··»

اقتراح كنيغ هذا (وجيه جدا) ويصح ان يقدم الى « اليونسكو » كمبرر جديد لطرد اسرائيل من هذه المؤسسة الثقافية الدولية · أنها دعوة صريحة للتجهيل ·· ولكن هل هي سياسة جديدة ؟· المعروف أن عددا كبيرا من حاملي شهادة « البجروت » الثانوية العامة يعملون عمالا ، وذلك بفعل سياسة التمييز ضد العرب ، فمن بين ١٢٠ الف موظف في الدولة يوجد ١٢٠٠ موظف عربي أي ما نسبته ١٪ فقط (٢٨) أي ان العقبات امام دخول الطلاب الى الجامعات ، او الى مجالات العمل هي عقبات موجودة منذ انشاء دولة اسرائيل · ونتيجتها توقعها مساعد توليدانو مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية عندما قال « اذا لم يستوعبوا ستزداد بينهم مشاعر خيبة الامل الناجمة عن وضعهم الاقتصادي بالاضافة الى خيبة املهم على اساس قومي ··» ومراهنة كنيغ على التخصصات التي « لا تعطي الا القليل من الوقت للانشغال بالقومية ··» هي مراهنة خاسرة سلفا ، ولنا في تاريخ الصهيونية ، ودور حاييم وايزمن ، الكيماوي ، دليل ساطع ، وفي المرحلة الراهنة فان التنظيم الفلسطيني الاكبر يقوده مهندس هو ياسر عرفات ، والتنظيم الثاني في الساحة الفلسطينية يقوده دكتور هو جورج حبش ·· وكنيغ عندما يقترح وضع العراقيل امام عودة الخريجين من الخارج وأمام عملية تشغيلهم ، سوف يتخلص من خريج ، بابقائه خارج الحدود، ولكنه سيكون على صدام مع الامتدادات الاجتماعية لهذا الخريج في داخل الارض المحتلة · وعدم تشغيله ، سيجعل من ذلك الخريج قضية متحركة في المجتمع ودليلا ساطعا على سياسة التمييز التي تمارسها السلطات العنصرية ·· خصوصا اذا ما تذكرنا ان لهذا الخريج العربي ، زميل يهودي ، ينتسب لنفس الجامعة، أو الفرع العلمي ، ويجد وظيفته جاهزة ·· بينما يقذفبالعربي الى سوق البطالة ··· عندها يكون السيد كنيغ قد خلق محرضا سياسيا من الطراز الاول ··

واما على الصعيد الخامس فيقترح كيننغ تطبيق القانون ويعدد أكثر من مثل على عملية خرق القانون ، كما في حالة البناء غيرالقانوني مثلا ·· ولعل أطرف توقع هو اعتباره أن « عدد السكان العرب ١٤ ٪ · مخالفة هذه النسبة للقانون قد تتخذ طابع التمرد ··» هنا لا يقدم اقتراحات لعدم تجاوز هذه النسبة · ولكنه على صعيد تنفيذ القانون يقترح التشدد · هنا يطرح تساؤل لماذا يخرق العرب القانون ؟· اللرغبة في التجاوز ؟ وبالذات على صعيد البناء · السبب ان القانون يقيد حق العرب في البناء ·· ولان القانون جائر ، أصبح خرقه ضروريا · ولنفترض جدلا ان الحكومة الاسرائيلية قد نجحت في منع المخالفات وطبقت القانون الجائر فأين يقيم العرب اذن ؟· في

الاحياء اليهودية ·· هنالك مقاومة رسمية اذا ، يتكدسون في اماكنهم الضيقة ·· هذا تمهيد لماذا ؟· النتيجة الوحيدة هي الانفجار ·· لان لذلك العربي عيونا ترى الشقة الحديثة التي تجهز لمهاجر متوقع ولم يحضر بعد ··

في هذا الصدد بقيت كلمة أخيرة ·· ان مذكرة كنيغ مذكرة (ممتازة) · ليس لحل مشكلة عرب الارض المحتلة ·· بل لدفعهم الىاقصى درجات العنف والتوتر ·· أن وثيقة كنيغ هي برنامج مناسب لاحداث انفجار !!

خلاصات ومقترحات :

١ ـ ان مذكرة كنيغ ، بغض النظر عن مستقبل صاحبها ، يجب أن تكون محل عناية واهتمام قيادة الشعب الفلسطيني ،كجزء من عملية الاهتمام في الاراضي المحتلة عموما وفي مناطق ١٩٤٨ خصوصا ·· ولا يجوز ، لاي سبب كان ان لا تعطي الاهمية التي تستحقها !!

٢ ـ ان الفرضيات التي مست ، هي فرضيات في منتهى الخطورة والاهمية على الصعيدين العربي والاسرائيلي وقد سبق لنا تناولها · وأن اية سياسة تجاه عرب الارض المحتلة لا بد وان تأخذ بعين الاعتبار هذه المسالة والتي نلخصها : بصعوبة الاندماج ، وتلكوء مشاريع الاستيطان ، واستحالة تقديم اسرائيل لحلول مناسبة لقضايا عرب الارض المحتلة · وكافة الحلول التي تقدمها هي حلول قاصرة ، وتخرج قادة العدو من مازق لتدخله في مأزق اخر · وفي هذا الصدد لا بد من الاشارة الى انها ليست المرة الاولى التي تهتز بعنف بعض الفرضيات الصهيونية · خصوصا بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، حيث بدات تطرح في ذهن المستوطنين الصهاينة تساؤلات شتى حول صحة البرنامج الصهيوني من اساسه ·

٣ ـ ان عرب الارض المحتلة هم القنبلة الموقوته والاكثر خطرا على اسرائيل والمفصل الاكثر ايلاما لها ، سواء اخذ هذا الوجود شكلا كميا او نوعيا ، باعتبار أن تطوره لا يخرج عن اطار القوانين العلمية التي تحكم سير ونمو اي مجتمع من المجتمعات ·· ومن هنا فلا بد من رفع شعار (نعوت ولا نهاجر) ووضعه موضع التطبيق العملي والتعامل مع مسالة الوجود داخل الارض المحتلة باعتباره قضية مقدسة وواجبا وطنيا ولا بد من ادانة اي عملية خروج من الارض المحتلة ، تحت اي مبرر أو حجة ، وبالتحديد على صعيد الكفاءات والرموز ، والمرشحة لان تكون قيادة العرب الارض المحتلة ، خصوصا وأن جزءا من اجراءات اسرائيل ستتوجه نحو اضعاف المستوى العلمي والثقافي لعرب الارض المحتلة ، وبكلمة اخرى اضعاف امكانيات تولد القيادات·

٤ . ان عملية التجهيل المقصودة ضد عرب الارض المحتلة يجب ان تعوض بعملية تحريض ثوري وسياسي من الخارج بواسطة كافة وسائل الاتصال ، بدءا من الاغنية الشعبية الفلسطينية انتهاء بارقى الوسائل والاساليب · ولا بد من أن تكون هنالك سياسة موحدة تجاه عرب الارض المحتلة من قبل كافة الاطراف المعنية ، باعتبار أن اوضاع الداخل لا تحتمل ما يمكن أن يحتمله الخارج ·

٥ ـ لا يجوز لاي سبب كان ان نطعن نضالات عرب بالارض المحتلة • هؤلاء الذين يأبون الاعتراف بالوجود الصهيوني رغم سنوات الاحتلال الطويلة • وان اي موقف سياسي متهاون تجاه اسرائيل سيهز الفرضيات السياسية التي تشكل موقف عرب الارض المحتلة ، والذين سيكونون أمام حائط مسدود عندما يفاجئون بأعتراف عرب الخارج بوجود اسرائيل ، وهم في الداخل ، والذين يعانون من أقسى الاجراءات واكثرها عنفا وشراسة لم يفرطوا بهذه المسألة ولم يتسرب الى نفوسهم اليأس •

٦ ـ لا بد من العمل بكافة الوسائل بأتجاه تكريس ودعم زعامات فلسطينية في الداخل في مواجهة الزعامات التي تحاول اسرائيل ان تخلقها • وقد يكون هنالك ثمة تحفظات لهذا الفريق السياسي أو ذاك او ذاك على الاطروحات السياسية لبعض القوى العاملة داخل الارض المحتلة ، ومع أهمية هذه التحفظات والتي تستند الى اسس مبدئية ، ولكن رغم هذا ، فلا بد من التعامل مع القوى الموجودة في الارض المحتلة ليس في ضوء اطروحاتها النظرية فحسب ، بل على اساس النتائج الموضوعية لممارساتها العملية • ودورها في فرز وتصعيد التناقضات داخل الارض المحتلة •

٧ ـ ان نجاح البرنامج الصهيوني للاستيطان لا يرتبط بالاعتبارات المحلية فقط ، فاسرائيل قد تستطيع مصادرة الاراضي • ولكن حريتها ليست مطلقة على صعيد ثلاث مجالات • ا ـ المجال الامني • ب ـ تمويل عمليات الاستيطان • جـ ـ المادة البشرية ، وعلى الصعيد الاول ، فقد أصبح دور عمليات المقاومة في الجليل دورا مسلما به في الحد من عمليات الاستيطان •• وفي هجرة المستوطنين • وعلى الصعيد الثاني فان تمويل عمليات الاستيطان مسألة هامة ولا يمكن تجاوزها ، فالمستوطن بحاجة للمنزل ، ولكان العمل ، الامر الذي يلقي على عاتق اسرائيل اعباء ماليه لا يمكن لها ان تتجاوزها بسهولة لولا المساعدات الخارجية ، وهي مجال ضغط لا بد من ممارسة الجهود الملائمة كي تخف هذه المساعدات • ولعل أخطر الجوانب في هذه النقطة هي المسالة الاخيرة الا وهي توفير المادة البشرية • وقد أصبحت مصادر الهجرة الى اسرائيل محصورة بشكل رئيسي في دول الكتلة الشرقية • وهنا لا بد من توضيح ابعاد هذه المسالة وخطورتها لان هجرة ١٠٠ الف يهودي سنويا يعني ١/٢٥ من عدد سكان اسرائيل اليهود حاليا (١٠٠ الف ـ ٢ر٥ مليون)• ومهما قدرت الاعتبارات والمصالح السياسية وراء السماح بهجرة اليهود ، ولكنها لا ترتقي الى درجة الخطر المصيري الذي تمثله بالنسبة لوجود اسرائيل وبالنسبة للثورة الفسطينية ولشعب فلسطين • ولانه من غير المبدئي أن تشن النضالات ضد الاستيطان وفي الوقت نفسه تمون عمليات الاستيطان بالمادة البشرية اللازمة •

ومن هنا فلا بد للثورة الفلسطينية ، وفي ضوء علاقاتها المبدئية والرفاقية مع المعسكر الاشتراكي ، ومن توضيح خطورة هذه المسألة والتي هي مسالة وجود أو عدم وجود بالنسبة للثورة الفلسطينية أو لاسرائيل • وأي خطوة ايجابية على هذا الصعيد هي اكثر تأثيرا ودعما لثورتنا ، من اي مساعدات مادية او معنوية اخرى تقدم لنا • فلا قيمة لمشاريع الاستيطان بدون مستوطنين !•

٨ ـ في موازاة سياسة التجهيل التي تعمل لها اسرائيل • وحيث تقترح وثيقة كنيغ ممارسة اشد على هذا الصعيد ، وفي ظل حاجة عرب الارض المحتلة للكوادر

اللازمة ، وفي ظل استحالة استيعاب، وبكلمة ادق استعداد الجامعات الاسرائيلية لاستيعاب الاعداد المطلوبة من الطلبة العرب ، لا بد من السعي لدى الدول الصديقة لزيادة اعداد الطلبة المقبولين في جامعاتها من عرب الارض المحتلة · فكما هو واضح فان اهمية الخريج من فلسطيني لبنان او سوريا ·· الخ · لا تساوي أهمية الخريج من فلسطينيي المناطق المحتلة ١٩٤٨ · ولا يتسع هنا المجال لمزيد من التفاصيل العملية الضرورية والممكنة ·

٩ ـ من المتوقع ان تمارس اسرائيل سياسة أكثر تشددا وعنفا ، لمواجهة وجود عرب الارض المحتلة · ومن هنا فلا بد من المبادرة باسرع ما يمكن الى تنظيم حملة عالمية لفضح السياسة الاسرائيلية على هذا الصعيد والاستفادة منها على صعيدين : الاول تقييد حرية اسرائيل في التصرف ، برأي عام على الصعيد العالمي ويفضح طبيعتها العنصرية · والجانب الثاني سياسي بهدف خلق المزيد من المشاكل السياسية لها · ولا شك ان اسرائيل ستعاني من متاعب جمه فيما لو اثير موضوع الاقلية العربية في الارض المحتلة وحقها في تقرير المصير · وقد لا تلاقي هذه الدعوة نجاحا ، ولكنه من المؤكد انها ستفضح زيف ديمقراطية وليبراليه اسرائيل · وهذا ما يمكن لنا ان نسميه التعاطي الايجابي مع الرأي العام العالمي بمعنى تقديم المسائل التي تلقى قبولا وتفهما ، وليس كما يفهم البعض التعاطي الايجابي باعتباره تقديم التنازلات المبدئية ·

١٠ ـ نستطيع الجزم ان اسرائيل ، لاكثر من سبب اقتصادي ، واجتماعي ، وسياسي، لا تستطيع التخلي عن الاقلية العربية الموجودة داخل الارض المحتلة · ورغم ان هذه الاقلية هي اقلية خطرة وغير مرغوب فيها ، فهنالك حاجة لها · ولا يمكن الاستغناء عنها الا اذا وفر البديل الذي يمون اقتصاد اسرائيل بحاجته من العمال اليدويين وانصاف المهرة· ومراهنات اسرائيل ـ كما اتضح من دراسات متخصصة عديدة ـ هي على ايجاد مصادر بديلة ، تعطي لاسرائيل اليد العاملة ، ولا تحملها الاعباء السياسية التي تلقيها عليها الاقلية العربية داخل الارض المحتلة حاليا · ومن هذه المصادر دولة او كيان عميل مرتبط باسرائيل اقتصاديا · او توقيع معاهدة سلام مع العرب تضمن فتح الجسور واقامة علائق اقتصادية · وفيما لو قدم لاسرائيل هذا الامر ، فانه يزيل عن كاهلها عبئا ثقيلا ممثلا في عرب الارض المحتلة ، الذين تحتاج اليهم بمقدار ما لا ترغب في وجودهم · وقد اشار كتاب (بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي) الى هذه المسالة عندما قال « أن توفير مصدر اخر لليد العاملة العربية سوف يساعد اسرائيل على تنفيذ رغبتها بافراغ المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ من المواطنين العرب · باعتبار ان وجودهم هناك يؤدي هدفين متناقضين ، اولهما، حاجة اقتصاد اسرائيل الماسة لما توفره الاقلية العربية من عرض للايدي العاملة الرخيصة وغير الفنية تلبية لحاجة اقتصادها المتزايد لهذا النوع من الطاقة العاملة : ثانيا : هذا ما كان يحد من قدرتها على تنفيذ اجراءات التهجير للاقلية العربية خوفا من تزايد تلك الاقلية الى درجة تهديد التركيب الديمغرافي بين العرب واليهود ·· وعندما يتوفر لها مصدر بديل لليد العاملة الرخيصة ، فان هذا يساعدها على ان تخطو واسعا بعملية تهجير عرب الارض المحتلة ١٩٤٨ · وبهذا تكون اسرائيل قد واءمت بين الهدفين المتناقضين اللذين يخدمهما وجود الاقلية العربية ، حيث ستجد اليد العاملة الرخيصة وبدون اية اعباء سكانية او سياسية ··» (٣٠)

١١ ـ في موازاة البرنامج الصهيوني ، والذي تعبر عنه خير تعبير وثيقة كنيغ ، والذي لن يؤدي الا الى المزيد من المأزق · والذي يقدم حلا رجعيا وعنصريا لما يسمى « المسألة الفلسطينية » · يتسع المجال أمام تقديم الحل البديل ، الحل التقدمي ، للمشكلة الحقيقية والتي هي «المسألة اليهودية » · ومن هنا ضرورة تعميق وتعميم طرح حركة المقاومة الفلسطيني عن الدولة الديمقراطية · التي تكفل المساواة في الحقوق والواجبات للجميع ·

١٢ ـ لا بد من الاقلاع نهائيا عن أي تفكير بامكان ايجاد حلول تكفل « الحقوق المشروعة الشعب الفلسطيني » و « حقهفي تقرير المصير » الا اذا حطمت الايديولوجية الصهيونية بكل مؤسساتها وهياكلها الرسمية وغير الرسمية · فالعلاقة بينها وبين الشعب الفلسطيني ، هي علاقة تناقض تناحري لا مجال لحلول وسط فيه ، ولمن لديه أوهام بامكان انتزاع الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في ظلوجود أسرائيل ، وفي ظل هيمنة الايديولوجية الصهيونية عليها ، وفي ظل ميزان القوى الحالي ، نقول لهم ان قادة الحركة الصهيونية يعرفون طابع التناقض جيدا ··· أنهم يقولون بلسان كنيغ آخر هو موشي ديان ·· « عندما قامت دولة اسرائيل ، فانها قامت مكان ، وعلى حساب مناطق فلسطينية ، او سكان فلسطينيين · وكما ارى الامور ، ولا أرى سببا لتجاهلها ، فان (ساريد) مكان (خنيفس) و (شاعر هعماكيم) قامت مكان (خرطبة) و (تهلال) مكان (معلول) و (تل جنان) مكان (بلد الشيخ)وفي (الشيخ مونس) تقام الان (جامعة تل أبيب) و (وادي الحوارث) هو (محيمك حيضر) ومكان مستوطنتي النقب (نيريم ونيريتسماق) كان يقيم (بدو العزازمة والهزيل وغيرهم)! انها نقطة البدء ·· انها نقطة النهاية ·· وما تبقى تفاصيل ·

ن

الحواشي

(١) الحديث ادلى به في ندوة تلفزيونيةيوم ١٧ـ١٠ـ٧٦ واشترك به سالم جبران الشاعر ، والمحرر في صحيفة الاتحاد والسيد صالح دراوشة رئيس مجلس محلي قرية اكسال ،والسيدة نزهة قصاب،عضو الكنيست عن حزب العمل الاسرائيلي الحاكم ··

(٢) ندوة تلفزيونية · المصدر نفسه ·

(٣) المصدر نفسه ·

(٤) المصدر نفسه ·

(٥) ندوة تلفزيونية · مصدر نفسه ·

(٦) ندوة تلفزيونية · مصدر نفسه ·

(٧) لا نملك الا أن نتحفظ على الارقام المعطاة باعتبارها تمثل عدد سكان الجليل من العرب · فهنالك ثمة اجماع على ان نسبة العرب تزيد عن نسبة اليهود ·

(٨) ملحق دافار ، ١٤ـ٤ـ١٩٧٥ راجع نشرة الارض · السنة الثانية العدد ٢٤ الصادر في ٧ـ٩ـ١٩٧٥ · راجع ايضا ، كتاب ، عرب فلسطين عام ١٩٤٨ـ انتماء وصمود · الصادر عن مؤسسة الارض للدراسات الفلسطينية ـ دمشق ـ لحبيب قهوجي ·

(★) كافة الاستشهادات والفقرات المأخوذة من وثيقة كينتنغ لم يشر اليها ·

(٩) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب ، بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي الصادر عن مركز الابحاث ، الصفحات ١٤٨ وما يليها ·

(١٠) ندوة تلفزيونية · مصدر سابق

(١١) المصدر نفسه ·

(١٢) انتماء وصمود ـ حبيب قهوجي · مصدر سابق ، ص ٩٢ ، عن دافار ٢٤ـ٩ـ١٩٧٥ ·

(١٣) مصدر نفسه ص ٩٢

(١٤) المصدر نفسه ص ٩١ـ٩٢.

(١٥) المصدر نفسه ص ٥٨ عن يديعوت احرونوت ٢٣ـ٤ـ١٩٧٥ ·

(١٦) مجلة الازمنة الحديثة ـ العدد الخاص بالنزاع العربي الاسرائيلي· العدد ٢٥٣ · ص ٤٢٣ · ذكرها ج· ب· جانسن في الصهيونية ، واسرائيل واسيا ، صادر

عن مركز الابحاث · ص ٣٥ ·
(١٧) برنير · المصدر نفسه · ص ٤٢٠ ·
جانسن · مصدر نفسه · ص ٣٥ ·
(١٨) الفكرة الصهيونيـــة ـ نيويورك ـ ١٩٥٩ ·· الكتاب مترجم بنفس العنـــوان صادر عن مركز الابحاث · ذكرها ج· ب· جانسن ص ٣٦ ·
(١٩) الفكرة الصهيونية · مصدر سابـــق ص ٣٢١· جانسن ص ٣٦ ·
(٢٠) الفكرة الصهيونية · مصدر سابق· ص ٢٣٨ · جانسن ص ٣٦ ·
(٢١) ج· ب· جانسن · مصدر سابـــق · ص ٤٥ ·
(٢٢) هرتزل ـ المذكرات · الصفحات ٥٦ ، ٧٢٨ ، ٨٣ ، ٨٤ اشار اليها ، جانسن · مصدر سابق · ص ٤٨ ·
(٢٣) تيودور هرتزل ـ دولة اليهود ،ص٥٧
(٢٤) شؤون فلسطينيةعدد ٥٠/٥١ ص٤٠٨
(٢٥) تيودور هرتزل · دولة اليهود · راجع الصفحات ٣٠ و ٦٠ و ٧٠ و ٨٥ ·
(٢٦) التعبير لكنيغ ·
(٢٧) للتعرف على الاهمية النسبية لليـــد العاملة العربية راجع كتاب (بحوث فـــي الاقتصاد الاسرائيلي) البحث الـــخاص بـــ « دور اليد العاملة العربية في الاقتصاد الاسرائيلي» · ص٧٣ ـ ص ٩٨ ·
(٢٨) جريدة الاتحاد الصادرة في الارض المحتلة عدد يوم ٧ـ٢ـ١٩٦٩ ·
(٢٩) هارتس · عدد ١٧ـ٢ـ١٩٧٥ ·ذكرها حبيب قهوجي مصدر سابق ·
(٣٠) بحوث في الاقتصـــاد الاسرائيلي · مصدر سابق · ص ١١٥ ·
(٣١) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ملحق العددين ١ و ٢ ، ١٦ د٢ ١٩٧٦ ·
مقابلة موشي دايان مع هارتس · عـــدد ١٩ـ١٢ـ١٩٧٥ ·

رسالة من نيويورك

الحرب الأهلية اللبنانية في الاعلام الأميركي

اخذت الحرب الاهلية اللبنانية في وسائل الاعلام الاميركي حجما كبيرا لا يعكس في الحقيقة اهتمام الولايات المتحدة بلبنان ، بقدر ما يعكس مدى اهتمام واشنطن بما يجري على حدود اسرائيل الشمالية ، وبتأثير الحرب اللبنانية على المقاومة الفلسطينية من جهة ، وعلى مستقبل الحلول المطروحة للنزاع العربي ـ الاسرائيلي من جهة اخرى.

ومن المؤكد ان الاعلام الاميركي ما كان ليركز اهتمامه على هذه الحرب ، لو انها دارت في بلد صغير اخر ، محروم كلبنان من الثروات الاقتصادية الضخمة ، ولا يحتل موقعا استراتيجيا حساسا . ولكن قرب لبنان من اسرائيل ، ووجود المقاومة كجزء من طرفي النزاع اللبناني ، وامكانات تأثر امن اسرائيل بما يجري على الارض اللبنانية ، كانت من العوامل التي جعلت الصحافة والاذاعة ومحطات التلفزيون في الولايات المتحدة تتسابق على تقديم الاخبار والتحليلات ، واضعة نصب عينيها دائما وفي جميع مراحل الحرب مسألة « امن اسرائيل ».

ولقد تطورت محاور اهتمامات الاعلام الاميركي مع تطور الحرب . وكان التركيز في البداية يدور حول ماسي القتال وفظائعه . وعندما كانت المقاومة والحركة الوطنية تحققان الانتصارات ، وكان « جلد الحزن » الذي تسيطر عليه « القوات اللبنانية » يتقلص يوما بعد يوم ، وكانت « الجبهة اللبنانية » تتحدث عن التقسيم ، كان الاعلام الاميركي يؤكد ضرورة الحفاظ على وحدة الاراضي اللبنانية ، ويشدد على مسألة عدم

تدخـل قوى خارجية في النزاع ، ويبدي مخاوفه من سيطرة المقاومة الفلسطينية والقوات المشتركة علـى المناطـق الحدوديـة الجنوبيـة ، وما يمكن ان تؤدي اليه هذه السيطرة من تزايد للنشاط الفدائي ضد اسرائيل ، الامر الذي قد يدفـع الدولة الصهيونية الى القيام بعـمل عسكري واسـع او محـدود ، يمكن ان يتحـول الى حـرب تعـرقل مسيرة قطار الحـل السلمي ٠

وفي هذه الفترة ايضا دار حوار حول امكانية تأثير الاحداث على مركـز لبنـان الاقتصادي ٠ واحتمالات انتقـال الشركات الاجنبية العاملـة في لبنان الـى بلـدان مجاورة اوروبية او عربية ٠ ثم لم يلبث هـذا الحوار ان توقف بعـد ان انتقلت غالبيـة الشركات الاجنبية فعـلا الى اليونان وقبرص والاردنوالكويت ٠ وكان الاعـلام يلفـت الانظار الى سلامـة الرعايـا الاميركيين فـي لبنان ، ويؤكـد ضرورة اتخـاذ التدابير الكفيلة بحمايتهم او ترحيلهم عـند اللزوم بسفن الاسطول السادس ٠ ويؤكـد ان الولايات المتحـدة ليست طرفـا فـي النزاع ولا تؤيد استمـراره ، وانها تسعـى الى التهدئـة بكـل الوسائـل ٠

وعـندما دخلت القوات السورية وقـوات جيش التحـرير المعـركة في اواخـر سنـة ١٩٧٥ لمساعـدة المقاومـة و « القوات المشتركة » ، عمل الاعـلام ما في وسعـه للتهويـن من اهمية هـذا الامر ، والتأكيد عـلى انه لن يبدل موازين القوى عـلى حدود اسرائيل، ولن يهـدد امنها ، وان حجـم القوات محدود لا يتطلب مـن الادارة الاميركيـة تبديل موقفها ، والخـروج عـن دورهـا الظاهري « كمراقب للاحـداث »٠ وكانت الغاية مـن ذلك : تهدئة اسرائيل ومنعها من اتخاذ التدخـل السوري ذريعـة للقيـام بعـمل عسكري ، وافهـام اليمين اللبناني بأن مـا يجري على الارض اللبنانية لا يتطلب رد فعـل عسكريا اميركيا على غرار انزال ١٩٥٨ ، واقناع الرأي العام العـالمي والاميركـي بأن الولايـات المتحدة لم تتخـل عن دورها العالمـي ، ولم تترك اصدقاءهـا يجابهـون مصيرهم دون عون ، ولكنها ترى ان الضربات التي يتلقونهـا اصغـر مـن ان تدفعهـا الى التدخـل المباشر لحمايتهم ٠

وكان الاعـلام الاميركي مع المبادرات السلمية السورية المتكررة ٠ وعـندما قـام العميد الاول عزيـز الاحـدب بحركتـه في ١١ اذار ١٩٧٦ ، تجاهـل الاعلام هذه الحركة، او قلل من اهميتها على الاقل ، رغم تأييد الولايـات المتحـدة المعـروف للانقلابـات العسكرية في بلدان العـالم الثالث ٠ ويرجع ذلك باعتقادنـا الى سببين : اولهمـا ، اعتقاد واشنطن بـأن هـذا الانقلاب ، الذي لم تكن المقاومة ضده بعنف ، يمكن ان يشـوش على المبادرات السلمية السورية ولو لفترة قصيرة ٠ والسبب الثاني هـو ان الاجهـزة الاميركية ، الواعية لموازين القوى الحقيقية على ارض النزاع ، قـدرت بـأن القـوى المادية التي يمكن ان تدعـم حركة ١١ اذار اصغـر من ان تسمح للعـميد الاول الاحدب

بحسم الموقف لصالحه ٠

وظهرت بوادر التفاؤل على الاعلام الاميركي عندما تم انتخاب الرئيس الياس سركيس ، الذي وجد فيه الاميركيون شخصا معتدلا وغير متورط في النزاع ، ويكسب ثقة جميع الاطراف ، ويتمتع بصفات الرئيس المطلوب لمرحلة بناء لبنان الجديد ٠ ولكن استمرار تدهور الاوضاع بسبب امتناع الرئيس السابق سليمان فرنجية عن الاستقالة، وبدء اصطدام السوريين مع « القوات المشتركة » والمقاومة الفلسطينية في حزيران ١٩٧٦ ، جعل الاعلام الاميركي ينقل اهتماماته من تأييد الحل السياسي الى تأييد الحسم العسكري السوري ٠ مع التأكيد على ان الوجود السوري في لبنان لن يؤدي الى تهديد امن اسرائيل ٠ ولقد ظهرت هذه المسألة في وسائل الاعلام الاميركي ايضا عندما دخلت قوات الامن العربية الى لبنان ، وابدت اسرائيل مخاوفها من وجود قوات عربية راديكالية (جزائرية ، ليبية ، عراقية) كثيفة على حدودها الشمالية ٠

ولقد انشغل الاعلام خلال ترحيل الرعايا الاميركيين من لبنان بمسألتين هما : وصف عمليات الترحيل ، وابراز الاتصالات التي تمت بين اجهزة المقاومة وموظفي السفارة الاميركية في بيروت لتسهيل العمليات ، والشكر الذي قدمته الادارة الاميركية لمنظمة التحرير ، مع التأكيد على ان هذه الامور تتعلق بوضع خاص ، ولا تعني ان هناك تبدلا في موقف واشنطن من منظمة التحرير ، كما لا تعني ان هناك استعدادا اميركيا للاعتراف بهذه المنظمة ٠

وليس هناك موضوع استأثر باهتمام الاعلام الاميركي مثل التدابير الاسرائيلية على الحدود ٠ فمنذ تموز ١٩٧٦ ، نشر عدد كبير من المقالات حول المعونات الطبية والغذائية التي تقدمها اسرائيل الى سكان الجنوب ، وحول فرص العمل التي تقدمها لهم ٠ وقدمت محطات التلفزيون افلاما عديدة تظهر البون الشاسع بين شراسة المتحاربين العرب في لبنان و« انسانية » الاسرائيليين ٠ ويرى الكثير من المعلقين ان من شان هذه التطورات ان تؤدي الى مرحلة جديدة في الصراع العربي – الاسرائيلي ، وان تفتح المجال امام تطور العلاقات غير العدائية ، بعد مرحلة العلاقات العدائية الطويلة التي سادت بين اسرائيل وجيرانها ، وان هذا الامر من اهم اثار الحرب اللبنانية على مستقبل العلاقات العربية ـ الاسرائيلية ٠

وفي ايلول ١٩٧٦ ابرز الاعلام الاميركي العلاقة بين اسرائيل والقوى اليمينية ، وتحدث عن المساعدات العسكرية التي حصلت عليها « القوات اللبنانية » من اسرائيل مباشرة ، او عن طريق تجار الاسلحة الوسطاء ، الذين سهلوا لليمينيين شراء اسلحة كانت اسرائيل قد استولت عليها خلال حروبها السابقة مع العرب ٠ كما تحدث عن زيارات اسرائيلية لميناء جونيه ، والحصار البحري الاسرائيلي على موانيء المنطقة التي تسيطر عليها القوى الوطنية ، وتدريب عدد من اللبنانيين

في اسرائيل وتزويدهم بالاسلحة لاستخدامهم ضد المقاومة الفلسطينية ، والافادة منهم في تشكيل الحاجز الامني على حدود اسرائيل الشمالية · الامر الذي جعل اسرائيل طرفا مباشرا في الصراع الدائر على الاراضي اللبنانية ، وهذه هي المرة الاولى منذ سنة ١٩٧٠ (ايلول الاسود) التي تجمد فيها اسرائيل نفسها متضامنة مع العرب في بلد مجاور لها ·

ولقد رافق هذه المعلومات المفصلة عن العلاقات الاسرائيلية ـ الكفورية ، حديث مكرر عن اثر الحرب السلبي على منظمة التحرير الفلسطينية ، التي يدعي الاعلام الاميركي انها فقدت خلال الحرب الاهلية اللبنانية الكثير من قواها العسكرية ، وخسرت كثيرا من المكانة الدولية التي احتلتها في السنوات الاخيرة وخاصة بعد حرب تشرين ، « ووجدت املها بالعودة الى وطنها يتضاءل يوما بعد يوم »· ولم يشر الاعلام الاميركي الى المكاسب التي حققتها المقاومة والمتمثلة في : احباط مخطط تصفيتها على الطريقة الاردنية ، وتصلب عودها ، وتخلصها من الوصاية التي كان بعض الدول العربية يحاول فرضها عليها ·

ومع استمرار القتال وانعقاد مؤتمري القمة في الرياض والقاهرة ، لبدت اجهزة الاعلام الاميركي ارتياحها لنتائج المؤتمرين وقراراتهما ، واعتبرتها مدخلا معقولا لحل الازمة وتهدئة الوضع بضمانات الدول العربية عامة ، والدول العربية المعتدلة بشكل خاص ·

ويلاحظ ان الاعلام كان يؤكد خلال مختلف المراحل على نقاط اربع لم يتوقف عن ترادفها وهي :

١ ـ ان الولايات المتحدة لم تشارك في صنع الاحداث ، ولم تكن وراء التخطيط لها · مع ان كل الدلائل تشيرالى ان المخطط كان يستهدف ضرب المقاومة كمدخل لتطبيق السلام الاميركي في المنطقة ·

٢ ـ ان الخسارة الكبيرة التي اصابت لبنان تتطلب بذل الجهد لاعادة تعمير البلد المدمر · وان اميركا مستعدة للمشاركة في هذا الجهد عن طريق تقديم المساعدات المالية والطبية والغذائية و « الانسانية » بشكل عام ·

٣ ـ ان الصراع في لبنان يؤثر على حل ازمة الشرق الاوسط ، وان تهدئة الاوضاع ستؤدي بالضرورة الى تحريك الحل الشامل في المنطقة بدءا من مطلع العام ١٩٧٧ سواء تم هذا الحل في جنيف ام بأساليب اخرى ·

٤ ـ ان الولايات المتحدة ستعمل ما في وسعها لحل الازمة اللبنانية واضعة نصب عينيها ان اي حل ، مهما كان شكله ، ينبغي ان لا يؤثر على امن اسرائيل الذي يبقي قضية فوق كل القضايا ، واهم من جميع الاعتبارات ·

سلمى حدّاد

١٩٧٦/١١/١

تقـــريـــر :

سفينة التجسّس "ليبرتي" مثال للتواطؤ الاميركي - الاسرائيلي

تحتل★ العلاقة العضوية بين الامبريالية الاميركية وقاعدتها المتقدمة اسرائيل مكانـا هاما في السياسة الامنية الاسرائيليـة · وهي عامل لا يمكن تجاهله عنـد بحـث الصراعات بين الدول العربية والدولـة الصهيونية ، نظرا لانه يؤثر عـلى موازين القوى بشكل مباشر وغـير مباشر ، او عند التخطيط لاية مجابهة مع اسرائيـل ، لان تناسي عـامل الدعـم الاميركي عـنـد التخطيط لاي حرب عربية ـ اسرائيلـية ، وعدم الاستعداد لمجابهة الاحتمالات التي تنجم عـنه ، يعـني في النهاية عـدم فهـم حقيقة الصراع العربي ـ الاسرائيلي كجزء من صراع حركة التحرر الوطني العربيـة ضد الامبريالية العـالمية ، ويؤدي الـى تعرض المعسكر العربي لمفاجأت لم يحسب حسابها ·

ويأخذ الدعـم الاميركـي للعسكريـة الاسرائيلية اكثر من شكل ويتمثل بمـا تقدمه الادارة الاميركية من اسلحة وذخائر متطورة ، ومعـدات للحرب الالكبترونية ، ومعلومات مستقاة من مختلف المصـادر ويشتى الوسائل بما في ذلك الاقمـار الاصطناعية وسفن التجسس · وتقـدم حادثة سفينـة التجسس الاميركيـة «ليبرتي» مثالا للدعـم العسكري الاميركي غير المباشر ، ودليلا عـلى مدى تواطـوء واشنطن مع حكام اسرائيل ، واستعـداد الادارة الاميركيـة للتضحية بمصالـح الولايات المتحـدة وسمعتها من اجل ارضاء اسرائيل والصهيونية العالميـة ·

كانت « ليبرتي » واحـدة من عـدة سفن شحن اميركية بنيت في اواخـر الاربعينات · ونظرا لسرعتها القصـوى التي تبلغ ١٨ عقدة بحرية في الساعة ، فقد قامت البحرية الاميركية بتحويلهـا الى سفينة تجسس ، وزودتها بالهوائيات اللازمة وبجهاز تنصت الكتروني مـن طراز « بيغ اير » BIG EAR

وغدا مجال قوة مراقبتها وتنصتها على الاتصالات اللاسلكية يغطي دائرة نصف قطرها ٥٠٠ ميل · وكان طاقمها يضـم ١٥ ضابطا ، و٢٧٩ بحارا ، وثلاثـة مدنييـن فنيين من وزارة الدفـاع الاميركية · وكانت هذه السفينة تابعـة للاسطول الاميركي السادس · ولقـد دفعها قائد الاسطول الى شرقـي البحـر

★ المعلومات في هذا المقال مأخوذة عن مجلة PENTHOUSE تاريخ ايار ١٩٧٦ وحزيران ١٩٧٦ ·

الابيض المتوسط في ايار ١٩٦٧ ،عندما توتر الوضع في الشرق الاوسط وغـــدا اندلاع القتال بين العـرب واسرائيـــل محتملا ٠

وفي صباح الخامس من حزيـــران ١٩٦٧ ، كانت « ليبرتي » تقف في الميـاه الدولية مقابل ساحل سيناء ، وتباشـــر اعمالها لتنفيذ اربع مهمـات : ١) مراقبة تحركات الاسطول السوفياتـــي وانـــذار الاسطول السادس الاميركي في حالـــة تدخله لصالح مصر ، ٢) التشويش على الاتصالات اللاسلكية للقوات المصريـــة العاملة في سيناء ، ٣) مراقبـــة سير العمليات الحربية واعـلام واشنطن اذا تدهور الوضع ضد مصلحة اسرائيل، ٤) مراقبة مدى التزام اسرائيل بالخـطة العسكرية التي وضعتها الدولة الصهيونية بالاتفاق مع اميركا لتسديد ضربة سريعة ومحدودة للقوات المصرية (بصورة لا تؤدي الى استفزاز السوفيات ولا تمنحهم فرصـــة التدخل) بغية تدميـــر الجيش المصري في سيناء ، وهز النظام المصري بشكل يؤدي الى سقوط الرئيـــس عبـد الناصر الذي اصبح يشكل خطرا عـلـى المصالح الاميركية بسبب تحالفه مـــع السوفيات ، ومهاجمته المستمرة للانظمـة العربية التقليدية ، وتحريضه المستمـــر ضد النفوذ الامبريالي في الـــــدول العربية ودول العالم الثالث ، واتســـاع هيبته عربيا وعالميا ، وتوسيع نشـــاط عمل قواته المسلحة خارج مصر ٠ وتدعي المصادر الاميركية ان الخطة كانت تنـص على عـدم فتح جبهات اخـرى غـيـــر جبهة سيناء ، عـلى اعتبـار ان تسديـــد الضربة المحدودة الى مصر سيؤثر عـلى جميع الدول العربية الراديكالية الاخـرى (وخاصة سورية) ويجعـل بالامكـان اخضاعـها للسيطرة الاميركية ، كما ان من الضروري عـدم تسديد اية ضربـــة الى القوات الاردنية حرصاً على صداقة الملك حسين وعدم تعريض العلاقـــات الاردنية ـ الاميركية لنكسة خـطرة ٠

ولكن اسرائيل التي حصلت عـلـــى الضوء الاخضـــر من اميركا ، ارادت استغـلال الوضع وتسديد ضربة الـــى سورية والاردن ، تؤمن لها تطبيـــق سياستها التوسعـية ٠ ولتحقيق هـــذا الغرض كان عـليها دفع الاردن الـــى القيام بعمليات هجومية ، واقناع الزعماء العرب بان المعركة تسير في سيناء لصالح الجيش المصري ، ودفعهم الى اطـــلاق تصريحات هجومية تستغلها اسرائيـــل عالميا للظهور بمظهـر المعتدي عليـــه ، الامر الذي يبرر عملياتها الهجومية على الاردن وسورية ، ويظهرها وكأنها هجمـات معاكسة للدفاع عن النفس ٠

لهذا كله كانت محطة الخداع اللاسلكي الاسرائيلية RELAY STATION تلتقط الرسائل اللاسلكية المتبادلة بيـن الزعماء العرب وتعيد بثها بعد تحويرهـا (عملية طبخ الرسائـــل اللاسلكيـــة) حتى توحي للزعماء العرب بان العمليات العسكرية على جبهات القتال تجـــري لصالحهم ٠ ففي اليوم الاول للحـــرب (٦/٥) ارسلت القاهرة رسالة لاسلكيـــة الى عمان ودمشق تتحدث فيهـــا عـن خطورة الوضع عـلى الجبهة المصرية ، فاعترضت محطة الخداع اللاسلكـــي الاسرائيلية هذه الرسالة واعـادت بثـها

بعد ان صاغتها بكلمات اخرى تفيد بـان سلاح الجو الاسرائيلي قد دمر فـــوق القاهرة ، وان الطائرات التي يراهـــا الرادار الاردني ليست سوى طائـــرات مصرية تغـير على الاهداف الاسرائيلية، مع انها كانت في الحقيقـــة طائـــرات اسرائيلية عائدة الى قواعدها بعد ضرب المطارات المصرية · وفي يومـــي ٦و٧ حزيران (يونيو) قامـت محـطة الخـداع اللاسلكي بتضليل الملـــك الاردني بـــأن زوبته بمعلومات تؤكد ان الجيـــش المصري يقوم بهجوم معاكس في سينـاء وانه بحاجة الى مساعـدة من الجيـــش الاردني على شكل هجوم واسع ضـــد المواقع الاسرائيلية · الامر الذي دفـــع الملك الى تبني خـطة هجومية تستهـدف قطع اسرائيل الى جزئين منفصليـــن · وفي الوقت نفسه كانت محطة الخـداع اللاسلكي ترسل الى المصريين برقيـــات تؤكد ان الاردنيين يحققون نجاحـــات عسكرية كبيرة في المواقع الاسرائيلية · الامر الذي جعل المصريين يؤخـــرون سحب قواتهم الى الضفة الشرقية لقنـــاة السويس ·

ولكن « ليبرتـي » كانت تراقب المعـركة عن كثب ، وتحدد الموقف الصحيح بدقة وتكشف دور محطـــة الخداع اللاسلكي الاسرائيلية في تطور الاحداث بشكـــل يخالف الخطة ، وترسل تقاريرها تباعـا الى لجنة الامن القومي الاميركية · وازاء هذا التطور الغريب لسير العمليـــات العسكرية ، قام « اوجين روستـوف » من الادارة الاميركية باستدعاء السفيـــر الاسرائيلي في واشنطن « ابراهـــام هارمان » في مساء ٦/٧ وطلب منـــه ان يخبر حكومته بضرورة البقاء ضمن اطار الخطة ، وخاصة بالنسبة الى الاردن · وعندما ادعى « هارمان » ان اسرائيـل تقوم بصد الهجوم العربي عـليها ، واكد ذلك بما تقوله اجهزة الاعـلام العربية ، افهمه « روستوف » بان هـذا ناجم عـن خطة الخداع اللاسلكي الاسرائيلية ،دون ان يعلمه بان « ليبرتي » هي التـــي كشفت ذلك · وبعد ٤ ساعـات مـــن هذه المقابلة ، صدرت الاوامر الـى الطيران الاسرائيلي بوجود سفينـــة تجسس اميركية تعمل في المياه الدوليـة مقابل سيناء ، وضرورة مراقبتهـا · ولقد وجد الاسرائيليون ان تدميـــر «ليبرتي» امر ضروري وحيوي جـدا لان استمرار وجودها في مياه البحر الابيض المتوسط سوف يفسد عـليهم مخططهـم ، ويكشف مدى تجاوزهم لاغراض الحـرب المحدودة المتفق عـليها سلفا · فاعـطت القيادة الاسرائيلية الاوامر بتدميـــر السفينة بشكل يدفع الاميركيين الـــى اتهام المصريين او السوفيـات ، ويجعـل الموقف الاميركي ـ الاسرائيلي اشـــد تماسكا ·

وفي الساعة ١٤،١٠ من يوم ٦/٨/ ١٩٦٧ قامت ٣ طائرات ميراج اسرائيلية بمهاجمة السفينة « ليبرتي » · وطبقـت خلال ذلك اسـلوب الهجمات المتقاطـعة CRISS-CROSS ATTACKS التي تدوم الواحدة منها ٥ـ٦ دقائق ، فـدب الذعر في قلوب البحارة الذين فوجئـوا بهذا الهجوم ، واصيبت السفينة اصابات مباشرة ، فتدمر مركز مراقبتها ،وتحطمت ميمنتها ، واصيب بعض ضباطهـــا وبحارتها ·

وعندما تعذر على قائد السفينة الكوماندر « ماك غونغل » تحديد هوية الطائرات المغيرة ، طلب من الملازم مورييس بنت » ان ينقل على الفور تقريرا الى رئيس العمليات البحرية الاميركية يعلمه فيه ان السفينة تتعرض لهجوم من طائرات مجهولة الهوية ، ويطلب منه المساعدة الفورية • وبعد أن رأى تصميم الطائرات المغيرة على تدمير السفينة ، وخشية أن لا يصل التقرير اللاسلكي الى رئيس العمليات البحرية الاميركية بسبب الدمار الكامل الذي حل بهوائيات السفينة للاتصالات اللاسلكية ، قرر الكوماندر أن يرسل رسالة استغاثة دولية تبث على جميع الاقنية طالبا المساعدة الفورية •

وما ان توقفت الهجمة الجوية ، حتى ظهرت في الساعة ١٤،٢٤ ثلاثة زوارق طوربيد تتجه نحو الجانب الايمن للسفينة بسرعة ٢٧ـ٣٠ عقدة بحرية • وامام هذا الخطر امر «ماك‌غونغل»برفع الراية‌الرسمية للسفينة بعد ان سقط العلم الاميركي عن ظهرها اثر الغارة الجوية ، وكان طول الراية ١٣ قدما وعرضها ٧ اقدام ، وهي اكبر راية موجودة ، لعلها توضع للمهاجمين هوية السفينة الاميركية وتدرأ بالتالي خطر الهجوم بالطوربيدات ، كما حاول ارسال اشارات ضوئية من مصباح الديس ، حيث يمكن مشاهدته عن بعد ٢٠٠٠ متر ، حتى يعلن بواسطته جنسية السفينة ، علما بأن جهاز بث الاشارات الضوئية على « ليبرتي » كان قد دمر اثناء الغارة الجوية • وكانت وسائط دفاع « ليبرتي » عبارة عن مدفعي رشاش عيار (٥٠) من نوع براوننغ ، واحد في مقدمة السفينة والثاني في مؤخرتها ، ففتح هذان المدفعان النار على الزوارق المندفعة باتجاه السفينة ، لكن سرعان ما امطرت الزوارق الاسرائيلية « ليبرتي » بوابل من النيران ، فقتلت سدنة المدفعين وبعض البحارة •

وفي الساعة ١٤ر٣٥ اصاب السفينة طوربيد في جانبها الايمن وتحت خط عومها ببضعة أمتار ، فاهتزت من شدة الانفجار الذي فتح فيها فجوة بلغ اقصى عرض فيها حوالي ٣٩ قدما • وتسبب هذا الطوربيد بمقتل ٢٥ شخصا كانوا في غرفة الاتصالات اللاسلكية الواقعة تحت ظهر السفينة ، وكان بين القتلى « الميجر» وهو الشخص المسؤول عن تحليل الشيفره التي كانت تلتقطها السفينة ثم تبثها للقيادة الاميركية ، وعن المراقبة الرادارية ، وعن كل ما يمت بصلة الى مهمة « ليبرتي » التجسسية • كما قتل ايضا الاخصائي في الاتصالات اللاسلكية• وتوقفت « ليبرتي » اثر هذه الضربة عاجزة عن اية حركة ، وكان ذلك في الساعة ١٤ر٣٦ • عندها اوقفت الزوارق الاسرائيلية الهجوم ، ووقفت في وضع المراقبة على بعد اقل من نصف ميل من السفينة •

وبعد نصف ساعة من هذا الهجوم البحري على السفينة ، حلقت فوقها طائرتا هليوكوبتر اسرائيليتان ، وصدر عن مكبر الصوت في احداها نداء يقول ان معهما اسعافات طبية مع مسعفين والملحق العسكري من سفارة الولايات المتحدة الاميركية في تل ابيب ، لكن «ماك غونغل » رفض قبول المساعدة ،فانصرفت الطائرتان •

وبدأ فريق اصلاح الاضرار في السفينة يعمل في سباق مع الزمن ،واخذ يسد الفجوات في الهيكل ، وقام المهندسون باصلاح المحركات · وفي الساعة ١٥،١٩ نجح المهندسون في تشغيل المحركات من جديد ، ولكنهم عجزوا عن اصلاح جهاز التوجيه · واصر الكوماندر على السير بالسفينة نحو اي مرفأ صديق · فوضع بعض البحارة على الدفة خلف غرفة التوجيه، واخذ يصدر اليهم الاوامر بالهاتف ليتمكنوا من توجيه السفينة يدويا · وكان « ماك غونغل » يعمل رغم جرحه البليغ، ويراقب الاثر الذي تتركه السفينة على سطح الماء ليتاكد من خط العوم ، ويتابع التقدم مبتعدا عن القطع البحرية الاسرائيلية ·

وشعرت القيادة الاسرائيلية بالقلق ، لان « ليبرتي » لم تغرق رغم اصابتها بشكل مباشر · الامر الذي قد يؤدي الى كشف هوية المهاجمين · لذا قررت اغراقها باية وسيلة ، فارسلت في الساعة ١٦ر٦٥ طائرتي ميراج بهدف الانتهاء كليا من « ليبرتي » ، وما ان وصلت المقاتلتان الاسرائيليتان بالقرب من السفينة حتى انسحبتا خوفا من الصدام مع المقاتلات النفاثة الاميركية التي انطلقت من حاملتي الطائرات الاميركيتين « ساراتوغا » و « اميركا » بعد وصول نداء الاستغاثة اليهما · وكانت الحاملتان على بعد ٦٠٠ ميل شمال غربي مكان الحادث · وحوالي الساعة ١٨ر٤٥ حامت طائرة هليوكوبتر اسرائيلية فوق السفينة وحاول احد الاشخاص ان ينزل الى ظهر السفينة بواسطة سلم ، ولكن «ماك غونغل » منعه من ذلك · وتكرر المنع عندما عادت الطائرة بعد ١٠ دقائق تقريبا ·

وفي ٦/١٤ وصلت « ليبرتي» الى ميناء «فاليتا » في جزيرة « مالطة » تواكبها المدمرة « يو·س·س· دافيز » وقاطرة بحرية من الاسطول السادس ، وتحرسها دوريات الطائرات الاميركية المنطلقة من حاملتي الطائرات · وقطعت الرحلة بقوة محركاتها المصلحة (اصلحت السفينة بعد ذلك جزئيا وعادت الى الولايات المتحدة في اواسط تموز ١٩٦٧ · ثم شطبت من الخدمة الفعلية لتعذر اصلاحها ، وبيعت في العام ١٩٧٤ كسفينة مستهلكة) ·

ولم تشرح قيادة الاركان البحرية الاميركية اسباب هذا الهجوم على «ليبرتي» ، والذي تسبب بمقتل ٣٤ اميركيا وجرح ١٦٤ من بينهم قائد السفينة ·وادعى الاسرائيليون ان الهجوم كان نتيجة الخطأ في تحديد هوية السفينة· وقبلت الادارة الاميركية علنا هذا الادعاء ، رغم ان العلم الاميركي البالغ طوله ٨ اقدام وعرضه ٥ اقدام كان يرفرف فوق ظهر السفينة في وضح النهار ، كما ان اسم السفينة كان مطبوعا بشكل كبير وجلي على مؤخرتها ، بالاضافة الى ان كلمات « بحرية الولايات المتحدة الاميركية » كانت مكتوبة بحروف كبيرة ظاهرة للعيان على جانبي السفينة · وكان بوسع طائرات الاستطلاع الاسرائيلية من طراز «ميستير» التي تحمل الات تصوير متطورة، كشف هوية اية سفينة بكل سهولة وعلى ارتفاع يزيد عن ثلاثة اميال ، وهي المسافة التي كانت تفصل هذه الطائرات عن « ليبرتي» ·

ولم تجد الحكومة الاميركية خيارا سوى مساعدة الاسرائيليين على لفلفة الحادث باكمله ، وقد تمثل تواطؤ الحكومة الاميركية معحكومة اسرائيل بالمجهودالكبير الذي قامت به لتحيط كل محاولة تهدف الى كشف خلفيات الحادث واسبابه ، ولتعرقل كل الدعاوي القانونية التي رفعها ذوو الضحايا على حكومة الكيان الصهيوني · ووجهت الادارة الاميركية باتجاه السوفيات الغضب الذي سيطر على اعضاء لجنة العلاقات الخارجيةالاميركية عندما وصلهم خبر الهجوم (مجهول الهوية) على « ليبرتي » · فقال وزير الخارجية الاميركية انذاك « دين راسك » : «انهم الروس » ، بينما قال رئيس لجنة العلاقات الخارجية الاميركية انذاك « وليام فولبرايت » : انهم (اي الروس) صعدوا الحرب ويريدون تغيير مسارها » · وحتى بعد انكشاف الدور الاسرائيلي ، فقد فضلت الادارة الاميركية التعتيم على الموضوع ، حتى لا تستثير الرأي العام الاميركي ضدها ، وهي المتورطة في دعم الدولة الصهيونية الى ابعد مدى · واكتفت بالاشادة ببطولة قائد وبحارة « ليبرتي » ومنحهم الاوسمة والميداليات في احتفالات رسمية اغفل في الكلمات التي القيتخلالها ذكر هوية المعتدين · واكتفى بالحديث عن هجوم قامت به « طائرات نفاثة وزوارق طوربيد غريبة » ·

وفي ١١ حزيران من العام ١٩٦٧ ،قال رئيس لجنة التحقيق الاميركية في حادثة الهجوم على « ليبرتي » الادميرال « ا· ي· كيد· » ، عندما صعد على ظهر السفينة المهشمة التي كانت راسية في ميناء « فاليتا » ان نجاتها كانت اشبه بمعجزة وان مهمته ليست لكشف الاسباب التي ادت لهذا الخطأ في الهجوم ، بل ليسجل كيف استطاع قائد السفينة وبحارتها الافلات من براثن الموت المحتم · ويقول الموظف السابق في الاستخبارات الاميركية « باتريك ماك غارفي » الذي كان ينسق تقارير الاستخبارات لقيادة الاركانالمشتركة الاميركية عند اندلاع الحرب العربية ـ الاسرائيلية الثالثة، انه صدر امر للطيران الاميركي بضرب قاعدة زوارق الطوربيد الاسرائيلية في حيفا ، لكنسرعان ماالغى البيت الابيض هذا الامر ·

وتكملة لخطة طمس كل ما يتعلق بقضية « ليبرتي » وطمس كل ما يمكن ان يؤدي الى كشف الدور المتواطىء للادارة الاميركية ، فان الحكومة الاميركية رفضت ان تعطي تفسيرا معقولا لسبب ضياعثلاث رسائل انذار موجهة من قيادة الاركان الاميركية المشتركة الى « ليبرتي » تخطرها فيها بخطورة موقفها ، وتطلب منها الانسحاب الفوري والالتجاء الى الاسطول السادس الاميركي ، ولماذا لم تتدخل ادارة الرئيس الاميركي انذاك « ليندون جونسون » وعلى اعلى المستويات مع الحكومة الاسرائيلية للحؤول دون مهاجمة السفينة ، بعد معرفة الادارة الاميركية ان الاسرائيليين بصدد القيام بعمل عسكري عدائي ضد « ليبرتي » ·

وكانت رسالة الانذار الاولى تحمل طابع الاولوية القصوى · وقد بثتلاسلكيا من خلال محطة لقط وارسال تابعة للمخابرات المركزية الاميركية الموجودةفي

« اسمرة » في « اثيوبيا » ، الا ان هـــذه الرسالة لم تصل « ليبرتي » في الساعـــة التاسعة من صباح يوم ٨ حزيران ١٩٦٧ ، كما كان مقررا لهـــا ، وضلت طريقها ، والتقطتها محطة اللقط والارسال الاميركية الموجودة فيخليج «سوبيك» في «الفيليبين» وانتهت بعد ساعات في دائرة الامن القومي الاميركي في « فورت مياد »FORT MEADE

وفي الساعة ١١ر١٧ من اليوم نفسه أمر قائد الاسطول السادس الاميركي سفينـة القيادة « ليتل روك »ان ترسل رسالة ثانية اتية من قيادة الاركان الاميركية المشتركة الى « ليبرتي » تعلم قائدها بالهجـــوم الاسرائيلي المرتقب على سفينته ، وارسلت هذه الرسالة الى « اسمرة » لترسل منها الى « ليبرتي » ، ولكن هذه الرسالة ضلت طريقها ايضا ، والتقطتها محطة اللقـــط والارسال التابعة لوكالة المخابـــــرات المركزية في « الرباط » ، وانتهت ايضا في ادراج « فورت مياد » . اما الرسالـــة الثالثة فقد ارسلت في الساعـــة ١٤،١٠ وقبل ثوان من الهجوم الاسرائيلي عـــن طريق محطـــة الارسال الاميركيـــة في « نابولي » ، فضلت طريقها والتقطتهـــا محطة خليج « سوبيك في « الفيليبيـــن » والرسالة الوحيدة التي التقطت كانت فـــي الحقيقة رسالة الاستغاثة الدولية التـــي بثتها « ليبرتي » على جميع الاقنية ،والتي وصلت بعد فوات الاوان الى الاسطـــول السادس الاميركي .

وبفضل هذه الرسالة تم انقاذ «ليبرتي» من هلاك محتم ، كما تم كشف المعتدين ، ولم يعد بالامكان القاء تبعة الحادث على عاتق القاهرة او موسكو . وكان مـــن الممكن ان يؤدي هذا الكشف الـــى اتخاذ تدابير اميركية شديدة ضد دولة الكيـــان الصهيوني ، ولكـــن التواطؤ الاميركي – الاسرائيلي في حرب ١٩٦٧ كان في نظـر الادارة الاميركية ، اهـــم من ارواح الاميركيين واغلى من ممتلكات الحكومـــة الاميركية وسمعتها .

يوسف خضر

الحزب الشيوعي الفلسطيني وهبة البراق

شريف ماهر

ان ما يميز معظم الدراسات والابحاث التي تطرقت لتاريخ الحزب الشيوعي في فلسطين انها قد صدرت اما عن اعداء طبقيين للحزب او عن عناصر تنكرت لماضيه الثوري وارتدت عليه ، فكان هدفها بالتالي تشويه نضالات ومواقف الحزب وتلطيخ سمعة مئاتمن الشيوعيين العرب واليهود الذين قدموا حياتهم في النضالات الطبقية والمعادية للامبريالية والصهيونية ، في سبيل التحرر القومي والاجتماعي ٠

ومع ان عددا كبيرا من هذه الدراسات قد كتب من وجهة نظر صهيونية معلنة ، الا ان بعض الباحثين العرب الذين تطرقوا لهذا الموضوع ، قد تأثروا بوجهات نظر كاتبيها وتبنوا عددا من اطروحاتهم ، مدفوعين في ذلك بدوافع طبقية معادية للحزب ، او لاتباع السهولة في البحث وعدم التدقيق الجدي بالمصادر التي تم الاعتماد عليها (١) ٠

لقد كان موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من هبة البراق في العام ١٩٢٩ ، مناسبة فضلى لتشويه مواقف الحزب ، خاصة وان حوادث هذه الهبة قد جرت في ظروف خاصة معقدة ، تداخل فيها العامل الديني بالعوامل القومية والاجتماعية ، في وقت كان الحزب فيه يعاني من ازمة داخلية حادة نتيجة الصراع الدائر بين التيار الثوري من جهة والتيار اليميني الانهزامي من جهة اخرى ، وكانت قيادته آنذاك لا تزال مقتصرة على العناصر اليهودية (٢) ٠

يستعرض « جوزيف برغر » (٣) في مقاله « القطيعة مع الشيوعيين » (٤) موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من حوادث اب في العام١٩٢٩ فيذكر : «لقد احدثت اصطدامات يوم الجمعة في ٢٣ اب بلبلة شديدة في صفوف الحزب ، فالحوادث بدأت تتحول الى مذابح عنصرية ضد اليهود ٠٠٠ حينئذ قررت قيادة الحزب أن يلتحق أعضاء الحزب وأعضاء الكتلة العمالية بصفوف منظمة الدفاع الذاتي تحت قيادة الهاجانا ، وذلك للمساهمة

بالدفاع عن الاحياء اليهودية » ، ويستطرد « ج · برغر » بان هذا القرار « الذي فرضته الاحداث كان طبيعيا جدا ، حيث حاز على اجماع اعضاء سكرتارية اللجنة المركزيـــة للحزب ، وعلى موافقة مبعوث الاممية الشيوعية الذي كان يزور فلسطين آنذاك » ·(٥)

ان هدف هذا البحث هو دحض وتعرية هذه الاكاذيب التي يختلقها « جوزيف برغر » حول موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من حوادث اب في العام ١٩٢٩ ، واظهار حقيقة موقف الحزب من هذه الحوادث ، هذا الموقف الذي عبر عنه الدكتور « اميل توما » بقوله : « ان حوادث اب لم تكن مجرد اصطدامات بين عرب ويهود ، بل كانت جوهريـــا هبـــة جماهيرية في وجه الادارة البريطانية الامبريالية (···) وهذا ما جعل الشيوعيين اليهود والعرب يقومون الحوادث بغض النظر عن سلبية بعض مظاهرها والمآسي التي سببتها . انتفاضة قومية معادية للامبريالية والصهيونية في جوهرها ·· وهذا التقويم انزل عليهم غضب القيادةالصهيونية وحقدها فاتهمتهم « بالعمالة » للاممية الثالثة وموسكو » · (٦)

ان دحض افتراءات واكاذيب « ج · برغر » ، حول موقف مبعوث الاممية الشيوعية من حوادث اب الدامية في فلسطين ، يمكن ان يتم بسهولة من خلال مراجعة المقال الذي كتبه هذا المبعوث بعد عودته الى موسكو مباشرة ، والذي يعبر فيه عن حقيقة موقف قيادة الاممية من حوادث فلسطين آنذاك · تحت عنوان « لفتته اكثر الى حوادث فلسطيـــن والبلدان العربية » (٧) كتب « شميرال » : « لقد كانت الايام الدامية في القدس بمثابـــة الانفجار الاول للطاقات الثورية الكبرى المعادية للامبريالية والمتراكمة في نفوس جماهير الفلاحين والبدو ·· ولم تكن هذه الحوادث الدامية الا بمثابة نقطة الانطلاق لحركة كبرى في (هذه) الاراضي ذات الاهمية الكبرى (ويقصد فلسطين والبلاد العربية م · ش)· لهذا يجب على الطبقة العاملة العالمية ومنظماتها (احزابها ، صحفها ، النجدة الحمراء العالمية، وبشكل خاص الحزب الشيوعي الانكليزي) ان تتابع هذه الحوادث وان تدعم التطور اللاحق لهذه الحركة ··

ان من واجب حركة القوى المتحدة للفلاحين والبدو العرب ان تتطور في اتجـــاه نضالي ثوري حقيقي ، ضد الامبريالية ومن اجل الثورة الزراعية · ويجب السعي لعدم تكرار المحاولة التي جربها الرجعيون الانكليز والصهاينة والعرب في الايام الاولى مـــن الحوادث التي جرت في القدس ،بحرف الهيجان الثوري عن هدفه ، باقتعال معارك دينية حمقاء ·· وليس للعمال اليهود (جاءت بالنص العرب ، وهذا يعود لخطأ مطبعي حسـب اعتقادنا · م · ش) اي مصلحة بان تتعارض مصالحهم مع مصالح الغالبية من الجماهير الفلاحية العربية ، فلقد خدعوا هم ايضا بنفاق الامبريالية الانكليزية ، واستغلوا وعوملوا مثلهم معاملة قاسية ··· وسيتحول نضالهم (اي الفلاحين العرب م · ش) الى ثورة معادية للامبريالية ··· وامام هذا التوجه للاحداث وبسبب الاهمية الخاصة للاراضي العربية ، يجب ان يتزايد الانتباه الاممي لتطور هذه الاحداث ، ويجب ان يتضاعف دعـــم النضال التحرري الكبير للبلدان العربية ، وذلك بكافة وسائل التضامن الاممي (وليس بالتضامن السياسي وحده) »

* *

لقد اعتمدنا في انجاز هذا البحث على مادة وثائقية حية وموثوق بها تاريخيا ، هي مجموعة المقالات التي ظهرت على صفحات مجلة « المراسلات الصحفية الدولية » ، (٨) وتعرضت لاوضاع الحزب الشيوعي ولظروف النضال القومي والاجتماعي في فلسطين ، خلال الفترة التاريخية التي نحن بصدد دراستها · ويمكننا اعتبار هذه المقالات بمثابة تقارير دورية تعكس مواقف قيادة الحزب من تطور الاحداث المحلية والعالمية · (٩)

لقد كان الحزب الشيوعي في فلسطين فرعا وطنيا من فروع الاممية الشيوعية ، يناضل في سبيل تطبيق استراتيجية وتكتيك الحركة الشيوعية العالمية على الظروف الخاصة السائدة في فلسطين · ولهذا فان تحليل اي موقف من مواقف الحزب الشيوعي الفلسطيني تحليلا موضوعيا ، لا يمكن ان يتم بمعزل عن توجهات الاممية الشيوعية وعن الظروف التي كانت تسود في فلسطين خلال الفترة التاريخية التي نحن بصددها ·

لقد كان موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من هبة البراق محكوما بثلاثة عوامل رئيسية ، لا بد من التطرق اليها قبل استعراض موقف الحزب بحد ذاته من الأحداث الدامية في العام ١٩٢٩ ، وهذه العوامل هي :

١ ـ المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ·

٢ ـ خصوصيات الاوضاع في فلسطين قبل اندلاع الحوادث ·

٣ ـ الاوضاع الذاتية للحزب خلال تلك الفترة ·

★ ★

١ ـ المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية · (١٠)

انعقد المؤتمر العالمي السادس في موسكو خلال الفترة الواقعة بين ١٧ تموز و ١ ايلول العام ١٩٢٨ · (١١) وقد انعقد هذا المؤتمر في ظروف خاصة تميزت بتعزيز عملية البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي ، بعد ان تقرر زيادة وتيرة التصنيع الثقيل وتجميع الاراضي في الريف · وفي الوقت الذي كانت فيه تناقضات الرأسمالية تتفاقم نتيجة قانون التطور المتفاوت في عصر الامبريالية وتتزايد اخطار الحروب الامبريالية والتهديدات ضد الدولة الاشتراكية ، كانت الحركة العمالية الثورية تواصل نضالها في سبيل تعزيز مواقعها ، وتخوض صراعا حاميا ضد السياسة الاصلاحية للقيادات الاشتراكية ـ الديمقراطية العمالية ، التي كانت تقف في وجه كل تحرك عمالي جماهيري وتجهض كل المحاولات الرامية الى وضع حد لانقسام الحركة العمالية العالمية · ولقد كانت انتفاضة « كانتون » في كانون اول العام ١٩٢٧ ، التي قامت بها البروليتاريا لاقامة النظام السوفياتي في الصين ، الاشارة لبدء مرحلة نهوض ثوري جديد في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة ·

في مثل هذه الظروف ، توصل بعض الشيوعيين الى الاستنتاج بان مرحلة الاستقرار الجزئي للرأسمالية قد شارفت على نهايتها ، وأن انفجار أزمة النظام الرأسمالي قد باتت وشيكة ، وان الظروف قد نضجت بالتالي لتقدم العملية الثورية العالمية • وقد اعتقد هؤلاء الثوريين بانه يجب تصعيد النضال ليس فقط ضد الاحزاب البورجوازية وانما ايضا ضد الاشتراكية الديمقراطية في البلدان الرأسمالية وضد البورجوازية الوطنية في المستعمرات وشبه المستعمرات • وهكذا بدأ يتبلور داخل الاممية الشيوعية تكتيك جديد ، اطلق عليه رسميا فيما بعد اسم تكتيك « طبقة ضد طبقة » وقد انعكس هذا الاتجاه في بعض التعديلات التي اجريت على سياسة الاممية وتوجهاتها ، خلال المؤتمر العالمي السادس ، حيث تقلص شعار الجبهة العمالية المتحدة ليصبح « وسيلة لفضح وعزل القيادات الاصلاحية » في الفترات التي يتعثر فيها المد الثوري ، وطالب المؤتمر الاحزاب الشيوعية بالنضال في سبيل اقامة الجبهة المتحدة من القاعدة ، وفي سبيل اقامة ديكتاتورية البروليتاريا العالمية •

اعلن المؤتمر ان الاتجاه العام لسياسة البورجوازية العالمية يعد انتهاء مرحلة الاستقرار الجزئي للرأسمالية هو التحضير لحرب امبريالية ضد الاتحاد السوفياتي ، وطالب الاحزاب الشيوعية بتصعيد نضالاتها ضد خطر الحرب ومن اجل حماية الاتحاد السوفياتي ، وضد تدخل الامبريالية في الصين ، والدفاع عن الثورة الصينية وعن الانتفاضات المعادية للامبريالية في المستعمرات واشباه المستعمرات •

اشار المؤتمر الى ضرورة النضال ضد خطر الانحرافات الانتهازية في صفوف الاممية الشيوعية وحدد طبيعة هذه الانحرافات بانها اساسا (انحرافات يمينية مرتبطة بمرحلة الاستقرار الجزئي للرأسمالية ويتعاظم تأثير الاشتراكية الديمقراطية » ، وقد نوه المؤتمر الى الخطورة الكبرى لمثل هذه الانحرافات داخل الحركة الشيوعية العالمية ولضرورة محاربتها بشدة •

اعار المؤتمر السادس انتباها خاصا لنضال الحركة المعادية للامبريالية في المستعمرات واشباه المستعمرات • وقد كان لتصاعد نضال البروليتاريا الثورية الصينية، وارتماء الفئات العليا من الكومينتانغ في أحضان الامبريالية ، اثر كبير على المقررات التي صاغها المؤتمر فيما يتعلق بنضال الحركة الثورية التحررية في المستعمرات ودور البورجوازية الوطنية داخل هذه الحركة • ومع ان الاممية الشيوعية كانت قد انتقدت الاتجاهات الانقلابية والانعزاليةداخل الحزب الشيوعي الصيني ومع ان مقررات المؤتمر السادس قد فصلت بين معسكر القومية الاصلاحية البورجوازية وبين المعسكر الاقطاعي ـ الامبريالي ، الا ان تقييم المؤتمر العام لدور البورجوازية الوطنية قد طبع بطابع انعزالي ، حيث نصت احدى مقرراته مثلا على ان « البورجوازية الوطنية لا تمثل قوة مناهضة للامبريالية » وانه يجب « رفض كل تحالف بين الحزب الشيوعي وبين المعارضة القومية الاصلاحية » ، الا اذا كانت تحالفات مؤقتة لا تعيق التنظيم الثوري المستقل للعمال والفلاحين • (١٢)

اشار المؤتمر الى الدور المتزايد للطبقة العاملة داخل الحركة التحررية فيالمستعمرات واشباه المستعمرات وذلك على الرغم من الصعوبات الموضوعية العديدة التي تعترض

نضالها (ارتباطها بالريف . عدم ثبات قواها ، الاممية ، تأثير الافكار الدينيـة ...) ·
واعلنت مقررات المؤتمر بان الطبقة العاملة في المستعمرات قد دخلت بعد المؤتمر الخامس للاممية في مرحلة نضالية جديدة ، تتميز اساسا بظهورها على ساحة الصراع السياسي كقوة طبقية مستقلة تناضل في سبيل مصالحها الخاصة وتعارض البورجوازية الوطنية في النضال من اجل فرض هيمنتها على قيادة الثورة الوطنية · وطالبت مقررات المؤتمر الاحزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة بالعمل على تصعيد النضال في سبيل الثورة الزراعية ، وضد التأثيرات الرجعية لرجال الدين داخل صفوف الفلاحين ، وجاء في بعض التوصيات أن نوع الثورة الذي ينطبق على حالة المشرق يتطلب مـن الحزب الشيوعي ، وكمهمة رئيسية ، العمل على تأليف منظمات مستقلة للعمال والفلاحين والخروج عن تأثير البورجوازية الوطنية ·

أقر المؤتمر العالمي السادس في نهاية أعماله « برنامج الاممية الشيوعية »، الذي حدد استراتيجية وتكتيك الحركة الشيوعية العالمية خلال الفترة التاريخية التـي ستعقب مؤتمرها ·

وقد كان للمؤتمر العالمي السادس ولمقرراته ولبرنامج الاممية الصادر عنه ، انعكاس مباشر على سياسة الاحزاب الشيوعية في الشرق العربي ، ومنها الحزب الشيوعـي الفلسطيني ، وهذا ما سنلمسه لاحقـا من خلال موقف الحزب من هبة البراق ·

٢ ـ خصوصيات الاوضاع في فلسطين قبل اندلاع الحوادث · (١٣)

يقول الدكتور « اميل توما » : « لقد التقت على التربة الفلسطينية ثـلاث قـوى تفاعلت فيما بينها ، كل بقدر طاقاتها ، وخلقت بصراعاتها القضية الفلسطينية :

ـ الامبريالية البريطانية ·

ـ الحركة الصهيونية ·

ـ الحركة القومية العربية » ·

ان التعرف على خصوصيات الاوضاع السائدة في فلسطين قبل اندلاع الحـوادث يتطلب ضرورة التعرف على الملامح الرئيسية لكل قوة من هذه القوى الثلاث التي كانت تتفاعل وتتصارع على الارض الفلسطينية ·

ولنبدأ **بالامبريالية البريطانية** : لقد كان القضاء على الانتفاضة السورية في العام ١٩٢٧ ، الذي ترافق مع هزيمة الثورة الصينية حافزا دفع الامبرياليتيـن الفرنسيـة والانكليزية لتشديد سياستيهما العدوانيتين في الشرق الاوسط · وقد تابعت الحكومـة العمالية الانكليزية التي استلمت السلطة في بداية العام ١٩٢٩ برئاسة « رمزي ماكدونالد» نفس السياسة الامبريالية العدوانية التي كانت تنتهجها حكومة المحافظيـن في البلدان

المستعمرة او التابعة لنظام الانتداب · وفي فلسطين ، كانت سياسة حكومة حزب العمال اكثر ضراوة من سياسة المحافظين · فبعد ان انتقد نواب حزب العمال ، خلال مناقشات البرلمان حول قضية المستعمرات ، ادارة فلسطين لانها لم تتحرك بصورة جذرية ضد السكان العرب المحليين ، ولم تستخدم بشكل كاف كل السلطات التي يمنحها لها نظام الانتداب ، قررت الحكومة البريطانية تشديد سياستها الامبريالية وزيادة وزن الموظفين الانكليز في اجهزة ادارة فلسطين · وفي سبيل تدعيم مواقعها على الضفة الاخرى من قناة السويس ـ فلسطين ـ خاصة بعد توقيع معاهدة هندرسون مع الحكومة المصرية ، وبسبب حاجتها الى مبرر معقول لزيادة تواجدها العسكري في فلسطين ، لتبرير النفقات الهائلة التي سيكلفها ذلك امام الجماهير العمالية في انكلترا ، سعت الحكومة العمالية كل جهدها لتأجيج التناحر الديني والعنصري بين السكان العرب واليهود في فلسطين · « فحماية اليهود » من المذابح يمكن ان يكون المبرر المعقول لتقوية التواجد العسكري في فلسطين في الوقت الذي بدأت فيه الامبريالية البريطانية تحس بعدم ثبات مواقعها في مصر ·

من جهة اخرى ، كان تململ البورجوازية الصهيونية والحاحها على بريطانيا لتنفيذ التزاماتها (وعد بلفور) ، وبدء تقاربها مع الرأسمالية الاميركية ، الحافز الذي دفع الحكومة العمالية لتسهيل عملية اقامة « الوطن القومي اليهودي » في فلسطين ·

ـ **الحركة الصهيونية** : في منتصف العام ١٩٢٨ توقفت حركة الانحدار في الهجرة اليهودية الى فلسطين ، التي كانت قد رافقت فترة « الهدوء » التي امتدت بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ ، والتي تميزت بهبوط حدة الخوف العربي من « الوطن القومي اليهودي » نتيجة الازمة التي انتابته · وقد ترافق تزايد الهجرة اليهودية الى فلسطين (١٥٠ الف في منتصف العام ١٩٢٨) ، مع تضاعف مساحة الملكيات اليهودية في الاراضي حيث وصلت هذه المساحة الى حوالي المليون دونم في العام ١٩٢٨ ·

من جهة اخرى ، تابعت القيادة الصهيونية ممارسة سياستها الشوفينية والعدوانية الرامية الى « احتلال العمل » ، و « احتلال الارض » · وهكذا اسهمت الصهيونية في تفاقم ازمة البطالة بين العمال العرب وفي زيادة عدد الفلاحين العرب المعدمين الذين وصل عددهم خلال هذه الفترة الى ٢٩ر٤ ٪ من الفلاحين ـ حسب بيان الحكومة البريطانية في العام ١٩٣٠ ـ · ولتنفيذ مآربها تابعت القيادة الصهيونية سعيها لمنع اي تقارب بين الجماهير الكادحة من العرب واليهود ، وحاربت كل الجهود التي كان يبذلها الشيوعيون في سبيل التآخي الاممي بين العمال العرب واليهود ·

وكان ابرز حدث في حياة الحركة الصهيونية خلال هذه الفترة قيام الوكالة اليهودية في العام ١٩٢٩ · وكان القصد من قيامها استنفار يهود العالم لمد يد المعونة لاقامة « الوطن القومي اليهودي » في فلسطين · وقد استفز قيام هذه الوكالة مشاعر محافل واسعة من الشعب العربي الفلسطيني ·

لقد كانت بعض الدوائر الصهيونية تفكر بان نشوب نزاع ذي طابع ديني بين اليهود

والمسلمين قد يثير اهتمام قطاعات واسعة من اليهود ، خاصة في خارج فلسطين ، ويحفزهم على زيادة دعمهم المادي وعلى الهجرة · وهكذا بدأت هذه الدوائر تفكر جديا باستفزاز مشاعر المسلمين الدينية ·

الحركة القومية العربية : خلال هذه الفترة كانت القيادات الاقطاعية ـ الدينية لا تزال تحتل المواقع الرئيسية في قيادة الحركة القومية العربية ، ولم تكن البورجوازية الصناعية العربية ، قد وصلت الى مركز الحسم في القيادة القومية · ولقد استغلت الامبريالية البريطانية هذا الواقع ـ الذي ساهمت بصنعه حيث لعبت دورا هاما في توطيد مواقع مالكي الاراضي الكبار في قيادة الحركة القومية ـ لتنفيذ سياستها « فرق تسد » ، وذلك بتشديد التناحر الديني والعنصري بين السكان العرب واليهود وحرف النضال القومي المعادي للامبريالية عن طريقه الصحيح ·

لقد كان ابرز حدث في حياة الحركة القومية العربية خلال هذه الفترة هو انعقاد المؤتمر الفلسطيني السابع في شهر حزيران العام ١٩٢٨ · وقد كان هذا المؤتمر الذي دل على رغبة بعض القيادات الفلسطينية بالوصول الى اتفاق مع الامبريالية على حساب الجماهير الشعبية ، من اضعف المؤتمرات العربية على الاطلاق ، حيث ساهم فيه مزيج عجيب من المندوبين يمثلون تناقضات في الرأي لا سابق لها ، شاملا ذلك من وصفهم عزت دروزة « بالجواسيس وسماسرة بيع الاراضي لليهود » وقد كاد المؤتمر يسفر عن المطالبة بحكومة وطنية في ظل الانتداب القائم · ولقد حولت الانقسامات والخصومات الشخصية بين القيادات اللجنة التنفيذية الجديدة المنتخبة عن المؤتمر الى هيئة عاجزة كل العجز ·

لقد بدأت تحصل في صفوف الحركة القومية العربية خلال الفترة التي سبقت حوادث اب مباشرة ، عدة تمايزات اجتماعية ، كان أبرز مظاهرها بدء تحرك الطبقة العاملة العربية كقوة سياسية ، وذلك على الرغم من قلة عددها وضعف تنظيمها ، وقد ساهم ممثلون عن العمال العرب ولاول مرة في المؤتمر العربي السابع · وعرفت تلك الفترة عدة اضرابات عمالية عربية ، كان من اهمها اضراب عمال المخابز في القدس ، واضراب عمال شركة « مبروك » للسجائر في حيفا ، وعدة اضرابات صغيرة نظمها عمال البناء العرب ·

من جهة اخرى ، كان لتصاعد حركة الاستيلاء الصهيوني على الاراضي العربية وتشريد الاف الفلاحين العرب اثر مباشر في تفاقم الازمة الاجتماعية في الريف وبروز مسالة الارض كمسالة ملحة يعاني منها اكثر من ٨٠ ٪ من السكان الزراعيين العرب · وقد شهد الريف الفلسطيني خلال هذه الفترة عدة اصطدامات بين الفلاحين العرب والمستوطنين الصهيونيين وبين الفلاحين وكبار الاقطاعيين العرب كان ابرزها الاصطدامات التي وقعت في « وادي الحوارث » وفي « عين كارم » ·

٣ ـ الاوضاع الذاتية للحزب الشيوعي في فلسطين قبل اندلاع الحوادث · (١٤)

انعقد الكونغرس الثالث للحزب الشيوعي في فلسطين يومي ١ و ٢ كانون الاول

العام ١٩٢٨ ، في ظروف سرية صعبة ، وقد ساهم فيه (٢٤) مندوبا قدموا من مختلف المناطق ٠

لاحظ الكونغرس في بداية اعماله ان السلطات الامبريالية لم تتمكن من تحقيق هدفها بالقضاء على الحركة الشيوعية في فلسطين ، وان الحزب قد تابع نشاطاته « وذلك على الرغم من تفاقم سياسة الارهاب الامبريالي ليس فقط ضد اعضاء الحزب ولكن ايضا ضد اعضاء الكتلة العمالية والنجدة الحمراء (ملاحقات متواصلة ، اعتقالات ، احكام جائرة ، تهجيرات ٠٠ الخ) » ٠

ركز الكونغرس اهتمامه على قضية « خلق نواة ثورية صلبة من العمال اليهود والعرب ، واتباع اساليب تنظيمية كفيلة بترسيخ الحزب خلال النضالات الاتية » ٠ وقد ادان الكونغرس بشدة « المشاعر الانهزامية التي بدأت تظهر داخل الحزب بتأثير محيطه البورجوازي الصغير » ، وعبر المندوبون عن ثقتهم باللجنة المركزية ٠

اعلن الكونغرس ان اهم توقعات الحزب السياسية قد تأكدت خاصة فيما يتعلق « بتزايد الفقر الذي تعاني منه جماهير العمال والفلاحين واحتدام المواقف العدوانية للبورجوازية الصهيونية وتعاظم نفوذ الرجعية في البلاد ، وتنامي الفاشستية » ، وقد ادان الكونغرس السياسة « الطوباوية والخائنة » للقيادات العمالية الصهيونية ، هذه السياسة التي تركت الطبقة العاملة « عزلاء من السلاح في مواجهة المد الرجعي ، خاصة وانها لا تملك منظمة نقابية اممية قادرة على مقاومة سياسة الادارة الامبريالية والبورجوازية بصورة فعالة » ٠ وفي هذا الاتجاه هاجم الكونغرس منظمة الهستدروت « التي يسعى قادتها دوما للسلم الطبقي (بعد) ان خانوا المصالح العمالية على مذبح هيكل الصهيونية » ٠ وقد انتقد الكونغرس « المغامرة الجديدة » التي ينوي قادة الهستدروت تنفيذها والمتمثلة « بالعمل على تنظيم هجرة يهودية جديدة الى فلسطين في الوقت الذي تعاني فيه اكثر من (٦٠٠) عائلة في تل ابيب (وحدها) من آثار البطالة » ٠

اشار الكونغرس الى تنامي الاتجاه نحو التنظيم بين العمال العرب واكد على ان قضية تنظيم العمال العرب قد بدأت تحتل اهمية كبرى خاصة بعد ان اصبحت البورجوازية العربية والوجهاء « على استعداد لابرام اتفاقية طوعية مع الحكومة البريطانية تكون على حساب مصالح الفلاحين والعمال » ، وذلك بعد ان اعلنت القيادة العربية عن رغبتها « بالاعتراف بالانتداب والتعاون معه » ٠

استعرض الكونغرس في مقرراته السياسية التحضيرات التي تقوم بها الامبريالية الانكليزية لشن حرب عدوانية على الاتحاد السوفياتي ، هذه التحضيرات التي تتمثل اساسا في فلسطين « ببناء ميناء حيفا » ٠ وقد هاجم الكونغرس الحركة الصهيونية ، بما فيها الجناح اليساري « بوعالي‌تسيون » واتهمها بانها اداة الامبريالية البريطانية في عملية تحضيرها للحرب ضد الاتحاد السوفياتي ٠

استمع الكونغرس الى تقرير عن اعمال المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ، حيث تضامن مع مقرراته وتوصياته كما حيا بصورة خاصة اقرار « برنامج الاممية الشيوعية » ، واعلن بان هذا البرنامج سيكون « هدف دراسة معمقة في كافة خلايا

الحزب » ·

انتخب الكونغرس في نهاية اعماله مجلسا حزبيا ، ليساهم في اعمـــال اللجنـــة المركزية ، كما قرر التوجه بنداء الى الطبقة العاملة يدعوها فيه » الى المجيء لتقويـــة صفوف الحزب » ·

لقد ذكرنا سابقا ان النضال ضد خطر الانحرافات الانتهازية اليمينية داخل الحركـة الشيوعية العالمية كان محورا من محاور اعمال المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية·

وفي اعقاب المؤتمر طالبت اللجنة التنفيذية للاممية جميع الاحزاب الشيوعية بتصعيد نضالاتها ضد » خطر الانتهازية ، وتطهير صفوفها من اليمينيين وتجاوز المواقف المساومـة تجاه الوسطيين » (١٥) ·

ويبدو ان المناقشات الحامية التي دارت داخل منظمات الحزب الشيوعي الفلسطيني حول مقررات المؤتمر العالمي السادس وخاصة فيما يتعلق بشعارات » الثورة الزراعية » و »اقامة حكومة العمال والفلاحين » في الشرق ، قد ترافقت مع بروز اتجاه انتهازي يميني داخل صفوف الحزب عارض تبني شعار » حكومة العمال والفلاحين » في فلسطين ، وبدأ ينشر افكار انهزامية تطالب الحزب بالتراجع امام المد الرجعي في البـــلاد ، وتشكـــك بالامكانية الثورية للجماهير ، وخاصة لجماهير الفلاحين ، وذلك بالرغم من ان اللجنـة التنفيذية للاممية الشيوعية كانت قد اوصت قيادة الحزب رسميا » بتبني شعار اقامة حكومة العمال والفلاحين في فلسطين » في الرسالة التي بعثتها الى اللجنة المركزية للحزب فـــي كانون اول العام ١٩٢٨ ·

في اوائل العام ١٩٢٩ ، عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في فلسطين جلسة موسعة ناقشت خلالها قضية الانحراف اليميني داخل الحزب وكيفية النضال ضده · وقد اقرت هذه الجلسة الموسعة قرارا صريحا يدين الانحراف ويطالب بتصفيته ، وقد جاء في هذا القرار أنه يكمن خلف الانحراف » التقليل من قوة البروليتاريا في البلدان العربيـة عموما وفي فلسطين خصوصا ، بالاضافة الى اتجاهات انهزامية حـــول دور الحـــزب الشيوعي » ·

كتب » بوبٍ » من يافا مقالا ظهر على صفحات مجلة » المراسلات الصحفية الدولية » يستعرض فيه ملابسات » النضال ضد الانحراف اليميني في الحزب الشيوعي في فلسطين» جاء فيه : » ان الرفاق الذين يطالبون قيادة الحزب باستبدال شعار » اقامة حكومـــة العمال والفلاحين » بشعار » اقامة الجمهورية الديمقراطية »وذلك بهدف كسب الفئـــات البورجوازية الصغيرة (التي يبالغون بتاثيرها) ، لا يعون حقيقة انه يكمن خلف شعار »الجمهورية الديمقراطية » ، خطر ولادة أوهام ديمقراطية ضـــارة بين صفوف الجماهير ، خاصة في الوقت الذي يحاول فيه القادة البورجوازيون للحركة القومية الوصول الى اتفاق مع الامبريالية البريطانية ··· ان الخصوم الانتهازيين لشعار حكومة العمال والفلاحين لا يقدرون إنه في ظل اشتداد حركة النضال الطبقي في فلسطين وفي البلدان المجاورة ،

لا يمكن لشعارات الحزب الشيوعي ان تتضمن فقط جملا عامة حول تحرر البلاد واستقلالها الوطني ، بل يجب تحديد محتوى النضال التحرري بشكل دقيق · فالحركة الشعبية الواسعة لا يمكن لها ان تثبت وتتطور الا اذا كان لدى جماهير العمال آفاق التحرر الاجتماعي ولدى الفلاحين آفاق الثورة الزراعية ، اي تقسيم اراضي الملاك الكبار فيما بينهم والغـــاء الديون المستحقة للمرابين··ان العناصر اليمينية التي لا تلحظ تطور نضالات البروليتاريا البطيء ولكن المتلاحق ، والتي تقلل من نسبة توسع الحزب (خاصة بين العمال العرب) والتي تشكك بنجاحاته ، ان هذه العناصر ، لا تلحظ سوى الهجوم المتعاظم للقوى الرجعية وترى بان على الحزب ان يتراجع خلال هذه الفترة ··· » · وبعد ان يربط كاتب المقـال الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي في فلسطين بالمعارضة اليمينية داخل الاحـزاب الشيوعية الاوروبية « التي تفسر مقررات المؤتمر العالمي السادس للاممية على طريقـــة تراندلير »(١٦)يؤكد بان الحزب الشيوعي في فلسطين،الذي احتفل مؤخرابالذكرى العاشرة لتأسيس اول مجموعة شيوعية في فلسطين ، قد مر منذ تأسيسه بعملية بلورة ايديولوجية· وقد استطاع ان يهزم كافة بقايا الديماغوجية الصهيونية والاشتراكيةالصهيونية، واستطاع تصفية اتجاه المقاطعة والاتجاهات الانقلابية ووضع حدا لنظرية الهجرة ، وهكذا فتـح الطريق نحو كسب الجماهير من خلال تجميع افضـــل عناصر البروليتاريا في فلسطيـــن خلف علمه ··· ان الحزب الشيوعي في فلسطين هو اليوم بالافعال وليســن بالاقـــوال فقط ، الحزب الاممي الوحيد ذو التكتيك الثوري » ·

لقد كانت القضية الزراعية احدى القضايا الرئيسية التي شغلت اهتمام الحـــزب الشيوعي في فلسطين خلال هذه الفترة · وكان توجه الحزب هذا ، يتوافق تماما مـــع مقررات وتوصيات المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية الذي طالـــب الاحـــزاب الشيوعية في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة بتصعيد نضالاتها في سبيـل « الثـــورة الزراعية » وفي سبيل « اقامة حكومة العمال والفلاحين » ·

لقد كان الحزب يرى بان النضال في سبيل الارض قد غدا « القضية الاهم ، القضية المركزية في الحياة السياسية والاقتصادية في فلسطين » ، وحمل الامبريالية البريطانية التي وعدت « بوطن قومي لليهود » في فلسطين ، والحركة الصهيونية « التي يتناقض سعيها لاقامة هذا الوطن تناقضا اساسيا ودائما مع مصالح الجماهير العربية، خاصة معمصالح الفلاحين » ، مسؤولية النتائج التي تنتج عن تفاقم الازمة الاجتماعية في الريف خاصة بعـد تشريد آلاف الفلاحين العرب من اراضيهم · كما فضح الحزب الدور الـــذي يلعبه كبار الملاك العقاريين العرب « تجار الارض » ومسؤوليتهم في تشريد الفلاحين العرب ، بعد ببع الاراضي التي يعملون فوقها الى الجمعيات الصهيونية ، والاساليب التي يتبعونها فـــي عملية بيع الاراضي والتي تتمثل « بالعقود البيرقراطية ·· والتحايل على القانون خاصة فيما يتعلق بشروط تسجيل ملكية الاراضي ·· والرشـوات التـي تقـــدم للسلطـــات الحكومية ·· » ، وهاجم الحزب فكرة الكيبوتز « الذي يقام على انقاض المزارع العربية الصغيرة ، بعد صدامات دموية بين العمال اليهود المعدمين والمدفوعين من الاحـــزاب الاشتراكية الصهيونية وبين الفلاحين العرب الصغار ، وذلك ليستثمر عدد من الرأسماليين (اليهود) مئات العمال اليهود الذين استولوا على اراضي الفلاحين العرب » ·

لقد كان الحزب الشيوعي في فلسطين يساهم خلال هذه الفترة في كافة التحركات

التي تنظم للتصدي لحملات نزع ملكية اراضي الفلاحين العرب وتشريدهم · ففي ٨ حزيران العام ١٩٢٩ ساهم الحزب بنشاط في التظاهرات التي نظمتها بعض المجموعات القومية العربية في مدينة يافا ضد الحملات الصهيونية لنزع ملكية اراضي الفلاحين العرب ، وحاول توجيهها في اتجاه معاداة الامبريالية ، خلف شعارات « الارض لمن يزرعها » ، « تآخي العمال العرب واليهود في النضال ضد عصابات الكيبوتز الموتورة وضد نفاق الاشتراكيين ـ الامبرياليين » ، « تصعيد النضال ضد الامبريالية والصهيونية والوجهاء العرب في سبيل مصادرة اراضي كبار الملاك وتوزيعها بين الفلاحين » ··

لقد كان الحزب يؤمن بان الحل الجذري لمسالة الارض في فلسطين لن يتحقق الا بعد طرد المستثمرين الامبرياليين ، وتسلم العمال والفلاحين لزمام الامور في البلاد ، وتوزيع اراضي الملاك الكبار بين الفلاحين بعد مصادرتها » ·

تركز نشاط الحزب الشيوعي في فلسطين خلال الفترة التي سبقت اندلاع حوادث اب مباشرة (شهر تموز اساسا) على تحضير « اليوم الاحمر ضد الحرب الامبريالية » ،او كما اسمته صحف الاشتراكية ـ الديمقراطية « يوم الاممية الشيوعية » · وكانت اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية قد اتخذت في جلستها الموسعة العاشرة قرارا بهذا الخصوص جاء فيه : « تنفيذا لمقررات المؤتمر العالمي السادس حول تنظيم يوم عالمي للنضال ضد الحرب الامبريالية ، تصادق الجلسة الموسعة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية على التوصية التي اقرها اجتماع ممثلي (١٣) حزبا شيوعيا في بروكسل بتحديد يوم الاول من اب ، يوما عالميا للنضال ضد الحرب الامبريالية · ان الجلسة الموسعة للجنة التنفيذية تطالب كافة فروع الاممية بجعل الاول من اب مناسبة لتنظيم اضرابات ومهرجانات سياسية جماهيرية ، وتظاهرات شوارع وذلك على الرغم من الوسائل القمعية للبوليس ·· »(١٧)

وبالفعل قام الحزب الشيوعي في فلسطين بتوزيع نشرات عديدة ، ووجه مئات النداءات باللغة العربية والعبرية تدعو الطبقة العاملة في فلسطين للاحتفال بالاول من اب « يوم نضال البروليتاريا العالمية ضد خطر الحرب » · وقد حدد الحزب اهداف هذا اليوم بالنضال « ضد خطر الحرب ، في سبيل اقامة جمهوريات عمالية وفلاحية في البلدان العربية ، من اجل الدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، وضد الصهيونية والاصلاحية » ·

وبهدف منع هذه التظاهرة الشيوعية « استنفرت السلطات الامبريالية قواتها وجمعت وحداتها العسكرية في اهم المدن الفلسطينية ونظمت حملات التفتيش والاعتقالات ، واصدر قائد الشرطة في (٣١) تموز قرارا بمنع كافة التظاهرات » · وبالرغم من كافة الوسائل القمعية« نظم الحزب عدة تظاهرات جماهيرية اجتازت شوارع المدن الرئيسية الثلاث (القدس ويافا وحيفا) ، خلف اعلام الحزب الشيوعي ·· وقد ساهمت مجموعة كبيرة من العمال العرب في هذه التظاهرات وذلك على الرغم من موجة الاثارة الشوفينية والدينية التي كانت تتصاعد من جديد في البلاد ··· وكان هذا تاكيدا حيا للتضامن العمالي الاممي المعادي للامبريالية » ·

في استعراضها لنتائج « اليوم الاحمر العالمي » ، كتبت « البرافدا » صحيفة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي في ١٨ اب العام ١٩٢٩ (١٨) : « في فلسطين ، المستعمرة

الانكليزية ، نجح الحزب الشيوعي ·· رغم وضعه السري الصعب ورغم الملاحقات الوحشية التي يتعرض لها اعضاؤه ، بتعميم شعارات اليوم الاحمر العالمي بين الجماهير العمالية · ففي المدن الرئيسية الثلاث في البلاد : في القدس ويافا وحيفا نظمت عدة نشاطات خلال الاول من آب · وقد تظاهر العمال خلف شعارات الحزب الشيوعي ، وقد ترك نزول العمال الثوريين الى الشارع ، بعد عامين من القمع المتواصل ، انطباعا حسنا في نفوس جماهير العمال · كما كانت مساهمة مجموعة من العمال العرب في هذه النشاطات دليلا علـــى التضامن الاممي للبروليتاريا ·· هذا وقد حدثت صدامات عديدة بين رجال البوليس وبين المتظاهرين ، وقد كانت صدامات القدس وتل ابيب حامية جدا ، حيث دافع العمال عـــن انفسهم ببسالة ، وتم جرح عدة ضباط من البوليس بينهم ضابط انكليزي ، وقد تم اعتقال (٤٠) عاملا ، عوملوا بقسوة شديدة ·· » · وفي نهاية تعليقها حملت البرافدا « اللورد باسفيلد » ، وزير المستعمرات في الحكومة العمالية البريطانية مسؤولية المعاملة القاسية التي يعاملها السجناء في فلسطين ، وهاجمت الصحيفة الفلسطينية للاممية الثانيـــة « دافار » ، التي تبرر « طبعا » هذه الاعمال القمعية ·

اعلن الحزب الشيوعي في فلسطين ان نجاح تظاهرات الاول من آب ، كان بمثابـــة ضربة وجهت « لمشاعر الاستسلام (التي يبثها) الانتهازيون اليمينيون ، في صفـــوف الحزب · ودعا كوادره الى زيادة نشاطها ومتابعة « النضال الصارم ضد الانتهازيـــة اليمينية » ، وطالبها باستغلال نجاحات الاول من اب لجذب الاعداد المتزايدة من العمـــال « الذين يديرون ظهورهم عن الصهيونية وعن القيادات القومية الخائنة » الى صفـــوف الحزب ·

الحزب الشيوعي الفلسطيني وحوادث آب الدامية ·

لقد كان هدفنا من دراسة خصائص الظروف التي كانت تسود في فلسطين ، والتعرف على الاوضاع الذاتية للحزب وتوجهات سياساته في اعقاب المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ، التمكن ـ قدر المستطاع ـ من اعطاء تحليل موضوعي شمولي للواقع التاريخي المحدد الذي اتخذ فيه الحزب الشيوعي في فلسطين موقفه من حوادث العام ١٩٢٩ ·

لقد ذكرنا في بداية البحث اننا سنعتمد في انجازه اساسا على مادة « المراســـلات الصحفية الدولية » ، ومن هذا المنطلق ، سنستعرض اهم المقالات التي ظهرت على صفحات المجلة ، والتي يعرض فيها قادة الحزب موقفهم من الحوادث ، وسنستعرض هذه المقالات، المرسلة من فلسطين مباشرة ، وفقا لتسلسلها التاريخي ·

المقال الاول « حوادث فلسطين » (١٩) ، ظهر مباشرة بعد اندلاع الحوادث بامضاء « الينى » ALINI ، وقد استهله الكاتب بدعوة البروليتاريا الثورية العالمية « للتدخل النشيط لدعم الحركة في فلسطين ، خاصة بعد ان اتسعت نضالات عرب فلسطين ومعاركهم ضد الجيش والبوليس الانكليزي ، وضد العصابات الصهيونية الفاشية » ، مما يدل على ان الحركة التي اندلعت في فلسطين بدأت « تأخذ اتجاها ثوريا » · وبعد ان يتحدث كاتب المقال عن اهمية فلسطين الاستراتيجية والعسكرية، وعن السياسة العدوانية والقمعية التي

تنتهجها السلطات الانكليزية في هذا البلد ، وعن مواقف الحركة الصهيونية « اداة الامبريالية البريطانية وشركها ، ليس فقط ضد الجماهير العربية في فلسطين ، وانما ايضا ضد كل الشعوب المضطهدة في الشرق الاوسط ٠٠ » ، ينتقل الى تحليل تطور سياسة ومواقف قيادة الحركة القومية « التي بدأت خاصة بعد المؤتمر القومي السابع بانتهاج سياسة موالية للامبريالية » ، ولتغطية سياستها هذه « التي تنتقص من هيبتها » ، تحاول « تقوية النضال ضد الصهيونية » ٠ ويستنتج الكاتب في نهاية مقاله انه « مهما تكن الاسباب التي تفسر الانتفاضة ٠٠ ومهما تكن مصالح الطبقات المختلفة ٠٠ فالجماهير العمالية العربية كانت مدفوعة بالاستغلال السياسي والاقتصادي للامبريالية ولعملائها ٠٠ ولهذا فان النضال بامكانه ان يكتسب طابعاثوريا معلنا في سبيل تحرر الجماهير الكادحة من نير الامبريالية ٠٠ وان على عاتق الحزب الشيوعي تقع مهمة تحقيق التآخي بين الجماهير العمالية اليهودية والعربية والعمل على تسلمها قيادة الانتفاضة بهدف ضمان طابعها الثوري وقيادتها حتى النهاية ضد الامبريالية ، ضد وعد بلفور ، ضد الصهيونيين وضد المستغلين العرب » ٠

في المقال الثاني « المذبحة في « الارض المقدسة » » ٠ (٢٠) كتب « ج ٠ ب » من القدس: « لقد كانت معارك الشوارع التي نشبت يوم ٢٣ اب ٠٠ بين اليهود والعرب ٠٠٠ المؤشر لانتفاضة عامة لعرب فلسطين ، امتدت الى البلد المجاور شرق الاردن ٠٠ غير ان هذه الانتفاضة الشعبية التي كانت تعبيرا عن تخمر الطاقات الثورية المقموعة للشعب المسلم وخاصة في صفوف جماهير الفلاحين والبدو ، قد طبعت في مرحلتها الاولى بطابع معاد لليهود وغير معاد للانكليز ٠٠٠ » ، وقد نتج هذا « عن لعبة خبيثة شاملة (نسجت خيوطها) الامبريالية الانكليزية بالتعاون مع الفاشست الصهاينة ومع المجلس الاسلامي٠٠٠ (وهكذا) تحولت قضية « حائط المبكى » الى قضية الساعة السياسية ورمز النضال في سبيل الهيمنة السياسية فوق « الارض المقدسة » ٠٠ » ثم ينتقل الكاتب الى تحليل دور كل قوة من هذه القوى الثلاث فيذكر ان الاقطاعيين والبرجوازيين العرب « الذين فقدوا هيبتهم نتيجة لمساوماتهم مع الامبريالية وخيانتهم القومية قد تجمعوا حول المجلس الاسلامي ويداوا بمساعدة قسم من جهاز الامبريالية البريطانية ـ الذي تركه « الاشتراكي » ماكدونالد محافظا على جبروته ـ يثيرون مشاعر الكره المتزمت للمسلمين ضد « الكفار » اليهود الذين يريدون مهاجمة الاماكن المقدسة الاسلامية ٠٠٠ » ، وقد رد الفاشست الصهاينة على هذا الموقف « باثارة التعصب القومي الشوفيني الصهيوني وذلك بتنظيم مظاهرات عديدة مليئة بالاثارة والتحريض ٠٠ » ، وكانت السلطات الامبريالية « تتذبذب بين المعسكرين ، ساكبة قطرات من الزيت في المكان الذي تهدد فيه النار بالانطفاء وذلك بهدف منع اي تقارب بين العرب واليهود ، هذا التقارب الذي بالامكان اقراره خلال السنين الاخيرة ، خاصة بين صفوف البروليتاريا وذلك على الرغم من جهود الامبرياليين والصيهونيين والقيادة العربية الخائنة لمنعه ٠٠ » ٠

بعد تحليل دور القوى ، ينتقل الكاتب الى رسم صورة سير الاحداث الدامية التي بدأت « ٠٠ حين اندفعت الجماهير المتزمتة من الفلاحين والبدو تحت قيادة البورجوازية والاقطاعيين ورجال الدين لمهاجمة واحراق المستوطنات اليهودية الفقيرة ٠٠ حيث اقترفت مذابح مخيفة ٠٠ » ، اما الصهيونية الفاشية « فقد بقيت محافظة حتى اللحظة الاخيرة على

مهمتها الامبريالية ، حيث قامت بقتل العرب الذين لم يتمكنوا من مغـــادرة « المنطقـــة اليهودية » ، واحراق المنازل العربية ·· وبفظاعة وحشية تم قتل عاملين عربيين في اكثر شوارع القدس ازدحاما يوم ٢٤ آب ··· » ، ويحمل الكاتب الحركة الصهيونية مسؤولية « دماء الجماهير اليهودية الفقيرة ·· » وذلك حين ربطت الصهيونية مصيرها « بمصير الامبريالية البريطانية من خلال وعد بلفور ، وتحولت موضوعيا الـــى الموقـــع المتقـــدم للامبريالية داخل البلدان العربية ·· (وهكذا) دفع القادة الصهاينة ثمن خدماتهم اصالح الامبريالية من دم الجماهير اليهودية الفقيرة ·· » ·

اما قوات الامبريالية الانكليزية ··التي كانت تصل دوما بعد ارتكاب الفظائع··ولكن في الوقت المناسب ايضا ، لتنظيم مذابح جديدة بين الفلاحين العرب ، مستخدمـة فـــي ذلك بنادقها الرشاشة وقنابل طائراتها ومصفحاتها ··· » ، فهي تتحمل المسؤولية المباشرة عن وقوع هذه الاحداث الدامية « ·· فتقوية الوجود العسكري الانكليزي (في فلسطين)·· بهدف حماية الضفة الشرقية من قناة السويس ·· هو الهـدف السياسي الرئيسي الـــذي بامكانه تفسير هذه المذبحة من وجهة نظر مصالح السياســـة العالميـــة للامبرياليـــة البريطانية ·· » ، اما الهدف الثاني الذي سعت اليه الامبريالية من وراء هذه اللعبة الخبيثة فهو « ·· التشكيك بالحركة القومية العربية بدفعها في اتجاه المذابح الدينية وذلك بهدف اضعافها داخليا والعمل على ارهابها فيما بعد ، بشكل يصبح فيه مستحيلا حدوث انتفاضة ثورية حقا ·· » · غير ان الامبريالية لم تتمكن من تحقيق اهدافها فقـد استطاعت الحركة « ·· ان تمر بسرعة من فوق رؤوس القيادات القومية ـ الاصلاحيـــة والسلطات البريطانية وتحولت من مذبحة الى انتفاضة معادية للامبريالية · ففي المدن العربية الصرفة ، مثل نابلس وطولكرم ·· حيث لا يوجد اي حاجز صهيوني ، تم مهاجمة الادارة الحكومية ورفع العلم القومي العربي · وفي شرق الاردن انتفض البدو وقدموا لنجدة اخوانهم الفلسطينيين ·· »

ثم ينتقل الكاتب الى تحليل دور الحزب الشيوعي الفلسطيني خـــلال هذه الاحـداث فيذكر بأن الشيوعيين : « كانوا المجموعة الوحيدة ، الى جانب مجموعة « حمدي الحسيني» القومية ـ الثورية ، التي اعتقل قائدها لانه كان يحذر الجماهير العربية من اقتـــراف المجازر ويدعوها للوقوف ضد الامبريالية ، التي كانت تدعو بدون كلل الى تآخي العمال اليهود والعرب في نضالهم المشترك ضد الامبريالية البريطانية ··· ومنذ صباح الجمعة الدموي ·· كانت حوائط القدس مغطاة بالنداءات التالية : « لا تقتتلوا فيما بينكم » ! « ايها العمال العرب واليهود قفوا سوية ضد عدوكم المشترك ، الامبريالية البريطانية » ! « اقيموا حكومة العمال والفلاحين المستقلة » ! ··· وقد كان كل شيوعـي يحرض في مكان عمله وفي الشارع بهذا الاتجاه ·· غير ان الحزب الشيوعي لم يتمكن بسبب ضعـــف كادره العربي وبسبب الخسائر الكبيرة التي اصيب بها بعد الاول من اب ، من التأثير في حركة الجماهير ـ التي كانت تتعاظم باستمرار ـ مدفوعة بالتعصب الديني الاعمى ، ومع ذلك فقد ساعدت شعارات الحزب في اجماع العمال على تحميل مسؤوليـــة الحـــوادث للامبريالية البريطانية ، وفي فهم ضرورة التآخي ·· وفي حدوث عدة اعمال عبرت عـن تضامن العمال الاممي ، مثل قيام العمال العرب بحماية رفاقهم اليهود وبالعكســـس ، والتصدي لمثيري الفتن من الجانبين ·· ومن وجهة نظر تنظيمية ، لم يكـــن بمقـــدور الشيوعيين لعب دور مؤثر (خلال الاحداث) ، غير ان تجربة هذه الحركة الكبرى ـ التي

لم تهدأ بعد والتي تلقي ضوءا اسود على مرحلة « السلام » التي افتتحها عهد ماكدونالد ، وتفضح جيدا خطورة الافكار التي يشيعها الانتهازيون اليمينيون ـ بامكانها ان تكون (تجربة الحركة) قاعدة لنشاطات الشيوعيين اللاحقة ... » .

في المقال الثالث « الاوضـــاع السياسية في فلسطين » (٢١) يحـلل « اليني » خصائص الاوضاع التي كانت تسود في فلسطين قبل اندلاع الحوادث ، وبعد ان يربـــط بين تطور الحركة القومية في فلسطين وتطور الحركة القومية في البلدان العربية الاخرى (سوريا ، الاردن ، العراق ومصر) ، يستنتج بان تعاظم عدوانية السياسة الامبريالية ، خاصة بعد القضاء على الثورة السورية واستسلام قيادتها ـ ما عدا السلطان الاطرش ـ قد ساعد « على توجه الحركة القومية في البلدان العربية ومنها فلسطين في اتجاه اليمين والمساومة مع الامبريالية وتحولهابالتالي الى حركة قومية ـ اصلاحية .. » ، وقد تمكنت العناصر الاقطاعية والبورجوازية « من دفع الحركة القومية العربية في اتجاه المساومـة مع الامبريالية ، خاصة بعد المؤتمر العربي السابع ، بسبب غياب المنظمات الجماهيريـة العربية ... ففي فلسطين لا يوجد حزب قومي ـ ثوري جماهيري ، والمؤتمر العربي لـم يكن ينتخب الا من قبل كبار الملاك العقاريين ومن البورجوازية وجزء من المثقفين .. اما محاولات الجناح القومي الثوري الضعيف ، الذي يقوده « حمدي الحسيني » ـ المعتقـل حاليا لدى السلطات الانكليزية ـ لتأسيس حزب قومي ـ ثوري يساري فلم تبدأ الا فـي الاونة الاخيرة » .

لقد خشيت العناصر الصهيونية من امكانية حدوث تقارب فعلي بين القيادة العربية وبين السلطات الانكليزية ، فقامت « بتشديد صراعها ضدمطالب العرب البرلمانية ، وفي سبيل بقاء النظام التعسفي الذي يديره الموظفون الانكليز ... واستطاعت تمرير عـدة اصلاحات تخدم مصالحها .. (مثل) اقرار حق الهجرة بدون قيود ، والعمـل علـى استيطان المهاجرين في الاراضي الواقعة تحت سيطرة الادارة البريطانية ، واعفائهـم من دفع ضريبة الارض خلال السنوات الاولى ، والمطالبـة بزيادة عدد المستخدمين اليهـود في صفوف البوليس والدرك وسلك الموظفين ، وزيادة عدد العمال اليهود المستخدميـن في مؤسسات الحكومة .. » .

وبعد ان ينهي الكاتب تحليله لمظاهر المد الرجعي في البلاد ، واشتداد السياسـة القمعية التي تنتهجها السلطات الامبريالية ينتقل الى رسم صورة للاوضاع والتمايـزات التي بدأت تظهر في صفوف الطبقات الكادحة في فلسطين ، حيث يترافـق التطـور الرأسمالي للبلاد « مع زيادة استثمار الجماهير العمالية .. ومع الافقار المتزايد للفلاحين الذين سلبت اراضيهم .. مما دفع الجماهير العريضة من العمال والفلاحين الى حالـة التململ ضـد مستثمريهـم .. » . وقـد ساعـدت هـذه الاوضـاع على « تصاعد نضالات العمال والفلاحين العرب .. حيث تتلاحق في الريف الاصطدامات الزراعية منذ العام ١٩٢٧ .. وتتزايد اضرابات العمال .. واهمها اضراب عمال شركة التبغ « مبروك » في حيفا ، واضراب عمال المخابز وعمال البناء ، واضراب المستخدمين في متحف « روكفلر » في القدس ، والاضراب الذي جرى في مقلع الحجارة بالقرب من القدس .. » . ومع ان هذه الظواهر تدل على تزايد « راديكالية الجماهير الكادحة فـي فلسطين » ، الا ان كاتب المقال يحذر من « المبالغة في تقدير درجة تزايـد راديكاليـة الجماهير .. التي تدل على تعاظم قوة الحركة الثورية ، غير انها لم تصل بعـد الـى

حد يضمن الانتصار الحاسم للهجوم الثوري الذي يخوضه العمال في فلسطين ضـــد اعدائهم ٠٠ » ٠

ويعد ان يستعرض الكاتب دور الحزب الشيوعي في فلسطين « ٠٠ الذي يخـوض صراعا حاسما ضد الامبريالية الانكليزية وعملائها الصهيونيين والطبقات المالكة العربية حول شعارات استقلال فلسطين وسائر البلدان العربية ، واقامة حكومة العمال والفلاحين ، والثورة الزراعية ٠٠٠ وذلك على الرغم من الظروف السرية الصعبـــة والملاحقات التـي يتعرض لها (اعضاؤه) من قبل سلطات الحكومة العمالية الانكليزية التي تتابع بتصميم اكبر نفس السياسة الامبريالية لسابقتها المحافظة ٠٠ » ، يصل الى الاستنتاج بان الوضع السياسي في فلسطين قبل اندلاع الحوادث قد تميز :« بتزايـــد عدوانيـــة الامبرياليـــة الانكليزية التي تستند على الصهيونيين وعلى الموقف الرجعي للجنة التنفيذية القومية ـ الاصلاحية من جهة ، وبتعاظم راديكالية العمال ٠٠ خاصة العمال العرب من جهة اخرى ، غير ان هذه الراديكالية لم تصل بعد الى الحد الذي يسمح بانتصار الثورة في فلسطين »٠

في المقال الرابع « عودة « السلام » الى فلسطين » (٢٢) ، يحاول « ج ٠ ب » تفنيد ادعاءات السلطات الامبريالية التي تبشر بعودة الهدوء والاستقرار الى فلسطين ويذكـــر بان « الضمان الوحيد للسلام » يتمثل حاليا « بقوات ومدافع وطائـــرات ومصفحـــات الامبريالية البريطانية » ، التي تم تقويتها وزيادة عددها بعد اندلاع الحوادث ٠ ويعـد أن يستعرض مظاهر السياسة القمعية التي تنتهجها السلطات الامبريالية في البلاد « ٠٠ حيث وصل عدد المعتقلين العرب الى (١٥٠٠) ٠٠ يضاف اليهم (١٥٠) معتقلا يهوديا ٠٠ »٠ ينتقل الكاتب الى فضح المواقف «السلمية» التي يدعيها لنفسه جزء من الصحافةالصهيونية « ٠٠ التي تريد طرد العمال والفلاحين العرب « سلميا » من اراضيهم ، وتنفيذ وعد بلفور بصورة « سلمية » ايضا ٠٠ » ، كما يدين الحملة التي تشنها الصحافة الصهيونية وصحافة الاممية الثانية وحتى صحافة حزب « البوعالي تسيون ـ الذي يدعي اليسارية ـ » ، ضد مواقف الحزب الشيوعي في فلسطين من الانتفاضة ، هذه الصحافة التي لا تتورع عـــن نشر « ٠ الاكاذيب والحكايات الدموية الدنيئة » امام الرأي العام العالمي فـــي محاولـــة منها لاظهار الحركة الشيوعية العالمية « ٠٠ كحليف لمثيري المذابح ٠٠٠ واظهار الاممية الشيوعية وكأنها تحيي ثورة حزب المفتي ٠٠ » ٠ من جهة اخـرى يهاجـم الكاتب مواقف « ٠ القوميين ـ الاصلاحيين العرب ٠٠ الذين بدأوا من جهتهم ايضا » بشـــن حملـــة تحريضية معادية للشيوعية ٠٠ وذلك لانهم يرتاعون من تزايد نفوذ الشيوعيين ٠٠ خاصة وان الحزب الشيوعي قد فضح دورهم منذ فترة طويلة ٠٠ » ٠ وبعـــد أن يستعرض كاتب المقال قاعدة البرنامج الذي طرحه الحزب لعـودة السـلام الـى البـلاد والـذي يرفض فيه فكـــرة « ٠٠ « الســـلام » المجـــرد القائـــم فـــي ظـــل رقابـــة حكومة العمال والفلاحين الثورية ٠٠ » ، يؤكد على ان : « تجمع افضل عناصر البروليتاريا والفلاحين الفقراء ٠٠ حول علم الحزب الشيوعي ٠٠ والتضامن الفعال للبروليتاريـــا الثورية العالمية (مع الحركة الثورية في فلسطين) ٠٠ تجاه هجـــوم الامبرياليـــن والاشتراكيين الامبرياليين والبورجوازية الصهيونية والعربية ٠٠٠ سيسهل على طليعـــة البروليتاريا التصدي لهذا الهجوم وخلق جبهة ثورية متحدة من الجماهير الكادحـــة ، قادرة على التصدي لعودة السلام الذي يريد تحقيقه مرتزقة ماكدونالد بالحديد والنار »٠

في المقال الخامس « الحزب الشيوعي الفلسطيني والانتفاضة العربية » ، (٢٣) يستعرض « بوب » من يافا اعمال ومناقشات الاجتماع الموسع الذي عقدته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي « لبحث دور ومهمات الطبقة العاملة في فلسطين ، ودور حزبها خلال الانتفاضة العربية » ، حيث ظهر واضحا ان أعضاء الحزب « ·· قد استطاعوا مقاومة الموجة الشوفينية العامة التي نتجت عن حرف الانتفاضة في طريق الاقتتال العنصري والديني ·· وظهر الحزب في اوقات « السلم » كما في اوقات الحرب القومية التي دفع لها الرجعيون ·· القلعة الوحيدة للاممية في البلاد ·· » ·

كان جدول اعمال الاجتماع يتضمن النقاط التالية : « ·· (١ ـ الوضع الدولي ، الانتفاضة في فلسطين ، والاوضاع الداخلية للحزب ، (٢) تعريب الحزب وقضايا تنظيمية اخرى » · وخلال المناقشات التي جرت حول النقطة الاولى في جدول الاعمال « اكد المجتمعون على سلامة الخط السياسي العام الذي اتخذته اللجنة المركزية للحزب خلال الحوادث ··· فتقدير الحركة كانتفاضة شعبية والنضال ضد طابعها الرجعي عندما تتجه باتجاه الاقتتال الديني والعنصري ··· والمحاولات التي قام بها الحزب لتوسيع الحركة وطرح الشعارات المعادية للامبريالية ··· كل هذا ، كان يتوافق تماما مع مصالح الفئات الكادحة ومع مصالح الحركة الثورية في فلسطين » ·

ومع اشارته للدور الايجابي الذي لعبه الحزب في فضح مواقف الامبريالية والصهيونية من جهة اخرى، والقيادة الاقطاعية الدينية من جهة أخرى، الا أن الاجتماع انتقد الاخطاء التي ارتكبتها اللجنة المركزية للحزب خلال الحوادث « ·· والتي ادانتها بنفسها في الاطروحات التي عرضتها امام منظمات الحزب ··· (هذه الاخطاء) التي تمثلت اساسا بعدم توقع التطور السريع للحوادث ، وتباطؤ الحزب في الانعطاف نحو اليسار ، وفي التلاؤم العملي مع المهام الثورية التي قد تطرح خلال المرحلة الثالثة (مرحلة انتهاء الاستقرار النسبي للراسمالية) ·· وقد حدث انعطاف الحزب نحو اليسار متاخرا وبصورة غير جذرية ، حيث تعرقل عموما خلال النقاشات التي جرت مع المعارضة اليمينية داخل الحزب ·· » ·

اعترف الاجتماع الموسع بحقيقة ان الحزب الشيوعي في فلسطين « ·· لم يتمكن من لعب دور مؤثر خلال الحوادث ·· وذلك نتيجة ضعفه التنظيمي وتمتعه بدرجة كفاحية ناقصة ·· الا انه بمقدوره لعب دور فعال في المستقبل خاصة اذا تجاوز اخطاءه وتابع انتهاجه لخط سياسي سليم واذا كانت الحوادث التي جرت ، التعبير عن الموجة الاولى من الانتفاضة العامة التي نضجت ظروفها في البلدان العربية ·· » · وقد اعلن الاجتماع ان« ··الغالبية الساحقة من اعضاء الحزب قد استخلصت الدروس اللازمة من هذه الحوادث الدامية ·· » ، وهاجم بشدة العناصر الانتهازية اليمينية « ·· التي تستخدم الحوادث كمبرر لشن هجوم عام ضد خط الحزب وضد خط الاممية الشيوعية ·· مستغلة في ذلك واقع ان اللجنة المركزية للحزب لم تطبق اجراءات تنظيمية حاسمة كفيلة بتصفية الجناح الانتهازي داخل الحزب ، واكتفت بخوض صراع ايديولوجي ضد الافكار اليمينية التي تعني عمليا تصفية الخط الثوري للحزب ·· » ·

لقد وقفت المعارضة الانتهازية اليمينية « ·· ضد انعطاف الحزب نحو اليسار ،

وادعت بان المرحلة الثالثة ما هي الا بدعة ابتدعتها قيادة الاممية الشيوعية ، وانكرت تزايد راديكالية حركة الجماهير ، وحاربت مظاهرات الاول من ايـــار والاول من اب ، ورفضت الالتزام بالمبادىء التنظيمية السائدة داخل الحزب ·· » · وخلال الحوادث انتقدت لجنة الحزب في مدينة حيفا « ·· حيث تأثير اليمين قوي جدا ·· » النداء الـذي وزعتـه اللجنة المركزية للحزب والذي يصف الحوادث بانها التعبير عن « ·· حركة تحرر للجماهير العربية ·· » ، وادعت بان الحوادث كانت « ·· تعبر فقط عن مذابح ·· ولم يكن هنالك وجود لاي حركة تحرر ·· » ·

وقد ادان الاجتماع الموسع هؤلاء « الشيوعيين » « ·· المذهولين بصرخات الهـول التي اطلقها جهاز دعاية الصهيونيين وحزب البوعالي تسيون ·· فلم يروا فـي الحوادث سوى صراعات قومية واعتداءات وحشية ·· ولم يلاحظوا القوى الاجتماعية للحركـــة والانتفاضات المعادية للامبريالية التي حدثت حتى في المناطق التي لا يوجد فيها حواجـز يهودية صهيونية ·· وانكروا ان يكون بمقدور الطبقة العاملة تسلم قيادة الحركـــة ·· واعلنوا ان التكتيك الوحيد الذي ينبغي للحزب اتباعه هو البقاء في مكانه وانتظـــار نهاية « المذابح » وقد باشرت لجنة الحزب في حيفا بعد ذلك « ·· هجومها الفاضح علـى خط الحزب وحجزت بكل بساطة النداء الذي اصدره الحزب والمخالف لمطامحها ، وهكـذا فتحت المجال امام اعداء الحزب الشيوعي للقيام بشن حملة تشهير واسعة ضد الحزب ، من خلال نشر الاكاذيب الفاضحة حول موقف الشيوعيين ، وزرع الشكوك في صفـــوف العمال المتناصرين مع الحزب ·· » ·

في مثل هذه الظروف ، كان على الاجتماع الموسع ان يتخذ موقفا صريحا ضـــد المعارضة اليمينية ·· » وكانت الادانة الجماعية التي اتخذت ·· متوافقة مع توصيات السكرتاريا التنظيمية للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية التي ارسلت الى اللجنة المركزية للحزب في رسالة خاصة مؤرخة في ١٢ آب (وصلت فقط في وسط الانتفاضة) ، والتي تؤكد فيها السكرتاريا التنظيمية على ان الدفاع عن الايديولوجية اليمينية يتعارض مـــع الانتماء اللاحق للحزب ، وتطالب اللجنة المركزية بتطهير صفوف الحزب وبسرعة من جميع ممثلي الانتهازية والبوعالي تسيونية البورجوازية الصغيرة ·· » ·

من جهة اخرى ادان الاجتماع مواقف « العناصر الوسطية المساومة الذين لا يتفقون مع اطروحات اليمين الا فيما يتعلق بتقدير درجة راديكالية الجماهير خلال تظاهرات الاول من اب ··· ويمانعون ضرورة اتخاذ اجراءات تنظيمية حاسمة ضد ممثلي الخط اليميني داخل الحزب ·· » · وقد اعتبر الاجتماع الموسع ان « ·· مقال الرفيق آلبني الذي ظهر في العدد (٨٦) من مجلة المراسلات الصحفية الدولية يمثل القاعدة السياسية لمواقف هذه العناصر الوسطية ··· (ففي المقال المذكور) لا يحارب (البني) شعارات حكومة العمال والفلاحين والثورة الزراعية ، وجبهة النضال ضد البورجوازية القومية الخائنة ـ هذه الشعارات التي وقف ضدها في السابق ـ ·· ولكنه يرى ان الخطر يكمن في التقدير المبالغ فيه لتزايـــد راديكالية الجماهير العمالية ويعتقد ان الوضع لم ينضج بعد لشن هجمة عمالية ··· » · وفي نقده لهذه الموضوعة نوه الاجتماع الى ان « ··· خطأ الحزب كان يكمن اساسا في التقدير الناقص لدرجة تزايد راديكالية الجماهير ·· فالظرف الموضوعي كان ناضجا لشن

هجوم جذري واوسع من الهجوم الذي بدأه الحزب بعد انعطافه اليساري ... » ٠

وقد جاء في التقرير الذي اصدره الاجتماع الموسع « ... انه ليس بامكان العناصر المساومة البقاء في الحزب ما لم تتخل عن موضوعاتها الخاطئة وتبدأ فعلا لا قولا خوض النضال ضد خطر الانحراف اليميني ... » ٠

خلال النقاشات التي دارت حول النقطة الثانية في جدول الاعمال ، تحسس الاجتماع الموسع « ... وبالاجماع ضرورة دفع سير وتيرة تعريب الحزب الى اقصى درجـــة ... (خاصة) وان الظروف الموضوعية قد نضجت بسبب حالة الغليان الثوري التي تعيشهـــا الجماهير ، وبسبب خيانة قيادة الحركة القومية العربية .. فبزيادة كـــوادره العربية ، سيستطيع الحزب ان يلعب دورا هاما خلال المرحلة القادمة من تطور الحركة الثورية ... وهذا ما تشعر به الحكومة البريطانية وحلفاؤها من القوى الرجعية ... فالملاحقـات ضد الحزب تنتج اساسا من الخوف من تعاظم الحركة الثورية العمالية والشيوعية ... »

في المقال السادس «مشانق وسياط ماكدونالد في فلسطين » (٢٤) ،يستعرض«ج ·ب»من القدس ، الوسائل والاساليب الوحشية التي تستخدمها حكومة ماكدونالد الامبرياليـــة ضـد الجماهيـر العربيـة ، وذلك بهدف قمع الانتفاضة والحد من توسعها وامتدادها ٠

فامام هذه الاساليب الوحشية « ... بدأت الجماهير العربية تعي حقيقة اعدائها... وتفهم طبيعة الاكاذيب التي كانت تعيشها القيادات العربية (من خلال الادعاء) بان الحكومة الامبريالية تقف الى جانب العرب .. » ٠

ويهاجم كاتب المقال بشدة مواقف القيادات العربية « ... التي حاولت التقليل مـن اهمية الاضراب العام الذي جرى يوم ١٦ تشرين الاول ... وحاولت كل جهدهـــا لمنـــع الجماهير من شن هجوم مباشر على السلطات الامبريالية ... والتي اتخذت موقفا مساوما امام لجنة التحقيق البريطانية الامبريالية ...» ٠ غير ان حركـــة الجماهيـر العربيـــة « ... تمكنت من تجاوز (هذه) القيادات .. وبدأت تأخذ يوما بعد يوم طابعا معاديـــا للامبريالية .... » ٠ وهكذا « ... لم يكن من المستغرب ان تتصاعد الحركة ، وان تنظم اضرابات ومظاهرات عفوية في كافة مناطق البـــلاد للتنديد بالاساليب الوحشية التي تستخدمها السلطات لقمع الحركة ، وان يصبح هم كل فلاح وكل عامل عربي شراء قطعة من السلاح حتى ولو باع اخر اسماله،وان تتسع الانتفاضة وتمتد الى البلدان المجاورة...» ٠ كذلك لم يكن مستغربا في هذه الظروف « ... ان يكون للشعارات التي اطلقها الحزب الشيوعي صدى واسع في صفوف الجماهير العربية (وخاصة) في صفوف الفلاحين ... (حيث كان) لشعارات الحزب التي كانت تدعو للاستيلاء على اراضي كبار الملاك العقاريين واراضي الصهيونيين الاغنياء ، وعدم دفـــع الضرائب ، والنضال حتى النهاية ضد الامبريالية ، صدى واسع في صفوفهم .. » ٠

في نهاية المقال يستنتج الكاتب ان « الظروف اللازمة لتجميع القوى الاجتماعية ، ولتسنم البروليتاريا والحزب الشيوعي قيادة الحركة في المرحلة القادمة.. قد اصبحت جاهزة.. ».

ويلاحظ بان ماكدونالد « يعي تماما هذه الحقيقة ·· » ، لذلك تتزايد حدة الاساليب الوحشية المتبعة من قبل السلطات البريطانية « ·· فالملاحقات ضد عناصر الحركة العمالية الثورية في فلسطين ، لم تاخذ ابدا في السابق مثل هذه الحدة ·· ولم تظهر ارادة تصفية الحركة المدافعة عن مصالح الجماهير الكادحة اليهودية والعربية ، بمثل هذا الوضـــوح ، الا في ظل سلطة ماكدونالد ، وهندرسون ، وباسفيلد ·· » · وبعد ان يدين الكاتب حكومة العمال الانكليزية « ·· مفخرة الاممية الثانية » ، يدعو الجماهير العمالية في انكلتـــرا وفـــي البلدان الراسمالية الاخرى ، لدعم نضال « ·· الجماهير الكادحة الفلسطينية التي تناضل حتى الموت ضد الامبريالية البريطانية ··· » ·

في المقال السابع والاخير ، يستعرض «ج·ب» من القدس « نضالات الانصار والجماهير في فلسطين » (٢٥) ، واتجاهات تطور الانتفاضة « ·· بعد ان دخلت المعارك المعاديـــة للامبريالية في مرحلة جديدة تتميز اساسا بالجهود التي تبذلها البورجوازية الاقطاعيـة العربية لتصفية الانتفاضة والوصول ، في اقرب وقت ، الى اتفاق مـــع السلطـــات الانكليزية ·· » · غير ان الجماهير العربية استطاعت « ·· على الرغم من اساليـــب القمع الامبرياليـــة وعلى الرغم من خيانة قياداتها ·· دفع الحركة في اتجاهين : معارك الانصار غير المنظمة ، خاصة في الريف ، وانفجارات جماهيرية عفوية ، خاصـــة فـــي المدن ·· » · ويحلل الكاتب طبيعة معارك الانصار « ·· ذات الطابع الزراعي اساسا ··· والتي تعبر احيانا عن مقاومة الفلاحين العرب لعملية نزع اسلحتهم ، كما حصل في القرى المحيطة بمدينة القدس ، او عن دفاع الفلاحين الذاتي ضد المحاولات التي يقـــوم بهـــا المستوطنون الصهيونيون لنزعهم اراضيهم ، ·· او عن مهاجمات فلاحية بدائية لمراكـــز السلطات الانكليزية ولبعض المستوطنات الصهيونية···»·ويرجع الكاتب اسباب هذهالمعارك الفلاحية الى تدني المستوى المعاشي لجماهير الفلاحين والبدو العرب « ·· الفئة الاجتماعية الاكثر فقرا بين الفقراء ··· » · ومع ان الصهاينة يدعون بأن حركات الفلاحين هذه ما هي الا « حركة لصوص وقطاع طرق » ومع ان الانكليز « ·· يحاولون كل جهودهم لايجـــاد اثار هذه « العصابات » ·· الا ان الهدوء لم يستقر بعد ·· » ·

اما في المدن « ··· فقد استطاعت حركة الجماهير ايضا تجـــاوز قياداتهـــا ··· وفشلت محاولات البورجوازية التجارية العربية التي شهرت سلاح المقاطعة لضمان ارباح اكبر في المنافسة مع التجار اليهود ، في تأطير الحركة في اطار معاداة اليهود ·· بل على العكس ، فقد تحججت السلطات الامبريالية بالطابع التحريضي لشعار المقاطعة واعتقلت عددا من المناضلين المعادين للامبريالية ، مثل « حمدي الحسيني » وعددا من انصاره ، الذين اتهموا زورا بالشيوعية وعلى اثر ذلك نظمت في مدينة يافا حركة جماهيرية واسعة للتنديد باعتقالهم واعلن الاضراب العام ··· » ·

وامام استمرار الاضراب واتساعه ، اضطرت السلطـات الامبرياليـــة « ··· لتحريك بارجة حربية وعدة طائرات عسكرية ··· في محاولة منها لارهاب الجماهير ··· وقدمت القيادات الاصلاحية العربية ، مرة اخرى ، مساعدة فعالة للامبريالية عندما حاولت التهويل من خطر الحركة ··· حيث ادعت بانها قد تحولت الى انتفاضة مسلحة وان فلاحي القرى القريبة من يافا قد قدموا بكثافة للمساهمة فيها ··· (وهكذا) استطاعوا القضاء علـــى الحركة الوطنية وتصفية الاضراب ومنع مظاهرات التضامن في المدن الاخرى ·· » ·

وبعد ان يذكـــر الكاتب بأن هذا الموقف الذي اتخذته القيادات العربيـــة من اضراب يافا ، كان يتوافق تماما « ... مع البيان الذي عممه المفتي الكبير على الجماهير ، والذي يطالبها فيه بالحفاظ على الهدوء ، خلال الفترة التي تبقى فيها لجنة التحقيق في البلاد ..» ، ينتقل الى تحليل دور الحزب الشيوعي « .. الذي قام بتوزيع عدة نداءات باللغة العربية يدعو فيها الجماهير الى تحويل الاضراب العام الى انتفاضة معادية للامبريالية ، وتشكيل لجان ثورية من العمال والفلاحين لنزع قيادة الحركة من ايدي القيادات الخائنة ، والنضال في سبيل الاستيلاء على اراضي المستوطنين الصهيونيين الاغنياء ... كما قام الحـزب بتوزيع عدة نداءات باللغة العبرية يحض فيها العمال اليهود على التآخي مع الحركة الثورية العربية .. » . وينهي الكاتب مقاله مؤكدا على ان « ... الجذرية المتواصلة للجماهير ، ستفتح في المرحلة القادمة من تطور الاحداث الثورية ، آفاقا اوسع امام قيادتها الثورية الواعية » .

★ ★

قبل التطرق لاهم الاستنتاجات التيتوصلناالليها خلال هذاالبحث ، سنحاولاستعراض اهم ما جاء في الوثيقة التي قيمت فيها اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية موقف الحـــزب الشيوعي الفلسطيني من حوادث هبة البراق (٢٦) .

بعد ان تحلل الوثيقة طبيعة الحركة الثورية في فلسطين وفي البلدان العربية ، ودور مختلف الطبقات الاجتماعية في الانتفاضة ، تنتقل الى تحليل دور الحزب الشيوعي ، منجزاته واخطاءه فتذكـــر بأن الانتفاضة « .. قد كشفت الجوانب الايجابيـــة لنشاط الحزب ، كما كشفت مكامن الضعف عنده .. فالانتفاضة فاجأت الحزب على حين غرة ، لانه مكـــون اساسا من العناصر اليهودية ويفتقد الى صلات وثيقة مع الجماهير العربية عموما ومـــع الفلاحين بصورة خاصة .. » . وقد اكدت الانتفاضة « .. مقدار صحة التعليمـــات المتكررة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية حول ضرورة تعريب الحزب . (ذلك) ان نواقص الحزب واخطاءه خلال الانتفاضة ، قد نجمت عن عجزه عن سلوك نهج واضح وصريح باتجاه تعريب الحـزب من القاعدة الـــى القمـــة . ففي الماضي كان الحزب يوظف قواه وامكاناته على نحو خاطيء ، اذ ركـــز نشاطـــه في المقـــام الاول بين العمـــال اليهود ، بدلا من توظيف اكثرية قواه وامكاناته في العمل بين جماهير العمال والفلاحين العرب . ولقـد فسرت عملية تعريب الحزب على انها عملية ضم آلية لعدد من الرفاق العرب الى اللجنة المركزية . ولم يفلح الحزب ببناء منظمات حزبية عربية قوية ، ومنظمات نقابيـــة عربية .. اما بالنسبة للعمل في صفوف الفلاحين والبدو ، فقد ساد جو من التشاؤم داخل الحزب . وقد ادى جو التشاؤم والتشكك من نتائج العمل وسط الجماهير العربية الى اتخاذ بعض الرفاق لمواقف انعزالية وسلبية ، والى استصغار الامكانات الثورية في المشرق والمبالغة بتاثيـر القوى الرجعية على الجماهير العربية وانتهاج اساليب روتينية وغير مرنة فـي التكتيـك تجاه الحركة الاصلاحية العربية وتجاه مجموعة حمدي الحسيني القومية . ان الاعضـــاء اليهود داخل الحزب وداخل اللجنة المركزية لم يدركوا دوما بأن دورهم تجـــاه العامـــل العربي وتجـــاه الحركة الشيوعية وسط العمال العرب ، يجب ان يكون دور « المساعد » ، وليس دور القائد ، وهذا ما اشار به لينين الى البلاشفة الروس الذين كانوا يعملون وسـط المجموعات القومية داخل الاتحاد السوفياتي . وبما ان الحزب كان يملك كادرا صغيرا من العمال العرب فقد وجد نفسه مقطوعا عن الحركة التي اخذته على حين غرة ، ولم يستطـــع التاثير على الجماهير الاساسية من العمال في المدن ، والجماهير الفلاحية في الريف .

وبهذا الخصوص يجب على الحزب ان يستخلص كافة العبر من الانتفاضة ·· » ·

وبعد ان تنتقد وثيقة الاممية الشيوعية الحزب الشيوعي لانه لم يلحظ التطور السريع للاحداث » ·· باتجاه حركة عربية شاملة ، معادية للامبريالية وفلاحية ··· ولم يتمكن بالتالي من طرح الشعارات التي تتطلبها المرحلة ·· (وهذا كله) يمكن تفسيره بالترددات الانتهازية اليمينية داخل الحزب ·· » ، تنتقل الى تحديد مهمات الحزب الثورية خلال المرحلة القادمة ·

المهمة الرئيسية والعاجلة هي « ·· التوجه بتصميم وجرأة باتجاه تعريب الحزب من القاعدة الى القمة · وبذل ما يلزم من جهد لانشاء نقابات عربية وعربية ـ يهودية · » اما المهمة الثانية للحزب فيجب ان تتركز على « ··· التغلب بأي ثمن على جو التشاؤم والسلبية داخله بصدد المسألة الزراعية ·· ويتوجب عليه انجاز برنامج زراعي يأخذ بعين الاعتبار المطالب الجزئية للفلاحين والبدو ·· » ·

وبعد ان تؤكد الوثيقة على ضرورة متابعة النشاط بين العمال اليهود وداخل النقابات الصهيونية الاصلاحية ، تطالب الحزب بالنضال في سبيل قيام اتحاد للاحزاب الشيوعية في البلدان العربية · وتنتهي الوثيقة بالتأكيد على ان هذه المهام لن تتحقق الا « ·· بشن نضال حازم ضد الانحراف اليميني داخل الحزب ·· » ، هذا الانحراف الذي يعبر عن نفسه « ·· بالاستخفاف بالامكانات الثورية ، وبالمعارضة الصريحة او المخفية لتعريب الحزب ، وبمقاومة شعار حكومة العمال والفلاحين ·· » · ويجب على الحزب في نضاله ضد خطر الانحراف اليميني « ·· الا يغفل في نشاطه من اجل الاممية الثورية ، خطر المبالغة اليسارية التي ترتكز على اهمال العمل وسط العمال اليهود ، والاستخفاف بدورهم التاريخي في خلق حركة عمالية جماهيرية وخلق فرع محلي للاممية الشيوعية في فلسطين ·· » ·

وتلاحظ الوثيقة اخيرا انه « ·· كان هناك تردد وغموض في بعض البلدان وفي بعض الصحف الشيوعية حتى داخل الاتحاد السوفياتي بالنسبة لتقييم طبيعة الحركة في فلسطين (خاصة) في بداية الانتفاضة ·· » · وتطالب فروع الاممية ومنظماتها الجماهيرية « ·· بالقيام بحملة حازمة لنصرة الحركة القومية العربية وضد نظام الرعب الابيض في فلسطين ، وضد دعاية المذابح التي تحث عليها الامبريالية البريطانية والبورجوازية الصهيونية والاممية الثانية ·· » ·

والآن ، ما هي اهم الاستنتاجات التي توصلنا اليها من خلال هذا البحث ··

اولا : موقف الحزب من الاحداث وتقييمه لها

اعتبر الحزب احداث اب بمثابة التعبير عن انتفاضة قومية عربية معادية للامبريالية، وربطها بسلسلة من النضالات العماليةوالفلاحية العربية الناتجة عن تفاقمالازمة الاجتماعية

في البلاد ، وتصاعد سياسة النهب الامبريالي واشتداد عدوانية الحركـــة الصهيونية خاصة ضد جماهير الفلاحين ٠

وقد انتقد الحزب الوجه السلبي للاحداث الناجم عن الانحراف في التوجه النضالي باتجاه الاقتتال الديني والعنصري ، هذا الانحراف الذي نتج عن لعبة خبيثة نسجت خيوطها الامبريالية البريطانية بالتعاون مع الفاشست الصهاينة من جهة ، ومع القيادة الاقطاعية ـ الدينية العربية من جهة اخرى ٠

لقد كانت العناصر الانتهازية اليمينية داخل الحزب (خاصة اعضاء لجنة الحـــزب في حيفا) ، هي الوحيدة التي اعتبرت الاحداث بمثابة التعبير عن مذبحة ضد اليهود ، ورفضت تقييم اللجنة المركزية للحزب باعتبارها التعبير عن حركة تحرر قومي للجماهيـــر العربية ٠ ولقد ساعدت المواقف الانهزامية والمتشككة التي أتخذتها هذه العناصر في الفتـرة التي سبقت اندلاع الحوادث ، في عدم تلمسها للطبيعة الثورية للاحداث ، وللعوامـــل الاجتماعية والسياسية التي فجرتها ٠

وهكذا نرى بأن الموقف الحقيقي الذي اتخذه الحزب الشيوعي في فلسطين من احداث اب ، يناقض تماماً ادعاءات « جوزيف برغر » ، ويفضح اكاذيبه وافتراءاته المغرضة ، كما يظهر خطأ الرأي الذي يتبناه بعض الكتاب العرب الذين يعتبرون بأن موقف الحزب من هبة البراق قد تغير بعد ان تسلمت قيادتـــه التوجيهات الصائبة من قيادة الاميـــة الشيوعية (٢٧) ٠

ثانيا : دور الحزب خلال الاحداث وامكاناته الفعلية في التاثير على مجراها ٠

ليس هناك من شك بان هبة البراق قد فاجأت الحزب الشيوعي في فلسطين ٠ وقـــد كانت المهمة الرئيسية للحزب بعد اندلاع حوادث اب الدامية السعيف ي سبيل دفع الانتفاضة في الاتجاه الثوري المعادي للامبريالية ضد محاولات حرفها في اتجاه الاقتتال الدينـــي والعنصري ، وذلك من خلال النضال لتحقيق التآخي الاممي بين الجماهير الكادحـــة العربية واليهودية ، ودفعها للعب دور مؤثر خلال الانتفاضة ، بهدف ضمان انتصارهـــا النهائي على طريق تحقيق الاستقلال التام لفلسطين ، وتحقيق مطالب الفلاحين العرب ٠

وعندما بدأت القيادات القوميةالعربية تتخوف من اتجـــاه الاحداث في الاتجـاه الثوري المعادي للامبريالية ، وتسعى للحد من اتساع الانتفاضة ، ناضل الحزب في سبيـــل دفع الجماهير العربية لتجاوز قياداتها ، وحثها على متابعة النضال ٠ وقد ساهم الحـــزب في عدد من النضالات الجماهيرية التي جرت في المدن (الاضراب العـــام في يافا) ، ودعم مجموعات الانصار الفلاحية في الارياف ٠ ويذكر الدكتور « عبد الوهاب الكيالي»(٢٨) ان (١١) عضوا من الاعضاء الاربعة والعشرين الذين كانت تتالف منهم لجنة سريـــة ارهابية ، مهمتها ارهاب واغتيال الاشخاص الذين يعملون ضد المصالح الوطنية (خلال احداث هبة البراق) ، كانوا اعضاء في الحزب الشيوعي الفلسطيني ٠

ومع ذلك كله ، لم يتمكن الحزب من لعب دور هام ومؤثر خلال الاحداث ، وهـــذا ما اعترفت به لجنته المركزية التي ارجعت ذلك الى ضعفه التنظيمي وعدم تمتعه بكفاحيـــة

عالية ، وعدم توقعه لتطور الاحداث السريع باتجاه انتفاضة حقيقية، بالاضافة الى نقص كادره العربي ، واصابته بضربة موجعة قبل ايام من اندلاع الاحداث (الاول من اب) ، افقدته عددا من كوادره • وقد حملت قيادة الحزب ، المعارضة الانتهازية اليمينية داخل صفوفه ، المسؤولية المباشرة في عدم تمكن الحزب من لعب دور مؤثرخلال الاحداث •

سنحاول التوقف قليلاً عند سببين من الاسباب : الاول ، الانحراف الانتهازي اليميني، والثاني ، نقص الكادر العربي •

يبدو انه كان هناك خطر اكيد من بروز اتجاه انتهازي يميني داخل الحزب ، راقه ظهور عدة افكار انهزامية • وهذا ما دفع بقيادة الاممية الشيوعية للتدخل المباشر اكثر من مرة ، ومطالبة اللجنة المركزية للحزب بالتصدي الحازم للعناصر الانتهازية اليمينية والعمل على فصلها من الحزب•وبهذا الصدد نعتقد ـ كما ذكرنا سابقا ـ بأن احد الاسباب التي تكون قد دفعت اللجنة التنفيذية للاممية الى ارسال احد مبعوثيها (شميرال) الى فلسطين ، هو خطورة هذا الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي • ومما يدعم هذه الفكرة ، ان مبعوث الاممية الى فلسطين هو نفسه الذي اوفد الى منغوليا لعرض مخاوف قيادة الاممية حيال ازدياد خطر الانحراف اليميني داخل صفوف الحزب الثوري الشعبي المنغولي • هذا وقد اشار قرار السكرتاريا السياسية للجنة التنفيذية للاممية الى اثر التيار اليميني في اعاقة الحزب الشيوعي في فلسطين عن لعب دور مؤثر خلال الانتفاضة •

غير اننا عند محاكمتنا ـ الان ـ لهذا التيار الانتهازي اليميني ، علينا ان نفصل بين الافكار الانهزامية التي كان يشيعها ومقاومته لعملية تعريب الحزب ، ورفضه اعتبار حوادث اب بمثابة التعبير عن حركة تحرر قومي للجماهير العربية من جهة ، وبين رفضه تبني بعض شعارات المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ، وخاصة شعار اقامة « حكومة العمال والفلاحين » من جهة اخرى •

وبمعنى آخر ، فاننا اذا حاكمنا هذا التيار على اضواء رفضه لقرارات المؤتمر العالمي السادس الخاصة « بحكومة العمال والفلاحين » ، فانه سيبدو لنا واقعيا ، ومتجاوزا للتطرف الذي حكم بعض قراراتذلكالمؤتمر•خاصة وان شعار « حكومة العمال والفلاحين» كان يطرح في تلك الفترة ، وكانه شعار مباشر قابل للتطبيق،وليس كشعار استراتيجيلمرحلة كاملة • فاليوم ، وفي ظروف التغيير العظيم لموازين القوى لصالح الاشتراكية والتحرر الوطني ، وحتى بعد تكون الدول القومية وانجاز مهمات الاستقلال السياسي ، لا تسقط الاحزاب الشيوعية العربية من حسابها التحالف مع اقسام من البورجوازية الوطنية ، ولم تصل بعد رغم كل ما انجزته ، الى رفع شعار اقامة « حكومة العمال والفلاحين » •

غير ان العناصر الانتهازية اليمينية قد اتخذت من معارضتها لقررات المؤتمر العالمي السادس المتطرفة ، منطلقا او مبررا لتشويه طبيعة نضال الشعب العربي الفلسطيني وانتفاضة ١٩٢٩ التحررية في اساسها •

السبب الثاني والاهم ، هو نقص الكادر العربي ، وهذا يطرح قضية معقدة ، هي

قضية تعريب الحزب الشيوعي في فلسطين (٢٩) ٠

لقد كان نقص الكادر العربي للحزب ، وضعف صلاته بالجماهير العربية ، وخاصة جماهير الفلاحين ، من اهم العوامل التي اعاقت الحزب عن لعب دور مؤثر خلال الاحداث وهذا ما اشارت اليه وثيقة الاممية الشيوعية ، التيطالبت قيادة الحزب بالعمل السريع والجدي في سبيل انجاز مهمة التعريب ٠

من جهة اخرى ، كان للطابع الانعزالي لتوجهات الحزب تجاه قيادة الحركة القومية العربية ، اثره في عدم تمكن الحزب من التاثير على توجهات هذه الحركة ٠ وقد شجع هذا التوجه الانعزالي للحزب ، سعي قسم من القيادات القومية العربية ، للتعاون الصريح مع الامبريالية البريطانية ، والوصول الى اتفاق معها ، يكون على حساب مصالح الجماهير خاصة بعد انعقاد المؤتمر العربي السابع ٠

الحواشـــي

١ ــ اننا لا نصدر لحكاما قاطعة بهذا الخصوص ٠ لقد اردنا فقط تبيان الاتجاه العام لاغلب الدراسات والابحاث التي تطرقت لهذا الموضوع ٠

٢ ــ لم تتسلم العناصر العربية مسؤوليات قيادية داخل الحزب الا خلال الفترة التي اعقبت هبة البراق ٠ وكان الحزب قد اوفد عددا من الكوادر العربية للتعليم « بجامعة كادحي الشرق » في موسكو ، في العام ١٩٢٧ ٠

٣ ــ اسمه الحقيقي « برزيلي » بولوني الاصل ٠ كان واحدا من ابرز قياديي الحزب الشيوعي في فلسطين ٠ كان يساهم بتأمين الارتباط بين الحزب الشيوعي فيفلسطين وبين مركز الاممية الشيوعية ٠ في اواخر العام ١٩٢٩ غادر فلسطين الى برلين (عصبة مناهضة الامبريالية) ، ومنها انتقل الى موسكو ٠ اعتقل في العام ١٩٣٥ وبقي في المنفى حتى العام ١٩٥١ ٠ بعد ان اعفي عنه هاجر الى بولونيا ومنها الى اسرائيل ، حيث يساهم بفعالية في حملات التشهير والطعن التي تشنها الاقلام الصهيونية ضد الماضي الثوري للحزب الشيوعي ، وذلك بعد ان ارتد عليه (حصلنا على المعلومات الخاصة بحياة « ج ٠ برغر » ، من مجلة ESPRIT عدد تموز ــ اب ، ١٩٦٧ ، ص : ٩٧) ٠

٤ ــ جوزيف برغر : « القطيعة مع الشيوعيين » ، في « الدفاتر الجديدة » LES NOU VEAX CAHIERS رقم ١٣ ــ ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤ ــ ٣٨ ٠

يتبنى الكاتب المغربي « عمار المطالبي»، وجهة النظر التي يعرضها « ج ٠ برغر » عن مساهمة اعضاء الحزب الى جانب الهاجانا ٠ (انظر : عمار الطالبي : « الطبقة العاملة الفلسطينية واليهودية وتنظيماتها » في شؤون فلسطينية ، رقم ١٥ ، تشرين الثاني ١٩٧٢ ، ص ١٧٥)٠ كما يتبنى الكاتب التروتسكي « ناتان فاينشتوك » (N. WEINSTOCK) في كتابه الصهيونية ضد اسرائيل ، وجهة النظر هذه ، التي اعتمدها بدوره عن « ج ٠ برغر » ٠

٥ ــ في منتصف اب العام ١٩٢٩ ،

وصل الى فلسطين ، قبل ايام قليلة من اندلاع الحوادث ، موفد خاص للاممية الشيوعية ، هو القائد الشيوعي التشيكي شميرال » (CHMERAL) ، عضو اللجنة التنفيذية للاممية • وقد كان الهدف من زيارته التباحث مع قيادة الحزب في فلسطين حول الاوضاع الداخلية للحزب، والالتقاء بعدد من العناصر الشيوعية العربية ، لدراسة امكانية اصدار جريدة حزبية ، والاستفسار منهم عن اوضاع الفلاحين العرب • وشميرال هو احد مؤسسي الحزب الشيوعي التشيكي ، مناضل بارز في صفوف الاشتراكية الديمقراطية التشيكية قبل الحرب العالمية الاولى (١٨٨٠ ـ ١٩٤١) • في العام ١٩١٦ كان يترأس اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكي الديمقرطي التشيكوسلوفاكي • ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي وانتخب عضوا في لجنته المركزية عشية تأسيسه في العام ١٩٢١ • في العام ١٩٢٤ انتخب عضوا في مجلس رئاسة الاممية الشيوعية ، حيث تم تكليفه اعتبارا من العام ١٩٢٧ بالاهتمام بقضايا الحركة الشيوعية في الصين والشرق الاقصى • سافر الى منغوليا في العام ١٩٢٨ على رأس وفد خاص من الاممية الشيوعية ، كانت مهمته طرح مخاوف قيادة الاممية امام ازدياد خطر الانحراف اليميني داخل صفوف الحزب الثوري الشعبي المنغولي •

اننا نعتقد بأن بروز اتجاه يميني انهزامي داخل الحزب الشيوعي في فلسطين ، في الفترة التي اعقبت انعقاد المؤتمر السادس العالمي للاممية الشيوعية لم يكن بعيدا عن هدف الزيارة التي قام بها « شميرال » الى فلسطين •

ـ معلوماتنا عن زيارة « شميرال » الى فلسطين حصلنا عليها من المقال السابق المذكور لـ « جوزيف برغر » • اما المعلومات الخاصة بحياة « شميرال » قد حصلنا عليها من مجلة « الديمقراطية الجديدة LA DEMOCRATIÉ NOUVELLE عدد خاص ، اكتوبر ١٩٦٥ ، ص / ٤٦ •

٦ ـ **اميل توما** : جذور القضية الفلسطينية ، اصدار المكتبة الشعبية في الناصرة ، ص : ١٦٣ ـ ١٦٤ •

٧ ـ **شميرال** : « لننتبه اكثر الى حوادث فلسطين والبلدان العربية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١١٢ ، ٩ نوفمبر ١٩٢٩ ، ص : ١٥١٢ •

٨ ـ كانت تصدر دوريا هرتين في الاسبوع ، عن قيادة الاممية الشيوعية خلال الفترة الواقعة بين العام ١٩٢١ والعام ١٩٣٩ • وكانت تظهر باللغات الالمانية والانكليزية والافرنسية •

كان « موسى خليل » قد اعتمد على مادة هذه المجلة في انجاز بحثه القيم عن « الحزب الشيوعي الفلسطيني ١٩١٩ـ ١٩٤٨ » (علما باننا لا نشاطره الكثير من استنتاجاته) ، والذي ظهر في العدد (٢٩) من مجلة « شؤون فلسطينية » •

وكم تمنينا لو استطاع كاتب البحث المذكور تحديد مراجعه من مادة المجلة بصورة افضل • فهو كان يورد رقم المجلة وسنة صدورها ورقم الصفحة ، ولكن دون ان يحدد عنوان المقال بحدذاته ، واسم كاتبه والطبعة التي ظهر فيها • لنأخذ مثالا على هذا النقص في تحديد المصادر: يستشهد « موسى خليل » بعدد مجلة « المراسلات الصحفية الدولية » رقم ٥٠ ، العام ١٩٢٩ ، ص : ١٠٥٨ فيذكر بأن الحزب الشيوعي الفلسطيني قد اعتبر اضطرابات البراق « في مراحلها الاولية كمذبحة ضد اليهود ، كما اعتبر العرب جمهور فاشي قوامه فلاحون محمديون ،

ويدو بقيادة رجال دين جهلة ، وزعماء اقطاعيين وعناصر بورجوازية »· (راجع موسى خليل ، المقال المذكور ، في « شؤون فلسطينية » رقم ٣٩ ، تشرين الثاني ١٩٧٤ ، ص : ١١٧) · اطلعنا على العدد ٥٠ ، العام ١٩٢٩ ، من الطبعة الفرنسية للمجلة تاريخ ١٥ حزيران ، وكان يتضمن مقالا عن فلسطين بتوقيع « بوب » عنوانه : « النضال ضد الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي في فلسطين » (سنعود لاحقا ، خلال بحثنا ، لاستعراض محتوى هذا المقال) · وطبعا لم يكن هذا المقال يتعرض لحوادث هبة البراق لانه ظهر قبل اشهر من حدوثها · عند ذلك افترضنا بأن كاتب المقال المذكور قد اعتمد على طبعة اخرى من المجلة (غير الطبعة الفرنسية) ، فراجعنا كافة المقالات التي ظهرت على صفحات المجلة وتطرقت لهبة البراق ، فلم نعثر على اي اثر للاستشهاد الذي اورده كاتب المقال ·

٩ ـ خلال الفترة الواقعة بين العام ١٩٢٤(تاريخ اعتراف الكومنترن بالحزب الشيوعي في فلسطين) وبداية الثلاثينيات (الفترة التي اعقبت المؤتمر السابع للحزب) كان «جوزيف برغر» هو المراسل الرئيسي لمجلة « المراسلات الصحفية الدولية » في فلسطين · وسنرى خلال مجرى هذا البحث كيف ان هذا « القائد الشيوعي » قد قام بتزييف حقائق تاريخية كان قد اشاد بها ، بل ساهم في صنعها في الماضي ، وذلك بعد ان ارتد على الحزب وارتمى في احضان اجهزة الدعاية الصهيونية ·

١٠ ـ المعلومات عن المؤتمر العالمي السادس حصلنا عليها من المراجع التالية :

ـ الاممية الشيوعية ، بحث تاريخي موجز ، صادر عن معهد الدراسات الماركسية ـ اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، دار التقدم ، موسكو · (باللغة الاسبانية) ·

ـ جورج كونيو : G. COGNIOT الاممية الشيوعية ، EDITIONS SOCIALES باريس ، ١٩٦٩ ·

ـ المراسلات الصحفية الدولية ، عدد خاص عن « برنامج الاممية الشيوعية »، ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٨ ، رقم ١٤١ ·

ـ موضوعات ومقررات المؤتمر السادس للاممية الشيوعية ، مكتب المنشورات ، باريس · (بدون تاريخ) ·

١١ ـ ساهم في جلسات هذا المؤتمر ولاول مرة مندوب عن الحزب الشيوعي في فلسطين تحت اسم « حيدر » ، هو « اولف افيرباخ » WOLF AVERBUCH ، او « ابو زيام » · (سنتعرض في بحث لاحق لمساهمة المندوب الفلسطيني في هذا المؤتمر) ·

١٢ ـ قدم « كوسنين » امام المؤتمر التقرير الخاص بقضية المستعمرات ، وقد اعترف هذا القائد الشيوعي خلال نقاشات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ،بالطابع الانعزالي لتقييم دور البورجوازية الوطنية من قبل المؤتمر العالمي السادس للاممية· (راجع الاممية الشيوعية ، معهد الدراسات الماركسية ـ اللينينية ، المرجع المذكور ، ص : ٢٨١) ·

١٣ ـ ليس في نيتنا رسم صورة شاملة للاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تسود في فلسطين خلال تلك الفترة · سنركز فقط على اهم الملامح والخصوصيات التي كانت تميز هذه الاوضاع ، وقد اعتمدنا في ذلك على المراجع التالية :

ـ الدكتور اميل توما : جذور القضية الفلسطينية، المكتبة الشعبية في الناصرة٠
ـ عبد القادر ياسين : كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨، مركز الابحاث الفلسطيني ، بيروت ، ايار ١٩٧٥ ٠
ـ محمد حافظ يعقوب : نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٤٨ (بحث سوسيولوجي) ، دار الطليعة ، بيروت ، ايلول ١٩٧٢ ٠
ـ الدكتور عبد القادر الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، تشرين الثاني ١٩٧٠ ٠
ـ ج ٠ ب (J. B.) : « حزب العمال والامبريالية البريطانية في الشرق الاوسط، في المراسلات الصحفية الدولية رقم ٤٤ ، ٢٩ ايار ١٩٢٩ ، ص : ٦٣٠ ٠
ـ ا ٠ م (A. M.) : « الافاق الثورية في فلسطين » في الاممية الشيوعية ، رقم ١٩ ، ١ تشرين اول ١٩٢٩ ، ص : ١٢٧١ ـ ١٢٨٣ ٠
(كان « جوزيف برغر » ، يصدر مقالاته على الاغلب بالاحرف الاولى من اسمه : ج ٠ ب) ٠
١٤ ـ اعتمدنا في تعرفنا على الاوضاع الذاتية للحزب وعلى توجهات سياسته خلال الفترة التي سبقت اندلاع الحوادث على المقالات التالية :
ـ ن ٠ م N. M. يافا : « الكونغرس الثالث للحزب الشيوعي في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٢، ١٢ كانون الثاني ١٩٢٩ ، ص : ٣٤ ٠
يوب (BOB) يافا : « النضال ضد الانحراف اليميني داخل الحزب الشيوعي في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٥٠ ، ١٥ حزيران ١٩٤٩ ، ص : ٧٢٨ ٠
(لم نتمكن من التعرف على شخصية كاتب المقال) ٠
ـ ج ٠ ب J. B. القدس : « النضال في سبيل الارض في فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٦٢ ، ٢٤ تموز ١٩٢٩ ، ص : ٨٦٩ ٠
ـ يوب (يافا) : « الاول من اب في فلسطين » في المراسلات الصحفية الدولية، رقم ٧٧ ، ٢٨ اب ١٩٢٩ ، ص : ١٠٣٩ ٠
١٥ ـ « شعارات بمناسبة الاحتفال بالذكرى العاشرة لتأسيس الاممية الشيوعية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٢١ ، ٦ اذار ١٩٢٩ ، ص : ٢٥٩ ٠
١٦ ـ برانديلر : احد قادة الحزب الشيوعي الالماني ٠ كان واحدا من ممثلي الاتجاه اليميني خلال مناقشات المؤتمر العالمي السادس للاممية الشيوعية ٠
١٧ ـ اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية : « قرار حول اليوم العالمي للنضال ضد الحرب الامبريالية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٦٤ ، عدد خاص عن الجلسة العاشرة للجنة التنفيذية للاممية الشيوعية ، ٢٨ تموز ١٩٢٩ ، ص : ٨٨٢ ٠
١٨ ـ البرافدا (١٨ اب) : « نتائج اليوم الاحمر العالمي » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٧٩،٣١ اب ١٩٢٩، ص : ١٠٨١ ٠
١٩ ـ الايني ALINI : « حوادث فلسطين » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٨٠،٤ ايلول ١٩٢٩ ، ص : ١٩٩٠ ـ ١٠٩١ (لم نتمكن من التعرف على شخصية هذا الكاتب ، الذي كان يرسل مقالاته من القدس) ٠
٢٠ ـ ج ٠ ب (J. B.) (القدس) : « المذبحة في الارض المقدسة » في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٨٤ ، ١١ ايلول ١٩٢٩ ، ص ص : ١١٥٥ ـ

١١٥٦ ٠

٢١ ـ اليني (القدس : « الاوضـــاع السياسية في فلسطين » في المراســلات الصحفية الدولية ، رقم ١٤،٨٦ ايلول ١٩٢٩ ، ص ص : ١١٧٣ ـ ١١٧٤ ٠

٢٢ ـ ج ٠ ب (القدس) : « عودة « الســلام » الـــى فلسطيـــن » فـي المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٢،٩٨ تشرين اول ١٩٢٩ ، ص ص : ١٣٤٠ ـ ١٣٤١ ٠

٢٣ ـ بوب (يافا) :«الحزب الشيوعي الفلسطيني والانتفاضة العربية » ، فـي المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١٠٦ ، ١٩ تشرين اول ١٩٢٩ ، ص : ١٤٦٠ ٠

(لم يحدد كاتب المقال التاريخ الـذي عقد فيه الاجتماع الموسع للجنة الحـزب المركزية ٠ اذا اخذنا بالاعتبار تاريـــخ ظهور المقال على صفحـــات المجلـــة ، بامكاننا الاعتقاد بان اجتماع اللجنـــة المركزية قد انعقد في اواخر شهر ايلول او خلال الايام الاولى من شهر تشريـن الاول) ٠

٢٤ ـ ج ٠ ب (القدس) : « مشانـق وسياط ماكدونالد في فلسطين » ، فـــي المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١١٢ ، ٩ تشرين الثاني ١٩٢٩ ، ص : ١٥١١ ٠

٢٥ ـ ج ٠ ب (القدس) : « نضالات الانصار والجماهير في فلسطين » ، فـي المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١٢٤ ، ٨ كانون الاول ١٩٢٩ ، ص : ١٦٥٣ ٠

٢٦ ـ في ١٦ تشرين الاول ١٩٢٩ ، اقرت السكرتاريا السياســـة للجنـــة التنفيذية للاممية الشيوعية قرارا حـول « الحركة الانتفاضية في عربستـان » ٠ (هكذا جاءت في النص والمقصود بـلاد المشرق العربي) ٠ وقد ظهر القسم الاول من هذا القرار ـ الوثيقة في العدد(١١) من مجلة المراسلات الصحفية الدولية ، تاريخ ٥ شباط ١٩٣٠ ، ص : ١١٦ ٠ اما القسم الثاني فقد ظهر في العدد (١٢)من المجلة ، تاريخ ٨ شباط ١٩٣٠ ، ص ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ٠ وكان « فواز طرابلسي » قد ترجم قسما هاما من هذا القـرار ـ الوثيقة ، ولكنه لم يحدد المصدر الـذي اعتمده ٠

(راجع فوازطرابلسي : « الاممية الشيوعية وقضية فلسطين » ، في كتاب المقاومة الفلسطينية الواقع والتوقعات ، كتاب خاص صادر عن مجلة دراســـات عربية ، دار الطليعة ، بيروت ، تمـــوز ١٩٧١) ٠

لن يكون في مجال بحثنا هذا تحليـــل هذه الوثيقة ٠ سنتعرض فقـط لتقييـــم قيادة الاممية الشيوعية لـدور الحـــزب الشيوعي الفلسطيني خلال احـداث اب ٠

٢٧ ـ يعتقد بعض الكتاب ان الحـزب الشيوعـــي الفلسطينـــي كـــان قـــد اعتبـــر احداث اب بمثابـــة التعبيـر عن مذبحة ضهد اليهود ، ولم يعدلموقفه هذا ويعتبر الاحداث بمثابة التعبير عـن انتفاضة قومية عربية ،الا بعد ان استلم التوجيهات الصائبة من قيادة الاممية الشيوعية ٠ يكفي لاثبات خطأ هذا الرأي، مراجعة المقالات التي ارسلها قادة الحزب الى مجلة المراسلات الصحفية الدوليـة بعد ايام قليلة من اندلاع الحوادث ، وقبل عدة اسابيع من اعلان الموقف الرسمـــي لقيادة الاممية الشيوعية ٠

٢٨ ـ انظر : عبد الوهـاب الكيالي ، المرجع المذكور سابقا ، ص : ٢٤٩ ٠

٢٩ ـ تحتاج قضية تعريب الحـــزب الشيوعي الفلسطيني الى دراسات خاصة ومعمقة ، لا يستوعب لها مجـــال هـــذا البحث ، خاصة وانها كانت من اهـــم

القضايا التي جابهها الحزب طوال فترة العشرينات ٠

يقول مايرفيلنر : « ٠٠ وحقيقة ان الحركة الشيوعية في فلسطين قد بدأت بين العاملين اليهود فقط ، صعبت في البداية الفهم الكامل لمجموعة من المسائل النظرية والسياسية ٠٠ » ٠ (انظر مايرفيلنر : خمسون سنة من نضال حزبنا الشيوعي ، منشورات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكاح)، حيفا ١٩٧٠) ٠

اننا نعتقد بأن مسالة التعريب ـ وهي ضرورة تحويل الحزب الى منظمة قادرة على العمل في وسط الجماهير العربية وخاصة جماهير الفلاحين ـ كانت احدى اهم هذه المسائل التي صعب فهمها ، بسبب جملة من العوامل الذاتية والموضوعية ٠

ملاحظة : لقد اعتمدنا على الطبعة الفرنسية من مجلة المراسلات الصحفية الدولية ٠

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail) : Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل٠ل٠ في لبنان
٤ ل٠س٠ في سوريا
٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق
٨ دراهم في دولة الامارات العربية
٤ ١/٢ ل٠ل٠ في سائر الاقطار العربية

Bibliotheca Alexandrina
0535837